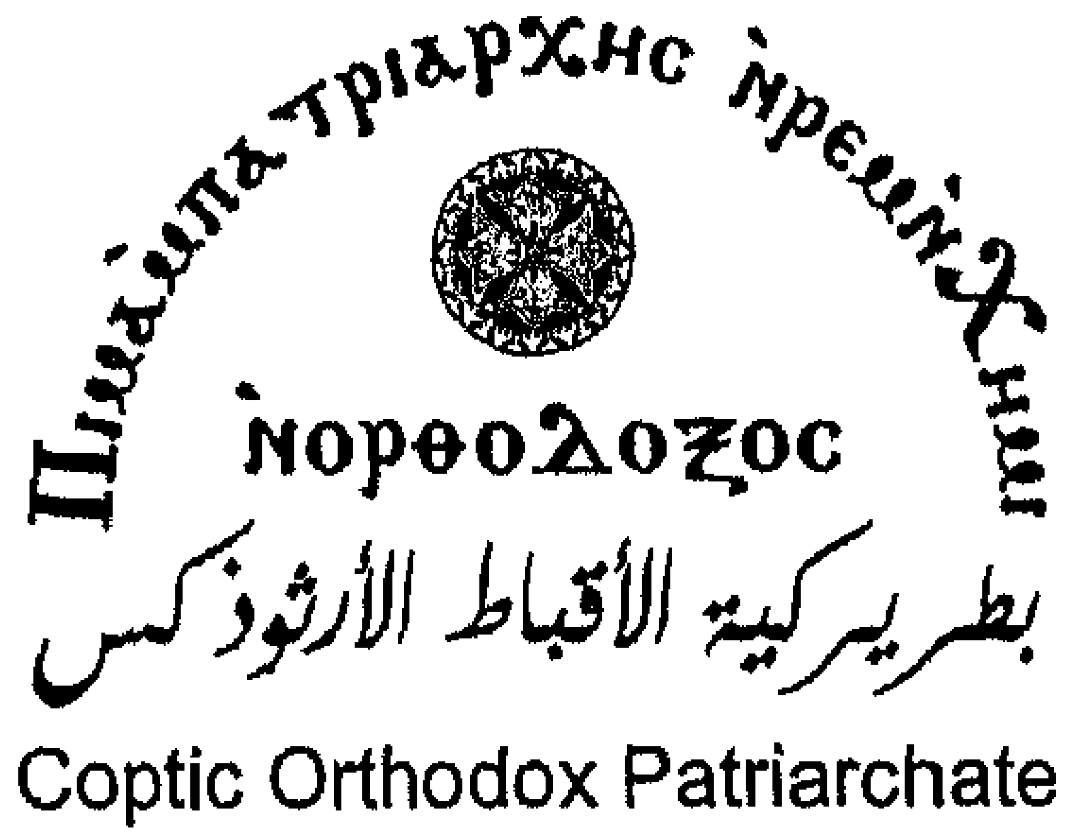
المقالات الأسبوعية
المنشورة بجريدة الجمهورية

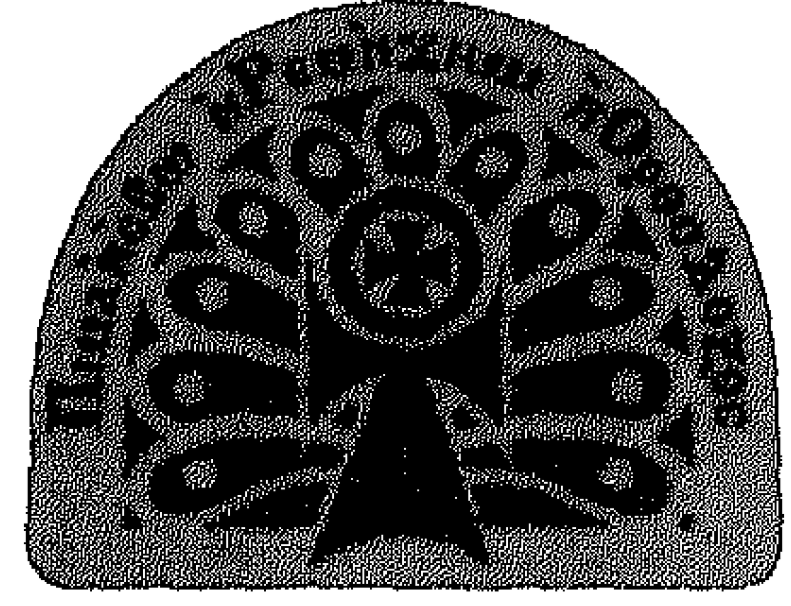


بقلم
قداسة البابا شنوده الثالث



المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي




The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

المقالات الأسبوعية
المنشورة بجريدة الجمهورية

بقلم

قداسة البابا المُعظَّم
الأنبا شنوده الثالث

اســـم الكتــاب: المقالات الأسبوعية المنشورة بجريدة الجمهورية
بقلم قداسة البابا شنوده الثالث

الطبعـــــــة: الأولى، فبراير ٢٠١٢

الناشـــــــر: المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي بالأنبا رويس

فصل ألوان وطباعة:

مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط

موبايل: ٠١٢٠٥٥٥٠٤٤١ & ٠١٢٠٥٥٥٠٤٤٢

تليفاكس: ٠٣ ٤٥٩٦٤٥٢

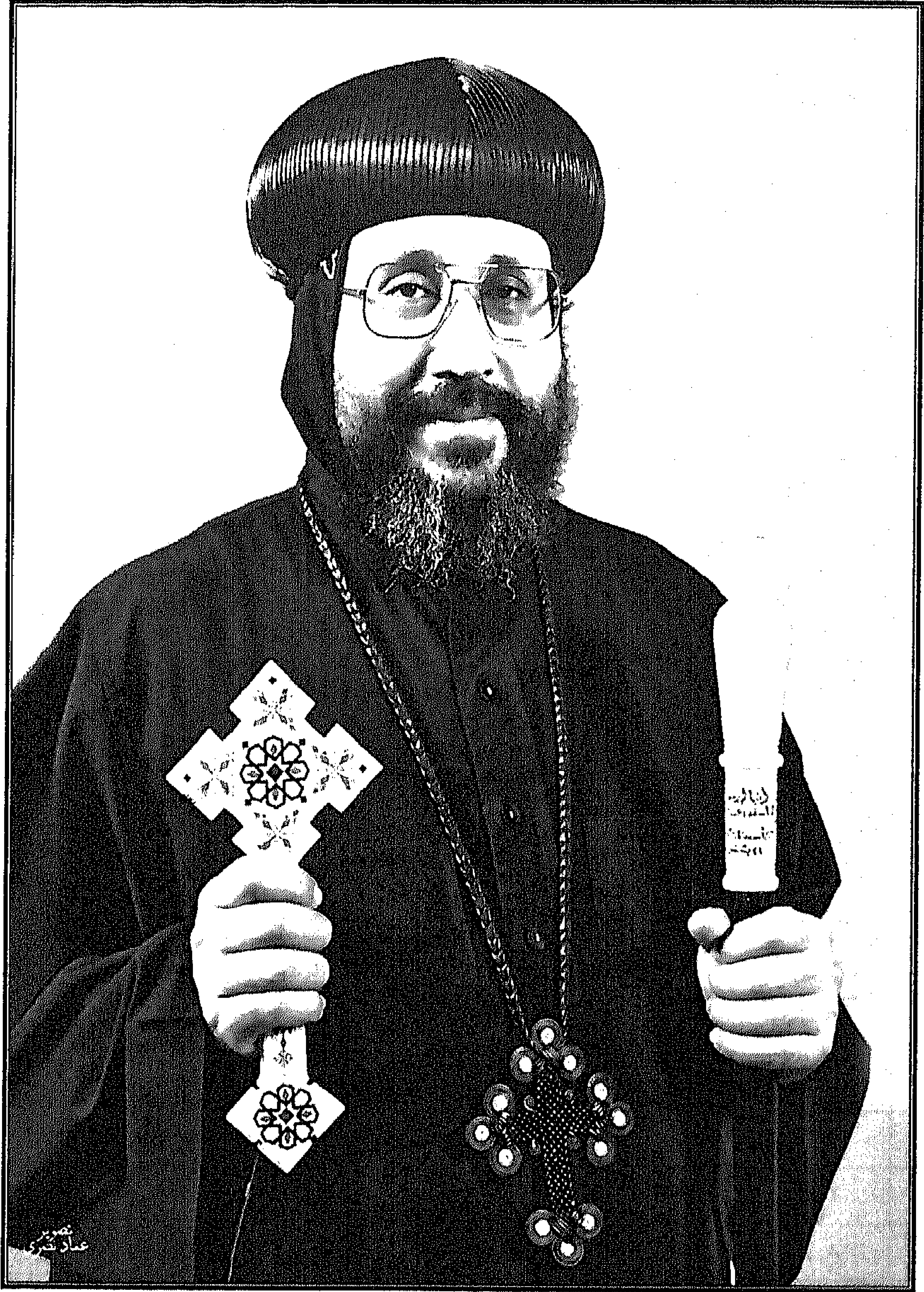
رقـــم الإيـــداع: ٢٠١٢/٨٥٩٤



صاحب الغبطة والقداسة

البابا المُعظَّم الأنبا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧



نيافة الحَبر الجليل الأنبا إرميا

الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

الفهـرس

مقدمة

....

كانت جريدة الجمهورية أولى الصحف اليومية التي يكتب فيها قداسة البابا شنوده الثالث مقالة أسبوعية، عقب جلوسه على الكرسي البابوي في ١٤ نوفمبر ١٩٧١م. وقد كَتب في الفترة الأولى ٣٢ مقالة، بدأها في ٢٨ نوفمبر ١٩٧١م تحت عنوان: "بين الصمت والكلام" وكان آخِرها في ٩ يوليه ١٩٧٢م بعنوان: "رحلة الخبر إلى أُذنيك". وقد تمّ تجميعها ونشرها من قَبل في عام ١٩٨٥م.

ثم عاود قداسته الكتابة في جريدة الجمهورية بداية من ٩ يونيه ٢٠٠٢م وحتى ٧ ديسمبر ٢٠٠٤م، وخصّها بـ ١٢٤ مقالة، تنوّعت بين ما هو روحي وديني، وبين ما يَخُصّ الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من تنوّعات جادّة وطريفة.

فكَتبَ قداسته عن: الأمثال الشعبية، وأعجب ما في طبيعة الإنسان، والخوف .. أسبابه وأنواعه وعلاجه، وعن الكذب والشيطان وفوائد النسيان والبشاشة وغلطة العمر والحكمة والصلاة وغيرها.

ونحن نُعيد نشر هذه المقالات التي كُتِبت في جريدة الجمهورية، ونرجو من الرب أن يستخدمها لمنفعة كل مَنْ يقرأها من أبناء هذا الوطن، الذي يُحبّه قداسة البابا شنوده الثالث، ويُبادله المصريون حُبّاً بحُبٍّ.

١٤ أمشير ١٧٢٨ش
الموافق ٢٢ فبراير ٢٠١٢م
تذكار نياحة القديس
ساويرس بطريرك أنطاكية

الأنبا إرميا
الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث
ونائب رئيس المركز الثقافي القبطى الأرثوذكسى بالأنبا رويس

٢٠٠٢/٥/٣٠

البابا شنوده يفتح عقله وقلبه



نشكر الرئيس مبارك .. على عودة الأوقاف القبطية.
حقاً!.. مصر نسيج واحد .. نحن دائماً مع الحكومة.
الطلاق ورد في الإنجيل أربع مرات .. وأيضاً لعنة الزنا.

فتح قداسة البابا شنوده الثالث عقله وقلبه للكاتب الصحفي سمير رجب وتحدّث بصراحة مُطلَقة عن كل القضايا المُثارة.

قال: إن الرئيس حسني مبارك قائد لا يعرف التعصُّب ولا يُفرِّق بين مواطنيه، وأن علاقتي بالرئيس مُبارك مُمتازة وطيبة جداً.

قال قداسة البابا شنوده بصراحة مُطلَقة: إنّ الطلاق ولعنة الزنا وردا في أربعة مواضع في الإنجيل. وهناك نوعان من الزنا.. عملي بأن يُضبَط اثنان في ارتكاب الفعل أو حُكمي من خلال دلائل تُثبِت الزنا، مثل الخطابات العاطفية أو المكالمات التليفونية المُسجّلة.

أضاف قداسة البابا شنوده: إنّ الخُلع غير موجود في الإنجيل، إلاّ أننا نطبّقه مؤقتاً على المسيحيات حتى يصدر قانوننا الخاص.

البابا شنوده .. يفتح عقله وقلبه لـ "سمير رجب":

علاقتي بالرئيس مبارك .. مُمتازة وطيبة جداً

نشكر جهوده المُخلِصة .. لتيسير بناء وترميم الكنائس

حل مشكلة الأوقاف القبطية .. لأول مرة منذ مئات السنين

أتفق مع علماء الإسلام .. الزواج العُرفي نوع من الزنا

لا مانع من تطبيق "الخُلع" مؤقتاً للمسيحيات .. حتى يصدر قانوننا الخاص

الوظيفة الآن مسألة قُدرات .. وليست شهادات

ليس للمسيح إخوة .. ولا العذراء تزوّجت

مَنْ يتكلّم في هذا الموضوع .. لا بد أن يكون دارساً ولا يعتمد على كتاب لطائفة مُعيّنة

كنائسنا في الخارج .. للحفاظ على أولادنا خلقياً وروحياً ووطنياً

شارك في الحوار:

محمود نافع

.. وحضره من الكنيسة:

**** الأنبا يوأنس (الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا)**

**** القمص إرميا آفا مينا (سكرتير قداسة البابا)**

**** هاني عزيز (أمين عام الاتحاد العام للمصريين بالخارج)**



في جلسة ودّيّة .. وبروحه السّمِحَة التي يعرفها كل مصري ..

فتح البابا شنوده قلبه وعقله .. وتحدّث بكل صراحة عما يشغله..

عن مصر التي يصفها دائماً بأنها: "وطنٌ يعيش فينا، وليست وطناً نعيش فيه"..

عن الرئيس مبارك الإنسان.. الذي لا يعرف أي معنى للتعصُّب.

ولا يُفرِّق بين مواطنيه على أساس الدين.. عن الخط الهمايوني وبناء الكنائس..

عن النتائج السلبية لمشكلة البطالة وكيفية حلّها.. عن أوقاف الأقباط ..

وعن أقباط المهجر .. وما تردّد أخيراً عن وجود إخوة للمسيح.

في كل نقطة من هذه النقاط. كان البابا واضحاً وصريحاً.. ولم تُفارقه ابتسامته المَرِحَة.. حتى وهو يتحدّث عن بعض السلبيات التي يتمنّى أن يتجاوزها المجتمع.. مثل ضعف تمثيل الأقباط في مجلسي الشعب والشورى والمجالس المحلية، وعدم نجاح العدد الكافي منهم في الانتخابات.. وأيضاً وهو يتحدّث عن مهامه التي اتسعت بعدما تم افتتاح عشرات الكنائس في أمريكا وكندا والدول الأوروبية والعربية والأفريقية.

تحدّث البابا في أمور الدين والدنيا.. في أمور التشريع والكهنوت والسياسة والانتخابات.. وأثبت أنه مُتابع جيّد لكل ما يدور على الساحة.. داخلياً وخارجياً.

والآن.. إلى تفاصيل الحوار:

* سمير رجب: قضية البطالة من القضايا المُلحّة جداً في مصر الآن. ولها آثار وانعكاسات كثيرة في المجتمع. والدولة من جانبها تسعى جاهدة لتعيين الخريجين في وظائف حكومية، أو خَلق فُرص عمل لهم في مشروعات سياحية وإنتاجية بمرتبات مجزية، وهناك مشروع مبارك لتمليك الأراضي للشباب، ومع كل هذا الجهد ما زالت البطالة تُمثِّل مشكلة كبيرة.. هل لديكم اقتراحات وإسهامات لحلّ مشكلة البطالة؟!

** قداسة البابا: موضوع البطالة يكاد يكون من المشكلات القويّة المُعاصرة.. وله نتائج كثيرة ومتفرِّعة.. أولى هذه النتائج شعور الخريج الذي تعلّم وذاكر وامتحن سنوات عديدة بالإحباط حينما لم يجد عملاً، ولعلّه يتساءل: ما فائدة كل هذا التعليم؟!.. وهناك فكاهة سائدة حالياً تقول: "ما كان يتعلّم كورة أحسن ليضمن لنفسه مستقبلاً اقتصادياً أفضل من الجامعة".

النتيجة الثانية أن الخريج يجد نفسه في فراغ كبير.. ليس لديه ما يشغل وقته؛ لأنه لا يوجد عمل.. وإذا كان العقل بلا عمل يأتي الشيطان ليقول له سأُسليك في هذا الوقت، وهنا يمكن أن يتحوّل هذا الفراغ إلى ضياع.. فإمّا أن يتّجه إلى تناول المخدرات لكي ينسى التعب الذي هو فيه.. ليتحوّل إلى الإدمان مع أصدقاء السوء.. وإمّا أن يتحوّل إلى الجريمة.. وإمّا أن يتحوّل إلى التطرُّف. والتطرُّف أنواع.

من نتائج البطالة أيضاً أزمة الزواج بالنسبة للبنات.. فالخريج الذي لا يجد عملاً لا يستطيع أن يبني بيتاً أو يرعى أسرة أو يتزوّج ويصرف على امرأة وأولاد .. ولذا يتأخّر سنّ الزواج عند الفتيات وهذا أمر له نتائجه السيئة وربما يؤدِّي إلى مشاكل أخلاقية.. حينما تجد الفتاة أنها تسير في طريق العنوسة أو أنها لم تجد من يهتم بها ويرضى بها شريكاً لحياته أو يتحوّل الأمر إلى مشكلة أخرى وهى الزواج العُرفي.

.. إذ لا يجد خريج الجامعة إمكانية له للزواج وتكوين أسرة، ولا تجد الفتاة إمكانية لها للزواج بسبب عدم القدرة الاقتصادية. فربما يلجأ الاثنان إلى الزواج العرفي الذي أعتبره ومعي قادة الإسلام نوعاً من الزنا؛ لأنه ليس زواجاً أمام الهيئات الدينية وليس موثّقاً أمام الدولة.. ولا يوجد ضمان للنسل الذي ينتج عنه ونسبة هذا النسل إلى أب وأم غير موثّق زواجهما.. وتحدث مشكلة.. والمشكلة هنا لا تكون فقط في الزواج الخاطئ وإنما في محاولة إراحة الضمير بأن الاثنين يعيشان في وضع رسمي يُسمّيانه زواجاً.

كل هذا يأتي من البطالة.. ونلاحظ أن عدد المُعيّنين في الوظائف لا يتناسب إطلاقاً مع مئات الآلاف التي تتخرّج كل عام.. بل إننا للأسف الشديد نجد مشكلة أخرى بجوار البطالة وهى مشكلة استغناء بعض الشركات والمصانع عن كثير من موظفيها مع مشكلة أخرى وهى المعاش المُبكِّر.. فالذي يحصل على معاش مُبكِّر لا يحصل في نفس الوقت على إيراد يكفيه في حياته، نتيجة لِمَا يُصرَف له في معاشه المُبكِّر.

كل هذا يدعونا إلى أن نفكِّر في كيف تحلّ مشكلة البطالة هذه؟! ولا نقصد أن الحكومة فقط هى التي تحلّ هذه المشكلة إنما نقصد أن يتعاون المجتمع كله في طريقه لحلّ مشكلة البطالة.

عندنا في الكنيسة نحاول أن نوجِد لوناً من التدريب المهني على صناعات مُعيّنة، والدولة أيضاً دخلت في موضوع الصناعات الصغيرة التي يمكن أن تعطي للشباب.. والصناعات هذه تحتاج إلى تدريب وحنكة وخبرة.. لأنه ما أسهل أن يفقد الشاب رأسماله إن لم تكن عنده خبرة في الصناعة.. وربما يتكبّد ديوناً أيضاً.. فهى تحتاج إلى إرشاد مستمرّ وإلى خبرة في الإدارة وخبرة فنية في الصنعة.. وهذا الأمر يحتاج أيضاً إلى تفكير واسع في نوع الصناعات الصغيرة التي يمكن أن يعمل فيها الشباب.. وقد تكون على ألوان مُتعدِّدة تتناسب مع قدرة كل شخص وهوايته وطريقة استعداده للوظيفة الصغيرة هذه..

غير أن موضوع الصناعات الصغيرة يُدخلنا إلى مشكلة أخرى وهى التسويق.. فمن الممكن أن الإنسان ينتج ولا يجد سوقاً يصرف مُنتَجه فيه، وهذا يحتاج إلى معونة حكومية في طريقة التسويق، سواء على المستوى المحلّي داخل البلاد أو عن طريق التصدير، إذا كان في مستوى الإتقان الذي يصلح للتصدير.

هناك دولة مثل الصين تعدادها يزيد على مليار وربع المليار نسمة، وكل واحد من السكان يجد له عملاً يعمله، وأحياناً العمل يكون على طريقة ما يمكن أن يسمى بالكمية الضخمة للإنتاج.. مثلاً أشخاص يتناولون صنع عقارب الساعات.. وآخرون يتناولون صنع مينا الساعات.. والبعض يتناول أجزاء أخرى .. ثم تجمع كل هذه الأشياء بواسطة أشخاص يتولون التركيب.

ونفس الشيء بالنسبة للسيارات.. لقد قمت بزيارة بعض هذه المصانع ليس في الصين وإنما في أمريكا وهى عبارة عن قطع مُعيّنة ويتولى البعض تركيبها وكل مجموعة تختصّ بقطعة مُعيّنة في السيارة.

العمالة الفنية

بعد هذا يأتينا فكر آخر وهو العمالة الفنية اللازمة للعصر الذي انتشرت فيه التكنولوجيا بهذا القدر الجبار.. عندنا عمال لكننا نحتاج إلى عمال يتقنون التكنولوجيا الحديثة..

نحن لدينا عمال كثيرون ولكنهم ليسوا على المستوى، فيحتاج الأمر إلى عمال ومهندسين على مستوى التكنولوجيا الحديثة.

أتذكّر في إحدى المرّات مُنذ عشرات السنين .. كنت في الدير وعندنا مولد كهربائي تعطّل وكان من زوار الدير مهندس كهربائي، ولم يستطِع أن يُصلِح المولد الكهربائي فقلت له لماذا؟ فقال تعبيراً غريباً أذكره في مناسبة مُنذ حوالي ٣٠ سنة .. قال لي: "إحنا مهندسين على الورق فقط ندرس في الورق وبطريقة نظرية" .. مثل هذا المهندس عندما يتخرّج يذهب إلى ألمانيا يخلع البدلة ويلبس الأفرول وينزل في الماكينة يفكّها "حتة حتة" .. وتمتلئ يداه بالشحم لكنه يكون قد أتقن كل عدّة صغيرة في الماكينة التي يعمل فيها .. فإذا تعطّلت لا يتحكّم فيه العمال وإنما يستطيع أن يدير .. نحن نحتاج إلى هذا النموذج.

* سمير رجب: ونحن اشترينا ماكينة طباعة على أعلى مستوى تكنولوجي في اليابان.. وأرسلنا مهندسين وعمالاً لليابان في بعثات وحتى الآن العامل المصري لم يستوعب هذه

التقنية .. وفي أحيان كثيرة يقول الخبراء اليابانيون: نحن نستغرب أنهم يمدون أيديهم في حاجات لا يعرفونها لماذا؟!

** قداسة البابا: المهندس يحتاج إلى أن يتدرّب على ماكينة مثيلة تماماً .. يفكّها جزءاً جزءاً ويعرف عمل كل جزء فيها .. مثلما نقول إن سائق العربة يحتاج أن يَفهم في ميكانيكية العربة حتى يستطيع أن يُصلِحها عند تعطّلها.

هذا يذكّرني أن في مكتبتي مجموعة "كيف تعمل؟" التليفون كيف يعمل .. التلغراف والراديو والعربة كيف تعمل .. أحياناً في التعليم الثانوي يدخلون هذا اللون من الدراسة العملية لكي يتدرّب الأطفال عليها منذ الصغر..

تطوير التعليم

* سمير رجب: هل يستدعي ذلك يا قداسة البابا تغيير النظرة في التعليم .. بمعنى التركيز على التعليم الفني أكثر من النظري؟؟

** قداسة البابا: بالفعل الأمر يحتاج لهذا .. لذلك نلاحظ أن وزير التعليم الحالي – هو رَجُل مستنير – أدخل الكمبيوتر حتى في مراحل التعليم الأولى ليصبح الطفل على دراية بالكمبيوتر .. الكمبيوتر صدّقوني في كل عام تدخل إليه تحسينات جديدة ويجب أن يعيها الطفل أولاً بأول حتى يتعايش مع التطوّرات .. لأنه من الصعب أن يعيش أولادنا في عصر سابق ولا يسيرون مع النهضة العلمية خطوة بخطوة.

وهذه النقطة طالما أكّد عليها المسؤولون في البلد .. والرئيس مبارك قال إننا نرغب في وجود النهضة العلمية وأن يكون لدينا الإنتاج الجيّد الذي يستطيع أن يُنافس بالأسواق.

كل هذه العوامل تتعلّق بالبطالة وإذا وصلنا إلى هذا المستوى تتحوّل الطاقات البشرية التي لا تجد عملاً إلى طاقات بشرية تعمل داخل البلد أو خارجها ويمكن أن تُصدّر إلى بعض البلاد الأخرى لكي تعمل بها .. لأن المسألة حالياً هى مسألة قدرات وليست شهادات .. الأخيرة مجرد ورقة تثبت أن الشخص تلقّى معلومات مُعيّنة في مادة مُعيّنة، لكن المقدرة العملية هى التي تفتح له باب التوظف.

* سمير رجب: إذن البطالة مسؤولية الدولة والفرد والمجتمع.

** قداسة البابا: نعم .. مسؤولية الجميع.

مسؤولية الدولة في الحدود التي تقدر عليها .. وأيضاً القطاع الخاص يستطيع أن يشترك مع الدولة في تنمية العمالة وتطويرها .. كثير من شركات القطاع الخاص يوجد فرع فيها للتدريب المهني مُهمته تدريب الأشخاص على المهنة التي تقوم بها الشركة يُدرِّب أشخاصاً لكي يؤهّلهم للتوظّف .. ويُدرِّب الموظفين على الرُّقي والتقدُّم .. وعندنا نواحٍ أخرى تحتاج لموظفين غير موجودين.

مشكلة التمريض

وتوجد مشكلة تجابهنا نحن هى مشكلة التمريض في المستشفيات .. وهذه مشكلة أريد أن أُقدِّمها إلى وزير الصحة .. لا يوجد عندنا من الممرضات العدد الكافي الذي يقوم بحاجيات كل المستشفيات .. والمُمرضة لا بد أن تكون مؤهّلة .. وهذا التأهيل يحتاج إلى نوع من التسهيلات لكي يزيد الإقبال على هذا اللون .. لأنه ربما توجد فتاة تقول: "أنا حصلت على الثانوية العامة مثل زميلتي وهى ستتخرّج دكتورة وأنا ممرّضة" .. فالأمر يحتاج لنوع من التشجيع وتسهيل الموضوع لكي يكون لدينا عدد كبير من الممرضات .. لأن هناك مستشفيات لا تجد ممرضات.

* سمير رجب: عدد الأطباء أربعة أضعاف الممرضات!!

** قداسة البابا: إذن الأمر يحتاج إلى تسهيل في الموضوع سواء بالنسبة للمستشفيات الحكومية أو الخاصة التي تحتاج إلى التمريض.

* سمير رجب: للأسف، الناس يخلطون بين التمرجية والممرضة .. التمرجية التي تخدم بالمستشفى والممرضة التي تقوم بعمل طبي.

** قداسة البابا: وفي إطار الحديث عن البطالة أذكر أيضاً من ضمن الصناعات الصغيرة ما يناسب البيئة .. فمن الممكن أن امرأة ريفية أو رَجُلاً ريفياً يأخذ صناعة بسيطة وهى "منحَل" لتربية النّحل .. أو تربية الأرانب وغيرها .. ولا ننسى أيضاً أن التكنولوجيا أوجدت لوناً من البطالة .. كيف هذا .. مثلاً في مجال الزراعة كان معروفاً أن الفدان يرويه ستة من الفلاحين .. حالياً طريقة الري بالرش ممكن تروي عشرين فداناً بشخصين .. شخص لتشغيل الماكينة وآخر لمتابعة الري .. أو الري بالتنقيط للأشجار .. الآلات وفّرت كل عشرين فداناً كان يرويها ١٢٠ رَجُلاً .. الآن يرويها رَجُلان فقط.

وفي البناء أيضاً .. كانت خَلطة الأسمنت بطريقة المحراث يتعاون فيها خمسة أو ستة رجال .. الآن الماكينة تنجز كل شيء .. وكان هناك عمال كثيرون لنقل الزلط في القُفف .. وعمال يحملون القُفف في العربات وعمال ينزلونها .. الآن القلاّب حلّ المشكلة .. إذن فالآلة أوجَدت البطالة . لذلك النهضة الصناعية في أوروبا عندما قامت أوجدت ثورة من البطالة في بداية العصور الحديثة .. فنحن نحتاج أن نتأقلم مع الوضع الذي نعيش فيه .. وكيف نستخدم الآلة لصالِحنا بدلاً من أن تكون الآلة أحد أسباب البطالة.

قضية الخُلع

* سمير رجب: قضية الخُلع شغلت بال كل الناس لفترة طويلة.. وهى الآن موضع جدل بالنسبة للإخوة الأقباط.. ما موقف الكنيسة من الخُلع؟؟

** قداسة البابا: حسب القانون حالياً.. بالنسبة للمسيحيين إذا اختلف الزوجان في الملّة أو المذهب أو الطائفة تطبّق الشريعة الإسلامية.. والشريعة الإسلامية حسب مذهب أبي حنيفة تعطي الرَّجُل الحق في تطليق امرأته بالإرادة المُنفردة.

* سمير رجب: هذا الرَّجُل لو أراد أن يتزوّج مسيحية من ملّته الجديدة.. هل توافق الكنيسة؟

** قداسة البابا: نحن لدينا قوانين في فصل العلاقة الزوجية.. وهذا يدخل في مشروع القانون الجديد الذي قدّمناه لوزارة العدل بمقتضى تعاليم الشريعة الإسلامية؛ لأن هذه مسألة يحكم فيها الإنجيل بالذات: تطلق المرأة أو الرَّجُل إمّا بسبب الزنا أو تغيير الدين.. من جهة الطلاق لعلّة الزنا ورد ذلك في أربعة مواضع في الإنجيل.. في متى ٥ آية ٣٢ وفي متى ١٩ آية ٩ وفي مرقس ١٠ آية ١١ وفي لوقا ١٦ آية ١٨ .

سمير رجب: في حالة الزنا الإسلام يشترط شهوداً وقضاء.. فماذا عن المسيحيين هل تكفي مكالمة تليفونية مثلاً؟!

** قداسة البابا: الزنا على نوعين: إمّا زنا عملي كأن يضبط اثنان في ارتكاب الفعل وهذا صعب أحياناً.. وإمّا زنا حُكمي موجود في القانون وهو ما يمكن أن يُحكم به بالزنا رغم أن الناس لم يروا اثنين يزنيان.. مثال ذلك خطابات يوجد فيها دلائل تثبت الزنا.. خطابات عاطفية وتذكار.. أو مكالمات تليفونية مسجّلة يوجد فيها اعترافات من هذا النوع.. أو وجود

المرأة في أماكن مشبوهة أو مبيتها مع رَجُل غريب بدون معرفته.. والأمر يوجب الشكّ.. رَجُل غريب من غير المحارم وبدون إذن زوجها وبدون معرفة مع أدلة أخرى ممكن تثبت الزنا.. كأن يترك الزانيان أثراً يدل على علاقة.. هذا هو الزنا الحُكمي أو الاعتراف.

الزنا يُحكم فيه بالتطليق.. لأن لا الزوجة أو الزوج يقبلان أن يعيشا في ظلّ خيانة زوجية قائمة.. ولذلك هذه الناحية بالذات يسمّونها الخيانة الزوجية.

وكذلك يقع الطلاق بسبب تغيير الدين لأن على رأي المثل من شروط المرافقة الموافقة.. فالزواج عبارة عن اثنين يعيشان معاً في حياة مشتركة.. المفروض أن تكون حياة مُتّفقة مثل جوادين يُجرّان عربة يسيران بسرعة واحدة وفي اتجاه واحد.

في غير هذين السببين لا تحكم الكنيسة بالتطليق.. والحكم يكون من المحكمة.

لكن المشكلة التي تقابلنا هى الزواج الثاني بعد الانفصال حينئذ تنظر الكنيسة هذا الأمر في مجلسها الذي يُسمّى المجلس الإكليريكي، وترى هل هذا التطليق تم بناء على مبادئ الدين أم لم يتم.. فإذا كان قد تمّ بما يوافق تعاليم الدين يصرّح للعنصر البريء بالزواج والعنصر المُذنب لا يصرّح له.

وبالنسبة للخُلع.. في الأحوال الشخصية يوجد أمر آخر يُسمّى بطلان الزواج وهو يعني أن الزواج كأن لم يكن وله أسبابه.. من ضمن هذه الأسباب أن يتم الزواج مع الارتباط بزيجة أخرى لم يفصم عراها بعد.. المسيحية لا يوجد لديها تعدُّد زوجات.. ومن أسباب البطلان أن يكون سببه ارتباطاً بقرابة مانعة أو بنسب مانع. ففي هذه الحالة يُحْكَم ببُطلان الزواج.

مثال.. الزواج بأخت الزوجة المتوفاة أو زواج المرأة بأخي زوجها المتوفي.. نحن نعتبر في الزواج أن الاثنين واحد.. فأخت الزوجة تُعتبر أختاً للزوج وأخو الزوج أخاً للزوجة.

وأحياناً يَبْطُل الزواج إذا كانت الزوجة أخته في الرضاعة، وإذا كانت قرابة من الدرجة الثانية أو الثالثة هذه لها قواعد معروفة.

من ضمن أسباب البُطلان أيضاً العنة عند الزوج.. العنة السابقة للزواج.. يعني إذا وجد عجز جنسي عند الزوج قبل الزواج ممكن أن يُحكَم بالبطلان.. لأن ما أسهل أن أي رَجُل في الشيخوخة يصل إلى هذا العجز الجنسي، لكن يكون عنده أولاد قبل أن يصل إلى هذا العجز.. إلاّ أنه إذا كانت نقطة البدء في الزواج هى هذه العنة، فالمحاكم تفرّق بين العنة

الجسدية والعنة النفسية.. لكن على أي الحالات العنة لا تسمح بوجود علاقة جنسية بين زوج وزوجة فيَبْطُل الزواج هذا.. ونفس الحال بالنسبة للمرأة التي يوجد لديها موانع للمعاشرة كزوجة.

وإذا كان أحد الزوجين مجنوناً قبل الزواج.. يكون الزواج مرفوضاً؛ لأن الجنون لا يوجد به عنصر الموافقة بين الجانبين.. ولا بد أن الكاهن الذي يجري الزواج يأخذ موافقة الطرفين على الزواج.

ويَبْطُل الزواج إذا كان بالغشّ.. على شرط أن يكون غشّاً في نقطة رئيسية في الزواج.. ويدخل أيضاً في هذا الغشّ إذا تزوّج المرأة على اعتبار أنها بِكر، ووجد أنها سيدة سبق معاشرتها.. يَبْطُل الزواج بالغشّ على شرط أنه لا يستمر في معاشرتها؛ لأنه لو استمر في معاشرتها معناه أنه قبل هذا الغشّ.

مشروع جديد

كل هذه أسباب لبُطلان الزواج، ونحن قدّمنا مشروعاً لوزارة العدل كلائحة للأحوال الشخصية تحكُم بين المسيحيين عموماً.. وهذا المشروع وقّع عليه جميع رؤساء الكنائس المسيحية في مصر بلا استثناء، وأيضاً ممثلو الكنائس المسيحية في مصر التي لها رئاسات في خارج مصر مثل الموارنة الذين لهم رئاسة دينية في لبنان؛ لكن لهم مطران يُمثِّلهم في مصر... والأرمن والسريان الذين لهم رئاستهم في سوريا أو لبنان أو في بلاد الأرمن، لكن لهم من يُمثِّلهم هنا.. وسوف تقوم وزارة العدل بفحصه وتأخذ الإجراءات.

* سمير رجب: متى قدّمتم هذا المشروع؟؟

** قداسة البابا: قدّمناه قبل إقرار قانون الأحوال الشخصية للمسلمين.. فقيل لنا بعد أن ننتهي من قانون الأحوال الشخصية للمسلمين وقانون الخُلع ننظر في قانون الأقباط.

إنه قانون كامل للأحوال الشخصية يشمل من الخطبة وشروطها وطبيعة الزواج وإتمامه وشرعيته والطلاق وأسبابه.. ويشمل أيضاً بطلان الزواج.

* سمير رجب: ألم يكن هناك قانون خاص بالأقباط من قبل؟

** قداسة البابا: لا.. كانت هناك لائحة من عام ٣٨ ولم يكن الأقباط راضين عنها وتسبّبت في مشاكل عديدة.

في المسيحية.. وفي قانون الأحوال الشخصية.. وفي الإنجيل.. كلمة "خُلع" غير موجودة.. لكن هذه مسألة حتى المسلمين لم يكونوا على معرفة بها رغم أنها موجودة عندهم منذ القدم.. فلمّا ظهرت حديثاً كان لا بد أن يكون لنا موقف منها إلى أن يتم إقرار القانون وصدوره من الهيئة التشريعية.

كما قلت.. الشريعة الإسلامية تعطي الحق للرَّجُل في تطليق امرأته بالإرادة المُنفردة حسب مذهب أبي حنيفة؛ ولكنها لا تُعطي المرأة حق تطليق الرَّجُل.. ومن هنا نشأ موضوع الخُلع.. إذا كانت المرأة قد استحالت حياتها الزوجية مع مثل هذا الزوج.. وتريد أن تنفصل عنه أو إذا كان يضايق حياتها بأساليب مُعيّنة.. امرأة ترغب في السفر للخارج وزوجها يضيّق عليها الأمر ويجعل حياتها مُرّة.. المحكمة تنظر فيها لترى أنها أسباب معقولة لفصل الزوجين فإذا وجدت الأسباب معقولة تصدر حكمها بالخُلع على أن تَرُدّ الزوجة إلى الزوج المسائل المالية المُعلّقة فيما بينهما.. مثل مؤخّر الصداق والهدايا هذا بالنسبة للمسلمة، وكذلك المسيحية التي تطبّق عليها الشريعة الإسلامية.

إذا تمّت الإجراءات الرسمية لإقرار مشروع الأحوال الشخصية وأصبح لدينا قانون خاص سوف لا يكون هناك أي مشكلة.



* سمير رجب: المحكمة حكمت بخلع سيدة مسيحية.. ماذا عن موقف الكنيسة في ظل القانون القائم هل توافقون؟؟

** قداسة البابا: أريد أن أُفرّق بين أمريْن.. بين فصل العلاقة الزوجية وبين تكوين علاقة زوجية جديدة.. هذا شيء وذلك شيء آخر.. ففي أوقات كثيرة ينفصل الزوج والزوجة بتطبيق الشريعة الإسلامية ثم يطلب الزوج أن تُصرّح له الكنيسة بالزواج فلا تُصرّح له.. لأن الانفصال تم بشكل لا يتفق مع تعاليم الإنجيل.

ذات مرة كان أحد المحامين قد طلّق امرأته وتقدّم إلى مطرانية البحيرة في دمنهور للتصريح له بالزواج، فانعقد المجلس الإكليريكي ووجد أنه لا يحق له الزواج مرة ثانية لمخالفته تعاليم الإنجيل.. فرفع قضية ضد مطران البحيرة وضد القسيس كموثّق رسمي وضد المجلس الإكليريكي.. فالقاضي حكم برفض الدعوى.

على اعتبار أنها قُدِّمت ضدّ من ليس له صفة، على اعتبار أن الذي له صفة هو البابا.. فرجع الرّجل وقدّم دعوى أخرى ضدّي لأنه لم يُصرّح له بالزواج .. وهذا حق دستوري له ومن حقّه أن يتزوّج .. وقال كيف أن المحكمة أصدرت حُكماً بالطلاق والكنيسة لم تنفّذ، واتهمني بأنني ضدّ أحكام القضاء.. وكانت النتيجة أن أتاني المحامي من البحيرة فقلت له: يا أخي كل أحكام المحكمة ننفّذها.. المحكمة حكمت بالتطليق فانفصل الاثنان كل واحد عن الآخر وتم تنفيذ قرار المحكمة، لكن المحكمة لم تحكم بالتزويج.

أمّا من جهة الحُكم على القسيس وهو موثّق وموظف عام ولم يُمارس.. فالموثق يوثّق زواجاً قد تم، وهنا لم يتم الزواج حتى يحتاج إلى الموثّق.. وطبعاً المحكمة رفضت القضية لأنها ليست مبنية على أُسس.

وهناك محكمة حكمت بالرفض.. ومحكمة حكمت بالقَبُول.. وحسب وجهة نظر القاضي.. فموضوع الخُلع كيف وافقت حالياً عليه؟!

** إذا كانت تطبق حالياً الشريعة الإسلامية فلماذا يستفيد منها الرَّجُل ولا تستفيد منها المرأة؟! المفروض أن العدل يقتضي المساواة بين الاثنين إلى أن يصدر القانون الجديد.. وفي هذه الحالة لن يكون هناك هذا البند.

المسلمون والمسيحيون

* سمير رجب: كيف تسير العلاقة التي تثير فخرنا واعتزازنا بين المسيحيين والمسلمين وهما النسيج الواحد.. لا سيما في عهد الرئيس حسني مبارك؟؟

** قداسة البابا: العلاقة بين القيادات ممتازة وطيبة.. العلاقة مع الرئيس مبارك ممتازة جداً وهو رَجُل لا يعرف أي معنى للتعصّب والتفريق بين مواطنيه، وعلاقته بنا ممتازة للغاية في كافة الموضوعات التي نلجأ فيها إليه.. وإذا كانت تحدث لنا بعض المشاكل تكون من المكاتب الصغيرة وليست من الرئاسات.. ونشكر الرئيس مبارك على روحه الطيبة النبيلة التي يُعاملنا فيها في نواحٍ مُتعدِّدة وفي كل ما نلجأ إليه فيه.

أيضاً علاقتنا طيبة مع كافة الوزراء الذين نتصل بهم في موضوعات تخصّنا، وعلاقتنا طيبة بالقيادات الإسلامية.

.. علاقتي بفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر علاقة ربما لم يكن لها مثيل في عصور سابقة .. ونحن نتبادل الزيارات .. أصبح مجيء فضيلة شيخ الأزهر إلى البطريركية شيئا عادياً مألوفاً وأصبحت زيارة البابا والمطارنة إلى مشيخة الأزهر أيضاً أمراً عادياً ومألوفاً.

في عام ١٩١٩م كان القسيس يذهب للأزهر ويتكلّم .. وكان شيخ الأزهر يقف على منبر الكاتدرائية ويتكلّم.

علاقتنا طيبة أيضاً بوزير الأوقاف وهو من رجال الدين د. حمدي زقزوق .. ولأول مرة منذ عشرات بل مئات السنوات تتكوّن لجنة مشتركة من وزارة الأوقاف وهيئة الأوقاف القبطية، لحلّ المشاكل الخاصة بالأوقاف وخصوصاً الأوقاف القبطية التي أُعيدت - وشكراً للرب - عن طريق لجنة مشتركة تقدّم لها ملفات كل قضية وتبحث بطريقة موضوعية وسَمِحة، ويعطي كل ذي حقّ حقّه، ولا شك أن هذا كان بتوجيهات الرئيس مبارك.

علاقتنا بالمُفتي طيّبة والمفتي الجديد أرسلت له لجنة لتهنئته لكن لم تتكوّن علاقة شخصية.

أتكلّم بصراحة

أول مفتي زُرته في دار الإفتاء كان شيخ الأزهر الحالي حينما كان مُفتياً للديار المصرية ولمّا أصبح شيخاً للأزهر ذهبت لتهنئته .. ونحن نجلس معاً في جوّ من الفكاهة والمرح .. المشاكل تأتي من المكاتب الصغيرة .. توجد مشاكل تحتاج لحل ويجب أن أتكلّم عنها بصراحة .. وهى أمور واضحة .. هذا الأمر هو عدم نجاح الأقباط في الانتخابات سواء انتخابات على مستوى مجلس الشعب أو مجلس الشورى أو الانتخابات المحلية والنقابية .. وإن وجد نجاح يكون على مستوى ضئيل جداً لا يمكن أن يُمثّل الأقباط .. وهذا الأمر يحتاج من الدولة أن تتناوله بالبحث وتوجد له طريقة للعلاج.

* سمير رجب: لكنها إرادة الناخبين "يا سيّدنا".

** قداسة البابا: هناك طُرق مُعيّنة لتوسيع قاعدة اختيار المسيحيين في هذه الانتخابات.

لنأخذ مثلاً حي شبرا بالقاهرة غالبيته من الأقباط، لكن ليس الكل عنده تذاكر انتخاب .. فلو أمكن أن الدولة تسهّل عمليات القيد في سجلّات الانتخابات.

* سمير رجب: الدولة تفتح باب القيد لكل من يريد أن يسجّل اسمه للحصول على تذكرة انتخابية، هل سيقولون له: لا؟!

** قداسة البابا: هناك موضوع عرضته على الرئيس وأعطى توجيهات لوزير الداخلية أن ينفّذ .. هذا الموضوع يقول إن دائرة الانتخاب تحسب للناخب بحسب مولده أو وظيفته أو مسكنه .. وفي إحدى المرات قُلت إن الموظف المتعاون يجد حلاً لكل مشكلة والموظف المُعقّد أو الروتيني يجد مشكلة لكلّ حلّ.. علماً بأن الأقباط بصفة خاصة دائماً مع الدولة وملتزمون .. ومن ضمن الصلوات العامة في الكنيسة صلاة من أجل رئيس الدولة باستمرار .. وأيضاً آيات كثيرة في الكتاب المُقدَّس توجب علينا الطاعة للولاة .. الاستثناء الوحيد إذا كان ضد الدين .. في كل أمور الحياة طاعتنا للرئيس أمر ضروري .. ولذلك يندر أن تجد ثورة من الأقباط ضد الحكام.

في إحدى المرات قلت: المجالس المحلية نفرض أنه يوجد مجلس محلي به ٢٠ أو ٣٠ عضواً فما المانع في أن يوجد به اثنان من الأقباط.. "وجود حضور قبطي في المجلس" .. هل الاثنان سيُغيّران سياسة المجلس .. لا .. إنما مجرّد حضورهما ووجودهما مظهر حيوي وجيّد .. هذه المرّة بعض الأقباط نجحوا في المجالس المحلية وهذا تطوّر إيجابي وإذا أمكن توسيع دائرته يكون أفضل.

أنا لا أطلب لئلاً يظن أني أبحث للأقباط عن دور سياسي، لكن يمكن ما نحتاجه يطلبه إخوتنا المسلمون نيابة عنا .. نحن لا نريد أن تؤخذ عنا فكرة أننا نبحث لأنفسنا عن وضع سياسي في البلد .. نحن نريد حياة هادئة مُستقرّة وسُمعة البلد تتطلب مشاركة منا أفضل.

إن مسألة نجاح الأقباط في الانتخابات تدلّ على أن الروح العامة لا يوجد فيها تمييز.. لكن إذا وُجِد تمييز مع مناداتنا بأنه لا فرق وهذا نسيج واحد.. فإن الأمر يختلف.

حكاية الانتخابات هذه مقياس عملي للصِلة بين الطرفين، صحيح أن الناس بينهم وبين بعضهم في حياتهم العامة محبّة، لكن عندما تدخل في انتخابات ووظائف يتغيّر الحال.

* محمود نافع:

أحياناً تطرأ أشياء تعكّر إلى حد ما صفو العلاقة، كيف نحتويها بروح المحبة؟

** قداسة البابا: من جهة الأحداث والمشاكل التي تحدث.. للأسف الشديد نحن في عصر تتداول فيه الأخبار في كل بلاد العالم في نفس الوقت؛ لأن وسائل الاتصالات

أصبحت سريعة.. توجد وكالات الأنباء والانترنت والتليفونات وغيرها.. أي حدث يقع يؤثّر على سمعة بلادنا بالخارج، وإذا حاولت التعتيم عليه في الصحافة المصرية سوف لا تعتم عليه الصحافة في الخارج.. وممكن أن يحدث تأثيراً سواء بالنسبة للمصريين في الخارج أو بالنسبة للدول الخارجية.

أتذكّر في المرّة التي حدث فيها اعتداء على كنيسة في إحدى قرى مغاغة أن الدولة بذلت جهدها لتصليح الجو وترميم الكنيسة والصلح بين الناس.. لكن الذين عملوا الحادثة هذه لمّا سألنا بعض الرسميين وقلت لهم: إن الذين قاموا بهذا العمل هُم ضدّ مصر لأنهم يسيئون لسمعة مصر، وهُم ضد الإسلام أيضاً، يعني جو فيه من الأشخاص الذين ليسوا على مستوى المسؤولية يسيئون لسمعة البلد وليس للأقباط.

الصراحة مُفيدة لإصلاح الأمر بحيث لا يتكرّر الخطأ في المستقبل أمر جيد لكن التغطية على الأخطاء لن تريح الضمير ولا نفسية الناس ونشكر اللّه أن الأحداث من هذا النوع قلّت كثيراً عن ذي قبل.

الخط الهمايوني

* سمير رجب: ماذا عن الخط الهمايوني.. وهل ما زالت هناك مشاكل في بناء الكنائس؟؟

** قداسة البابا: الخط الهمايوني من القوانين التي صدرت في العصر العثماني وأُلغيت كل القوانين وبقيَ هذا القانون شاهداً على ذلك العصر.. والخط الهمايوني صادر من الرئاسة العثمانية في ذلك الحين وبدلاً من أن يقولوا "قرار".

يقولون "خط".. هذا الخط الهمايوني لا يمنع بناء الكنائس.. إنما يشترط أنها تُبنى بإذن أو تصريح من ولي الأمر "الحاكم".. وأنا أقول بصراحة تامّة سواء كان هذا الإذن شفاهة أو كتابة هو بتصريح من ولي الأمر.

لكن المشاكل حدثت ليس من الخط الهمايوني وإنما من وكيل وزارة الداخلية في عام ١٩٣٨م فيما أسموه بالشروط العشرة كنوع من التعقيدات.. لم تكن قانوناً ولم تصدر من هيئة تشريعية.. لكن البعض استغلها استغلالاً سيئاً.

لكن في أيامنا هذه نشكر كل الجهد الذي قام به رئيس الجمهورية في تسهيل بناء الكنائس الجديدة وفي تسهيل ترميم الكنائس.

أنا فاكر عندما قامت مشكلة في الغرب في السنوات الماضية، أرسلنا وقلنا لهم: نحن بخير وفي حالة طيبة وياما بنينا كنائس ورمّمنا كنائس بمنتهى السهولة وحتى بدون قرارات جمهورية.. بالروح الطيّبة وبالتعاون بين الكنيسة والدولة أو بين الكنيسة والأجهزة الإدارية في البلد.. ولذلك أنا دائماً أقول للآباء الكهنة في اجتماعاتي معهم، لتكن علاقاتكم طيبة مع رجال الإدارة، لأنه عن طريق العلاقة الطيّبة يتم ما لا يتم بواسطة القانون والشرعية والنواحي الرسمية، لكن بالمحبة تمرّ أمور كثيرة فوق مستوى القانون.. والناس يلجأون للقانون حينما لا تحلّ المحبة أولاً بين الناس بعضهم البعض.. وكثير من الأمور تتم من خلال هذا الطريق.. وأيضاً تتم عن طريق التوجيهات الرئاسية التي تساعد رجال الدولة على أن يسهّلوا الأمور.

أقباط المهجر

* سمير رجب: ماذا عن الكنائس القبطية في الخارج وأقباط المهجر؟؟

** قداسة البابا: حينما تسلّمت مسؤولياتي الحاضرة في الكنيسة لم يكن لنا في أمريكا سوى كنيستين فقط.. واحدة في أقصى الشرق في جيرسي سيتي.. والثانية في أقصى الغرب في لوس أنجلوس.. بكاهنين اثنين.. ولم يكن لنا في كندا سوى كنيستين إحداهما في تورنتو والأخرى في مونتريال بقسيسيْن.. أي أربع كنائس بأربع قسس.

سمير رجب: هل تلك الكنائس ملك لكم يا قداسة البابا؟

** قداسة البابا: طبعاً تابعين لنا.. وفي السّيمنار الذي عملته للآباء الكهنة في أمريكا وكندا في العام الماضي حضر ١١٨ من الآباء الكهنة و٨ كانوا غائبين لأسباب خاصة أي ١٢٦ كاهناً وحالياً لنا أكثر من ١٣٠ كاهناً في أمريكا وكندا.. فالعمل ازداد جداً لأني شعرت أن في بلاد المهجر يستغلون الحرية استغلالاً خاطئاً، فتتحوّل الحرية أحياناً إلى لون من ألوان التسيُّب.. وفي مصر نوع من الحرية ولكن الحرية المُنضبطة.. ونقصد بالمنضبطة أن الإنسان حر بشرط ألاّ يعتدي على حريات غيره ولا على حقوق غيره.. نوع من الانضباط.. وأيضاً الإنسان حرّ، ولكن لا يعتدي على النظام العام في البلد.. فلا يصح أن أضع يدي في جيب الآخرين وأقول إني حرّ أضع يدي في المكان الذي أريده.. لا أستطيع أن أكسر قوانين المرور وأقول أنا حرّ أمشي في أي مكان أريد.. إذن فالحرية مُنضبطة بحريات الناس وحقوق الآخرين وأيضاً بالنظام العام وقوانين البلد جملة.. وأيضاً بوصايا اللّه يمكن أن أكون

حُراً ولا أكسر وصية من وصايا اللّه.. في الخارج توجد حرية ممكن أن تكسر أشياء كثيرة.. فالولد عندما يبلغ السادسة عشرة لا يكون لوالديه أي سُلطان عليه، أمّا عندنا إذا ضرب الأب ابنه بالقلم لا يستطيع الولد أن يرفع عينيه في وجه أبيه، أمّا هناك فالولد يستطيع أن يبلغ البوليس والأب يبيت في السجن.. فالمفروض أن نعتني بأولادنا في الخارج لأمرين: الأول لحفظهم من الانحراف الفكري والخلقي الموجود في الخارج.. والثاني لحفظهم في وطنيتهم وتعلّقهم بالوطن الأم وهويّتهم، فبالهوية يمكن أن يحبّوا بلادهم وأن يأتوا في رحلات إلى مصر، وتكون لهم علاقة ببلادهم في الحفلات الرسمية وأشياء من هذا النوع.

بهذا الشكل أمكن تأسيس الكنائس للحفاظ على أولادنا خُلقياً وروحياً ووطنياً.. ونشكر ربنا فالوضع أفضل بكثير.. وفي مصر رسمت أسقفاً للشباب وعندما كثُر عمله رسمت أسقفاً مساعداً له وهما الأنبا موسى والأنبا روفائيل.. وهما يُقيمان مؤتمرات في الخارج للشباب أو حلقات دراسية نفتح قلوبنا فيها لهم ويفتحون قلوبهم لنا.. ونتعرّف على مشاكلهم ونوجد لها حلولاً تناسب الظروف التي يعيشون فيها.. لقد كثرت الكنائس جداً في أمريكا وكندا وفي أوروبا أيضاً التي لنا فيها كنائس عديدة جداً، بينما لم يكن لنا سوى كنيسة واحدة فقط في لندن وكانت مؤجّرة.. أمّا حالياً فلنا في المملكة المتحدة أربعة أساقفة غير القسوس والكنائس.. فلدينا أسقفان في فرنسا وأسقفان في إيطاليا.. واحد في روما والآخر في ميلانو.. ولنا أسقف في النمسا وفي ألمانيا.. ولنا كنائس كثيرة في ألمانيا وفرنسا والنمسا وإنجلترا والسويد وبلجيكا وأسبانيا واليونان وفي كثير من البلاد الأوروبية التي لم يكن لنا بها صلة من قبل، ولكن كان لا بد أن أعد كهنة يخدمون تلك المناطق خوفاً من ضياع أولادنا فيها.. في جو غير الجو وثقافة غير الثقافة وأخلاقيات غير أخلاقياتنا ومبادئنا الشرقية التي لها روح مختلفة.. وبهذا زاد العمل كثيراً جداً.. والمشكلة الأكبر قابلتني في أوروبا وليس في أمريكا وكندا، لأن أمريكا لغة واحدة وهي اللغة الإنجليزية وفي كندا نصفها بالإنجليزية ومنطقة مونتريال بالفرنسية.. أمّا في أوروبا فتكاد تكون لكل دولة لغة.. وكان لا بد أن نعد الأفراد إعداداً يمكنهم من الخدمة هناك.

فمثلاً عندما أحضر قداساً في أمريكا أو ألقي عظة تكون عظتي جزءاً باللغة الإنجليزية وجزءاً بالعربية.. والعربي حتى أرضي القُدامى وكبار السّن، والإنجليزي لأن أولادنا هناك لا يفهمون العربية ولا يفهمون منها إلاّ عبارات المجاملة.. والذين يصلون إلى أعلى درجة من

تعلّم اللغـة العربيـة يصـلون إلـى المستوى الأُمّـي أي يتكلّمـون العربيـة ولكـن لا يسـتطيعون الكتابة والقراءة.. ولذلك في اجتماعنا من أجل المهجر مع بعض الإخوة قلت إذا أردنا أن نحافظ على الثقافة الشرقية لأولادنا في المهجر، ينبغي علينا أن نترجم تراثنا الشرقي أمّا أن نعلّم لغة غربية فهذا ليس سليماً.. وقد استطعنا بمعونة اللّه أن ننجح في تعليم اللغة العربية في أستراليا، والتي كان لنا فيها كنيستان فقط في سيدني وملبورن، أمّا الآن فلنا عشرات الكنـائس.. ولـدينا أسـقف فـي ملبورن وإن شاء اللّه سوف أرسم قريباً أسقفاً فـي سيدني.. ونجحنا في تأسيس مدارس هناك والمدرسة القبطية التي ننشئها هناك تكون لها نفس المنهج الذي تدرسه وزارة التربية والتعليم، ونضيف عليه حصة للغة العربية وحصة للغة القبطية وحصة للدين وحصة للألعاب.. وقد أسّسنا مدرستين في ملبورن وثلاثة مدارس في سيدني وأصبح الدارسون فيها يعرفون اللغة العربية.. ولكن الذين لم يلتحقوا بها لا يعرفون اللغة العربية.. وأولادنا هناك اللغة بالنسبة لهم ليست سهلة.. وإرسال الكهنة للخارج لم يكن سهلاً أيضاً.. وفي أول مسؤوليتي لاحظت أمراً غريباً.. فالذين يريدون الذهاب للمهجر لا يصلحون والذين يصلحون لا يريدون..

الشخص الذي يصلح للخدمة في المهجر لا يريد أن يترك بلاده ليذهب إلى هناك.. أمر صعب.. حتى أمكنني في النهاية إرسال هؤلاء المئات من الناس.

الأموال والمُرتبات

* سمير رجب: هل يحصل هؤلاء على أجورهم من هنا؟

** قداسة البابا: لا، يأخذونها من هناك.. من موارد كنائسهم.. علاوة على أن بناء الكنيسة من أموال هناك ومصروفات الكنيسة من هناك والمرتبات أيضاً.

* سمير رجب: من التبرّعات فقط أم من الدولة؟

** قداسة البابا: الدولة لا.. كله من أموال الشعب القبطي.. من العشور أو التبرُّعات.. وعندما كنا نجد شخصاً يصلح للمهجر كنا نقابل مشكلة أخرى.. فإذا وافق هو ربما لا توافق زوجته.. فإذا وجدنا الشخص الذي يصلح وزوجته توافق، تبقى موافقة عائلة الزوج وعائلة الزوجة، وإذا وافق كل هؤلاء تبقى موافقة الكنيسة التي هو كاهن فيها فربما لا تريد أن تتركه.

* محمود نافع: بالطبع فإن رعاية كل هذه الأعداد ليست سهلة؟

** قداسة البابا: بالطبع فالرعاية من كل ناحية.. من جهة اختيار الأشخاص والرسامة والتعليم وبناء الكنائس لهم وبعضهم كانوا في عشش.. ونحن نفرّق بين المهاجرين إلى تلك البلاد وبين الذين يعملون كموظفين هناك.. فمثلاً لنا في ليبيا ثلاث كنائس كل شعبها من الموظفين وليسوا مهاجرين.. أيضاً كل الذين يعملون في البلاد العربية موظفون وليسوا مهاجرين.. وأرجو أن نعتبر أن أقباط المهجر ممكن أن يكونوا جزءاً من اللوبي المصري الذي يخدم البلاد في مصر.. فهُم أولادنا ويحبون وطننا لأن حُب الوطن طبيعة في الإنسان لا يصطنعها بل تجري في دمائه.. وإن كانت تحدث مشاكل يمكن حلّها بشيء من التوعية.. ولكن يمكن أن يكونوا "لوبي مصري" إذا تكوّن معه لوبي من بعض البلاد العربية واتحد الكل لتكوين "لوبي عربي" يمكن أن يفيد جداً بخاصة إذا كان كثير من هؤلاء المهاجرين لهم صوت في الانتخابات الأمريكية.. فالانتخابات الأمريكية الحالية كانت تتأثر بالفرد.. فإذا وجد لنا لوبي في أمريكا ننتفع به سياسياً في القضايا المصرية.. فنصيحتي عدم مهاجمة هؤلاء الناس في المهجر.. ليس من الصالح أن نخسرهم بل نستفيد بهم من أجل بلادنا.. وبالنسبة للانتخابات الأمريكية قد يوجد متنافسان فيها أحدهما سوف ينجح.. ولكن يوجد ما يُسمّى بالصوت العائم الذي يمكن أن يأتي عند هذا الشط أو ذلك وهو ما يستغله اليهود حالياً؛ لأنهم يمكن أن يرجحوا كفة أحد المتنافسين.. فلو وجد "لوبي عربي" يمكن أن يكوّن أصواتاً من هذا النوع ويحاول الجميع أن يتقربوا إليه؛ لأنه سوف يُساندهم في الانتخابات.. الذي حدث في القضية الإسرائيلية أنهم بدأوا يكوّنون لهم "لوبي" ويكوّنون لهم شعبية واتصالات وإعلام واقتصاد وسياسة بينما كنا نثور ونضج ولا نعمل شيئاً سوى الإدانة والشجب والصياح ولا نسلك في الطريقة العملية التي تأتي بالنتيجة.. والطريقة العملية هى إيجاد صوت لنا في الخارج.. ليس ذلك فقط ولكن ينبغي أن نتكلّم مع البلاد الأجنبية بالطريقة التي تناسبهم ونشعرهم أنه ليس من صالحهم سياسياً أن يخسروا العرب وهذا أمر مُهم.. ونكلّم الناس في الخارج بلغتهم.. فنحن في مصر نكلّم أنفسنا ولا نكلّم الآخرين.. ولكي نكلّم الآخرين يجب أن تكون لنا محطة إذاعة وتليفزيون في الخارج ووسائل إعلام وصحف ومجلات وننشر قضايانا بطريقة تصل إلى العقلية الأجنبية وتؤثّر عليها.

إخوة المسيح!

* سمير رجب: ما تعليقكم حول ما يتردّد عن أن السيد المسيح له إخوة بالجسد؟

** قداسة البابا: المعروف أن السيد المسيح لم يكن له إخوة بالجسد وأن السيدة العذراء لم تلد سوى السيد المسيح ولم يكن لها زوج آخر.. زوجها يوسف النجار كان خطيبها.. وأخذها ليحفظها لا لكي يتزوّجها عندما بلغت السّن الذي لا تستطيع أن تقيم فيه في الهيكل.. ومن المعروف لدى اليهود أن القريب الشديد القرابة جداً يدعى أخاً فكان أولاد خالة المسيح يُعتبرون في عُرف اليهود إخوة له.. ففي الصعيد مثلاً يُقال الشخص عن عمّه "أبويا" فلان.. فالفرد شديد القرابة له يعتبر أخاً.. وعندنا أمثلة كثيرة لهذا الموضوع في الكتاب المقدس.. وأحياناً هنا تُطلق كلمة أخ على القبيلة كلها، وأحياناً تطلق على الشعب كله ونعتبر إخوتنا أهل بلدنا.. وأنا أقول عند التحدّث عن المسلمين تعبير إخوتنا المسلمين.. فكلمة أخ عندما وردت كانت عن أولاد خالته وكانت عن الأقرباء.. بدليل أنه حوّل والدته العذراء إلى أن تكون في رعاية تلميذه يوحنا.. فلو كان لها أولاد لكانوا أولى برعايتها بعد المسيح.. وهذه المسألة مسألة قديمة ولكن البروتستانت الذين لا يؤمنون بالقديسين ولا شفاعتهم والعذراء وشفاعتها يتكلمون عن كلمة إخوة هذه كما لو كانوا إخوة بالجسد.. فالبروتستانت فقط بين كل المسيحيين في العالم هُم الذين يستخدمون هذا المفهوم، ولكن جميع الأرثوذكس في العالم يرون أن إخوته هم أولاد خالته وهكذا الكاثوليك أيضاً وحتى البروتستانت فيهم طوائف هنا وهناك.. وأحب أن من يتكلّم في هذه المسألة يكون دارساً لها ولا يعتمد على كتاب مُعيّن لطائفة مُعيّنة.

٢٠٠٢/٦/٩

إلى أي مدى يتصرّف الإنسان كمخلوق عاقل؟

كلّنا ندرك أن الإنسان هو مخلوق عاقل. زوّده اللّه بالعقل والفكر. ووهبه القدرة على الفَهْم والإدراك. وعلى الاستنتاج. والذاكرة. والتمييز.. فإلى أي مدى يستخدم الإنسان عقله؟ وهل عقله هو الذي يقوده؟ أمْ تقوده مؤثّرات أخرى توقف العقل وتتولّى تصريف الأمور؟ وما هى هذه المؤثرات؟

ثم ما هى نوعية عقل كل فرد؟ وما قدرته؟

١ - هل هو عقل ذكي؟ أمْ عقل عبقري؟ أمْ متوسط الذكاء؟ أمْ ضعيف الذكاء؟ أمْ لا ذكاء له على الإطلاق؟

ذلك لأن عقليات الناس تتفاوت في نوعيتها ودرجاتها. وحسب درجة التفاوت. يختلف الفَهْم والتفكير والتمييز.. وتختلف أيضاً نوعية الذاكرة: هل هى مجرّد ذاكرة جامعة وحافظة؟ أمْ حافظة ومرتّبة؟ أمْ ذاكرة فوتوغرافية؟ وكذلك ما مقدار سِعة هذه الذاكرة؟ وهل هى تسعف صاحبها في أي وقت يريد. أمْ تخونه؟ وأيضاً ما نوع تفكيره؟ هل هو تفكير شامل يلمّ بالموضوع من جميع زواياه؟ أمْ يتركّز في نقطة واحدة ويهمل الباقي؟ وهل هو تفكير سطحي أمْ تفكير عميق؟ وما درجة عُمقه؟

وعلى هذا القياس. إلى أي حد نقول عن كل أحد أنه عاقل؟

ليس الناس على حدّ سواء. حتى في فَهْمهم. سواء فَهْم ما هو حادث.. أو ما ينبغي أن يحدث.. وليست كل العقول متساوية في قدرتها على القيادة. فهناك شخص بالكاد يقود نفسه. وآخر يمكنه أن يقود غيره أيضاً. وثالث يحتاج إلى من يقوده.

٢ - وهناك من تتعبهم عقولهم. وقد تتعب غيرهم معهم أيضاً

إنسان قد تعترضه مشكلة. فيفكّر في حلّها. ويساعده عقله على ذلك وآخر تستقطبه المشكلة وتتعب هى عقله الذي يعجز عن حلّها. بل إنها تستولي على عقله وكل فكره: فينشغل بها في صحوه وفي نومه. وربما في أحلامه أيضاً. ولا تترك له فرصة ليفكِّر في غيرها. وهكذا تتعب فكره وترهقه. ويقيناً يؤثّر كل ذلك على أعصابه ونفسيته.

٣ - إنسان آخر يقع عقله تحت سيطرة الشكّ. فيقود الشكّ عقله

يشُكّ في الأحداث وما تحوي. ويشكّ في الناس وفي تصرُّفاتهم ونواياهم.. يشكّ فيما يُقال وما يُكتب. وفيما يسمعه من غيره. ويشكّ في قدرته على التصرُّف. ويشكّ في المستقبل.

مثل هذا الشكّ يتعبه ويؤلمه. وقد يجلب له الخوف والاضطراب. ومع ذلك فعقله غير مستطيع أن يخرج من دائرة هذا الشكّ. ومهما قيل له من تبريرات تزيل هذا الشكّ. فإنه يشكّ في هذه التبريرات أيضاً. وفي مدى صدقها. ويسأل: ما هدف التبرير؟ ويشكّ في الهدف!

وقد ينمو الشكّ عنده. فيشمل كل شيء. وكل أحد حتى أعز الأحباء ويصبح فريسة للشائعات والظنون والأكاذيب.

هنا العقل يكون تحت سيطرة نفسية مريضة. هي التي تقوده!

ومن أصعب الشكوك التي تصيب بعض العقول: الشكوك الإيمانية. مثل الشك في وجود اللّه عند الملحدين وأمثالهم. والشكّ في المعجزات عند بعض رجال العلم. والشكّ في الحياة الأخرى وفي القيامة العامة. والشكّ في بعض العقائد والمسلّمات.

وإذا وصل العقل إلى هذا الحد من الشكّ. ما أسهل أن يستلمه الشيطان. ويزوّده بأفكار وأفكار. ويرشده إلى قراءات يزيد شكّه وإلى زملاء من نفس النوع يعمقون الشكوك التي تحاربه ويضيفون عليها.

هل تظنون مثل هذا العقل عقلاً خالصاً؟! أو أن صاحبه يستطيع أن يقود نفسه. بينما هو تحت قيادة أخرى؟!

٤ - العقل يتأثر أيضاً بالجهل

سواء كان جهله نتيجة لعدم المعرفة. أو نتيجة لمعرفة مضللة وصلت إليه. وبالجهل قد يقع العقل في تصرُّفات خاطئة لا تعفيه من المسؤولية. لأن الجهل بالقانون لا يعفي من حكم القانون.

والعجيب أن الإنسان قد يتحمّس لجهله ويدافع عنه. ويهاجم وجهات النظر الأخرى. وكما يقول المثل العربي "الناس أعداء ما جهلوا".

مثل هذا العقل يحتاج إلى التوعية السليمة. وإلى المعرفة الصادقة المُقنعة. والمعروف أن العقل يستنير بالمعرفة.

وأصعب أنواع الجهل الذي يحارب العقل. هو الجهل الذي يرفض المعرفة أعني حالة العقل الذي يتمسّك بجهله بإصرار. مُقتنعاً تماماً بما عنده من أفكار. ويشكّ في كل توعية. ويرفض كل شرح. ومثل هذا الإنسان ربما تصقله التجارب. وتقنعه بخطأ جهالته.

وعلى أية الحالات. كلّما ينمو الإنسان في المعرفة. تتغير طريقة تفكيره. على حسب نوع المعرفة الجديدة التي تصل إليه.

٥ ـ هناك عقل آخر يقوده مبدأ مُعين يؤمن به

فهو يعيش داخل هذا المبدأ. سواء كان سليماً أو خاطئاً. ولا يحب أن يتزحزح عنه. بل يستمر حبيساً فيه.

مثل أب من مبادئه أنه لا يمكن أن يزوّج ابنته الصغرى قبل أختها التي تكبرها سناً. وبهذا تضيع فرص كثيرة على تلك الابنة الصغرى. وإن كانت أختها الأكبر منها أقل جمالاً أو أقل جاذبية!

صدقوني حتى بالنسبة إلى بعض الفلاسفة الذين يحكمهم العقل فرضاً: ينطبق عليهم المثل القائل بأن نقطة البدء في الفلسفة أحياناً لا تكون فلسفية! أي ربما يبدأون بعامل نفساني مُعين. بلغ من عمقه أنه أثّر على مجرى تفكيرهم الفلسفي.

مثل كرة ألقيتها من على جبل: إن ألقيتها شرقاً. تستمر بكل قوتها في هذا الاتجاه الشرقي. وإن ألقيتها غرباً. تستمر في ذات المجال الغربي بكل قوتها أيضاً.

٦ ـ نوع آخر من العقل يقوده أب أو معلم

فهو مُنقاد إلى عقل آخر يسيره كيفما يشاء. ويرشده إلى الطريق الذي يعتقده. حسب مستوى هذا العقل المرشد.

وليس لدى هذا الإنسان المتتلمذ أية فرصة أن يتصرّف أو حتى يفكّر. إلاّ داخل دائرة المُعلِّم في تفكيره وإرشاده. وتكاد شخصيته تكون مفقودة تماماً. وبخاصة إن كان ذلك المُعلِّم أو المُرشد شديداً في سُلطته. يتطلّب من تلامذته لوناً من الطاعة العمياء!

ويزيد هذا الانقياد العقلي الكامل. إن كان عقل الذي يطيع مدفوعاً بثقة كاملة فيمن

يطيعه. أو بعهد أخذه على نفسه في طاعته. أو إن اقتنع أن مجرد المناقشة مع من يرشده. هى لون من الكبرياء. أو خروج عن الأدب في طاعة المُعلِّم!

٧ ـ وكثيراً ما يخضع العقل لمؤثرات عائلية أو اجتماعية

مثال ذلك أن زوجة أب تستطيع أن تؤثر على عقله وفكره. حتى يسيء معاملة ابنه من زوجته الأولى المتوفاة. مُصدِّقاً ما تصبه في أذنيه من مؤثرات. ومقتنعاً أنه إنما يقوم بتأديب ابنه وتقويم سلوكه!

المجتمع أيضاً كثيراً ما يترك تأثيره على عقول الناس. فيكون الشاب مثلاً في وسط الجماعة متأثراً بفكر الجماعة وانفعالها. مثل تلميذ في مظاهرة يُردِّد كل ما يقوله زعماء المظاهرة. بدون تفكير. فإذا قُبض عليه وأُلقيَ في الحبس وجلس وحده. حينئذ يفكِّر عقله بطريقة أخرى.. وقد يلوم نفسه على اندفاعه وراء المظاهرة.

٨ ـ مثل هذا العقل أيضاً. قد تقوده الأخبار أو الشائعات

أو يقوده أي كتاب يتأثر به. أو أي فيلم في السينما أو التليفزيون أو الفيديو. لأن عقله قد تعوّد الاستسلام والخضوع لقيادة أخرى تؤثِّر عليه.. حتى لو كان ذلك من الأخبار التي يسمعها من الناس. أو من شخص أقوى منه فكراً ومنطقاً.. وقد يكون ما يسمعه مجرد شائعات. أو أمور مبالغ فيها. وقد يثبت بعد فترة بطلان تلك الشائعات أو عدم صحة تلك الأخبار. ولكن بعد أن تكون قد تركت في نفسه أثراً. ليس من السهولة أن يزول.

أمّا العقل السليم القوي. فهو يفحص ويدقِّق.

فكل ما يسمعه. يفحصه ويحلِّله. ويقبل منه ما يقتنع به. أو يترك بعض الأخبار الأخرى لمزيد من الدراسة والاستقصاء.

على أنه يمكنه أن ينتفع ببعض ما يقوله الناس إن كان صحيحاً. ولكنه لا يسلّم ذاته لهم تسليماً كاملاً. ولا يكون مثل ببغاء "عقله في أذنيه"!

بعض القيادات ما أسهل أن تؤثِّر عليهم تقارير مُضلِّلة. وبخاصة لو اتخذوا بسببها قرارات سريعة مبنية على باطل.

وما أكثر ما انحلت أسرات وفشلت نتيجة لأقاويل لا صحّة لها.

٩ ـ العقل قد تؤثر عليه الأعصاب أو الخوف

إن كان الشخص سريع التأثّر. سريع الانفعال. وعقله يفكّر مدفوعاً بانفعالاته. كمن يتخذ قراراً في ساعة غضب أو ساعة ضيق. دون تحقّق أو دراسة. فيندم على ذلك.

أو شخص يكون حساساً جداً في نفسيّته: أقل كلمة تجرحه أو تثيره. وأقل تصرف يخدش كرامته ويؤوله عقله تأويلات عديدة. مثل هذا الشخص لا تكون ردود فعله تتمشّى مع العقل المتزن.

كذلك قد يوجد إنسان يصِفونه بأنه إنسان بسيط. كثيراً ما يقبل عقله أموراً لا يمكن أن يصدِّقها مُتعمّق باحث عن الحقيقة.

كل هذا يدل على أن عقل الإنسان يتأثر بنوع نفسيته.

١٠ ـ وهكذا فإن العقل يؤثر عليه الخوف

الخوف يشلّ العقل عن التفكير. ويقود الإنسان بدلاً منه أو يجعل العقل يشتغل لحسابه "لحساب الخوف".

كأن يخطئ إنسان. ويخاف من نتائج أخطائه. فإذا بالخوف يدفع العقل إلى تغطيتها بحيل أو أكاذيب أو اتهام غيره ظلماً. كل ذلك لكي يستر نفسه. فيغطي خطأه الأول بأخطاء أخرى.

١١ ـ والعقل أيضاً قد تقوده الشهوة

أيّة شهوة: شهوة جسد. أو شهوة انتقام. أو شهوة منصب أو ألقاب. أو شهوة مال. أو شهوة عظمة أو شهرة.

وأمام الشهوة يتوقف العقل. وتسيطر الشهوة على الموقف كله. وتستخدم العقل لتنفيذ أغراضها. فلا يكون العقل هو القائد. بل مجرد المنفِّذ لأمراض الشهوة.

فالذي تسيره مثلاً شهوة الانتقام. ترى كل عقله يفكِّر في كيف ينتقم. ولا يفكِّر مُطلقاً في عواقب ذلك. ولا في طائلة القانون. ولا في وصايا اللّه. بل يكون محصوراً وحبيساً داخل هذه الشهوة. تسيطر وحدها على عقله وتفكيره. فينفّذ ويضيع نفسه. لأن عقله لم يستطِع أن يمنعه من الجريمة. بل دبّر له كيف ينفّذها.

١٢ ـ والعقل أيضاً قد تقوده العاطفة

هناك عاطفة تقود العقل. وعاطفة بلا عقل. بينما هناك عقل بلا عاطفة. وعقل متزن: له عاطفة. ولكنه يتحكّم فيها.. إنه أنواع أربعة. كل نوع منها يختلف عن الآخر.

فالعقل الذي تقوده العاطفة. مثاله الأم التي تمنع ابنها من السفر أو الغربة حيناً. لمصلحته. إذ تفضل بقاءه إلى جوارها أكثر من منفعته.

والعاطفة التي بدون عقل. مثالها الأم التي تتدخّل في كل شئون ابنتها المتزوجة. ولكن بدون عقل. فتؤدّي إلى خراب بيتها وانفصالها عن زوجها وتعب أطفالها.

هناك مثال آخر في العلاقة بين العاطفة والعقل: الطبيب الذي يكتب شهادات طبية مزوّرة بحُجة أن ينفع مريضه في خداع رؤسائه في وظيفته. أو يشفق على فتاة حملت سفاحاً. فيُجري لها عملية خادعة.

١٣ ـ هناك عقل تُجرى له عملية "غسيل مخ"

إذ يقع هذا العقل تحت تأثيرات مُضادة متتالية. وشكوك مُتعدِّدة. وضغوط فكرية. تقتلع منه كل ما في ذاكرته وتفكيره. وتحشوه بفكر آخر جديد عليه. دون أن تعطي له فرصة للرد على الأفكار الجديدة.

ويخرج من هذه الدائرة التي حُبِس عقله فيها مدة مُعيّنة. وإذا به يفكِّر بطريقة جديدة عكس تفكيره السابق. بل قد يتحمّس للفكر الجديد الدخيل عليه.

حدث مثل هذا في صفوف الوجوديين. والمُلحدين. وأصحاب بعض الأفكار الحديثة. وأحياناً في بعض مجالات العلم أو الفلسفة.

١٤ ـ تأثر العقل بالأمثال الشعبية بحيث تقوده

وهى خبرات بعضها على حق. والبعض عليه الكثير من النقد. وهذا موضوع طويل يحتاج إلى مقال خاص.

٢٠٠٢/٠٦/١٨

الأمثال الشعبية
المقبول منها ، وغير المقبول

الأمثال الشعبية يعتبرها الكثيرون تراثاً وحكمة.. ويستشهدون بها في أقوالهم وتصرُّفاتهم.. وكثيراً ما نسمع عبارة "على رأي المثل".

والبعض يعتبرون هذه الأمثال الشعبية لوناً من الفولكلور على أنها في أذهان الريفيين والبسطاء قد ترقى إلى مستوى المبادئ. والقِيَم. ويؤمنون بكل صحتها. ويرون فيها خبرة القدماء.

ولا شكّ أن في هذه الأمثال جانباً من الحق. ولكن ليس كلها ونحتاج هنا أن نتناولها بشيء من التحليل. لنرى إلى أي مدى يمكن اتخاذها كمُرشد في الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس.

*** من الأمثال السائرة من جهة المعرفة:**

أمثال تكاد تكون مُتشابهة. مع الاختلاف في طريقة الصياغة: مثل "العلم في الصدور. وليس في السطور". وفي العامية يُقال "المعلومات في الرأس. مش في الكراس". وتماثلها عبارة "الذاكرة وليس المذكرات". وبنفس المعنى تقريباً قول أحد الشعراء في أهمية حفظ المعلومات أكثر من جمع الكتب التي تضمّها. وذلك بقوله:

عليك بالحفظِ دون الجمعِ في الكتبِ فإن للكتبِ آفات تفرقها
النار تحرقها. والماء يغرقها واللِّص يسرقها. والفأر يخرقها

***

*** ومن الأمثال التي تحتاج إلى مناقشة ما قد قيل من كثيرين حول العجلة والتأني أو البطء.**

* فمن المعروف جداً. المثل القائل. "في التأنّي السلامة. وفي العجلة الندامة". ومثلها "العجلة من الشيطان".

ويُضرَب هذان المثلان بقصد التروّي والتفكير وعدم التسرُّع.

لأن بعض الأمور التي تعمل بسرعة. لا تأخذ حظها من الدراسة وعمق التفكير.

ولكن يجب ملاحظة الفرق بين السرعة والتسرُّع.

التسرُّع مذموم. ولكن السرعة قد تكون واجبة أحياناً. كالسرعة في إنقاذ إنسان في خطر. والسرعة في أداء الواجب وفي إغاثة المحتاج. وهنا أورد بيتيْن من الشعر. كل منهما يُعارض الآخر.

* قال أحد الشعراء في التأنّي:

قد يدرك المُتأنّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

* فرد عليه شاعر آخر بقوله:

وكم أضرّ ببعض الناس بطؤهم وكان خيراً لهم لو أنهم عجلوا

***

*** هناك مَثل في الحرص والبعد عن المخاطر. يقول:**

"امشي سنة. ولا تخطي قنة "أي قناة""

ومع أن هذا المَثل يضرب في الحث على تحاشي الأخطار. ولو أدّي الأمر أن يتكلّف الإنسان مزيداً من الوقت والجَهد.. أي أن يسلك الإنسان في الطريق الآمن، ولو كان طويلاً ولا يختصر المشوار بأن يعبر قناة ربما تسبّب الغرق. حتى لو أنه في سبيل هذا الحرص يمشي سنة.

وطبعاً من عيوب هذا المَثل المُبالغة الشديدة في الحرص. التي تبعد الإنسان عن روح الجرأة والمخاطرة. وتولّد فيه شيئاً من مشاعر الخوف. وما أسهل أن يعبّر القناة دون أدنى خطر.

***

والمبالغة في الحرص بروح الخوف. تذكّرنا بمَثل آخر يقول:

* "أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ".

ومعناه أن الذي يبالغ في الحرص على عدم إغضاب أحد منه. مهما كانت الأسباب. سوف يقوده ذلك الحرص إلى حالة من الذلّ والخنوع لكل أحد. وقد يضطره الواجب أن يقول كلمة حق دفاعاً عن مظلوم. فإن امتنع عن ذلك حرصاً منه ألاّ يصطدم بالظالم!! لوجد نفسه ذليلاً لكل من هو قوي.

***

* ومن أنواع المبالغة في الحرص التي تضرّ. المثَل القائل:

والذي يرقب الريح. لا يزرع.

فإذا خاف إنسان من تقلبات الجو. وراقب اتجاه الريح. وتخوّف من الزراعة في جوّ مُعيّن. هذا لن يزرع إطلاقاً الذي يقول: نحن الآن في شهر أمشير. شهر العواصف والزعابير. والرمال التي تثيرها الرياح.. هذا الإنسان لن يستطيع أن يزرع بسبب تخوّفه. بينما الحقيقة هى على العكس. لأن شهر أمشير هو أنسب الشهور لغرس الأشجار.

إن هذا الخائف يذكّرنا بقول سليمان الحكيم:

"قال الكسلان: الأسد في الطريق. الشبل في الشوارع".

***

*** مثل آخر يقوله بعض الريفيين في الوراثة. وهو:**

"اكفي القدرة على فمّها. والبنت تطلع لأُمّها"

فإن كانت الأُم مُتعبة وعصبية المزاج. يتخوّف الشباب من الزواج بابنتها. ولا يتقدّمون لخطبتها. على اعتبار أنها سوف تكون في نفس طباع أُمّها.

وهذا خطأ طبعاً. فلا نستطيع أن نأخذ هذا المَثَل بطريقة مُطلقة. فربما تكون لإحدى الأمهات بنتان. وكل منهما بطبع مختلف عن الأخرى. وربما ترث إحداهما شيئاً عن أُمّها. ولا ترث الأخرى شيئاً من الطباع. وإنما بعض ملامح من الشكل.

كذلك فإن طبع كل فتاة لا تتحكّم فيه وراثة بعض من الأم!

إنما هناك عوامل كثيرة مؤثّرة. منها البيئة. والمحيط العائلي على مستوى واسع. وكذلك تأثير الثقافة. ودرجة الذكاء. وما يمكن اكتسابه من الصديقات ومن الأساتذة. ومن مراكز الشباب. ومن الإرشاد النفسي والاجتماعي ومن أسباب أخرى.

وقد يكون أبو الفتاة هادئاً ووديعاً. وترث الابنة منه أكثر ممّا ترث من أُمّها. وتتأثر بأخلاقه الطيبة أكثر ممّا تتأثر بطباع الأم.

* وتوجد أمثال أخرى إيجابية لوراثة العنصر الطيب. مثل "ابن الوز عوّام". و"هذا الشبل من ذاك الأسد" ولاشك أن الإنسان قد يرث عن والده أو عن والديه بعض صفاته من الذكاء. أو من الجرأة وما أشبه.. ومع ذلك لا تتحكم في هذه الأمور كلها قاعدة ثابتة.

بل قد توجد أمثال تعطي العكس تماماً. مثل: "فساد العلماء في أبنائهم" أو "النار تخلّف رماداً".

إذن لا نأخذ هذه الأمثال وغيرها على مستوى الإطلاق.

بل لكل حالة ما يناسبها. والناس يختارون من بين الأمثال ما يناسب الحالة التي يصفونها. سلباً أو إيجاباً.

***

*** هناك أمثال أخرى في التعامل مع الأقوياء. مثل:**

* "البيضة ما تكسرشي الحجر".

وهى نصيحة لِمَنْ يتحدى من هو أقوى منه. أو من هو أكثر منه سُلطة ونفوذاً. فالضعيف ليس من صالحه ولا في مقدوره أن يغالب القوي الذي هو صنو له. وفي ذلك قال الشاعر عن مثل هذا:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنةَ الوعلُ

أي إن أراد هذا النطّاح أن يُضعف الصخرة بنطحه إياها. فلن يقدر. بل على العكس فإن الصخرة هى التي تصيب قرنه وتضعفه.

***

*** ومن الأمثال عن تأثير البيئة والعِشرة الخاطئة:**

"مَنْ عاشر قوماً أربعين يوماً. صار منهم".

فنحن لا ننكر أن "المعاشرات الردية تُفسِد الأخلاق الجيدة". ومع ذلك فإن كثيراً من الأنبياء وُلدوا في بيئات خاطئة. وعلى الرغم من ذلك لم يصيروا مثل الوسط الذي عاشوا فيه. بل أصلحوه. وكان لهم تأثير إيجابي عليه بقدوتهم الصالحة. وتأثيرهم القوي.

ونفس الوضع ينطبق على كثير من المصلحين في أجيالهم وربما ما يقصده هذا المَثل بعبارة "من عاشر قوماً" أي من اختلط معهم في تصرُّفاتهم. فيتأثّر هو بهم. دون أن يؤثِّر عليهم. وهكذا بمرور الوقت يصير مثلهم.

***

• **أيضاً من الأمثال التي نود أن نُحلِّلها ونعلِّق عليها. قولهم:**

"كل تأخيرة. وفيها خيرة" أي أن هناك خيراً وراء كل تأخير.. وهذا مثل يريدون به أن يعزّوا ويطيّبوا خاطر من تأخّر أو من تأخر عليه شيء كان يسعى إليه. فيقولون له: لا بد أن هناك خيراً يختفي وراء هذا التأخير.

ولكن هذا المثل لا يمكن أن يكون حقيقة ثابتة مقبولة، فهناك أمور لا يمكن أن يكون فيها التأخير خيراً.

فتأخير التوبة ليس خيراً. بل على العكس قد يزداد به عمق الخطية في القلب. ويزداد ضعف الإرادة في ترك الخطأ. بل ربما تزول أيضاً الرغبة في التوبة. التي كان يجب أن يستجيب لها الخاطئ دون أن يتهاون فيضيع منه الدافع.

كذلك ليس التأخير في علاج المرض خيراً. بل بالتأخير يتمكّن المرض بالأكثر. ويصير العلاج أصعب.

كذلك ليس خيراً. التأخير في دفع أُجرة الأجير. وهو محتاج إليها لسداد عوزه. وليس خيراً التأخير في إنقاذ الغريق. أو في إطفاء الحريق.

وربما التأخير في القيام بمشروع مُعين. يجعل تكاليفه أكثر. وقد يُوجد لنا منافسين يعرقلون تنفيذه.

أمّا إن كان التأخير سببه المزيد من التفكير والتروّي والدراسة النافعة. وانتهاز الوقت المناسب. أو الانتظار للمشورة الحكيمة. ففي هذه الحالة يكون خيراً. ولا نسمّيه تأخيراً بل حكمة في التوقيت.

***

* **وتوجد أمثال كثيرة خاصة بالجيران والجيرة منها:**

* "الرفيق قبل الطريق".

بمعنى أن الإنسان الذي يرافقك في طريق الحياة. أهم من الطريق ذاته. لذلك اهتم بقدر الإمكان باختيار من يزاملك في أي مكان أو أي مشروع. ومن يُشاركك. لأن له تأثيراً على عملك وعلى حياتك.. وهناك مثل آخَر مُشابه وهو:

* اشترِ الجار قبل الدار.

فقبل أن تشتري بيتاً. ابحث أولاً من سيكون جارك فيه.

واحترس جداً من أن يكون ذلك الجار سبب تعب لك، وهناك مَثل يجمع بين المثليْن السابقين وهو:

- اسأل عن الجار قبل الدار. وعن الرفيق قبل الطريق.

- وهناك أيضاً مَثَل مشابه وهو:

"من شروط المرافقة. الموافقة".

ويصلح هذا المثل أن ينطبق على الصداقة. وعلى الزواج. وعلى المشاركة في العمل. وعلى الجيرة.

* فإن حدث وجاور الإنسان من لا يوافقه. فهناك مَثَل ينصح بعدم الخلطة فيقول:

"صباح الخير يا جاري. أنت في دارك. وأنا في داري".

أي مع هذا النوع من الجيران. يكفي مجرد السلام "صباح الخير".

ويبقى كل إنسان في حاله. دون تزاور ودون خِلْطة.

* وعن مضار الجيرة المؤذية. يقول المثل:

"من جاور الحداد. اكتوى بناره".

يُطلَق هذا المثل على مُعاشرة الأردياء وكاسري القوانين. فإنه إن أصابتهم كارثة. قد تصيب المختلطين بهم أيضاً.

* وعكس هذا المثل. مثل آخر يقول:

"من جاور السعيد يسعد".

وهذان المثلان يُضربان لتأثير الجوار. خيراً كان أو شرّاً.

***

على أن مجال الأمثال الشعبية واسع جداً.

نكتفي حالياً بما قلناه كمثال، وتبقى الأمثال الشعبية فيها المقبول وغير المقبول.

٢٠٠٢/٦/٢٥

الحق

ما هو الحق ؟ وما أضرار أنصاف الحقائق ؟
كيفية (الدفاع عن الحق) وأخطاء في ذلك الدفاع ؟

● **ما هو الحق ؟**

كلمة الحق لها عدة معانٍ، سنحاول أن نشرحها:

أولاً : الحق بمعنى الصدق Truth

فلان يقول الحق أي يقول الصدق. وفي المحكمة يقسم الشاهد أن يقول الحق، بهذا المعنى. والسيد المسيح كان كثيراً ما يبدأ كلامه بعبارة (الحق الحق أقول لكم) ومن كلمة الحق، اشتقت:

كلمة (تحقيق). أي فحص الأمر من جميع جوانبه. وسماع الرأي، والرأي الآخر بهدف الوصول إلى الحقيقة.. أمّا الذي يسمع من جانب واحد، فلا تتضح له الصورة الحقيقية، وإنما مُجرّد وجهة نظر.

ثانياً: كلمة الحق تعني أيضاً ما يستحقه الإنسان، أي حقوقه. ومنها عبارة (حقوق الإنسان) Human rights وهنا يقول البعض (هذا من حقّي) (وليس من حقّك) ونتكلّم عن حقوق الشعب، وحقوق المرأة، والحقوق المهضومة لبعض الشعوب، أو يطالب شخص باستحقاقه في الميراث، أي بحقّه فيه.

ثالثاً: وكلمة الحق تعني في داخلها معنى العدل. والإنسان الحقاني Fair هو الذي يُعطي كل ذي حقّ حقّه، أي الإنسان العادل. وقديماً كنّا نُسمّي وزارة العدل: وزارة الحقانية وما زال قضاتها ومحاموها من خريجي كلية الحقوق، أي الكلية التي تدرس فيها حقوق الأفراد والجماعات، لكي ينال كل إنسان حقّه، ويتدرّب على أن يحكم حكماً حقانياً أي عادلاً.

رابعاً: الحق أيضاً هو ضدّ الزيف والبطلان أي True أو Lyenuine فالذهب الحقيقي هو الذهب الخالص، وليس المُزيّف أو المخلوط.

والمعنى الحقيقي للكلمة، هو المعنى الذاتي لها، وليس المعنى الرمزي أو المجازي أو الشبيه. والمواطن الحقيقي هو ابن الوطن بالحقيقة الذي يُحبّه ويفديه، وليس مجرد مواطن بالبطاقة الشخصية، أو اكتسب حق المواطنة بطريقة ما.

الشيء الحقيقي هو الحقيقي في جوهره، وليس اكتساباً فالابن الحقيقي هو الذي أنجبه الأب من صلبه، وولدته الأُم من أحشائها. وليس هو الابن عن طريق التبنّي أو الانتساب.

الشمس مثلاً نورها حقيقي من ذاتها. بعكس نور القمر الذي يكتسبه من انعكاس نور الشمس عليه.

خامساً: الحق أيضاً هو اسم من أسماء اللّه سواء في الإسلام، أو في المسيحية ...

تكلّمنا عن معنى كلمة (الحق). ننتقل إلى نقطة أخرى وهى:

• أنصاف الحقائق

عندما يقسم الشاهد في ساحة القضاء يقول (أقسم أن أقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق) .. وهنا أركّز على عبارة (كل الحق) .. وأتدرّج إلى خطورة (أنصاف الحقائق). وكما يقولون:

أنصاف الحقائق ليست كلّها حقائق وأيضاً أنصاف الحقائق ليست إنصافاً للحقائق ففي أنصاف الحقائق ربما يرد جزء مُعيّن من الأحداث، ولا يذكر الجزء الآخر المُهم. أو قد يُقال رد الفعل، دون أن يُقال الفعل الذي أدى إليه. أي تذكر النتيجة دون ذكر أسبابها.

امرأة قد تشكو زوجها، وتشرح إساءة مُعاملته لها. وتترك النصف الآخر من الحقيقة، وهو إغاظتها له بطريقة أثارته جداً. فخرج عن وعيه أو فقد أعصابه، فأهانها.. وهنا تحكي ما حدث لها، كأنه مجرد تصرُّف خاطئ من الزوج، وليس رد فعل لتصرُّفها.

وقد يأتيك شخص ويشكو أن خصمه قد فقأ له إحدى عينيْه في مشاجرة بينهما. وبالتحقيق تجد أن ذلك الخصم قد فقئت كلتا عينيْه في نفس المشاجرة، أمّا الشاكي فينطبق عليه المَثل القائل: "ضربني وبكى، وسبق واشتكى"..!

وبالمثل قد تكون نفس الشكوى من يقول: رئيسي في العمل قد عاقبني وخصم لي أياماً من مرتبي. دون أن يذكر الذنب الذي بسببه خصم له رئيسه تلك الأيام!

وهكذا فإن أنصاف تلك الحقائق. على الرغم من صدقها لا تعطي صورة حقيقية عمّا حدث. أو على الأقل لا تعطي صورة مُتكاملة.

وقد تظهر خطورة (أنصاف الحقائق) في مجال الفَهْم الخاطئ للدين أو العلم كأن يعتمد شخص على نصّ مُعيّن، دون أن يذكر عبارة مُعينة دون أن يذكر المناسبة التي وردت فيها والتي تبيّن المقصود منها.

وهكذا يقول الكثيرون إن أنصاف المُتعلّمين لهم خطورتهم، بل يمكن أن نصفهم بأنهم أشباه المُتعلّمين. مثالهم أيضاً الذي يصف لأحد أصدقائه دواء قد جرّبه واختبر فائدته، دون أن يعرف الآثار الجانبية لهذا الدواء Side effect أو المحاذير التي بسببها يمنع استخدام هذا الدواء. ولكن الصديق على الرغم من إخلاصه إنما ينصح بأسلوب (أنصاف الحقائق)!

وقد يقول شخص عن انهزام دولة مُعينة في حرب مشهورة، إن سبب انهزامها هو (كذا) .. وقد يكون هذا السبب صدقاً، ولكنه ليس كل الأسباب. فهناك أسباب كثيرة أدّت إلى انهزامها. وما ذكره، إنما مجرّد واحد منها. وقد تكون الأسباب الأخرى أكثر خطورة!

وبنفس الأسلوب من يتحدّث عن مشكلة البطالة، أو مشاكل الاقتصاد، وما أشبه، ويركز على سبب واحد له أهميته في نظره هو وفي تقديره، بينما توجد أسباب أخرى لا يعرفها أو لم يدرسها. ولا يكون حديثه هو الحق الخالص، أو لا يكون هو (كل الحق) والسبب هو الجهل..

***

ننتقل بعد كل هذا إلى نقطة أخرى وهى:

- **ما هو ضدّ الحق**

- إن كان الحق هو الصدق. فبلا شك أن الكذب ضد الحق سواء كان هذا السبب مقصوداً أو غير مقصود.

- كذلك كثيراً ما تكون الشائعات ضد الحق. وربما تنتشر هذه الشائعات بسرعة فائقة ويتداولها الناس بدون فحص أو تفكير، وينشرونها بدورهم. ويساهمون بهذا في تضليل شريحة واسعة من المجتمع. وقد يعتذرون فيما بعد أنهم فعلوا ذلك بحُسن نيّة!! وأنهم خُدِعوا كالذين قاموا هم بخداعهم عن طريق نشر الشائعات.

- النفاق أيضاً ضدّ الحق: وهو مدح إنسان بما ليس فيه، مع معرفة ذلك تماماً. وقد يحدث في مجال الأسرة، أو الزملاء في العمل، أو في نفاق تماماً بين مرؤوس في العمل ورئيسه لكسب رضاه ونوال الترقية.. أو نفاق بين خطيب وخطيبته، يظهر زيفه بعد ذلك في الحياة الزوجية.. إننا لا نمنع بعض المجاملات الخفيفة المعقولة والمقبولة كلون من أدب الحديث. أمّا لو تطوّر الأمر إلى النفاق مع خطورة أنواعه، فإنه يكون ضد الحق، وكثيراً ما يكون مكشوفاً.

- الرياء أيضاً ضد الحق. وهو أن يتراءى الإنسان على غير حقيقته. كما وكان بفضائل ليست له. وقد قال الشاعر في ذلك:

ثوب الرياء يشفّ عمّا تحته

فإذا التحفت به فإنك عاري

ويدخل في هذا الأمر مَنْ يظهرون غير ما يبطنون. ومن يبتسمون ابتسامات صفراء، ومن يبكون بدموع التماسيح!!

- الصداقة الزائفة هى كذلك ضد الحق: قد يدّعي شخص أنه صديق لآخر، بينما يجرّه معه إلى الهاوية !! أو يشجّعه على الخطأ، ويكون هذا التشجيع ضد الحق، يجعله يستمر فيما هو فيه من السقوط. وقد يدّعي أنه يحبّه، بينما هذا (الحب) الزائف يضيعه تماماً. وهذه الصداقة ليست صداقة بالحقيقة. فالصديق الحقيقي ينبغي أن يساعد صديقه على الخير ولا يتسبّب في ضياعه.

وبالمثل شاب يدّعي أنه يُحب فتاة. بينما شعوره نحوها ليس حُبّاً، بل هو شهوة ! وتحت ستار ما يُسمّيه حُبّاً، يُضيع أخلاقها وسمعتها ومستقبلها! ولا يمكن أن يكون ما بينهما حُبّاً بالحقيقة، ما دام يخلو من القيم!

- ضدّ الحق أيضاً: الخداع.

وما أكثر أنواع الخداع: منها ما يحدث قبل الزواج بين الخطيبيْن، في فترة الخطوبة أو ما قبلها، ممّا قد يؤدّي أحياناً إلى بُطلان الزواج، أو إلى انهيار الحياة الزوجية وأيلولتها إلى الطلاق.

ومن الخداع ما يحدث في مجال التجارة، في الدعاية إلى المبيعات غشّاً، وفي أنواع السمسرة وما يختلط بكل ذلك من كذب!

ومن الخداع ما يروّج إليه البعض من قدرة على تمكين غيرهم من السفر والهجرة، وإذا هم أمام سراب لا يتحقّق منه شيء.. أو من الادعاء في قدرتهم على توظيف غيرهم، ولا يكون هذا إلاّ خداعاً! ولسنا في مجال تفصيل أنواع الخداع، فلننتقل إلى نقطة أخرى:

***

● **الدفاع عن الحق**

قبل أن أتكلّم عن هذه النقطة، لا بد أن أذكر ثلاث ملاحظات:

١- عليك أن تأخذ حق اللّه من نفسك، قبل أخذه من الآخرين!

فما أكثر الذين يلبسون ملابس المصلحين، وينادون بالدفاع عن الحق، وهُم أنفسهم في حاجة إلى أن يهتموا أولاً بأنفسهم ليصلحوا ما فيها من أخطاء أو من فساد. كما قال السيد المسيح لرؤساء اليهود الذين طلبوا منه الموافقة على رَجْم المرأة الخاطئة، فقال لهم: (من كان منكم بلا خطية، فليرميها بأول حجر)! أو كما قال الشعراء عن امرأة خاطئة أخرى مثل هذه:

أسألت من نبذوك نبذ المنكر

كم بينهم من فاجر متستر

الصائمون المفطرون على الدم

الظامئون إلى النجيع الأحمر

من كل عاد في ملابس عادل

أو مجرد يزهي بلبدة حيدر

ودعوك بائعة الأثيم من الهوى

كذبوا فإن الذنب ذنب المشتري

٢- ينبغي لِمَنْ يدافع عن الحق، أن يعرف ما هو الحق، ويثِق أن ما يدافع عنه هو حق.. لئلاّ فيما يظن أنه يدافع عن الحق، يكون مُدافعاً عن باطل !!

فكثيراً من الناس يتحمّسون للدفاع عن أمور يوقنون تماماً في داخلهم أنها هى الحق، بينما بعيدة تماماً عن الحق! وما دفاعهم إلاّ لون من الحماس الباطل مدفوعين إليه بجهل، أو بخضوعهم لشائعات مُعيّنة أو لقيادة مُضلّلة. كما قيل في العهد القديم (يا إسرائيل مرشدوك مُضلّون).

٣- الذي يدافع عن الحق، ينبغي أن يدافع بأساليب حقانية:

لأنه قد يدّعي إنسان أنه يُدافع عن الحق، أو عمّا يظنه حقّاً، ولكن بأسلوب بعيد عن الحق تماماً !! كأن يتجاوز حقّه في الكلام، أو يقول كلاماً ليس من حقه شعور الآخرين، أو نشر اتهامات مختلفة، ممّا يدخله في جريمة السبّ العلني.

والقذف، ويعرّضه للمحاكمة. إذ يكون قد أساء إلى غيره إساءة كبيرة، وبغير وجه حقّ. كما يكون قد وقع في خطايا عديدة يدينه اللّه عليها. ويكون الحق قد ضاع فيما يظنّه دفاعاً عن الحق.

- إنّ من الكلمات الهامة التي نذكرها في مجال الحديث عن الحق، قول الكتاب عن العدل والحق: (مُبرئ المُذنب، ومُذنّب البريء، كلاهما مكرهة للرب).

ذلك لأن مُبرئ المُذنب ضدّ الحق، وأيضاً مُذنّب البريء ضدّ الحق. والحق هو اللّه. فكلاهما إذن ضدّ اللّه أو ضدّ وصاياه.



٢٠٠٢/٧/٢

ما أعجب طبيعة الإنسان!
وما أعجب كل طاقاته وإمكاناته!
كيف يكتشفها وينمّيها ويستخدمها؟!

* مَنْ هو الإنسان؟

ما أعجب الإنسان. حار كثيرون في فَهْمه وتعريفه!

البعض يقول إنه نفس وجسد وروح. إنه نفس تشتهي. وهو روح تتصل باللّه. تصلّي وتتأمّل وتتعبّد. وتشتهي ضدّ الجسد. حتى يقاوم أحدهما الآخر.

والإنسان هو مجموعة من الغرائز والطاقات. يسيطر عليها أحياناً ويوجهها. وفي أحيان أخرى تتسلّط عليه هذه الغرائز. وتوجّه طاقاته وتقودها.

الإنسان هو ضمير يشرّع. ويرقب ويقضي ويدين. وهو ضمير ينام حيناً. أو يستسلم لأمور خارجية تتحكّم في أحكامه!

الإنسان هو عقل جبار. وصلَ إنتاجه إلى مستوى الأعاجيب. وهو أيضاً قلب ينبض بمشاعر وأحاسيس. قد ترقّ حتى تبكيه. وقد تقسو فتحوّله إلى وحشٍ كاسرٍ!

الإنسان هو فكر لا يصمت. وأفكاره على أنواع ومستويات.. قد تعلو حتى تصل إلى السماء وإلى اللّه. وقد تتدنّى. فلا تنشغل إلاّ بالجسد والمادة. وقد تتعقد حينما تبحث أموراً فوق مستواها.

***

الإنسان هو هذا كله معاً.. ولكن ليس بمقياس واحد. وكثيراً ما يطغي فيه أحد هذه العناصر أو بعضها. فتصبح هى السّمة التي تميّزه عن غيره. وقد تتصارع فيه هذه العناصر التي ذكرناها. ويستمرّ فيه الصراع. أو يهدأ ويستقر. وفي هذا يختلف إنسان عن الآخر.

وقد قال البعض عن الإنسان إنه عالم صغير Micro cosmos.

فيه الجبل العالي. وفيه البحر العميق. وفيه الطين والمستنقع. فيه الذهب والدُّر. وفيه الرمل والحصى.

فيه النور الساطع. وفيه الضباب الذي يحجب النور. فيه أشياء عديدة. قد تتآلف حيناً. وقد تتناقض في حين آخر.. وأود الآن أن أُحدّثك عن طاقات الإنسان.

***

*** طاقات الإنسان**

لقد زوّد اللّه الإنسان بطاقات كثيرة. كلٌ منها لها اختصاصاتها. ولها إمكاناتها ومقدراتها. نذكر منها العقل. والروح. والنفس. والضمير. والإرادة. والحواس.. يُضاف إلى كل هذا. ما يمنحه اللّه لكل إنسان على حدة من المواهب.

ويختلف كل إنسان عن غيره. في درجة هذه الطاقات كلها.

صدِّقوني إننا لم ندرك بعد مقدار عظمة كل هذه الطاقات البشرية العجيبة.. ولنتناول العقل كمثال:

منذ البدء خَلَق اللّه للإنسان عقلاً. وتركه على حريّته في التعامل مع هذا العقل. بعض الشعوب أهملت عقولها. فبقيت على حالة بدائية محدودة الفَهْم. بينما شعوب أخرى عملت على تنمية تفكيرها. كقدماء المصريين مثلاً الذين عرفوا التحنيط الذي لا تزال أسراره أو بعضها غامضة لم تكتشف بعد.. ونبغوا أيضاً في الكيمياء وفي العمارة وفي الفلك. وشعوب أخرى كاليونان مثلاً درّبوا عقولهم في التفكير النظري. فنبغوا في الفلسفة. وصار منهم سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيون وغيرهم.

ولكن مَنْ في العصور القديمة كان يظن ولو في الخيال أن العقل البشري سيصل إلى ما وصل إليه الآن من اكتشافات؟!

إنه نفس العقل البشري. ولكنه أمكن اكتشاف طاقات فيه لم تكن مستخدمة. ثم استخدمت في هذا الجيل؟!

مَنْ كان يتصوّر أن العقل يمكن أن تصل طاقاته إلى اختراع سُفن الفضاء تصل إلى القمر مباشرة ويتمشّى الإنسان عليه..؟! أو أن يخترع أقماراً صناعية تجول حول الكون. وتجمع أخباراً وترسل صوراً عن كواكب في السماء وأحداثاً على الأرض؟!

ومَنْ كان يتصوّر أن العقل البشري يستطيع أن يتوصّل إلى اختراع عقل آلي. وإلى اختراع الكمبيوتر. والفاكس. والموبيل فون Mobile Phone. وأن يستعين بالآلة على سرعة

التفكير. وجمع المعلومات. واستنتاج الحقائق.. ممّا يسمّيه العالم الآن بثورة المعلومات. وأعجوبة الاتصالات!!

وليست طاقات العقل ضد الدين في شيء. فاللَّه هو الذي خَلَق العقل ومنح له كل تلك الطاقات..

فكل ما يصل العقل إليه. يرجع الفضل فيه أولاً وأخيراً إلى اللَّه تبارك اسمه. الذي وضع فيه كل تلك القدرات حين خَلقه. غير أن العقل لم يكن يدرك كل ما في مقدراته.. وأخذ تدريجياً يزيد معرفته ومعلوماته. ويكتشف قدراته ويستخدمها. ولا أظن أنه قد أدرك حتى الآن كل ما فيه..

ويمكننا أن نقرّر أننا لم نصلْ بعد إلى اكتشاف كل طاقات العقل. الذي قد يتمكّن من اختراع أمور لا تخطر حالياً على فكر إنسان!!

ما زال التقدُّم الفكري مُستمرّاً. وعجلة الاختراع مستمرّة في الدوران. ولا ندري إلى أين يستقر بها العمل. وقد لا يستقرّ. عندما اخترعت الطائرة. قال عنها أمير الشعراء أحمد شوقي:

مركبي لو سلف العصر به ... كان إحدى معجزات القدماء

فماذا تراه كان يقول لو رأى ما وصلت إليه صناعة الطائرات في أيامنا؟! والصواريخ عابرة القارات أو المحيطات. وسُفن الفضاء الجوي. وما يقولونه عن اختراع طائرات تطير بدون طيار؟!

وماذا تراه يقول عن طائرات تصل إلى أحد الكواكب. ويكون بينها وبين الأرض اتصال!! وتعينها قاعدة على الأرض.

وماذا يقال عن الاختراعات التي تمّت في خدمة الطب. وعن معرفة جنس الجنين وهو في بطن أمه. وعن عمليات جراحية في القلب تجرى للجنين قبل أن يولد..!

لعلّ أبانا آدم وأُمّنا حواء منبهران وهما في العالم الآخر. بما يجري في عالمنا من أخبار ومن أحداث!! ولعلّهما يقولان: أهذا عقل قد أنجبناه؟! وهل صار أولادنا أكثر ذكاء منا؟!

***

*** والروح في الإنسان. لها أيضاً طاقات عجيبة مُذهلة!**

الناس لم يعرفوا كل طاقات الروح البشرية. لأنهم لم يكتشفوا كل طاقات الروح ولم يستخدموها. ولم يدخلوا في التدريبات التي تنشط الروح وتمنحها الانطلاق الطبيعي لها.

ونحن حينما نقرأ عن التدريبات الخاصة بالروح. وما يتعلّق بها من تدريبات للجسد. التي تجريها جماعات من الهندوس ومنها اليوجا. وما وصلوا إليه من نتائج. نري عجباً..! إنها ليست معجزات ولا هى قدرات خارقة. ولكنها الطاقة الطبيعية للروح. التي لا نستخدمها نحن. لأننا نهمل ذلك أو لا ندركه.

وربما يدخل في مجال حديثنا. ما يُعرف بِاسم Yelepakhy أي معرفة النفس عن بُعد. خارجاً عن مساعدة الحواس.

***

*** كذلك فإن طاقات الحواس. لم نستخدمها نحن كلها..**

وذلك لعدم شعورنا بالاحتياج الكامل إلى كل الحواس. وهكذا فإن عدم استخدامها. جعلها طاقات كامنة مختفية. تظهر حينما نفقد حاسة مُعيّنة. فنستعيض عنها بتنشيط حواس أخرى بديلة.

فإنسان مثلاً يفقد بصره. ويحاول أن يستعيض عنه بالسمع وباللّمس. فتقوى عنده حاسة السمع وحاسة اللّمس. وربما حاسة الشّم أيضاً. لأنه أخذ يُدرّب هذه الحواس تدريباً دقيقاً. لتكون له أبواباً للمعرفة عوضاً عن النظر. وهنا تظهر الطاقات الجبارة الموجودة في هذه الحواس. والتي كانت كامنة غير ظاهرة في حالة عدم استخدامها.. إنها "قطع غيار" موجودة لم نستخدمها بعد.. وقد استخدمها أحبّاء لنا في حالة إعاقتهم. وكان عملها فيهم عجباً.

إن الإنسان الكامل في كل طاقاته. في كمال عقله وروحه وكل حواسه.. أهو ما يسمّونه سوبر مان؟ Super - Man.

***

*** حرص وتداريب**

إن طبيعة الإنسان في كمالها من كل ناحية. تحتاج إلى حرص واهتمام. بحيث لا يفقد الإنسان شيئاً من كل طاقاته. كما يحتاج إلى تداريب لاكتشاف تلك الطاقات. والحفاظ عليها. وتنميتها أيضاً. واستخدامها عملياً.

نعم. يلزم كل إنسان أن يُنمّي كل طاقاته وقدراته ومواهبه.

اللّه قد منحك عقلاً. ووهبك ذكاءً خاصاً في هذا العقل. أو وهبك لهذا العقل ذاكرة قوية.. يلزمك إذن ليس فقط أن تحافظ على هذا كله بل أيضاً أن تنمّي عقلك وذكاءك وذاكرتك.. تنمّي قدرتك على الفَهْم والاستيعاب. وعلى التفكير السليم. وعلى الاستنتاج. وعلى حلّ المشاكل.

فالمسائل الرياضية. والتمارين الهندسية. التي كُنّا ندرسها في المدارس. لم تكُن لمجرّد العلم. أو تمهيداً للتخصُّص في الرياضة والهندسة. إنما كانت لها فائدة أخرى في تدريب العقل على التفكير.

خُذ مثلاً: اثنين يلعبان الشطرنج. وكل منهما صامت يُفكِّر:

كل منهما يفكِّر ما هى الخطوة التي يتوقّع أن يلعبها زميله. وكيف يرد عليها؟ وماذا سيكون رد زميله على رده؟ وكيف سيتصرّف وقتذاك؟ وكيف يمكنه أن يُعرقل خططه؟ وكيف يضع هو خططاً غير مكشوفة تصل به إلى النتيجة المطلوبة. ولو بعد مراحل..؟ إنه تدريب على الذكاء. وليست هى مجرّد لعبة للتسلية وقضاء الوقت.

الألغاز أيضاً وحلّها. والمسابقات.. كلها تداريب للتفكير..

يمكنك أن تتدرّب على حلّها. لنفسك ولأولادك وتلاميذك أيضاً. حتى ينشأوا بعقل قوي مُتدرّب على التفكير حتى إذا داهمتهم مشكلة. يكون عقلهم مستعداً لمواجهتها بغير اضطراب.

وفي الحياة العملية توجد تداريب على الحكمة في التصرُّف. وعلى تنمية الفكر عن طريق المشورة والانتفاع بخبرات الآخرين.

***

*** الجسد أيضاً طاقة وهبها اللّه للإنسان**

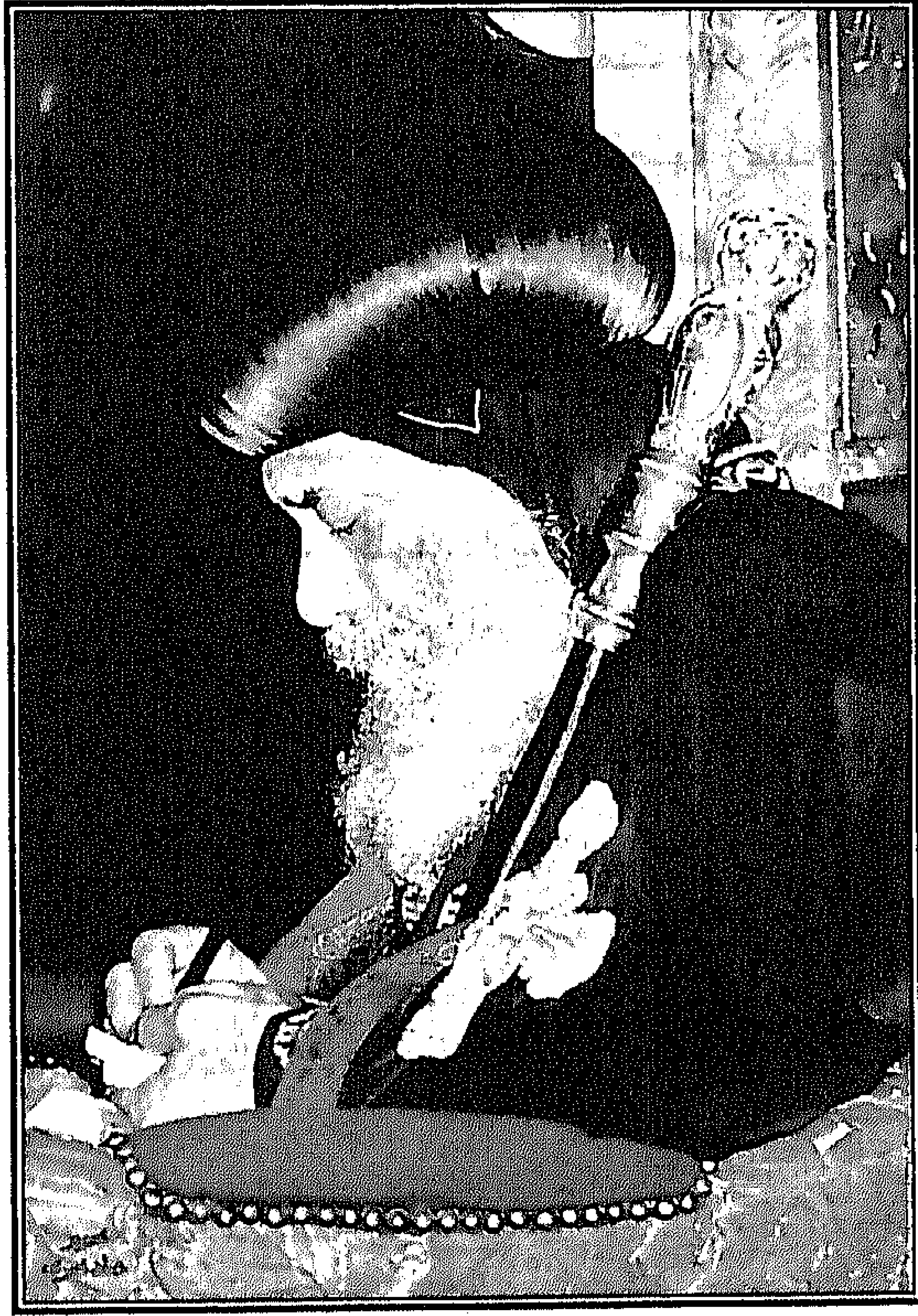
فهو الجهاز التنفيذي لكثير من القرارات التي تصدر عن الروح وعن العقل. وعن الإرادة. وعن الضمير. والجسد القوي يستطيع أن يُنفِّذ. بينما الجسد الضعيف يعجز عن ذلك.

وما أسهل أن تؤثّر أمراض الجسد على النفس فتجلب لها ألواناً من الألم أو الحزن. أو الضيق أو التذمُّر. بل كثير من الناس قد يصِلون إلى درجات من الانهيار النفسي بسبب

حالة أجسادهم. أو يصِلون إلى مرض الكآبة أو إلى الحيرة والقلق. أو تنشغل عقولهم بكيفية التصرُّف مع مرض الجسد.

وبعض أمراض الجسد تؤثِّر على كثير من طاقاته. أو تؤثّر على نفسيته وسلوكه. أو تضعف قدرته على العمل.

لذلك علينا أن نهتم بصحة أجسادنا. كما نهتم بعقولنا وأرواحنا. ولا نجعل ضعف أجسادنا يؤثِّر على طاقة العقل والروح.



٢٠٠٢/٧/٩

لا تجعل راحتك على تعب الآخرين

كل إنسان يبحث عن راحته. ونحن لا نلومه على هذا. لأن من حقّه الطبيعي أن يعيش في راحة. إنما النصيحة الجوهرية التي نقولها له هى هذه: لا تكن راحتك على تعب الآخرين.. لأنك لو سلكت هكذا. فسوف تسلك في أسلوب أناني. هو تركيز على الذات. وفي نفس الوقت سوف تخسر كثيرين.. وسنحاول هنا أن نضرب أمثلة لِمَنْ يسلك هكذا.

***

*** نبدأ أولاً بموضوع الحرب والاحتلال**

دولة تريد أن تتسع رقعتها بغير حق. فتقوم بالإغارة على غيرها. لكي تحقق اتساعها باحتلال أراضيه. وذلك عن طريق الحرب وما فيها من إزهاق أرواح. وتهديم المباني. وتدمير كل مناطق التنمية. أو عن طريق الحصار الاقتصادي وما يتبعه من مجاعات وأمراض. وفي كل ذلك. لا تُبالي بمعاناة الدولة الأخرى التي تقاسي نتائج هذا الاعتداء.

وأحياناً لا يكون غرض الدولة المعتدية. أن تحتل الأراضي. إنما أن تغتصب الثروات الطبيعية. كالتوابل في الهند. أو البترول في البلاد العربية. والغرض واضح. وهو أن تجعل راحتها على تعب غيرها وتاريخ الاستعمار حافل بأمثلة عديدة جداً.

***

*** مثال ذلك أيضاً من يستخدم الضغوط للوصول إلى غرضه**

قد يكون هذا بالضغط على إرادته. لكي ينفّذ ما لا يريد. أو قد يستخدم أحياناً الإلحاح المُتعب. الذي يشكل ضغطاً على الأعصاب وعلى الأذنين. وقد يكون الضغط مُباشراً. أو عن طريق وسطاء. أو يكون ضغطاً على ضميره. بتهديده بإيقاعه في مسؤولية مُعيّنة أو في تهمة تلفّق له!!

المهم أن يصل مثل هذا الإنسان إلى غرضه بكثرة الضغوط. ولا يهمه مُطلقاً شعور من يضغط عليه. ولا تعب أعصابه. ولا تعب ضميره. وتعب فكره. وتعب إرادته. ومقاساته النفسية!

*** وما أكثر المشاكل الزوجية أو المشاكل العائلية. التي سبّبها من يجعل راحته على تعب غيره!**

مثال ذلك: الزوجة التي تطلب من زوجها طلبات فوق طاقته المالية. فإما أن ترهقه مالياً. أو تضطره إلى الاقتراض. أو إلى الديون. أو أن يقول لها ليس معي. وحينئذ تندب حظها العاثر في أنها تزوّجت رَجُلاً ليس معه ما ينفقه عليها! وهكذا تجرح شعوره. ولا تبالي بسبب رغبتها في تحقيق طلباتها! ونفس الكلام أيضاً ينطبق على الابن الذي يطلب من أبويه ما هو فوق طاقتهما. والمواطن الذي يطلب من الدولة ما هو فوق طاقتها..!

*** المدخّنون أيضاً يجعلون راحتهم على تعب غيرهم**

ينفخ الشخص منهم دخان سيجارته فيمن حوله. فيؤذيهم صحياً بذلك ويضايقهم. وبخاصة لو كان في مكان مغلق. في أتوبيس أو في حجرة. أو في عيادة طبيب! وينطبق على ذلك أيضاً المدخنون من الأزواج. إذ يؤذي أسرته بدخانه. وكذلك أصحاب المصانع التي تعكر الجو بدخانها في مناطق سكنية. وكذلك العربات التي تنفّث في سيرها دخاناً.

***

*** مثال آخر: من يُقيم حفلة ساهرة صاخبة بميكروفونات تنقل الصوت عالياً عَبْر عدّة شوارع!**

ويستمر ذلك إلى ما بعد منتصف الليل. في صخب وضوضاء. ولا يُبالي في ذلك بحاجة المريض المحتاج إلى نوم. والتلميذ الذي يلزمه الهدوء للمذاكرة. ولا يهمه من يفقدون حريتهم في القراءة أو في الحديث أو في الاستمتاع بوقتهم. المهم سروره هو بحفلته! ومثله من يفتح ترانزستور في أتوبيس أو قطار..

***

*** وبالمثل مَنْ يتعب غيره بمكالمات تليفونية قد تطول!**

يطلب غيره تليفونياً في أي وقت.. وقد يكون نائماً. أو على مائدة الطعام. أو عنده ضيوف يتحدثون إليه. أو يكون مُنشغلاً بعمل هام يجب أن يقوم به.. ويظل هذا الإنسان يتكلّم ويتكلّم. دون أن يسأل الذي يسمعه هل لديه وقت لسماعه أمْ لا. بينما اللياقة تقتضي أن يسأل.. ولكنه لا يُبالي بشيء من هذا كله!!

***

*** نفس الوضع في الزيارات التي بلا موعد!**

زيارة من صديق أو قريب. بدون موعد. بحجة أن الدالة أو المحبة لا تستدعي كُلفة في السؤال عن موعد ويدخل هذا الزائر. ويجلس ويتكلم. وقد تطول الجلسة. وصاحبه يخجل من أن يقول له إنه منشغل. أو كان على وشك الخروج لمهمة معينة وعاجلة. ويكون هذا الضيف جالساً في بيت صاحبه أو في مكتبه. وكأنه جالس على أعصابه! ولا يُبالي. لأنه مستريح بالزيارة!

***

*** مثال آخر: من يجد لذته في التهكم والسخرية بغيره!**

يتخذه مجالاً للضحك والتفكّه والتسلية. ويفعل ذلك أمام الناس. ويشركهم معه في السخرية. غير مبال بجرح مشاعر ذلك الشخص. وجعله أضحوكة! وبخاصة لو كان الشخص موضوع السخرية. لا يستطيع الدفاع عن نفسه. أو يحتشم من ذلك. لأن الذي يتندر عليه أكبر منه سِنّاً أو مقاماً! هذا الساخر يجد راحته في تعب غيره!

***

*** هناك أشخاص يريدون أن يتكلّموا في موضوعات لا يستريح لها سامعوهم!**

فيقصون أسرار أناس آخرين ويمسكون سيرتهم. ويتحدثون عن أخطاء قد حدثت. أو مشاكل وقعوا فيها. أو يجدون لذة في ترديد فكاهات بذيئة تجرح حياء سامعيهم. أو يفتحون أذهانهم لمعرفة أمور جديدة عليهم. من الخير لهم ألا يسمعوها..! ومع ذلك هم يريدون أن يتكلموا. ولو اتعبوا السامعين وشوهوا أفكارهم. ولو صبوا في آذانهم معلومات مؤذية لهم!! وقد يحاول السامع أن يهرب. ولكنهم يضغطون بالكلام. لأنهم يجدون راحتهم في الحديث. شاء السامع أو لم يشأ!!

***

*** نقطة أخرى. هى موضوع التبرج والفتنة!**

إنسانة تقف طويلاً أمام المرآة قبل أن تخرج. ولا تفارق المرآة حتى ترضى تماماً عن نفسها. أنها صارت في منتهي الفتنة! وأن كل من يراها يعجب بها وتستهويه! ولا يهمها في كل ذلك أنها تعثر غيرها أو لا تعثر. المهم عندها راحتها النفسية في أن تكون موضع الإعجاب. ولو تعب الذين يعجبون بها..!

يدخل في هذا المجال أيضاً المتزينات في بعض حفلات الزواج، بحيث تبدو الواحدة منهن أجمل وأشيك من العروس نفسها!! وتلبس ملابس فوق مستوى الكل. وتتحلّى بحُلي لا تتحلّى به أية امرأة أخرى! بحيث تجذب كل الأنظار إليها. ولو ألغت وجود غيرها! هذه أيضاً تبحث عن راحتها على تعب الغير.

***

*** مثلها من يحاول أن يبني نفسه بهدم غيره.**

لا يكتفي بأن يكون ناجحاً في عمله. وإنما يُحب أن يظهر أنه أكثر نجاحاً من غيره. بأن يُحطِّم كل ما أدركه الغير من نجاح ومن إنجاز. شارحاً ما في ذلك الغير من عيوب ومن نقص!

فهو لا يريد فقط أن يكون الأول. إنما بالأكثر أن يكون الوحيد! وأن تخلو الساحة من الكل. ليبقى وحده فيها! وبعض من هذا النوع يحب أن يلغي حتى التراث الماضي. لكي يقدم مفهوماً جديداً ينفرد به وينسب إليه. وكأن كل مَنْ سبقوا ما كانوا يفهمون ما وصل إليه من فَهْم!! ومن هنا ظهر المبتدعون. الذين بدلاً من الابتداع تحولوا إلى البدعة!!

***

*** ويشبه هؤلاء من يريدون احتكار المواهب.**

فلا يسمح أحد منهم لغيره بالظهور. لكي يبقى وحده في الصورة. مثل الأستاذ في الجامعة الذي لا يُعطي المُعيد فرصة ولا شهادة إلاّ بشق الأنفس.. وفي نفس الإشكال يقع غالبية الناشئين: فلا فرصة سهلة لفنان ناشئ. ولا لمخترع ناشئ. ولا لكاتب ناشئ. لأن الكبار يريدون احتكار العبقرية ذاتها بلا منافس! ويجدون راحتهم في أن يخلو الجو لهم.. ويدخل في هذا المجال. من يحتكر الكلام في اجتماع ما. ولا يُعطي فرصة لغيره لأن يتكلّم..

***

*** ومن أمثلة الراحة على تعب الآخرين: الزوج المُتصف بالغيرة الذي تصبح غيرته جحيماً لزوجته.**

هذا الذي من أجل غيرته على زوجته. يكاد يحبسها في البيت. لا يراها أحد. ولا تتكلّم مع أحد. ولا تضحك بسبب فكاهة قالها الغير. حتى لو كانت فكاهة تضحك الحجر!. وإلاّ فإنه يُقيم الدنيا ويقعدها.. كأنما اشترى عصفورة جميلة. وحبسها في قفص. حتى إن غنّت

داخل القفص. لا يشاء إلاّ أن يكون غناؤها له وحده! وهكذا يجعلها تكره الحياة بسبب تضييقه عليها. وإن جادلته أو عاتبته. يقول: هذا هو الذي يريحني.. نعم. قد يكون هذا يُريحك. ولكنه تعب لزوجتك.

نفس الكلام نقوله على الزوجة التي تغار بنفس الأسلوب على زوجها. وتضيق عليه في كل علاقاته.

***

*** مثال آخر في الراحة على تعب الآخرين: الزحام.**

سواء كان الزحام في المكان. وتزيح غيرك لتأخذ الموضع لنفسك. أو تجهد أن تأخذ المتكأ الأول لنفسك بدلاً من غيرك. أو قد يكون الزحام في التنافس حول الوظائف والمناصب. حيث يريد شخص أن يزيح الآخر من مكانه ـ ولو كان أحق منه ـ لكي يحلّ محلّه. أو يأخذ درجة أو علاوة بدلاً منه. ولو بتقديم شكوى ضده. أو إشاعة المذمّة فيه. أو يتسبّب في فشله كي يضيعه. ويدخل في المنافسات أيضاً المضاربات في الأسواق.. ونحن لا نقول إن كل منافسة خاطئة! كلاّ طبعاً. بل نقصد التنافس الذي يلجأ إلى طرق خاطئة للتخلّص من الغير. بتحطيمه لكل يخلو الجو منه. بأسلوب لا يستريح له الضمير.

***

*** يدخل في موضوعنا أيضاً نظرية "كبش الفداء".**

حيث تحدث مثلاً سرقة في شركة. المسؤول فيها أحد كبار رجال الإدارة. فيقدّم موظفاً بسيطاً أو عضواً منتدباً. لكي يحمل المسؤولية كلها. ويركّز الاتهام عليه ككبش للفداء. بينما يتبرأ الجُناة الحقيقيون. وينالون راحتهم بتعب غيرهم!! وبنفس الوضع محاولة التخلُّص من مسؤولية أي خطأ. عن طريق إلصاقه بآخر. كذلك من يتهم غيره لينجو هو!

***

*** مثال آخر: هو الغضب والنرفزة.**

إنسان مثلاً قليل الاحتمال. أو أعصابه تعبانة: ينفّس عنه ضيقه. بأن يصب غضبه على الآخرين كلاماً أو كتابة. أو يثور ويتهور لكي يستريح من مشاعره الثائرة داخله.. وإن عاتبته. يقول: لم أسترِح إلاّ بعد أن تصرّفت هكذا..! ولكنها راحة مبنيّة على تعب غيرك!

***

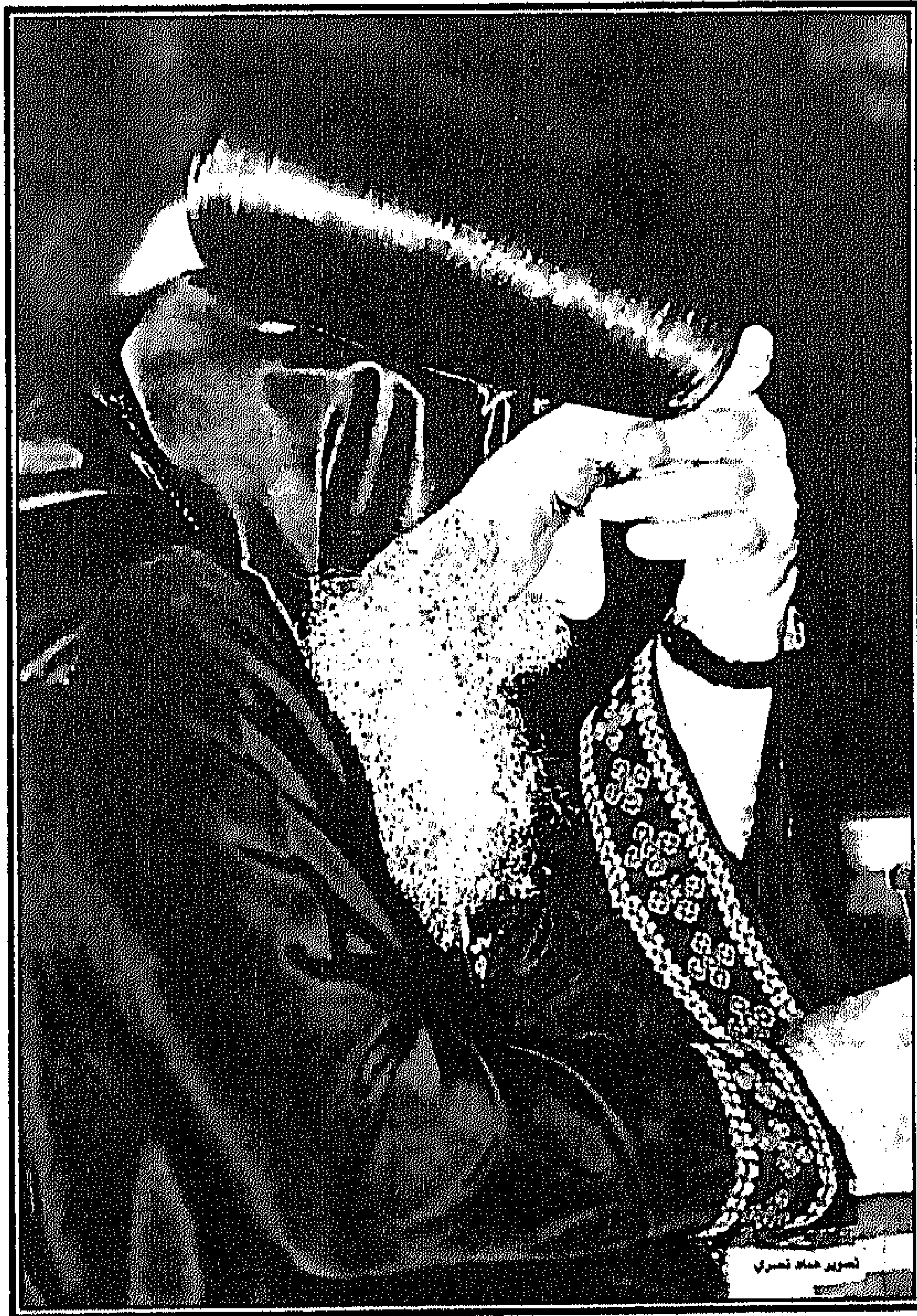
*** نقطة أخرى: وهى إتعاب الغير للحصول على معلومات منه!**

سواء من أشخاص مُحبّي الاستطلاع يحبّون أن يعرفوا أسرار غيرهم. أو في تعذيب أسرى للحصول منهم على أسرار وطنهم.. أو الضغط على بعض المتهمين أو الشهود للحصول على معلومات في حادث مُعيّن. أو بطريقة الإلحاح على الغير والأسئلة المتواترة لكي يُفشي سرّاً لا يريد أن يقوله. ومُضايقة كل هؤلاء أو عصرهم عصراً لاستخراج ما في داخلهم من معلومات فإن وصل هؤلاء إلى غرضهم. يستريحون. ولكن على تعب غيرهم.

***

*** الاحتكار في الأسواق. والربا. والسوق السوداء.**

وكل محاولات الكسب الحرام. والهروب من الجمارك والضرائب. والرشوة للوصول إلى غرض مُعيّن.. والأجور الزهيدة للعمال ليحصل صاحب العمل على أكثر ربح.. كل ذلك يدخل في موضوع: الراحة التي تُبنى على تعب الآخرين.



٢٠٠٢/٧/١٦

أنواع من الراحة والتعب
حدود راحة الجسد وعلاقتها براحة النفس

هناك أنواع كثيرة من الراحة. منها راحة الجسد. وراحة النفس. وراحة الفكر. وراحة الضمير. وراحة الروح. وراحة القلب. وتوجد راحة حقيقية. وراحة زائفة أو خاطئة.

ونود أن نتناول كل هذه الأنواع بقدر الإمكان. وما يُقابلها من أنواع التعب أيضاً.

***

راحة الجسد

إن اللّه الذي خَلَق هذا الجسد. خلقه في طبيعة تحتاج إلى راحة.

لذلك منحه يوماً راحة في الأسبوع. كما في جميع الأديان. ووهب له الليل أيضاً ليستريح من تعب النهار. أليست طبيعة النوم التي منحها اللّه للجسد. دليلاً على لزوم الراحة له.

ويحمل هذا الأمر نصيحة للإنسان ألاّ يرهق الجسد فوق طاقته. وإلاّ فإنه يقاوم الطبيعة التي خلقه بها اللّه. وكذلك على السادة أن يريحوا العاملين تحت إدارتهم. فلا يرهقونهم.

***

هنا وأتذكّر نصيحتيْن قالهما لي أحد أساتذة الطب في لندن سنة ١٩٧٩م، قال لي: أنا لا أستطيع أن أمنعك عن الـ Hard Work فطبيعة مسؤوليتك تستدعي ذلك. لكني أمنعك عن الـ Over Work ، ويقصد بهذا أن الشخص الذي وصل في عمله إلى حد الإرهاق أو الإنهاك. فيجب حينئذ أن يتوقّف عن العمل. وإلاّ اعتبر عمله Over Work وهذا مُضرّ بجسده وصحته. أمّا عن النصيحة الثانية، فقال لي:

العمل الذي تعمله برضا وفرح. لا يؤذي قلبك. فالعمل بلذة لا يُرهق، أمّا العمل الذي تعمله وأنت متضايق ومتبرّم فهو الذي يتعب صحتك.

***

إذن هناك علاقة بين راحة النفس وراحة الجسد.

لو كانت النفس مُستريحة. تستطيع أن تحمل الجسد. ولو تعبت النفس. فإنها لا تحتمل أي مجهود يقوم به الجسد. أو الجسد لا يحتمل مجهوداً.

فلا تترك الجسد يعمل مدة طويلة بدون راحة. إنما وسط العمل الطويل. أعطِه فترات راحة ولو دقائق. وهذه يسمّونها بالإنجليزية Break أي تكسر حدة استمرار العمل الطويل بشيء من الراحة.

ومن جهة علاقة النفس بالجسد. نذكر ما يقولونه عن الروح المعنوية للمريض. التي إن كانت مرتفعة. يمكن للجسد أن يحتمل المرض. ومن الناحية الأخرى نقول إنه إن كان الجسد مُرهقاً. فإن نفسه لا تحتمل.. يتعبه الصوت. ويتعبه الإصغاء إلى كلام كثير. وتتعبه الحركة. ويتعبه التفكير والتركيز فيما يقوله زائروه. ويتعبه إلحاح بعضهم وأخبارهم.

لذلك فإن كثيراً من المستشفيات تمنع زيارة المرضى، إلاّ في مواعيد مُحدّدة ومحدودة. فلا تظنوا إنكم تريحون المريض بكثرة زيارته والحديث معه!

***

نقطة أخرى: وهى أن راحة الجسد غير الكسل

الكسل معناه أن الإنسان لديه طاقة على العمل. وهو لا يرغب في ذلك لمزيد من الرغبة في الاسترخاء.

والكسل له نتائج كثيرة سيئة: سواء في عدم قيام الشخص بمسؤولياته. أو من الناحية الصحية. فقد يصل الجسد إلى الوخم أو البلادة. ويفقد الجسد نشاطه الطبيعي الذي يلزمه. كما قد يؤدي به هذا إلى السمنة والترهل.

ولذلك فإن الذين يحالون إلى المعاش. ويقضون بقيّة حياتهم في المقهى أو البيت أو النادي. قد يُصابون بالخمول وبالملل. بينما الذين يستمرّون في العمل والنشاط. تقوى صحتهم.

وبالمثل السيدات اللائي يعملن ويتحرّكن. غير اللائي يجلسن في البيت بلا عمل. ويترهلن! كذلك فإن المرأة الريفية التي تعمل في الحقل وتتحرّك. تكون أكثر نشاطاً من الموظفة التي تجلس غالبية الوقت في مكتب!

***

كذلك نحن لا نقصد براحة الجسد راحة مُطلَقة!

فهذا الأمر حسب الطبيعة هو مستحيل. فالجسد قد يكون في عمق النوم. ومع ذلك يكون قلبه يعمل في انتظام. وكذلك جهازه التنفسي. وأيضاً المخ. وباقي أجهزة الجسد المتعددة.. كلها تعمل أثناء نومه. وأثناء راحته. وتعمل بكل انتظام. ولكن في هدوء. وبغير إرهاق. فتعب القلب هو في إرهاقه. وليس في توقّفه عن العمل. وكذلك المخ.

لذلك الراحة ليس معناها عدم العمل إطلاقاً.

ربما يكون معناها أحياناً تغيير نوع العمل ولو إلى فترة قصيرة !

وكما يسمّون راحة التلاميذ بين الحصص Recreation "أي خَلق آخر". فينتقل العقل من صنع فكر مُعين إلى صنع فكر آخر.

***

لأنه ممّا يرهق العقل: التركيز على فكر واحد أو ضغط فكر واحد على العقل مدة طويلة يسمّونه "Stress" وهذا يرهق العقل. فيريحه أن ينتقل إلى فكر آخر Recreation والعقل دائم التفكير. ولكنه يتعب من التفكير العميق. إذا انشغل في موضوع واحد مدة طويلة. فيحتاج أن يترك هذا الموضوع إلى حين. ثم يعود إليه بعد حين بعد أن يُجدِّد نشاطه إن كان الموضوع لازماً.

***

جسدك يحتاج إلى راحة. ولكن لا تبن راحته على تعب روحك.

من واجبك أن تهتم بصحة جسدك. ولكن من واجبك أيضاً أن تجعل هذا الجسد منضبطاً. فلا يتمرد على الروح.

تعطي الجسد غذاءه وراحته. ولا تعطيه شهواته ونزواته.

تعطيه النوم للراحة. ولكن أيضاً توقظه للصلاة. وبهذا تستريح الروح. كما يستريح الجسد. وتحفظ النظام والميزان بينهما.

ومن الناحية الأخرى: كثير من الناس يرهقون أجسادهم أزيد من احتمالها. فترهق أعصابهم أيضاً. وقد يخطئون بسبب أعصابهم المُرهقة. فتتعب أرواحهم بذلك. والأمر يحتاج إلى حكمة.

***

وفي إراحة جسدك. ابعد عن الأخطاء النفسية التي تتعبه.

فالغضب والنرفزة وحدّة الطبع من أمراض النفس. وهي تتعب الجسد أيضاً. وتعكّر دمه. أو ترسل على ضغط دمه وضربات قلبه.. كذلك الاضطراب والقلق وحمل الهم والكآبة الزائدة. كلها متاعب للنفس تسبب تعباً للجسد أيضاً.. أمّا المؤمن المُتكل على اللّه. الواثق بالمعونة الإلهية وبالعدل الإلهي. فإنه يحيا في سلام داخلي. سلام للقلب والفكر معاً. وتنجو نفسه من أمراض كثيرة.

***

والإنسان الذي يتعب نفسه بالصراع الداخلي. يتعب جسده أيضاً..

فحالة الانقسام الداخلي التي يُعانيها مثل هذا الشخص. وما يصحبها من أفكار ضاغطة. وأفكار مُتناقضة. هذا يتعب جسده بالتوتر الفكري.

وكذلك الذي يرهقه الحزن المُفرط بتعب نفسه. إنما يتعب جسده أيضاً.. أمّا الإنسان غير المُنقسم على ذاته. الذي تسير أفكاره ومشاعره وروحه في خط واحد. فإنه يرتاح روحاً ونفساً وجسداً.

هذا يجعلنا ننتقل إلى نقطة أخرى. وهي راحة النفس وتعبها.

***

راحة النفس

قد يجد إنسان راحته النفسية في هواية مُعيّنة.

* في لون من الرياضة مثلاً: يمارسها. أو يستمتع بمشاهدتها. أو تستريح نفسه لأحد الفنون كالرسم أو الموسيقي أو التصوير أو الشعر. أو يجد راحته في القراءة. أو في تسلية ما مثل حلّ الألغاز والكلمات المتقاطعة. أو في لعبة فيها ذكاء كالشطرنج.. وليس في كل هذا شيء خاطئ. ما دامت الوسيلة سليمة.

*والبعض قد يجد راحته في المتعة مع الأصدقاء والزملاء

بروح الأسرة الواحدة. بأسلوب اجتماعي. يتسامرون. ويقضون الوقت في تسلية بريئة. أو يتعاونون في عمل عام.

وهذا لون سليم من الراحة. ما دام لا خطأ فيه.

ولكنه مستوى مُعيّن من الراحة. يوجد ما هو أعلى منه.

على أنه يوجد لون آخر من الراحة النفسية الخاطئة الزائفة:

كأن يظن إنسان إنه يريح نفسه بالتدخين أو بالخمر!!

أو بتعاطي بعض المُخدِّرات. وقد يصل به الأمر إلى الإدمان!

يظن أن السجاير أو الخمر أو المخدرات. تحلّ له مشكلة. أو تتيهه عن نفسه المثقلة بالتعب! بينما هو بكل ذلك يضيف إلى مشاكله مشكلة أخرى.. وإن كان يظن أنه ينسى مشكلته إلى حين. فإنه يعود فيجدها أمامه بلا حلّ. وقد تعقّدت بالأكثر إذ قد أُضيفت إليها تعاطي المُخدِّرات!

***

إنسان آخر قد يرى راحته في تحقيق شهوة مُعينة له!!

* كأن يستريح إذا ما انتقم لنفسه ممّن أهانه أو أساء إليه. ويرد الكلمة بكلمتين. وحينئذ يشعر براحة. إذ قد هزم خصمه.. ولكنها راحة زائفة!

* كذلك قد يشعر براحة داخلية. مَنْ يحقّق لنفسه شهوة في العظمة أو في الشهرة. أو في امتلاك شيء يفخر به.

* وقد يستريح أيضاً إذا حقّق لنفسه شهوة جسدية. أو في قضاء الوقت مع زملائه في لهو وعبث.

* أو في ممارسة باقي عاداته الخاطئة..

ويكون في كل ذلك قد أفسد ذاته روحياً. براحة زائفة.

***

كذلك يُخطئ من يجد راحة نفسه في تعب غيره.

ويكون هذا لوناً من الأنانية وحُبّ الذات.

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بالتفصيل في المقال السابق.

وربما يحدث هذا أيضاً عند الذين لهم طموح زائد. ويصطدم هذا الطموح مع مصالح غيره. فيحطّم هذا الغير لكي يحقّق طموحه.

***

ومن أمثلة الراحة الزائفة. ما يخدع به الطبيب بعض مرضاه. فلا يكشف لهم حقيقة مرضهم حتى لا تتعب نفسياتهم.

وقد يستمر هذا الخداع طويلاً. ويموت المريض دون أن يعلم ماذا كان مرضه! في بلاد الغرب لا يحدث هذا. بل يكاشفون المريض وأقرباءه بحقيقة مرضه. وربما يتعب نفسياً في بادئ الأمر. ولكنه مع ذلك يستعد لأبديته. ويصطلح مع اللَّه. عالماً أن الراحة الأبدية هى الأهم بكثير من راحة الجسد.

***

بقيَ أن أكلِّمكم عن أمور أخرى. منها:

راحة الضمير. وراحة القلب والفكر. وراحة الروح والراحة من المشاكل. فإلى اللقاء في الأسبوع المقبل.

إن أحيتني نعمة الرب وعشنا.



٢٠٠٢/٧/٢٣

راحة الضمير وراحة القلب
التعب لأجل إراحة الآخرين الراحة الأبدية

تكلّمنا في المقال السابق عن أنواع من الراحة والتعب. ومن ذلك راحة الجسد وراحة النفس. والعلاقة بينهما.

ويهمنا أن نتحدّث عن المعنى الحقيقي للراحة. ووسائلها ونتائجها. وكذلك التعب الباطل. والتعب النافع. والعلاقة بين التعب والراحة.

فهناك تعب يوصل إلى راحة. بينما راحة غير حقيقية توصل إلى تعب!

تعب بالجسد يوصل إلى راحة القلب. وراحة الروح.

وتعب في اليوم. يوصل إلى راحة في المستقبل.

وتعب شخصي يوصل إلى راحة الآخرين. فنرتاح براحتهم

وتعب في العالم الحاضر. يوصل إلى راحة في الأبدية..

***

ومن الناحية الأخرى. هناك ألوان من الراحة آخِرها التعب.

كالشخص الذي يجد راحته في الانتقام من عدوّه أو من قاتل أخيه... ولا يجد راحة إلاّ في سفك دم هذا العدو. بينما هى راحة زائفة. وراحة مؤقتة تنتهي بالقبض عليه ومحاكمته. وربما تنتهي بإعدامه..

كذلك من يجد راحته في كأس من الخمر. تنسيه آلامه أو مشاكله إلى حين. ولكنها تضيِّع صحته وسمعته وماله. وما أن يفيق منها حتى يقول تلك العبارة المأثورة "داوني بالتي كانت هى الداء"...

أو الذي يسعى إلى الكسب الحرام. ويجد راحته في الوصول إلى مزيد من المال. وإذا بها أيضاً راحة مؤقتة. مهما طال بها الوقت. ثم ينكشف أخيراً. وتمسك به يد القانون. ويضيع منه كل شيء: ما اقتناه حراماً. وما اقتناه حلالاً. ويدخل في أتعاب الندم. وفي فقدان سمعته وحريّته.

***

الراحة الحقيقية هى الراحة الداخلية: راحة القلب وراحة الفكر، المبنية على راحة الضمير.

حيث يمكن أن ينام الإنسان ليله مُستريحاً. دون قلق ولا اضطراب. ولا خاطر يزعجه. ولا شعور داخلي بأن هناك شخصاً يشكوه إلى اللّه.. فالضمير المستريح لا يقلقه شيء..

أمّا الإنسان الذي يُخطئ خطيئة تتعب الضمير. فإن خطيئته تطارده: هل يمكن أن تنكشف؟ وكيف؟ هل ترك أثراً يؤدّي إلى ذلك؟ هل سيخونه البعض ويكشفونه؟ هل ستتعقبه أيدي الحُساد أو أيدي الرّقباء.

وتفحص وتدقّق وتستنتج؟ وهل ستترتب على خطيئته نتائج تدل عليها؟ وماذا يكون الحال وقتذاك؟ وكيف يواجه الموقف؟ وماذا يقول الناس عنه؟

ويصبح ذهنه ميداناً لجمهرة من الأسئلة. تروح وتجيء. وتقف حيناً ثم تعود. ويضطرب لها فكره. ولا يجد له راحة.

***

وقد يقول البعض إن هناك نوعا من الضمائر ما أسهل أن تظل نائمة. فتريح وتستريح!

ألم نسمع ما يقوله علماء النحو عن ضمير غائب وضمير مُستتر؟!

طبعاً قيل هذا في معنى آخر. ولكننا هنا نستعير نفس الصفة..

نعم. ما أكثر العوامل التي تساعد الضمير على النوم. وعلى الاختفاء من الساحة: فلا يقوم بعمله كرقيب. ولا بعمله كمُنذر وموبّخ.

فالمتعة أو اللّذة قد تغطي على الضمير وتنيمه. وكذلك الرغبة أيّاً كان نوعها. والطموح الخاطئ كثيراً ما يلقي ضباباً أمام الضمير. ولا يجعله يرى كما ينبغي. وحُبّ العظمة وحُبّ السُّلطة والنفوذ. وحُب الظهور.. كل ذلك يزيح الضمير من طريقه حتى لا يعطّل وصوله..!

الضمير إذا وقف عقبة أمام إنسان يريد تحقيق رغباته. فمن السهل إسكاته. وحينئذ يقف العقل ليقدّم الحجج والبراهين!

ولكن إسكات الضمير ما هو إلاّ مخدر له مفعول محدود الزمن. توقظه ضمائر الآخرين. وتحلّ محله. وتزعجه.

***

إن الضمير الحي اليقظ. يجد راحته في أداء رسالته والقيام بواجبه

وأن يقوم بذلك على أحسن وجه. مهما كلّفه الأمر من جهد ومن تعب الجسد. فهو لا يهتم بتعب جسده في سبيل إكمال عمله وفي تحقيق هدفه الصالح. وكلّما كانت آماله عالية. كلّما تعب بالأكثر. ووجد راحة في تعبه. وكما قال الشاعر:

كلّما كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجساد

ويعكس ذلك الذي يستريح جسدياً. ويتعب ضميره

كأي إنسان يهمل في أداء واجبه. ويتحمّل في ألم نتائج هذا الإهمال. وكما قال الشاعر:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

***

والضمير الحي الذي يبحث عن راحته. لا يجامل ذاته. كما لا يجامل الآخرين!!

إن من يكذب ليخرج من مأزق. قد يريح نفسه ويتعب ضميره. وبالمثل من يلجأ إلى خدعة توصله إلى غرضه. وفي هاتيْن الحالتيْن كلتيهما. لا يجامله ضميره على الرغم من وصوله إلى غرضه.

كذلك من لا يلوم نفسه ويحاسبها على أخطائها. بل من لا يعاقب نفسه أيضاً. هذا لا يستريح ضميره. ولا يقبل الضمير الحيّ أن يُبرِّر أخطاءه. لكي تستريح نفسه راحة زائفة!

وأيضاً لا يجد الضمير راحته في أن يجامل إنساناً مُخطئاً. ليكسب رضاه إن كان أكبر منه مقاماً. أو لكي يحتفظ بمودته. إن كان صديقاً له. لأن المجاملة في الباطل هي ضد الحق. والضمير لا يريحه أن يقف ضد الحق. بينما هناك قاعدة روحية هامة وهي:

إن لم تستطِع أن تبكّت الخطأ. فلا تبرّره ولا تجامله.

ذلك لأن كل من يُبرّر الخطأ على سبيل المجاملة إنما يشترك في المسؤولية معه.

***

والضمير لا يجد راحته فقط في البعد عن الشر والخطأ. إنما يجد راحته بالأكثر في عمل الخير.

فلا يخدع إنسان نفسه بقوله "أنا لم أفعل شرّاً في حياتي"! فهذا بلا شكّ اتجاه سلبي من جهة فَهْم الفضيلة. أمّا الاتجاه الإيجابي فهو عمل الخير. وهو العنصر الأساسي اللازم لحياة البر.

كُن كالوردة الزكية الرائحة التي عملها هو أن تهب الناس عطراً. أيّاً كان نوعهم. العطاء هو طبيعتها. لكل من يمرّ عليها. بل لكل من يقطفها أيضاً. بل لِمَنْ يفركها بين يديه: تظل تعطيه من عطرها.. فهذا هو مبدأ العطاء عندها. كجزء من الطبيعة نقتدي به.

***

لذلك كل يوم يمر عليك. دون أن تعمل فيه خيراً. هو يوم يُبكّتك عليه ضميرك. لكي يستريح.

لقد خلقك اللّه لكي تعمل خيراً. وبهذا الخير يكون لحياتك وزن. وتكون لها قيمة. بل يكون لها أيضاً هدف.

وعندما توزن حياتك من المجتمع الذي تعيش فيه. يكون وزنها بمقدار الخير الذي فعلته. الذي به يستريح ضميرها. وينتفع الناس..

أمّا الحياة التي بدون خير. فهي كالهباء. عاشت مُتطفلة على الدنيا.

لكي يستريح ضميرك إذن. جاهد لكي تفعل خيراً. على قدر ما تستطيع. وعلى قدر ما وهبك اللّه من طاقة. وإلاّ فبكّت نفسك.

***

التعب لإراحة الآخرين

ما أعمق المَثل القائل "ما عاش من عاش لنفسه فقط".

لا شك أنه لون من الأنانية. ومن الانحصار حول الذات. من يعيش لنفسه فقط. ولكن الإنسان الحق. هو الذي يشعر بلذة وراحة كلّما أراح غيره. يجد راحة قلبية حينما ينقذ مسكيناً. أو يحسن إلى فقير. أو يعطف على يتيم. أو يحل مشكلة إنسان في ضيقة. أو يُعزّي حزيناً. أو يُهدي خاطئاً إلى طريق التوبة..

يجد راحة في كل خدمة يقدّمها إلى الآخرين. ويرى في إراحتهم راحة لضميره. وراحة لقلبه. يسعد بها مهما كلّفه الأمر.

***

ولعلّ أول نوع من الراحة في إراحة الآخرين هو راحة الأبوة. وراحة الأمومة.

فالأبوان يشعران براحة في كل تعبهما من أجل تربية أولادهما. مهما بذلا من جهد جسدي ومادي في العناية بهؤلاء الأطفال وصحّتهم وتعليمهم ورفاهيتهم والإنفاق عليهم. والعمل على ضمان مستقبلهم.

كما تشعر الأم براحة وهي تحمل جنيناً في أحشائها. لأن اللّه وهبها ابناً. مهما كانت متاعب الحبل والولادة. وتشعر براحة أيضاً حينما تحمل طفلها على كتفها.. وتشعر براحة. وهي تتعب في إعداد ابنتها لحفل زواجها. وترى فرحها في سعادتها.

***

نوع آخر هو تعب الإنسان بالأمانة في عمله لأجل الآخرين.

تعب كل موظف حكومي مثلاً في سبيل إراحة الجمهور.

وأتذكر أنني قلت مرة: إن الموظف المريح للناس يجد حلاًّ لكل مشكلة. بينما الموظف الروتيني المُتعِب. فيجد مشكلة لكلّ حلّ!!

أقصد نوع الموظفين الذين يعقدون الأمور وإجراءاتها مهما بدت سهلة.

كذلك فرق بين الموظف الذي يتعب في الانتهاء من الأوراق التي بين يديه. لكي يقدم لكل صاحب طلب أوراقه في موعدها.. وبين الموظف الذي يهمه "راحته!" ولا يُبالي بمصالح الناس. ويسوّف في المواعيد. وكأنه يذلّ الناس. وقد يُبرّر تأخيره باللوائح!!

***

المجتمع أيضاً أمثلة رائعة من الذين يتعبون. بل يبذلون أنفسهم لأجل راحة الغير.

* نذكر من بين هؤلاء عمال إطفاء الحرائق. الذين يلقون بأنفسهم وسط النيران لكي ينقذوا أنفساً من خطر الموت. ويجدون راحة عميقة جداً كلّما أنقذوا نفساً. أو تمكنوا من إطفاء حريق.
* أيضاً عمال إنقاذ الغرقى من الموت.
* وكذلك رجال الإسعاف الذين يحملون المرضي بكل حرص. وينقلونهم إلى المستشفيات بكل سرعة. لإنقاذ حياتهم.

* ونذكر رجال المرور. الذين يقفون ساعات طويلة بيقظة شديدة. لكي يُدبِّروا حركة المرور. وينظّموها بطريقة تسهّل المواصلات وتمنع الحوادث. وهم لا يُبالون بتعبهم من أجل راحة غيرهم.

نذكر أيضاً القادة والرعاة وكل من هم في مسؤولية.

* أولئك الذين يسهرون الليل والنهار. ويكثرون من الأسفار. ويَعْبرون الأجواء والبحار لأجل راحة شعوبهم وسلامة أوطانهم. ويتقابلون ويتفاوضون. ويدرسون ويناقشون. بكل حرص ودقّة وبكل أمانة في حمل المسؤولية. كل ذلك لأجل الوطن والمواطنين.

* ونذكر بمناسبة أعياد يوليو: الجنود الذي عبروا القناة. معرضين أنفسهم لكافة الأخطار. ليحققوا نصر أكتوبر. ويستعيدوا للوطن أراضيه. ونذكر أيضاً شهداء الوطن الذين بذلوا حياتهم لأجله..

* ونذكر جميع الرُّعاة الذين يسهرون ويتعبون لأجل رعيّتهم.

***

نذكر أيضاً كل الذين يحملون آلام غيرهم.

* نذكر الأطباء الذين يبذلون كل الجهد لإنقاذ مرضاهم من آلامهم وأمراضهم. ويسهرون عليهم ليطمئنوا على صحتهم.

ونذكر معهم الممرضات اللائي يقمن في اهتمام شديد بمتابعة علاج المرضى حسب أوامر الأطباء. ويصبح المرضى وديعة في أيديهن.

* نذكر أيضاً العلماء والمكتشفين وأصحاب البحوث وكل رجال العلم. الذين بمثابرتهم على العلم في ذكاء خارق للعادة. أمكنهم أن يريحوا الناس في كافة مناحي الحياة ويسهلوها لهم.

* نذكر أيضاً خدام الحالات الاجتماعية. والذين يتعبون لأجل الفقراء. والأيتام. والمسنين. والمعوقين.. لكي يكفلوا لكل هؤلاء الحياة الطيبة والراحة. بكل ما يبذلونه من جهد.

كل أولئك يتعبون لأجل غيرهم. ويجدون راحة في تعبهم كما يجدون راحة أيضاً عندما يجنون ثمار تعبهم.

٢٠٠٢/٧/٣٠

ما هى عناصر القوة الحقيقية؟

القوة صفة من صفات اللّه. تبارك اسمه.

ومن صفاته وحده. أنه القادر على كل شيء. ومن دلائل قوته. أنه خلق كل شيء. وخلقه من العدم. وبصورة فوق مستوى عقولنا. ومن قدرة اللّه أن بيده الحياة والموت. وهو القادر على بعث خلقه من جديد في يوم القيامة العظيم.

ومن قوة اللّه. ما يصنعه في العالم من عجائب ومعجزات.. وكما أن اللّه قوي. هو أيضاً مصدر لكل قوة. يمنحها بنعمته للبشر. أو لبعض منهم. فما هى هذه القوة؟ وما أنواعها؟

ليست القوة هى مجرد القوة الجسدية. أو القوة الشمشونية.

هذه التي يسمّونها سامسونيت Samsonite نسبة إلى شمشون. فشمشون الجبار هذا. كان ضعيفاً أمام دليلة. وقد انهزم أمام إلحاحها. وكشف لها سرّه. فأذلّه أعداؤه.

إنما القوة تظهر في عناصر مُتعدِّدة. منها قوة الشخصية. وقوة النفس. وقوة الإرادة. وقوة الأعصاب. وقوة الروح. وقوة الإيمان. وقوة الصلاة. وقوة المحبة.. وما إلى ذلك.

وما نريده في هذا المقال. هو أن نتأمّل معاً في عناصر القوة هذه. ليختبر كل منا نفسه: إلى أي حدّ هو قوي أو ضعيف.

قوة الشخصية

لعلّ من أبرز ما يُميّزها: قوة العقل والفكر.

إنسان قوي في ذكائه: في سرعة البديهة. في قوة الإقناع. في روعة الفَهْم والاستنتاج. له قوة الحُجة. وقوة الأسلوب. وقوة الذاكرة. لذلك إذا دخل في أي موضوع. يسنده بالفكر القوي. الذي يمكن أن يجذب الآخرين. فيخضعوا لمنطقه.

هذا الإنسان القوي لا يسير وراء كل شائعة. ولا وراء كل مذهب جديد. بل يُفكِّر ويفحص الأمور جيداً في ذكاء. ويتمسّك بما هو أفضل.

وبذكائه وفَهْمه. يكون ناجحاً في كل مسؤولية تُعهد إليه.

ويقف قوياً أمام المشكلة: لا تهزمه. بل يحلّها أو يحتملها إلى أن تُحلّ. أمّا الذي ينهار أمام المشاكل. فليس هو قويّاً.

ومن عناصر قوة الشخصية. أنه يستطيع أن يؤثّر في غيره.

لا أن يكون تحت تأثير الغير. ومثل هذا الشخص. يكون ممّن يصلحون للقيادة والتدبير. بعكس الضعيف الذي يخضع لتأثير غيره. ويقوده الذين حوله ممّن هم أذكى منه وأعمق فكراً!!

وقوة التأثير هذه تنفع في محيط الصداقة. وفي مجال العمل الاجتماعي. وفي الخطابة. وفي الوعظ والإرشاد الروحي. كما تنفع أيضاً الكاتب والصحفي. إذ تكون لشخصيته جاذبية وقوة تأثير.

والشخصية القوية لا تنقاد إلى مشورة خاطئة. ولكن لا مانع من أن تستشير ذوي الحكمة والرأي. ولا يكون القوي عنيداً صلباً في الرأي. بل سهلاً في التفاهم. ولكن ليس ألعوبة في أيدي الغير.

قوة النفس

النفس القوية لا تقلق ولا تضطرب. ولا تخاف ولا تنهار. ولا تتردّد.

إنها كالجنادل في مجرى النهر: تصطدمها المياه والأمواج على مدى السنين والقرون. وهى ثابتة في مكانها. وكالجبال تصطدمها الرياح والأمطار والسيول. دون أن تتأثر.

الإنسان القوي هو إنسان صامد أمام المشاكل العويصة. وأمام التهديدات. فهو قوي من الداخل. مهما كان الضغط من الخارج.

أمّا الضعيف. فإنه يتخيّل مخاوف. وينزعج بسببها. وربما لا يكون لها وجود! ولكنه بسبب خوفه الداخلي. يتوقّع أن تأتيه المتاعب. فيتعب بدون سبب. كالذي يهرب وليس من يطارده..!

الإنسان القوي لا يضع أمامه احتمال الفشل أو الانهزام.

مهما كانت المحاربات والمتاعب والضيقات.. كل هذه لا تدخل إلى قلبه لتتعبه. إنه يتعامل مع الضيقات وهى خارجه. ولا يسمح لها أن تدخل إلى قلبه. أو أن تؤثّر على أعصابه.

التلميذ الضعيف يدخل إلى الامتحان. فإن وجد سؤالاً صعباً. يتصبّب عرقاً. ويدوخ. وينسى كل ما كان قد حفظه. أمّا صاحب النفسية القوية. فإنه يفكِّر في الحل. ويبدأ أولاً بالأسئلة السهلة ليحلّها. فتتقوى نفسيّته. ثم يعود إلى الصعب فيحلّه.

في الواقع إن المفهوم الحقيقي للقوة. ينبغي أن يتركّز على القوة الداخلية. على حالة القلب من الداخل.

القوة الداخلية هى الانتصار على النفس من الداخل.

فليس القوي هو الذي ينتصر على الآخرين. إنما هو الذي ينتصر على نفسه.

حتى في حالة التعرُّض لإساءات الآخرين وتجاوزاتهم! بحيث لا يستسلم إلى الغضب والنرفزة. ولا يثور ويضج.

قال أحد الحكماء: إن القوة الغضبية قد وُضِعت في الإنسان. لا لكي يغضب على الآخرين. إنما لكي يغضب على نفسه إذا أخطأ.

فإذا انتصرت على نفسك من الداخل. حينئذ يمكنك أن تنتصر على كل المشاكل الخارجية. دون أن تقع في خطأ.

إذن من عناصر القوة: ضبط النفس.

الذي يضبط لسانه هو إنسان قوي.

كذلك الذي يستطيع أن يضبط أفكاره. فلا تهزمه الأفكار. ولا تطيش حيثما تشاء فتوقعه في خطايا كثيرة.

وأيضاً من يضبط نفسه في الصوم. ومن يضبط نفسه من جهة الوقت. فلا يضيعه في مُتعة تافهة. ولا في أحاديث لا تفيد.. ومن أهم مظاهر ضبط النفس: ضبط الأعصاب.

قوة الأعصاب

الإنسان الضعيف الأعصاب. أقل كلمة تغضبه وتثيره.

وتجعله يفقد هدوءه. ويفقد سيطرته على نفسه. ويخطئ في تصرُّفاته وفي ألفاظه. ويكون موضع نقد من الآخرين.. لأن أعصابه ضعيفة لم تحتمل! مهما كان قوياً في نواحي أخرى.

حقاً. إن الأعصاب مسألة جسدية. ولكن العامل النفساني يؤثّر عليها. فالإنسان الغضوب. أعصابه تلتهب بسرعة. كذلك الإنسان المُحبّ لذاته الحساس نحو كرامته الشخصية: أقل تصرف يلمس كرامته. أو يظن أنه يلمس كرامته. يتسبّب في تعب أعصابه! ذلك لأن أعصابه ضعيفة لا تحتمل.

أعصابه هى نقطة ضعف فيه

بينما القوي يمكنه أن يحتمل .. إن الذي يعتدي على غيره. هو الشخص الضعيف في أخلاقياته وسلوكه. بينما الذي يحتمل. يُعتبر قويّاً. إنه كالجبل الراسخ الذي لا تثيره أخطاء غيره ضدّه.

أمّا الذي يثور. ويحاول أن ينتقم ويسيء إلى من أساء إليه. هو مغلوب من ذاته. وليس مغلوباً من غيره. لأن تصرُّف الغير قد أتعبه. وأفقده هدوءه. وأتلف أعصابه.

كمدرِّس في مدرسة إعدادية أو ثانوية. يعرف الطلبة عنه أنه سهل الاستثارة. يهيج بسرعة. ويعنّف ويوبِّخ. تجدهم يتخذونه ألعوبة لهم. ويخترعون فنوناً في إثارته! لكي يشاهدوا حالته التي تضحكهم وهو فاقد لأعصابه!

أمّا المُدرِّس القوي في شخصيته. فإنه يرتفع فوق مستوى الإثارة. لا ينكشف هذا الضعف منه. لأنه من الأصل غير موجود.. ولأن أعصابه قوية. ينال احترام تلاميذه.. ربما جرّبوه. فوجدوه لا ينفعل.

إذن ليت كل إنسان يختبر نفسه. ويدرك ما هى ضعفاته. ويبذل كل الجهد في الانتصار عليها. بدلاً من أن يُبدِّد طاقته في محاولة الانتصار على غيره.

البعض يظن أنه قوي ومنتصر. لأنه يبدو من الخارج هكذا. بينما هو في داخل نفسه ضعيف. إذا أُثير يظهر ضعفه.

إن القوي ليس هو فقط الذي يحتمل تصرُّفات الناس. إنما أيضاً الذي يحتمل الأحداث والمشاكل.

يحتمل المتاعب التي تتعب غيره. لكنه هو يصمد أمامها.. يحتمل الأمراض. والضيقات. والحوادث. والتحديات.

ربما يوجد إنسان لا يحتمل. فإن سمع خبراً مُزعجاً. ينهار. يؤثِّر الخبر على نفسيته. وعلى أعصابه. ويزعج مشاعره وفكره. وربما يرتفع ضغط دمه. ويدق قلبه بسرعة. وربما

يمرض! لأنه لم تكن له القوة التي يحتمل بها ذلك الخبر. بينما غيره قد يتعرّض لمثل ذلك الخبر. فلا ينزعج ولا ينهار. وإنما في هدوء يُفكِّر كيف يواجهه.

قوة الإرادة

الإنسان القوي. يكون أيضاً قويّاً في إرادته وفي عزيمته إذا قرّر شيئاً فيه فائدته. يمكنه أن ينفّذ.

ومهما واجهته من الصعاب والعراقيل. فإن إرادته تكون أقوى من العراقيل. ويجد لذّة في الانتصار على الصعاب.

إنه يحترم نفسه. ولا يسمح لها أن تضعف. إذا ما قابلها عائق في الطريق. فإن طريق الخير قد يقاومه عدو الخير. أعني الشيطان. ويحاول أن يعرقله. وهنا يجسّ نبض الإنسان. هل هو من النوع الذي يصمد. أمْ تراه يخاف. ويرتد إلى الوراء. ويبدأ ولا يمكنه أن يكمل.

والأمثلة كثيرة في موضوع قوة الإرادة:

منها من يشعر بضرر التدخين على صحته. وعلى أولاده أيضاً بجو الدخان في البيت. وبقدوته السيئة لكل أفراد الأسرة. بالإضافة إلى الضرر المادي في أن يحرق بعض ماليته بالدخان. وأمام كل الأضرار. يريد ولكنه لا يستطيع! لأن إرادته ضعيفة. ترى الخير. ولا يمكنها أن تسير فيه. وترى الشر ولا يمكنها أن تقاومه..!

وما نقوله عن التدخين. نقوله أيضاً عن كل عادة رديئة. خضع لها الإنسان. واستعبدت إرادته. فصار عبداً منقاداً لها خاضعاً لتأثيرها. مهما أدّعي الحرية!

قد يكون حرّاً في نواحٍ أخرى. أما في هذه النقطة بالذات. فهو ليس حراً على الإطلاق. بسبب ضعف إرادته.

وضعف الإرادة يُختبَر أيضاً بعوامل الإغراء

فإن كان الإغراء قويّاً قد تضعف أمامه الإرادة! وإن اشتد الإغراء. ولم تكن النفس قوية من الداخل. فقد تنهار الإرادة تماماً. وتستسلم للإغراء..!

وهذا هو الذي حدث بالنسبة لكثيرين. اختبر شرفهم بالرشوة. إذا كان العرض مُجزياً في نظرهم. فسقطوا في الإغراء. ولم تقوَ إرادتهم على الصمود فضيّعوا أنفسهم!

وقد يكون الإغراء وظيفياً بعرض وظيفة كبيرة أو مركز مرموق مقابل التنازل عن مبدأ معين أو عن قيم لها سموها. ولم تقوَ إرادتهم على مقاومة المركز الرفيع. أو ما ظنوه مجداً لهم. أو فرصة العمر!

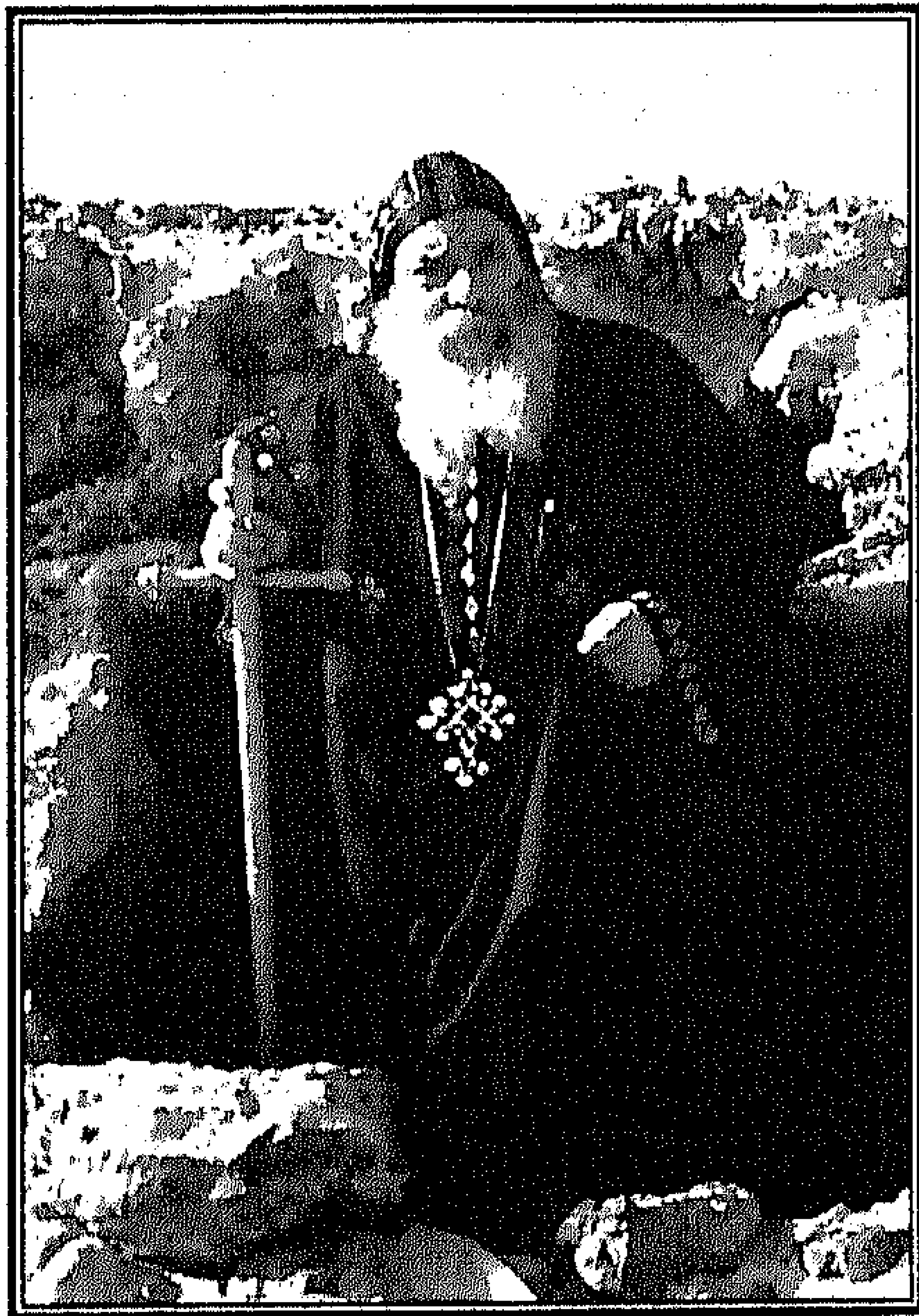
وقد يكون الإغراء خاصاً بشهوة جسدية لم تستطِع الإرادة أن تقاومها. فسقطت. وكما قال سليمان الحكيم عن هذه الخطيئة إنها: "طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلاها أقوياء". أي أنهم أقوياء في نواحٍ أخرى. أمّا في مجال هذا الإغراء. فلم تكن الإرادة قويّة. بل ضعفت وسقطت!

قوة الروح

إنه موضوع طويل لست أظن هذه الصفحة تتسع له:

تدخل فيه قوة الإيمان. وقوة الصلة باللّه تبارك اسمه. وقوة الصلاة المستجابة. وقوة المحبة التي تبذل ذاتها عن الآخرين. وقوة الفضيلة التي تهزم كل محاربات الخطية.

واسمح لي أيها القارئ العزيز أن أستأذن في إنهاء هذا المقال. فمساحته لا تكفي..



٦/٨/٢٠٠٢

الالتـزام.. أفضـل مـن الإلـزام

يعيش مُستريحاً ومُطمئناً. من يتعامل مع إنسان ملتزم.

فالإنسان الملتزم يلتزم بكل كلمة يقولها. ولكل وعد يعد به..

ويلتزم بكل اتفاق يبرمه مع آخرين. وبكل نظام يخضع له. وبكل عهد بينه وبين اللَّه. وكل وصية من وصاياه.. إنه يلتزم بمبادئ مُعيّنة. وبقيم وأخلاقيات. وقواعد روحية يتبعها.

إن قال كلمة. يكون لها احترامها عند الناس ووزنها. بل تكون أفضل من أي اتفاق مكتوب وموثّق. بل حتى إن لم يقل كلمة. وإنما هزّ رأسه بعلامة الموافقة. يدرك الحاضرون تماماً أنه سوف يلتزم بهذه الموافقة. بدون إمضاء ودون شهود.

إنه الالتزام بالكلمة والوعد...

***

كذلك فهو يَفي بكل نذوره التي نذرها. لأنها اتفاقات مع اللَّه

نقول هذا. لأنه كثيراً ما يقع شخص في ضيقة أو إشكال. فيرفع قلبه إلى اللَّه تبارك اسمه. وينذر نذوراً: إن نجّيتني من هذه الضيقة. وحللت لي هذا الإشكال. سأفعل وأفعل... ولكنه بعد ذلك. إما أن ينسي هذا النذر. أو يماطل في الوفاء به. أو يحاول تغييره إلى شيء آخر.. أو أنه يقول مع الشاعر:

كم وعدتُ اللَّه وعداً حانثاً ليتني من خوف ضعفي لم أعدْ

أمّا الإنسان الملتزم. فإنه يلتزم بكل نذوره ووعوده.

***

الملتزم أيضاً يلتزم بتعهد الوظيفة وشرف المهنة

إن ضابط الحربية. وضابط الشرطة في حفل التخرُّج يتلو مع زملائه قَسَماً وتعهُّداً. يلتزم به في حياته العسكرية. وكذلك كل سفير جديد. وكل وزير جديد قبل استلام عمله يتلو أيضاً تعهُّداً وقَسَماً. وكل صاحب مهنة. عليه التزام من جهة شرف المهنة عليه الالتزام به. منه ما يُسمّى سرّ المهنة. كالمحامي والمحاسب في الحفاظ على أسرار موكّله.. والطبيب كذلك.

إنه الالتزام بشرف المهنة. والالتزام بالأمانة فيها.

هناك أيضاً الالتزام بحفظ النظام العام.

لعلّ منه الالتزام بقواعد المرور. فإننا نرى أن كثيراً من الحوادث يكون سببها عدم الالتزام بالسرعة المُقرّرة. أو في اتجاه المرور.

وفي النظام العام الالتزام بها تفرضه المطارات من تفتيش الحقائب والأشخاص. وما تفرضه الضرائب والجمارك من التزامات. وعدم التحايل للتخلُّص من استحقاقات الدولة مالياً بأنواع من الحيل. كثيراً ما يتحايل بها الأشخاص للتهرُّب من التزاماتهم.

***

ليتنا نضيف أيضاً إلى التزاماتنا. الاهتمام بالبيئة والنظافة

فجمال البيئة. والحفاظ على نظافة شوارعنا. هو جزء هام من التزامنا. والإنسان الملتزم لا يلقي ورقة في الطريق. ولا يلقي عقب سيجارة حيثما اتفق له. فتزدحم كثير من الطرقات بأعقاب السجائر. بل في بعض الأحياء الشعبية يلقون بأكوام من القمامة في شوارعها وتتجمّع حولها الحشرات. غير مبالين ولا ملتزمين بنظافة الطرقات ولا بمنظرها. ولا بقواعد الصحة فيها..!

ومن عدم الالتزام أيضاً. عدم الاهتمام بنظافة نهر النيل وبعض الترع. سواء بما تلقيه فيه بعض المصانع من بقاياها. أو استخدام بعض الأفراد له بطريقة سيئة..!

***

الالتزام يشمل أيضاً الالتزام براحة الآخرين وبصحتهم

فالتدخين في الأماكن المغلقة كالحجرات أو وسائل المواصلات. فيه عدم التزام بصحة الآخرين. إذ يلزمهم باستنشاق ما ينفثه من دخان. فيستنشقونه على الرغم منهم..! ولذلك فإن كثيراً من شركات الطيران منعت التدخين في طائراتها. التزاماً بالحفاظ على صحة الركاب. سواء كانت رحلات داخل البلاد أو عابرة للمحيطات.

كذلك في الالتزام براحة الناس وصحتهم. كثير من البلاد الغربية قسّمت أحياء مدنها إلى مناطق Zones بحيث لا يمكن التصريح بمصانع في أماكن السكنى. إنما للمصانع أحياء أخرى طبقاً لنظام الـ Zoning وذلك لإراحة الناس من ضوضاء المصانع ودخانها.

نرجو مراعاة مثل هذا في مناطق كحلوان بما فيها من مصانع ومحاجر تهدِّد الكثير من السكان بأمراض الصدر.

من المسائل الهامة في موضوع الالتزام: الالتزام بالمواعيد.

ويشمل هذا الأمر: الالتزام بموعد بدء اللقاء أو الاجتماع. والالتزام بمدته ونهايته.. والإنسان الملتزم يمكنك أن تضبط ساعتك على مجيئه. بينما غير الملتزم كثيراً ما يتأخر عن موعده. ثم يُقدِّم أعذاراً كثيرة لسبب تأخره.

إنسان آخر يأتي لزيارة. ولا يلتزم بموعد تنتهي زيارته فيه. ويطول الوقت. وهو لا يبالي بمواعيد مُضيفه! جاء أشخاص من هذا النوع لزيارة مكرم عبيد. وطالت جلستهم. فقال لهم "أهلاً بكم وسهلاً. تأتون أهلاً. ولا تخرجون سهلاً!".

***

وفي عدم الالتزام بالمواعيد. يوجد نوعان آخران:

منهما الالتزام بموعد الكلمات في الاجتماعات. وفي التليفونات.

فربما في اجتماع عام. يكون مُقرّراً لكل متكلّم عشر دقائق مثلاً:

فيقف أحدهم ولا يلتزم بالزمن المُحدّد له. ويطيل الكلام حتى يزيد على نصف الساعة! غير مبالي بالوقت اللازم لمن سوف يتكلم بعده. ولا بالموعد المُقرّر لنهاية ذلك الاجتماع..! ممّا يحدث ارتباكاً في الكلمات التالية. والمُتكلِّمين. وفي قدرة الحاضرين على الاستماع.

مثال ذلك أيضاً من يطلب شخصاً في التليفون. دون أن يلتزم بفترة مُعيّنة للحديث. ويظل يتكلّم غير واضع في ذهنه وقت الذي يتحدّث إليه. وهل هو مُتفرّغ له أم غير مُتفرِّغ.

***

الالتزام يشمل كذلك بعض العلاقات والواجبات الاجتماعية

ما دُمنا نعيش في مجتمع. فنحن ملتزمون بواجبات نحو الآخرين. لا نستطيع أن نقصر فيها. وإلاّ فإننا بذلك نسيء إلى مشاعر الناس.

نحن ملتزمون بتعزية الآخرين في حالات الوفاة. وبتهنئتهم في حالات الفرح والنجاح والترقية. كذلك ملتزمون بزيارة المرضى والاطمئنان على صحتهم. وبمواساة كل من هو في كارثة.

إن قصّرنا في هذا الالتزام. تسوء علاقتنا بغيرنا. ونكون موضعاً للومهم. واتهامنا بعدم المحبة. وعدم القيام بالواجب.

***

من أهم عناصر الالتزام أيضاً: الالتزام بالأمانة في العمل وفي القيام بكل مسؤولية تعهد إلينا.

فالإنسان الملتزم. ليس فقط يؤدّي واجبه ويقوم بعمله. وإنما يفعل ذلك بنوعية ممتازة في الأداء.

لذلك فإن النجاح يحالفه باستمرار. بل هو يشعر أن عمله وحسن أدائه فيه. إنما هو جزء من ضميره. ومن شرفه. ومن احترامه لنفسه. وهو يهتم بكل هذا ويحرص عليه. شاعراً أن أي تقصير في هذا الالتزام. إنما يُسبِّب حرجاً له. ولكل المُتعاونين والمتضامنين معه. فيتجنّب كل ذلك في وفائه بالتزامه.

***

الملتزم يكون باستمرار موضع ثقة الناس واحترامهم.

إنه موضع تقدير من الكل. يدركون أنه يمكنهم الاعتماد عليه. وضمان كل مسؤولية تقع بين يديه. ويشعرون بالارتياح في التعامل معه. وهو بهذا يكون باستمرار قدوة لغيره. ودرساً يتعلّمون منه الجدية في الحياة. واحترام العمل والمسؤولية.

أمّا غير المُلتزم فهو مَثَل سيء. قد يقلده الضعفاء في عدم التزامه. فترتبك أمورهم مثلما ترتبك أموره أيضاً..!

***

إن عدم الالتزام فيه لون من اللامبالاة ومن التسيُّب.

وفيه أيضاً رغبة التحلّل من كل رباط. ومن كل شرط وكل اتفاق. بطريقة لا تدعو إلى الاحترام. وهو يدلّ على عدم الشعور بالمسؤولية. وهو أيضاً دليل على الضعف وعدم الجدية.

وغير الملتزم يسلك حسب هواه. ولا يُبالي بأي أمر أو نظام. ويعتبر النظام والمسؤولية قيداً يَسرّه أن ينفك منه.

ليس هذا في محيط عمله فقط. إنما حتى في حياته العائلية! فهو غير ملتزم بواجباته حيال كل أفراد أسرته..!

***

وغير الملتزم يحاول أن يغطّي عدم التزامه بالأعذار!

وما أكثر أعذاره وحججه وأسانيده! وكلها واهية غير مقبولة. يريد بها أن يفلت من المسؤولية. وقد يحاول أن يسند التقصير إلى غيره ظلماً. لكي يتبرأ هو..!

وما أكثر ما يعتذر بالعوائق والموانع. أو بأن الأمر قد خرج عن نطاق إرادته وقدرته. أو أن الظروف لم تسمح. أو أنه قد نسي. أو لم يجد الوقت. ولم يجد الإمكانات!!

وغالباً ما يكون السبب الحقيقي أنه لم يتعوّد أن يحيا حياة الالتزام. وأن يحترم كلمته وعمله..!

***

أمّا الملتزم. فإنه يصمد أمام العوائق. ولا يعتذر بها. بل يبذل قصارى جهده للانتصار على كل عائق يصادفه.

غير الملتزم يجعل العوائق حاجزاً بينه وبين التنفيذ.

أمّا الملتزم فيجعل العزيمة القوية حاجزاً تختفي وراءه العوائق. إنه ينتصر على العقبات أينما وجدت. ولو أدّى الأمر أن يضغط على نفسه ويحتمل. لكي ينفّذ ما التزم به.

لذلك فالناس يثقون بالملتزم ويعتمدون عليه. لأنه دائماً يتخطى العقبات. ويجد له مخرجاً منها لكي يقوم بواجبه.

***

غير الملتزم قد يكسر بعض الأنظمة والقواعد. شاعراً بأن هذه هى حريّته الخاصة!! غير مدرك المعنى الحقيقي للحرية!

وإذ يتحلّل من الالتزام بإسم الحرية. يضطرّ المجتمع أن يلزمه بالقوة على إطاعة النظام.

وهكذا يسلك لا بالالتزام وإنما بالإلزام.

تلزمه القوانين والعقوبة. ويحتاج من المجتمع إلى مراقبة ومحاسبة ومتابعة وتفتيش. فإن أصرّ على عدم التزامه. يتعرّض إلى الجزاء. فيضطرّ أن يلتزم على الرغم منه. وتصبح طاعته للنظام. خضوعاً منه للإلزام. وليس حُبّاً للالتزام!

***

الالتزام يشمل أيضاً ما يلتزم به الإنسان تجاه نفسه من القيم والمبادئ والفضائل. في حياته الخاصة..

هنا لا يلزمه القانون ولا المجتمع. ولا التقاليد المرعية. إنما هو يلزم نفسه على إتباع فضائل مُعيّنة. يدرّب ذاته عليها. ويستخدم أسلوب ضبط النفس للوصول إلى ما يريده من أوضاع مثالية على قدر ما يستطيع. وإن وضع لنفسه تدريباً مُعيّناً. فإنه يلتزم به. ولا يسمح لنفسه أن تسلك حسب هواها بغير ضابط. بل يحرص على أن يلتزم بكل ما وضعه لنفسه من قواعد أخلاقية. ولا مانع من أن يفرض على ذاته عقوبات إذا أخطأت. لكيما يقوّم طريقها. ولا ينتظر أن يحكم عليه المجتمع في أخطائه. بل كما قال أحد الآباء:

احكم يا أخي على نفسك. قبل أن يحكموا عليك.

إن الملتزم بالفضيلة. الذي يؤدّب نفسه إذا انحرفت. هذا لا يحتاج إلى أن يأتيه التأديب من الخارج.

***

أُحبّ أخيراً أن أقول إن مبدأ الالتزام ليس هو فقط للأفراد.

إنما هو أيضاً للهيئات وللجمعيات وللدول. وللمجتمع الدولي أيضاً..

إن كل هيئة لها قانون أو لائحة لتحديد اختصاصاتها وتنظيم سيَر عملها. وعليها أن تلتزم بذلك. وكل جمعية خيرية عليها واجبات تقدِّمها للجمهور. ومن أجل ذلك قد أُنشئت. وعليها أن تقوم بالخدمات التي هى مُلتزمة بها. وكل مدرسة وكل كلية وكل جامعة. عليها التزام أن تنهض بالمستوى العلمي في بلدها. كل منها حسب درجته.

بل أيضاً كل فريق رياضي. هو مُلتزم أمام جمهوره بتقديم أعلى مستوى ممكن لأدائه. وأعضاؤه ملتزمون بسُمعة الفريق وسُمعة البلد.

***

الدولة أيضاً مسؤولة عن راحة أبنائها. وملتزمة بذلك.

والمجتمع الدولي مُلتزم بإقامة الشرعية الدولية بين سائر الدول والشعوب. بكل عدل وبغير تحيُّز. وملتزم بمساعدة الشعوب المحتاجة ولنكتفِ بهذا الآن. التزاماً بمساحة المقال.

٢٠٠٢/٨/١٣

طاقات لا نحطّمها.. ولكن نوجّهها

في الإنسان طاقات كثيرة متنوّعة. يبدو بعضها خاطئاً!

ولكن اللّه لم يخلق في الإنسان شيئاً خاطئاً. إنما إن وُجِد خطأ. يكون ذلك في سوء الاستخدام. أو استخدامه في غير ما أراده اللّه له. كل الطاقات البشرية. هى إذن للخير. إذا ما أُستخدمت بطريقة خيّرة...

وسنحاول أن نطبق هذه القاعدة على عدة أمور: مثل العناد. والغضب. ومحبّة الذات. وبعض المواهب العقلية.

***

*** نتناول العناد مثلاً: هل هو خطيئة؟ أم هو طاقة؟**

أمْ هو في أصله طاقة. قد تنحرف فتصير خطيئة...

نسمّي العناد خطيئة. حينما ينحرف الإنسان عن الخير. ويصرّ على موقفه الخاطئ. في عناد لا يقبل التحوّل عن سوء مسلكه أو سوء فكره. ولا يقبل نصحاً ولا إرشاداً. بل لا يقبل كل لون من التفاهم. بعقل مُغلق تماماً عن إصلاح مسيرته. حتى لو صدرت النصيحة له من صديق مُخلص. أو من أب روحي. أو من مرشد موثوق به. أو من رئيس حكيم عادل.. مهما كان الحق واضحاً.

مثل هذا العناد يكون تصلّباً في الفكر والإرادة

وقد يكون صادراً عن كبرياء. وعن اعتداد بالنفس في غير موضعه. وهو بلا شك خطأ يحتاج إلى علاج أو إلى إخضاع..

***

ولكن هل كل عناد هو من هذا اللون المنحرف؟!

*** ألاَ يوجد لون من العناد يدل على شخصية قوية لا تلين؟**

أو نسأل: ألاَ يمكن أن نحوّل العناد في إنسان إلى مسار طيب. يكون لفائدته وفائدة المجتمع الذي يعيش فيه؟

وأول خطوة نقدّمها للعنيد في إصلاح مساره هي:

*** وقفة عناد ضد كل عادة رديئة للوصول إلى ضبط النفس**

ولا شكّ أن فضيلة ضبط النفس. هي عناد مع النفس التي تريد أن تسلك حسب هواها في طريق منحرف يضرها... إبطال التدخين مثلاً: ألاَ يحتاج إلى عناد مع النفس. في منعها عمّا تريده. مع تصميم في هذا المنع مهما اشتهت ومهما طلبت. ونفس الكلام نقول عن الذي يمتنع عن الخمر والمسكر. ونقوله للشاب الذي وقع في عادة رديئة ويحتاج إلى القيام منها بعناد شديد مع شهواته.

***

*** كذلك كل أصحاب المبادئ والقِيَم وإصرارهم على نشرهم. تحوّل عندهم العناد إلى تصميم وصمود وثبات...**

وينطبق هذا أيضاً على أصحاب الرسالات. وعلى المصلحين الذين غيّروا صورة المجتمع في أيامهم. في كفاح مُستمر. واقفين في صلابة. كما قال الشاعر:

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً ... إن الحياة عقيدة وجهاد.

*** وهكذا كل الذين قاموا بثورات اجتماعية خطيرة:**

لو أن عنادهم قد قُهر في أوله. ما كانوا قد قاموا بشيء.. ولكنهم صمدوا ثابتين. مُحتملين كل صنوف المقاومة. حتى انتصروا أخيراً. وصاروا من أبطال التاريخ.

***

*** ينطبق هذا أيضاً على الشهداء من كل نوع وفي كل جيل**

ولعلّ في مقدمتهم أبطال الإيمان الذين قاوموا الوثنية ووقفوا في صمود شديد أمام الأباطرة القساة. وأمام كل أنواع التهديد والتعذيب والإغراء. في عناد شديد ضد عبادة الأصنام. وحاول الولاة والقضاة ومنفّذو الأحكام أن يثنوهم عن الثبات في الإيمان الذي أسموه وقتذاك عناداً. كما أنهم في عناد أيضاً رفضوا كل الإغراءات المعروضة عليهم. وانتهى بهم الأمر أن قدّموا رؤوسهم للسيف. وصاروا شهداء.

وكم قد القوا من قبل في السجن. وجلدوا مراراً. ولكنهم لم يتزحزحوا عن الإيمان. بل ظلّوا هكذا صامدين. بلا تراخ. ولا تساهل. ولا خوف.. لو لم يكن العناد عندهم. قد اتخذ هذه الصورة الإيمانية. ما كان التاريخ قد سجّل أسماءهم بحروف من نور.

* **هناك أيضاً عناد في مُقابلة حروب الشياطين**

عناد مع النفس في الجهاد الروحي: في الصوم. وحفظ العفّة. وحفظ الفكر والحواس. وضبط اللّسان. وضبط الأعصاب.

وتغريه نفسه أن يرد الكلمة بكلمتين. والصاع بصاعين. ولكنه يعاند نفسه. ويرفض مشورتها. ويضبط أعصابه. ويقدّم مثالاً في الصبر وفي الاحتمال ومجاهدة النفس.

الشيطان يحجم عوده. فيجده إنساناً صلباً قوياً. لا يلين. يجده جنة مُغلقة لا تفتح بابها لأحد الشياطين. بل تقابل إغراءاته بعناد مُقدَّس يرفض التفاوض مع حوارات الشياطين.

***

* **هذا العناد ينفع الإنسان البار. إذا وُجِدَ في مجتمع فاسد:**

يحاول الفاسدون أن يجرّوه معهم كل منهم في مجال. لكي يكون واحداً منهم. يتعلّم أساليبهم. ويشترك في فسادهم. ويتستّر عليه. ولكنه بكل عناد. لا يستجيب لهم. ولا ينضم إليهم. بل يرونه كصخرة صلبة. كالجنادل الستة في مجرى النيل.

ينبغي أن نعلّم أولادنا ألاَّ يكونوا عجينة لينة أمام الفساد المُنتشر. يشكّلها كما يشاء. ونعلّمهم أن الطيبة ليس معناها أن ينساقوا في التيار. بل أن يعاندوا مهما لاقوا من نقد واستهزاء.

***

* **وإن وجدنا عناداً صادراً عن إرادة قوية. لا نحطمه. بل نوجه تلك الإرادة نحو الخير.**

نصلح مساره. دون أن نعترض طريقه ونمنعه من المسير. نتركه يتجه نحو الخير بنفس القوة. فنستفيد منها.. وينتفع نفس الشخص. فلا يُخطئ. ويعمل دون أن نحاربه بالإحباط.

***

* **ننتقل إلى نقطة أخرى. وهى الغضب بين الخطأ والصواب**

الغضب طاقة. والغضوب كثيراً ما يكون مكروهاً يتجنّبه الناس.

فهل كلّما وجدنا طاقة غضبية. نحاربها ونحطّمها؟ كلاّ. بلا شكّ.

فالغضب طاقة يمكن استخدامها في الخير. مع تنقيتها من الخطأ. وتصحيح مسارها وهدفها ووسيلتها.

لولا الطاقة الغضبية. ما ثارت الشعوب ضد الاحتلال وضد الاستعمار. وطردته واستعادت حريتها.

ولولا الطاقة الغضبية. ما ثار الناس ضد الفساد. وطهروا الأرض منه. ولولا الطاقة الغضبية. لبقيَ القوي مستعبداً للضعيف. وبقّي الظالم رازخاً فوق رقبة المظلوم..!

إذن ما الحل؟ وما موقفنا من الطاقة الغضبية؟

***

*** الطاقة الغضبية يكون لها أحياناً أخطاؤها. نتعرّف عليها ونصحّحها.**

فالطاقة الغضبية قد تنحرف من الناحية الجسدية والناحية النفسية.

الغضب ينحرف جسدياً إذا تحوّل إلى نرفزة. وكلمة نرفزة من Nerves.

أي أعصاب. فيصير الشخص في غضبه عصبياً. تتوتر أعصابه وتثور. ويعلو صوته. ويأخذ مظهر الهياج. وعدم انضباط الملامح والحركات. مع أخطاء اللسان. وعنف وقساوة الألفاظ.

والغضب يخطئ نفسياً. من حيث الغيظ والكراهية. والرغبة في الانتقام للنفس. وثورة القلب والفكر بأسلوب غير روحي. وربما يصل إلى أسلوب الشتائم. وجرح إحساس الآخرين. وقد يصل إلى مستوى الاعتداء والرغبة في القتل.

في كل هذا تكون الطاقة الغضبية قد انحرفت.

***

*** ولكن ليس معنى ذلك أن نقاوم الطاقة الغضبية باستمرار ونحطّمها. وإلاّ فإننا نعمل على إيجاد جيل خانع مستكين خامل.**

فالطاقة الغضبية في مسارها السليم. ينتج عنها الحماس والنخوة والرجولة. والغيرة المُقدَّسة. والقيام لمساعدة المقهورين والمظلومين. والدفاع عن الوطن. وعن كل الذين ليس لهم من يدافع عنهم.

والإنسان الروحي لا يستطيع أن يرى الشر أمامه. دون أن يتحرّك قلبه. فإن تحرك قلبه وضميره أيضاً. وغضب... ماذا يفعل حينئذ؟

***

*** يمكن أن يغضب ولا يُخطئ. من جهة هدف الغضب ووسيلته**

فينبغي أن يكون الهدف سليماً. لأن كثيرين يغضبون. فإن بحثت عن سبب غضبهم.

تجده لا يستحق كل ذلك الغضب. بل قد تجدهم مخطئين لم يفحصوا الأمر ولم يتحقّقوا. وربما كانوا ظالمين وقساة!

أمّا من جهة الوسيلة: فإن كان الإنسان من حقه أن يغضب. فيجب أنه في غضبه لا يتجاوز حدوده. ولا ينساب لسانه أو قلمه بغير انضباط وبأسلوب خارج عن الأدب أو عن اللياقة. وهكذا لا نكون قد حطمنا الطاقة الغضبية. ولا تركناها في تسيب خاطئ. بل هذبنا مسيرتها.

***

ويقول رجال الأدب والفكر. تعليقاً على الذين يغضبون. مُبرِّرين غضبهم بأنه من أجل الحق. لكي يأخذوا حق اللّه من المُخطئين!

*** يقولون لهم: خذوا حق اللّه من أنفسكم. قبل أن تأخذوه من الناس!**

وكما يقول المثل: من كان بيته من زجاج. لا يقذف الناس بالحجارة. وكما قال السيد المسيح لِمَنْ أرادوا رجم المرأة الخاطئة: "من كان منكم بلا خطية. فليقذفها بأول حجر".

وكما قال الشاعر فؤاد بليبل عن مثل تلك المرأة الخاطئة:

أسألتِ من نبذوك نبذ المنكرِ .:. كم بينهم من فاجرٍ متستّرِ

أدعوكِ بائعة الأثيم من الهوى .:. كذبوا فإن الذنب ذنب المشتري

***

*** مثال آخر نذكره وهو محبّة الذات**

كثيراً ما يهاجم البعض الإنسان المُحب لذاته. فهل محبّة الذات خطيئة. وعملياً مَنْ مِنْ الناس لا يحب ذاته ويتمنّى لها كل خير؟!

فهل نحطّم تلك الطاقة الطبيعية التي هى محبّة النفس ولن نستطيع تحطيمها! أم نفسّر معناها. ونصحِّح مسارها.

*** تعتبر محبة الذات خطيئة. إذا تحوّلت إلى لون من الأنانية. أو كانت بإهمال الآخرين. أو تجد راحتها في تعب الآخرين!**

أمّا إن كان الإنسان يحب غيره كنفسه. ويسعى إلى سعادة وراحة الآخرين كما يسعى إلى راحته وسعادته. فلا يكون أبداً قد أخطأ.. كذلك إذا كان يرتفع. ويرفع الآخرين معه.

*** أيضاً لا يجوز أن الإنسان يحب ذاته بطريقة تضرّها!**

مثال ذلك إنسان ينطق أنه يُحب ذاته. بأن يغرقها في شهوات العالم وملاذه! ومهما اشتهته عيناه لا يمنعه عنهما! أو شخص آخر في محبّته لذاته يريد أن يوصلها إلى رغباتها بطريقة سليمة أو غير شرعية. فالذين يلجأون إلى النصب والاحتيال. للوصول إلى مال أو مركز. لا شك يدعون أنهم يحبون أنفسهم! بينما هي بلا شك محبّة ضارة بأنفسهم وبغيرهم.

إن الذي يحب ذاته محبّة حقيقية. عليه أن يتدرّب أولاً على إنكار الذات. وبهذا يصل إلى نقاوة الذات ورفعتها. ويكون مُحباً لذاته محبّة حقيقية.

***

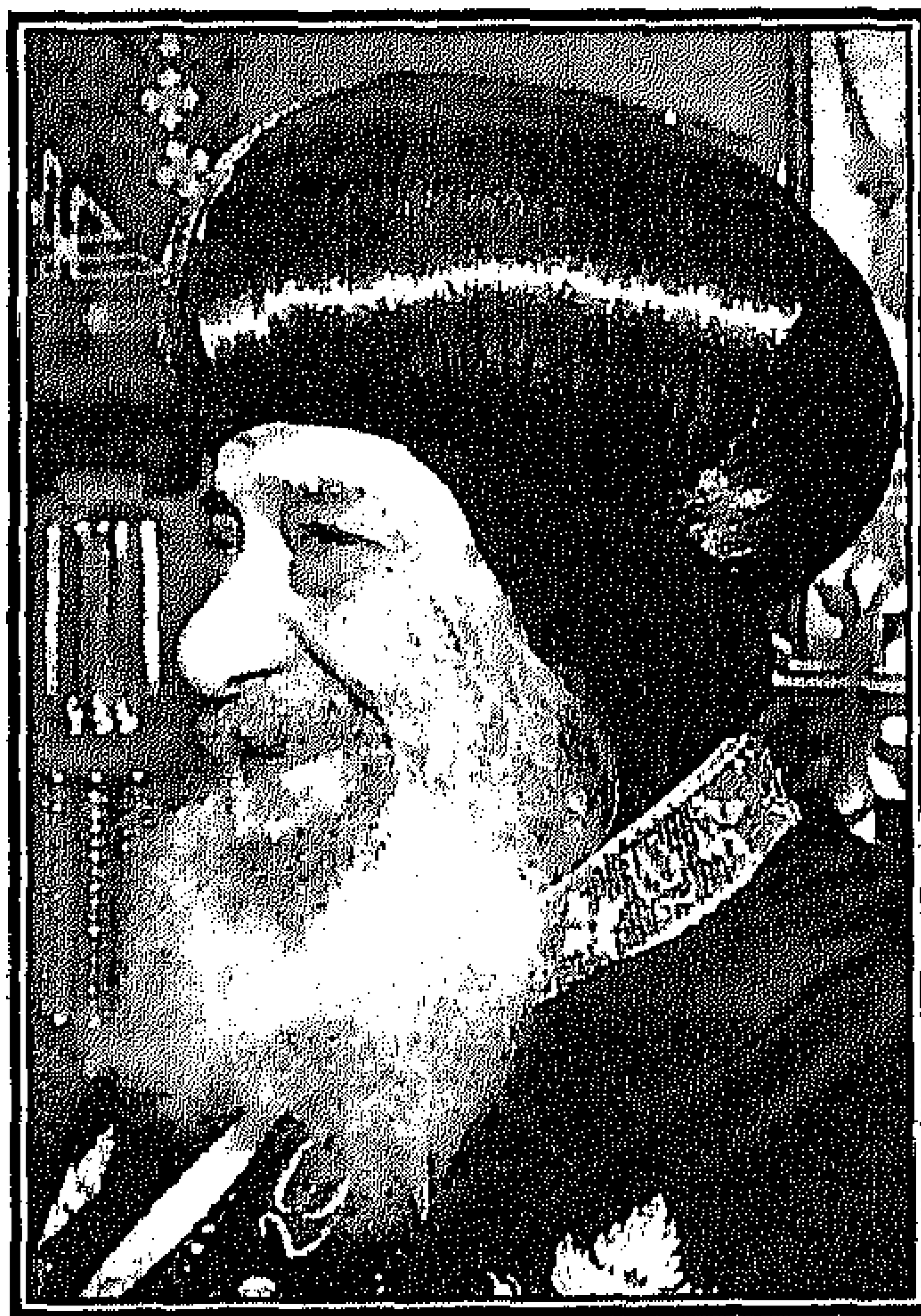
*** نحن لا نستطيع أن نمنع أحداً من أن يحب ذاته ولكن لا يكون ذلك عن طريق الكبرياء والخيلاء**

فالذي يعجب بذاته. والذي يمشي في الأرض مرحاً. والذي يكلّم الناس من فوق. هذا يضر ذاته. ولا يجعلها محبوبة من الناس.. ويكون قد سلك طريقاً لا يوصل.

***

نفس الكلام عن كثير من المواهب. كالفن مثلاً.

إنسان يهوى التمثيل. وقد ينبغ فيه. فلا نحطّمه ولا نقول له عن كل ألوان الفن أنها حرام. إنما نعلّمه كيف يسلك في هوايته دون أن يُخطئ.. فهناك فرق تمثيلية تمجّد اللّه. وتخرج تمثيليات كل خير. ولا خطأ فيها.



٢٠٠٢/٨/٢٧

الحرية
في وجودها.. وفي حدودها

ما أعظم الحرية. تغنّى بها الكُتاب والفلاسفة والشعراء.

بها يتمتّع الإنسان بإنسانيته. وبغيرها يشعر بالقهر والذلّ.

قرأت وأنا شاب مثلاً إنجليزياً يقول: إن فقدت كل شيء ما عدا الحرية. فأنت لا تزال غنياً If everything - but liberty - is host, you are still rich.

والحرية لازمة للشعوب. كما هى لازمة للأفراد. من أجلها جاهدت الأمم إلى حد التضحية بدمائها. لمقاومة الاحتلال ومقاومة الاستعمار.

وفي بذل الحياة والدم لأجل الحرية قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مُضرّجة يُدقّ

***

لقد خلق اللّه كائنات كثيرة بغير حرية. تقودها أنظمة موضوعة لها. أو يقودها غيرها.. ماعدا الملائكة والبشر. فلهم حرية إرادة.

الشمس والقمر والنجوم مع علوها وعظمتها. تقود كل تحركاتها واتجاهاتها قوانين الفلك. والأرض أيضاً مقادة بنفس القوانين سواء في دورانها حول نفسها أو حول الشمس.

والرياح والأمطار. والحرارة والبرودة. والنور والظلمة. بل حتى البذار في باطن الأرض. والنبات فوق سطحها.. كلها مُقادة بقوانين الطبيعة: لا تتصرّف من ذاتها. بل حسب القانون الموضوع لها.

أمّا الحيوانات. فقد منح اللّه للإنسان أن يقودها. ويتصرّف في حريّتها. ليست المستأنسة منها فقط. بل حتى المتوحشة: يمكنه أن يصيدها. وأن يضعها في أقفاص.

***

*** أمّا الاستثناء. فكان للملائكة والبشر: منحهم اللّه حرية..**

لهم إرادة حُرّة.. بإمكانهم أن يطيعوا اللّه. أو أن يعصوه! وبحرية الإرادة سقط عدد كبير من الملائكة وصاروا شياطين.. وبهذه الحرية أفسدوا طبيعتهم. وما زالوا يعيثون في الأرض فساداً.

وبالحرية سقط الإنسان الأول. وطُرد من الجنة. ولا يزال في حريته يتأرجح بين ثنائية خطيرة: هي الخير والشر. الحلال والحرام. ما يجوز وما لا يجوز. وبالحرية يستمر في الشر. أو يتوب عنه.

هذه هي الحرية: في فائدتها. وفي ضررها.. ولا أقصد ضرر الحرية ذاتها. إنما الضرر في سوء استخدامها.

* مشكلة أخرى في موضوع الحرية. وهي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

كل إنسان حرّ. ولكن قد تصطدم حرية إنسان بحرية إنسان آخر. وهنا نرى "تنازع الحريات". ورغبة ذات بشرية في ابتلاع ذات أخرى. وسعي الواحد أن يظهر باختفاء الآخر. أو أن يملك بسلب الآخر. أو أن يقوى بإضعاف غيره. وهكذا وُجِد التنافس. بل وُجِد الصراع. ووُجِدت الحروب أيضاً.

وفي نطاق هذه الحرية. قامت دولة على دولة. وشعب على شعب. وجماعة على أخرى. وصدق ذلك المفكر الذي قال:

كم من الجرائم حدثت بإسمك أيتها الحرية!

***

*** لقد منح اللّه الحرية. وأضاف إليها الإنسان: انحراف الحرية**

ولهذا كان لزاماً أن توضع قيود تمنع الحرية من الانحراف. أو على الأقل تحدّ من انحرافها. وهكذا بالانحراف أضرّت الحرية بنفسها!

هل يجوز لنا أن نترك في الطرقات وحشاً هائجاً يهدّد المارة؟! كلاّ. بل نمسكه ونقيّده. ونمنعه من الإضرار بالآخرين. فإن شكا من القيد. نقول بل هو الذي أضرّ بنفسه. بهياجه.

إن الحريّة كما منحها اللّه أمر في منتهى العلو والسمو. يتميّز به الإنسان. إن سلك حسبما أراد اللّه للحرية أن تكون.

إنك إن ألقيت جذع شجرة ضخماً في الماء. فإن التيار يوجهّه بغير إرادته. فلا يملك أن يتحكّم في مسيره.. ولكن سمكة صغيرة جداً وضئيلة تستطيع أن تتحرك حيثما تشاء. لا يتحكم فيها التيار. بل يمكنها أن تسبح عكس التيار. لأن لها حرية ليست لجذع الشجرة على الرغم من ضخامته.. هنا تظهر عظمة الحرية.

***

*** على أنه في موضوع الحرية. يقف أمامنا سؤال ردّده كثيرون:**

وهو: هل الإنسان مُسيّر أم مُخير؟

نقول إنه مُخير في كل تصرُّفاته الأدبية: في أن يفعل أو لا يفعل. يقول أو لا يقول. يسير في طريق ما أو في غيره. هو حرّ.

لقد وضع اللّه لنا أوامر ووصايا إلهية. ومع ذلك لنا الحرية أن نطيع أو لا نطيع. وما أكثر الذين يعصون اللّه ويخالفون وصاياه!

كما أن كل دولة تضع قوانين وأنظمة. والناس في حريّتهم يطيعون القانون أو لا يطيعون. وما أكثر الخارجين على القانون!

بل إنه حتى الأطباء يضعون نصائح طبية مُفيدة. ويبقى كل شخص حُرّاً: يطيع لفائدته. أو يضرّ نفسه بعدم طاعته.

***

*** وهنا يلزم القول بأنه: يُقابل كل حرية حساب ومسؤولية:**

فالإنسان أو الكائن غير الحرّ لا يُحاسب على أفعاله. أمّا مع الحرية. فيوجد حساب على كل ما يفعله الإنسان خيراً كان أمْ شراً. فينال المكافأة على أعمال الخير. كما توقع عليه العقوبة في شروره.

اللّه تبارك اسمه يعطيك الحرية أن تطيعه أو تعصاه. ولكنه يُحاسبك. وأمام الدولة تطيع القانون أو تخالفه. ولكنها تُحاكم.

والعقوبة على الخطأ الذي يفعله الإنسان بحريته. هى عقوبة مزدوجة. على الأرض وفي السماء. وقد ينجو الإنسان من العقوبة على الأرض. ولكن تبقى العقوبة في العالم الآخر قائمة. لا تمحوها إلاّ التوبة من جانب الإنسان. والمغفرة من عند اللّه.

***

*** نجيب على بقية السؤال: هل الإنسان مُسيّر أم مُخيّر؟**

قلنا إنه مُخير في أفعاله الأدبية. ولكنه ليس مُخيراً في كل شيء. مَنْ من الناس كان مُخيّراً في ما ورثه عن والديه وأجداده من قوانين الوراثة: من حيث الشكل. والجنس. واللون. والطول أو القصر. وفي أمور أخرى.. بل ربما في بعض أمراض بالوراثة. وما أعمق ما قال الشاعر العربي أبو العلاء المعرّي في ذلك: هذا جناه أبي عليَّ .. وما جنيت على أحد

قال بعضهم "لقد ولدتنا أُمّهاتنا أحراراً". وإن صدق هذا على عدم العبودية. إلاّ أنه لا يصدق على قوانين الوراثة.. كما أننا لم نكن أحراراً في اختيار الشعب الذي ننتمي إليه. ولا البلد ولا القارة. ولا اللغة الأصلية.

*** إذن لا وجود لِمَا يُسمّى بالحرية المُطلَقة. سواء فيما ذكرناه. أو في ما يجب علينا أن نفعله.**

فأنت حرّ في كل ما تفعله. بحيث أنك لا تعتدي على حريات أو حقوق الآخرين. فأنت لست حُرّاً أن تسلب حقاً لغيرك. ولست حُراً أن تهين غيرك أو تسيء إلى سمعته. أو تقلق راحته. وليس من حقك أن ترفع صوتك في ضوضاء تزعج بها الآخرين. وتقول: أنا حُرّ أرفع صوتي كما أشاء!.. وأنت في حريتك تكون مُقيّداً أيضاً أن تحتفظ بقواعد حسن الجوار مع من يعيش إلى جوارك. يمكن للحرية في ظل هذه القواعد وأمثالها أن نسمّيها: الحرية المُنضبطة.

***

*** من شروط الحرية المُنضبطة أيضاً: عدم مخالفة النظام العام. أو الإخلال بالآداب العامة.**

فليس من حقك مثلاً أن تركب سيارة. وتخالف قواعد المرور. وتقول: أنا حرّ أقود سيارتي كيفما أشاء وحيثما أشاء!! كلاّ. لست حُرّاً.. كذلك لست حُرّاً في التهرُّب من الضرائب. أو من الجمارك. أو من التفتيش في الطائرات. ولست حُرّاً أن تلقي بشيء من الأوراق أو القمامة أو أعقاب السجائر. في الطرقات. وتقول أنا حرّ ألقي بمهملاتي أينما أشاء!! كذلك ليس التلميذ حراً أن يأخذ معه ورقة يغش بها في الامتحان. ويقول: أنا حرّ أستعمل ما أشاء من أوراق!

وليس لفاجر أن يقوم بعمل فاضح في الطريق العام ويقول: أنا حرّ.

إن كل ما يخالف الآداب والنظام العام. لا تسمح به الحرية المُنضبطة.

*** أنت أيضاً لست حُرّاً في أن تضر نفسك!**

إن نفسك ليست ملكاً لك وحدك. بل هى مِلك للّه الذي خلقها. ومِلك أيضاً للمجتمع الذي رعاك وربّاك. وله عليك حقوق يجب أن تؤدّيها. لذلك لست أنت حُرّاً في إضاعة نفسك.

فالذي يقتل نفسه بالانتحار. إنما يرتكب جريمة يُعاقبه عليها اللّه. ولا يوافق عليها القانون. ونفس الوضع ينطبق على من يضر نفسه عن طريق التدخين أو المخدرات أو المسكرات. وليس من حقّه أن يقول: أنا حُرّ: أُدخّن كما أشاء. وأسكر كما أشاء. وأتعاطى المُخدِّرات كما أشاء!! لأنه ليس من حقّه أن يهلك نفسه. وليس من حقّه أن يحرم المجتمع من وجوده فيه. مؤدّياً واجبه نحوه.

***

*** وينبغي لكل إنسان أن يعرف أن الضوابط التي توضع على حريته. هى لفائدته وليس لتقييده.**

ومن فائدتها أنها تمنعه من الإضرار بنفسه. ومن الإضرار بغيره. ومن الإضرار بالمجتمع. ومن مخالفة وصايا اللّه.

إن النهر له شاطئان: لا يقيدان مجراه. وإنما يحفظانه.

وإذا لم تكن للأنهار شواطئ. فإنها تنسكب حينئذ. وتفيض على الجانبين. وتغرّق الأرض وتحوّلها إلى مستنقعات. أترى يستطيع أي نهر أن يحتج على وجود شاطئين له. ويتهمهما بأنهما يُقيدان حريته؟!

كذلك أنت: الشاطئان بالنسبة إليك. هما وصايا اللّه. وقوانين وتقاليد المجتمع. أو الشاطئان هما الدين والتربية. وكلاهما لفائدتك. فالطفل الذي يرفض التربية. ويرفض نصائح أبويه أو مُعلميه ومُرشديه. ويحسب كل ذلك تقييداً لحريته. لا بد أنه سيفسد ويفقد الطريق السليم السوي ويضل. فهل الضلال هو اسم آخر للحرية. أو نتيجة لها؟!

***

*** إن الحرية الحقيقية هى أن يتحرّر الإنسان من الأخطاء**

فيتحرّر من الخطايا والسقطات. ويتحرّر من العادات الرديئة. يتحرّر قلبه من كل الشهوات والمشاعر الرديئة. ويتحرّر عقله من كل الأفكار المُنحرفة المُضلّلة. يتحرّر أيضاً

من الخضوع للشيطان وكل أعوانه. ومن تأثير الصُّحبة الرديئة والمُعاشرات المُفسدة. ويتحرّر من كل قيادة تفرض سُلطانها المُضلّ على إرادته. لتقوده حسب هواها في مسيرة خاطئة.

هذه هى الحرية الداخلية: حرية القلب والعقل والإرادة.

والذي يتحرّر داخله من العيوب والنقائص يمكنه أن يستخدم الحرية الخارجية بطريق سليم، أمّا الذي لم يتحرّر من الداخل. فما أسهل أن تقوده الحرية إلى ألوان من التسيُّب ومن اللامبالاة.

فمثلاً الذي يتحرّر من الكراهية والقسوة والعُنف والظلم. يستطيع أن يستخدم حريّته في التعامل مع الناس بطريق سليم. أمّا إن كان ظالماً أو قاسياً. وقال: أريد أن أستخدم حريتي في التعامل كما أشاء.. فإنه سوف يؤذي غيره بقسوته وبظلمه وبعدم تحرّره من طبعه الخاطئ.

* كذلك الذي لم تتحرّر عفّته من الشهوات الجسدية. فإنه حينما يستخدم حريّته لتنفيذ شهواته. لا بد سيؤذي نفسه وغيره. وفيما يظن أنه يستخدم حريته. يكون قد أضاف قيوداً جديدة على عفّته ونقائه..!

* وأيضاً الفتاة التي تقول: من حريتي أن ألبس كما أشاء. وأن ألهو وأضحك كما أشاء. تكون النتيجة أنها بهذا الأسلوب الخاطئ للحرية. إنما تُسقط غيرها. وتسقط هى أيضاً.. وإذ لم تُحرّر بعد من الداخل. فإنها تستخدم حريتها لضررها وضرر غيرها.

* والطالب الذي يلعب طول العام ويهمل دروسه. ويقول: أنا حرّ في أن أتمتّع بوقتي كما أشاء.. إنما يفقد نجاحه ويضيّع مستقبله!

لذلك نصيحتنا لك: استخدم حريتك لفائدتك وفائدة غيرك، وتحرّر أولاً من الداخل. قبل أن تمارس الحرية الخارجية.

***

نصيحة أخرى: لا تحسب أن الحرية هى أن تسلك حسب هواك فهناك أوقات كثيرة تحتاج فيها أن تضبط نفسك. ولا تدلّلها بما يجعلك تفقد سيطرتك على ذاتك. وبالتالي تفقد حريتك الداخلية.

أمّا عن ضبط النفس فهو موضوع طويل. قد نطرقه معاً فيما بعد. إن أحبّت نعمة الرب وعشنا.

٢٠٠٢/٩/٣

ضبط النفس

من أهم الميزات التي يتميّز بها الإنسان القوي الشخصية:

ضبط النفس. هذه الصفة تدلّ على قوته. وعلى حكمته في نفس الوقت. إنه لا يترك نفسه على هواها. بلا ضابط. تتصرّف كيفما تشاء.. كسيارة بلا فرامل!!

بل إنه يحكم هذه النفس. بدلاً من أن تتحكم فيها الأهواء أو الانفعالات. أو التأثيرات الخارجية. ولا يتركها نهبة لبعض الغرائز أم الشهوات. إنه يراقب نفسه. ويضبطها. لا يُدلِّلها. ولا يخضع لكل ما تطلبه. بل يخضعها لقيم ومبادئ لا تتعداها.

***

ويضبط الإنسان لنفسه. يدلّ على أنه يحبّها المحبة الحقيقية

ففي ضبطه لنفسه. يبعدها عن الزلل. وبهذا الحزم في معاملته لذاته. يبعد عن الخطأ. وتكون كل تصرُّفاته بميزان. وبكل تدقيق وحرص. وبهذا لا يُسيء إلى نفسه. ولا إلى غيره. ويحفظ علاقته سليمة مع اللّه والناس: في ترتيب مُتزن: اللّه أولاً. والناس ثانياً. ونفسه أخيراً. مُبتعداً عمّا تجره "الأنا" من مشاكل.

وضبط النفس يشمل عناصر مُعيّنة هي:

ضبط اللسان وضبط الفكر وضبط القلب مع الشهوات وضبط الأعصاب وضبط الفم من جهة الطعام والشراب..

وسنحاول أن نتناول كل هذه التفاصيل نقطة نقطة. مع ما قد تشمله من تداخلات أخرى.

***

"١". ضبط اللسان:

الإنسان الحكيم لا يتكلّم بكل ما يخطر على ذهنه من أفكار. بل يزن كل كلمة قبل أن يقولها. وميزانه لا يقتصر فقط على كنه الكلمة. هل هي في حد ذاتها خطأ أم صواب.

إنما يهمه أيضاً تأثير الكلمة على الآخرين. وردود فعلها. ونتائج ذلك.

فالذي يعرف مقدار المشاكل التي تجرها أخطاء اللسان. لا شكّ أنه يُفكِّر كثيراً قبل أن يتكلّم. وتكون ألفاظه منضبطة.

إنه يدرك تماماً أن الكلمة التي تخرج من فمه. لا يمكن أن ترجع مرّة أخرى. لأنها قد وصلت إلى آذان الآخرين. وحُسِبَت عليه مهما حاول أن يسحبها. أو يعتذر عنها. أو يحاول إصلاح نتائجها.

وبكلامه يُحكم على شخصيته. ليس من جهة خطأ الكلام فقط. بل أيضاً من جهة مقدار معرفته ووزن ثقافته.

***

"٢". ضبط الفكر:

الإنسان الحكيم: كما يضبط لسانه أيضاً. فلا يترك عقله يسرح في أي فكر. ولا يقبل أي فكر يعرض عليه. بل يطرده بسرعة إن كان فكراً خاطئاً. ولا يتساهل معه أبداً.

كذلك لا يقبل الأفكار التي تبدو بسيطة في أولها. ثم تتدرج إلى ما لا يليق.. إنه يكون حازماً مع مثل هذه الأفكار التي تلبس ثياب الحملان وهى ذئاب خاطفة. وبالتالي يتدرّج في تمييز الأفكار.

***

وإن خدعه فكر ثم اكتشفه. يوقفه بسرعة:

لأن التمشّي مع الفكر الخاطئ. يعكّر طُهر العقل. ويُعطي ذلك الفكر فرصة لأن يثبت أقدامه. ويكبر ويتطوّر. إلى أن يؤثّر على القلب ويتحوّل فيه إلى مشاعر مُعيّنة. فالأفضل هو التخلُّص منه من بادئ الأمر.

وإن وضعنا أمامنا مبدأ "الوقاية خير من العلاج". فإن الإنسان الحريص لا يكتفي بضبط فكره ومنعه من الخطأ. بل بالأكثر يشغل عقله بأفكار نقيّة بنّاءة. حتى إذا حاول الشيطان أن يحاربه بفكر رديء. يجد عقله مُنشغلاً وغير مُتفرّغ له. وبواسطة هذا الانشغال البنّاء. يمتنع أي فكر خاطئ من الاقتراب إليه. ويبدو عقله كحصن حصين.

***

"٣". ضبط الحواس:

ما دامت الحواس هى أبواب الفكر: فما يراه الإنسان وما يسمعه. يُفكِّر فيه. وكذلك ما يلمسه.. لذلك فالإنسان الحريص يضبط حواسه. لكي يمنعها من أن توصل إلى عقله أي فكر رديء.

فهو يحفظ عينيه من النظر إلى ما لا يليق. وكذلك يحفظ سمعه وباقي حواسه. لكي تكون كلّها منضبطة لا تجلب له ضرراً.

***

"٤". ضبط الأعصاب:

الإنسان القوي لا يستسلم إلى الغضب والنرفزة. ويضبط نفسه وقت الاثارة. فلا يستسلم إلى الانفعال. وتكون أعصابه شديدة. لا تُثار بسرعة. وإن أُثيرت. لا يتركها لكي تشتعل.

وإن وجد الغضب قد تحرّك في قلبه. لا يتركه لكي يسيطر على لسانه. ولا على يده. ولا على أعصابه.

***

وهكذا يبذل جهده في السيطرة على ألفاظه وقت الغضب. فإما أن يصمت. أو أن يتحكم في كلامه. أو بالأكثر يعمل على صرف الغضب من داخل قلبه.. وبكافة الطرق يحاول أن يهدئ نفسه. فلا يثور. ولا يرتفع صوته ولا يحتد. كما يحاول أن يهدئ ملامحه أيضاً.

والذي يضبط نفسه. يكون بطيء الغضب. هادئ الطبع. لأن الذي ينفعل بسرعة ويثور. يقع في التهور. ويسقط في أخطاء كثيرة. وقد يتصرّف تصرُّفات يندم عليها جداً حينما يهدأ.. ويشعر أنه في غضبه قد فقد الصورة المثلي التي يجب أن يتحلى بها. وصار موضعاً للنقد.

***

والذي يضبط نفسه. لا يكتب خطاباً في ساعة غضب.. ولا يتّخذ قراراً في ساعة غضب.

ولو حدث أنه كتب خطاباً في وقت غضبه. لا يسرع بإرساله. إنما يتركه يوماً أو يومين. ثم يعود. إلى قراءته وتنقيحه. أو يمزقه ويكتب غيره. حتى لا يصبح وثيقة خطية ضده. بما فيه من أخطاء كتبت في حالة انفعال. وتكون له نتائجه غير المرضية.

وبالمثل بالنسبة إلى القرارات التي يتّخذها إنسان في ساعة غضب. وتسمى قرارات انفعالية. غالبيتها تكون مُخطئة وغير سليمة. وخالية من الحكمة. ولا تدل على ضبط النفس.

***

"٥". ضبط النفس في النشر والتعليم:

الإنسان الحكيم يضبط نفسه قبل أن يقود غيره فكرياً. حتى يتأكّد من صحة ما يقوله أو يُعلِّم به. سواء كان أباً. أو مرشداً لشباب. أو مرشداً اجتماعياً. أو مُعلّماً. أو كاتباً. واضعاً في نفسه ماذا يكون تأثير ما ينصح به أو يعلم.

فلا يسرع بنشر أي فكر يطرأ على ذهنه. نتيجة للقراءة مثلاً.. فيعلّم به. أو يكتبه في مقال. أو يصدره في كتابه. أو يلقيه في درس.. فكثير من الأفكار تحتاج إلى فترة حضانة. يأخذ فيها الإنسان مع الفكر ويُعطي. ويناقش الفكر داخل ذهنه. قبل أن يصدره إلى أذهان الناس..

الفكر داخل ذهنك. هو تحت سيطرتك. تغيّر فيه وتعدل. فإذا نشرته. أصبح تحت سيطرة الناس..!

بنشره يكون قد خرج من نطاقك إلى نطاق أوسع. يُحكم فيه عليه وعليك. سلباً أو إيجاباً. مدحاً أو نقداً. وما أصدق قول ذلك المرشد الذي قال: "احكم يا أخي على نفسك. قبل أن يحكموا عليك". إذن ناقش أفكارك فيما بينك وبين نفسك. قبل أن تتعرض إلى أن يناقشوك فيها. واضبط نفسك في كل فكر. وفي كل رأي. وفي كل تعليم.. وليكن كل معنى فيه منضبطاً. ولا يتطرّف يميناً ولا يساراً.. ولا يكون ناقصاً. ولا مُبالغاً فيه.

***

"٦". ضبط النفس في الطاعة والالتزام:

نذكر هذا لأن هناك نوعاً من الناس باسم الحرية. وباسم الكرامة الشخصية أو الاعتداد بالنفس يفعلون كل ما يريدون. ولا يبالون بنظام أو تقاليد أو قواعد مُرعية!

حقاً إننا نؤمن بديمقراطية. ولكنها أيضاً ديمقراطية مُنضبطة.. الإنسان المنضبط هو إنسان ملتزم. يحترم النظام والقوانين.. ويحترم غيره أيضاً. أمّا الذي يسير حسب هواه. ولا يخضع لكبير ولا لنظام. بل لفكره فقط.. فهذا إن لم يضبط نفسه فإنه مُعرّض، لأن يضبطه المجتمع الذي يعيش فيه.

الإنسان الحق يضبط نفسه في المواقف التي تلزم فيها الطاعة.

طاعة الوالدين. وطاعة الرؤساء. وطاعة النظام العام. وطاعة المواعيد. وطاعة اللّه قبل الكل.. ولا يرى في خضوعه أي إنقاص لكرامته إطلاقاً. فالخضوع هنا دليل على الالتزام. والالتزام فضيلة. والإنسان الذي لا يخضع لأحد. هو بالضرورة خاضع لكبريائه أو لنزواته.

***

"٧". ضبط النفس في شهوة العظمة والاتساع:

قد يوجد إنسان لا حدود لرغبته في أن يعلو أو أن يملك. وإذ لا يضبط نفسه في هذه الشهوة. فإنه يُصاب بلون من الطمع الذي لا يكتفي. والجشع الذي لا يشبع. ويدخل مع غيره في حروب ومنافسات.. وتصل به الرغبة في الرفعة إلى استخدام وسائل خاطئة قد توقعه تحت طائلة القانون!

ويتدرّج من شهوة أن يكون الأول. إلى شهوة أن يكون الوحيد. ويدخله هذا الأمر في عداوات وصراعات لا تنتهي!

لذلك يحتاج الإنسان إلى ضبط النفس فيما يشتهي من الرفعة ومن الاتساع. فلا يرتئي فوق ما ينبغي. ويحاول أن يكتسب فضيلة القناعة والرضا.

***

"٨". ضبط النفس في الطعام والشراب:

كثيرون يقعون في النهم. فيما يأكلون أو يشربون. سواء من جهة الكمية. أو من جهة الأصناف. أو في مواعيد غير منضبطة. ويقعون بسبب ذلك في أنواع من الأمراض تتعب صحتهم.

ويدخلون في ضبط طبي للنفس يسمّونه الريجيم. لتخفيف الوزن. للعلاج من السمنة. أو من مرض السكر أو الكوليسترول. أو بسبب أمراض القلب أو غير ذلك.

أمّا الذي يتعوّد ضبط نفسه. فإنه يكون متعوّداً ضبط النفس. ولا ينتظر إلى أن تحاصره الأمراض. فيلجأ إلى الريجيم!

ومن الناحية الدينية. لقد منح اللّه للناس نعمة الصوم. لا للضغط عليهم. بل لكي يستفيدوا جسدياً فلا ترهق أجسادهم من أعباء الأكل. وأيضاً ليستفيدوا نفسياً بالتدرّب على ضبط النفس في الطعام والشراب.

"٩". ضبط النفس بصفة عامة:

حيث يشمل ذلك الحياة كلّها. فيضبط الإنسان نفسه من جهة محبّة الراحة والمتعة. ويضبط نفسه من جهة الوقت وحسن توزيعه على كافة المسؤوليات. واحترام المواعيد. ويضبط نفسه من جهة الانتقام لنفسه. إذا لحقت به إساءة أو أذية. ويضبط نفسه في النواحي المالية. وفي أخذه وعطائه. ويضبط نفسه في علاقاته بالآخرين. وإلى أي حد تكون.

يضبط مشاعر قلبه وأحاسيسه. فلا تنحرف يمنة ولا يسرة.. ويضبط حواسه. فلا تميل نحو ما لا ينبغي.

ويضبط ذاته في أمور العبادة. وأيضاً في المسؤولية وحدود الإدارة والسُّلطة. واضعاً لنفسه ضوابط لا يتعداها.

***

"١٠". أخيراً. الذي لا يضبط نفسه. قد يأتيه الضبط من الخارج:

بحيث يضبطه على الرغم من إرادته. وقد يأتي هذا الضبط من المجتمع الذي يرقب أعماله ويحاسبه: من عيون الناس التي ترى. ومن آذانهم التي تسمع. يضبطه الخوف أو الخجل. أو تضبطه القوانين والعقوبات. أو التأديب من سلطة أعلى.. أو تضبطه مقاومة خارجية توقفه عند حده. وتمنعه من أي تصرّف خاطئ.

وخير للإنسان أن يضبط نفسه. وينال على ذلك أجراً.. من أن ينضبط على الرغم منه. بقوة خارجية.



٢٠٠٢/٩/١٠

المحبة والصداقة

الصداقة هى مشاعر مودّة. يمكن أن تكون بين رَجُل ورَجُل. أو بين امرأة وامرأة. أو بين عائلة بكل أفرادها رجالاً ونساءً. مع عائلة أخرى بكل أفرادها رجالاً ونساءً. ويمكن أن تكون بين الجنسين في حدود المودّة الروحية. بشرط ألاّ يكون للجسد تدخل فيها.

والصديق ينبغي أن يكون صادقاً في صداقته.

ويكون أيضاً صدّيقاً. أي باراً. يقود صديقه إلى الخير.

***

فالصديق الذي يدافع عنك في أخطائك. ويثبّتك فيها. ليس هو صديقاً بالحقيقة.

لأنه في ذلك لا يكون صادقاً ولا صدّيقاً.

ومحبته لك هى لون من المحبّة الضارة.

لذلك عليك أن تنتقي أصدقاءك من النوع الذي لا يشترك معك إلاّ في عمل الخير. ولا يجاملك على حساب الحق. ولا يُشجّعك على خطأ.

***

أمّا المحبة فهى أعمق وهى موجهة أولاً إلى اللّه تبارك اسمه

نحبّه لأنه أوجدنا. خلقنا ومنحنا الحياة. ولأنه يرعانا ويحوطنا بعنايته. وهو مصدر كل خير يصل إلينا. ولذلك فنحن نحبّه ونهابه من كل القلب ومن كل الفكر.

وإن كان كل القلب للّه. فما موضع باقي المحبات؟

كل محبة أخرى تكون داخل محبّة اللّه. وداخل وصاياه..

فكل محبّة تتعارض مع محبّة اللّه هى محبّة خاطئة. وكذلك كل محبّة تزيد عن محبّتنا للّه. سواء لشخص ما أو لشيء ما. هى محبّة خاطئة وخطرة.

وتدخل في محبّتنا للّه. محبّتنا لسمائه وملائكته. ومحبّتنا لبيوت اللّه. وكُتبه المُقدّسة. ومحبّتنا لأنبيائه وقديسيه.. وللحياة الأخرى.

***

والمحبة للبشر هى على أنواع: طبيعية ومكتسبة

فالمحبّة الطبيعية هى كالحُب الذي يربط الأبناء بالوالدين.

وقد سألني البعض أيهما أقوى محبة الأب أو محبة الأم. فقلت: إن محبة الأم أعمق. ولكن محبّة الأب أصدق. ويظهر صدق محبّة الأب فيما يُعاقب ابنه ويؤدِّبه. لخيره.. أمّا الأم فقد تخفي خطأ ابنها عن أبيه. حتى لا تعرّضه لغضبه..!

أمّا المحبة المكتسبة. فهى كالمحبة بين الأصدقاء والزملاء والأقارب. أو المحبة بين خطيب وخطيبته. أو بين زوج وزوجته.

ومن جهة محبة الوطن. فلا شك أنها محبة طبيعية.

***

ومن شروط المحبة الحقيقية. أن تكون عاقلة وحكيمة وروحية

لأن هناك ألوانا من المحبة الخاطئة قد تسبِّب ضرراً.

والمحبة الحقيقية ينبغي أن تكون أيضاً محبّة طاهرة. وهنا نفرّق بين المحبة والشهوة. وأتذكّر أنني قلت مّرة في التمييز بينهما.

المحبة تريد دائماً أن تعطي. والشهوة تريد دائماً أن تأخذ.

فالشهوة التي تريد دائماً أن تأخذ. تتصف دائماً بالأنانية. وقد تضيّع الطرف الآخر الذي تدّعي أنها تحبه! وقد تحبسه داخلها. وتحدّ حريته في الاتصال بالآخرين. وقد تتحوّل أحياناً إلى غيرة مُدمِّرة!

إنها في الواقع ليست محبّة حقيقية. فالمحبة الحقيقية تتصف بالعطاء والبذل. وقد تصل إلى التضحية بالذات لأجل من تُحبّه..

***

فانظر إلى نفسك في علاقتك مع الجنس الآخر: أهى علاقة حُب أم شهوة؟

الشاب الذي "يُحب" فتاة. فيضيّع سمعتها. أو يفقدها عفّتها:

هل تسمّي هذا حُبّاً أم شهوة؟! لو كان يحبها حقاً. لكان يحرص عليها: يحرص على سمعتها كما يحرص على سمعة أخته. ويحرص أيضاً على شرفها. ويحرص على مشاعرها. فلا يشغلها به ويُعلّقها بشخصه. وقد يتركها بعد ذلك حيّرة. لا تجد طريقها في الحياة. أو تجده مُظلماً أمامها.. أنستطيع أن نسمّي هذا حُبّاً؟!

قد يُسمّيه البعض مجرّد تسلية في حياة الشاب!

ولكن ما هو ثمن هذه التسلية من الناحية الدينية. ومن الناحية الاجتماعية؟ هذه التسلية التي تشغل الفكر وقد تضيّع المستقبل! وقد تفقد الشاب والشابة نجاحهما في الدراسة أو تفوقهما. وليس في هذا أي حُبّ لأحد منهما.

وما معنى التسلية التي تُفقد فيها العفة والسمعة؟!

***

الحُب الحقيقي لا بد أن يرتبط بنقاوة القلب ولا يكون مُتعة للذات على حساب الغير.

والذي يُحب إنساناً. لا يفقده نقاوة فكره ولا طهارة جسده. ولا يغتصبه منه لنفسه محبّته للّه وللفضيلة. ولا يتركه في صراع بين الجسد والروح. وبين محبّته للّه ومحبّته للإنسان.

وإن كان حُبّاً يقود إلى زواج. فهل الزواج الطاهر تسبقه الخطيئة؟! وهل الخطيئة توجد جوّاً من الثقة في الزواج فيما بعد؟! هذا إذا تم زواج فعلاً. أم كان الأمر مجرد خداع!

***

يذكرنا هذا بالمحبة الخاطئة. والمحبة الضارة.

كمَنْ يُشجّع إنساناً بِاسم المحّبة على السّير في طريقه الخاطئ. أو يدافع عنه. أو يساعده مادياً أو معنوياً. فتكون النتيجة أنه يستمر في الخطأ. ويهلك. ويكون الذي شجّعه مُشتركاً معه في المسؤولية وفي نتائج الخطأ وعقوبته. وفي نفس الوقت يكون هذا التشجيع ضدّ الحق. وضد اللّه. وتقف أمامنا هذه القاعدة:

"مُبرئ الذنب. ومُذنب البريء. كلاهما مكرهة للرب".

فإن كنت تحب إنساناً حقاً. لا تدافع عنه في أخطائه. إنمّا حاول أن تنقذه من هذه الأخطاء وقيادته في الطريق السليم. وهكذا تخلّصه من وصمة خطيئته. ومن عقوبتها. سواء على الأرض أو في السماء. وأيضاً تخلّص نفسك من مسؤولية الاشتراك معه.

***

ومن أمثلة هذه المحبة الخاطئة الأم التي تغطي على أخطاء ابنها. حتى لا يعرفها أبوه. وكذلك الأم التي تدلّل ابنها تدليلاً يفسده. لذلك يقول أحد الأمثال السائرة:

"الذي يبكيك يبكي عليك. والذي يضحكك يضحك عليك".

أيضاً تكون محبّة خاطئة محبّة الأم لابنتها المتزوّجة حينما تدافع عنها في كل علاقتها مع زوجها دفاعاً يُشجّعها على الخطأ!

وقد يؤدّي انضمامها إليها في أخطائها إليه إلى انهيار حياتها الزوجية. وربما ينتهي أمرها إلى الطلاق. حينما ييأس الزوج من عمل والديها على إصلاح شأنها. الاستمرار في الدفاع عنها في كل خطأ ترتكبه.

***

ومن أمثلة المحبة الخاطئة: محبة الزوج الذي يحبس زوجته في البيت. لكي تكون له وحده!

إنها محبة أنانية. محبة لذاته هو. وليس لها. لأنه بذلك يقيد حريتها. ولا يعطيها حقّها في الاندماج بالمجتمع. وتكون مثل عصفور جميل يضعه صاحبه في قفص. لكي يغني له وحده!

بل إنه بهذا التصرُّف لا يكون مُحبّاً لنفسه محبّة حقيقية. لأنه بهذه الغيرة القاسية قد يفقد محبّة زوجته له. إذ تتضايق من كتمها لحريتها. وبهذا تهتز علاقتهما الزوجية.

إن الحبس ليس هو الأسلوب السليم. بل إن تعميق الحب بينه وبين زوجته. هو الذي يجعلها تتمسّك به وحده. ولا تفكّر مُطلّقاً في خيانته. إنما على العكس تحرص على محبته.

***

ومن الناحية الأخرى: امتناع الأب امتناعاً كاملاً عن توبيخ أولاده في أخطائهم. لكي يكسب محبتهم! هذه محبة خاطئة لهم..

لأنه بهذا يمتنع عن تأديبهم وتقويمهم. وإذ لا يجدون من يردعهم في أخطائهم. يستمرّون فيها ويفسدون. بل يأتي الوقت الذي يشكو فيه هذا الأب من تصرُّفات أبنائه بصفة عامة. وأيضاً ضده شخصياً. وينطبق قول أحد الحكماء:

"أدّبوا الأحداث. قبل أن يؤدّبوكم".

إذن من الخطأ الواضح أن يظن البعض أن التوبيخ أو العقوبة هما ضد المحبة. سواء في محيط الأسرة. أو في محيط المجتمع عموماً. فالعقوبة تكون رادعة عن الاستمرار في الخطأ. والتوبيخ هو إنارة للطريق، وتوضيح لمضار السلوك الرديء.

وإن لم يستفِد المُخطئ من التوبيخ أو العقوبة... لعناد في نفسه. أو لسيطرة الخطيئة عليه، فلا شكّ يستفيد الآخرون ممّا يرونه قد حلّ بهذا المُخطئ.

وأي قانون لا يشمل عنصر العقوبة. قد يستهين البعض به.

ومن المحبة الخاطئة: محبّة البعض على حساب البعض الآخر

فالمحبّة النقيّة الخالصة. هى محبّة للكل. في مساواة بلا تفريق فالأب الذي يُحب أولاده كلّهم. لا يُميّز بعضهم بمحبّة زائدة. بينما يهمل البعض منهم. هذا الأب بمحبّته العادلة. لا يسمح للغيرة أن تدب بينهم بسبب معاملته. ولا يُصاب أحدهم بعقدة نقص. إذ يجد أن أباه لم يمنحه من الحُب نصيباً كباقي إخوته.

نفس الوضع بالنسبة إلى ضُرّتين. في تفضيل زوجهما لواحدة أكثر من الأخرى. وبالنسبة إلى مدير في عمل ما. يعامل أحد الموظفين معاملة مُميّزة عن زملائه مع تساويهما في الكفاءة. لا شكّ أن المحبة الحقيقية هى محبة عادلة بلا تحيُّز.

***

والمحبة الحقيقية هى محبة عملية

ليست بالكلام واللسان. وليست بالتظاهر أو الرياء.

إنما المحبة هى عاطفة تترجم ذاتها إلى عمل.. فمحبة الأسرة لطفلها ليست مجرد عاطفة. إنما هى محبة عملية. فيها الاهتمام بغذائه وصحته ونظافته وتعليمه. وأيضاً تدريبه على السلوك الطيب.

ومحبة الإنسان لوطنه. ليست هى مجرد مشاعر. وإنما هى محبة عملية لهذا الوطن. في خدمته لوطنه. وبذل ذاته عنه. والبعد عن كل ما يُسيء إلى هذا الوطن. أو يضر باقتصاده ومصالحه.

ومحبة الإنسان للّه. ليست أيضاً محبة نظرية. إنما تظهر عملياً في حفظه لوصايا اللّه. وإتباعه مبادئ الدين في العبادة والمعاملات.

***

والمحبة الحقيقية هى محبة معطاءة باذلة:

تحب طفلاً. معناه تعطيه شيئاً: لعبة. شيئاً من الحلوى. كلمة تدليل. أو تحكي له حكاية لطيفة.. المهم أن تعبر عن محبتك بالعطاء. ولو بابتسامة لطيفة في وجهه.

كذلك مع الكبار: تكسبهم أيضاً بالعطاء: تقدّم له خدمة معينة. أو معونة في مشكلة. وكما يقول المثل: "عند الشدائد يُعرف الإخوان". أو تظهر محبتك في أنواع من المجاملة أو المشاركة في المناسبات: بزيارة. أو على الأقل هدية تعطي له. أو باقة من الزهور ترسل إليه.. كل هذا يُمثّل رمزاً أو تعبيراً.

وكلها ألوان من العطاء الخارجي. أمّا عن عمق العطاء. فهو بذل الذات. لأنه لا يوجد حُبّ أعظم من هذا. أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه. يظهر هذا في مجالات التضحية. وفي من يبذلون أنفسهم في إطفاء الحرائق وفي إنقاذ المُشرفين على الغرق.

***

صفة أخرى للمحبّة الحقيقية. وهى المحبّة الدائمة:

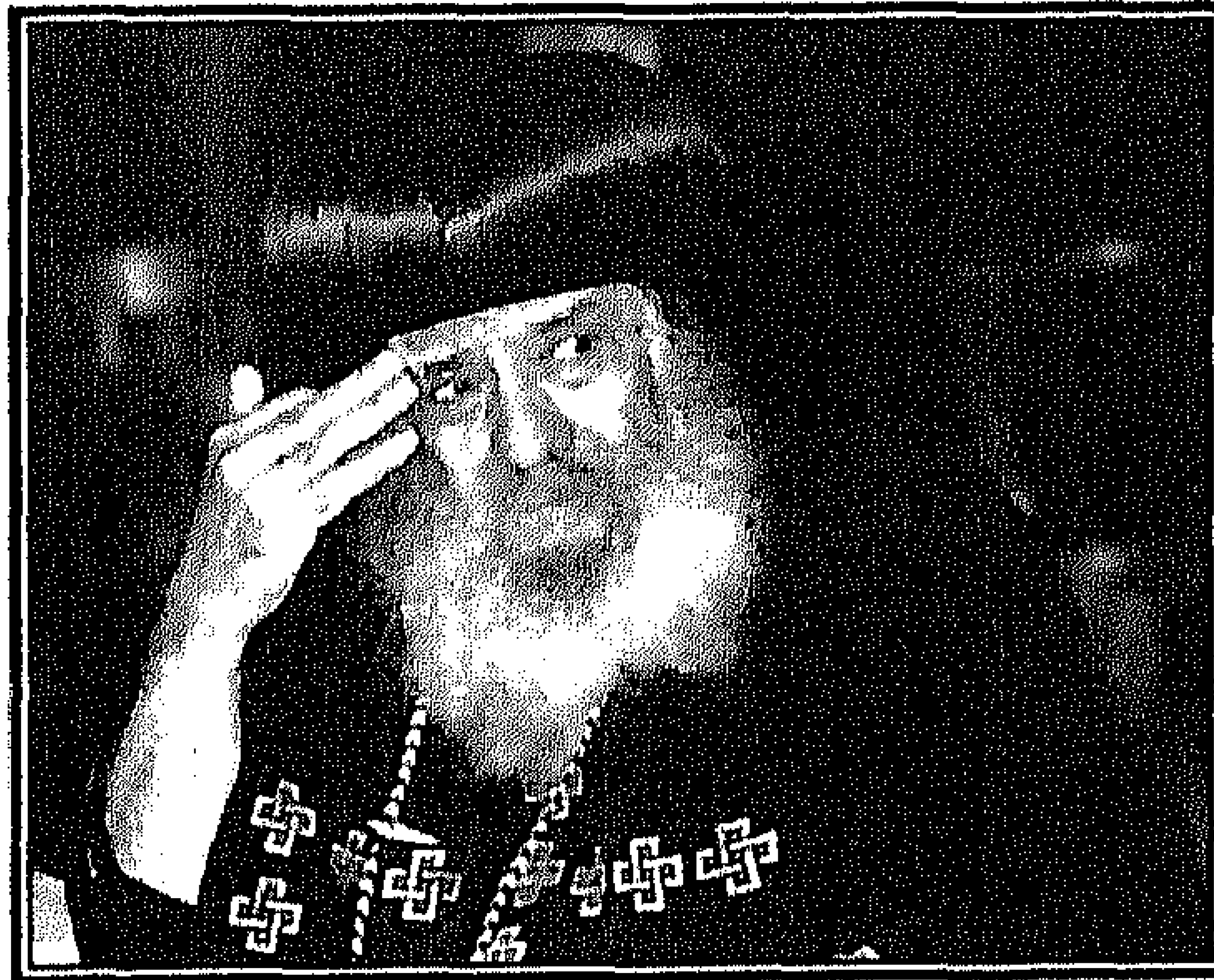
أي أنها تكون محبّة مُستمرّة. ليس لفترة ثم تنتهي. وتكون محبّة أقوى من الشك. ولا تنقطع بسبب سوء تفاهم في موضوع مُعين.. محبة فوق العتاب. ولا يقول فيها أحد الطرفين للآخر:

"عندي عليك أنك تركت محبتك الأولى" لم تعد كما كنت من قبل!

وإذا كان اثنان يُحبّان بعضهما البعض محبة قوية. فإنهما يريدان أن تدوم هذه المحبة بينهما حتى في العالم الآخر بعد الموت. وهذا لا يتأتى إلاّ لو كانا يعيشان حياة نقية مرضية للّه. فيذهبان معاً إلى نعيمه الأبدي. ويجتمعان هناك.

أمّا إن عاش أحدهما في البرّ. والثاني في الخطيئة. فلن يجتمعا معاً بعد الموت. ولن تكون محبتهما دائمة ومستمرّة.

إذن المحبة التي ستستمرّ هى المحبة الروحية الطاهرة.



٢٠٠٢/٩/١٧

أنواع من القتل

الله وحده - تبارك اسمه - بيده الحياة والموت.

وهو الذي يُحيي ويُميت. وقد منح سُلطات البشر حقّ الإماتة في بعض الحالات مثل إعدام القاتل. فسافك دم الإنسان. بيد الإنسان يُسفك دمه. أمّا خطيئة القتل فجريمة يُنهي عنها الله.

وهى خطيئة لها خطورتها لأنها عمل لا يمكن أن يُعالج، ولا يمكن أن يُردّ. فمن الجائز أن تعوّض إنساناً عن خسائر سببتها له. ومن الجائز أن تعتذر إلى إنسان عن إهانة جرحته بها. ويمكنك أن ترد إليه كرامته واعتباره. أمّا قتل الإنسان فلا يمكن أن يُعالج. ولا تستطيع أن ترد إليه الحياة التي سلبتها منه.

***

جريمة القتل لها خطورتها بالنسبة إلى قتل خاطئ أو بار

فقتل الخاطئ يعني إنهاء حياته قبل أن يتوب. وانه لم تعد له فرصة يستعد فيها لأبديته. فيكون قاتله قد قتله روحاً وجسداً. الآن وإلى الأبد. وأُلقي به في الجحيم.. مثال ذلك من يضبط زوجته أو أخته في حالة زنى. فيقتلها للتوّ. وتموت بغير توبة.

يُضاف إلى هذا. أن القاتل في نفس الوقت. يكون قد قتل نفسه شخصياً. بارتكاب خطيئة تؤدِّي إلى هلاكه هو...

أمّا عن قتل شخص بار. فإنه أيضاً خطر جداً. فهو قتل بلا سبب ولا مُبرِّر. وقتله يعني منع النفع الذي كان يأتي منه كعضو في المجتمع. لذلك بقدر ما يكون المقتول نافعاً. تزيد المسؤولية في قتله. فقتل إنسان هو جريمة. وحرمان المجتمع من نفع عام هو جريمة أخرى. وتتسع مسؤولية القتل بقدر عدد المنتفعين منه. وبقدر عمق الفائدة التي كانت تصدر عنه.

لذلك كان قتل الأنبياء والعلماء جريمة عظمى..

***

واللَّه لا يترك الدم بدون نقمة. هو يُجازي...

والقاتل لا بد أن يطارده دم القتيل. مهما طال الوقت...

دم القتيل يصرخ إلى اللَّه. واللَّه يسمع ويُجازي. مهما حاول القاتل أن يُبرِّر جريمته. أو أن يُخفيها ويتنصل منها.

لذلك فالذين ينتقمون لقتلاهم. إنما يتعجلون الأمر. ويريدون أن يحكموا لأنفسهم. قبل أن يحكم اللَّه!! وهم بالانتقام يضعون على أنفسهم ثقلاً. له أيضاً ردود فعله...

***

وإن كان قتل الفرد له عقوبته. فماذا عن القتل الجماعي في الحروب؟ وما مدى المسؤولية فيها؟

الحروب فيها فظائع كثيرة. وقتل بالجملة. وفيها تخريب أيضاً. لذلك فكثير من الحكام العقلاء يتحاشونها بقدر الإمكان.

على أن الحرب تنقسم إلى حرب دفاعية. وأخرى عدوانية. والحرب الدفاعية أقل مسؤولية. وقد تكون ضرورة من أجل الوطن وسلامة أراضيه. ولكنها لا تخلو أيضاً من ضحايا يقعون قتلى من الجانبين. أمّا الحرب الهجومية العدوانية فهى شرّ واضح..

على أن أخطر ما في الحرب: الأسلحة المُدمِّرة التي تستخدم فيها.

كالغازات السامة. والنابالم. والأسلحة البيولوجية والميكروبية. وكل أسلحة التدمير والتخريب التي تهدم كل البنية الأساسية من ماء وكهرباء ووسائل الاتصالات والكباري والأنفاق.

وكذلك من أخطاء الحرب الاعتداء على مساكن المدنيين. وقتل الأطفال والنساء والمرضى والعجائز. وضرب المستشفيات والمدارس والمؤسّسات غير العسكرية التي لا علاقة لها بالحرب.

من أجل هذا وُجدت اتفاقات أو قوانين دولية خاصة بالحرب. للحد من خطورة قتل الأنفس فيها. وللتخفيف من الوحشية والبشاعة في الحروب. وقوانين لمعاملة الأسرى.

ووُجِد ما يُعرف بِاسم "مجرمي الحرب".

الذين سلكوا في الحرب بوسائل الإجرام. خروجاً على القواعد المُتبعة في الحروب سياسياً وعسكرياً.

ومن بنود القتل أيضاً محاولة القضاء على جنس مُعيّن سواء بالتعقيم أو الإخصاء.

والتعقيم هو عملية يقصد بها إصابة الإنسان بالعقم. ليمنع من الإنجاب في المستقبل. ويحمل ضمناً إفناء لنوعه. وقد استخدم التعقيم في بعض الأوقات ضد الزنوج والعبيد في بعض البلاد لإبادتهم. ولا شكّ أنها عملية قتل خاصة بالمستقبل.

أمّا عن الإخصاء فمعناه إزالة الخصية عند الرجال. ويؤدِّي نفس نتيجة العقم بقتل خصوبتهم. وهذه طريقة لجأت إليها بعض الدول المُتمدّنة لإبادة الشعوب المتأخّرة. والبعض لجأ إلى استخدامها أيضاً. أو استخدام ما يُشبهها للتخلُّص من بعض المشوّهين أو المعتوهين ومن أُعتبروا ثقلاً على المجتمع!!

***

ينقلنا هذا إلى نوع من القتل أو الإجهاض

هو إسقاط الجنين. وبهذا يتم قتل مخلوق حي. في دور التكوين في بطن أمه. وإن كان لم يُولَد فيه ولم يكتمل نموّه... ولكنه نفس لا نملك قتلها أو منعها من التمتُّع بالحياة.

والإجهاض يتم بأن تتعمد المرأة الحامل. أو يتعمّد زوجها أو أهلها إسقاط الجنين من بطنها. وقد يكون ذلك بعملية طبية يتحمّل فيها الطبيب جزءًا من المسؤولية. ويعتبر شريكاً أساسياً في هذا القتل... أو قد يكون الإجهاض بطرق أخرى تعرفها النساء...

***

على أن الهدف من إسقاط الجنين يُحدِّد مقدار المسؤولية

فربما يكون الهدف من الإجهاض هو ستر خطية أخرى. إن كانت المرأة قد حملت سِفاحاً. وقد يظن المشتركون في عملية الإجهاض أنهم قد فعلوا خيراً لمنع فضيحة. ولكنهم في الحقيقة قد اشتركوا في جريمة قتل. ولا يجوز أن نغطّي الخطيئة بخطيئة أخرى. وما ذنب الجنين؟!

أو قد يكون سبب الإجهاض هو عدم رغبة المرأة أو زوجها في مزيد من النسل. وكان الوضع السليم هو منع الحمل. وليس أن يتم ثم يُقتل الجنين!

أمّا الاستثناء الوحيد الذي يُجيز الإجهاض. هو تعرُّض الأم للموت إذا ولدت. بشهادة موثوق بها من الأطباء.

وبهذا يكون الجنين فدية لأمِّه. فيموت بدلاً عنها. ويرى الأطباء أن التضحية به أمر لازم جداً من أجل حياة الأم.

أمّا النوع غير المقصود فهو الإجهاض بسبب زيادة الإجهاد

كأن تُجهِد الأمّ نفسها فوق طاقتها - وهى حامل - فيؤدِّي الإجهاد الشديد إلى إجهاض. فتسقط ما في بطنها بغير قصد. والمفروض أن تحترس. وأن تكون هناك رعاية للأم أثناء حملها. وتوعية لها.

وقد يشترك في مسؤولية هذا النوع من الإجهاض. صاحب العمل الذي يُرهق موظفة عنده تكون حاملاً. غير مراع ما تستلزمه صحتها في شهور الحمل. فإن أدَّى إرهاقها إلى إسقاط جنينها. فإنه لا ينجو حينئذ من المسؤولية.

وقد تقع مثل هذه المسؤولية في الإسقاط على الزوج. إذا لم يُبالِ بصحة زوجته الحامل. وتسبّب في إسقاطها لجنينها.

***

ننتقل إلى نقطة أخرى في جريمة القتل. وهى الانتحار:

الإنسان لا يملك نفسه حتى يتخلّص منها. بل هى ملك للّه الذي خلقها. وملك للمجتمع الذي رباها منذ الطفولة وينتظر منها أن تعمل لأجله. لذلك ليس من حق الإنسان أن يقتل نفسه. فهذه خطيئة.

خطيئة أخرى للمنتحر. وهى اليأس وقطع الرجاء من الحياة.

خطيئة ثالثة وهى عدم الإيمان. فالمنتحر يظن أنه بموته سينتهي من متاعبه على الأرض. وكأنه لا يؤمن بالحياة الأخرى التي سوف يدخلها بعد الموت. ويدخلها كقاتل نفس يائس قاطع الرجاء من إصلاح حاله.

والخطيئة الرابعة في الانتحار هى عدم الاحتمال.

وهكذا فالانتحار جريمة قتل. يبدأ بها المنتحر حياته الأخرى بغير توبة عنها. وبها يخرج من متاعب الدنيا إلى متاعب أخرى في الجحيم أشدّ وأبشع. وكأنه خرج من حفرة ليقع في بئر.

الاستثناء الوحيد لمغفرة جريمة الانتحار. هو إن ثبت أن المُنتحر في وقت انتحاره كان فاقداً لقواه العقلية.

والمعروف أن الإنسان لا يحمل مسؤولية عمله. إلاّ إذا كان عاقلاً يدرك ما يعمل. وإن كان حُرّاً يتصرّف بمشيئته.

ونحن نعرف أن غالبية المنتحرين يُدبِّرون وسيلة ووقت انتحارهم بعقل وتدقيق وحرص على إخفاء ما يفعلون. وبعضهم يجلس قبل انتحاره ويكتب خطاباً يشرح فيه أسباب الانتحار ويوصي...

العقل عند هؤلاء كان موجوداً. ولكن النفس كانت منهارة.

وهنا تتأرجح المسؤولية ما بين العقل والنفس...

***

هنا وأراني مُضطراً إلى التعرُّض لموضوع القتل الجزئي.

هناك أشخاص لا ينتحرون انتحاراً كاملاً بقتل أنفسهم دفعة واحدة في لحظة أو لحظات. وإنما يقتلون أنفسهم تدريجياً قتلاً جزئياً. سواء يقصدون قتل أنفسهم أو لا يقصدون...

وذلك عن طريق التدخين والمُسكِرات والمُخدِّرات.

ولمّا كان هذا الموضوع طويلاً. ولا شكّ يحتاج منّا إلى مقال خاص. لذلك أستسمحكم في إرجائه إلى فرصة أخرى.

يدخل في القتل التدريجي أيضاً إهمال الشخص للقواعد الصحية وتعريض الجسد بأسباب عدة إلى أمراض خطيرة تقضي عليه. مع عدم المُبالاة بالتعرُّض للعدوى من أمراض قاتلة. وكذلك عدم إعطاء الجسد الراحة التي يحتاجها. والاستهانة بكل هذه الأسباب وعدم اعتبارها وسيلة لتدمير الجسد تدريجياً. بينما هي تنحر فيه نحراً.

***

في جريمة قتل الغير. نتناول نقطة الامتناع عن الإغاثة.

ليس القتل هو أن تقوم بنفسك بإنهاء حياة إنسان. وإنما إذا تعرّض إنسان للموت. ولم تنقذه - حين كان بإمكانك إنقاذه - فأنت إذن مشترك في سبب موته.

كذلك هى مسؤولية على جمعيات الإسعاف. إن أهملت في إنقاذه إنسان في خطورة الموت. أو رفض طبيب مُختص أن يُعالجه أو أن يجري له عملية عاجلة في حالة emergency. فهو مشترك في قتله. وبنفس المنطق نقول عن إغاثة المُشرفين على الغرق. أو عدم إنقاذ الذين في خطر الحرائق...

وخارج مسؤولية الأفراد. نتحدّث عن مسؤولية الدول الكبرى الغنيّة جداً. حينما لا تمد يدها إلى دول في غاية الفقر تقاسي من الجوع والعُري والمرض. وتلزمها إغاثة عاجلة. ويموت منها الآلاف بدون معونة من الدول الغنية.

***

نقطة أخرى وهى: القتل بالمسؤولية.

وهى حالة الشخص الذي لم يقتل بنفسه. ولكنه يُطالب بدم القتيل. إن كان مسؤولاً عمّا تسبّب في قتله.

مثال ذلك إن حفر إنسان بئراً أو حفرة عميقة. ولم يغطها. فوقع فيها إنسان ومات. تقع عليه مسؤولية في مقتل هذا الإنسان.

* مثال آخر هو مهندس أو مقاول يُخطئ في التسليح السليم لخرسانة بيت يبنيه. فإن انهار ذلك البيت. ووقع على من فيه فماتوا. يكون ذلك المهندس أو المقاول مسؤولاً في قتلهم.

* كذلك إن كان عند إنسان كلب مسعور. وتركه ينهش في الناس ويتسبّب في موتهم. يكون صاحبه مسؤولاً عن قتلهم.

.. والأمثلة كثيرة في هذا المجال كصاحب عربة تالفة يوظف لها سائقاً متهوراً. فتصدم أناساً وتُميتهم. أو مدير عمل يستبقي عنده موظفاً شرساً. يجرح الناس في مشاعرهم. ويؤذيهم في أرزاقهم.

***

يبقى علينا في هذا الموضوع قتل الروح. وقتل الأعصاب. والقتل المعنوي. وتحطيم الشخصية. وكلها تحتاج إلى تفصيل لا يتسع له الوقت.

قتل الروح مثل الاغراءات التي تسقط أرواح الناس في الخطيئة. فيهلكون. وكذلك الإهمال في تربية الأبناء فيضلون. وهؤلاء سيطالب اللّه آباءهم ومعلّميهم بدمائهم في يوم

الدين وقتل الأعصاب وهو قتل لا يستخدم فيه صاحبه خنجراً أو رصاصاً. وإنما يقتل غيره بالاهانة والتجريح وسوء المعاملة والكلمة الموجعة.

والقتل المعنوي مثل عمليات التشهير وإساءة السمعة والنقد الهابط.

أمّا تحطيم الشخصية فمثاله أب قاسٍ. يلغي شخصية ابنه. ويحطّم معنوياته في كل كلمة وكل تصرُّف. فينشأ بلا شخصية. قد قتل فيه ذلك الأب كل إحساس بالذات وكل ثقة بالنفس. وأنشأه خائفاً مُتردِّداً.



٢٠٠٢/٩/٢٤

العُنف .. أخطاؤه ـ أسبابه ـ أنواعه

أخطاء العنف

العُنف خطيئة مركزة ومركبة. تشمل العديد من الخطايا. وهو أيضاً خطيئة مُنفرة. مكروهة من الكل لا يستريح لها أحد من الناس. وسنحاول اليوم أن نحلل العنف. ونرى ما يكمن في داخله من الخطايا.

*** العنف هو دليل على قسوة القلب**

فكل عنيف هو بالضرورة قاسي القلب. لا يُبالي بما يجرّه عنفه على غيره. وهو خطية عدوانية. قد تصل إلى الإيذاء. بل إلى القتل أحياناً. لفرد أو لجماعات من الناس.

وبالتالي فهو لا يتفق مع إنسان روحي. تتصف طباعه بالرقة والهدوء. وتكون ألفاظه هادئة ومُنتقاة. ويحرص على ألاّ يخدش شعور أحد من الناس.

***

*** والعنف يتناقض مع الوداعة والمحبة واللُّطف**

هذه الصفات التي تجعل صاحبها محبوباً في المجتمع الذي يعيش فيه. والإنسان الهادئ يُعالج المشاكل بالحكمة واللُّطف لا بالعنف. ولا يكون غليظ القلب. حتى لا ينفض الناس من حوله.

أمّا الإنسان العنيف. فهو إنسان غير اجتماعي. ينفر الناس منه. ولا يستطيع أن يكسب رضى الناس ولا مودة البشر.

*** والعنف دليل على البُغضة**

فالذي يحب إنساناً. لا يعامله بعنف. ولهذا فإن الزوج العنيف يخسر محبة زوجته. إلاّ لو كان إنساناً سادياً يجد لذّة في عُنفه.

***

والعنف دليل على الضعف. وفقد الحيلة. والعجز الكامل عن التصرُّف السليم.

*** فالمدرِّس الذي يلجأ إلى العنف مع تلاميذه.**

هو مُدرِّس ضعيف. فهو إذ يعجز عن ضبط النظام بين تلاميذه. يثور عليهم. ويضرب

هذا. ويطرد ذاك. ويشتم ويعاقب. وبهذا يدل بلا شكّ على أنه إنسان ضعيف. لأنه لو كان قويّاً. ما كان يلجأ إلى العنف. بل كان يستطيع أن يضبط الفصل بقوة شخصيته. أو بذكائه وجاذبية شرحه. أو بمرحه ولطفه. أو بمحبة تلاميذه له. ولكنه إذ خلا من كل هذه الصفات المُحبّبة إلى تلاميذه. لجأ إلى العنف بدافع من قلّة الحيلة.

*** كذلك الأم التي تضرب أطفالها:**

فإن كان ابنها يصيح بصوتٍ عالٍ مُثيراً صخباً. أو يلهو ويجري ويعبث. ولا تستطيع أن تضبطه. ولا أن تتركه يلعب. تلجأ إلى العنف: تضرب أو تشتم أو تهدِّده أو تخيفه بطريقة ما! كل هذا لأنها لا تملك الخبرة ولا المعرفة بالطرق التربوية. ولا بكيفية معاملة الأطفال. ولو عرفت. لكسبت طفلها دون الرجوع إلى العنف.

***

وهنا يكون العنف وسيلة لتغطية العجز. أو مجرد رد فعل لقلّة الحيلة.. وقد يكون عند البعض لإثبات الذات والسيطرة.

فيكون الشخص عنيفاً ليجبر الآخرين على الخضوع له بالقوة. لا إيماناً بزعامته. وإنما خضوعاً لسطوته. وكما قال الشاعر:

خُلق الناس عبيداً ... للذي يأبى الخضوعَ

فإذا ما هبّ يوماً ... سائراً سار الجميعَ

وهذا هو خطأ آخر للعنف. أي إجبار الآخرين للخضوع بالقوة. وهو مبدأ يسير عليه الديكتاتوريون. ومن يلجأ إلى الأسلوب الديكتاتوري في أية هيئة من الهيئات. والوضع السليم أن يخضع الناس لزعاماتهم. عن طريق الثقة بهم والاقتناع بفكرهم. لا عن طريق الخوف من عنفهم.

***

العنف إذن هو وسيلة لإظهار الذات أو للدفاع عن الذات، وقد يستخدمه البعض للدفاع عن مبدأ أو نشره.

وقد استخدمته البلشفية في نشر مبادئها الشيوعية. ولم يستمر ذلك. لأنه ما أن نال الناس حريّتهم. حتى تركوا ما كانوا قد أُجبروا على قبوله بالعنف. والمعروف أن المبادئ والقيم والمذاهب. لا يمكن أن يقبلها العقل بالعنف. بل بالإقناع. وإن كانت الإرادة يمكن أن

تخضع بالعنف. فالعقل لا يمكن أن يخضع.. حتى إن تظاهر بالقبول بلون من السياسة أو الخوف. إلى وقتٍ مُحدَّد يمكن أن يزول فيه عامل الخوف.

***

ومن أخطاء العنيف. أنه لا يضبط نفسه

بعكس الإنسان الهادئ الذي يتصف بضبط النفس. ويمكنه أن يتحكم في تصرُّفاته. أمّا العنيف فإنه يفقد ضبط النفس. فلا يستطيع أن يتحكّم في أعصابه. ولا في غضبه. وقد يتصرّف تصرُّفات هوجاء. تدلّ على أنه لا يتحكّم في عقله وفي تفكيره. ولا يزن ما يفعله بميزان سليم. ولا يحسب ردود الفعل لكل ما يفعله أثناء ثورة انفعاله. أو أثناء تعبيره عن عنفه.

***

أنواع من العنف

*** أول نوع هو الإيذاء بكل درجاته**

ومنه الضرب والقتل بأنواعه. وكذلك كل ألوان التعذيب الجسدي أو النفسي. كالتخويف مثلاً وإثارة الذعر مع الضغط والتهديد. وكل ذلك يدخل في العنف العصبي.

*** عنف آخر هو الإرهاب**

ويشمل حوادث الخطف للأفراد وللطائرات والسفن. والرسائل المُلغمة. وكافة أعمال النفس والتدمير والتخريب. وقتل الآمنين. وهدم الكباري. وتحطيم وسائل الاتصال. وكلها جرائم على مستوى بشع. وتظهر فيها القسوة واضحة.

***

*** ومن العنف أيضاً: الحرب**

والحروب قد شهدها العالم من أقدم العصور. وهى من ظواهر العنف. ليس بين الأفراد. وإنما بين الأمم والشعوب.

ومن أعنف ما في الحروب: النووية منها. والتي تستخدم الغازات السامة. والأسلحة المُحرِقة والمُدمِّرة. والتي تضرب مساكن المدنيين والمستشفيات. ومصادر الكهرباء والماء. وتخرِّب مُدناً بأكملها. وتقضي على حضارات. وتخلّف مجموعات من المشوّهين والمعوّقين.

*** وهناك عنف على مستوى فردي. مثل تحطيم المعنويات:**

ومن أمثلته الزجر الشديد والتوبيخ القاسي. والتركيز على الأخطاء. وتحطيم الشخصية.

ويدخل في هذا النوع أيضاً **عُنف الاهانة**. ويشمل التهكُّم اللاذع. والازدراء. والتشهير والتجريح والقذف. والتجاهل والمقاطعة. والشتيمة والسبّ. وما إلى ذلك من ألوان القتل الأدبي أو المعنوي. وربما يصحبه لون من التهديد.

***

ومن أنواع العنف: عنف العتاب

الذي لا يؤدِّي إلى المُصالحة. بل إلى مزيد من الجفاء والبُعد. ويشمل العتاب الشديد القاسي الذي يجرح. وربما لسبب تافه لا يستحق ذلك. وقد يستمر هذا العتاب طويلاً. أو يكون أمام الآخرين أو يكون مصحوباً بأسلوب عصبي وبألفاظ لا تليق. وقد يصبح طبعاً يعاتب فيه على كل صغيرة وكبيرة. وعنه قال الشاعر.

إذا كنت في كل الأمور مُعاتباً ... صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبهْ

فعِش واحداً أو صِل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبهْ

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت. وأي الناس تصفو مشاربه

***

* وهناك عُنف يختلف عن كل ما سبق. ويمكن أن نسمِّيه:

العنف السلبي:

يلجأ إليه الذي لا يقدر على العنف الايجابي. فيلجأ إلى الكآبة المستمرة والبكاء الدائم. والصمت الحزين. كما تفعل بعض النساء. أو يلجأ إلى الإضراب عن الطعام. أو الانسحاب. وكلها أنواع من العنف الهادئ الصامت. تُمثِّل ضغطاً معنوياً مُستمراً على الطرف الآخر.

* وهناك عنف داخل الإنسان. وموجّه إليه شخصياً. وهو:

عُنف الشهوات

فقد توجد شهوات تحارب الإنسان بعنف. حتى تدمره تدميراً. مثل شهوة الجشع التي لا تستريح مهما أخذت ومهما جمعت. ومثل شهوة تعاطي المُخدِّرات. وشهوة الكبرياء وحُب العظمة. والمعروف أن الشهوات لا تستريح حتى تكمل. وإن كملت تود أن تستمر. وقد تصحبها أفكار مُدمِّرة تلصق بالعقل ولا تفارقه. حتى تحوجه إلى مُسكنات أو منوّمات.

أسباب العنف

*** من أسباب العنف قسوة في الطباع:**

فهناك أشخاص طباعهم قاسية. يتعاملون باستمرار بهذه القسوة. فإذا زادت حدّتها عندهم. تحوّلت إلى عنف.

وربما ترجع القسوة أحياناً إلى ظروف خاصة بأعصاب الجاني. ففي حالة تعب الأعصاب لا يقدر الشخص على الاحتمال. فيلجأ إلى العنف.

* أو قد يكون الإنسان الذي يستخدم العنف **مريضاً بمرض عصبي أو عقلي**. يمكن أن يدفعه إلى العنف. وإلى الإيذاء بل إلى الجريمة. وهذا الأمر معروف عند المدرسة الإيطالية التي تنادي بأن كل مجرم مريض. ولهذا يبحثون عن المرض الذي دفعه إلى الجريمة. ويستدلون بأن بعض الأمراض العقلية يصحبها عنف. وكذلك بعض الأمراض العصبية.

ولكننا لا نستطيع أن نقول إن العنف يرتبط بالأمراض العقلية أو العصبية. فما أكثر العنفاء وليسوا مرضى عقلياً.

***

*** وقد يكون الخوف من اكتشاف الجريمة هو من أسباب العنف**

كسارق اقتحم بيتاً للسرقة فقط وليس للقتل. ولكنه قد يضطر إلى ذلك. إذا رآه أحد. وخاف من انكشاف أمره.

أو كعصابة تقتل بعض الذين يعرفون أسرارها. حتى لو كانوا من أعضائها. خوفاً من أن يذيعوا بعض الأسرار.

أو كشخص يشتبه في أن آخر يتآمر عليه. فيعمل على التخلُّص منه. ويُعامله بعُنف. وربما يقتله.

***

*** وقد يكون سبب العنف. هو الغرور والاعتزاز بالقوة**

وسوء استخدام هذه القوة. كمَنْ يتعامل مع الآخرين بالعنف. لكي يظهر لهم أنه أقوى منهم. وأن بإمكانه أن يقهرهم متى أراد.

ويحدث هذا أحياناً عند بعض المراهقين. ومع الطغاة. وبعض زعماء العصابات في إخضاع أفراد العصابة لطاعة أوامرهم.

*** وقد يكون سبب العنف هو العداوة والحقد**

فالذي يحقد على آخرين. قد ينفّس عن حقده بالعنف. كمَنْ يحقد على آخر لأنه سيأخذ منه مركزه ويحل محله فيه. أو لأنه سيكون منافساً خطيراً له. فيستخدم معه العنف.

وقد تكون زوجة الأب عنيفة على أبناء زوجها من امرأة أخرى. حقداً عليهم حتى لا يأخذوا ميراث أبنائها هى أو محبة والدهم.

أو تكون الضرة عنيفة على ضرتها. لمنافستها لها في محبة الزوج. وما أسهل أن تدفع الغيرة والحسد. إلى مثل هذا كله.

***

*** وقد يكون سبب العُنف القيادة الخاطئة**

التي تصوّر العنف كلون من البطولة. وأن العنفاء هم حراس المبادئ والقيم. وأن إصلاح المجتمع أحياناً لا يتم إلاّ بالعنف!!

وهكذا يقنعون غيرهم بهذا الفكر. ويدخلون العنف إلى قلوبهم وعقولهم. حتى لو لم يكونوا عنفاء بطبيعتهم.

ومنهم من يقنع أحد أفراد العائلة. بأن عار الأسرة لا يُمحى إلاّ بالدم. وأن الانتقام من أعداء العائلة أمر واجب ولازم ومنهم من ينشر ذلك المبدأ "اضرب المربوط فيخاف السائب".

***

*** أخيراً نذكر العنف الظاهري:**

وهو ليس عنفاً حقيقياً. ومثاله الأب الذي يتظاهر بالغضب والرغبة في استخدام العنف. وذلك ليقود ابنه إلى الطاعة. أو رئيس العمل الذي يُهدِّد بعقوبة مُعينة. لا ينوي مُطلَقاً أن يفرضها. وذلك لتخويف مرؤوسيه حتى يسلكوا حسناً.

١/١٠/٢٠٠٢

الجِدّيـة

إن الجِدّيّة هـى الفارق الأساسي الذي يميز الإنسان الناجح من الإنسان الفاشل. في شتي فروع الحياة.

فالإنسان الجاد يركز على طريقه في الحياة. ويهتم بالوسائل التي توصل إليه. لا يميل عنها يمنة ولا يسرة. ويظل ثابتاً في ذلك حتى يصل إلى غايته. بكل نجاح وبلا توقف. هو كسفينة ضخمة تشق طريقها في بحر الحياة بقوة متجهة نحو غايتها. وليس كقارب تعصف به الأمواج والرياح في أي اتجاه.

والجِدّيّة هى دليل الرجولة والقوة والتصميم.

أمثلة للجِدّية

وسنضرب أمثلة متنوّعة للجدية في العمل :

* فالتلميذ الجاد هو الذي يذاكر علومه الدراسية من أول العام. بكل مواظبة. وبفهم ومراجعة. ويكون مُستعداً لكل سؤال فيها. ولا يكون هدفه هو مجرّد النجاح. وإنما بالأكثر التفوق. ويمكنه بهذه الجدية في تحصيل العلم أن يصل أيضاً إلى النبوغ.

أما الطالب غير الجاد. فهو يهمل دروسه إلى نهاية العام. بل إلى قرب أيام الامتحان. ويجد الوقت لا يكفي. فترتبك نفسيته وأعصابه...

* كذلك العامل أو الصانع الذي يتميز بالجدية. فإنه لا يهتم بمجرد الإنتاج. إنما تدفعه الجدية إلى الجودة والإتقان.

وفي جديته يضيف إلى كل ذلك: الدقة في المواعيد. والاعتدال في السعر. وحسن التعامل. فينجح في عمله. وتروج صناعته.

***

والجدية تظهر أيضاً في عمل كل من الكاتب والخطيب. والصحفي والمؤلف. وفي حياة العلماء جميعاً...

* فرق كبير بين من يحضّر كلمته. ويرتبها وينمّقها. ويجهد في جمع معلوماتها. ويُقدِّمها سهلة في الفهم. وفي القبول... وبين من يتكلّم ارتجالاً. بلا تحضير ولا ترتيب!

وتظهر أفكاره مشوّشة وناقصة. لأنها صادرة منه بغير جدية. وبغير احترام لعقول القراء أو السامعين...

*وكما يحدث هذا مع رجال الفكر. يحدث المثل مع رجال العلم. فالذي يتناول العلم في جديّة وعُمق. ويحرص على الارتفاع عن المستوى العادي. باحثاً ومُقدّماً شيئاً جديداً. على قدر استطاعته.. هذا يصل إلى درجة العالم. وينضم إلى مجموعة العلماء. لأنه تناول العلم بطريقة جادة.

***

والجدية أيضاً هى بعض ما تتميّز به الحياة العسكرية.

فالرجل العسكري هو إنسان جاد في كل شيء: في مواعيد صحوه. وفي انتظامه في طوابير التدريب. وفي مشيته المنتظمة. وفي كلامه أيضاً بحيث يكون ثابتاً لا يحرك يديه أثناء حديثه ولا يلوّح بهما. وهو جاد في كل ما يتعلّق بالضبط والربط. وجاد في احترامه لمبدأ الطاعة والتسلسل القيادي...

وبالتالي تنتشر الجديّة في حياته كلها. وتتدرج إلى العمليات العسكرية التي يقوم بها فيما بعد. والتي تتوقف عليها مصلحة الوطن وسلامة أراضيه.

***

والجدية أيضاً تظهر في محيط السياسة. للقادة وصغار الموظفين:

* فعضو مجلس الشعب الجاد في عضويته. يدرك تماماً أنه قد صار نائباً للدائرة. لينوب عن أهلها في خدمتهم وحل مشاكلهم. لذلك يكون دائم الصلة بهم وبأحوالهم وطلباتهم. بالإضافة إلى اشتراكه في السياسة العامة للوطن. بحيث يدرس الأمور التي ستعرض على المجلس. حتى إذا تحدث فيها في الجلسة. يتحدث عن معرفة وبكلام له تقديره وتأثيره...

* أمّا العضو غير الجاد. الذي يتغيّب كثيراً عن الجلسات. أو يحضر بعضها وهو غير دارس لِمَا يُعرَض فيها. والذي لا يكون لعضويته أي تأثير في قضايا بلاده... فهذا لا تحترم الدائرة عضويته. ولا تتحمّس إطلاقاً لإعادة انتخابه في دورة أخرى.

الموظف الأمين المتعاون. يحاول أن يجد حلاً لكل مشكلة.

أمّا الموظف الروتيني غير المتعاون. فإنه يخترع مشكلة لكل حلّ.

وفي مجال المعارضة السياسية. فإن المعارض الجاد يحلل المواقف تحليلاً دقيقاً: إن وجد عيباً يشرحه بطريقة موضوعية. مُقدّماً البدائل الإيجابية للوضع السليم. وإن وجد خيراً يمتدحه.

إنه يشترك في البناء السياسي. ولا يكون هدّاماً لكل بناء.

وفي نقده يكون موضوعياً. ويبعد عن الشتائم التي تجعل رجال الدولة يُقدِّمونه إلى القضاء بتهمة السبّ العلني.

إنه مراقب ومُحلِّل. وليس عدواً ومنتقماً...

والمعارضة هى جزء من النظام الديموقراطي. من حيث هى تنبه إلى وجهة النظر الأخرى، ولكن في نبل يتعاون لاستكمال البناء.

المعارضة الجادة المتعاونة. لا تلعن الظلام إن وجدته، إنما تضيء شمعة لتنير الطريق. في حكمة.

***

الإنسان الجاد. يكون جاداً في كل مسؤولية تُعهد إليه.

لا يهمه إن كانت المسؤولية كبيرة أو صغيرة. إنما المهم عنده هو الجدية في أداء المسؤولية. والوصول إلى النجاح فيها.

كالمُمثِّل الذي يتقن دوره في أية رواية. مهما كان الدور صغيراً. أو كلاعب الكرة الذي لا يهمه موضعه في الفريق. إنما يهمه أداء دوره في نجاح واتقان. متعاوناً مع باقي اللاعبين للوصول إلى الهدف.

وبهذا. إن كان كل عضو في المجتمع يؤدِّي دوره بإتقان. تكون المحصلة هى النجاح الشامل. في صورة مُتكاملة...

***

صفات الإنسان الجاد

*** لا نقصد بالجدية العبوسة والتزمّت**

أو أن يكون الإنسان الجاد بعيداً عن المرح والحياة الاجتماعية. منشغلاً باستمرار. غير متفرغ للحديث والتبسط مع الآخرين!! كلاّ. فقد يكون الإنسان جاداً ومرحاً في نفس الوقت. جاداً في مسؤولياته الرسمية. ومرحاً في علاقاته الاجتماعية وفي معاملاته مع الناس.

إنما نقصد بالجدية. عدم التراخي أو الإهمال في كل عمل يعمله.

بل يكون الإنسان جاداً وملتزماً. يتميّز بإتقان كل ما يعهد إليه من عمل. يحترم نفسه. ويحترم مبادئه. ويحترم الكلمة التي تخرج من فمه. ويحترم الطريق الذي يسلكه. ويسير فيه بثبات وعدم زعزعة.

***

*** والإنسان الجاد يحترم عهوده مع الناس. ونذوره مع اللّه**

إذا تعهّد بشيء. يلتزم بإتمامه. بمجرد كلمته. لا يحتاج الأمر معه إلى صكّ مكتوب. أو إلى شروط رسمية. بل إن كلمته يعتبرها عهداً.

وإن نذر نذراً للّه. يكون جاداً في تنفيذه. تماماً كما خرج من فمه. لا يحاول تغيير النذر. ولا يؤجل القيام به. ولا يعود فيتفاوض في الأمر. ويبحث ما المطلوب منه تماماً. ولا يندم على ما نذره بعد أن استجاب اللّه مطلبه. ويضع أمامه تلك القاعدة المقدسة: خيرٌ لك أنك لا تنذر. من أن تنذر ولا تفي.

***

كذلك إذا تاب الإنسان الجاد. تظهر الجدية في توبته.

هو كإنسان معرض للخطأ. ولكنه إن أخطأ وعزم على تغيير مسلكه. يكون جاداً في التوبة. فلا يعود إلى الخطيئة مرة أخرى. كما قال أحد الآباء: "لا أتذكر أن الشياطين أطغوني في خطيئة واحدة مرتين".

وهو إن عزم على التوبة. لا يؤجّلها. بل يكون جاداً في عزمه. لا يرجع فيه. وإن نفّذ عزمه وتاب. لا تكون حياته متأرجحة ما بين قيام وسقوط. يحتفظ بنقاوة قلبه حيناً. ويعود إلى أخطائه في حين آخر... بل تكون التوبة هى نقطة تحول في حياته. لا يدركها التغيير.

مثال ذلك: إن كان قد وقع تحت نير عادة سيئة كالتدخين. وقرّر أن يبتعد عنها ويتحرّر منها. فإنه بجدية يبطلها.. لا لأيام أو لأسبوع ثم يعود. بل بحزم وضبط للنفس. وجدية في التنفيذ.

والإنسان الجاد. له قلب قوي. لا يضعف أمام الظروف الخارجية.

* مثال ذلك يوسف الصديق. الذي كان جاداً في حفظ عفّته. وضغطت عليه الظروف الخارجية بكل عنف وبكل إلحاح. ولكنه كان ثابتاً جداً. لا يخضع لذلك مهما كلفه الأمر. وقد انتصر فعلاً فلم يخطئ. ولكنه دفع ثمناً لثباته وجديته. فيما أتهم به من إتهام ظالم.

* وبالنسبة لأي إنسان آخر. قد لا يأتي الضغط الخارجي في مجال العفّة. بل قد يأتي مثلاً من جهة سهولة الكسب الحرام وإغراء الغِنى. إن فرّط قليلاً في مبادئه. أو تساهل فيما يُعرض عليه!

الأمر يحتاج إلى جدية في الرفض لأن إنساناً قد يرفض الخطأ بلسانه. ثم تعود إرادته فيضعف. وقد يستمر الضغط الخارجي. فيبدأ في مناقشة مبادئه ومضار الثبات عليها!! وهنا يكون الخطر...

***

الإنسان الجاد إن اعترضته صعاب في طريق الخير. لا يجعلها تعوقه. بل ينتصر عليها

يكون الخير الذي فيه. أقوى من العوائق التي تعطله...

إن تصميمه الداخلي على إكمال مسيرته. وعزيمته القوية التي تدفعه إلى قدام. وإصراره على أنه لا يفشل مهما كانت الأسباب.. كل ذلك يقوّي جديته في المضي قِدماً. ومحاولة تخطي العوائق والصعاب..

إنها عوائق. ولكنها ليست موانع. هي عوائق تعترض الطريق. ولكنها ليست بالضرورة تمنع السير فيه. والإنسان الجاد يجد لذة في الانتصار عليها. وكلما انتصر على عائق. تقوّي عزيمته بالأكثر. ويزداد الرجاء في الانتصار على باقي العوائق...

***

إن عائق فقد البصر لم يمنع طه حسين من أن يصير عميداً للأدب في عصره. بل صار أيضاً وزيراً للتعليم

انتصر طه حسين على ذلك العائق. لأنه سلك بجدية في تحصيل العلم. وبجدية في الإنتاج الفكري أيضاً. وقبله انتصر برايل الذي اخترع طريقة للكتابة والقراءة بالبارز. وقبل برايل انتصر على عائق العمى القديس ديديموس الضرير. قبل برايل بخمسة عشر قرناً.

وكثيرون ممّن صاروا من مشاهير عصرهم وعظمائه انتصروا على عوائق من الفقر.

وعوائق اجتماعية. وعوائق جسدية أيضاً، فأنقذتهم الجِدّية التي ولدت فيهم العزيمة القوية والرغبة في الانتصار على معوقاتهم. فانتصروا. وفتح التاريخ لهم أبوابه.

***

لذلك فالإنسان الجاد لا يلجأ إلى الأعذار والتبريرات. يبرر بها نقصاً في حياته أو تصرُّفه.

إن الأعذار هى غطاء. يُغطّي به المتهاونون فشلهم. أمّا الإنسان الجاد. فلا يعترف بالأعذار أو يلجأ إليها. بل يرى أن السبب الرئيسي للفشل هو عدم الجدية. وباقي الأسباب يمكن الانتصار عليها...

إن نهر النيل لم يعتذر بأن جنادل ستة تعترض طريقه لتعوق مجراه. بل استمر في سيره حتى وصل إلى البحر الأبيض المتوسط ..

والعصاميون الذين كونوا أنفسهم بأنفسهم. لم يعتذروا بأن ظروفهم الاجتماعية ما كانت تسمح لهم بالوصول إلى ما وصلوا إليه.

والشهداء لم يعتذروا بقسوة الحكام الوثنيين. بل اعترفوا بالإيمان غير مبالين بتهديد أو تخويف أو تعذيب.

***

الإنسان الجاد ينمو باستمرار. سواء في حياته العملية. أو في فضائله وحياته الروحية.

إنه يضع المثالية في حياته باستمرار كهدف يسعى إليه ولا يتنازل عنه. ومهما نجح في حياته ومهما ارتفع. فإن جديته تجعله ينسى ما هو وراء. ويمتد إلى ما هو قدام. الجدية لا تسمح له إن وصل إلى علو معين. أن يتجمد عنده. ولا يرتفع إلى ما هو أعلى.

الجدية تدفع باستمرار إلى النمو. والسعي وراء الكمال الممكن. وتوجد في قلب الإنسان الجاد لوناً من الطموح المستمر.

والإنسان الجاد لا تخدعه الشكليات ولا يؤمن بها.

فالشكليات هى مظاهر خارجية جوفاء. لكنه بطبيعته الجادة يهتم دائما بالجوهر. حتى في نجاحه لا يهتم بشكلية ذلك النجاح. ولا بما يتلقاه عليه من مديح. إنما يحكم على جوهره. وربما يجد فيه نقصاً لا تقبله جديته. فيسعي إلى علاج ذلك النقص...

ليتكم جميعاً تكونون جادين في حياتكم. ولا تكتفوا بمجرد النجاح. بل اسعوا إلى التفوق والنبوغ. بكل جدّية.

٢٠٠٢/١٠/٨

الخوف.. أسبابه ـ أنواعه ـ علاجه

العالم حالياً يدور في دوامة من الخوف: الناس يخافون بعضهم بعضاً. وكذلك الدول والشعوب تخاف بعضها البعض.

ويوجد خوف من الوضع الحاضر. وخوف ممّا سيحدث ربما في المستقبل. خوف من السياسات ومن القرارات. وممّا تنشره الصحف وممّا تُذيعه الإذاعات. خوف عام. وخوف خاص.

ونود في هذا الجو أن نتحدّث عن الخوف: أصوله وتاريخه وتطوره. وعمله في النفس البشرية. وأسبابه. وأنواعه. وما هو الضار منه وما هو النافع؟.

وقبل أن نبدأ الموضوع. يلزم أن نُبدي ملاحظتين: فما هما؟

***

الملاحظة الأولى: هى أن الإنسان حينما خلقه اللّه. لم يكن الخوف في طبيعته. بل كان يملكه السلام والأمن.

كان الإنسان يعيش مع الوحوش. وما كان يخافها. ولا كانت تخافه. فما كان الإنسان قد عرف أكل اللحوم بعد. ولا عرف أيضاً حرفة الصيد. وما كانت الوحوش قد دخلت في طبيعة الافتراس بعد. فعاش الإنسان والحيوان صديقين يتآلف أحدهما مع الآخر بلا خوف.

وتكرر الأمر في فلك نوح. فما كان أبونا نوح يخاف الوحوش في الفلك. وكان يرعاها ويقوتها...

فمتى دخل الخوف في طبيعة الإنسان إذن؟

***

حينما أخطأ الإنسان. وبدأت طبيعته تفسد. حينئذ دخله الخوف.

بدأ الإنسان يخاف اللّه. بعد أن كان يحبه ويفرح بالوجود في عشرته. بل أخذ يخاف أخاه الإنسان منذ مقتل هابيل بيد أخيه!

ودبّت العداوة بينه وبين بعض الحيوانات. هو يصيدها أو يقتلها. وهى تفترسه أو تؤذيه. وكل منهما يحترس من الآخر...

وتطور الخوف فأصبح عند البعض رُعباً...

بل أصبح الخوف عند البعض مرضا نفسيا يحتاج إلى علاج. أو على الأقل يحتاج إلى تحليل نفسي لمعرفة أسبابه ووصف علاجه.

***

الملاحظة الثانية هى أنه ليس كل خوف عيباً أو نقصاً. وليس كل خوف خطيئة.

فمخافة اللّه فضيلة. وهى لا تعني رُعباً. فنحن لا نرتعب من اللّه الذي هو مصدر كل النعم والمواهب والعطايا. وهو مصدر الحماية والرعاية والمعونة في كل الضيقات. ونلجأ إليه لا خائفين بل ملتمسين تدخله في حياتنا...

ومخافة اللّه تعني مهابته. وهى مزيج من التبجيل والخشوع. ويصل الخشوع في مخافته إلى مستوى الركوع والسجود والطاعة.

وكما نهاب اللّه ونخافه. نهاب أيضاً الوالدين. وكبار السن. والرؤساء. لا خوفاً بمعنى الرعب بل مهابة وإجلالاً.

ومخافتنا للّه تعني أيضاً خضوعنا لوصاياه الإلهية. ومهابتنا للوقوف أمامه في يوم الدين لمساءلتنا عن أعمالنا.

***

والخوف مصدره حالة القلب الداخلية وطبيعة النفسية. أكثر ممّا يكون مصدره راجعاً إلى أسباب خارجية.

فالقلب الشجاع القوي لا يخاف. بينما الجبان يرتعد لأتفه وأقل الأسباب. كذلك نفسية المرأة ونفسية الطفل. تختلفان من جهة الخوف عن نفسية الرجل. كذلك الجنود النازلون إلى ساحة القتال يُختارون من النوع الذي لا يخاف.

ونفس الوضع نقوله عن الأبطال والشهداء. الذين كانوا يتقدمون إلى ساحة الاستشهاد بكل بسالة. بينما كل الأسباب الخارجية تدعو غيرهم إلى الخوف. ومثلهم المدافعون عن الحق. ومن يتولون زعامة الجماهير وقيادتهم. لهم قلوب لا تعرف الخوف. بل تتصدى بكل شجاعة لتحمل المسؤولية.

أمّا عن أسباب الخوف. فقد قال أحد علماء النفس إنها ثلاثة: الظلام. والمجهول. والحركة المفاجئة.

وواضح أن هذه الأسباب الثلاثة تتركّز في سبب واحد هو المجهول. فالبعض يخاف الظلام. لأنه يطوي خلفه ما هو مجهول. وكذلك الحركة المفاجئة قد يرتبك بسببها البعض لأنه يجهل ما هو مصدرها.

على أن هناك أشخاصاً لهم جسارة قلب. لا يخافون من الظلام ولا من الحركة المفاجئة. والمجهول قد يدعوهم إلى التفكير. وليس إلى الخوف.

على أننا من الناحية العملية نود أن نتعرّض لأسباب غالباً ما يخاف منها الكثيرون. وهى الخوف من الموت. والخوف من الشياطين. والخوف من الناس الأشرار.

كما نتعرّض إلى نقطة أخرى. وهى الخوف بلا سبب.

***

الخوف من الموت:

غالبية الناس يخافون من الموت. ومن مسبّباته. ويندر أن يوجد إنسان لا يخاف الموت. وربما هذا أيضاً هو خوف من المجهول.

هم يخافون الموت لأنهم يجهلون كيف يتم؟ كيف تنفصل الروح من الجسد. كما يجهلون مصيرهم بعد الموت..

يخافون لأنهم ربما يرون أن انفصال الروح عن الجسد قد يكون أمراً مُخيفاً مؤلماً... ويخافون لأنهم لا يعرفون ماذا يحدث لهم بعده. ومن جهة هذه النقطة بالذات نضع أمامنا نوعين من الناس.

* يخاف من الموت الذين لا يؤمنون بالحياة الأخرى. ويرون أنه الموت هو بداية للفناء وعدم الوجود على الإطلاق. لذلك كان كثير من الملحدين يُلاقون الموت في رُعب شديد...

* يخاف من الموت أيضاً الذين عاشوا حياة شريرة. فيخافون ساعة الحساب والوقوف أمام اللّه في يوم الدينونة الرهيب. وما ينتظرهم من عذاب أبدي جزاء شرورهم وآثامهم وانحرافاتهم.

***

لذلك يخاف الموت من هو غير مُستعد له. من غير التائبين. كذلك يخافه محبو العالم الحاضر. من كل شهواتهم مُتعلّقة بهذه الدنيا...

فيرى أن الموت سيحرمه من كل لذة يتمتع بها حالياً. وبخاصة ملاذ الجسد وشهواته. كما سيحرمه الموت من أحبائه الذين قد تعلق بهم قلبه. من الأقرباء والأصدقاء ومن تحلو له عشرتهم.

أمّا الأبرار فإنهم يشتهون الموت كما تُشتهى الحياة. شاعرين أنه سينقلهم إلى حياة أفضل. بكل ما فيها من مُتعة الروح ومن عِشرة الملائكة والصديقين. والبُعد عن العالم الشرير المادي.

***

والخوف من الموت يجعل الإنسان يستعد له. أو يهرب من سيرته!

والاستعداد للموت يكون بالإيمان والتوبة والعمل الصالح... فإذا اطمأن إلى مصيره الأبدي. حينئذ يزول خوف الموت منه.

ولكن البعض بسبب الخوف. يحاول أن يهرب من سيرة الموت. بأن ينهمك في مشاغل وملاذ هذه الدنيا. فلا يسمع عن هذا الموضوع المتعب! وهكذا يسير في طريق عكسي يُبعده عن الاستعداد للموت!.

وللأسف نجد مرضى في حالة خطرة وعلى حافة الموت. بينما أقاربهم يبعدون عنهم هذا الاسم المُخيف - وكذلك يفعل أطباؤهم - بأكاذيب وطمأنة خادعة. ويشغلهم أصدقاؤهم في أحاديث وسمر ولهو وتسلية. ولا تكون لهم فرصة للتفكير في أبديتهم والاستعداد لها. ويظن أولئك "الأحباء" أنهم يريحون نفسية المرضى!!

وفيما يريحون نفسياتهم. يتعبون أرواحهم بعدم الاستعداد للموت!

يفعلون هكذا. إلى أن يَدْهَم الموت مريضهم فجأة. فيموت بدون توبة وبدون استعداد. ولا تنفعه كل تلك الطمأنة الكاذبة وكل أحاديث أقربائه وما جلبوه له من وسائل التسلية.

أمّا في بلاد الغرب. فإنهم يخبرون المريض بحالته بكل دقة وصدق. قد ينزعج أول الأمر. ولكنهم يكونون صرحاء معهم. ويطمئنونه فقط في حدود الحقيقة الطبية. ويعطونه فرصة للاستعداد.

***

على أن خوف الموت قد يستغله الشيطان بطرق أخرى:

كأن يقنعه بأنه ما دام سيموت. فليتمتع إذن بالدنيا على قدر ما يستطيع. قبل أن يتركها. مثال ذلك قول الأبيقوريين "فلنأكل ونشرب. لأننا غداً نموت"! أو قد يُحاربه الشيطان بأفكار شكّ.

وقد يجعل خوف الموت يشل تفكيره. فيحصره في الخوف فقط. وليس في الاستعداد لأبديته. ولا يقف أمامه سوي رعب الموت. ونتائج موته اجتماعياً ومالياً. وخوف الحرمان من كل شيء.

***

الخوف من الشياطين

يخاف البعض من القوى غير المنظورة. كالشياطين ومن يسمّونهم بالجن والعفاريت. ويخافون من أتباع هؤلاء من السّحرة والمشعوذين.

ويخافون من "العمل" والمكتوب! ويلجأون إلى "العرّافين" وأيضاً إلى المُشتغلين بعلم "الأرواح" وإلى الدجالين لكي ينقذوهم!!

والعقلاء قد يَخافون الشياطين من جهة الحروب الروحية. وما يُلقيه الشياطين من أفكار شريرة تنشغل بها النفس فتخطئ إلى اللّه. وأيضاً ما يلجأ إليه الشيطان من طرق الخداع والتضليل. كأن يظهر في رؤى خادعة وفي أحلام مُضلّلة. أو يظهر في مناظر مُفزعة.

إن الشيطان يُفرِحه أن نخافه. لعلّنا بالخوف نستسلم له!

أو نيأس من محاربته فلا نقاومه. فلا يخف أحد من الشيطان. ولا يجوز أن نعطيه قدراً فوق قدره. فهو أيضاً تحت سُلطان اللّه الذي لا يسمح له أن يُجرّب الناس فوق ما يحتملون...

بالصلاة يستطيع الإنسان أن يأخذ قوة من اللّه للانتصار في حروب الشياطين. والأمر يحتاج أيضاً إلى حكمة وخبرة وإرشاد.

***

الخوف من الناس الأشرار

كثيرون يخافون أذى الناس. ومؤامراتهم ضدّهم. وربما يخشون أذاهم واعتداءاتهم. أو وقوفهم في طريق مستقبلهم. أو محاولاتهم لإساءة سمعتهم. ولذلك يعملون للناس ألف حساب.

ويستغل الشيطان خوفهم من الناس. لكي يلقيهم في الملق والنفاق. أو الرياء والمداهنة. أو محاولة كسب رضاهم بكافة الطرق.

أو كما يقول أحد الأدباء في ذلك: ارضِهم ما دمت في أرضَهم. وحيِّهم ما دمت في حيهم. ودارِهم ما دمت في دارهم.

وقد يُصاب الخائف بصغر النفس. ويصبح هدفه أن ينجو من الناس مهما كانت الوسيلة. ولا مانع من أن يفعل ما يفعلون. ويقول أيضاً ما يقولون. ويعذر نفسه بقوله "ماذا أفعل وحياتي في أيديهم؟! وينجرف مع التيار. ويقوده الخوف. وليس الضمير!

***

وقد يخاف البعض من الذين يعرفون أخطاءهم وقد يكشفونهم

فإمّا أن يُعاملوهم بخوف وتملّق. في محاولات للإرضاء والإسكات. وإمّا أن يقودهم الشيطان إلى التخلّص منهم بجريمة ما.

مثال ذلك: السارق الذي يقتل من يراه وهو يسرق. والزاني الذي قد يقتل من يفضح خطيئته. ولا يكون مثل هذا القاتل في مركز القوة. إنما في مركز الخوف وقلّة الحيلة.

***

الناس عموماً يخافون ممّن هم أقوى منهم. سواء من هم أقوى عقلاً. أو أقوى بطشاً. أو أقدر على الانتقام وعلى تدبير المشاكل.

والخوف من الناس يزيدهم إيذاء

يشعرون أن الذي أمامهم غير قادر عليهم. فيقدرون هم عليه. ويستمرون في تخويفه. وكلما يزداد خوفاً. يزداد إيذاؤهم له وبنفس الطريقة يسلك الشيطان مع الناس.

الخوف بلا سبب

هو لون من الخوف الطفولي. أو الخوف المرضي

كمَنْ يتصور أن هناك ما يخيفه. حيث لا يوجد شيء! أو يتصوّر أن أحداً ما يريد أن يؤذيه. ولا يكون هذا إلاّ في خياله!

إنها مخاوف وهمية. وهناك أمراض نفسية من هذا النوع. وقد يكون سبب الخوف قراءة قصص تخيف. أو رؤية أفلام مُخيفة. يحدث لها عملية إسقاط على الواقع.

والإيمان باللّه وحفظه ورعايته. فيه علاج للخوف.

٢٠٠٢/١٠/١٥

الضمير
والعوامل المؤثرة عليه

الضمير صوت داخل الإنسان يرشده إلى ما ينبغي عليه أن يفعل. ويُبكِّته إذا أخطأ. ويرضى عليه إن أحسن وأجاد ولكن الضمير قد يتوقّف أحياناً عن العمل. وتقود الإنسان عوامل أخرى. تزيح الضمير جانباً. وتتولّى هى قيادة الإنسان!

والضمير كان موجوداً قبل الشريعة المكتوبة

قبل أن يقدم اللّه للبشرية أقدم شريعة مكتوبة على يد موسى النبي. ولذلك فالبعض يُسمّي الضمير بالشريعة الطبيعية.

مثال ذلك إن هابيل الصديق قتله أخوه. وصار ذلك الأخ مُداناً بجريمة قتل. قبل أن توجد شريعة مكتوبة تقول لا تقتل.. ويوسف الصديق ترفّع عن خطية الزنا. قبل أن توجد شريعة مكتوبة تقول: لا تزنِ. وبالضمير وُجد في العالم الوثني فلاسفة يدعون إلى الخير والفضيلة. دون أن تكون لديهم شريعة إلهية، ولكن صوت الضمير كما قلنا. شريعة طبيعية.

***

وكما أن الضمير يمكن أن يتوقف في بعض الأحيان. كذلك يمكن في أحيان أخرى أن يخطئ الضمير..!

فالضمير الذي يلزم الابن بأن يقتل قاتل أبيه. ويأخذ بثأره. هو ضمير يُبرِّر القتل بل يدعو إليه. ويُبكِّت الابن إن لم يثأر مُعتبراً نفسه مُقصِّراً في حق دم أبيه. وبالمثل الضمير الذي يدعو إلى الثأر من أجل العِرض والشرف. فيقوم الشخص بجريمة قتل. وهو مُقتنع تماماً أنه بذلك يغسل شرف الأسرة من العار.

كذلك ضمائر من كانوا يؤمنون بالمبدأ المكيافيلّي "إن الغاية تُبرِّر الوسيلة" فضمائرهم تساعدهم على ارتكاب أخطاء كالكذب والخداع، أو كالوقيعة والدسيسة للوصول إلى أهداف يرون أنها سليمة أو سامية!

والأمثلة في هذا المجال كثيرة. قد نذكر بعضها في حينه.

والضمائر على أنواع: فهناك ضمير صالح. وضمير مُنحرف.

ضمير ضعيف مُتساهل. وضمير قوي حازم لا يسكت عن الحق.

وهناك على حسب تعبير علماء النحو: ضمير غائب. وضمير مستتر. ويوجد ضمير واسع يقبل الكثير في تساهل بلا تدقيق. وعلى عكسه ضمير ضيق يصل إلى الوسوسة. فيظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ. أو أنه يكبر الأخطاء ويضخمها. ويصل بصاحبه أو بغيره إلى عقدة الذنب Sense of guilt ويمتزج الضمير هنا بمرض نفسي.

أمّا الضمير الصالح فهو مثل ميزان الصيدلي في تحضير الدواء من مواد مُعيّنة، إن زاد بعضها يضرّ. وإن قلّ يضرّ. وهكذا يحكم هذا الضمير بكل تدقيق وبكل عدل.

***

الضمير تؤثّر عليه عوامل مُتعدِّدة: تقوّيه أو تُضعِفه. أو تغيّر مساره. أو تشكّل أحكامه.

فهو يستنير بالمعرفة السليمة وبالتوعية والوعظ. بينما يُلقي عليه ضباب وتتغيّر نظرته بسوء القيادة. وتتنوّع ضمائر الناس بالنسبة إلى البيئة والتقاليد. وتختلف نظرتهم إلى الخير والشرّ.

المفروض أن الضمير يقود إلى الخير. ولكن ما هو الخير؟

هنا يختلف الناس في تعريفه. فيختلف الضمير في حكمه!

مثال ذلك: طبيب يشفق على امرأة فيجهضها. أو يقوم بعملية ليستر فتاة فقدت بكارتها. أو يكتب شهادة مرضية لغير مريض ليُبرِّر تغيّبه عن عمله.. وفي كل ذلك لا يتعبه ضميره ولا يُبكِّته. بل على العكس يشعر أنه قد عمل خيراً يُبهج به قلوب غيره!

إن عدم تبكيت الضمير على الخطأ يدل على خلل في موازينه. أمّا فرحه بالخطأ. فيدل على انقلاب في القِيَم عنده.

***

الضمير تؤثّر عليه العقائد والتقاليد

فعابد الوثن إن لم يُبخِّر أمام الوثن ويسجد. يتعبه ضميره. وفي عصر الدولة الرومانية الوثنية. كان قادة الجيش يبخرون أمام الأصنام قبل أن يدخلوا في الحرب. وإن كان هناك قائد مؤمن "سراً" ولم يُبخّر للأصنام مثلهم. ينكشف أمره ويقتلونه. دون أن توبخهم ضمائرهم على ذلك. بل كانت عقائدهم تلزم قتله.

وفي الجاهلية كانوا يقومون بوأد البنات. دون أن تبكّتهم ضمائرهم على قتل الطفلة لمجرد أنها أنثى. فهكذا كانت التقاليد.

ومرّ زمن كان الناس فيه يتعودون على ما يسمّى "كذبة أبريل" فيكذبون يوم أول أبريل. ويعتبرون ذلك لوناً من المزاح لا تبكّتهم ضمائرهم عليه. بل يتبارون في تدبير أبرع كذبة تضحك المجتمع!

***

الضمير أيضاً تؤثّر عليه الرغبات والعواطف

* يقع إنسان في مشكلة. ويرى أنها لا تحل إلاّ بالكذب. فيكذب وقد يُسمّي الكذب ذكاء أو دهاء أو حُسن تخلّص! وإن حكم عليه ضميره. يُخفّف من ذلك جداً بالعديد من الأعذار. ولا يحكم على نفسه بالشدة التي يحكم بها على الآخرين.

*وقد يُحب شخصاً. فيدافع عن تصرّفاته مهما كانت خاطئة. دون أن يتعبه ضميره. بل يتبعه أن لم يدافع. ويسمّي دفاعه الخاطئ لوناً من الوفاء والإخلاص تجاه من يحب!

ويفعل هذا أيضاً في محيط السياسة. بالنسبة إلى الحزب الذي ينتمي هو إليه. بينما الضمير السليم يدعو إلى النقد الذاتي.

***

إن التحيّز والمجاملة عقبتان تقفان أمام حكم الضمير

وما أكثر ما يُخطئ الإنسان بإسم المُجاملة. ويُسمّيها ضميره لوناً من المشاركة الاجتماعية. أو الحكمة في التعامل مع الناس. وذلك في مديح إنسان بما ليس فيه. أو المبالغة في ذلك لإرضائه. وقد ورد ذلك كثيراً في أبيات الشعر حتى قيل "الشعر أعذبه أكذبه"!

وحدث هذا عند حملة المحفّات عند قدماء المصريين. فكانوا حينما يحملون أحد الفراعنة على محفّة. يتغنّون له قائلين له إن المحفّة وهو عليها أخفّ من وزنها وحدها.

كذلك مبدأ التحيّز يخالف حكم الضمير من جهة العدل.

قال البعض إن الضمير قاضٍ عادل. ولكنه ضعيف. والضعف يقف في طريق تنفيذ أحكامه.. ولكن الصعوبة الكبرى أن يكون الضمير ضعيفاً. وفي نفس الوقت لا يكون عادلاً!

فإن أردت أن تخلّص ضميرك من العاطفة والمجاملة. الجأ إلى تحكيم ضمائر أخرى تكون سليمة ومحايدة بعيدة عن تأثير الأغراض.

***

الضمير يتأثر أيضاً بالمعرفة:

المعرفة تؤثّر على حكم الضمير. سواء كانت معرفة سليمة أو معرفة مُضلِّلة. والمعرفة السليمة تجعل الضمير يستنير بالفهْم وإن كان الإنسان قد أخطأ عن جهل. فبالمعرفة يمتنع عن الخطأ ومن أجل المعرفة أرسل اللّه الأنبياء والرسل والمُعلمين والمرشدين. لكي يعرّفوا الناس طريق الحق فتستقيم ضمائرهم.

كما أن الشيطان - عن طريق أعوانه - يحاول أن يقود ضمائر الناس في طريق منحرف. من هنا كان للفلسفات المادية والإلحادية تأثير على ضمائر الناس. ومنها فلسفات الأبيقوريين وفلسفة اللذة.

وقد تكون المعرفة عن طريق الأشخاص أو عن طريق القراءة. ولهذا فالذي يريد أن يحتفظ بضميره سليماً. عليه أن يُدقِّق في انتقاء نوعية قراءته. وكذلك نوعية من يؤثِّرون على فكره. سواء من جهة الاجتماعات أو المُرشدين أو الأشخاص عموماً أو الأصدقاء.

قال أحد الأدباء: قل لي من هو صديقك. لأقول لك من أنت.

***

الضمير يتأثر أيضاً بالجماعة. أو بالتيار العام

* في وسط الجماعة يتأثر الإنسان بالانفعال وبضمير الجماعة. وقد يندمج مع الناس ويقترف أمرا. فإذا ما خلا بنفسه. يلومه ضميره عليه. مثال ذلك: شاب يندفع في مظاهرة ويهتف ويخرّب. فإذا ما قُبض عليه وأُلقي في السجن. فإنه وهو وحده في هدوء السجن. يفكر بطريقة أخرى غير هتافه وسط الجماعة!

* أيضاً قد يعبث شخص ويلهو وسط جماعة من أصدقائه. وربما يلعب معهم القمار. أو يشرب ما لا يجوز له شربه. كل ذلك دون أن يصحو ضميره. ولكن إن رجع إلى بيته وخلا إلى نفسه. يوبخه الضمير!.

* في وسط الجماعة. قد تقود الضمير الشائعات والإثارات وربما يُصدِّق ما يقولون. ويتصرّف مُتأثراً بما سمع. بينما وهو وحده. تكون له فرصة لمراجعة ما سمع. فيرفض تلك الشائعات.

من ناحية أخرى. فإن الضمير يتشجّع إن أثّرت عليه جماعة صالحة بمبادئها السامية. ويزداد حُبّه للخير

وتكون أحكامه أكثر صلاحية واتجاهاً إلى البر. بما رآه في الجماعة البارة من قدوة صالحة.. ولهذا كان تغيير البيئة إلى الأفضل وسيلة من وسائل التربية السليمة.

ولكن الضمير قد يتراخى وينام. إن عاش زمناً وسط جماعة خاطئة يمكنها أن تؤثر عليه. فتتغيّر مبادئه ويحكم على الأمور حُكماً مُختلفاً. وهذا ما نلاحظه في بعض من يتركون بلادهم مدة طويلة. أو في مَنْ يُهاجرون إلى بلاد غريبة عن تقاليدهم.

***

على أن هناك ضمائر قوية. لا يطغي عليها تيار المجتمع. بل هى التي تؤثر فيه

مثال ذلك بعض المصلحين الذين لم يتأثروا بفساد جيلهم. بل تولّوا قيادته وغيّروه إلى أفضل. ولكن ليس كل إنسان أقوى من الجماعة. أمّا أولئك الأقوياء المصلحون. فإنهم يتّصفون في شخصياتهم بالصلابة والصمود وعدم الانقياد.

ليس كل الناس مثل الجنادل الستة التي تعترض مجرى النيل. دون أن تؤثِّر فيها كل تياراته ومياهه وأمواجه مدى آلاف السنين.

* على أن البعض قد لا يتأثرون بالمجتمع بل بالقادة والمشهورين:

أو يتأثرون بمن يكونون في مركز المثالية والقدوة بالنسبة إليهم. فيعتنقون ما في هذا المثال من مبادئ. وما يصدره من أحكام. تتأثر بها ضمائرهم. وتصير كنسخة منه. بنفس الفكر ونفس الطبع. على أن ذلك يحدث للمبتدئين بصفة خاصة. وللذين في مرحلة تكوين مثالياتهم.

***

يهمنا أن نتعرّض بعد ذلك إلى نقطة هامة وهى الضمير والإرادة:

إذا مالت الإرادة نحو الخطيئة. وعزمت على تنفيذها. وحاول الضمير منعها. فإنها تعمل على إسكات صوت الضمير أو الهروب من صوته. ويقوم صراع بين الضمير والإرادة. فإما أن ينتصر الضمير. وإمّا أن تنتصر الإرادة الخاطئة وتنفذ الخطأ.

إن الضمير الصالح هو مجرد صوت يوجِّه الإرادة نحو الخير. ويبعدها عن الشر. ولكنه لا يملك أن يرغمها.

يكفي أن يكون مجرد صوت. يصيح باستمرار في عقل الإنسان وفي قلبه: إن هذا الأمر خطأ. فيشهد للحق.

***

والإرادة قد تحاول إسكات الضمير بحجة سلامها النفسي

فهى تريد من الضمير أن يخضع لها ويسكت. لكي تعيش في سلام داخلي. بدون صراع مع هذا الضمير الذي يعكّر صفوها. ويتعب نفسيتها. ويتدخّل في حريتها. ويفقدها الهدوء.

بينما السلام الحقيقي هو سلام الروح المبني على الحياة الطاهرة في طاعتها للّه. ولذلك تهرب الإرادة من الضمير ولا تعطيه فرصة!

إنها تهرب من محاسبة النفس. ومن توبيخ ضميرها لها. بل أيضاً تهرب من ضمائر الناس. من ضمير كل صديق أو مُعلِّم يريد تغيير مسلكها.

وقد يجد الضمير أنه ضيف غير مرغوب فيه. أو أن لا فائدة من توبيخه للإرادة فيصمت. ويمضي الوقت فيتعوّد الصمت ولا يتدخّل في أعمال الإرادة. وتبقى الإرادة وحدها في الميدان تتصرّف بلا رقيب.

***

الضمير مثل إشارات المرور في الطريق. قد تضيء باللون الأحمر لكي يقف سائق العربة. ولكنها لا ترغمه على الوقوف.

ما أسهل أن يخالف السائق إشارة المرور ويستمر في سيره. وتكتب له مخالفة ولا يُبالي إن الضمير مجرد مُرشد. أمّا التنفيذ ففي يد الإرادة. فإذا انحرفت الإرادة وأسكتت الضمير. هل يُترك الإنسان يهلك؟!

هذه نقطة تحتاج إلى مقال خاص.

٢٢/١٠/٢٠٠٢

أخطاء اللّسان

ما أكثر أخطاء اللّسان. وما أبشعها أحياناً بل ما أخطر بعض نتائجها. وإذا لم يضبط الإنسان فمه. فإنه قد يتعرّض للوقوع في العديد من الأخطاء ومن الخطايا بسبب لسانه..

واللّسان سلاح ذو حدّيْن. به تتبرّر وبه تُدان:

به تُمتدّح وبه تُذمّ. به تكسب الناس وبه تخسرهم أيضاً.. فعلى الرغم من كثرة أخطائه. إلاّ أنه ليس شراً كله. إنما يمكن أن تصدر منه الكلمة الطيبة النافعة التي تنال بها محبة الناس أو تقديرهم: مثل كلمة الحُب والحنان. وكلمة التعزية والتشجيع. وكلمة النصيحة والتعليم. وما أشبه من الكلمات النافعة البنّاءة.. وأيضاً يمكن أن يُخطئ اللّسان. ويجلب لصاحبه اللوم.

***

أخطاء اللسان

وأخطاء اللسان كثيرة. نذكر عينات منها:

منها خطايا الكذب:

مثل الكذب الصريح. وأنصاف الحقائق. والغش والخداع. والتضليل. والتلفيق. وشهادة الزور. والمغالطة. والمكر..

ومنها المبالغة أيضاً. كأن تقول: كل سكان البلدة الفلانية بخلاء! وقطعاً ليس الكل كذلك. أو أن تقول: جميع الشعب غاضبون! بينما أنت لا تعرف مشاعر الجميع. عموماً كلمة كل أو جميع لا تخلو أحياناً من خطأ..

ومن أخطاء اللّسان أيضاً خطايا الإساءة إلى الآخرين:

مثل كلام الشتيمة والنرفزة. والسبّ واللّعن. وتحقير الآخرين والتهكّم عليهم. ومسك سيرتهم. والغيبة والنميمة. والدسيسة.

وكذلك ألفاظ التهديد. والتعيير. والتشهير بالآخرين. وإفشاء أسرار الناس. وإلقاء المسؤولية عليهم. ونشر الشائعات المسيئة..

***

ومن أخطاء اللسان أيضاً ما يتنافى مع العفة:

مثل القصص البطالة. والفكاهات الماجنة. والأغاني العابثة. وكل كلام الإغراء الجنسي. والكلام الجنسي المكشوف. والأسلوب غير المهذب. والعبارات الوقحة. وكل ما تستحي الأذن الطاهرة المحتشمة من سماعه.

ومن الأخطاء أيضاً كلام القسوة:

مثل الكلام الجارح الموجع. الذي لا يُبالي فيه قائله بمشاعر من يتحدّث إليه. وكذلك ألفاظ التهديد والتخويف. وما إلى ذلك.

ومن أخطاء اللسان. ما يمسّ العقيدة والإيمان:

مثل كلام التجديف. ونشر الشكوك في مُعتقدات الناس ومسلّماتهم. ونشر البدع. وتشويه أفكار البسطاء بالخرافات والأساطير وغير المقبول ولا المعقول. واستخدام اسم اللّه باطلاً فيما لا يجوز.

***

ومن أخطاء اللّسان ما يتعلّق بتعاظم النفس:

كعبارات الكبرياء والخيلاء. والافتخار الباطل بالنفس. ومحاولة تبرير الذات في أخطائها. ومقاطعة الآخرين أثناء كلامهم. ليكمل هو الحديث بدلاً منهم. والكلام بغطرسة. وأن يرفع الصغير صوته على من هو أكبر منه. وكذلك كلام العناد. والمقاوحة.

ومن الناحية الأخرى: الكلام الخاص بصغر النفس:

مثل كلام التملق. والمديح الزائف. ومجاراة المخطئين في أخطائهم.. والسلوك بلسانين ومع كل ريح. والنفاق والرياء. وكثرة الشكوى والتذمُّر. وعبارات الخوف واليأس..

***

من أجل هذا. فضّل البعض الصمت على الكلام

فقال أحد الآباء النُّسَّاك: "كثيراً ما تكلّمت فندمت. وأمّا عن سكوتي. فما ندمت قط". وليس معنى هذا أن السكوت مُستحب في كل حال. إنما يسكت الإنسان. حين يجب السكوت. ويتكلّم حين يجب الكلام.

وأحياناً نُدان على صمتنا. وحينذاك يكون من أخطاء اللسان: الصمت.

مثال ذلك: الصمت حين يجب الشهادة للحق. والصمت في الدفاع عن المظلوم. والصمت في إعلان الإيمان. والصمت في الرد على السلام.. ويمكن معالجة أخطاء اللسان. بالتروّي في الحديث. والتفكير العميق قبل الإجابة. لأن السرعة في الكلام تعرّض للخطأ.

***

خطورة أخطاء اللسان

١- الخطورة الأولى هى أن الكلمة التي تخرج من فمك. لا تستطيع أن تسترجعها أبداً ربما تندم عليها. أو تحاول تبريرها أو الاعتذار عنها. ولكن الأمر الذي يخرج عن إرادتك. هو أن غيرك قد سمعها بكل ما يحمل السماع من تأثيرات. وهنا تختلف خطايا اللسان عن خطايا الفكر والقلب التي هى داخلك. القاصرة عليك وحدك. ولم تنكشف أمام الآخرين.

٢- خطورة أخرى هى تأثير خطأ اللسان على السامعين:

لنفرض أنك حقدت على إنسان. وساءت مشاعرك من نحوه. وما زال الأمر داخل قلبك. هو خطية قلب ومشاعر. ولكنها لم تصل بعد إلى من حقدت عليه. ولم تسء العلاقة بينك وبينه. أو لم تزدد سوءاً.

أمّا إذا انكشفت مشاعرك بألفاظ أساءت إليه. فكيف تعالج الأمر؟

***

لم يعد الأمر هنا قاصراً على خطية داخلك. إنما تطور إلى علاقة خارجية

ربما تحاول أن تصلح هذه العلاقة فلا تستطيع. أو أن تصالح من سمع إساءتك إليه. فيرفض ذلك. لأن ردود الفعل التي حدثت نتيجة لكلامك ما زال تأثيرها يعمل داخل قلبه. وربما يرفض أن يغفر الخطأ بسهولة فإن كان كلام الإساءة قد سمعه آخرون. أو قد سمعه كثيرون. حينئذ تكون الدائرة قد اتسعت. فقد يتحمّس له الذين سمعوا. وقد تتغيّر قلوبهم من نحوك. أو يردون عليك بالمثل. وقد يغفر لك من قد أسأت إليه. ولا يغفر لك من سمعوا إساءتك.

وحتى الذي سكت ولم يحاسبك على إساءتك إليه. غالباً ما يكون قد أخذ عنك فكرة لا يستطيع بسهولة أن يُغيّرها.

***

وبقدر ما يكون كلامك جارحاً. فعلى هذا القدر يكون تأثيره أعمق.

وقد يزداد تأثيره. إن كانت لهجة صوتك تماثل قسوة ألفاظك. أو أن تشابهها ملامحك. وهكذا تكون الأمور قد زادت تعقيداً..

إذن. كلّما تكلّمت. ضع أمامك أن ذاكرة الناس ربما لا تنسى إنك قد تنفّس عن مشاعرك الداخلية بكلام يخطئ به لسانك. ولكنك للأسف تنسى مشاعر سامعك وتأثراته وفكرته التي يأخذها عنك. وقد تنسى أيضاً رد الفعل عند الذين يسمعونك. والذين يسمعون عمّا حدث بطريقٍ غير مُباشر.. وتتحمّل نتائج هذا كله.

***

خطورة أخرى لأخطاء لسانك وهى أنك قد تخطئ وتندم وتتوب. ولكن أخطاءك تسبِّب ردود فعل وخطايا لغيرك. ولا يتوب عنها.

* قد تسبِّب له عقداً نفسية من جهتك. أو من جهة أمثالك. أو مَن هم في مثل حالك ومركزك. ويغرس كلامك في قلبه شكوكاً بمن قد شهرّت بهم. وقد يصدّق ما قد قلت. ويرتكب خطايا في ذهنه وقلبه. وتكون أنت المسؤول عنها أمام اللّه. على الرغم من توبتك وندمك.

* وقد يكون ما أخطأته بلسانك ليس إساءات إلى الناس. إنما حكايات ماجنة وكلمات بذيئة يظل يرددها من سمعها منك. على الرغم من توبتك عنها. وتكون أنت ـ على الرغم من توبتك ـ مسؤولاً عن نتائج خطايا لسانك!

* وقد يكون خطأ لسانك مبدأ خاطئاً قدمته كتعليم لغيرك يتبعه أو كنصيحة يسير عليها. وندمت أنت على تعليمك الخاطئ الذي لا يزال غيرك ينفِّذه! فما موقفك حينئذ أمام ضميرك وأمام اللّه؟!

***

حقاً إن خطايا اللّسان ليست عقيمة. فما أكثر أولادها.

ما أكثر الخطايا التي تلدها خطية اللّسان عند الذين يسمعونها!

وإن كانت خطية لسانك - التي ألقيتها في خطبة أو محاضرة - قد أُخذت عنك ونشرت وطُبعت في مقال أو كتاب. وقرأها آلاف من الناس. وتأثّر بعضهم بها. فما مدى مسؤوليتك عن ذلك أمام اللّه. وأمام المجتمع وأمام الناس؟!

إن الكلمة مسؤولية. سواء سُمِعت أو كُتبت..

وسعيد من يشعر بهذه المسؤولية. ويقدِّرها حق قدرها.

***

من خطورة خطية اللّسان. أنها ليست قاصرة على اللّسان. بل هى أولاً خطية قلب. عبرت على العقل. ووصلت إلى اللّسان.

خطية قلب وفكر

قد يغضب إنسان. ويتكلم لسانه أثناء غضبه بألفاظ شديدة وغير لائقة. ومع ذلك يدافع عنه أصدقاؤه. معتذرين بأن أخطاء لسانه غير مقصودة. وأنه على الرغم من ذلك قلبه أبيض!!

كلاً. هذه مُغالطة. وعذر غير منطقي. لأن القلب الأبيض. ألفاظه بيضاء مثله. وإنما من فيض القلب يتكلّم اللسان.

إذن الألفاظ الخاطئة. تدل على وجود نفس الأخطاء داخل القلب. فخطية اللسان إذن هى خطية مركبة: خطية لسان. وخطية قلب وفكر..

الألفاظ القاسية تدل على قلب قاسي. والألفاظ المُتعجرفة تدل على قلب مُتعجرف. والألفاظ المستهترة تدل على قلب مُستهتر. والألفاظ الحاقدة تدل على قلب حاقد. وهكذا في باقي الأخطاء.. ويشترك العقل في كل هذا. فهو الذي انتقى للسان الألفاظ التي نطق بها. فالعقل يشترك مع القلب واللسان في أخطائهما.

فالذي يريد أن يصلح أخطاء لسانه ويتخلّص منها. عليه أن يصلح قلبه أولاً وأسلوب تفكيره. فيصلح اللسان تلقائياً.

***

خطية ثانية أو ثالثة

خطية اللّسان - حسب الترتيب الزمني - غالباً ما تكون الخطية الثانية أو الثالثة. ويندر أو يستحيل أن تكون الأولى.

خطية اللّسان غالباً ما تكون خطية ابنة. لخطية أم:

فالكذب - مثلاً - هو خطية يغطي بها الإنسان خطية أخرى قد ارتكبها. أو خطية يريد أن يرتكبها. وفي حالة التغطية يرتبط بها الخوف. وفي الحالة الثانية ترتبط بها الشهوة.

وهكذا من نتيجة الخطية التي يُراد إخفاؤها. مُرتبطة بخطية الخوف. تتولّد خطية الكذب. فتكون الثالثة في الترتيب..

ومن جهة النرفزة:

الألفاظ القاسية أو الجارحة التي يقولها الإنسان في غضبه ونرفزته. لم تصدر عن فراغ. إنما قد وُلدت من خطية أو من خطايا أخرى. فالتمركز حول الذات الـ Ego وكرامتها أو مصلحتها. مع خطية عدم الاحتمال. وخطية القسوة مع عدم محبة أو احترام الشخص الذي وجِّهت إليه تلك الألفاظ القاسية.. من هذه الخطايا الأربع. وُلدت خطية النرفزة. والكلام الجارح. فتكون إذن هى الخطية الخامسة حسب الترتيب الزمني.

***

فالذي يريد أن يصلح لسانه من ألفاظ الغضب والنرفزة والكلام الجارح. عليه أن يعالج قلبه أولاً من الخطايا الأربع السابقة لخطية اللسان.

أمّا إذا أراد أن يبرر نفسه في غضبه وفي ألفاظه الجارحة. فإن الكلام الذي يلفظه لسانه لتغطية أخطاء ألفاظه. إنما هو يشكل خطية سادسة في الترتيب. ذلك لأن تبرير الذات. إنما يغطيها ولا يصلحها.. فالمفروض في الإنسان الروحي الذي يهدف إلى إصلاح ذاته وسربلتها بالفضائل. يجب عليه أن يدين ذاته. ويتعرّف على أخطائها. لكي يعمل على تخليصها منها..

بنفس الوضع. إن فحصنا جميع خطايا اللّسان. سنجدها كلها خطايا مركّبة: يتّضح بتحليلها أنها تشتمل على عدد من الخطايا.

***

علاج

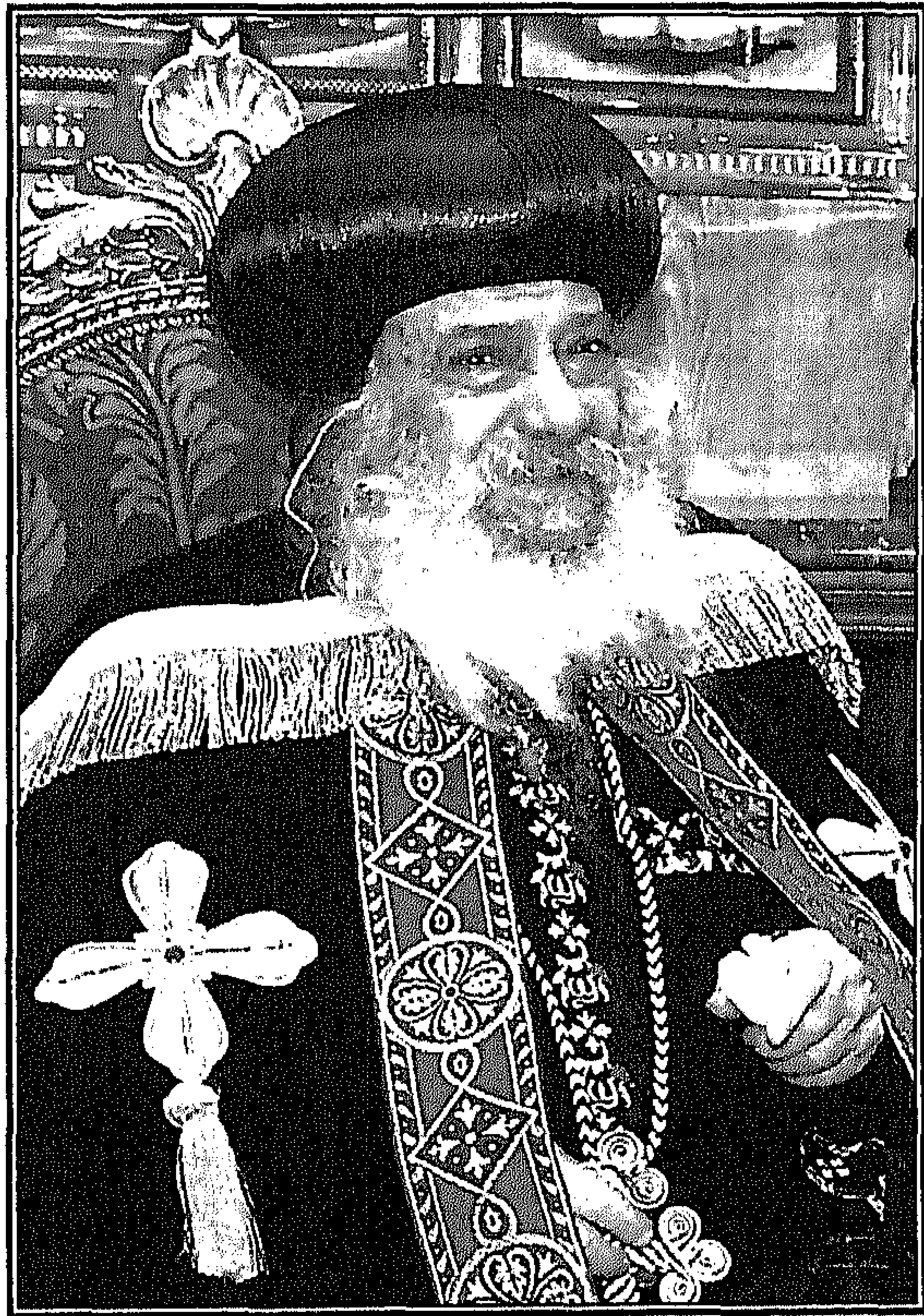
* اشعر بخطورة خطايا اللّسان. وخطورة نتائجها. وأُحرص دائماً على أنك لا تخطئ بلسانك مهما كانت الأسباب.

* تدرّب أن تترك الألفاظ غير اللائقة التي تعودت أن تقولها.

* حاول أن تحترم الكل. وبخاصة من هم أقل منك. وأن تعاملهم بلطف. ولا تظن أن مركزك الكبير يسمح لك بإهانة من هم أقل منك.

* هنا وأذكر بعض أبيات شعر قلتها منذ خمسين عاماً في تأبين رجل فاضل:

يا قويّاً ليس في طبعه عُنفُ	ووديعاً ليس في ذاته ضعفُ
يا نبيلاً كلّما عوديت كم	كنت تنسى الشر للجاني وتعفو
يا حكيماً أدّب الناس وفي	زجره حُبي. وفي صوته عطفُ
لك أسلوب نزيه طاهري	ولسان أبيضُ الألفاظ عفٌّ
لم تنل بالذم إنساناً ولم	تذكر السوء إذا ما حلّ وصفُ
إنما بالحب والتشجيع قد	تصلح الأعوجَ. والأكدر يصفو



٢٠٠٢/١٠/٢٩

الإرادة
لماذا تضعف؟ وكيف تقوى؟

كثيراً ما يرغب الإنسان في أن يسلك حسناً. ولكنه لا يستطيع. أو أن يعرف خطأ أو خطورة أمر من الأمور. وأنه ينبغي أن يبتعد عنه. ولكنه لا يقدر. والسبب في كل ذلك أن إرادته ضعيفة. كإنسان واقع تحت سيطرة عادة رديئة. ويعجز عن التخلّص منها. يعرف مثلاً أن التدخين يتعب صحته. ويضيع ماله. ويفقده إرادته. وتبقى رائحته في فمه وأسنانه ومع ذلك لا يقدر على إبطال التدخين. يود ذلك. ولكنه لا يستطيع.. إنها حالة إنسان عاجز عن مقاومة الخطيئة. وعاجز أيضاً عن فعل الخير.. إرادته ضعيفة في الحالين.

***

أسباب ضعف الإرادة

١.أول شيء يضعف الإرادة هو الشهوة

ولا نقصد شهوة مُعيّنة. إنما أيّة شهوة. سواء شهوة الجسد. أو شهوة المال والاقتناء. أو شهوة المناصب وتعظم المعيشة. أو شهوة الانتقام.. كلّها وغيرها شهوات تتسبّب في إضعاف الإرادة.

فعندما تدخل الشهوة إلى القلب تؤثّر على الإرادة وتجذبها إليها. وكلما ازدادت الشهوة. تضعف الإرادة عن مقاومتها. وبتوالي ضغط الشهوة على الإرادة. ربما تنهار الإرادة تماماً. وتستسلم للشهوة والعلاج هو البعد عن هذه الشهوات بقدر الإمكان. وإن حورب الإنسان بها. يُسرِع في مقاومتها والبعد عنها.

***

٢.البُعد عن مصدر الخطية ومادتها

قد تأتيك حرب الشهوة من داخل قلبك وعلاج ذلك أن تقوي حياتك الروحية محاولاً أن تصل إلى نقاوة القلب بقدر استطاعتك أمّا إن صرت قريباً من مادة الخطيئة أو مصدرها.

فحينئذ تقوم عليك حربان: إحداهما من الداخل. والأخرى من الخارج. ويتعاونان معاً على إسقاطك وعلى إضعاف إرادتك. وإضعاف مقاومتك للخطأ.. ولذلك على الإنسان الحكيم أن يبعد عن مغريات الخطيئة. وعن الأوساط والمعاشرات الرديئة التي تسهّل له السقوط وتدعوه إليه.

***

٣. وممّا يُضعف الإرادة بالأكثر: طول المدة في جو الخطيئة

إن عنصر السرعة هام جداً في البعد عن مصادر الخطيئة ومن يساعد عليها.. وهذا واضح جدّاً في كل مشاكل الإدمان بشتى أنواعه.. وواضح أيضاً بالنسبة إلى محاربة فكر الانتقام أو شهوة الجسد.

فإن حاربتك الخطيئة وقاومتها للوقف. ولم تستبق فكرها عندك لا لحظة ولا لحيظة. تجد إرادتك قد قويت وتخلصت من الإغراءات.. أمّا إن تركت الشهوة ترعى في قلبك. وتلعب بعواطفك. وتقنع عقلك. فإنها بطول المدة تقوى عليك. فتضعف إرادتك عن مقاومتها.. وحتى إن انتصرت. إنما يكون ذلك بمجهود كبير تبذله. وبمعونة إلهية تنقذك.. سهل أن تنتزع عشباً من الأرض. ولكن يصعب الأمر عليك إن تركته حتى يتحول إلى شجرة: تتأصل جذورها في الأرض. ويرتفع جذعها في الهواء. وتنتشر فروعها هنا وهناك.

***

السرعة لازمة لتقوية الإرادة في عمل الخير أو في مقاومة الخطية

لا تتباطأ في عمل الخير ولا تؤجّل ذلك. لئلاّ يُغريك الشيطان بإعادة التفكير. وربما يحاول تغيير فكرك. فالشيطان لكي يبعد الإنسان عن فعل الخير. أو يضعف إرادته في ذلك. لا يقول له لا تفعل. بل يقول له: انتظر فكّر.. لا تندفع ولنناقش الأمر معاً. وهكذا يدفعه في عمل الخير إلى شيء من التردُّد. تضعف الإرادة فيه وبالتباطؤ يتحوّل قلب الإنسان من العزيمة إلى التفكير. وربما يفتح المجال أمام حرب مُضادة تمنع الإنسان من فعل ذلك الخير!!

وقد يتسع الأمر إلى نقاش تفصيلي: لماذا فعل الخير لهذا المكان بالذات؟ ولماذا لهذا الشخص بالذات؟ ألاَ يوجد من هو أحق؟ ألاَ يوجد مشروع أفضل. ووسط هذا النقاش وأمثلة تتقاعس الإرادة وتضعف!

مثال ذلك: نصيب اللّه في مالك:

إن عزمت بسرعة على دفع نصيب اللّه من مالك؟ حالما يصل إليك مُرتبك. أو أي إيراد جديد. تجد إرادتك قويّة لتنفيذ الوصية الإلهية.

أمّا إن تباطأت. وقلت: ننتظر قليلاً حتى نُدبِّر بعض الأمور أو إن أخذت تُفكِّر لِمَنْ تدفع المال؟ هل إلى بيت اللّه مباشرة أمْ إلى بعض الجمعيات الخيرية والملاجئ المحتاجة، أمْ إلى الطلبة الفقراء أو إلى الأُسرات المستورة. أو.. ربما في أثناء هذا التباطؤ قد تتردّد. وتقول لنفسك. أنا أريد أن أفعل الخير. ولكنّي لا أدري كيف؟ وإلى من ؟ وإلى أين؟.. وقد لا تفعل شيئاً.. وربما تنسى ما تريد أن تدفعه. وقد يضيع منك قبل أن تبت في الأمر. وتضعف إرادتك.

***

٤.الإرادة يضعفها عنصر التردُّد

سواء الإرادة في فعل الخير. أو في البعد عن الخطية. أو حتى التردُّد في القيام بالواجب. كتردُّد التلميذ في استذكار دروسه يوماً بيوم. أو التردد في القيام بواجب مجاملة في تعزية حزين. أو في زيارة مريض. أو في إعانة محتاج.

التردُّد يُضعِف العزيمة. ويُضعِف الإرادة في التنفيذ ويربك العقل في اتخاذ القرار. ويغرس الشكّ في القلب: هل أفعل أم لا أفعل؟

وهل الآن أمْ فيما بعد؟ وهل يجب أم لا يجب؟ .. وفي كل هذا. تضعف الإرادة وربما لا تنفّذ على الإطلاق.

لذلك عالج التردُّد في نفسيتك بصفة عامة. وفي قيامك بعمل الخير بصفة خاصة كذلك لا تتردّد على الإطلاق في السرعة بمقاومة كل أسباب الخطية. وكل مصادرها بشرية أو مادية.

***

٥. ممّا يضعف الإرادة في مقاومة الخطية: التدرُّج في جو الخطية.

إن الانحدار المفاجئ أو السريع هو أمر ملحوظ، ولكن الانحدار التدريجي قد لا تلحظه، ربما لا تدرك مثلاً أنك لا تنزل عشرات الأمتار في الطريق الصحراوي من وادي النطرون إلى القاهرة، أو إلى البحيرة المالحة في الإسكندرية.

هكذا في الحياة الروحية: قد تنزل تدريجياً من الحرارة الروحية. إلى الفتور. إلى البرودة فالسقوط. حيث تنهار إرادتك. وأنت لم تلحظ كيف ضعفت بالتدريج. ولم تعد إرادتك مرتبطة بالخير. احترس إذن لنفسك.. إن وجدت أنك ترفض تلقائياً خطايا معينة. وبسرعة اعرف أن إرادتك لا تزال قوية.

***

ولكن إن وجدت أنك ترفض: الخطأ. ولكن بعد تردّد. اعرف أن إرادتك للخير قد بدأت تفقد قوتها الأولى. وبدأت تضعف.

لم يعد لك: العمد المباشر للخطية. ولا البُعد التلقائي عنها.. وإن وجدت أنك تسير مع فكر الخطيئة بضع خطوات ثم تستيقظ لنفسك وتمتنع عن الاستمرار. اعرف أن إرادتك ضعفت ولكنها شعرت بذلك ولم تستمرّ. سقطت ولم تكمل درجات السقوط.

أمّا إن سقطت ولم تعرف كيف تقوم. أو لا تريد أن تقوم! فاعرف أن إرادتك قد انهارت أصابها العجز. وأصبحت في حاجة إلى علاج قوي وسريع.

***

إن الخطيئة قد لا تحاربك دفعة واحدة وبوجه مكشوف. لكي لا ترفضها إرادتك الصالحة. ولكنها قد تخدع هذه الإرادة بالتدرُّج.

لهذا تتدرّج معك تدرُّجاً طويلاً. ربما لا تشعر به. وفي كل ذلك تضعف إرادتك بقبول ذلك التدرُّج.. إلى أن توقعك في الهوة.

وربما تكون الخطية الأولى. التي تقودك إلى الخطية. ليست خطية في ذاتها بل هى خطوة مُخادعة مستترة. وبتدرُّجها تخدع إرادتك فتقبلها وتفقد هيبتك الأولى. وتسلبك قوة الإرادة بالتدريج حتى تستسلم أخيراً.

**** إذن ممّا يُضعِف الإرادة عدم الحزم والحسم من أول خطوة**

وبسبب التهاون والتراخي. تفقد الإرادة قوتها. وتقف في ضعف. فينبغي على الإرادة أن تصد كل أسباب الخطية من بادئ الأمر. ببصيرة حكيمة تتفهّم العواقب وتدركها قبل وقوعها.

***

كيف تقوّي الإرادة

١. ممّا يقوّي الإرادة أن يعيش الإنسان في جو يساعده على عمل الخير.

سواء من جهة الأشخاص الذين يساعدونه على الثبات في عمل الخير. وبتقديم القدوة الصالحة له التي تشجّعه أو تقوّي إرادته. أو بتوبيخه إن مال ولو قليلاً عن الطريق الخير. وضعفت إرادته.. كذلك تقوى الإرادة بجو الفضيلة التي تحيط به. والتي يؤمن بها قلبه.

أمامنا في ميزان الحياة كفتان: كفّة الخير. وكفّة الشر.

فإن رجحت كفّة الخير في حياتنا تقوى الإرادة. وإن رجحت كفّة المُغريات الشريرة. تضعف الإرادة.. تذكّر إنك إنسان تتأثر بأشياء كثيرة حولك. وأنك أحياناً تشبه بندول الساعة. تارة تتحرك يميناً وتارة شمالاً. فاجعل ميلك نحو الخير هو العنصر الغالب في حياتك. تقوّي به إرادتك.

***

٢. ممّا يقوّي الإرادة: تداريب ضبط النفس

إن لم تكن نفسك تميل بطبيعتها نحو الخير. فاضبطها بإرادة قويّة. إن ضبط النفس يقوّي الإرادة. وقوة الإرادة تضبط النفس إذا انحرفت وتعدل مسارها.. وذلك إن كنت في كل حين تُعطِ نفسك كل ما تهواه بدون حكمة، سوف تضعف إرادتك وتقودها الشهوات والرغبات! لذلك اغصب نفسك على عمل الخير. إن لم يكن لك ميل طبيعي نحو الخير. وكلّما تغضب نفسك. تقوى إرادتك. وتصل أخيراً إلى محبة الخير.

إن التغصُّب هو نقطة البدء. ولكنه لا يستمر هكذا

فالطفل الصغير حينما يرسلونه إلى المدرسة لأول مرّة. قد يرفض ويبكي. لأنه سيبعد عن حضن والديه ومحبة أقربائه له. ويترك الجو الذي تعود عليه في بيته. ويذهب إلى جو غريب عنه. ولكنه بعد قليل يجد لذّة في جوّ المدرسة أو في الحضانة أو روضة الأطفال. ويجد تسليات كثيرة وأصدقاء جُدداً وما في الجو الجديد من دروس وتعليم. فيألفه ويشتاق إليه ويذهب إليه برغبة.. وهكذا في الجو الروحي التغصُّب أولاً يوصل الإنسان إلى محبّة الخير. اغصب نفسك على حياة التوبة. وستجد في التوبة ما يُريحك.

***

٣. **من الأشياء التي تقوّي الإرادة: مخافة اللّه ويقظة الضمير.**

شعورك أن اللّه يراك في كل عمل تعمله. ويسمعك في كل كلمة تقولها. هذا يغرس مخافة اللّه في قلبك. ويقوّي إرادتك نحو الخير. ويجعل ضميرك صاحياً باستمرار لا ينعس ولا ينام. والضمير الحي يقوّي الإرادة وارتباطك باللّه في حياتك. وبحياة التأمُل والصلاة. وترديد كلمات اللّه في فكرك. وتشبُعك بسِيَر الأبرار من البشر.. كل ذلك يحفظه فكرك وقلبك في جو روحي يقوّي إرادتك نحو الخير. ويجعلك بهذه الإرادة تشمئز من كل ألوان الخطية. وتكون قوياً في مقاومتها.

٤. **لكي تقوّي الإرادة. لا بد من قِيَم يتمسّك بها الإنسان ويلتزم بها.**

لا بد أن تكون له قِيَم مُعيّنة. لو قامت الدنيا وقعدت لا يمكنه أن يتنازل عنها فالإنسان الذي جعل الأمانة والصدق من القِيَم التي يتمسّك بها. تكون إرادته في منتهى القوة إن حُورب بإغراء ضد الأمانة.. إنه لا يستطيع أن يكون غير أمين أو غير صادق.

الشهداء مثلاً. الذين جعلوا الإيمان من القِيَم الثابتة في قلوبهم. هؤلاء تكون إرادتهم قويّة جداً في الحفاظ على إيمانهم مهما قوبلوا بتهديدات. وما احتملوا من عذابات إرادتهم لا يمكن أن تضعف.

أمّا الذي بلا قِيَم ملتزم بها. فهو كإنسان تائه في صحراء. لا يعرف الاتجاه الذي يسير فيه. فتكون إرادته مُزعزعة.

***

إن إرادتنا تضعف أحياناً. لأن بعض القِيَم في حياتنا قد ضعفت.

أمّا إن بقيت القِيَم في حياتنا قوية. وكان التزامنا بها قويّاً. فإن إرادتنا تكون قويّة أيضاً. هناك قِيَم مثل احترام القانون. واحترام النظام العام. واحترام الكبار. طالما توجد هذه القيم. تكون الإرادة قوية في الالتزام بها فإن ضعفت احدي هذه القيم. تجد الإرادة منقادة إلى الثورة أو الاحتجاج والعصيان.

إن الدين يُقدِّم لنا قِيَماً مُعيّنة. تكون الإرادة قويّة في تنفيذها.

مثال ذلك الصوم. تجد الإرادة قويّة أثناءه في الامتناع عن الطعام. فهو وسيلة لتقوية الإرادة كما أن الإرادة القوية وسيلة لمُمارسته، كذلك يتحكّم في إرادة الإنسان قوة وضعفاً. مدى تدينه. وقُربه من اللّه أو بُعده.

٥/١١/٢٠٠٢

الفضائل تتكامل.. ولا تتناقض

الإنسان الحقّ يجمع بين الفضائل. حتى التي تبدو في ظاهرها مُتناقضة: يجمع بين البساطة والحكمة. وبين الحنو والحزم. وبين الوداعة والشجاعة. وبين الطيبة والقوة. وبين المحبة والمخافة. وبين الرحمة والعدل.. وهكذا.

فلا يقتصر على فضيلة واحدة. بل يجاهد ليكتسب الكل.

ولا يكتسب فضيلة على حساب ضياع فضيلة أخرى تقابلها.

ففضائله لا يهدم بعضها بعضاً. بل يتمشّى الكل معاً في تناسق.

وليس هذا بمستبعد. فإن اللّه تبارك اسمه تجتمع فيه كل الفضائل معاً. بلا تعارض. بل في تكامل عجيب..

أليست كل الفضائل تُبنى على الحق؟ والحق واحد لا تناقض فيه، وسنعرض الآن بعضاً لهذه الفضائل التي تبدو مُتناقضة:

***

البساطة والحكمة:

من الأخطاء الواضحة أن يوصف إنسان بأنه بسيط. وهو غير حكيم. بل تكون "بساطته" لوناً من السذاجة. وتؤخذ عليه تصرُّفات خاطئة. ويحاول الناس أن يعذروه قائلين إنه بسيط!!

هنا خطأ في التعريف. فالبساطة ليست هى السذاجة أو عدم الحكمة. بل البساطة هى عدم التعقيد.

ولهذا من المُمكن أن يتكلّم إنسان بحكمة شديدة. في موضوع عميق جداً. ولكن بأسلوب بسيط. فيجمع بين البساطة والحكمة.

تكون له حكمة في عقله. وبساطة في تعبيره وشرحه وأسلوبه. وقد يتصرّف في أعقد الأمور بعُمق الحكمة وبكل بساطة. وليس بتعقيد الفلاسفة.. بل في بساطة يمكن أن يفهمها الكل. وهذا ما قد يصفه البعض بالأسلوب السهل المُمتنع.

كذلك ليست البساطة أن يُصدِّق الإنسان كل شيء بلا تفكير!!

وبهذا يُعطي البعض مجالاً أن يخدعه أو يلهو به!! بل في بساطته لا يعيش في جو من الشكّ والحذر الدائم والظنون. وإنما يأخذ الأمور بلا تعقيد. وفي نفس الوقت يكون واعياً مفتوح العينيْن. وحاضر الذهن يستطيع أن يُميّز الذئاب التي تلبس ثياب الحملان. إنه لا يخلط الأوراق في تعقيد. بل يرتبها في حكمة.

كذلك في بساطته يطيع. وأيضاً يمزج الطاعة بالحكمة

فلا يكون مُنقاداً بلا وعي. بِاسم البساطة. بل تكون الطاعة صفة واضحة في هذا الإنسان البسيط. ولكنها طاعة مُميّزة. في حدود وصايا اللّه. والعُرف العام. والقانون.

***

الحُب والحزم

قد يكون إنسان طيب القلب. مُهذّباً في كل معاملاته. ولكنه لا يصلح للقيادة. إذ تنقصه القدرة على الإدارة. وضميره يتعبه إن اتخذ موقفاً حازماً في بعض الأوقات! كما لو كانت الإدارة والحزم ضد الرِّقة والدماثة!!

ولكن الإنسان الحق. المُتكامل في شخصيّته. يمكنه أن يجمع الأمريْن معاً: الحنوّ والحزم. الطيبة والإدارة. الأبوّة والرئاسة.

المفروض في الآباء والمُدرِّسين أن يكون في طبعهم الحنوّ. وتكون لهم أيضاً الهيبة. وليس من الصالح أن حنوّهم يفقدهم هيبتهم!

الهيبة لازمة لحفظ النظام ولحراسة القِيَم. والحنوّ لازم حتى يطيع الناس بدافع من الاقتناع. والرضى. وليس بدافع من الرعب والإنسان الحق يهابه الغير عن حُبّ واحترام. لا لمجرد الخوف!

***

ومن الأشياء الغريبة في محيط الأسرة. أن الوالدين يوزّعان أحياناً الحُبّ والحزم فيما بينهما:

فيكون للأم الحُبّ والحنوّ. وللأب الحزم والشدة! بينما الحُبّ والحزم ينبغي أن يكونا معاً لكل منهما...

فقد يُخطئ الابن أو يحاول أن يُخطئ. فتقول له الأم "لا تفعل هكذا. لئلاّ يغضب أبوك

ويعاقبك. دون أن تقول له إنها هى أيضاً لا ترضى عن تصرُّفه لأنه خاطئ!! ويختلط الأمر على الابن. ولا يعرف أين الحق! كل ما في الأمر أنه يتّقي غضب الأب..

والأجدر بهذا الأب أن يمزج حزمه بالحُبّ والعطف. ويقنع ابنه بما يوقع فيه من خطأ. يشعره بأن أية عقوبة توقع عليه. إنما سببها الحرص على تقويمه وعلى مستقبله.

وأيضاً لا يجوز للأم بدافع الحنوّ!! أن تخفي أخطاء ابنها عن أبيه. لأن التستُّر على الخطأ قد يتسبّب في ضرره.

***

الحنو والحزم يتعلقان أيضاً بموضوع الإدارة والمسؤولية:

فربما رئيس عمل. يريد أن يكسب محبة مرؤوسيه. فيحنو عليهم في أخطائهم حنوّاً يضر بصالح العمل. فلا يُعاقب حتى على خطأ جسيم! وقد لا يوبّخ أيضاً. ولا يجري تحقيقاً رسمياً! وهكذا نتيجة نقص الحزم. تفسد الإدارة. وتنتشر الأخطاء بلا ضابط. إلى أن يأتي الحزم من الخارج. من سُلْطة أعلى تحقّق مع هذا الرئيس ومرؤوسيه. ويقع الجميع تحت المسؤولية والعقاب.

بينما الإنسان الحق يمزج الحنوّ بالحزم. في حرص على مصلحة العمل وعلى أخلاقيات مرؤوسيه ومستقبلهم. ومن أجل الحنوّ. قد لا يبدأ بالعقوبة. إنما بالتوعية والتنبيه إلى الوضع السليم. وقد يكتفي في بادئ الأمر بالتوبيخ. وإذا لم يجد كافياً يلجأ إلى التحقيق الرسمي. ثم العقوبة على قدر الخطأ. قبل أن يتطوّر الخطأ إلى ما هو أسوأ ولا يعتقد أن العقوبة ضد الحنوّ. بل يتذكّر قول الشاعر:

قسا ليزدجروا. ومن يكُن حازماً   فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

****

إن كان إنسان طيباً. فليس معنى هذا أن يهمل واجبه. أو يفقد كرامته وحقوقه وهيبته.

ولا أن يفرط في الصالح العام بِاسم الطيبة. فالصالح العام هو مسؤولية في عنقه. أمام اللّه والناس والضمير...

وإلا فسوف يكره الناس الطيبة. ما دامت تؤدّي إلى أخطاء لها خطورتها. والواقع ليس الخطأ في الطيبة. إنما في عدم فَهْمها على حقيقتها. كذلك الخطأ في سوء استخدامها أو في سوء استغلالها..

كل فضيلة ينبغي أن توزن بميزان دقيق. ولا يُمارسها أحد مُنفردة وحدها عن باقي الفضائل.

يمكن أن يكون الإنسان طيّب القلب. ولكن ليس معنى الطيبة أن يُسلّم قيادته إلى غيره. أو أن يشترك بضعف شخصيته في أخطاء الآخرين. أو أنه خوفاً من أن يغضب غيره يشترك معه في خطأ. يُدان معه فيه. أو أن يجامله في ذنب واضح!

***

الوداعة والشجاعة

كان السيد المسيح وديعاً جداً وطيّب القلب ومُسالماً. وقيل عنه إنه كان: "**لا يُخاصم ولا يصيح. ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبةً مرضوضة لا يقصف. وفتيلة مُدخّنة لا يطفئ**" (متى ١٢ : ١٩ ـ ٢٠). ومع ذلك كان شجاعاً جداً. وبّخ رؤساء اليهود في أيامه. وقال لهم إنهم قادة عُميان. وقال لهم: "هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً".

وفي قوة شخصيته كان له تأثيره الكبير على سامعيه.

إن الوداعة لا تمنع من الشجاعة. ولا تحوّل الإنسان إلى جثة هامدة. لا نخوة فيها. ولا شهامة. ولا حياة.

***

الوداعة ليس معناها الضعف. والشجاعة ليس معناها العُنف

والوداعة والشجاعة تمتزج كل منهما بالحكمة والفَهْم. فيجب أن تستخدم الوداعة حين يحسن استخدامها. والشجاعة حين يلزم الموقف إلى استخدامها. وكل شيء له وقته الذي يُناسبه..

الإنسان الضعيف لا يمكن أن يكون إنساناً مثالياً. ولكن لكي يكون قويّاً. ينبغي ألاّ ينحرف إلى التهوّر والطيش. ولا أن يفقد وداعته وأدبه. إن فَهمَ الشجاعة بطريقة خاطئة!

***

المحبة والمخافة

*** نحن نحب اللّه ونخافه. ولكن مخافة اللّه. لا تعني الرّعب منه. بل تعني المهابة والخشوع**

نحُبّ اللّه. ونسجد له. ويجتمع الأمران معاً.

نحبّه. ونخاف أن نكسر إحدى وصاياه. كما نخاف اليوم الرهيب الذي نقف فيه أمامه. لكي نُدان على كل عمل. وكل نيّة وكل فكر.. نقول هذا. لأن كثيرين بِاسم محبة اللّه يفقدون مخافتهم له. ويتحوّلون إلى الاستهتار والتهاون!

*** وكما نحب اللّه ونهابه. كذلك نحب آباءنا ونهابهم**

الابن يُحب أباه. ويسعد بأن ينال رضاه وبركته. وفي نفس الوقت يهابه. ويخاف أن يغضبه أو يفقد رضاه عنه وهكذا المحبة والمخافة تجتمعان ولا تتناقضان.

*** ونفس المحبة والمهابة. في علاقتنا بأساتذتنا ومُرشدينا. وبالرؤساء والشيوخ كبار السن. واحترام أولى الأمر منا.**

ليس مجرد مخافة فقط. كما لو كان أولئك مصدر رُعب!

ولا هو مجرد حُب بدون مخافة ومهابة. بل يجتمع الأمران معاً.

***

الرحمة والعدل

يظن البعض أن هناك لوناً من التضاد بينهما. وليست الحقيقة كذلك فمن السهل أن يجتمعا.

إن اللّه تبارك اسمه: رحيم في عدله. وعادل في رحمته عدله مملوء رحمة. ورحمته مملوءة عدلاً.

ولا نستطيع مُطلَقاً أن نقول إن رحمته أكثر من عدله. أو أن رحمته تغلب عدله! حاشا. وإلاّ نسبنا إلى العدل الإلهي نقصاً! وذلك مُستحيل. لأن كل صفة من صفات اللّه كاملة لا نقص فيها.

وهكذا فالقاضي العادل ينبغي في نفس الوقت أن يكون رحيماً.

ففيما ينظر بعدل كامل إلى الجرم وعقوبته. يقدّر أيضاً ظروف ارتكاب الجريمة. وسن الجاني. وعقليته. ونفسيته ودوافعه.

وحتى إن اقتضى الأمر أن يحكم بالإعدام. فإن الرحمة تقتضي ألاّ يتم الإعدام مباشرة. بل بعد مدة يفكّر أثناءها الجاني في أبديته. ويستعد إلى لقاء ربه. بل يُعطى أيضاً فرصة للقاء برَجُل الدين. وهو في السجن. لكي ما يقوده إلى التوبة والاستعداد للأبدية.

***

الإنسان الحق أيضاً في كل أحكامه على الآخرين، ينبغي أن يضع أمامه العدل والرحمة معاً.

فلا يحكم على أحد بمجرّد معرفة الخطأ. إنما يُقدّر أيضاً ظروفه وعقليته وسنّه. والأسباب التي دفعته إلى الخطأ.

وهكذا لا يكون حرفياً في أحكامه. ولا يستخدم العقل فقط ونَصّ الوصية أو القانون. إنما يستخدم القلب أيضاً والعاطفة.

أحياناً يقولون الرَّجُل يَحكُم بعقله. والمرأة تَحكُم بعاطفتها.

ولكن ينبغي أن يكون الحُكم بالنسبة إلى كليهما أن يُستخدم فيه العقل والعاطفة معاً. ولا يكون عقل الرجل بدون عاطفة. ولا تكون عاطفة المرأة بدون العقل.

***

خطورة استخدام الفضيلة الواحدة

الفضائل كلها مُندمجة معاً. مثل حبّات المسبَحة يتخلّلها خيط واحد يجمعها كلها معاً.

وأهم خيط يجمع الكل هو المعرفة والحكمة، وتقتضي الحكمة استخدام الفضيلة المُعينة في الوقت المناسب لها. ومراعاة النتائج وردود الفعل. مع مراعاة عدم الحرفية. وعدم تعارض هذه الفضيلة مع فضائل أخرى...

***

*** نضرب مثلاً هو الطيبة واتضاع القلب:**

يسلك إنسان في الاتضاع بغير حكمة. ويضع نفسه تحت كل الناس. فيجد نفسه أخيراً عُرضة لاستهزاء البعض به. ويُقاسي من المهانة. ذلك لأنه لم يعرف معنى الاتضاع الحقيقي. وطريقة استخدامه. ومعاملة من يسيئون فَهمه أو يستغلونه بأسلوب خاطئ.

*** مثال آخر هو من يستخدم الكرم والعطاء. بأسلوب خاطئ يجعله ينفق ماله على المحتالين وليس على المحتاجين:**

وهذه الفضيلة تحتاج أيضاً إلى أن تربطه بالمعرفة والحكمة. فيُعطي بكل حُبّ لِمَنْ هو محتاج فعلاً. ويحترس من أدعياء الاحتياج.

* والأمثلة كثيرة عن مساوئ استخدام الفضيلة الواحدة.

٢٠٠٢/١١/١٢

الصوم
عموميته ـ فائدته ـ روحانيته

بمناسبة حلول صوم رمضان. وما تنتشر فيه من حفلات الوحدة الوطنية على موائد الإفطار. وما يُقال فيها من عبارات المودّة والتآخي. أودّ اليوم أن أكلّمكم عن الصوم بصفة عامة:

عمومية الصوم

لا يقتصر الصوم على كونه جزءاً أساسياً من العبادة. في اليهودية والمسيحية والإسلام.. بل أنه معروف في كل ديانة. حتى في الديانات الوثنية والبدائية. والتي لا تؤمن بالوحي.. ممّا يدل على أنه بلا شكّ كان معروفاً منذ القدم قبل أن يفترق الناس.

والذي يقرأ عن البوذية والبراهمية والكنفوشيوسية. وعن اليوجا أيضاً. يرى أمثلة قوية عن الصوم. وعن قهر الجسد لكي تأخذ الروح مجالها. والصوم عندهم تدريب للجسد وللروح أيضاً.

***

وفي حياة المهاتما غاندي الزعيم الروحي الأشهر للهند

نرى الصوم من أبرز الممارسات الواضحة في حياته. وكثيراً ما كان يواجه به كل المشاكل السياسية والاجتماعية التي وقفت ضده في حياته. وقد صام مرة حتى قال الأطباء أن دمه قد بدأ يتحلّل.

وبالصوم اكتشف اليوجا بعض طاقات الروح

تلك الطاقات التي كانت محتجبة وراء الاهتمام بالجسد. وقد عاقها الجسد عن الظهور. ولم يكتشفوها إلاّ بالصوم.

* * *

* ويرى **الهندوس** أن غاية ما يصلون إليه من جهة مستقبلهم الأبدي. هو حالة "النرفانا" أي انطلاق الروح من الجسد للاتحاد بالملأ الأعلى، وهذه لا يمكن أن يدركوها إلاّ بالنُّسك الشديد والزهد والصوم..

ويرون أن الروح تنطلق من رغبات الجسد ومن سيطرته. بتدريبات شديدة من الصوم. لكي تصبح روحاً قويّة تصل إلى بعض طاقاتها الطبيعية التي تنمو وتصل إلى مستوى مُعجزي أو فائق الطبيعة.

* وكثير من الناس لا يكتفون بالأصوام العامة المُقرّرة عليهم. بل أنهم يفرضون على أنفسهم **أصواماً خاصة** في مناسبات مُعيّنة في حياتهم. وأمام إشكالات خاصة يرون أنها لا تُحلّ إلاّ بالصوم.

***

في الصوم يتذلّل الإنسان أمام اللّه. ويطلب رحمته وتدخله

وذلك حينما يرى الأبواب مغلقة أمامه ويرى مفتاحها هو الصوم بالصوم يصرخ القلب المُنسحق إلى اللّه. فيسمع اللّه ويستجيب.. فترة الصوم هى أيام يقترب فيها الناس إلى اللّه. ويشعرون بقرب اللّه منهم. يستمع إلى حنينهم وإلى أنينهم. ويعمل.. إن صراخ القلب إلى اللّه. يمكن أن يصدر في أي وقت. ولكنه في فترة الصوم يكون أعمق وأصدق ويكون أقوى.

لأن الناس. حينما يكونون مُنصرفين إلى رغباتهم وشهواتهم. ومُنشغلين بالجسد والمادة. فإنهم يشعرون بأنهم بعيدون عن اللّه. وليست لهم دالّة يطلبون بها شيئاً. ولكنهم في الصوم يشعرون بالقربى. فيطلبون.

***

فوائد الصوم

الفوائد الروحية للصوم كثيرة جداً:

* فهو فترة مناسبة للتوبة. ولمراجعة النفس فيما تفعله. وتقرير البعد عن كل ما يغضب اللّه. لكي يكون الصوم مقبولاً عنده. هى إذن فترة مصالحة مع اللّه يبدأها الإنسان بصومه. وحبذا لو استمر فيها بدون عودة إلى الأخطاء.

* والصوم أيضاً فترة لمزيد من الصلوات والتسابيح. سواء في ذلك الصلاة الخاصة. أو الصلوات العامة في بيوت اللّه.

* والصوم هو دعوة عامة لضبط النفس ليس من جهة الطعام فقط. إنما أيضاً ضبط اللّسان والحواس. وما يدور في القلب والفكر من مشاعر ونيّات وأفكار. والتدرُّب على رفض كل ما هو خاطئ.

* وفي الصوم يشعر الإنسان بضعف جسده. فتبعد عنه كل خواطر العظمة والكبرياء. وإذ يشعر بالجوع. فإنه أيضاً يحن ويشفق على الجياع والفقراء ويعطيهم.

وما أكثر الفوائد الروحية في الصوم. لا نحصيها. يكفي اختبار الصوم فترة مثالية يتدرّب فيها الصائم على حياة البرّ والفضيلة.

***

أمّا فوائد الصوم للجسد. فهى عديدة أيضاً.. نذكر في مقدّمتها أنها فترة راحة لبعض أجهزة الجسد:

الصوم فترة تستريح فيها كل أجهزة الجسم الخاصة بالهضم والتمثيل الغذائي. كالمعدة والأمعاء والكبد والمرارة. هذه التي يرهقها الأكل الكثير. والطعام المُعقّد في تركيبه. وبخاصة الأكل والشرب المتواصلين واللذين في غير مواعيد منتظمة. كمَنْ يأكل ويشرب بين الوجبات. وكما يحدث في الضيافات. وفي تناول المسليات والمشهيات وما أشبه. فترتبك أجهزته. إذ يدخل فيها طعام جديد يحتاج إلى هضم. على طعام نصف مهضوم. على طعام أوشك أن ينتهي هضمه..!

أمّا في خلال فترة الانقطاع عن الطعام. فتستريح أجهزة الجسم هذه. وبخاصة المعدة التي هى بيت الداء.

***

ومن فوائد الصوم أيضاً أن يتخلّص الصائم من البدانة والترهُّل.

ومن السمنة التي يحمل فيها الإنسان كمية من الشحوم والدهون ترهقه. وتتعب قلبه الذي يضطر أيضاً أن يوصل الدم إلى مساحات إضافية. وإلى كتل من الأنسجة فوق المعدل الذي أراد له اللّه أن يعوله.. بالإضافة إلى ما تُسبِّبه السمنة من أمراض عديدة للجسد.

فيصرّ الأطباء من أجل صحّة الجسد على إنقاص وزنه. ويضعون له حُكماً لا بد أن يسير عليه يسمّونه الرجيم Regime ويأمرون الشخص البدين الذي يعتبرونه مريضاً بأن يضبط نفسه في الأكل. بعد أن كان يأكل بلا ضابط!

إن الصائم الذي يضبط نفسه. لا يحتاج إلى رجيم.

***

ليت الإنسان يصوم بهدف روحي من أجل محبته للّه.. وسينصلح جسده تلقائياً أثناء صومه. فهذا أفضل من أن يصوم بأمر الطبيب لإنقاص وزنه.

لعلّ هذا يذكّرني بالتي تظل تأكل إلى أن يفقد جسدها رونقه. فينصحها الأطباء أن تصوم وتقلّل الأكل وتتبع الرجيم. وهكذا تقلّل الأكل ليس من أجل اللّه. وإنما من أجل جمال الجسد أو صحته. فهى لا تأكل وفي نفس الوقت لا تأخذ بركة الصوم. لأنها ليست من أجل اللّه تفعل ذلك!

حقاً إنها لمأساة: أن الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من عمره. يُربّي أنسجة لجسمه. ويكدّس في هذا الجسم دهوناً وشحوماً.. ثم يقضي جزءاً آخر من عمره في التخلُّص من هذه الكتل التي تعب كثيراً في تكوينها واقتنائها!

* * *

الصوم أيضاً يساعد على علاج كثير من الأمراض:

ومن أهم الكُتب التي قرأتها في هذا المجال كتاب تُرجِم إلى العربية سنة ١٩٣٠م بإسم "التطبيب بالصوم" للعالم الروسي ألكس سوفورين.

وقد ذكر هذا العالم أن الصوم يُساعد على طرد السموم من الجسم أي التوكسينات Toxina التي على الرغم من أن الجسد يتخلّص من كثير منها بوسائل الإخراج المختلفة. إلاّ أن جزءاً قد يتبقّى يصلح الصوم لطرده.

ويقول هذا العالم أيضاً إن الجسم في صومه. إذ لا يجد ما يكفيه من غذاء. تتحلّل بعض أنسجته. وأولها الدهون والشحوم والأنسجة المُصابة والمتقيحة وهكذا يتخلّص منها الجسد.

وقد وجد هذا العالم أن الصوم الانقطاعي الطويل المدى بنظام خاص. يُعالج كثيراً من الأمراض. وإني أعرض بحثه للدراسة كرأي لعالم اختبر ما ورد في كتابه.

***

هنا وأقول ملاحظة هامة وهى: إن الذي يُتعب الجسد. ليس هو الصوم. بل الأكل..

يتعب الجسد كثرة الأكل. والتخمة. وعدم الضوابط في الطعام. وكذلك كثرة الأخلاط غير المتجانسة من الأطعمة. ودخول أكل جديد على أكل لم يهضم داخل الجسم. كما يتعب الجسد أيضاً الطاقات الحرارية الزائدة التي تأتي من أغذية فوق حاجة الإنسان.. وما أكثر الأمراض التي يُسبّبها الأكل..

لذلك يجب أن تتحرّروا من فكرة أن الصوم يتعب الصحة.

على العكس. فإن الصوم يجعل الجسد خفيفاً ونشيطاً.. فهو يُعطي قوة للقلب. ونشاطاً في الحركة. وصفاء للذهن. وقدرة أكثر على التفكير.. ويُخلّص الجسد من المرض والماء الزائدين.

***

روحانية الصوم:

الصوم ليس مجرد فضيلة للجسد. بعيداً عن الروح. ذلك لأن كل عمل لا تشترك فيه الروح. لا يمكن أن يعتبر فضيلة على الإطلاق. فما هو عمل الجسد في الصوم؟ وما هو عمل الروح؟

عمل الجسد في الصوم. هو تمهيد لعمل الروح أو هو تعبير عن مشاعر الروح..

الروح تسمو فوق مستوى المادة والطعام. بل فوق مستوى الجسد. فتقود الجسد معها في موكب نصرتها وفي رغباتها الروحية ويُعبِّر الجسد عن هذا بممارسته للصوم.

إن قصرنا تعريفنا للصوم على أنه إذلال أو إخضاع له. كما يرى البعض. أو مجرد منع الجسد عما يشتهيه.. نكون قد شرحنا من الصوم سلبياته. دون أن نذكر عمله الايجابي الروحي. فما هو؟

***

الصوم ليس مجرّد جوع للجسد. بل هو غذاء للروح:

فليس الصوم تعذيباً للجسد. إنما هو تسامي الجسد. لكي يصل إلى المستوى الذي يتعاون فيه مع الروح. فليس هو إرهاق للجسد. بل إعداده في حالة روحية. يشترك فيها مع الروح في الصلاة والسجود والركوع. وفي عدم الانشغال بالمادة ممّا يُعطّل الروح عن عملها.

الصوم فترة ترتفع فيها الروح. وتجذب الجسد معها:

تخلّصه فيها من أحماله وأثقاله. وتجذبه معا إلى فوق. بعيداً عن المادة بشتى أشكالها. وبعيداً عن الانشغال بالعالم وشهواته. لكي يعمل معها عمل الرب بلا عائق. والجسد في روحانيته يكون سعيداً بهذا.

الصوم هو عمل روح زاهدة. تشرك الجسد معها في الزهد.

فلا يكون الصوم هو الجسد الجائع. بل الجسد الزاهد..

وحينئذ لا يمتنع الجسد عن الطعام بينما يشتهيه. وإنما هو قد وصل إلى الوضع الذي لا يشتهي فيه هذا الطعام. لذلك يمتنع عنه.

والصوم هو فترة روحية يقضيها الجسد والروح معاً في عمل روحي. يشترك فيه الجسد مع الروح في عمل واحد هو عمل الروح.. يشترك معها في الصلاة والتسبيح. وفي التأمُّل والعِشرة الإلهية.

فيُصلِّي: ليس فقط بجسد صائم. إنما أيضاً بنفس صائمة..

بنفس صائمة عن الأرضيات الفانيات. وبفكر صائم وقلب صائم عن الشهوات والرغبات الجسدية. وبروح صائمة عن محبّة هذا العالم الزائل وكل ما فيه من مُغريات.. نعم. نفس ليس في داخلها إلاّ شهوة الخير والبر. وشهوة الوجود مع اللّه. تتمتع بنوره. وتتغذى بعشرته.

***

من أجل هذا كله. يفرح الأبرار بالصوم..

يفرح القلب النقي بهذه الفترة التي يقترب فيها إلى اللّه. ويقترب فيها أيضاً إلى الناس بكافة أعمال البر والمعاملة الحسنة.

يفرح بفترات الصوم. أكثر ممّا يفرح بالأعياد التي يأكل فيها ويشرب.. فهو لا يصوم. وفي أثناء الصوم يشتهي متى يأتي وقت الإفطار. وإنما في الإفطار يشتهي الوقت الذي يعود فيه الصوم من جديد.

والصائم الذي ساعده الصوم على اقتناء الكثير من الفضائل. يفرح بصومه وبالفضائل التي اقتناها فيه. ويحرص عليها ويجعلها لنفسه منهج حياة. فلا يتخلّى مُطلَقاً عن فضائل الصوم. حينما يأتي العيد والإفطار.

وإني انتهز فرصة الصوم لأهنئ جميع إخوتي المسلمين به. طالباً من اللّه أن يجعله صوماً مُبارَكاً مقبولاً..

والنصف الأخير من صوم رمضان هذا العام سوف يتزامن مع صوم الميلاد عند المسيحيين. فيصوم الجميع معاً مسلمين ومسيحيين. ويصلّون إلى اللّه أن يحفظ مصر رئيسها وشعبها وكل العاملين فيها. وأن يحفظ إخوتنا في فلسطين والعراق وفي كل الشرق العربي. وفي العالم أجمع.

٢٠٠٢/١١/١٩

فضائل تصاحب الصوم

الصوم ليس مجرد امتناع عن الطعام، وإلاّ صار عملاً جسدانياً.

إنه ليس غاية في ذاته. إنما هو وسيلة توصل إلى غاية. والغاية هى إعطاء الفرصة للروح. لكي تقترب أكثر وأكثر إلى اللّه.

الصوم هو فترة روحيات مركّزة. هو ارتفاع عن الأرضيات. لكي يتذوّق الإنسان السمائيات. إنه فترة مشاعر مُقدَّسة نحو اللّه. على الأقل فيها الشعور بالوجود في حضرته الإلهية. والصوم أيضاً هو فترة جهاد روحي: جهاد مع النفس. وجهاد ضد الشيطان.

وأيام الصوم هى أيام للطاقة الروحية وفترة تخزين روحي، والصوم يوصل إلى قوة الروح. وقوة الروح تساعد على الصوم.

ولا يتأتى ذلك كله. إلاّ بفضائل تصاحب الصوم.

فما هى هذه الفضائل؟ نذكر في مقدّمتها التوبة.

***

التوبة

الصوم هو أيام مُقدَّسة. يحياها الإنسان في نقاوة وطُهر: يكون فيها الفكر طاهراً. والقلب طاهراً. والجسد بعيداً عن كل دنس. وما دامت الخطية تُبعدنا عن اللّه. فيجب أن نبتعد عن الخطية بالتوبة. لنقترب إلى اللّه.

في الصوم. يصوم الجسد عن الطعام. وتصوم الروح عن كل شهوة خاطئة. وهكذا بدون التوبة. يرفض اللّه الصوم ولا يقبله.

فالإنسان الظالم لا يقبل اللّه صومه. إلاّ إذا تاب عن ظلمه. وأصلح ما قد أفسده الظلم. وهكذا أيضاً القاسي والسارق والزاني. وكل مَنْ يسلك في الخطية على الرغم من صومه. لذلك على كل إنسان أن يُراجع نفسه ويقوّمها. ويصطلح مع اللّه والناس. لكي يقبل اللّه صومه.

***

وإن تاب الإنسان عن الخطية في الصوم. فليستمر في هذه الحياة الطاهرة بعد ذلك أيضاً. فليست التوبة قاصرة على الصوم فقط. إنما قد يتدرّب الإنسان عليها أثناء صومه. حتى يتنقى قلبه من أدرانها ومن شهوتها. فإن تنقّى. يحتفظ بهذا النقاء كمنهج حياة.
وفي ذلك كله. فليعدّ الصائم نفسه للجهاد مع الشيطان.

فالشيطان يحسد الصائم على صومه. ويكره منه توبته ونقاوته. فيُحاربه بكل وسيلة لكي يبعده عن الطريق الروحي ويُسقِطه. مُلتمساً لذلك حيلاً وأسباباً. فعلى الإنسان أن يكون مُتيقّظاً ومُتنبهاً لكل الفُرص التي تُتاح له للخطيئة أثناء فترة الصوم. وبخاصة المُخادِعة والمُتنكِّرة منها. إذ تلبس ثياب الحملان. وهي ذئاب خاطفة!

***

الصلاة والعبادة

أنت تصوم لكي تقترب إلى اللّه. وفي اقترابك إليه تصلّي.

والذين يصومون. وليس في أصوامهم أي عمل روحي: لا صلوات. ولا تأمُّل. ولا قراءات روحية. ولا تسابيح. ولا تراتيل.. هؤلاء تكون أصوامهم ثقلاً عليهم. وبلا فائدة.. فالامتناع عن الطعام هو الناحية السلبية من الصوم. أمّا إعطاء الروح غذاءها. فهو العنصر الإيجابي من الصوم. بل هو العنصر الأساسي والجوهري.

الصوم فترة للصلوات. لان صلاة واحدة تصليها في عمق وأنت صائم. لهى أسمى من صلوات كثيرة تصليها وأنت ممتلئ بالطعام.

حقاً. ما أعمق الصلوات. إن كانت في أيام مُقدَّسة.

***

واحرص في صلاتك. ان تكون خارجة من قلبك. وبكل مشاعرك.

لا يكن هدفك أن تكرم اللّه بشفتيك. بينما قلبك مبتعد عنه تماماً. فالصلاة هى صلة باللّه. فلا تحاول أن تريح ضميرك بشكليات. أي بمجرّد تلاوة لا روح فيها ولا عمق. بل صلّ وأنت تعني وتقصد كل عبارة تصلّيها، لتكن لك صلواتك القلبية التي تشعر فيها بعِشرة مع اللّه.

ولا شكّ أن الصوم المصحوب بعِشرة اللّه. يتحوّل إلى مُتعة روحية.

ويجد الإنسان لذّته في الصوم. ويود لو يستمر فيه. ويرى أن الفِطر يُرجِعه إلى استعمال الجسد الذي استراح منه طوال فترة صومه.

والصلاة هى فتح القلب للّه. هى جسر ذهبي يوصل ما بين الأرض والسماء. هى اشتراك مع الملائكة في تسبيح اللّه.

***

كما أن الصلاة ينبغي أن تشمل كل أنواعها.

فتشمل الشكر للّه عن كل ما فعله لأجلنا. ولا ننسى كل إحساناته إلينا كأفراد وجماعات. وحسنة هى فترة الصوم نعرض فيها كل طلباتنا على اللّه. طالبين عونه وحفظه. بل كثير من الناس يفرضون على أنفسهم أصوامنا خاصة يطلبون فيها من اللّه حل مشكلات مُعيّنة.

وفي الصوم يحسن بالإنسان أن يُصلّي إلى اللّه لكي يغفر له خطاياه. وكل ما قد خرج فيه عن طاعة اللّه. متعهدا بإصلاح كل ما أفسده. طالباً معونة إلهية تساعده على ذلك.

***

التخشّع

والصوم هو فترة خشوع أمام اللّه

يمثل ذلك الركوع والسجود أمام اللّه. والابتهال بقلب منسحق.

وكما ينسحق الجسد بالجوع. كذلك تنسحق الروح أيضاً. وتنحني النفس أمام اللّه. وإذ يشعر الجسد بضعفه. تشعر الروح أيضاً بضعفها.

وفي الشعور بالضعف. يبطل الإنسان كل ما عنده من كبرياء وخيلاء. وتتضع نفسه. ولا يمشي في عزة وخيلاء.

وفي الشعور بالضعف. يدخله لون من الزهد في كل ما يرفعه من زخرف هذه الدنيا. التي كل ما فيها فاني وباطل.

فهل تشعر بكل هذا في صومك؟

***

الصدقة والعطاء

الذي يشعر بالجوع في الصوم. يشفق تلقائياً على الجياع. فيعطيهم. والذي يمارس الحرمان الاختياري في الصوم. يشعر بحاجة المحرومين وعوزهم. فتدخل في قلبه مشاعر الرحمة نحو كل هؤلاء.

لذلك يكثر في الصوم الإحسان إلى الفقراء. ليس من جهة الطعام فقط. بل في كل احتياجاتهم. ويتأكد الصائم - حينما يعطي - إنه لا يُعطي من جيبه. إنما من حق اللّه عليه.. وما أجمل عبارة ذلك المرشد الروحي الذي قال: "إذا لم يكن عندك ما تعطيه لهؤلاء المساكين. فصُم وقدّم لهم طعامك".

هناك جزء من أموالك من المفروض أن تقدِّمه للّه. وهذا تعطيه في فترة الصوم للفقراء. وتقول للرب الإله: "من يدك أعطيناك" وتشعر أنك فيما تأكل. يأكل هؤلاء الفقراء معك.

***

الزهد

قد يمتنع الإنسان عن الطعام. ولكنه يشتهيه. ولذلك لا يكون السموّ في الامتناع عن الطعام. إنما في الزهد فيه.

الارتفاع عن مستوى الأكل يوصّل إلى الزهد فيه وإلى النُّسك أيضاً. فإن لم تستطِع الوصول إلى هذا الزهد والنُّسك. فماذا تفعل؟ على الأقل - من أجل ضبط النفس - لا تأكل وتشرب كل ما تشتهيه نفسك. وإن لم تستطِع. خُذ جزءاً ولا تأكل الكل. اترك شيئاً.

إن دانيال النبي قال عن صومه: كنت صائماً ثلاثة أسابيع أياماً. لم آكل طعاماً شهيّاً. ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر. ولم أُدهَن.

هنا يبدو ضبط النفس: إن نفسك تريد. وأنت ترفض أن تستجيب إلى رغبتها. وتنجح في رفضك. فتكتسب قوة إرادة.

ويمكن أن تنفّذ هذا التدريب بالنسبة إلى رغبات أخرى من رغبات النفس. فتصير الرغبات خاضعة لإرادتك.

***

ضبط النفس

جميل ولازم أن تضبط نفسك ضد كل رغبة خاطئة. سواء أتتك من داخلك أو من حروب الشياطين. فإن الذي يحكم نفسه. خير ممّن يحكم مدينة.

لذلك امسك زمام إرادتك في يدك. وبخاصة في أيام الصوم.

وكما يشتهي جسدك الأكل والشرب فتمنعه عنهما. وتنجح في منعك. كذلك امنعه عن شهواته الخاطئة. بنفس قوة الإرادة التي اكتسبتها من الصوم. وأضرب لك هنا بضعة أمثلة:

*** الامتناع عن التدخين في أثناء صومك. اجعله يمتد بعد ذلك.**

ولو بأسلوب من التدريج: نصف ساعة ثم ساعة فأكثر. وكلّما تشتهي أن تدخّن. امنع نفسك على قدر ما تستطيع. إلى أن تبطل هذه العادة الرديئة التي تضيّع صحتك ومالك وإرادتك. بل تضيّع أيضاً صحة الذين حولك. من أسرتك أو من أصحابك.

*** الامتناع عن الصحبة الرديئة التي تقود إلى أخطاء عديدة.**

عالماً أن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة - والمعروف أن كثيراً من الشباب قد تعوّد الإدمان على المُخدِّرات عن طريق مجموعة من الأصدقاء قادته إلى ذلك. فتورّط معهم. وتدرّج حتى خضع للمُخدِّر.

*** الامتناع عن قراءة المجلات الماجنة. والكتابات المُفسِدة للفكر.**

يبدأ هذا المنع في الصوم. ويستمرّ بعده..

وهكذا يستمرّ عامل المنع عندك بالنسبة إلى كل شيء ضار. وتكتسب فضيلة ضبط النفس التي تنفعك في كل نواحي حياتك.

إن قهر الجسد - بضبط النفس - هو وسيلة تأخذ به الروح حريتها.

وضبط الجسد لازم. حتى لا ينحرف فيهلك الروح معه.

وحينما يكون الجسد منضبطاً. تمسك الروح بدفّة الموقف. وتدبِّر مسيرة الحياة كلها. والجسد حينذاك لا يقاومها. بل يخضع لقيادتها ويشترك معها في كل عمل صالح.

***

صوم اللسان والفكر

قال أحد الآباء الروحيين في هذا المعنى:

صوم اللسان خير من صوم الفم عن الطعام. وصوم القلب عن الشهوات الرديئة خير من صوم الاثنين (اللّسان والفم).

ومع صوم القلب عن الشهوات. يصوم الفكر أيضاً عنها.

وللأسف: غالبية الناس أثناء الصوم. يهتمون فقط بصوم الفم عن الطعام. بينما القلب والفكر هما الأهم. وكذلك أخطاء اللسان ما أخطرها. لأن اللّسان يفضح ما في القلب من المشاعر والأحاسيس حتى التي يريد أن يخفيها.

وصوم اللّسان معناه ألاّ يأخذ حريته في الكلام بكل جيد ورديء.

بل كما قال داود النبي "ضع يارب حافظاً لفمي. باباً حصيناً لشفتيّ". لذلك فالإنسان الصالح لا يسرع بنطق أية كلمة تخطر على عقله. بل إنه يصوّم فمه عن الكلام الرديء. ويضبطه فلا يلفظ إلاّ الكلام الصالح الذي للبنيان الذي يستفيد به كل مَنْ يسمعه.

***

كذلك صوم الفكر

فلا يسمح الإنسان لأية فكرة أن تجول بذهنه. ولا يتمشّى معها ما دامت فكرة خاطئة. بل يصوم عنها ذهنه. ولا يُعطي الذهن فرصة ليتغذى بمثل هذه الأفكار.

والأفكار تنبع من القلب. ثم تعود إليه وتصبح مشاعر

ولذلك فإن صوم الفكر وصوم القلب. يتبادلان المواقع معا. كسبب ونتيجة. إن صوّمت قلبك عن الشهوات الرديئة. فسوف يصوم فكرك تلقائياً عنها. إذ لا يرد إليه من القلب ما يُغذيه..

وبالمثل ما يرد إلى القلب من نيّات. إن صوّم الإنسان قلبه عنها. فلن تصل إلى الإرادة. فتصوم الإرادة حينذاك عن تنفيذ كل نية شريرة. لأنها لم تصدر عن القلب الصائم. إذن المهم هو صوم القلب والفكر عن كل رغبة خاطئة. أمّا صوم الجسد فهو أقل شيء.

***

الاعتكاف والصمت

الاعتكاف والصمت لازمان للعمل الروحي خلال الصوم.

ففي اعتكافه. يصمت الصائم. وإذ لا يوجد من يتكلّم معه. فانه يكلم اللّه. أي يصلّي. والمعروف أن الصائم - في حالة نُسكه وجوعه - قد يكون في حالة من ضعف الجسد لا تساعده على بذل مجهود في الحديث - لذلك يصمت ويُصلّي. أو يستغل وقته في قراءات روحية. فالاعتكاف له أليق وأنسب.

وفي صومه تكون روحه مُنشغلة بالتأمُّل في الإلهيات. لذلك فاللقاءات والأحاديث تعطله عن العمل الروحي داخل قلبه.. وأيضاً فإن الزيارات - إن قام بها - تمنع تفرغه.

حاول إذن أن تعتكف في صومك. لتنشغل بصلواتك وقراءاتك الروحية وتأملاتك. وان اضطررت إلى الخلطة. فليكن ذلك في أضيق الحدود. وعليك إذن أن تتخلّص من الوقت الضائع. لكي تقضيه مع الرب إلهك. وكل عام والجميع بخير.

٢٠٠٢/١١/٢٦

الكـذب
أسـبابه ـ أنـواعـه ـ نصائـح

الكذب

الكذب خطية مزدوجة. تخفي وراءها في الغالب خطية أخرى. إنه إما غطاء لخطية سابقة. أو حيلة لخطية لاحقة.

وهو حل سهل يلجأ إليه الضعفاء وغير الأذكياء. لعلّهم يخرجون به من مشكلة ما. ولكنه كثيرا ما ينكشف.. فيلجأ الكاذب إلى كذبة أخرى ليخفي بها الأولى. وهكذا يدخل في حلقة مفرغة من الأكاذيب. لا يعرف متى تنتهي به!

والإنسان الكاذب لا يثق به أحد. وكلامه موضع شك. حتى إن قال صدقاً. يشك الناس في صدقه. وقد يلجأ إلى القسم ليثبت قوله. فيشك الناس في أقسامه. ذلك لأن كلامه قد فقد هيبته ووقاره..!

والشيطان هو أول كاذب. ومصدر لكذب يوزعه على البشر

***

ناقل الكذب

والكذب إما يكون مباشراً أو غير مباشر. ولذلك فإن ناقل الكذب يعتبر كاذباً. وشريكاً في الكذب ونشره

ويدخل تحت هذا العنوان: مروجو الشائعات الكاذبة. وقد يقع في هذا الأمر أيضاً: البسطاء الذين يصدقون كل ما يسمعونه. ويتكلمون عنه كأنه حقيقة. ودون فحص وتأكد. وفي الحقيقة لا نستطيع أن نسمّي هؤلاء بسطاء. فالبساطة ينبغي أن تمتزج بالحكمة. هُم إذن قد يكونون سذجاً. ولا تعفيهم هذه السذاجة من المسؤولية.

كذلك من يسمع أمثال هؤلاء في ما ينقلونه. ثم ينقله بدوره إلى غيره. يشترك في نقل الكذب وفي نشره. وكان ينبغي أن يكون مدققاً..

لذلك ما أعمق الحكمة التي تقول: لا تصدِّق كل ما يُقال.

لو كنا نعيش في عالم مثالي كل ما فيه صدق. لكان من الممكن أن نصدق كل ما يقال. ولكن ما دام الكذب موجودا في العالم. فيجب علينا أن ندقق ونحقق قبل أن نصدق. لذلك من العدل أنه على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة.

إن الشاهد الوحيد أو المبلّغ الوحيد للخبر. لا يؤخذ حجة. إذ قد يكون جاهلاً بحقيقة الأمر. أو على غير معرفة وثيقة بما يقول. أو قد يكون مبالغاً. أو ربما يكون قد سمع خطأ. أو أن مصادره التي استقى منها المعلومات غير سليمة. أو قد يكون غير خالص النية فيما يقول. وله أسباب شخصية تدفعه إلى طمس الحقائق. أو إلى الدس والوقيعة بين الناس. أو له رغبة في إيذاء شخص مُعيّن..

وربما لا يكون مبلغ الخبر عدوّاً. وإنما هو مجرّد شخص مُحب للفكاهة. يقول كلاماً مُعيّناً بقصد المزاح ليرى مدى تأثيره..

***

فلا يصح أن يشكّ أحد في تصرُّفات صديقه أو حتى عدوّه بسبب كلام كان قد سمعه عنه. بدون تحقيق دقيق.

ولكن ربما يقول القائل: إني لم أسمع هذا الكلام من شخص واحد فقط. وإنما من كثيرين.. أُجيبه بأنه لا يجوز أن تحكم عن طريق السمع بدون تحقيق. حتى لو كان ما سمعناه من كثيرين..

فما أكثر ما يكون كلام الكثيرين - على وفرة عددهم - له مصدر واحد مخطئ!

ما أكثر ما تتفق جماعة كبيرة من الناس على كذب مشترك. لأنه كثيراً ما قام شهود زور كثيرون ضد بعض الأبرار. كذباً وبهتاناً.. لهذا لا يصح الاكتفاء بكلام شهود كثيرين. إنما يجب أن يكونوا شهداء صالحين. شهادتهم موضع ثِقة. ويكونون هُم أيضاً واثقين بما يقولونه. ولم يصل إليهم بمجرّد السماع.

***

لا يجوز أن يميل الإنسان أذنه لسماع الاتهامات الباطلة أو الشائعات غير الموثوق بها. وإلاّ انطبق عليه قول أمير الشعراء:

أثّر البهتان فيه ... وانطوى الزور عليه

يا له من ببغاء ... عقله في أذنيه

مسؤولية الشهادة الزور لا تقع على المتكلم فقط. بل على السامع أيضاً فالذي يسمع الكذب ويقبله. إنما يشجع الكاذب على الاستمرار في كذبه.. كما أنه يحيط نفسه بأشرار يتخذون أذنيه مصباً لأقوالهم.. ما أكثر الاتهامات التي كلها كذب ودس ووقيعة.. والأشرار لم يتركوا الأبرار في سلام. بل يدبرون لهم تهماً ربما لا يستطيعون أن يفلتوا منها. وقد لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم. وتكون التهمة الباطلة محبوكة حبكاً عجيباً. حسب خبرة الشيطان في تدبير الشر..

***

إن كان نقل الكلام خطيئة ويسبب مشاكل. فإنه أخف الناس ضرراً من ينقلون الكلام كما هو. كما يفعل مسجل الصوت "الريكوردر" الأمين الصادق. الذي لا يزيد على ما قيل شيئاً..!

إنما ما أعمق شر الذين ينقلون الكلام بعد أن يضيفوا عليه رأيهم الخاص واستنتاجاتهم وأغراضهم. أو ما يدعونه عن قصد المتكلم ونيته!

ويقدِّمون كل ذلك لغيرهم كأنه الكلام المباشر الذي نطق به من قد سمعوه!!

انظروا ماء النيل وقت الفيضان. وهو بني اللون من كثرة ما قد حمل من الطمي.. هذا الماء البني المشبع بالطين. كان في وقت من الأوقات ماء صافياً رائقاً عندما نزل مطراً من السماء على جبال الحبشة. ولكنه طول رحلته في الطريق. ظلّ ينحت الطمي من الأرض والجبل. حتى وصل إليك بهذه الصورة.

هكذا كثير من الأخبار التي تصل إليك. مشبعة الطين. كانت رائقة صافية في أولها. والفرق بينها وبين مياه الفيضان أن طينه مفيد للأرض. أمّا الطين الذي يضعه الناس أثناء نقلهم للكلام. فهو مضر جداً يفسد علاقات الناس بعضهم ببعض..

***

ما أكثر الأخبار التي تصل إليك. وتكون مختلفة تماماً عن الواقع! قد يتهمون شخصاً ما بأنه قال وقال. ويكون هذا الشخص بريئاً ولكنه لا يدافع عن نفسه. ولا يكون سكوته دليلاً على إدانته: ربما سبب سكوته. أنه ليس من طبعه أن يدافع عن نفسه. أو قد يمنعه تواضعه أو خجله. وربما إثبات براءته يجعله يكشف أسراراً يحرص - في حكمه - في إخفائها. أو ربما براءته تدين آخرين وتكشف أخطاءهم. وهو - في نبله - لا يشاء ذلك. وربما إثبات براءته يجرّ عليه مشاكل أخرى من الحاقدين عليه المتهمين إياه. وأحياناً يكون الشرّ قاسياً ومُخيفاً

وطاغياً. ويكون السكوت أفضل. وربما يكون هذا الساكت تاركاً الأمر للّه يدافع عنه. دون أن يدافع هو عن نفسه وربما لا يكون عارفاً بما يدبر له. وفي كل ذلك يأتي من يشيع عليه بالكذب أنه مُدان!

***

إن مُبرئ المذنب. ومذنّب البريء. كلاهما لا يرضى عنهما اللّه ذلك لأن كلاً منهما ضد الحق. وما يقوله كذب. وهذا الكذب لا يرضى عنه اللّه. ولكن ربما يقول شخص: حقاً إن مُذنّب البريء شخص ظالم وكاذب. ولكن ما خطية "مُبرئ المُذنب"؟ أليس عمله محبة وعطفاً؟ كلاّ. ولكي أشرح ذلك أضرب لك مثلاً:

لنفرض فتاة فاضلة تقدم لخطبتها شاب. وأنت تعلم عنه أنه شرير ومتعب. وإن تزوّجها سوف يذيقها المُرّ. فإذا أخذوا رأيك فيه. هل تبرئه وهو مُذنب؟! وبهذا تضيّع مستقبل تلك الفتاة المسكينة الفاضلة!! وهل تظن نفسك بريئاً إذا ما قدّمت عنه مديحاً باطلاً تتم به مأساة هذا الزواج؟!

***

مثال آخر: إنسان فقير ترشّحه عند أحد أصدقائك من رجال الأعمال. ليشغل وظيفة وهو غير كُفء لها على الإطلاق. أو أنه غير أمين يدفعه الفقر إلى السرقة. وسيكون كل ذلك مُتلفاً للعمل ولا يحمل أمانة وإخلاصاً لصاحب العمل.. هل هذا الشخص إن برأته أمام صديقك. ورشحته وامتدحته. إشفاقاً منك على فقره. هل تكون مرضياً للّه. وأنت "مُبرئ المُذنب"؟ أم تكون شاهد زور مُذنباً أمام اللّه. وخائناً لصديقك. ولا يعفيك عطفك على الفقير!! الكذب هو الكذب. مهما اختفى أمام أسباب تبدو فاضلة..

أنواع من الكذب

*** من بين أنواع الكذب: النفاق والمحاباة:**

النفاق قد يأخذ اسماً آخر هو الملق وكلاهما يعنيان المديح الزائد مثل مديح موظف لرئيسه. أو قروي لعمدة بلده. أو ما أشبه.. ونرى أن كثيراً من الوصوليين. يصلون إلى أغراضهم بغير وجه حق. عن طريق ملق زائف غير مبني على حق. ويرون ذلك الطريق السهل.. وقد وقع في هذه الخطيئة كثير من الشعراء بمديح نالوا به عطايا وأموالاً بحجة أن "الشعر أعذبه أكذبه".

ويزيد خطيئة النفاق بشاعة. إن كان صاحبها بوجهين: أي يتملّق شخصاً في وجهه. ويذمه في غيبته!

والبعض قد يُحابي أهل الميت. فيمدحونه وقت تأبينه مديحاً بما ليس فيه. بأسلوب يتعب الحاضرين. ويفقدهم الثقة في كلام التأبين!

***

*** ومن بين أنواع الكذب: الرياء:**

وذلك بأن يظهر الإنسان في صورة يراها الناس على غير حقيقته. وتكون له صفتان مضادتان لبعضهما البعض: الصورة الحقيقية وهى رديئة وبشعة وصورة أخرى جميلة ومجيدة وهى التي يراها الناس ولذلك سُمّي هذا بالرياء. وكثيراً ما ينكشف. وعنه قال الشاعر:

ثوب الرياء يشف عمّا تحته .. فإذا التحفت به فإنك عاري

*** ويتبع هذا الرياء. أنه يمدح الإنسان نفسه بما ليس فيه**

ويظهر هذا واضحا فيما يسمونه "الفخر" ومن هذا الفخر ما يبدو فيه الكذب واضحاً جداً. ولكنه في صورة بلاغية جميلة. وذلك كقول الشاعر:

ولو أرسلت رمحي مع جبان .. لكان بهيبتي يلقي السباعا

*** ومن أنواع الكذب أيضاً: المبالغة:**

وواضح أن المبالغة ليست كلها حقاً ولا صدقاً. أيّاً كان نوعها في المديح أو الذم. بالنسبة للمتكلم أو عن الآخرين. وغالباً ما تكون كلمة "كل" أو كلمة "جميع" تحمل مبالغة ليست كلها صدقاً. كأن تقول: كل سكان البلد الفلاني بخلاء!! وقد يكون بينهم من يتصفون بالكرم. ولكنك تعني الغالبية. وتكون كلمة "كل" ليست صادقة.

*** ومن أنواع الكذب أيضاً: أنصاف الحقائق:**

بأن يخفي المُتكلِّم النصف الآخر من الحقيقة. الذي بذكره يعطي معنى عكسياً. مثل إخفاء عيوب إنسان. وذِكر فضائله فقط. أو العكس بإظهار عيوبه فقط وتقديم صورة مشوهة عنه. وصدق الذي قال: إن أنصاف الحقائق ليس فيها إنصاف للحقائق.

*** ومما يزيد أنواع الكذب بشاعة:**

* إن كانت شخصية الكاذب كبيرة. وكلامه موضع ثقة عند سامعيه. فيصدقونه. وينتقل كذبه إلى كثيرين يتحدثون به.

* أو إن عظمت مكانة من يكذب الكاذب عليه. فيضيف إلى خطية الكذب عدم احترام ذلك الكبير.

* أو إن تناول الكذب موضوعات تمس عقائد الناس. مثل أخطاء العرافين. ومُدّعي النبوة. ومن ينادون بمعرفة الغيب. وما أشبه.

***

أسباب الكذب وعلاجه

ظن بعض أن الكذب ينجّي ويلجأون إليه لإخفاء خطية معينة.

ونصيحتي لهؤلاء أن حبل الكذب قصير. ولا بد أن ينكشف. فتصير الخطية أكبر. وعموما فإن الشيء الذي يخاف الإنسان من انكشافه. يجب عليه ألاّ يفعله. وبهذا يستريح من خطايا كثيرة.

*** يلجأ البعض إلى الكذب بسبب الخوف أو الإحراج. أو إلحاح الذي يسأل.**

ونصيحتنا أن السكوت أفضل من الكذب. لذلك اصمت. أو غيّر مجرى الحديث. أو اعتذر عن عدم الإجابة. أو تكلّم بالصدق في الحدود التي تستطيعها. أو تكلّم بصراحة وشجاعة. ودافع عمّا تراه حقاً. أو اعتذر عن خطأك.

*** وقد يكون الكذب بسبب الكبرياء وإخفاء للجهل.**

ونحن نقول إنه لا يضر الإنسان أن يقول في بعض الأمور: لا أعرف.

*** وقد يكون سبب الكذب اضطرارات وظيفة معينة:**

كالمحامي الذي يدافع عن مُذنب.. ونحن نريد المحامي النزيه الذي يهدف إلى العدل كما كان يفعل غاندي. إن اضطر إلى الدفاع عن مذنب يشرح الظروف التي أدت إلى ارتكابه الجريمة. بدون أن يكذب.

***

***أخيراً هناك سؤال: هل إخفاء بعض الحقائق يُعتبر كذباً؟**

كلاّ.. وإن كان الأمر الذي يتعلّق بخصوصيات أو أسرار تتعلّق به أو بغيره ولا يجوز له أن يكشفها. وبخاصة ما يتعلّق بسرّ المهنة. كما أن هناك أموراً من الضرر البالغ إذاعتها إلاّ من المسؤولين في وقت مناسب. ويمكن أن تقول لِمَنْ يسألك: اعفني من هذا السؤال.

٣/١٢/٢٠٠٢

أنواع من السرقات: مكشوفة ومستورة

السرقة هى أخذ مال الغير بدون وجه حق. سواء وقع ذلك تحت طائلة القانون أو لم يقع. وسواء أخذ اسم السرقة. أو اختفى وراء اسم آخر.

وليس السارق هو مجرد الإنسان الذي ينقب جداراً. أو يدخل بيتاً في غيبة صاحبه. أو ينشل من جيوب الناس.. فهذه وأمثالها تصدر عن طبقة هابطة في مستواها. وعملها مكشوف وقد ينال جزاءه متى تم ضبطه بعقوبة من القانون. أو بسمعة رديئة من المجتمع.

غير أن هناك ألواناً أخرى من السرقات لا تعمل في الخفاء. وإنما أمام الكل. وقد يرتكبها أناس ربما يظهرون أمام الناس شُرفاء. وقد لا يظهرون على الإطلاق. ويحيون حياة تبدو عادية. فمَنْ هُم.

***

والسرقة تعتبر خسّة. وهى محتقرة ومكروهة من الناس. حتى قبل الشريعة. قبل أن يقول اللّه "لا تسرق".

والمعروف أنه إذا سار شيطان السرقة في طريق. يقول له شيطان الكذب: خذني معك.

فمن الصعب أن تجد سارقاً لا يكذب. فهو يكذب ليُغطي سرقته. وقد يكذب لكي يتمكّن من إتمام السرقة. قد يكذب أثناء السرقة أو قبلها. لكي يخدع المسروق ويتمكّن من سرقته. كما في حالة الغشّ في التجارة. والسارق أيضاً يكذب على من يراقبه. أو من يشك فيه.

***

وتزداد خطية السرقة ثقلاً بعاملين: بمقدار الضرر الذي يحدث للمسروق. وبنوعية شخصية المسروق ذاتها: فقيراً كان أو عظيم القدر.

فكلّما كان المسروق فقيراً ومحتاجاً. كانت خطية السرقة أبشع..

مثال ذلك من يسرق أو يسلب مال اليتامى أو الأرامل أو يستولي عليه بغير حق. مستغلاً ضعفهم أو عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم والسرقة من إنسان محتاج تدل على عدم حساسية قلب السارق.

مثال ذلك من يأخذ ربا أو رهناً من إنسان محتاج أو لا يجد قوته الضروري. فيسلبه طعامه وطعام أولاده. وطبعاً هذا الفقير ما كان يلجأ إلى القرض أو الرهن لولا عوزه. فبدلاً من أن يساعده محسن بروح المحبة. يقرضه إنسان بالربا. فيزيد عوزه وفقره.

إن هذا الربا هو سرقة خالية من الرحمة. وقد حرّمه اللّه. وهو غير الربا الذي تدفعه البنوك والمصارف. التي تتاجر بمال المودعين في مشروعات استثمارية تربح. ويكون المودعون شركاء في رأس المال وربحه.

***

السرقة هى مال حرام. سواء أخذت من الفقراء أو من الأغنياء.

وهى أبشع إن كانت سرقة من مال اللّه أو بيوت اللّه.

إن اللّه له حق في مال كل إنسان. فإن لم يقدمه له. تعتبر هذه سرقة من مال اللّه. قد لا تظهر للناس. ولكنها ظاهرة أمام اللّه. وإن كان حق اللّه في أموالك. يمكن أن تقدّمه للّه بإعطائه للفقراء والمحتاجين والمعوزين. ولليتامى والعجزة والمعوقين. فأنت تسلب كل هؤلاء حقوقهم إن لم تعطهم إياها. إنه ليست مجرد صدقة منك تعطيها لهم. إنما هى حقوق لهم عليك تُقدِّمها من نصيب اللّه في أموالك.

فإن كان من الواجب أن تُقدِّم لبيوت اللّه من أموالنا. أو من حقّ اللّه في أموالنا. فكم يكون أبشع من يسرق بيوت اللّه!

لقد رأيت في بلاد الغرب كثيراً من بيوت اللّه مفتوحة وبغير حراسة. والكل مطمئنون أنها في حراسة الضمائر التي لا تجرؤ على سرقة بيت اللّه.

***

وكما نسرق من اللّه مالاً. كذلك نسرق منه وقتاً.

إن للّه يوماً في كل أسبوع مُخصّصاً له. هو يوم الرب. يُسمّى في اللغة الإنجليزية Holiday أي يوم مُقدَّس. يسرقه البعض من اللّه. ويسمّونه Week-end أي نهاية الأسبوع. ولا ينال منه اللّه شيئاً. أو ينال مجرد جزء منه. بينما اليوم كله خاص باللّه وحده.

كذلك في كل يوم أوقات للعبادة. إن أهملناها. نكون قد سلبنا من اللّه وقتاً خاصاً به. وينطبق نفس الكلام على المواسم والأعياد الخاصة باللّه. وهل نقدِّمها له أمْ للهو والمتعة!

***

نرجع إلى سرقة مال الغير. فنذكر من بينها:

*** السخرة. والأجر البخس:**

فالشخص الذي يسخر إنساناً آخر لكي يعمل له عملاً. من غير أن يمنحه أجره. يكون في الواقع قد سرق أجرته. وإن كان يستأجر شخصاً بأجر بخس. دون الكفاف أو دون ما يستحق. يكون قد سرق تعبه وعرقه.

ينطبق هذا على كل الأغنياء من رجال الأعمال. أصحاب رؤوس الأموال الضخمة. الذين في مشروعاتهم الاستثمارية. يعينون موظفين بمرتبات زهيدة لا تكفي احتياجاتهم الضرورية. ولا تتوازن مع مقدار ما تربحه مشروعاتهم. إنهم بلا شكّ يسرقون استحقاقات موظفيهم وتعبهم.

***

يدخل في ذلك أيضاً تأخير الحقوق أو إضاعتها.

مثال ذلك مدير عمل يلغي أو يؤخّر علاوة أو ترقية موظف بدون وجه حق. أو يخصم شيئاً من مرتبه بدون وجه حق أيضاً.

فهو هنا يسرق حقوق الموظف المالية. ويضيف إلى خطية السرقة خطية الظلم. ويضيف إليها خطية القسوة وعدم الرحمة.

ولا عذر له إن قال إن ذلك المال المسروق لم يدخل إلى جيبه. وإنما إلى ميزانية الدولة أو الشركة التي يعمل بها يكفي أنه سلب الموظف حقوقه.

ونفس الوضع بالنسبة إلى الموظف الذي يشتغل ساعات زائدة عن النصاب القانوني. ويستحق عليها أجراً إضافياً Over Time. ويمنعه عنه رئيسه. ويكون بهذا قد سرق تعبه ورزقه.

إنها سرقة إن هضم أحد حق إنسان. سواء أخذه لنفسه أو لغيره.

مثال ذلك مأمور ضرائب غير عادل: إذا قدّر ضرائب على شخص ما أكثر ممّا يجب. ويكون بهذا قد سرق ذلك الإنسان أو سلبه ماله ظلماً. وإن حدث وقدّر ضرائب أقل مما يجب تهاوناً منه أو مجاملة يكون بهذا قد سرق من الدولة استحقاقها. في حين أنه لم يأخذ شيئاً من كل ذلك في جيبه. وإنما هو قد سلب مال أحد الطرفين وسلّمه للطرف الآخر. لذلك ينبغي أن يكون هذا الموظف عادلاً جداً في تقديره. لا يميل يمنة ولا يسرة.

وما نقوله عن مأمور الضرائب. نقوله أيضاً عن مأمور الجمارك. وأمثالهما من الموظفين. كل واحد في حدود عمله.

***

الرشوة التي يأخذها موظف لإتمام عمله. هى أيضاً نوع من السرقة.

لأنها ابتزاز لأموال الناس بدون وجه حق. فالموظف مُكلّف أن يؤدّي عمله دون أن يأخذ أي مقابل من الجمهور. إذ أنه يتقاضى عن هذا العمل مُرتباً. فما يأخذه من الجمهور هو سرقة واضحة.

فكم بالأولى إن وصلت هذه الرشوة إلى مستوى الإتاوات المفروضة. بحيث لا يقوم هذا الموظف بخدمة فرد من أفراد الشعب. دون أن يتسلم منه رشوة معينة!

أمّا الرشوة التي يأخذها موظف لإعفاء مواطن من واجبه نحو الدولة. فإنه يكون فيها قد وقع في سرقتين:

يكون في إحداهما قد سلب مال هذا الإنسان لنفسه بأخذه رشوة منه. وفي نفس الوقت قد سلب مال الدولة بإضاعة حقوقها تجاه هذا الإنسان. ويكون الذي دفع الرشوة مشتركاً في سرقته للدولة.

***

ولا يعفي الرشوة من المسؤولية. إن أخذت اسماً غير اسمها المشين:

كأن تأخذ مثلا صورة هدية. وهى في الواقع ليست كذلك. لأن الهدايا يتبادلها الأحباء والأصدقاء. ولا يشترط فيها القيام بعمل مُعين في مقابل الهدية.

ولا يدخل تحت اسم الرشوة "البقشيش" الذي يمنحه أحد الأشخاص لبواب أو فراش. إن كان نوعاً من الصدقة أو المعونة. بدافع من العطف على إنسان فقير. ولا يطلب منه مقابل ذلك أن يكسر قانوناً.

***

وكما أن صاحب العمل قد يسرق الموظف أو العامل عن طريق التسخير أو الأجر البخس. أو هضم حقوقه وعلاواته وترقيته أو بعقوبات مالية ظالمة.

كذلك فإن العامل أو الموظف قد يسرق صاحب العمل بطرق كثيرة:

منها سرقة الوقت: فوقت العمل ليس ملكاً للموظف. وإنما هو ملك صاحب العمل الذي

يعطيه أجراً عنه. فإن استغل الموظف وقت العمل لصالحه الخاص. أو قضي ذلك الوقت في سمر مع زملائه. أو أنه أخذ عطلات بدون وجه حق "عرضية أو مرضية". فإنه يكون قد سرق الأجر الذي يأخذه مقابل هذا الوقت.

***

والعامل أو الموظف قد يسرق صاحب العمل بعدم الأمانة في العمل:

فالموظف يأخذ أجراً عن وقت يقوم فيه بعمل معين. فإن أهمل هذا العمل. أو لم يؤده بأمانه بما يجب له من جودة ومن إتقان. وإذا لم يقم بالمهمة المطلوبة منه. بل تهرب منها بكافة الطرق. أو عمل على تأجيلها كسلاً منه. أو تنصل منها بإحالتها على غيره.. يكون في كل ذلك قد سرق أجره الذي يأخذه مقابل العمل. وهو لم يعمل شيئاً. أو عمل ولكن ليس كما ينبغي. ويكون عمليا قد نقض الاتفاق الذي يطالبه بعمل في مقابل الأجر.

وسرقة صاحب العمل. قد تكون أحياناً بإتلاف الآلات التي يستخدمها العامل في عمله.

نلاحظ كثيراً ان العامل الذي يملك آلة. يحافظ عليها وعلى صيانتها محافظة كاملة. أما إن كان أجيراً يعمل بآلات صاحب العمل. فإنه كثيراً ما يتهاون في حفظ تلك الآلات. ولا يهمه أن تتلف. ويتكفل صاحب العمل مالاً في إصلاحها أو في شراء غيرها.. ويكون العامل بإتلافه للآلات قد سرق صاحب العمل. وكلفه مالاً.. هذا الأمر نلاحظه مثلا بين سائق تاكسي يشتغل على عربته الخاصة. وسائق آخر يعمل أجيراً على عربة غيره.

***

القمار هو أيضاً يدخل في بعض نواحيه تحت عنوان السرقة

فالمال الذي يربحه إنسان عن طريق القمار من شخص آخر. هو مال حرام. أخذه منه بدون وجه حق. مهما تخفي تحت عنوان التسلية. وبخاصة لو كانت المهارة غير متوازنة بين الطرفين .. ويدخل في أمثال هذه السرقات الألعاب التي يخدعون بها بعض الصبية. وتعتمد السرقة فيها على خفة اليد.

***

في غير مجال المال. نعرض لسرقة أخرى هى سرقة الأفكار.

سرقة الأفكار معناها أن يسرق أحد فكر غيره. وينسبه إلى نفسه..

مثال ذلك من يسرق فكرة اختراع. أو موضوع قصة. أو لحناً موسيقياً لغيره أو جزءاً منه

ويدخله في ألحانه كأنه له. وفي الأدب باب مشهور عن "السرقات الشعرية". وبعض هذه السرقة تؤخذ كلّها كما هي بحرفيتها. والبعض يدخل عليه بعض التحوير.

وقد يحاول البعض أن يغطي هذه السرقات. بأن يضعها تحت عنوان الاقتباس أو سعة الاطلاع. ولكن المفروض في المؤلف إذا اقتبس شيئاً من غيره. أن يذكر اسم ومؤلف من قد اقتبس منه من أجل هذا ضمنت القوانين حقوق التأليف. وحقوق الطبع والنشر. وحقوق الاختراع.... الخ.

***

موضوع آخر في السرقة. هو الغشّ في الامتحانات.

فكما يسرق الإنسان فكرة اختراع لغيره. كذلك بالغشّ يسرق إجازة دراسية ليست له. وينسب لنفسه علماً قد سرقه بالغشّ.

كذلك من يقوم بتغشيش غيره في امتحان. يكون شريكاً. وعبثاً يحاول البعض أن يُدرج ذلك تحت عنوان الرحمة أو الشفقة. فكل فضيلة لا بد أن تكون وسيلتها صالحة وفاضلة مثلها. والغشّ ليس فضيلة.

وإذا قيل إن الغشّ في الامتحانات قد تم بمعرفة المراقب وبإذنه. نقول إن ذلك المراقب ليس من حقّه هذا. بل يعرض نفسه للمحاكمة.

***

هناك لون آخر من السرقة هو سرقة الأسرار عن طريق التجسُّس أو التنصّت. هى سرقة تقوم بها الأذن وليس اليد.

أو قد يتطفّل شخص فيقرأ خطابات غيره أو مُذكّراته الخاصة. خلسة دون علمه. أو يحاول التعرُّف على خصوصياته بطريقة ما.. فمن المفروض أن يحترم كل إنسان أسرار غيره. ولا يسمح لنفسه قط أن يطلع عليها. وليس عذراً أن يتم ذلك في محيط الأسرة.

***

على أن موضوع "السرقة" موضوع طويل. قد نرجع إليه لنكمله فيما بعد.

١٠/١٢/٢٠٠٢

المعرفة
أنواعها - منافعها - مضارها

لقد أعطانا اللّه عقلاً يمكنه أن يعرف..

.. ولكنه أراد لنا أن نعرف ما يُفيدنا وينفعنا. وأيضاً ما يفيد وينفع الآخرين. أفراداً كانوا أو جماعات..

غير أن المشكلة التي قابلت الإنسان منذ البدء. هى أنه أراد أن يعرف وحسب أيّاً كان نوع المعرفة.

كان الإنسان الأول يعرف الخير فقط. ولكنه - للأسف الشديد - بدأ يعرف الشر أيضاً. وبهذا أضرّ نفسه وأضرّ غيره.

إذن تأكّد من سلامة كل معرفة تصل إليك وتأكد من فائدتها. قبل أن تقبلها.

واعرف أن المعرفة ليست غاية في ذاتها. وإنما هى وسيلة للمنفعة. اختر إذن هذا اللون من المعرفة.

***

معرفة اللّه

يقولون إن أعلم الناس. هو من يعرف شيئاً عن كل شيء. كما يعرف كل شيء عن شيء ما "بلون من التخصص". وأرى أن هذه العبارة مبالغ فيها جداً. فلا يوجد إنسان يعرف كل شيء عن شيء ما. ولا أن يعرف شيئاً عن كل شيء.

أمّا اللّه - تبارك اسمه - فهو يعرف كل شيء عن كل شيء.

ومعرفته مُطلَقة ويقينية. وغير محدودة.

* اللّه يعرف الخفيات والظاهرات: يعرف ما في القلوب. وما في الأفكار وما في النيات. لجميع الناس. ويعرف ما في باطن الأرض. وما في علو السماوات. بينما الإنسان لا يعرف شيئاً من كل هذا.

* والإنسان - إن عرف - إنما يكون ذلك بوسائط مُتعدِّدة. كالمقاييس والمكاييل.

والأشعة والتحاليل. وأجهزة كثيرة جداً للوصول إلى ما يمكنه معرفته... أمّا اللّه فيعرف كل شيء بدون واسطة..

* والإنسان يجاهد لمعرفة طبائع الأشياء. أمّا اللّه فيعرفها لأنه هو الذي وضع لكل شيء طبيعته. الإنسان مثلاً يحاول بمجهودات ضخمة أن يعرف أماكن البترول في باطن الأرض. أمّا اللّه فمعرفته لذلك ناتجة عن كونه هو الذي وضع البترول في تلك الأماكن. وينطبق ذلك أيضاً على مواضع الذهب وكافة المعادن. وأنواع الكائنات البحرية وغيرها..

* اللّه يعرف المستقبل والغيب. أمّا الإنسان فلا يعرف..

***

أنواع من المعرفة

* هناك معرفة حسية تأتي عن طريق الحواس. يعرفها الناس بالنظر. أو باللّمس. أو بالشم. أو بالسمع. وما أضعف حواسنا. فلا تدرك كل شيء.

* وهناك معرفة عن طريق العقل. نعرفها بالدراسة أو بالاستنتاج.

* وهناك معرفة للروح. وليست لكل الناس.

* غير أن هناك معرفة أخرى هي نوع من الكشف أو الإعلان الإلهي.

ويدخل في هذه: الوحي الإلهي الذي يصل إلى الأنبياء. وأيضاً استجابة من يصل إلى اللّه قائلاً: "عرّفني يارب طُرقك. فهّمني سبلك"...

* أمّا أسمى معرفة. فهي معرفتنا للّه نفسه.

***

العالم شغوف أن يبحث عن المعرفة التي تعطيه فكرة عن القمر والكواكب. بسفن الفضاء التي تكلفه أموالاً طائلة...

ولكنه ليس بنفس الشوق إطلاقاً يسعى إلى معرفة اللّه...

إنه يسعد كثيراً إن أحضر بعض حجارة من القمر. أو بعض الصور. لأنها تعطيه بعض المعرفة عن الطبيعة التي هي من خلق اللّه. دون أن يسعد بمعرفة اللّه خالقها..!

ونفس الكلام يُقال عن كثير من الاكتشافات التي يقوم بها الإنسان...

والإنسان يفتخر باكتشافاته. ويمجد العقل البشري الذي وصل إليها. دون أن يمجد اللّه الذي خلق هذا العقل ووهبه إمكانياته!

هناك معرفة تصل إلينا عن طريق الآخرين

عن طريق الكتب. أو الصحف. أو الأفلام. أو الإذاعة والتليفزيون. أو الانترنت. أو وسائل الإعلام المتعددة. أو ثورة المعلومات..

ومعرفة تأتي عن طريق الأصدقاء أو المعارف أو الأساتذة.

وهناك معرفة تأتي عن طريق الشيطان

إمّا يلقيها في أذهان الناس. عن طريق فكر أو حلم. أو بواسطة أحد جنوده.. وغالباً ما تكون معرفة كاذبة أو مُضلِّلة... أو قد تكون صحيحة. ولكنه يستغلها لغرض سيء.

وربما يسعى الإنسان إلى الحصول على معرفة من الشيطان. عن طريق السحر. أو استشارة الموتى أو الأرواح. وبطرق متعددة..! وقد نهى اللَّه عن كل هذه الأمور..

***

وهناك من يلجأ إلى المنجمين. وإلى قارئ الكف أو الفنجان.

وإلى ضاربي الرمل أو الودع. أو إلى استشارة الأرواح بالتنويم المغناطيسي أو البندول. وما أشبه... أو ممّن يأتون بنبوءات النجوم!

ما الذي نعرفه عن يقينية هذه الأخبار. أو استخدامها للضلالة. أو لمجرد التسلية. أو للعب بعقول البُسطاء...

واعرف جيداً أن الشيطان إن أعطاك معرفة. لا يُعطيها لك مجاناً

أو بدون مقابل. ولا يعطيها بدون هدف شيطاني يريد الوصول إليه للإضرار بك. أو لجعلك تحت سُلطانه أو تحت إرشاده..

***

نوع آخر من المعرفة. هو أن تعرف نفسك

هذه الحكمة التي دعا إليها سقراط الفيلسوف: "اعرف نفسك".

وما أعظم الفوائد التي تحصل عليها من معرفة نفسك: تعرف انك مخلوق من تراب الأرض. لكي تتضع ولا تتكبّر. وتعرف خطاياك. لكي تندم عليها وتتوب. وتعرف طبيعتك وما يُحاربك به عدو الخير. لكي تنجو من تلك الحروب. وتعرف مواهبك لكي تستخدمها لتمجيد اللَّه ونفع المجتمع..

وتعرف مدى قربك أو بعدك عن وصايا اللّه، وتعرف أيضاً ما يلزمك للوصول إلى الحكمة والتمييز.

وتعرف أنك مكشوف أمام اللّه. مهما حاولت أن تكون مستوراً عن الناس. فاللّه يعرف كل أفكارك وكل شهواتك... فتخجل من نفسك.

***

كذلك عليك أن تعرف غيرك. لكي تعرف كيف تتعامل معه:

تعرف نفسية غيرك. والمفتاح الذي تفتح به باب قلبه وعقله.

وكما ينطبق هذا في التعامل مع الأصدقاء. وفي محيط العمل والحياة الاجتماعية. كذلك ينطبق أيضاً في محيط الأسرة حيث ينبغي أن يعرف كل من الزوجين طبيعة ونفسية شريكه في الحياة. وبالتالي كيفية التعامل معه. وأيضاً معرفة نفسية الطفل وكيف يعامله. وفي الحياة الاجتماعية. يلزم معرفة نفسية المعوق. ونفسية العاقر. ونفسية المراهق وكيفية التعامل مع كل هؤلاء وغيرهم.

***

اهتم أيضاً بمعرفة الحق. وإن عرفته فاتبعه:

وحاول أيضاً أن تعرف احتياجات الناس. لكي تدبِّرها لهم. وأن تعرف طريق اللّه لكي تسير فيه وتدعو الناس إليه.

واحترس من المعارف التي هي فوق مستوى البشر.

فكثير من الناس يبحثون في عالم الأرواح فيضلون. أو يبحثون في الميتافيزيقا "ما فوق الطبيعة" فيضلون اللّه. أو يبحثون في أمور إلهية فوق مستواهم. فيخطئون الطريق.

أما أنت فابحث عن المعرفة التي تفيدك وتفيد غيرك وابعد عن كل معرفة ضارة أو ضالة.

المعرفة الضارة

من المعارف الضارة: معرفة الشر. ومعرفة الأشياء التي تؤثِّر على النفس تأثيراً شديداً وتقودها إلى الخطيئة. وكذلك معرفة أي شيء يضرّ الإنسان. ويجمع فكره في أشياء تؤذيه وتبعده عن روحياته.

ولقد صدق أحد الآباء الروحيين حينما قال:

أحياناً نجهد أنفسنا في معرفة أمور. لا نُلام في يوم الدين على جهلنا إياها.

فإن كنا نُلام على معرفة أمثال هذه الأمور. فكم بعدكم يحاسبنا اللّه على الأمور التي تضرنا. وتكون نتائجها سيئة علينا؟!

***

ضع في ذهنك مدى نتائج تلك المعرفة الضارة:

ما يدخل في ذهنك من معارف. يؤثر على حواسك ومشاعرك. وقد يؤثر على علاقتك بالآخرين. بل والأكثر من هذا أنه يُخزّن في عقلك الباطن

ثم يخرج من عقلك الباطن. على هيئة ظنون أو أفكار أو أحلام.. وإذا بهذه المعرفة التي أخذتها قد امتدت في داخلك وخارجك إلى نطاق أوسع. وقد لا تستطيع أن تحد انتشارها ومدى أضرارها.

حقاً كم من أناس ندموا جداً بسبب معارف خزنوها في أذهانهم.

وقالوا يا ليتنا ما كُنا عرفنا. سواء بالقراءة أو الحواس!

ويحتارون كيف يمكنهم أن يخرجوا ما في أذهانهم من معلومات رسخت فيها.. مثلهم في ذلك مثل الذين وقعوا في إدمان بعض المُخدِّرات Drugs وأصبحوا عاجزين عن الخروج من سيطرة ما قد أدمنوا عليه...

***

وهناك ألوان من المعرفة. تغيّر نظرة الإنسان إلى كثير من الأمور. وتغيّر نظرته أيضاً إلى بعض الناس..

مثال آخر إلى المعرفة الضارة وهو "الشكّ". وكما قال أحد العلماء:

سهل أن يدخل الشك إلى عقل إنسان ولكن ما أصعب خروج هذا الشك من عقله!

فإن أملت أذنك إلى من يُلقي في قلبك شكّاً من جهة إنسان بإثباتات مُعينة قد تكون زائفة... أو إن سمحت لنفسك أن تقرأ قراءات تشكّك في الإيمان أو العقيدة... فقد تبذل جهداً كبيراً للخروج من هذا الشكّ. وقد يبقى معك فترة طويلة. إلى أن تفتقدك نعمة اللّه لتُخرجه منك...

كم كان عمق تأثير الشيوعيين في تحويل الناس إلى الإلحاد..

***

لذلك يلزم أن يُدقِّق كل إنسان في اختيار مصادر معرفته.

احتفظ بنقاوة فكرك. ولا تلوّثه بمعرفة ضارة. ودقّق كثيراً في كل ما تقرأه وكل ما تسمعه وكل ما تراه. وكُن دقيقاً أيضاً في اختيار الأصدقاء الذين يصبون معلومات في أذنيك. أو ينقلون إليك خبرة أمور ضارة. أو أخباراً ضارة. أو أفكاراً متعبة..

ولا تسمح لكل تلك المعرفة أن تثبت في ذهنك. إلاّ بعد أن تتحقّق منها تماماً. وتعرف الحق فيها من الباطل والزيف.

ولا تظن أن الأفكار عواقر. بل ما أكثر أن تلد أفكاراً أخرى كثيرة

بل ربما كلمة واحدة تصل إلى ذهنك. فتلد حكاية أو حكايات!

واعرف أن الوقاية من الفكر الخاطئ. خير وأفضل من قبوله ومحاولة التخلُّص منه.

***

واحترس جداً من نقلك لبعض الأفكار والأخبار

ربما تصل إليك معرفة ضارة. وتنقلها أنت بدورك إلى غيرك فتضره. ثم بعد أن تقاسي من تلك المعرفة. تحاول أن تتخلص منها. وقد تعينك نعمة اللّه فتتخلص منها. ولكن ما نقلته إلى الغير لايزال ثابتاً فيه وتضره معرفته. وتكون أنت مُداناً أمام اللّه عن ضرر غيرك. لأنك كنت السبب فيه. وحينئذ لا تتعبك خطيئتك بحسب في قبولك أولاً للمعرفة الضارة. بل تتعبك خطيئتك أيضاً في نقل تلك المعرفة إلى غيرك...

إنه ماضيك الذي يُطاردك. أعني المعرفة الضارة التي نشرتها. سواء بالكلام. أو بالكتابة. أو بطرق أخرى كثيرة...

***

كذلك الذين يقعون في التشهير بغيرهم:

الذين ينقلون أخباراً سيئة عن أخطاء الغير. أو ما يظنونه أخطاء. أو ما يخترعونها... ويل لهم إذا استيقظت ضمائرهم. وبدأت تلومهم على ما كانوا ينشرونه من قبل عمّا يُسيء إلى غيرهم.

ويدخل في هذا النطاق: الذين يطلقون الشائعات أو ينشرونها:

سواء بقصد الإيذاء بغيرهم. أو لمجرد التسلية الخاطئة بالتحدث عن أسرار الآخرين التي يلذ لهم التحدث عنها وهى نوع من الاستهزاء بالناس. أو نشر فضائح تنسب إليهم. سواء كان ما يتحدثون عنه أخباراً واقعية. أو بإضافة استنتاجات من خيالهم.

٢٠٠٢/١٢/١٧

العطاء عند اللّه والناس

اللّه المُعطي

من صفات اللّه العطاء. فهو قد أعطى. ويُعطي باستمرار. هو يُعطي دون أن نطلب. ويُعطي فوق ما نطلب. ويُعطي بسخاء يُعطينا ما نحتاجه. ويُعطينا ما نعطيه. ويُعطينا موهبة العطاء ونحن لا نملك ما نعطيه. فكل عطائنا هو من عنده. من خيره ومن جوده. حتى الرغبة في العطاء. يُعطيها لنا. وحينما نُعطي حقوق اللّه علينا. إنما نقول له: "منك الكل. ومن يدك أعطيناك".

وعطايا اللّه تشمل كل خليقته. فهو يشبع الكل من رضاه.

إنه يُعطي البشر. ويُعطي كل الكائنات الحية. ويُعطي الطبيعة أيضاً.. إنه اللّه المُعطي حتى الحشرات لم تُحرَم من عطائه.. فعلاقة اللّه بالخليقة بدأت بالعطاء. وكيف ذلك؟

***

أول عطية وهبها اللّه لنا. هى نعمة الوجود

منذ الأزل كان اللّه وحده. تمجّده صفاته ثم شاء اللّه من جوده. أن يخلق كائنات أخرى. وهكذا أنعم بالوجود على غير الموجود. شاءت إرادته. فكان كل شيء.. ولو لم ينعم اللّه علينا بالوجود. لبقينا عدماً..

خلقنا وهو غير محتاج إلينا. فمن طبيعة اللّه أنه لا يحتاج إلى شيء. ولهذا يمكننا أن نخاطبه قائلين: لم تكن أنت يارب محتاجاً إلى عبوديتنا. بل نحن المحتاجون إلى ربوبيتك...

وقبل أن يُعطينا اللّه نعمة الوجود. أعطانا الطبيعة لخدمتنا ولراحتنا. أقام لنا السماء سقفاً. ومهّد لنا الأرض كي نمشي عليها. أعطانا الشمس والقمر والنجوم لأجل الضياء. وأعطانا الماء والهواء والطعام. ولم يتركنا معوزين شيئاً..

***

وكما أعطانا الوجود. أعطانا الحياة. وأعطانا العقل

أعطانا الحكمة والنطق. أعطانا الفهم والذاكرة والاستنتاج. بل أعطانا القدرة على الاختراع. لكي ندبّر لأنفسنا ما نحتاج إليه. أعطى اللّه العقل. حتى للذين يستخدمونه ضده..! حتى للملحدين الذين استخدموا عقولهم لإنكار وجوده. وللأشرار الذين استعملوا عقلهم في كسر وصاياه الإلهية. وفي الدهاء والخبث وفي التآمر على غيرهم.. ولم يسحب اللّه نعمة العقل منهم! أعطى اللّه العقل والحكمة للبعض. فاخترعوا اختراعات مُذهلة. تكبّر قلبهم بها. وظنوا أنهم مثل اللّه يخلقون!! بينما اللّه هو وحده الخالق. لأنه يُوجِد أشياء من العدم. أمّا البشر فهُم مجرّد صُنّاع. يصنعون من المواد التي خلقها اللّه. ويستخدمون في ذلك العقل الذي وهبهم اللّه إياه.

***

وكما أعطانا اللّه الوجود والحياة والعقل. أعطانا الضمير أيضاً

وذلك لكي نعرف الخير والشر. ونميّز بين الصالح والطالح. ونسلك به في حياة الفضيلة والبر. وظلّ الضمير نوراً للناس يهتدون به في حياتهم. ويحتكمون إليه في تصرُّفاتهم.

ولمّا أظلمت ضمائر الكثير. وفقدت شفافيتها. أعطانا اللّه الشريعة عن طريق الوحي والأنبياء. وهكذا لم يتركنا اللّه بلا إرشاد روحي في حياتنا.

وكما أعطانا أن نعرف الخير. أعطانا اللّه أن نعرفه هو. وأن نكون لنا به صلة خاصة. في الصلاة والتسبيح والعبادة

***

وأعطانا اللّه في طبيعتنا الكثير من العواطف السامية والمواهب

منها عواطف الأمومة والأبوة والبنوة. وعواطف الصداقة وحب الخير للغير. وعواطف الإخلاص والوفاء. وعلى كل هذا. بدأ تأسيس المجتمع البشري وثباته.

وأعطى اللّه البعض منا مواهب خاصة. فالبعض أعطاه موهبة الرسم. والبعض موهبة الموسيقى. والبعض موهبة الشعر. والبعض موهبة الفن. والبعض موهبة الغناء. والبعض موهبة الخط الجميل. والبعض موهبة الاختراع.. كلها مواهب من اللّه.

***

وأعطى اللّه الطبيعة والبشرية نعمة الجمال

جمال المناظر الطبيعية من الجبال والأنهار والبحيرات. وجمال الخضرة والأشجار والأزهار والرياحين والورود. وأيضاً الجمال العجيب في ألوان متعددة ومتنوعة من الفراشات. ومن الأسماك الملونة. ووهب جمالاً آخر في تغريد الطيور والبلابل. ولكلٌ منها صوته الخاص. ومن الكل تتكون سيمفونية موسيقية عجيبة وأعطى بعض البشر موهبة في الصوت الجميل والمؤثر وأعطي البعض الآخر ألواناً أخرى من الجمال.

يُضاف إلى كل هذا ما نراه في الطبيعة أيضاً من جمال البدر والنجوم. وجمال الأفق وقت غروب الشمس وشروقها. وجمال الألوان في قوس قزح. وتنوع الألوان عموماً وجمالها...

***

ومنحنا اللّه النظام العجيب في الطبيعة وفي الجسم البشري

فالأرض مثلاً تدور حول نفسها بنظام عجيب دورة كل يوم ينتج عنها الليل والنهار. ودورة في السنة حول الشمس ينتج عنها تتابع الفصول الأربعة. كذلك دورة القمر كل شهر. ومنها أوجه القمر ونظام عجيب وضعه اللّه في الفلك للكواكب والنجوم والمجرات.. ونظام في عمل الرياح والأهوية. والجو.. كذلك منحنا اللّه نظاماً عجيباً في أجسادنا. وفي عمل كل عضو منها. ومن يتأمل وظائف الأعضاء في الجسد البشري وتعاملها وتعاونها معاً يرى عجباً:

في تركيب المخ وعمله. وفي القلب وشرايينه. وفي وظائف الكبد والكلى. ووظائف الجهاز الدوري والجهاز الهضمي. وغير ذلك... أعطى اللّه للجسد البشري نظاماً دقيقاً جداً بحيث إذا اختل شيء منه. يُصاب الإنسان بمرض.. مُبارَك الرب في كل ما أعطاه...

***

واللّه يعطي المعونة. وأيضاً النجاة والإنقاذ

هو المُعين. وهو المُنجّي. وهو المُنقذ. والمعونة التي يُعطيها للبشر بأنواع وطرق شتى. وأحياناً يُرسل الملائكة لإنقاذهم. وهناك معونة أخرى تصل إليهم في استجابة صلواتهم وحلّ مشاكلهم.. وما أعجب ما يُعطيه اللّه للحيوان من فُرص الإنقاذ. ومن أمثلتها الأسد يمكنه أن يفترس الغزال. فيُعطي اللّه للغزال قوة في الجري ينجو بها من الأسد. والقط يقدر على الفأر.

فيُعطي اللّه الفأر قوة على الحفر ينجو بها من القط. والكلب يستطيع أن يقتل القط. فيُعطي اللّه للقط قدرة على التسلّق. فيتسلّق الشجر أو بعض الحوائط وينجو.

كذلك بالنسبة إلى البرد القارس عند القطب. يهب اللّه كلاً من الدب القطبي والثعلب القطبي فراء على جسده يحميه من البرد.

إننا لا نستطيع أن نحصي كل ما أعطاه اللّه. وما يُعطيه وكل ما ذكرناه هو مجرّد أمثلة لعطاء يفوق الإحصاء.

يكفي أن نقول أخيراً أنه منحنا نحن البشر نعمة القيامة والخلود

وأنه ستكون لنا بعد الموت فرصة في حياة أخرى..

***

العطاء عند الإنسان

عطاء الإنسان هو تنفيذ لوصية إلهية. وهو أيضاً عاطفة قلبية

هو نوع من البذل. والتخلُّص من الأنانية ومن محبّة الذات. وذلك بالانعطاف نحو الغير. ومحبة الناس وإعطائهم.

وأول تدريب على العطاء. يبدأ من مرحلة الطفولة. المرحلة التي يظن فيها الطفل أن كل شيء ملكه. ويريد أن يستحوذ على كل شيء.

فندرِّب الطفل أن يُعطي أي شيء. لأي أحد. وبخاصة المحيطون به

فيعطي إخوته ممّا يُعطى له. وإذا جاء ضيوف. يمكن أن ندرِّب الطفل أن يوزّع عليهم الحلوى مثلاً. وهكذا يتدرَّب على العطاء.. وشيئاً فشيئاً نُدرِّبه على الإعطاء للمحتاجين.

***

كل شيء يصل إليك. درِّب نفسك أن تُعطي منه شيئاً

حاول أن يشترك معك غيرك في كل ما يُعطيك اللّه من الخير. وكل يوم يمر عليك. دون أن تعطي فيه شيئاً لغيرك. ليتك لا تعتبره من حياتك. واليوم الذي يكون كله أخذاً دون عطاء لا تحسبه مكسباً.. لأنه مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ.

لا تبحث عن الأشياء المرفوضة منك لكي تعطيها للغير!

بل أعطِ ممّا تحبه نفسك. وما ترغب في التمسُّك به. ولا تقتصر في عطائك على فضلاتك ومرفوضاتك. وإن كان ما تعطيه للفقراء تعتبر أنك تعطيه للّه. فأعطِ اللّه إذن

أفضل ما عندك.. وأفضل لون من العطاء. هو أن تعطي من أعوازك لأنك في هذه الحالة. إنما تفضّل غيرك على نفسك.

فضيلة أخرى في العطاء. أن يكون بسخاء بلا تقتير

لا تعطِ وأنت تحاسب اللّه والناس على ما تعطيه. اللّه نفسه في عطائه يفتح لنا كوى السماء. ويفيض علينا بلا حساب.

***

وإذ تعطي بكرم. أعطِ أيضاً بفرح

افرح بأنك في عطائك قد أسعدت إنساناً. الأب والأم يفرحان فيما يُعطيان ابنهما ما يريده. ويسعدان بابتسامة ترتسم على شفتيه.

قال أحد الأدباء: سقيت شجيرة كوب ماء. فلم تقدِّم لي عبارة شكر واحدة. ولكنها انتعشت. فانتعشت.

ومن أمثلة الكرم في العطاء والفرح في العطاء. أنه كان يأمر غلامه ليوقد النار. حتى يراها الغريب فيأتي. وقد قال في ذلك:

أوقد يا غلام فإن الليل ليل قرّ

والريح يا غلام ريح صرّ

لعلّ يرى نارك من يمرّ

إذا جلبت ضيفاً. فأنت حرّ

أي يُحرّر من عبوديته. مكافأة له على أنه جلب ضيفاً لإكرامه.

***

وينبغي أن يكون العطاء بمداومة. فلا تسأم منه

لأن هناك من يدفع مرة أو مرتين. ثم يملّ. ويرفض إذا طُلب منه أكثر. أمّا الإنسان الروحي. فإنه يفرح كلّما أُتيحت له فرصة للعطاء. وهو يُعطي بسرور مهما كثر الطلب منه. أمّا الذي يُعطي وهو مُتضايق، فإن الذين يأخذون منه إنما يرهقونه.. مثل هذا الشخص إذا أعطى إنما يُعطي من جيبه. لا من قلبه.

بل يجب أن يُعطي الإنسان. دون أن يُطلّب منه العطاء.

فيكون حساساً نحو احتياجات الغير. يُعطيهم ما يشعر أنهم يحتاجون إليه. دون أن يطلبوا منه. مثال ذلك الأب الذي يُعطي أبناءه احتياجاتهم. دون أن يطلبوا.. كذلك من يطلب. لا يتأخّر في إعطائه.

وهناك مناسبات يُعطي الإنسان فيها. دون طلب

يُعطي في مناسبات الأعياد. لكي يفرح الآخرون مثلما يفرح هو ويُعطي في حالات المرض. عارفاً بثقل تكاليف العلاج وسعر الدواء. ويُعطي في مناسبة افتتاح المدارس. وتكاليف مصروفات الطلاب ويُعطي لسداد تكاليف الولادة. وتكاليف الجنازات. ولسداد الديون ويُعطي في كل مجال للخدمة الاجتماعية. وللمشاركة في احتياج الآخرين ويُعطي لبيوت اللّه من حقوق اللّه عليه. ممّا أمر اللّه به ويُعطي للأيتام. والأرامل. ولأسرات المعوزين. ولبيوت المعوقين وهناك عطاء آخر. تعطيه الدول للدول. والشعوب للشعوب. الغنية منها للمحتاجة. وبخاصة في مناسبات المجاعات والأوبئة وكوارث الطبيعة.

***

وأعظم مثل للعطاء. هو أن يُعطي الإنسان ذاته لغيره

كالجندي الذي يُقدّم حياته لوطنه في وقت الحرب. وكالذين يعملون في إنقاذ غيرهم من الغرق أو الحريق. ولو ماتوا في سبيل ذلك.. وكمَنْ يفدي غيره بنفسه ويموت عنه في شتى المناسبات.. مثال لنا من الطبيعة الشمعة التي تذوب تماماً لتضيء لغيرها وكحبة البخور التي تحترق لكي تعطي رائحة زكية للآخرين..

أخيراً إن لم نعطِ الناس ذاتنا أو ممتلكاتنا. فعلى الأقل لا نسلب حقوقهم. بل نعطي لكل ذي حقّ حقّه..

***

يُضاف إلى كل هذا العطاء المعنوي غير المادي

فإن لم يكن للّه ما تعطيه من مال. أعطِ غيرك كلمة تشجيع. عبارة عطف وحنان. نصيحة مُفيدة. ابتسامة تُفرحه. أعطِه وقتك أو جهدك. المهم أن تعطي ما تقدر عليه.

٢٠٠٢/١٢/٢٤

الشيطان نشاطه وصفاته

نشاطه

الشيطان لا يعمل وحده. إنما له أعوان وجنود كثيرون. ندعوهم أيضاً شياطين. والشياطين هى أرواح شريرة. تنتشر الشر على نطاق واسع. وهى - كأرواح - لا تُرى. ولكن تُدرك بعملها. وهى دائمة العمل. لا تهدأ من الجولان في الأرض والتمشّي فيها. تلقي بذرها في أي موضع.

والشياطين أقوياء. وكثيراً ما ينجحون في عملهم.

لقد استطاعوا أن ينشروا الوثنية في العالم أجمع.

ومرّ وقت كان فيه غالبية أهل العالم يعبدون الأصنام. وبعضهم يعبدون النار. أو يعبدون الشمس. أو الأرواح. ووقعت الدول والشعوب أيضاً في تعدُّد الآلهة. ورفضوا الإله الواحد. وحاربوا كل مَنْ يؤمن به.

***

واستطاع الشيطان أيضاً أن يوقِع العالم في شكوك عقائدية منها الإلحاد. وإنكار وجود اللّه. أو رفض هذا الإله.

بأن نشر فلسفات ضد الدين. ليس في العالم القديم فحسب. بل في عالمنا الحديث أيضاً. فالفلسفة الشيوعية أنكرت وجود اللّه. وبعض منهم ادّعي أن اللّه الذي يعبده المتدينون. يعيش في بُرج عاجي. لا يهتم باحتياجات الناس. ولا يُبالي بالفروقات الكبيرة بين ثروات الأغنياء. والفقر والعوز لسائر الناس. فرفضوا هذا الإله.

***

كذلك أمكن للشيطان أن ينشر الفلسفة الوجودية.

وكأن شعار من يعتنقها: إنه من الخير أن اللّه لا يوجد. لكي أوجد أنا.. أي لكي أتمتع بالوجود كما أريد. في حرية لا تقف ضدها وصايا إلهية ولا قيم أخلاقية. وبهذا الفكر أمكن للشيطان أن ينشر الإباحية.

وما أكثر الشكوك التي نشرها الشيطان حول أصل الوجود. وحول الخليقة. وحول قيامة الأموات والعالم الآخر أو الحياة بعد الموت. بمهاجمة الدين عموماً. والادعاء بأنه أفيون الشعوب!!

***

وكما تجرأ الشيطان على العقائد. هكذا تجرأ على الأخلاقيات.

وحالياً ما أوسع عمله في نطاق الشذوذ الجنسي Homosexuality حتى أصبح هؤلاء الشواذ يجاهرون بوجودهم في غير خجل ولا حياء. ويطلبون أن يعترف المجتمع بهم كما هم. وبأن تكون لهم حقوق يطالبون بها بل أنهم يكوّنون جماعة من المافيا تهدد من يعاديها. حتى من رجال القضاء أيضاً.

***

ومن أمثلة ما نشره الشيطان ضد الأخلاق جماعات الهيبز والبيتلز

وما قاموا به من إجرام وشرب للدماء.

كذلك سمعنا قريباً عن الجماعات التي تؤمن بعبادة الشيطان. مع ممارسات معينة. وتعلن عن ذاتها. وإذا ما حوكمت. يدافع عنها البعض بإسم "حقوق الإنسان"!!

يضاف إلى كل هذا انتهاكات كثيرة للفضيلة تطلق على ذاتها أسماء كثيرة. وتجد رواجاً وسط الطبقات "الراقية"!

***

ودخل الشيطان في مجال الدجل. ومعرفة الغيب!

بينما الغيب لا يعرفه إلاّ اللّه وحده. فكأنما الشيطان ينافس اللّه في معرفته. ومن أشهر ما عمله الشيطان في هذا الأمر. دخوله في مجال واسع للمنجمين. وما توحي به النجوم من تنبؤات حول حظوظ الناس وما سوف يحدث لهم في المستقبل.

كذلك معرفة الغيب عن طريق قراءة الكف. وقراءة الفنجان. وضرب الرمل. ووشوشة الودع. وما قيل وما نشر عن البندول في الستينيات.

وأيضاً استشارة أرواح الموتى. بأنواع وطرق شتي. منها الوسيط والتنويم المغناطيسي. واعتبار أن موضوع الأرواح علم يسمى "علم الأرواح". يصفون فيه الأرواح وشكلها.

ويصورونها. ويصفون أيضاً تحركاتها. ويستدعونها إن شاءوا ويتحدثون معها! وأمور أخرى كثيرة في عالم الغيبيات.

***

ولا ننسى ما عمله الشيطان في مجال السحر.

وظهور سحرة مشهورين عُرفوا في التاريخ. حتى في أيام موسى النبي. وادعوا أنهم يقومون بأعمال غريبة. وبأشياء فائقة للطبيعة.

وما زال السحر معروفاً في أيامنا. وله تأثيره على الناس.

كذلك ما يعرف بِاسم "العمل". وتأثير هذا "العمل" على مصائر الآخرين! مع الادعاء بأن هناك أناسا لهم مواهب لفك العمل وإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي.

وقد قُبض على بعض المشتغلين في مجال السحر هذا. ومنهم من كان يدّعي النبوة أيضاً. وأن له مواهب خارقة. يجعل بها كثيراً من البسطاء تحت قيادته وتوجيهه. وطبعاً هو وهم تحت قيادة الشيطان.

***

والشيطان يعمل أيضاً في مجال العرافة والعرّافين

وبهذا الادعاء يجعل البعض أيضاً تحت قيادته. بادعاء المعرفة ويوهم ضحاياه أنها معرفة إلهية وُهبت له!

ويوجد من يقودهم الشيطان عن طريق الأحلام الكاذبة. أو الرؤى الكاذبة. وقد يظهر للبعض منهم في هيئة ملاك أو نبي أو شهيد. ليوهمه بأنه مرسل من عند اللّه. ومن العجيب أن غالبية الذين ينخدعون عن هذا الطريق يكونون من المتدينين!

وألوان الخداع عند الشيطان كثيرة. وقد تدخل عند ضحاياه تحت عنوان الأعاجيب. وهى نوع من أمور Fantastic.

***

ومن المجالات التي عمل فيها الشيطان أيضاً: الحروب والانقسامات. واستخدام العلم بطريقة منحرفة أو ضارة.

فقد استطاع أن يقلب دولاً على دول. وشعوباً على شعوب. وجماعات على جماعات. وكان نتيجة ذلك الحقد والقتال وفقد السلام. والموت والخراب. وقد تستمر الحروب والنزاعات طويلاً. وفي عنف.

وقاد الناس - في حروبهم - إلى استخدام العلم في اختراع الأسلحة النووية. والكيمياوية. وكافة الأسلحة الخطيرة المدمرة وباقي الآلات الحربية التي تُصرف عليها أموال طائلة كان يمكن استخدامها في الخير.

يُضاف إلى هذا استخدام العلم في تكوين البويضات المُخصّبة. لإيجاد نسل بطريق غير شرعي. وأيضاً الطريق الحديث في محاولات استنساخ حيوانات. ثم البحث عن استنساخ البشر. في منافسة لأسلوب اللّه - تبارك اسمه - بوضع قاعدة لتكوين الأسرة بالتناسل من ذكر وأنثى.

وما أكثر ما دعا الشيطان إلى استخدام العلم في البشر.

ننتقل الآن إلى نقطة أخرى هى صفات الشيطان.

***

صفاته

***إن الشيطان حسود.**

لا يستريح قلبه مطلقاً إن رأي إنساناً باراً أو ناجحاً. فيعمل كل جهده على إسقاطه وفشله.

وحسد الشيطان ليس حسد مشاعر. إنما هو حسد مدمر. يضرب فيه بكل قسوة. لقد حسد أبوينا الأوّلين على نعمة اللّه عليهما. فعمل على إسقاطهما. وحسد العالم على إيمانه باللّه. فأسقطه في الوثنية وفي تعدد الآلهة وفي الإلحاد. وهو يحسد كل معرفة وحكمة. فيعمل على تغيير مسارها.

لذلك إن منحك اللّه موهبة. فاسلك فيها باتضاع. واحترس من حسد الشياطين.

*** والشيطان مقاتل قوي لا يهدأ مُطلقاً. ولا يملّ.**

وهو لحوح في قتاله. ربما الفكر الواحد يظل يعرضه مرات ومرات. ومهما قوبل بالرفض لا ييأس ويستمرّ في عرضه. كذلك فيما يعرضه من شهوات.. فربما من كثرة الضغط والإلحاح. يستسلم له الإنسان ويخضع.

والشيطان في إلحاحه. لا ييأس من الفشل أبداً. ولا يخجل بل يعود.

إنه يلقي سمومه كل حين وعلى كل أحد. وربما الذي لا يهلك بها اليوم. قد يهلك بها غداً أو بعد غد. أو بعد سنة.

***

* والشيطان ذكي. وصاحب حيلة. وأيضاً كذاب في حيله.

إنه ذكي جداً في تدابيره التي يدبرها لإهلاك البشر. ويحرص أنها لا تكون مكشوفة. ولكن حكمته في البشر كلها خبث ومكر ودهاء.

ومن مظاهر ذكائه. انه قد يغيّر خططه وأساليبه لتوافق الظروف. وأيضاً لتوافق عقلية ونفسية من يحاربه. يسبك حيله بطريقة ذكية لا يشعر بها الإنسان المحارب. أو أنه يقدم الخطيئة في صورة فضيلة.

وهو كذاب في كل ما يقدمه من رؤى ومن أحلام ومن نصائح. ومن معرفة بالغيب. ومن إغراءات بما يزخرف به الخطية ويضفيه عليها من صور جذابة.

وهو يكذب حينما يقود إنساناً إلى الانتحار. ويقنعه بأنه بالموت سوف يتخلّص من كل أتعابه. بينما الموت ليس هو نهاية حياة. بل هو بداية حياة لا تنتهي. يجد المنتحر نفسه فيها في الجحيم.

كذلك يكذب على السارق وعلى المهرب وعلى المرتشي حينما يقنعهم بأن الأمر سوف لا ينكشف. ويكذب على القاتل حينما يقنعه أن القتيل يستحق القتل!

***

*** والشيطان خبير بالحروب. وبالنفس البشرية**

تصوروا الشيطان يحارب الإنسان منذ أكثر من سبعة آلاف سنة. منذ آدم وحواء.. أية خبرة تكون له إذن في حربه مع البشر. لا شك أنه أقدر مخلوق على فهم النفس البشرية وطريقة محاربتها. لقد درس واختبر النفس البشرية جيداً. ويعرف نواحي القوة والضعف فيها.

ومتى تصمد وتقاوم. ومتى تلين وتستسلم. ومتى تسعى بذاتها إلى الخطية. لذلك فهو يعرف الأسلوب الذي يُحاربها به.

إن الشيطان مُرشّح أن يكون أكبر عالم نفساني. وأكبر مُحلّل نفساني.

علم النفس عنده. ليس مجرد نظريات. إنما هو خبرات. على المستوى العملي والعلمي أيضاً. وعلى نطاق واسع جداً شمل البشرية كلها. بشتى أجناسها.

فهو يعرف متى يحارب الإنسان. وكيف يُحاربه؟ ومتى ينتظر؟ ومن أي الأبواب يدخل إلى الفكر وإلى القلب؟

***

*** والشيطان كثير المواهب:**

لقد فسدت طبيعته. ولكن لم تضع منه قدراته. لقد فقد طهارته. ولكن لم ينقد مواهبه كملاك. فهو يستطيع أن يعبر من قارة إلى أخرى في لمح البصر.

* هو عالم من علماء الدين. يحفظ كل الآيات. ولكنه يُفسّرها حسب هواه. وهو على علم بكل البدع. بل هو مخترعها ومُلقيها إلى أصحابها.

* وهو يعرف الشعر. بل إن كثيراً من الشعراء يتحدثون عن شيطان الشعر. لذلك ليس غريباً قول أحد علماء الأرواح انه استحضر روح شاعر مشهور. وسمع منه قصيدة بنفس أسلوبه. لعل الشيطان تدخل وأملاها للوسيط.

* والشيطان يعرف الموسيقى والفن والنحت والرسم والأغاني بل ربما يكون الملهم لأكثر الفنون إغراء. وهو يلهم المشتغلين بالملاهي والعبث كل ما يحتاجونه في فنونهم لإغراء الناس وإسقاطهم.

* والشيطان هو من علماء النفس كما قلنا..

* غير أن كل علم للشيطان. يسيّره وفق أغراضه وأهدافه.

* والشيطان على الرغم من قسوته. قد يتظاهر بالحنو والعطف.

إن "العطف" عنده وسيلة للإسقاط. عطفاً منه يحدثك في وقت صومك عن وجوب الاهتمام بصحتك. ولكنه لا يُحدّثك عن الصحة إذا داومت على التدخين أو المسكرات أو الشهوة الشبابية الضارة بالصحة.

يظهر "عطفه" عليك. حينما تجهد نفسك في أداء واجبك. فيدعوك حينئذ إلى الراحة. ولكنك ان تعبت في أمور باطلة. لا ينصحك بالراحة.

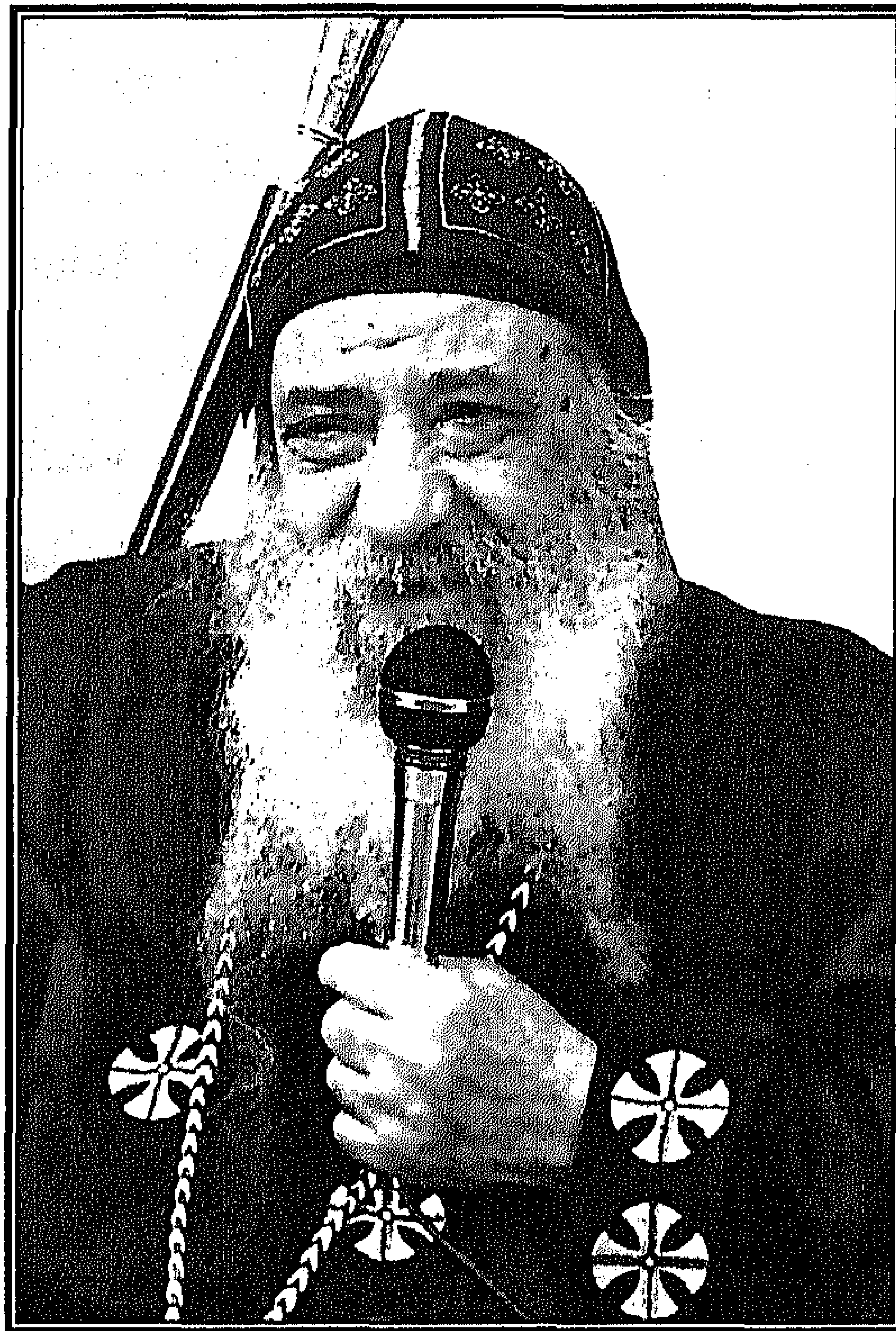
يشفق عليك من السهر. ويدعوك إلى النوم. حرصاً على صحتك. ولكنه لا يفعل ذلك إن سهرت في اللهو أو في وسائل الترفيه المُتنوّعة.

إن شفقة الشيطان ونصائحه لك بالراحة. ليست نصائح مخلصة. ولا هى صادقة. ولا أمينة.

***الشيطان أيضاً نهّاز للفرص**

***وله أيضاً حيل عديدة جداً**

لست أرى هذا المقال يتسع لها. فإلى اللقاء في فرصة أخرى. إن أحبت نعمة الرب وعشنا.



٢٠٠٢/١٢/٣١

بدء عام جديد

يا إخوتي الأحباء. لو كانت أعوام حياتكم تتنافس فيما بينها. فأي عام من هذه الأعوام يكون أفضلها؟

لا تتعبوا أنفسكم في فحص الماضي. إنما ليت هذا العام الجديد يكون هو الأفضل. ويكون هو العام المثالي.

ليت هذه السنة الجديدة - التي نحن على أبوابها - تكون أحسن سنوات العمر. وأكثرها قبولاً عند اللّه والناس.

وليتنا نقول هذه العبارة في كل عام جديد يطل علينا.

وكما يدرّب البعض أنفسهم على يوم مثالي. يقضونه في أجمل وضع روحي واجتماعي.

هكذا فليكن لنا تدريب العام المثالي. ونجعل كل يوم من أيام هذا العام يوماً مثالياً. وكل ساعة منه فلتكن أيضاً ساعة مثالية.

***

ليت اللّه - تبارك اسمه - يكون في بدء عامنا. نبدأ العام به. ويكون أول من نتكلم معه في هذا العام. لكيما يباركه...

في منتصف ليل ٣١ ديسمبر. ينقضي عام ٢٠٠٢ ويبدأ عام آخر. فما أجمل أن تبدأ أول ساعة منه مع اللّه.

نشكره على أنه قد وهبنا عاماً جديداً...

ونطلب منه المغفرة على كل ما أخطأنا به في العام الماضي.

ونطلب البركة لأنفسنا وأهلنا وأحبائنا. وللمجتمع الذي نعيش فيه. ولوطننا العزيز وللعالم أجمع.

وأمنياتنا في العام الجديد. فلنقدّمها إلى اللّه نفسه. لأنه هو القادر على تحقيقها وليس نحن...

***

وقبل كل شيء. فلنشكر اللّه على كل إحساناته إلينا وإلى كل أحبائنا ومعارفنا. لأنه ليست موهبة بلا زيادة. إلاّ التي بلا شكر.

أقول هذا. لأن غالبية الناس يطلبون كثيراً. بينما قليل منهم هم الذين يشكرون! ولكن الشكر ينبغي أن يسبق الطلب...

فلنشكر اللّه الذي أحيانا إلى هذه الساعة.

ولنذكر كل إحساناته إلينا واحدة فواحدة. وما أكثرها...

ولا نريد أن يتعجب الملائكة منا. ويقولون: ما هذا الشعب الناكر الجميل. الذي أعطاه اللّه كذا وكذا... ولم يشكر على شيء! بل هو باستمرار دائم الطلب. دون شكر!

***

هذا العام الجديد. هو صفحة بيضاء في حياتنا. لم نكتب فيها شيئاً بعد. ترى ما الذي سنكتبه في هذه الصفحة من صفحات تاريخنا؟

أترانا سنرضي اللّه في هذه السنة المُقبلة. وننفّذ مشيئته. ونكون أفضل حالاً ممّا كنا عليه فيما سبق؟

هل ستكون كل دقيقة من دقائق هذا العام دسمة ومُثمرة. ومملوءة بالخير والبركة. لنا وللآخرين؟ أترانا سنحرص على كل دقيقة تمرّ من عمرنا. وتكون كل ساعة من حياتنا ثمينة في نظرنا. لا نعمل فيها إلاّ كل عمل صالح. من أجله نستحق الحياة؟...

هل نعتبر أنفسنا مجرد وكلاء على هذه الحياة التي نحياها؟

فحياتنا ليست ملكاً لنا. إنما هى ملك للّه الذي وهبنا إياها. ونحن قد تسلمناها منه. لنكون أمناء عليها. وسنقدّم عنها حساباً أمامه...

***

إن الوقت المملوء بالخير. هو الذي سيُحسب من عمرنا.

هو الوقت الحي في هذا العمر. أمّا الأوقات التي لا تُستغل في الخير. فهى ميتة. لا تُحسب في الحياة. بل قد تميت غيرها معها!

فعلى ذلك أسألكم: كم هى الأوقات التي ضاعت من عمركم. ولم تُحسب لكم؟ وكم هى الأوقات المحسوبة من عمركم. الحية المُثمرة؟

كم هى سنوات حياتكم الحقيقية على الأرض؟

انظروا إلى حياتكم. وليسأل كل منكم نفسه: كم ساعة من العمر كانت خيرة مُثمرة نيّرة؟ وكم ساعة كانت على غير ذلك؟ كم ساعة قضيناها مع اللّه؟ وكم من الوقت قضيناه بعيداً عنه؟

ليتنا نواجه أنفسنا في صراحة وصدق ونسألها: كم هو الوقت الذي كان لنا في عمرنا؟ وكم هو الوقت الذي كان علينا وضدنا؟

***

وبهذه المناسبة. إنني أعجب ممّن يبحث عن طريقة لقتل الوقت!!

إن الذي يقتل الوقت. إنما يقتل حياته. لأن حياته هى هذا الوقت. مثل هذا الإنسان الذي يبحث عن طريقة يقضي بها وقته حتى يمر الوقت عليه بلا ملل.. مثل هذا الإنسان لا يشعر بأن هناك قيمة لحياته! إنه يعيش بلا هدف. وبلا رسالة.

حياته رخيصة في عينيه. لأن وقته رخيص في عينيه. لذلك يبحث عن طريقة يقتل بها هذا الوقت الرخيص. الذي لا ثمن له!

بينما هناك أشخاص. كل دقيقة من حياتهم لها قيمتها ولها وزنها. بل انهم يبحثون عن الوقت فلا يجدونه... لأن أهدافهم أكبر بكثير جداً من سعة وقتهم وقدرته...

***

بل هناك أبطال في التاريخ. كانت حياتهم قصيرة. ولكنها غالية.

وهناك من قضوا أوقاتهم بجدية. فنموا نمواً مبكراً...

وهناك من عاشوا حياة مثالية. قدّموا فيها صورة للإنسان النابغ. وصورة للإنسان النافع. وقاموا برسالات عظيمة. كانوا فيها قدوة لغيرهم ومثالاً.

وقيست حياتهم بمفعولها وليس بطولها. وكان مفعولها عجيباً

بل إن عملاً واحداً قام به أحد هؤلاء الكبار. سجله التاريخ له بحروف من نور. كان عملاً خالداً: لا يقاس بالوقت الذي تم فيه. إنما بتأثيره في أجيال وأجيال من بعده.

مثال ذلك إنتاج فكري لا يزال العالم ينتفع به. أو اختراع نافع من إنتاج أحد المُخترعين. استفاد به العالم حتى بعد موت مُخترعه ... كانت أوقات كل هؤلاء بركة للبشرية كلّها ...

***

حقاً! إن مقاييس الوقت. تختلف في طولها وعمقها

إن ساعات قليلة من حياة إنسان. قد تكون أطول وأعمق في مفعولها من عمر كامل لإنسان آخر. سواء من جهة الخير أو الشر. من جهة النفع أو الضرر...

وأنت هل وقتك صديق لك أم عدو؟

هل هو لك أم عليك؟ هل تكسب فيه الحياة أم تخسرها؟ هل تنمو فيه روحياً وعلمياً. أم ترجع فيه إلى الوراء؟ اسأل نفسك..

هل مرّ عليك وقت قلت فيه في ندم عن أحد أيامك: ليت هذا اليوم لم يكن من حياتي! فمشاكل عمري كله هي من نتاج هذا اليوم. الذي فيه ضيّعت عمري بتصرفي ما..!

ومن الناحية الأخرى: هل مرّ عليك وقت آخر. كان له تأثيره الجميل في حياتك. وفي حياة الناس أيضاً؟

هناك أشخاص كانت حياتهم بركة لأجيالهم.

لدرجة تجعل بعض الناس يقولون: "لقد عشنا في زمن فلان. عشنا في جيله وعاصرناه". مثل هذا الشخص أعطى جيله شهرة ما واسماً.. فهل أنت هكذا: يفرح الناس أنهم عاشوا في أيامك وأنهم عاصروك وتأثروا بك؟

هل لك تأثير في جيلك؟ أو على الأقل في دائرة معينة منه: في بلد ما. أو عمل ما؟ أو في تخصص ما؟ وهل وجودك كان له تأثيره وفاعليته وبركته؟ هل حياتك تركت بصماتها على غيرك أم أنك مررت على جيلك كأن لم تكن. لم يشعر بك أحد؟!

كثيراً ما يرتبط الجيل بشخص ما. ويتسمى باسمه:

وذلك على كافة المجالات: كما نقول في الأدب الإنجليزي عصر شكسبير. وكما نقول في السياسة عصر نابليون. أو في الفلسفة عصر سقراط أو عصر أفلاطون. أو نقول في الموسيقى: عصر بتهوفن. أو نقول في الفن: عصر مايكل أنجلو. أو نقول في الأدب العربي: عصر شوقي وحافظ...

كان لكل واحد من هؤلاء عمر مميز. وعمل مُميّز. وطابعه الذي ألقاه على عصره. فتميّز العصر به: إمّا الجيل كله. أو أحد عناصر ذلك الجيل.

ربما لا يعرف البعض اسم بابا روما الذي عاش في زمن مايكل أنجلو. ولكن ربما يصفونه بأنه الذي عاصر مايكل أنجلو.

وهناك أشخاص آخرون عاشوا وكأنهم لم يولدوا!

قضوا فترة على الأرض - وربما كانت سنوات طويلة - وكأنهم غير موجودين! كأنهم لم يعيشوا!. إذ لم يستفد جيلهم شيئاً من وجودهم. ولم يحدثوا تأثيراً ولو ضئيلا. حتى في الدائرة الضيقة التي عاشوا فيها.

كان وقتهم بلا ثمر. لم يستغلوه لمنفعتهم. ولا لمنفعة أحد. لذلك صارت حياتهم فراغاً. ولم يهتم التاريخ بهم. ولا العالم الآخر أيضاً.

أمّا أنتم. فاحذروا أن تكونوا من هذا النوع. وضعوا في أنفسكم في بداية هذا العام. أن تكون حياتكم نافعة.

***

في مناسبة عام جديد. اجلسوا كل واحد إلى نفسه. يُحاسبها

يُحاسبها: ماذا فعلت؟ وماذا ينبغي أن تفعل؟

وهل في حياته ما ينبغي أن يغيره أو ما يصححه؟ وهل هناك فضائل معينة تنقصه في حياته. ينبغي أن يقتنيها؟ وكيف؟

ما أكثر ما ينشغل البعض بحفلات رأس السنة. وبرامجها والإعداد لها. بحيث يكونون في انهماك ولقاءات واهتمامات. لا تعطيهم فرصة على الإطلاق للجلوس إلى أنفسهم. وربما في تلك البرامج يسمعون محاضرات عن أهمية الجلوس مع النفوس. دون أن يكون لهم وقت يخلون فيه إلى أنفسهم . يفصحون أين هُم؟ وماذا عليهم أن يفعلوا لكي يكونوا في حالة أفضل ممّا هم عليها.

***

ليس العام الجديد. هو مجرّد عام جديد في التقويم السنوي.

إنما ينبغي أن يكون جديداً في الحياة: في تقييمها. وفي تقويمها.

إنها ليست عُمق الأهمية أن ننتقل من عام ٢٠٠٢ إلى عام ٢٠٠٣. فهذا شيء طبيعي لا نبذل فيه مجهوداً. إنما المهم أن تكون لنا جلسة تخطيط للمستقبل بالنسبة إلى العام الجديد. فنخرج بخطة عملية. ومنهج حياة. في كل تصرفاتنا. وفي كل علاقاتنا مع اللّه ومع النفس. ومع الناس. في جو من الصراحة الكاملة.

أقول هذا. لأن غالبية الناس يعيشون في دوامة الحياة. لا يعرفون فيها أين هم؟ وكيف

يسيرون؟ وإلى أين؟ يسلّمهم الأمس إلى اليوم. ويسلّمهم اليوم إلى غدي. وهم في متاهة الأمس واليوم وغد. لا يفكرون: إلى أين؟ إنهم يعيشون في غيبوبة عن روحياتهم وعن أبديتهم..

***

وبداية عام جديد. هى مناسبة هامة للجلوس إلى نفسك

حاسب نفسك. بكل دقّة. وبضمير صالح. وبلا مجاملة لذاتك. واحكم على نفسك في كل ما أخطأت فيه. وأقمها من سقطاتها. واذكر عبارة ذلك المرشد الروحي الذي قال: أُحكم يا أخي على نفسك. قبل أن يحكموا عليك.

حاسب نفسك على الخطايا المُتكرِّرة في حياتك والتي كادت تصبح عادة لك أو طبعاً. ولا تحاول أن تبرِّر ذاتك أو تلتمس لنفسك عذراً في كل خطأ وقعت فيه. إنما بالأكثر فكّر في العلاج حتى لا تخطيء مرة أخرى.

أن نفسك معك كل حين. وأنت تعرف كل ضعفاتها وتعرف أسباب سقطاتك ونفسك تقبل منك التوبيخ والإصلاح فافعل ذلك في بداية هذا العام.

***

حاول أن توجه كل طاقاتك توجيها سليما. للصالح...

وأن تكتسب طاقات أخرى ربما تنقصك حالياً. وضع في نفسك أن تنمو باستمرار في ثقافتك وفي حسن تدبيرك وفي شخصيتك بصفة عامة وأن تكون ناجحاً في حياتك ومتفوقاً في نجاحك.

واهتم بنقاوة قلبك ولا تكن حياتك باستمرار عبارة عن صراع مع الشر وكيف تنتصر فيه بل لتكن حياتك ثباتاً في الخير ونموا فيه. والجأ في كل ذلك إلى الصلاة لكي تأخذ معونة من اللّه تقويك في كل ما تريد عمله من الخير.

***

وليتنا نصلّي في بدء هذا العام أن يكون عام سلام

نقول هذا والحرب تهدد العراق والاحتلال يهدد الفلسطينيين والمجاعات والايدز تشكل خطراً على إفريقيا والانحلال الخلقي والفكري يزحف في كثير من بلاد الغرب والبطالة تتعب كثيراً من شباب العالم وغير ذلك من الشرور... فنطلب من اللّه أن يتدخل بنعمته وقوّته وصلاحه مُشفِقاً على العالم مُدبراً له ما يصلحه. وكونوا جميعكم بخير.

٢٠٠٣/١/٧

الأعيـــاد

أهنئكم يا أبنائي وإخوتي الأحباء بعيد رأس السنـة.

راجياً من اللّه أن يهبنا عاماً سعيداً. يكون مُباركاً علينا جميعاً. وعلى بلادنـا المحبوبـة مصر. وعلى الشرق الأوسط والعالم كله..

ونطلب إليه أن يهبنا في هذا العام الجديد أن نرضيه فيه وبقوة إلهية من عنده. أن ننتصر على ضعفاتنا. وأن نحيا حياة البر. نحب الخير. ونحب الغير. ونبعد عن كل شر وشبه شر. وأن نضع اللّه أمامنا في كل ما نفعله. وفي كل ما نقوله. بحرص شديد ألاّ نخطئ إلى أحد.

وليكن بدء العام عيداً جديداً. نبدأ فيه حياة صالحة. ونفرح ليس فقط بالعيد. بل بالصلاح الذي نسلك به فيه.

* * *

إن الأعياد هى أيام فرح.. واللّه يريد لنا أن نفرح..

وهو - تبارك اسمه - عندما خلق الإنسان. إنما خلقه للفرح. ولذلك بعد خلقه. وضعه في جنة هى جنة عدن. وأحاطه فيها بكل ألوان البهجة. ولم يدعه معوزاً شيئاً..

وحتى بعد أن تنتهي أيام حياة الإنسان على الأرض. قد أعدّ اللّه للإنسان البار فرحاً في العالم الآخر. هو النعيم الأبدي. الذي لا يحدّ في نوعيته. ولا في مدته.. وطلب اللّه منّا أن نعدّ أنفسنا لهذا الفرح الذي في السماء بالأعمال الصالحة وحياة البر. حتى ندخل إلى ذلك النعيم عن استحقاق. فالسماء لا يدخلها أحد من الأشرار.

* * *

والأعياد التي يفرح بها الناس. هى على أنواع:

منها أعياد وطنية يشترك فيها كل أبناء الوطن الواحد معاً.. وأعياد دينية في مناسبات دينية مُعيّنة.. كذلك توجد أعياد اجتماعية. وأعياد شخصية...

ونحن في مصر لنا أعياد وطنية نحتفل بها جميعاً

منها عيد الثورة. وعيد الجلاء. وعيد النصر في حرب أكتوبر. وعيد الجندي المجهول حيث يضع الرئيس أكاليل الزهور على قبر ذلك الجندي رمزاً لكل الجنود الذين بذلوا حياتهم لأجل الوطن..

ولكل بلد من بلاد العالم لها أعياد وطنية خاصة بها. لعلّ من أهمها أعياد الثورة. وأعياد الحرية. وأعياد الاستقلال. وأعياد الدستور.. ويفرح الوطن كله بالعيد الوطني. وأحياناً- كمظهر للفرح- تُرفع الأعلام. وتُطلق المدافع.

ومن الأعياد الوطنية عيد جلوس رئيس الدولة وتوليه منصبه. وفي أيام الملكية. كانت مصر تحتفل أيضاً بعيد ميلاد الملك وغالبية الدول تجعل أيام الأعياد الوطنية عطلة رسمية.

والأعياد الدينية. تختلف في كل دين حسب عقائده

فهناك مثلاً أعياد خاصة بالمسلمين وحدهم. وأعياد خاصة بالمسيحيين وحدهم. وأعياد خاصة باليهود وحدهم. وأعياد مشتركة ومن الملامح الهامة لعهد الرئيس محمد حسني مبارك انه جعل عيد الميلاد "٧ يناير" في مصر. عطلة لجميع المصريين مسيحيين ومسلمين وفي الواقع ان المسلمين يؤمنون دينياً بميلاد السيد المسيح. بل يؤمنون دينياً أيضاً بميلاده من العذراء مريم. وقد وردت قصة ميلاده العذراوي في أكثر من سورة من سور القرآن. كما ورد أيضاً تبشيره بالإنجيل. وهكذا يصبح احتفالهم بميلاد المسيح يتفق مع دينهم الإسلامي. ولا يتعارض معه.

* * *

عكس ذلك تماماً. مع اليهود الذين لا يؤمنون بمجيء المسيح!

لا يؤمنون بميلاده على الإطلاق. ولا بميلاد المسيح من عذراء. وربما يعتقدون أن المسيح في مجيئه. سيأتيهم كقائد ينصرهم في الحروب. من نوع شمشون أو جدعون.. وليس كشخص ينشر الحُبّ والسلام!! ومن هنا. فإن اليهود - من جهة ميلاد المسيح ومجيئه - يختلفون تماماً عن المسلمين والمسيحيين معاً.

ومن هنا أيضاً كانت استهانتهم بكنيسة المهد. واعتداءاتهم على مدينة بيت لحم حيث ولد المسيح. وعرقلتهم للاحتفالات بعيد الميلاد هناك. ذلك لأنهم لا يعتقدون أن المسيح قد وُلِدَ حتى الآن. وأصبحت المُقدّسات الخاصة بميلاده ليست مُقدّسة في نظرهم!

والمسيح - كما يدعونه المسيا - لن يكون في نظرهم مُخلصاً روحياً إنما - حسب اعتقادهم - الخلاص الذي ينتظرونه. هو "خلاص من أعدائنا. ومن أيدي جميع مبغضينا"..!

* * *

ومن هنا كان القرار الذي أصدره الرئيس مبارك الخاص بيوم ٧ يناير. إنما يعلن ضمناً أن المسلمين والمسيحيين في ناحية. واليهود في ناحية أخرى.. من جهة ميلاد المسيح

وحينما يقف المسيحيون والمسلمون معاً يوم ٧ يناير. في موقف التهنئة والفرح بميلاد المسيح. يقف اليهود بعيداً وهم يصيحون: كلا إن المسيح لم يولد بعد. والمسيا لم يأت حتى الآن! وكل الذين احتفلوا بميلاده منذ ألفي عام - وحتى الآن - هم على خطأ ونحن اليهود فقط على صواب!!

وكنيسة المهد في بيت لحم. لماذا أطلق عليها لقب "المهد"؟ مهد من؟ أليس مهد المسيح؟ ولكنهم لا يؤمنون بذلك.

لذلك لم يفرحوا بميلاد المسيح. ولم يسمحوا للرئيس ياسر عرفات أن يشترك مع مواطنيه المسيحيين في ذلك الفرح.

* * *

ننتقل إلى الأعياد الاجتماعية. وهي كثيرة:

يمثلها بالنسبة للمصريين جميعاً يوم شم النسيم. حيث يسميه البعض أيضاً عيد الربيع. ويحتفل به الكل في الحدائق.. كان يشبهه في القديم من ناحية أخرى عيد "وفاء النيل".. ومن الأعياد الاجتماعية أيضاً في مصر: عيد الأم. أو عيد الأسرة. ويأتي في بداية الثلث الأخير من شهر مارس "٢١ مارس" ويتبارى فيه الأبناء في تكريم أمهاتهم عرفاناً بجميلهن ومحبتهن. ويقدِّمون لهن التهاني والهدايا..

وحبذا لو وُجد عيد اجتماعي آخر باسم عيد الطفولة.. وفي أمريكا يوجد عيد اجتماعي باسم "عيد الشكر". وعيد اجتماعي آخر بإسم "عيد الحب".. وعند اليهود يوجد "عيد الحصاد". وقد كتب عنه في التوراة وهو بالإضافة إلى كونه عيداً اجتماعياً. هو أيضاً عيد ديني.

الأعياد الشخصية هى كثيرة أيضاً. تختص بكل فرد على حدة: كأن يحتفل كل شخص بعيد ميلاده. ويوقدون له شموعاً بعدد سني عمره. وينشدون له قائلين "سنة جميلة يا.." ويهنئونه. ويكون يوم ميلاده مجالاً لتقديم الهدايا أو باقات الزهور كذلك كثير من الأزواج. يحتفلون بعيد زواجهم.. هذا طبعاً إذا ما بقيت العلاقات طيبة بين الزوجين على مرّ السنين.. ومن الأعياد الشخصية احتفال طالب الجامعة بيوم تخرجه. وكثير من الجامعات الأجنبية تعطي هذه المناسبة صفة أعمّ. وتسمي ذلك اليوم "يوم الخريجين" تحتفل بهم جميعاً وتدعو إليه عائلاتهم معهم ويمكن للطالب أن يكرره كل عام على مستوي أسرته.

وهناك مناسبات هامة جداً في حياة كل إنسان. يفرحه أن يحتفل بها كعيد. ولو في محيط أسرته وأصدقائه..

* * *

هناك أعياد أخرى خاصة بالهيئات والنقابات

ولعلّ من أبرزها في مصر "عيد العمال". ومع أنه خاص بالعمال. إلاّ أنه أصبح عيداً وطنياً تحتفل به مصر كلّها. ويصبح يوم عطلة. وتقام فيها الاحتفالات التي يرأسها رئيس الجمهورية. ويلقي فيها كلمة.. وبالإضافة إلى عيد العمال بصفة عامة. نجد أن لكل نقابة من النقابات عيداً خاصاً يحتفل به أعضاؤها. وفي مصر أيضاً عيد لكل محافظة من المحافظات. يكون مجالاً لسرد انجازاتها وأنشطتها. والإعلان عن ذلك في الصحف. وإقامة الاحتفالات وتلقي التهاني. مع إبراز ما تقوم به كل هيئة في المحافظة على حدة. والجرائد كذلك والصحف تحتفل بأعيادها. كما احتفلت جريدة الجمهورية بعيدها الخمسين. وتلقت التهاني من كافة الشخصيات والهيئات.

* * *

وكما تحتفل الجرائد والمجلات بعيد تأسيسها كذلك تحتفل كثير من الهيئات بعيد تأسيسها أيضاً

ولعلّ أبرز ما تم في العام الماضي. الاحتفال بإعادة تأسيس مكتبة الإسكندرية. وقد دُعي إلى ذلك الاحتفال الكثير من رؤساء الدول ومن كبار الشخصيات. وكان مجالاً للحديث عن المجد القديم لمكتبة الإسكندرية وللثقافة المصرية. وما حواه الاحتفال من كلمات هامة. ومن مشاركة لرجال الفن بقطع مُعينة كذلك الاحتفال بمرور سنوات على تأسيس المتحف المصري وما أكثر الجمعيات والهيئات التي تحتفل بيوم تأسيسها.

إن الأعياد - على تنوعها - مناسبات يشترك الناس فيها في الفرح

هـى مجـال للاجتمـاع معـاً. وتقـديم أو تبـادل التهـاني. سـواء علـى مسـتوي الأسـرة. أو الجماعة. أو النقابة. أو المحافظة. أو على مستوى الوطن كله أو قطاع منه..

وهـى مجـال لتبـادل العواطـف وكلمـات المودة.. فهـى إذن رابطـة اجتماعيـة لهـا فائـدتها. وفيها ينسي الناس أحزانهم. ويبعدون عن أسبابها وظروفها. ويعيشون في جو آخر له متعته وذكرياته هى لون من "تغيير الجد" أو استبدال صورة بصورة أو الحياة في فترة مُعيّنة. لها طابعها المبهج. ينتقل إليها النـاس من روتين الحياة العادي إلى إطلالة على جو فيه إثارة مُمتعة لكل من الفكر والقلب. تترك آثارها في المستقبل أيضاً.

* * *

والأعياد لها مظاهرها غير العادية. ولها استعداداتها

تشعر أثناءها أن المجتمـع قد تميز بصـورة خاصـة تناسب العيد.. فالأعياد الوطنيـة لهـا اجتماعاتهـا وخطبهـا. وأحيانـاً لهـا مواكبهـا. ولهـا أعلامهـا. وطلقـات مـدافعها. وقـد يكـون لهـا استعراضـات معينـة.. وتأخذ فيها وسـائل الإعلام لونـاً جديداً من البرامج سواء فـي الجرائد أو المجلات أو الإذاعة أو التليفزيون تبرز أهمية العيد وأحداثه وذكرياته..

أمّا الأعياد الدينية. فلها صلواتها وتسابيحها. ولها بهجتها وبخاصـة بالنسبة إلى الأطفال في ملابسهم الجديدة. وفي متعهم البسيطة وملاهيهم. وفي أصواتهم وضوضائهم. ومرحهم ولهوهم. ولهذه الأعياد برامجها أيضاً في وسائل الإعلام. ممّا يستعد له الفنانون قبل موعده بمدة طويلة..

والأعيـاد الخاصـة لهـا بسـاطتها وفرحتهـا. فـي محيط العائلـة والأصـدقاء. ولهـا روابطهـا القلبية. وتبادلها بين المحبين.

والأعياد تتنوع بين الجدية والقدسية واللهو

أعياد الدولة لها جديتها. ولها أهدافها السامية. وبالإضافة إلى ما يقال فيها من كلمات هامـة. أو تصريحات رسمية. قد تكون أيضـاً فرصـة لتوزيع بعض الأوسمة أو الجوائز. كما يحدث مثلاً في حفلات الجيش أو الشرطة في أعيادها الرئيسية.

ونفس الجدية نجدها في أعياد المحافظات والنقابات ودور العلم وما أشبه. وقد يُوزع فيها أحياناً درع المحافظة أو درع النقابة أو درع الكلية على المُتميّزين من المدعوين وكذلك

أعيـاد التأسـيس. وأعيـاد الخـريجين. وأعيـاد العمـال وكـل تلـك الجديـة لا تخلـو مـن الفـرح بالمناسبة. وما يُمنح فيها.

* * *

على أن هناك أعياداً. عنصرها الأساسي هو المرح واللهو

لأنه لو صبغتها الجدية الكاملة. لفقدت فرحها وبهجتها.. وفيها يضحك الناس من كل قلوبهم. ويفرحون معاً. وتشترك معهم وسائل الإعلام في تقديم وسائل للمرح.

إنما ينبغي أن يكون كل ذلك في إطار اللياقة والمسموح به. ولا يخرج عن حدّه. فليس الخطأ في الفرح. إنما في التجاوز والتسيب.. ونحن ننتهز فرصة أفراح الأعياد. لكي نهنئ الجميع. ونرجو لكم من الرب حياة سعيدة.



٢٠٠٣/١/١٤

من حيل الشياطين

ما أكثر حيل الشياطين! إنها لا تنتهي.. إن لم تصلح حيلة منها. يستبدلها بغيرها. وبثانية وثالثة.. إلى أن يصل إلى غرضه. وليست هناك خطة واحدة أمامه لتوصّله.. بل هو يتخذ لكل وضع ما يراه مُناسباً. دون أن يتقيّد بشيء.

على أنه من أشهر خططه الواضحة المُتكرِّرة. بضعة أساليب صارت معروفة ومحفوظة. نذكر من بينها ما يأتي.

****

خطية تلبس ثوب فضيلة

ما أسهل أن يُقدِّم لك الشيطان بعض الخطايا بأسماء غير أسمائها.

بأسلوب يسهل قبوله. بحيث تلبس الخطايا ثياب فضائل..!

فالدهاء يُسمِّيه بِاسم الذكاء. وكذلك المكر والتحايل والتهكم على الناس والاستهزاء بهم. يُقدِّمه على اعتبار أنه لطف وظرف. ومحبة وعدالة. ومحاولة للترفيه..!

ويقدِّم لك القسوة في معاملة أولادك أو إخوتك الصغار. باسم التأديب والتربية والتقويم. ويجعل ضميرك يوبخك إن لم تؤدبهم!

والتزيُّن غير اللائق والتبرُّج. يُقدِّمهما لك بِاسم الأناقة والنظافة!

وبهذا الشكل ما أسهل على الشيطان أن يُسمِّي الرقص فناً!

ويسمّي الصور العارية والماجنة فناً أيضاً.. وتحت اسم الفن يَخفي الشيطان كثيراً من الخطايا والعثرات. لا تستحق هذا الاسم الجميل.

***

إن الشيطان لا يُقدِّم الخطية مكشوفة. لئلاّ يرفضها الإنسان

بل يجعلها مُختفية وراء اسم مقبول. وهى هى. ولا فارق.

يقول إنني سأدخل مع هذا المخلوق البسيط في حرب مُسمّيات. لكي أُسقطه فيما أريد من الخطايا. ربما دون أن يشعر.. أو قد يشعر. ولكن ضميره لا يُبكِّته.

لو أنني قدّمت له الرياء. ومحبّة المظاهر. ومحبّة مديح الناس. بهذه الأسماء المُنفِّرة.. لكان يرفضها جميعاً بلا شكّ. ولكنّني سأدعوها جميعاً بِاسم آخر هو تقديم القدوة الحسنة. والوسيلة العملية للفضيلة!

ليس من "الحكمة" أن يُسمّي الشيطان الخطية خطية. لأنه بذلك يكشف أوراقه. ولا يصل إلى هدفه.

***

الكذب يمكن أن يُقدِّمه الشيطان تحت اسم "الحكمة"!

يُلقيه في عقل الإنسان وقلبه كنوع من حُسن التصرُّف. أو إنقاذ الموقف. والطبيب قد يكذب على المريض من جهة نوع مرضه. ويُسمّي ذلك أمام ضميره "حفظ معنويات المريض". وعدم صدمه بالحقيقة المُرّة. لئلاّ ينهار نفسيّاً. وليس هذا في صالح علاجه!

وهناك من يُسمّون بعض أنواع الكذب بالكذب الأبيض!

وربما يسمّون الكذب في أول أبريل. بِاسم الفكاهة والدعابة والتندر!

والكذب في مجال المحاماة. يعتبرونه بذل كل الجهد في إنقاذ المتهم. أو يعتبرونه إخلاصاً لِمَنْ وكّلهم. أو هو جزء من سر المهنة!

كذلك الكذب في مجال البيع والشراء. يختفي وراء اسم الشطارة والمهارة. والخبرة في شئون التجارة.

***

إن إلباس الخطية ثوب الفضيلة. يجعل الناس يستمرون فيها

فليس فقط من جهة الماضي. لا يتبكّت الإنسان من ضميره. وإنما أيضاً من جهة المستقبل. يستمر الخاطئ فيما هو فيه. وقد يتحول الخطأ إلى عادة. بسبب هذا الخداع من الشيطان.

ولنأخذ البخل كمثال: إن الشيطان لا يسميه بخلاً. وإلاّ ما كان أحد يقبله. ولكنه يقدمه بِاسم آخر. وهو "حسن تدبير المال". أو "حفظ المال لحاجة المستقبل". أو يسميه "عدم التبذير". أو "عدم الإسراف"!.. وإذا أراد أن يمنع غنيّاً عن أن يدفع للفقراء. يقول له: ليس من الخير أن تعلمهم التسوّل. أو أن تعوّدهم التشرد والتواكل! إن عدم إعطائهم هو حكمة وعين الحكمة. لكي يبحثوا عن عمل. ولكي يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم حسب وصية الرب!

إن الشيطان يقدّم الاستنساخ على أنه طفرة من طفرات العقل. وأنه لون من النمو في العلم. ونتيجة لتطور المعرفة!

وإن وقف رجال الدين يعارضون الاستنساخ. يقولون لهم:

من العار أن تقفوا ضد العقل والعلم. كما حدث في العصور الوسطي. فسميت بالعصور المظلمة..! اتركوا العقل ينطلق بكل قدراته. وسوف ترون في طاقاته عجباً!

احترسوا إذن يا إخوتي من التبريرات المضللة. ومن المسميات الخاطئة. ولا تسمحوا للشيطان أن يخدعكم. فإن الخطية هى الخطية. مهما اختفت وراء اسم آخر. أو وراء تبريرات وتعليلات!

كذلك احترسوا من حيلة أخرى يستخدمها الشيطان وهى:

***

تحطيم فضيلة لاكتساب غيرها

إن الشيطان يتضايق من فضائلك الثابتة التي صارت وكأنها من طبيعتك. لذلك يحاول أن يحطمها بكل وسيلة وبكل حيلة.

وإذ لا يستطيع أن يقول لك "اترك هذه الفضيلة" فإنه يغريك بفضيلة أخرى. يحاول بها أن يحطم ما هو ثابت عندك من الفضائل!

مثال ذلك: إنسان يحيا في وداعة وهدوء وسكون. وفي سلام مع جميع الناس. ويريد الشيطان أن يبعده عن كل هذا. فماذا يفعل؟

أتراه يقول له: اترك طبعك هذا المحبوب من الكل!! كلاّ. بلا شك. ولكنه يقدم له فضيلة بديلة وهى إصلاح المجتمع والدفاع عن الحق..

ويصوّر له أنه سوف يصير بطلاً يعجب الناس بجرأته!

وفي هذه الفضيلة الجديدة. يعلّمه كيف يثور على المخطئين. ويكشفهم. ويوبّخ أعمالهم أمام الكل. ويقتنع هذا "الضحية" المسكين. ويظل يكشف ويوبخ وينتهر. ودون أن يشعر يتحول إلى القسوة والتشهير. لأنه لا يعرف الأسلوب الروحي في الإصلاح. وبدون أن يدري يجد نفسه قد فقد حياة الوداعة والهدوء التي كان يحياها من قبل.. فقد فضيلة ثابتة. ليكتسب أخرى لا يعرف السلوك فيها!!

وهكذا يفقد وداعته ورقته ودماثة خلقه. ويكره الناس ويكرهونه!

ثم ما يلبث أن يتعب من أسلوبه الجديد الذي لا يتفق مع هدوء طبعه. ويحاول أن يرجع إلى حاله الأول. ولكنه لا يجد قلبه نفس القلب. ولا فكره نفس الفكر! بل يري أنه قد فقد بساطته ونقاوة قلبه وفكره. كما فقد حسن علاقته مع الآخرين. وفقد أمثولته الصالحة التي كان ينتفع بها غيره!

لقد أطمعه الشيطان في فضيلة لا يعرفها. وأفقدته فضيلته الطبيعية. فما احتفظ بالأولى. وما كسب الثانية. وصار في بلبلة!

حقاً. إن العمل الصالح لا يهدم بعضه بعضاً. ولكن كل إنسان له شخصيته التي قد تختلف عن غيره. وقد لا يناسبه ما يناسب غيره.

***

مثال آخر: إنسان يعيش في عفة وفي نقاوة قلب. مُبتعداً عن كل ما يدنِّس فكره سواء من الخلطة الخاطئة أو من القراءات والمناظر..

هذا الإنسان العفيف الطاهر. يريد الشيطان أن يحاربه. ولكنه لا يستطيع أن يُقدِّم له ما يعثره بطريقة مكشوفة. فماذا يفعل؟

يفتح أمامه الباب. ليكون مرشداً روحياً يقود الشباب إلى الطهر.

إذ كيف يعيش في حياة العفة وحده. ويترك أولئك المساكين يسقطون كل يوم. ولا يقدم لهم مشورة صالحة تنقذهم مما هم فيه؟! ويظل به يقنعه حتى يقبل هذه الخدمة الروحية الحيوية ويقبل أن يرشد هؤلاء. وأن يستمع إلى مشاكلهم وأخطائهم. ويقدم لهم حلولاً.

ويظل هؤلاء يصبون في أذنيه أخبارهم وقصص سقوطهم ويستمع "المرشد الطاهر" إلى كل ما كان يبعد عن سماعه. ويعرف ما كان لا يحب أن يعرفه. ويقدم كل منهم صورة من قصص نجاساته.

***

وعن طريق الإرشاد يجد صاحبنا عقله. وقد امتلأ بصور دنسة!!

وأصبح يعرف أشياء صارت تشوّه طهارة فكره. وتدنسه بأخبار وقصص "ذكرها أيضاً قبيح"! وحتى إن كانت هذه كلها لا تثير فيه انفعالات خاطئة. فعلى الأقل ستنجس فكره. وكأنه قد قطف أثماراً غريبة من شجرة معرفة الخير والشر. وهذا ما أراده الشيطان له.

وإن حاول أن يبتعد. يقال له: وما ذنب هؤلاء الشبان إذ تتخلي عنهم فيرجعون إلى سقطاتهم؟! وقد يكونون قد تعلقوا بهم. وأصبحوا يلحون عليهم ألا يتركهم. وهى في حيرة ما بين سعيه إلى نقاوة فكره. وحرصه على هداية غيره.

وما أدرانا: ربما يسقط هذا الأخ المرشد. ولو بالفكر والقلب!

***

ويشبه هذه الصورة حيلة يلجأ إليها الشيطان في مجال الإلحاد..

إنسان مؤمن يحيا في بساطة الإيمان وفي ثقته. يُلقي الشيطان في طريقه بمجموعة من الملحدين أو من أصحاب البدع يحتاجون إليه من جهة شكوك تتعبهم. لكي يرد عليها ويقوي إيمانهم.

وتتوالى هذه الشكوك عليه: بعضها من فلسفات معقدة لا تؤمن بوجود اللّه. وبعضها من رجال العلم. وبعض من اختراعات حديثة. كلها تريد حلاً. ويبدأ إيمان هذا المرشد يتحول شيئاً فشيئاً من بساطة الإيمان. وقبول ما قد تسلمه من قادته الدينيين. إلى الفكر والبحث العلمي.. وقليلون من يحتفظون بالأمرين معاً.. ويجد الشكوك تتكاثر عليه. مما قد سمعه. وما يضيفه الشيطان إليه من شكوك..

وينبغي أن نعرف أنه ليس كل أحد له القدرة على الإرشاد فالذين لهم هذه الموهبة. لا يصيبهم ضرر من سماع المشاكل الروحية والخطايا الجسدية. ولا من المشاكل العقيدية وسماع الشكوك.

غير أن الشيطان قد يُغري بالإرشاد من ليست لهم هذه الموهبة.

***

حيلة أخرى من حيل الشيطان هى:

التشكيك

إن الشيطان يزرع الشكوك في كل مجال من مجالات الحياة. لأن الإنسان في حالة الشك يكون ضعيفاً قد يقدر الشيطان عليه..

*** فهو مثلاً يغرس الشك من جهة التوبة**

سواء من جهة إمكانية التوبة. أو قبول اللّه لها...

فهو يُصوّر للإنسان أنه ليس من السهل عليه أن يتخلص من خطاياه. التي صارت طبعاً له. أو صارت محبوبة لديه جداً لا يمكنه الاستغناء عنها. وإذ يغرس فيه ذلك. يخفي عنه معونة اللّه ونعمته..

أمّا إن صمّم الإنسان على التوبة. فإن الشيطان يُشكِّك في قَبُول اللّه لتوبته. إمّا لأنها أتت بعد فوات الفرصة. أو لأنها توبة غير حقيقية. أو لأن خطاياه بشعة من الصعب مغفرتها.

وغرض الشيطان من هذا أن يلقي التائب في اليأس. ليستمر كما هو.

***

وقد يغرس الشك في أسلوب الحياة الذي يتخذه

هل في استمرار تلقي العلم والحصول على شهادات أعلي. أم في العمل والنجاح في مشروعات خاصة هى أفيد له من الدراسات العليا؟!

وهل الأصلح له الزواج الآن. أم التريث ريثما تتاح فرصة أفضل؟ وهل التقدم ليكون شريك الحياة هو المختار من اللّه أم غيره؟

بل قد يغرس الشيطان الشك ما بين الزوج وزوجته. وما بين رئيس العمل ومرؤوسيه. وما بين الشريك وشريكه. وما بين الصديق وصديقه.. يشكك في كل تصرفات الناس. ونياتهم ومقاصدهم وكل ذلك لكي يزعزع صلات الناس ببعضهم البعض. ويثير الانقسام والنزاع. ويضيع الحُبّ الذي هو عماد الحياة الاجتماعية والروحية كلها!

حتى الأمور التي يمكن أن تمر بسهولة. يعقدها الشيطان بشكوكه العديدة. وقد يخلق منها مشاكل عويصة. لكي لا يتم أي عمل نافع!

****

والشيطان قد يشكك في الإيمان ذاته. وفي العقائد وقد يشكك في الفضيلة وفي منفعتها. وإمكانية الحياة بها.

لذلك لا تقبل شكوكه في داخلك. ولا تعطها مجالاً لتستمر.

ولتكن لك ثوابت في حياتك لا تقبل المناقشة ولا الشك.

وأرجو أن أحدثك عن الشكوك في مناسبة أخرى. بتفاصيل أكثر.

٢٠٠٣/١/٢١

من حيل الشياطين "١"

تحدّثنا في المقال السابق عن ثلاث حيل من حيل الشياطين ونتابع اليوم حديثنا عن حيلهم فنذكر منها أيضاً:

التخدير

حينما يكون الإنسان في وعيه الروحي متنبها وواضعاً أمامه المثل والقيم والمبادئ السامية التي ينبغي عليه أن يسلك فيها حينئذ يكون من الصعب أن يسقط ولذلك قال واحد من الآباء الروحيين: أن الخطية يسبقها إمّا الشهوة أو الغفلة أو النسيان..

وحالة الغفلة أو النسيان هى نوع من التخدير قد يلجأ إليه الشيطان فينساق الإنسان إلى الخطية كأنه ليس في وعيه!

ولذلك في بداية الندم والتوبة يقال: "ولما رجع هذا الشخص إلى نفسه حزن أو ندم على كل ما فعل" وعبارة "رجع إلى نفسه" تعني انه لم يكن وقتذاك في وعيه أو على الأقل لم يكن في كامل وعيه طوال فترة السقوط ولهذا لما رجع إلى نفسه اخذ يفكر بأسلوب آخر يختلف من أسلوبه أثناء سلوكه في الخطيئة..

* * *

الشيطان يخدر الإنسان بحيث ينسي كل شيء ماعدا الخطية

فالزاني والمرتشي والسارق والقاتل وما أشبه.. تكون كل حواسه وأفكاره ومشاعره مركزة في خطيته وحدها في شهوة الجسد او شهوة المال أو شهوة العظمة. أو مشاعر القسوة أو الحقد.. أمّا كل ما عدا ذلك فلا يحس به على الإطلاق وكأنه قد نسيه تماماً تماماً.. ينسى شرفه وكرامته وينسى كل وصايا اللّه وكل المبادئ والقيم وينسى وضعه في المجتمع وينسى إمكانية ضبطه وينسى حُكم القانون وحُكم المجتمع عليه وينسى مستقبله وسمعته وينسى عبادته واحتراسه ينسى كل شيء ويكون كأنه مخدر تماما خدره الشيطان بالشهوة ولذتها وإغراءاتها بحيث أصبح لا يعي شيئاً غير ذلك!!

* * *

ولا يفيق إلاّ بعد السقوط أو بعد مرات من السقوط..

بعد أن يكون كل شيء قد انتهى وقد ضيّع نفسه!.

وقد لا يفيق إطلاقاً ويستمرّ سادراً في غية إلى أن يوقظه غيره بأن يُضبط ويقع في يد القانون أو ينكشف بطريقة ما ويفقد سمعته وكرامته أو يفقد صحته أيضاً وإرادته كما يحدث للمُدمنين! هناك من يَفيق ويتوب.. وآخر يَفيق بعد فوات الفرصة! وهناك من لا يود أن يَفيق هو سعيد بحالة الغفوة أو التخدير التي هو فيها كنائم في حُلم جميل لا يود أن يستيقظ منه.

قد خدّر الشيطان ضميره وسَلب إرادته وألقاه في دوامة يدور فيها ولا يعرف كيف يخرج منها.. وقد لا يدرك ما هو فيه!

* * *

هنا وأود أن أُقدّم لكم صورة لهذا الخاطئ في غفلته:

تصوّروا كرة تتدحرج من فوق جبل عالٍ:

كرة ألقيت من فوق الجبل فظلت تتدحرج تباعا في اندفاع مستمر من فوق إلى أسفل.. وهى لا تملك ذاتها لتقف وتقول أين أنا؟ إنما هى تتدحرج وتتدحرج بلا فكر بلا وعي بلا حس بلا إرادة.. قوة الدفع تجذبها باستمرار إلى أسفل خطوة تسلمها إلى خطوة ودحرجة تسلمها إلى دحرجة بلا هوادة وهى لا تعرف إلى أين يقودها كل هذا؟ ولا تشاء أن تقف أو لا تستطيع أن تقف ولكن إلى متى؟

* * *

إلى أن تصل إلى القاع أو الهاوية أو تتحطم في الطريق أو قد يصدمها حجر كبير في انحدارها يعترض طريقها ويوقفها ويقول لها: إلى أين أنت ذاهبة؟ إلى متى تتدحرجين؟ أفيقي إلى نفسك استيقظي هذا الانحدار المتتابع يقودك إلى الضياع.

فتقف وتنظر فتجد أنها هبطت كثيرا عن مستواها السابق هكذا الخاطئ الذي خدره الشيطان وأغراه وألقاه إلى أسفل يحتاج أن يفيق وان يستيقظ وقد يوقظه أحد مُحبّيه أو احد الدعاة إلى الخير أو توقظه نعمة اللّه التي تقود إلى التوبة وليحذر مثل هذا الإنسان من أن يستمر مُخدّراً بالخطية إلى أن تصبح عادة يعسر عليه اقتلاعها من نفسه.

ويجب أن يفيق بتوبة حقيقية ويحذر من أن يحوّله الشيطان إلى اليأس!

* * *

من حيل الشيطان أيضاً:

المفهوم الخاطئ للحرية

الشيطان يشنّ على العالم الآن حرباً فكرية ويريد أن يهزّ المبادئ
ويهدم القيم والتقاليد وما تسلّمه الناس عبر الأجيال.

ويريد أن يدخل في صراع مُسمّيات ويقدّم مفاهيم جديدة وتياراً عاماً مُخطئاً. كل من لا يسلك بمفاهيمه يهاجمه المجتمع ويتهكم عليه حتى أصبحت كثير من المسلمات موضع جدل ونقاش مع اتهام كل من يتمسك بالتقاليد بأنه رجعي أو متخلف أو "دقة قديمة" غير مُتحضّر كما لو كان كل القديم سبه ينبغي التخلص منها وهكذا يشكك الناس فيها كلها!

* * *

أعطى الشيطان في جيلنا مفهوماً منحرفاً للحرية..!

بهذا المفهوم يقنع الإنسان بأنه حرّ يفعل ما يشاء ويعتنق ما يشاء من الأفكار والعقائد وينشرها بلا أي ضابط على الإطلاق مهما كانت تلك الآراء أو المعتقدات أو التصرفات خاطئة ومهما كانت خطرة على المجتمع!!.

والمعروف أن الحرية المطلقة لا يوافق عليها أحد. بل الذي يوافق عليه الكل هو الحرية المنضبطة.

فالإنسان له أن يُمارس حريته. بحيث لا يعتدي على حريات وحقوق غيره. وبحيث لا يُسيء إلى المجتمع ولا يحطّم ما فيه من قِيَم وأخلاقيات..

أمّا أن يُمارس حريّة بلا شروط ولا تحفُّظات. فإن هذه الحريّة ستكون حينئذ مجالاً للإباحية والاستهتار. ومجالاً للانحراف الفكري. دون ضابط!

وإن كان اللّه قد منح الإنسان حريّة. فإنه وضع له إلى جوارها وصايا يُنفّذها. كما أن اللّه سيُحاسب الإنسان على مدى استخدامه لهذه الحرية. ويُعاقبه إن كان قد أساء بها إلى نفسه أو إلى غيره.

* * *

والحريّة المُطلَقة التي يدعو إليها الشيطان. لها أخطار سلوكية وعقائدية

فالأخطار السلوكية نذكر كمثال لها الحرية التي أراد أن يسلك بها الهيبز والبيتلز في أمريكا. وبعض الوجوديين الملحدين. بحيث لا مانع لديهم من أن يسيروا عراة في الطريق العام. أو أن يُمارسوا الجنس بلا خجل ويخدشوا حياء المجتمع. أو أن يشربوا الدم!!

ومثال آخر لهذه الأخطاء: كل المناهج الإباحية التي تدفع المجتمع دفعا إلى الفساد. زعما بأن الإنسان من حريته أن يفعل ما يشاء!

وهذا خداع من الشيطان. لأن الحرية الحقيقية هي أن يتحرر الإنسان من الداخل من الأخطاء: يتحرّر من الشهوات والرغبات الخاطئة. ومن العادات المسيطرة عليه التي تفقده حرية إرادته. أمّا إذا استمر الشخص بتحقيق نزواته بِاسم الحرية فماذا ستكون النتيجة؟

* * *

حتماً إن العالم المستعبد لنزواته وانحراف غرائزه. سيصل حتما إلى كراهية اللّه الذي يقف ضد هذه النزوات. وهذه هي خطة الشيطان الماكرة!

من هنا كان الوجوديون يقولون "من الخير أن اللّه لا يوجد. لكي نوجد نحن"!!.. إنهم يعتبرون اللّه عدواً لهم. لأنه يحدّ حرياتهم ويمنعهم عن ممارسة شهواتهم الخاطئة.. فبدلا من ان يصححوا انحرافهم ويصيروا انقيا نراهم يتمسكون بتلك الشهوات ويعادون اللّه بسببها! بل وجدنا طوائف من أولئك المنحرفين ينادون بعبادة الشيطان!! وهذا أقصى ما تصل إليه انحرافات الحرية من الناحية العقيدية والبعض من الذي يستمر مُتمسّكاً بالدين يحاول أن يفسر بعض النصوص حسب هواه لتتفق مع نزعاته العنيفة وهذا انحراف عقيدي آخر.

وكنتيجة لسوء استخدام الحرية يقف الشيطان ضد السلطة بصفة عامة ونقصد السلطة التي لا تقبل انحراف الحرية فتمنعه وتعاقب عليه.

فهو يحارب سُلطان الأب في الأسرة دفاعاً عن حماية شخصية الأبناء! وهو يحارب سلطة المعلم في الكلية والمدرسة لخلق جيل قوي! ويحارب أيضاً سُلطة الدولة بِاسم الديمقراطية وحقوق الشعب بل يحارب أيضاً سلطة اللّه لكي يشعر المنحرف بحريته ووجوده! فالشيطان - في إغراءاته - لا يريد - بِاسم الحرية - أن يوجد أي رقيب على الإنسان يضبط الأخطاء ويقومها وهو في ذلك يشجع كل أحد أن يفعل ما يعجبه ويعتقد ما يشاء من الأفكار

وينشرها وان وقفت ضده سلطة من أي نوع يهاجمها بكل الوسائل بل يهاجم نفس مبدأ السُلطة عموماً! وتكون النتيجة هى التسيُّب والانحراف وهذا بعض من حيل الشيطان!

* * *

وسيلة أخرى من حيل الشياطين وهى:

حرب اليأس

اليأس وسيلة يلجأ إليها الشيطان بعد مُقدِّمات طويلة تمهيدية.

* ربما تكون هذه المُقدِّمات هى سقطات متتالية يوقع فيها ضحيته بلا هوادة حتى يصرخ قائلاً: لا فائدة في من الصعب على جداً أن أحيا في حياة الفضيلة أنها مستحيلة تليق بالملائكة لا بالبشر !!

* وربما تكون مُقدِّمة اليأس هى سقطة كبيرة جداً مثل سقطة يهوذا وخيانته يشعر بعدها أنه لا مغفرة!

* وقد تكون مُقدِّمة اليأس قراءات كثيرة عن السمو الهائل لحياة البر بمستويات يشعر القارئ لها أنه من المستحيل عليه أن يصلها أو حتى يقترب منها والأفضل له أن يبتعد يأساً عن الطريق الروحي!

من عادة الشيطان إمّا أن يضخم من الخطية حتى يوقع صاحبها في اليأس او انه يكبر من مستويات الفضيلة حتى يشعر من يسعي إليها بصعوبة الوصول!

وهو ماكر جداً في كل أساليبه: قبل وبعد الخطية قبل السقوط يسهل موضوع الخطية جداً حتى لتبدو شيئاً عادياً ويضع لها مُبرِّرات! أما بعد السقوط فإمّا أن يستمر في سياسة التهوين والتبسيط لكي يتكرر السقوط وإما أن يدخل في أسلوب التهويل لكي يوقع صاحبها في اليأس ويقول له: هل من المعقول أن يغفر اللّه خطية مثل هذه؟! أو أن يقول للخاطئ: هل تظن من السهل عليك أن تترك هذه الخطية أو تتخلّص منها؟! وهكذا يوقعه في اليأس.. وبمثل هذا المنطق يتعامل مع المُدمنين ومع الفتيات الساقطات!.

* * *

اليأس يُشعِر الإنسان بعدم إمكانية التوبة!

يقول له الشيطان: وقت التوبة قد انتهى موعده. إن الخطية قد صارت تجري في دمك محبّتها أصبحت فوق طاقة مقاومتك. إن إرادتك قد انحلّت وعزيمتك قد انتهت بل حتى مجرد الرغبة في ترك هذا الطريق لم تعُد موجودة عندك، بل قد صارت لك ارتباطات أخرى كثيرة بآخرين لا يمكنك الفكاك منهم ولا هُم يتركونك.. كم مرة أردت أن تتوب وفشلت؟! وكم مرة حاولت ورجعت كما كنت بل وفي حالة أسوأ؟!

وهكذا يُحطِّم معنوياته إلى أن يستسلم له ويتوقف عن المقاومة.. بل إنه يقول له: هوذا قد وصلت إلى المستوى الذي لا تريد فيه التوبة ولا تحاول.. لقد صرت بكليتك في يدي أنقلك من هذه اليد إلى الأخرى بكل سهولة كما أشاء، فلا داعي إذن إلى صراع فاشل لا تكتسب منه شيئاً.

* * *

وطبعاً كل هذه تخاويف لا أساس لها وتهديدات زائفة!

فإن اللَّه قادر بتدخُّل من نعمته أن يمنح الإنسان التوبة مهما كانت حالته سيئة، والتاريخ يحكي لنا قصصاً عن كثير من الخاطئين والخاطئات قد تابوا وتغيّرت حياتهم تماماً إلى العكس.

ومع ذلك فكلّما سقط الإنسان يُحاول الشيطان إلقاءه في اليأس ويوهمه بأن سقوطه هو انهيار دائم وليس سقوطاً عارضاً! بينما نعمة اللَّه باستمرار تفتح أمام الخُطاة طاقة من نور وتشعِرهم بأن التوبة مُمكنة مهما كانت حالتهم وإنهم حتى إن كانوا قد وصلوا إلى الوضع الذي لا يريدون فيه التوبة.. فإن اللَّه يريدها لهم..

* * *

إن كنت ماشياً في الطريق الروحي. ووقعت فلا تظن أنك لا تعرف المشي وتيأس بل قُم وأكمل سيرك.

إن الشيطان يحسد خطواتك نحو اللَّه ويريد أن يعرقلها فلا تدفعك عراقيله إلى اليأس، قم إذن بقوة أكثر واعرف أنه لولا نجاحك ما كان الشيطان يحسدك ويحاربك.. واعرف أن اللَّه يرقب سعيك ويُعينك بل كلّما سقطت سيقيمك.

٢٠٠٣/١/٢٨

الأنــا "الــذات" الــ Ego

إن أقدم عدو. وأخطر عدو. حارب البشرية هو الذات. فالشيطان لا يُحاربك. بقدر ما تحاربك ذاتك.

المشكلة الكبرى هى الذات. فالذي ينتصر على ذاته من الداخل. يستطيع أن ينتصر من الخارج على العالم وعلى جميع الشياطين. والذي تهزمه ذاته ويضعف أمامها. يمكن أن يقع في أية خطية.

ولذلك فالإنسان المنتصر على ذاته. يكون منتصراً في كل حرب روحية. وما دامت ذاته لا تخونه. ولا تفتح أبوابه للأعداء. فلا يهمه أي عدو خارجي.

***

ولعلّ إنساناً يسأل: ألاَ تأتي عثرة من الخارج: إغراء مثلاً؟ أو إثارة. أو ضغوط. أو محاربة من أي نوع؟

نقول إن الحروب الخارجية تأتي. وكذلك العثرات. ولكن لا سُلطان لها عليك. السُّلطة هى لإرادتك. المرجع الأخير هو ذاتك. هل أنت في داخلك تقبل الإغراء أو العثرة. أو لا تقبل؟ وهل تخضع للضغوط الخارجية أم لا تخضع؟ هل أنت تصمد أمام الحرب الخارجية. أمْ لا تصمد؟ ذاتك هى الحكم.

إن يوسف الصديق تعرض لإغراء شديد من الخارج. من امرأة سيده. ولكنه لم يسقط. لأنه كان رافضاً للخطيئة في داخل قلبه. فلم يقبل الإغراء وانتصر على العثرة.

***

كل ما يفعله الشيطان. هو أن يُقدِّم لك اقتراحات من عنده. ولكنه لا يرغمك على الخطيئة...

إذن الوقوع في الخطيئة سببه الذات. وليس التركيز على الإغراءات الخارجية وحدها. التي هى مجرد عروض تقبلها الذات أو ترفضها.

حقاً إن شدة هذه الإغراءات وكثرة إلحاحها. قد يسبّب ضعف الذات من الداخل. فتستسلم أخيراً وتسقط.. ويكون ضعف الذات هو السبب المباشر. أمّا الإغراءات والعثرات فهى أسباب غير مباشرة.

ولهذا فإن الذات القوية من الداخل. تبعد عن الإغراءات الخارجية حتى لا تؤثر عليها فتضعف أمامها. والهروب من هذه الإغراءات يكون دليلاً على نقاوة الذات ورفضها للتأثير الخارجي الخاطئ.

ولذلك حسناً هرب يوسف الصديق من ضغوط سيدته. ولم يكن هروبه دليل ضعف. بل كان برهاناً على قوته الداخلية الرافضة للخطية.

***

الذات النقية ترفض حتى الفكر الخاطئ. وليس فقط الإغراءات الخارجية.

إنها ترفض أن تتفاوض مع هذا الفكر. إنما تطرده بسرعة. حتى لا تعطيه فرصة للاستقرار. وفرصة لإضعافها من الداخل.

وقوة الذات تأتي هنا. في غلق أبواب الفكر وأبواب القلب أمام كل اقتراح خاطئ من الشياطين.

ولقد صدق المثل القائل: أنت لا تستطيع أن تمنع الطير من أن يحوّم حول رأسك. ولكنك تستطيع أن تمنعه من أن يعشش في شعرك.

من الجائز إذن أن يتعرض أي شخص للحروب الخارجية الروحية. إنما المهم هو: ما موقف الذات من كل ما تتعرض له؟ أو ما مدى استجابة الذات أو رفضها لكل ذلك؟

قد تقابل في يوم من الأيام شخصاً يقول لك كلاماً مثيراً:

ولكن المهم هو: هل أنت من الداخل ستنفعل وتثار؟ أم أنك ستكون أقوى من الإثارة؟ وهذا الكلام الذي يكون مُثيراً لغيرك. لا يكون مثيراً لك. إنما تقابله في هدوء ورصانة وحكمة.

إن الذات - في طريق الخير - تتعرض لكثير من الاختبارات.

تُختبر فيها نقاوتها وقوتها. ومدى صمودها أمام المثيرات. فهل ذاتك تسندك في الطريق. أم تقف ضدك؟

لقد صدق ذلك الأب الروحي الذي قال: إذا اصطلحت مع ذاتك. تصطلح معك السماء والأرض.

أي إن استطعت في داخلك أن تقيم صُلحاً بين جسدك وعقلك وروحك. بحيث يسير الثلاثة في طريق واحد هو طريق الروح. فلا يشتهي الجسد ضد ما تشتهي الروح... حينئذ تصطلح معك السماء والأرض. فلا تخطيء إلى اللّه. ولا إلى الناس. ولا إلى نفسك.

***

ولكن لعلّ إنساناً يقول إنه يحب أن يسعد ذاته على الدوام.

وهنا نسأل: هل محبة سليمة للذات. أم محبة خاطئة؟

وما هى المحبة الحقيقية للذات؟ هل معناها أن الإنسان يُدلّل ذاته. ويعطيها كل ما تطلب وكل ما تشتهي؟ وهل محبة الذات تعني مدح الذات وتمجيدها وتفضيلها على جميع الناس.

إن من يفعل هذا أو ما يشابهه. إنما يحب ذاته محبة خاطئة.

فالمحبة الحقيقية للذات. هى أن تسيّرها في طريق الخير. وتوصّلها إلى طاعة اللّه وإلى محبّته وإلى ملكوته. وأن تضمن لها مصيرها الأبدي.

والمحبة الحقيقية للذات. هى أن تؤدب هذه الذات إن هى أخطأت. وأن تقوّم طريقها كلما انحرفت. وإن أدّى الأمر أن تعاقبها. وأن تقف ضد رغباتها الخاطئة وتمنعها عنها.

***

فالذات قد ترغب أحياناً. أن تعيش في حياة اللذة: سواء كانت لذة جسدية أو حسية. أو لذة بالعالم وشهواته...

وهنا تكون ذات الإنسان حرباً عليه. ويكون واجبه حينئذ أن يقف ضدها بكل قوة. وأن يخضعها لطريق الحق. ولا يساعدها على ما تريد. وفي هذا المجال تبدو فضيلة ضبط النفس.

بل هذا ما يسمّى بالجهاد الروحي. أي جهاد الإنسان في داخله مع نفسه. أو صراعه مع ذاته إذا سلكت في طريق لا يرضاه. أو أرادت أن تسلك وهو يقاومها. ويمثل ذلك قول أحد الأدباء:

"وكنت خلال ذلك أكافح نفسي وأجاهد. حتى كأنني اثنان في واحد. هذا يدفعني. وذاك يمنعني".

***

ومن الحروب الداخلية التي يتعرض لها الإنسان. محاولة الذات في أن تكبر ولكن بطريقة خاطئة. أو ما يسمّى بشهوة العظمة.

تريد الذات أن تكون كبيرة من الخارج وليس من الداخل. أعني كبيرة بالمظاهر الخارجية: من محبة المناصب والألقاب. والغنى والشهرة ومديح الناس. وكل هذه أمور لا علاقة لها بطبيعة النفس ونقاوتها. ولا بالصفات الإنسانية الرفيعة التي للنفس من نبل وسمو حقيقي.

وربما الإنسان - في السعي وراء هذه المظاهر الخارجية - يقع في ما يتعارض مع الضمير الحيّ. وتتدنى نفسه لكي تصل!! بينما الإنسان النبيل يرتفع عن هذه المستويات. ولا يضحّي بالجوهر الحقيقي للنفس في مقابل مظهر خارجي تافه.

***

ومن مظاهر محبة هذه العظمة ما يسمّونه بعبادة الذات. أو عشق الذات. أو النرجسية.

إذ يرى الإنسان ذاته جميلة في عينيه باستمرار. ويريدها كذلك أن تكون جميلة في أعين الناس. رائعة كاملة بلا عيب ولا نقص..!

ويكون إنساناً باراً في عيني نفسه "وحكيماً في عيني" نفسه! كما لو كان يؤمن بعصمة ذاته. أو بأنه لا يمكن أن يخطئ بالقول أو في السلوك. ويريد أن يعترف له الناس بهذا الكمال!

إنه إنسان مُعجب بذاته. كمَنْ يحب باستمرار أن ينظر إلى مرآة. ويتأمّل محاسنه! ويدهش إن كان بعض الناس لا يرونه على هذه الصورة في كمالها وحكمتها.

***

مثل هذا الإنسان المعجب بذاته. يحب مديح الناس له.. ويحب من يمدحه. ويكره من لا يعترف بأمجاده ومزاياه!

والذي يحب المديح. لا يكتفي بمديح الناس. بل يتطور إلى أن يتحدث كثيراً عن نفسه. ويمتدحها أمام الآخرين!

وفي حديثه عن نفسه. لا يكون عادلاً. فهو لا يذكر حقيقة ذاته كاملة. إذ يتحدث عن محاسن ذاته وانتصاراته ومواقفه الجليلة. وفي نفس الوقت يخفي ما في هذه الذات من العيوب. وإن أظهر له شيئاً من هذه العيوب. يحاول أن يُبرِّرها ويدافع عن نفسه.

إنه يسعى إلى كرامة من الناس. ومع ذلك فإن أسلوبه هذا. قد يجعله موضع نقد الكثيرين. وكما قال أحد الآباء:

من سعى وراء الكرامة. هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة. سعت وراءه. وأرشدت الناس إليه.

***

إن تكبير الذات - للأسف الشديد - وصل بالبعض إلى التأله!!

وقد شاهدنا هذا - في التاريخ القديم - في عبادة الفراعنة. وفي التماس إرضائهم كآلهة. وفي عبارات الإطراء والتمجيد التي تقال لهم. ولا تليق إلا بالآلهة..!

وسواء سعى الشخص إلى هذا التأليه. أو قبوله ذلك إذا ما عومل به. أو ادعاؤه العصمة في كل ما يقول وما يفعل!

والبعض قد يسمّي محبة الذات هذه. بالسعي إلى تحقيق الذات!

وقد يصل بهٔ الأمر إلى الصلف والكبرياء. وإلى العناد.

ويرفض كل ما يقف ضد تحقيق ذاته. وكل من يظن أنه يقف ضد تحقيق هذه الذات. بل أن الوجوديين رفضوا اللّه نفسه. باعتبار أن وجود اللّه يعطل وجودهم. أو أن وصايا اللّه لا تحقق ذواتهم في رغباتها وشهواتها وكبريائها..! وقالوا في تهكماتهم: ليكن اللّه في السماء. وليترك لنا الأرض نحيا فيها كما نشاء..!

وفلاسفة آخرون رفضوا اللّه. مُدعين أنه يعيش في برج عاجي. لا يهتم بمشاكل الناس واحتياجاتهم. ولا يحقق لهم ذاتهم!!

وعموماً كل من يجعل هدفه مجرد تحقيق الذات. لا بد أن يصطدم بمن لا يساعده على أن يحقِّق له ذاته.

***

أيضاً الحرية المُطلَقة التي تطلبها الذات. هى حرب من الحروب التي تتعرض لها الذات. وقد تهدف إلى الإباحية. وتنتهي إلى الإلحاد!

إن التدخين والمُخدِّرات والمسكرات. والإدمان بصفة عامة. وراءه الذات التي تريد أن تعيش في جو خاص. أو أن تتمتع بلذة خاصة. أو أن تغيب عن ذاتها. وتسبح في خيالات ما دام الواقع لا يرضيها.

والزنا والدعارة وكل أنواع الدعارة. وراءها الذات أيضاً.

والتبرُّج والعري وراءهما الذات أيضاً التي تريد أن يعجب الناس بما لها من جمال وحُسن وجاذبية!

والحرب التي تشنها دولة على أخرى. وراءها الذات أيضاً: الذات التي تريد أن تثبت عظمتها وقوتها. أو الذات التي تريد أن تفرض سيطرتها. أو التي تريد أن تكسب الأراضي والخيرات!!

***

الذات أيضاً تقف ضد تنفيذ وصايا اللّه والتمتع بعشرته.

كما تقف ضد محبة الناس وخدمتهم كذلك.

* الذي يكسل ولا يصلِّي. ولا يذهب إلى بيت اللّه للعبادة. إنما يدفعه إلى ذلك رغبة الذات في الراحة. أو رغبتها في إشغال وقتها في مهام أخرى. أو في بعض المتع للذات!

* الذي لا يدفع من ماله للّه وللفقراء. إنما يهدف إلى أن يستخدم هذا المال من أجل ذاته. ويفضل ذاته على اللّه وعلى مساعدة الفقراء وإيفاء احتياجاتهم.

* والذي لا يصوم. إنما يفضل إشباع ذاته بالطعام على إطاعته لوصية اللّه. وكذلك من يأخذ من الصوم شكلياته وينسى روحياته.

* ونفس الوضع بالنسبة إلى كل من يفرّط في إنقاذ غيره من خطر يلمّ به. حرصاً على سلامة ذاته هو شخصياً.

ويعوزني الوقت إن تحدّثت عن كل الأخطاء التي تختفي وراء الذات ومُتطلباتها.

***

بقي أن أقول أن هناك أموراً أخرى تتعلق بالذات. منها: الشعور بالذات. والإشباع الخاطئ للذات. وعلاقة الذات بالتعامل مع الآخرين. وموضوع إنكار الذات. وأمور أخرى.

فإلى اللقاء في العدد المُقبل. إن أحبّت نعمة الرب وعشنا.

٢٠٠٣/٢/٤

الذات وإنكار الذات

محبة الذات تقف حائلاً منيعاً ضد حياة البذل والعطاء:

مثال ذلك كل المصابين بالبخل والتقتير. والذين لا يدفعون حق اللّه في أموالهم من أجل إنفاقه على الذات واللذات. غير أن المحب لذاته قد يعطي. ولكن في حدود معينة محدودة لا تصطدم بذاته ورغباتها. وهو قد يعطي من فضلاته وليس من أعوازه وحتى في خدمة الآخرين - إذا وافق على خدمتهم - لا يعطيهم إلا من فضلات وقته. كما يعطي الفقراء من فضلات ماله أو مقتنياته.. إنه حريص جدا على ما يخص ذاته ويلزمها. وفي سبيل ذلك لا يبالي باحتياجات الآخرين. ولا يشعر بدافع إنساني في داخله يدفعه أو يرغمه على إعانتهم.

***

ومهما أعطي. فإنه يعطي من خارج ذاته. ولا يمكنه مُطلَقاً أن يبذل ذاته. أو يضحّي بذاته من أجل غيره.

ولا يمكنه أبداً أن يفتدي غيره بنفسه. وإذا وجد خطراً يلحق به إذا ما دافع عن غيره. يضع حداً لدفاعه أو يمتنع عن ذلك. لأن ذاته هي الأهم في نظره! حقا ما أبعد محبة الذات عن التضحية وعن الفداء. وعن الاستبسال في بذل الذات من أجل الآخرين.

إذا كان الأمر هكذا. فماذا نقول عن الاستشهاد؟

المحب لذاته لا يستطيع أن يقدم على الاستشهاد. لأن نفسه عزيزة عليه. ولهذا كان من صفات الشهيد أنه يتخلص أولاً من محبة الذات ومن الاهتمام بمثل هذا الاهتمام الباطل الذي يعوق بذلها لأجل غيرها.

***

الإنسان المُفكِّر لذاته - حينما يُعطي - إنما يُعطي خير ما عنده.

ذلك لأنه لا يحب الخير لذاته. بقدر ما يحب الخير للغير. والمعروف أن المحبة لا تطلب ما لنفسها. المحبة المنكرة لذاتها. هي مثل الشمعة التي تذوب لكي تضئ للآخرين. ومثل حبة البخور التي تتقد وتبذل ذاتها. لكي تقدم رائحة عطرة لمن حولها..

المحب لذاته لا يمكنه أن يعطي خير ما عنده. بل يحتجزه لنفسه. أمّا الذي ينكر ذاته. فمن أعمق الأمثلة له: الأم التي تعطي كل ما تستطيع إعطاءه لطفلها. الذي من أجله تبذل كل ما عندها لإسعاده. ولا تفكّر إطلاقاً في نفسها أمام احتياج طفلها.

أمّا أسوأ ما في محبة الذات - في مجال العطاء - أن يعطي الإنسان شيئاً. ثم يندم على ذلك فيسترجعه!

***

الإنسان المُحب لذاته. يجد أحياناً أنه لا بد أن يقف ضد الآخرين. لإثبات ذاته وتفوقه. وأول خطوة في ذلك هى المنافسة:

المنافسة إن كانت مباراة في النفع العام. بحيث يتنافس الكل في خدمة المجتمع. حينئذ تكون المنافسة خيراً.. أمّا إذا كانت محاولة لتحطيم الآخر. لإثبات التفوّق عليه. فهنا تظهر الذات ومعها عدم محبّة الآخرين. حسن أن يتبارى الجميع في التفوّق. أمّا أن يكره شخص من يتفوّق عليه. ففي هذه الحالة تظهر خطورة محبة الذات.

هنا تقود الذاتية إلى الحسد والغيرة وإلى الكراهية إنها الغيرة الطائشة التي تريد أن يصل إليها وحدها كل شيء. ولا يصل إلى غيرها شيء!!.. إنها الأنانية التي تريد بها الذات أن تكون هى وحدها التي تكبر. والتي تملك! وهى وحدها التي تتفوق والتي تمدح وهى التي تسلط عليها الأضواء ولا تسلط على غيرها. وإلاّ...

وإلاّ تبدأ الذات حرباً على كل من يُنافسها. أو حتى على كل من يسير في نفس الطريق معها!!

إنها مشكلة الذات التي تريد أن تكبر وحدها. وفي ذلك تثير جوّاً ضد من يعمل في نفس مجالها. دون ما عيب فيه. ودون أن يقترف ذنباً ضدّها. أو ضدّ غيرها!.. كل عيبه هو تفوقه!!

إنها مشكلة المتفوقين في كل مجال. ممّن يحسدهم على تفوقهم!

وليس سهلاً على هؤلاء المتفوقين أن يمتنعوا عن التفوق. إذا كان الحُسّاد يتضرّرون من تفوّقهم! ما ذنب البلبل الغريد إن كان صوته أجمل من صوت ذلك الصقر المتوحش؟!

***

وتشبه مشكلة المتفوقين. مشكلة الذين يحظون بمديح الناس وتقديرهم. ممن يريدون احتكار المديح لأنفسهم وحدهم!

لا يكتفي المُحب لذاته بأن يحب مديح الناس واهتمامهم به. بل أخطر من هذا. أنه يريد أن يكون الوحيد الذي هو موضع الاهتمام والاحترام والمديح. وبالتالي يقوده هذا الشعور إلى مُعاداة كل شخص في مجاله يتمتع بتقدير الآخرين.

ومن هنا تأتي الصراعات بين أصحاب المهنة الواحدة. أو الذين يعملون في نشاط واحد. أو يتنافسون على رئاسة.

بمحبة الذات ينظر كل منهم إلى الآخر بعين نقادة. يبحث له عن عيوب تنقص من قدره ومن قدراته لكي ينشرها.

***

الذي يقع في محبة الذات. لا يمكن أن يأتي بالعيب على نفسه. وإنما باستمرار يلقي بمسؤولية أخطائه على غيره.

إذا دخل إلى امتحان ورسب فيه: فإمّا أن الأستاذ الذي وضع الأسئلة كان قاسياً في أسئلته. وإمّا أن المصحح لم يكن رحيماً في تصحيحه! وإمّا أن اللّه لم يسنده في الامتحان. على الرغم من كل الصلوات التي رُفعت إليه!

ولذلك فإنه يرى نفسه مظلوماً باستمرار. فهو إمّا أن يصل إلى غرضه. إمّا أنه دائماً يسخط ويتذمّر ويشكو.

يشكو والديه. ويشكو المجتمع. ويشكو الزمان الذي يعيش فيه. ويشكو معاملات الآخرين. ويشكو أسباباً عديدة لعدم وصوله إلى غرضه. وينتقد كل الذين وصلوا وأساليبهم التي ارتفع عن مستواها! أمّا ذاته. فهي الوحيدة التي لا يشكوها. والوحيدة التي بلا عيب!

***

من أجل هذا. فهو لا يجاهد ليصلح أي عيب فيه. لأن ذاته تبدو أمامه بلا عيب!!

وهكذا إذ تستمر متاعبه. ويستمر عدم إصلاحه لنفسه. فإنه بالتالي يستمر في شكاواه التي لا تنتهي.. إن كان رئيساً لعمل. يشكو من أخطاء مرؤوسيه. وإن كان مرؤوساً يشكو رؤساءه وزملاءه. وإن كان ولا واحد من هؤلاء قد أخطأ. حينئذ يشكو من الأنظمة واللوائح والقوانين! المهم أنه يدافع عن نفسه إن وقع في خطأ. ويحاول أن يغطيه. إمّا بالكذب.

أو بتبريرات عديدة. أو بإلقاء التبعة على غيره أو يقول إنه ما كان يقصد! وبدلاً من أن يصلح ذاته. فإنه يغطيها!

***

والذي يُحب ذاته. يكون حساساً جداً نحو كرامته. ويعامل نفسه والناس بميزانين مختلفين!

يُدقِّق جداً في تحليل وتضخيم أية ملاحظة توجه إليه بينما لا يبالي بما يقوله هو للناس. ويجب أن يتعامل بأسلوب لا يعامل به غيره! هو حساس نحو كرامته. ولكنه ليس حساساً نحو كرامة الناس في معاملته هو لهم. فمتى وكيف ينكر الإنسان ذاته ويدينها؟

***

مغبوط هو الإنسان الذي يراقب ذاته. ويمنعها كلّما تشرد. وكلّما تقويها شهوة خاطئة أو خطيئة مُعيّنة..

حقا إن ضبط النفس هو من الفضائل الأساسية في حياتنا... فإن وجدت نفسك تميل إلى حب الظهور. وإلى الإعلان عن ذاتها. والسعي وراء العظمة والسيطرة. فواجبك أن تمنعها...

وثق أن الذي يدلّل نفسه. إنما هو يهلكها ويضيّع نصيبها في الأبدية السعيدة. كما أن الذي يتراخى في ضبط ذاته. يمكن أن تقوى عليه ذاته. وتتمرد على سلوكه الروحي. بعكس الذي يدرِّب ذاته ويروّضها في دروب الفضيلة.

وثِق أن قهر الذات. وضبط النفس. تكمن وراءهما لذة روحية لا تعادلها أبداً كل ملاذ الجسد...

***

وأسمى بكثير من قهر الذات: بذل الذات

سواء بذل الذات من أجل اللّه. أو من أجل الآخرين. أو من أجل أية فكرة سامية نافعة.

والذين سجّل التاريخ أسماءهم. ووضعهم في قممه. عاشوا في تعب وكد. في جهد وصبر. باذلين وقتهم وراحتهم وصحتهم من أجل الهدف النبيل الذي سعوا إليه. وكما قال الشاعر:

إذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسادُ

هؤلاء اجتازوا الشدائد والضيقات. وأحياناً تعرضوا إلى المقاومات أو إلى السجون. بسبب إصرارهم على تحقيق الغرض السامي الذي وضعوه أمام أعينهم باذلين الذات لأجله...

***

وهناك أمثلة كثيرة لبذل الذات:

من هؤلاء المكتشفون الذين بذلوا الذات لاكتشاف قارات لم تكن موجودة. والذين دخلوا غابات وعاشوا وسط آكلي لحوم البشر.. والذين بذلوا الذات في إطفاء الحرائق. وإنقاذ الناس من الغرق ومن الكوارث الطبيعية. والذين عاشوا وسط المرضى بالجزام وبالسل وبأمراض خطيرة مُعدية. بهدف علاج كل هؤلاء. أو تمريضهم.. كذلك الذين بذلوا الذات في مجال العلم. معتكفين لهذا الغرض. ما نعين أنفسهم من كل وسائل الرفاهية. لا هم لهم إلا الدراسة والبحث والوصول إلى ما يفيد غيرهم من العلم.

إن من يبذل نفسه لأجل الآخرين. سيجدها ملتحفة بالنور في السماء.

***

يذكرنا موضوع بذل الذات. بالمثل الذي يقول:

ما استحق أن يولد.. من عاش لنفسه فقط.

فالذي يعيش من أجل غيره. يتعب ليرتاح غيره. ويشقى ليسعد غيره.. هذا هو الإنسان الحقيقي في وضعه المثالي.

مثاله الأب الذي يعمل ويشقى لكي ينفق على أولاده ومثاله الراعي الذي يسهر متنبهاً. لأجل الحفاظ على رعيته.

قديماً كان الملوك يجلسون في قصورهم متنعمين بعروشهم في رفاهية.

أمّا الآن فإننا نري رئيس الدولة يتحمل السفر من بلد إلى آخر. ويبذل وقته وجهده في اللقاءات والاتصالات والمفاوضات. لإسعاد شعبه إن ذاته ليست ملكاً له. إنما هى ملك لِمَنْ كرّس ذاته لخدمتهم.

إن بذل الذات يظهر أيضاً في الذين وضعوا أرواحهم على أكففهم. مجاهدين لأجل مصالح بلدهم.

لست أقصد فقط الضباط والجنود. الذين خاضوا حروباً سقط فيها الكثيرون من أجل حماية أوطانهم من غزو أجنبي أو من الاحتلال بل أيضاً الذين قادوا الثورات لإصلاح حال بلادهم. وما كانوا يضمنون هل تنجح الثورة أو تفشل؟ وهل يُكلّلون بالنصر أم يقبض عليهم ويعدمون وبعض هؤلاء تحمّلوا النفي خارج البلاد كما في ثورة سنة ١٩١٩م، ومنهم من وقفوا ضد ملوك وطغاة. يدافعون عن المظلومين. أو يطالبون بحقّ شعب قد هُضمت حقوقه.. أو لكي يُنادوا بمبدأ من المبادئ لم يبالوا أن يبذلوا حياتهم في سبيله.

***

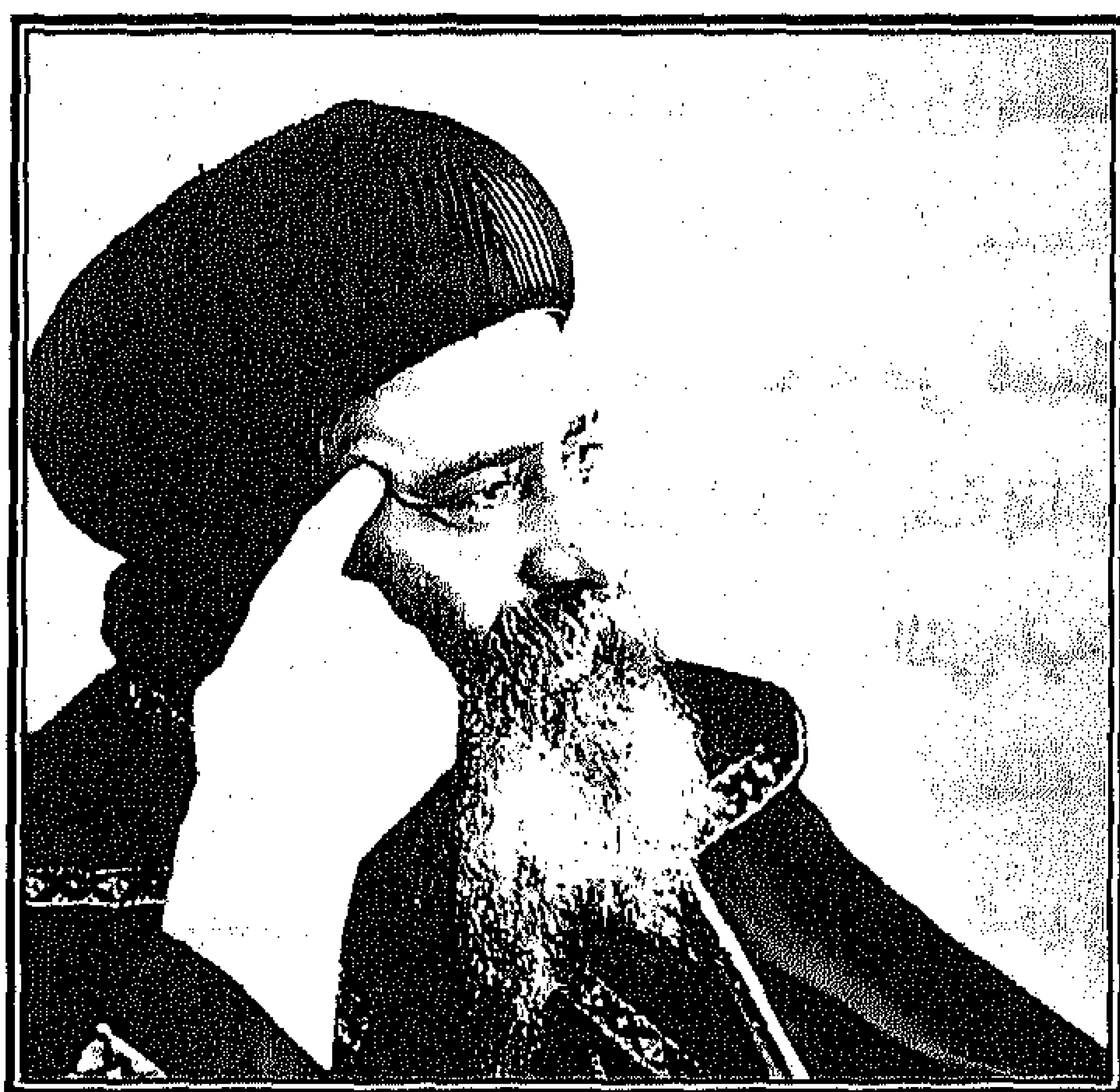
وإنكار الذات نجده كذلك في ميدانين: التواضع والزهد

التواضع في من يفسح المجال لغيره ليظهر. دون أن يزاحم الغير في طريق الحياة.. لا يزاحمهم من جهة الزمان. ولا من جهة المكان.

وإن وجد في مكان. لا يحسب نفسه أهم الموجودين فيه. ولا يفرض رأيه على آراء غيره ولا يقاطع المتكلم لكي يتكلم هو.. ولا يتطلب من الناس احتراما خاصا يجبرهم عليه. فالاحترام شعور داخل القلب. لا يأتي بالإرغام إنما بالتقدير الشخصي.

إنك قد ترغم إنسانا على طاعتك. ولكنك لا تستطيع أن ترغمه على احترامك! بل أن الذي ينكر ذاته. يكون موضع احترام أكثر.

كان الاسكندر الأكبر في كل مجده يحترم الفيلسوف ديوجين الزاهد. الذي ما كان يطلب منه كرامة أو أي شيء.



٢٠٠٣/٢/١١

الغضب والطبع العصبي

يوجد نوعان من الغضب: أشهرهما الغضب الخاطئ الذي يُصحب غالباً بالنرفزة أي "العصبية". لأنها مأخوذة من كلمة Nerves أي أعصاب.

وهذا النوع من الغضب أو النرفزة يحمل العديد من الخطايا أو الأخطاء. وسيكون الموضوع الرئيسي لمقالنا هذا.

على أنه يوجد غضب آخر سليم. أحياناً يكون واجباً. إن كان غضباً من أجل الحق. أو في مجال الدفاع عن حقوق الآخرين. ولا تدخل فيه الذات. ويكون بأسلوب سليم رصين. ولا تدخل فيه العصبية. ولا يكون عن جهل ولا بتهور. وأيضاً لا يكون بسرعة. لأنه من صفات الإنسان الحكيم. أن يكون بطيء الغضب. حليماً.

***

هناك مواقف تحتاج إلى حزم. لإرساء الوضع السليم. وقد يدخل فيها شيء من الغضب الرصين. وليس من النرفزة.

والغضب فيها لا يكون غضباً باطلاً. بل واجباً. يصدر من الأب في محيط الأسرة. أو من رئيس في مجال العمل. أو من أي إنسان مسؤول.

وإن كان الشخص المسؤول لا يغضب مطلقاً. ولا يتصرف بحزم. مهما كانت الأخطاء. ولا يقيم الحق والواجب.. فإنه بلا شك يكون مخطئاً. بل يكون مقصّراً في مسؤوليته.. ولكن هناك فرقاً بين الحزم والنرفزة.

فالمدرس مثلاً. من واجبه أن يحفظ النظام ويضبطه في فصل المدرسة أثناء تدريسه. على أن يحتفظ أيضاً بضبط أعصابه أثناء ضبط النظام. أما إذا هاج وماج وثار. فإنه قد يصبح ألعوبة في أيدي تلاميذه. إذ قد عرفوا نقطة الضعف التي فيه. والتي بها يمكن إثارته.

***

قد تكون النرفزة تصرُّفاً عارضاً بسبب إثارة مُعينة.

ولكن هناك إنساناً طبعه ناري. حاد. سريع الانفعال..

هذا النوع من الناس. يثور بسرعة. وينفعل بسرعة. وربما لأتفه الأسباب. وقد يكون هذا الطبع قد وصل إليه بالوراثة. وتتصف به أسرته. أو قد يكون نتيجة لتهاونه في التصرُّف المهذب والتعامل السليم مع غيره. حتى تحول الأمر بالتكرار إلى عادة. ثم صار طبعاً ملازماً له يتصرّف به تلقائياً.. إنه يذكّرني ببعض المواد السريعة الاشتعال. بدرجات..

فالخشب قد يشتعل. ولكنه في اشتعاله يكون أقل من القش الذي يشتعل بسرعة. وكلاهما في اشتعالهما أقل من الكحول أو البنزين أو المغنسيوم. هذه المواد التي هى سريعة الاشتعال جداً. وأخطر منها الديناميت والبارود مثلاً. الذي يشتعل وينفجر. وكل من هذه المواد له طبيعته الخاصة.

كذلك الناس لهم طباع: بعضهم يشتعل ببطء. والبعض بسرعة ولكنه هوائي كالكحول. وبعضهم يشتعل وينفجر كالديناميت.

وبعضهم يشتعل ويشعل غيره معه. ويمتد لهيبه إلى كل من حوله. وعلى عكس ذلك الصخر مثلاً: تقترب منه النار فلا تقدر على إشعاله. أمّا الماء فمن طبيعته أنه يطفئ النار. ولكن إن تمكنت منه النار وهو محصور في إناء فإنها تسخّنه. وربما تبخّره أيضاً.

فمن أية طبيعة أنت؟ وهل طبعك له تدخل في استثارتك وغضبك؟ أم أن غضبك له أسباب خارجية عارضة يزول بزوالها..؟

***

*** قد يوجد إنسان حساس جداً. أقل كلمة قد تجرحه. وأقل تصرف قد يؤذيه ويبكيه ويقلقه..!**

إنه نوع من الطبع المرهف. مشاعره كالحرير. أقل خدشة تترك تأثيرها على نسيجه. نخشى عليه حتى من النسيم العليل! فقد يجعله يطير أو يهتز!! وهذا النوع ربما يؤوّل أي تصرف مهما كان بريئاً تأويلاً سيئاً يُبرّر به غضبه!

*** وهناك طبع آخر فيه قسوة أو خشونة:**

ومثل هذا. عنده استعداد طبيعي للغضب. وللإيذاء وجرح شعور الآخرين. دون أن يصدر منهم ما يستوجب ذلك.

*** ومع ذلك كله. فالطبع يمكن علاجه:**

يمكن تغيير الطبع تماماً. أو تهذيبه. أو تخفيفه. أو تحويله. وذلك بالتثقيف عن طريق

المرشد الروحي. أو بطريق الجهاد الروحي والتدريبي. وبالصلاة. ومؤازرة النعمة. وتدخل اللّه ومعونته.

***

إن النرفزة ليست هى مجرد خطيَّة بسيطة. بل هو خطية مركبة ومنفرة. هو مجموعة من الخطايا. مركبة معاً في أسبابها وتشعباتها. ونتائجها.

* ففيها الحدة والعصبية:

سواء من جهة حدة الصوت أو علوه أو انفعاله أو صخبه. مع حدة الأعصاب. وحدة النظرات والملامح. ويكون الإنسان في حالة ثورة أو هياج. ولو أنه نظر في مرآة وقتها. ما كان يحتمل رؤية منظره..!

* ويصطحب الغضب معه قسوة في القلب.

تزداد هذه القسوة شدة. بازدياد حدة الغضب. وقد تصل في بعض الحالات إلى الضرب وإلى الاعتداء. بل إن حوادث القتل كلها. قد بدأت بغضب مصحوب بقسوة قلب.

***

*** ومن هنا. كانت النرفزة تتنافى مع الوداعة واللّطف والاتضاع**

فيها يفقد الإنسان وداعته. يفقد حلمه وهدوءه. ويفقد البشاشة واللطف والحنو. ويتحول إلى كائن ثائر. يقرب طبعه من طبع الوحوش!

وهو يفقد التواضع أيضاً. لأن الإنسان المتواضع. لا يغضب من أحد. ولا يُغضب أحداً. والإنسان المتواضع هو الذي باستمرار يجلب الملامة على نفسه. فلا يغضب. كما أنه يلتمس بركة كل أحد ودعاءه. ورضاه. لذلك لا يسمح لنفسه أن يُغضب أحداً. أمّا الغضوب فهو على عكس ذلك.

* لذلك فإن خطية الغضب ترتبط دائماً بإدانة الآخرين.

لأنه لولا أن الغضوب يدين غيره ويحكم عليه بالخطأ. ما كان يثور عليه. وقد تصل هذه الإدانة إلى مستويات صعبة. وقد تكون على غير حق.

* وهى مصحوبة كذلك بعدم المغفرة أو عدم المسامحة. لأنه لو سامح من قد أساء إليه. ما كان يثور عليه. ولا ينفعل.

* والغضب قد يكون مصحوباً بالبغضة. وإن استمر يتحوّل إلى حقد:

ذلك لأن المحبة تحتمل كل شيء. كما تحتمل الأم أخطاء ابنها. ولكن في وقت الغضب. وبخاصة أثناء الغضب الشديد. تختفي مشاعر المحبة. وإذا ازدادت حدة الغضب ومدته. يتحول إلى كراهية.

* وإذا ترسّب الغضب في القلب. يلد حقداً..

تبدأ المشاعر تتطور من غيظ وسخط. حتى تصل إلى الحقد. وما الحقد سوى غضب مخزون ومعه بغضه. وقد يخرج الحقد من خزائنه. ويعبّر عن ذاته ووجوده. فيلد غضباً وسخطاً وغيظاً.. ويصير القلب مُستودعاً لعديد من المشاعر الخاطئة. كل منها تشجّع الأخرى.

***

*** وقد يقع الغضوب في الشتيمة والإهانة. وفي كثير من خطايا اللسان:**

في نرفزة الغضوب قد يتلفّظ بألفاظ جارحة. ويفقد احترامه لغيره. ويتصرّف بأسلوب غير لائق يلومه عليه الناس. وقد يندم هو عليه. إذا ما خلد إلى نفسه. وهدأت أعصابه الثائرة.

ولا نستطيع أن نحصي خطايا اللسان التي قد يقع فيها. لأنها تتوقف على مدي حدة الغضب. ومدي عدم قدرة الغضوب على ضبط أعصابه. وعلى ضبط مشاعره وضبط لسانه.

* وقد يكون انفعاله سبب سوء سمعه له أمام من يغضب هو عليه. بل أيضاً أمام كل من يشاهده في ثورة غضبه. ويسمع ما يتردد على لسانه من ألفاظ غير لائقة ومن هياج!

***

*** والغضوب يقع في خطية عدم الاحتمال. وربما في خطية الظلم أيضاً**

وهذا واضح جداً. لأنه لو كان يحتمل إساءة الغير إليه. ما كان يغضب ويثور. ولكنه بغضبه يدل على ضيق الصدر وضيق القلب. وعدم القدرة على الاحتمال. وكلها نقائص في نفسه.

* وقد لا يكون من يغضب عليه مُسيئاً. ويكون هذا الغضوب ظالماً. قد حكم على غيره بأحكام هو بريء منها. أو على الأقل لم يصل إلى مستواها.

وربما كان السبب في الغضب إليه. أفكار مبنية على سوء الظن. أو على ما أوصله آخرون من دس ووقيعة. وفي سوء الظن يتصوّر هذا الغضوب حدوث أمور لم تحدث. غير أنه يؤكّد في ظلمه أن ما يظنه أو ما وصل إليه. هو حقيقة واقعة!!

* والغضب قد يتحول إلى خصومة ومعارك. أو إلى ثورة في النفس تهدف إلى الانتقام.. سواء بالنسبة إلى الغضوب أو المغضوب عليه

لأن ما يخطئ به الإنسان في غضبه. ربما لا يستطيع أن يعالج نتائجه. فما تلفظ به من شتائم أو إهانات. أو اتهامات باطلة. أو جرح شعور أو تهديدات.. هذا كله قد يترك في نفسية الطرف الآخر تأثيرات عميقة. قد تدفعه هو أيضاً إلى الخصومة والعداوة والانتقام.

حتى لو تاب الغضوب عن غضبه. ربما تظل نتائج غضبه باقية.. كذلك قد يريد الغضوب أن ينتقم لنفسه. لكرامته أو لحقوقه. يريد أن يكافئ الشر بالشر. وبهذا يدخل في الانتقام.

وهذا يحدث إن لم يستطع أن يصرف غضبه. بل استبقاه في داخله ينمو ويتفاعل. وينتج أفكارا ومشاعر.

***

*** والغضب قد يكون مصحوباً بالجهل. أو بخطية التهور والاندفاع.**

فغالباً ما يكون الغضب مصحوباً بالتسرع. أو نتيجة للاندفاع وعدم الروية. حيث يأخذ الإنسان قرارات خطيرة وهو في حالة انفعال. وتكون هذه القرارات ضد نفسه أو ضد الآخرين. وقد ينذر نذرا بأن يفعل كذا وكذا..!

أمّا عن كون الغضب مصحوباً بالجهل. فنعني به جهل الإنسان بما ينفعه وما يضره.. وجهله بالنتائج السيئة التي تغضبه: إذ يفقد كثيراً من علاقاته بالناس. وقد يدمر سلام بيته وأسرته. ويفقد سمعته وفكرة الناس الطيبة عنه. وقد يفقد وظيفته أو ترقيته. إذا كان غضبه عنيفاً مع رؤسائه في العمل أو مع بعض زملائه.. وربما في لحظة. يضيع ما بناه في سنوات.

***

*** وللغضب نتائج أخرى ليست في صالح الغضوب:**

فنحن نري كثيراً من قضايا الطلاق والمشاكل الزوجية سببها الغضب. وكما يفقد الغضوب علاقته مع أسرته. قد يفقد أيضاً علاقته مع أصدقائه وزملائه. كما يقول سليمان الحكيم: "لا تستصحب غضوباً. ومع رجل ساخط لا تجئ". ويقول أيضاً: "الرجل الغضوب يهيج الخصام. والرجل السخوط كثير المعاصي". "لا تسرع بروحك إلى الغضب. لأن الغضب يستقر في حضن الجهال". وما أكثر ما قاله الحكماء في ذم الغضب..

* والإنسان الغضوب يفقد سلامه الداخلي. سلام قلبه وفكره.. لأن ساعة الغضب. هي ساعة نكد وكآبة. للغضوب ولغيره أيضاً.

* وما أكثر الأمراض الجسدية التي تنتج عن الغضب والنرفزة. منها ما يتعلق بالقلب وضغط الدم. وما يتعلق بالأعصاب. وأمراض أخرى.

***

على أن هناك أنواعاً ودرجات من الغضب:

يوجد غضب ظاهر واضح. في حالة عدم ضبط النفس.

كما يوجد غضب داخلي مكبوت. هو غضب الفكر والقلب..

فقد يسيء إنسان إليك. وأنت لا ترد الإساءة بمثلها. وقد لا تجرحه بأية كلمة. وتبدو صامتا. ومع ذلك كله قد يكون الغضب في فكرك وفي مشاعر قلبك. وربما تكون هناك ثورة في داخلها ولكنها مكبوتة. استطعت التحكم فيها. وهنا لا نقول إنك لم تغضب. ولكنك غضبت. وضبطت نفسك.

وتكون قد احتفظت بالسلام الخارجي مع الناس. ولكنك لم تستطِع أن تحتفظ بسلامك الداخلي. وتركت الغضب يُدمِّرك من الداخل.

والوضع السليم أن تحتفظ بسلامك في الداخل كما في الخارج.

***

وربما يكون سبب سكوتك. هو لحكمة مُعينة تراها.

فأنت صامت. لا لأنك احتملت. ولا لأنك غفرت وسامحت. وإنما لأن الفرصة الآن غير مواتية للرد! كما أن الغضب الظاهر يكشف نواياك. وأنت ترى من الحكمة أن تظل هذه النوايا في الكتمان إلى أن يحين الوقت الذي فيه تنتقم لنفسك. وبقوة. وبدون الوقت في مسؤولية.

وهنا يكون القلب قد أخطأ. مع أن اللسان لم يخطئ.

إذن كيف نتعامل مع الغضب. وكيف نعالجه؟

أود أن أحدثك عن ذلك في عدد مقبل. إن أحبّت نعمة الرب وعشنا.

٢٠٠٣/٢/١٨

أسباب الغضب

قد يغضب الإنسان بسبب طبعه إن كان ميّالاً إلى الانفعال.

* كذلك يغضب من يريد أن كل شيء يسلك حسب هواه

وطبيعي أنه لن يجد الكل يسيرون حسب مشيئته ورغبته. فيتضايق. وقد يغضب ويثور. وبخاصة إذا أصر على اتجاهه ورفض التنازل عن فكره. فلا بد أن يصطدم بغيره ممّن لهم فكر مضاد. سواء كان ذلك في بيته. أو في مكان عمله. أو في دائرة نشاطه.

*** وأيضاً قد يغضب الإنسان إن كانت له رغبة لم تتحقق**

فمثال ذلك: الابن المُدلّل الذي يُقدِّم رغبات. ويصرّ على تحقيقها مهما كان الأمر. وقد يكون تنفيذها غير ممكن. أو ليس في صالحه. أو ليس مناسباً من جرمة الوقت. ولكنه يغضب وقد يثور. وبالمثل الزوجة التي لها رغبات لا يحققها لها زوجها. وبنفس السبب يغضب مرءوس من رئيسه. بل قد يتذمّر العبد على خالقه أحياناً. إن صلّى طالباً شيئاً ولم يتحقّق له طلبه.

***

ومن الأسباب الرئيسية للغضب. عدم الطاعة.

فالأب يغضب لعدم طاعة أولاده. والرئيس يغضب لعدم طاعة مرؤوسيه. والمدرس يغضب لعدم طاعة تلاميذه.

وعدم الطاعة يُشعر الكبير بعدم احترام الآخرين له. واستهانتهم بكلامه أو أوامره أو نصائحه. أو يُشعره بعنادهم ولا مبالاتهم. فيثور.

وقد لا يضع الآمر في ذهنه نوعية الأمر الذي أصدره وإمكانية تنفيذه. وظروف الأشخاص الذين أمرهم. والعوائق التي وقفت أمامهم. وبدلا من التفاهم معهم يغضب. بينما بالتفاهم أو بالفحص يظهر إن كان العيب فيهم. أو في الأمر الصادر إليهم. أو في الظروف.

***

وقد يكون سبب الغضب هو حُب التسلّط

وحُبّ التسلّط مرض نفسي وروحي يقع فيه كثيرون. ولا بد أن يقود إلى الغضب ما دام المتسلط يريد أن يفرض إرادته على غيره. بحق أو بغير حق. أو أن هذا المُتسلِّط يتدخل في شئون الآخرين. ويُقيم نفسه وصياً عليهم أو رقيباً. فيؤدّي هذا إلى غضب الآخرين منه أو ثورتهم عليه. وبالتالي يثور هو بسبب عدم خضوعهم.

ومثال ذلك الزوج في البيت الذي لا يتعامل كزوج أو كأب. بقدر ما يتعامل كحاكم له سلطان. يأمر وينهي مهما كانت أوامره ممكنة التنفيذ أم لا! وكالأخ الذي يريد أن يسيرّ أخته حسب هواه. في دخولها وخروجها. وفي لبسها وزينتها. وفي طريقة كلامها وكل معاملاتها. لا بالإقناع والتوعية. وإنما بالإرغام والسُّلطة. وبالغضب والتحكُّم!

***

وقد يكون سبب الغضب أسباباً نفسية. منها سوء الظن.

فإن أساء الظن بشخص ما. قد يغضب منه ويغضب عليه. وربما يُلصق به كثيراً من المتاعب. ويحمله مسؤوليتها. بينما يكون بريئاً!

ويدخل في هذا النطاق إن كان أحد قد أخذ فكرة رديئة عن إنسان. ورسخت تلك الفكرة في ذهنه وقلبه بعمق بحيث أصبح غير قادر على تغييرها. وبسبب ذلك يكون مُستعدّاً دائماً للغضب عليه.

وقد يغضب الإنسان إذا كانت تعوزه البساطة

فعن طريق فقدان البساطة يقع في تعقيدات كثيرة تدفعه إلى الغضب دفعاً. وتصوّر له الأمور مُقلقة! بينما لو تناول الأمر في بساطة. لأمكن أن يمر بسلام.

***

وقد يغضب الإنسان إن كان من طبعه التشاؤم

كإنسان يتشاءم من الرقم ١٣ مثلاً. فيكون مُستعداً أن يتضايق بسبب أي شيء يحدث. ملقياً المسؤولية على هذا الرقم! سواء إن كان تاريخ اليوم. أو رقم الجلوس له كطالب. وما أشبه ويغضب كيف ومع أن هذا من نصيبه! وكيف لم يجد شقة لسكناه إلا في بيت رقم ١٣ أو مضاعفاته! أو يغضب لأن رقم التليفون الذي أُعطي له. أو رقم العربة التي اشتراها. يبدأ بالرقم ١٣ .

وقد يغضب الإنسان إن كان من عيوبه النفسية أنه ضيق الصدر.

أو أنه يشكو من القلق وتوقع الشر.. فكل ما يحدث له يفسره بطريقة تدعوه إلى الضيق والغضب. وإلى الشكوى والتذمُّر.

***

وهناك نوع من الغضب يمكن أن نسميه الغضب القَبلي:

أي نسبة لما يحدث في القبيلة. يحدث بغضب كل أفرادها. لغضب واحد منهم. ولعل هذا يوضحه قول الشاعر:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... وجدت القوم كلهمو غضابا

بينما إذا بحثت حالة كل فردي منهم. لا تجد سبباً شخصياً قد أغضبه!

إذن هو قد غضب تضامناً مع غيره بروح القبيلة كما تعوّد.

وهذا الأمر يحدث كثيراً في مجال العائلات والمجتمعات الصغيرة. كما يحدث أيضاً بين الدول التي تجمعها روابط مُعينة أو تحالفات أو معاهدات أو بين الهيئات التي تكون من جنس واحد. أو من مذهب واحد.

***

وقد يحدث الغضب بسبب الانهماك في المشغولية

فشتان بين اثنين: أحدهما لديه متسع من الوقت للناس وأحاديثهم ومشاكلهم ومناقشاتهم. وآخر مشغول إلى أبعد حد. ليس لديه وقت لإطالة الحديث أو التفرغ للمشاكل والمناقشات. وليس لديه وقت للزيارات أو المقابلات. فان قابل أحداً يريد أن ينتهي من موضوعه بسرعة. لأن له أموراً أخرى يريد أن يتفرّغ لها. فان أطال الحديث معه يتضايق..

لذلك فالمشغولون عرضة للوقوع في الغضب. أكثر من الذين في فراغ..

التلميذ مثلاً في فترة الامتحانات ليس لديه وقت للمقابلات والأحاديث. فإن أراد أحد أن يشغله بموضوع. فانه سيثير غضبه. وإن جاءت أسرة صديقة للزيارة في أيام الامتحانات. وأطالت الجلسة والحديث. يكون أهل البيت ضاغطين على أعصابهم بسبب إضاعة الوقت. مهما كانت تلك الأسرة عزيزة عليهم. وهكذا كل زيارة أو حديث في وقت غير مناسب.

***

ومن أسباب الغضب: الإرهاق الجسدي والعصبي

إذا كان الإنسان مرهقاً جسدياً. من تعب أو قلة نوم. أو من عمل فوق الطاقة. قد تكون أعصابه غير محتملة. فان حدث ضغط عليه من الخارج. قد يغضب. ويتصرف بغير احتمال. بينما لا تكون طباعه هكذا..

والإنسان في حالة الإرهاق والتعب العصبي لا يحتمل نقاشاً. فان ناقشه أحد وهو مرهق فغضب. يشترك معه من ناقشه في مسؤولية غضبه.

لذلك على الإنسان أن يتحين الوقت المناسب للنقاش. ولا يضغط على إنسان مرهق عاجز عن الاحتمال. كما لا يصح أن يرهق مريضاً بنقاش. وهو في حالة تعب أو ألم لا تساعده صحته ولا أعصابه ولا قدرته على التفكير والتركيز.

بينما المستريح جسدياً وعصبياً - على عكس ذلك - يجد فرصة للاستماع وبحث الأمور بالتروي والهدوء. ويكون أقدر على حل المشاكل.

***

وأيضاً من أسباب الغضب: الإلحاح

وربما تكون كثرة الإلحاح من أسباب الإرهاق العصبي

فهناك نوع من الناس يطلب طلبا من شخص. ويعرف انه غير موافق عليه. أو غير متفرغ له. ومع ذلك فانه يكرر الطلب. ويلحّ ويلحّ. ويصرّ على ما يريد. بطريقة متتابعة. تتعب النفس وترهق الأعصاب. حتى إن الشخص الذي يطلب منه الطلب يغضب ويثور.. ويكون صاحب الطلب سببا في الإثارة بإلحاحه. ولا يكون في ذلك حكيماً.

لا يكفي أن الإنسان لا يغضب. بل يجب أيضاً ألاّ يتسبّب في غضب غيره. وبخاصة إذا كان ذلك فوق احتماله.

ويقع في نفس الخطأ. من يستمر في الكلام مع شخص مشغول غير متفرغ له. فيرهقه ويثيره ويغضبه.

***

من أسباب الغضب. أخطاء الآخرين:

لا شك أن أخطاء الآخرين توضع في مقدمة الأسباب الخارجية للغضب. سواء أكانت

هذه الأخطاء في حقّ الشخص الذي يغضب. أو في حقّ الجماعة. أو هي أخطاء ضد المبادئ والقيم.

بعض أخطاء الناس تثير الضمير. ولكنها عند البعض تثير الأعصاب. ومن حق الضمير أن يثور ضد الخطأ. فهذه علامة صحية. أمّا ثورة الأعصاب فليس الحل السليم. إذا ارتبط عمل الضمير بالحكمة والتروي. حينئذ تعالج الأمور في هدوء. بغير نرفزة مع الاحتفاظ بأعصاب سليمة.

***

وقد يسبِّب الغضب: أخطاء الآخرين في العمل

كإنسان يعمل فيهمل في عمله أو يتكاسل أو لا يقوم بمسؤوليته بطريقة جادة أو يتغيب كثيراً بلا سبب معقول ولا مقبول. أو لا يتقن عمله. أو لا يكون مُخلصاً أو أميناً في العمل أو يكون غير منتج. أو لا تكون مواعيده سليمة.. إلى سائر هذه الأسباب التي تؤدي إلى غضب صاحب العمل أو المشرف عليه.

ومن الأسباب المُثيرة أيضاً: الغشّ والخداع في التعامل:

حيث لا يستريح الإنسان إلى التعامل مع أشخاص غير مستقيمين أو لا يتكلّمون بالصدق فيغضب لكذبهم وخداعهم ويغضب لمحاولاتهم في ستر الكذب بخداع آخر وبأساليب اللفّ والدوران التي لا تنتهي.

***

وأكثر شيء من أخطاء الآخرين يثير الغضب: هو الإساءة أو الإهانة. أو جرح الشعور.

سواء كان ذلك موجهاً إلى الشخص نفسه أو إلى أحبائه أو هو هجوم ضد عقائده أو مُثُله أو كل ما هو مقدس ومحترم في نظره. ولا يقتصر الأمر على الإهانات الواضحة فقط. إنما أيضاً ما يظنه الشخص إهانة. حسب مقاييسه الخاصة وحسب فهمه للأمور.

وربما لا تكون هناك إهانة فعلية قد صدرت من أحد. إنما نقل الكلام صوّرها هكذا. فأهاجت السامع وأغضبته.

وكم من أمور حدثت بحُسن نيّة. ولكنها فُهمت بطريقة خاطئة وأُعتبرت إهانات. ولكن التفاهم أوضحها. وبالعتاب الهادئ اتضح الأمر على حقيقته. فزال اللبس وزال الغضب.

من أسباب الغضب أيضاً: عدم المحبة. وعدم الاحترام

المعروف أن المحبة تحتمل كل شيء. ولكن إذا كره شخص إنساناً فقد يغضب عليه بسرعة ولا يحتمله في أي خطأ مهما كان ضئيلا. وبعكس ذلك يحتمل أخطاء لأحبائه بكل هدوء بينما تكون أشد خطأً. وبهذا تحتمل الأم طفلها ولا تغضب عليه.

والزوج يحتمل زوجته ما دام يحبها. فإن بدأ يغضب عليها ويقسو في المعاملة. تكون محبته بلا شك قد قلّت. فإن وصل غضبه إلى الطلاق تكون المحبة قد زالت.

* ويدخل في هذا المجال أيضاً: الحقد السابق والرغبة في الانتقام أو الإيذاء. هذه التي تكون مترسبة في القلب وتنتظر فرصة للظهور وللتعبير عن مشاعرها المكبوتة وعن ثورتها لسبب لم تغفره بعد.

ذو الحقد السابق لا يحتاج إلى سبب حاضر. إنما قد يغضب بلا سبب. إذ عنده رصيد قديم يكفيه وربما يخترع للغضب سبباً بلا داعي!

***

كذلك فان عدم احترام شخص ما. يساعد في الغضب عليه

لأن الإنسان عادة لا يثور على من يحترمهم. سواء كانوا كباراً من جهة المركز أو السن أو القرابة. فإن غضب على أحد هؤلاء الكبار. ورفع صوته. يكون قد فقد احترامه لهذا الكبير. ولو وقتذاك.

الغضب عموما في نرفزة. يدل على عدم احترام وعدم تقدير لأي أحد. والإنسان الذي يتعود أن يحترم الكل. ويكلم الكل برقّة وأدب وتوقير. لا يكلم أحداً بغضب. إلا إذا استلزم الصالح حزماً مُعيناً.

قد يحدث الغضب أيضاً لسبب مالي. أو لأية خسارة مالية

يدخل في ذلك البخل كسبب للغضب. أو التبذير كسبب آخر. وكذلك الخلاف حول أمور الميراث والوصية. والمعاملات التجارية. والضرائب والجمارك. والتلاعب بالأسعار واحتكار الأسواق. وغشّ الأصناف. والتنافس.

وفي نطاق الوظائف. يدخل في أسباب الغضب: نقص المرتب. أو تأخر المنحة أو العلاوة أو الترقية أو المكافأة أو الحوافز. أو الشعور بالظلم مع المقارنة بالمعاملة المالية للآخرين.

٢٠٠٣/٢/٢٥

علاج الغضب

هناك طرق عديدة لعلاج الغضب. في مقدمتها الوداعة والاتضاع

فالإنسان المتواضع لا يُغضب أحداً. ولا يغضب من أحد.

الذي يغضب. يعتقد دائماً أنه على صواب. ولذلك فهو يغضب. لأنه يرى أن إساءة قد لحقت به بدون وجه حق. وهكذا نراه يركز على أخطاء غيره ويثور عليها. بينما المتواضع لا يفكر إلا في أخطائه هو.

غير المتواضع دائماً يبرر نفسه. لذلك يثور على النقص الذي يُنسب إليه. ويحتج على ما وُصف به من أخطاء. لا يُفكِّر في علاجها. وإنما يعتبرها إهانات وسبة لا يصح أن توجه إليه. ولهذا فإنه يدافع عن نفسه بكل عصبية. وقد يعود صوته ويحتد. ويصف من أساء إليه بالظلم والكذب والافتراء. والاعتداء على كرامة الأبرياء!

***

غير المتواضع يكون مغروراً بنفسه. يتبعه شيطان الخيلاء والمجد الباطل.

والمعروف أن شيطان الغرور إذا سار في مكان. يقول له شيطان الغضب: خذني معك.

لذلك نقول: إذا أراد إنسان أن يقاوم الغضب. عليه أولا أن يقاوم محبة المديح والكرامة وكل مظاهر الكبرياء وحب العظمة والمجد الباطل. لأنه إن تمسك بأمثال هذه الأمور. فلا بد أن يتعرّض للغضب. معتقداً أنه يثور لكرامتك. ويقول له شيطان المجد الباطل: كيف يعاملونك هكذا؟! وكيف تقبل على نفسك هذا الوضع وهذا الكلام؟! لا بد أن تمحو الإهانة التي أصابتك!

أمّا الإنسان الوديع. فإنه يكون هادئاً باستمرار. لا يثور مهما كانت الأسباب ضاغطة. وتثير من هو حساس للكرامة.

***

من الوسائل الهامة أيضاً في معالجة الغضب: الحكمة

ذلك لأنه لا يصلح أسلوب واحد للتهدئة مع جميع أنواع الغضوبين. ومع مختلف الحالات والأسباب.

فمع إنسان قد يصلح السكوت لملافاة الغضب. إن كانت كل كلمة يمكن أن تثير الغضوب بالأكثر. ومع آخر ربما يثيره الصمت! ويحتاج إلى كلمة تهدئة لتصريف غضبه.

والأمر يحتاج إلى حكمة في حالة المواقف المتوترة: متى يتكلم الشخص؟ ومتى يصمت؟ أي ما الذي يهدئ الموقف؟ الكلام أم الصمت.

ادرس ظروف الحالة. ونفسية من تتعامل معه. وما تتوقعه من نتائج الصمت أو الكلام.. وحسب تقديرك يمكنك أن تتصرّف.

كُن حكيماً. وادرس من تتعامل معه: ماذا يريحه؟ وماذا يهدئه؟

***

ممّا يُعالج الغضب أيضاً: أن يتذكر الشخص نتائج الغضب السيئة:

ولعلّ من أهم هذه النتائج: هزيمة الإنسان من الداخل. وعدم قدرته على ضبط نفسه. وإعطاء الآخرين فكرة سيئة عنه وعن أعصابه التي تثور بسرعة. وما يصدر عنه من أخطاء أثناء ثورته. كذلك خسارته لِمَنْ يثور عليهم وتجرحهم ثورته. وأيضاً خسارته لصحته بتعكير دمه. وخسارته لروحياته بوقوعه في خطايا عديدة أثناء غضبه. مع تعقد الأمور بالأكثر نتيجة للغضب.

بالغضب نخسر الأصدقاء. ونزيد من عداوة الأعداء.

وهكذا لا نستبقي صديقاً. ولا نصالح عدواً. وتكون خسارة لنا على طول الخط. ونوجد في موقف نندم عليه فيما بعد.

وبغضبنا على من أخطأ إليه. نبرهن على أننا نشابهه أيضاً في الخطأ. بما يصدر عنا من أخطاء أثناء غضبنا.

فإن اقتنع الإنسان بأن غضبه يضره اجتماعياً وصحياً وروحياً. حينئذ يجد دافعاً داخلياً يمنعه من الغضب أو من إكماله.

***

يمكن اتقاء الغضب كذلك بالتفاهم والعتاب

فبالتفاهم يمكن إقناع الطرف الآخر بأنه لا يوجد سبب للخصومة أو للشعور بالإساءة. ويتضح الأمر. ويصل العقل إلى الاقتناع.

وأيضاً تتصافي القلوب بالعتاب. على شرط أن يكون العتاب ودياً. ولا يكون أمام الناس. ولا يكون هدف العتاب أن تثبت للآخر أنه كان مخطئاً وأنك كنت على حق. فهذا العتاب الضار قال عنه الشاعر: ودع العتاب فرُب شرّ ... كان أوله العتابا

ولهذا ليكن الهدف من العتاب إراحة قلب من تعاتبه. وليس إثبات أنه على خطأ. بل ليكن العتاب ممزوجاً بالمودة والحُب والرغبة في التصالح وتصفية الأمور. مع الاحتراس الشديد في عدم استخدام ألفاظ جارحة أثناء العتاب. بل قل كلمة لطيفة.

***

يُعالج الغضب أيضاً بالجواب اللّين

وفي ذلك يقول سليمان الحكيم: "الجواب اللّين يصرف الغضب. والكلام الموجع يهيّج السخط". لذلك إذا احتدم الغضب. فإنه لا يُعالج بالكلمات الشديدة أو الموجعة. فالنار لا تطفئها النار. إنما يطفئها الماء. وهكذا تكون الكلمة اللطيفة أقدر على إطفاء نار الغضب.

وطبيعي أن الإنسان المهذب في ألفاظه. لا يمكن أن يثير غضب غيره. بل إنه بالأكثر يمكن أن يُخجل الغضوب برقته ولطفه. بعكس الإنسان الفظ في ألفاظه. فإنه لا يستطيع إطلاقاً أن يهدئ غضوباً. بل إنه بألفاظه الشديدة قد يثير الإنسان الهادئ ويغضبه.

ومن أنواع الجواب اللّين. أن يستخدم الإنسان فكاهة أو دعابة أثناء الغضب. فتنشئ جواً من المرح والمتعة يزول فيه الغضب.

***

أيضاً يزول الغضب بروح البشاشة

الإنسان البشوش لا يغضب. كما أن بشاشته تزيل غضب غيره.

إن البشوش يستطيع أن يستوعب الموقف بلطف. ويرد على من يخاطبه بملامح مُنبسطة مُريحة. وبوجه مُبتسم. ولا يستطيع الغضوب أن يستمر في غضبه أمامه. بل قد يضطر أن يبتسم هو أيضاً. بل بالكلمة الطيبة ينفك أمامها غضبه.

بعكس ذلك من تكون ملامحهم صارمة عابسة. ووجوههم جادة باستمرار. لا يبتسمون. ولا يتجاوبون مع بشاشة غيرهم.. هؤلاء إن صادمتهم حالة غضب. يزيدونها حدّة بهذه الجدية فتشتعل.. بينما يكون الحل في التنازل عن كآبة الوجه وصرامته. ولو مؤقتا إلى لحظات حتى تعبر المشكلة. ويمكنهم أن يصلحوا العلاقة مع الآخرين.

وقد يكون الجواب اللّين المزيل للغضب. هو في كلمة اعتذار أو اتضاع

كأن تقول للغاضب: لك حق. أو "حقك عليّ".. أو أن تقول له كلمة مديح أو إطراء تظهر تقديرك له. فيختفي معها شعوره بأنك قد أهنته أو جرحت كرامته.. وسرعان ما يتلاشى معها غضبه. ولا يجد أمامه شيئا يقوله. بل تهدأ نفسه ويستريح داخلياً.

في ساعة الغضب. ينبغي أن يفكر الإنسان في غيره. وليس في نفسه. لا تقل في فكرك أو في قلبك إن كلمة الاعتذار أو الاتضاع تسيء إليه. بل قل في نفسك.. يكفي أنني بها سأريح هذا الإنسان وأربحه. وأنفّذ قول الحكيم "رابح النفوس حكيم".

***

من المناهج الهامة التي تمنع الغضب. أن تكون بطيئا في غضبك

فالغضب هو حركة سريعة. تثار فتندفع. والإبطاء يمنعها. إذ أن الإبطاء في الغضب. يُعطي فرصة للتفكير والتحقق. ولتهدئة النفس من الداخل. والتحكم في الأعصاب وفي اللّسان.

والإنسان العاقل لا يسلّم نفسه بسرعة إلى انفعال الغضب. إنما يتناول الأمر بكل هدوء ورزانة. وبموضوعية. ويدرسه ويفكر في كل نتائجه. وفي أسلم الحلول لمعالجته. كما يتحقق هل الكلام الذي سمعه وأثاره. هل هو حق أم باطل وهكذا بحكمة يكون بطيئاً في غضبه.

ما أجمل قول سليمان الحكيم "لا تسرع بروحك إلى الغضب. لأن الغضب يستقر في حضن الجهال".

وبهذا رأى أن الإسراع في الغضب يؤدّي إلى جهالة. وهذا واقع عملي. فكثيراً ما نرى أشخاصاً يغضبون بسرعة. ثم يرجعون فيندمون على كل ما فعلوه أثناء غضبهم. ويرونه اندفاعاً غير حكيم. كانت تنقصه الرؤية والفحص. ويقول الواحد منهم عن ساعة غضبه "لم أكن وقتها في عقلي"!!

حقاً إن بطيء الغضب كثير الفَهْم

إنه يفهم مقدار الغضب ونتائجه السيئة. وأنه ضد الفضيلة والوقار. كما أنه لا يقيم سلاماً مع الناس. بل أنه يضر بالغاضب نفسه.

والمعروف أن الإبطاء في الغضب يمنعه أو يصرفه.

على الأقل فإن هذا الإبطاء يجعله يجتاز مرحلة الانفعال. ويدخل في دائرة التعقل.

وأيضاً الصبر. وبهذا يتبدّد الدافع السريع إلى الغضب. وربما يتسبّب هذا الإبطاء في الغضب. في تهدئة الطرف الآخر وإبطال ثورته.

***

إن آفة الغضب هى السرعة والتصرُّف باندفاع بغير تفكير

فلو أنك أبطأت وبدأت تفكّر ولم تترك نفسك فريسة للاندفاع فلا بد أنك تستطيع أن تهدئ نفسك. وتحتفظ بأعصابك.

لذلك قبل أن تلفظ كلمة في غضبك. فكّر في نتائجها..

المعروف أن الكلمات في حالة الغضب. تخرج بلا ضابط. ولذلك كثيراً ما تكون خاطئة جداً. وتسبب مشاكل. كما تكون موضع نقد. أمّا أنت. فلا تندفع بالكلام. وتباطأ ريثما تفهم جيداً ماذا ينبغي أن تفعل. واعلم أن الإبطاء في الغضب هو جزء من فضيلة ضبط النفس.

وإن لم تعرف كيف تتصرّف. اسكت. فالسكوت في مواقف الغضب فضيلة.

لان تبادل الكلمات الشديدة. يشعل الغضب بالأكثر من الجانبين. والكلمة الانفعالية التي هى نتيجة لإساءة سابقة. تصبح مُبرِّراً لإهانة لاحقة من الطرف الآخر. وتزيد الجو توتراً. على أن هناك وسيلة تصلح أحياناً أكثر من السكوت. وهى الجواب اللّين المُلطّف للموقف.

***

في التعامل مع الغضب. احترس من التدرُّج إلى أسوأ

ففي كل مرحلة تصلح إليها في غضبك. احترس من أن تتمادى فيها وتصل إلى ما هو أسوأ. فإن دخل الغضب إلى فكرك. احترس من أن يصل إلى قلبك ويربك مشاعرك نحو الآخرين. وإن وصل إلى قلبك. فاحترس من أن يصل إلى ملامحك فيكشف وجهك. وتظهر بأسلوب غير مُشرف.

وإن ساد الغضب على ملامحك. احترس من أن يسود على لسانك فتتلفظ بألفاظ قاسية. وإن أدرك الغضب لسانك. اجعله أن يقف عند حد في أخطاء اللسان فهى مُتعدِّدة. وإن سقطت في أخطاء اللسان. احترس من أن يعمل الغضب إلى يدك. فتقع في الإيذاء والاعتداء. وإن وصلت إلى ذلك. احترس من القسوة بكل أنواعها.

ضع للغضب حداً في كل مرحلة. ولا تجعله يصل إلى مستوى الحقد والكراهية.

احترس من أن يسوّد قلبك من جهة أشخاص مُعينين.

بحيث كلّما تتكلّم أو تتعامل معهم. يبرز غضبك ولو من غير سبب.

واحترس من أن تترسب أمور في أعماق نفسك. كلّما تذكرها تغضب. وكلّما يأتي ذكرها تحتد. واحترس من أن تنطبع مشاعر الغضب في عقلك الباطن. وتصبح مصدراً لأحلام فيها غضب وقسوة وعنف وحدّة. وتصبح استمرارية لحالة نفسية مريضة.

واحترس من أن يكون الغضب مصدراً لخطايا وشرور عديدة. فهو كما قلنا يلد خطايا أخرى لا تدخل تحت حصر. وقد يتحوّل إلى عداوة ونتائجها. أو إلى معارك لا نعرف مدى نتائجها.

***

يُعالَج الغضب أيضاً بالتصريف وليس بالترسيب

هناك طريقتان للتعامل مع الغضب. وفيهما يبدو الإنسان هادئاً. وهى طريقة التصريف. وطريقة الترسيب.

أمّا التصريف. فمعناه أنه قد صرف الغضب تماماً من أعماق قلبه. ولم يعد في داخله شيء ضد الطرف الآخر. وهذا هو الوضع السليم.

ولا يتم التصريف إلاّ عن طريق المغفرة الكاملة. التي تنسى الإساءة. بل ربما تلتمس العُذر للمُسيء. أو عن طريق التواضع العميق. الذي يشعر فيه الإنسان أنه هو المُخطئ. وأنه كان السبب فيما حدث.

وبتصريف الغضب. يصبح القلب صافياً تماماً صفاءً حقيقياً. من الداخل. كما من الخارج. ولا تشوب علاقته مع غيره أية شائبة.

***

أمّا الترسيب فهو صفاء خارجي. مع وجود أسباب الغضب كامنة مُترسِّبة في النفس. كالدواء الذي يقال عنه "رجّ الزجاجة قبل الاستعمال" ويكون الدواء صافياً ورائقاً من فوق. فإن رججت تعكر كله.

هذا نوع من تخزين الغضب. فإن تكرّرت الإساءة. يغضب الشخص ليس فقط بسبب الإساءة الجديدة. بل بسبب القديمة أيضاً: يتذكرها ويحتد بسببها.

٢٠٠٣/٣/٤

الهدوء

هذه الفترة الصاخبة التي تعيشها البشرية على الأرض لا تقاس إطلاقاً بالهدوء الذي كان منذ الأزل والذي سيكون في الأبد إلى ما لا نهاية إنها نقطة مُضطربة في بحر من الهدوء اللانهائي..

ولعلّ الملائكة ينظرون إلى عالمنا في تعجُّب.

ولعلّهم يقولون: ما هذا الضجيج في هذا الكوكب؟!

ولماذا يعيش الناس في صخب هكذا؟!

متى يهدأون؟

يقيناً إنهم لن يهدأوا. إلاّ إذا وصلوا إلينا..

لأن الهدوء هو منهج الحياة في السماء..

***

تاريخ الهدوء

الهدوء هو الأصل في هذا الكون.

وهو الأصل قبل خلق الكون أيضاً.

كان اللّه وحده في الأزل. في هدوء كامل..

ملايين السنوات مرت. أو ملايين الملايين. بل ما هو أكثر.

بل قبل أن يوجد الزمن. وقبل أن تُعرف مقاييسه. والهدوء هو الأصل.

وأخذ اللّه يعمل في هدوء. وكان عمله الأول هو الخلق.

في هدوء كامل خَلق اللّه كل شيء. ونظر إلى كل ما عمله. فإذا هو حسن جداً. وهكذا تمت كل قصة الخلق في هدوء..

خَلق اللّه الكون. وعاش الكون في هدوء. وكمثال لذلك. كانت الأجرام السمائية تتحرك في الفلك. بكل نظام ودقة. وبكل هدوء. بدون اضطراب. نهار يعقبه ليل. وليل يعقبه نهار. بلا ضجيج ولا صراع.

إذن متى بدأ الكون يفقد هدوءه؟

كان ذلك بعد أن خلق اللّه مخلوقات عاقلة. ذات إرادة حرة!

مرت على هذه الكائنات العاقلة فترة وهى هادئة. ليس من يخالف ولا من يعصى. ولا من يثير إشكالاً أو اضطراباً بأية صورة.. ثم كان أول فقدان للهدوء بسبب الشيطان.

هذا كان ملاكاً. ثم تمرد وفقد هدوءه فصار شيطاناً. وأسقط معه مجموعة من جند السماء. فصاروا شياطين مثله. وأصبح عملهم هو الجولان في الأرض والتمشّي فيها. لعلّهم يسقطون منها أحداً.

***

ومن جهة البشرية. عاش الإنسان الأول في هدوء وهو في الجنة.

حتى الوحوش كانت تحيا معه في هدوء.

لا عداوة بينهما. لا هى تفترسه ولا تهجم عليه. ولا هو يصطادها أو يطاردها. ولا يخافها. بل تجمع الإنسان والوحوش رابطة من الأُلفة والمعيشة المشتركة الهادئة.

والحيوانات المفترسة لم تكن مُفترسة في أيام آدم وحواء. لم يكن الافتراس قد دخل بعد إلى العالم. إذ كان العالم لا يزال يحتفظ بهدوئه. وكانت الوحوش في ذلك الوقت تأكل العشب. لم تكن فيها "الوحشية" التي دعيت بها وحوشاً. بل كانت هادئة.

ثم فقد الإنسان هدوءه بعصيانه للّه. وطُرد من الجنة وأدركه الخوف. ففقد هدوءه الداخلي. وساءت العلاقة بينه وبين الوحوش. فأصبح يصيدها. وهى تفترسه. وكما فُقد الهدوء بين الإنسان والحيوان. فُقد الهدوء بين الإنسان و الإنسان. وإذا بهابيل البار يقتله أخوه. ودخل الشر في الأرض وانتشر. وفقدت الأرض هدوءها. وعرفت الحروب والصراعات.

***

إنها قصة مأساة. تحوّل بها الإنسان من عمق الهدوء. إلى عمق الاضطراب. وفقدان السلام داخل نفسه ومع الغير

وصار الإنسان يبحث عن الهدوء ويشتاق إليه.

فما هو الهدوء؟ وما عناصره؟ وما الفضائل التي ترتبط بالهدوء؟

وكيف يمكن للإنسان أن يحصل على الهدوء. ويستمر فيه؟

هذا ما نود أن نتحدث فيه في هذا المقال وما يليه.

عناصر الهدوء

الهدوء يشمل حياة الإنسان كلها.. ونذكر من ذلك:

- الهدوء الداخلي. ويشمل هدوء النفس والقلب والفكر.
- هدوء الجسد. ونعني به هدوء الحواس. وهدوء الحركات.
- هدوء الأعصاب: ويدخل فيه عدم النرفزة. وهدوء الملامح والصوت.
- هدوء التصرُّف: ويشمل الهدوء في الحياة العملية. والتعامل مع الغير. وهدوء الحلول فيما يصادف الإنسان من مشاكل.

نضيف إلى هذا كله هدوء الطبيعة والمكان والمسكن، وهدوء المجتمع المحلّي. والمجتمع الإنساني كله بما فيه من دول وشعوب. وما ترتبط به من علاقات.

***

الهدوء الحقيقي

لا يمكن أن نحكم على إنسان بأنه هادئ. إلاّ إذا حدث اختبار لهدوئه.

فقد يبدو الإنسان هادئاً. لأن الظروف الخارجية التي حوله هى الهادئة. ولم تحدث مشكلة أو إثارة تختبر هدوءه. وربما لو حدث اصطدام به. لظهر على حقيقته.

فإن اختلف مع غيره في الرأي أو في التصرف. أو إن أصابه أذي. أو تعرّض إلى إهانة أو كلمة جارحة. حينئذ يمكن من تصرُّفه الحكم على هدوئه. ونفس الوضع إذا وقع في مشكلة ما. أو في ضيقة. أو تعرّض لمرض. أو إن واجهته صعوبة ما.. فإن هذا كله يكون اختباراً لنفسيته. واختباراً لأعصابه: كيف يسلك وكيف يتصرّف؟

وهل يفقد هدوءه أم يحتمل ويحل مشكلته في هدوء..؟

هذا هو أول اختبار للهدوء. لأن كل إنسان يمكنه أن يكون هادئاً في الظروف الهادئة.

***

أمّا الاختبار الثاني. فهو مدى الاستمرار في الهدوء.

والهدوء الحقيقي هو هدوء دائم. كشيء من الطبع، فلا يهدأ الإنسان إلى فترة زمنية. ثم يفقد بعدها هدوءه. ويتغير أسلوب تماسكه أمام المشاكل. فالهدوء الحقيقي ليس مجرد احتمال مؤقت. إنما هو الطبيعة الهادئة التي تستمر في هدوئها. مهما طال الوقت وتغير الحال.

الهدوء الحقيقي ليس ستاراً تختفي وراءه طبيعة غير هادئة تكشفها الأحداث. فالإنسان الهادئ بطبعه. لا تثيره المشاكل والاصطدامات. بل على العكس تظهر ما فيه من رحابة صدر. ومن وداعة وطيبة قلب.

***

٣- والهدوء الحقيقي ليس هو الهدوء الظاهري. بل الداخلي

فلا يكون الشخص هادئاً من الخارج فقط. بينما في داخله بركان ثائر. بل على العكس. يكون هدوؤه الداخلي هو منبع وسبب هدوئه الخارجي.

***

٤- وهناك فرق بين الهدوء الحقيقي. والبرود الذي قد يكون أحياناً بروداً مثيراً

فالإنسان الهادئ المُحب للهدوء. لا يكون فقط هادئاً. وإنما أيضاً يحاول أن يهدئ غيره. ويشيع الهدوء فيما حوله.

وذلك لأنه قد يحدث أحياناً أن شخصاً قوي الأعصاب يمكنه أن يحتمل زميلاً منفعلاً. ويرد عليه بهدوء شديد. أو ببرود شديد. بأسلوب يثير أعصابه بالأكثر. فيزداد انفعاله. ويقابل هو ذلك الانفعال بمنتهي البرود متفرجاً عليه. جاعلاً منه موضع سخرية الحاضرين! كلاّ. ليس هذا هو الهدوء في معناه الروحي.

***

فالإنسان الروحي الهادئ. لا يحطم غيره بهدوئه..

إن أخاه المنفعل هو وديعة في يديه. يحافظ على أعصابه وعلى سمعته. ويحاول أن يوصله إلى الهدوء هو أيضاً. وبالتالي لا يثيره. لأن مُحب الهدوء يريد الهدوء لغيره كما يريده لنفسه. ولا يجعل شيطان المجد الباطل يحاربه بهدوء زائف يكون فيه خصمه هائجاً وثائراً. ويكون هو قد أخرج الشيطان بهذا الهياج من خصمه وعدم ضبطه لنفسه.

إن الإنسان الناجح في هدوئه. لا يفرح بسقوط غيره، بل إنه في هدوئه. يشيع الهدوء على الكل. ويجعل لقاءه بغيره هادئاً. سواء من جهته هو. أو من جهة هذا الغير. وإن وجد غيره هائجاً. يهدئه بالجواب اللين. وليس بالجواب المُثير.

***

٥- الإنسان الهادئ قد يكون هادئاً بطبيعته. وقد وُلد هكذا.

وقد يكون الهدوء عنده مكتسباً..

الهادئ بطبيعته لا يبذل جهداً لكي يتصرف بهدوء. لأنه ينفر بطبعه من كل ما هو غير هادئ. أما الهدوء المكتسب. فيحتاج إلى جهد وإلى تداريب روحية سنتكلم عنها في حينها. ولا شك أن كل جهد يُبذل في الوصول إلى الهدوء. له مكافأته وأجره.

وهذا الهدوء المكتسب. قد يصل إليه الإنسان تدريجياً. فإذا ما وصل. لا يعود يبذل جهداً لكي يكون هادئاً. بل إنه يصير ثابتاً وراسخاً في حياة الهدوء. وله فيها خبرات. ولذلك فإنه يحافظ على هذا الهدوء الذي اقتناه بتعب. وبمعونة كبيرة من النعمة.

وأنت يا قارئي العزيز. إن كنت غير هادئ بالطبع. فلا تيأس ولا تحتج قائلاً: ما ذنبي؟ لقد وُلدت هكذا!!

حتى إن كنت قد وُلدت هكذاً. أو ورثت عدم الهدوء عن أب أو أم. فليس هذا بعذر. لأنك تستطيع أن تغير هذا الذي ورثته. فالذي لم ينل الهدوء الطبيعي. يمكنه أن ينال الهدوء المكتسب..

وذلك بأن يدرّب نفسه على الهدوء. ويجاهد لكي يقتنيه. فالطباع التي يولد بها أي شخص. ليست بالأمر الثابت غير القابل للتغيير. فما أسهل أن يتغير. إن وجدت النية الطيبة. والعزيمة الصادقة. والتداريب الناجحة والثبات فيها.

والتاريخ يعطينا أمثلة لأشخاص كانوا عنفاء. واكتسبوا الوداعة والهدوء. بالتدريب والوقت والصبر.

***

علاقة الهدوء بفضائل أخرى:

١- يرتبط الهدوء بالوداعة والاتضاع:

فالوديع هو هادئ بطبعه. يتصرف بالهدوء تلقائياً. وهو يتصف بالبشاشة والمسالمة. وكذلك الإنسان المُتضع. فإنه لا يسيء إلى غيره. كما أنه يحتمل الغير. فيحيا مع الكل في هدوء.

٢- والهدوء يرتبط أيضاً بالحكمة

والحكيم لا يثير المشاكل. بل يتصرّف بهدوء لا تحدث بسببه مشكلة وإن قابلته مشكلة. فبحكمته يحلها في هدوء. ولا تتطوّر مُطلَقاً إلى أسوأ. كما أن الحكيم له عمقه في فهم الأمور. وعمقه في التصرف حيالها. لهذا يكون هادئاً. يعالج كل الأمور بحكمة وهدوء.

***

٣- الهدوء أيضاً يرتبط بالمحبة والسلام

فالإنسان المحب. يعيش في مسالمة وهدوء مع جميع الناس. وإن ثارت مشكلة. يتقبلها بروح المحبة. ولا يجعلها تتضخم. بل يعمل على حلها في هدوء. لأن الثورة بسبب المشكلة لا تؤدي إلى استمرار المحبة والمسالمة. وهكذا فإن العائلات التي تسودها المحبة. تحيا دائما في هدوء. لا تتخاصم ولا تتشاجر.

***

٤- الهدوء يرتبط بمحبة الهدوء. والاقتناع بفوائده الكثيرة. وبمقدار الخسارة التي تنتج عن فقدان الهدوء.

فالإنسان الهادئ يكسب احترام الناس. ويعيش في سلام معهم. بينما غير الهادئ يخسر المواقف. وتُمسك عليه أخطاء. ويخسر علاقته مع الناس. بل يخسر أيضاً سلامه الداخلي وصحته.

وغير الهادئ نفسياً. يضع هموم الدنيا كلها فوق رأسه. وبعدم هدوئه يضيف إلى تلك الهموم هماً جديداً.

٢٠٠٣/٣/١١

هدوء الأعصاب وهدوء اللسان

هدوء الأعصاب

هناك أشخاص أعصابهم هادئة. وآخرون أعصابهم مُلتهبة.

الإنسان الهادئ الأعصاب لا ينفعل بسرعة. وربما لا ينفعل أيضاً ببطء.. كأنه الجبل الراسي. أو كالجنادل الستة التي تعترض مجرى النيل في النوبة: مهما عصفت بها الأمواج. تبقى هادئة في مكانها. لا تتأثر بشيء من الصخب الذي حولها.

أمّا الشخص الثائر الأعصاب. فإنه ينفعل بسرعة. يثور ويصخب ويضج. ربما لأتفه الأسباب. أو لغير ما سبب. لمجرد شكوكه الداخلية وتصوراته للأمور.

***

الإنسان الهادئ الأعصاب. هو إنسان قوي

بهدوئه يثبت أن الأسباب الخارجية عجزت عن أن تثيره. بل أن أعصابه القوية استطاعت أن تصمد أمامها. وبسبب قوته الداخلية هذه. ينال احترام الناس وإعجابهم.

أمّا الثائر الصاخب. فمهما ثار وضج. وشتم وهدد. وبدا وكأنه يخيف غيره. فإنه لا ينال احترام أحد. ثورته تدل على ضعف أعصابه. أو ضعف شخصيته.

إن أراد أحد أن يجعله منظرا للناس وهزأة. فإنه يستطيع.

كمثال لذلك: إن وجد مدرس ضعيف الأعصاب لا يحتمل خطأ أو إثارة من طالب. فإن أي تلميذ يمكنه أن يقول لزميله: أريد أن أجعلك تتفرج على هذا المدرس وهو في حالة عصبية. ليست مُخيفة للتلاميذ بل هى مضحكة؟!.. ويتصرف التصرف الذي يعرف أن المُدرِّس سيثور بسببه.. ثم يتفرج عليه!

***

هدوء الأعصاب يتعلق بسببين: أحدهما جسدي والآخر نفسي:

والأسباب العضوية التي تتعب الأعصاب كثيرة. وليس مجالها الآن. ولكننا سنتعرض هنا إلى سبب جسدي كثيراً ما يتعب أعصاب الناس. حتى الفضلاء منهم. وهو الإرهاق.

فإن كان الجسد مرهقا بسبب التعب والمهجود الزائد. حينئذ تكون الأعصاب في حالة عدم الاحتمال.

نصيحتي لك في هذه الحالة. لا تدخل في حديث طويل ولا في نقاش مع أحد. وبخاصة مع الذين يتصفون بصلابة الرأي وليس من السهل إقناعهم.. ولا يصح في حالة الإرهاق هذه. أن تبت في أمر هام. أو تتعرض لحل مشاكل.

احترس من الجدل وأنت مرهق. فربما تفقد أعصابك..

حالة الإرهاق يلزمها النوم. أو على الأقل الراحة والاسترخاء. وعلى أحبائك أن يلاحظوا حالات الإرهاق التي تكون فيها. فلا يدخلوا معك أثناءها في مناقشة أو حل مشكلة.

***

ومن الوسائل التي تساعد على هدوء الأعصاب. روح المرح والبشاشة.

فالمرح يوجد في الجسد حالة من الاسترخاء تريح الأعصاب. وكل الذين يتصفون بروح المرح. تكون أعصابهم هادئة. ولا يتضايقون بسرعة. وربما يقابلون الإثارة بفكاهة تضحك مثيريهم أيضاً. ويهدأ الأمر.

أمّا المتزمتون الذين يظنون الضحك خطية أو نقصاً في الروحانية. فغالباً ما تجد أعصابهم متوترة.. والجدية الخشنة التي يقابلون بها تصرُّفات الآخرين. كثيراً ما تفقد الجو هدوءه فيتأزم..

أرجو أن نعود إلى هذه النقطة فيما بعد. حينما نتحدث عن مسبّبات الهدوء. وننتقل حالياً إلى الحديث عن الأضرار التي تنتج عن عدم هدوء الأعصاب.

***

الشخص الثائر الأعصاب يؤذي نفسه نتيجة لأعصابه المتوترة. كما يؤذي غيره أيضاً.

يؤذي نفسه بأمراض الأعصاب. وبما ينتج عن انفعالاته أو ثوراته من أمراض القلب وضغط الدم. وكذلك الأمراض النفسية العديدة. وقد يضطر إلى تعاطي المهدئات والمسكنات والمنومات. التي تريح أعصابه إلى حين. ثم يرجع الشد مرة أخرى بدوافع نفسية من الداخل ودوافع مثيرة من الخارج. فيرجع إلى المهدئات مرة أخرى. وربما بكميات أكبر. وتصبح أعصابه مثل الاستك الذي بتوالي شده وإرخائه. يفقد مرونته ويتلف.

ويدخل في دوامة من مشاكل الأمراض العصبية التي يحاول الطب معالجة نتائجها. بينما الأهم هو معالجة أسبابها.. وفي مقدمة ذلك: الاقتناع بالهدوء. فالنفس الهادئة لا تصاب بأمراض عصبية. ولا تحتاج إلى مهدئات. لأنها هادئة بطبيعتها.

***

الشخص الذي يتحكم في أعصابه ويهدئها. يمكنه أن يتحكم أيضاً في ألفاظه ولا يخطئ.

وكذلك يمكنه أن يتحكم في تصرُّفاته. ويكون عنده ضبط نفس. وبهذا كله يكسب المواقف ولا يخسرها. وتتحسن علاقاته مع غيره.

لذلك إن وجد إنسان أن أعصابه غير هادئة. عليه أن يؤجِّل بعض اللقاءات والاجتماعات التي يفسدها عدم هدوء الأعصاب. ويؤجل أيضاً اتخاذ قرارات وهو في هذا الحالة.

***

على أن هدوء الأعصاب يتعلق بالحياة الروحية بصفة عامة

فالإنسان الروحي يدرب نفسه على الوداعة وعدم الغضب. كما يدرب ذاته على ضبط النفس والتحكم في ألفاظه. وعلى السلام مع الناس. وبالتالي يصل إلى هدوء الأعصاب.

لذلك. للوصول إلى هدوء الأعصاب. يلزم معالجة العوامل النفسية الداخلية التي توصل إلى توتر الأعصاب.

ومن ضمنها الحساسية الشديدة نحو الكرامة الشخصية. والتأثر بأقل لفظ يظنه جارحا له. كذلك موقفه من أخطاء الآخرين ومقابلتها بالعنف. ومحاولة الانتقام لنفسه محافظة على حقوقه!.. كل هذه الأمور تحتاج إلى موقف روحي سليم. وإلى اقتناع داخلي بأنه يمكنه الاحتفاظ بشخصيته وحقوقه وكرامته بالأسلوب الهادئ.

***

ويجب أن يعرف الشخص أن ثورة الأعصاب هي من الأخطاء المكشوفة

فهي نقطة ضعف واضحة أمام الناس. تصرخ قائلة إن صاحبها عجز عن حل مشكلته بالعقل والمنطق. وعجز عن حلها بالهدوء والاحتمال. فلجأ إلى الأعصاب. والذي تثور أعصابه. يقدم دليلا على أن الشر قد غلبه. ولم يستطع هو مقاومته. فثار. حقا ما أجمل هذه العبارة: "لا يغلبنك الشر. بل اغلب الشر بالخير".

إن الثائر الأعصاب شخص منهار. أمّا الهادئ الأعصاب فهو إنسان متماسك.

اللّسان الهادئ محبوب من الكل. واللسان غير الهادئ يوقع صاحبه في أخطاء كثيرة.

يحتفظ الإنسان بهدوئه. إذا ما احتفظ بوقاره ووضع أمامه المثل القائل "الاستماع أفضل من التكلم". ولم يتكلم في ما ليس له به علم..

أمّا اللّسان غير الهادئ. فلا يستطيع أن يضبط نفسه ويصمت. فهو لا يبطل الكلام إطلاقاً. حتى في أدق نقاط العلوم. وفي أدق أخبار السياسة! المهم أن يتكلم وكفي.. حتى في أخبار الناس وسيرتهم وأسرارهم. وفي خصوصيات غيره! إنه لسان طائش غير هادئ. غير منضبط. ومن عدم هدوئه. لا يستطيع صاحبه أن يتحكم فيه. ولا أن يهدئه.

إذن يحتاج كل إنسان أن يلجم لسانه. ولا يتركه على حريته جامحاً من موضوع إلى موضوع. بغير انضباط وبغير هدوء. وإن لم يستطع فليقل مع المزمور "ضع يارب حافظاً لفمي. باباً حصيناً لشفتيّ".

***

وأيضاً من عدم هدوء اللسان: حدّة الصوت وعلوّه وصخبه

الإنسان الهادئ يتكلّم بصوت هادئ. كأنه النسيم العابر. أمّا غير الهادئ. فيتكلم بصوت كأنه العاصفة.. وإن كان الصوت العالي يستخدم وسط الجماهير لكي يسمعوا. فما لزوم استخدامه في الأحاديث الخاصة؟!

الشخص الهادئ لا يرفع صوته وهو يتحدث مع غيره. ولا يعلو صوته فوق احتياج السامع. لذلك فهو في نقاشه لا يحدث ضجيجاً.

أليس أمراً معيباً أن يتناقش البعض. فتعلو أصواتهم وتتداخل. حتى ليحسبهم سامعوهم يتشاجرون؟!

نعم. هناك أشخاص يصيحون حين يتكلّمون. ويصرخون حين يهمسون!

ويتكلّمون بسرعة وفي صوتهم ضوضاء.

***

ومن مظاهر عدم هدوء الصوت أيضاً: الألفاظ الشديدة الجارحة..

كإنسان مثلاً: كلامه شديد وصعب. كلام مرّ وجارح. ناقد ولاذع وهدّام. تخرج الكلمات

من فمه. وكأنها قذيفة اندفعت من صاروخ! بينما يستطيع أن يعبر عن رأيه وما يقصده بألفاظ هادئة.

ومن مظاهر هدوء اللسان. هدوء الحوار:

الإنسان الهادئ يناقش في هدوء. وبهدوئه يكسب من يحاوره.

أمّا المناقش غير الهادئ. فإنه يحوّل الحوار إلى عراك وشجار. تحمى فيه المناقشة. ويتوتّر الجو ويتكهرب إلى أبعد حدّ.

تجد في أسلوبه قفزاً وهجوماً. واستعداداً عنيفاً للرد قبل أن يسمع الرأي الآخر. وهو يحاورك لا لكي يفهمك. أو يصل معك إلى الحقيقة.. إنما يناقشك لكي يفحمك. ولكي يهزمك. ويحطم آراءك ويظهر ضعفك.. وأثناء المناقشة لا مانع عنده من أن يتهكم عليك وعلى آرائك. ويهزأ بك وبها.. كأنه عدو يريد أن ينتقم منك!!

***

أمّا المُناقِش الهادئ. فإنه يكسبك صديقاً له. أثناء حواره معك!

يتكلم في موضوعية. بكل هدوء بلا عصبية. ولا يتعرض لشخصك. ولا يقاطعك أثناء كلامك. وإن كنت ثائراً يهدئك.

وقد يقنعك. وتوافقه على رأيه. دون أن تشعر أنك خرجت منهزماً. هدوؤه لا يشعرك مُطلقاً أنكما خصمان. إنما صديقان يحاولان معاً أن يصلا إلى الحقيقة. بعكس المناقش غير الهادئ. الذي تحمر عيناه أثناء المناقشة. ويعلو صوته ويحتد. ويعترض في عصبية وعنف وربما في إهانة!

غير الهادئين إذا تناقشوا يقاطعون بعضهم بعضاً. وقد يكون خمسة في مناقشة. أربعة يتكلمون في نفس الوقت. وواحد فقط يسمع منهم ذلك الضجيج! وليس عند أحد من الباقين استعداد لأن يسمع غيره!!

أفكار كثيرة تتصارع. بينما الحق واحد. ولكن كل إنسان يظن أن الحق هو فكره الخاص. وكل الباقين على خطأ!! بينما بالهدوء يمكن أن تتلاقي أفكار الناس مهما اختلفت.. في هدوء الحوار المشبع بالحب.

وما قلناه عن الحوار. يمكن أن نقوله عن العتاب:

العتاب الهادئ يوصل إلى الصلح. والعتاب الصاخب يزيد الفرقة.

تعاتب الطرف الآخر فيما بينك وبينه. ولا تحاول أن تثبت له أخطاء بطريقة تجرح مشاعره. فهذه قال عنها الشاعر:

ودَع العتاب فربّ شر .. كان أوله العتابا

***

وأخيراً. ليس المطلوب فقط أن يكون اللسان هادئاً. بل بالأكثر أن يكون أيضاً مهدئاً..
حسبما يقول الحكيم "الجواب اللّين يصرف الغضب".

الشخص الهادئ يفيض من هدوئه على الآخرين. فيهدئهم إن كانوا ثائرين. أمّا غير الهادئ فيتعب أعصابهم بهياجه. ويثيرهم إن كانوا هادئين.



٢٠٠٣/٣/١٨

هـدوء القلب وهـدوء الفكـر

لا يكفي أن يكون الإنسان هادئاً من الخارج. في كلامه وفي أعصابه. إنما يجب أن يكون هادئا في الداخل أيضاً. تكون نفسه هادئة.

وهدوء النفس من الداخل. هو الذي ينبع منه الهدوء الخارجي

إن النفس التي تغلي من الداخل. حيثما حلّت يحلّ الغليان والتوتر. تعيش كشعلة: حيثما ألقيت. أحرقت وانتشرت نارها هنا وهناك. لدرجة أن أمثال هؤلاء الناس إذا دخلوا مكانا. يتهامس البعض قائلين: "يارب أستر".

***

ولكن الإنسان الهادئ من الداخل. نرى هدوءه الداخلي يفيض هدوءاً في الخارج.

نجد صوته هادئاً. ومشيته هادئة. ومعاملاته هادئة. ومناقشاته هادئة ومريحة.. وفي هدوئه لا يصيح ولا يتشاجر. بل تكون علاقاته طيبة مع جميع الناس. إذ لا يلجأ إلى المشادة أو إلى العنف مع أحد. هذا من الخارج..

أمّا من الداخل. فيتمتع بهدوء الفكر وهدوء القلب

الإنسان غير الهادئ من الداخل. تكون في داخله أفكار كثيرة: تموج وتطيش. وتروح وتجئ. ولا تثبت على حال. ففكر يجذبه إلى هنا. وفكر يشده إلى هناك. وذهنه دائم التغير. والأفكار تؤثر على نفسه لأنها غير مستقرة..

***

وغير الهادئ يُقاسي أيضاً من عدم الهدوء في مشاعره

انفعالاته وأحاسيسه غير هادئة. رغباته وآماله طائشة غير مستقرة. يجذبها الخيال أحياناً إلى آفاق عالية لا يستطيع الوصول إليها. ويحطه الفكر العملي إلى واقعه البعيد عن آماله. ويظل يضطرب بين الرغبة والواقع. فتضطرب معه انفعالاته. وقد يقع في اضطرابات نفسية عديدة. نذكر من بينها القلق..

والشخص الذي يعيش في قلق. هو فاقد لهدوئه.

فالقلق يدلّ على عدم هدوء النفس. والقلق يدفع إلى الخوف.. والإنسان المصاب بالقلق. أفكاره غير هادئة غير مستقرة...

***

والقلق قد يدعو إلى الشك.. والشك يُفقد النفس هدوءها

والإنسان الشكاك لا يكون هادئاً مُطلَقاً من الداخل. ويسائل نفسه باستمرار: هل هو على حق في شكوكه؟ وهل يجوز أن تكون شكوكه غير حقيقية؟ وكيف يمكنه أن يتحقق من هذه الشكوك ويثبتها؟

فهو يشك. ثم يشك في شكه! وتبقي أفكاره غير هادئة. وقد تعذبه نفسيا وتتعبه. وهذا التعب يزيد من عدم هدوئه.. كما أن الشك قد يتعب الشخص في علاقاته مع الآخرين..

والشك له أنواع. وكلها تفقد الهدوء:

سواء كان شكاً في وقائع أو في أشخاص.. أو شكاً في علاقات.. أو كان شكاً في عقيدة. أو في اللّه نفسه! وربما يكون الشك في مُستقبله وما ينتظره فيه... وفي كل ذلك الشك يكون العقل مضطرباً. وتكون النفس أيضاً مضطربة...

***

على أية الحالات. هدوء القلب يجلب هدوء الأفكار..

إذا كان القلب مُستريحاً وهادئاً. تصبح أفكار صاحب هذا القلب مُستريحة أيضاً وهادئة. فإذا اضطرب القلب. اضطربت أفكاره. وهكذا حسبما يكون القلب. تكون الأفكار. إن كانت في القلب عواصف وبراكين. تجد الأفكار كأنها في سوق يبيعون فيه ويشترون! وبالعكس إذا كان القلب هادئاً. تهدأ معه الأفكار..

على أن هناك أشخاصا نفسياتهم ضعيفة. يضطربون لأتفه الأسباب.

وربما لمجرد الوهم. بغير سبب حقيقي. وفي اضطرابهم يفقد القلب هدوءه. ويفقد الفكر هدوءه. وينعدم الهدوء الداخلي. ويظهر عدم الهدوء في تصرفاتهم أيضاً..

***

ومن مظاهر عدم هدوء الفكر. حالة الفكر الطائش الجوّال..

فالفكر الهادئ مركز. مُستقر في موضوع تفكيره. وله عمق في التفكير. أمّا الفكر غير الهادئ. فإنه يجول من موضوع إلى موضوع. ويطيش في أمور متعددة. كمن تطيش أفكاره

حتى أثناء الصلاة! وكما قال واحد من الآباء "إذا كانت النار طعامها الوقود. فإن الفكر طعامه الحكايات"..

الفكر الطائش غير الهادئ يهوي الحكايات والأخبار والرغبات وينتقل من خبر إلى خبر. ومن قصة إلى قصة. ومن سيرة شخص إلى سيرة شخص آخر. بل ينتقل هذا الفكر من بلد إلى بلد. دون أن يهدأ. إنه يذكرنا بالشيطان الذي من عمله الجولان في الأرض والتمشي فيها...

***

ومن مظاهر عدم هدوء الفكر. حالة الفكر النقّاد...

الفكر الذي لا يعجبه أحد. ولا يعجبه شيء! له نظرة قاتمة سوداء. فهو باستمرار ثائر على الأوضاع. يري أن الحق فيما قد ضاع! فيحتد على كل ما يعرض أمامه. حتى إن كان لا دخل له فيه. وحتى إن كان لم يدرس الموضوع ولم يفهمه! ولكنه مع ذلك ساخط على كل شيء. متذمر من كل شيء. منتقد لكل شيء. فاقد لهدوئه..

والفكر الفاقد لهدوئه. يعمل على إشاعة عدم الهدوء في نفوس الآخرين..

ينشر أفكاره القلقة غير الهادئة. يصبها في آذان الآخرين وفي أذهانهم. ويتحمس لها. ويعمل على إقناع الناس بها. وقد يفلح في ذلك أو لا يفلح. وحتى إذا لم ينجح في نشر أفكاره غير الهادئة. فإنه يسبب عدم هدوء بسبب مناقشاته...

***

ومن الأفكار غير الهادئة. الفكر اللحوح:

الفكر الذي يلحّ على ذهن صاحبه إلحاحاً. ويضغط عليه بطريقة متعبة. بينما يحاول الشخص أن يتخلص منه فلا يستطيع. وبإلحاح هذا الفكر عليه. يفقد هدوءه... وبخاصة ذلك الفكر الذي ينام به الإنسان ويصحو. وهو مستمر. يلح عليه حتى أثناء عمله. وأثناء صلاته. وأثناء راحته. بلا هوادة. وبلا انقطاع.

مثل هذه الأفكار غالباً ما تكون حرباً من الشيطان.

لأن الأفكار الروحية هادئة باستمرار. أمّا الشيطان فإنه يضغط بأفكاره بلا رحمة. ويدفع الشخص إلى سرعة التنفيذ. وهو بإلحاحه يضغط على الأعصاب ويتعبها. لكي تحسب أن التنفيذ هو أسهل وسيلة لراحتها.

إن الفكر اللحوح فكر مشاغب. لا يشاء أن يترك للإنسان فرصة للمشورة. ولا فرصة لفحص الفكر ومناقشته. كما لو كان يريد أن يرغم الشخص عليه إرغاماً..

***

ومن أنواع الأفكار غير الهادئة: الفكر المتقلب

الذي يعرض الشيء وينقلب إلى عكسه. وتارة يوافق على الأمر. وتارة يعارضه. يتحمس للموضوع حينا. ويفتر حماسه بعد حين. هو كأمواج البحر تمتد وترجع. في غير ثبات... إنه فكر متقلب. أو هو فكر مُتردِّد. يسبب لصاحبه الحيرة وعدم الهدوء وعدم الاستقرار...

أمَّا الفكر الهادئ. فهو يشبه السفينة التي تشق طريقها في هدوء. في مسار واحد. لا تضطرب فيه. ولا تنحرف يَمنة ولا يَسرة.

***

الأفكار غير الهادئة تُفقد القلب هدوءه.

وكذلك القلب غير الهادئ يكون مصدراً لأفكار مضطربة.

كل من القلب والفكر يكون للآخر سبباً أو نتيجة...

فالقلب بكل ما فيه من مشاعر وأحاسيس وانفعالات... كالحزن والغيظ والحقد. والشهوة. والاضطراب. والرغبة في الانتقام. والرغبة في السيطرة أو التملك... القلب الذي فيه شيء من هذه المشاعر وما يماثلها. لا يمكن أن يكون هادئاً... وكذلك أفكاره.

وممّا يفقد القلب هدوءه بالأكثر. الرغبات التي تطلب سرعة تحقيقها. بينما هذه السرعة لا تكون متوافرة في الواقع العملي. فيفقد القلب هدوءه.

القلب الهادئ. يرى كل شيء هادئاً. فلا يضطرب بشيء. أمّا القلب غير الهادئ. فيرى في كل شيء سبباً للاضطراب.

لذلك يضطرب. ويثير الاضطراب حيثما حلّ...!

القلب الهادئ لا تزعجه المشاكل الخارجية. وإنما يتقبّلها في هدوء. ويتناولها بعقل. ويُحلِّلها ويفحصها. ويحلّها في هدوء. ولا يسمح للاضطراب الخارجي أن يدخل إلى داخل نفسه لكي يعكر صفوها!

إنه لا يترك المشكلة تنتصر عليه. بل ينتصر هو عليها.

يقول لنفسه: لا أريد أن تزعجني هذه المشكلة. ولا أريدها أن تدفعني إلى الغضب أو النرفزة أو الحزن... ولا أن تفقدني سلامي.

أريد أن تبقى هذه المشكلة خارجي. ولا تدخل إلى داخل نفسي.

***

القلب الهادئ بحر عميق. قد تطفو المُعكِّرات على سطحه. فلا تزعج هدوءه. وإن هبطت إلى أعماقه تذوب وتتلاشى.

أمّا إن انزعج الإنسان من الداخل وفقد هدوءه. فإنه يعجز عن حلّ مشكلاته. فتزعجه. ويظهر عدم الهدوء في تصرفاته. وفي التعامل مع الناس والأحداث.

والقلب الهادئ يصلح للعمل الروحي.

أمّا إذا فقد القلب هدوءه. فإنه لا يقدر على التأمُّل. وإذا حاول الصلاة تسرح أفكاره. وإن قرأ كتاباً يسرح أثناء القراءة.

لذلك كان محبو التأمل. يبحثون عن الهدوء والسكون. لأنه في الجو الهادئ والمكان الهادئ. يمكنهم أن يمارسوا عملهم الروحي.

***

القلب الهادئ يبسط هدوءه على الإنسان كله:

هدوء القلب يسبب هدوء الفكر وهدوء الأعصاب. وهدوء الملامح. ونود أن نتحدث عن هذه النقطة الأخيرة:

قليل من الناس يستطيعون أن يتحكموا في ملامحهم.

فغالباً ما تكون الملامح كاشفة لحالة القلب.

سواء أراد الإنسان ذلك أو لم يُرِد... فإن اضطرب قلبه. يظهر الاضطراب في ملامحه. إن اغتاظ. إن تضايق. إن اشمأز. إن خاف... يظهر كل ذلك في ملامح وجهه. أو في نظرات عينيه. حتى إن سرح في أحلام اليقظة. تكشفه ملامحه.

***

ملامحه هى اعترافات غير عادية. تكشف ما في داخل القلب والفكر.

فقد يضطرب وينكر اضطرابه. ولكن ملامحه تعلق أنه غير صادق في إنكاره. وأحياناً يفقد الإنسان هدوءه القلبي. وإن سألوه عن السبب يُنكر. ولكن نبرات صوته. وحركات يديه.

ونظرات عينيه. وربما حركة شفتيه. وخلجات وجنتيه... كل ذلك ينطق بما في داخله بما لا يسمح بمجال للشك...

لا تظنوا أن القلب خزانة مُغلقة تكتم أسراره!

فكثيرا ما يكون مكشوفاً ومفتوحاً بواسطة الملامح. وغالباً ما تكون عين الشخص مرآة ترى فيها مشاعره الداخلية. وربما تقرأ فيها أفكاره أيضاً. أي إنسان لماح يستطيع ذلك... لهذا بعض الناس يلبسون نظارات سوداء. حتى لا يتمكن مجالسوهم من رؤية انطباعاتهم. وردود فعلهم. ومشاعرهم. واضحة في عيونهم.

***

القلب الهادئ. ملامحه هادئة ومُريحة

تحب أن تجلس إليه وتتأمّل ملامحه: تتأمل الهدوء العجيب الذي يفيض من القلب ويكسو الملامح... لذلك لم يكن عجيباً أن أحد تلاميذ القديس أنطونيوس الكبير يقول له: "يكفيني مجرّد النظر إلى وجهك يا أبي" .. ففي وجهه كان يرى السلام الداخلي الذي يملأ قلبه. وكان يرى كل ما في القلب من طهارة وبر.

أمّا القلب غير الهادئ. فملامحه غير مُريحة. لذلك إن لم يكن لكم هدوء القلب. فحاولوا أن تتحكّموا في ملامحكم لتكون هادئة ومُريحة.



٢٠٠٣/٣/٢٥

ومـاذا بعـد؟!

العالم الآن عالم مضطرب. يعيش في توتر. وفي قلق..

يجتمع الناس حول سؤالَيْن: ماذا يحدث؟ وماذا بعد؟

يجلسون إلـى وسـائل الإعـلام. وإلـى كل قنوات التليفزيون. وإلـى الإذاعـة. لكـي يعرفـوا إجابة هذيْن السؤاليْن: ما هى آخر الأخبار؟ وماذا يُنتظر أن يحدث؟ ولنفس الغرض يقرأءون الجرائد.

والمشرفون أيضـاً علـى وسائل الإعـلام يدورون فـي نفس الدائرة: يسألون مراسليهم فـي الخـارج: مـاذا يـرون؟ ومـاذا يسمعون؟ ومـا هـى ردود الفعل هنـا وهنـاك؟ ومـا هـى التوقعـات المنتظرة؟

ويستقدمون الخبراء من رجال السياسة. ومن رجال الحرب. ومن ذوي المعرفة والخبرة.. ويحاورونـهم فيما يحدث. ويطلبون رأيهم.

وتصـل إلـى الشـعب تقـارير تبدو بعضـها متناقضـة: فريق يعلـن أمـراً. وفريـق ينفـي مـا يُقال!! فمَنْ الذي نصدِّقه؟ ومن نكذِّبه؟ ويجيبون بأنها الحرب النفسية التي ينشرها كل فريق ضد الآخر.. ويبقى العالم في حيرة أو في بلبلة. يضيفها إلى توتره.

***

وماذا عن هيئة الأمم المتحدة؟ إنـها لم تعُد مُتّحدة!

وماذا عن مجلس الأمن؟ إنه لم يستطِع أن يحفظ الأمن!

وماذا عن زعماء الدول الكبرى. الذين وقفوا ضد الحرب؟

إنهم أيضـاً - مثـل الـدول العربيـة - يشـجبون ويـدينون. ويسـتنكرون مـا يـدور مـن حـرب ومعـارك. ويظهـرون سـخطهم. ويكتفـون بالسـخط.. وبعضـهم يسـلّمون بـالحرب كـواقـع وقـع. ويتحدّثون عن إغاثة الجرحى. وعن إرسال المؤن والتغذية. وعن إعادة الاعمار بعد الحرب! والبعض يتحدّث عن اجتماعات أخرى لهيئة الأمم أو لمجلس الأمن. وكل من الفريقين يهدِّد الآخر بالفيتو. وهكذا لا يصدر قرار من تلك الهيئات العالميـة.. ويبقى العالم في توتره وفـي انتظاره.

ويسأل البعض: هل يمكن أن ينتهي الأمر إلى حرب عالمية؟ أم أنه سيستمر في حرب كلامية؟! تدور حول تصريحات وبيانات والحرص على نوال تأييد أو تصفيق من الرأي العام العالمي!!

***

وهنا نسأل: ما هو الرأي العام العالمي؟

وكيف يُعبِّر عن رأيه ومشاعره؟ وما جدوى تعبيره؟

الحقيقة إنه يوجد انقسام. وكل فريق يزعم أن الرأي العام في جانبه. وكل فريق يحاول أن يجذب مُعارضيه إلى جانبه.

والبعض يتأرجح بين الفريقين. ومنهم من يوافق على الهدف. ولا يوافق على الوسيلة. والبعض يتمسّك بالشرعية. والبعض الآخر يتمسّك بالحل العملي وما تقتضيه الضرورة!

والبعض ينتظر ماذا ستكون نتيجة الحرب وتطوراتها. وحينئذ يمكنه أن يُبدي رأيه. وهناك من ينظر إلى مصلحته الشخصية في هذا الصراع الدائر. بغض النظر عن المبادئ والمُثل.

وأحياناً تكون الحكومات في جانب. والشعوب في جانب.

وبعض من الشعوب تعبِّر عن رأيها بالمظاهرات.

والمظاهرات على أنواع: منها ما هو هادئ. ومنها ما هو ثائر. ولكن يبقى السؤال قائماً: هل تستطيع المظاهرات أن توقف الحرب؟

أمْ هى مجرد إظهار مشاعر وتعبير عن رغبات؟ أم هى وسيلة ضغط لإرغام الدول على اتخاذ موقف؟ ثم ما هو الموقف الذي يمكن للدول أن تتخذه؟ هل تدخل الحرب؟ وفي هذه الحالة يزداد العالم اضطراباً!!

أمْ المراد أن تُبدي الدول رأيها ضد ما يحدث؟ وإن كانت الدول قد أبدت رأيها. فماذا تفعل بعد ذلك؟

أمْ المظاهرات هى لمجرّد تأييد لبعض الدول في موقفها. واحتجاج على دول أخرى في موقفها؟ أو لمجرد أن يسمع العالم صوتها؟

وهل كل المظاهرات يقودها فهم سليم؟ أم يحدث من بعضها تخريب في ممتلكات الدولة أو الأفراد "وقد حدث هذا فعلاً في وقت ما". ويكون المتظاهرون قد أساءوا إلى بلادهم. وخرجوا عن الهدف الذي بدأوا به مظاهرتهم! وتصرّفوا بغير حكمة.

***

كذلك فإن الحروب يسودها مبدأ هام هو "توازن القوى"

سواء كانت هذه القوى في العتاد الحربي من أسلحة متنوّعة وفعالة. أو من جهة العقل البشري الذي يقود الحرب. ويخطط وينفِّذ. ويحصل على الهدف بأقل خسارة.

والحرب حالياً تستخدم التكنولوجيا الحديثة. وأصبحت لا تعتمد على عدد المُقاتلين كما كانت في القديم. إنما على الأجهزة المتطورة التي تفوق القدرة البشرية. فكم تكون فاعليتها وقد استخدمتها عقول بشرية. وتدرّبت على تطويعها لأهدافها.

لذلك فالحروب تكون قصيرة في مداها الزمني. وأكثر تخريباً وفتكاً وتدميراً.. إلاّ إذا كانت الدولة المحاربة حريصة بقدر ما تستطيع على الجانب الإنساني والجانب الحضاري أثناء حربها. وهذا ما ندعو إليه. وما نصلِّي لأجله بكل قلوبنا.

***

وها نحن نسمع صوت الصواريخ وصوت القنابل. تدك المدن وتدك المباني. وتخرب البيئة والحضارة.

ويكون ضحيتها أيضاً بعض البشر من هنا ومن هناك.

ومال كثير يُستخدم في الخراب. وبعض آبار بترول تحترق!

والخير الذي أوجده اللّه لمنفعة الناس. ينثرونه هباءً.. والعقل الذي وهبه اللّه لقيادة البشر إلى الخير. يُستخدم الآن في التدمير والتخريب! وكل من الفريقين المتحاربين يظن أنه يفعل خيراً. والمنتصر في الفتك بأخيه يحسب أنها بطولة ونصر!

حقاً إنها لمأساة..

هذه النار التي تشتعل. وهذه القذائف التي تدوي. وهذه المباني التي تُهدم. وهذه الحضارة التي تندثر ويُقال إنه سيعاد تعميرها. وهذى النفوس التي تصعد إلى باريها ضحية لِمَا يحدث.

***

والذي يحدث في العراق. لا يُنسينا ما يحدث في فلسطين

نفس الخراب ونفس الضياع. ولكن بموت بطئ عن ذاك. غير انه يخلو تماماً من العامل الإنساني. مثالها تلك الفتاة الأجنبية الباسلة التي وقفت أمام البولدوزر فداسها بلا رحمة وحطّمها.

وكذلك البيوت التي جرفتها الكاسحات وهدمتها على أصحابها. والأعداد الكبيرة من القتلى والجرحى كل يوم. والنساء اللائي يترملن ومعهن أطفال يتيتمون. ونفسيات تتكسر. ويصيبها اليأس والإحباط.

والعالم للأسف واقف يتفرّج. وأكبر عامل من الرحمة نسمعه. أنه بعد حين - بعد أجل غير مُسمّى - سوف تتكوّن لهؤلاء المنكوبين دولة. أو تتكوّن للباقين منهم.

وماذا فعلت الهيئات الدولية؟ لا شيء. أكثر قلوبهم حنوّاً. تنظر إلى المأساة وتتحسر! أو تعد بأنها ستنظر في الأمر فيما بعد! وماذا عن الآن؟ وعن خسائر وضحايا كل يوم؟!

أليست هناك مسؤولية أمام الضمير؟ وأمام اللّه؟

***

يبدو أن الضمير العالمي مشغول بأمور أخرى!

أو هو ضمير غائب. أو ضمير مُستتر. كما يقول علماء النحو!!

كل تلك المآسي. ولا يتدخّل أحدٌ! وكل تلك الصرخات. ولا يسمع أحدٌ! ما أعمق تلك العبارة التي قالها سليمان الحكيم: "مَنْ يسد أُذنيه عن صراخ المسكين. يصرخ هو أيضاً ولا يستجيب الرب له".

أين العامل الإنساني الذي يتحرّك لنجدة المنكوبين والمطرودين من ديارهم؟ إننا نري العامل الإنساني في جمعيات الإسعاف والصليب الأحمر والهلال الأحمر. وفي إغاثة البلاد التي تجتاحها المجاعات والأوبئة. ولكن أين الإغاثة في المعارك والحروب؟!

لا شكّ أن اللّه يطلب إغاثة من لا مُغيث له. وإعانة من لا مُعين له. وإنقاذ من لا مُنقذ له.

***

الحروب هى أيضاً إهدار للخير الذي وهبه اللّه للعالم.

إن اللّه يريد الخير للعالم. ولكن يبدو أن العالم لا يريد الخير لنفسه. فاللّه يُعطي. والبشر يُبدِّدون ما يعطيهم اللّه إياه!!

لقد أعطى اللّه للبشرية من الخيرات ما يكفي حاجة الجميع. ولكن كم من الخيرات قد بددها الناس في الحروب والنزاعات. وفي الهدم والتخريب. بل وفي الفساد أيضاً حيث يفسد الناس صحتهم ومالهم. ويبدِّدون مالهم بعيشٍ مُسرِف!

ولعلّ الملائكة في السماء يعجبون من أهل العالم وهُم هكذا!

***

وكثير من الناس ينظرون إلى كل هذا الضياع. ويسألوننا:

هل هذا الذي يحدث هو إنذار بنهاية العالم؟

هل الحروب والصراعات والانقسامات. وهل اليورانيوم وسائر الأسلحة النووية. والغازات السامة. وكل الأسلحة البيولوجية وباقي الأسلحة المُدمِّرة هى إنذار بأن العالم سوف يهلك بعضه بعضاً؟ وهل ما يُصيب العالم من زلازل مُتتابعة ومن فيضانات وكوارث طبيعية. يُضاف إليها الأوزون في الشمس.

هل كل ذلك دليل على غضب اللّه على العالم. وسينهيه عن قريب؟!

وكم إذن غضب اللّه على ما في العالم من فساد خلقي. وانحلال فكري. ومن الحاد وما سمعناه عن "عبادة الشيطان".. وما وصل إليه العلم من غرور. حتى شاء أن يُنافس اللّه في الخلق. ويتدخّل في النسل عن طريق الاستنساخ والبويضات المُخصّبة والأرحام المستأجرة وغير ذلك من أمور وأمور لا شكّ أنها تغضب اللّه.. مع انحراف الكثيرين إلى الشذوذ!

إن العالم يقضي على نفسه بفساده الذي يعرضه لغضب الخالق. وبالحروب التي يقضي بها البعض على البعض الآخر. كما يخربون الأرض التي خلقها اللّه لراحتهم ومنفعتهم.

***

ألاَ يجعلنا التأمّل في كل هذا. أن نرجع إلى اللّه.

ونصطلح معه. ونطلب إليه أن يرضى عنا نحن خليقته.

علينا أن ننظر إلى الحالة السيئة التي وصلت إليها البشرية. وتعرّضها لغضب اللّه. ونسأل: وماذا بعد؟

وننظر إلى الحروب وما تحدثه من خراب. ومن ضحايا القتال والقتل. ونسأل أيضاً: وماذا بعد؟

وننظر إلى الخسائر التي خسرناها حتى الآن. التي مازلنا نخسرها. ونسأل أنفسنا: وماذا بعد؟

ليس العالم محتاجاً إلى نداءات دولية. وإلى اجتماعات ولقاءات. إنما هو محتاج قبل كل شيء إلى التوبة.

إنه محتاج أن يرجع إلى اللّه.

***

العالم محتاج إلى تجديد في الذهن. وإلى معرفة جديدة.

محتاج أن يعرف ما معنى القوة والسيطرة؟ وما معنى الحرية وكيفية استخدامها؟ وما معني العلم. وما حدوده؟

ويحتاج العالم أن يفكر في الأبدية أكثر ممّا يُفكِّر في مُتعة هذا العالم الحاضر. ويعمل لآخرته بما يرضى اللّه عنه.

إن كانت الحرب الحاضرة تذكّرنا بأبديتنا. وبالصلح مع اللّه. فإن هذا يكون خيراً لنا وخيراً للعالم.



٢٠٠٣/٤/١

الحيـاة والمـوت

بمناسبة الحرب القائمة الآن في العراق وفلسطين. أود أن أُحدِّثكم اليوم عن بعض نقاط خاصة بالحياة والموت.

اللَّه وحده هو صاحب السُّلطان فيما يتعلّق بالحياة والموت.

الحياة هى منحة منه. ولذلك فهى ملكه. بدايتها من عنده. ونهايتها تكون حسب مشيئته: من جهة الموعد. ومن جهة الكيفية.

وليس لأحد أن يتدخّل بمشيئته الخاصة في إنهاء حياة إنسان. أو إنهاء حياة مجموعة من الناس. وإلاّ فإنه يتدخّل في اختصاص اللَّه. إلاّ لو كان حسب أمر من اللَّه وضعه في شريعته. أو أوحي به إليه...

وإن كان اللَّه قد منح إنساناً أن يحيا. فمن حقّه أن يعيش العمر الذي أراده اللَّه له. وليس من حق أي إنسان أن يسلبه إياه...

كذلك حياة الإنسان مِلك للمجتمع الذي يعيش فيه. وله أن ينتفع بحياة هذا الفرد وبعقله ومواهبه وإنتاجه.

ومن هنا كان حرمان أي إنسان من الحياة بدون أي مسوّغ شرعي هو خطأ وشرّ ضد اختصاص اللَّه. وضد حقوق هذا الإنسان ووطنه.

***

وقد سمح اللَّه بقتل القاتل. فتؤخذ نفس عوضاً عن نفس

وسافك دم الإنسان. بيد الإنسان يُسفك دمه.

ليس عن طريق الانتقام الشخصي. إنما بالطريقة الشرعية لِمَنْ استؤمن على أرواح الناس ليُقيم العدل بينهم. ويأخذ لكل ذي حقّ حقّه. احتراماً للدم المسفوك الذي سفكه القاتل...

ولكن هناك فرقاً بين أن يأخذ أحد أقرباء القتيل بالثأر من القاتل. أو مَنْ يظنه القاتل. أو يقتل أحد أقارب القاتل.. وبين أن ثمن الدم يؤخذ عن طريق العدل والقضاء. بعد فحص

دقيق وبتحقيق. وبعد ثبوت الأدلّة. ومعرفة مَنْ هو القاتل الحقيقي. وما هى الدوافع التي دفعت به إلى القتل.

***

ننتقل إلى نقطة أخرى وهى إنهاء الحياة عن طريق الحرب...

وما هى مسؤولية الجندي الذي يشترك في الحرب؟

لا شكّ أن الحرب مسؤوليتها أكبر وأخطر. فمن جهة العدد. تزهق فيها أرواح كثيرة من الجانب المدافع ومن المهاجم أيضاً. وأيضاً من جهة السلاح ومدى قدرته في الفتك بالأرواح. يضاف إلى ذلك تعطيل الحياة بالنسبة إلى المصابين الذين قد تتحوّل غالبيتهم إلى مُعاقين. لا يحيون بالسهولة التي كانوا يحيون بها من قبل. وكذلك تعقيد حياة الكثيرين الذين يفقدون مصدر رزقهم بالخراب أو التدمير الذي تحدثه الحرب.

والبعض قد يُصاب بهزات نفسية أو عصبية مما يراه من أهوال. وما يحدث لغيره. وتأثير موت الناس عليه. أو صرخات المتألمين. أو خوف وانزعاج الأطفال أو تيتمهم أو ترمّل أُمّهاتهم.

***

إن شرور الحروب لا تُحصى. فمَنْ يتحمّل مسؤوليتها أمام اللّه. وأمام التاريخ. وأمام الضمير. وأمام المجتمع؟

إنه ليس الجندي العادي طبعاً. لأنه لا يملك من أمره شيئاً. وليس له اختيار سوى أن يطيع...

إنما المسؤولية تقع على القادة وعلى رؤساء الدول. وما يُصدرونه من أوامر. وما يضعونه من خِطط. وما يستخدمونه من أسلحة. وما يضربونه من أهداف. وما يحصدونه من أرواح...

وما هى أهدافهم من الحرب؟ وهل هُم على حق أم على باطل؟

وهل هم في حربهم. يحافظون بقدر الإمكان على العالم الإنساني. أم هم يقاتلون بوحشية. سواء وُجدت ضرورة تبرر القتل أم لم توجد!

وهل هم يعتدون على المستشفيات أو المدارس أو دور العبادة. أو الملاجئ. أو بيوت المُسنين. أو رياض الأطفال. أو ما شاكل ذلك ممّا يقف ضده الضمير..؟ وهل هُم يهدمون

مصادر الحياة مثل ينابيع المياه. أو أماكن الغذاء والدواء.. كل هذه من المحرمات في الحروب.

***

ومع أن الحرب هى ميدان قتال. إلاّ أن هناك قواعد مرعية يجب إتباعها فيها. تدخل في إنسانية الحروب أو آدابها أو قوانينها منها أسلوب معاملة الأسرى. وقد تحدثت عنه معاهدة جنيف. ويدخل في ذلك معاملة من يسلّمون أنفسهم. ويرفعون الراية البيضاء إشارة إلى وقفهم القتال. كذلك معاملة الأطفال والعجائز والضعفاء غير القادرين على الحرب. كل هؤلاء وأمثالهم ينظر إليهم من جانب إنساني.

ذلك لأن دخول البشر في الحرب لا يعني فقدانهم لإنسانيتهم، المقاتل هو إنسان. ويحارب إنساناً. وعليه ألاّ ينسى ذلك. بل إن وقع في يده أسير جريح. عليه أن يداويه حتى يُشفى. ولا يتخذها فرصة لكي يجهز عليه...

قد تضطر بعض الدول إلى الحرب. ولكنها تُدان إن دخلت فيما يسمّونه "بشاعة الحروب". وفيها يتحوّل الإنسان إلى وحشٍ كاسرٍ. ويفقد كل ما في الإنسانية من مبادئ وقِيَم وأخلاق...

ومن بشاعة الحروب استخدام الأسلحة المُدمّرة التي نهت عنها القوانين الدولية. ومنها أيضاً وسائل التعذيب المتنوّعة. ومنها قتل الأسرى...

***

وماذا إذن إن كانت الحرب دفاعية

من حق كل إنسان بل من واجبه أن يدافع عن وطنه، فكم بالأولى لو كان جندياً أو ضابطاً مؤتمناً من دولته على ذلك بل إن الضابط في تخرجه في كليته العسكرية أو معهده يتلو تعهُّداً يلتزم فيه بالدفاع عن وطنه وسلامة أراضيه.

ومن أهمية الدفاع عن الوطن. نجد أن كثيراً من الدول قد غيرّت اسم وزارة الحربية إلى وزارة الدفاع. لأن الهدف الأساسي من وجود القوات العسكرية، هى الدفاع عن الوطن وليس الهجوم على الغير.

على أننا لا ننسى أحياناً أنه من وسائل الدفاع إذا بدأت الحرب ما يسمى بالهجوم المضاد. وحينئذ يكون هدف الهجوم هو الدفاع. وليس أكثر من هذا. فلا يتوغل. وإنما يلتزم بضمان أمن حدوده.

وفي الحالين الهجوم والدفاع يجب في الحرب: الحرص على أقل عدد من الضحايا البشرية. للجيش أن يحطّم في الآلات العسكرية ليضمن عدم استخدامها ضده. أما من جهة أرواح من يقاتلونه. فيحرص على عدم إنهاء حياتهم بكل حرص. ولا يلجأ إلى القتل إلاّ في الضرورة الملزمة جداً.

لأنه كما سبق وقلت: حياة كل إنسان هى ملك للّه. واللّه وحده هو الذي له الحق في إنهائها. في الوقت الذي يشاء...

على أن شخصاً قد يلجأ إلى إنهاء حياة شخص آخر بحجة الدفاع عن الشرف. سواء كان قريباً أو عدواً...

مثال ذلك مَنْ يقتل ابنته أو أخته الزانية. أو يقتل من يزني معها. ويظن أنه يغسل شرف الأسرة بالدم!

وبهذا المنطق تُنهى حياة إنسان وهو في حالة خطيئة أو دنس. وكما يفقد حياته على الأرض. يفقد أبديته أيضاً. إذ يواجه الحياة الأخرى دون أن يُعطى فرصة للتوبة عمّا هو فيه من سقوط ونجاسة...

فالذي يُحب ابنته أو أخته إذا سقطت. عليه أن يُقيمها من سقوطها بقيادتها إلى التوبة أو إبعادها عن كل أسباب السقوط. لا أن يقتلها في خطيئتها. فيقضي عليها دُنيا وآخرة! ويظن أنه قد فعل خيراً!

***

وهناك في عالم الطب مشكلة تسمّى "قتل الرحمة"

ويقصد بها أن مريضا يتعذب في مرضه عذاباً شديداً. ولا أمل على الإطلاق في شفائه. فيرى بعض المشفقين عليه أن إنهاء حياته يكون رحمة به لتخليصه من عذابه ومن مقاساته. وفي نفس الوقت يكون رحمة بأحبائه. وهم يرونه في عذاب المرض ولا يستطيعون أن يفعلوا لأجله شيئاً.

وقد كان هذا الموضوع "قتل الرحمة" مجال نقاش وحوار. وبخاصة بين الأطباء من ناحية. ورجال الدين من ناحية أخرى. أو كان موضع حوار بين رجال الفكر بصفة عامة... ويبقى السؤال قائماً: هل من حقنا إنهاء حياة إنسان أيّا كان السبب أو الدافع لذلك. ولكن الدافع هو رحمة به؟

ثم ما هى رسالة الطبيب هل هى شفاء المريض وتخفيف آلامه. أم هى قتله ولو لتخليصه من آلامه؟ وهل الغاية تبرر الوسيلة حسب رأي مكيافيلّي؟!

ثم ما هو رأي رجال القانون في هذا الأمر؟

***

يجرنا هذا الموضوع إلى موضوع آخر مشابه. وهو:

ماذا عن قتل الجنين. إذا ثبت أنه سيكون مُعاقاً أو مُتخلفاً عقلياً، المعروف أن الإجهاض أي إسقاط الجنين ميتا. هو جريمة قتل. لأنها تعني حرمان كائن بشري من نعمة الحياة والوجود. لغير ما سبب جناه سوى أن والديه يريدان التخلص منه. أو يكون قد حبل به سفاحاً. وكما يقول الشاعر:

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيت على أحد

ولكن البعض يتحايلون على إيجاد شرعية للإجهاض بسبب آخر يرونه تبريرا له. هو إن كان الجنين سيصير بعد ولادته مُعاقاً أو مُتخلِّفاً عقلياً.. فمن أجل إراحته من هذا المصير المتعب. تنهى حياته قبل أن يولد!

وإن سألت: ما الضمان وما التأكيد في أنه سوف يولد مُعاقاً أو مُتخلِّفاً. يقولون إن الأطباء يستطيعون أن يؤكدوا ذلك بوسائل علمهم.

ويقف أمامنا نفس السؤال: هل من حقنا إنهاء حياة المعاق أو إنهاء حياة المتخلِّف عقليا. سواء كان حيّاً يعيش بيننا. أو أننا نتوقع أن يولد هكذا؟ هل من حقنا إنهاء حياته بدعوى إراحته مُستقبلاً من حياة فيها تعب؟ أمْ أن السبب الحقيقي هو إراحتنا نحن الأحياء من احتمال مثل هذا المعاق أو المتخلِّف عقلياً؟ مع أنه توجد مؤسّسات إنسانية تعني بأمثال هؤلاء المُعاقين. ويدخل عملها في الخدمة الإنسانية الاجتماعية...

***

يُذكِّرنا هذا الموضوع بعادة "وأد البنات" أي قتلهن أحياء عقب ولادتهن. وكانت عادة رديئة معروفة بين العرب في الجاهلية..

ولكن بمجيء الإسلام نهى عن وأد البنات. لأنه ما ذنب البنت أنها وُلدت هكذا؟! وأليس من حقها أن تعيش. وقد تصير عضواً نافعاً في المجتمع؟.. ولكنها كانت عادة يؤمن الناس بها لتقليل عدد الإناث. ولشهوتهم في أن يكون المولود ذكراً. يصير رَجُلاً يسند قبيلته.

سؤال آخر يعرضه البعض في موضوع إنهاء حياة الغير. وهو هل يجوز أن يقتل الإنسان غيره. في الدفاع عن نفسه؟

قبل أن نجيب بنعم أو لا. علينا أن نضع بعض تحفظات أو تحوّطات:

أولاً: هل بالإمكان أن يدافع الإنسان عن نفسه بغير قتل عدوه؟ وهل جرّب الإنسان كل الوسائل وفشل. واضطر أن يقتل غريمه مُضطراً؟

هناك من لا يساعده ضميره مُطلَقاً على قتل أحد. ولو دفاعاً عن نفسه. وهناك من يساعده ضميره أو تساعده نفسيته على ذلك.

المسألة إذن مسألة ضمير. أو مسألة قلب.. أو مدى القدرة على التخلُّص من العدو بدون قتله. أو إنقاذ النفس بطريقة ما.

وموضوع الدفاع عن النفس. قد يشمل الدفاع عن الحياة. أو الدفاع عن العرض. أو الدفاع عن القريب إذا تعرّض للموت. كدفاع شخص عن ابنه مثلاً أو عن أبيه.

***

إن إنهاء حياة الغير. فيه قسوة وجسارة قلب

والإنسان الرقيق القلب لا يستطيع أن يقتل أي كائن حي. ولو كان حيواناً. والمهاتما غاندي الزعيم الروحي للهند كان من هذا النوع.. وحتى حينما كان الإنجليز يقتلون الهنود في احتجاجهم السلمي على "ضريبة الملح". كان يأمرهم بعدم الدفاع بالمثل.. فتساقطوا قتلى. وهاجمت الصحف الإنجليزية ما يفعله الإنجليز في الهند. ووصفوا غاندي بالقداسة.

كذلك فإن مناظر الموت تثير المشاعر الإنسانية. وأيضاً مناظر الجرحى بجروح مأساوية..

وإنهاء حياة النفس التي يريدها اللّه أن تحيا. هو تدخُّل في مشيئته تبارك اسمه وكبرياء من الإنسان الذي لا يُبالي أن يقوى على غيره. ويفقده الحياة. وأيضاً لا يُبالي بأن يتيتم أطفاله. أو تترمّل زوجته. أو أن ينهدم بيته.

إن كان هذا عن إنهاء حياة الفرد. فماذا نقول عن إنهاء حياة الجماعات! بقتل جماعي لا يُفرِّق بين كبير وصغير.

فليرحم اللّه العالم كعظيم رحمته.

٢٠٠٣/٤/٨

اللجـوء إلـى اللّـه

كيف يمكن حلّ مشكلة الحرب القائمة؟

لقد فشلت نواحٍ عديدة. لجأت إليها الهيئات والدول:

** لجأوا إلى الشرعية الدولية. وإلى الاتفاقات الرسمية. وإلى عديد من الاتصالات. فماذا نفع كل هذا؟

** ولجأوا إلى مجلس الأمن. وإلى هيئة الأمم المتحدة. وأحياناً كانت تصدر قرارات "وللأسف مع إيقاف التنفيذ!!" أو قد لا يمكن الوصول إلى قرار. أو قد تجمع الغالبية على قرار. ثم يلغي الفيتو كل شيء. ويخرج المجتمعون بلا شيء.

** وظن البعض أنه بتصريحات مُعينة يمكن المساهمة في حل الإشكال القائم. وكانت تصريحات من شخصيات كبيرة. ومع ذلك لم تساهم التصريحات في حل المشكلة. وكذلك البيانات.

** وازدحمت الجرائد بالأخبار والمقالات. بعضها مُثيرة أو مُثيرة جداً. وبعضها هادئة فيها روح البحث والتحليل. كما ازدحمت وسائل الإعلام بأخبار صادقة. وبعضها بأخبار أخرى متناقضة. وبقيت المشكلة كما هي. أُضيفت إليها بعض البلبلة وكثير من القلق. ومن الاضطراب. والتفكير في سؤال خطير:

وهو: ماذا ستراه سيحدث غداً؟

** وقامت مظاهرات صاخبة في كثير من البلدان تنادي برغبات وبأحكام. وأحياناً كانت المظاهرات ثائرة. وقد نُشِرت لها صور. وعلى الرغم من ذلك بقيت المشكلة قائمة كما هي. ولم تستطِع المظاهرات أن تحلّها..!

***

وعادةً كلّما يعجز البشر عن إيجاد حلّ. ينتظرون حلاً يأتي من فوق.. فيفكّرون في اللجوء إلى اللّه. بالصلاة...

يقولون: قد تعبنا من الانتظار والتوقع. ومع قراءة الجرائد والجلوس أمام شاشة التليفزيون.. بل تعبنا من الأخبار كلها بصفة عامة. وكيف أنها تلعب بالأعصاب. وتشدها تارة إلى هنا. وتارة إلى هناك.. وكل قيادة تحاول أن تشعرنا بأن مجريات الأمور في صالحها. وأنها مُمسكة بزمام الموقف.. ثم يحدث عكس ذلك..! وتستمر الحرب النفسية من الجانبين.

وأخبار الموت والدمار. وأخبار القصف والانفجار. تدوي في أذهان الناس وأعصابهم. مثلما تدوي في ساحة القتال.

ويرى البعض أن تتبع أخبار الحرب. عبارة عن حرب أخرى للسامعين والمشاهدين والقراء. ويودون لو يبعدون عنها. ولكنها تجذبهم مرة أخرى.. وأخيراً يتجهون إلى اللَّه.

***

اللَّه هو القادر أن يغير الحال. وأن ينهي الوضع. هو الذي يفتح ولا أحد يغلق. ويغلق ولا أحد يفتح...

كل شيء في يديه. وهو على كل شيء قدير...

هو يعرف ما هو كائن. وما سيكون. وما ينبغي أن يكون دفّة الكون في يده. يستطيع أن يوجّهها حسبما يشاء...

وقلوب القادة في يده. وعقولهم أيضاً. وما أسهل عليه أن يحوّلها لتتفق مع مشيئته الصالحة.

إننا نلجأ إلى اللَّه. لأنه صاحب النفوس وصاحب الأرض. وكما يقول داود النبي في المزمور "للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها"...

هو مُدبِّر الكون. ولا شريك له في تدبيره...

ونحن نقول له: هذه النفوس التي تموت كل يوم. أليست هى من خليقتك؟ وهذه الأرض التي تُدمر: أليست هى من صنعك؟ وكل المُعرّضين للضياع. أليسوا يصرخون إليك؟

إننا نضع الأمر في يدي اللَّه. وننتظر رحمته وحكمته.. ونثق ملء الثقة بهذه الرحمة الإلهية وهذه الحكمة.

لماذا يهمل الناس الصلاة. بينما هى الحلّ المتاح؟! هى طاقة الرجاء المفتوحة أمامهم. يطلّ منها الفرج..

الصلاة هى جسر يوصل بين السماء والأرض...

هى سلّم مرتفع إلى فوق يصعد بصاحبه ليتحدث إلى اللّه. الصلاة هى مفتاح السماء. ولا يوجد مفتاح غيرها.

هى غذاء الملائكة. وأنشودة كل الجنود الروحانية.

كلمة "صلاة" مأخوذة من الصلة. لأنها صِلة بيننا وبين اللّه. وهى التي توصلنا إليه...

الصلاة مفتاح لكل باب مُغلق.

هى إحساس بالوجود في الحضرة الإلهية. وهى مشاعر القلوب المُتّجهة نحو اللّه. تناديه باعتباره مُعيناً لمن ليس له مُعين. ورجاء لمن ليس له رجاء.

وبروح الصلاة تتبدد أمام الناس كل ضيقة. وتسهل كل صعوبة. ويتضاءل القلق واليأس. ويملأ القلب شعور بأن اللّه قادر على كل شيء. وأن غير المُستطاع عند الناس. هو مُستطاع عند اللّه.

***

إنما ينبغي أن تكون الصلاة نابعة من القلب

وليست خارجة من الشفتيْن. بينما القلب بعيد عن اللّه!

الصلاة هى قلب يتكلم. أو هى قلب يصرخ أو قلب يئن. حتى لو كانت الشفتان صامتتين...

واللّه يدرك ما في القلوب. وما تريد أن تعبرّ عنه. أكثر ممّا يتحدّث به اللّسان. وربما يرتفع القلب إلى اللّه بدون كلام... ويتحدّث القلب بمشاعره. وليس بمجرد الألفاظ..

ونحن نريد قلوباً ترتفع إلى اللّه. وتقول له في ثِقة وفي إيمان... الحلّ هو من عندك. وليس لنا سواك...

أنت القوة. وأنت المعونة. وأنت المُنقِذ.

***

ولكن هل كل قلب يعرف كيف يُصلِّي؟

وهل كل صلاة هى مقبولة أمام اللّه؟

الصلاة المقبولة عند اللّه. هى التي تصدر من قلب نقي له صِلة عميقة باللّه. وله دالّة عنده... وله حياة شخصية مقبولة تجعل صلاته مقبولة...

صلاة تخرج من قلب لا يعرف الحقد ولا الكراهية. ولا يعرف الشر ولم يَسِر فيه. ولم يُسرّ به.

الإنسان المقبولة صلاته. هو الإنسان الذي يحيا في صلح مع اللّٰه. لم يعصَ في يوم وصاياه. وإن عصاه يتوب. ويعود إلى اللّٰه مُلتمساً رضاه...

وهكذا فإن طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها...

صلاته هي تدشين لشفتيه ولفكره. وهي طهارة صادرة من قلبه النقي. فيها حرارة الطلب. وكأنها لهيب صاعد إلى فوق..

فإن كنا نُصلّي ولا تستجاب صلواتنا. فلنبحث ما الذي يعوق دخولها إلى عرش اللّٰه؟! ألعلّ خطايانا عائق أمام صلواتنا...

***

إننا نعيش. في عالم خاطئ مُبتعد عن اللّٰه.

لذلك ابتعدت نعمة اللّٰه عنه. وتركته يحصد ما زرع تركته يأكل بعضه بعضاً. ويُدمِّر بعضه بعضاً...

ويتمنّى كل فريق الشر للفريق الآخر. ويفرح بالقضاء عليه!

متى يعود النقاء إلى قلوبنا. فيقبل اللّٰه صلواتنا؟

متى نرجع إلى اللّٰه. فيرجع اللّٰه إلينا. ويحنو علينا؟

متى نجد الطريق مفتوحاً أمام صلواتنا. تدخل إلى اللّٰه بدون أي عائق منا. وتكون مسموعة في السماء؟

***

إن كنا نلجأ إلى اللّٰه بالصلاة. فإننا أيضاً نلجأ إليه بالتوبة.

والتوبة هي مفتاح آخر يفتح أبواب السماء...

وإن اجتمعت الصلاة والتوبة. تكون لهما فاعلية كبيرة...

كيف أن يتوب الإنسان. حتى لو لم يصلّ. سوف يستجيب اللّٰه لتوبته. ولكنه كيف يتوب بدون صلاة؟! وله عوائق في داخله من رغباته ومن قساوة قلبه وانحرافاته!!

إن لم يستطِع التوبة. فليصلّ قائلاً: "توّبني يارب فأتوب"...

فهو يُصلّي لكي يساعده اللّه على التوبة. وهو يتوب لكي يقبل اللّه صلاته. الأمران يعملان معاً.

ومع أن الصلاة لا تكون مقبولة إلاّ إذا صدرت من قلب تائب. إلاّ أن الإنسان لا ينتظر حتى يتوب ثم يصلّي!! بل الأحرى به أن يُصلّي لكي يساعده اللّه على التوبة...

***

والصلاة لازمة أيضاً كلما أحدقت الأخطار بالإنسان

ولا سيما خطر الموت. ولذلك قال الشاعر مُحذِّراً:

قبورنا تُبنى وما تبنا　　يا ليتنا تُبنا قبل أن تُبنى.

لذلك فإنني أسأل: هل أولئك المتحاربون يُصلّون. بينما خطر الموت يطلّ عليهم؟ أمْ تراهم يعتمدون كل الاعتماد على أسلحتهم لا على صلواتهم؟! بينما الصلاة هى أقوى سلاح ينبغي أن يعتمد عليه الإنسان..!

أمْ تُرى كل فريق يصلّي ويقول "ساعدني يارب أن أقتل أخي" طبعاً سوف لا يستعمل هنا كلمة "أخي". لأنه في ساحة الحرب ينتفي الشعور بالأخوّة الإنسانية بين المتحاربين...

***

لذلك ونحن نتحدث عن الصلاة في هذه المرحلة. نشير إلى أنه من شروط استجابة اللّه. أن تكون موافقة لمشيئة اللّه...

ومشيئة اللّه كلها خير. بل هى الخير المطلق...

ونحن في صلواتنا. لا نطلب إلاّ الخير... الخير لكل أحد.

وكذلك وسيلة الخير. ينبغي أن تكون هى أيضاً خيراً...

فما هو الخير الذي تريده يارب من كل هذا؟ أمْ أنك لا تريد شيئاً من كل هذا؟

ما هى مشيئتك الآن؟ وما هى مشيئتك بعد الآن؟ في المستقبل الآتي. أو في المستقبل البعيد...

وإن كان العالم يارب لا يعمل ما هو وفق مشيئتك. فكيف تقوده إذن لتنفيذ مشيئتك على الأرض؟

أعلِن لنا يارب ما تريده. ونفّذ يارب ما تريده.

***

الصلاة أيضاً لكي تكون مُستجابة. ينبغي أن تكون بإيمان

نؤمن أن اللّه يسمعنا. ويحبّنا. ويحب لنا الخير. ويستجيب لنا في كل ما يراه خيراً لنا. وهو يُعطينا ما نصلّي لأجله بإيمان.

فإن لم يكن لنا الإيمان في صلواتنا. فلنصلّ لكي يهبنا الرب هذا الإيمان. فالإيمان يعطي الصلاة قوة. واستجابة الصلاة تقوّي الإيمان. فأعطِنا ياربّ أن نؤمن بأنك تعمل خلال الأحداث. سواء ظهر هذا لنا الآن. أو سيظهر فيما بعد.

أعطِنا أن نؤمن أنك لم تتخلّ مُطلَقاً عن العالم. ولن تتخلّى. وأنك ستدبّر كل شيء لكي يؤول إلى الخير. وحتى ما نراه شرّاً. تستطيع أن تحوّله بقدرتك وبحكمتك إلى خير...

إن عيوننا كبشر قاصرة عن رؤية وفَهْم كل ما يحدث أمامنا. وهى بلا شكّ أشد قصوراً عن رؤية ما سيحدث في المستقبل.

ولكننا مهما حدث وما سوف يحدث. نؤمن أن العالم كله في يديك. وكله خاضع لتدبيرك. وأنك لا بد ستفعل خيراً.

***

أعطِنا ياربّ أن تتفق صلواتنا مع مشيئتك الإلهية

وأعطِنا أن لا نملّ من الصلاة. إن تأخرت استجابتك وامنح صلواتنا أن تكون مقبولة أمامك مهما كنا غير مُستحقين لذلك. وارحم العالم المُتقد ناراً واضطراباً...

امنحه سلاماً وهدوءاً ...



٢٠٠٣/٤/١٥

دروس من الأحداث

هناك من يرقب الأحداث. ومن يسجِّل الأحداث. ومن يتناول الأحداث بالدراسة والفحص والتحليل.

ولكن أعظم من هؤلاء جميعاً: من يأخذ دروساً له ولغيره من الأحداث. وينتفع بها ويستفيد.

الأحداث التي تمرّ بنا ليست لمجرّد الفُرجة. فهذا هو الوضع الشكلي الظاهري للحدث. وإنما هي للخبرة. فهذا هو عُمق الحدث وما يتضمنه من دروس. وما يدعونا إلى التأمل فيه.. والذي يدرك الدروس التي تتضمنها الأحداث. يصبح إنساناً ذا خبرة في الحياة. وذا عمق.. وكلّما مرّت عليه أحداث الحياة. ازداد خبرة وفَهْماً وعِلماً...

***

ومن هنا كانت قيمة الشيوخ المُتعمِّقين كمرشدين ومُعلِّمين

إنهم خزانة من الخبرة. ومن المعرفة العملية المُستقاة من الواقع. وليس من الكتب والنظريات. وسعيد هو الشاب الذي يجلس إلى أمثال هؤلاء الشيوخ ليستمع ويستفيد..

أمّا الذي يجلس باستمرار إلى الأحداث. الذين لا يتعمّقون في الأحداث. فإنه يضيف فراغاً إلى فراغه. ولا ينمو في عقله ولا في معلوماته. ولا يتعوّد العمق..

والفرق بين النوعيْن واضح: تماماً مثل الفرق بين من يجلس إلى أستاذ لينهل من علمه. ومن يجلس إلى تلميذ مثله..

***

يستفيد من الأحداث من يتناولها برويّة وتأمُّل وعُمق. بعيداً عن الانفعالات. وعن الانقياد وراء التيار العام..

فيتناول الحدث من جميع أركانه. ويضع أمامه كل أسبابه الظاهرة والخفية. وكل تطوراته وكل نتائجه. وما يمكن أن ينتج أيضاً في المستقبل. كما ينظر أيضاً إلى كل ردود الفعل. حتى المتناقض منها..

ويناقش كل وجهات النظر في حيدة كاملة. بميزان الحق الخالص. غير مُتحيز لجانب منها. ويدرس مواضع النجاح أو الفشل. وأسباب كل منها. فهذه هي طبيعة المُحلِّل الدارس.

وعليه أن يدرس طباع الرِّجال المُتعلقين بالحدث وسيرتهم وأهدافهم. وما آلت إليه أمور كل منهم. وهكذا يأخذ درساً من كل ما يحدث. بل قد يأخذ عظة نافعة. ويستنتج منهجاً سليماً في التعامل والحياة.

***

والذي يريد أن يستفيد. يدرس الأحداث الحاضرة والماضية.

الأحداث الماضية كما رواها التاريخ الحقيقي وشهود العيان. وليس كما كُتب في تاريخ يهدف إلى سياسة وغرض.. وكذلك الأحداث الحاضرة كما تبدو بمقارنة كافة مصادرها والاستقرار على الموثوق به منها. مع الدروس المُستفادة من كل هذا.

الذي يدرس الأحداث بهذا الأسلوب. يبدو كما لو كان أكبر من عمره. وينطبق عليه قول الشاعر:

ومن وعى التاريخ في صدره ... أضاف أعماراً إلى عمره

وقد يرى أحياناً أن بعض أحداث التاريخ تتشابه. مع اختلاف في الزمان والمكان والأشخاص. وكما يقول المثل إن "التاريخ يعيد نفسه". وهذه إحدى فوائد دراسة التاريخ.

***

ومن التاريخ ندرس طباع الشعوب. وسِيَر أنواع من الناس وتصرُّفات للبعض فيها حكمة. وأخرى فيها جهالة.

فنستفيد من حكمة البعض وقد نحاكيها. ونأخذ دروسا من جهالة البعض لكي نتفاداها. وهكذا يقول البعض: لا أريد أن أقع في الخطأ الذي وقعت فيه الدولة الفلانية. أو الذي وقع فيه فلان من القادة أو من رجال السياسة..

ومن الناحية الإيجابية. يمكن الاستفادة من حكمة بعض رجال التاريخ في التصرف. وفي كيفية التعامل مع الأحداث.. وكيفية التعامل مع الخصم العنيد. والخصم المراوغ. والمتحايل. وسياسة كسب الوقت أحياناً. وسياسة الحل الدبلوماسي. وما أشبه..

***

وأحداث التاريخ نستفيد بها في وقت الحرب وفي وقت السَّلْم

لا شكّ أن دراسة المعارك الهامة في التاريخ. لها أهميتها عند رجال الحرب. من حيث قيامها وأبطالها ونتائجها. وعوامل الانتصار أو الهزيمة فيها..

* إن موقعة أبي قير البحرية قد وضع عنها الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكري كتاباً قيماً ضخماً شرح فيه تكتيك المعركة ومواضع السفن وتحركاتها. وسير المعركة ونتائجها. وتأثيرها على السياسة الفرنسية وقتذاك. ممّا كان لهذا الكتاب فائدته..

* وحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م تقوم بعض الكليات العسكرية في العالم بتدريسها. لمعرفة الحكمة في خطتها وتوقيتها. وسير المعركة وسرعتها. وطريقة عبور القناة. وبسالة الجند. وأثر هذه الحرب في سياسة مصر وفي استرجاعها لأراضيها..

* كذلك كانت لمعركة "العلمين" أهميتها في نهاية الحرب العالمية الثانية. وتغيير دفة القتال ما بين ألمانيا ودول الحلفاء. مما جعلها مجالاً للدراسة والتعليق.

* وأتذكّر أنني في سنة ١٩٤٥م، كتبت بحثاً عن النزاع بين إنجلترا وفرنسا في استعمار الهند، قدَّمته إلى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم. وكنت قد قرأت عنه مراجع هامة من دار الكتب شرحت كل معركة بتفاصيلها. ولم نقتصر في هذا البحث على هزيمة فرنسا في ذلك النزاع. إنما كان المهم هو أسباب تلك الهزيمة. ممّا يجعلها درساً في عالم الحرب.

ومن الدروس الهامة التي تجني من الحروب: الخطط الحربية والتكتيك اللازم لكل معركة. ودراسة الطوبوغرافية وما يُناسبها من خطط. ومن أنواع الأسلحة. ومن عنصر المفاجأة في الحرب. أو عناصر التمويه والمخادعة. وأساليب المناورة. ومتى يوقف القتال ومتى يستمر؟ ومتى ينفع التهديد ومتى يُسيء؟

كذلك معرفة وسائل الدفاع. ومنها أيضاً الهجوم المضاد.

كل ذلك يُرينا الفرق بين قائد دارس ومحنّك بأساليب الحرب. وله دراية بتاريخها وأساليبها. وبين قائد آخر ليست له هذه الخبرة ولا هذه المعرفة..

إن دروس الحرب ذات شقيْن: فهي من الناحية الإيجابية تعطي أسباب الانتصار. ومن الناحية السلبية تقدم عوامل الهزيمة. وكل من الأمرين له منفعته.

***

كذلك من الدروس الهامة في مجال الحرب. ما يُعرف بِاسم "ميزان القوى" Balance of Powers .

فقبل أن تدخل دولة في حرب مع دولة أخرى. لا بد أن تدرس قوتها أولاً دفاعاً وهجوماً. وقديماً كانوا يهتمون بعدد الجنود المقاتلين. أمّا الآن فالأهمية القصوى تتركّز في نوع الأسلحة المستخدمة. ومدى خطورتها. وطريقة التعامل معها أو الوقاية منها. كذلك ما هي فروع قواتها: في البر والجو والبحر...

ويُوزن كل ذلك بميزان دقيق. مع المقارنة بما يقابله في الناحية الأخرى. ومدى القدرة والمقاومة. وهل وسائل الدفاع تتوازن مع قوة الهجوم؟ وإلى أي مدى تصمد؟

***

وفي ميزان القُوى. يوضع أيضاً عنصر "التحالف"

فحالياً قد لا تدخل دولة إلى الحرب وحدها. بل قد تتحالف معها دولة أخرى أو دولتان أو أكثر. وقد لاحظنا هذا في الحرب العالمية الثانية. حينما قامت دول الحلفاء ضد هتلر. وحينما انضمت روسيا إلى الحلفاء قرب نهاية الحرب. وكان ذلك أمراً غريباً لاختلافها عنهم في الايدولوجية.. ولذلك قيل وقتذاك: لعلّه تحالف مؤقت يُعاد النظر فيه بعد الحرب.

على أيّة الأمر. ينبغي أن يحسب ميزان القوى في حالة وجود تحالفات ضد بعضها البعض. لأن التحالف قد يفتح للحرب أكثر من ميدان. فلا تكون مركّزة وضاغطة في ميدان واحد...

ولا شكّ أن الذي يقف وحده ضد تحالفات. يكون موقفه ضعيفاً. وبخاصة لو كانت تلك التحالفات لها قوتها.

***

وهنا يدخل في الأمر الحلول الدبلوماسية

من لجوء إلى معاهدات. أو إلى ألوان من التفاوض ومن محاولة كسب الطرف الآخر. بالصلح. أو بتأخير الحرب ريثما يتم الاستعداد. أو بمحاولة تحويل العدو إلى صديق. أو على الأقل اتقاء شرّه. أو العمل على كسب أصدقاء آخرين..

ومن الحلول الدبلوماسية. الدخول في مجال الشرعية الدولية. عن طريق المؤسّسات الدولية كمجلس الأمن وهيئة الأمم المُتحدة ومحاولة ممارسة ضغوط سياسية على الطرف

الآخر. أو العمل على إيجاد صلح. أو الدخول في هدنة. إن كانت الحرب قد بدأت بالفعل...

ومن دروس الأحداث لا ننسى أموراً في حديث الحرب والسَّلْم:

** لا ننسى الاستعداد للحرب. حتى وقت السَّلْم:

فكلما كانت الدولة مستعدة. لا يطمع فيها الطامعون. إذ يرون قوتها. وأسلحتها المتطوّرة. والتدريب المستمرّ لقواتها المسلّحة. وما تقوم به من مناورات. وما تتزود به من تكنولوجيا الحرب. وما تبرمه مع دول أخرى من اتفاقات دفاع مُشترك..

* كذلك لا ننسى ما تقوم به بعض الدول من أساليب الحرب النفسية. لتقوية الروح المعنوية عند جنودها وأفراد شعبية. وما تحدثه تلك الحرب النفسية من تأثير عند خصومها.. ولكن تلك الحرب النفسية قد تفقد تأثيرها. أو تتحوّل إلى العكس. عن طريق المُبالغة فيها. فيكتشف الخصم زيفها. وتصير لوناً من الدعاية الباطلة بلا تأثير ولا فاعلية.

***

ومن الدروس الهامة: الأخطاء أثناء الحروب:

** من هذه الأخطاء: الاعتداء على المدنيين. الذين لا علاقة لهم بالحرب. وليسوا عسكريين مُتنكّرين في زي مدنيّين.

من ذلك الاعتداء على الأطفال والنساء. وعلى المستشفيات. وبيوت العبادة. وعلى لوازم الحياة بالنسبة إلى الناس مثل مصادر الماء والكهرباء. وتدمير المنشآت التي لا تخدم أي غرض حربي كمساكن المدنيين وتخريب مؤسّساتهم وطرق مواصلاتهم.

* ومن أخطاء الحرب: استخدام الأسلحة الفتاكة. كالغازات السامة. وكافة الأسلحة البيولوجية. والقنابل الذرية والهيدروجينية. والنابالم. وكل الأسلحة غير المصرح بها دولياً.

* ومن أخطاء الحرب المعاملة غير الإنسانية للأسرى.

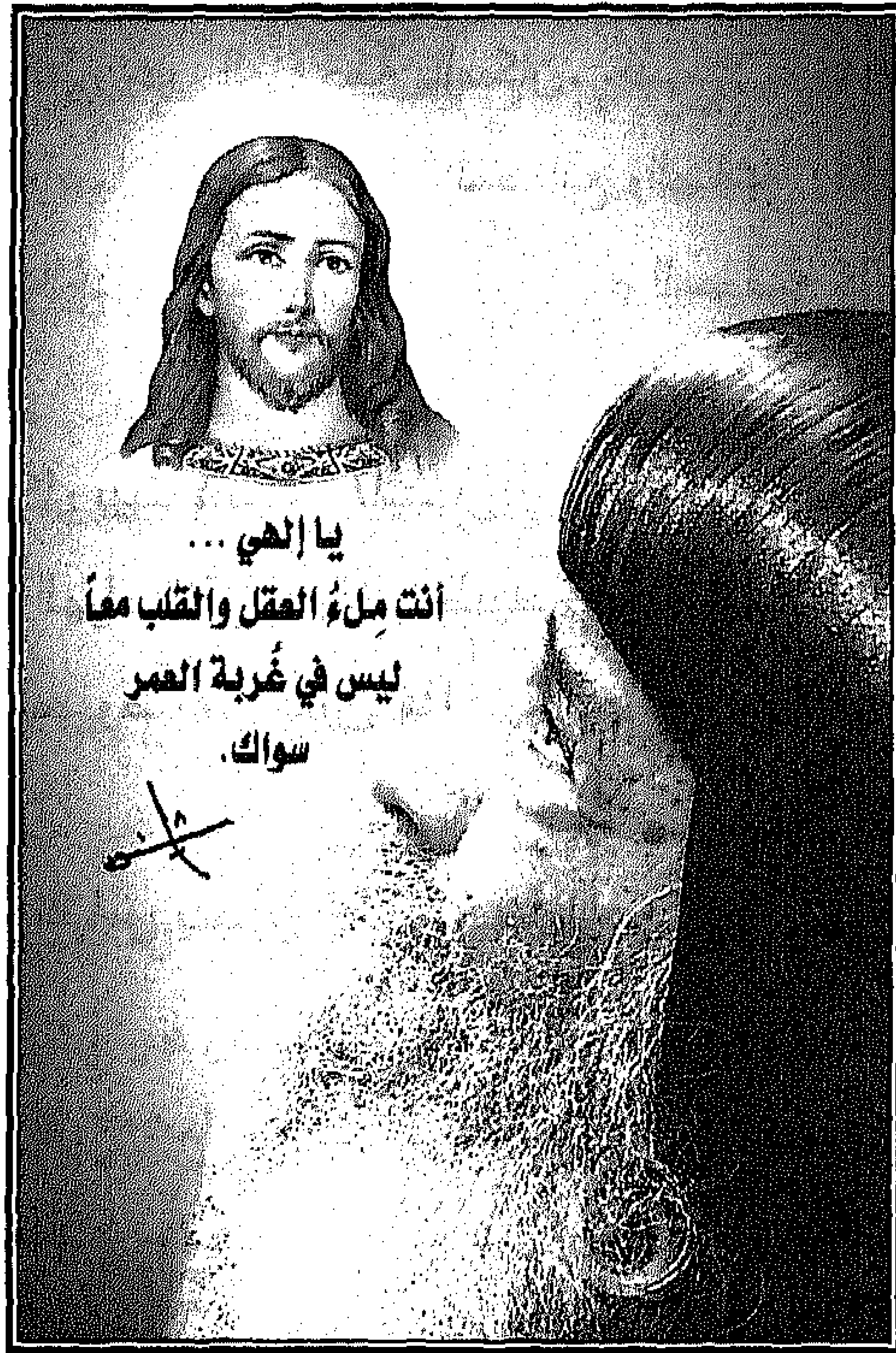
لكل هذا أمكن من تسموا في الحروب الماضية بمجرمي الحرب، وطولب بمحاكمتهم دولياً. أو على الأقل ساءت سمعتهم في التاريخ.

ونذكر في أحداث التاريخ أمثلة طيبة:

* منها "المهاتما غاندي" الزعيم الروحي للهند. الذي كانت سياسته هى "المقاومة السلمية" دون اللجوء إطلاقاً إلى الحرب. أو قتل إنسان حتى في مجال الدفاع عن النفس.. وبهذه المقاومة السلمية. واحتمال الاضطهاد والسجن. أمكنه الحصول على الاستقلال لبلاده من أيدي الحكم الإنجليزي.

* ومن الأمثلة الطيبة الزعيم الأفريقي "مانديلا" الذي احتمل السجن سنوات طويلة. وخرج منه ليحكم بلاده ولكي ينقذها من سياسة الاضطهاد العنصري من البيض ضد السود.

* ونذكر من قصص التاريخ "ثورة يوليو" في مصر التي غيّرت نظام الحُكم دون أن تسفك دماً لأحد من الأسرة المالكة كلّها. وخرج الملك السابق من مصر بكرامته إلى حيث استقر خارجها.



٢٠٠٣/٤/٢٢

هــدوء الطبيعــة وهــدوء البيئــة

هدوء الطبيعة

الطبيعة الهادئة تنقل هدوءها إلى النفس.

وهدوء الطبيعة يُساعد على هدوء الطبع.

من أجل هذا يخرج الناس إلى الحدائق والبساتين. حيث مناظر الطبيعة الجميلة تهدئ الأعصاب. وإن لم يستطيعوا ذلك بصفة دائمة. فعلى الأقل في أيام العطلات. والأثرياء يسافرون إلى بلاد ذات طبيعة جميلة. وكثير من الناس - على الأقل - يضعون في بيوتهم زهوراً في أوان خاصة. أو يُزيّنون جدران منازلهم ببعض مناظر طبيعية مريحة.

***

والبعض يختارون مساكنهم في أحياء هادئة.

ويسكنون في الضواحي غير المُزدحمة بالسكان. حيث لا توجد مُعكّرات للهدوء كالآلات والماكينات. وصخب المواصلات. وضوضاء المصانع والمتاجر وما إلى ذلك..

وبعض الضواحي والمُدن الجميلة. لا تسمح ببناء المساحة كلّها. وتحدِّد مقدار ارتفاع المساكن.

ولذلك توجد حول كل بيت حديقة. بأشجار وأزهار. فتعطي المكان جمالاً. ويتمتع كل شخص بكمية كافية من الهواء النقي. مناظر طبيعية جميلة تجلب الهدوء إلى النفس. وإذ لا يكثر عدد السكان. تقل الضوضاء. ويكون هذا سبباً آخر من أسباب الهدوء..

***

وما أكثر من كان الناس يلجأون إلى تغيير الجو في أماكن هادئة. التماساً لهدوء الأعصاب.

حتى أن بعض القادة والرؤساء. كانوا في قمّة مشغولياتهم ومسؤولياتهم. يتركون كل ذلك إلى مواضع هادئة - كشاطئ بحيرة مثلاً - عارفين أن راحة أعصابهم تساعدهم على تحمل المسؤوليات بقوة أوفر. وأيضاً لأنهم يرون أن فترة الهدوء تُعين على تجديد الذهن وتصفيته.

وكانوا يسمّون تلك الفترة Retreat. والبعض كانوا من أجل ذلك يبنون ما يسمّونه Retreat Houses لِمَنْ يشاءون فترات هدوء والبعض كانوا يذهبون إلى أماكن خلاء..

***

والآباء الذين كانوا يعيشون في هدوء البرية. كانوا هادئين

إذ لم تكن هناك أسباب خارجية تُثيرهم أو تُزعجهم. لذلك كانت نفسياتهم هادئة. ولهم هدوء في الفكر وفي القلب. وطول أناة في مُعالجة الأمور. وكانوا يُقدِّمون نصائح هادئة لِمَنْ يسترشد بهم. وقد وضعوا أمامهم هذا المبدأ:

بهدوء الجسد وهدوء الحواس. يُقتنى هدوء النفس..

وكانوا يفضّلون هدوء الليل على ضجيج النهار. وفي الليل الهادئ. تكون أفكارهم أكثر عمقاً وتأملاً.

أتذكّر أنني كتبت في مذكرتي. في إحدى الليالي مُنذ أكثر من أربعين عاماً. وأنا في مغارتي في الجبل. هذيْن البيتيْن:

هدوء الليل موسيقى وأسرار تُهامسني

وصوتُ الريح في رفقٍ يصُبّ اللّحن في أُذني

وللأسف فإن غالبية المُدن قد أفسدت هدوء الليل!

وجعلت الليل مجالاً لصخب الملاهي والحفلات بكافة مجالاتها وبرامجها وضجيجها. وابتعد فيها الليل عن الهدوء وعن اللّه.

إن الإنسان المُحبّ للهدوء. يمكنه أن ينتج في الطبيعة الهادئة لذلك يبحث عن هدوء الطبيعة. حيث يكون عقله أكثر صفاءً.

في الجو الهادئ يتصرّف بتعقُّل واتزان. ويحل مشاكله - إن وجدت مشاكل - في هدوء، بغير قلق ولا اضطراب، بل الهدوء يعطيه فرصة للتفكير. وفي غير الهدوء يكون فكره مُشتتاً. وإذا اضطرب الجو من حوله. يتعرّض هو أيضاً للاضطراب. ولا يجد حلاً.

لهذا كان الحكماء يبحثون عن البيئة الهادئة. التي يمكن فيها لكل منهم أن يُفكّر بهدوء. ويكون تفكيره رصيناً وقوياً. ويستطيع أن يفهم وأن يستنتج. وأن يلمّ بالموضوع. ويُدبّر. وهكذا فالقلب الهادئ. تكون حلوله هادئة.

***

هدوء البيئة

هدوء البيئة يساعد على هدوء الحواس والحواس هى أبواب للفكر. تجلب للعقل أفكاراً من نوعها.

والحواس المُضطربة تجلب للعقل أفكاراً مضطربة وممّا يتعب الحواس في البيئة. ويتعب معها الفكر. كل ما يختص بالمساكن. والأصوات. والأضواء. والألوان. والمواصلات. والتليفونات..

***

فازدحام المساكن في المدينة - أيّة مدينة - يُسبِّب ضوضاء وصخباً للحواس..

وبخاصة في الشوارع التجارية من المدينة. حيث يزدحم الناس بطريقة غير عادية. وكذلك في الأماكن التي تكثر فيها المصانع والمعامل والجامعات والمدارس والمستشفيات. وما يمكن أن تسمّى "منطقة الخدمات" في المدينة.

ويرتبط بكل هذا. تعدُّد طرق المواصلات. وما تحدثه من أصوات ومن ضجيج.. وبخاصة في ساعات بدء وانتهاء العمل في شتى المصالح. ممّا يسمّونه The Rush Hours حيث يخرج آلاف من الطلبة والموظفين ورجال الأعمال. إمّا بعرباتهم الخاصة أو في البحث عن الأتوبيسات وعربات الترام وعربات الأجرة..

وهنا يبدو ضجيج المدينة في عُمقه. ممّا يتعب مُحبّ الهدوء. ويُفقِده هدوء الحواس.

وقد تتعطّل المواصلات من كثرة الزحام. وبخاصة في المُدن الكبيرة المُزدحمة بالسكان. وما يتبع كل ذلك من مشاكل وانفعالات وتعطُّل مصالح البعض وغير ذلك.

لهذا كلّه يُفضِّل البعض السُّكنى في الضواحي Suburbia لأنها أكثر هدوءاً من العواصم الكبرى. ولأنه لا يُسمح ببناء إلاّ ثلث أو ربع مساحة الأرض. ويبقى الباقي كحديقة مثلاً. كما تبعد المساكن عن بعضها البعض. وهذا يساعد على الهدوء. وكذلك تساعد الخُضرة على تنقية الجو وهدوء الأعصاب.

***

أمثال هذه الأماكن الهادئة. هى الأماكن السكنية في المدينة.

ونظراً لارتفاع ثمن الأراضي حالياً. ولكثرة السكان وأزمة المساكن. فإن أمثال هذه البيوت المُريحة الهادئة من الصعب أن تتوفر إلاّ للقادرين مالياً، الذين يُحبون الهدوء والسكون.

وتلافياً للنقص تحاول بعض المُدن. أن تُخصِّص في تخطيطها قطعاً من الأرض داخل المدينة لتكون حدائق عامة كمتنفسي لأُناس. على أن أمثال هذه الحدائق - على الرغم من ناحيتها الجمالية والصحية - إلاّ أنها غالباً ما تكون مكاناً صاخباً من جهة الصوت بسبب كثرة المُتردِّدين عليها ولعب الصغار فيها. وهكذا تتحوّل إلى مكان للترفيه وليس للهدوء...

***

الماكينات

ممّا يُزعج الهدوء أيضاً وجود أماكن صناعية داخل بعض المُدن بما فيها من ماكينات. التي وإن يسّرت الإنتاج. وساعدت على نشر المدنية والحضارة. إلاّ أنها تُفقِد المكان الكثير من هدوئه. فتفقد المدينة هدوء الصوت. وتدخلها في جو من السرعة بحيث يفقد سكانها هدوء الأعصاب أيضاً.

لذلك فغالبية مُدن الغرب. تجعل للصناعة منطقة خاصة Zone لا تتداخل مع المنطقة السكانية. وهذا طبعاً لم يحدث مع مدن قديمة. مثل حلوان ومصر القديمة. حيث توجد المدابغ والمحاجر والمصانع. ومع تعكير الصوت يوجد تعكير الجو أيضاً ممّا نرجو أن يوجد حلّ له. وإيجاد مصالحة بين الناحية الاقتصادية والنواحي الصحية ولزوم الهدوء للسكان...

***

الماكينات والآلات وبخاصة في التكنولوجيا الحديثة. تسبّبت في البطالة. إذ تقوم الآلة بما كان يقوم به عشرات من العمال.

ونلاحظ هذا في عديد من مجالات العمل. كما في مجال البناء والتعمير. وفي الزراعة والري. وفي أنشطة الكمبيوتر بصفة عامة.

حتى أنه عندما ظهرت الآلات في بدء عصر النهضة منذ حوالي خمسة قرون. عُرف ذلك في التاريخ بإسم "الانقلاب الصناعي". فكم بالأكثر تطوّر الآلات بشكل خطير في عصرنا الحاضر!

والبطالة ولا شكّ تؤثّر على هدوء العالم، إذ توجد طبقة ضخمة من العمال والموظفين قلقة على مصيرها ومعيشتها. وأصبحت البطالة مشكلة في كثير من أقطار العالم وفي كثير من البلاد المتمدنة التي تحل فيها الآلة محل الإنسان!

***

نحن لا نستطيع أن نلغي الآلات. بعد أن استقرت علمياً. وصار لها تأثيرها في المدنية والاقتصاد..

ولكن هدفنا في هذا المقال أن نتحدّث عن تأثيرها في الهدوء. سواء من جهة أصواتها وتأثير ذلك على الحواس. وسرعتها وتأثير السرعة على الأعصاب. بالإضافة إلى ما تسبّبه من بطالة. ونتائج تلك البطالة من الناحية الاجتماعية والخلقية وإزعاج الهدوء النفسي.

يُضاف إلى كل هذا. بعض الماكينات والآلات التي تلوّث الجو بالدخان والبخار. وما يتسبّب عن ذلك من تأثير على الصحة يُفقِد الإنسان هدوءه...

***

الأصوات والأضواء

الأصوات العالية تزعج الهدوء.

سواء ما يصدر عن القطارات والعربات. وآلات التنبيه في العربات. وأصوات الدراجات البخارية "الموتوسيكلات". وأصوات الطائرات. ومُكبِّرات الصوت التي يستخدمها كثيرون بطريقة مُزعجة. وأصوات الباعة في الأحياء الشعبية.. إن صخب الأصوات في المدينة يُفقِد أهلها هدوء الحواس. وبخاصة إن كانت هذه الأصوات تعلو. ويتداخل بعضها في البعض أحياناً. وبدون ضابط..

حتى في أحاديث الناس العادية:

هناك من يتحدّثون في هدوء بغير صخب. بينما يتكلّم غيرهم فيسبّبون ضوضاء يُفقِد المكان هدوءه. ويشعر سامعوهم كما لو كانوا في شجار أو في معركة..!

لذلك قد تكون التليفونات أحياناً سبباً يُفقِد الناس هدوءهم.

وذلك إذا ما أكثر الناس استعمالها. وطالت أحاديثهم. وأفقدت الإنسان إحساسه بملكيته لوقته. أو أشعرته بأنه قد فقد حُريّته. أو أن أعماله قد تعطّلت. وبخاصة لو كانت تلك المكالمات في أوقات غير مُناسبة. أو كانت مُتتابعة.

لذلك فإن الذين يريدون تقضية وقت هادئ. يبعدون عن التليفونات واستخدامها. ويقصّرون ذلك على الضروريات فقط. أو يعهدون إلى سكرتاريتهم بالرد على التليفون. أو يجعلون أرقامهم سريّة ولا يُعرِّفون بها إلاّ الخاصة. أو يستخدمون مع التليفون Answering Machine.

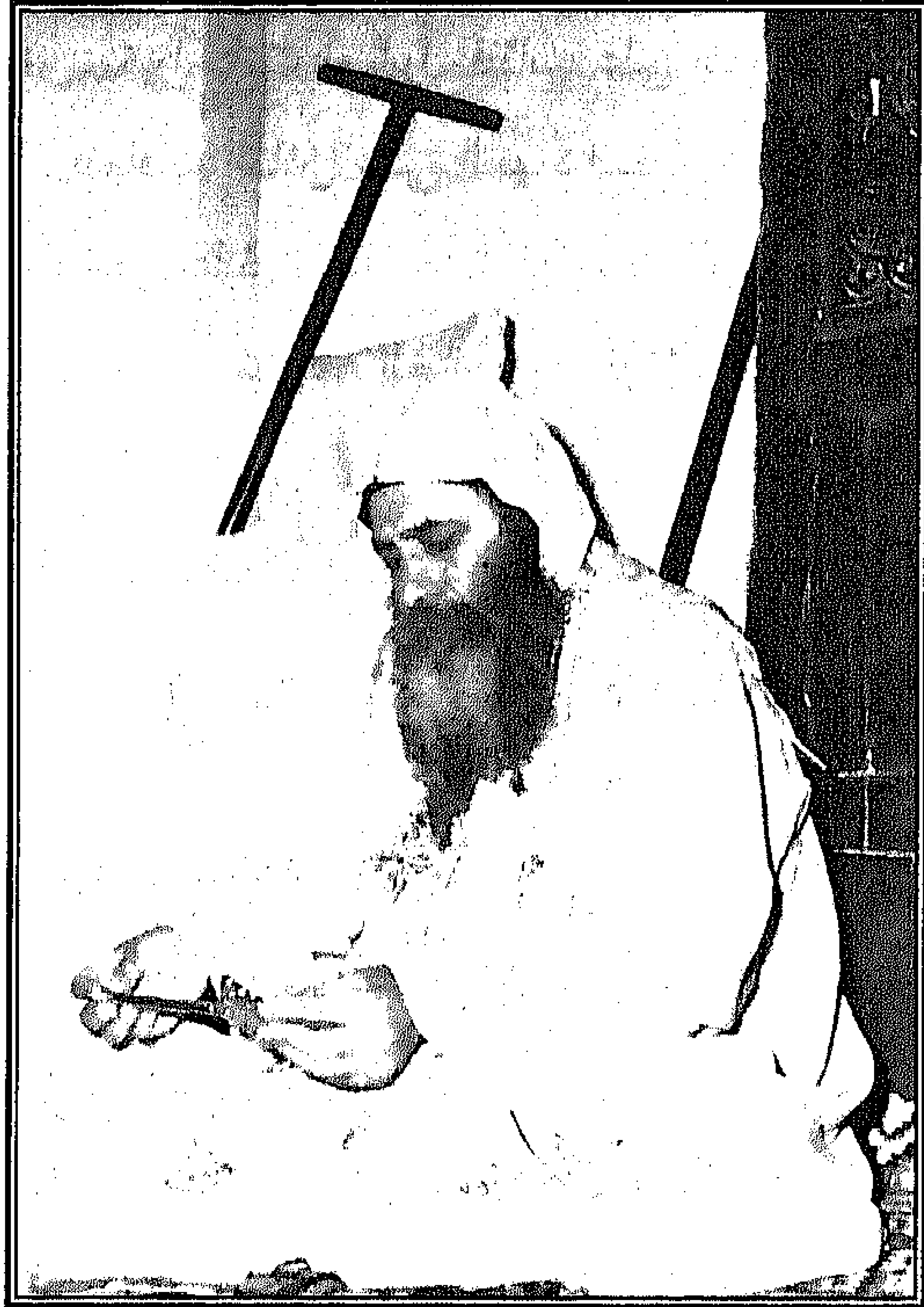
***

الألوان

للألوان أيضاً علاقة بالهدوء. فمنها ما يُشيع الهدوء في النفس. ومنها ما هو مُثير كاللون الأحمر مثلاً. إلاّ لو كان مجرّد تنوّع في مجموعة.

لهذا كثيرون يهمهم اختيار الألوان في ملابسهم وأثاثاتهم والصور التي يعلّقونها. وأنواع الزهور التي يختارونها أو يهدونها لغيرهم.

نذكر أيضاً الأضواء. فالأنوار الشديدة تتعب العين والأعصاب. كذلك الكشافات الشديدة تتعب السائقين في الاتجاه المُضاد.



٢٠٠٣/٤/٢٧

القيامة ضرورة وقوة

أهنئكم يا أخوتي وأحبائي بعيد القيامة المجيد. راجياً لكم حياة سعيدة. مُباركة من الرب ثابتة في محبّته.. ومُصلّياً معكم من أجل الشرق الأوسط واستقراره. وبخاصة في العراق وفلسطين. طالباً لهما من اللّه أن يحقّق أمنياتهما في مستقبل أفضل لخير بلادهما وخير شعبيهما. كما أصلّي أيضاً من أجل سوريا الحبيبة أن يحفظها اللّه سالمة..

وأود بهذه المناسبة أن أحدثكم عن القيامة. وكيف أنها ضرورة ولازمة. كما أحدثكم أيضاً عن قوتها..

***

القيامة ضرورة

إنها ضرورة لأسباب عديدة. نذكر منها:

١- إنها لازمة من أجل تحقيق العدل، من أجل محاسبة كل انسان على أفعاله التي عملها خلال حياته على الأرض. خيراً كانت أم شراً. فيثاب على الخير. ويعاقب على الشر.

ولو لم تكن قيامة. لتهافت الناس على الحياة الدنيا. وعاشوا في ملاذها وفسادها. أو عاثوا فيها ظلماً وطغياناً. غير عابئين بما يحدث لهم بعد ذلك...!

وإن لم تكن قيامة. لسادت شريعة الغاب. واستبد القوي بالضعيف. دون خوف من عقوبة أبدية..!

أمّا الإيمان بالقيامة. وما يعقبها من دينونة وحساب وجزاء. فإنه رادع للناس. إذ يوقنون أن العدل لا بد سيأخذ مجراه. إن لم يكن في هذا العالم. ففي العالم الآخر..

***

٢- القيامة ضرورة من أجل تحقيق وعد اللّه:

لقد وعد اللّه الإنسان بالخلود. أي بالحياة الأبدية. وهذا الوعد هو للإنسان كله. بروحه وجسده. وليس للروح فقط.

فلو أن الروح وحدها هى التي أتيح لها الخلود والنعيم الأبدي. حينئذ لا يمكن القول بأن الإنسان كله قد تنعم بالحياة الأبدية. وإنما جزء واحد منه هو الروح. بينما حُرم الجسد إذن

فلا بد بالضرورة أن يقوم الجسد من الموت. وتتحد به الروح. ويكون الجزاء الأبدي للإنسان كله.. نقول هذا. ونحن ندرك تماماً قصر الحياة على الأرض إذا ما قيست بالأبدية. والمعروف في الرياضة أن أي رقم إذا قُسم على ما لا نهاية. يؤول إلى صفر..!

***

٣- والقيامة ضرورة من أجل كرامة الإنسان.

ومن أجل تمييزه عن سائر الكائنات الحية الأخرى..

ولولا القيامة لكان مصير الجسد البشري كمصير أجساد الحيوانات! فما هى اذن الميزة التي لهذا الكائن البشري العاقل الناطق. الذي وهبه اللّه من العلم موهبة التفكير والاختراع. والقدرة على صنع مركبات الفضاء التي توصله إلى القمر وتدور به حول الأرض وترجعه إليها سالماً ومزوداً بمعلومات جديدة! هذا الإنسان الذي قام بمخترعات أخرى مذهلة مثل الكومبيوتر. والإنترنت. والموبيل فون. والفاكس. وغير ذلك في مجالات العلوم والطب والحرب والتنمية.

هل يعقل أن هذا الإنسان العجيب الذي سلّطه اللّه على أنواع عديدة من كائنات الطبيعة. يؤول جسده إلى مصير كمصير بهيمة أو حشرة أو بعض الهوام. فيموت ويتحول إلى تراب ولا يقوم؟! إن العقل لا يمكن أن يصدق هذا!!

إن كرامة جسد هذا المخلوق العاقل الناطق المُبتكر. لا بد أن تتميز عن باقي الكائنات الحية غير العاقلة وغير الناطقة. التي هى تحت سُلطانه.. والتي يقوم هو لها بواجب الرعاية والاهتمام إذا أراد. أو أن يقوم بحق استخدامه لها..

***

٤- والقيامة أيضاً لازمة من أجل التوازن:

ففي الحياة الأرضية. لا يوجد توازن بين البشر. ففيها الغني والفقير. المتنعم والمعذب. السعيد والتعيس. المحترم والحقير.. فإن لم تكن هناك مساواة على الأرض. أو حتى نوع من التقارب الممكن المعقول. فمن اللائق أن يوجد توازن في الحياة الأخرى. وهذا هو المنتظر في القيامة.. فمن لم ينل حقه على الأرض. يمكن أن يناله في العالم الآخر.. فالقيامة تعطي للمعدمين على الأرض أملاً ورجاءً..

٥- والقيامة لازمة لتعطي تعويضاً للمحتاجين إليه:

نعطي مثالاً لهذا. كل ذوي العاهات على الأرض: فالعمي مثلاً الذين عاشوا حياتهم على الأرض لا يبصرون شيئاً. هؤلاء ينالون تعويضاً في القيامة فيبصرون. ويعوّضهم اللّه في الحياة الأخرى عما فقدوه على الأرض.

ونفس الكلام نقوله أيضاً عن الصم والبكم. وعن كل الذين فقدوا حاسة معينة. أو عضواً من أعضاء الجسد.. ونقول ذلك أيضاً عن المشوّهين. والذين لم يكن لهم حظ من الجمال.. كل أولئك. القيامة ضرورة لهم لتعويضهم.

***

٦- القيامة أيضاً لازمة لتقدِّم لنا الحياة المثالية التي فقدناها هنا على الأرض:

تقدم لنا صورة الإنسان المثالي الذي بلا خطية. بل لا يعرف مجرد فكر الخطيئة. وحياته براءة كاملة وبساطة ونقاء..

كذلك تقدم لنا خبرة العِشرة الطيبة مع اللّه وملائكته وقديسيه..

مع صورة للحياة الجميلة الرائعة في العالم الآخر. حيث لا حُزن ولا بكاء. ولا مرض ولا تعب. ولا فساد ولا ظلم. ولا عيب ولا نقص. بل حياة النعيم الأبدي.. ما أجمل هذا وما أروعه!

***

٧- بالقيامة نرى السماء. ونحيا فيها:

لأنه أمر مُحزن حقاً. أن تكون كل حياتنا على الأرض. في علاقة دائمة مرتبطة بالمادة..! وتبقي علاقتنا بالسماء مجرّد علاقة فكرية نظرية. دون أن نرتبط بها عملياً ونختبر الحياة فيها...

ولكننا بالقيامة سوف نحيا في السماء. فيكون الارتقاء بالقيامة ليس فقط لطبيعتنا. إنما أيضاً لمكان سكنانا.

***

٨- القيامة ضرورية لجمع شمل الأحباء:

سيكون أمراً مُحزناً بلا شكّ. لو أن الموت استطاع أن يفصل أفراد الأسرة الواحدة. فلا يرون بعضهم بعضاً بعد موت كل منهم. وكذلك الفصل بين الأصدقاء والأحباء. وكل الذين

تزاملوا معاً وتعاونوا في هيئة واحدة أو في عمل واحد.. ويرى كل هؤلاء - أنه بالموت - انتهى اللقاء بينهم إلى الأبد!

إنها حقاً تكون مأساة في عالم الحُب والصداقة والزمالة. وفي عالم القرابة والأُسرة أيضاً. أن تنتهي كل تلك العلاقات الحميمة والعميقة إلى شيء. وتصبح وكأنها كانت مجرّد خيال. أو كانت مجرّد قصة وطويت صفحاتها...!

لذلك فالقيامة ضرورة لجمع شمل كل أولئك. واستمرار العواطف والمشاعر. وتحويل الحُزن إلى فرح.

***

٩- القيامة ضرورة أيضاً لانتصار الحياة

لقد خلقنا اللّه لكي نحيا. لا لكي نموت. ولكن بسقوط الإنسان الأول في الخطيئة. تعرّض لحكم الموت. وملك الموت على جميع البشر. وانتصر على الحياة التي فيهم ووضع لها حداً.

ولم يكن لائقاً أن ينتصر الموت على الحياة.

وكان الحل هو القيامة. فإذا باللّه الحنون الحكيم. الذي سمح أن يدخل الموت إلى طبيعتنا. يسمح أيضاً أن تدخل القيامة إلى طبيعتنا. وبالقيامة انتصرت الحياة أخيراً. وكان انتصار الحياة فوق ما نتصوّر. لأن اللّه لم يمنحنا بالقيامة حياة عادية. بل حياة أبدية.

***

القيامة قوة

إن القيامة بلا شكّ هى دليل على قدرة اللّه غير المحدودة:

اللّه الذي خلق الوجود كله من لا شيء. هو قادر أن يُعيد الحياة إلى من يشاء في هذا الوجود. وإن كان قد خلق أجسادنا من تراب الأرض. فهو قادر أن يُعيدها من تراب الأرض مرة أخرى.. أليس هذا أسهل بكثير من خلقه الكون من العدم؟! من العدم خلق تراب الأرض. ومن التراب خلق الإنسان...

أيهما الأصعب إذن؟ الخلق من العدم. أمْ إقامة الجسد من التراب؟

إن الذي يقدر على العمل الأصعب "وهو الخلق". من البديهي أنه يقدر على العمل الأسهل "وهو إقامة الأجساد". والذي منح الوجود. يقدر بالحري على حفظ هذا الوجود.

فالذي يتأمّل القيامة من هذه الناحية. إنما يتأمّل القدرة غير المحدودة التي لإلهنا الخالق. الذي يكفي أن يريد. فيكون كل ما يريده. حتى بدون أن يلفظ كلمة واحدة. أو يصدر أمراً.. إنها إرادته الالهية. التي هي في جوهرها أمر فعّال قادر على كل شيء.

إننا نسمّي القيامة معجزة. ليس لأنها أمر مُعجز أو صعب. وإنما لأن عقلنا البشري القاصر يعجز عن إدراكها وعن فَهم كيف تكون.

ولكن إن كان العقل يعجز. فإن الايمان يمكنه أن يدرك.

الإيمان دائرته أوسع وأعمق. لذلك فانه يقبل القيامة وكل ما يتعلّق بها. مُعتمداً على الوحي الإلهي...

***

لهذا فان القيامة يقبلها المؤمنون. بينما يرفضها الملحدون الذين يرفضون اللّه نفسه..!

وكذلك أنصاف العلماء. والعقلانيون الذي يرفضون كل ما لا يستطيع أن يستوعبه عقلهم القاصر المحدود.

هؤلاء وأولئك: كما يرفضون القيامة. يرفضون أيضاً الخلق من العدم. ويرفضون كل أنواع المعجزات!.. ينقصهم الإيمان.

كذلك يرفضون الوحي. وخلود الروح. وأموراً أخرى كثيرة.

نترك هؤلاء جانباً. فنحن هنا نتحدث إلى المؤمنين.

***

إن القيامة في جوهرها. تعتمد على اللّه تبارك اسمه:

تعتمد على إرادته. وقدرته. ومعرفته...

فمن جهة الإرادة. هو يريد للإنسان أن يقوم من الموت. وأن يعود إلى الحياة. وقد وعده بالقيامة والخلود. وما دام اللّه قد وعد. إذن فلا بد أنه سيتمّم ما قد وعد به.

ومن جهة المعرفة. فاللّه يعرف أين توجد الأرواح التي سيعيدها إلى أجساد. ويعرف أين بقايا الأجساد وعظامها...

ومن جهة القدرة. هو قادر على كل شيء. لا يعسر عليه شيء. وقدرته غير محدودة. فوق العقل والفَهْم.

***

إن المؤمنين. الذين يؤمنون باللّه وقدرته ومواعيده. والذين يؤمنون بالمعجزة. ولا يهم أمثلة عنها في الكتاب وفي التاريخ. وربما في حياتهم الخاصة أيضاً.. هؤلاء يؤمنون بالقيامة وينتظرونها.

نشكر اللّه الذي منحنا الرجاء في الحياة الأخرى بعد الموت.

ونطلب إليه في هذه المناسبة. ان يحفظ مصر. ورئيسها المحبوب حسني مبارك. ويبارك جهوده التي يبذلها في أسفار واتصالات مُتعدِّدة. من خير المنطقة وسلامها واستقرارها.

وكل عام وجميعكم بخير.



٢٠٠٣/٥/٦

الوقت

عجبتُ لأشخاص يبحثون جادين عن طريقة لقتل الوقت!

فإن وجدوا ذلك يسرّون جداً ويفرحون ويسرعون للتنفيذ!

غير عالمين أن الوقت هو جزء من حياتهم. فمن يقتل الوقت. إنما يقتل جزءاً من حياته. فعرفت أن هؤلاء. حياتهم رخيصة في أعينهم!

وعجبتُ أيضاً لأشخاص يدركهم الملل والضجر. فيخرجون من بيوتهم بلا هدف باحثين عن وسيلة تريحهم من هذا الملل. فإن وجدوها يهبونها وقتهم! فعلمت أنهم يعيشون في فراغ لا يجدون ما يشغلهم.. وهؤلاء أيضاً. حياتهم ثقيلة عليهم. لذلك ينفقون وقتهم عبثاً. بلا هدف تعود فائدته عليهم أو على غيرهم..!

فأشفقتُ على هؤلاء وأولئك. إذ لم يدركوا بعد طعم الحياة الحقيقية. كما لم يدركوا الهدف الذي لأجله خلقهم اللّه!

***

ورأيتُ في طريق الحياة نوعين من الناس: أحدهما لا يكفيه وقته لقضاء مهامه الكثيرة. فيستأجر آخرين لقضائها.

بينما آخرون يجلسون في سوق الحياة. يبحثون عمّن يستأجرهم: فيأخذ جزءاً من حياتهم. ويمنحهم عنه أجراً..!

وعجبتُ لهذه المفارقة الموجودة بين العامل وصاحب العمل: بين البائع والمشتري في محيط الوقت. وما يتبع ذلك من مساومة في ثمن الوقت المعروض للبيع!

وقد يبيع البعض غالبية وقته. ومعها صحته أيضاً. بحيث لا يجد وقتاً لراحته. ويستمر هذا الأمر يوماً بعد يوم.

وأعجب من هذا. من يبيع وقته بثمن زهيد! وكذلك من يشترط في شراء وقت غيره أن يكون ذلك بأقل سعر ممكن! ولعلّ السبب في ذلك هو عدم احترامه لوقت من يبيع له الوقت. أو عدم احترامه لمواهبه. أو لعلّ السبب هو كثرة عدد الراغبين في بيع وقتهم. والمعروف أنه إذا كثر العرض. قلّ الطلب.

وأعجب من كل الذين ذكرتهم. نوعية أخرى وهى:

أولئك الذين يضيعون وقتهم. وينفقون مالاً على إضاعته أو هم على أنواع حسب طريقة إضاعة الوقت:

منهم الذين تعودوا ارتياد أماكن الملاهي في مواعيد متقاربة حيث يضيعون وقتهم. وربما أخلاقهم أيضاً. وينفقون على هذا الضياع الكثير من مالهم.

* ومنهم الذين يذهبون إلى صالات الرقص وأندية القمار "الميسر". وقد يفقدون كل مالهم. وربما يستدينون. ويغرسون في أذهانهم مناظر. وفي قلوبهم مشاعر لا تليق. بالإضافة إلى صُحبة شريرة تساعدهم على ضياع أكثر.

* مثال آخر: الذين يشترون الكتب والمجلات الجنسية التي تفسد أخلاقهم. والذين يشترون الكتب الالحادية التي تفسد عقائدهم. ويقضون في القراءة ممّا يؤول إلى خسارتهم روحياً وفكرياً.

***

نوع آخر من الناس يقضون وقتهم في التافهات:

في أنواع من اللعب والتسلية. حتى لو كان هذا الأمر بريئاً. وليست فيه أية خطيئة. إلاّ أن طول الوقت فيه أزيد من اللزوم. هو ضياع للوقت الذي كان يمكن استخدامه فيما هو أنفع.

وهكذا فإن الذين يقضون معظم وقتهم في المقهى: أو في الكازينو. أو في النادي.. في أحاديث تافهة لا تفيدهم بشيء.. هؤلاء لا يعرفون قيمة لوقتهم. ولم يستخدموه في بناء أنفسهم أو في بناء غيرهم.

لذلك اسأل نفسك باستمرار: هل وقتك معك أم عليك؟

أي هل أنت تستفيد منه. أمْ تستخدمه في الإضرار بنفسك أو بغيرك؟ أمْ أنت تريد أن تتخلّص منه بأية الطرق؟

***

هناك وقت يقضيه الشخص في الخطية. سواء في السعي إليها. أو في ارتكابها. أو التدبير لها.

وهذا الوقت كلّه ضده. محسوب عليه. في الدنيا وفي الآخرة. وقد يقضي أوقاتاً أضعافه في الندم عليه. وفي احتمال تأنيب ضميره. أو في محاولة معالجة نتائج الخطايا التي ارتكبها فيه.

وقد تتحوّل بعض هذه الخطايا إلى عادات ثابتة يعسر عليه أن يقاومها. وهذا أيضاً يستغرق وقتاً آخر أطول وأعمق.

وربما يشترك في الخطايا مع غيره. فيضيع وقتهم أيضاً. وتصبح خطيئته مزدوجة. بالنسبة إليه وإلى غيره.

***

إذن هنا أشخاص لا يضيعون وقتهم بحسب. بل يضيعون وقت الآخرين كذلك معهم.

* من أمثلة هؤلاء من يتصل بغيره بالتليفون. ويظل يتحدّث ويتحدّث إلى غير نهاية. ولا يراعي وقت من يتحدث إليه. وهل هو متفرغ له أم لا؟ وهل هذه المكالمة التليفونية تعطله عن بعض مشغولياته الهامة؟!

ولكنه إذ لا يقيم أهمية لوقته الخاص ولا يبالي بضياعه. كذلك هو لا يعطي قيمة لوقت غيره. يظنه أنه مثله!!

* ومن الأمثلة الأحاديث العادية الطويلة. في غير التليفون. وقد تكون في أمور تافهة. لا تفيد قائلها ولا سامعها! أو كشخص يُسأل في موضوع ما. فبدلاً من أن يجيب بجملة يجيب بمحاضرة. أو ينقل خبراً لغيره. فينقله بإطناب شديد غير مستحب وفيه إضاعة للوقت. وينسى خلال ذلك المثل القائل: "خير الكلام ما قلّ ودلّ" ليت جميع الناس يتدرّبون على الإجابات المُختصرة. وبهذا لا يضيعون وقت غيرهم. كما أنهم لا يصيبونه بالملل والضجر.

***

كذلك إضاعة وقت الناس قد يأتي عن طريق بعض الزيارات:

وبخاصة الزيارة التي يقوم بها صديق لإحدى العائلات فجأة بدون خبر مُسبق. مُعتمداً على الدالة التي بينهم وبينه. غير واضع في نفسه ظروفهم الخاصة: وهل مستعدون للزيارة أم لا؟ ويظل يتكلم ويفتح المجال لموضوعات كثيرة. وقد يكون وقت الزيارة غير مناسب إطلاقاً. بسبب وجود تلاميذ من أفراد الأسرة يستعدون للامتحانات.

ويحتاجون في الاستذكار إلى وقت هادئ. يزعجهم فيه أحاديث هذا الضيف الصديق وصوته العالي. وقد يكون حديث هذا الضيف في مسك سيرة الناس. فتكون المشكلة ليس في إضاعة الوقت بحسب بل في نوعية الكلام أيضاً. وما يُسبِّبه ذلك من بلبلة وتشويش وازعاج.

***

الإنسان الحكيم: يبعد عن إضاعة الوقت. وعن الأخطاء فيه. كذلك يُقيم توازناً في توزيع وقته.

وكما قال سليمان الحكيم: "لكل شيء تحت السماوات وقت". "للكلام وقت. وللصمت وقت" "للضحك وقت. وللبكاء وقت".. فلا يكون اللهو في وقت الاستذكار. ولا تكون قراءة الجرائد في وقت العمل. ولا يكون المزاح في وقت الجدية.

بل يختار الإنسان التصرف المناسب في الوقت المناسب حتى بالنسبة إلى السياسة الخارجية للدول. يحسبون بحساب دقيق: ما هو الوقت المناسب للحرب؟ والوقت المناسب لمعاهدة السلام.

***

وعلى الإنسان أن يوزِّع وقته بعدل على كافة واجباته ومسؤولياته

بحيث لا يهمل أيّاً منها على حساب مشغوليته بمسؤولية أخرى!

فمثلاً رَجُل أعمال ناجح جداً في إدارة أعماله ومشهود له بذلك. لا يجوز في مشغوليته بعمله. أن يهمل بيته: زوجته وأولاده وباقي أفراد أسرته. فلا يعطيهم ما يحتاجون إليه من حُبّ وحنان ومشاعر الاهتمام بهم!

أو إنسان نشيط في كل مسؤولية تعهد إليه. ويعمل بكد وجدّ. ليلاً ونهاراً. ولكنه في نفس الوقت لا يُراعي مسؤوليته نحو صحته. فيمرض أو يصيبه الضعف. ولا يستطيع أن يكمل مشواره في الحياة!

إن الإنسان الحكيم يُقيم توازناً في حياته بين الراحة والتعب..

لا يتمادى في الراحة. بحيث يصل إلى الكسل والخمول. ولا يتمادى في التعب. بحيث يصل إلى الانهاك والاجهاد. بل يكون حكيماً ومعتدلاً في كلا الحالين: يُعطي وقتاً للجهد. ووقتاً للاسترخاء.. وقتاً للتفكير العميق. ووقتاً للراحة من كد الذهن. لأن التطرُّف في كل من الأمريْن ضار به.

وفي عملية التوازن. يُراعي ما يحتاجه كل من عقله وروحه وجسده..

فيُعطي وقتاً لكل من هذه العناصر التي تتكوّن منها بشريته.

* فيُعطي وقتاً لبناء عقله وثقافته. فيحاول أن يزداد كل يوم في المعرفة. وفي تداريب للذكاء وللذاكرة. والنموّ في سُرعة البديهة وفي القدرة على الاستنتاج. وعلى طرق كل موضوع من كافة زواياه. وأن يضع أمامه ردود الفعل لكل ما ينوي أن يعمله. قبل أن يعمله!

ولذلك يجب أن يُعطي وقتاً للقراءة النافعة والاستفادة من خبرات الحكماء وذوي المعرفة.

* كذلك ينبغي أن يُعطي وقتاً لروحياته الخاصة. من جهة العبادة والصلة باللّه ومعرفة وصاياه. ووقتاً للصلاة والتأمُّل والقراءة الروحية. وللترتيل وتسبيح اللّه. إن الإنسان ليس مجرد عقل. بل أيضاً روح ينبغي أن يعطيها غذاءها.

وله أيضاً جسد ينبغي أن يُعطيه وقتاً للراحة. والرياضة إن أمكن. ووقتاً يتناول فيه طعامه بنظام وبفائدة. ومعروف أن صحة الجسد لازمة للعقل. ويقول المثل: "العقل السليم في الجسم السليم".

***

كذلك ينبغي أن يكون وقتنا ثميناً عندنا

وأن نستخدمه في النفع والإنتاج وبناء المجتمع.

نشعر بقيمة الوقت. فهو ثروة أكثر من ثروة المال. ونحاول أن نستفيد من كل دقيقة في عمل بناء. ولا نضيع وقتنا عبثاً.

فالذي يحترم وقته. سيحترمه الآخرون ويحترمون وقته. وإذ يرونه حريصاً على كل ساعة. بل وكل دقيقة. سوف يخجلون إن حاولوا إضاعة وقته في أمور تافهة أو قليلة الفائدة.

* ومن أمثلة الحريصين على وقتهم والمنتفعين به: طلاب العلم. والعلماء. والمخترعون. والفلاسفة. والقادة والرؤساء.

* فطالب العلم إن أتم دراسته الجامعية. يحاول أن يحرص على وقته. ليستغله في دراسة عليا والحصول على درجة أكبر.

* والعلماء في شغفهم بالعلم يستغلون وقتهم في المزيد من المعرفة حيث يكتشفون أشياء جديدة. أو يقدمون للعالم اختراعات جديدة نافعة. أو على الأقل يقدمون بحوثاً علمية جديدة تصبح ذخيرة للأجيال.

ومن الحريصين على الوقت والعارفين بقيمته: أصحاب الإنتاج الفكري أيّاً كان نوع هذا الإنتاج: في الأدب. أو الفلسفة. أو الفن. أو الاجتماع. كلّما يصل الواحد منهم إلى فكر جديد نافع. يفرح قلبه جداً بهذا الفكر. ويُعلنه فيفرح الناس كمزيد من المعرفة.

إن المُفكِّرين هم عقل العالم المُنتج. وربما فكر واحد يؤدِّي إلى خير جزيل. فالمُفكِّرون في مجال الأدب والموسيقى. يضيفون إلى العالم مُتعة جديدة. هُم يتمتّعون بها أيضاً. والمُفكِّرون في مجال العلم. يُقدِّمون له تسهيلات في الحياة.

والمُفكِّرون في مجال الاجتماع. يُقدِّمون له حلاً لمشاكله. وتنظيماً لحياته الاجتماعية. أمّا الفلاسفة فيقدِّمون للعالم عُمقاً في الفكر.

وكل هؤلاء وأولئك. الوقت ثمين عندهم. من واقع استخدام الوقت في الإنتاج. وفي الفائدة التي يشعر بها الكل.

***

هناك نوع آخر حريص على وقته. وهو الذي يعمل على الاستعداد للأبدية. وللقاء مع اللّه.

سواء بالتوبة. وتنقية القلب والفكر من كل خطية. والعمل على امتلاء القلب من الإيمان ومحبة اللّه. ومن محبة حياة الفضيلة البر أو بقضاء جانب كبير من الوقت في خدمة الآخرين. ومساعدة الآخرين. وجذبهم إلى حياة البر وطاعة اللّه.

تصوّروا فرضاً. لو أن اللّه أرسل ملاكاً ليخبر إنساناً أن حياته على الأرض ستنتهي بعد أسبوع. كيف كان هذا الإنسان سيستغل وقته خلال هذا الأسبوع استعداداً لأبديته.

إنه سيكون وضعاً مثالياً لاستخدام الوقت في الخير.



٢٠٠٣/٥/١٣

النفوس المُريحة

النفوس المُريحة هى التي تريح غيرها.

قد يجلس إنسان معك. فتستريح لوجوده. وتود لو أن جلسته تطول مهما مرّ الوقت. بينما يجلس إليك آخر. فتظل تعد الدقائق. وتتمني لو أنه رحل عنك. أو لو كان لم يأتِ. ذلك لأن أحد الشخصين مُريح. والآخر مُتعب.

إنسان يمرّ عليك كالنسيم الهادئ. أو كالنسيم العطر وآخر يمرّ بك. وكأنه عاصفة هوجاء.

فما هى إذن النفس المُريحة؟ وما هى صفاتها؟

ولماذا تكون نفوس بعض الناس مُتعبة. وغير مقبولة؟

***

أول نفس مُريحة في تاريخ كل إنسان. هى أمه:

يرى الطفل راحته في صدرها الحاني. وفي رضاعته منها. وفي نظراتها العطوفة. وفي ابتسامتها. وفي استجابتها لاحتياجاته.. ومعها يشعر بالاطمئنان والأمن.

والطفل الرضيع. الذي نظن نحن أنه لا يدرك شيئاً. من العجب أنه يستطيع أن يُميّز أمه أو مُرضعته.. عن أية امرأة أخرى.. فهى حين تحمله تبش له. ويبتسم هو لها في فرح وبشاشة وبراءة.. بينما تحمله أخرى فيصرخ.

الطفل حساس جداً من جهة ملامح الناس:

هو لا يتضايق ممّا يقال له من كلام. لأنه لا يفهمه. ولكنه يفهم الملامح: يُميّز النظرة المُريحة من النظرة المُتعبة. ويُميّز الملامح البشوشة من الملامح المرعبة. يطمئن إلى النفس المُريحة من نوع النظرة. وشكل الملامح. ونبرة الصوت. ويُميّز النفس المُريحة التي تداعبه وتناغيه. لذلك احترسوا جداً من جهة ضبط ملامحكم حينما تقابلون الأطفال. واحترسوا أيضاً من جهة الانتهار والتوبيخ. لأن الملامح أثناءه لا تكون مُريحة.

***

وصدِّقوني. نفس الأمر يكون في معاملة الكبار:

هُم أيضاً يحتاجون إلى التعامل مع النفوس المُريحة. يريحهم شكل الإنسان وملامحه. كما تريحهم معاملاته. وربما ترى شخصاً لأول مرة. فلا تستريح إليه.. لا تستريح إلى تعبيرات وجهه. ولا إلى نبرة صوته. ولا إلى حركاته. ولا إلى شكله جملةً.. فهو يوحي إليك بعدم الاطمئنان وعدم الثقة.

ويحدث هذا أحياناً في اختيار الأصدقاء.. هناك من تجتذب إليه. وتشعر من أول مرة. كما لو كنت تعرفه منذ زمن طويل.. وآخر تنفر منه تلقائياً قبل أن تتعامل معه!!

***

نفس الكلام نقوله تقريباً عن الأطباء:

هناك طبيب يستريح إليه المريض: في بشاشته من جهة. وفي شرحه للمريض عن طبيعة مرضه. وفي شرحه للعلاج. وفي اعطائه بريقاً من الأمل والرجاء مهما كانت الحالة حرجة أو خطيرة. ويشعر المريض بالاطمئنان إلى أنه في يد أمينة.. ومع قلب عطوف.. بينما طبيب آخر - بعد مقابلته للمريض - يخرج المريض منهاراً.

أتذكّر منذ حوالي ستين عاماً. كان لي أخ مريض بالحمى. وكان يعوده في المنزل طبيب مشهور كان مُدرّساً في الجامعة. وفي أثناء الكشف عليه كل مرة. كانت نظرات كل أفراد الأسرة مركزة على ملامح وجه الطبيب: فإن بدا مُتجهّماً - ولو بعض الشيء - كان الحزن والقلق يخيمان على الجميع.. أمّا لو كان الطبيب يبتسم. كان الكل يفرحون. دون أن ينطق الطبيب بكلمة..!

حقاً. إن ملامح الطبيب - كل طبيب - وكذلك أسلوبه وكلماته. كل ذلك له تأثير على المريض ونفسيته ونفسية أقربائه. إن سلباً أو إيجاباً. وله دور في رفع أو خفض معنوياتهم.

***

ومن أمثلة ذلك أيضاً المرشدون الروحيون والمشرفون الاجتماعيون

وكذلك كل من لهم صلة بالتربية. وبالتعامل مع النشء. وأيضاً من يعملون في مجال الإدارة أو التدريب. ومن يقومون بالاختبارات الشخصية. فيحكمون على البعض بالصلاحية أو عدم الصلاحية.. منهم أيضاً نفوس مُريحة. ونفوس غير مريحة. وهناك أساتذة في

الامتحانات الشفهية. يخشى الطالب أن يقع في يد أحد منهم غير أن أحد المربين الحكماء. قلت في رثائه أبيات منها:

يـــا حكيمـــاً أدّب النـــاس وفـــي	زجـره حُبـي. وفـي صـوته عطـفُ
لـــك أســلوب نزيـــه طـــاهري	ولســان أبـيضُ الألفــاظ عــفُّ
لـــم تنـــل بالـــذم إنســـاناً ولـــم	تـذكر السـوء إذا مـا حـلّ وصـفُ
إنمـــا بالحـــب والتشـــجيع قـــد	تصـلح الأعـوجَ. والأكـدر يصـفو

كان هذا المُربّي من النفوس المُريحة.

***

الإنسان البشوش. له نفس مُريحة:

الناس يُحبون البشاشة. ويستريحون إلى الوجه البشوش الذي من فيض سلامه القلبي. يفيض بالراحة والسلام على كل مَنْ يُقابله.

البشاشة هى فرح. ينتقل من نفس إلى نفس. لذلك فإن غالبية الناس يحبون أصحاب النفوس المرحة التي تدخِل البهجة إلى القلوب.

ومن أمثلة هؤلاء الذين يمثلون في فيلم كوميدي ملامحهم مرحة. وحركاتهم وألفاظهم تسبب البهجة والضحك والفرح. ومن أمثلة هؤلاء أيضاً الفنانون الذين يرسمون رسوم الكاريكاتير مع فكاهات لطيفة. طالما أن الفكاهة بريئة ولطيفة ولا خطأ فيها..

ولأن البشاشة والفكاهة تريحان النفس. لذلك فإن المصوِّرين قبل أن يلتقطوا الصور. يطلبون إلى الناس أن يبتسموا أولاً. لأن الوجه المبتسم هو وجه مريح لمن يراه. حتى أن البعض يبتسمون - ولو بطريقة مُصطنعة - أثناء التصوير. غير أن كثيراً من الناس لهم بطبيعتهم وجوه مُبتسمة بشوشة. في كل المناسبات. وبدون تصنع. هؤلاء من النفوس المريحة.

***

كذلك الإنسان الوديع الهادئ هو من النفوس المُريحة:

إن الودعاء - بهدوئهم - يُدخِلون الهدوء إلى قلوب الآخرين. ومهما كانت الأمور تبدو صعبة. يعملون على تهوينها وتخفيف وقعها. وبهذا يريحون غيرهم. وفي جو من الطمأنينة التي اعتادوها بطبعهم. فإنهم يبحثون الأمور معهم بهدوء للوصول إلى حلّ.

كذلك فإن الإنسان الوديع. هو إنسان مريح في معاملاته. لأنه يأخذ الأمور ببساطة. فلا تتعقد أمامه. ولا يتعامل فيها بتعقيد مع الناس. إنه يحرص على أنه لا يُغضب أحداً. ولا يغضب من أحد. بل يتعامل مع الناس بسهولة ويُسر. ولا يدخل في خلاف مع أحد. على قدر إمكانه.

***

وأيضاً المُبشِّرون بالخير هُم من النفوس المُريحة:

إن الناس يحبون من يأتي إليهم بخبر طيب. ويعتبرونه بشير خير. ويستبشرون به. ويفرحون بلقائه.

بعكس الذي يجلب الحزن إلى النفوس بأخبار سيئة ينقلها إليهم! إنهم يعتبرونه كالبوم التي تنذر بالخراب.

إن الأخبار التي تنشر في الجرائد. تختلف من واحدة إلى أخرى. فمنها ما تريح النفوس بأخبارها. ومنها ما تزعج الناس وتخيفهم. وتشعرهم بأخطار مُقبلة ومصائب يتوقعونها!

***

إن كان المبشّرون بالخير من النفوس المُريحة. فبالأكثر بلا شكّ يكون صانعو الخير:

* إن النفوس التي تعمل في الخدمة الاجتماعية. في رعاية الفقراء والمحتاجين. هى نفوس مُريحة لكل هؤلاء. تزورهم وتبحث حالتهم وتغطي احتياجاتهم في فقرهم وعوزهم وكل ديونهم.

أمّا إن انقلب خدام الخدمة الاجتماعية إلى مُجرّد مُحقّقين. وبكل عُنف يُحقّقون مع الفقراء. ويتهمونهم بالاحتيال والكذب. بدلاً من فحص ظروفهم برفق وعطف.. حينئذ يعدون من النفوس المتعبة ومن النفوس المُريحة من يتولون رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة. من المعاقين. والمكفوفين. والصم والبكم. وأيضاً المعاقين ذهنياً. ويعملون كل جهدهم على إراحتهم. وعلى توفير حياة أفضل لهم.. كلّهم صانعو خير.

ومن النفوس المُريحة. من صانعي الخير. من يتولّون العناية بضحايا المُخدِّرات. لإنقاذهم ممّا هُم فيه..

هناك من يلوم هؤلاء. ويشهِّر بهم. ويتحدّث عنهم كعناصر مُذنبة في مجتمع صالح. ولكن لوم هؤلاء لا يصلح حالهم. بل يكون ثِقلاً جديداً على ما هُم فيه من تعب وعبودية للإدمان.

أمّا النفوس المُريحة فهى التي تعتبر المُدمنين مجرد مرضى يحتاجون إلى علاج. فتقوم أولاً على نصحهم. ثم العمل على اخراج السموم التي في جسمهم. وبعد التوعية والعلاج الجسدي. يضمونهم إلى مراكز التأهيل لإعادة الحياة الفُضلى إليهم.

وفي خلال ذلك يهتمون أيضاً بأسراتهم. ثم البحث عن مجال للعمل لهؤلاء المرضى بعد تمام شفائهم. ورعايتهم بعد ذلك حتى لا يعود أحد منهم إلى إدمانه السابق.

لاشك أنه مجهود شاق. وفي نفس الوقت مجهود نبيل. يقوم به أصحاب النفوس المريحة. التي لا تدين المُخطئ بل تصلحه. ونذكر في قول السيد المسيح "ما جئت لأدين العالم. بل لأُخلِّص العالم". لذلك حسناً قيل عنه إنه: "كان يجول يصنع خيراً".

***

ومن النفوس المُريحة. أولئك الذين يقومون برعاية المسجونين:

سواء الذين ارتكبوا ذنباً كان جزاؤه السجن. أو الذين أضلّهم آخرون وأوقعوهم في شباك الخطيئة وجروّهم معهم إلى نفس مصيرهم. أو الذين دُبِّرت ضدهم مؤامرات مُحكمة وتهم ملفقة حيكت أسانيدها بمهارة وحبكة. كل هؤلاء مذنبين أو ضحايا. ما أسهل أن يلفظهم المجتمع ويتركهم إلى مصيرهم.

أمّا النفوس المُريحة والعطوفة. فإنها تعمل من أجل هؤلاء أيضاً سواء في العمل مع ضمائرهم وارشادهم إلى حياة التوبة. والمصالحة مع اللّه والمجتمع.. أو في العناية بهم من جهة كافة احتياجاتهم المادية. وزيارتهم ورفع معنوياتهم.

وأيضاً تعمل النفوس المريحة على العناية بأسرات المسجونين. وبخاصة الأسرات التي فقدت عائلها الوحيد بإيداعه السجن. وأصبحت بلا عائل. بل أيضاً بلا سمعة في المجتمع. إذ أن سجن أحد أفراد الأسرة أصبح عاراً للأسرة كلها..!

النفوس المُريحة تهتم بالسجين كما تهتم بأسرته أيضاً.

***

النفوس المُريحة هى نفوس شفوقة عطوفة. تهتم بكل أحد. كما تريح الشرفاء. تعمل بنفس الروح المريحة مع المخطئين..

هى نفوس لا تتعامل بكبرياء مع المُخطئ. لا تحتقره وتبعد عنه. إنما تعمل بكل جهد على إقامته من سقطته.

ونرى مثالاً لذلك في الآباء والأمهات مع الابن الساقط. أمّا مع الابنة الساقطة. فكانت قديماً تستحق الموت من أسرتها. فتقتلها الأسرة محواً للعار. وهكذا تموت في خطيئتها. وتكون قد فقدت الأرض والسماء معاً. دون توبة.

ولكن النفوس المُريحة لا تتصرّف هكذا بكل قسوة. إنما تعمل على إقامة الساقطة من سقطتها. لتحيا حياة جديدة طاهرة نقية. لأن الإصلاح أفضل من الاقتصاص.

***

تكلّمنا على النفوس المُريحة. فماذا عن النفس غير المُريحة؟ ما صفاتها؟ وما أمثلتها ونوعياتها؟

هذا ما أود أن أحدِّثكم عنه في العدد المقبل إن شاء اللَّه. إن أحبّت نعمة الرب وعشنا.



٢٠٠٣/٥/٢٠

نفوس غير مُريحة

تكلّمنا في المرة السابقة عن النفوس المريحة. ولتكملة الموضوع نود في هذا المقال أن نتحدث عن النفوس غير المُريحة. وأنواعها وأمثلة منها..

منها النفوس النكدية. التي تتصف بالنكد:

هناك أشخاص - وبخاصة في المجال العائلي - يظنون أنهم يحاولون حل مشاكلهم عن طريق النكد. فبدلا من التفكير العملي العاقل في تناول المشكلة وكيفية التصرف فيها. تبدأ الكآبة والبكاء والشكوى الدائمة. والحزن. والتذمر. وترداد الحكايات عما حدث وما يمكن أن يحدث.. مما يسبب الانهيار والحيرة!!

ولهذا فإن بعض أفراد الأسرة الذين يبحثون عن سلامهم القلبي. يضطرون إلى الهرب من البيت. وإذا استمر جو النكد بين الزوجين. قد ينتهي بهما الأمر إلى محاكم الأحوال الشخصية. وربما إلى الانفصال أو الطلاق. إذ يشعر الواحد منهما أنه يتعامل مع نفسيّة غير مُريحة.

***

ومن صفات بعض النفوس غير المُريحة: كثرة التحقيقات:

بحيث يشعر الشخص أنه مُحاصر بجو من الأسئلة تضيّق الخناق عليه. لتعرف تفاصيل التفاصيل: ماذا فعلت ؟ وأين كنت؟ ومن قابلت؟ ومتي؟ وما موضوع الحديث؟ وماذا قلت؟ وماذا قيل لك؟ وما ردود الفعل؟ وما النتيجة؟؟..

ومهما بدأ أنه تضايق من هذه التحقيقات. تظل الأسئلة تلاحقه بغير هواده. وبغير مراعاة لنفسيته وإحساساته. إنها أسئلة مُتطفلة صادرة من نفس غير مُريحة. وربما لا تكون لها صفة تسمح لها بكل هذا التحقيق. ويكون الحل الحاسم هو الهروب من أمثال هؤلاء الأشخاص.

ولعلّ هذا النوع من الناس له شبيه آخر. فما هو؟

***

من النفوس غير المُريحة. من تتدخل في خصوصيات الغير:

كل إنسان لـه خصوصياته Privacies يجب أن يحتفظ بها. ولا يشاء أن يكشفها لكل أحد. ويجب أن يحترمها الآخرون..

لهذا نجد في كثير من البلاد الغربية: إذا وصل خطاب لابن في البيت. لا يستطيع الأب أو الأم أن يفتحه. وكذلك إن وصل خطاب إلى الزوجة. لا يفتحه الزوج. وإنما بالحُب الذي بين أفراد الأُسرة. يكشف صاحب الخطاب ما جاء فيه. أو بعضاً ممّا جاء فيه لأسرته. دون أن يطالبوه بذلك..

ولكن المُتعب أن بعضاً من المعارف يتدخّلون في خصوصيات من يعرفونه بطريقة يريدون بها أن يعرفوا كل شيء عنه. سواء في حياته الخاصة. أو حياته العملية. أو حياته العائلية. كما لو كانوا يترصدون حركاته. أو يرسلون من يتتبع أخباره ويقولها لهم. إنهم يتطفلون على حياته وخصوصياته بطريقة مُتعبة!

وإن لم يخبرهم بأسراره. يتهمونه بعدم الحُب. وبعدم الإخلاص في صداقته. ويسألونه: ما هذا الشيء الذي تكتمه عنا؟ وإن كان يُمثّل خطراً أو خطأ في حياتك. قُلْ لنا ونحن نقف إلى جوارك!

***

ومن صفات النفوس المُتعبة أيضاً. الشكّ:

فهناك نفوس من طبعها الشك. أُناس يشكون في صدق غيرهم. وفي محبته. ويشكون في أقواله وفي أخباره. بل يشكون أيضاً في سلوكه. ويبدو الشك في طريقة كلامهم. وفي لهجة صوتهم. وفي نظراتهم. وفي نوع أسئلتهم..

وليس أحد يقبل أن يكون موضع شكّ. مُعتبراً ذلك ضد كرامته. لذلك فإنه يتحاشى هؤلاء الذين يتعبونه بشكّهم.. ويود أن يتعامل فقط مع الذين يُقابلونه بروح الثقة والاحترام. فإن الثقة تولّد ثقة مُتبادلة. والاحترام يولّد احتراماً. وكل إنسان يستريح إلى الذي يثق به..

***

أيضاً من صفات النفوس غير المُريحة: الإلحاح والمُلاججة:

هناك أشخاص في كل ما يريدون. يستخدمون أسلوب الإلحاح والضغط في الطلب. فإن أرادوا شيئاً من أحد. يلحّون عليه بطريقة متواصلة مُتتابعة. في كل يوم. وربما مرات في

اليوم الواحد. ولا يعطونه فرصة للتفكير أو للتدبير. ولا يعطونه مجالاً للاعتذار. وربما يكون ما يطلبونه فوق طاقته. أو لا يريح ضميره.. ومع ذلك يتوالى إلحاحهم وضغطهم بطريقة مُتعبة. ربما تجعل من يلحون عليه يهرب من لقائهم بكافة الطرق..

وربما يكون إلحاحهم في معرفة بعض أسراره أو أسرار غيره!

***

ومن صفات النفوس غير المُريحة أيضاً: فرض الرأي:

وفي هذا ضغط على الفكر. وضغط على الإرادة وعلى التصرُّف ومحاولة من هؤلاء أن يسير غيرهم في تيارهم الفكري أو السلوكي. على الرغم منه! مما يشكل ضغطا على حريته الشخصية بشيء من السيطرة يتعذر عليه قبولها..

وقد يحدث فرض الرأي من أحد الأبويْن أو من كليهما. في موضوع زواج ابنتهما بشخص لا تحبه أو لا تستريح للحياة معه عمرها كله! ممّا يتسبب عنه تعاسة أو فشل في حياتها الزوجية ومع ذلك يظل الضغط مُستمرّاً. إمّا بمحاولة الإقناع والترغيب. أو بالانتهار والتوبيخ. على اعتبار أن الابنة لا تعرف تماماً ما هو الخير لها. أو أنها غير مُطيعة وغير محترمة لحكمة أبيها وخبرة أمها. أو فرض الرأي عن طريق مرض الأب أو الأم. نتيجة لعدم موافقة الابنة على المُتقدِّم لخطبتها..!

هناك ألوان كثيرة من فرض الرأي في محيط الأسرة. وفي محيط العمل. والكل يتصف بحب السيطرة. وعدم احترام حرية أو فكر الطرف الآخر. وهي أمور مُتعبة.

***

ومن الصفات الأخرى للنفوس غير المُريحة: كثرة الجدل

هذا النوع من الناس. لا يمرّ عليه أي أمر من الأمور سهلاً. مهما كان بسيطاً! كل فكر وكل تصرف يتخذه موضوعاً للجدل. وربما يستغرق في ذلك وقتا طويلا. كما أنه يرهق أعصاب من يجادله. ويضيع وقته..

وقد يعلو صوته في الكلام. ويتكلم بسرعة وبعصبية. ولا يعطي لسامعه فرصة للرد. بقدر ما يقاطعه في أثناء الحديث. وهدفه كله أن يبدو منتصراً في المناقشة!

مثل هذا الشخص الذي تبدو مجادلته نابعة من نفس غير مريحة: لا يحاول أحد أن يفتح معه موضوعاً أو يبدي له رأيا. لأنه إذا فعل ذلك. لا يخلص أبداً من جداله ومن

مناقشاته العقيمة. بل قد يلجأ معه إلى بعض العبارات التقفيلية التي يحاول بها أن يضع حداً للجدل. كما يلجأ أيضاً إلى الإجابات المُختصرة التي تشعره بأن مُحدِّثه زاهد في استكمال الحديث..

***

نصيحتي لك: لا تتجادل مع كل شخص. بل مع الذي يجادل في حكمة. ويريد الوصول إلى نتيجة. دون فرض رأيه..

أمّا الذي من طبيعته ألا يقبل الرأي الآخر. بل له فكره الذي يصر عليه مهما قدّمت له من إقناعات. فهذا يكون من الخير لك وله أن تتجنب النقاش معه. لأن مثل هذا النقاش لن يجدي شيئاً. لأنه صادر من نفس متعبة. لا تحب إطلاقا أن تقتنع بغير ما عندها..

بل ربما أمثال هذه المجادلات تؤدي إلى خصومات.. كما تؤدّي أيضاً إلى إضاعة الوقت. وقد يسأل الإنسان نفسه بعدها: أكان هذا الأمر البسيط يستحق كل هذا الوقت؟!

ونصيحتي لك أيضاً ألاّ تجادل إلاّ في أمر هام أو أمر مستعص يستحق ذلك. كما ينبغي أن تلاحظ في أثناء المناقشة: هل الذي تناقشه يقبل الكلام أم لا يقبله؟ أم هو محب للجدل وتقضية الوقت؟!

وهل هو يريد مناقشة أمور ليست من اختصاصه. ولا هي في حدود معرفته؟ أو يريد مجرد التدخُّل في سياسات مُعينة لم يدرسها ولا يعرف تفاصيلها؟ ويكتفي بأن يقول إنه مجرد صاحب رأي!!

مثل هذا. ابتعد عنه. إنه من النفوس المُتعبة.

***

ومن النفوس غير المُريحة. من لا يقدّر ظروف الآخرين!

كأن يكلمك إنسان في وقت أنت مشغول فيه. فتعتذر إليه بضيق الوقت. وتؤجل الموضوع إلى وقت آخر. لكنه يصر إصراراً شديداً على الحديث معك. بحجة أن الموضوع مهم جدا. ولا يقبل التأجيل!! ولا يُبالي في كل ذلك بأهمية عملك ومشغولياتك - ممّا يجعلك تستمع إليه مُضطراً. وأنت شاعر بضغطه عليك. بينما موضوعه لا يستحق ذلك كله!

***

وربما يأتيك شخص وأنت مريض. وصحتك لا تحتمل اللقاء

ولا الكلام ولا النقاش.. ويعرض عليك أموراً تحتاج إلى فحص وتفكير. ويطلب منك ما لا تحتمله ظروفك الصحية. ويظل يكلمك وأنت على فراش المرض. يلزمك جهد للإصغاء وللتفكير والكلام مما يؤذيك صحياً. ولكنه لا يُبالي. إنما المهم عنده هو موضوعه الذي يعرضه. ويود أن يصل فيه إلى نتيجة! مع عدم تقديره لحالتك الصحية! إنه من النفوس المُتعبة.

ومن أجل أمثال هذه الأمور. وحرصاً على سلامة المرضى. فإن كثيراً من المستشفيات تحدد أوقاتاً تمنع فيها زيارة بعض المرضى. ولكن هذا الشخص يثور على منعه من الزيارة. وقد يلحّ طالباً اعتباره حالة استثنائية!!

***

أو قد يطلبك أحدهم في التليفون. وربما تكون مشغولاً..

ولكنه لا يبالي بذلك. ويظل يتكلّم ويتكلّم مهما طال الوقت. ومهما حاولت أن تؤجل المكالمة أو تشرح له ظروفك! كل ذلك لا يهمه. ويستمر في حديثه. حتى لو شعر أنك لا تصغي إليه ولا تتجاوب معه!.. إنه بلا شكّ من النفوس المُتعبة التي تجعلك تتخذ منها موقفاً في المرات المقبلة.

يذكّرنا هذا الأمر بالذين يزورون العائلات في مناسبات الامتحانات النهائية للتلاميذ.

وعلى الرغم من أن كل دقيقة لها قيمتها في تلك الأوقات. إلاّ أن هؤلاء الضيوف. يفتحون موضوعات. ويظلون يتكلّمون. بل ويرفعون أصواتهم. ويثيرون جوّاً من الضوضاء لا يساعد مُطلَقاً على الاستذكار. غير واضعين في اعتبارهم مشاعر الطلاب وامتحاناتهم. ويعتبرون بذلك من النفوس المُتعبة..

ويشبه هؤلاء أيضاً من يقيمون احتفالات صاخبة تنقلها أصوات الميكروفونات بطريقة مُزعجة لكل تلميذ وكل مريض.

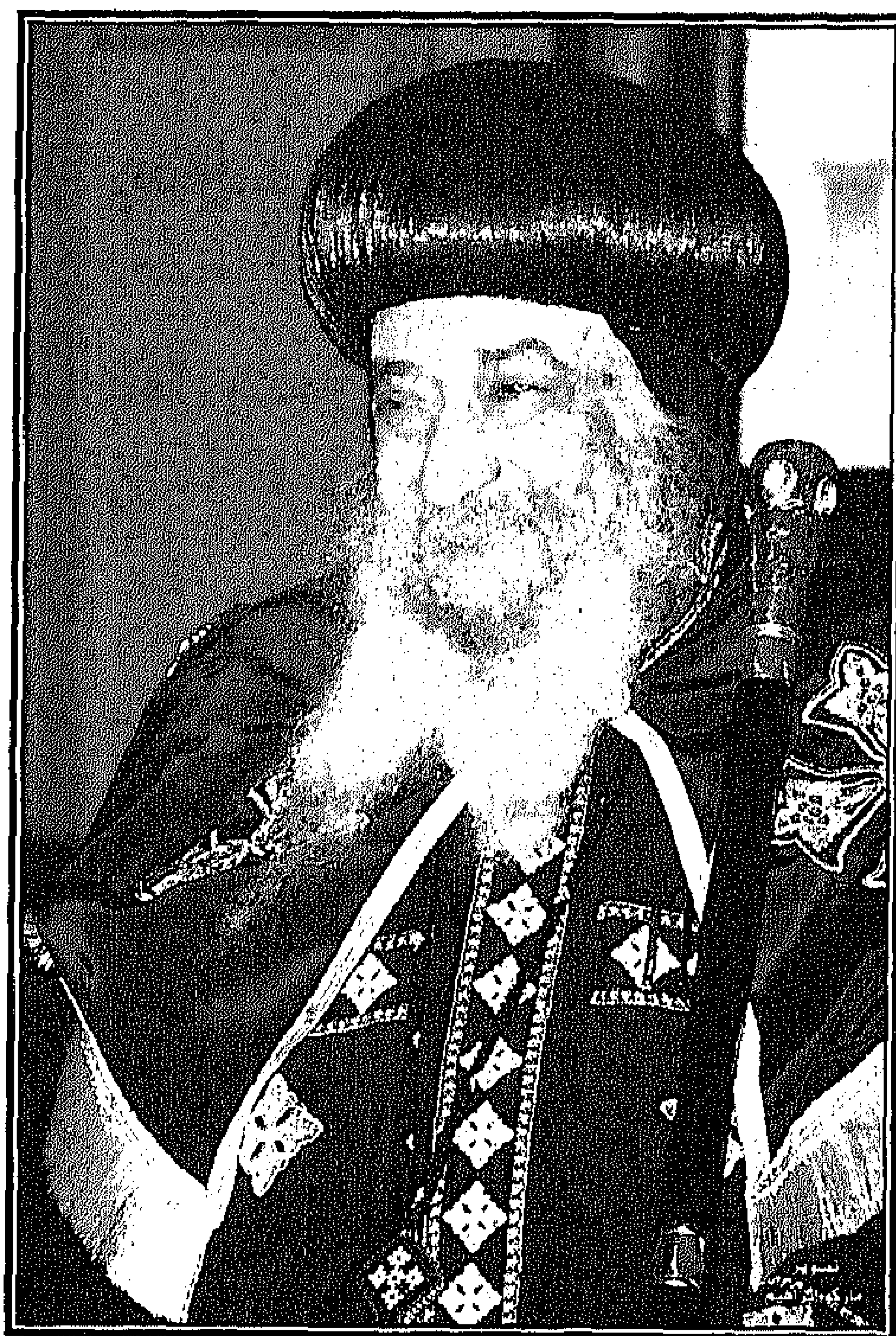
***

ومن النفوس المتعبة: من يتصفون بالغضب والنرفزة والقسوة

الذين يتعاملون بالصوت العالي والصوت الحاد في لهجته. بدون أي سبب معقول. ومنهم الذين لا ينتقون الألفاظ المهذبة في أثناء غضبهم. فيصدر منهم ما يؤذي المشاعر ويجرح النفوس.. أمثال هؤلاء يتجنبهم الناس. لأنهم من النفوس المتعبة.

وكذلك القساة. سواء كانت قسوتهم في الألفاظ أو في الأحكام. أو في التعامل مع الأخطاء بطريقة تتعب المُخطئين دون أن تقوّمهم. وبأسلوب يحطم نفسياتهم ويتسبب في هبوط معنوياتهم.

وقد يحدث هذا من بعض الآباء والأمهات في توبيخهم للأبناء. بأسلوب ربما يجعلهم يبحثون عن صدر حنون خارج البيت. وما قد يترتب على ذلك من نتائج خطيرة.



٢٠٠٣/٥/٢٧

فوائد النسيان

ممّا لا شك فيه أن بعض النسيان له أضراره:

كأن ينسى الإنسان ما عليه من واجبات يلزم أن يؤديها. أو كأن ينسى التلميذ في وقت الامتحان ما قد استذكره من دروس.

ولعلّ أخطر أنواع النسيان هو مرض الزهايمر:

حيث يفقد الإنسان ذاكرته بالتدريج. إلى أن يصبح شخصاً بلا ماضي. بلا علم ولا معرفة. على الإطلاق..!

أعرف شخصاً أُصيب بهذا المرض منذ حوالي خمسين عاماً. فبدأ ينسى صلواته اليومية. ثم أخذ ينسى أفراد أسرته. إلى أن صار ينسى نفسه أيضاً!! قدّموا له صورته. وسألوه من هذا؟ فلم يعرف!

إنها مأساة أن ينسى الإنسان كل شيء. فلا يذكر شيئاً من الماضي. ولا يذكر أيضاً الحاضر ولا المستقبل..

ولكنني أقصد في هذا المقال النسيان الذي له فوائد.

***

النسيان في عالمنا

١- من أبرز فوائد النسيان أن ينسى الشخص الإساءات التي سبق توجيهها إليه.

وذلك حتى لا يدخل الحقد ولا الكراهية إلى قلبه. وما قد يتبع ذلك أحياناً من رغبة في رد الاساءة بمثلها فلو كنا لا ننسى إساءات الناس إلينا. لكانت نفوسنا. وقلوبنا تتعقد من جهتهم. وتظل إساءاتهم حاجزاً ما بين قلوبنا وقلوبهم. ولهذا لا يكفي فقط أن نغفر لهم ما قد فعلوه أو قالوه. بل أن ننسى لهم كل ذلك. وهكذا قيل في المثل الإنجليزي:

Not Only to forgive but rather to forget

ولهذا سمح اللّه أن ننسى. وأصبحت للنسيان فائدته..

***

٢- هناك فائدة أخرى للنسيان. وهى أن ننسى الأعمال الفاضلة التي فعلناها. حتى لا ندخل في خطيئة البر الذاتي:

حتى لا يفتخر الإنسان بما فعله. ويكبر في عينيْ نفسه. ويحب المديح والكرامة. وان ينال مكافأة على الأرض لقاء ما فعل. ويكون أيضاً حكيماً أو باراً في عينيْ نفسه فيا ليت كل إنسان ينسى الفضائل التي عملها. من أجل انشغاله بفضائل أخرى يريد أن يعملها..

ينسى الخير الذي فعله. مُفكِّراً في خير أعظم يجب عمله.

بل ينسى أيضاً أنه هو الذي فعل ذلك الخير.

ناسباً إياه إلى نعمة اللّه التي أعانته على عمله. وليس إلى شخصه هو وإلى قوته وتقواه. وحتى في داخل نفسه. يقول باستمرار: لا أنا بل نعمة اللّه العاملة معي..

***

٣- من فوائد النسيان أيضاً. أن ننسى للناس نقائصهم وعيوبهم.. فلا تثبت باستمرار في ذاكرتنا.

وذلك حتى لا ندينهم بألسنتنا. ولا حتى في الفكر والقلب ولا يصغر قدرهم في نظرنا فنحتقرهم أو على الأقل لا نحترمهم وحتى لا نقارن بين مستوانا العالي، ومستواهم السيئ.. فتدخل في قلوبنا الكبرياء والخيلاء بالمقارنة..

وإذ ننسى أخطاء الناس ونقائصهم. ننجو من خطيئة أخرى. وهى أننا لا نلوث سمعتهم بألسنتنا. ولا نتخذهم مادة للنقد والتشهير. ولا تكون أنفسهم رخيصة في أعيننا.

***

٤- ومن فوائد النسيان. أن ينسى الإنسان ذاته في كل ما يعمله. ولا تصبح ذاته هى الهدف..

وهنا يدرك فضيلة "إنكار الذات" ويصبح هدفه هو مجد اللّه على الأرض. ويصبح هدفه هو الخير وسعادة المجتمع الذي يعيش فيه.

أمّا ذاته هو. فينساها تماماً أثناء عمل الخير؛ لأنه لا يفعل الصلاح من أجل مجد تناله ذاته. أو من أجل كرامة له أو مصلحة خاصة.

***

٥- ومن فوائد النسيان. أن ينسى الإنسان التافهات. فلا تشغل فكره. بل ينشغل بما هو أهم...

ففي مجرى حياتنا اليومي. تقابلنا أمور كثيرة تافهة لا تستحق منا أن تشغل أذهاننا أو أحاديثنا. أو أن نعطيها اهتماماً يضيع فيه وقتنا الذي يمكن أن نستغله فيما هو أهم. أي فيما يبني أنفسنا وأنفس الآخرين أيضاً.

لأن ذهن الإنسان له طاقة مُعينة من حيث قدرة ذاكرته، فمن الصالح لنا ألاّ نشغل ذاكرتنا أو نجهدها في حفظ ما لا يعود علينا بأي نفع من معلومات تافهة قد تستقر في العقل الباطن أيضاً ويسرح بها الفكر.

لذلك سمح اللّه لطبيعتنا بالنسيان. لكي ننسى الأمور التافهة. ولا نستبقي في عقلنا إلاّ ما هو مُفيد..

مثال ذلك إنسان عنده كمبيوتر له طاقة مُعيّنة. فلا يكون من صالحه أن يسجل فيه إلاّ ما هو مفيد.. أو معه كاسيت ريكوردر. يمحو من أشرطته أحياناً ما قد سبق أن تسجل فيها. لكي يسجّل بدلاً منها أموراً أكثر أهمية.

***

٦- كذلك هناك أمور ضارة. يحسن بنا أن ننساها لمنفعتنا

كأمور سجلتها الحواس من نظر وسمع. وقد تكون مُعثرة أو أمور تسجلت في الذاكرة من معلومات ضارة في ذاتها أو مصدر لضرر. عبارة عن معارف مُتعبة يقول العقل النقي "ليتني ما عرفتها"! أو صور رسخت في العقل الباطن. يُصلّي الإنسان أن تمحى منه أو أخبار مُزعجة أو مؤلمة.. كل ذلك يُذكّرنا بفوائد النسيان.

ننتقل من هذا كله. إلى فوائد النسيان في الأبدية.

النسيان في الأبدية

أمور كثيرة ينبغي أن ينساها الأبرار. حفاظاً على طهرهم ونقاوتهم. وحفاظاً على فرصهم في العالم الآخر. مثال ذلك:

هل في السماء سنتذكّر كل الخطايا التي حدثت على الأرض؟!

سواء الخطايا التي حدثت من غيرنا بكل صورها البشعة. أو الخطايا التي ارتكبناها نحن. وندمنا عليها. وتُبنا عنها. وغُفرت لنا.. وكيف إذن نحتفظ بنقاوة ذهننا في الأبدية. إذا استقرت فيه صور كل الخطايا الأرضية بكافة أنواعها؟!

لا شك أننا سننسى في الأبدية معرفة الخطية ويكون هذا من فوائد النسيان.

لقد دخلت معرفة الخطية إلى العالم بسقوط أبوينا الأولين آدم وحواء. وبسقوطها فقدا بساطتهما الأولى وبراءتهما وبالتالي بدأ نسلهما يعرف الخطيئة وأنواعاً كثيرة منها.. تلوث العقل البشري بهذه المعرفة.. فهل من المعقول أننا سندخل إلى قدسية السماء وعالم الأبرار بعقل لوثّته معرفة الخطيئة؟!

يقيناً أن اللّه سوف ينعم علينا في سمائه بنسيان تلك المعرفة الملوثة. وينزع من عقولنا كل ما تسجل فيها من صور الخطيئة ليس فقط يزول منا الانفعال بالخطيئة ولذتها. بل تزول منا أيضاً معرفة الخطيئة. ونصبح في نسيان كامل من جهتها. كالنسيان الذي ينتج عن الزهايمر. والقياس مع الفارق..

***

في الأبدية حيث يعيش الأبرار في طهر كامل سوف لا توجد خطيئة. لا بالعمل. ولا بالفكر. ولا بمجرد المعرفة..

وإن كان الإنسان عندما يتوب يطلب من اللّه أن يمحو له الخطيئة من ذهنه وقلبه. بكل صورها وانفعالاتها. فلا توجد في حياته فيما بعد.. فكم بالأكثر يكون ذلك في عالم الأبرار.. فالخطيئة كما تُمحى ها هنا من أعمالنا بالتوبة. كذلك سوف تُمحى تماماً من أفكارنا في العالم الآخر.. وهذا من فوائد النسيان.

***

في الانتقال النهائي من عالم إلى عالم آخر. يصير نسيان العالم الأول وكل ما فيه.

حيث يمحو اللّه من العقل الباطن للإنسان كل ما ترسّب فيه من قصص هذا العالم، وأخباره وأحداثه وصوره وعلاقاته حتى يتفرّغ للعالم الجديد. والحياة فيه مع اللّه وملائكته وقديسيه. في جو مختلف تماماً عن هذا العالم الحاضر وفي أعماقه يقول للرب تلك الأبيات من النُّسكيات:

قد تركت الكل ربي ما عداك	ليس في غربة العمر سواك
قد نسيت الأهل والأصحاب بل	قد نسيت النفس أيضاً في هواك
قد نسيت الكل في حُبك يا	مُتعة القلب فلا تنسَ فتاك
هى ذي العين وقد أغمضتها	عن رؤى الأشياء علّي أن أراك
وكذا الأذن لقد أخليتها	من حديث الناس حتى أسمعك

***

من فوائد النسيان في العالم الآخر. أن يمحو اللّه من ذاكرتنا كل ما يتعلّق بماديات هذا العالم. حتى ننشغل بعالم الروح.

فننسى الاشياء التي تُرى. لكي نتمتع بما لا يُرى.. أي بما لم تره عين. ولم تسمع به أذن. ولم يخطر على قلب بشر. ما أعده اللّه للذين أحبّوه على الأرض..

إن القلب المُتعلّق برفاهية هذا العالم وماديا‌ته. ويملاهي هذا العالم وصخبه وضوضائه. لا يجد مُتعة في الأبدية. بل من نعمة اللّه عليه أن يُنسيه ملاذ هذه الحياة الأرضية المادية. لكي يتذوّق لوناً آخر من المُتعة في الأبدية هو مُتعة الروح.

***

بل من فوائد النسيان. أن ينسى الإنسان أيضاً أقاربه وأصحابه الذين لم يدخلوا ملكوت اللّه ونعيمه..

طبيعي أنه ليست كل أسرة. ولا كل جماعة. أعضاؤها كلهم من الأبرار. فإن دخل إنسان بار إلى النعيم الأبدي. ولم يجد كل أفراد أسرته هناك. ولا كل أصدقائه. هل يحزن عليهم مُشتاقاً إليهم. بينما النعيم الأبدي ليس فيه حزن؟!

كلاّ. بل من نعمة اللّه عليه أن ينسى كل الذين لم يحيوا حياة البر على الأرض. ولم يستحقوا النعيم. أيّاً كانت صلتهم السابقة به على الأرض.. ينساهم جميعاً.. حتى إن كان فيهم أب له أو أم أو ابن أو زوجة.

إنها نعمة النسيان في الأبدية.

***

من نعمة اللّه على الناس في الأبدية. أنهم سوف ينسون ما كانوا يستعملونه على الأرض. وأصبحوا لا يستعملونه في العالم الآخر..

من ذلك بعض الهوايات مثلاً.. كإنسان كانت تستهويه أنواع مُعيّنة من الرياضة: كالسباحة. أو لعب الكرة. أو الشطرنج. أو المصارعة. أو حمل الاثقال.. هل سيجد كل ذلك في الأبدية؟ وهل يكون له نفس التعلّق بشيء من هذه الهوايات هناك؟ وإن لم يجدها. هل سيحزن أو يتضايق؟! أمْ أن اللّه سيُنسيه كل ذلك ليمنحه مُتعاً أخرى تناسب الحياة في السماء..

هنا وأعتذر لنجوم الرياضة الذين يفرحون بفوز الفريق الذي يحبونه. كما أعتذر لنجوم الفن الذين يفرحون أيضاً بنجاح رواياتهم. إن كانوا لا يجدون في الأبدية لعباً أو تمثيلاً..! كما لا يقدرون أن ينسوا مُتعة اللعب!!



٢٠٠٣/٦/٣

أسباب تعب الأعصاب

يظن كثير من الناس أن تعب الأعصاب خاص بخطية الغضب. أو النرفزة. على اعتبار أن النرفزة مُشتقة من كلمة Nerve أي عصب، على أن هناك أسباباً كثيرة لتعب الأعصاب. نذكر منها:

١- المرض الجسدي:

يحدث أن بعض العظام في الجسد تضغط على أحد العظام فتسبب له ألماً. مثال ذلك في بعض أمراض العمود الفقري. أن يضغط العظم على الـ Sciatic Nerve الذي يمتد ما بين الفقرات القريبة من الحوض حتى القدم فيشعر الإنسان بألم وتعب في الأعصاب. يسمّونه سياتكا. كذلك قد تتعب الأعصاب في أمراض الأسنان. إذا امتد السوس إلى العصب مُحدثاً ألماً. ويحتاج الأمر إلى عملية يقوم بها طبيب أسنان مُتخصِّص في علاج العصب.

***

٢- الإرهاق الجسدي:

إذا كان الإنسان مُرهقاً جداً من التعب. يكون في حاجة إلى الراحة أو النوم. وتكون أعصابه غير محتملة أي نوع من الجدال. وتصبح المناقشة معه في هذه الحالة عبارة عن ضغط على أعصابه قد لا يحتمله. ويبدو أمام الناس كأنه ضيّق الصدر!

لذلك نصيحتي لكل زوجة أنها لا تضغط على زوجها في مناقشة وهو مُرهق. ولا تلحّ عليه في طلب وهو في مثل هذه الحالة. وإن حدث ذلك وثار عليها أو رفض الحديث معها. فلا تتهمه بالشدة أو الجفاء. إنما تلوم نفسها لأنها كلّمته في وقت غير مناسب. وهو مُرهق عصبياً.

كذلك على أي مرؤوس ألاّ يطلب من رئيسه طلباً وهو مُرهق. فقد لا يستجيب لطلبه أو قد يرفض سماعه. ليس لأن الطلب غير سليم. وإنما بسبب الإرهاق. ولو تم العرض في وقت آخر لاستجاب.

إن اللّه يعلّم بمضار الإرهاق. وبحاجة الجسد إلى الراحة. لذلك منحنا وصيّة - لصالحنا - أن نستريح يوماً كل أسبوع.. كذلك وضع لنا أعياداً نستريح فيها ونفرح. بالإضافة إلى مناسباتها المقدسة.

***

٣- نوع الأطعمة:

هناك فرق بين الطعام النباتي وأكل اللحوم. بالنسبة إلى الأعصاب. فالنباتيون بصفة عامة يكونون أكثر هدوءاً من آكلي اللحوم. وبخاصة الذين يأكلون لحماً بدمه.

فإن أعصابهم تثور بسرعة. لذلك عجبت أثناء زيارتي لبعض بلاد الغرب. إذ رأيتهم أحياناً يُقدّمون لحوماً فيها شيء من الدم. والذي لا يريد ذلك. عليه أن يطلب لحماً مسوّى تماماً well done.

صدِّقوني. حتى بالنسبة إلى طعام الوحوش في حديقة الحيوان. يحرصون أن يبعدوهم عن الدم. لئلاّ يزدادوا وحشية ويصعب ضبطهم. ولذلك من الخير أن يُقدّموا لهم لحوماً مسلوقة ليأكلوها.

***

٤- نوع الألوان والموسيقى:

هناك ألوان مُثيرة للأعصاب. وبخاصة اللون الأحمر. ولهذا فإن الشاعر فؤاد بليبل قال في وصفه لحجرة امرأة زانية:

في حجرة حمراء تحسب أنها ... قد ضُرّجت بدم العفاف المهدر، أمّا اللون الأخضر فهو من الألوان المُهدئة للأعصاب. ولذلك تحرص الدول الراقية على أن تكون المناطق السكنية مُحاطة بمساحات خضراء Green Areas .

* أمّا عن الموسيقى. فهى على أنواع. منها ما هو مُهدئ. وما هو مُثير. منها ما ينقل إلى جو حالم. أو إلى جو روحي. منها الموسيقى الصاخبة. والموسيقى الدينية. والموسيقى العسكرية. وقد كان الموسيقي الشهير بيتهوفن يعزف لحناً يجعل السامع يُثار. وآخر يهدئه. وهكذا يتلاعب بمشاعره كما يشاء. ومن المعروف أن موسيقى الجيش تلهب المشاعر. وتثير العواطف. وتوقظ الأعصاب وتشدها. فاختر لنفسك لوناً من الموسيقى يشيع الهدوء في نفسك.

٥- نوع الطباع:

يقسمون الطباع إلى أربعة أنواع: الناري. والهوائي. والترابي. والمائي. فالنوع الناري هو أكثرها ثورة وجرأة. وأقربها إلى الإثارة والاستثارة. حتى بين الشعوب - وليس فقط الأفراد - يقال أن الشعب الفلاني بارد بطبعه. حتى في فكاهاته. تكون فكاهاته باردة. ويقولون عن شعب آخر إنه "زربون" أي أنه يثور بسرعة.. فحسب نوعية الطبع. تكون الأعصاب في تعبها أو راحتها.

***

٦- أخطاء الآخرين:

إن بعض أخطاء الآخرين قد يُثير الأعصاب أو يتعبها.

من ذلك: الكلام المُتعب. وهو على أنواع: منه إطالة الكلام بدون داعٍ. بطريقة مُملّة تتعب الأعصاب.. أو تكرار الكلام ممّا لا يحتمله الذهن. أو كثرة المُقدِّمات دون الدخول في الموضوع. إلاّ بعد إرهاق السامع. أو شرح المفهوم والواضح. كما لو كان المُتكلِّم يتهم السامع بضيق الفكر أو بضحالة المعلومات.

ومن أخطاء الكلام. نوع من النقاش مُثير للأعصاب: منه المُغالطة في الكلام ومنه "المقاوحة" وإصرار المُتكلِّم على ترجيح رأيه مهما كان مُخطئاً.. وقد يمتزج جدله بالكذب واختلاق الأسباب.

***

٧- الإهانة:

قليلون جداً هُم الذين يحتملون الإهانة. لأنها تُثير الأعصاب. وبخاصة عند الإنسان المُتمسّك بكرامته. وربما يحتملها البعض من الخارج. فلا يثور. ولا يرد الإهانة بمثلها. ولكنه يكون مُثاراً في داخله.

ويدخل في موضوع الإهانة: الاتهام الظالم. والكلام الموجع. وقد تكون الإهانة على شكل من "المزاح الثقيل" غير المقبول. الذي يخرج عن حدود المزاح. ويتحوّل إلى لون من الاستهزاء. أو التحقير والاستهانة بكرامة السامع. والادعاء بأن ذلك لون من الدالّة! وقد تشتمل الإهانة على إغاظة أو إثارة. فعلى الإنسان أن ينتقي الألفاظ في حديثه مع غيره. وربما تكون الإهانة بغير كلام. بالحركات أو الإشارة أو الملامح.

٨- الإحراج:

الإحراج يتعب الأعصاب. وقد يكون ذلك بتقديم سؤال تصعب الإجابة عليه. أو بجرّ السامع إلى موضوع لا يريد الحديث فيه. بل يحرجه الخوض فيه. وقد يكون الإحراج بكشف أسراره أو أخباره. ويزداد الإحراج وإتعاب الأعصاب. إن كان ذلك مقصوداً. أو كان أمام الناس. أو كان أمام مجموعة مُعيّنة يتعبه الإحراج أمامها.

***

٩- العناد:

إن كانت مخالفة الأمر مُتعبة للأعصاب. فلا شكّ أن استمرار العصيان يكون مُتعباً بالأكثر.

أمّا إن أخذ العصيان شكلاً من التمرُّد أو العناد المقصود. فإنه يكون مُثيراً للأعصاب. لأنه يدل على التحدي والاستهانة. وبخاصة لو صدر من شخص من المفروض فيه أن يخضع ويطيع.

وما أكثر ما يجرّه العناد من نتائج خطيرة. وبالذات في نطاق الأسرة. كلّما تكرّر العناد. وضاقت الأعصاب عن احتماله.. وقد يؤدِّي إلى خلافات ربما تصل إلى التقاضي في المحاكم.

وبالإضافة إلى العناد في محيط الأسرة. فإنه في محيط العمل قد يؤدِّي إلى فصل موظف من وظيفته إذا ضاقت أعصاب رئيسه عن احتمال ذلك العناد المتكرر في مخالفة أوامره.

***

١٠ - النكد:

النكد مُتعب للأعصاب. لأنه ضغط مُستمر عليها. وبخاصة لو ازداد. أو أصبح طبيعة في بعض الأشخاص. أو لو كان ذلك في نطاق الأسرة: يعكِّر سلامها باستمرار. ويفقدها الهدوء والاستقرار. وقد يضطر الزوج إلى البُعد عن بيته وقضاء الوقت مع أصدقائه في النادي أو في مناطق النشاط المُتعدِّدة هرباً من النكد في البيت!

وإذا استمر النكد في الأسرة. ربما يؤدِّي إلى الانفصال أو الطلاق. أو البحث عن الراحة الفكرية والعصبية بأنواع وطرق شتى. حتى تستريح الأعصاب من تأثير النكد عليها.

ويشبه الشخص النكدي إلى حدّ ما. بالشخص الكِشري. الذي لا تستريح الأعصاب إلى مجرد رؤية ملامحه المقطبة. وبخاصة لو تحوّل ذلك إلى طبع دائم عنده. بحيث أن من يراه في أحد الأيام يُصلِّي قائلاً: سترك يارب. اجعل هذا اليوم يمرّ على خير!

***

١١ - الأحزان والضيقات:

إنها قد تتعب الأعصاب إذا تراكمت وتعدّدت. بحيث أنه ما يفيق الإنسان من ضائقة حتى تلاحقه ضائقة أخرى. وكما يقول الشاعر:

تأتي المصائب حين تأتي دفعة ... وأرى السرور يحين في الفتراتِ

ولهذا فإن من تلاحقه المتاعب. يحتاج إلى كلمة تعزية تريح أعصابه ونفسيته. أو عليه أن ينساها بقدر إمكانه ولا يعاود التفكير فيها. فإن هذا يشكّل ضغطاً على أعصابه.

أو أن يحيا هذا الإنسان في حياة الرجاء. وانتظار تدخل اللّه الذي يحوّل الشر إلى خير. أو يضع للتجربة حدوداً من جهة الزمن أو من جهة الشدة. فلا يجرّبه فوق ما يطيق أو يجعل مع التجربة المنفذ.

***

١٢ - الاضطهاد:

وقوع إنسان تحت اضطهاد يتعب أعصابه. ويزيد ذلك إن شعر إنه مقصود. وبغير سبب يستدعي ذلك. ويزيده أيضاً إن استمر. وأصبح منهجاً للتعامل. كما يحدث أحياناً من أستاذ نحو تلميذه. بحيث يفقده النجاح أو التفوّق. أو إن حدث من رئيس تجاه أحد مرؤوسيه: في التعيين أو الترقية أو المعاملة. أو ما يكتبه عنه من تقارير تؤثر على وضعه الوظيفي. أو قد تضطره أحياناً إلى الاستقالة والبحث عن عمل آخر لكي يريح أعصابه من احتمال الضغط المستمر عليها في معاملة مهينة أو قاسية. أو في إذلال دائم وظلم مُستمر.

***

١٣- التسلّط:

مَنْ يتعامل مع إنسان مُتسلِّط. تتعب أعصابه: سواء في محيط الأسرة أو العمل. أو حتى في مجال الخدمة والأنشطة.

إن الزوجة تتعب أعصابها من الزوج المُتسلِّط الذي يحدّ حريتها. ويقيدها في دخولها وخروجها وفي كلامها. وفي مصروفات البيت أيضاً. وفي كل اتصالاتها.. كذلك فإن الأب المُتسلِّط يتعب أعصاب أبنائه بكثرة أوامره ونواهيه. ويتدخله تدخلاً مُتعباً في كل تصرُّفاتهم. بحيث يريد أن يُحرّكهم هُم وأمهم بالريموت كنترول.

نفس الوضع نقوله في مجال العمل عن الرئيس المُتسلط.

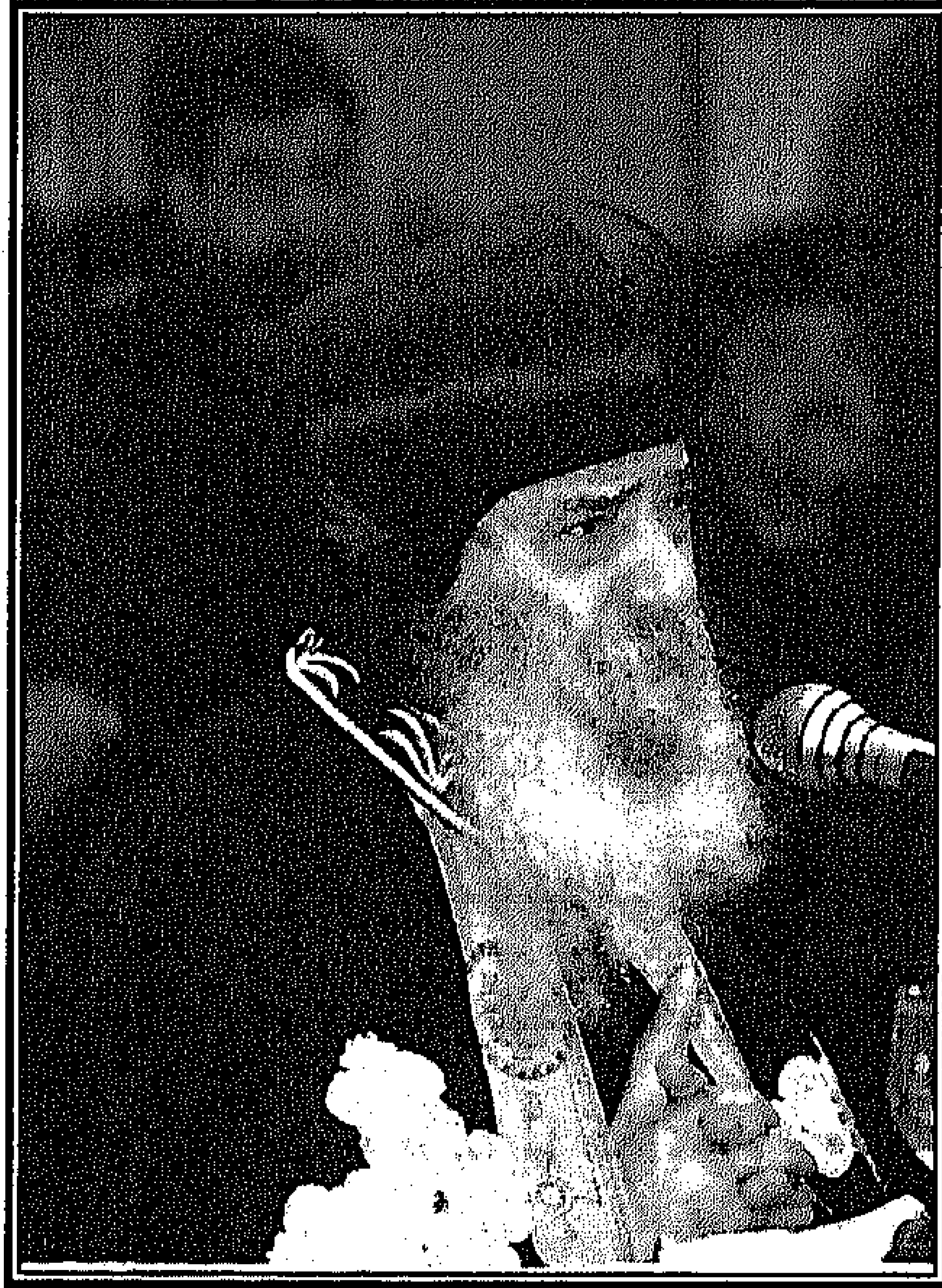
***

١٤ - التعامل مع أناس مُتعبين

ليس كل إنسان مُريحاً في تعامله. أو مُترفقاً أو لطيفاً. فهناك أنواع من الناس يؤدِّي التعامل معهم إلى تعب الأعصاب. بل قد يوجد أناس من النوع الذي يقال عنه إنه لا يطاق!

منهم النوع المخادع. إذا انكشف خداعه. وظهر أنه يقود غيره في طرق ضارة غير ما يظهر منه. كذلك المرائي. ومن يُقال إنه بوجهيْن. ومن يبدو أنه صديق وهو عدو! وأيضاً الإنسان المتقلب الذي لا يثبت على حال. والإنسان الملتوي في شخصه وفي تصرُّفاته. وليس هو صريحاً. ولا تعرف قصده ولا خططه. إنما يدور بك في سبع طرق. تخرج منها. دون أن تدري أية الطرق هى المقصودة!

وممّن يتعب الأعصاب: الإنسان اللحوح. والإنسان الضاغط.



٢٠٠٣/٦/١٠

البشاشة

هذه هي المقالة رقم ٥١ منذ بدأت مقالاتي معكم في ٢٠٠٢/٦/٩م، ولمّا كانت بداية للخمسين الثانية. لذلك رأيت أن أُحدِّثكم فيها عن البشاشة. لأن البشاشة تصلح أن تكون بداية لأمور كثيرة.

فمثلاً. كل إنسان يُحبّ أن يحتفل في بشاشة بعام جديد في حياته. ويُسمّيه عيد ميلاده. وبنفس البشاشة يحتفل بعيد زواجه. وبعيد حصوله على درجة علمية عالية.

وبالبشاشة أيضاً نحتفل بأي عيد ديني. أو أي عيد وطني. أو أيّة مناسبة شعبية بهيجة.

ذلك لأن البشاشة علامة على الفرح. وهي دليل على السلام الداخلي. وكلّنا يُحبّ الفرح والسلام.

الشخص البشوش يُسعد الناس ببشاشته. ويشركهم معه في فرحه. وهُم يستبشرون به. وينقلهم إلى نفس مشاعر البهجة التي له.

إنه يُشيع السلام حواليه. ويُبعث الطمأنينة في قلوب الآخرين. البشاشة تشعّ من نظرات عينيه. ومن ابتسامته ومن ملامح وجهه. ومن أسلوب حديثه. إنه نفس مُستريحة من الداخل. وقادرة على إراحة غيرهم. تشعرهم أنه لا يوجد سبب يدعو إلى الكآبة. بل هناك الفرح على الرغم من كل شيء.

أمّا الكآبة والتعب وفقدان السلام. فهي دلائل على ضعف الإيمان داخل القلب. لأن قلب المؤمن مهما أحاطت به المتاعب. ففي داخله أمل ورجاء في أن كل الأمور ستؤول أخيراً إلى الخير. لذلك فإنه يكون باستمرار بشوشاً.

***

الإنسان البشوش لا يعيش في التعب الحاضر. إنما بالرجاء يعيش في الفرح المُقبل.

إن لم يجعله الواقع سعيداً. فإنه يعيش سعيداً في الأحلام في الخيال. ولا يكون خلاله وهماً. إنما حقيقة مبنيّة على الإيمان بأن اللّه يرعى خليقته. وإنه لا بد سيأتي ليحلّ له كل إشكالاته. مهما خيّل إليه أنه قد أبطأ في معونته!! كلاّ. إن وعود اللّه صادقة. ولا بد سيأتي. وهذا يدعو إلى البشاشة.

لذلك فإن البشوش هو إنسان مؤمن بالمعونة الإلهية. لا يشك فيها إطلاقاً. بل يقول للرب كما قال داود النبي في المزمور: "اذكر لي كلامك الذي جعلتني عليه أتكل. هذا الذي عزّاني في مذلّتي".

***

الإنسان البشوش لا يسمح للمشاكل أن تحصره داخلها

إنما يكسر دائرتها. ويفتح له باباً ليخرج منها.

إنه لا يحكّم عقله فقط. إنما يحكّم إيمانه بالأكثر. فهو لا يحكم على الأمور بتفكيره الخاص. إنما يحكم عليها في ظل الإيمان بأن اللّه يحب البشر. وهو دائماً يصنع الخير معهم. ويقول لنفسه: لا بد أن اللّه يعمل خيراً. فإن كنت أنا لا أرى هذا الخير. فقد يكون هذا مجرد قصور أو عجز في نظري.

والإنسان البشوش حتى لو حاربته الأحزان من كل جانب. يقول لنفسه: وما ذنب الناس في أن يروني عابس الوجه. فيحزنوا؟!

لذلك فهو في نبل نفسه: إن أدركه الحزن. يحتفظ به لذاته وحده ويُقدِّم بشاشته للآخرين. يشرك الناس في أفراحه فقط. ولا يشركهم في شيء من الحزن.

***

الإنسان البشوش ينتصر على المتاعب. أمّا الكئيب فتنتصر المتاعب عليه.

البشوش لا يقع في الحصار النفسي. ولا تكون نفسه عدوّة له في الداخل. عقل البشوش يكون صديقاً له. ودائماً يُريحه. أمّا الكئيب فعقله يكون ألدّ أعدائه. لأنه يصوّر له متاعب لا وجود لها. ودائماً يضخم له الشر. ويغلق أمامه أبواب الحلول!

إن أراد أن يخرج من بيته. يقول له: الأسد في الطريق!

***

الإنسان البشوش يُحب أن يكون جميع الناس بشوشين مثله.

لذلك فهو يحاول دائماً أن ينسيهم أحزانهم. ويبعث فيهم الاطمئنان. ويبحث عن حلول لمشاكلهم. ويعطيهم تحليلاً مريحاً لكل الضيقات. ووجهاً مريحاً لكل المتاعب. يجلب البهجة لهم مهما حدث.

إنه يُخفِّف من قدر المتاعب. ولا يحسب لها ثِقلاً. بعكس الكئيب الذي يضخّم من حجمها ويكبّرها.

البشوش في كل مشكلة تحل به أو بغيره. يذكر قول الرب:

"تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال. وأنا أريحكم".

الكئيب يحمل همومه بنفسه. ويتألّم بها. ويشكو منها أمام الناس. أمّا البشوش فيتركها إلى اللّه يحلّها له.

***

الإنسان البشوش حقاً. هو الذي يتمتّع بالبشاشة الداخلية.

فهو ليس فقط بشوشاً من الخارج في مظهره. بل البشاشة تملك أعماق قلبه وفكره. وتنبع من داخله. فلا يحمل همّاً.

إذا أخطأ: بدلاً من أن يفقد بشاشته. فإنه يعمل على إصلاح الخطأ.

وحينئذ يعيش في سلام داخلي. وفي سلام مع اللّه.

كثيرون إذا وقعوا في خطأ أو في مشكلة. فرد الفعل الطبيعي عندهم هو الكآبة. ولكن الكآبة ليست حلاً عملياً للمشاكل. أمّا الشخص البشوش فإنه يبحث عن الحل العملي الذي يتخلّص به من المشكلة. وينقذه من الكآبة.

فإن وجد الحل، تزول المشكلة. ويملكه الفرح.

أمّا الكئيب. فإن المشكلة تستولي على كيانه كله. وبالأكثر عقله ومشاعره فيظل يفكّر في المشكلة وأعماقها وأبعادها. وكيف حدثت. وما يتوقّعه من نتائج سوداء لها. فيزداد كآبة. ولا يُفكِّر مُطلَقاً في حلها.

وإن فكّر في الحل يستصعبه. ويضع أمامه العقبات. أو يتخيّل أنه لا حل أو أن الكآبة تشل تفكيره. فلا يبصر الحل وهو موجود وهكذا يستمر في كآبته. بل تزداد هذه الكآبة. ولا يستطيع أن يكون بشوشاً.

الإنسان البشوش إن لم يجد حلاً لمشكلته. يتركها إلى اللّه. وينساها بين يديه الإلهيتين.

أمّا الكئيب فلا يستطيع أن ينسى مشكلته. إنها قائمة دائماً أمام عينيه. تتعبه وتزعجه. وكلّما فكّر فيها، أرهقت أعصابه. وأتعبت نفسيته. وربما يعرض نفسه على أطباء نفسانيين.

فيعطونه منوماً لكي ينام. ولا يعود يُفكِّر في مشكلته. أو قد يعطونه مُهدئات ومُسكِّنات. لكي تستريح أعصابه. وكلّها علاجات من الخارج. بينما الداخل في تعب.

حسناً إن البشوش يُعطي فرصة لنفسه. يعمل فيها اللّه .. إن أتعبته مشكلة. وعجز تفكيره عن حلّها. يُصلّي. واثقاً أن اللّه يتدخّل ويعمل على ايجاد حلّ. وما دام اللّه سيتدخل. ويصبح الأمر في يديه. إذن فلا داعي للقلق والاضطراب.

البشوش يجعل اللّه بينه وبين المشكلة. فتختفي المشكلة وراء اللّه.

أمّا الكئيب فيضع المشكلة بينه وبين اللّه. فلا يرى اللّه وهو يعمل!

أيضاً البشوش لا يُعطي للمتاعب وزناً أكثر من وزنها الطبيعي.

***

كثير من الأمور يأخذها ببساطة. فلا تتعقد أمامه.

وبطبيعة نفسه لا يتضايق إلاّ من الأمور التي هي فوق طاقة الاحتمال. وأتذكّر أنني قلت مرة في هذا المجال:

لقد سُمّيت الضيقة ضيقة. لأن القلب قد ضاق عن احتمالها. أمّا القلب الواسع. فإنه لا يضيق أمام كل مشكلة. بل يتسع لها ويستوعبها فيحتملها. ولا تفقده بشاشته.

إن قطعة من الطين يمكنها أن تعكّر كوباً من الماء أو إناء منزلياً ولكنها لا تستطيع أن تعكّر البحر أو النهر. الذي يتقبّلها ويفرشها في أعماقه. ويُقدّم لك ماءً رائقاً.

إذن العيب هو فينا أولاً: هل قلوبنا مُتسعة أمْ ضيقة؟

الإنسان البشوش له قلب واسع. لذلك فهو لا يتضايق لأي سبب. ولا يفقد بشاشته بسبب ما يُسمّيه غيره ضيقة.

***

كذلك قد يفقد الإنسان بشاشته. بسبب عدم الاكتفاء.

أقصد عدم الاكتفاء بما عنده والتطلّع باستمرار إلى طموحات عالية ربما لا تكون سهلة المنال. أو ربما إذا وصل إلى بعضها لا يكتفي وإنما يطلب المزيد. فإن لم يَنله يحزن ويكتئب.

من أجل هذا. فالإنسان القنوع الراضي بما قسم اللّه له. يكون دائماً بشوشاً سعيداً. شاكراً للّه على ما هو فيه.

عكس ذلك. الطامع في منصب كبير. أو في مستوى مالي مُرتفع. قد يفقد روح الفرح أو البشاشة. لأن آماله في العلو أو الترقّي لم تتحقّق. أو وجد له منافسين نالوا ما كان يود أن يناله هو.

ما أعجب أن كبار الأغنياء قد لا يحيون في البشاشة التي يعيشها عامة الناس. ذلك لأنهم مهما ازداد غناهم. يريدون ما هو أكثر وأكثر.. وقد لا يتحقّق ذلك. فيفقدون البشاشة.

وقد يتحقّق كل ما يريدونه من غنى. ولكن ذلك يستلزم ضرائب أو مُستحقات مُعينة للدولة لا يحبون أن يدفعوها. فيكتئبون. أو يلجأون إلى التهرّب الضريبي. فيدخلون في قضايا ويتعرّضون لأحكام تصدر ضدهم. وفي كل ذلك يفقدون البشاشة على الرغم من الغنى المتزايد.

***

أخيراً. في موضوع البشاشة. أراني مُضطراً إلى طرق موضوع ديني:

يرى البعض أن رجال الدين أو المتدينين عموماً يجب أن يتصفوا بالجدية. أو بنوع من الجدية يأخذ مظهر التزمت وقد يقودهم هذا إلى لون من العبوسة. بحيث يعتبرون المرح أو البشاشة حراماً.

فهُم يربطون بين الجدية والعبوسة. وبين الضحك والخطيئة! وكأن الذي لا يكون عابساً. فبالضرورة يكون عابثاً! أو على الأقل يكون ساهياً عن نفسه. وغافلاً عن أبديته! وناسياً لخطاياه. وبعيداً عن حياة التوبة وعن النمو الروحي!

***

وهذا التزمّت له خطورته. لأنهم به يخيفون الناس من التديُّن! أو هُم يُقدِّمون للناس صورة من التدين غير السليم!

فلماذا لا يكون الإنسان مُتديناً. وفرحاً وبشوشاً في نفس الوقت؟

وهل معنى التديُّن أن ينفصل الإنسان عن الحياة الاجتماعية وما فيها من مرح وبهجة؟! وهل إذا ضحك المُتدين. يُبكِّته ضميره على ذلك؟! ويرى أنه قد هبط درجة في الحياة الروحية؟!

وهل الحفلات التي تتميّز بالفرح تكون في مستوى هابط. مهما كان ذلك الفرح بريئاً. ولا تُكسر فيها وصية واحدة من وصايا اللّه!!

وإن استطاع الكبار أن يضبطوا أنفسهم من جهة اللهو والمزاح والضحك والفكاهة. فهل يستطيع ذلك الأطفال؟! بينما هو مستحيل لأن الطفل يحب أن يضحك. وإن منعناه عن الضحك ينشأ مريضاً نفسياً.

أم إننا نسمح له بكل ذلك في طفولته. ونمنعه عن كل ذلك كلّما يكبر. كأن مقاييس الخير أو الشر قد تغيّرت تماماً!

***

إن اللّه خلق الإنسان لكي يكون سعيداً. وأسكنه في جنة.. وفي الأبدية سنكون في نعيم وفرح. فهل في الفرح خطيئة؟!

كلاّ. بلا شكّ. وإلاّ كره الناس التديُّن.

بل على العكس. إذا رأوا المتدينين فرحين. تكسو وجوههم البشاشة. يتشجّعون على أن يحيوا حياة مُتدينة. بل يفرحون في تديّنهم. إذ أن اللّه قد قادهم إلى حياة الفضيلة. وسهّل طريقها أمامهم. ويفرحون إذ صارت لهم علاقة طيبة مع اللّه. وأصبحوا يجمعون بين التديُّن والبشاشة.

***

المشكلة إذن في الحالتيْن هى في التطرُّف

بمعنى أن يتطرّف الإنسان في تديُّنه. فلا يضحك. ويظلّ عابساً.. أو يتطرّف الإنسان في ضحكه. فيخلط الضحك بالاستهزاء أو بالفكاهات الرديئة. أو بدلاً من أن يضحك مع الناس. يضحك على الناس. أو يحاول أن يضحكهم بما يخدش ضمائرهم.

أمّا البشاشة فهى وضع متوسّط. يجب أن يتصف به حتى رجال الدين. فيشعر الناس أن الدين هو حياة فرح. فرح باللّه وبالفضيلة.

٢٠٠٣/٦/١٧

الشر.. في سوء الاستخدام

إن اللّه قد وهبنا عطايا كثيرة. يمكن أن تُستخدم في الخير. ويمكن أن تستخدم في الشر.

هى في ذاتها ليست شرّاً. إنما الخطية هى في سوء استخدامها. وسنضرب لذلك بضعة أمثلة:

الحُب

أعطانا اللّه عاطفة الحُب. وهى ليست خطأ في ذاتها. بل الخطأ هو أن تخلو قلوبنا من الحُب. ومن عظمة الحُب أنه قيل: "اللّه محبة".

والخطأ هو أن نسيء استخدام الحُب. ونوجهه توجيهاً غير سليم. الحُب في أصله يكون موجّهاً إلى اللّه. وإلى الناس داخل محبّتنا للّه. ويكون موجّهاً إلى الخير وإلى المثاليات. وإلى السماء والأبدية.

ولكننا نخطئ إذا أسأنا استخدام الحُب. فأصبحنا نحب العالم أو الجسد أو المادة أو الذات. أقصد إذا أحبّ الإنسان ذاته محبة خاطئة.

فليس خطأ أن يُحب الإنسان ذاته محبة روحية. بأن يقودها باستمرار إلى التوبة والبر والحياة مع اللّه. ويجعلها تستعد للأبدية. وليس أن تندمج في شهوات أرضية.

***

المال

المال ليس شرّاً في ذاته. إنما الشرّ في سوء استخدامه فكثيرون كانوا أغنياء وأبراراً. يستخدمون مالهم في عمل الخير. وينفقون المال في الانفاق على الفقراء والمحتاجين والجمعيات الخيرية. ويساهمون في المشروعات البناءة. وفي إعانة المعوقين.. فكان ما لهم سبب بركة لهم ولغيرهم بحُسن استخدامه.

ولكن يصير المال شرّاً. إذا أُستخدم في اللهو والعبث.

وفي شهوات وملاذ الجسد. أو إذا اعتمد الإنسان عليه. وصار مجالاً للكبرياء ولشراء ذمم الناس.

فليس عيباً أن يمتلك الإنسان مالاً. إنما العيب هو أن المال يمتلك الإنسان ويسيطر على عواطفه وفكره.

***

الفن

ليس الفن خطيئة في ذاته. لأنه يمكن استخدامه في الخير أقول هذا عن الشعر والموسيقى. والرسم والنحت. وأقوله عن الغناء. وعن التمثيل في السينما أو المسرح. وسائر الفنون الأخرى إذا كان استخدامها في الخير.

كان داود النبي شاعراً وموسيقياً. يُنظّم مزاميره شعراً.

والألحان تستخدم في دور العبادة. وفي الترتيل والتسبيح، إذن الغناء ليس خطأ في ذاته.. ولكن إذا أُسيء استخدامه في المجون والعبث. حينئذ يصبح خطيئة.

وبالنسبة إلى الشعر والموسيقى. يتوقّف الخير أو الشر فيهما. على حُسن الاستخدام أو سوء الاستخدام. ونفس الكلام نقوله أيضاً عن الرسم والنحت.

أمّا الرسامون الذين يسيئون استخدام الموهبة إلى إثارة الغرائز الجسدية. فهؤلاء يخطئون بسوء الاستخدام. وتبقى الموهبة صالحة إذا أُستخدمت حسناً.

***

الخيال

هو أيضاً يتوقف خيره أو شرّه على نوعية استخدامه.

فالخيال الخيّر. هو مصدر القصص النافع المُفيد. والشعر الروحي المؤثّر. بل قد يكون مصدراً صالحاً للتأمُّل.

ويمكن للإنسان أن يسرح بخياله في السماء والملائكة والأبدية. بل وفي صفات اللّه نفسه وأسمائه.

ولكن الخيال يصبح شرّاً. إذا أُسيء استخدامه. كما في أحلام اليقظة وتصور الشرور في الذهن أي إذا سرح خياله في خطيئة.

***

الغضب

ليس الغضب شرّاً في ذاته. فهناك غضب مُقدَّس.

والغضب المُقدَّس هو الذي يمنح الإنسان الغيرة المُقدَّسة. والنخوة والشهامة. والدفاع عن الحق.

ويبقى الغضب مُقدَّساً. إن كانت وسيلته مُقدّسة. وكذلك دوافعه. وهنا نفرّق بين الغضب والنرفزة. فالنرفزة هى تعب في الأعصاب. وقد يغضب الإنسان. ويبقى في وقاره. مُتزناً. مُحتفظاً بأعصابه.

ولكن إذا أُسيء استخدام الغضب. يصبح خطيئة، وذلك إذا استخدم بدافع شخصي. من أجل كرامة ما أو بقسوة. وبغير سبب روحي يدعو إليه. أو إذا خلط هذا الغضب بألفاظ غير لائقة. أو باحتداد. أو بإهانات وجرح شعور. أو بعُنف أو بظلم.. ففي كل ذلك يصبح الغضب خطية. لأنه قد أُسيء استخدامه.

***

الطموح

الطموح يكون خيراً. إن كان سعياً وراء الكمال:

ولولا الطموح ما كان النمو الروحي في الفضيلة. وما كان السعي إلى قدام. والصعود إلى العلو.. والطموح يكون خيراً إذا سعى الإنسان أن يكون ناجحاً في كل ما تمتد إليه يده...

أمّا إذا أُسيء استخدام الطموح. بحيث يصعد الإنسان ولو على جثث الآخرين وتحطيمهم.. حينئذ يصبح خطيئة

لأنه هنا يكون قد تحوّل إلى صراع ما بين الذات والآخر وتدخلت فيه الأنا Ego. وروح العظمة. والعلو في الماديات... وكذلك إذا قاد الطموح إلى الحسد. أو إلى الكراهية. أو إلى التآمر على الآخرين لاغتصاب مراكزهم...

هنا نكون قد أسأنا استخدام الطموح...

***

العقل:

العقل موهبة من اللّه.. ولكن من الممكن استخدامه في الخير. كما يمكن استخدامه في الشر...

فإذا ما استخدم العقل في خير الإنسان روحياً. وفي خير البشرية بصفة عامة. وفي التوصل إلى السلوك السليم. حينئذ يتحوّل إلى حكمة طاهرة نافعة...

ولكن للأسف. فقد يُسيء البعض استخدام العقل. كما يفعل الخطاة والمجرمون. وكما يفعل الشيطان نفسه...

وهكذا قد يستخدم العقل في تدبير المؤامرات. وفي وضع الخطط لإهلاك الآخرين أو لسلبهم. ومثلما يتبارى العلماء في اختراع أسلحة تدميرية فتاكة.. وكما يفعل أصحاب الحِيل والدهاء والفكر. بل كما يُدبّر الشيطان تدابير ليست سهلة المقاومة.

وهنا يكون العقل قد أُسيء استخدامه. وأصبح أداة للشر والتدمير. وإيقاع الضرر بالغير.

***

الاختراعات:

هى نتاج فكري عميق. يمكن استخدامه في الخير وفي الشر.

الطاقة الذريّة مثلاً. التي أُستخدمت في تدمير هيروشيما. يمكن أن تستخدم سلمياً من أجل خير البشرية. فهى ليست شرّاً في ذاتها. ولكن الشر يكمن في سوء استخدامها.

ويسأل البعض من الساعين في طريق البر: هل الراديو والتليفزيون حلال أمْ حرام؟ خير أمْ شر؟ وكذلك التمثيل؟

فنقول لهم: يمكن استخدام هذه المخترعات في الخير. إذا ما أشرف على استخدامها أناس روحيون حريصون على إنتاج يهتم بنقاوة القلب والفكر. وبقيادة المشاهدين في طريق الخير.

ويمكن لدور العبادة أن يكون لها مثل هذا الانتاج.

***

ودور العبادة حالياً تستخدم كثيراً من المخترعات الحديثة:

مثل الميكروفونات. ومُكبِّرات الصوت. والفيديو. وأجهزة التسجيل. والانترنت. وكافة الأجهزة السمعية والبصرية...

وبعضها يستخدم أيضاً المسرح والتمثيل لأجل مُتعة الناس روحياً، وذلك في تقديم روايات دينية أو اجتماعية أو تاريخية أو حتى قصص من الخيال. ولكن لهدف روحي له سموّه. المهم أن تترك القصة أو الرواية تأثيراً دينياً في مشاهدها.

***

المادة:

المادة ليست شرّاً في ذاتها. ولكن إذا أُسيء استخدامها. حينئذ تتحوّل إلى شرّ...

كذلك إذا أحبّها الناس أكثر من اللّه. أو إذا سيطرت محبّتها في قيادة الإنسان. بحيث يوصف بأنه إنسان مادي.. أي أن المادة استخدمت بطريقة قضت على روحياته ومثالياته ومحبته للخير..

فالكحول مثلاً ليس شرّاً في ذاته كمادة. بل يستخدم أيضاً في العلاج كمادة مُطهِّرة. كما يستخدم في العطور... وأيضاً في الصناعات وفي الوقود. ولكنه إذا ما أسيء استخدامه كمادة للسُكر والإدمان وفي إتلاف صحة الإنسان وإرادته. أو في إشعال الحرائق وما شابه ذلك. يتحوّل في كل هذه الحالات إلى شرّ...

النار أيضاً كمادة يمكن أن تستخدم للخير. كاستخدامها في الأفران مثلاً. أمّا إذا استخدمت لحرق أملاك الغير تصبح شرّاً. ليس لأنها شرّ في ذاته. إنما في سوء استخدامها للشر.

***

الغريزة:

الغريزة ليست شرّاً في ذاتها. وإلاّ ما كان اللّه قد خلقها فينا.

كما أن المادة ليست شرّاً في ذاتها. وإلاّ ما كان اللّه قد خلقها. إنما المهم أن تسير الغريزة في المجرى الطبيعي الذي أراده لها اللّه. ولا يُساء استخدامها.

وموضوع الغرائز موضوع طويل. ليس الآن مجاله...

ونفس الكلام يُقال عن الرغبات...

القوة:

القوة لازمة لكيان الإنسان. ويمكن استخدامها للخير وإذا أُسيء استخدامها. تصبح شرّاً...

والدين عموماً يدعونا أن نكون أقوياء. لكي نؤدّي واجباتنا كلّها. ولكي ننتصر على الشر والإغراءات. والإنسان القوي في شخصيته. هو إنسان نافع للمجتمع الذي يعيش فيه. ونافع لأسرته. ونافع لنفسه.. وهنا أحبّ الناس المعنى الصحيح للوداعة والطيبة والتواضع. وأنها لا تعني مُطلَقاً أن يكون صاحبها ضعيفاً..! بل يكون قويّاً مع طيبة قلبه...

كذلك القوة إذا أُسيء استخدامها. وتحوّلت إلى لون من البطش والعُنف والاستبداد والتسلُّط. أو إلى الإرهاب تصبح شراً.

وهنا نُميِّز بين القوي العادل النافع. وبين القوي المغلوب من نفسه. المتسلِّط على غيره.. حقاً إن كل شيء نافع. يمكن أن يتحوّل إلى شرّ. إذا أُسيء استخدامه..

***

الحرية:

لا أظن أن أحداً في العالم يقول عن الحريّة إنها شرّ.

ولكنها بلا شكّ إذا أُسيء استخدامها تتحوّل إلى شرّ.

كأن يستخدم الإنسان حُريّته في فعل ما لا يليق. أو تكون الحرية بغير ضابط خلقي. أو تتحوّل إلى لون من الاستهتار واللامبالاة. أو أن يستخدم حريّته في إقلاق الآخرين وإزعاجهم. أو أن يكون عثرة لهم. أو سبباً في سقوطهم.. أو أن يعتدي على حقوق غيره أو حرياتهم.

أو أن يستخدم حريّته في إهلاك نفسه. كمَنْ يُدمِن الخمر أو التدخين أو المُخدِّرات. أو كالتلميذ الذي يستخدم حريّته في اللهو واللعب. ويهمل دروسه فيفشل ويرسُب!

كذلك مَنْ يستخدم حريّته ضد القانون والنظام العام.

في كل هذه الأمثلة وأشباهها. يُساء استخدام الحرية. بلون من الخطيئة.

٢٠٠٣/٦/٢٤

كيف تواجه المشكلة؟

يندر أن يوجد إنسان لا تقابله مشاكل في حياته.

إنما المهم كيف يواجهها. بحيث يحلّها. أو على الأقل لا يزيدها تعقيداً.

حلول خاطئة

١- البعض يواجه المشكلة بالاضطراب والحُزن:

وربما أيضاً بالبكاء. وقد يصل الأمر أحياناً إلى الانهيار.. وهذا الأمر كثيراً ما يحدث عند بعض النساء... وينبغي أن نعرف أن البكاء لا يحلّ مشكلة. وأن الذي يواجه المشكلة بالحزن والاضطراب. إنما يسئ إلى نفسه وإلى صحته. كما أنه أثناء الاضطراب يعجز العقل عن التفكير الهادئ السليم. وربما يرتبك في أخطاء يقع فيها. وتتعقد معه الأمور.. وقد يتسبّب ضيقه وحزنه. في بعض أمراض تصيبه : مثل ضغط الدم. أو قرحة المعدة. أو الكبد أحياناً.

***

٢- والبعض قد يواجه المشكلة بحيلة خاطئة:

* مثال ذلك: في قصة يوسف الصديق: لمّا رفض الزنا مع امرأة سيده وهرب منها: كيف واجهت تلك المرأة هذه المشكلة؟ ادّعت عليه باطلاً أنه هو الذي أراد اغتصابها! فألصقت به تهمة زوراً!

* مثال آخر: تلميذ يواجهه امتحان. وهو غير مُستعد له. فيواجه هذا الامتحان بطريقة من طرق الغشّ وهى كثيرة. أو يحاول أن يهرب من لجنة الامتحان خفيةً. دون أن يُقدِّم ورقة الإجابة..!

* مثال ثالث: مجرم في جريمة قتل أو سرقة. يحاول أن يتخلّص من اتهامه في الجريمة. بأن يحاول اثبات وجوده في مكان آخر غير مكان الجريمة في وقت ارتكابها!

* على أن كل هذه الحيل قد تكتشف. فلا تنفع صاحبها. بل ربما تضيف إليه جُرماً آخر!

٣- وهناك من يحاول حلّ مشكلته. بأية خطية يلجأ إليها:

* كإنسان يعمل على حلّ مشكلة الفقر بالسرقة. أو بالاحتيال على الآخرين. أو بالنصب. أو بقبول الرشوة. أو باللجوء إلى خطية أخرى!

على أن الخطيئة - وإن بدت موصلة إلى الغرض في بادئ الأمر - ما أسهل أن تؤدّي إلى نتائج سيئة أو خطيرة فيما بعد. كأن توصّل إلى السجن. أو إلى سوء السمعة على الأقل.

* ومن أمثلة معالجة المشكلة بخطية: فتاة تزني وتحمل سفاحاً. فتعالج هذه المشكلة بالإجهاض. وهكذا تضيف إلى خطية الزنا خطية القتل. قتل الجنين. وبالإجهاض تدفع نفسها في مشاكل أخرى.. وربما يتقدّم أحد ليتزوّجها. فتواجه مشكلة أخرى وهى خداعه وإثبات بكوريتها. فتلجأ إلى خطايا أخرى للوصول إلى ذلك الخداع..

٤- وهناك أمثلة أخرى لمحاولة معالجة المشكلة بخطية:

* أحياناً يحاول شخص أن يحل مشكلته بالكذب أو الإنكار. فيقول لم أفعل. أو لم يحدث. أو يحاول أن ينسب الفعل إلى غيره .. وإن لم يصدِّقوا إنكاره. يحاول أن يثبت كذبه بالقَسَم فيحلف باطلاً. وهكذا يضيف خطية أخرى إلى ما سبق.

* والبعض قد يعمل إلى مواجهة الخطية بالانتقام: الانتقام ممّن يتهمه. أو الانتقام ممن كشفه أو ممّن يظن أنه السبب!

***

٥- وهناك من يواجه المشكلة بالغضب والنرفزة:

* كأب يضع الترمومتر في فم ابنه المريض. وإذ يكتشف ارتفاعاً في درجة الحرارة. يُلقي بالترمومتر في عصبية فيكسره. مع ما يتلفّظه من كلمات السخط. وتبقى درجة الحرارة مُرتفعة. لم ينقصها غضبه!

* أو أب يلاحظ إهمال ابنه. أو تأخّره في العودة مساءً. فيضربه في عُنف. ويمنعه من الخروج من البيت. وتحدث مشاكل جديدة نتيجة لعُنف الأب. مثل الدواء الذي له آثار جانبية.. وقد لا يكون هذا التصرُّف علاجاً على الإطلاق..

* ومن أمثلته أيضاً الزوج "الحِمش" الذي يُعالج أخطاء زوجته بعُنف. بضرب أو طرد أو حبس في البيت.. ويكون هذا نقطة البدء في فشل حياته الزوجية..

٦- هناك أيضاً من يحاول أن يحل مشكلته بالعناد:

وهذا النوع تكون في نفسيته ألوان من الكبرياء أو الأنانية. وقد يُسمِّي هذا عزة النفس أو الكرامة .. فيصرّ على رأيه أو على تصرُّفه. مهما قاد هذا العناد إلى نتائج سيئة.. ويستمر في تشدّده. وتتعقد مشكلته أكثر من الأول. ولا ينفعه عناده بشيء. ولا ينال بها كرامته.

***

٧- والبعض يلجأ في حلّ مشكلته إلى القهر أو الإرغام:

وهذا الأسلوب له أشكال متنوِّعة: فقد يكون مادياً أو معنوياً. والنوع المادي يدخل فيه الإيذاء. والنوع المعنوي يدخل فيه التهديد. وما أكثر ألوان التهديد.

وأحياناً يكون القهر بأسلوب سلبي. كمداومة البكاء أو النكد. كما يفعل النساء أو الصغار. أو الإضراب عن الطعام كما يفعل الكبار. وهذا القهر السلبي يلجأ إليه من لا طاقة لهم على عمل إيجابي .. وأسلوب القهر عموماً. هو وسيلة لإرغام الغير على قَبُول ما لا يرضاه. وحتي لو استجاب له قهراً. لا يكون مُقتنعاً عقلاً. ولا يكون راضياً قلباً..

وللأسف قد يلجأ الوالدان أحياناً إلى طرق من الإرغام الأدبي. لكي تتزوّج ابنتهما بمن لا ترضاه. تحت ضغط مرض الأب أو الأم بسبب رفضها قَبُول زيجة يظنان هما أنها الأفضل! أو تحت ضغط الإلحاح المستمر أو التخويف..

***

الطرق السليمة

١- أول طريقة للتخلُّص من المشاكل هى الوقاية منها:

لا تنتظر حتى تأتيك المشكلة. ثم تُفكِّر كيف تحلّها. إنما الأفضل هو أن تتجنّبها قبل أن تأتي ولذلك ضع أمامك قاعدة هامة وهى: "عالج الأسباب قبل أن تُعالج النتائج".

* مثال ذلك مريض يشكو من ارتفاع درجة حرارته. فيلجأ لأدوية تخفض درجة الحرارة. بينما يكون السبب هو وجود بؤرة صديدية. لا تنفع معها كل تلك الأدوية. حيث ينبغي معالجة السبب أي البؤرة الصديدية.
* كذلك في الخلافات الزوجية التي تزداد حتى تذهب الزوجة إلى بيت أبيها لأسباب مُعيّنة. أيكفي في حل المشكلة أن ترسل إليها وساطة لترجعها؟! أمْ الحل الطبيعي هو معالجة الأسباب التي جعلتها تترك البيت؟!

* وفي تفادي أسباب أيّة مشكلة. ينبغي معرفة السبب الحقيقي:

مثال ذلك فتاة كلّما يأتي شخص ليخطبها. يترك البيت ولا يرجع مرة أخرى. فربما يُقال لها إن هناك عملاً أو سحراً يحتاج إلى فكه!! بينما قد يكون السبب الحقيقي هو مقابلة أسرة الفتاة للخطيب بطريقة غير لائقة. أو أسلوبهم في الكلام لا يعجبه. أو تعقيدهم للأمور بمطالب مالية لا يقدر عليها.. ويكون حلّ المشكلة في تفادي هذه الأسباب..

***

٢- حل المشاكل يحتاج إلى حكمة:

الإنسان الحكيم يستطيع أن يحلّ مشاكله بعقل رزين وتفكير هادئ. لأن التفكير المشوش لا يوصّل إلى حل.

ولعلّك تقول: وإن لم تكن لديّ حكمة. فماذا أفعل؟ أو إذا ملك على الاضطراب وعجزت عن الوصول إلى حل. فماذا أفعل؟

أقول لك حينئذ: الجأ إلى المشورة الصالحة. كقول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مُرسلاً ... فارسل حكيماً ولا توصهِ

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصهِ

ولا تعتمد على نفسك وحدك في حل كل مشاكلك. فهناك أمور تحتاج إلى متخصصين لإبداء الرأي السليم. وكثيراً ما تحتاج إلى عقل يسند عقلك. واذكر قول سليمان الحكيم: "اثنان خيرٌ من واحد. لأنه إن وقع أحدهما يُقيمه رفيقه...".

***

٣- الإنسان الحكيم لا يتشبث بحلّ واحد للمشكلة:

فإن إنهار ذلك الحل وفشل. تنهار معه كل آماله! بل في سِعة فكره. يضع أمامه حلولاً كثيرة. وإن لم يصلح أحدها. يجد له بديلاً..

وهو في كل ذلك لا يفكّر إلاّ في الحلول العملية المُمكنة.

فهناك من يفترض لمشكلته حلولاً بعيدة التحقيق. ويحزن إن لم توصله إلى قصده. وييأس! أمّا العاقل فيعيش في الواقع العملي: يفترض الحل وما يمكن أن تقوم أمامه من عوائق. ويُفكّر في حلول لتلك العوائق أيضاً...

٤- وإن كانت له مشكلة مع شخص. يراعي نوع عقليته ونوع نفسيته:

وذلك لكي يعرف أسلوب التعامل معه. فلا تحاول أن تحلّ المشكلة بما يتناسب مع عقليتك أنت وتفكيرك. بل بما يناسب عقليته هو..

فإن كانت المشكلة مع امرأة. راع نفسية المرأة وأسلوبها في التفكير.

وكذلك إن كانت المشكلة مع شيخ كبير أو رئيس. وهكذا...

مشكلتك مع شخص ذكي. غير مشكلتك مع شخص بسيط.

ومشكلتك مع إنسان عنيف. غير المشكلة مع إنسان هادئ.

كل مشكلة يختلف أسلوب حلّها. حسب نوعية من تتعامل معه.

***

٥- والإنسان الحكيم يُراعي في حلّ مشكلته: الوقت والظروف:

عليك اختيار الوقت المناسب. لا تقل: سأذهب اليوم إلى فلان وأتفاهم معه. ولن أتركه حتى أحلّ معه الموضوع!

لا يا أخي. ربما يكون في ذلك اليوم مشغولاً أو مُتضايقاً. أو قد يكون الوقت غير مناسب. بل اختر الوقت الذي تكون فيه الظروف مواتية. والنفس مستريحة. والأعصاب هادئة ومُستعدة.

***

٦- هناك مشاكل تحتاج في حلّها إلى صبر واحتمال:

تحتاج إلى مدى زمني لكي تُحلّ فيه. حيث تكون النفوس مُستريحة. وتهدأ الانفعالات. وتعمل نعمة اللّه. فعليك بالصبر.

لا تقل صبرت كثيراً بلا فائدة. ولا تيأس. أمّا تمسُّكك بالسرعة في حلّ مشكلتك. فإنه يسبب لك قلقاً. تذكّر كم صبر يوسف الصديق. حتى أتى الحل أخيراً. وخرج من السجن إلى الحكم.. وكذلك مانديلا..

وفي صبرك. ليكن لك هدوء قلبي. شاعراً أن اللّه في حنوّه لا بد سيتدخّل ويحلّ لك مشاكلك.

ويكون صبرك مخلوطاً بالإيمان والصلاة ورفع قلبك إلى اللّه.

***

٧- هناك مشاكل تُحلّ بالتواضع وبالكلمة الطيبة:

وكما قال الحكيم: "الجواب الليّن يصرف الغضب.. والكلمة القاسية تهيج السخط". فكن رقيقاً في كلامك. ولطيفاً في معاملاتك. فبهذا تستميل القلوب. وتحل مشكلتك بتواضع القلب. كم من موقف شديد. يمكن أن يحل بدعابة لطيفة أن بفكاهة. فيزول التوتر. ويصبح الجو صالحاً للتفاهم..

يقول المثل: إن النار لا تطفئها النار. بل الماء يطفئ النار. فإن وجدت الجو مُشتعلاً. لا تجعله يزيد اشتعالاً بغضبك. وإنما اهدأ ولا شك إنك بوداعتك ستكسب الموقف وتحل المشكلة.

***

إن المتواضع لا يغضب بسبب أية كلمة تسئ إليه. ويقابل كل معاملات الغير برحابة صدر. ويتغاضى عن بعض الأمور. ويجعل المسائل تمر هادئة دون أن تتعقد... فكن متواضعاً.

وأسأل اللّه - تبارك اسمه - أن يحلّ لك مشاكلك.

وثِق أنه سيعمل عملاً. لأنه مصدر كل رحمة وعدل.



٢٠٠٣/٧/١

غلطة العمر

كل إنسان مُعرّض للخطأ. الكل يخطئون. ولكن هناك فرقاً بين خطأ وخطأ هناك أخطاء خفيفة في تأثيرها. ولا تتعدى زمنها. ومن السهل جداً إصلاح نتائجها.

بينما هناك أخطاء أخرى لها عمقها الشديد. ونتائجها بعيدة المدي. وقد لا تغتفر في نظر المجتمع. ولها عمقها. وتأثيرها على السمعة مثل هذه. قد تكون غلطة العمر.

لأنه ربما تنسحب نتائجها على العمر كله. وقد يحاول الإنسان أن يصلح ما تركته فلا يستطيع. مهما تاب. أو حاول التوبة.

***

مثال من خطية العمر: خطية الشيطان

دخل الشر إلى ذاته. ثم ملكها كلها. وصار كله شراً كل من يتلامس معه. يصير شرّاً مثله. كالنار: كل من تدخل فيه. يصير هو ناراً مثلها. إن دخلت في الخشب يصير ناراً. أو دخلت في الورق أو القطن أو القشّ. يصير أيضاً ناراً. وهكذا كل جنود الشياطين. صاروا شياطين مثله الكل قد فسدت طبيعته. بلا امكانية للرجوع إلى طبيعته الأولي كورقة نشاف وقعت في إناء للحبر. وتشبّعت به. ولم تعد هناك إمكانية أن ترجع إلى نقاوتها الأولى. إنها غلطة العمر.

***

هكذا والقياس مع الفارق خطيئة الإنسان الأول

ما كان يعرف خطيئة حينما خلق. ثم أخطأ. وفقد براءته وبساطته. وطرد من الجنة. ودخل في ثنائية الخير والشر. الحلال والحرام. وهو وكل نسله. حتى الآن. إنها خطية العمر. بل الأعمار كلها.

ثم صار من البشر من أخطأ وتاب. وصارت منهم من أخطأ ولكن خطيئته أو نتيجتها تلاحقه كل عمره.. إنها غلطة العمر.

***

فتاة زلت وسقطت. وفقدت عفتها وبكارتها أو ضلت وأغريت بما يسمونه "الزواج العرفي" ولم تعد بكراً.. أتراها تستطيع أن تعود إلى بكارتها مرة أخرى. مهما تابت؟! كلاّ. إنها غلطة العمر. إنها مثل زجاج قد انكسرت. مهما حاولت إعادتها إلى حالتها الأولى. لن تستطيع.

وأصعب من هذا. إن كانت فتاة قد حملت سفاحاً وأصعب منه أيضاً. إن ضبطت في بيت دعارة. في قضية آداب.. أتراها تعود إلى سمعتها الأولى. وإلى احترام الناس لها. مهما تابت. مهما ندمت على خطيتها وبكت..؟ كلاّ. إنها غلطة العمر.

***

رئيس دولة زنى وكذب وأنكر. وفقد هيبة اسمه

وتحدثت عن خطيئته الجرائد. وصدرت ضده أحكام أدبية حتى لو كانت الغلطة الوحيدة في حياته السياسية.. حتى لو كانت قد كشفت بمؤامرة قد دُبرت ضده.. ولكنها كانت كافية لتشويه سمعته. ولتدمير حياته السياسية.. إنها غلطة العمر.

ومن أمثلتها أخطاء أخرى في حياة بعض السياسيين الكبار. قضت على سمعتهم. وعلى مستقبلهم السياسي. واضطرت بعضهم إلى الاستقالة. أو قضت بعدم ترشيحهم للمنصب مرة أخرى.

ويسمّونها أحياناً في التاريخ فضيحة "كذا". إنها غلطة العمر.

***

تلميذ غشّ في امتحان. وضُبط. وأُلغيَ امتحانه. أو رُفت من كليته عاماً أو عامين. وساءت سمعته. إنها غلطة العمر..

على الرغم من أنه كان نابهاً في باقي مواد الامتحان. وكانت هذه هى المادة الوحيدة التي غشّ فيها. أو ربما كانت المرة الوحيدة التي غشّ فيها في حياته. إلاّ أنها لوثت سمعته. وسط زملائه في الكلية. وبين أفراد أسرته. وبين أصدقائه وجيرانه ومعارفه..

وربما تمر السنوات ويتخرج ويتوظف. ولكن واقعة الغشّ هذه تلاحقه في أماكن كثيرة. ويعيّر بها. وقد يعيّر بها أهله أيضاً.. إنها غلطة العمر.

***

خطية الخيانة ولو مرة واحدة هى خطية العمر

خيانة يهوذا مرّ عليها ألفان من الأعوام. وما زالت مسجلة في التاريخ. ورمزاً لكل خيانة أخرى. إنها لن تُمحى. وعلى الرغم من أن يهوذا كانت له خطايا أخرى. إلاّ أن خيانته كانت غلطة العمر..

ومثله كل من يخون. حتى لو كانت خيانته أقل من خيانة يهوذا بكثير جداً. ولكنها لا تُنسى.

إنها تضيع الثقة تماماً: الثقة في أمانته وفي محبته. وفي صدقه. والثقة في شرفه بوجه عام. خطية لا تغتفر..

سواء كانت خطية مرؤوس يخون رئيسه: يكشف أسراره. أو يشهر به. أو ينضم لأعدائه.. أو كانت خيانة صديق لصديقه. أو خيانة زوجة لزوجها.. خطيئة تقطع كل علاقة وكل صلة. إنها خطية العمر..

باقي الأخطاء قد يحاول صاحبها أن يعتذر عنها أو عن الخيانة. فلا يجرؤ أن يرفع وجهه. ولا يجد كلاماً ليقوله..

***

أديب أعجبته رواية أو قصة أجنبية. فسرقها ونسبها إلى نفسه. ثم نشرها. أو أنزلها في فيلم سينمائي. واكتشف الأمر.

وساءت سمعته الأدبية. وعُرف عنه أنه يسرق أفكار غيره وصار إنتاجه الحقيقي أيضاً موضع شكّ..! وكلّما يؤلّف قصة جديدة يتساءل البعض: ألعلّها أيضاً مأخوذة عن قصة أجنبية؟!

وبالنسبة إليه أصبح الخطأ الأول هو غلطة العمر.

أمّا السرقة المادية. فهى أكثر وقعاً وايلاماً بالنسبة إلى المجتمع. وبخاصة إن اشتهرت وذاعت. ولم يغفرها المجتمع..

***

إنسان جاهد في حياته. حتى كوّن له ثروة كبيرة وفي يوم من الأيام أغراه القمار. فخسر على مائدته كل شيء.

وضاع كل ماله. وضاع معه مركزه الاجتماعي الذي كان مبنياً على هذا المال. وصارت تلك الليلة التي لعب فيها القمار هى غلطة العمر. أو هى نقطة التحوّل في حياته: حوّلته من كل شيء إلى لا شيء. يذكُرها فيندم. ولا ينفعه ندمه.

وهكذا أيضاً من يدخل في صفقة كبيرة خاسرة. لم تُبنَ على حساب دقيق. وقد أفقدته ثروته. وربما استدان بسببها. إنها غلطة العمر في حياته الاقتصادية.

ومثل هذا أيضاً من يضطره دائن أن يوقِّع على شيك على بياض!!

وبجهالة أو بثقة في الدائن يفعل ذلك. ويُستغل ذلك الشيك أسوأ استغلال قد يوصله إلى السجن.. إنها غلطة عمر.. وبالمثل من يوقّع على وصل أمانة

إنها قصص كثيرة تصل إلينا في شكاوي من أفراد أو شكاوي من عائلات تدمّرت حياتهم تماماً بهذه الغلطة وما يُشابهها..!

***

غلطة العمر أيضاً قد تكون في جريمة قتل

والقتل يضيع فيه عمر القتيل. وعمر القاتل أيضاً إذا ما حكم عليه بالإعدام... وفي انتظار يوم الاعدام. يظل يُفكِّر: كيف وقع منه ذلك الأمر؟! وربما يكون ذلك غير مقصود. ولكنها مُجرد مشاجرة فقد فيها أعصابه. فضرب القتيل فمات! وربما أُثير ولم يحتمل الإثارة. وحدث ما حدث.. إنها غلطة العمر.

وربما تملكه شعور الانتقام. وطغى عليه طغياناً. ولم يستطِع أن يخرج من ضغط الفكر. فانتقم ممّن مسّ سمعته أو شرفه. ورأى أنه الحل الوحيد هو قتله... وكانت غلطة العمر..

***

وربما تكون غلطة العمر هى جريمة قتل غير مقصود

ولكنها تتعب الضمير في عمق شديد كلّما تخطر على الفكر مثال ذلك سائق عربة أو أوتوبيس كان يسوق بسرعة شديدة.

وفي حادث لم يتوقّعه سقطت العربة أو انقلبت أو حُرقت. وماتت غالبية ركابها. وأصبح إن لم يمت معهم مُطالَباً أمام الضمير وأمام المجتمع بأرواحهم جميعاً... إنها غلطة العمر. كلّما يذكرها يسحقه الندم والحُزن في داخله.

ومثله أيضاً طبيب تسبّب في موت مريض تحت علاجه. وكان من الممكن جداً إنقاذ حياته. ولكنه مات نتيجة غلطة غير مقصودة. ولكنها غلطة العمر. تظل تتعب ضمير الطبيب كلّما تذكّرها...

وقد يكون السبب في موت المريض غلطة مُمرّضة وفي كل الحالات هى غلطة عمر. لأنه ضاع فيها عمر إنسان.. والذي أضاعه يظل طول عمره مُتعب الضمير. إن كان ضميره حيّاً.

***

وقد يخطئ زوج في حالة إثارة فيضرب زوجة كان يُحبّها..

وتكون الزوجة رقيقة الشعور. فلا تحتمل ضربه لها. أو إهانته لها التي حطّمت كرامتها. وحطمت معها كل عاطفة سابقة. فتترك البيت ولا ترجع مهما ندم وحاول أن يُصالحها... ولكن الإهانة كانت أعمق بكثير من كل محاولات الصلح.. وتنتهي الحياة الزوجية. إنها غلطة عمر ...

وقد يشبه هذا الأمر أيضاً: إن كان الزوج قد ألقى على زوجته يمين الطلاق بالثلاثة.. وقد يندم. ولا فائدة. ويشتاق إلى الحياة مرة أخرى مع زوجته. وتقف أمامه غلطة العمر...

***

من أنواع غلطات العمر أيضاً: ما يتعلّق بالإدمان

شخص مُرتبط. بمجموعة متحابة من الأصدقاء. يدعونه في إحدى المناسبات إلى تدخين سيجارة. أو تناول مُخدِّر ما. ومن أجل محبته لهم. أو مجاملتهم. أو مجاراة المجموعة في لهوها ومُتعتها. يستجيب لما يطلبونه منهم. يتناول ذلك النوع من المخدر. وهو لا يحسب في فكره ما يجره عليه من نتائج وبمرور الوقت يتحول الأمر إلى إدمان. ويتسلّط عليه ويفقده إرادته. وإن حاول أن يتخلّص. منه لا يستطيع. بل إن حاول أن ينفصل عن هذه المجموعة من الأصدقاء. لا يستطيع أيضاً.. بل يندر أن يحاول...

وتضيع صحته. وإرادته. وسمعته وسط أهله. ويقع في مشاكل مالية مُتعدِّدة. وتصبح شخصيته مختلفة تماماً عمّا كان عليه من قبل.. ويرى أن أول سيجارة له. أو أول كأس. أو أول حبّة مُخدِّرة. إنما كانت غلطة العمر..

***

ومثل هذا الوقوع تحت السيطرة على الإرادة والأعصاب:

وقوع آخر في السيطرة تحت فكر مُلحد أو فكر مُتطرِّف.

شخص يقرأ كُتباً مليئة بالشكوك ضد الإيمان. تنكر وجود اللّه أو عمله أو صفاته. وتحطِّم كل الأمور اليقينية التي في قلبه وضميره.. أو عن غير القراءة يتصل بجماعة من ذوي الفكر الشيوعي أو المُتطرِّف تؤثر عليه بحيث تضمه إلى نفس فكرهم. فيؤمن بما يقولون. ويسلّم به تسليماً. وينقاد إلى نفس طريقهم...

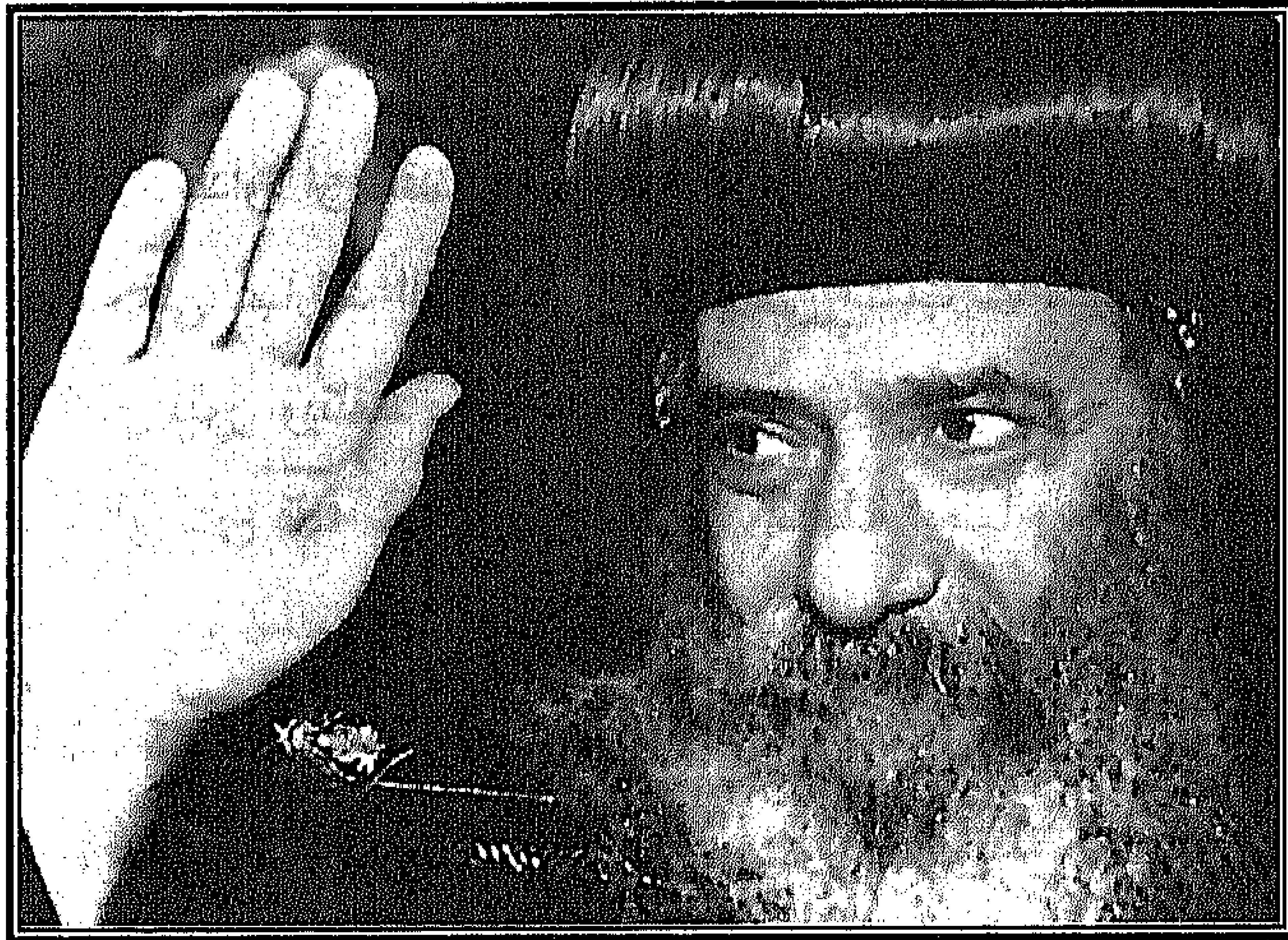
مهما حاول أن يتخلّص من ذلك الفكر. قد لا يستطيع. وربما يكون قد تورّط مع هؤلاء تورطاً لا يملك منه فكاكاً..

وإذا بأول كتاب قد قرأه في الإلحاد كان غلطة عمر، وأول ارتباط له بتلك المجموعة كان أيضاً غلطة عمر.

***

لذلك احترس أيها القارئ العزيز من تلك الغلطات التي تقودك إلى طريق مسدود. بلا رجعة...

والتي توقعك بغير قيام... وتظل طول عمرك تندم. ولا ينفعك الندم.



٢٠٠٣/٧/٨

خطورة الكلام

يستهين البعض بالكلام. كما لو كان لا يُمثِّل أية خطورة!

وإن سألتهم عن بعض ما قالوه. يجيبوا: أمّا هو كلام؟!

حتى الوعد الذي يَعدون به غيرهم. أحياناً لا يلتزمون به. ما دام مجرّد كلام. ليس مكتوباً ولا موثّقاً!

وربما الإهانة التي يجرحون بها شعور البعض. لا يحسبون لها حساباً. إنها مجرد كلام. وإن استاء البعض من عبارة تلفظوا بها. يتعجّبوا منه قائلين: أتستاء من مجرد كلمة كهذه؟! غير عالمين أنه قد يكون الكلام أحياناً كسهام.

لذلك نود ههنا أن نتكلّم عن خطورة الكلام.

***

أول خطورة للكلام. إنها في نفس الوقت تعبِّر عن حالة القلب. لأنه من فيض القلب يتكلّم اللسان.

فخطايا اللّسان - من جهة الترتيب الزمني - هى خطايا ثانية.. فالخطية تبدأ من القلب. وبعد ذلك يُعبِّر عنها اللّسان:

إن كان في القلب عداوة أو حقد. يظهر كل هذا في كلمات اللّسان. وإن كانت في القلب شهوة. تظهر الشهوة في عبارات الكلام. وإن كان في القلب غضب أو قسوة. يُعبِّر عنهما اللّسان. فالإنسان الذي يثور ويتلفّظ بكلمات كلّها غضب وقسوة. لا تعتذر عنه قائلاً: "ولكن قلبه أبيض"!! كلاّ. فلو كان قلبه حقّاً أبيض. لكانت ألفاظه أيضاً بيضاء..

علاقة القلب بالكلام. كعلاقة الشجرة بثمارها:

لأن كل شجرة تُعرف من ثمرها.. الشجرة الجيدة لا يمكن أن تُثمر ثمراً رديئاً. والشجرة الرديئة لا تُثمر ثمراً جيداً. كذلك كل شجرة بالضرورة تثمر ثمراً من نوعها. شجرة الفُلّ لا تُثمِر شوكاً. والشوك لا ينتج ورداً. هكذا الناس: من ثمارهم تعرفونهم.

من نوع كلامهم. تُعرَف نوعية شخصياتهم وعقلياتهم وثقافتهم.

إذن هناك خطورة أخرى للكلام. وهو أنه يكشف الناس.

ولذلك فإنه: إن صمت الجاهل قد يحسب حكيماً. وخير له أن يصمت. لأن الكلام يكشفه.. بكلامه تُعرَف بيئته الاجتماعية. وتُعرَف معلوماته. بل قد تُعرَف أخلاقه أيضاً..

قيل إن حماراً تنكّر في شبه أسد. فلمّا رَفع صوته وصاح. عُرِفت حقيقته..!

***

خطورة ثالثة للكلام. وهي أن الإنسان - باللّسان - قد يُكرم أو يُهان..

وهكذا قال السيد المسيح: "بكلامك تتبرّر. وبكلامك تُدان". الكلام الصالح يرفع من قدر الإنسان. وينفع غيره أيضاً. مثل كلام التعليم. وكلام النُّصح والإرشاد. وكلام التشجيع.

أمّا الكلام الخاطئ فله دينونته. ليس فقط أمام اللّه على الأرض وفي السماء. بل إنه يُدان من الناس أيضاً سواء بالقول أو بالفكر. أو بالقضاء كما يحدث في قضايا السبّ العلني.. أو في ما يختص بالتشهير وإساءة السمعة. أو إشاعة الفرقة بين الناس. أو قضايا الفتنة. وما أشبه..

***

خطورة رابعة للكلام: أن الكلمة التي يلفظها الإنسان. لا يمكن أن ترجع..

إنها تصل إلى أذن السامع. وتحدث تأثيرها في فكره. وفي قلبه وإحساساته وشعوره. وقد تستقر في ذاكرته إلى مدى طويل. لا يستطيع قائلها أن يسترجعها. مُحال..

قد يعتذر عنها. أو يحاول تبريرها. أو يقول: "لم أكن أقصد.." ولكن الكلمة سُجِّلت عليه وانتهى الأمر. وقد يُحاسب عليها. ولو بعد زمن..

فلو قلت كلمة أهنت بها إنساناً أو جرحت شعوره. أو كشفت بها مشاعرك من نحوه.. قد تظلّ هذه الكلمة كامنة في قلبه. تؤلمه. مهما اعتذرت عنها.. وقد يذكرها لك ولو بعد سنوات!

وهل لو قلت كلمة أذعت بها سرّاً قد أُؤتمنت عليه. وما كان ينبغي أن يعرف.. هل تظن هذا الأمر يزول بالاعتذار أو التبرير؟! كلاّ. أمْ أنك سوف لا تؤتمن مستقبلاً على سرّ آخر. وتلتصق بك وصمة إفشاء الأسرار..

***

من أجل هذا كله. كثير من الناس يحترسون في الكلام. إذا كان أمامهم مسجل للصوت Recorder ، أو إذا كانوا يخشون من البعض أن يُسجِّل عليهم ما يقولونه ولو في السرّ. والأولى بهؤلاء أن يحترسوا باستمرار في أحاديثهم. لأن كل كلمة يقولونها مُسجلة عليهم. حتى من غير مراقبة الناس.

يجب أن تكون كل كلمة لهم مُسجّلة في ضمائرهم. وأمام اللّه.

وقد قال أحد الأدباء الروحيين: "تكلّم كما لو كانت كلماتك مكتوبة بحروف من نور على صفحة السماء.. وإنها لكذلك ..".

وعموماً. كل كلمة بطّالة يتكلّم بها الناس. سوف يُعطون عنها حساباً في يوم الدين.. ولا ينجون من هذا الحساب إلاّ إذا تابوا عنها. وأصلحوا نتائجها على قدر ما يستطيعون..

***

لذلك ينبغي أن يتباطأ الإنسان كثيراً قبل أن يتكلّم. فيَزِنْ الكلمة جيداً. قبل أن يلفَظها بفمه..

يَزِنْ الكلمة من جهة معناها ومفهومها. ومدى تأثيرها وردود فعلها. ومناسبتها للوقت وللحاضرين. وأنها لا تقبل معنى آخر مثل هذا الشخص يقول الناس عنه: إن كلامه موزون..

إذن ليكن كل إنسان مُسرِعاً إلى الاستماع. مُبطئاً في التكلُّم.. يُنصِت جيداً ويَفهم ما يُقال. قبل أن يُجيب. وقبل أن يتدخّل في أي حديث أمامه وأي حوار.

ذلك لأن المُسرِع في الكلام مُعرّض للخطأ. مهما كانت درجته.

***

ما أكثر الذين ضيّعهم لسانهم.. وكلامهم..

وكان الخطأ الجسيم الذي وقعوا فيه. هو مجرّد كلمة أو مجرّد عبارة لم يُحسنوا اختيارها .. ربما عبارة غير مؤدّبة أو غير لائقة. رد بها موظف على رئيسه في العمل. أو رد بها طالب علم على أستاذه في الجامعة. كانت سبباً في مشاكل له في حياته. استمرّت إلى سنوات..

كلمة واحدة يُمكنها أن تُسبِّب مشكلة عائلية. وكلمة أخرى قد تُسبِّب مشاجرة في قرية. أو مُخاصمة بين صديقيْن. وأيضاً كلمة مُتعدِّدة المعاني قد تسبّب أزمة سياسية بين دولتين.

لذلك. فالخطورة ليست في مجرد الكلمة باستمرار، بل في نتائجها.

وتزداد خطورة بعض الكلام بتوصيله من شخص لآخر وتوصيل الكلام. على درجات ثلاث من الخطورة:

أقلّها توصيل الكلام كما هو، وأسوأ من هذا أن يوصل إنسان مفهومه الخاص لِمَا سمعه من كلام. وقد يكون مفهومه هذا على غير ما قصد المُتكلِّم! وأسوأ من الكل أن يضيف السامع كلاماً من عندياته - فوق ما سمعه - ويوصل ذلك كله.. أو يخترع كلاماً فوق الكلام ويوصله..!

ولا شكّ أن توصيل الكلام قد يُسبِّب خصومات بين الناس..

ويسبب هذا يُدان أمام اللَّه.. ليس فقط على الكلام الذي قام بتوصيله. إنما أيضاً بسبب نتائجه وما أحدثه من خصومات.

***

وقد يتضايق الشخص الذي أوصل إنسان آخر كلامه إلى غيره. ويوبّخه على ذلك. ويتهمه بإساءة علاقاته مع من يمسه الكلام. ولا شكّ أن له الحق في كل هذا. ومع ذلك نقول له:

إن كنت تتضايق من وصول هذا الكلام إلى غيرك. فلماذا تقوله؟

لماذا تقول كلمة. إن وصلت تُسبّب مشكلة؟!

لماذا لا تحترس حينما تقول كلاماً يمسّ إنساناً؟ قبل أن تقول هذا الكلام. افترض أن الكلام قد يصله. فليس كل سامعيك حريصين على الكتمان.

إن كل كلمة مسجّلة علينا. على الأقل أمام اللَّه .. وحتى إن كان الناس لا يسجِّلونها علينا في مسجلات صوتية. فقد يُسجِّلونها في ذاكرتهم ولا ينسونها. وقد لا تمسهم تلك الكلمة. ولكنها تمسّ قائلها. أعني تعطي فكرة عن شخصيته وعن أخلاقه. ويستنتج الناس منها أشياء. ويمسكونها عليه. ويعيرونه بها.. ويقولون له: "لغتك تظهرك".

***

ليتنا بهذه المناسبة. ندرِّب أنفسنا على ضبط اللسان

متذكِّرين قول سليمان الحكيم: "كثرة الكلام لا تخلو من معصية" ومتذكِّرين أن الكلام الباطل ما أسهل أن يبرد القلب. ويفقده حرارته الروحية التي يحصل عليها من كل عمل روحي. كما أن الكلام الباطل يُشتِّت الفكر. ويبعده عن اللّه.

إن الكلمة الخاطئة. لها تأثيرها على المُتكلِّم وعلى السامع، الكلمة لا تصل فقط إلى آذان السامعين. وإنما أيضاً تصل إلى أذهانهم وقلوبهم. وتعمل عملاً..

إنها تصل أيضاً إلى المشاعر. وقد تُسبِّب انفعالات مُعيّنة. وقد تلد في الذهن أفكاراً وظنوناً وتخيّلات..

لا توجد كلمة عقيمة. فما أكثر ما تلده الكلمة من بنين وبنات.. وما أكثر الرحلات التي تعبرها الكلمات من شخص إلى شخص. ومن بلد إلى بلد. وقد تقول كلمة في بلد ما. ثم تسافر فتجدها قد وصلت قبلك إلى المكان الذي سافرت إليه. وتنتظرك هناك بكل تأثيراتها..

***

على أن خطورة أخرى من جهة الكلام وهى:

قد تتوب أنت نادماً على كلمة خاطئة لفظتها، بينما آثارها في الآخرين قائمة ضدك لم تُعالج بعد

فمثلاً. قد تقول كلمة تُسبِّب سوء تفاهم بين اثنين. ثم تندم على تلك الكلمة. ومع ذلك فسوء التفاهم الذي سبّبته أنت بكلمتك. لا يزال قائماً بين الاثنين. فهل توبتك على كلمتك عالجت نتائجها؟! أو قد تسئ إلى سُمعة إنسان بكلام مُعيّن وتشهّر به. ثم يتعبك ضميرك وتندم على ما قلته وتتوب عنه. ولكن سُمعة ذلك الشخص لا تزال مشوّهة. وشعوره لا يزال مجروحاً بسببك!

فما يمكنك أن تفعل لمعالجة آثار كلامك؟

أتشعل ناراً في مكان بكلمة منك. ثم تقول ندمت وتبت؟

والنار لا تزال مُشتعلة حيث أوقدتها!!

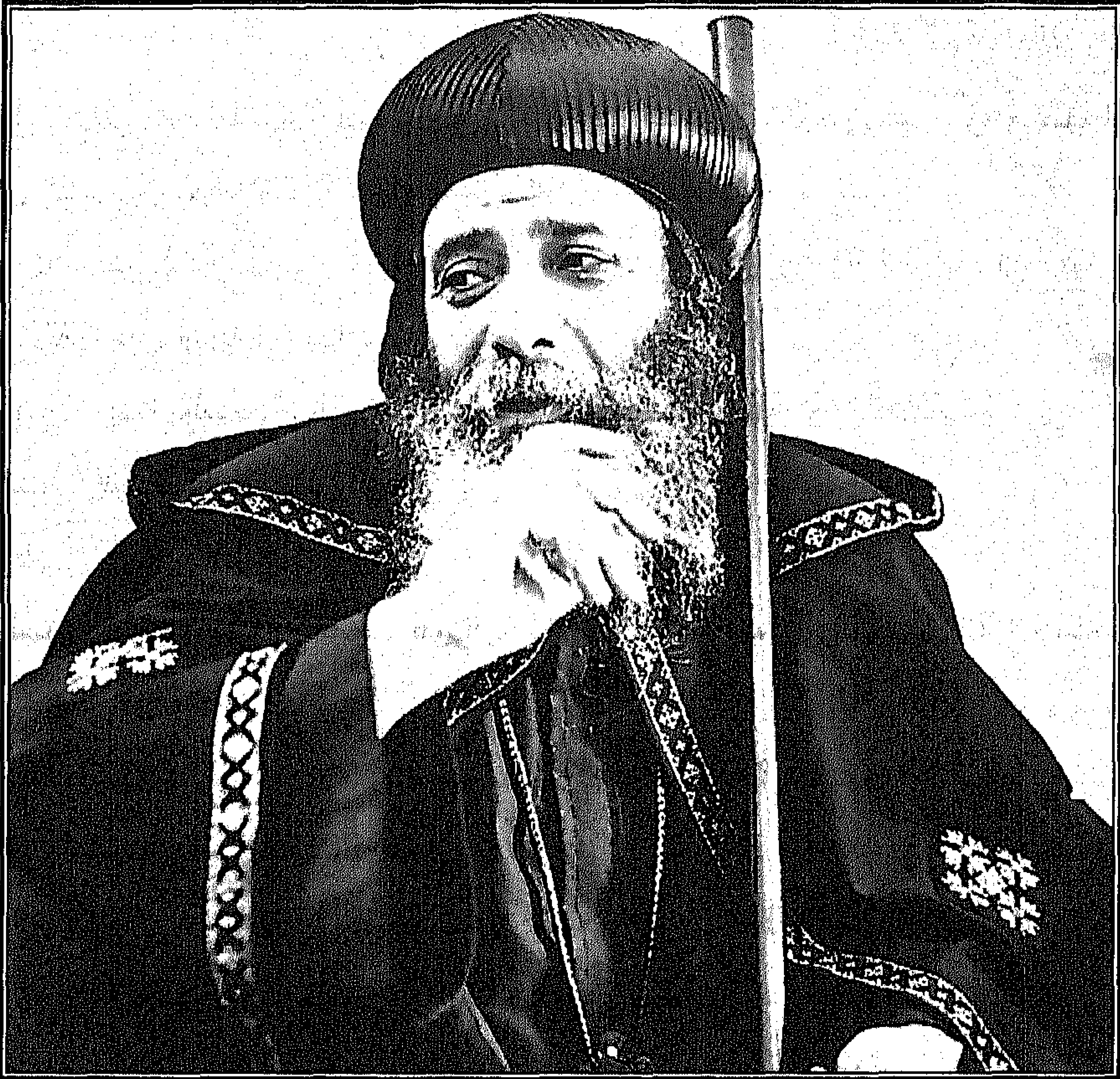
أتضع شكوكاً في قلب إنسان وفي ذهنه نتيجة كلامك. وتتركه يتلوّى في شكوكه. وتندم أنت وشكوك ذلك الشخص لا تزال تتعبه!

سواء كانت تلك الشكوك في شخص أو في عقيدة!

شخص يؤمن بفكرة مُعيّنة. ويقف على المنبر لينشرها لعقيدة!

ويدعو الناس أن يؤمنوا بها. وقد تكون بعيدة تماماً عن المفهوم الصحيح للدين. ولكنه يريد أن يثبتها بكلامه. بل يكون له بها شيعة تتبعه. ويصل إلى هذا. وربما بمجموعة تابعيه يحدث انقساماً في الوسط الذي يعيشه.

ومن هنا تكون الخطورة لكلامه. في التعليم وفي الانقسام ولكن هذا النوع من الناس لا يندم على ما يقوله. بل يتحمّس له. ولا يندم على ما أحدثه من انقسام. بل يعتبر ما يفعله انتصارا للحق. لأنه يؤمن أن ما يقوله هو الحق.



٢٠٠٣/٧/١٥

بين الصمت والكلام

إنه سؤال يبدو أحياناً محيّراً، وهو:

أيهما أفضل الصمت أم الكلام؟

فبعض الحكماء رأوا أن الصمت أفضل، إذ أنه ينجي من أخطاء اللسان وهى كثيرة. لذلك قال داود النبي في المزمور: "ضع يارب حافظاً لفمي، باباً حصيناً لشفتيّ". وقال القديس أرسانيوس مُعلِّم أولاد الملوك: "كثيراً ما تكلّمت فندمت. أمّا عن سكوتي، فما ندمت قط ..".

والشخص الصامت هو إنسان رزين، يشتهي الناس كلمة من فمه. وهو طبعاً ضد الجاهل الذي قيل عنه: "سَكَتَ دهراً، ونطقَ كفراً".

ولكن عموماً فإن الصامت يُعطي نفسه فرصة في أن يَزن الكلام قبل أن يقول، وأن ينتقي الألفاظ قبل أن ينطق بها ...

ونحن حينما (الشخص الصامت) لا نقصد الصمت المُطلَق طبعاً، فذلك يُسمّى بالأبكم. وإنما نقصد قليل الكلام...

***

السبب الأول لفضيلة الصمت هو البعد عن أخطاء اللسان والسبب الثاني- للنساك - هو فرصة للتأمل والصلاة

ولذلك عندما سألوا القديس أرسانيوس لماذا يصمت كثيراً؟ أجابهم: "لا أستطيع أن أتكلم مع اللّه والناس في نفس الوقت".

وفي هذا قال أيضاً أحد الآباء النُّساك: "الشخص الكثير الكلام، يدل على أنه فارغ من الداخل" أي فارغ من التأمل والصلاة والعمل الروحي.

أمّا بالنسبة إلى أهل العالم، فالصمت يساعد على مزيد من التفكير، وبالتالي: الحكمة في التدبير.

والإنسان الحكيم - إذا سُئل سؤالاً - كثيراً ما يصمُت قليلاً، ثم يجيب بذكاء وعمق، إجابة غير سطحية...

وأيضاً بالنسبة إلى الحكماء، يضعون أمامهم قاعدة هامة وهى "الاستماع أفضل من التكلّم" أو على الأقل: الاستماع العميق قبل التكلم. ففي ذلك يستوعبون الكلام جيداً ويفهمونه تماماً، قبل أن يجيبوا عليه...

***

ومن الطريف مما قيل عن الصمت والكلام:

قيل إن اللّه - في خلق الإنسان - وهبه أذنين ولساناً واحداً. وجعل الأذنين مفتوحتين. أمّا اللسان فجعله في فم مُغلق بالشفتين، وحول اللسان أسوار من الأسنان...

كل ذلك لكي يستمع الإنسان أكثر ممّا يتكلّم.

وقيل أيضاً من باب طرافة الحديث: إن الأذنين كل منهما في اتجاه: الوحدة منهم إلى اليمين، والأخرى إلى اليسار. لكي من الناحية الرمزية: يستمع الإنسان إلى الرأي، وإلى الرأي الآخر. وبين الأذنين توجد الرأس ترمز إلى العقل والفكر، للحكم بين الرأي والرأي الآخر.

***

أخطاء الكلام

ما أكثر الأخطاء التي تصدر عن الناس في كلامهم. وكلها نابعة من حالة القلب. وليس الجميع يقعون في جميعها. إنما البعض قد يقع في بعض أخطاء اللسان، والبعض في أخطاء أخرى:

- من ضمنها طريقة الكلام: كما في الصوت العالي الصاخب، وفي الصوت الحاد، والصوت السريع في نطقه. كلها حول عدم هدوء الصوت.
- ومنها كثرة الكلام. وغالباً ما يكون بغير ضابط. وعن هذا قال سليمان الحكيم "كثرة الكلام لا تخلو من معصية"...
- وفي كثرة الكلام، غالباً ما يقع الإنسان في خطأ عام وهو: عدم الدقة في اختيار الألفاظ. ومن أمثلتها التعميم، كاستخدام كلمة (كل) أو كلمة (جميع). وغالباً ما يكون استخداماً خاطئاً غير دقيق ...

***

ومن أخطاء الكلام الجدل الخاطئ الذي لا يخرج بنتيجة

جدل لمجرد الجدل. أو ما يسميه العامة (المقاوحة)، وهذه قد يعلو في الصوت من الطرفين. ويبدو الأمر كما لو كان شجاراً!

- ومن أخطاء الكلام أيضاً، تدخل الإنسان في ما لا يعنيه، في أي أمر لا يخصه، ولم يدعُه أحد للحديث فيه
- ومن أخطاء اللسان أيضاً، الكذب. وهذا يجعل المُتكلِّم ثقة الآخرين في كل ما يقول. وبخاصة لأن الكذب سريعاً ما يُكتشف ... ويدخل في نطاق الكذب شهادة الزور.

وربما يريد الكاذب أن يُغطي نفسه بالقسم (الحلفان)، فيزداد كذبه إثماً.. ويدخل في نطاق الكذب أيضاً، كل أنواع الخداع والتضليل. ويدخل فيه أيضاً عنصر المبالغة.

***

وهناك أنواع من أخطاء اللسان تتعلّق بالعلاقات مع الناس:

منها مسك سيرة الناس، وغالباً ما تكون لوناً من التشهير بهم، والكلام عنهم بالسوء، والحديث عن أخطائهم.

- من أخطاء الكلام أيضاً التهكُّم على الناس، والاستهزاء بهم وجرح شعورهم، وبخاصة من لا يستطيعون الرد على الاستهزاء.
- كذلك ألفاظ التهديد، وألوان من عبارات الإغاظة والإهانة والإثارة والإساءة، والألفاظ الجارحة.
- كل كلمات السبّ واللّعن والشتيمة، وما أشبه...
- ومن الناحية ألفاظ التملّق والرياء والنفاق، لمحاولة كسب رضا الكبار والرؤساء بهذا الطريق الخاطئ.

هناك أخطاء أخرى في الكلام، تمس اللّه تبارك اسمه!!

مثل النطق بِاسم اللّه باطلاً، في غير خشوع، والشهادة بِاسمه الكريم في أمور تافهة، أو بعض عبارات التهديد.

- الحلفان بِاسم اللّه في أمور خاطئة أو كاذبة.
- عبارات التذمُّر ضد اللّه، حينما تصيب الشخص ضائقة صعبة، أو مرض من الأمراض، أو فشل في حياته.

- عبارات الكفر أو التجديف على اللّه.
- كل أنواع البدعة في الدين، أو التعليم بضلالة دينية، ضد كلام اللّه ووصاياه.

***

هناك أخطاء أخرى متنوّعة للسان

منها عبارات ضد الأخلاق الكريمة، مثل كلمات المجون والهزء، والنكات البذيئة، والقصص الماجنة، وكذلك ما يمس النقاوة والطهارة من قصص وأمثال وأفاقٍ.

- أيضاً ما يتلفظ به الإنسان من كلمات الافتخار الباطل، ومدح النفس، وتمجيد الذات في مقارنتها بالآخرين
- ومن أخطاء اللسان أيضاً الثرثرة وإضاعة الوقت في كلام تافه لا يفيد أحداً، والردّ على عبارة واحدة بحديث طويل يجلب الملل والضيق ...
- من أخطاء الكلام أيضاً، أنواع الألفاظ غير اللائقة.

***

لكل ما سبق فضّل الحكماء الصمت على الكلام

ولكن يبقى بعد كل هذا سؤال هام نود مناقشته، وهو:

هل الصمت باستمرار فضيلة؟ وهل الكلام لا فضيلة فيه؟

كلا، بل الحقيقة واضحة - كما قال أحد الآباء - وهي:

الكلام من أجل اللّه جيّد، والصمت من أجل اللّه جيّد، فلا نصمت حين يجب الكلام. ولا نتكلّم حين يحسن الصمت.

أحياناً نُدان على كلام خاطئ. وأحياناً ندان على صمتنا...

والمسألة تحتاج إلى حكمة وتمييز، لنعرف متى نتكلم؟ ومتى نصمت؟

لا شكّ أن هناك كلاماً نافعاً ومُفيداً، حين نتكلّم بالصالحات. والصمت حالة سلبية، بينما الكلام حالة إيجابية.

وإنما يُدرِّب الناس أنفسهم علّة الصمت - كحالة وقائية من أخطاء اللسان - حتى يتدرّبوا على الكلام النافع.

***

كلام المنفعة

هو كل كلمة تفيد الإنسان لبنيان عقله وروحه، ولثقافته وهدايته:

من ذلك كلمة النصح والإرشاد لِمَنْ يحتاج إليها حتى لا يضل الطريق. وكلمة الحكمة التي يجعلها السامع نبراساً له في طريق الحياة. وكلمة التشجيع لإنسان على حافة اليأس أو حالة انهيار، تبعث فيه الرجاء من جديد. وكلمة العزاء لشخص حزين كذلك كلام التعليم ما دام تعليماً سليماً. يُضاف إلى ذلك كلمة البركة من أب لابن، أو من أستاذ لتلميذه ... كل ذلك يدخل في نطاق كلام المنفعة، لأن من يسمعه ينتفع به.

نضيف إلى ذلك كلمة التوبيخ المُخلِصة التي تصدر من صديق أو مُرشد أو أب، تُنهي شخصاً يسير في طريق خاطئ، حتى يُصحّح سلوكه، أو يمتنع عن خطأ سيفعله.

***

وما أكثر كلام المنفعة في الحياة العملية

من أجله تعقد مؤتمرات التوعية في شتي المجالات، منها مؤتمرات الأسرة يتكلم فيها مُتخصِّصون عن كيف يتعامل الخطيبان معاً، أو كيف يسلك حديثو الزواج في حياة جديدة عليهم، أو كيف تُحل المشكلات الزوجية دون أن تتسع أو تصل إلى المحاكم، ودون أن تتدخل فيها الحَمَوات فتعقدها.. بل ربما يعقد مؤتمر أُسري عن مثالية سلوك الحموات الفضليات. كل ذلك كلام منفعة.

أو مؤتمرات للشباب، يسمعون فيها ممّن هم أكبر منهم سناً، وأكثر منهم معرفة، يحدِّثونهم عن طاقة الشباب في تلك السن وكيف تستخدم، وعن المفهوم السليم لكلمة الحرية، والمفهوم السليم للقوة، وعن النجاح في الحياة وكيف يكون، وعن العلاقة المُثلى في محيط الأسرة، وبين الأصدقاء، وفى المجتمع ...

بل حتى في الكليات العسكرية: هناك معلومات وإرشادات تُعطى للمبتدئين في كيف يسلكون، يلقيها عليهم من أهم أقدم منهم رتبة، وحتى بعد التخرُّج يتلقون إرشادات أخرى عملية.

مثال آخر هو المؤتمرات العلمية: تُعقد لكي يستمع فيها رجال العلم إلى آخر ما وصل إليه العلم في نقاط مُعيّنة.

***

كل ذلك كلام نافع يسعى إليه الناس للاستفادة يُضاف إليه كلام الحكماء والأدباء والمُتخصّصين في نطاقهم وأيضاً كلام المسؤولين إلى مَنْ هم تحت إدارتهم... ويُعتبر كل ذلك في حدود الواجب، يُلام من يقصّر فيه.

لا يستطيع الأب أن يقول "الصمت فضيلة" ويقصّر في تربية أولاده، بينما يقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان علّمه أبوه

وكذلك الأم في تربيتها لأطفالها من بدء سنهم.

هناك كلام يدخل في حدود الواجب، وهو لازم ومُلزم فلا يجوز التقصير في واجب التعليم والتهذيب والتربية ...

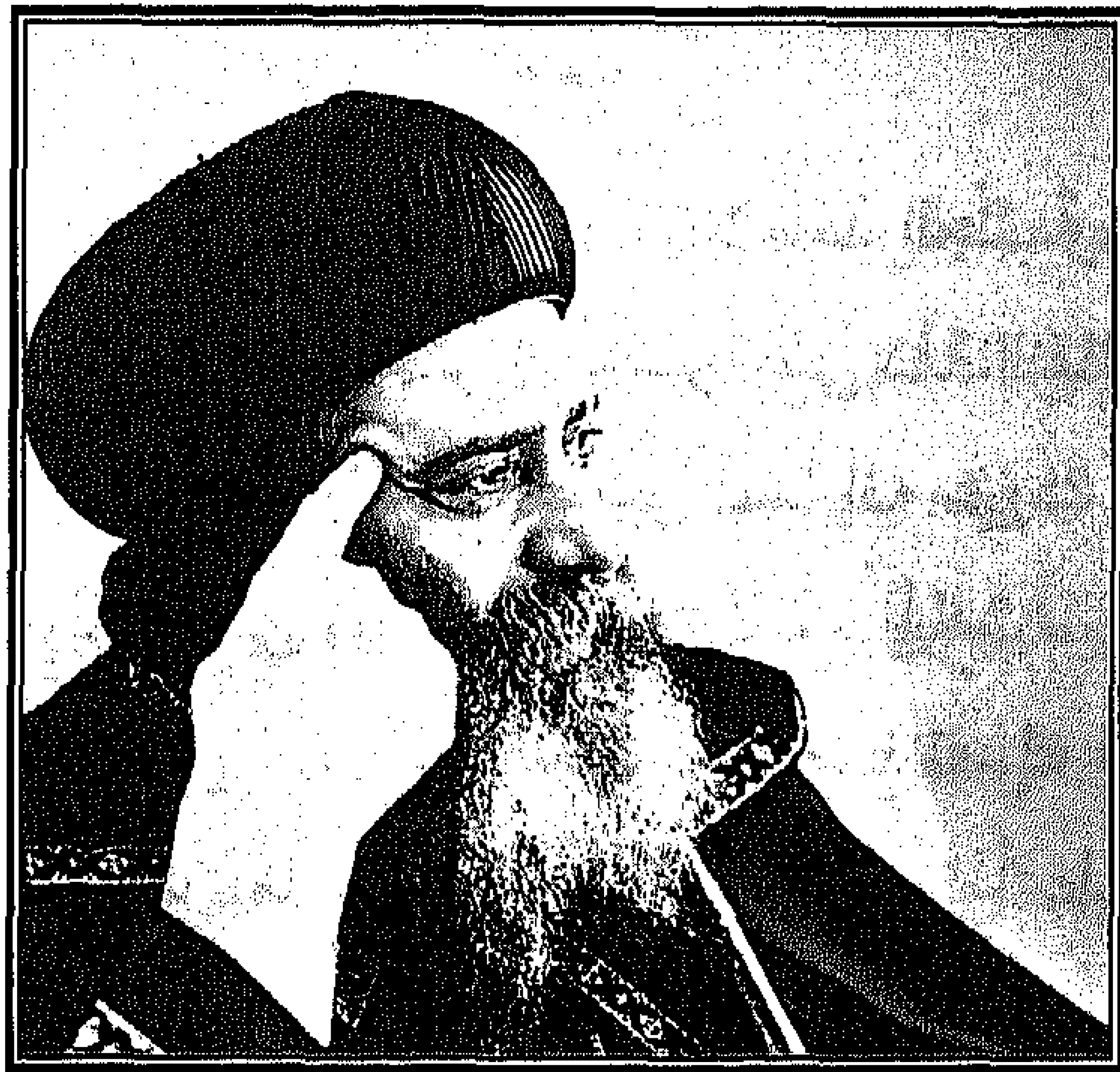
***

فإن صمتنا عن الشهادة للحق، نُدان على صمتنا

وإن أعطى صمتنا مجالاً للباطل أن ينتشر وأن ينتصر، ندان كذلك على صمتنا. كذلك إن قصّرنا في إنذار البعض، فأضرّ بنفسه أو بغيره...

وهكذا إن رأيت شخصاً يوشك أن يسقط في حفرة ولم تحذره.. فإن سقط ومات، يُطالبك اللّه بدمه، ويزعجك ضميره بهذا يكون الواجب على الرعاة والقادة والمسؤولين أن يتكلموا. ويجب من كلّفهم اللّه أن يقولوا كلمة الحق ويشهدوا لوصاياه.

وتكون الفضيلة أن نتكلّم حين يجب الكلام، وأن نصمت حين يحسن الصمت.



٢٠٠٣/٧/٢٢

آداب الحديث والمناقشة

لا تظن أن الكرامة كل الكرامة في أن تتحدث. أو أن تكون البادئ بالحديث. أو أن تمسك بناصية الحديث. وتسيطر عليه. وتقوده. وتكون البارز في الكلام!!

وربما يكون صمتك أكثر كرامة لك أمام الناس من كلامك

فقد تبدأ الحديث ارتجالاً وبغير دراسة. ويقف غيرك ممن درس الموضوع أكثر منك. فيحلّل رأيك وينقده. ويُظهر ما فيه من أخطاء أو نقط ضعف.. بينما لو أنك تأخرت في الحديث. حتى تسمع أولاً ما يقوله غيرك. لكان كلامك أكثر احتراساً. واحتفظت بكرامتك.

***

"١". **في حديثك راعِ الدقة والدماثة والأدب**

حقاً ما أجمل آداب التخاطب. بها تكسب أصدقاء..

بها تكسب محبة الناس واحترامهم. إذ تأسرهم رقة أسلوبك. وهذه الرقة في الحديث تتمشى مع فضيلة الوداعة. فالوداعة تتميز بطيبة القلب. والقلب الطيب يتناقش بطريقة طيبة. ولا تصدر عنه كلمة قاسية أو جارحة. وهكذا يكسب الناس وآداب التخاطب كما تتفق مع الوداعة. تتفق أيضاً مع المحبة والتواضع. فالمحبة لا تحتد. والتواضع لا ينتفخ في حواره ولا يتفاخر. بل تكون كل كلماته مُريحة للسامع.

***

"٢". **إذا جلست لتتحدّث مع مجموعة من الناس. فلا تأخذ الجلسة كلها لحسابك الخاص.**

لا تحاول أن تكون المُتكلّم الوحيد. أو المُسيطر على دفّة النقاش. أعطِ فرصة لغيرك. لكي يتحدّث هو أيضاً. ويُعبّر عن رأيه. ولا تُشعِر أحداً أنه غريب في مجلسك. بل اطلب من غيرك أن يتكلّم هو. وقُلْ له في مودّة: "يَسُرّنا أن نسمع رأيك".

لا تظن أن باقي الحاضرين لا يفهمون مثلك. ولا تضع نفسك في موقف المُدير. الذي يقبل ما يُعجبه من آراء. ويرفض ما لا يعجبه. أو أن يكون حكماً على ما يقوله الغير.

***

"٣". حبذا لو كنت في الحوار آخر المتكلِّمين. وليكن لتأخّرك في الحديث هدفان. هما الأدب والحكمة.

أمّا الحكمة فهى لكي تكون لك فرصة في أن تدرس موضوع الحديث جيداً قبل أن تتكلّم مع الحاضرين فيه. وأن تستعرض في ذهنك كل وجهات النظر وبراهينها وأسانيدها. حتى إذا ما تحدثت. يكون ذلك عن دراية ومعرفة. وتكون قد أعطيت غيرك فرصة للتعبير. وأعطيت نفسك فرصة للتفكير.

***

"٤". أمّا الأدب. فهو أن تفضِّل غيرك على نفسك

تُقدِّمه في الحديث عليك. احتراماً لرأيه. أو لسِنّه. أو لخبرته. أو لرغبته في إبداء رأيه.

وفي هذا الأدب. لا تحاول أن تُجيب بنفسك على كل سؤال. وبخاصة الموجّه إلى غيرك. انتظر إلى أن يتكلّم الآخرون. وإن كان هناك ما يحتاج إلى إضافة. اذكره في اتضاع مع احترامك لكل ما قيل من قبل.

وضع في اعتبارك توقير مَنْ هُم أكبر منك سِنّاً. أو أعلى منك مقاماً. وتذكّر قول أحد الآباء الروحيين:

إذا جلست مع الشيوخ. أو مع الأساتذة المُعلِّمين. فكُن صامتاً..

وإن سألوك عن رأيك. فقل أُحبّ أن أسمع وأتعلّم..

***

"٥". لهذا كُن متواضعاً ودمثاً في حديثك وفي صمتك..

لا مانع إذا دُعيت إلى الكلام في بعض الأوقات أن ترد في اتضاع قائلاً: البركة فيكم. كيف أتكلّم وفلان موجود؟! فإنه يَفهم في هذا الموضوع أكثر مني. ليته يزيدنا عِلماً.. أنا في الحقيقة لم أدرس هذا الموضوع جيداً. أخاف أن أتكلّم فأضيع وقتكم!

وليكن هذا الاتضاع في قلبك. قبل أن تلفظه بلسانك. وإن تكلّمت هكذا. فلتكن كلماتك بمشاعر صادقة. وليست بطريقة مُصطنعة. إنما بتعبير حقيقي عمّا في قلبك.

***

"٦". وطبعاً يقتضي الاتضاع والأدب. أنك لا تقاطع غيرك أثناء حديثه..

لا تسكته لكي تتكلّم أنت. فإن هذا يدل على عدم احترامك لمُحدِّثك. أو عدم احترامك لكلامه.. أو أن مقاطعتك له. تدل على ثقتك بنفسك. وتفضيل ذاتك عليه.

ويحدث أحياناً إذا ما قاطعت غيرك في الحديث أنه لا يقبل ذلك منك. ويقاطعك هو الآخر. ولا يكون مستعداً لسماعك. وتتبادلان المقاطعة أنت وهو بدون فائدة. وتختلط كلماتكما بطريقة مشوشة. وأسلوب مُعثر للآخرين. ويبدو للسامعين أنكما لستما في حوار أو نقاش. إنما في صراع أو عراك..!

***

"٧". من أدب الحديث أيضاً. أنه لا يعلو صوتك على صوت مُحدِّثك

سواء كان ذلك في حديث خاص. أو في حوار أو مناقشة.

وعموماً. الصوت الهادئ له وقاره واتزانه. أمّا الصوت العالي في المناقشات فهو أمر غير لائق.

إن الحوار الهادئ يأتي بنتيجة. أمّا الأصوات العالية فتحوّله إلى شبه شجار. لذلك ينبغي البُعد عن صخب الصوت في المناقشات. فليست الكرامة والانتصار في علو الصوت أو حدته.. بل إن قوة الكلام هى في منطقه وحجته وإقناعه.

ولا يتفق مُطلَقاً مع أدب الحديث. أن يعلو صوتك على مُحدِّثك. ويُغطي على كلامه. أو أن يكون في نبرة صوتك ما يُشعره بعدم احترامك له. إنك بهذا لا تكسب مُحدِّثك ولا سامعيك. مهما ظننت أنك تكسب الحوار.

***

"٨". إن كنت في حوار. وأخطأ من تحاوره. فلا تكشفه. ولا تحرجه. ولا تتهكم عليه.

ولا تتعرّض لأخطائه في قسوة. بل اظهر الرأي السليم في ايجابية ووقار. دون أن تُحطِّم غيرك. خذ الخير الذي في كلام مُحدِّثك. واترك الباقي.. امتدح النقاط البيضاء السليمة التي في حديث من أخطأ. قبل أن تتعرّض للرد على أخطائه. وليكن ردّك في جُملته بموضوعية. دون أن تمسّ شخص المحاور أو عقليته. ثم اذكر رأيك إلى جواره. وليس فوق حطامه.

***

"٩". إن كنت تعرف ما سيقوله مُحدِّثك. فلا تخجله وتسكته.

سواء كان ذلك في قصة. أو فكاهة. أو في اقتباس ما.. بل استمع إلى كلامه في هدوء. كما لو كنت تسمعه لأول مرة! واظهر إعجابك بما يستحق الإعجاب فيما تسمعه.. ولا تسبقه بالكلام. أو تكمل له ما يريد أن يقوله. فيضطر أن يقطع حديثه. ويصمت في خجل.

***

"١٠". وفي المناقشة: إن وجدت الحق في الجانب الآخر. فلا تماحك.

إنما اعترف بالحق. بغير مُلاجة. ولا تغالط. فإن المغالطة تفقدك احترام الناس. وتثيرهم ضدك. كما أنك لا تكون فيها شخصاً روحياً. امتدح مُحدِّثك على صواب رأيه. وقُلْ له: إنك على حق في هذه النقطة. بهذا تكسب تقديره لك.

أمّا إن كنت صاحب الرأي الصواب. وتنازل مُحدِّثك عن رأيه. فاتركه ينسحب دون إذلال. لا تحاول أن تريق ماء وجهه في انسحابه. أو أن تُشعره بالهزيمة. وتُشهِد الحاضرين على انتصارك. وتجعل ذلك مجالاً لافتخارك وانتفاخك. إنما كُن كريماً في حوارك..

وهناك أمور من الأفضل أن تناقش فيها غيرك على انفراد، فربما يعترف بخطئه أمامك على انفراد. ممّا لا يستطيعه أمام الناس.

***

"١١". لا يكن هدفك من النقاش. أن تغلب الناس وتهزمهم.

بل الأفيد أن تربحهم وأن تقنعهم. لا أن تخسرهم بكسب المناقشة.. إن القديس ديديموس الضرير استطاع أن يهدي إلى الإيمان كثيراً من الفلاسفة الوثنيين. في حواره معهم بأسلوبه المُهذّب..

إن بعض الناس يظنون أن الانتصار يكون في تحطيم مناقشيهم، أو في إضحاك الناس عليهم! ولكن الإنسان الناجح هو الذي يربح من يُناقشه. وبهذا يربح المناقشة. ولا يخجل إلاّ المكابرين المُتكبِّرين.

***

"١٢". في الحوار: لا تتكلّم في إعجاب بنفسك. ولا تمدح ذاتك أثناء حديثك.

لا يكن غرضك من حديثك هو مدح الناس لك. ولا تقله بطريقة تستوجب المديح. ولا تكن فيك روح التباهي والخيلاء. وفي حديثك عن أي عمل طيّب عملته. لا تنس المجهود الذي قام به الغير ممّن اشتركوا معك في انجاح العمل. ولا تنس نعمة اللّه التي أعانتك. ولا تركّز على ذاتك وحدك! والمستمعون أيضاً لا يستريحون لهذا الأسلوب.

***

"١٣". احذر من أن تدّعي المعرفة بكل شيء. مُتحدّثاً في كل موضوع مهما كان في غير تخصّصك.

هناك أمور من الخير لك أن تتركها للأخصائيين فيها ولأصحاب الخبرة. ولا يُقلّل من شأنك إطلاقاً أن تصمت أثناء الحديث عنها. ولا يضيرك إن سئلت. أن تقول: "لا أعرف" أو إنني في صراحة محتاج أن أدرس هذا الموضوع. فمعلوماتي عنه قليلة وغير مؤكّدة.

أو أن تحيل من يسألك إلى مرجع ينفعه ويمنحه المعرفة المطلوبة. مثل هذا الأسلوب يُشعِر سامعك بدقّتك وصدقك. ويجلب احترامه لك.

***

"١٤". في حديثك مع الناس. لا تضغط عليهم في معرفة أسرارهم أو أسرار غيرهم.. ولا تكن لحوحاً.

احترس من الأسئلة التي تمسّ حياة الناس الخاصة. ولا تحاول أن تعرف ما ليس من حقك أن تعرفه. ولا تضغط على إنسان في أن يقول لك ما يحرص على كتمانه. سواء كان ذلك من أسراره هو. أو من أسرار أقاربه أو أصدقائه أو معارفه.

ينبغي أن تحترم خصوصيات الناس. ولا تصرّ على كشف ما يريد غيرك أن يستره أو يغطيه. فليس هذا نافعاً لك. ولا له..

ولا تكن لحوحاً بطريقة تتعب مُحدِّثك.

إن وجدته غير مُستعدّ لِمَا تريده منه. فلا تصرّ على طلبك مُتجاهلاً أعصابه التي يتعبها الإلحاح ويرهقها. إن وجدته عازفاً عن الإجابة. فلا بد أن هناك سبباً يدعوه إلى ذلك. ولا تضغط عليه.

***

"١٥". كن دقيقاً في كلامك. وفي اختيار الألفاظ.

هناك كلمات كثيرة يمكنك أن تستبدلها بغيرها. فتكون أفضل وأصوب. وأكثر دقّة. وأخفّ وقعاً على آذان الناس وعلى قلوبهم. وتؤدّي نفس المعنى دون أن تخطيء. فكن حكيماً في اختيار الألفاظ. وقُلْ كل كلمة بميزان دقيق. ولا تدع أحداً يمسك عليك كلمة. وراجع الألفاظ التي تعوّدت أن تستخدمها في حديثك. مُستبدلاً بعضها بما يليق.

***

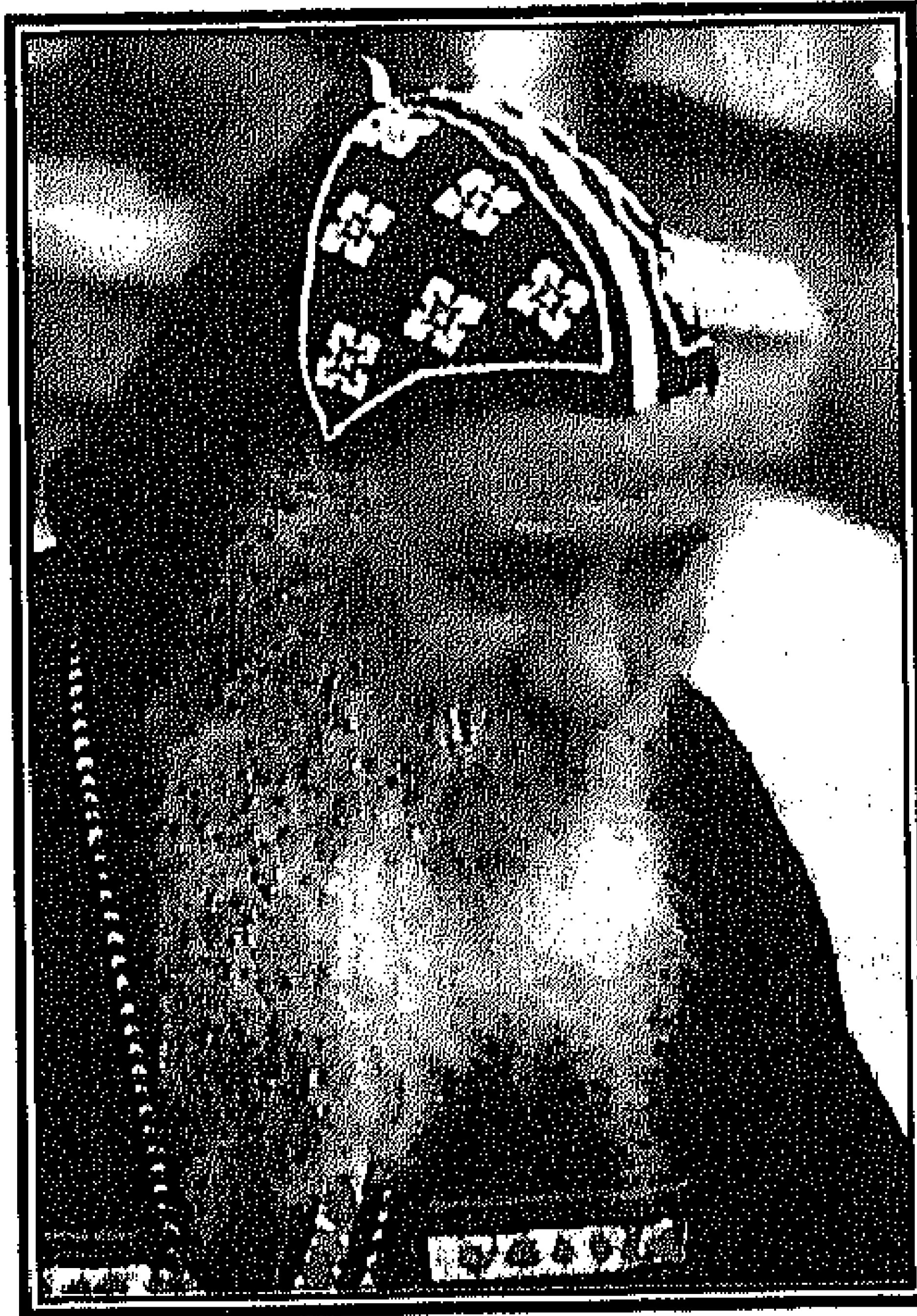
"١٦". ليكن كلامك بقدر. وحافظ على وقت مُحدِّثك.

لا يصح أن تطيل الكلام في موضوع لا يستحق الإطالة فيه. أو في موضوع لا يهم مُحدِّثك في قليل أو كثير. ولا تطل الحديث مع إنسان يكون مشغولاً. والوقت غير مناسب. وهو يريد أن يُنهي الحديث. سواء كان صريحاً في ذلك أو يمنعه خجله. بادر أنت بإنهاء الحديث في لباقة. ولا تنتظر أن يمل هو. أو يقلق بسبب مشغولياته الأخرى.

لا تكن كثير الشروحات طويل المُقدِّمات.

وبخاصة إن كنت تتحدَّث مع إنسان ذكي يَفهم بسرعة.

أو مع إنسان قد أدرك تماماً ما تريد أن تقوله. وليس في حاجة إلى توضيح أكثر. وتصبح شروحاتك ضغطاً على أعصابك.



٢٠٠٣/٧/٢٩

دوافع وأغـراض

وراء كل عمل يعمله الإنسان. يوجد دافع يدفعه إليه. وتختلف الدوافع من شخص لآخر. وبالتالي تختلف الأعمال.. وتوجد دوافع سامية. وأخرى رديئة أو منحرفة. وسنحاول في هذا المقال. أن نتعرّض لهذه ولتلك.

الدوافع السامية

*** قد يكون الدافع الذي يحرك حياة الإنسان كلّها هو تحرير الوطن**

تحريره من الاحتلال الخارجي أو التدخّل الأجنبي وبهذا الدافع عاش سعد زغلول. وقاد ثورة سنة ١٩١٩م ومن أجل هذا الدافع النبيل نُفيَ إلى جزيرة سيشيل، هو وأصحابه المجاهدون ثم عاد ليتابع جهاده. حتى وضع للشعب دستور سنة ١٩٢٣م، وظلّ هذا الدافع الوطني هو الذي يقود حياته وزيراً أو رئيساً لحزب.

*** أمّا قاسم أمين. فكان الدافع الذي يحرّكه هو تحرير المرأة**

مبدأ آمن به. وكرّس له حياته. وأيضاً فكره وقلمه ومقالاته. واشتركت معه في هذا الغرض هُدى شعراوي. واستطاعا أن يُغيّرا كثيراً من صورة المجتمع في أيامهما.

*** أيضاً المهاتما غاندي الزعيم الروحي للهند:**

كان هنالك دافع يقود تصرُّفاته. وهو العمل على استقلال الهند وتخليصها من الحكم الإنجليزي. وبهذا الدافع الوطني جاهد جهاداً صريحاً. واحتمل السجن. وسار على مبدأ المقاومة السلبية يُحرِّكه دافع آخر هو إيمانه بعدم العنف. وظلّ هكذا حتى نالت الهند استقلالها..

بعد ذلك دافع عن حقوق "المنبوذين" في الهند يُحرِّكه دافع آخر هو إيمانه بالمساواة بين الكل. وصام من أجل المنبوذين حتى قيل إن دمه بدأ يتحلّل.. وأخيراً نال لهم الحق في عضوية البرلمان..

***

*** في غير المجال السياسي. توجد دوافع أخرى تُمثِّل قِيَماً. مثل النجاح**

بهذا الدافع كان الطلبة يرهقون أنفسهم في استذكار دروسهم. يدفعهم إلى ذلك ليس مجرد الغرض في النجاح. إنما بالأكثر التفوّق.. وهكذا كان الأوائل في النتائج. وكان الاستمرار في طلب العلم. حتى رأينا فيما بعد أسماء لعلماء ومخترعين.

*** هناك دافع آخر هو العفّة. كانت تقود بعض الأبرار**

مثال ذلك يوسف الصديق الذي رفض الخطيئة حينما عُرِضت عليه من سيّدته. وفضّل السجن عن أن يفقد عفّته. تدفعه في كل ذلك مخافة اللّه. والتمسُّك بطُهر الجسد والروح.

*** هناك آخرون تدفعهم قِيَم أخرى مثل الأمانة وعفّة اليد**

مثال ذلك سائق سيارة. بعد أن ترك الراكب سيارته. رأى أن هذا الراكب قد نسيَ على المقعد حافظة نقوده. وفيها مبلغ كبير جداً من المال وأوراقه الخاصة التي عرف منها اسمه وعنوانه. فذهب بكل ذلك إلى مركز الشرطة. وسلّمه ليُعاد إلى صاحبه. ووراء ذلك دافع يدفعه إلى هذا التصرُّف هو الأمانة وحقوق الغير..

- وما أكثر الأمثال عن الدوافع الطيبة التي تقود التصرُّفات.

***

وواجبنا نحن أن نغرس هذه الدوافع الطيبة في نفوس الناس

الكبار منهم. وأيضاً النشء منذ بدء طفولته.

سواء كان ذلك في البيت. فيما يُعلّمه الآباء والأمهات للأبناء.. أو في المدارس فيما يُقدِّمه الأساتذة والمشرفون الاجتماعيون من تعليم ومن قدوة صالحة. كذلك ما تقدِّمه الحضانات ومراكز الشباب.. يمكن أيضاً أن يُساهم في هذا العمل النبيل رجال القلم والفكر بما ينشرونه من مقالات أو قصص في الجرائد والمجلات والكتب.. كذلك ما يُسهِم به رجال الفن من أفلام وروايات ومسرحيات. يكون هدفها جميعاً غرس الدوافع الطيبة في النفوس. وقيادتهم جميعاً إلى عمل الخير والبر.

***

الدوافع السيئة أو المُنحرفة

على أن هناك أشخاصاً ليسوا من أصحاب المبادئ أو القيّم الروحية. تقودهم في حياتهم دوافع أخرى تسيطر عليهم. ليست هي صالحة أو مثالية. ولكن لها تأثيرها الضاغط.. فما هي؟

١ـ دافع اللّذة

هذه اللّذة تقود كثيرين. أيّاً كانت مراحل سنّهم أو مراكزهم الاجتماعية. سواء كانت لذة للجسد. أو للنفس. أو للفكر. أو سائر الحواس.. وسنحاول أن نستعرض هذه الأنواع..

*** لذة الجسد**

*** ومنها لذة الأكل والشرب.**

وفيها يبحث البعض عن اللّذة في الطعام وليس في الفائدة.. فيكثِرون من الحلويات. من الدهنيات والسكريات والمقليات. ولا يهمهم ما يُصيب أجسادهم من زيادة السكر والكوليسترول.. وربما يكثِرون من الأكل عموماً. ويأكلون أيضاً ما بين الوجبات. مع الكثير من المياه الغازية ومن العصائر. ممّا يُعرّض أجسادهم للترهّل. ويصبح ذلك جهداً مُرهقاً على القلب. الذي من واجبه أن يضخّ دماً لحجم من الجسد فوق طاقته.. وكل ذلك من أجل الانهماك في لذة إطعام الجسد.

*** يُضاف إلى هذا اللّذة التي يجدها البعض في شُرب الخمر والمُسكِرات**

وفي كل ذلك لا يُبالون بما يُحدِثه الكحول من تأثير على الكبد. ولا ما تُحدِثه الخمر من أثر على المخ. وفقدان للتوازن أو الوعي. وأيضاً ما يُنفَق فيها من مال. ولكنها اللّذة الخاطئة.

*** نفس الكلام نقوله أيضاً عن التدخين**

لست أدري أية لذة يجدها المُدخِّن في الدخان الداخل إلى صدره. وسُحب الدخان الخارجة منه! وكميات الكربون المتراكمة داخله. مع اسوداد أسنانه. ورائحة فمه والنَفس الخارج منه!

إنه يعرف كل ذلك. ويلمسه في حياته. ويعرف أن التدخين يُفقِده صحته. وماله. ويُفقِده إرادته. ويضرّ الذين حوله.. ومع ذلك فلذة التدخين تدفعه إلى الاستمرار فيه. أو أن عبوديته لهذه العادة تعوقه عن تركها.

*** وفي مجال الجسد. ما أكثر ما يُقال عن الزنا**

من ضحايا الجنس "SEX" وممارسته. وأبشع مثل يشهده العالم حالياً هو مرض الإيدز، وفتكه بالملايين في أفريقيا السوداء ممّن تدفعهم إلى الهلاك هذه اللّذة الجسدية الخاطئة.. وبالإضافة إلى غير ذلك من الأمراض التناسلية. نذكر ما تُسبِّبه تلك اللذة الجسدية أو النزوة الجنسية من أحداث خطيرة: كأن تفقد امرأة عذريتها. أو تحمل سفاحاً. وتحاول أن تغطّي فضيحتها بالإجهاض. فتضيف إلى خطية الزنا خطية القتل أو ما تسبِّبه تلك اللّذة الخاطئة من الانحراف إلى الخيانة الزوجية أحياناً، ممّا يُسبِّب تفكُّك الأُسرة واللجوء إلى الطلاق.. وهذه الممارسة بالذات تعتبر لوناً من النجاسة. ومن سوء الخلق. ومن زوال العفّة. ولكن يلجأ إليها من يرون فيها لذة من ملاذ الجسد تدفعهم إليها بغير وعي.

***

*** ومن ملاذ الجسد ما يتعلّق أيضاً بالحواس: النظر والسمع واللمس**

فهناك من يجد لذة في النظر إلى صور مُعيّنة تغذي فيه إشباعاً لشهوات دنسة أو رغبات مُنحرفة. أو أنه يتلصّص النظر إلى الأجساد في غير حياء. أو يتابع بالنظر بعض أفلام بنفس الدافع المُنحرف. أو ما ينشر في بعض المجلات والصحف التي تتعمد نشر مثل هذه الصور رواجاً لها بين المنحرفين خلقياً.. وما يُقال عن لذّة النظر الخاطئ يُقال عن السمع. مثل الذي يدفعه انحرافه إلى سماع قصص أو فكاهات بذيئة. أو أنه يجد لذّة في سماع أسرار الناس أو أخبار فضائحهم.. إنها دوافع مُنحرفة. توصل إلى تصرُّفات أكثر انحرافاً.

***

*** ننتقل من ملاذ الجسد الخاطئة إلى ملاذ النفس الخاطئة**

من ذلك من يجدون لذّة في التشفّي والانتقام

فيفرح الواحد منهم بما يُصيب عدوّه أو منافسه من ضرر.. مُتشفّياً فيه أو شامتاً. يدفعه إلى ذلك حقد في قلبه أو كراهية. وهذا الحقد قد يدفعه أيضاً إلى الانتقام من هذا العدو أو التحدّث عنه بما يُسيء إلى سمعته.. واجداً في ذلك مُتعة.

ومن ملاذ النفس أيضاً شهوة الغِنى. ولذّة الجمع والتكويم. والفرح بازدياد الرصيد أيّا كان مصدر هذا الازدياد.. ومن لذّة النفس أيضاً الطموحات التي تدفع بدورها إلى لون من المنافسات. والرغبة في قهر المنافس والاستعلاء عليه.

ننتقل بعد هذا إلى ملاذ الفكر

ولا نقصد هنا فرح الفكر بالنمو في المعرفة النافعة. أو لذته بالتأمُّل النقي في الأمور الروحية والسماوية.. إنما نقصد هنا خطأ لذة الفكر في ما يضرّه. وذلك بالإشباع الفكري في الشهوات الخاطئة. تدفعه رغبات الجسد التي لم تتحقّق عملياً. فتسعى إلى إشباعها فكريّاً بلون من السرحان.

والفكر يُشبع ذاته بأحلام اليقظة وبالخيال. وبتأليف قصص عن نفسه ترضيه. يصوّر فيها ذاته حسبما يشاء ويهوى.

في هذا الخيال الخصب. يحلم بالنجاح والترقّي. والانتصار على الغير. وبالعظمة والمناصب والغِنى.. ثم يصحو من كل ذلك. فإذا هو لا شيء!! فيُعيد الكرّة بأحلام جديدة وقصص جديدة.

***

لأجل هذا كله. يجب أن نرتفع فوق مبدأ اللّذة

ونجعل الدافع لنا هو النفع الروحي والحق الخالص وأتذكّر أنني في شبابي المُبكِّر. وُضِعَ أمامي كتاب وضعه أحد المُتخصّصين في الفلسفة وعلم النفس. عنوانه [فوق مبدأ اللذة] ننتقل إلى نقطة أخرى من الدوافع والأغراض. وهي:

المنفعة

غالبية الناس يسيّرهم في حياتهم دافع أساسي هو المنفعة. حتى بعض الدول أيضاً تقوم سياستها على المنفعة.

ولكن المهم أن المنفعة الخاصة لا تطغي على منفعة الغير

ولا تطغي أيضاً على النفع العام. وإلا صارت لوناً من الأنانية. نقول هذا لأن كثيراً من التجار الجشعين يحتكرون السوق. ويفرضون أسعاراً مُرتفعة يكون من ضحاياها المشتري وباقي التجار الصغار. فعلى أولئك الجشعين ألاّ يركِّزوا على منفعتهم وحدهم. بل يراعوا غيرهم.

وكثيرون بدافع من المنفعة يلجأون إلى وسائل لا يرضاها الضمير. بذلك المبدأ الميكافيلّي "الغاية تبرِّر الوسيلة"!.. وأيضاً يخلطون المنفعة بالطمع. وأحياناً بالتزوير والرشوة. أو بالغشّ. كمَنْ يصعد على العلوّ على جماجم الغير.

الذات

الذات Ego هى من الدوافع الأساسية في حياة الغالبية.

وحسن أن يبني الإنسان ذاته بناء سليماً. ولكن الخطأ هو التركيز على الذات. أو أن الذات تدفع إلى حب العظمة والكرامة والخيلاء. وأن تجعل الإنسان يصل إلى الكبرياء. ويفضّل ذاته على الكل أو أن يفعل الخير. لا حُبّاً في الخير. وإنما لكي ترتفع ذاته في نظر الآخرين. أو أن الشخص المحب لذاته. والمعجب بذاته. قد يمدح ذاته. ويقع في حب الكرامة. ويكره من لا يمدحه أو في سبيل الذات يحاول أن يحطم كل مَنْ يراه منافساً له!

***

التيار العام

هناك من يدفعه في الطريق مُسايرة التيار العام. فليست له مبادئ ثابتة يسير عليها. إنما يتبع ما يراه في البيئة التي حوله.. مثال ذلك الفتاة التي تسير حسب "الموضة" أيّاً كان نوعها: قصيرة أم عارية. وتستخدم المساحيق التي تستخدمها الأخريات. وهكذا.. ومثالها أيضاً من يُردد شعارات سمعها من غيره أو قرأها في الصحف. دون أن يتشبع بمعناها. إنه شخصية مُنقادة.

العادة

وهناك من تقودهم العادة. ويخضعون لسيطرتها وهذا موضوع طويل. ليس الآن مجاله.

٢٠٠٣/٨/٥

أهميـة القلب

كما أن القلب مصدر هام لحياة الجسد. كذلك له أهميته في الحياة الروحية. وفي الحياة الاجتماعية في كل التعاملات مع الناس.

القلب هو مصدر لكل الفضائل. وأيضاً مصدر لكل الرذائل. فمنه يصدر كل شيء. وهو الذي يُعبِّر عن حقيقة الإنسان. وعن خفاياه ونواياه. هو مركز المشاعر. ومركز العواطف. ومركز الحُب..

والحياة الروحية. ليست مجرّد ممارسات في العبادة. أو فضائل ظاهرية. إنما هى حياة قلبية. حياة قلب يرتبط باللّه بعلاقة حُبّ. تنبع منها علاقة طاعة وخشوع. وكل ما يتّصف به الإنسان من فضيلة وعبادة. إنما هو نابع من قلبه. ومن حُبّ هذا القلب للخير.

فالحياة الروحية إذن. ليست هى ممارسات من الخارج. ولا هى وصايا تنفّذ لأجل الطاعة.. إنما هى قبل كل شيء. حياة القلب مع اللّه. وسنرى الآن علاقة القلب بالمشاعر. وباللسان. والفكر والإرادة. وعلاقته بالتوبة والعبادة وكل تفاصيل الحياة مع اللّه..

***

القلب مصدر المشاعر

فيه الحنوّ والطيبة. أو فيه القسوة والشدة.

فيه الإيمان والثقة. أو فيه الشكّ وفقدان السلام.

فيه التواضع والوداعة. وفيه الكبرياء والخيلاء. فالاتضاع ليس هو أن يقول إنسان بلسانه كلام اتضاع. كأن يقول: "أنا خاطئ وضعيف. أنا لا أستحق شيئاً!". فقد يقول هذا. بينما لا يحتمل مُطلَقاً أن يقول له أحد الناس: أنت خاطئ. أو أنت مُخطئ.

إنما التواضع الحقيقي هو تواضع القلب. والكبرياء هى ارتفاع القلب أو تشامخ القلب.. هى إذن خطية داخل القلب. قبل أن تتخذ أي مظهر خارجي..

القلب أيضاً فيه الخوف. أو فيه الاطمئنان.

أمر واحد يحدث لاثنين: أحدهما يخاف ويرتعش. ويتخيل له نتائج مرعبة. بينما الآخر يقابله بكل سلام وثقة في أنه سينتهي بخير. ويفكّر في هدوء كيف يتلافى نتائجه السيئة.. حسب قلب كل واحد من الاثنين. تكون مشاعره. إن القلب يشمل كل شيء فيك ومنك.

كل الخير الذي فيك مصدره القلب. وكذلك كل الخطأ.

كلمات لسانك نابعة من قلبك. لأنه من فيض القلب يتكلم اللسان. وكذلك أفكارك. إن كان في قلبك حُب. يظهر الحُبّ في معاملاتك. وإن كانت في قلبك عداوة أو كراهية. يظهر كل ذلك في تصرُّفاتك. بل يبدو ذلك في لهجة صوتك. وفي نظرات عينيك.

ومصدر كل ذلك هو القلب. إلاّ لو كان في القلب رياء أو نفاق. ويظهر الإنسان غير ما يبطن. وذلك أيضاً ينكشف..

***

القلب والفكر

القلب والفكر يعملان معاً. كل منهما سبب ونتيجة.

مشاعر القلب تسبِّب أفكاراً في العقل. والأفكار تسبِّب مشاعر في القلب. إذا اشتهى القلب خطية. فإن هذه الشهوة تجلب للعقل أفكاراً من نوعها. وإذا فكر العقل في خطية. تنقل إلى القلب مشاعرها وشهواتها.

إذن إن أردت صلاحاً لقلبك. ابعد عن مصادر الفكر الخاطئة.

ابعد عن الأفكار التي تأتيك من القراءات الخاطئة أو من الحواس. أو من المعاشرات الرديئة. أو من مصادر أخرى.. حينئذٍ لا تضغط الأفكار على قلبك. وحينئذٍ تصل إلى استقامة القلب وصلاحه.

إن الوجوديين الذين رفضوا اللّه بقلوبهم. دخلت أفكار الإلحاد إلى أذهانهم. الإلحاد إذن قد يكون من القلب والفكر معاً.

ربما تكون بينك وبين إنسان محبة.. ويأتي ثالث فيغيِّر فكرك من نحوه. تجد قلبك قد تغيّر أيضاً من نحوه. ومع تغيُّر قلبك. تتغيّر أيضاً ملامحك وكلماتك ومعاملاتك..!

وفي الناحية الدينية. تقول: أريد أن أُعطي قلبي للّه. أقول لك: أعطِه فكرك أيضاً. لأنه حسبما يكون قلبك. يكون فكرك.

وحسبما يكون فكرك. يكون قلبك أيضاً. ومكتوب في توراة موسى النبي: "تُحب الرب إلهك من كل قلبك. ومن كل فكرك".

إن تجديد الذهن يجلب تجديد القلب.

فإن دخلت إلى ذهنك أفكار جديدة. اقتنعت بها وآمنت بها. ستجد نفسك قد تغيّرت تبعاً لذلك. شكلاً وقلباً. وتجد ضميرك قد سلك في نوعية جديدة يقود بها قلبك.. وبتغيُّر الفكر والقلب. يتغيَّر أسلوب اللّسان أيضاً.

وكل هذا لا بد أن يؤثّر على الإرادة...

***

القلب والإرادة

إذا ملأت محبة اللّه قلب إنسان. فإنه لا يستطيع أن يُخطئ. لأن محبته للّه تسيطر على تصرُّفاته. فتتجه إرادته نحو اللّه بالكلية.

أمّا إذا كان القلب غير كامل في محبته للّه. فإن إرادته تكون مُتزعزعة. تتصرّف حسب التأثيرات الخارجية عليها. إن خيراً وإن شرّاً.

فإن كان كل القلب للّه. تكون كل الإرادة للّه.

أيضاً إن كان القلب يتميّز بالجدية والتدقيق. والالتزام بالقيَم والمبادئ. فإنه على حسب تمسكه بكل هذا. تكون إرادته قويّة. أمّا القلب المُتقلّب فتكون إرادته مُتقلّبة.

هناك ارتباط إذن بين القلب والفكر. وبين القلب والإرادة. وبين القلب والفضيلة. وهناك ارتباط بين القلب واللّسان.

***

القلب واللّسان

من فيض القلب يتكلّم اللسان. الإنسان الصالح. من كنز قلبه الصالح يتكلّم بالصالحات. والإنسان الشرير ممّا يكتنزه في قلبه الشرير يتكلّم بألفاظ شريرة. من ثمارهم تعرفونهم.

إلاّ لو كان الكلام رياءً. وليس من القلب. أي أن يتكلّم الإنسان بغير ما في قلبه. أو بعكس ما في قلبه. وفي هذه الحالة إن قال كلمة طيّبة بفمه. وقلبه عكس ذلك. يُحاسبه اللّه على ما في قلبه. ويُضاف إليه خطية الرياء أو النفاق..

اللّـه الـذي يُحاسـبك فـي اليـوم الأخيـر. هـو فـاحص القلـوب. وهـو العـارف بالمشـاعر والنيّـات. والكـلام اللـين وحـده لا يـأتي بنتيجـة. إن لـم يكـن صـادراً عـن مشـاعر حقيقيـة فـي القلب. وإلاّ فإنه ينطبق عليه قول المزمور: "كلماته ألين من الزيت. وهى سيوف مسلولة"!!

***

قد تعتذر لإنسان. فلا يقبل اعتذارك. لأنـه يحسّ تماماً أن كلماتك ليست صادرة من قلبك. وأنها مجرد كلام!!

تتأسف لـه بلسـانك. بينمـا نبـرات صـوتك ذاتهـا لا تعبـر عـن أسـف أو نـدم! لأنهـا غير مختلطة بمشاعر القلب. فتبدو رخيصة غير مقبولة!.

والإنسان الحساس اللماح. يستطيع أن يكتشف حقيقة الكلام. وهل هو صـادر من القلب أمْ لا..

سواء أكان كلام مديح. أو كلام اعتذار. أو كلام نصح... فإن نبرات الصوت تكشفه. وملامح الوجه تكشفه. وكذلك نظرات العينين.. وما هو داخل القلب. يمكن إدراكه ومعرفته. ولا يمكن للألفاظ أن تخفيه...

ما أعمق أهمية القلب في العلاقة مع اللّه ومع الناس.

***

الحياة مع اللّه

تبدأ حياتك مع اللّه من قلبك.

تبدأ بالإيمان. والإيمان من عمل القلب.

بالإيمان تثق بوجود اللّه بصفة عامة. وبوجوده في حياتك بصفة خاصة. وفي حياتك معه تتكل عليه. وفي اتكالك عليه. تسلِّمه حياتك. حيثما يسيِّرك تسير. وكيفما يصيِّرك تَصير. يتبعه قلبك في كل شيء...

تجعل وصاياه في قلبك. وحسب المحبة التي في قلبك نحو اللّه. لا تستطيع أن تخطئ. لأن الخطية هى انفصال عن اللّه. انفصال في المحبة. وانفصال في المشيئة. وانفصال في العمل.

وفي محبتك للّه تود أن تكون معه في كل وقت. وفي كل مكان. هنا على الأرض. وأيضاً معه في السماء بعد الموت.

وفي الصلاة تكون علاقة مع اللّه.

والصلاة ليست مجرد كلام مع اللّه. إنما هى مشاعر قلب نحو اللّه

لو كانت مجرد كلام. ما كان اللّه يقبلها. لأنه وبّخ اليهود قائلاً: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه. أمّا قلبه فمبتعد عنّي بعيداً"!!

الصلاة قبل كل شيء هى شعور بالوجود في الحضرة الإلهية.

وهذا الشعور يرتبط به الخشوع. وكلاهما من القلب. ويظهران في الركوع وفي السجود. وفي الابتهال إليه.

والصلاة هى اشتياق القلب إلى اللّه.

كما قال داود النبي في مزاميره: "يا اللّه أنت إلهي. إليك أُبكّر. عطشت نفسي إليك. تشتاق نفسي إليك، كما يشتاق الأيّل إلى جداول المياه. اشتاقت نفسي إليك يا اللّه، متى أقف وأتراءى أمام اللّه....".

والصلاة التي من القلب. فيها الحرارة. وفيها الحُبّ. وفيها الإيمان. وفيها مشاعر ترفع القلب إلى السماء...

***

ننتقل إلى نقطة أخرى وهى:

قلبك هو السبب

قد تقول "فلان قد ضيَّعني". فأقول لك: "لم يضيعك سوى قلبك"..

لو كان قلبك قويّاً. غير قابل للضياع. ما استطاع هو أن يُضيّعك! ثم إن هذا الشخص لا يمكنه أن يُحاربك إلاّ من الخارج. فإن كنت من الداخل سليماً. فلن يضرّك في شيء... انظر إلى الجنادل الستة التي تعترض النيل في منطقة النوبة. إن المياه تصدمها من آلاف السنين. ولا تستطيع أن تزحزحها من مكانها. أو تفتتها. لأنها صخور قويّة. هكذا أنت إن كنت قويّاً..

صدق ذلك الحكيم الذهبي نعم حينما قال:

لا يستطيع أحد أن يؤذي إنساناً. ما لم يؤذِ هذا الإنسان نفسه.

***

قد تقول: الكلام الذي سمعته. غيّر أفكاري وشككني!.

أقول لك: هو قلبك القابل للتشكُّك. فلو كنت ثابتاً في قلبك. قوياً في إيمانك وفكرك. ما كان الشك يدخل إليك مهما سمعت من كلام.

إن الضعيف الإيمان. هو الذي يشكّ.

أتقول: إن الضيقات قد زعزعتني؟!.

أقول لك: لو كان قلبك قوياً. ما كان يتزعزع.

كثيراً ما قلت: إن الضيقة سُمّيت ضيقة. لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. أمّا القلب الواسع فلا يَتضيّق بشيء..

القلب الواسع يتناول المشكلة بهدوء ويُحلّها. فإن استطاع أن يحلّها. انتهى الأمر. وإلاّ فإنه يُعطيها مدى زمنياً تنحل فيه. أو يتركها إلى اللّه فيحلّها له.

***

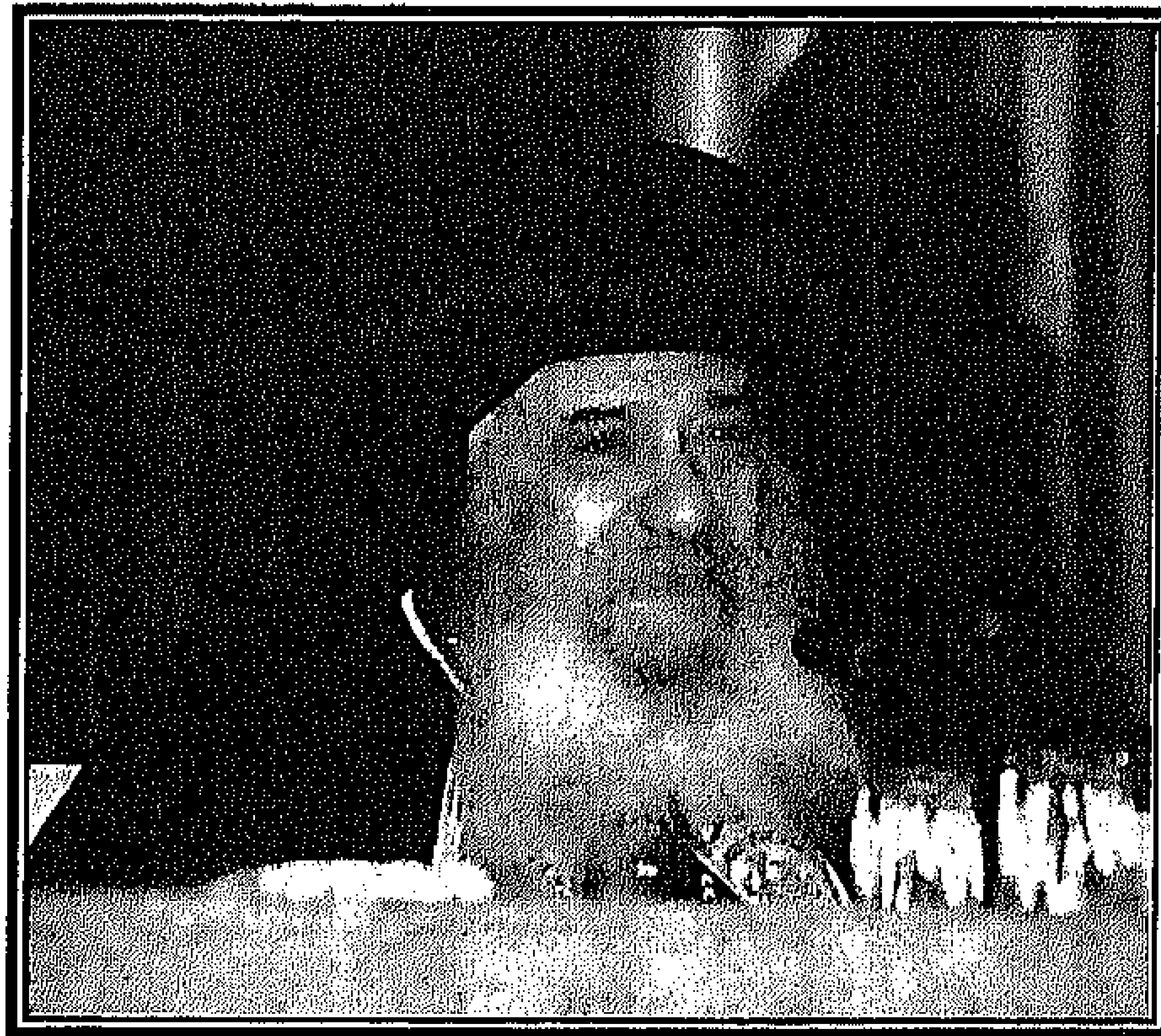
صفات القلب

يوجد قلب قوي. لا ينهار ولا يضعف مهما كانت التجارب. وقلب نقي طاهر. لا يسقط مهما كانت الإغراءات.

وقلب صامد. يظل ثابتاً مهما طال زمن المشكلة.

وقلب متواضع يحتفظ باتضاعه مهما نال من رفعة المناصب. ولا يتأثر إطلاقاً بكلام المديح أو الكرامة...

إذن الأهمية هي في نوعية القلب.



٢٠٠٣/٨/١٢

القلب وعمله الروحي

للقلب عمله الأساسي في الروحيات. ولعلّ في مقدمة ذلك: عمله في التوبة. وعمله أيضاً في الفضائل. وعمله في العبادة.

القلب والتوبة

التوبة الحقيقية هى التوبة الصادرة من أعماق القلب. وليست التوبة الصادرة عن مجرد الإرادة. لأن الارادة قد تقوى حيناً فترفض الخطيئة. ثم تضعف حيناً آخر فتحنّ إليها. قد تمتنع الإرادة عن فعل الخطية. ولكن - مع عدم ارتكابها - تبقى محبّتها في القلب. وبهذا لا تكون توبة حقيقية.

إن التوبة الكاملة هى كراهية الخطية. وهى من عمل القلب

لأنه إن كانت توجد في القلب خطية محبوبة - ولو أن الإرادة ترفضها - فلا تسمّى هذه توبة. إنما هذه محاولة للوصول إلى التوبة. أمّا التوبة فهى أن يرجع الإنسان إلى اللّه بكل قلبه. ولا يشتهي في داخله شيئاً ضد وصايا اللّه. وضد الحياة الطاهرة النقيّة.

وبالوصول إلى الناحية الإيجابية يعمل الشخص على أن يُحبّ اللّه من كل قلبه. ويقول كما في المزمور: "من كل قلبي طلبتك"..

***

التوبة ترتبط ارتباطا وثيقاً بنقاوة القلب

والتوبة التي من القلب هى التي تستمر..

التوبة ليست كلمات نقولها بألسنتنا. وليست وعوداً نعد بها اللّه في لحظة يقظة روحية. ثم نعود فننساها!! إنما التوبة الحقيقية هى تغيير حقيقي للقلب. وكأن الإنسان قد وهبه اللّه قلباً جديداً. وهى أيضاً تغيير أساسي في شهوات الإنسان الداخلية.. وكما قال أحد الآباء:

التوبة هى استبدال شهوة بشهوة:

فتحل شهوة الخير والفضيلة محل شهوة الشرّ والدنس.. وليست التوبة مجرد امتناع خارجي عن الخطيئة. بينما هى ترعى في القلب وتنجّسه! تبعد عنها الإرادة مُضطرة في

تغصُّب! بينما يشتهيها القلب في الداخل. وكما قال أحد مُعلِّمي الفضيلة: قد يوجد البعض لهم أجساد عفيفة. لكن قلوبهم دنسة!.

***

للوصول إلى التوبة. ينبغي أن ينتصر القلب في الداخل. ويكون نقيّاً زاهداً في الأمور الخاطئة. حينئذ ينتصر من الخارج..

أتقول: إنني للأسف الشديد. أعيش في بيئة فيها الكثير من المغريات والعثرات والحروب الروحية التي يسهل معها السقوط..

أقول لك: إن كان قلبك منتصراً من الداخل. فلا يمكن أن تؤثّر عليه كل هذه.. إن يوسف الصديق المُنتصر في داخله. لم تقوَ العثرات عليه. ولا المغريات. ولا الحروب الروحية في شدتها..

أتقول: فلان طبعه مُتعب. لقد نرفزني وأثارني وأفقدني هدوئي.. فأرد عليك: بل كان الأولى بك أن تقول: إن فلاناً كشف لي الخطأ الموجود في قلبي. لأنه لو كان قلبي قويّاً. ما كنت أقع في النرفزة! لقد أظهر لي بعض ضعفاتي. لكي أتوب عنها..

***

إن العثرات الخارجية تؤثّر وتعود إلى الخطية. إن كان القلب يستجيب لها..

أمّا إن كان القلب يرفضها. فهذه العثرات لا تعثره هو. بل قد تعثر غيره. إن وجدت في قلب هذا الغير قبولاً لها.

كذلك الكلام الروحي عن التوبة. قد لا يأتي بنتيجة. إن كان القلب لا يريده. أو بالأكثر يرفضه. بسبب محبة خاطئة يتعلّق بها القلب.

إذن الانتصار على الخطيئة. إنما يأتي من الداخل.

ومهما دقّق الوعّاظ على اجتناب المظاهر الخارجية الخاطئة. فلن يُجدي ذلك نفعاً. ما لم يأتِ الإصلاح من الداخل..

تقول لإحدى الفتيات مثلاً: ملابسك. شكلك. زينتك. مكياجك.. وتظل تؤنّب وتوبّخ.. ولكنها لن تغيّر شيئاً من كل هذا. ما لم يتغيّر القلب من الداخل. وتتغيّر المبادئ. ثم تتغيّر السلوكيات..

حقاً إن التغيير الخارجي. لا يأتي إلاّ بالتجديد الداخلي: بذهنٍ يُفكّر بطريقة جديدة روحانية. ينفعل بها القلب ومشاعره.. أولى بنا في الوعظ والإرشاد أن نتفاهم مع قلوب الناس وعقولهم. وليس مع آذانهم فقط. نقول لهم: "تغيّروا عن شكلكم. بتجديد أذهانكم".

***

إننا كثيراً ما نركّز على خطايا اللسان. وخطايا الحواس والعمل. دون أن نركّز على مصدرها الذي هو القلب!!

إنسان يحتد ويثور ويشتم ويتلفّظ بما لا يليق. فننصحه بأن يبعد عن خطايا اللّسان. دون أن ننصحه بأن يُغيّر ما في قلبه. لكي يكتسب فضائل الوداعة والهدوء والاحتمال ومحبة الآخرين. ذلك لأنه إن كانت هذه الفضائل في قلبه. فلن يُخطئ مُطلَقاً بلسانه. ولن يحتد أو يثور..

إنسان يثور على ملابس المرأة. ويقول إنها توقعني في الشهوة!

بينما الذي يوقعه في الشهوة هو قلبه. وأيضاً فكره من جهة المرأة والجسد. فلو كان قلبه نقيّاً من جهة المرأة. ما كانت شهوة من جهتها تتحرّك في قلبه!

فليت الوعاظ كما ينتقدون ملابس النساء. إنما يركّزون أيضاً على مشاعر الرجال وشهواتهم. وصدق الشاعر الذي قال لامرأة خاطئة:

وَدَعَوْك بائعة الأثيم من الهوى *** كذبوا فإن الذنب ذنبُ المشتري

إن خطيئة الزنا مصدرها هو القلب. قبل أن تصل إلى شهوة الحواس وشهوة الجسد. فخطيئة النظر هى أولا خطيئة قلب. ولو كان القلب نقيّاً ما كان ينظر نظرة شهوانية..

كذلك نظرة الحقد. تأتي من الحقد الذي في القلب.. ونظرة القسوة تأتي من قسوة القلب. وكذلك نظرة الكبرياء. وهكذا..

***

العمل الإيجابي للقلب

تكلّمنا عن الخطأ في مشاعر القلب. ويعوزنا أن نتكلّم عن عمله الإيجابي في الفضيلة. **فالقلب مصدر كل حماس للحق. وكل دعوة للخير. وكل غيرة مقدسة**

كل محبّة للناس وخدمتهم. وكل عمل لإنقاذهم من كل ورطة وقعوا فيها. كل هذه هل نضعها تحت عنوان الخدمة الاجتماعية؟ أمْ نقول إن القلب هو مصدرها والداعي إليها؟ ..

وإن لم تكن صادرة عن القلب. تتحوّل إلى روتين. ولا تُعدّ فضيلة. وهنا نميّز الفرق بين الخدمة المُلتهبة الصادرة عن القلب. وخدمة الموظف الرسمي في المجال الاجتماعي.

في هذا. نُميّز أيضاً بين الكاتب الذي يُدافع عن الحق باقتناع قلبي وإيمان بالخير. وبين كاتب آخر يكتب من ناحية نظرية..

***

ما أعظم الفرق أيضاً بين السلوك الفاضل النابع من حُبّ للفضيلة ومحبة للّه. وبين مَنْ يَسلك حسناً لمجرد طاعة القانون!

سواء كان يؤمن بهذا القانون أو لا يؤمن. ينبغي أن تكون محبة ومحبة الخير هى مصدر لكل عمل صالح، بهذا يكون الصلاح صادراً عن القلب. وليس عن إرادة تحت ضغط خارجي. يقودها إلى التنفيذ مُرغمةً.

إن الاستشهاد - وهو أرفع درجات البذل - كان صادراً عن إيمان مصدره القلب. ومحبة للّه نابعة من القلب.. قبل أن يكون تعذيباً للجسد أو قتله.. كذلك فإن الطاعة بكل أنواعها: إن كانت صادرة من القلب. يكون لها معنى أسمى بكثير من الطاعة الخارجية عن اضطرار..

***

القلب والعبادة

العبادة الحقيقية المقبولة من اللّه. هى التي مصدرها القلب وهى تتميّز عن العبادة الشكلية المظهرية.

تلك العبادة الزائفة التي يقول عنها المَثَل العامي: "يُصلِّي الفرض وينقب الأرض"! على أن العبادة الحقيقية للقلب ليست مجرّد فرض. إنما صلة حقيقية باللّه تبدأ من القلب. وتستمر في القلب. مصدرها محبّة القلب باللّه. وإيمانه به. وبالعمل على مرضاته. وشهوة الوجود معه.. فالصلاة مثلاً ليست مجرّد كلام تتلوه أمام اللّه. بل هى:

مشاعر قلب ينسكب أمام اللّه. حتى بدون كلام!

مجرد خشوعك أمام اللّه صلاة. كذلك مجرّد رغبتك في أن تكون في حضرة اللّه. ورفع يديك إلى السماء كقول المُرتِّل في صلاته للّه: "باسمك أرفع يدي. فتشبع نفسي كما من شحم ودسم".

ليس المهم في صلاتك كلماتها. وإنما مشاعرك وليس المهم في الصلاة طولها وإنما عمقها.

"الصلاة" النابعة من القلب هى جسر واصل من الأرض إلى السماء. بل الصلاة هى مفتاح السماء.

كلمة "الصلاة" في اللغة العربية هى أعمق من معناها في اللغات الغربية. لأن منها يُفهَم معنى "الصلة" بين الإنسان واللّه وإذا لم تكن هذه "الصلة" موجودة. لا تكون الصلاة صلاة.. والصلة هى صلة القلب بخالقه..

والصلاة ليست مُجرّد واجب روحي. وإنما حُبّ للّه. ومُتعة في الوجود معه.. والذي يملّ الصلاة. إنما يُقدِّم دليلاً عملياً على خلو قلبه من محبته للّه.

***

والصلاة هى رفع القلب إلى اللّه. وليس مجرد رفع اليدين أو رفع العينين إلى فوق

هى رفع القلب عن كل الماديات والأرضيات. لكي يتجه إلى اللّه بكل عواطفه. كمَنْ يقول للرب في صلاته: ليتني يارب أنسى الكل. لكي تبقى أنت وحدك في ذاكرتي.

في سماء أنت حقاً إنّما *** كل قلب عاش بالحب سماك

عرشك الأقدس قلب قد خلا *** من هوى الكل فلا يحوي سواك

هى ذي العين وقد أغمضتها *** عن رؤى الأشياء علّي أن أراك

وكذا الأذن لقد أخليتها *** من حديث الناس حتى أسمعك

***

ليست الصلاة فقط. إنما كل الممارسات الدينية. ينبغي قبل كل شيء أن تنبع من القلب..

الصدقة مثلاً - أو العطاء - هل أنت فيه تعطي من جيبك أمْ تعطي من قلبك؟ وهل تخلط عطاءك للمحتاج بحبك له؟ وهل تفرح عندما تعطي. لأنك أسعدت إنساناً؟ أمْ تُعطي عن تغصّب؟!

إن اللّه لا يكافئك على مقدار عطائك. إنّما على نوع مشاعرك فيه. فهل تُعطي كسخيّ يُعطي لفقير. إنما كإنسان يأخذ من اللّه ما يُعطيه لرعية اللّه. فما أنت إلاّ موصّل توصل عطايا اللّه للناس. اللّه هو المُعطي. وأنت عبد المُعطي..

كذلك في ذهابك إلى بيت اللَّه: هل تشعر بشرف الوجود فيه؟ وهل تشعر بالخشوع اللائق به؟ وهل في داخلك تشكر اللَّه الذي سمح لك أن تدخل إلى بيته. على الرغم من كسرك لوصاياه في كثير من المناسبات.

بهذه المقاييس كلّها. اسأل نفسك عن نوعية عبادتك كيف هي؟ وما علاقة القلب بها؟ وحاول أن كل علاقة لك باللَّه. إنما تصدر عن قلبك.



٢٠٠٣/٨/١٩

الفكـــر

الفكر هو عمل عقلي. يمكن أن يكون خيراً أو شرّاً. حسب نوعية تفكير الإنسان

فالتأمّل مثلاً قد يكون تفكيراً خيراً. إن كان تأمُّلاً في السماويات أو في أي أمر صالح. أمّا إن كان تأمّلاً في أمر ردئ. فحينئذ يكون شرّاً .. كذلك هناك أفكار صالحة. وأفكار أخرى شريرة.

الفكر والقلب

الفكر يتعلّق بالقلب. يأخذ منه ويُعطي

وخطية الفكر قد تكون في نفس الوقت خطية قلب. إن كانت نابعة منه. أو صادرة من مشاعره. كما أن القلب البار تصدر عنه أفكار صالحة مُقدَّسة. ولا يمكن منطقياً أن قلباً طاهراً تخرج منه في أي وقت أفكار شريرة. لأنه "من ثمارهم تعرفونهم" كل شجرة جيّدة تنتج ثمراً جيداً. وكل شجرة رديئة تطرح ثماراً ردية.

***

والمطلوب من كل إنسان أن يُحافظ على سلامة قلبه وسلامة فكره. وأن يحافظ أيضاً على الخط الواصل بين القلب والفكر.

فما هو هذا الخط الواصل ما بين القلب والفكر؟

قد تأتي الأفكار من القلب. ولكن من الجائز أن تأتي من الخارج. من مصادر أخرى كالحواس مثلاً. فإذا ما قَبِلَ الإنسان الفكر في أعماقه. حينئذ يصل إلى القلب ويؤثِّر عليه.

يتحوّل الفكر في القلب إلى مشاعر وإلى انفعالات

فكر الزنى يتحوّل إلى شهوة زنى. وفكر الغضب يتحوّل إلى انفعال غضب. وفكر الحقد يتحوّل إلى مشاعر حقد. الفكر الخاطئ إذن يوصل الخطأ إلى القلب.

كما أن مشاعر القلب تتحوّل بدورها إلى أفكار.. والاثنان يتبادلان المواقع. ويصير كل منهما سبباً أو نتيجة.

تخرج الأفكار الخاطئة من العقل إلى القلب. إذا ما تساهل الإنسان مع الفكر ولم يطرده. بل تجاوب معه وتخرج الأفكار الخاطئة من القلب إلى الفكر. إذا كان القلب غير نقي.

***

الفكر والحواس

الحواس هى أبواب للفكر. يدخل منها إلى العقل..

فما تراه بعينيك. تفكِّر فيه. وما تسمعه بأذنيك. تفكِّر فيه. وكذلك ما تلمسه وما تشمه. وربما ما تذوقه أيضاً. تفكِّر فيه.

فإن أردت أن تضبط أفكارك. اضبط حواسك أيضاً

لا تتركها سائبة. إنما احترس. لأنه كما يحدث تبادل المواقع بين القلب والفكر. كذلك يحدث ما بين الفكر والحواس.. ربما الفكر الخاطئ. يدعو إلى النظر والسمع واللّمس بطريقة خاطئة. وبنفس القياس الحواس الخاطئة تجلب أفكاراً من نوعها.. كذلك المناظر المُقدَّسة تجلب أفكاراً مُقدَّسة. والوجود في أماكن مُقدَّسة. يُعطي نفس الإحساس ونفس الفكر.

هناك مصدر آخر للفكر. هو البيئة والصداقة.

***

الفكر والبيئة

إن الذين تعاشرهم من الناس. يجلبون لك أفكاراً جيدة أو رديئة.

سواء كانوا أصدقاء أو معارف أو جيراناً. أو زملاء في العمل. أو أقرباءك في بيتك. وعلى رأي الأديب الذي قال:

قل لي مَنْ هم أصدقاؤك. أقل لك من أنت.

ما أكثر الأفكار التي تأتي من "الزنّ في الآذان".

كلمة تقال لك اليوم بمحاولة اقناعك. فلا تصدّقها. فإن سمعتها باكر بإقناع. قد تشك. وإن ضغطت عليك الاقناعات بعد باكر. قد تقبلها. وإن استمر الضغط. قد تؤمن بها وتنشرها. وتنفعل بها. وهذا جزء ممّا يسمّونه: "غسيل المخ".

***

وغسيل المخ يأتي من وضع العقل تحت تأثير فكري متتابع وضاغط. لمدة طويلة. مع إبعاده عن أي مجال فكري مضاد للرد أو للحوار.. إلى أن يتغيّر فكر الإنسان تماماً.

يأتي الفكر أيضاً من البيئة: من الرأي العام. والصحافة والإعلام.

ومن المطبوعات. ومن سائر المصادر الفكرية مقروءة أو مرئية.. بواسطة القراءات. صار البعض شيوعيين في أفكارهم. وقراءات أخرى تجلب أفكاراً شهوانية. وقراءات ثالثة تجلب أفكاراً فلسفية. وقراءات من نوع آخر تجلب أفكاراً روحانية أو نُسكية. أو تحمّسك لعقيدة ما. أو تشعل قلبك بخدمة المجتمع.. ومثل القراءات أيضاً: الراديو. والتليفزيون. والفيديو. والإنترنت. والكمبيوتر. والكاسيتات.. هذه كلها تأتي للعقل بأفكار من الخارج. وليس من القلب. أمّا دور القلب هنا فهو قبوله لاستخدام هذه الوسائط .. هل تظن أنك وحدك في هذا العالم؟! كلاّ. بلا شك. فكل ما هو حولك يؤثِّر عليك.

***

مصدر آخر للفكر هو توالد الأفكار..

توالد الأفكار

الفكر يلد فكراً. ويلد شكوكاً وظنوناً. ويلد أيضاً أحلاماً..

لا يوجد فكر عقيم. ولا فكر عاقر. وبخاصة مع العقل الخصيب.

قد يأتيك فكر من أي مصدر. فتأخذ مع الفكر وتعطي. فيلد لك أفكاراً أخرى كثيرة.. وقد يُلقي بعضهم بشائعة ما. ربما لا أساس لها من الصحة. ومع ذلك ما أكثر ما تلده من أفكار وشائعات..

والعجيب أن كل ما يلده الفكر. قد يرسخ في العقل الباطن.. والعقل الباطن هو مصدر آخر للأفكار.

***

العقل الباطن

العقل الباطن تُخزن فيه الأفكار. والصور والأحداث. والرغبات. والمشاعر. والقصص. ويصبح مصدراً لأفكار وأحلام وظنون..

أضرب لك مثلاً بالريكوردر أو الكمبيوتر. حيث تخزّن فيه معلومات تسترجعها متى تشاء.. عقلك أصعب من هذا الكمبيوتر. لأن ما فيه من معلومات قد تخرج منه دون أن تشاء.. كأفكار أو أحلام.

وهنا أتذكّر سؤالاً وجّهه البعض إليّ، وهو:

هل الأحلام الخاطئة تعتبر خطية. بينما هى بغير إرادتي؟!

وكانت الإجابة هى: قد تكون الأحلام بغير إرادتك. وقت خروجها من العقل الباطن. ولكنها لم تكن بغير إرادتك يوم تخزينها فيه.. إذ قد تكون ثمرة قراءات قرأتها من قبل بإرادتك. أو ثمرة سَمَاعات قد سمعتها. وصور قد رأيتها. وكان كل ذلك بإرادتك وتخزّن في عقلك الباطن. أو قد تكون تلك الأحلام نتيجة لشهوات كامنة فيك.

***

إذن الأحلام ليست كلّها غير إرادية. بطريقة مُطلَقة.. والبعض يُسمِّيها أحياناً "شبه إرادية"..

فإن كانت الأحلام ليست نتيجة إرادة حاضرة. بل هى نتيجة إرادة سابقة. إذن اسأل نفسك في صراحة: هل توجد رواسب قديمة في نفسك من جهتك أو من جهة غيرك قد سبّبت تلك الأحلام؟ وحاول أن تُعالِج ما يمكنك معالجته.. وقد يكون الحلم الخاطئ مُحاربة لك من الشيطان.

وعموماً: إذا كان الحلم ضد إرادتك تماماً. وليست له مُسبّبات سابقة. وعقلك يرفضه كل الرفض. حينئذ ستستيقظ دون أن يكمل الحلم.. مثال ذلك: إذا كان شخص نتيجة الخوف أو الرُعب. قد حلم أن عدوّاً أمسك سكيناً ليقتله. فإن السكين إذا اقتربت من عُنقه في الحلم. لا بد أن يفتح عينيه ويستيقظ. لأن عملية ذبحه مرفوضة كل الرفض من عقله. وليست لها صورة مسجّلة في عقله الباطن.

***

هناك مصدر آخر للفكر وهو الأسباب النفسية:

أسباب نفسية

إنسان مثلاً في طبعه القلق أو الاضطراب. تجده بدون أي سبب خارجي خاضعاً لأفكار القلق والاضطراب النابعة من نوعية نفسيته.. كذلك إن كان إنسان في نفسيته طبع الخوف. تجد أن أفكار الخوف تطارده.. وبالمثل إذا كان شخص شكاكاً بطبيعته. تجد أفكار الشك تراوده وتتعبه. بدون أي سبب واقعي.

ولمعالجة كل هذه الأفكار. لا بد من معالجة النفسية..

فإذا صلحت النفس وصارت سوية. صلحت الأفكار تبعاً لذلك.

لذلك تجد أن الشخص البسيط لا يراوده الشك. والإنسان الوديع الهادئ لا تحاربه أفكار القلق ولا الخوف ولا الغضب.

***

إنسان يسمع خبراً. فيقول لك: هذا الخبر خطير.. وقد لا يكون خطيراً على الإطلاق. ولكن نفسيته صوّرته له هكذا.. بينما شخص آخر يتلقى نفس الخبر بكل هدوء. ولا تتزعج أفكاره بسببه.

إذن حسب نوعية النفسية. تكون أيضاً أفكارها

إنسان حسب نوعية نفسيته. تأتيه أفكار يأس فينسحب من مشروع مُعين. بينما زميل له في نفس المشروع. لا ييأس ولا ينسحب. بل يستمرّ وفي قلبه رجاء وتصميم. وينجح.

ثلاثة يرون شخصاً واقفاً في الظلام: فيقول أحدهم إنه لصّ أو قاتل. ويقول الثاني لعلّه في موعد سرّي مع امرأة. بينما يُفكِّر الثالث في أن ذلك الشخص هارب من عدو ومختبئ خوفاً. وهكذا حسب نوعية نفسية كلٍّ من الثلاثة. تكون ظنونه وأحكامه.

***

مصدر آخر للأفكار هو حروب الشياطين

حروب الشياطين

ربما لا تكون الأفكار المحاربة نابعة من قلب الإنسان أو نوع نفسيته. ولا هى بسبب البيئة والتأثيرات الخارجية. إنما قد تكون أفكاراً من الشيطان يلقيها في العقل.. وأفكار

الشيطان خاطئة. ولكن مسؤوليتك عنها. تكون بقدر استسلامك لها وتجاوبك معها.. مثل تلك الأفكار عليك أن تطردها من عقلك ولا تقبلها. مهما ألحّت عليك.

إنها أفكار تطرق بابك. ولكن المهم هو أنك لا تفتح لها. أي لا تأخذ معها وتعطي. لأنه هنا تكون إرادتك قد بدأت أن تتفاعل مع الفكر. وحينئذ تكون قد أخطأت بالفكر.

***

واعلم أن هذا الفكر الخاطئ المُحارب لك: حينما يأتيك يكون في أوّله ضعيفاً. وفي الطبقة السطحية من عقلك.

ذلك لأنه فكر من خارجك. ومن السهل عليك أن تطرده فإن قبلته. وتعاملت معه. يدخل إلى العمق شيئاً فشيئاً.. فإن انفعلت به. يزداد تعمُّقه ويرتبط بإرادتك. فإن وصل إلى القلب. يختلط بمشاعرك. وحينئذ تصبح المحاربة من الداخل وليس من الخارج. ومن هنا تبدأ سطوة الفكر وصعوبة طرده.

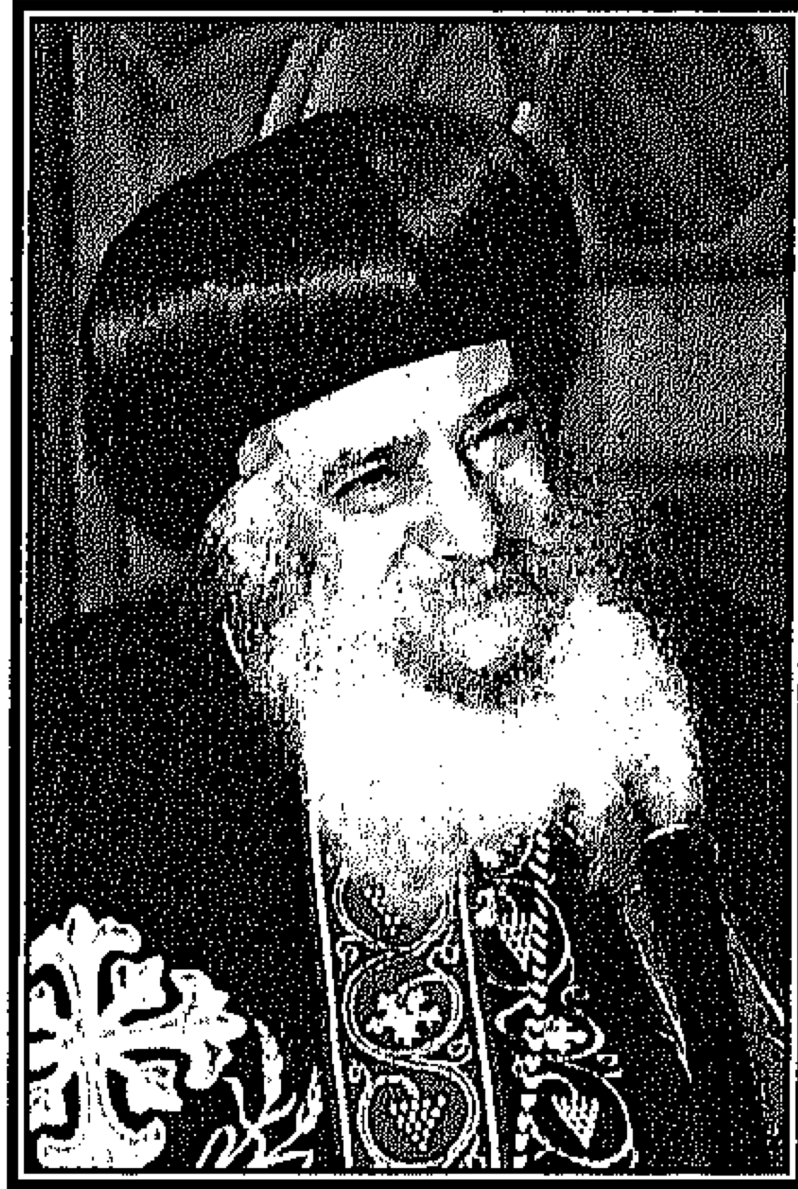
حقاً. ما أسهل دخول الأفكار إلى العقل. وما أصعب خروجها!

ما أسهل أن تقبل فكر الخطية. وما أصعب أن تطرده!

فكر الشك مثلاً: من الجائز أن يدخل إلى العقل بسهولة. ومن الصعب أن يخرج.. وهكذا فكر الشهوة. وفكر الانتقام. وفكر العظمة والمجد الباطل. إذن احذر دخول الأفكار إليك.

ليس كل فكر يقرع باب عقلك. تفتح له وتقول: مرحباً بك!

وموعدنا في العدد المقبل أن نتحدّث عن محاربات الفكر.



٢٠٠٣/٨/٢٦

مُحاربات الأفكار

حروب الفكر إمّا أن تأتي من الداخل. أو من الخارج.

من الداخل، أي من القلب. من الشهوات. من الرغبات. إذ تكون الرغبة أو الشهوة مصدراً لفكر. وعلاج هذا الأمر يحتاج إلى تنقية القلب. أو امتلاء القلب بمشاعر مقدسة. فلا يصدر عنها إلاّ كل فكر صالح نافع.

أمّا إن كانت المحاربات من الخارج: من الشيطان أو من البيئة المحيطة. حينئذ تكون النصيحة هى عدم قَبُول الفكر الخاطئ. بل طرده والتخلُّص منه. مُتذكِّرين ذلك المثل الصيني الرائع:

قد لا تستطيع أن تمنع الطير من أن يحوّم حول رأسك.

ولكنك تستطيع أن تمنعه من أن يُعشش في شعرك ...

من هنا نفهم وجوب التخلُّص من الأفكار الخاطئة وطردها ومقاومتها...

***

مقاومة الفكر

كل فكر خاطئ. يوجد أسلوب تقاومه به. فهناك فكر ترد عليه بآية أو بضع آيات من الكتاب. فيهرب منك. وفكر آخر ترد عليه بمعرفة ضرره. فتخشاه ولا تتجاوب معه. وفكر واضح الخطأ. تغلق أبواب عقلك أمامه فيمضي. وعلى أية الحالات لا تسمح لنفسك أن تتجاوب مع الفكر. بل اطرده..

كُن حازماً في طرد الفكر الخاطئ. لأن التباطؤ يجعله يقوى عليك

أن تساهلت مع الفكر - ولو إلى حين - يزحف إلى داخلك. فتضعف إرادتك أمامه. ويدرك الشيطان أنه مُستعد للتفاوض معه. وأنك لست حريصاً على نقاوتك.. يكون كمَنْ يعرض رشوة على شخص ما. أو يلمّح بذلك. فإن وجده ليناً معه. يأخذ في التفاوض وتتم العملية. أمّا إن كان حازماً. ويصدّه من البدء. فلا يجرؤ.. هكذا ما الفكر الخاطئ. اطرد الفكر وهو في مرحلة طفولته. قبل أن يكبر ويقوى.. وعلى رأي المثل: ادّبوا الأحداث قبل أن يؤدّبوكم.

وهناك وسيلة للوقاية من الفكر قبل أن يجيء وهي انشغال الفكر.

انشغال الفكر

لذلك: اشغل عقلك. قبل أن يأتي الشيطان ويشغله

إن كنت مُنشغل الفكر. يعرف الشيطان أنك لست مُتفرّغاً له. فيبعد عنك. ولو إلى حين.. وما دمت مُنشغلاً. يحتار كيف يدخل إليك.. سواء كنت مُنشغلاً بفكر صالح. بشيء من التأمُّلات أو القراءات الروحية. أو حتى إن كان عقلك مُنشغلاً بموضوعات علمية. أو مسائل خاصة بعملك. أو بأية أنشطة اجتماعية أو رياضية. أو بعمل يدوي.

لذلك فإن الطلبة المجتهدين. الذين يشغلون عقولهم دائماً بدراستهم. يكونون غير مُتفرّغين لأفكار الخطيئة. وهكذا يقول المثل:

عقل الكسلان معمل للشيطان

إذن اشغل عقلك دائماً بشيء مُفيد. فتصبح في وضع وقائي من جهة محاربات أفكار الخطيئة.

***

أمّا إن كنت في فراغ. وعقلك في فراغ. ما أسهل أن يقول لك الشيطان: اسمح لي أن أجلس معك وأسلّيك..!

اسمح لي أن أحكي لك حكاية. أقص عليك مُغامرة. أقدّم لك فكرة من عندي. ما دمت لا تجد شيئاً تفكر فيه..! وهكذا يسرح بك من موضوع إلى موضوع. حتى يدخلك بالتمام إلى مجاله. ويسيطر على تفكيرك. أو على الأقل يضيع وقتك في ما لا يفيد. إن العقل لا يقف جامداً: فإمّا أن ينشغل بشيء صالح. أو بفكر ضار. أو أن ينشغل بأمور تافهة تضيع الوقت عبثاً.

وعليك أن تقدم لك المادة التي ينشغل بها..

***

إن انشغل عقلنا باللّه. فذلك يولد فينا محبة اللّه

وإن تعمّقت محبة اللّه في قلوبنا. تصير طبيعتنا غير قابلة لأفكار العدو. مثل إنسان قوي في صحته: إذا حاربه ميكروب لا يقوى عليه. بسبب قوة جهاز المناعة عنده.. أو شخص

مُحصّن ضد مرض مُعيّن. فذلك المرض لا يجد له مجالاً في جسده.. لأنه لم يترك نفسه مُعرّضاً للإصابة بالمرض.

هكذا فإن الإنسان الروحي يُحصّن نفسه ضد الأفكار الشريرة. بأن يملأ قلبه وعقله بمحبة اللّه ومحبّة الخير. فلا تجد أفكار الشرّ مجالاً لها فيه..

إن عقله مشغول بالخير. لا تستطيع أفكار الخطيئة أن تقترب إليه..

مثال ذلك: إن كان لإنسان مسكن. وترَكَه فارغاً. قد يأتي أُناس أشرار ويحتلونه ويسكنونه. وإخراجهم منه ربما يحتاج إلى تعب وجهد. أمّا إن جعل في هذا المسكن نوراً وأثاثاً. وكراسي مثلاً في شُرفاته.. فإنه لا يجرؤ أحد أن يدخله عنوة. إذ يخاف من ساكنيه. ويرى أنه إن أقدم على ذلك سيتعرّض للمخاطرة.

***

سيطرة الفكر

يتعب الإنسان إذا أخذ كل الأمور بحساسية زائدة

أي أنه يتأثر بكل شيء. وفي عُمق هذه الحساسية تجعل كل ما يتأثّر به. يترسّب في داخله. ويجلب له أفكاراً تضغط عليه وتتعبه.

وهنا يختلف طبع كل شخص عن الآخر. ويختلف فكره.

فإن صادفتك مشكلة. حاول أن تحلّها وتنتهي منها. وان وجدت صعوبة في ذلك. اتركها إلى حين ولا تنشغل بها. اعطِها مدى زمنياً تُحلّ فيه. تاركاً الأمر إلى اللّه حلاّل المشاكل.

ولكن سيطرة الأفكار تضغط على إنسان يُفكّر بعمق. وبغير حلّ. أو أنه يُفكّر في متاعب المشكلة. دون أن يُفكّر في حلّها...

وهذا هو السبب الذي يجعل البعض - إن صادفته مشكلة - تسيطر على عقله ومشاعره وأحاسيسه وانفعالاته. فلا يُفكّر إلاّ فيها. ولا يتكلّم إلاّ عنها. هي معه في صحوه وفي نومه. في تفكيره وفي أحاديثه. لقد أدخلها إلى أعماقه. ولم يعد قادراً على الخروج من مجالها.

***

من سيطرة المشكلة على عقله. صار عقله يُسلمها إلى قلبه. وقلبه يُسلّمها إلى فكره. وفكره وقلبه يُسلّمانه إلى أعصابه..

وأعصابه تسلّمها إلى انفعالاته وإلى لسانه أيضاً. فيظل يتحدّث عنها مع كل شخص يُقابله ويتحدّث معه. وقد يستمر معه التفكير في هذه المشكلة أياماً أو أسابيع. ينشغل بها نهاراً. وقد يحلم بها ليلاً..!

وربما يجلب له هذا التفكير بعض الأمراض الجسدية: من ضغط دم. وسكر. وقرحة في المعدة. وتعب في الأعصاب. بالإضافة إلى التعب النفسي.. كل ذلك لأنه تعامل مع الفكر بحساسية. فسيطر عليه الفكر.

أمّا الإنسان الروحي السويّ. فإنه يُسيطر على الفكر. ولا يجعل الفكر يسيطر عليه...

***

صرف الفكر

على أن هناك نوعاً من الناس. لا يُحب أن تسيطر عليه الأفكار. فيقول: الأفضل أن أصرف الفكر.

ولكنه للأسف يصرف الفكر بطريقة خاطئة! وكيف ذلك؟

فإن أساء إليه إنسان وغضب. وأتعبته الأفكار من جهة هذه الإساءة. يقول: لا أكبت أفكار الغضب في قلبي. وإنما لا بد من صرفها. وذلك بأن أرد على هذا المُسيء الكلمة بكلمتين. وأصفّي حسابي معه. لا بد أن أقول له "كذا".. وإن قال.. أقول.. وهكذا يظل الفكر منشغلاً.. ولا يكون قد تخلّص من الفكر وصرفه. بل إن سيطرة الفكر قد زادت عليه.

حسن أن تصرف الفكر. ولكن بطريقة روحية وعملية. وبلا كبت.

وإن اشتعل الفكر داخلك. لا تلقِ عليه كل حين وقوداً

والطريقة المُثلى لصرف الأفكار تأتي من الداخل. بأسلوب تعامل القلب معها. بالإضافة إلى التخلُّص من الأسباب التي تجلبها من الخارج. كما ينبغي عدم التساهل مع الفكر. وعدم إعطائه فرصة يأخذ فيها سُلطاناً على العقل.

***

سرحان الفكر

في العقل طبقتان: طبقة سطحية. وطبقة عميقة:

الأمور التي تأخذها بطريقة سطحية. أي لا تهتم بها اهتماماً كبيراً. هذه لا تتعمّق في ذهنك. وسرعان ما تنساها. مثلها مثل كثير من الأخبار والأحاديث التافهة والعارضة في

حياة الإنسان اليومية. إنها لا تثبت في الذاكرة ولا في القلب والمشاعر. بل كبخار تظهر قليلاً ثم تضمحل..

أمّا الأمور التي تأخذها بعُمق. سواء من الناحية الفكرية أو النفسية. وتظل تأخذ معها وتعطي في فكرك. ويستمر عقلك يُفكّر فيها فترة طويلة.. فهذه تدخل إلى أعماقك. وتترسّب في عقلك الباطن. وتلد لك أفكاراً أخرى. أو تظهر ثمارها في أحلام وظنون ومشاعر..

الأمر إذن يتوقف على طريقتك في التفكير. ليس فيما يحدث لك أو معك. إنما في تجاوبك مع الفكر. أي في الـ Response.

فإذا كنت تفكّر - ولكن ليس بعمق - يمكن أن تسرح. ويكون هناك فكران في عقلك: أحدهما في المنطقة العميقة. وآخر في المنطقة السطحية..

يحدث هذا أحياناً مع تلميذ يُذاكر. أو شخص يُصلّي. أو في العمل..

***

قد ينشغل العقل ببعض أمور تهمه. أو ببعض مشاكل يريد لها حلاً. أو بعلاقات مع آخرين. ثم يحمل كل هذه معه ويتقدّم للصلاة. فيسرح عقله في بعض هذه الأمور.. وتصاحبه في صلاته.. وحينئذ يكون في عقله فكران يتمشّيان معاً: فكر الصلاة. وفكر السرحان.. وقد يتبادلان الموضع. فيكون أحدهما في المنطقة السطحية. والآخر في المنطقة العميقة. حسب درجة محاولته للتركيز في ألفاظ الصلاة ومعانيها. أو استسلامه لفكر السرحان.

ونحن ننصح كل إنسان يريد أن يُصلّي أن يحاول تفريغ ذهنه من كافة الاهتمامات الأخرى. لكي يتحدث مع الله بذهن مجتمع إلى ذاته. وبقلب متركّز في الوجود مع الله. وما يلزم ذلك من مشاعر الخشوع التي تليق بالصلاة. وحبذا لو يسبق صلاته تمهيد روحي.

***

وقد يحدث السرحان بالنسبة إلى تلميذ يجلس لاستذكار دروسه.

ولكن ليس في عُمق. أو أنه يقرأ المعلومات بغير فَهْم..

مثل هذا التلميذ يمكن أن يسرح. وأمامه كتبه. ولكنه لا يركّز فيها تفكيره. وبعض رجال التربية قالوا: إنه ممّا يساعد على التركيز أن تشترك أكثر من حاسّة لغرس المعلومات في الفكر.. كمَنْ يقرأ. وأمامه خريطة مثلاً. أو هو يرسم ما يساعده على الفَهْم. أو كمَنْ يدرس

في معمل.. أو طالب طب يدرس وأمامه أعضاء بشرية توضح له ما يدرسه. أو حتى نماذج مُعيّنة.

إن القراءة البعيدة عن السرحان. تكون أكثر عُمقاً. وأكثر ثباتاً في الذاكرة. ونفس الوضع نقوله عن الموظف في مكتبه. الذي يقرأ الورق المعروض عليه. بتركيز واهتمام وبفكر لا يسرح في موضوع آخر.

***

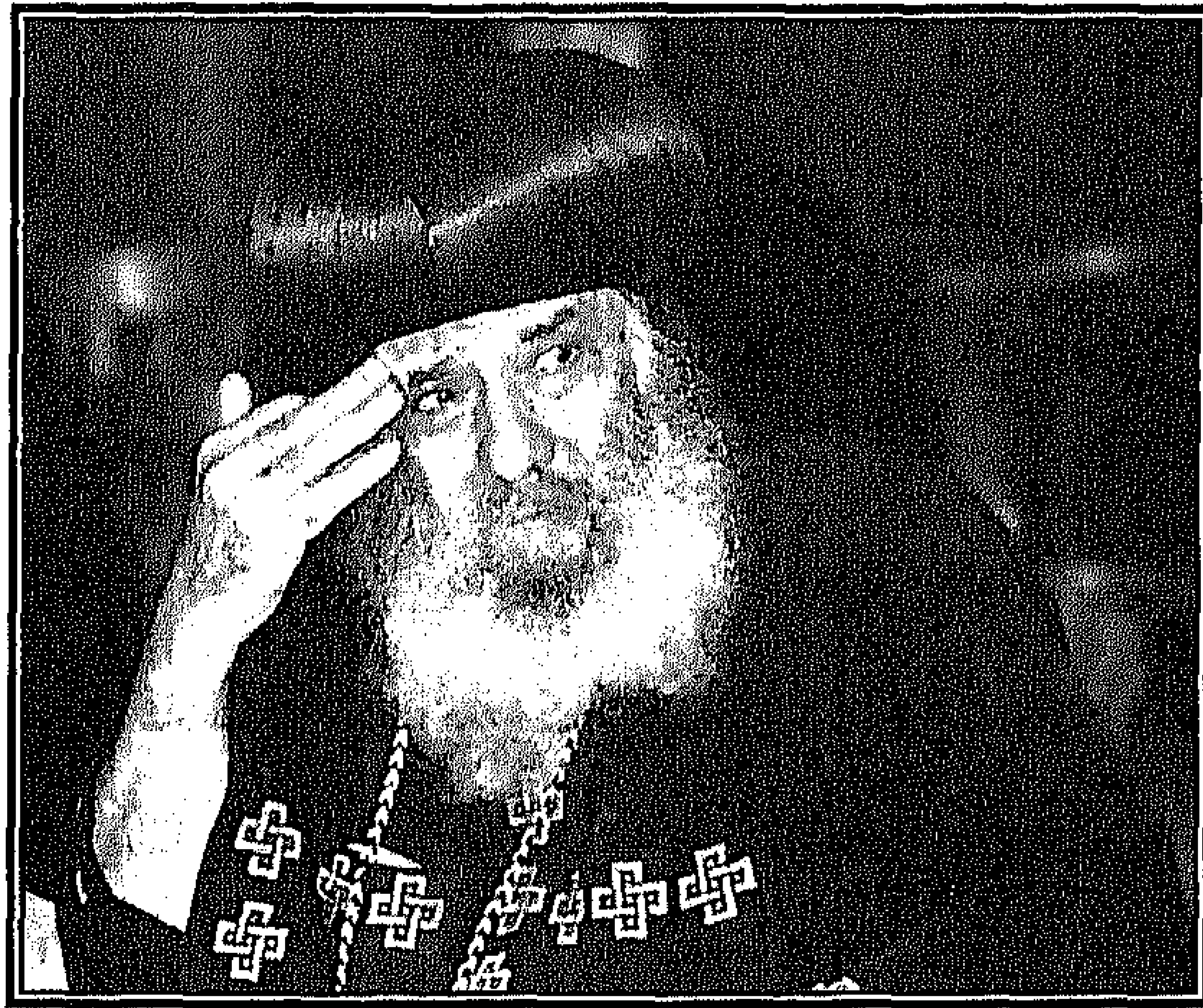
إن العقل لا يستطيع أن يفكر في موضوعين في وقت واحد. بنفس العمق..

فإن أعطيت عُمق فكرك لشيء مُفيد. سيطفو أي فكر آخر على سطح عقلك. وينقشع بسرعة. لأنك غير مهتم به. وغير مُتفرّغ له.. لذلك إن أردت أن تقي نفسك من حروب الأفكار الخاطئة عليك بالآتي.

قدّم لعقلك طعاماً نافعاً. قبل أن يُقدّم له الشيطان طعاماً رديّاً.

فكّر باستمرار في موضوع روحي أو ثقافي أو اجتماعي يشغل ذهنك.. أمّا إن كانت في عقلك أفكار خاطئة مُترسّبة من زمن قديم. فحاول أن تطهّر عقلك منها بعدم استعمالها. وبإحلال غيرها مكانها.. كذلك لا تشغل ذهنك بأفكار تافهة. لا هى خير ولا شرّ. ولكنها قد تتطور إلى أفكار غير لائقة. ولا تستطيع ضبطها..!

وحاول أن تنقّي قلبك من الداخل. لأن القلب النقي لا تخرج منه أفكار خاطئة... وليكن الرب معك.



٢٠٠٣/٩/٢

قصص لها عُمقها

توجد أنواع من القصص: بعضها للتسلية. والبعض للفكاهة. والبعض للتعرف على أحداث من التاريخ. ونوع آخر للمعرفة والتعليم.. وما أُقدّمه لك اليوم. هو قصص لها عُمق. وفي نفس الوقت. فيها تعليم. ولها مغزى. وبعض منها خرافي. ولكنه مُفيد ومؤثِّر في مغزاه. وقد تأثرت بالكثير منها. فأردت أن يشترك معي القارئ في تذوّق معناها.

***

قصص عن بعض الفلاسفة المُلحدين

في إحدى المرات تقابل فيلسوف مُلحِد مع فيلسوف مُؤمن فقال المُلحِد للمؤمن: ها أنت تُرهق نفسك في ألوان مُتعدِّدة من العبادة. فإن أدركك الموت. وإذا لا حياة أخرى. ولا سماء ولا جهنم. ولا ثواب ولا عقاب.. فكم يكون الأسف على كل تعبك هذا في الصوم والصلاة وفي جهادك لضبط النفس..؟!

فأجاب المؤمن: أنا لا أخسر شيئاً من جهة عبادتي. لأنني أجد مُتعة في الصلاة والصوم وضبط النفس. ولكن ما مصيرك أنت بعد الموت. إن اكتشفت أنه توجد حياة أخرى. وسماء وجهنم. وثواب وعقاب..؟!

***

مرّ فيلسوف مُلحِد على أحد الحقول. فرأى فلاحاً بسيطاً راكعاً على الأرض يُصلِّي. فتأمّله بعض الوقت في عُمق ثم قال:

أنا مُستعد أن أتنازل عن نصف فلسفتي. بل عن فلسفتي كلّها. إن عرفت سرّ هذا الرَّجُل البسيط الذي يُكلّم كائناً لا يراه..!!

***

ديوجين والإسكندر

* كان ديوجين من أشهر فلاسفة عصره. وكان مثالياً في شخصيته. كما كان ناسكاً أيضاً. شوهد مرّة يحمل مصباحاً في النهار. ويسير كمَنْ يبحث عن شيء. فسألوه عمّا تبحث؟ فقال: عن إنسان..!

* وكان "الإمبراطور" الإسكندر المقدوني مُعجباً جداً بديوجين الفيلسوف. لدرجة أنه قال ذات مرة: لو لم أكن الإسكندر. لتمنّيت أن أكون ديوجين.

* وفي أحد الأيام كان ديوجين في صومعته. فأطلّ الإسكندر عليه. وقال له: اطلب ما تشاء - ولو نصف مملكتي. فأعطيك إياه. فأجابه ديوجين: أريد ألاّ تمنع عنّي الشمس.

***

كبرياء من؟!

قيل إن أفلاطون الفيلسوف الشهير أقام حفلة لفلاسفة عصره. وزيّن بيته بفاخر الرياش وبالسجاد الثمين جداً. وكان من بين المدعوين ديوجين الفيلسوف. الذي لنسكه تعجب جداً كيف أن فيلسوفاً عظيماً كأفلاطون يفرش قصره بمثل ذلك السجاد الفاخر. وداس بقدمه على السجاد مُشمئزاً.

فسأله أفلاطون: لماذا تدوس على السجاد هكذا يا ديوجين؟

فقال ديوجين: أنا لا أدوس على السجاد. إنما على كبرياء أفلاطون!

فأجابه أفلاطون: ولكنك تدوس على كبرياء أفلاطون بكبرياء..!

***

المكان الرئيسي

قيل إن بسمارك أكبر السياسيين في أوروبا في زمنه دُعي إلى حفل. فلم يُجلسه المنظمون في المكان اللائق به. ولاحظ رئيس البروتوكول ذلك. فأسرع إليه معتذراً وقال له: أنا آسف يا سيّد بسمارك. كان المفروض أنك تجلس في المكان الرئيسي.

فأجابه بسمارك بكل هدوء. لا تأسف مُطلقاً. فحيثما جلس بسمارك. يكون هذا هو المكان الرئيسي..!

***

الإنسان المثالي

الكاتب الأيرلندي الساخر برنارد شو. كثيراً ما تحدَّث عن الإنسان المثالي Superman. فأتته مغنية جميلة جداً من أيرلندا أيضاً وقالت له: ما رأيك في أن نتزوّج نحن الاثنين. وننجب ابناً. يرث جمالي. كما يرث ذكاءك. ويكون هذا الإنسان المثالي الذي تبحث عنه.

وكان برنارد شو مشهوراً ببغضه للنساء. فاعتذر لتلك المغنية الجميلة عن قبُول الزواج بها قائلاً لها: آسف يا سيدتي. فهذا الزواج غير مضمون النتائج. فربما الابن المولود يأخذ جماله مني أنا. ويأخذ ذكاءه منك. فيصبح لا شيء..!

***

برنارد شو والمال

كان هذا الكاتب الشهير حريصاً على اقتناء المال. فكان إذا طلب منه أحد المعجبين أن يكتب له كلمة تذكارية. يكتب له على قدر ما يدفع له من مال: كل كلمة مقابل جنيه. وكان أحد أولئك المُعجبين لا يملك سوى جنيه واحد. فأرسله إليه. فكتب له برناردشو: Thanks "شكراً".

واغتاظ أحدهم من حب هذا الكاتب للمال. فأرسل يُهاجمه قائلاً: أنت تسعى إلى المادة والمال. أمّا نحن فنبحث عن الشرف والكرامة.

فأجابه برنارد شو: لك حق في كل ما قلته. لأن كل إنسان يبحث عمّا ينقصه.

***

إجابات تدل على ذكاء

أبي أمْ الأمير؟

أحد الأمراء العظام. زار بيت رجل من كبار موظفيه. وكان لهذا الموظف الكبير ابن معروف بالذكاء. وقد أعجب به الأمير. فأراد أن يختبر ذكاءه بأن قال له: بيت أبيك أعظم، أمْ بيت الأمير؟

وتحيّر الطفل بين إجلاله لأبيه وإجلاله للأمير. ولكنه أجاب بذكاء: ما دام الأمير في بيتنا. يكون بيت أبي أعظم من بيت الأمير.

***

من الأكبر؟

وزير كبير في السن ذهب للقاء أمير البلاد الذي كان متوسط العمر. وفيما هو منتظر المثول بين يدي الأمير. سأله أحد رجال الحاشية ليختبر إجابته: هل أنت أكبر أمْ الأمير؟

فأجاب الوزير الشيخ: الأمير هو الأكبر منّي بلا شك. ولكنني قد وُلدت قبلاً منه..!

***

بأي وجه؟!

دخل على السُّلطان رجل كان قد أذنب إليه. فقال له السُّلطان: "بأي وجه تلقاني؟!".

فأجابه الرجل المُذنب: "بالوجه الذي ألقى به اللّه. وذنوبي إليه أعظم. والعقاب الذي أستحقه أكبر".. فعفا عنه السُّلطان.

***

أيهما أولاً

شاب أشرف على الغرق. فصرخ إلى رَجُل على الشاطئ لينقذه. فقال له الرَّجُل: كيف يا ابني تنزل إلى البحر. وأنت لا تحسن السباحة؟! كان الأجدر بك أن تكون حكيماً. ولا تخاطر بنفسك..

فأجابه الشاب: بل الأجدر يا سيّدي أن تنقذني أولاً من الغرق. ثم بعد ذلك توبّخني كما تشاء.

***

أعمى يقود بصيراً

يحدث في بعض الأيام في مدينة لندن. أن يكون الضباب كثيفاً لدرجة أن السائر في الشارع لا يستطيع أن يميز طريقه.. وهكذا ضل أحد السائرين طريقه. فاقتاده صديق أعمى. لأن الأعمى تعود أن يعرف الطريق سواء كان هناك ضباب أم لم يكن.

وقد وصف الأستاذ على الجارم هذا المنظر في شعره فقال:

رأيت أعمى في الضباب بلندني

فأتاه يسأله الهداية مُبصري

فاقتاده الأعمى فسار وراءه

وهنا بدا القدرُ اللئيم مقهقهاً

يمشي فلا يشكو فلا يتأوهُ

حيران يخبط في الظلام ويعمهُ

إنّي توجه خطوةً يتوجهُ

ومضى الضباب ولايزال يقهقهُ

***

موعد مع الموت

عاد ذلك الأمير الفرنسي إلى قصره. فوجد سكرتيره يحزم أمتعته استعداداً للرحيل. فسأله عن السبب فأجاب:

كنت سائراً في أحد شوارع باريس. فرأيت أمامي ملاك الموت. فنظر إليَّ نظرة أفزعتني جداً. فقرَّرت ترك باريس كلّها والسفر إلى طولون لأنها بعيدة عن باريس جداً.

فسمح له الأمير بالسفر. لأنه كان في فزع شديد. واستقل السكرتير عربته وراح ينهب الأرض نهباً إلى طولون وبعد بضع ساعات خرج الأمير يتمشّى في شوارع باريس. فرأى أمامه ملاك الموت. فقال له: أسألك يا سيِّدي الملاك. لماذا نظرت إلى سكرتيري نظرة أفزعته. لدرجة جعلته يُقرِّر الهروب؟

فأجاب الملاك: يعلم اللّه أنني لم أُرِد إطلاقاً أن أفزعه.. ولكنني نظرت إليه في استعجاب شديد: كيف أرى هذا الرجل أمامي في شوارع باريس. بينما لي موعد معه هذه الليلة في طولون!!

***

حيلة فيها ذكاء

قرد ذكي كَبُر في السن. فاستقر به الأمر على شجرة جوز هند كبيرة على شاطئ البحر. وصار يشتغل بالنصح والإرشاد لكل من يقصده. وفيما كان هذا القرد يتسلى بإلقاء ثمار جوز الهند في البحر. فيحدث ذلك صوتاً يعجبه أن كان عجل بحر يتلقى هذه الثمار وهو في الماء. ظاناً أن القرد إنما يلقيها إليه عن قصد.. فصارت صداقة بين الاثنين.

وهكذا تمتّع الاثنان بعِشرة طيبة. وصار عجل البحر يسهر فترات طويلة مع القرد. ولا يرجع إلى مسكنه في كل يوم إلاّ بعد منتصف الليل.

فتضايقت زوجة عجل البحر من هذا الأمر. وشَكت حالها إلى صديقة عجوز لها معروفة بالخبرة والذكاء. فقالت لها العجوز "تمارضي. فإن أتي زوجك. اطلبيني لأصف لك علاج مشكلتك".

وقد كان. فلما حضر عجل البحر. ووجد أن زوجته مريضة. طلبا الصديقة العجوز لمعرفتهما بذكائها وخبرتها. فجاءت وكشفت عليها. وقالت إن علاجها الوحيد هو أن تأكل قلب قرد..!

وذهب عجل البحر إلى صديقه القرد. وبعد سهرتهما معاً. قال له: يسعدني يا صديقي القرد أن تأتي إلى مسكني في جزيرة قريبة. ووافق القرد. وقفز على ظهر عجل البحر الذي سبح به وهو مهموم يفكّر: هل يضحّي بصديقه بأن يهبط به في البحر فيغرق ثم يحمله لتشفى زوجته بأكل قلبه..؟ أم أن هذه خيانة تتعب ضميره. فلا يفعلها. وحينئذ تموت زوجته؟!

وأحسّ القرد بهموم صديقه العجل فسأله عن السبب فأجابه بصراحة وقال: إن علاج زوجتي الوحيد هو قلب قرد. وإلاّ فإنها تموت. فأجابه القرد: طلبك سهل يا أخي. فلماذا لم تطلب مني هذا الطلب ونحن على الشجرة.

فسأله العجل عن السبب. فقال القرد: إننا معشر القرود. إذا زُرنا صديقاً لنا مُتزوّجاً. لا نأخذ قلوبنا معنا. لئلاّ نقع في الفتنة. فهيا بنا إلى الشجرة لأُحضر لك قلبي من هناك. فتأخذه لشفاء زوجتك.

وصدّق العجل هذا الكلام وعادا إلى الشجرة. فلما وصلا إليها. قفز القرد إلى أغصانها. وقال للعجل: عُد يا صديقي إلى زوجتك. ولتنته صداقتنا عند هذا الحد. فهذا هو الأنفع لشفاء زوجتك.

رائع نظرياً
ومستحيل عملياً

جماعة من الفئران كانوا يسكنون معاً في منطقة واحدة. وكان قط سمين يأتي متلصّصاً كل يوم. فيخطف واحداً منهم. فاجتمع الفئران في مؤتمر لبحث حل لمشكلتهم. فوقف فأر من الشبان المتحمسين. وقال إن الحل هو أن نعلق جرساً في رقبة القط. فإذا جاء خلسة يكشف الجرس مجيئه. فنجري إلى جحورنا ونختبئ فلا يستطيع أن يخطف أحداً منا. وصفق الفئران معجبين بهذا الاقتراح الرائع. وهنا وقف فأر شيخ وقال:

حقاً. إنه اقتراح رائع. ولكن عملياً: من منكم يستطيع أن يُعلِّق الجرس في رقبة القط؟! وصمت الجميع في حزن ويأس.

٢٠٠٣/٩/٩

حياة الاطمئنان

الذي يملك السلام على قلبه. يعيش دائماً مُطمئناً وإن فقد سلامه واطمئنانه. يقع في القلق والاضطراب والخوف..

والسلام الذي يجلب الاطمئنان. هو سلام يسكبه اللّه في القلب. وعنه قال في الإنجيل "سلامي أترك لكم. سلامي أنا أعطيكم. ليس كما يُعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا تجزع".

والإنسان المُطمئن. لا يأخذ اطمئنانه من الظروف المحيطة فالظروف المحيطة به. قد تعبث به. تزعجه وتهدئه. تريحه وتخيفه.. إنما هو يأخذ اطمئنانه من طبيعة قلبه في الداخل. ومن نوعية إيمانه. ومن الصفات الروحية التي يتصف بها.

***

القلب المُطمئن لا تؤثِّر عليه الظروف مهما اشتدت واحتدت:

ولذلك فإن داود النبي يقول في المزمور "إن نزل عليَّ جيش. لا يخاف قلبي. وإن قامت عليَّ حرب. ففي ذلك أنا مُطمئن" "الرب نوري وخلاصي. ممّن أخاف؟! الرب حصن حياتي. ممّن ارتعب؟!".. إذن اطمئنانه هذا. كان نابعاً من إيمانه بحفظ اللّه له.

هذا الإيمان كان في قلبه. فصار قلبه جسوراً لا يخاف ولا يضطرب. وكان يعزي نفسه بقوله في المزمور "الرب هو حافظك. الرب يحفظك من كل شر. يحفظ نفسك. الرب يحفظ دخولك وخروجك. من الآن وإلى الأبد".

كان واثقاً من عمل اللّه معه. واثقاً من حفظ اللّه له. لذلك عاش عمره كله مطمئناً لا يضطرب ولا يقلق.

***

الإنسان القوي في إيمانه. لا يضطرب أبدًا ولا يقلق

إنه يؤمن أن اللّه هو صانع الخيرات. دائماً يصنع خيراً. ولا بد أنه سيصنع الخير معه. أمّا إن أتاه الشر من الناس الأشرار. فإن اللّه الرحوم الشفوق. سوف يصد هذا الشر عنه. إنه اللّه الحافظ وهو أيضاً الإله الساتر والمُعيِّن.

ولكن إذا ضعف إيمان الإنسان. حينئذ يشك في معونة اللّه له. فيضطرب قلبه ويخاف. وحينئذ يستحق أن يوبّخه اللّه بعبارة: "يا قليل الإيمان. لماذا شككت؟!".

إذن من أسباب الاضطراب والقلق. ضعف الإيمان. والشك في معونة اللّه وفي حفظه..

***

ضع اللّه بينك وبين المشاكل والضيقات. فتختفي المشاكل والضيقات

أمّا إن وضعت المشاكل بينك وبين نفسك. فسيختفي إيمانك وتقلق..

بالصلاة يكون اللّه بينك وبين الضيقات. وبالإيمان يكون لك ذلك. وباستعادة التاريخ وخبراتك الروحية السابقة. يقوي قلبك وتطمئن. أمّا إن نسيت كل هذا أو أهملته. فسوف تتعب.. ما أكثر ما يروي التاريخ من قصص. عن تدخُّل اللّه في المشاكل. وحلّها بحكمة من عنده. تقرب من المعجزات.

ضع في نفسك كل هذا. فتطمئن. لأن اللّه هو هو. أمس واليوم وإلى الأبد. لا تتغير أبدًا رحمته ولا حفظه.

***

موضوع القلق والاضطراب يتعلق أيضاً بنفسية الإنسان وعقليته.

فهناك نفسية أقل الأمور يقلقها. وقد تقلق بلا سبب.. بينما نفسية أخرى صامدة أمام أصعب المجالات. تحتمل في هدوء ولا تضطرب. كذلك من جهة العقلية: توجد عقلية: إن واجهت أصعب المشاكل. تحلِّلها. وتحاول أن تجد لها حلاًّ. وإن لم تجد الحل. تعطي المشكلة مدي زمنيا ربما تنحل فيه. وتصبر خلال ذلك ولا تقلق... بينما عقلية أخرى تقف عاجزة. ويمتزج عجزها بالاضطراب وفي كل ذلك. يبدو أن المشكلة ليست هى السبب في القلق والاضطراب. إنما السبب هو طريقة العقلية أو النفسية في مواجهتها. ومدى قدرة العقل أو النفس على ذلك.

***

على أن اللّه في رحمته - لا يترك الضعفاء إلى ضعفهم. بل يُعينهم

وهو يطلب منا نحن أيضاً أن نشجع صغار النفوس. ونسند الضعفاء. وأن نعين من لا معين له. وإن وقع أحد في قلق أو اضطراب. نقف نحن إلى جواره. ونعرف سبب قلقه ونحاول أن ننقذه منه: سواء كان قلقًا طارئًا. أو هو مجرّد مظهر من طبيعة النفس.

كذلك بالنسبة إلى الاضطراب: ليست كل نفس قوية يمكنها أن تحتمل. فالذين لا يستطيعون أن يحتملوا. علينا أن نحمل معهم أتعابهم. ولا نتركهم يئنون تحت ثقلها.. فما هي إذن الأسباب العامة التي تدفع الناس - أو بعضهم - إلى القلق والاضطراب. وإلى الخوف أيضاً؟..

***

النفس الضعيفة تتوقّع الشر باستمرار. وتخاف منه!

أي تتصوّر أن هناك شراً سوف يحدث. بينما هذا الشر لا وجود له في الواقع!! كالطفل الذي يخاف في الظلام متصوّراً أن الظلام يخفي خلفه شيئاً مريعًا. أو كالأم الذي يتأخر ابنها عن عودته ذات مساء. فيخيل إليها أن حدثاً مُرعباً قد حدث له. فتقلق.. ويظل القلق يصور لها أموراً مُخيفة لا وجود لها. فتنزعج.. وكلّما مرّ الوقت يزداد انزعاجها.

أو كسجين تحت المحاكمة. يعصف به القلق. مُتخيّلاً أنه سوف يحكم عليه بكذا وكذا.. وأن أعداءه سوف يستقدمون شهود زور. فيشهدون عليه بما لم يفعله.. وتظل الأفكار السوداء تراوده فيخاف..!

***

حقاً إن الوهم سبب أساسي من أسباب القلق والاضطراب كالذي قيل عنه أنه "يهرب وليس من يطارده"!!

فالخائف قد لا يخرج من بيته ويقول في خوفه "الأسد في الطريق! الشبل في الشارع!" بينما لا أسد هناك ولا شبل.. إن الخوف يجلب الاوهام. والاوهام تسبب الخوف. ويظل الاثنان يتبادلان الموقع - كسبب أو نتيجة - ويحملان معهما القلق والاضطراب.. انه خوف طفولي داخل النفس بلا أسباب خارجية تبرِّره.. كالطفل الذي يخاف من أنهم سوف يلقونه في "حجرة الفئران" بينما لا توجد حجرة فئران ولكنه وهم يسببه الخوف أو خوف يسببه الوهم! أو كالذين يخافون من الأشباح. أو من الجنية. أو من العفاريت! بينما لا توجد أشباح ولا جنيّة ولا عفاريت. لكنه الوهم..

***

الشكوك أيضاً يمكن أن تجلب القلق والاضطراب!

فالإنسان في خوفه يمكن أن تروِّعه الشكوك: يمكن أن يحدث كذا أو يحدث كذا.. كالذي ارتكب جريمة. ثم تعصف به الشكوك: لعله ترك أثراً يدل عليه! أو لعلّ إنسانا قد رآه دون أن يشعر! أو لعلّ أدلة الاتهام تشير إليه بأسباب مُعيّنة! وكل هذه الشكوك تجلب له القلق والاضطراب وتظهر على وجهه ملامح القلق حتى كأنه يقول: "أنا هو. خذوني".

أو فتاة يأتي عريس ليخطبها فتظل قلقة بسبب الشكوك: هل ستعجبه أم لا تعجبه؟ هل سيكمل الموضوع أم يمضي ولا يعود؟ وبهذه الشكوك تبدو مُضطربة وقلقة. وخائفة من هذا اللقاء .. ونفس الوضع بالنسبة إلى أي لقاء اختيار interview بخصوص العمل: هل سيمر بخير ويتم القبول أم لا؟ شكوك تجلب القلق.

***

وقد يحدث القلق والاضطراب بسبب الخوف من الحسد

إنسان يخاف من الحسد. ومن الحاسدين. يقول لك أن فلاناً هذا. "عينه تفلق الحجر" فيضطرب إذا لاقاه .. ويخاف أن يعلن عن شيء من نجاح أبنائه أو تفوقهم لئلاّ يحسدهم الناس فيصيبهم ضرر وإن عرف عنهم هذا التفوق - ولو عن طريق الصدفة - يظل في قلق واضطراب من عيون الحاسدين. ويضع أمامه المَثَل القائل "داري على شمعتك لئلا تنطفئ".

وكلما تأتيه نعمة من اللّه يحاول ألاّ يتحدث عنها لئلاّ يسمع الحاسدون ويحسدونه! ويقلق لهذا السبب.. بينما لا يوجد مثل هذا الحسد وإلاّ ما كان يعيش الممتازون في حياتهم ومن تعلن الجرائد عن تفوّقهم ونيلهم للجوائز والألقاب..

***

قد يحدث القلق والاضطراب أيضاً بسبب الشائعات..

كشائعة عن انتشار مرض أو وبأ او شائعة عن هروب أسد من حديقة الحيوان أو هروب مجرم قاتل من السجن. أو هروب مجنون خطر من مستشفى الأمراض العقلية.. أو شائعة عن إلغاء المجانية من المدارس والجامعات أو شائعة عن إصدار ضريبة أخرى.

كل ذلك يثير القلق والاضطراب بين الناس بينما لا يكون لهذه الشائعات أي أثر من الحقيقة ولكنها تحدث تأثيرها في النفوس المُستعدة لتصديقها وتسبّب لها قلقاً..

كذلك إذا انتشرت شائعة أن الجزارين يبيعون لحم الحمير !!

ألاّ يتسبّب هذا في قلق الناس. وامتناع بعضهم عن أكل اللحوم. إلاّ من مصادر موثوق بها. أو ما يذبحه الناس بمعرفتهم.

***

من أسباب القلق. خوف الناس من المرض ومن تطوره

وبخاصة من الأمراض الخطيرة التي يبدو الشفاء منها صعباً جداً أو مستحيلاً.. هذه مجرد الإعلان عنها يسبب قلقاً واضطراباً.

ويزداد القلق إذا أصيب طبيب بأحد هذه الأمراض. وهو يعرف جيدا طبيعة المرض وخطورته وآلامه. ودرجات تطوّره.. مثل هذا الطبيب قد يضطرب أكثر من الناس العاديين.. أو أن أُناساً يأتيهم الوهم بالخوف من الميكروبات ومن العدوى.

فإن سلّم عليهم أحد المرضى. يغسلون أيديهم بكل حرص. بالكولونيا أو بالليمون.. ويحترسون بصفة عامة من زيارة المرضى.. كان شخص يقول: هناك عدو موجود معنا في كل مكان. فسألوه: أتقصد الشياطين؟ فقال: كلاّ. بل الميكروبات!! حقاً إن الميكروبات موجودة في كل مكان: في الهواء. في الناس. في الحيوان!!

إن الحرص لازم. ولكن لا نصلْ به إلى الوهم. والخوف.

***

البعض يصيبهم القلق أيضاً من ركوب الطائرات!!

إذا قيل لهم "اربطوا الحزام". وعرضت عليهم وسائل مواجهة الحوادث. يقلقون ويضطربون! وإن حدثت بعض مطبات الهواء. فإن قلوبهم "تطب" أكثر من مطبات الهواء! وإن قاومت الطائرة الهواء واهتزت قليلاً. يدركهم الاضطراب. ويظنون ان النهاية قد قربت.

إنه الوهم. فمع كل ذلك تصل الطائرة سالمة... ولكن الناس يقلقون بسبب قراءتهم في الجرائد عن بعض حوادث سقوط الطائرات. فيظنون أن كل طائرة هي مُعرّضة للسقوط. بينما هناك من ينامون في الطائرة مطمئنين.. كذلك قد يقلق البعض من ركوب البحر. إذا ما اهتزت السفينة. وهذا شيء طبيعي. لأن ماء البحر دائم الحركة. وليس ساكنا....

يقلق البعض أيضاً من السحر ومن "العَمَل"!!

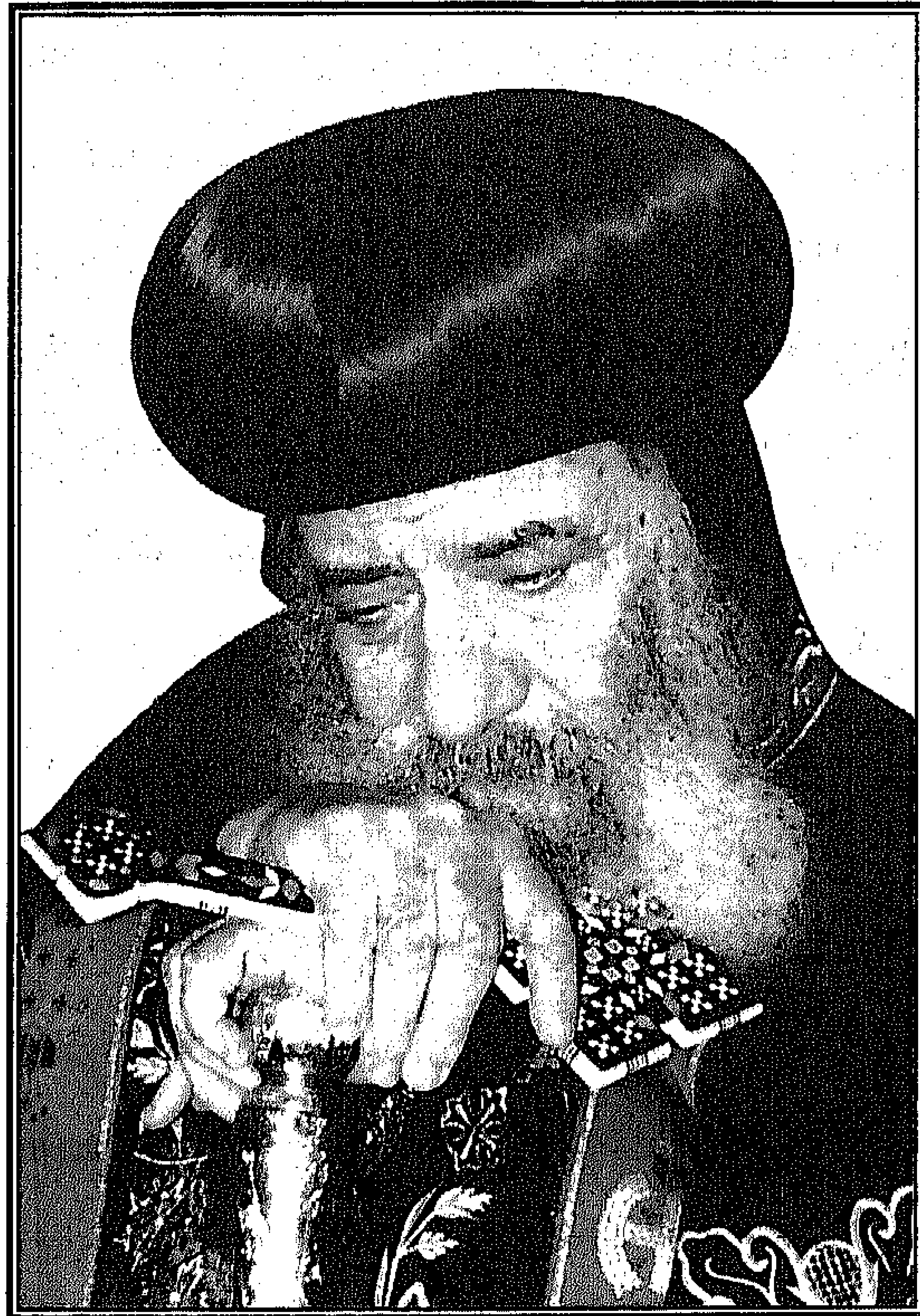
يقول الواحد منهم إن "فلاناً عمل لي عملاً" أي سحراً وينسب كل ما يصيبه في حياته من شر أو فشل. إلى هذا العمل!! بل يقلق أيضاً من نتيجة هذا العمل عليه في المستقبل!!.. وعبثاً تحاول مع هذا الشخص أن تثبت له بأنه لا يوجد عمل في هذه الأيام ولا سحر. ولا استخدام لقوى الشياطين. كما كان يحدث قديماً في أيام الوثنية وعبادة الأصنام.

***

ما أكثر الأضرار الناتجة عن القلق والاضطراب وعدم الاطمئنان.

الخوف. وتعب الفكر والأعصاب. وتعب النفس. وربما تعب الجسد أيضاً بالأمراض.. بعكس الإنسان المطمئن الذي يحيا في سلام...

حاول أن تعاشر الناس الأقوياء القلب. فتأخذ منهم سلاماً وقوة. واقرأ أيضاً عن قصص الأقوياء الذين لا يخافون. وليكن لك إيمان بحفظ اللّه ومعونته. ولا تترك للوهم مجالاً في فكرك. ولا مكاناً في نفسك. ودرّب ذاتك أن تعيش مُطمئناً.



٢٠٠٣/٩/١٦

أمور تضعف الإيمان

إن الشيطان يعمل باستمرار. وبكل جهده على إضعاف إيمان المؤمنين. ويحاول هو وأعوانه أن يُضلوا لو أمكن الأبرار أيضاً!! ولا يكفي هؤلاء مجرد إضعاف الإيمان. بل إنهم يحاولون أن يوصلوا فريستهم إلى إنكار الإيمان أيضاً!

فما هي وسائل الشيطان في إضعاف الإيمان؟ إنها كثيرة:

بعضها عنيف جداً.. وبعضها هادئ قد لا يحسّه أحد..

***

١- الذات:

كثيراً ما تقف الذات ضد اللّه. وترفضه لأنه ضد رغباتها.

تشعر الذات أن اللّه يحدّ حريتها التي تشتهي أشياء لا يوافق عليها اللّه. فلكي تتمتع بهذه "الحرية" أو بهذا التسيُّب. تنفصل عن اللّه. أو ترفض اللّه. ولعلّ الوجوديين المُلحدين من أمثلة الرافضين للّه. وهؤلاء صار شعارهم هو:

من الخير أن اللّه لا يوجد. لكي أوجد أنا!!

وهؤلاء قد أخطأوا في المعنى الحقيقي للوجود. والمعنى الحقيقي للحرية. فليست الحرية هى أن يفعل الإنسان ما يشاء. فقد تكون مشيئته خاطئة. إنما الحرية الحقيقية هى أن يتحرّر الإنسان من كل شيء يُشينه.. يتحرّر من العادات الرديئة التي تستعبده. ومن الشهوات الدنسة التي تنجّسه. ويتحرّر من سيطرة المادة عليه. هذه التي تمنع روحه من انطلاقها. ومن العِشرة مع اللّه التي هى الوجود الحقيقي.

***

ومن معوقات الذات للإيمان: رغبة الإنسان في الشعور بذاته. من جهة القوة والعظمة والكبرياء. وكأنه إله على الأرض!!

نعم. إن كثيرين أنفسهم جميلة في أعينهم. ذاتهم هى خصمهم!

فيمنعهم عن حياة الإيمان: محبة الذات. والاعتداد بالذات. والرغبة في تكبير الذات. وتعظيم الذات. وتحقيق شهوات الذات. والهروب من كل من يكشف هذه الذات أو يظهر

مساوئها.. وهكذا يريدون أن تحيا ذاتهم في جو من التدليل والمجاملة والمديح. يتضايقون من كل كلمة صريحة. ومن كل تأنيب أو تأديب.. فكيف يمكنهم إذن أن يحيوا في الإيمان؟!

وأنت. هل إيمانك يتعطّل بسبب رغباتك وغرائزك وأفكارك وشهواتك؟ هل هناك تعارض بين اللّه وذاتك؟ إن كان الأمر كذلك. انكر ذاتك. قاومها. انتصر عليها.
أو اصلح ذاتك لكي تتضع أمام اللّه. فتحيا في الإيمان.

***

كذلك من الأمور التي تضعف الايمان:

رغبة الحواس في الاقتناع

في محاولة لإخضاع الإيمان للحواس. بحيث لا يؤمن الشخص إلاّ بما تدركه حواسه: ما يراه. أو يسمعه. أو يلمسه!

ومن المُحال أن يدخل الإيمان كله في نطاق الحواس..

من هنا كان المُلحدون لا يؤمنون بالأرواح ولا بالملائكة. لأن حواسهم لا تدرك الروح. وهكذا كانت طائفة الصدوقيين.. بل لا يؤمنون أيضاً بقيامة الأموات. ولا بحياة الدهر الآتي..

وأيضاً لا يؤمنون بوجود اللّه. لأن اللّه لا يمكن إدراكه بهذه الحواس المادية. والإيمان هو الإيقان بأمور لا ترى.. ولهذا حسناً قال السيد المسيح "طوبى لِمَنْ آمن دون أن يرى".

****

أيضاً من الأمور التي تعطّل الإيمان أو تضعفه:

محاولة إخضاع الإيمان للعقل:

إن العقل له حدود لا يتعداها. والإيمان مستوى أعلى منه.

على أن هناك أشخاصاً يريدون أن تعي عقولهم اللامحدود. وما هو فوق إدراكهم. وأن يخضعوا الأمور الخاصة باللّه وملكوته للفحص العلمي..! وهذا غير ممكن منطقياً. وليس من العقل أن يخضع غير المحدود لهذا العقل المحدود!

ومن هنا فإن هؤلاء العقلانيين. يرفضون ما لا يستطيع العقل أن يستوعبه! فيرفضون مثلاً الوحي. والمعجزة!

ويعتبرون ما ذُكر عن المعجزات لوناً من الأساطير MYTHOLOGY إن المعجزة هى مستوى أعلى من العقل. تعتمد على الإيمان بقدرة اللّه غير المحدودة. نقبلها وإن كنا لا ندرك كيف تتم. كما نقبل مثلاً كثيراً من الإنتاج العلمي الحديث. الذي يقرب في مفهوم البعض من المعجزات. على الرغم من عدم إدراك غالبيتنا كيف يتم.

***

سبب آخر يؤدِّي إلى ضعف الإيمان هو:

مُعاشرة الشكّاكين

كما أن مُعاشرة رجال الإيمان تقوّي الإيمان. كذلك مُعاشرة الشكّاكين تغرس الشك في العقول وفي القلوب.

إن كانت بمداومة. أو من النوع العميق الأثر. أو كان المستوى المُعرّض للشكوك أقل في المعرفة أو في المستوى العقلي. أو كان غير عميق في الإيمان.. لذلك فمن الحكمة الامتناع عن مخالطة المُنحرفين في إيمانهم وفي أفكارهم. كم من أُناس خالطوا الملحدين. واستمعوا إلى شكوكهم في الإيمان. أو قرأوا كتبهم. فكانت النتيجة أنهم تأثروا بهم وانجرفوا في تيارهم..!

****

كذلك من جهة السلوك والروحيات. فإن مُخالطة الشكاكين تضعف الإيمان.

فقد تحدث لك تجربة أو مشكلة وتقبلها في إيمان. وتسلّم الأمر للّه شاكراً إياه على كل حال. ثم يزورك شخص قليل الإيمان وكثير الشك. فيظل يشرح لك شكوكه من جهة خطورة الموضوع وتطوره. فيخيفك جداً من النتائج المتوقعة. حتى تفقد سلامك الداخلي. ويضعف إيمانك من جهة حفظ اللّه لك في تلك المشكلة. لذلك كن حريصاً جداً في اختيار من تعاشرهم وتختلط بأفكارهم وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى في إضعاف الإيمان وهى:

***

الانقياد وضعف الشخصية

هناك من لا يستطيعون الصمود أمام الشائعات وكلام الناس. فتهتز نفوسهم من الداخل بسبب التأثير الخارجي الضاغط. فيتحولون عن إيمانهم الأول - عقيدة أو سلوكاً - وينقادون.

لأن شخصياتهم أضعف من أن تصمد..! أمّا الإنسان القوي الإيمان القوي الشخصية. فإنه لا يهتز مُطلَقاً في إيمانه ولا في روحياته. ولا ينقاد لأي فكر خارجي.

وكما ينقاد البعض بسبب الشائعات. كذلك هناك من ينقادون وراء من يدّعي الرؤى والأحلام!!

ويظنون أن ما يدعيه من رؤى وأحلام. إنما هى من اللّه. ويتأثر إيمانهم مُنخدعين بما يسمعونه. ولو كان ذلك ضد مُعتقداتهم أو ضد مبادئهم الروحية!.. حقاً إن الانقياد من الأسباب التي تضعف الإيمان.

***

الخوف

الخوف يضعف الإيمان.. وضعف الإيمان يؤدِّي إلى الخوف.

الإنسان المؤمن برعاية اللّه وحفظه. لا يخاف. فإن بدأ يخاف. إنما يدل على أن إيمانه قد ضعف.

في عصور الاستشهاد. كان المؤمنون أقوياء جداً في إيمانهم. لذلك ما كانوا يخافون التهديد ولا التعذيب بكل ألوانه. بل ما كانوا يخافون الموت أيضاً. لأن إيمانهم بالحياة الأخرى كان حصناً لهم من الخوف.. أمّا الذين خافوا. فقد أنكروا الإيمان.

***

الشهوة

ونقصد إحدى الشهوات الخاطئة. مثل شهوة الزنا. أو شهوة المال. أو شهوة التشفّي والانتقام. أو شهوة التعالي والكبرياء. أو شهوة السيطرة.. وما إلى ذلك.

ومن قواعد الإيمان أن اللّه موجود في كل مكان. ويرى الخفيات والظاهرات. وبالتالي يرى كل شخص أثناء مُمارسته لشهواته.. فإن كان مُمارس الشهوة يؤمن بهذه الحقيقة إيماناً عملياً. لكان يستحي أو يخاف من ممارسة شهواته. أمام اللّه .. ولكنه من الواضح تماماً. أن الإنسان الشهواني - أثناء ممارسته للشهوة - يكون إيمانه في حالة غيبوبة كاملة. قد غيّبته الشهوة. لا يكون الإيمان أمام عينيْه إطلاقاً. لا يكون في ذهنه أنه أمام اللّه. وإن مرّ هذا الفكر بذهنه. يُقابله بلا مبالاة!

***

ضلالات الشياطين

إن الشيطان قد يخدع الناس بأحلام ورؤى. وبأخبار ونبوءات كاذبة. وبأفكار ضلالات وبدع. لكي يحطِّم الإيمان في قلوبهم. ويحوّلهم إلى طريق بعيد عن اللَّه.

والإنسان الحكيم يحتاج في كل هذا أنه لا يصدّق كل روح.. بل يختبر الأرواح هل هى من اللَّه؟! أو على الأقل يستشير أهل الحكمة والمعرفة. ويكشف لهم ما يوحي الشيطان به إليه.. لأنه من خداع الشيطان أنه قد يظهر حتى في هيئة ملاك من نور..!!

ما أكثر الذين أضلّهم الشياطين بإيحاءات كاذبة. وأبعدوهم عن الإيمان بأنواع شتى من الشكوك.

***

الشك

الشك يضعف الإيمان.. وضعف الإيمان يولّد الشك.

تماماً كما قلنا عن الخوف.. كلاهما يُسبِّب الآخر أو ينتج عنه.. فإن حاربتك الشكوك من جهة وجود اللَّه. أو من جهة بعض العقائد الإيمانية الأساسية. فلا تخف. هذه مجرّد مُحاربات من العدو. وليست إنكاراً منك للإيمان.. وبخاصة إن كان قلبك رافضاً لها.

لذلك في مثل هذه الحالات. عليك أن ترفع قلبك إلى اللَّه. وتصلِّي أن يرفع عنك هذه الحروب. وأن تغيّر مجرى تفكيرك. بأن تنقل أفكارك إلى موضوع آخر تنشغل به.

***

على أن هناك حروباً أخرى للشك أخفّ من هذه. نذكر منها:

الشك في معونة اللَّه ورحمته. أو في أن اللَّه قد تخلى عنك.

بينما ضميرك قد يصرخ في أعماقك بعبارة "يا قليل الإيمان. لماذا شككت؟!" ذلك لأن الإيمان القوي لا يشك مُطلَقاً في عناية اللَّه. ولكن الضيقات الكثيرة المستمرة. قد تضغط على القلب أحياناً وتقول: لماذا الرب لا يهتم؟! لماذا لا يسمع الصلوات؟! لماذا يسمح بكل هذا؟!.. والرب في الواقع يرقب بكل حُب: كالأب الذي يعلّم ابنه العوم: يتركه قليلاً ليتدرب ويكتسب خبرة. ويرقبه بكل حرص. فإن رأى خطراً يحيق به. يسرع إلى حمله وإنقاذه.. وكالأم التي تدرِّب ابنها على المشي. فتتركه ليقوم ويسقط ثم يقوم. لكي تشتد عظامه وتقوّي عضلاته ويتعلّم. أمّا إن كانت في كل صرخة منه. تسرع وتحمله على كتفها. فإنها بهذا

تضره. ولن تقوي عظامه ولن يتعلّم المشي وبنفس الوضع: النسر الذي يُدرِّب فراخه على الطيران.

***

إن أزمنة الضيق هى مدرسة لنا: نتدرّب فيها على الصلاة. وعلى الإيمان. وعلى انتظار الرب: كيف ومتى يعمل. وبقوة..

إن الإنسان قد يشك إن نظر فقط إلى المتاعب. وليس إلى اللّه! والمؤمنون الحقيقيون لا يشكون حتى إن بدوا "كحملان وسط ذئاب"! فما دام الراعي الصالح وسطهم. فلن تقوى عليهم الذئاب. ولا حتى الأسود..!

إن أبانا إبراهيم لم يشك حينما أمره اللّه بتقديم ابنه ذبيحة. فقد كان يؤمن تماماً أن قلبه ليس أحنّ على ابنه من قلب اللّه!

***

إن الذي لا يشك. يعيش دائماً في راحة وسلام.

يحيا دائماً مُطمئناً. لا تتعبه الظروف الخارجية الضاغطة.. وما أكثر المتاعب التي تولِّدها الشكوك في القلب وفي الفكر.. مثل القلق والخوف والاضطراب. مجرّد الشك هو نفسه تعب. نار تحرق.. والشك يُعالج بالثقة والإيمان. إن الإيمان يقتل الخوف والشك. والخوف والشك قد يقتلان الإيمان. فلنبعد عنهما.



٢٠٠٣/٩/٢٣

ما هو الإيمان؟

كلمة "إيمان" يدعيها كل إنسان يعبد اللَّه.. وربما لا يحياها!

وقد يكون له اسم المؤمن. ولكن ليس له قلب المؤمن!

قد يكون له الإيمان النظري العقلي. وليس له الإيمان العملي. أو قد يكون إيمانه إيماناً ظاهرياً. أو إيماناً شكلياً. أو إيماناً بالاسم! وكل هذا ليس مقبولاً أمام اللَّه.

إن الإيمان ليس هو مجرّد عقيدة. إنما هو أيضاً حياة. ويمكن أن تختبر إيمانك بثماره في حياتك. لأنه من الثمرة تُعرف الشجرة.

ليس الإيمان هو أن يُولد الشخص من أسرة مُتديّنة تؤمن باللَّه. فيصير تلقائياً وبالوراثة مؤمناً بوجود اللَّه! إنما الإيمان له معنى أو معاني أعمق من هذا بكثير... نعم له معنى قد يشمل الحياة الروحية كلّها. وله معنى قد يصنع الأعاجيب..

***

الإيمان يرتفع فوق مستوى الحواس:

إنه لا يتعارض مع الحواس. إنما هو مستوى أعلى من مستوى الحواس. وهو قدرة أعلى من قدرة الحواس. التي لها نطاق مُعيّن لا تتعداه. فالحواس المادية تدرك الماديات. غير أن هناك أموراً غير مادية. تخرج عن نطاق الحواس المادية.

وحتى قدرة الحواس بالنسبة إلى الأشياء المادية. هى محدودة أيضاً وكثيراً ما تستعين الحواس بعديد من الأجهزة لمعرفة أشياء مادية أدق من أن تدركها حواسنا الضعيفة. فكم بالحري إذن الأمور غير المادية؟!

***

إن ما يُدرك بالعين المادية. يدخل في نطاق "العيان". وليس الإيمان.

فالروح مثلاً بشرية أو ملائكية. لا تُرى ولا تُدرك بالحواس المادية.

وعدم إدارك الحواس لها. لا يعني عدم وجودها. إنما يعني أن قدرة الحواس محدودة. لها نطاق مُعيّن تعمل فيه لا يصل إلى مستوى الروح.

اللَّه أيضاً لا يُدرَك بالحواس المادية...

لذلك فإنني عجبت من رائد الفضاء الشيوعي. الذي قال إنه صعد إلى السماء ولم يرَ اللّه! وقد ظن في تهكمه أنه يمكن أن يرى اللّه بهذه العين الجسدية التي لا ترى كثيراً من الماديات! كما أن اللّه في كل مكان.. في الأرض وفي السماء وما بينهما. ولا يحدّه مكان. فإن كان رائد الفضاء هذا لم يرَ اللّه على الأرض. فلن يراه أيضاً في السماء ولا في أي موضع آخر. لأن اللّه لا يُرى إلاّ بالإيمان. نراه بالروح.

عدم رؤيتك للّه بعينك المادية. لا يعني أن اللّه غير موجود. إنما تفسير ذلك أن عينك قاصرة. ومهما قويت فإن لها نطاقاً محدوداً تعمل فيه. هو نطاق الماديات..

ولذلك قلنا إن الإيمان أعلى من مستوى الحواس.

***

والإيمان أيضاً مستوى أعلى من العقل:

إن العقل قد يوصلك إلى بداية الطريق أمّا الإيمان فيكمل معك الطريق إلى أقصاه.

الإيمان لا يتعارض مع العقل. ولكنه يتجاوزه إلى مراحل أبعد بما لا يُقاس. لا يستطيع العقل بمفرده أن يصل إليها.

وما لا يدركه العقل نُسمِّيه "غير المُدرَك". ونحن نقول عن اللّه إنه "غير مُدرَك". لأنه أيضاً غير محدود. بينما العقل البشري محدود. ولا يدرك سوى الأمور المحدودة التي تدخل في نطاقه.

العقل يستطيع أن يوصلك إلى مجرد معرفة اللّه وإلى بعض صفاته. أمّا الإيمان فيكشف لك ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تدركه عن اللّه.

***

العقل قد لا يدرك أشياء كثيرة. ولكنه يقبلها

وليس من طبيعته أن يرفض كل ما لا يدركه.

بل حتى في المحيط المادي. في العالم الذي نعيش فيه: توجد مثلاً مخترعات كثيرة لا يدركها إلاّ المُتخصِّصون. ومع ذلك فالعقل العادي يقبلها. ويتعامل معها. دون أن يدرك كيف تعمل. وكيف تحدث.

والموت يقبله العقل. ويتحدث عنه. ومع ذلك فهو لا يدركه تماماً. ولا يعرف كيف يحدث ولا معنى انفصال الروح عن الجسد!

فإن كان العقل يقبل أموراً كثيرة في عالمنا. وهو لا يدركها. فطبيعي لا يوجد ما يمنعه من قبول أمور أخرى فوق مستواه. يحدّثه عنها الإيمان.

***

العقل لا يدرك "المعجزة" كيف تتم. ولكنه يقبلها ويطلبها. ويفرح بها!

وقد سُمِّيت المعجزة معجزة. لأن العقل يعجز عن إدراكها. ويعجز عن تفسيرها. ولكنه يقبلها بالإيمان. إيمانه بوجود قوة غير محدودة أعلى من مستواه. يمكنها أن تعمل ما يعجز العقل عن إدراكه. وهذه القوة هى اللَّه القادر على كل شيء.

إننا نحترم العقل. ولكننا في نفس الوقت ندرك حدود النطاق الذي يعمل فيه. ولا نوافق العقل المغرور الذي يريد أن يعي كل شيء. رافضاً كل ما هو فوق مستوى إدراكه.

***

ينبغي للعقل أن يتضع. ويعرف مستواه. ولا يرتئي فوق ما ينبغي له..

وفي الأمور التي فوق إدراكه. يجب أن يسلّم قيادته للإيمان

أمّا إن أراد العقل أن يحطِّم كل ما لا يدركه. فإنه سيحطِّم نفسه أخيراً ويفقد الإيمان. ويحصر نفسه في دائرة ضيقة جداً. هى دائرة إدراكه للمحدود. بل صدِّقوني إن العقل لا يدرك كيف يعمل العقل!! كيف يفكر؟ وكيف يفهم؟ وكيف يستنتج؟ وكيف يخزن في الذاكرة؟ وكيف يسترجع منها؟ وما هى الذاكرة؟ وما هو العقل الباطن؟ وكيف يعمل؟...

***

إن الذين يعتمدون على العقل وحده. بدون الإيمان ودون الروح. اعتاد البعض أن يسمِّيهم بالعقلانيين.

وبينما العاقل يمكنه أن يصل إلى اللَّه. فإن العقلاني قد لا يصل!

والمؤمنون عاقلون. ويحترمون العقل. ويستخدمونه أيضاً في الأمور الدينية وما يتعلّق باللَّه. ويوجد بين المؤمنين فلاسفة وحكماء وأشخاص على مستوى عالي من الفكر والذكاء. ولكنهم على الرغم من كل هذا. لا يمزجون العقل بالغرور. ولا يثقون بأن العقل يمكنه أن يدرك كل شيء. وإنما في بساطة واتضاع يعترفون بأن عقولهم محدودة القدرة. وقاصرة عن إدراك كل ما يحيط باللَّه غير المدرك.. وبالإيمان تقبل قلوبهم وعقولهم ما هو فوق مستوى العقل.

في مجال الإيمان أيضاً: الثقة بوجود أمور لا تُرى

وهنا يبدو الفرق بين رجال الإيمان. ورجال البحوث العلمية

أصحاب البحوث العلمية. لا تدخل في نطاق عملهم كل تلك الأمور التي لا تُرى. وهم لا يكونون في حالة يقين من شيء. إلاّ إذا فحصوه تماماً بأجهزتهم ومقاييسهم العلمية. وعلى نفس النهج كل أصحاب المذاهب المادية.

المؤمن مثلاً يقبل فكرة الخلق من العدم. وهى عقيدة عنده

أمّا الباحث العلمي. فترفض أبحاثه هذا الأمر. ولا يقبل ذلك إلاّ بالإيمان. إن كان ذلك الباحث مؤمناً.

المؤمن يقبل عقيدة أن اللَّه قادر على كل شيء. ثم في دائرة يقينه من جهة هذه القدرة غير المحدودة. يقبل أموراً كثيرة. ويريح نفسه من شكوك غير المؤمن ومن بحوثه وفحوصه العديدة.

وهو ليس فقط يقبل ما لا يُرى. ويكون موقناً بوجود غير المرئيات. بل أكثر من هذا يعايش ما لا يُرى. ويركز فيه تفكيره.

فما هى تلك الأمور التي لا تُرى؟

***

في مُقدّمة ما لا يُرى بلا شك: اللَّه تبارك اسمه

نحن بكل قلوبنا. وبكل ثقة. نؤمن بوجود اللَّه دون أن نراه.

نؤمن بوجوده في كل مكان. ونؤمن أننا واقفون أمامه في كل موضع. يرانا في كل ما نعمله. ويسمعنا في كل ما نقوله. نصلّي إليه ونسجد أمامه. دون أن نراه. ونثق أيضاً أنه معنا. يرعانا ويحفظنا. ونؤمن أنه كلّي القدرة. وكلّي المعرفة.. كل هذا دون أن نرى.

حقاً. طوبي لمَنْ آمن دون أن يرى.. وما حياتنا الروحية سوى انتقال من نطاق المحسوسات والمرئيات. إلى نطاق ما لا يُرى.

غير المؤمن يريد أن يرى كل شيء بعينيه. وإلاّ فإنه لا يُصدّق.

أمّا المؤمن فإنه لا يجعل من عينيه حكَماً على كل ما يؤمن به. ولا كل حواسه ولا المعلومات الظاهرة. بل أن قلبه يوقن بوجود أمور لا يراها بعينيه.

***

ومن الأمور التي لا تُرى أيضاً. ونوقن بوجودها بالإيمان:

الأرواح عموماً: سواء الروح البشرية. أو الملائكة وهم أرواح

نؤمن بوجود الملائكة. ونعرف أسماء البعض منهم. وقصصهم مع البشر. وربما لا نكون قد رأينا ملاكاً طول حياتنا. ولكنه الإيمان بما لا يُرى.

ونؤمن بأن الإنسان له روح. وحينما يموت. نقول عنه إن روحه قد فارقت جسده. ونحن لم نرَ الروح وهى تفارق الجسد.

كذلك إيماننا يشمل مصير الروح. سواء كانت بارة أو شريرة.

وأيضاً نؤمن بعودة الروح إلى الجسد بالقيامة. ومصير الإنسان القائم من الأموات في الأبدية بعد الحساب والدينونة العامة.

وكل هذه أمور لا تُرى. ولكننا ندركها بالإيمان. وبما كشفه اللّه لنا في الوحي. وأيضاً الوحي من الأمور التي لا يدركها العقل. ولكنه يقبلها. على الرغم من أنها لا تُدرك إلا بالإيمان.

***

العالم الآخر هو أيضاً من الأمور التي لم ترَ بعد

ولكنه يدخل في نطاق الإيمان. كما تدخل فيه كل عبارات: الأبدية. والنعيم. والجحيم. وجهنم. وكلها أمور لا ترى...

حقاً إن العالم الآخر بكل ما فيه. لا يتحدّث عنه أحد إلاّ بالإيمان.

والذي يؤمن بالحياة بعد الموت. إنما يوقن بأمور لا تُرى...

هكذا أيضاً السماء والوعود التي وعد اللّه أبراره وقديسيه. وكذلك الإنذارات والعقوبات التي أنذر بها مخالفيه... كلها أمور لا تُرى..

***

من الأمور التي لا ترى أيضاً: النعمة والبركة:

نحن لا نرى هذه النعمة بعيوننا الجسدية. فهى من الأمور التي لا تُرى. ولكننا نلمسها في حياتنا. ونحن نتقبّل النعمة من اللّه بالشكر. على الرغم من أنها فوق إدراك حواسنا. لكننا نتمتع بنتائجها.

وقد تأتينا زيارات من النعمة تشعلنا بمحبة اللّه. لا نراها ولكن نحسّها..

كذلك البركة هى من الأمور التي لا تُرى. نؤمن بها. ونسعى إلى طلبها ونوالها. سواء كانت من اللّه مباشرة. أو من الوالدين. أو من دعاء طيب يصل إلينا من قلب بار.

ما هو مفهوم البركة. هذه التي نؤمن بها؟ نحن لا نستطيع وضع معنى محدد للبركة. فهى أوسع بكثير من الألفاظ المحدّدة. هى أمر نرى ثماره في حياتنا. ونقبل هذه الثمار بالإيمان. أمّا البركة ذاتها. فمَنْ يستطيع أن يراها أو يشخصها؟!

***

أخيراً. أُحبّ أن أقول ان الإيمان قوة:

إنه القوة التي وقفت ضد عبادة الأصنام. ضد الوثنية. وضد الالحاد. وهو القوة التي كانت في قلوب الشهداء. وشجعتهم على احتمال كل ألوان التعذيب والتهديد من أقسى الحكام الطغاة...

والإيمان قوة يمكن أن تصنع المعجزات بمشيئة اللّه...

والإيمان أيضاً قوة في احتمال التجارب التي يستطيع المؤمن أن يحتملها. بينما لا يقوى على ذلك غير المؤمن.

بل الإيمان قوة يمكن أن تنتقل من شخص إلى آخر.

إن الإيمان - أيّاً كان نوعه - فهو قوة. يكفي أن يؤمن الإنسان بفكرة ما. حتى تراه يعمل بكل قوة لكي ينفّذها. إذ يعطيه الإيمان بها عزيمة وإرادة وجرأة ما كانت عنده من قبل...

حقاً. حيثما يوجد الإيمان. توجد معه القوة. فالصلاة المملوءة إيماناً هى الصلاة القوية التي تستطيع أن تفتح أبواب السماء. وتنال ما تريد. والعظة التي يقولها شخص. وهو مؤمن بكل كلمة فيها. تكون عظة قوية تؤثر في الناس. إذ ينتقل بها إيمانه إلى قلوب سامعيه.

٢٠٠٣/٩/٣٠

الإيمان العملي

الإيمان العملي هو الإيمان الذي تظهر علاماته ونتائجه في الحياة العملية. فتدلّ عليه. تدلّ على أن الإنسان مؤمن تماماً بوجود اللّه. يراه في كل ما يفعل. فيتصرّف طبقاً لهذا الإيمان.. وبهذا يقوده الإيمان إلى عديد من الفضائل. من الصعب إحصاؤها.

من صفات المؤمن أن يكون قلبه مملوءاً بالسلام والهدوء..

لا يضطرب مُطلَقاً، ولا يقلق، ولا يخاف، لأنه يؤمن بحماية اللّه له. وهو يحتفظ بسلامه الداخلي، مهما كانت الظروف الخارجية تبدو مُزعجة!... إنه لا يستمد سلامه من تحسّن الظروف المحيطة به. إنما يستمد سلامه من إيمانه بعمل اللّه الحافظ والمعين.

فالذي يخاف هو الشخص الذي يشعر أنه واقف وحده. أمّا الذي يؤمن بقوة اللّه الحافظة. فإنه لا يخاف.

***

حتى إن كان الموت يُهدِّد حياة المؤمن. فإنه لا يخاف!

إنه يؤمن بحفظ اللّه، إن أراد له حياة على الأرض..

كذلك يؤمن بالأبدية السعيدة، إن شاء اللّه له أن يفارق هذا العالم وفي الحالتيْن كلتيهما، الأمر يدعو إلى الفرح، وليس إلى مجرّد السلام.

الإنسان المؤمن هو الذي يستطيع أن ينام في رعاية اللّه مُستريحاً...

إنه يُسلِّم حياته وكل مشاكله للرب الإله. ويقول له: ما دمت يارب قد تسلّمت هذه الموضوعات، فسوف لا أشغل نفسي بها. أنها قد انتهت بالنسبة إليّ، وانتقلت إلى يديك أنت. وأنا واثق أنك ستصنع كل خير. لأني - بالإيمان - مُطمئن إلى عملك...

***

وهكذا فإن الإيمان يقود إلى حياة التسليم،

تسليم الحياة بكل تفاصيلها وأيضاً بكل متاعبها إلى اللّه تبارك اسمه.

وحياة التسليم تقود إلى حياة الاطمئنان والرضى..

المؤمن ينتصر على الصعوبات ولا يخافها. إذ يشعر أن اللّه سوف يزيل من أمامه كل ضيقة تصادفه، ولا يتركه وحيداً فيها.

أمّا غير المؤمن: فربما الصعوبات تصيبه بالتردُّد والخوف. وبعدم الايمان قد يجبن. بل إن عدم الايمان قد يصوّر له صعاباً ومخاوف لا وجود لها! فيتبعه الوهم ويقلقه. ويفقده اطمئنانه...

***

ومن نتائج الإيمان أيضاً أنه يُعطي القلب قوة

وكما أن الإيمان باللّه، يعطي الإنسان سلاماً واطمئناناً فلا يخاف... كذلك حتى الإيمان بالعلم يصنع الأعاجيب.. مثال ذلك إيمان رواد الفضاء بما قيل لهم عن منطقة انعدام الوزن في الحق، وكيف أن الإنسان فيها يمكنه أن يمشي في الجو دون أن يسقط! مَن مِن الناس يجرؤ أن يمشي دون أن يخاف؟! أمّا الذي جعل رواد الفضاء ينفذون ذلك، فهو إيمانهم الأكيد بصحة ما توصلت إليه بحوث العلماء الإيمان إذن يُعطي قوة وشجاعة. فكم بالأكثر الإيمان باللّه.

بل إن كل من آمن بفكرة. يعطيه الإيمان بها قوة لتنفيذها:

وهكذا كان المصلحون في كل زمان ومكان: متى آمنوا بفكرة، يجاهدون بكل قوة لتنفيذها. وبسبب إيمانهم احتملوا الكثير، حتى أكملوا عملهم...

غاندي مثلاً، آمن بحق الإنسان في الحرية، وآمن بسياسة عدم العنف. فأعطاه هذا الإيمان قوة عجيبة استطاع بها أن يُحرِّر الهند، وأن يُعطي الحقوق السياسية للمنبوذين في مساواة مع باقي مواطنيهم... واستطاع أن يحتمل الكثير، حتى أقنع أتباعه أيضاً بعدم مُلاقاة العنف بالعنف.. فإيمانه بالفكرة أعطاه - ليس فقط القوة على تنفيذها - بل القوة على نشرها واقناع الغير بها...

***

إن الفرق بين أشجع الناس وأخوف الناس، هو الإيمان

الشخص الجريء هو الذي لديه إيمان بأنه لن يحدث له ضرر ما... وهو المؤمن بلزوم العمل وضرورته مهما كلّفه ذلك، ومهما حدث... أو هو المؤمن بصفة الشجاعة وحقارة الجبن. أمّا الخائف فهو غير هذا كله.

أيضاً الإيمان بالأبدية والعالم الآخر، يمنح الإنسان سلاماً واطمئناناً.

إذ يوقن أنه لا بد أنه سينال حقّه: إن لم يكن على الأرض، ففي السماء. ولن يكون مظلوماً هنا وهناك! كذلك فإنه سينال سعادته كاملة: ما لم يتحقّق منها ههنا، فسوف يتحقّق بكل تأكيد في النعيم الأبدي...

وبهذا الإيمان يعيش مرتاحاً، لا يتضجر ولا يتذمّر ولا ييتئس...

***

الإنسان المؤمن يعيش في نقاوة القلب، وفي نقاوة التصرُّف

طبيعي أن كل شخص يخجل أن يُخطئ أمام إنسان بار يحترمه، وقد يكون في حضرته في منتهى الحرص، يستحي أن يرتكب أمامه شيئاً مشيناً. إذ لا يحب أن ذلك الشخص البار يأخذ عنه فكرة سيئة أو يسقطه من نظره... بل أن الإنسان قد يحترس أيضاً من الخطأ أمام أحد مرؤوسيه أو خدمه، لئلاّ يحتقرونه في داخلهم، أو يقل احترامهم له.

لذلك فغالبية الخطايا تُعمل في الخفاء، إمّا بسبب الاستحياء أو الخوف. وهكذا قيل عن الخطاة أنهم "أحبّوا الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة". وقيل أنهم يظهرون بغير حقيقتهم.

***

فإن كان أي شخص يخجل أو يخاف من إنسان مثله يراه، فكم بالأولى يكون خوفه من اللّه الذي يراه في أي مكان؟!

فإن أنت يا أخي آمنت تماماً بأن اللّه موجود في كل مكان أنت فيه: يراك ويسمعك ويرقبك، فلا شك سوف تستحي أو تخاف من أن ترتكب أي خطأ أمامه... لو وضعت هذه الحقيقة أمام عينيك، لا بد أنك ستخجل وتخاف، وتمتنع عن الخطيئة أيّاً كانت، لأن خوف اللّه سيكون أمام عينيك باستمرار في كل مرة تحاول فيها أن تخطئ.. وإن كنت تؤمن أن اللّه قدوس، ستخشى أن تظهر أمام قداسته غير المحدودة نجاسة أية خطيئة ترتكبها..

***

كذلك إن كنت تؤمن أن اللّه فاحص القلوب وقارئ الأفكار:

وإنه - بالإضافة إلى علمه الإلهي بكل أعمالك - فإنه يعلم أيضاً كل ما يخطر على فكرك وقلبك من مشاعر وخطط وتدابير، وما في نيتك أيضاً أن تعمله، حينئذ كنت تخاف

من معرفة اللّه لدواخلك، وتخجل من قدسيته، وتبتعد عن كل فكر أو شعور خاطئ. وعن كل نيّة غير طاهرة.

ولعلّك تقول: "أنا أؤمن بكل هذا. أؤمن أن اللّه موجود في كل مكان. وأنه يرى ويسمع كل شيء. وأنه يفحص القلوب ويقرأ الأفكار.. ومع ذلك لا أزال في أخطائي".. أُجيبك على هذا بعبارة: **ربما تؤمن بكل هذا نظرياً ولكنك لا تحيا عملياً حياة تليق بإيمانك**

***

أيضاً المؤمن يشعر بالاستحياء من الملائكة وأرواح الأبرار

يخجل من الملائكة الذين حولنا، ويرون ما نفعله، ويسمعون ما نقول... وإن رأوا منظراً بشعاً منا، يستحون منه ويفارقوننا، فتبغتنا حينئذ أرواح الشياطين وتشجِّعنا على ما نحن فيه من إثم.

بل إن المؤمن يخجل أيضاً أثناء خطيئته من أرواح القديسين الذين يرونه، ومن أرواح أقربائه وأصدقائه ومعارفه الذين انتقلوا من هذا العالم، وبخاصة الذين كانوا يثقون بصلاحه وفضله..!

بل يخجل أيضاً من أرواح أعدائه ومقاوميه، لئلاً يكون في موضع شماتة منهم..! ولكل هذه الأمور يبعد عن الخطيئة.

***

ولكن لعلّ الإنسان - في حالة ارتكاب الخطيئة - يكون في حالة نسيان لكل هذا: لا يكون في فكره اللّه، ولا ملائكته، ولا أرواح قديسيه!!

أو أن الشهوة تجعله في حالة غفوة فما هو يشعر بما هو فيه وكأنه في غيبوبة عن حياة الإيمان العملي بكل تفاصيلها..! يحتاج إلى يقظة روحية، إلى من يوقظه ويقول له: تذكّر أنك مؤمن، وأنك تفعل ما لا يليق بالمؤمنين تذكّر أوامر اللّه ووصاياه، وإنذاراته لكل من يعصاه. وإن كنت تدّعي أنك مؤمن باللّه وتؤمن بملكوته ووصاياه فلا شك أن لك إيمانا نظرياً، ولكنك لا تحياه! لك اسم المؤمن، وليست لك حياة المؤمن!

كذلك إن كنت تؤمن بالأبدية، ضع الأبدية أمامك لكي لا تخطئ

نعم، يخاف من الخطيئة، من يؤمن بأن الموت قد يأتي في أي وقت ومن يؤمن أن اللّه عادل، وأنه سيُجازي كل واحد حسب أعماله نعم، يخاف من يؤمن بالحياة بعد الموت،

وبالوقوف أمام اللّه في ذلك اليوم الرهيب الذي تُكشف فيه الأعمال والأفكار والنيات، أمام الكل في يوم الدينونة الرهيب..

من يؤمن بكل هذا إيمانا عملياً، ويضعه أمام عينيه لا ينساه، من الصعب عليه أن يُخطئ بل يجد رادعاً داخله يثنيه، خوفاً وخجلاً وتجده يستعد لملاقاة الرب في أي وقت..

إن الإيمان العملي بالأبدية يمنح الإنسان يقظة في ضميره فيكون له باستمرار ضمير حي، يحكم على كل عمل، ليس فقط من جهة نجاحه أو فشله، أو من جهة نتائجه في حياته الحالية.. بل بالأكثر من جهة مصيره الأبدي فكل عمل يعمله سيقدِّم عنه حساباً في يوم الدين.

***

أيضاً الإيمان بوجود اللّه أمامنا، يمنح القلب اتضاعاً

فلا يمشي في خيلاء وعجب، ولا يجلس في غطرسة وكبرياء، لأنه شاعر أنه واقف أمام اللّه.. ولا ينظر إلى أحد من فوق، لأنه يؤمن أنه مثل الكل: مخلوق من تراب الأرض، وإلى التراب سوف يعود..

وفي حضرة اللّه يشعر كل إنسان بخشوع. وبقدر إحساسه بوجود اللّه، على هذا القدر يكون خشوعه. وهكذا في الصلاة يقف حيناً، ويركع حيناً، ويسجد حيناً.. أمام عظمة اللّه غير المحدودة.

والإحساس الدائم بوجود اللّه حتى في غير أوقات الصلاة يجعل الإنسان في اتضاع دائم، بعيداً عن روح العظمة. لأن العظمة للّه وحده. وبالتالي فإن تعاظم الإنسان هو عمل ضد الإيمان.

****

المؤمن - مهما بدت كل الأبواب مُغلقة - يرى باب اللّه مفتوحاً

إنه يؤمن باللّه الذي في يده مفاتيح السموات والأرض، الذي يفتح ولا أحد يُغلق. لذلك فالمؤمن لا يعرف اليأس إطلاقاً، بل له الرجاء في اللّه القادر على كل شيء، القادر أن يفتح كل باب مغلق.

وإن كان اليأس ضد الإيمان وضد الرجاء وضد الاتكال على اللّه، فلا شكّ أن المنتحرين فقدوا إيمانهم ورجاءهم، وشعروا إنه لا حَلّ. كما فقدوا الإيمان بحقيقة الحياة بعد الموت، التي يدخلها المنتحر وهو قاتل نفس!

***

هناك أيضاً بعض اختبارات للإيمان العملي:

منها فضيلة العطاء، ونصيب اللّه في ما يملكه الإنسان:

وبخاصة لو كان هذا المؤمن محتاجاً، أو مطلوباً منه أن يُعطي من أعوازه. ضعيف الإيمان يقول "إن كان المرتب كله، أو الإيراد كله، لا يكفي، فكيف يكون الحال إن خصمت منه جزءاً أعطيه للّه؟!".

أمّا المؤمن العملي فيقول: إن ما أعطيه للّه من مالي، سيبارك الباقي كله، فيجعله يكفي ويزيد. المهم في البركة وليس في الكمية وما أعطيه إنما أقول للّه عنه: منك الكل ومن يدك أعطيناك..

من اختبارات الإيمان العملي أيضاً: مدى محبة الإنسان للصلاة

فهل تنسى الصلاة، وتمرّ عليك أوقات لا تصلّي فيها؟ أو هل تشعر أنك تخسر وقتاً تقدّمه للصلاة، وأنت في حاجة إليه لأمور أهم؟!

وهل إذا وقفت للصلاة، تفكّر كيف تنتهي منها لكي تنشغل بواجبات أخرى؟ وهل أثناء صلاتك، يسرح فكرك في أشياء غير الصلاة؟ وتنسى أنك واقف أمام اللّه تخاطبه! إن كنت كذلك، فلا يكون إيمانك باللّه قويّاً.. وما نقوله عن الصلاة، نقوله عن باقي أمور العمل الروحي.

****

تختبر إيمانك العملي أيضاً بما يمرّ عليك أحياناً من الشك

إمّا الشك في الإيمان، أو الشك في استجابة الصلاة أو في الصلاة عموماً، إذا ما طلبت من اللّه طلباً ولم يعطك إياه، أو تأخر اللّه عنك! فتحاربك الشكوك في عناية اللّه بك، ويضعف إيمانك!

إن الإيمان القوي لا يعرف الشكّ، مهما كانت الأسباب.

٧/١٠/٢٠٠٣

التشجيع والتقدير

ما أنبل القلب القوي. الذي لا يحتقر شخصاً ضعيفاً ولا يستصغره. ولا يسقطه من نظره. بل يأخذ بيده ويُشجّعه ويقوّيه..

شاعراً بأن الطبيعة البشرية مُعرّضة للضعف. وكثيراً ما تضغط الظروف الخارجية. فلا تقوى عليها النفس فتضعف.

إن في احتقار الضعيف لوناً من كبرياء الذات. إذ تشعر بقوتها وتقارن غيرها بما لديها من قوة فتحتقره. وفي احتقارها له تثبيط لهمته بالأكثر. وإحباط لنفسيته. وإذلال له.

بينما هذا الضعيف هو أخ لنا في البشرية. من الواجب علينا أن نحنو عليه. وأن ننقذه من ضعفه على قدر ما نستطيع. حتى يقوى. فهذا هو النبل المطلوب منّا.. واضعين في ضمائرنا أن نفسية الضعيف أمانة في أعناقنا يجب أن نتعهّدها بالرعاية والعناية.

****

ولكن من هُم المحتاجون إلى التشجيع منا؟

* إنهم كثيرون: لعلّ في مقدمتهم **الأطفال** والصغار بصفة عامة. الذين لم ينضجوا بعد. وكلمة التشجيع تدفعهم إلى قدام. وتقوّي عامل الخير فيهم. وتشعرهم أنهم يستطيعون أن يفعلوا شيئاً. كما أنهم يحبون الذي يشجّعهم أكثر من الذي يوبّخهم على أخطائهم وينتهرهم.

* ومع الصغار أضع **الناشئين** أيضاً. وكمثال لذلك نذكر بينهم الناشئين في الفرق الرياضية "كالفريق الثاني". فإن تشجيعهم يُحفّزهم على مزيد من العمل الجاد يرفعهم بالوقت إلى صف الفريق الأول.

* كما أن تشجيع **الطالب في الدراسة** يمنحه دفعة قوية لمداومة الاجتهاد. حتى يصل إلى التفوق والامتياز. وقد يكون من مظاهر تشجيعه أن يمنح مكافأة. أو يكتب اسمه في قائمة الشرف. أو يُعلن عن تفوّقه.. بل إن مجرد كلمة تقدير من أستاذه تترك في نفسه أثراً عميقاً.

****

التشجيع نافع أيضاً بالنسبة إلى الفنانين والمُبدعين

فكثيراً ما يبذل البعض كل جهدهم. ولا يُقابلون بمجرد كلمة تقدير! ممّا يثبطهم.. إن الفنان مهما كبر واشتهر يحتاج إلى عبارات من الاطراء تشجّعه على مزيد من الإنتاج وسموّ فيه.

ونذكر هنا ما تقدِّمه الدولة من جوائز تقديرية وجوائز تشجيعية في كافة نواحي العلوم والفنون والآداب في كل عام.. وتقدِّم كل ذلك لجهابذة من الممتازين. ومع أنهم كبار ولهم مراكزهم. إلاّ أن التشجيع لازم لهم يشعرهم بأن الدولة لم تنسَ ما بذلوه من جهد وما وصلوا إليه من مستوى رفيع. كما أن هذا يُشجِّع غيرهم أيضاً حتى يصلوا هم كذلك إلى ما وصل إليه أولئك الكبار.

إن عبارة "الكاتب المثالي" أو "صاحب أشهر كتاب" أو "الصحفي المثالي". وسائر هذه الألقاب. هى تقدير لأصحابها وتشجيع على المزيد.

***

لا ننسى أيضاً الإعلان عن الأمهات المثاليات

سواء على مستوى القطر أو المحافظات أو غير ذلك.. إنه تقدير للأم بصفة عامة. ولشخصيات مُعيّنة باذلة. وتشجيع لهن على ما قد قُمن به من جهد في تربية أولادهن.

يُضاف إلى هذا ما تقيمه الدولة كل عام من عيد للأم. حيث تبدي تقديراً للأمهات بصفة عامة. بحيث تشعر كل أم في محيط أسرتها بأن عملها كأم هو موضع اهتمام وإعجاب. ومجال تُقدم فيه أيضاً هدايا تذكارية. وعبارات الحب والعرفان بالجميل.

وأحياناً يشركون الأب أيضاً في هذا التقدير. ويسمّون ذلك اليوم "عيد الأسرة". لكي يحتفل فيه الأطفال بوالديهم.

****

هناك أيضاً نوع من التشجيع المادي أو المالي

أهم مظهر له الترقية والعلاوة والمكافأة المالية

ويأتي هذا الأمر بطريقة دورية. كعلاوة سنوية تمنح للموظف. أو ترقية لِمَنْ تمر عليه سنوات مُعيّنة في وظيفته. كمَنْ يرقى مثلاً من مُدير إدارة إلى مدير عام. وهيئات تمنح نسبة مُعيّنة من الربح.

وقد يكون التشجيع بأجر إضافي Overtime يُعطى للموظف أو العامل عن ساعات قضاها في العمل أزيد من الحد المُعيّن.

كما أن هناك ما يُسمّى بالترقية الاستثنائية تقديراً لعمل مُميّز وهناك أيضاً مكافآت مالية. تمنح في بعض المناسبات. أو اعترافاً بجهد خاص. كل هذه الألوان من التقدير أو التشجيع. ترفع من نفسية العامل أو الموظف. وتشعره أن الإدارة لا تغفل من يحسن عملاً..

وفي مجال الخدم يوجد نوع من التشجيع أو المكافأة بالاصطلاح المعروف بإسم "البقشيش". ومع أنه اختياري لكنه لازم لاستمرار العمل.

***

من مظاهر التشجيع والتقدير أيضاً الألقاب والأوسمة والنياشين:

في عهد الملكية كانت توجد مثلاً ألقاب مثل "بك"، "باشا". ومع أنها قد أُلغيت. إلاّ أنها تستعمل في التعامل بطريقة غير رسمية.

كذلك كانت توجد للوزراء وكبار الرسميين ألقاب أخرى مثل صاحب المعالي. وصاحب الدولة. وصاحب الرفعة. وصاحب العزة. وصاحب السعادة. وكلها ألوان من التقدير لأصحابها.

والأوسمة والنياشين لا تزال موجودة يمنحها رئيس الدولة لبعض الأشخاص تقديراً لهم. وقد يمنحها رئيس دولة لرئيس دولة أخرى في زيارة له. كما توجد ألقاب علمية شرفية تمنحها بعض الجامعات.. وفي بعض المدن في بلاد الغرب يمنح عمدة المدينة شهادة تقدير لأحد الأشخاص. أو عضوية مواطنة شرفية له Honorary Citizenship.

****

ومن نواحي التقدير أيضاً منح الدروع. والكؤوس:

كأن يمنح شخص درع محافظة مُعينة. أو درع أحد الجيوش. أو درع نقابة مهنية. أو درع إحدى الكليات أو إحدى الجامعات.

كلها ألوان من التقدير. ونفس الوضع في الرياضة أو المسابقات. إذ يحصل الفريق الفائز على كأس اعترافاً بفوزه وتقديراً لمهارته.

وقد يمنح نجمة خاصة.. يأخذها اللاعب اعترافاً بنجوميته.

****

كل ما ذكرناه هو تشجيع للكبار والفائزين. يبقى الجانب الآخر وهو:

تشجيع الضعفاء بكافة أنواعهم:

وهذا عمل إنساني واجتماعي. وهو أيضاً عمل محبّة وإشفاق.

وفي هذا المجال. هناك مجموعة من الضعفاء سنتحدث عن تشجيعهم طائفة بطائفة. وهناك أشخاص ليسوا ضعفاء بطبيعتهم. ولكن تمر عليهم أوقات ضعف طارئة يحتاجون فيها أيضاً إلى تشجيع.

مثال ذلك الحزانى: كأب فقد ابنه. أو امرأة فقدت زوجها. وفي مثل هذه الحالة يحتاج كل منهم إلى كلمة عزاء تخفّف من حزنهم. وتشجعهم على احتمال ما قد أصابهم بوفاة عزيز عليهم.

****

تشجيع صغار النفوس

وصغار النفوس هم الذين انهارت معنوياتهم من الداخل. وصارت نفوسهم صغيرة في أعينهم. فأحسوا بالعجز. وقاربوا اليأس.

هؤلاء يحتاجون إلى تشجيع. وإلى من يمسك بأيديهم ويقيمهم من الانهيار لئلاّ يفشلوا ويضيعوا. يحتاجون إلى من ينقذهم من روح الكآبة المسيطرة عليهم ومن شعورهم أن كل شيء قد انتهى. ولا فائدة!!

بعض هؤلاء قد يحتاجون إلى الطبيب النفساني. أو إلى المُرشد الروحي أو المرشد الاجتماعي. أو إلى قلب مُحب شفوق يعطيهم من حنانه وعطفه ما يرفع من نفسياتهم ويزيل حزنهم ويأسهم.

****

لعلّ من هذا النوع من تضغط عليه المشاكل والأحزان. فيلجأ إلى الانتحار

وحتى هذا أيضاً يمكن تشجيعه وإنقاذه. واقناعه بأن الانتحار لن يحل له مشكلة. وأن حياته عزيزة لا يصح أن يفقدها. كما يمكن مناقشة الأسباب التي تدعوه إلى الانتحار. وكيف يمكن النجاة منها.

عموماً كل أصحاب المشاكل الصعبة يحتاجون إلى تشجيع..

يحتاجون لأن يعرفوا أن كل مشكلة لها حل أو حلول. وأن اللّٰه قادر أن يتدخل ويحلها. وربما الأمر يحتاج إلى شيء من الصبر. وبالوقت تنحل. ومع مناقشة المشكلة. يمكن الوصول إلى منافذ للخروج منها.

إن التشجيع معناه منح الشخص شجاعة لمواجهة الموقف.. والوقوف معه في مشاكله قلباً وفكراً. وإشعاره أنه ليس وحده. وإنما هناك من يسنده ويساعده ويشاركه في شعوره.

***

نقطة أخرى هى تشجيع الساقطين على القيام من سقطتهم

هناك من يشعر أن سقطته لا قيام منها. وأن الخطيئة قد أصبحت تجري في دمه وتسيطر على كل إرادته وفكره ومشاعره. كما أنه لا نجاة من نتائجها. مثل هذا الساقط يحتاج إلى تشجيع بأن التوبة مُمكنة جداً. وإن كثيرين كانوا في أسوأ حالة منه وقد تابوا. وأن نعمة اللّٰه قادرة أن تخلِّصه. فاللّٰه يريد له التوبة. ويساعده عليها. ويقيلها منه. ويغفر له كل ما فعله. وعلى من يشجِّعه أن يسهل له طريق التوبة بأساليب عملية تُنجّيه ممّا هو فيه.

ويدخل في هذا النطاق أيضاً من يقعون في الإدمان:

هؤلاء لا ينفعهم التوبيخ أو العقوبة. إنما ينفعهم تشجيعهم على التخلُّص من إدمانهم. مع إقناعهم بأن هناك طرقاً للتخلُّص من الإدمان. والمهم فقط أن يستجيب المُدمن. ويبدأ علاجه.

***

في مجال التشجيع أيضاً: تشجيع المريض

وبخاصة في الأمراض التي تبدو مُستعصية. وأصحاب العاهات

من المهم جداً رفع معنويات المريض. فحالته النفسية لازمة جداً في علاجه. وإذا أدركه اليأس من الشفاء. تهبط مقاومته. وتنهار صحته مع انهيار نفسيته. لذلك فالتشجيع لازم له جداً.

وهذا التشجيع يأتي من الأطباء. ومن الأقارب والزائرين.

فابتسامة الطبيب. وكلماته المُطمئنة. لها مفعول يُقارب مفعول الدواء والعلاج. وعلى الأقل لا يزيد المرض ثقلاً.. وكذلك أيضاً ما يسمعه المريض من كلمات زائريه. وبخاصة رجال الدين منهم.

إن من أخطر الأمور بالنسبة إلى المريض. أن يزوره بعض أقربائه وأحبائه. وينظروا إليه في أسى. أو يبكوا محبة له وإشفاقاً عليه..!

****

من المحتاجين أيضاً إلى التشجيع. الطبقات التي تبدو محتقرة في المجتمع

نذكر كمثال لذلك أنه كانت توجد في الهند في أيام زعيمها الروحي المهاتما غاندي طائفة تُسمّى "المنبوذين" Outcasts. وكان ظل الواحد منهم يُعتبر كأنه ينجّس أي هندوسي!! فكان من الزعيم غاندي تشجيعاً لأولئك المنبوذين وإشفاقاً عليهم. أنه جعل مسكنه في وسطهم. كما أنه طالب بأن يكون منهم أعضاء في البرلمان. وصام من أجلهم حتى بدأ دمه يتحلّل. وأخيراً أُستجيب طلبه.

ومع أنه لا توجد حالياً أمثال جماعة المنبوذين في الهند. إلاّ أنه توجد جماعات لا تنال الاحترام الكافي من المجتمع.. حالياً يحتاجون إلى تشجيع على احتمال وضعهم. بأن يحترس الناس في عباراتهم الموجهة إليهم. على الأقل لا تكون جارحة لشعورهم. بل على العكس تحمل معاني التقدير والشكر.

***

أمثلة أخرى تحتاج إلى تشجيع..

منها الطلبة الذين فشلوا في امتحاناتهم. يحتاجون إلى التشجيع بأن أمامهم فُرصاً أخرى للنجاح. وكذلك أصحاب الأعمال الذين فشلوا في مشروع مُعيّن. هؤلاء أيضاً قد يُصادفهم النجاح في مشروعات أخرى.

كذلك الفقراء والمديونون. يحتاجون هم أيضاً إلى تشجيع. ليس بمجرّد الكلام. إنما بتعضيدهم اقتصادياً ليجتازوا أزمتهم.

أيضاً الذين فشلوا في حياتهم الاجتماعية أو حياتهم الزوجية. يحتاجون كذلك إلى تشجيع لكي تستمر حياتهم بنفسية سليمة على الرغم من ظروفهم.

ممّن يحتاج أيضاً إلى تشجيع: الغريب والضيف. وكل عائلات المسجونين وفاقدي عائل الأسرة. على أن يكون التشجيع عملياً. وليس مجرد كلام.

١٤/١٠/٢٠٠٣

الحكمة

الحكمة لازمة لكل إنسان. ولازمة في كل وقت. ولكل شيء..

وذلك لكي يعرف كل شخص كيف يتصرّف حسناً. وكيف يتعامل مع غيره من الناس.. الحكمة تعلمه كيف يتلافى الخطأ والخطر. وكيف يكون بلا لوم أمام الناس. بل موضع ثقة واحترام منهم.

والحكمة تدخل في كل فضيلة من الفضائل...

بحيث أن الفضيلة التي لا تُمارس بحكمة. قد تأتي بنتيجة عكسية أو ضارة.

فالتواضع فضيلة جميلة. ولكن إذا سلك الإنسان فيه بغير حكمة. قد يصل إلى ضياع شخصيته وكرامته واحترام الناس له. والعطاء أيضاً والإحسان إلى الغير من أحسن الفضائل. ولكن إذا سلك شخص فيه بغير حكمة. قد يقع فريسة للمحتالين فيعطيهم بدلاً من أن يعطي المحتاجين.

وهكذا كل فضيلة تحتاج إلى حكمة في ممارستها.

***

الحكمة تشمل العقل. كما تشمل الإرادة أيضاً...

فهى تشمل الذكاء. والفَهْم والتمييز. وتشمل كذلك حسن التصرف..

هى تشمل الهدف المطلوب. وكذلك الطريقة التي توصل إليه.

وليست كل وسيلة توصلك إلى هدفك هى وسيلة سليمة. فالحكمة النقية هى التي تختار وسائل يوافق عليها الضمير. أمّا حكمة الأشرار. ففيها المكر والخبث والدهاء. وربما من وسائلها الكذب والخداع. ولها كثير من السبل والطرق يُدبرِّها الشيطان. ومن العجيب أن تلك الطرق الخبيثة قد توصّل بسرعة. ويقدِم عليها كثيرون. ولكنها غير مقبولة أمام اللَّه..

***

والحكمة لازمة للتمييز بين ما ينبغي عمله. وما لا يصح. وبين ما يجب وما يجوز..

وفي الواقع أن الأعمال تنقسم إلى أربعة أقسام: عمل هو خير واضح. وعمل هو شر واضح. وكل منهما لا يحتاج إلى تمييز.

أمّا النوع الثالث. فهو الذي يحتار أمامه الفكر: أهو خطأ أم صواب؟ أو يحتار أمام نتيجته أو وسيلته! وهو في الواقع يحتاج إلى حكمة وإفراز. أو على الأقل يحتاج إلى مشورة صالحة. وإلى كلمة منفعة تنير الطريق أمامه. وهنا تبدو فائدة المُرشدين والحكماء.

والنوع الرابع الذي يحتاج إلى حكمة. فهو التفضيل بين طريقين. لا يدري الضمير أيهما أصلح. فقد يكون كل منهما خيراً في ذاته. ولكن أيهما أكثر خيراً. أو أكثر مناسبة لهذا الشخص بالذات؟ أيهما أفضل له هو؟ ينفعه ويناسب طبيعته.

كل هذه الأمور تحتاج إلى حكمة. وإلى تباطؤ وفحص..

****

هناك مجال آخر يحتاج إلى حكمة. وهو طريقة الوصول إلى فضيلة مُعيّنة. أو طريقة التدرّج إليها..

فالفضائل واضحة مشروحة في الكتب الروحية. ولكن ما هى نقطة البدء؟ وما هو الأسلوب الأمثل لاكتسابها؟ والبعض قد يندفع إليها بسرعة ربما تأتي بنتيجة عكسية. أو تأتي بنكسة روحية! والبعض قد يسلك ببطء. ربما يؤدِّي إلى فتور أو كسل أو تراخ!

والعقل قد يقف حائراً بين حرارة السرعة وتباطؤ التدرُّج. ويحتاج إلى حكمة كيف يسلك؟

****

تلزم الحكمة أيضاً في أمور مُعيّنة تبدو حساسة أو مصيرية:

فقد يتصرّف الإنسان بجهل تصرّفاً يندم عليه كل أيام حياته. وربما يرتكب غلطة تكون غلطة العمر كله. ويأسف عليها ولا ينفعه الأسف والأسى!

وكأن الأمر يحتاج إلى حرص. أو إلى حكمة. أو إلى مشورة..

وأحياناً يتحمّس الإنسان لتصرُّف مُعيّن. حماساً يملك عليه كل عواطفه. ولا يكون هذا الحماس في صالحه. وقد يندم عليه! وقد يقول بعد فوات الفرصة: ليتني ما فعلت! ليتني استشرت! وربما كان الأمر يحتاج إلى حكمة في النظر إليه من زوايا أخرى. أو التفكير في نتائج مُعيّنة..!

لذلك فالمشورة تقدّم وجهات النظر الأخرى. أو تنبّه إلى رؤية من زوايا غير واضحة. أو التبصرة بنتائج لم يعمل لها حساب..

***

بعض الناس عندهم سياسة وكياسة ودبلوماسية. يظنونها حكمة! والبعض عندهم دهاء أو ذكاء يظنونه أيضاً حكمة! وربما يكون هذا كله بعيداً عن الحكمة الحقيقية..

ومن هنا نود أن نميز بين الذكاء والحكمة:

الحكمة لها معنى أوسع بكثير من الذكاء. وقد يكون الذكاء مُجرّد جزء منها.. الذكاء هو مجرد نشاط عقلي عماده الفكر. أمّا الحكمة فهى تتبع التفكير السليم بالتصرف الحسن.

والحكمة لا تعتمد على العقل وحده. إنما تستفيد أيضاً من الخبرة. ومن المشورة. ومن الارشاد الإلهي .. والحكمة ليست مجرد المعرفة السليمة. أو مجرد الفكر الصائب! إنما هى تدخل في صميم الحياة العملية. لتعبر عن وجودها بسلوك حسن. فهى ليست مجرّد معلومات نظرية أو عقلية..

****

حقاً إن الفكر السليم أو الذكاء. يجوز اختباراً دقيقاً عند التطبيق العملي. فإن نجح يتحوّل إلى حكمة..

وقد يكون الإنسان ذكياً ويُفكِّر أفكاراً سليمة. ولكن تنقصه الدّقة في التعبير. لنقص معلوماته عن مدلول كل لفظ في دقة. فيُخطئ في التعبير..

أمّا الإنسان الحكيم. فإنه يقول ما يقصده. ويقصد ما يقوله.

وهكذا تشمل الحكمة جودة التفكير. ودقّة التعبير. وسلامة التدبير.

وهنا نقول: إن كل حكيم ذكي. ولكن لا يشترط أن يكون كل ذكي حكيماً..

****

قد يتمتّع إنسان بذكاء خارق وعقل مُمتاز. ومع ذلك لا يكون حكيماً في تصرّفاته. ربما توجد عوائق تعطل عقله وذكاءه أثناء التصرُّف العملي.

ربما تطغي عليه شهوة مُعيّنة تقود تصرُّفه. ويخضع لها تماماً.

وفي هذه الشهوة. يتصرّف تصرُّفات بعيدة عن الحكمة على الرغم من ذكائه الذي تكون الشهوة قد عطلته. وتولّت القيادة بدلاً منه..!

* أو قد يخضع في تصرّفاته لأعصاب تثور وتنفعل. فيتصرّف بأعصابه. لا بذكائه. ولا يكون تصرّفه حكيماً.

* أو قد يكون له ذكاء. ولكن تنقصه الخبرة أو المعرفة. ونقصهما يجعل سلوكه غير سليم.

***

الحكيم إذا كان ينقصه شيء من الذكاء. يستعيض عنه بالمشورة.

وكذلك بالقراءة والاطلاع. وبالاستفادة من خبرته وخبرات الآخرين. كما ينتفع أيضاً من أحداث التاريخ. كما قال الشاعر:

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

ونظراً لأهمية الخبرة في الحكمة. لذلك نسمع عبارة "حكمة الشيوخ".

والمقصود بذلك. أنهم في مدى عمرهم الطويل. اكتسبوا خبرات كثيرة في الحياة تمنحهم الحكمة. بغض النظر عن درجة ذكائهم. فالذكاء ليس هو في الحياة كل شيء. وما أعمق من يجمع بين الخبرة والذكاء.

إن المُشيرين الحكماء. في مشورتهم يضيفون إلى عمل الإنسان عقلاً. ويضيفون إلى فكره وجهة نظر أخرى. ربما ما كان يلتفت إليها لقلّة خبرته ومحدودية رؤيته. ولعلهم يمنعونه من الاندفاع في اتجاه مُعيّن تكون كل قواه الفكرية مركزة فيه بسبب غرض في قلبه.

****

من هنا نرى أن الاندفاع يعطل الذكاء. أو يدفعه في اتجاه مُعيّن.

الحكيم لا يندفع في تصرفاته. إنما يهدئ اقتناعه الخاص حتى يتبصّر بأسلوب أعمق. وأوسع لا يسرع في التصرّف. لذلك يتصف الحكماء بالتروّي.

إن السرعة لا تعطي مجالاً واسعاً للتفكير والبحث والدراسة ومعرفة الرأي الآخر. كما أنها لا تعطي مجالا للمشورة ولعرض الأمر على اللّه في الصلاة. وربما تحوي السرعة في طياتها لوناً من السطحية. والتصرُّفات السريعة كثيراً ما تكون تصرُّفات هوجاء طائشة.

والإنسان الذي يتسرّع. ربما يُقابله من ينصحه ويقول له: احترس. اعطِ لنفسك فرصة للتفكير. راجع نفسك فيما تنوي أن تفعل.

أذكر في هذا المجال بعض أبنائنا من المهجر. الذين يحضرون إلى مصر. ويريد الواحد منهم أن يتزوّج في بحر أسبوع أو أسبوعين.

إن الحكماء تصرّفاتهم متزنة رزينة. أخذت حظها من التفكير والعمق ومن الفحص. مهما اتهموهم بالتباطؤ!

ولا نفكر أن بعض الأمور تحتاج إلى سرعة في البت. ولكن هناك فرقاً بين السرعة والتسرُّع.

والتسرُّع هو السرعة الخالية من الدراسة والفحص. ويأخذ التسرُّع صفة الخطورة. إذا كان في أمور مصيرية أو رئيسية. ويكون بلا عذر. إذا كانت هناك فرصة للتفكير. ولم يكن الوقت ضاغطاً. ولذلك فإنني أقول باستمرار.

الحل السليم ليس هو أسرع الحلول. إنما هو أكثرها اتقاناً

***

قد تكون السرعة من صفات الشباب. إذ يتصفون بحرارة تريد أن تتم الأمور بسرعة. ولكنهم حينما يدرسون الأمر مع من هو أكبر منهم. يمكن أن يقتنعوا بأن السرعة لها مخاطرها. وقد تكون السرعة طبيعية عند بعض الناس. غير أن هؤلاء يحتاجون إلى تدريب أنفسهم على التروي والتفكير.

وكثيراً ما يندم الشخص على تصرف سريع صدر منه. فأخطأ فيه. أو ظلم فيه غيره.

مثال ذلك: صحفي قد يسرع في نشر خبر. ليحصل على سبق صحفي. ثم يتضح أن الخبر غير صحيح. ويفقد الصحفي ثقة الناس من جهة دقة أخباره. وكان الأجدر به أن يتروى ويتحقّق قبل أن ينشر.. ومثال ذلك أيضاً: أب يعاقب ابنه. أو مدير عمل يُعاقب أحد مرؤوسيه على أخطاء. ثم يتضح أن الذي عاقبه كان بريئاً.

***

ومن مُعطّلات الحكمة أيضاً عدم الفهم. أو قلّة المعرفة:

فقد يكون هناك رَجُل ذكي جداً. ومع ذلك يفشل في حياته الزوجية. وأمّا سبب فشله. فهو جهله بنفسية المرأة. فهو يُعاملها كما يتعامل مع الرجال! والمفروض في الرجل الحكيم أن يدرس نفسية المرأة وعقليتها وظروفها. بحيث يتصرف معها تصرفاً حكيماً.

وبالمثل على المرأة أن تدرس نفسية الرَّجُل وعقليته وطباعه. لكي تعرف أن تتعامل معه في حكمة.

ونفس الكلام نقوله في معاملة الأطفال. إذ ينبغي أن ندرس نفسية الطفل وعقليته. حتى يمكن أن نعرف الطريقة الحكيمة للتعامل معه. وكذلك بالنسبة إلى المراهقين والشباب.

****

وهكذا في التعامل عموماً. ينبغي على كل شخص أن يدرس نفسية وعقلية وظروف من يتعامل معه: سواء كان زميلاً في عمل. أو رئيساً أو مرؤوساً. أو صديقاً أو جاراً. ويعامله بما يناسبه..

كذلك في التعامل مع الإنسان المريض. أو العاجز. أو المديون..

فإن درست نفسية وعقلية من تتعامل معه. تعرف المفاتيح التي تدخل بها إلى شخصيته في تصرُّفك معه..

حتى لو تعطّل المفتاح حيناً. نعرف كيف نزيّته ونشحّمه.. ثم نعيد بعد ذلك فتح الباب فينفتح.

وما نقوله عن التعامل مع الأفراد. نقوله أيضاً عن الشعوب.. بالنسبة إلى من يتعامل مع أجانب هنا. أو يسافر إلى بلادهم في دراسة أو هجرة. فلكل شعب طباعه ونفسيته وثقافته. ممّا ينبغي علينا أن نراعيه في التعامل معه..

حقاً إنه في بعض الأحيان. يكون فشلنا في التعامل مع أشخاص مُعيّنين. ليس راجعاً إلى عيب فيهم. بقدر ما هو راجع إلى عدم معرفتنا بطريقة التعامل معهم.



٢٠٠٣/١٠/٢١

المعرفة

الناس في معرفتهم. يعرفون بعض الأشياء عن بعض الأشياء. أمّا اللّه - تبارك اسمه - فإنه يعرف كل شيء عن كل شيء.

لذلك فهو الوحيد الذي نقول عنه إنه "كلّي المعرفة".

وكمثال لذلك فهو يعرف الخفيات والظاهرات: يعرف ما في القلوب من مشاعر. وما في العقول من أفكار. كذلك يعرف نيات الناس. ما ينوون أن يفعلوه قبل أن يفعلوه..

الناس يعرفون طبائع الأشياء بالدراسة والخبرة. أمّا اللّه فإنه يَعرف طبائع الأشياء. لأنه هو الذي منحها طبائعها حينما خلقها..

ومعرفة اللّه عن كل شيء هى معرفة مؤكّدة. أمّا معرفة الإنسان عن الشيء قد تتغير وقد تتطوّر حسبما تكشفه الأيام والدراسات.

* * *

معرفة اللّه بدون وسائل. وبدون تدرُّج. وبدون اكتشاف

الطبيب مثلاً قد يعرف المريض بكثير من الفحوصات. ومن الاشعات. ومن التحاليل. أو من السونار. أو من علامات وظواهر تبدو على المريض. أو بطرق ووسائل أخرى. وقد يبذل جهداً ووقتاً إلى أن يصل إلى تشخيص سليم. أمّا اللّه فيعرف كل شيء للوقت. وبدون وسائل.

شركات البترول تقوم بكثير من الحفر. وإلى أعماق مُعيّنة. وبعد دراسات. حتى تعرف الأماكن التي يخزن فيها البترول. أمّا اللّه فلا يحتاج إلى اكتشافات لكي يعرف.. بل إنه يعرف تماماً أين يوجد هذا البترول. لأنه هو الذي وضعه في تلك الأماكن..

نفس الكلام يمكن أن يُقال عن مناجم الذهب أو الماس أو المنجنيز: الناس يبذلون الجهد لكي يصلوا إلى معرفتها. أمّا اللّه فيعرف أنه يوجد كل ذلك وغيره. لأنه هو الذي وضعه في أماكنه حين خلق الطبيعة.

* * *

اللّه يعرف المستقبل. ولا أحد يعرف المستقبل غيره..

ونقصد الأمور التي تحدث في المستقبل. ولا يمكن معرفتها عن طريق الدراسة أو الفراسة أو الاستنتاج.. فقد يقول الطبيب عن أحد المرضى أنه سيموت بعد أسبوع على أكثر. ويحدث ذلك فعلاً بسبب تتبع الطبيب لحالة المرض وتطوره وخطورته. وليست هذه معرفة بالمستقبل!

أو قد يقول مُدرِّس عن أحد تلاميذه أنه لا بد سيرسب في الامتحان. كما يقول عن آخر أنه سينجح بامتياز. ويكون كلامه هذا عن معرفته بحالة كل من التلميذيْن ومستواه العلمي. ولا نقول عن هذا الأمر أنه معرفة بالمستقبل!

كذلك من يتنبأ بحالة الجو. عن دراسة. ويحدث ما يقوله. دون أن يعتبر كلامه نبوءة بالمعني الصحيح. إنما هو مجرد استنتاج أو دراسة..

اللّه هو الوحيد الذي يعرف المستقبل. وقد يعلن شيئاً من هذا المستقبل عن طريق أنبيائه. ولا صحة لِمَا يقوله بعض المنجمين. أو قارئي الكف. أو قارئي الفنجان. أو ضاربي الرمل وموشوش الودع!!

* * *

اللّه - كما قلنا - هو كلّي المعرفة. وهو أيضاً مانح المعرفة الحقيقية وهو يمنحنا من المعرفة. ما يُفيدنا. وما يلزمنا..

وهو يمنحنا المعرفة عن طريق الوحي. وأيضاً عن طريق الإعلان الإلهي أو الكشف الإلهي Revelation . ويكشف لنا بعض المستقبل عن طريق النبوءة. وأحياناً عن طريق الرؤى الحقيقية. أو بعض الأحلام التي من عنده وتفسيرها. كما حدث مع يوسف الصديق..

والشيطان قد يتظاهر بأن عنده لوناً من المعرفة. ويُقدِّم بعضها عن طريق رؤى وأحلام كاذبة. أو بواسطة مُعاونيه من السحرة والمشعوذين.

ولكن كل المعرفة التي يُقدِّمها الشيطان وأعوانه. هى معرفة مُضلِّلة وخادعة. والذي يسير في طريقها. يُصاب بضرر شديد.. ويصبح أُلعوبة في أيدي الشياطين. كما أن بعض معارفهم دَنسة أو كاذبة.

* * *

والمعرفة على أنواع: فهناك معرفة نافعة. ومعرفة ضارة. ومعرفة تافهة.. هناك معرفة عميقة. ومعرفة سطحية..

المعرفة التافهة والسطحية. هى حشو الذهن بمعلومات لا تنفعه بشيء. بل هى ضياع للوقت. وصدق ذلك الحكيم الذي قال: "من العجب أننا نرهق أنفسنا لمعرفة أمور كثيرة. لسنا نُدان في اليوم الأخير على جهلنا إياها!". ولعلّ من أنواع المعرفة التافهة. سعي البعض وراء معرفة أخبار الناس. وتداول الأحاديث في أمور لا تنفع بشيء.. أو التعليق على أمور علمية من غير المُتخصّصين.. في كل هذه يكون الصمت أفضل من الكلام.

* * *

أمّا المعرفة النافعة. فإنها لازمة. وهى على أنواع:

منها معرفة الذات. كما قال الحكيم: اعرف نفسك.

ومنها المعرفة الدينية. مثل معرفة اللّه ووصاياه وقواعد الإيمان.

أيضاً المعرفة الثقافية. وتشمل كل ألوان المعرفة التي توسع مدارك الإنسان. بكل المعلومات النافعة لحياته. والمرشدة له في علاقاته الاجتماعية. كما أنها تنمّي فهمه وتدرّب ذكاءه.

ولا يوجد أحد يستغني عن المعرفة التي تسمّى أيضاً بالعلم. والمعرفة نور يضيء الطريق. أمّا الجاهل فيسلك في الظلمة.

* * *

ولنبدأ حالياً بعبارة "اعرف نفسك":

اعرف أنك مخلوق من تراب الأرض. فلا تتصرّف في عجرفة وفي خيلاء. ولا تمشِ في الأرض مرحاً. ولا تتعال على غيرك..

اعرف أيضاً أنك من روح وجسد. فالجسد له ضعفاته وغرائزه. فاحترس منها. والروح لها سموّها. فاعطِها مجالها.

ولا تحبسها في سجن الجسد. بلا أعطِها غذاءها الروحي الذي تحتاج إليه.

اعرف طباعك. وما يمكن أن يبقى منها. وما يجب أن يتغيّر. اعرف نقائصك وأخطاءك. لكيما تُصلِح نفسك.

وتتحوّل في كل شيء إلى أفضل. لأنك لو عشت تائهاً عن ذاتك. ستبقى حيث أنت بلا تغيير. بنفس العيوب التي يلاحظها الناس فيك..! اعرف إلى أي شيء تنجذب نفسك. وبأي الأسباب تسقط أحياناً. لكيما تحترس ولا تعاود السقوط مرة أخرى.

اعرف مواهبك لكي تتعهّدها بالحفظ. وتنمّيها. وتجعلها لخيرك ولخير الآخرين.

* * *

على أنه من أهم ما يجب أن تعرفه. هو أن تعرف اللّه معرفة حقيقية ليست من مجرد قراءة الكتب أو سماع العظات.

تعرف جلال اللّه. لكي تخشع أمامه في كل حين وتهابه. وتعرف قداسة اللّه وصلاحه. حتى لا تجرؤ أن تخطئ قدامه حيث يراك.

وتعرف عناية اللّه بك بتذكّرك لأحداث كثيرة مرّت بحياتك. وكانت واضحة فيها يد اللّه وهي تسندك وتعمل معك. وبهذا تشكر اللّه من أعماقك وتقول "سبِّحي يا نفسي الرب. ولا تنسي كل إحساناته". تذكر كل ضيقة مرت بك. وأنقذك اللّه منها..

اعرف اللّه السخي في عطائه. الذي يُعطي الكل حتى غير المُستحقين. الذي يُعطي دون أن نطلب. ويُعطي فوق ما نطلب. ويُشبع الكل من رضاه..

اعرف اللّه الديان العادل. الذي ستقف أمامه في اليوم الأخير. لكي تقدّم حساباً عن كل ما عملته وما نويت أن تعمله. كما تقدّم حساباً له عن كل أفكارك وكل مشاعرك. فإنك إن عرفت هذا جيداً وتذكّرته. سوف تكون بالضرورة مُحترساً قلباً وعقلاً وعملاً.

* * *

صلّ في كل يوم. وقل له: عرّفني يارب طُرقك. فهّمني سُبلك.

ارشدني إلى العمل بوصاياك. أنِر طريقك قدّامي لكي لا أضلّ عنك.. اكشف عن عينيّ. لأرى سموّاً في وصاياك. ومُتعة في الحياة معك..

وكما تعطيني علم معرفتك. أعطني أيضاً محبّة الخير. وأعطني الإرادة والقوة. لكي أسلك كما ينبغي. ولا أضعف أمام المقاومات..

وابعد عني أنواع المعرفة التي تبعدني عنك. ذلك لأن فلاسفة كثيرين كانوا ذوي فكر. ولكنهم ضلّوا عن معرفة اللّه. بل أنكروا وجوده!!

كذلك ابعد عنّي المعرفة التي تنفخ. التي تصيب صاحبها بالكبرياء والخيلاء. فيتخيّل أنه يعرف أكثر من غيره. ويتباهى بالمعرفة. ويظن أنه أكثر معرفة من غيره. وينظر في استصغار إلى غير العارفين..!

* * *

إن مصادر المعرفة كثيرة جداً. وبخاصة في أيامنا التي اشتهرت بثورة المعلومات. ومنها الانترنت. والكمبيوتر. وبنوك المعلومات..

بالإضافة إلى وسائل الاعلام المُتعدِّدة من الإذاعة وقنوات التليفزيون الكثيرة. وانتشار الطباعة والمطبوعات: من كتب وجرائد ومجلات ونبذات. والعديد من دوائر المعارف: بعضها عامة. وبعضها في تخصُّصات مُعيّنة.. وكل علم من العلوم. وكل فن من الفنون. نُشرت عنه مؤلفات وكُتب. بالإضافة إلى البحوث التي تقوم بها الجامعات وكافة الهيئات العلمية.

مادة المعرفة إذن موجودة بوفرة شديدة في كل فروعها. ولا عائق أمام طالب المعرفة. إذ يجد كل شيء معروضاً أمامه. وأحياناً بالصوت والصورة. وما عليه إلاّ أن ينتقي من كل ذلك ما يشاء..

ودور العلم مفتوحة لِمَنْ يريد لوناً خاصاً من المعرفة. يدرسه أو يحصل فيه على درجة علمية. أو يقدِّم بحثاً فيه الجديد من المعرفة..

وقد انتشرت المعرفة أيضاً بحركات واسعة من الترجمات إلى عديد من اللغات. لكي تصل سهلة مفهومة إلى بلدان أخرى تتكلّم بلسان آخر غير الذي وضعت به المؤلفات في أصلها.

* * *

والقراءة وسيلة هامة في الحصول على المعرفة...

وقديما كانت القراءة محصورة في المخطوطات وهى قليلة وغير متوافرة. أمّا الآن فإن الطباعة قد فتحت المجال واسعا أمام القراء. وأصبحت المكتبات عامرة بكل أنواع الكتب. وصارت القراءة ميسرة. وبالقراءة يمكن أن يتثقف كل من يقرأ. ويزداد معرفة..

إذن الأمر الآن ليس هو مجرد المعرفة. إنما النمو في المعرفة أيضاً. وعن طريق الـ CD يمكن أن يحصل الإنسان على أكثر من مائة من المقالات مُسجّلة أو أكثر. في كل واحدة منها.

إن العالم الآن يُسهّل طريقة الحصول على المعرفة. على كل فرد يريد. في أي لون من المعرفة يشاء..

* * *

هناك وسائل أخرى للمعرفة. وهى المشورة. والخبرة..

بالمشورة يمكن الحصول على المعرفة من الآخرين. سواء من الذين اتصفوا بالعلم عن طريق دراساتهم وإنتاجهم الفكري. أو من الشيوخ الذين بعامل السن قد خبروا الحياة. وعرفوا حلوها ومرّها. ويمكنهم أن ينقلوا خبرتهم العملية إلى غيرهم. وسعيد هو من يسأل ويستشير. فيستفيد من خبرة غيره ومعرفته.

على أن الإنسان يمكنه - بخبرته الشخصية - أن يكتسب لوناً من المعرفة لم يكن له من قبل. وكلّما ازداد في الخبرة. ازداد معرفة..

وغالباً ما تكون الخبرة العملية أكثر عُمقاً وتأثيراً من المعرفة النظرية. ومن هنا كان المَثَل السائر "اسأل مُجرّباً. ولا تسأل طبيباً"..

* * *

والمعرفة شرط لازم للذين يتولّون القيادة

سواء كان ذلك في محيط الأسرة من حيث تربية الأبناء ومعرفة أساليب التربية لكل مرحلة من مراحل العمر. أو من حيث القائمين بمهمة التعليم في المدارس. أو المُشرفين الاجتماعيين في مراكز الشباب.

أو المعرفة اللازمة لكل من يتولّى منصباً إدارياً أو قيادياً في أيّة مؤسّسة اجتماعية أو إدارة حكومية أو عمل خاص.

بالمعرفة ينال المدير احترام مرؤوسيه. وبالمعرفة يمكن أن يؤدّي واجبه في العمل أداء حسناً بكل توفيق.

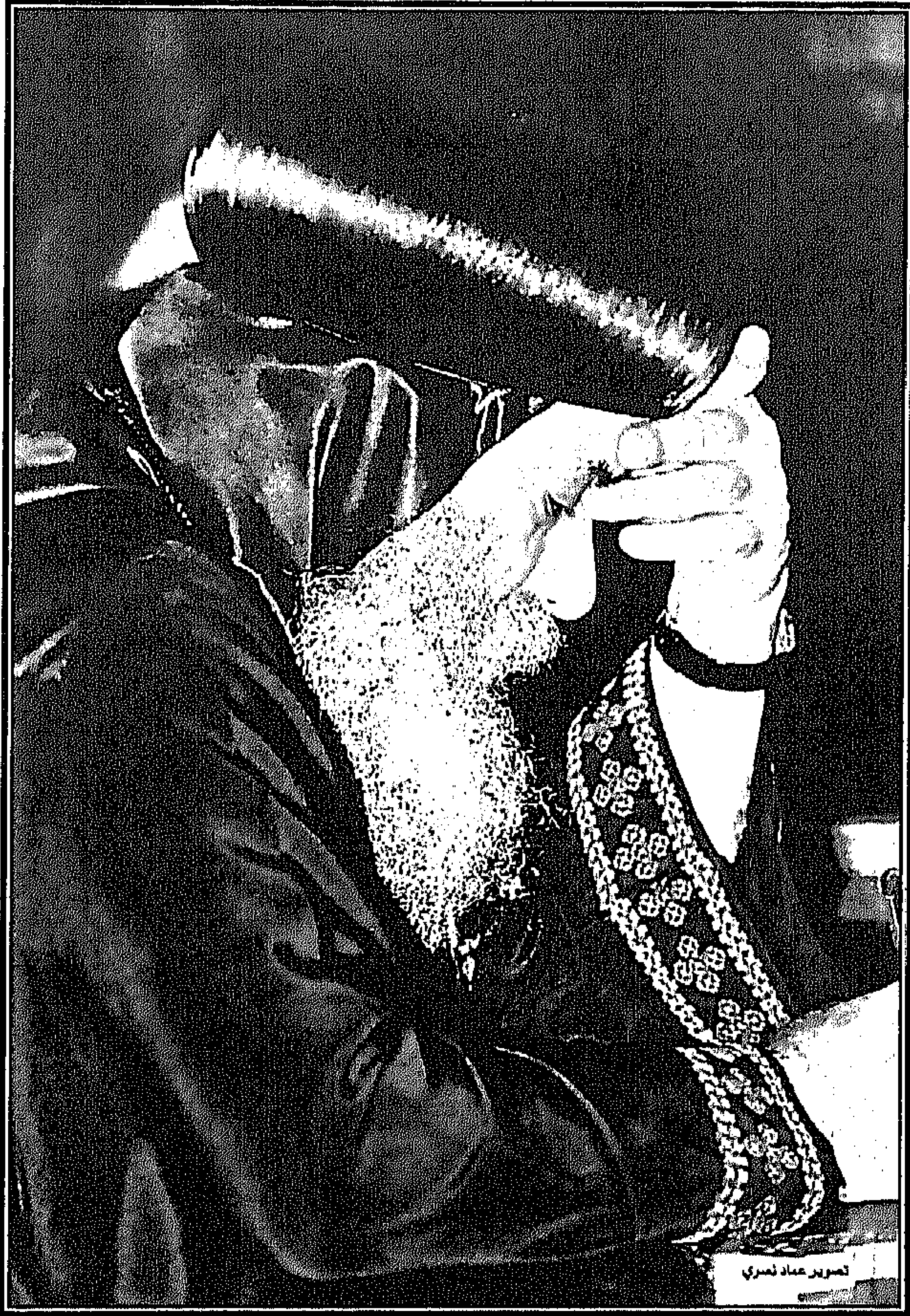
* * *

يبقى هناك لون من المعرفة سيتم في العالم الآخر

هو طبيعة الحياة في الأبدية. ثم التعارف بين كل الذين سوف يعيشون معاً في ذلك العالم الجديد علينا..

يخيل إليَّ ملاكاً سيتولى تعريف الأرواح بكل من هناك: يعرفهم بالملائكة ورؤساء الملائكة. وبالأنبياء والرُّسل والرُّعاة. كل واحد من هؤلاء بإسمه. وما قد أهّله للدخول في عالم الأحياء كما يعرفهم أيضاً بأسماء الشهداء والشهيدات. وأسماء الأبرار جميعاً. وحياة كل واحد منهم على الأرض.

تُرى كم من الزمن يحتاجه حفل التعارف هذا؟!



٢٠٠٣/١٠/٢٨

حياة الشكر

ما أكثر الذين يطلبون. وما أقل الذين يشكرون على نوال ما طلبوا! أو يكون شكرهم ضئيلاً إلى جوار طلبهم. فيطغي الطلب على الشكر..

وفي الواقع لو أننا تأملنا فضل اللَّه علينا. ما كانت حياتنا تكفي لشكره..

لقد خلقنا اللَّه إذ لم نكن. ومنحنا **نعمة الوجود**. وأبقانا في الوجود إلى هذا اليوم.. فمن منا يشكر اللَّه على هذه النعمة. نعمة الحياة والوجود؟

وقد ميّزنا اللَّه على سائر الكائنات الأرضية بالعقل. مع كل ملكات هذا العقل: من **الفكر**. والفَهْم والإدراك. والاستنتاج. والذاكرة. والتخزين في العقل الباطن. ووهبنا **المعرفة**. والنمو في المعرفة. فصرنا نعرف ما لا يُعدّ من الأمور. التي ما كان يعرفها الجيل السابق لنا.. ومع المعرفة أيضاً منحنا موهبة **الاختراع** لنبتكر ما هو نافع لحياتنا وراحتنا.

ومنحنا اللَّه **حرية الإرادة**. لنفعل ما نريد. ولو ضد إرادته! ومنحنا أيضاً **الضمير**. لنميّز ما بين الخير والشر. وما بين ما يلزم وما يجوز. وما بين اللائق وغير اللائق. لكي نسلك في حياتنا ومُعاملاتنا حسناً.. فمَنْ منّا الذي يشكر على كل هذه المنح والمواهب؟!

***

كذلك وهبنا اللَّه الطبيعة التي حولنا. بكل ما فيها من خير لنا..

وهبنا الهواء الذي نستنشقه. والماء والطعام لغذائنا. ومنحنا النور والدفء لنعمل. والظلمة في الليل لنهدأ ونستريح.. ومنحنا هذه الطبيعة من أنهار وبحار وبحيرات. ومن أرض لنزرعها أو نمشي عليها أو نبني فوقها مساكننا. ومنحنا الجبال والتلال بكل ما تحويه. والمنخفضات والوديان. وكل الثروات الطبيعية التي تحويها الأرض في جوفها. وسخّر لنا اللَّه الحيوان والدواب. لتخضع لنا. فنستخدمها لاحتياجاتنا.. ووهب لنا الجمال في أنواع من الطبيعة. في الزهور الجميلة. والطيور المُغرِّدة. وفي الأسماك الملوّنة. والفراشات المُتعدِّدة الألوان. وفي المناظر الطبيعية الجذابة. وفي البلابل ذات الألحان. وفي الورود ذات الشذى والعطر.. فمَنْ منّا يشكر اللَّه على كل هذا. ويترنّم بشكره في كل وقت؟!

إن حياة الشكر ترتكز على الرؤيا السليمة للعطية. والتمتُّع بها. والتأمُّل في إحسان مُعطيها. وفي محبّته وكرمه وعنايته..

غير أننا ننظر في غير عُمق. حواسنا التي ترى وتسمع. لا تصحبها قلوب عارفة بالجميل! كما أننا قد نتمتّع بالعطية. دون أن نتأمّل في حُب مُعطيها..

حياة الشكر ترتبط أيضاً **بالقناعة**. فالإنسان القانع يشكر. أمّا الطماع فإنه باستمرار يتذمّر.. إننا إذا نظرنا إلى ما في أيدينا. فطبيعي أننا نشكر عليه. أمّا إذا ظللنا نفكّر فيما ينقصنا. فسوف يدركنا الحُزن ونتضايق..

الشكر أيضاً يرتبط **بالتواضع**. فالإنسان المتواضع يقول: لقد أعطيتني يارب فوق ما أستحق. أمّا الذي تحاربه الكبرياء والعظمة. فإنه يشعر في كل وقت أنه لم ينل ما يناسب قدراته وقيمته..!

حياة الشكر أيضاً يُصاحبها **الفرح والسلام**. فالإنسان المشكور يملأ الفرح قلبه. كما أن الذي في قلبه فرح وسلام. يكون على الدوام شاكراً.

***

غالبية الناس يشكرون على النِّعم فقط. وقليلون الذين يشكرون في الضيقات

إنما يشكر في الضيقة. القلب الواسع الذي يضيق بالضيقة. والذي له الإيمان العميق بعناية اللّه ورعايته. شاعراً بأن لا بد وراء هذه الضيقة خيراً. وإن كان هو لا يرى هذا الخير الآن. فسوف يُعلنه له اللّه أخيراً.

أعلى من الشكر في الضيقة. الشكر على الضيقة..

الشكر في الضيقة يدخل في فضيلة الاحتمال. أو فضيلة التسليم للإرادة الإلهية. لأنه إن كان اللّه قد رضي لنا بهذه الضيقة.. وهو صانع الخيرات. فلماذا لا نرضى بها لأنفسنا؟!

أمّا الشكر على الضيقات. فمعناه أنها بركة لها إكليلها. وليست ضيقة.

ومثال ذلك شكر الذين كانوا يتقدمون إلى ساحة الاستشهاد. شاعرين أنهم سوف ينالون شرفاً يشكرون عليه. لا أنهم يواجهون عذاباً يتألمون به.. وطبيعي أن الذي يشكر على الضيقات. لا بد أن يشكر على النِّعم.

***

عموماً إننا نشكر على النِّعم التي ندركها. ولكن هناك نِعماً لا ندركها الآن. يلزمها أيضاً الشكر. حينما تنكشف لنا وندركها بعد حين..

ما أكثر إحسانات اللَّه إليك التي لا تعرفها! فأنت ربما تشكر اللَّه لأنه نجَّاك من ضيقة مُعيّنة تعرفها. ولكن هناك ضيقات أخرى كانت في طريقها إليك. ومنعها اللَّه عنك. ربما دسائس كانت مُدبّرة ضدك وأنت لا تدري. وقد منعها اللَّه فلم تحدث. وأنت لا تشكر على ذلك بسبب عدم المعرفة.

ربما خطيئة كانت زاحفة إليك لتسقطك. وحماك اللَّه منها قبل وصولها. ربما شيطان كان قادماً إليك ليغريك. فانتهره اللَّه ولم يأتِ. وأنت لا تدري فلا تشكر.

إن اللَّه كما أمرنا أن نفعل الخير في الخفاء. هو أيضاً كذلك كثيراً ما يفعل الخير لأجلنا في الخفاء. ونحن لا ندري. ولكن نؤمن.

***

إذن ليتنا نشكر على كل شيء: على النِّعم الروحية. وعلى النِّعم المادية. على النِّعم التي نراها. والتي لا نراها. وعلى الضيقة لأنها أيضاً نعمة..

ربما يصيبك مرض وتلزم الفراش. فتقول: أشكرك يارب من أعماق قلبي على هذا المرض. لأنه قرّبني إليك. وجعلني أعود إلى صلواتي. وأحاسب نفسي وألومها على خطاياها. وأسرع إليك بالتوبة. كما أشكرك على هذا المرض..من أجل ما لمسته أثناءه من محبة الكثيرين المُحيطين بي في مرضي.

وتقول أيضاً: أشكرك يارب لأن هذا المرض أعطاني فرصة أخلو بك فيها. كما أعطاني المرض الشعور ببركة الألم. كما أشعرني بالتقصير السابق الذي لي من جهة زيارة المرضى. بل بالأكثر أعطاني المرض استعداداً لأبديتي.. حقاً ما أكثر بركات هذا المرض. وما أعمق أن نشكر عليه.

***

عقبات أمام الشكر

هناك عقبات كثيرة. تمنع الإنسان من حياة الشكر. نذكر منها:

١- أحياناً لا نشكر. لأننا لا ننظر إلى النقط المُضيئة في حياتنا

بل نركّز فقط على المتاعب وحدها. وتركيزنا على المتاعب يجلب لنا الحزن والقلق والتشاؤم.. وكل هذا لا يعطي مجالاً للشكر. لذلك نصيحتي لكم أن تذكروا كل الأمور المُفرِحة التي مرّت بكم. وتشكروا عليها.

***

٢- كذلك نحن لا نشكر اللّه. لأننا لا ننسب إليه الأمور المُفرِحة في حياتنا

بل ننسبها إلى أسباب أخرى. فإن نجحنا ننسب ذلك إلى ذكائنا. أو إلى مجهود مدرسينا. أو إلى سهولة الامتحان. وتختفي معونة اللّه في كل ذلك!

وأيضاً إذا شُفينا من مرض ننسب ذلك إلى الأطباء. دون أن نذكر يد اللّه مع الطبيب. وإذا تم لنا التوفيق في عملنا. نرجع ذلك إلى قدراتنا وكفاءتنا! وإن نجونا من حادثة. نقول إن السبب هو مهارة السائق!.. وفي كل هذا تختفي يد اللّه من أسباب أفراحنا. فلا نشكره على شيء!

***

٣- وأحياناً لا نشكر على شيء. إلاّ إذا فقدناه أو حُرمنا منه!

لا نحسّ بالنعمة التي نحن فيها. إلاّ إذا ضاعت منّا! فلا نشكر على وجود الوالدين. ولا نشعر ببركتهما. إلاّ إذا توفّي أحدهما. ولا نشكر على ما نحن فيه من صحة ولا نعرف قيمتها. إلاّ إذا مرضنا. بل لا نشعر ببركة النور في الحجرة. إلاّ إذا انقطع التيار الكهربائي!

***

٤- وأحياناً لا نشكر. لأن الأمر في نظرنا أقل من أن نشكر عليه!

أو هكذا نراه.. وحسناً قال أحد الآباء الروحيين: الذي لا يشكر على القليل. كاذب هو إن قال إنه يحيا حياة الشكر. بالنسبة إلى النِّعم العظيمة!

فمثلاً: لماذا لا نشكر على الجو إن كان صحواً؟! هل ننتظر إلى أن يكفهر الجو. ثم نشكر إن عاد فاعتدل! كذلك لماذا لا نشكر على الطبيعة الجميلة. أمْ هى أمر عادي لا يستحق الشكر؟!

٥- إننا كثيراً ما نفرح بالنعمة. ونكتفي بالفرح دون أن نشكر!

نفرح بالخير الذي نحن فيه. دون أن نشكر على هذا الخير.. كتلميذ يفرح بنجاحه. أو فتاة تفرح بخطوبتها. أو موظف يفرح بترقيته. دون أن يتقدم أحد من هؤلاء بالشكر للّه على ما قد ناله من خير.

***

إن اللّه ليس محتاجاً إلى شكرنا. ولكننا نحن نحتاج إلى ذلك:

لأننا بالشكر نتذكر إحسانات اللّه إلينا ومحبته لنا. فتزداد رابطتنا به عمقاً. ونحبّه. وهذا مُفيد لنا روحياً. كذلك ندل بهذا الشكر على نقاوة قلوبنا. لأن عدم الشكر فيه عدم العرفان بالجميل. وعدم تقدير من أحبنا.

***

٦- وأحياناً نحن لا نشكر. لأننا لم نتعود ذلك في حياتنا:

إذا كنا لا نشكر إخوتنا من البشر على خدماتهم لنا. فطبيعي أننا قد لا نشكر اللّه أيضاً. كما يقول الكتاب: "إن كنت لا تحب أخاك الذي تراه. فكيف تحب اللّه الذي لا تراه؟!". وينطبق هذا على الشكر أيضاً.

لذلك عوّد نفسك أن تشكر غيرك على كل أمر يعمل من أجلك. مهما كان ضئيلاً. ثم بعد ذلك قُلْ في داخل نفسك: "أشكرك يارب لأنك أرسلت لي من يُساعدني. ومنحت هذا الإنسان قدرة على أن يخدمني".. وهكذا تشكر اللّه والناس في نفس الوقت. تشكر أخاك الإنسان لأنه كان العامل المباشر المرئي. وتشكر اللّه لأنه مهّد كل هذا لك. بطريقة غير مرئية.

***

٧- وأحياناً نحن لا نشكر بسبب أنانيتنا..

لا نفكّر إلاّ في ذاتنا! فإن أخذت. تكون قد اكتفت. ولا تفكّر في اليد التي أعطتها. كإنسان جائع يُوضع أمامه طعام. فيأخذ في التهامه دون أن يفكّر فيمن قدّمه له. أو في شكره على ذلك.

كذلك نحن ننشغل بذاتنا في أخذها. دون أن نتطلّع إلى وجه المُعطي.

كإنسان فتح له اللّه أبواب الرزق. فانشغل بالرزق يجمعه ويُنمّيه. ولا يتفرّغ ولو إلى لحظة لكي يشكر من وهبه الرزق!

٨- ونحن أحياناً لا نشكر. لأننا ننسى..

ننسى العطية. وننسى المُعطي. وننسى الشكر. فلو إننا دربنا أنفسنا على الشكر. لكان هذا التدريب يحفر في ذاكرتنا أشياء لا ننساها: منها ما نلناه من الحياة والصحة والعمل والمال. وكل عطية من اللّه.

***

٩- وأحياناً لا نشكر على خير. بسبب المقارنة بمن هم أفضل منا

لا نشكر على ما أعطانا اللّه. لأننا نري أن غيرنا عنده أكثر منا. أو لأن غيرنا أخذ مثلنا وهو لا يستحق.. مثال ذلك موظف في شركة يتقاضى مُرتباً ما كان يحلم به. هو أضعاف أضعاف مرتبات زملاء له في وظائف عادية. ومع ذلك لا يشكر الشركة. لان بعض موظفيها يأخذون أكثر منه. وبالتالي لا يشكر اللّه.. قارن نفسك إذن بمن هو أقل منك فتشكر اللّه. ولا تقارن بمَنْ هو أعلى.

***

١٠- وهكذا هناك من لا يشكر بسبب طموحاته في مستوى أعلى

ولذلك فانه باستمرار يستصغر ما وصل إليه فلا يشكر. والطموح في حدود الاعتدال ليس خطية. وهو لا يمنع الشكر. فاشكر لكي يعطيك اللّه أكثر. وقد قال أحد الآباء: ليست موهبة بلا زيادة إلاّ التي بلا شكر.

فلا تدع الطموح يجعلك تحتقر ما وهبك اللّه إياه. فكثيرون هم ضحايا الطموح الخاطئ المُتكبّر. الذي ينسى إحسانات اللّه. بروح الطمع الذي لا حدود له!

***

١١- وأحياناً البعض لا يشكر. لأن من طبعه التذمُّر والجشع

مثل هذا النوع لا يعيش أبداً في سلام قلبي. ولا يعترف بفضل اللّه عليه. وهو لا يكتفي مهما أخذ. وكما قال سليمان الحكيم "كل الأنهار تجري إلى البحر. والبحر ليس بملآن!" كالموت الذي لا يكتفي. مهما أخذ من أرواح!

افرح إذن بما في يديك واشكر اللّه. ولا تقل: ملء يدي لا يكفي. أريد أيضاً امتلاء جيوبي وخزائني. واعرف أن الجشع يمنع الشكر. ويُسبّب التعاسة.

وأحياناً يكون عدم الشكر. بسبب ضعف الحياة الروحية كلها:

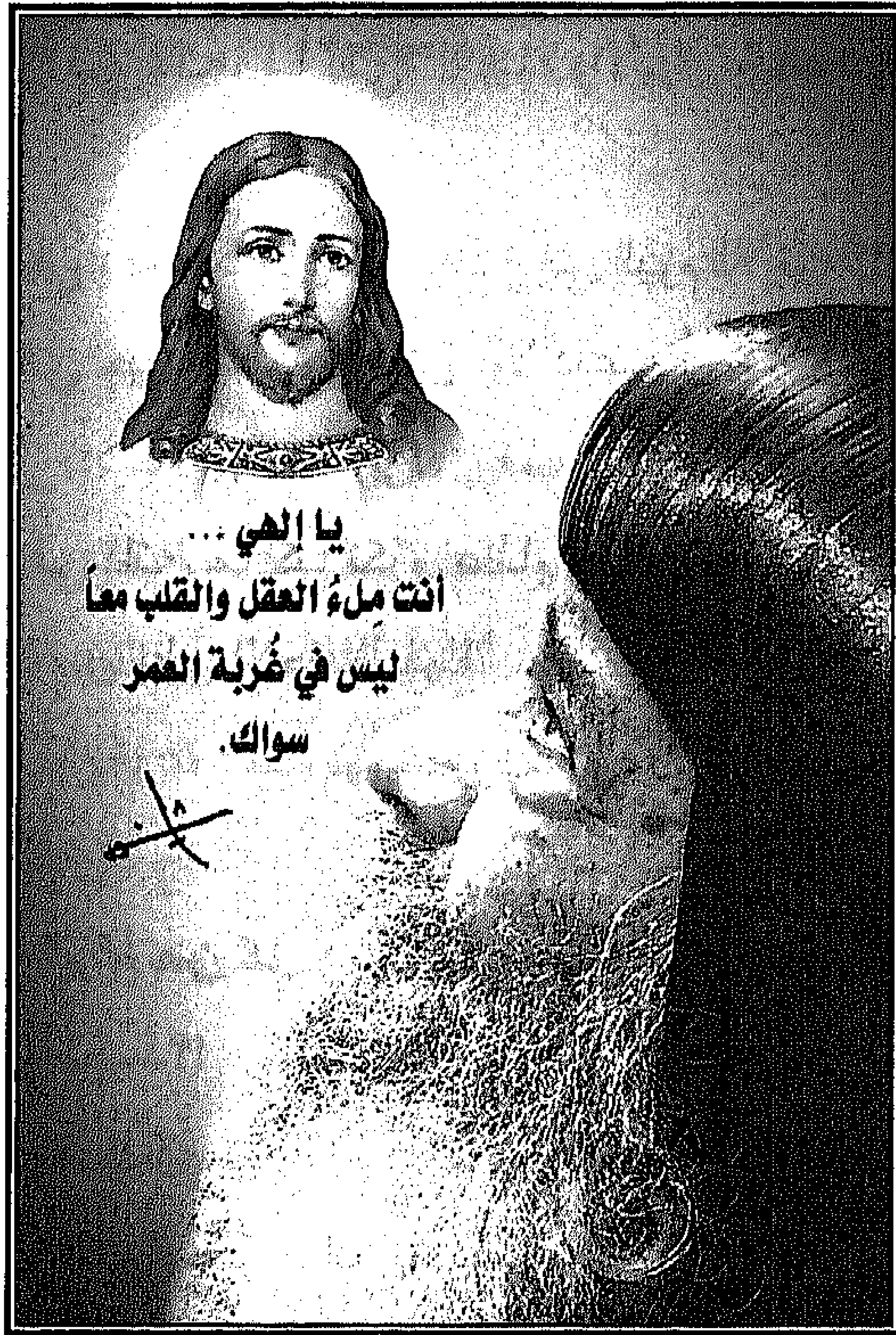
كإنسان لا يشكر اللّه. لأنه لا علاقة له باللّه إطلاقاً. فلا شكر. وأيضاً لا صلاة ولا صوم. ولا قراءة في كتاب اللّه. ولا حضور اجتماعات دينية.. مثل هذا من أين يأتيه الشكر؟!

***

١٢- أحياناً لا نشكر. لأننا لا ندرك حكمة اللّه في ما يحدث لنا!

أمور عديدة تمر بنا. ولا نشكر عليها. بل على العكس قد نتضايق منها أو نتذمّر بسببها. لأننا لا ندرك حكمة اللّه في حدوثها.

إنَّ بيع يوسف الصديق. والتهمة الكاذبة التي التصقت به. والقاؤه في السجن. كان وراءها كلها خير لمصر وله. ربما لم يره يوسف في ذلك الوقت.. لكنه عرفه أخيراً. وشكر اللّه عليه.



٢٠٠٣/١١/٤

الجسد

في فترة الصوم يركِّز غالبية الناس على الجسد: متى ينقطع عن الطعام؟ وإلى متى؟ متى يفطر؟ وماذا يأكل؟ والبعض يرى في الصوم فترة تعذيب للجسد. والبعض يقول كلاّ. بل هى فترة تهذيب..

وإن كان الأمر تعذيباً أو تهذيباً. فهل الجسد هو سبب الخطيئة عند الإنسان؟ أو هل هو شر في ذاته؟ بعكس الروح!!

كلاّ. إن الجسد ليس شراً في ذاته. ولكنه قد يخطئ أحياناً. كما أن الروح يمكن أيضاً أن تخطئ.. وسنوضح ذلك:

* لو كان الجسد شراً في ذاته. ما كان اللّه قد خلقه. لأن اللّه لا يخلق شراً. بل إنه عندما خلقه اللّه بجسده وروحه. وجد أن ذلك حسن. وبقيَ الإنسان فترة بجسده وروحه لا يُخطئ!
* ولو كان الجسد شرّاً في ذاته. ما بقيَ الأنبياء والأبرار مُحتفظين بقدسية حياتهم وهم يلبسون أجساداً!
* ولو كان الجسد شرّاً في ذاته. ما كان اللّه يقيمه في اليوم الأخير!! ويكفي أن الإنسان قد احتمل هذا الجسد في حياته على الأرض. ولا داعي أيضاً أن يحتمله في الأبدية بعد القيامة!
* ولو كان الجسد شرّاً في ذاته. ما كنا نكرّم عظام أو رفات القديسين بعد موتهم. ونعتبرها ذخائر لنا وبركة. نحرص على الاحتفاظ بها!

الجسد الخاطئ

ولكن لماذا على الرغم من كل ما قلناه. نسمع كلاماً كثيراً عن الجسد. وشهوات الجسد. والسلوك حسب الجسد؟!

هذه الاتهامات كلها. تقال عن الجسد الخاطئ. وليس عن الجسد بصفة عامة. إنها تقال عن الجسد المادي. الذي يحب المادة. ويشتهي ضد الروح..

إنه الجسد الشهواني. وشهواته مادية ونجسة. قد تكون شهوة في الزنى. أو شهوة البطنة التي هى في الطعام والشراب والسكر. أو قد تكون في شهوة أمور حسية. تتحوّل إلى عادة مسيطرة. أو إلى إدمان مثل التدخين والمُخدِّرات وما إلى ذلك.

والجسد الخاطئ هو الذي يركِّز اهتمامه في المادة. وقد تستعبده..!

ولكن ليس كل الأجساد هكذا.

*****

والجسد الخاطئ هو الذي يقود الروح والنفس إلى الخطأ

فحينما تخطئ حواسه. تشترك معها نفسه وروحه. فيتدنّس الإنسان كله. فإذا نظر المرء إلى امرأة نظرة شهوانية. تدخل الشهوة إلى قلبه. ويخطئ بالقلب والفكر معاً.

والجسد إذا اشتهى طعاماً أو شراباً في أثناء الصوم. يقود النفس أيضاً إلى التذمُّر على الصوم. ولا يكون قلبه طاهراً أمام اللّه.. أمّا الجسد الزاهد فهو ليس هكذا. ينتقل زهده إلى نفسه أيضاً. فيفرح بصومه. ويكون صائماً نفساً وجسداً.

****

أعضاء خاطئة

ومع ذلك فالجسد كله قد لا يُخطئ. بل يُخطئ عضو واحد منه. فيدنس الجسد والنفس معاً.

ولنأخذ اللّسان كمثال. وهو عضو صغير من أعضاء الجسد:

إنه عضو صغير. ولكنه أيضاً عضو خطير. في كل ما يقترفه من إثم. وليتنا نتأمّل كم من الخطايا يقع فيها اللسان.. سواء من ألفاظ الشتيمة. أو النقد الجارح. أو التهكم على الغير. أو التحدث في سيرة الناس وفي خصوصياتهم. ممّا قد يثير الحقد ويسبب مشاكل لا تحصى وخصومات عديدة.. وقد يكذب اللّسان أيضاً. وتنتج عن كذبه بلبلة. وبخاصة لو كان كذبه يتعلق بأمور على جانب من الأهمية والخطورة. أو يمسّ كذبه أشخاصاً لهم مركزهم.

إنه مُجرّد عضو في الجسد. ولكن مشاكله لا تتركز فقط بصاحب هذا اللّسان. إنما تشمل الكثيرين أيضاً.

****

وكما نذكر دنس اللّسان. نذكر كذلك دنس العين:

والعين قد تكون مرآة تُعبِّر عن حالة القلب وحالة النفس. ترى من خلالها مشاعر الإنسان في الداخل. كما أن العين في نوعية نظراتها تجلب مشاعر مُعيّنة تدخل إلى الإنسان في أعماقه.

وما أكثر الخطايا التي تقع فيها العين:

وذلك حينما ينظر الإنسان نظرة شهوة إلى شخص ماء. أو إلى ما يملكه هذا الشخص.. أو حينما ينظر نظرة حقد أو نظرة غضب. أو نظرة حسد.. وفي كل هذا نرى أن العين تشرك النفس معها..

كذلك إذا نظر الشخص إلى غيره نظرة كبرياء. أو استهزاء به أو إذا ما نظر نظرة قاسية. أو نظرة ماكرة.

في كل هذه الأمثلة. تكشف النفس عن حالة القلب وعن النفس وما تحمله في داخلها من أحاسيس. وكما تسيء إلى من تنظر إليه. فإنها أيضاً تسيء إلى صاحبها الذي ينظر.

إذ تفضح مشاعره وتكشفها وعديدة جداً هى أخطاء العين.

*****

وما أكثر أعضاء الجسد الأخرى التي تخطئ:

مثال ذلك اليد التي تسرع إلى الضرب. أو إلى القتل. أو إلى السرقة والنشل. أو إلى أخطاء أخرى.. والقدم التي تُسرِع إلى أماكن الخطيئة.

والأذن التي تتجسّس على أخبار الغير. أو التي تجد لذة في سماع ما لا يليق. وفي سماع الأذن تنقل إلى العقل والقلب معاً مشاعر مُعيّنة مُرتبطة بنوعية السماع.

إذن خطيئة عضو واحد من أعضاء الجسد. لا تقتصر على خطيئة واحد. بل قد تشرك الإنسان كله في خطيئتها.. نذكر أيضاً ملامح الوجه. التي تعبِّر أيضاً عن دواخله.

*****

لهذا كله. لا نقول إن أخطاء الجسد هى أخطاء الجسد وحده.

أو حتى أخطاء عضو واحد من أعضاء الجسد. هى أخطاء هذا العضو وحده. فالجسد كله مترابط معاً. وهو مرتبط أيضاً بالعقل وبالنفس وبالروح. والخطيئة الواحدة قد يشترك فيها

الإنسان كله أحياناً. سواء بدأت من النفس. وكان الجسد هو جهازها التنفيذي. أو بدأت من الجسد وانتقلت بالتالي إلى النفس أو إلى العقل.

فالحواس مثلاً هى أبواب للفكر. فما تراه تفكِّر فيه. وما تسمعه أيضاً تفكِّر فيه. وكذلك ما تذوقه وما تشمّه.. وأيضاً ما يفكِّر فيه العقل. قد يدفع الحواس إلى العمل فيما يفكر فيه. الغضب مثلاً قد يبدأ في الفكر. ثم تشترك معه النفس. وقد يزيد فتلتهب معه الأعصاب. وبعد ذلك ما أسهل أن يُعبِّر اللسان عن هذا الغضب. وتمتد اليد لتعبّر كذلك عن هذا الغضب.. أنقول حينئذ إنها خطية جسد. أم مع الجسد اشتركت النفس والعقل؟!

*****

اخضاع الجسد

الإنسان الروحي يدرب ذاته أن يخضع جسده لروحه. كما يخضع روحه أيضاً لوصايا اللَّه.

الروح القوية لا تسمح بتمرّد الجسد عليها. ولا تتركه يسير بحسب أهوائه أو رغباته وشهواته. بل تخضعه إذا أراد أن ينحرف. وتلجمه إذا جمح. ويحرص الإنسان المستقيم أن تكون قيادته في يد الروح.. ولكن إذا انتصر الجسد على الروح. تكون الروح حينئذ ضعيفة..

ويكون من أهم وسائل اخضاع الجسد. أن نقوّي الروح

نقويها بأن تحب الخير. وتحب الفضيلة بكل فروعها. وتحرص جاهدة على إرضاء اللَّه بكل قوتها. وتبعد عن مصادر الخطيئة حتى لا تتأثر بها.

وفي نفس الوقت تدخل في تداريب روحية كثيرة. تقوّي بها عامل الخير في نفسها. وتنمو في حياة الروح يوماً بعد يوم.

وحينما تقوي الروح. تجذب الجسد معها في مسارها الروحي:

إذا ما خشعت الروح. يخشع الجسد تلقائياً. فيركع أمام اللَّه ويسجد. وإذا ما أحبّت الروح الصلاة. يرفع الجسد يديه للصلاة. ويبتهل لسانه بألفاظ الصلاة. ويجاري الروح في صلتها باللَّه.

****

ومن الوسائل الهامة لإخضاع الجسد. فضيلة الصوم:

تخضعه بالامتناع عن الطعام والشراب. مهما جاع. وان اشتهي أن يأكل أو يشرب. فلا تطعه. وهكذا تمارس سيطرة عليه.

وكما تمنع جسدك من الطعام. تمنعه أيضاً من أخطاء اللسان. وعن أخطاء الحواس. وإن كان واقعاً في عادة مُسيطرة عليه كالتدخين مثلاً. امنعه عنها أيضاً. واكتسب من الصوم قوة الإرادة. التي تصل بها إلى ضبط النفس وبالتالي إلى ضبط الجسد معها.

إنك بالصوم تستطيع أن تصل إلى اخضاع الجسد. هذا إذا كان صومك بطريقة سليمة. وإذا ما كنت في وقت الافطار لا تعود فتتهالك على رغبات الجسد. وتعطي جسدك ما يشتهيه!

*****

ومن وسائل ضبط الجسد. الزهد والنُّسك:

وعلى الأقل. البعد عن الترفيهات والكماليات. ولو في أثناء فترة الصوم. وكذلك البعد عن المبالغة في الزينة. والاهتمام بأن تتزين الروح بالفضائل.

ومن وسائل ضبط الجسد أيضاً السهر في الصلاة. أو ارغام الجسد على القيام من النوم. إذا حان وقت الصلاة.

وتدرب أيضاً أنك لا تعطي جسدك كل ما يطلب. والصوم الحقيقي هو أن تمنع الجسد فيما يشتهيه. وأن تنجح في منعه.. وفي ضبط الجسد أيضاً. تمنع لسانك عن كل كلمة رديئة. وتمنع قلبك عن كل شهوة آثمة. وكما قال أحد الآباء: صوم اللسان خيرٌ من صوم الفم. وصوم القلب عن الشهوات خيرٌ من صوم اللسان والفم.

*****

وكما نمنع الجسد عن الخطأ. ينبغي أن ندرِّبه أيضاً على عمل الخير.

فيشترك الجسد مع الروح في عملها الروحي: الروح مثلاً تصلِّي. والجسد يشترك معها في الوقفة الخاشعة أمام اللَّه. وفي رفع اليدين وحفظ الحواس أثناء الصلاة. كما يعبر عن خشوعه بالركوع والسجود.. كذلك ندرِّب الجسد على التعب في خدمة الآخرين وفي كل أعمال البر. إذ يكون الإنسان الروحي كالشمعة التي تذوب لكي تضيء لغيرها. ومثل حبة البخور التي تحترق لتعطي رائحة زكيّة لِمَنْ يتنسّم رائحتها.

إن الجسد الذي يتعب في خدمة الفقراء لاستيفاء احتياجاتهم. والذي يتعب أيضاً في خدمة المرضى والمُسنين. وفي إراحة الذين ليس لهم من يهتم بهم.

والذي يسعى في رد الضالين وهدايتهم. وهو جسد بار يعمل مع الروح البارة. ويشترك معها في فضيلتها.

الجسد أيضاً يدل على برّه. بحفظ طهره ونقاوته:

وهنا نذكر عفة الجسد. كدليل على برّه وقدسيته. وكمثال رائع لنا يوسف الصديق الذي حافظ على عفة جسده. واحتمل في سبيل ذلك ما احتمل. وأمامنا أيضاً سير النساء العفيفات القديسات. وكل الأبرار الذين وقفوا أمام اللَّه بأجساد طاهرة لم تتدنس قط.

نذكر أيضاً بين الأجساد الطاهرة. بل في مقدمتها: أجساد الشهداء

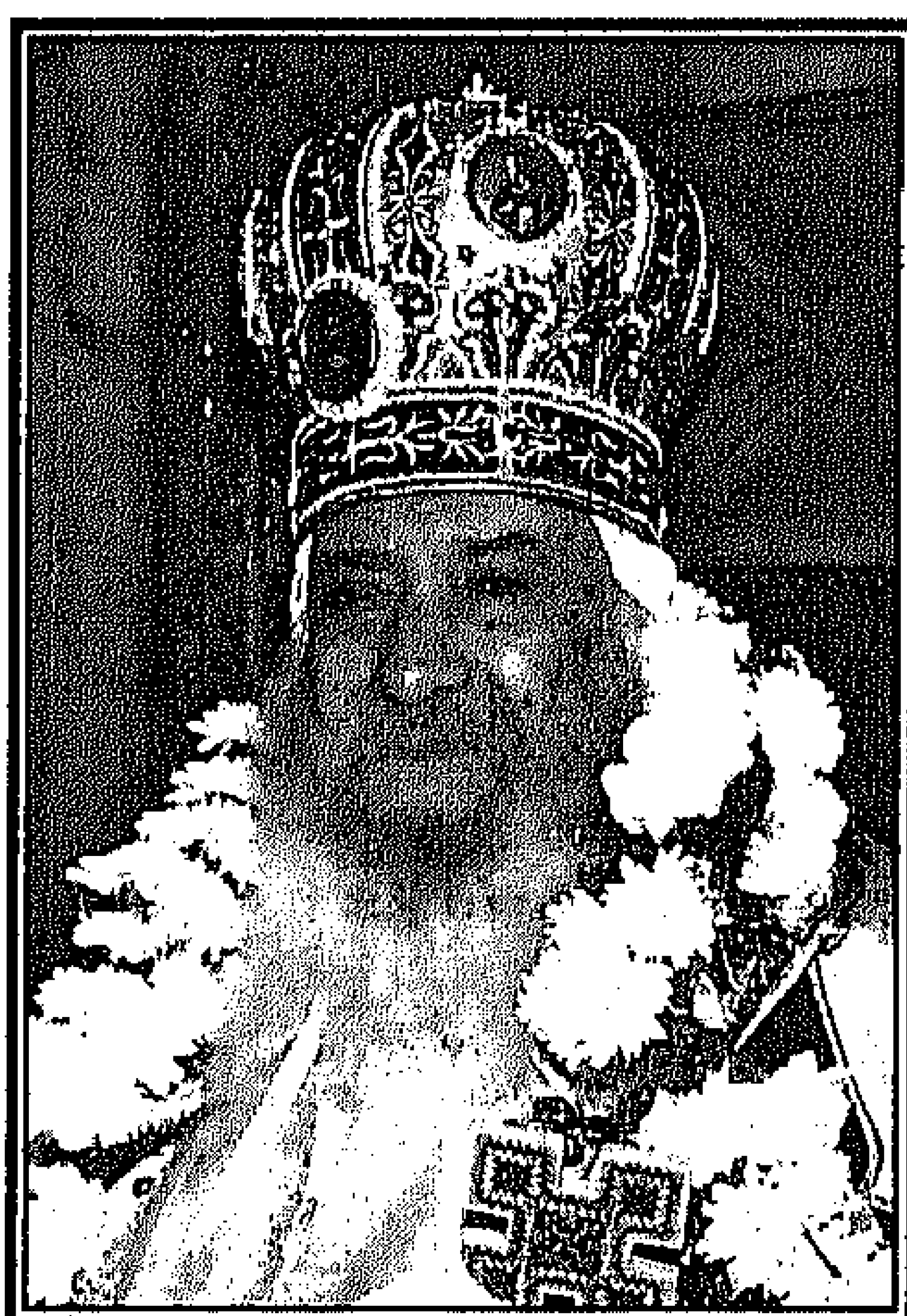
وبخاصة شهداء الإيمان. الذين من أجل الثبات في إيمانهم. احتملوا كل ألوان الألم والتعذيب. في صبر بل في فرح. لكي يقدِّموا أجسادهم للَّه كذبيحة طاهرة مقدسة. يستقبلها الملائكة بالتهليل..

****

إن الذين أرضوا اللَّه بحياتهم العفيفة وأجسادهم الطاهرة. والذين احتملت أجسادهم العذاب من أجله. هؤلاء وأولئك مجّدهم اللَّه.

ومنحهم أكاليل البر. وتوّج أرواحهم في السماء بأكاليل عالية المستوى. وجعل رفات أجسادهم على الأرض بركة لِمَنْ يلتمس البركة.

الجسد إذن يمكن أن يكون خيراً. ونقصد جسد من يفعل الخير.



٢٠٠٣/١١/١١

التوبة

التوبة هى عنصر أساسي في الحياة مع اللّه. وهى لازمة للإنسان في كل وقت. وخاصة في فترة الصوم.

لأنه ما دام الصوم فترة يقترب فيها الإنسان إلى اللّه. فلا بد أن يترك الخطية التي تبعده عن اللّه.

وهكذا بالضرورة يرتبط الصوم بالتوبة ارتباطاً منطقياً وروحياً.

الصوم بدون توبة غير مقبول أمام اللّه. وهو أمام الناس عمل ريائي. مجرد مظهر بلا روح.

أمّا بالتوبة. فحينما يصوم الإنسان. إنما يصوم بقلب نقي. وتشترك روحه مع جسده في صومه.

******

ما هى التوبة؟

ما دامت الخطية هى انفصال عن اللّه. فالتوبة إذن هى رجوع إلى اللّه. هى اشتياق قلب كان قد ابتعد عن اللّه. ثم شعر أنه لا يستطيع أن يبتعد بالأكثر.

وما دامت الخطية هى خصومة مع اللّه. تكون التوبة إذن هى مصالحة مع اللّه.

التوبة هى يقظة روحية. هى رجوع النفس إلى حساسيتها الأولى. ورجوع العقل إلى تفكيره السويّ. ورجوع الإنسان إلى نفسه.. التوبة هى صرخة من الضمير. وثورة على الماضي الخاطئ. ورغبة في تجديد الحياة وتحويلها إلى أفضل... التوبة هى انتصار على الذات. وعلى كافة ما فيها من ضعفات وهى انتصار أيضاً على ما في الخارج من إغراءات.

*****

التوبة هى أكثر ما يتضايق به الشيطان. إذ يفشل بها كل جهاده ضد نقاوتنا. والتوبة هى أكثر ما يفرح به الملائكة المراقبون لجهادنا الروحي على الأرض.

التوبة هى استبدال شهوة بشهوة. فيها تحلّ شهوة الفضيلة والبر. محلّ شهوة الخطيئة والإثم.

التوبة هى التحرُّر من عبودية الخطية. ومن سيطرة العادات الآثمة. وبها يفلت التائب من شباك حاكها حوله الشيطان وجنوده.

التوبة هى تغيير شامل لحياة الإنسان. يشعر بها كل من يعاشره أن حياته قد تغيّرت. وأفكاره وأساليبه قد تغيّرت. وكذلك أسلوبه ومعاملاته.. كل ذلك قد تغيّر إلى الأفضل... فليست التوبة مجرد انفعال وقتي نحو اللّه. إنما هى تحوّل جدي وجذري في حياة الإنسان. مُتجهاً بذلك نحو حياة البر..

****

وأول خطوة في حياة التوبة هى ترك الخطيئة:

والتوبة الحقيقية هى ترك للخطيئة بلا رجعة. لأن الذي يترك الخطية ثم يعود إليها. ثم يتركها ثم يعود.. فهذا لم يتُب بعد.. إنما هذه مجرّد محاولة للتوبة. كلّما يقوم فيها الخاطئ من سقطته. تشده الخطية إلى أسفل. إن صكّ حريته لم يُكتب بعد...

كذلك التوبة معناها ترك الخطية. من أجل محبة الإنسان للّه..

ومن أجل محبته لحياة البر.. لأنه ليس كل ترك للخطية يعتبر توبة! فقد يبتعد الإنسان عن الخطيئة بسبب الخوف. أو الخجل. أو العجز. أو المشغولية "مع بقاء محبتها في القلب"! أو قد لا يفعل الخطية بسبب أن الظروف غير متاحة. وكل ذلك لا يعتبر توبة...

****

التوبة أيضاً هى ترك شامل لكل أنواع الخطايا:

وليست تركاً لمجرد خطية بارزة في حياة الإنسان. مع عدم النظر إلى خطايا أخرى يعتبرها الشخص بسيطة. بنوع من التساهل وعدم التدقيق! بينما هذه "البسيطة" قد تتطوّر وتتحوّل بالوقت إلى شيء خطير!

هذا الأمر يستلزم من كل إنسان جلسة صريحة مع النفس. ويفتِّش فيها كل دواخلها. وكل عيوبها ونقائصها وسقطاتها من كل نوع: سواء من جهة خطايا الفعل. أو خطايا الفكر. أو الحواس. أو مشاعر القلب ورغباته. أو خطايا النيّة التي لم تخرج إلى حيز التنفيذ.

وفي تفتيشه لنفسه ومحاسبته لها. لا يكون مجاملاً لذاته. ولا يحاول أن يغطي خطاياه بالأعذار. أو بمحاولات لإيجاد تبريرات. أو للتخفيف من حجم الخطية ومقدارها.. كل ذلك لا يقود إلى التوبة...

*****

من أهم ما في التوبة. التخلّص من الخطية المحبوبة:

أعني الخطية المُتكرِّرة في حياتك. التي تميل اليها وتضعف مقاومتك أمامها. وقد تكون خطيئة واحدة. ولكنها كافية للضياع.. وأعرف أن الشيطان قد لا يحاربك بكل الخطايا. إنما هو يختبرك أولاً: يمرّ في أرضك. ويجسها. ويعرف ما هى نواحي الضعف التي فيك. وبكل ذكاء يدرك في أية الخطايا يمكنه أن يُحاربك. وفي أيهما تكون أسهل سقوطاً. وتكون أكثر استجابة له..

فكُن صريحاً مع نفسك. واعرف من أين تسقط؟ وما هى المواقع غير المُحصّنة في بنيانك الروحي؟ بل ما هى الخطايا التي يمكن أن تقع فيها. حتى بدون محاربة من الشيطان!! وكُن حريصاً..

****

لا تقل إنها نقطة ضعف واحدة. وأنا متمسّك بالفضيلة في باقي النواحي!

بل ثق جيداً أن خطية واحدة يمكن أن تفقدك الحياة الأبدية:

إن ثقباً واحداً في قاع السفينة كافي لأن يغرقها. ولا يشترط لغرقها وجود ثقوب كثيرة في قاعها..! ومرض واحد يمكن أن يكون السبب في موت إنسان. ولا يشترط لوفاته إصابته بجميع الأمراض! وبقعة واحدة في ثوب كافية لاعتباره مُتسخاً. مهما كان جميلاً ونظيفاً في باقي أجزائه! وميكروب واحد يمكن أن يسبب المرض. وليس كل الميكروبات!

لذلك علينا أن نركِّز على نقطة الضعف الوحيدة في الحياة. لنصل إلى حياة التوبة. مهما كانت لنا من فضائل في نواحي حياتنا.

لا تنظر إلى فضائلك وتفتخر بها. وتنسى ما في حياتك من سيئات!

إن المتهم بالغش أو التزوير أو شهادة الزور. لا يبرره القاضي بحجة أنه في حياته كان يحسن على الفقراء! والمحكوم عليه بالإعدام بسبب القتل. لا تعفيه من الإعدام فضائل معينة في حياته!

إن الخطية لا تمحى بأعمال أخرى من البر. بل تمحى بالتوبة.

لذلك لا تضل الطريق. بل حيثما توجد خطيئتك حاربها وقاومها. ولا تحاول أن تغطي على خطيئة ما بإحدى الفضائل التي لا علاقة لها بهذه الخطية! إن الدمل أو الخراج الذي في جزء من الجسد. لا يشفيه ولا ينظفه ربطه بقماش معقم. أو تناول قرص من الفيتامين! بل يجب معرفة أسبابه ومعالجته وتنظيفه..

*****

كذلك. لكي تتخلّص من خطاياك وتصل إلى حياة التوبة. عليك أن تبحث عن أسباب الخطية وتقاومها:

وعلى رأي المثل العامي "الباب الذي تأتيك منه الريح. سده لكي تستريح". فابحث ما هى أسباب الخطية؟ هل هى نتيجة لصداقة مُنحرفة ذات تأثير عليك. ينبغي أن تتخلّص منها.. أم هو انقياد لبيئة مُعيّنة. ينبغي تغييرها؟ أم هى عادة مُسيطرة يجب التخلُّص منها؟

أمْ عدم التوبة سبب التأجيل؟ فالشيطان قد لا يحاربك بعدم التوبة. إنما هو يحاربك بتأجيلها بعض الوقت! وخلال ذلك تبرد عزيمتك.

أمْ عدم التوبة سببه الضعف واليأس من قدرتك على التوبة؟!

أمْ هناك أسباب أخرى شخصية؟ على أية الحالات. أعرف سبب السقوط في الخطيئة. وحاول أن تتفاداه بكل قوتك.

*****

وكما تعالج أسباب السقوط في الخطيئة. عالج أيضاً نتائجها لا يكفي مُطلقاً أن تترك الخطية. بينما تترك نتائجها قائمة.

إن كان أحد قد ظلم شخصاً ما. فهل تكفي مجرّد توبته عن ظلمه؟!

كلاّ. بل يجب أن يعيد إلى المظلوم حقه. وإلاّ يظل ماضيه في الظلم شاهداً عليه أمام اللّه وأمام ضميره. ويظل المظلوم منه يشكوه إلى اللّه.

مثال ذلك: مُدير ظلم موظفاً في ترقيته. أو خصم له من مرتبه أياماً ظلماً. هل يقول "أنا تبت" وينتهي الموضوع عند هذا الحد؟! كلاّ. بل يجب أن يصلح نتائج خطيئته. ويعالج حالة المظلوم في ترقيته ومرتبه.

كذلك السارق إذا تاب: هل يجوز له بعد توبته أن يستبقي عنده مالاً حراماً حصل عليه من السرقة؟ كلاّ. بل يعيد ما سرقه إلى أصحابه. لكي تكمل بهذه توبته. ويمكنه أن يفعل هذا. ولو بطريقة غير مكشوفة.

*****

أيضاً إن كان أحد قد شهّر بإنسان. وأساء إلى سمعته. ينبغي في التوبة أن يرد له اعتباره.. وإن كان قد كذب. عليه أن يُعلن الحقيقة.

وباختصار. تكمل التوبة بإعطاء كل ذي حقّ حقه.. وأحياناً تكون في الأمر صعوبة عملياً. ولكن على الأقل يجب أن توجد النية في إصلاح نتيجة الخطية. وأن يبذل التائب كل جهده في هذا السبيل. ويترك الباقي لنعمة اللّه ترشده وتساعده على عمل ما قد عجز فيه.

إن تصرّف التائب هكذا. فإن ذلك يساعده على عدم الخطأ في المستقبل. كما أنه يريح ضميره على قدر ما يستطيع.

****

كمال التوبة

قلنا إن أول درجة في التوبة هى ترك الخطية ..

على أن ترك الخطية. لا يكون من جهة العمل فقط. وإنما أيضاً تركها من جهة الفكر فلا ينشغل الذهن بها. وكذلك من جهة مشاعر القلب. فلا يترك الإنسان الخطية بالعمل. ويظل يحبها ويشتاق إليها! ولهذا قال أحد الآباء:

كمال التوبة هو كراهية الخطية.

فإذا كره الإنسان الخطية لا يعود إليها. كما لا يجد أبداً أية صعوبة في مقاومتها. لأنه لم يعد يشتهيها.. مثال ذلك يوسف الصديق. الذي عرضت عليه الخطية بكل إغراء وإلحاح. فرفضها. لأنه كان يكرهها. وكان قلبه نقيّاً.

أيضاً أي إنسان مُهذّب. لا يستطيع أن يلفظ كلمة نابية. مهما كانت الظروف. بسبب كراهيته الشديدة للكلام النابي الذي لا يتّفق مع مبادئه وقيمه الروحية.

*****

والتوبة بكمالها وكل مستوياتها هى الخطوة الأولى في الطريق الروحي والسير مع اللّه. في طاعة له..

هى بداية السير في مخافة اللّه. لأن الذي يخاف اللّه لا يجرؤ أن يعصى وصاياه. ويستحي أن يخطئ أمام اللّه الذي يراه ويسمعه. وكما قيل في المزمور "بدء الحكمة مخافة اللّه"..

بالتوبة نستوفي الجانب السلبي في الحياة الروحية. أي البعد عن الخطيئة والإثم.. ويبدأ بعد ذلك الجانب الإيجابي. وهو عمل البر. ثم النمو في هذا البرّ إلى أعلى المستويات التي تستطيعها الطبيعة البشرية بمؤازرة النعمة الإلهية لها.

******

من ثمار التوبة

* أول ثمرة للتوبة. هى مغفرة الخطايا. إذا ما كانت توبة حقيقية مقبولة من اللّه. وكانت أيضاً توبة ثابتة..

* من ثمار التوبة أيضاً: الاتضاع وانسحاق القلب..

والبعد عن الافتخار والكبرياء. إذ يتذكر التائب سقطاته وضعفه.

* ولهذا فمن ثمار التوبة الشفقة على المُخطئين. إذ قد جرب التائب أنه هو أيضاً قد مرت عليه فترات ضعف قد سقط فيها. لذلك لا يقسو في أحكامه على من أخطأ. لأنه يعرف ضعف الطبيعة البشرية. وقسوة حروب الشيطان.

* أيضاً من ثمار التوبة الحماس الروحي للسير في هذه الحياة الجديدة الفاضلة التي نالها بتوبته.

* وفي الحماس يحرص التائب على التدقيق الشديد في سلوكه. حتى لا يعود ليسقط مرة أخرى.

٢٠٠٣/١١/١٨

الاستقامة

الإنسان السوي الفاضل هو إنسان مُستقيم: مُستقيم في فكره وفي ضميره وفي سلوكه. أمام اللّه والناس..

كل طرقه مُستقيمة: لا هى ملتوية. ولا هى معوجّة. ولا مُتعرّجة. إنما هى مُستقيمة. يقولون عنه بالعامية إنه رَجُل دوغري. والإنجليزية Straight. أو Fair أي حقّاني. لا يسلك في الباطل. ولا يجمع أحياناً بين الباطل والحق! إنه يسير باستمرار في طريق مستقيم. لا ينحرف عنه يمنة ولا يسرة.

بل كل شيء عنده في توازن عجيب. لا يتطرّف فيه نحو اليمين. ولا نحو اليسار.

إذن فلنتحدّث عن الاستقامة. وما علاماتها؟ وكيف تكون؟ وما محارباتها؟ وكيف نميزها؟

***

الاستقامة ضد التطرُّف

المُبالغة في الطريق الروحي غير مقبولة: سواء كانت مبالغة في الكلام. أو في الوصف. أو في السلوك.

فالمبالغة في الكلام لون من الكذب. وكذلك المبالغة في الوصف. ولا تعطي هذه ولا تلك صورة واقعية عن الحقيقة. وعلى الأقل لا تعطي صورة دقيقة. كذلك المبالغة في السلوك ليست مُستقيمة. لأنها نوع من التطرف. والذين يبالغون في التضييق على نفوسهم. يتعودون هذا التضييق. فيضيقون على الآخرين. وكثيراً ما تكون أحكامهم قاسية وظالمة.. وعن أمثال هؤلاء قال السيد المسيح إنهم "يحمّلون الناس أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل" وأنهم "يغلقون ملكوت اللّه أمام الناس. فلا هم يدخلون. ولا يجعلون الداخلين يدخلون".

إنهم يصعّبون طريق الفضيلة أمام الراغبين فيها. وقد يوقعونهم في اليأس. أو يسيّرونهم في التطرُّف مثلهم. وليست هذه طُرقاً مُستقيمة.

***

والتطرُّف في الفضيلة ليس له ثبات. وقد يتحوّل إلى العكس أحياناً!

إنسان قد يبالغ في مُمارسة فضيلة ما. بلون من التطرُّف. وقد يستمر على ذلك فترة. ثم لا يستطيع أن يستمرّ عملياً في أسلوب تطرّفه. فإما أن يرجع إلى الوراء إلى مستوى أقل بكثير مما بدأ به. أو أن يتظاهر بالثبات فيما هو فيه بأسلوب ريائي. وحقيقته غير ذلك..أما الذي يسير في طريق الفضيلة بأسلوب هادئ وتدريجي ومتزن. فإنه يكون أكثر ثباتاً. وأكثر نمواً. وما أجمل قول بعض الحكماء: "**قليل دائم. خير من كثير مُنقطع**"

أي أن عملاً روحياً معتدلاً. ولو بدأ بسيطاً. ويستمرّ فيه الشخص فترة طويلة حتى يثبت ويستقر. ثم ينمو بطريقة هادئة تدريجية ولكنها راسخة.. هذا أفضل بكثير من قفزة طائشة. تنتهي إلى نكسة!

إن الخط الذي يعلو ويهبط في غير استقرار. ليس هو خطاً مُستقيماً.. وهكذا الذبذبات في الحياة الروحية. لا تتفق مع استقامة المسيرة.

***

الاستقامة ضد الباطل

إن كان من الخطأ التطرُّف حتى فيما يظنه الإنسان خيراً. فماذا تقول إذن عن الباطل والتطرُّف فيه؟!!

قد يسلك الإنسان في الباطل عن طريق الجهل. ومع ذلك يحكم عليه بأنه غير مُستقيم في سلوكه. لأن تصرُّفه كان ضدّ الحق والبر. سواء كان يعرف ذلك أو لا يعرف.. وما أعمق قول سليمان الحكيم "قد توجد طريق تبدو للإنسان مُستقيمة. وعاقبتها طرق الموت"!

أحياناً قد يصوّر الكبرياء للإنسان أن كل تصرُّفاته مُستقيمة. وربما تكون الحقيقة عكس ذلك تماماً. وكما قال الحكيم "طريق الجاهل مستقيم في عينيه".

الاستقامة يلزمها قلب مُتّضع: يدرك الخطأ. ويصحح أسلوبه لكي يكون مُستقيماً. أمّا المتكبر فيستمر في عدم الاستقامة. لأنه يرفض الاعتراف بخطأ طريقه! وهكذا نرى الصلة قوية بين الاستقامة والاتضاع.

***

وقد يسلك إنسان في الباطل نتيجة مرض نفسي. فيفقد استقامة طريقه:

كإنسان في مرضه النفسي يظن أن كثيرين ضده يضطهدونه! فيكره البعض منهم. ويقاوم البعض. ويشكو من جميعهم. وقد يشتم هذا وذاك. وتتعقد نفسيته. ويظن أن أخطاراً تترصده. حيث لا يوجد خطر ضده على الإطلاق! وفي كل هذا يفقد استقامة سلوكه نتيجة لمرضه النفسي..

حتى لو كان هذا الشخص في حالة من المرض لا توقعه في مسؤولية ولكن ذلك لا يمنع من أن السلوك غير مستقيم.. الباطل هو الباطل. سواء أدين عليه صاحبه أمْ لم يُدن.. وربما الإنسان المريض نفسياً أو عقلياً. لا نقول عنه إنه غير مستقيم. ولكن نقول عن تصرفاته إنها غير مستقيمة.

***

أيضاً قد يوجد إنسان يحاول أن يجمع بين الحق والباطل. وهذا غير مستقيم

ففي الباطل الذي يرتكبه يكون غير مستقيم. ولا يشفع فيه الحق الذي يمارسه. بل الباطل يشوّه ذلك الحق. ولا يعتبر الإنسان غير مستقيم. إذا ما ارتكب جميع الخطايا. بل تكفي خطيئة واحدة تصمه بعدم الاستقامة.

أمّا إذا اعترف الإنسان بأنه أخطأ في ما ضمه إلى تصرُّفاته من الباطل. فإنها تعتبر توبة. إذا لم يعد إلى ذلك مرة أخرى.

ولكن الخطر هو أن شخصاً يعتبر الباطل الذي فيه لوناً من الاستقامة!!

وذلك بأن يُلبِس الخطيئة ثوب الفضيلة. ويعتبر أنه على حق في كل أخطائه. بل لا يُسمّيها أخطاء!! وبالتالي تستمر معه. لا يتوب عنها. ولا يغيّر مبادئه ولا أسلوب تقييمه للأمور..!

مثل هذا الشخص تصبح عدم الاستقامة الفكرية والضميرية عنده. سبباً في استمرار عدم الاستقامة في سلوكه. كطبع من طباعه..!

***

ما أخطر عدم الاستقامة في الضمير. حين تختل جميع موازين الإنسان وقيمه!

ويصبح حكمه على الأمور غير مستقيم. ويرتكب الخطيئة أو الإثم بضمير مستريح. أو بضمير مريض. أو ضمير واسع غير مستقيم..!

أمثال هذا النوع من الناس. يحتاجون إلى توعية وإرشاد. أو يحتاجون إلى تربية روحية على أساس سليم. لإصلاح موازينهم وأحكامهم. فالذين يقبلون التعليم منهم. يكون هناك رجاء في عودتهم إلى الاستقامة فكرياً وضميرياً. وسلوكاً.. على أن البعض قد يحاول الجمع بين الحق والباطل بطريق الرياء!

***

الاستقامة ضد الرياء

الذين يسلكون بالرياء. يحاولون أن يبدو ظاهرهم من الخارج مُستقيماً!

بينما هُم في الداخل عكس ذلك. فيظهرون للناس أبراراً وهم خُطاة. قلوبهم غير مظهرهم الخارجي. وربما واقعهم العملي في بيوتهم. غير سمعتهم في المجتمع. هم كالمدافن المبيضة من الخارج. وفي داخلها عظام نتنة!.. وبالرياء يجمعون بين نوعين من عدم الاستقامة. أولها داخلهم غير المستقيم. والأمر الثاني هو تظاهرهم بالاستقامة. وهو تظاهر غير مستقيم!

ويقعون بذلك في خطيئة مزدوجة. لأنه إن كان من يفعل خيراً أمام الناس لكي يروا بره. يقع في خطيئة.. فكم بالأكثر الذين يكونون غير مُستقيمين. ويظهرون أمام الناس بصورة الاستقامة!!

إنهم يذكروننا بيهوذا الذي قبّل السيد المسيح بينما الخيانة في قلبه!

***

وبالمثل كل خيانة تحمل إلى جوار خطيئتها.. عدم استقامة..

إن العدو الذي يجاهر بعداوته. غير الخائن الذي يتظاهر بالحب والصداقة. وهو يدبّر مؤامرته لصديقه! هنا عدم استقامته مزدوجة: فيها المؤامرة والخيانة. وفيها الرياء.

إن الإنسان المرائي يكون غالباً ذا وجهين وذا لسانين. ومُتدرِّباً على أن يلعب على حبال كثيرة: مع الشخص. ومع خصمه في نفس الوقت!

وكثيراً ما ينكشف أمر المرائي. كما قال الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته .. فإذا التحفت به فإنك عارٍ

***

يدخل في هذا الموضوع أيضاً كلمات النفاق والتملق والمديح الكاذب:

كل هذا النوع من الناس تنقصه الاستقامة في سلوكه وفي كلماته. كما يدل النفاق والملق على صغر النفس. وعلى غرض في الداخل يلجأ إلى سلوك رخيص يضرّ به غيره كما يضرّ به نفسه.

أمّا الإنسان المستقيم: فإن قال كلمة حُب أو مديح بشفتيه. يكون قلبه أيضاً بنفس المشاعر. ويكون عقله مقتنعاً بما يقول.

لا تناقض عند المستقيمين بين القلب واللسان. إنما التناقض يوجد عند المرائي أو المنافق. الذي يتكلم بكلام المديح أمام صاحبه أو رئيسه. وقد يقول العكس في غيبته..! الغيبة أيضاً تدل على عدم الاستقامة.

***

الإنسان المستقيم لا تقوده سياسات وأغراض. ولا تغيّر ضميره ولسانه

فلا يسلك في الرياء ولا في النفاق. من أجل غرض يريد أن يحققه. أو لأجل شهرة يحصل عليها. أو في سبيل الانضمام إلى تيار مُعيّن. إنما هو هو: من الداخل كما من الخارج.

ليس هو شخصيْن. بل هو شخص واحد. لا يخالف ضميره. لكي يرضى بكلامه أو تصرُّفه. ولا يقول إلاّ ما يؤمن به في قلبه أنه حق.

إن الرياء ضد الاستقامة. لأنه محاولة غير مُستقيمة للجمع بين طريقين متضادين. بأسلوب الخداع والكذب.

***

الخداع والكذب ضد الاستقامة

والذي يكذب يجمع الأمرين معاً. لأنه يحاول بكذبه أن يخدع غيره. وبالكذب يخترع أباطيل تدل على عدم استقامته... قال الشاعر:

لي حيلة فيمن ينمّ ... وليس في الكذاب حيلةْ

من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلةْ

أمّا الإنسان المستقيم. فهو إنسان صريح وواضح.. ولا يكذب ولا يخادع. ولا يصل إلى غرضه إلاّ عن طريق الحق. لذلك فهو موضع ثقة من الناس بعكس مَنْ يلجأ إلى الكذب والخداع وهُما طريقان غير مُستقيمين.

إن المستقيمين يحتقرون في داخلهم من يحاول أن يصل إلى غرضه عن طريق الخداع. وإن وصل. يعتبرونه وصولاً رخيصاً.

الخداع ضد الحق. والإنسان المستقيم هو إنسان حقاني. لا يقبل على نفسه أن يظلم أحداً. ولا يقبل على نفسه أن يكون مُخادعاً.

إنه يؤمن. ليس فقط باستقامة الغرض والهدف. إنما أيضاً باستقامة الوسيلة. لذلك فهو يرفض التحايل.

***

التحايل ضد الاستقامة

الإنسان غير المستقيم. إذا لم توصله استقامة الوسيلة. يلجأ إلى الحيلة. فإن لم يجد حيلة سليمة. فإنه يلجأ إلى التحايل.

ومن ضمن ذلك: اللف والدوران.. علماً بأن الخط المنحني ليس خطّاً مُستقيماً. والخط الدائري ليس كذلك.. والإنسان المُستقيم يرفض كل طرق اللّف والدوران التي يحاول بها أن يُخفي غرضه. لكي يصل بأسلوب غير ملحوظ. أو يبدو غير مقصود!

لذلك فهو يرفض سياسة السبب الثاني أو الثالث.. هذه التي يستخدمها البعض. مُخفين السبب الأول أو السبب الحقيقي. ومُقدِّمين أسباباً أخرى ثانوية أقل أهمية.. وربما تكون تلك الأسباب الثانوية من الأمور التي يهتم بها السامع. ولا علاقة أساسية لها بالموضوع. وذلك لكي ينالوا موافقته بأي الطرق.

إن السبب الثاني حتى لو كان حقاً. ليس هو صدقاً خالصاً. وذلك بإعطائه أهمية تخدع السامع..! واستخدامه نوعاً من التحايل.

***

كذلك أيضاً المبالغة: سواء في تقييم الأشياء ونوعياتها. أو المبالغة في وصف منافعها أو مضارها. لكي توصل السامع إلى اقتناع مُعيّن ما يلبث أن يكتشف زيفه بعد حين..

كلها أساليب لا تتفق مع الاستقامة. ولا تتفق مع احترام المتكلم لضميره أو احترامه لضمائر غيره.

٢٠٠٣/١١/٢٥

ما هو الخير؟

كلّنا نؤمن بالخير. ونريد أن نعمل الخير.

ولكننا نختلف فيما بيننا في معنى الخير وفي طريقته. وما يظنه أحدنا خيراً. قد لا يراه كذلك! فما هو الخير؟ وما هي مقاييسه؟

لكي نحكم على أي عمل بأنه خير: ينبغي أن يكون هذا العمل خيراً في ذاته. وخيراً في وسيلته.. وخيراً في هدفه. وبقدر الإمكان يكون أيضاً خيراً في نتائجه..

وسنحاول أن نتناول هذه النقاط واحدة فواحدة. ونحلّلها.. وسؤالنا الأول: ما معنى أن يكون العمل خيراً في ذاته؟

***

في الواقع أن كثيرين بنيّة طيبة قد يعملون أعمالاً يظنونها خيراً. وقد تكون على عكس ذلك تماماً.

مثال ذلك الأب الذي يدلّل ابنه تدليلاً زائداً. يتلفه!

ومثال ذلك أيضاً الأب الذي يقسو على ابنه قسوة تجعله يطلب الحنان من مصدر آخر ربما يقوده إلى الانحراف!

وقد يظن كل من هذيْن الأبويْن أنه يفعل خيراً. وأن أسلوبه هو التربية السليمة الصالحة. بينما يكون مُخطئاً في فهم معنى الخير..

وربما يكون الخير في مرحلة متوسطة بين التصرفين: بين التدليل والشدة. وقد يكون في التدليل حيناً. وفي الشدة حيناً آخر. حسبما تقتضي الظروف والأسباب.

***

وإذا شك إنسان فيما يكون خيراً. عليه أولاً أن يتروّى حتى يتثبت. ومن الممكن أيضاً أن يسترشد بغيره.

يستشير شخصاً راجح الفكر وواسع العقل. وذا خبرة في مثل هذا الأمر. فيضيف إلى عقله عقلاً. وربما يطرق معه زاوية مُعينة. أو يعرض له بعض ردود الفعل.

من أجل ذلك أوجد اللّه المشيرين وذوي الخبرة والفهم. كل منهم دليل في طريق الحياة. كما أوجد المربين والحكماء. وجعل هذه المشورة أيضاً في مسؤولية الوالديْن والمُعلّمين والقادة. وكل من يؤتمنون على التربية والتوعية والإرشاد.

***

ولكن يُشترط في المُرشد الذي يدل الناس على طريق الخير. أن يكون هو نفسه حكيماً. صافياً في روحه.

وينبغي أن يكون هذا المُرشد عميقاً في فهمه. لئلاّ يضل غيره من حيث لا يدري ولا يقصد. فقد قال السيد المسيح "وأعمى يقود أعمى. كلاهما يسقطان في حفرة".

حقاً ما أصعب السقطة التي تأتي نتيجة أن يتبوأ إنسان غير مؤهّل مسؤولية الإرشاد. فيضيّع غيره. فلا يصح إذن أن يُسرِع شخص بإقامة نفسه على هداية غيره. نتيجة ثقة زائفة بذاته.

لذلك كان كثيرون من المتواضعين يهربون من مراكز القيادة الروحية. عارفين ان الشخص الذي يقود غيره في طريق ما. أو ينصح غيره نصيحة ما. إنما يتحمّل أمام اللّه مسؤولية نصائحه وإرشاداته.

***

فعلى الإنسان حينما يسترشد. أن يُدقِّق في اختيار مرشديه:

ولا يسمع لكل قول. ولا يجري وراء كل نصيحة مهما كان قائلها. ولا يتبع الناس بل يتبع الحق. لأنه "ينبغي أن يطاع اللّه أكثر من الناس" فنصائح الناس يجب أن تكون موافقة لوصايا اللّه.

إذن الخير مُرتبط بالحق الخالص. ومرتبط بكلام اللّه إن أحسن الناس فهمه. وإن أحسنوا تفسيره. وإن ساروا وراء روحه لا حرفه.

إن كلام اللّه هو الحق الخالص. والخير الخالص

ولكن تفسير الناس لكلام اللّه. قد يكون شيئا آخر!

إن كلام اللّه يحتاج إلى ضمير حي يفهمه. وإلى قلب نقي يدركه. وما أخطر ان نحدّ كلام اللّه بفهمنا الخاص! وما أخطر أن نفتر بفهمنا. ونظن أنه الحق ولا حق غيره! وأنه الفَهْم السليم ولا فَهْم غيره!

إن الذي يريد أن يعرف الخير. عليه أن يتواضع..

يتواضع. فيسأل ويقرأ ويبحث ويتأمّل. محاولاً أن يعمل وأن يفهم. وحينما يسأل. عليه أن يسأل الروحيين المتواضعين الذين يكشف لهم اللّه أسراره. كما يسأل الحكماء الفاهمين. ذوي المعرفة الحقيقية والإدراك العميق. وكما قال الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه .. واطلبوا الحكمة عند الحكماء

لو كنا جميعاً نعرف الخير. ما كُنا نتخاصم وما كُنا نختلف..

علينا إذن في تواضع قلب أن نصلّي كما صلّى داود النبي من قبل: "علّمني يارب طُرقك.. فهّمني سُبلك".

إن الصلاة بلا شكّ. هي وسيلة أساسية لمعرفة الحق والخير.

وبها يكشف اللّه للناس الطريق السليم الصحيح.

***

وهنا نسأل سؤالاً هاماً:

هل ضمير كل إنسان هو الحكم في معرفة الخير؟ وهل يتبعه بلا نقاش؟

بداءة أقول: يجب على كل إنسان أن يطيع ضميره. ولكن يجب أيضاً أن يكون ضميره صالحاً. فهناك ضمائر تحتاج إلى هداية.

إن الأخ الذي قتل أخته دفاعاً عن الشرف! أو الأخ الذي قتل أخته. لأنها أرادت أن تتزوّج بعد وفاة زوجها الأول.. ألم يكن كل منهما مستريح الضمير في قتله لأخته؟! ألم يسر كل منهما على هدى من ضميره. وكان ضميره مريضاً؟!

إن الضمير يستنير بالمعرفة: بالوعظ والتعليم والإرشاد والنصح. وبالقراءة السليمة.. فلنداوم على كل ذلك. لكي يكون لنا ضمير صالح أمام اللّه.

لأننا كثيراً ما نعمل عملاً بضمير مستريح. واثقين أنه خير! ثم يتّضح لنا بعد حين أنه كان عملاً خاطئاً. فنندم على ذلك العمل الذي كان يُريحنا ويفرحنا من قبل!

ومثل هذا العمل قد يُسمّى في الروحيات أحياناً "خطيئة جهل".

***

إن الإنسان الصالح ينمو بعد يوم في معرفته الروحية

وبهذا النمو يستنير ضميره أكثر. ويعرف ما لم يكن يعرفه. ويدرك أعماقاً من الخير لم يكن يعرفها قبلاً. وربما بعض فضائله السابقة يتّضح له كأنها لا شيء. بل يستصغر نفسه حينما كان يتيه بها في يوم ما!

من هنا كان القديسون متواضعين.. لأنهم بنموّهم في الفضيلة يتكشفون كل يوم ضآلة الفضائل التي جاهدوا من أجلها زماناً طويلاً!

وذلك بسبب نموّ ضميرهم. واستنارته في معرفة الخير.

***

الخير أيضاً يرتبط بنسيانه: إذ ننسى الخير الذي نفعله. من فرط انشغالنا بخير أعظم نريد أن نعمله.. أو ننسى أننا عملنا هذا الخير. موقنين أن اللّه هو الذي عمله بواسطتنا. وكان يمكن أن يعمله بواسطة غيرنا. لولا أنه من تواضعه ومحبّته. شاء أن يتم هذا الخير على أيدينا. على غير استحقاق منا لذلك.

ما هو الخير؟

الخير هو أن ترتفع فوق ذاتك ولذاتك. وأن تطلب الحق أينما وجد. وتتثبت فيه. وتحتمل لأجله. الخير هو النقاء والقداسة والكمال.

***

الخير لا يتجزأ. فلا يكون إنساناً خيّراً وغير خير في نفس الوقت.

أي لا يكون صالحاً وشريراً في وقت واحد.

الإنسان الخير ليس هو الذي تزيد حسناته على سيئاته. فربما سيئة واحدة تتلف نقاوته وصفاء قلبه. إن ميكروباً واحداً كافٍ لأن يُلقي إنساناً على فراش المرض. ليس هو محتاجاً إلى مجموعات مُتعدِّدة من الجراثيم. لكي يُحسب مريضاً!! تكفي جرثومة واحدة. هكذا خطية واحدة تضيّع نقاوة الإنسان.

***

إن الشخص الشرير ليس هو الذي يرتكب كل أنواع الشرور. إنما بواسطة شر واحد يفقد نقاوته. مهما كانت له فضائل مُتعدّدة.

فالسارق إنسان شرير. لا نحسبه من الأخيار. مهما كان في نفس الوقت لطيفاً أو بشوشاً. أو متواضعاً أو متسامحاً. أو كريماً أو خدوماً.

والظالم إنسان شرير. وكذلك القاسي والشتّام. وقد يكون أي واحد من هؤلاء شجاعاً. أو مواظباً على الصلاة والصوم!

فإن أردت أن تكون خيّراً. سِر في طريق الخير كله. ولا تترك شائبة واحدة تعكّر نقاء قلبك. ولا تظن أنك تستطيع أن تغطّي رذيلة بفضيلة.. أو أن تعوّض سقوطك في خطيئة معينة. بنجاحك في زاوية أخرى من زوايا الخير.. بل في المكان الذي هزمك الشيطان فيه. يجب أن تنتصر.. على نفس الخطية. وعلى نفس نقطة الضعف.

***

كن خيّراً. وقِس نفسك بكل مقاييس الكمال. واعرف نواحي النقص التي فيك. وجاهد لكي تنتصر عليها..

فنحن مطالبون بأن نسير في طريق الكمال حسبما نستطيع. لأن النقص ليس خيراً.

والخير ليس هو فقط أن تعمل الخير. بل بالأكثر أن تحب الخير الذي تعمله. فقد يوجد إنسان يفعل الخير مُرغماً دون أن يريده. أو أن يعمل الخير بدافع من الخوف. أو بسبب الرياء. لكي ينظره الناس. أو لكي يكسب مديحاً أو لكي يهرب من انتقاد الآخرين...!

وقد يوجد من يفعل الخير وهو متذمّر ومُتضايق. كمَنْ يقول الصدق ونفسيته مُتعبة. ويود لو يكذب وينجو. أو من يتصدّق على فقير. وهو ساخط وبوده ألاّ يدفع!

فهل نسمّي كل ذلك خيراً ؟

بل عمق الخير. هو محبّة الخير الذي تفعله...

***

فقد يوجد من يفعل الخير لمجرد إطاعة وصية اللّه. دون أن يصل قلبه إلى محبة الوصية! كمن لا يرتكب الزنا والفحشاء. لمجرد وصية اللّه التي تقول "لا تزن". دون أن تكون في قلبه محبّة العفة والطهارة! وفي ذلك قال القديس جيروم: يوجد أشخاص عفيفون وطاهرون بأجسادهم. بينما تكون نفوسهم زانية!

مثال آخر: من يدفع من ماله صدقة للفقراء. لمجرد إطاعة الوصية. ويكون كمَنْ يدفع ضريبة أو جزية! دون أن تدخل محبة الفقراء إلى قلبه..

***

كل هؤلاء اهتموا بالخير في شكلياته. وليس في روحه. والخير ليس شكليات. وليس لونا من المظاهر الزائفة. إنما هو روح. ويكمن في القلب.

لذلك فاختبار الخير يكون بمعرفة حالة القلب من الداخل.

ولكي نحكم على أي عمل بأنه خير. يجب أولاً أن نفحص دوافعه وأسبابه وأهدافه. فالدوافع هى التي تظهر لنا خيرية العمل من عدمها.

فقد يوبّخك اثنان: أحدهما بدافع الحب. والآخر بدافع الإهانة.. ويكون عمل أحدهما خيراً. وعمل الآخر شرّاً. وقد يشترك اثنان في تنظيم سياسي وطني: أحدهما من أجل حُب الوطن والتفاني في خدمته. والآخر من أجل حُب الظهور أو حُب المظاهر. وهنا الهدف يختلف. والنيّة تختلف..

***

الخير أيضاً ليس عملاً مُفرداً أو طارئاً. إنما هو حياة.

فالشخص الرحيم ليس هو الذي أحياناً يرحم. أو الذي ظهرت رحمته في موقف مُعيّن.. إنما الرحيم هو الذي تتصف حياته كلها بالرحمة. فتظهر الرحمة في كل أعماله. وفي كل معاملاته: في أقواله وفي مشاعره. حتى في الوقت الذي لا يباشر فيه عمل رحمة.

الخير هو اقتناع داخلي بالحياة الصالحة. مع إرادة مُثابرة مجاهدة في عمل الخير وتنفيذه.. هو حُب صادق لفضيلة. مع حياة فاضلة.

الخير هو شهوة في القلب لعمل الصلاح. تعبّر عن ذاتها وعن وجودها بأعمال صالحة. وليس هو مجرد روتين إلى للعمل الصالح.

ما لم يصل الإنسان إلى محبة الخير. والتعلّق به. والحماس لأجله. والجهاد لتحقيقه. فهو لا يزال في درجة المبتدئين.

"وللمقال بقية"

٢٠٠٣/١٢/٢

الخير [٢]

حينما نتكلّم عن الخير. إنما نقصده بمعناه النسبي:

أي بالنسبة إلى ما نستطيع إدراكه من الخير. وما نستطيع عمله من الخير.. أي الخير بقدر فهمنا البشري له. وبقدر طاقته المحدودة في ممارسته.

والإنسان الخيّر يعمل باستمرار على توسيع طاقاته في عمل الخير.

ولا يكتفي بالخير الذي يعمله. من أجل اتجاهه نحو خير أكبر يهفو إلى عمله. وفي اشتياقه نحو اللامحدود. يشعر في أعماقه بأن هناك آفاقاً في الخير أبعد بكثير ممّا يفهمه حالياً.

***

وربما بعدما نخلع هذا الجسد المادي. وندخل في عالم الروح.. سننظر إلى ما عملناه قبلاً من خير. فنذوب خجلاً. ونتوارى منه حياء!!

فكم بالأولى نظرتنا إلى ما ارتكبناه من شر؟!

لذلك فإن مستوى الخير عند القديسين. أعلى من مستواه عند البشر العاديين. ومستوى الخير عند الملائكة أعلى بكثير من مستواه عند البشر أجمعين. أمّا مستواه عند اللّه فهو غير محدود وغير مدرَك.

إن اللّه هو صاحب الخير المُطلَق. وأعمالنا نحن تعتبر خيراً. بقدر ما تدخل فيها يد اللّه.. وبقدر ما نسلّم إرادتنا إلى مشيئة اللّه الصالحة. فيعمل اللّه فينا. ويعمل اللّه بنا. ويعمل اللّه معنا.

ونكون نحن مجرّد أدوات طيّعة في يد اللّه الكلّي الحكمة والكلي القداسة.

***

وبقدر بعدنا عن اللّه. نبعد عن الخير.

نعم. يبعد الإنسان عن الخير. عندما يُعلن استقلاله عن اللّه..!

أي عندما يرفض أن يقود اللّه حياته. وعندما تبدأ إرادته البشرية أن تعمل منفردة بعيداً عن اللّه!

أمّا القديسون فإنهم يحيون حياة التسليم. التسليم الكامل لعمل اللّه فيهم.. هؤلاء لا تكون عليهم دينونة في اليوم الأخير.. وكأن كلاً منهم يقول للرب في دالة الحُب: "على أي شيء تحاكمني يارب. وأنا من ذاتي لم أعمل شيئاً؟! كل شيء بك كان. وبغيرك لم يكن شيء في حياتي ممّا كان.. فيك كانت حياتي. وفي يديك استسلمت إرادتي".

***

إذن حياة الخير الكامل. هى حياة التسليم:

هي الحياة التي فيها يسلم نفسه كلية للّه: كل فكره. وكل مشاعره. وكل إرادته. وكل عمله. فإذا فكّر. يكون فكره متمشياً مع مشيئة اللّه. وإذا عمل. فإنما يعمل ما يريده اللّه. أو بالحري ما يعمله اللّه بواسطته.. فهل أعمالك وأفكارك أيها القارئ العزيز هى من هذا النوع؟ أمْ هى أعمال بشرية بحتة. قابلة للزلل وللخطأ والسقوط؟

***

والخير كالماء.. دائماً يمشي. ولا يقف..

فإن وقف. أصابه الركود!

لذلك فالخير باستمرار يمتد إلى قُدّام. وينمو ويكبر. وباستمرار يتحرّك نحو اللّه ونحو الناس.. لا يتوقف منتظراً مجيء الناس إليه يخطبون ودّه. بل هو يتّجه إليهم. ويذهب إليهم دون أن يطلبوه. ولأنه الخير. فيه عنصر المبادرة.. والخير فيه مُتعة. حتى إن كان مملوءاً آلاماً. فآلامه حلوة. تريح القلب. ويجد الإنسان فيه عزاء.

***

والخير لا يشترك إطلاقاً مع الشر. لأنه أية شركة للنور مع الظلمة؟!

لذلك نحن لا نوافق مُطلَقاً على المبدأ الميكافيلّي القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة! أي أن الغاية الخيّرة يمكن أن تكون تبريراً للواسطة أو الوسيلة الخاطئة!

***

إن وسيلة الخير ينبغي أن تكون خيراً مثله. والخير لا يقبل وسيلة شريرة توصل إليه. إذ كيف يجتمع الضدان معاً؟!

فالذي يلجأ إلى الكذب لينقذ إنساناً "بشهادة زور".. والذي يلجأ إلى القسوة والعنف. لكي ينشر بهما الحق أو ما يظنه حقّاً.. والذي يلجأ إلى الرشوة. لكي يحقّق لنفسه أو لغيره خيراً..

والذي يلجأ إلى الاجهاض لكي يستر على فتاة حملت سفاحاً.. كل أولئك قد استخدموا وسائل شريرة. لكي يصلوا بها إلى الخير أو إلى ما يظنونه خيراً.

***

ولكن لعلّ البعض يسأل:

وماذا نفعل إذن. إن كنا مضطرين إلى هذه الوسائل؟!

أقول إن هذه كلها طرق سهلة وسريعة. يستخدمها من يريد أن يصل دون أن يبذل مجهوداً للوصول إلى الخير بطريقة سليمة لا تتعب الضمير. ولا يكسر فيها وصية من وصايا اللّه. أو قانوناً من قوانين الدولة.

فالكذب مثلاً حل سهل وسريع. يصل به الشخص عن طريق خداع سامعه.. أمّا الإنسان الخيّر الحكيم. فإنه يفكّر ويجهد ذهنه بعيداً عن هذه الوسيلة الخاطئة.. ويقيناً أنه سيصل إلى وسيلة أخرى تريح ضميره. وتجعله موضع ثقة ممّن يتعامل معهم.

كذلك العنف والقسوة: كل منهما حلّ سهل وسريع.. وفي نفس الوقت منفّر يخسر فيه صاحبه محبة الناس. ويلجأ إليه من لا يريد أن يتعب نفسه في الوصول إلى حلّ آخر لطيف ووديع.

***

إن الخير يريدك أن تتعب من أجل إتمامه، ولا تلجأ إلى الحلول السهلة الخاطئة..

ويقدر تعبك في سبيل الخير. تكون مكافأتك عند اللّه.. وبهذا المقياس تقاس خيريتك. إن الحل السهل أو التصرُّف السهل. يستطيعه كل إنسان. أمّا الذي يجاهد ويتعب للوصول إلى تصرُّف سليم. فإنه يدل على سلامة ضميره وحُبه للخير.

قال السيد المسيح "ادخلوا من الباب الضيق. لأنه واسع هو الباب. ورحب هو الطريق الذي يؤدِّي إلى الهلاك. وكثيرون يدخلون منه!"

إذن ينبغي أن نتعب من أجل الخير. إن كنا نحب الخير..

وينبغي أيضاً أن نجد لذة في هذا التعب.

***

عليك إذن أن تفحص الوسائل التي تستخدمها للوصول إلى الخير. وتتأكد من أنها كلها وسائل سليمة. وتفعل ذلك بضمير صالح أمام اللّه. وبدون محاباة لنفسك. وبدون استخدام لأسلوب التبريرات.. ذلك لأن طُرقاً رديئة قد يسلكها البعض من أجل محبّتهم للخير!!

وكما قال البعض: كم من جرائم ارتكبت بِاسم الفضيلة!!

إن الشيطان عندما يفشل في إقناعك بطريق الشر. ويجدك مُصرّاً على السير في طريق الخير. لا مانع عنده من أن يقول لك: خُذني في طريق الخير معك!.. وهكذا قد تسير في طريق الخير. ويسير الشيطان معك: يرشدك في الطريق. ويوجّهك. ويُقدّم لك الوسائل والخطط والحلول. ويقنعك بها!!

***

إن الشيطان حينما يفقد السيطرة على الهدف أو نوع العمل. قد يقنع بمحاولة السيطرة على الوسيلة..

أمّا أنت أيها القارئ العزيز. فلا تترك للشيطان شيئاً فيك. ولا تسمح له أبداً في الدخول معك. والاشتراك في مشروعاتك الخيّرة. ولا في خططك ووسائلك. ولا تجعله يكسب أية جولة في صراعه معك..

واطلب من اللّه أيضاً أن تكون نتائج عملك خيراً.

لا شك أنك قد لا تستطيع أحياناً أن تتحكم في النتائج. وقد تتدخّل في الأمر عوامل شريرة خارجة عن إرادتك. محاولة أن تفسد نتائج مجهوداتك الخيّرة.

إنك كما تجاهد بكل قوّتك في أن تعمل الخير. كذلك فإن الشيطان وأعوانه يعملون بكل قوتهم لكيما يعرقلوا عملك. ولكن لا تيأس..

لهذا قلت إن العمل الخيّر. تكون نتائجه بقدر الإمكان خيراً أيضاً.

***

اعلم أيضاً أن الذي يحب الخير. يحب أن جميع الناس كذلك يعملون الخير. ويشجعهم عليه.

والمنافسة في عمل الخير. ليس فيها شيء من الذاتية والأنانية بل فيها التعاون والمشاركة والفرح بالنتيجة بغض النظر عمن هو الشخص الذي أوصل إلى هذه النتيجة.

إن مُحب الخير. يفرح حتى لو رأى أن جميع الناس يفوقونه في عمل الخير. ويكون بذلك سعيداً.. المهم عنده أن يرى الخير. وليس المهم بواسطة من؟ به أو بغيره.

لذلك فإن عمل الخير بعيد عن الحسد والغيرة.

***

والإنسان الخيّر يقيم في حياته تناسقاً بين فضائله. فلا تكون واحدة منها على حساب فضيلة أخرى. تنقصها أو تلغيها!

خدمته مثلاً للمجتمع. لا تطغي على اهتمامه بأسرته . ونشاطه لا يطغي على أمانته لعمله. وحتى صلواته وعباداته. لا يصح أن تفقده الأمانة تجاه باقي مسؤولياته.

إن الفضيلة التي تفقدك فضيلة أخرى. ليست هى فضيلة كاملة أو خيّرة. إنما الفضائل تتعاون معاً. بل تتداخل في بعضها البعض.

***

هكذا نتعلّم من اللّه نفسه تبارك اسمه. فعدل اللّه مثلاً. لا يمكن أن يتعارض مع رحمته. بل لا ينفصل عنها. فعدل اللّه عدل رحيم. ورحمة اللّه رحمة عادلة. عدل اللّه مملوء رحمة. ورحمة اللّه مملوءة عدلاً. ولا نستطيع أن نفصل بينهما.

وعندما نقول عدل اللّه ورحمة اللّه. فليس من جهة الفصل نتكلّم. إنما من جهة التفاصيل. لكي تفهم عقولنا القاصرة عن فَهم اللاهوتيات.

***

نقول عن الخير أيضاً هو عمل إيجابي. وليس مجرد عمل سلبي.

ليس هو مجرد عمل سلبي يهدف إلى البُعد عن الشر. بل هو إيجابية في محبة الخير وعمله ونشره.

فالإنسان الخيّر. ليس هو فقط الذي لا يؤذي غيره. بل هو بالحري الإنسان الذي يبذل ذاته عن غيره. وليس هو فقط الشخص الذي لا يرتكب خطية. إنما بالحري الذي يفعل برّاً.

***

والإنسان الخيّر هو الذي يصنع الخير مع الجميع...

حتى مع الذين يختلفون معه في الجنس أو اللغة أو اللون أو المذهب أو العقيدة. إن الخير الذي فيه يعم الكل.

وقد أعطانا اللّه أمثلة كثيرة عن ذلك من الطبيعة:

فالشمس ترسل شعاعها ونورها في كل موضع في القصر الجميل. كما في الكوخ الفقير. في الحديقة الباسقة. كما في الزقاق القذر.

الينبوع الحلو الصافي. يشرب منه الكل بلا استثناء.

والشجرة الوارفة يستظل بها كل من يجلس تحتها: غنيا كان أم فقيراً. خاطئاً كان أم باراً.

كذلك البلبل يمنح أغاريده لكل من يسمعه. والورد يمنح شذاه لكل من يمر عليه.

ليس ولا واحد من هذه الأمثلة يسأل من يتمتع بعطيته عن جنسه أو لونه أو ديانته.

إن الخير يُعطي دون أن يتفرّس في وجه من يُعطيه ويحب دون أن يحلِّل دم من يحبه.

هو للكل. والكل عنده سواء....



٢٠٠٣/١٢/٩

القلب الكبير

لا يكن قلبك ضيّقاً: يتأثر بسرعة، ويتضايق بسرعة، ويندفع إلى الانتقام لنفسه ... بل كُن كبيراً في قلبك، وواسع الصدر، بحيث تحتضن في داخلك جميع المُسيئين إليك ...

وحينئذ ستشعر بالسلام الداخلي، وتدرك بركة القلب الكبير ...

القلب الكبير لا تتعبه إساءات الناس، ولا يقابل الإساءة بإساءة. إنما تذوب جميع الإساءات في لجة احتماله وفي خضم محبته.

القلب الكبير أقوى من الشر، فالخير الذي فيه، أقوى من الشر الذي يُحاربه

ودائماً الخير الذي فيه، هو الذي ينتصر ... ومهما أُسيء إليه، يبقى كما هو، دائم المحبة للناس مهما صدر منهم في إساءاتهم إليه، لا ينتقم منه، بل على العكس قد يعطف عليهم ! يراهم مساكين، قد غلبهم الشر الذي يُحاربهم. فهم محتاجون إلى من يأخذ بأيديهم، وينقذهم من الشر الذي خضعوا له في إساءتهم لغيرهم ...

أمّا إذا انتقم الإنسان لنفسه، يكون الشر حينئذ قد غلبه، أخضعه لحُب الانتقام، وأضاع من قلبه التسامح والاحتمال والمودة ...

***

إن محبّتنا للناس توضع تحت الاختبار حينما نتعرّض لإساءاتهم:

فكل إنسان يستطيع أن يحب من يُحبّه، ويحترم من يحترمه، ويكرم من يكرمه ... كل هذا سهل لا يحتاج إلى مجهود. ولكنه نبيل هو الإنسان الذي يُحب من يكرهه، ويكرم من يُسئ إليه.. !

وفي هذا يقول السيد المسيح في عظته المشهورة على الجبل:

" أنه إن أحببتم الذين يحبونكم، فأي أجر لكم... وإن سلّمتم على إخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون ؟! أليس الخُطاة أيضاً يفعلون هكذا ؟ .. وأمّا أنا فأقول لكم: أحبّوا أعدائكم. باركوا لاعنيكم، احسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم".

هنا ولا شك تكون المحبة بلا مقابل. أي أن الإنسان المُحِب لم يأخذ محبة في مقابل محبته. لم يأخذ أجراً على الأرض...

لذلك يكون كل أجره محفوظاً في السماء، إذ لم يستوفِ منه شيئاً على الأرض.

إن القلب الكبير ليس تاجراً، يُعطي حُبّاً لِمَنْ يُقدِّم له حُبّاً، أو يعمل خيراً مع الذي ينقده شكراً .. !

إنه يصنع الخير مع الكل، بلا مقابل. يعمل الخير لأن هذه هي طبيعته.

لذلك فإنه يعمل الخير مع من يستحقه، ومع الذي لا يستحقه أيضاً .. مع المُحب ومع المُسيء، مع الصديق ومع العدو...

مثل الشمس التي تشرق على الأبرار والأشرار. ومثل السماء التي تمطر على الصالحين والطالحين ... بل إنه درس نتعلّمه من اللّه نفسه، الذي يحسن إلينا، حتى ونحن خطاة .. !

***

إن القلب الكبير لا يعامل الناس كما يعاملونه. إنما يعاملهم حسب سموه وحسب نبله...

وهو لا يتغيّر في سموّه وفي نبله طبقاً لتصرُّفات الناس تجاهه .. إنه لا يرد الإساءة بالإساءة. لأنه لا يحب أن تصدر إساءة عنه إلى أحد، ولو في مجال الرد ..

أمّا الضعاف، فإنهم يتأثرون بصفات الناس، ويتغيّرون تبعاً لها ..

***

وهنا نسأل:

ما معنى رد الإساءة بالإساءة، ومُقابلة الخطأ بالخطأ؟

لقد أجاب الآباء القديسون على هذا الأمر، وشرحوه في جملة نقاط لا مانع من أن نوضّحها في هذا المقال:

١. **هناك إنسان يرد الإساءة بمثلها:** التصرُّف بتصرُّف، والشتيمة بشتيمة، والإهانة بإهانة ... وقد يرى في نفسه أنه تصرّف بعدل ولم يخطئ ! لأن هناك من يردون الإساءة بأشد منها، ويعلّلون ضمائرهم بأنهم في موقف المعتدي عليه ...

٢. وهناك نوع لا يرد الإساءة بمثلها. فلا يقابل إهانة بإهانة، ولا شتيمة بشتيمة.

ولكن الرد يظهر في ملامحه: في نظرة احتقار، أو تقليب الشفتين بازدراء، أو في صمت قاتل ... الخ

***

٣. وقد يوجد من لا يفعل شيئاً من هذا، **ولكن ردّه يكون داخلياً**، في قلبه وفي نيّته. ويتصوّر في قلبه تصرُّفات تحمل معنى ردّ الإساءة بمثلها أو بأشد، ولكنها مخفاة ...

٤. ويوجد إنسان قد لا ينفعل في الداخل من الإساءة ...
ولكنه **إذا سمع أن المسيء قد أصابه مكروه، يفرح بهذا الخبر !**
ويرى أن اللّه قد انتقم له ممّن أساء إليه ... وبهذا لا يكون قلبه نقيّاً تجاه المُسيء، بل يكون مُتعكّراً بشيء من الشماتة !

٥. وقد يوجد إنسان لا تحاربه هذه المشاعر، بل قد يحزن حقاً إذا حدث مكروه لمن أساء إليه. ولكنه في نفس الوقت **لا يفرح إن سمع أنه حدث خير لهذا المسيء**. إذ يرى أنه لا يستحق الخير، وبهذا يتضايق لأية أخبار مُفرحة عنه. ولا يكون قلبه نقيّاً من جهته ..

٦. إنسان آخر قد لا يفعل شيئاً من هذه كله ...
ولكن إساءة المُسيء تظل عالقة بذهنه، لم ينسها لأنه لم يغفرها بعد ...
هذا أيضاً لم يصل بعد إلى مستوى القلب الكبير المُحب الذي ينسى الإساءة ولا يعود يذكرها، لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا ...
ولأن القلب الذي ينسى الإساءة يكون صافياً لا يُعكّره شيء.

٧. وقد يوجد شخص ينسى الإساءة، ويستمر في نسيانها زمناً. ثم تحدث إساءة جديدة من نفس الشخص. فيرجع ويتذكّر القديمة أيضاً التي خيّل إليه أنه قد نسيها. ويتضايق بسبب الاثنتين معاً ...
وبهذا يدل على أنه لم يغفر الإساءة القديمة. وأنها لم تمت في قلبه، وإنما كانت نائمة واستيقظت. مثل جرح ربما يكون قد اندمل، ولكن موضعه ما زال حساساً، أقل لمسة تؤذيه..!

إن هناك طريقتين لمواجهة الإساءة: طريقة التصريف، وطريقة الترسيب:

أمّا طريقة التصريف فهى الطريقة الروحية التي بها يصرف الإنسان الغضب بأسلوب سليم: بإنكار الذات، بلوم النفس، بأن يعذر الغير، بدافع من المحبة والبساطة ...

أمّا طريقة الترسيب، فهى أن يبدو الشخص صافياً، بينما يكون الغضب مترسباً في داخله. كالدواء الذي يقال في استعماله (رجّ الزجاجة قبل الاستخدام. يبدو صافياً من فوق، بينما هو مُترسِّب في الأسفل. وأقل رجّة تعكِّر السائل كله الذي يملأ الزجاجة).

إن الصفاء الظاهري من فوق، ليس هو صفاءً حقيقياً كاملاً.

***

ولكن لعلّ إنساناً يقول: كيف يمكننا الوصول إلى هذه الدرجات الروحية من صفاء القلب تجاه الإساءة؟ ألا تبدو غير مُمكنة؟

إنها قد تبدو صعبة أو غير ممكنة بالنسبة إلى القلوب الضيقة التي لم تمتلئ بالمحبة بعد، ولا بالاتضاع. أمّا القلب الكبير فإنه يتسع لكل شيء. إنه لا يُفكِّر في ذاته، ولا في حقوقه. بل يُفكِّر دائماً في راحة الآخرين وفي علاجهم. لذلك لا تهزه الإساءات ...

***

كذلك هو يعلم أن المُسيء إنما هو يسيء إلى ذاته - قبل كل شيء - لا إلى غيره ...

إن الذي يقترف الإساءة، إنما يُسيء إلى مستواه الروحي، وإلى نقاوة قلبه، وإلى مصيره في الأبدية. ولكنه لا يستطيع أن يضر غيره ضرراً حقيقياً ... فالذي يشتم غيره مثلاً، إنما يُبرهن على نوع أخلاقياته هو، دون أن يضر المشتوم في شيء ... يبقي المشتوم في مستواه العالي، لا تقلل الشتيمة من جوهر معدنه الكريم، بل هى تدل على خطأ مقترفها، وسوء مستواه كإنسان شتّام ...

والذي أصابته هذه الإهانة - إن كان قلبه نقيّاً كبيراً - فإنه لا يتأثر: بل يأخذ موقف المُتفرّج الذي يرثى لضعفات غيره، لا موقف المُنفعل، أو موقف المنهزم ...

***

وهكذا تبدو درجات روحية لمواجهة الإساءة وهى:

احتمال الإساءة، ومغفرة الإساءة، ونسيان الإساءة

حسب المثل الإنجليزي القائل: .Not only to Forgive, but rather to forget

ثم درجة أعلى، وهو محبتك لمن أساء إليك ...

ففي أية درجة من هذه كلها، تضع نفسك أيها القارئ العزيز؟ درّب نفسك على هذه الدرجات الروحية، لكي تصل إلى صفاء القلب ونقاوته. وإن لم تستطِع أن تصل إلى هذه كلها.

فعلى الأقل لا تبدأ بالإساءة إلى غيرك

خُذ موقف المظلوم، لا موقف الظالم. واعلم أن اللّه سيقف إلى جانبك. أمّا الظالم فإنه يُعادي اللّه قبل أن يُعاديك، وسيكون اللّه ضده.

وعندما يقف اللّه معك ضد ظالميك، قل له كما قال السيد المسيح:

"يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون".

***

القلب الكبير، الذي يحتمل ضعفات الآخرين، يعيش باستمرار في سلام، بعيداً عن الغيظ وعن الحقد. كل ضيقات العالم لا تزعجه ...

إنه يستمد سلامه من الداخل، وليس من الظروف المحيطة.

حقاً، عنه ليس من صالح الإنسان أن يجعل سلامه القلبي يتوقف على سبب خارجي: إن اضطربت الأمور من حوله، يضطرب معها. وإن هدأت يهدأ. سبب خارجي يجعله يثور، وسبب يجعله يفرح، وسبب يُبكيه، وسبب يُبهجه. ويكون كما قال الشاعر:

كريشةٍ في مهب الريح طائرة لا تستقر على حالٍ من القلقِ

بل القلب الكبير - في كل ملء يحدث له - يكون أقوى من الأحداث، متمالكاً لأعصابه، متحكماً في انفعالاته، محتفظاً بهدوئه ...

***

إن حلّت به ضيقه، لا يفكر في متاعبها، بل يفكر في حلّها ..

ويضع في نفسه أن كل ضيقة لها حلّ أو حلول.

وإن كل ضيقة، لها مدى زمني مُعيّن تنتهي فيه ..

إن وصل إلى حلّ، يستريح. وإن لم يصل، يترك الأمر إلى معونة اللّه الذي عنده حلول كثيرة، معتمداً على هذا الإيمان.

ومهما ازدادت الضيقات، فالقلب الكبير لا يسمح للشيطان أن يوقعه في اليأس، وأن يصوّر له الأمور مُعقدة ولا حلّ لها ...

إن القلب الكبير لا يستسلم للضيقات، بل أنه قد لا يشعر بالضيقة، لأنها لم تضايقه. وأتذكّر أنني قلت في إحدى المرات:

إن الضيقة سُمِّيت ضيقة، لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. أمّا القلب الواسع الكبير فلا يتضيّق بشيء.

***

الضيق إذن في قلوبنا، وليس في العوامل الخارجية:

إن تعكرنا نحن، تبدو أمامنا كل الأمور مُتعكِّرة ...

وإن تعبنا في الداخل، تبدو لنا كل الأمور مُتعبة ..

أليس حقاً أن أمراً من الأمور قد يضايق إنساناً ما، وفي نفس الوقت لا يتضايق منه إنسان آخر، بينما الموضوع هو نفس الموضوع !

ليس المهم إذن هو نوع الأحداث التي تحدث لنا. بل المهم بالأكثر هو الطريقة التي نتقبّل بها الأحداث ونتصرّف معها ..

فالقلب الكبير الذي يصمد أمام الإشكالات، يزداد قوة .. بينما القلب المضطرب الذي ينهار أمامها، يزداد ضعفاً

هى نفس الإشكالات. ولكنها تقوّي شخصاً، وتزيده صلابة ومراساً وحنكة. بينما تضعف شخصاً آخر، وتزيده انهياراً وحزناً.

لذلك كونوا أقوياء من الداخل. وخذوا من الضيقات ما فيها من بركة، وليس ما فيها من ألم.

٢٠٠٣/١٢/١٦

القلب العطوف الشفوق

القلب الشفوق هو القلب المملوء بالحنان والحب. البعيد كل البعد عن القسوة. إنه يفيض رقّة واشفاقاً على كل أحد. حتى على الذين لا يستحقون.

وحنوّ الإنسان على غيره قد يشمل الكائنات جميعاً.

فيحنو على العصفور المسكين. وعلى القط الصغير. وعلى النبتة الذابلة. بل قد يحنو على الوحش المُفترس! مثل ذلك القديس الذي رأى أسداً يئن من شوكة في قدمه. فانحني وأراحه منها. وحفظ الأسد له هذا الجميل.

* * *

وقد يكون الحنوّ في نواح مادية أو جسدية، أو قد يكون في نواح نفسية أو روحية.

وخلاصة الأمر أن القلب المملوء حناناً. يفيض بهذا الحنان في كل المجالات. وعلى كل أحد: على الفقير المحتاج. وعلى المريض المتألم. كما يشفق على اليائس والمنهار نفسياً. وعلى الساقط في خطيئة أو في عادة رديئة. وهو في حاجة إلى من يأخذ بيده ويُقيمه.

والحنان ليس مجرّد عاطفة في القلب. وإنما هى تتحول إلى عمل جاء من أجل اراحة الغير.. أمّا الحنان النظري فهو حنان قاصر وحنان ناقص. يحتاج إلى اثبات وجوده عملياً. ويقول الإنجيل في ذلك "لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق".

إن القلب الحنون يمكنه أن يكسب الناس. أمّا القلب القاسي فيخسرهم..

الناس يحتاجون إلى من يعطف عليهم. وإلى من يأخذ بأيديهم. إلى من يشجّع الضعيف. ويقيم الساقط. ويفتح نافذة من رجاء أمام اليائس يفهم ظروف الناس واحتياجاتهم. وتكون له روح الخدمة نحو من يحتاج إلى خدمته. فيخدم الكل. ويساعد الكل. ويُعين الكل. ولا يحتقر ضعفات أحد. بل يُشجِّع ضُعاف النفوس. ويسند الضعفاء. ويتأنّى على الجميع.. فتيلة مُدخِّنة لا يُطفئ. فربما تهُب ريح على هذه الفتيلة المُدخِّنة فتشتعل. وتضيء مرة أخرى.

القلب الشفوق يجول يصنع خيراً..

يشعر بمتاعب الناس. ويحاول أن يُريحهم. حتى دون أن يطلبوا منه ذلك.. وبخاصة لو كان في موقع المسؤولية. لا ينتظر حتى يصرخ الناس أو يصيحوا أو يكثروا شكواهم. بل بإحساس مُرهف يعرف مواضع الألم وأسباب الضيق. ويهتم بكل أحد.

إنه كالماء الذي ينساب في الحقل. يروي كل شجرة. ولا يسمح لضميره أن يرى واحدة منها تذبل من العطش أو من قلة السماد.

إن الذي ائتمنته الجماهير على مصائرها. ينبغي في عُمق حنوّه أن يحل مشاكل هؤلاء. ولا يدع أحداً مرازخاً تحت حمل. بل يرفعه عنه.

ما أجمل قول السيد المسيح: "تعالوا إليَّ يا جميع المُتعبين والثقيلي الأحمال. وأنا أريحكم".

* * *

إن الشفقة ليست فقط واجب المسؤولين في مجال مسؤوليتهم..

بل هى واجب إنساني على كل قلب يشعر بآلام الغير..

من هنا كان عمل المتطوّعين في ميادين الخير.. مثال ذلك الجمعيات الخيرية الكثيرة في تعدد أغراضها. ومنها الملاجئ للأيتام. ولجان البر التي تهتم بالفقراء والمحتاجين. وجمعيات الصليب الأحمر. وجمعيات الهلال الأحمر.. ومنها أيضاً الجمعيات الخيرية الطبية. مثل جمعيات مكافحة الدرن. وجمعيات العناية بمرضى الجزام. والجمعيات التي تعتني بالصم والبكم والمكفوفين. وسائر المعوقين جسدياً وعقلياً.

ويدخل في هذا النطاق أيضاً المتبرّعون بالدم لِمَنْ يحتاجونه في عمليات جراحية. وكذلك كل الهيئات الخيرية التي تدخل تحت عنوان N.G.O Non governmental Organizations.

* * *

ومن أصحاب القلوب الشفوقة المشفقون على الخطاة

ما أسهل مُعاقبة الخاطئ على خطيئته. ولكن العمل النبيل الشفوق هو انقاذه من خطيئته.. حتى بالنسبة إلى المسجونين. وقد قيل عن السجن أنه "تأديب وتهذيب وإصلاح" ونرجو أن يكون كذلك فعلاً. ولا يكون بيئة يؤثّر فيها الشرير على الذي دخل السجن لسقطة في تصرّفه لا في طبيعته..

من هنا فإن الدولة تسمح لبعض رجال الدين مسلمين ومسيحيين أن يعملوا في السجن على وعظ المسجونين وهداياتهم.

كما يقوم بعض الخيرين بخدمة أولئك المسجونين. فيقدِّمون لهم ما يحتاجون إليه من ملابس. ومن أطعمة. ومن كتب. مع سائر حاجياتهم الأخرى.

ويهمنا من هذه الشفقة والرعاية وأعمال الحنو. أن يخرج السجين غير ساخط على المجتمع. وقد استفاد من فترة سجنه أدباً وتغيير حياة.

* * *

على أن القلوب المُشفقة على المسجونين تقوم بعملَيْن آخرين:

* عمل منهما للمسجونين على ذمّة التحقيق. قبل أن يصدر القضاء حكمه. وهؤلاء قد يحتاجون إلى محامين يقومون بالدفاع عنهم. وتقتضي الشفقة تزويدهم بمستلزمات هذا الدفاع.

* الأمر الثاني هو العناية بأسرة السجين. سواء في فترة التحقيق. أو بعد الحكم عليه. وبخاصة لو كان هذا السجين هو العائل الوحيد لهذه الأسرة ويحتاج الأمر إلى رعاية الأسرة من كافة النواحي. والاستمرار في هذه الرعاية إلى أن يطلق سراح السجين. وربما بعد أن يطلق سراحه أيضاً. حتى يدبر له مصدر رزق.

* * *

من عمل القلوب المُشفقة على الخطاة أيضاً: الشفقة على ضحايا الإدمان. سواء في أول انحرافهم أو بعد السقوط في الهوة..

سهل جداً أن نحكم على المُدمنين. أو أن نتجنّبهم. ولكن الشفقة نحوهم تقتضي تخليصهم ممّا قد تورطوا فيه.. والعلاج هنا يمرّ في مرحلتين: المرحلة الأولى عبارة عن علاج طبي. لتخليصهم من تلك السموم التي دخلت في أجسامهم. والمرحلة الثانية هي مرحلة التأهيل. وتحتاج إلى حجزهم في مكان بعيد عن كل الإغراءات التي قد تعيدهم إلى التعاطي مرة أخرى. ورعايتهم حتى يتم شفاؤهم تماماً جسداً ونفساً.

تقتضي الشفقة عليهم أمرَيْن آخرَيْن: أحدهما يتعلّق بعائلاتهم والصلة بها. والثاني بتوظيفهم بعد الشفاء. ورد اعتبارهم.

* * *

ننتقل إلى الحديث عن الشفقة على الخطاة بصفة عامة

الناس على أنواع في تعاملهم مع الخطاة: ما بين قسوة الحكم. أو مجرد الكلام والتشهير. أو العطف على هؤلاء الخطاة وانقاذهم ممّا هم فيه. ولننظر أيضاً إلى موقف اللَّه من الخطاة.

ما أكثر ما يستر اللَّه على الخطاة.. كم من أناس قد غطسوا في الشر حتى غطاهم. ولا يزال اللَّه يستر. لم يكشفهم ولم يفضحهم. ولم يعلن بأية الطرق على خطاياهم. لأنهم ربما لو انكشفوا. لضاعوا وانسد أمامهم الطريق إلى التوبة بعد فقد ثقة الناس به.

اللَّه الذي لا حدود لقداسته يستر. بينما الناس يشهرون بغيرهم. على الرغم من أن لهم أيضاً عيوباً وسقطات. ولكنها القسوة.. القلب القاسي باستمرار يحطِّم ويهدم. وقسوته لا تشفق ولا ترحم. هو كالنار التي تأكل كل شيء. حتى نفسها.

* * *

أمّا القلب الشفوق. فإنه يستر خطايا الناس.. لا يتحدّث عنها ولا يشهر بها. ولا يقسو في الحكم عليها. بل قد يجد لأصحابها عذراً!

أو يخفِّف من المسؤولية الواقعة عليهم.. وإن قابلهم لا يفقد توقيره لهم. مُعطياً إياهم فرصة لإصلاح حالتهم.. إن القلب الخلاّق يعيش في مشاعر الناس. يتصوّر نفسه في مكانهم. لذلك لا يسمح لنفسه بأن يجرح أحداً. بل يُبرهن على نقاوة قلبه بعطفه على الكل.

إنه يعرف أن الطبيعة البشرية حافلة بالضعفات. وأن أقوى الناس ربما تكون في حياته ثغرات. وقد يسقط إن اشتدت الحروب الروحية عليه. وإن تخلّت عنه النعمة الحافظة!

لذلك فهو ينظر إلى الناس في حنوّ. في قيامهم وفي سقوطهم أيضاً.

* * *

كان القديس يوحنا القصير. إن سمع عن أحد أنه سقط في خطية يبكي فإن سُئل عن سبب بكائه. يقول: "إن سقوط هذا الأخ يدل على أن الشيطان نشيط ويعمل. وإن كان قد أسقط أخي اليوم. فربما يسقطني أنا غداً..".

وهكذا في اتضاع لم يضع هذا القديس نفسه في مرتبة أسمى من غيره. وبكل حنوّ نظر إلى سقطة ذلك الأخ. ونسبها إلى الشيطان لا إلى فساد طبع ذلك الذي سقط. ولهذا لم يحكم عليه في قسوة.

قال أحد الآباء: "إن لم تستطِع أن تمنع ذلك الإنسان الذي يتكلّم على أخيه بالسوء. فعلى الأقل لا تتكلّم أنت..".

* * *

إن القلب الحنون لا يعامل الناس بالعدل مجرداً. إنما يخلط بعدله كثيراً من الرحمة. هذا لو كان عدله أيضاً عدلاً صادقاً ودقيقاً

كذلك لا يجعل عدله عدلاً جافاً حرفياً. يطبق فيه النصوص. بل يجب عليه كذلك أن يقدِّر الظروف المحيطة. سواء كانت عوامل نفسية أو وراثية. أو تربوية أو عوامل اجتماعية. أو أسباباً ضاغطة.

أمّا الذي يصب اللعنات على كل مخطئ. دون أن يقدِّر ظروفه. أو يفحص حاله. فإنه صاحب قلب لا يرحم.

والقلب الحنون لا يحكم على أحد بسرعة.. بل يعطي كل أحد فرصة للدفاع عن نفسه. ولتوضيح موقفه.

* * *

والقلب الشفوق لا يكثر اللوم والتوبيخ..

وإن وبخ. يكون ذلك بعطف وليس بقسوة. وقد يقدِّم لتوبيخه بكلمة تقدير أو كلمة حُب. حتى يكون التوبيخ مقبولاً. وإن احتاج الأمر منه إلى حزم وشدة. فقد يفعل ذلك مضطراً. ولكنه في مناسبة أخرى يُعالج بالحنو نفسية ذلك المُخطئ. لكي يزيل منها ما علّق بها نتيجة للشدة السابقة.

* * *

والقلب الحنون لا يُخجِل أحداً. ولا يجرح أحداً

وقد يشير إلى الخطأ من بعيد. بألفاظ هادئة وربما بطريق غير مباشر. وربما في السرّ وليس في أسماع الناس.

أمّا الذي يرجم الناس بالحجارة. فعليه أن يتروى لئلاّ يكون بيته من زجاج!! وليعلم أن كل الفضائل بدون المحبة ليست شيئاً. والمحبة تتأنى وتترفق. والحكمة هى أن يكسب الناس بالحنوّ. ولا يخسر الناس بالقسوة.

* * *

والقلب الحنون يُعزّي الناس في ضيقاتهم

ويشعرهم بأن وراء كل ضيقة فرجاً يريده اللّه منها. وأن هذا الفرج قد لا نراه بالعين المادية. ولكننا نراه بالإيمان. بالثقة في عمل اللّه المُحب وحُسن رعايته للبشر.

فاللّه في محبّته للبشر لا يسمح أن تحلّ تجربة بإنسان تكون فوق طاقة احتماله. والتجارب الشديدة التي رواها التاريخ. لم يسمح بها اللّه إلاّ لأشخاص أقوياء يحتملونها. كما حدث لأيوب الصديق.

اللّه أيضاً يجعل مع التجربة المَنفذ. ويجعلها تؤول إلى النفع إذا ما أحسن الإنسان استخدامها.

* * *

لذلك فصاحب القلب الحنون ينصح بأنه قد تحيط المتاعب من الخارج. ولكن ليس من الحكمة أن تدخل تلك المتاعب إلى داخل النفس.

مثال ذلك السفينة الكبيرة التي تمخر عباب المحيط: قد تضطرب الأمواج وتعلو من حولها. ولكن السفينة تظل سائرة نحو هدفها في رصانة وهدوء. طالما أن المياه لاتزال خارجها.

مسكينة تلك السفينة: إن وُجد ثقب فيها. استطاعت به المياه أن تتسرّب إلى داخلها.



٢٠٠٣/١٢/٢٣

كيف تحب الناس.. ويحبونك؟

المحبة هى قمّة الفضائل كلها. أو هى جماع الفضائل كلها.

ومقياس التديّن هو مقدار ما في القلب من حُبّ للّه. ومن حُبّ للخير. وحُبّ للغير. وجزاء الإنسان يكون بقدر عمله لهذا الحُب.

لهذا ينبغي أن يدخل الحُب في كل فضيلة. لكي يُعطيها قيمتها ويُعطيها عُمقاً ومعنى وحرارة روحية. كما ينبغي أيضاً أن يدخل الاتضاع في كل فضيلة. لكي يحفظها من الزهو والخيلاء والمجد الباطل..

والذي يهتم بالناس. عليه أن يتعلّم الحُبّ أولاً. قبل أن يبدأ في خدمتهم. فالناس يحتاجون إلى قلب واسع. يحسّ إحساساتهم. ويشعر بهم. ويتألم لآلامهم. ويفرح لأفراحهم. ويحتمل ضعفاتهم. ولا يحتقر سقطاتهم. بل يحتاجون أيضاً إلى قلب يحتمل جحودهم إن جحدوا. ويحتمل صدودهم وعدم اكتراثهم..

***

والإنسان الذي يعيش بالحُب عليه أن يحب الكل. ذلك أن القلب الضيق هو الذي يحب محبيه فقط. أمّا القلب الواسع فإنه يحتوي الجميع بداخله. ولا يتضيق بأحد..

إن القلب الخالي من الحُب. هو خالي من عمل اللّه فيه أمّا القلب الذي توجد فيه الكراهية والحقد فهو مسكن للشيطان.

علينا إذن أن نكون إيجابيين في محبّة الناس. وإن لم نستطِع أن نحب إنساناً مُعيناً. فعلى الأقل لا نكرهه. وكذلك إن لم نستطِع أن ننفع شخصاً. فعلى الأقل لا نضره..

ولنكن مصدر خير لكل أحد. بقدر ما يُعطينا اللّه من نعمة..

***

كيف تكتسب محبة الناس:

هناك قواعد عامة عليك أن تتبعها لكي تكتسب محبة الناس ونحاول هنا أن نعرض بعضاً منها:

١- ضع هدفاً واضحاً أمامك. أن تكسب محبة الناس. ولو أدّى بك الأمر أن تضحّي في سبيل ذلك:

هناك أشخاص يهمهم ذواتهم فقط. ولا يهتمون بالآخرين. فهم لا يبالون إن غضب فلان أو رضي. أمّا أنت. فاحرص على شعور كل أحد. وحاول أن تكسب كل أحد. لأن رابح النفوس حكيم.

وإن عرفت أن أحد الناس مُتضايق منك. فلا يهدأ قلبك حتى ترضيه. واجعل كل أحد يُحبك. وعلى قدر طاقتك إن استطعت سالم جميع الناس. لذلك قدِّم للناس محبّتك. واكتسب محبتهم.

واعتبر أن محبّة الناس كنز ثمين يجب أن تحرص عليه.

***

٢ - وفي سبيل محبّة الناس. احترم كل أحد. حتى من هو أصغر منك أو من هو أقل منك شأناً.

غالبية الناس يحترمون من هم أكبر منهم. أو من هم أعظم مركزاً ولكنهم يتجاهلون من هم أقل منهم. وبهذا يخسرون الكثيرين..

أمّا أنت فتدرّب على احترام الكل وتوقير الكل. لا تقل كلمة فيها إقلال من شأن أحد. أو جرح لشعور إنسان. ولا تعامل أحداً باحتقار أو باستصغار. ولا تتجاهل أحداً مهما كان مجهولاً.

درّب نفسك على اعتبارات تقدير وتوقير بالنسبة إلى أولادك أو إخوتك الصغار أو مرؤوسيك أو خدمك.. واعلم أن أمثال هذه العبارات لن تُنسى. بل سيذكرها أولئك الصغار طول العمر. وسترفع من روحهم المعنوية. وستجعلهم يحبونك. إن كثيراً من الكبار ينسون احترامك لهم. لأنه شيء عادي بالنسبة إليهم. أمّا الصغار فلا ينسون. بل احترامك لهم عمل باقي في قلوبهم وذاكرتهم. لا يضيع..

واعرف أن اللّه لا يحتقرنا على الرغم من الفارق اللانهائي بين عظمته وضآلتنا. ومع ذلك فاللّه - تبارك اسمه - يتنازل ويكلّمنا. ويتضع مُستمعاً إلينا. مُهتماً بخلاص نفوسنا.

***

٣ - لذلك فإن تواضعك في معاملة الناس. عامل مهم في كسب محبتهم لك:

لا تكلم أحداً من فوق. ولا تتعال على أحد. بل عامل الكل باتضاع. فإن الناس يحبون المتضعين. إن كان لك مركز كبير. إنس مركزك وعِشْ مع الناس كواحدٍ منهم. لا تشعرهم بفارق..

إن الاتضاع يستطيع أن يفتح لك حتى القلوب المُغلقة. واعرف أن الناس قد يخافون من هو عالي وكبير منهم. ولكنهم يحبون من ينسى مركزه في محبتهم. اكسب إذن محبة الناس لا خوفهم منك.

لا تطلب أن تكون فوق رؤوسهم. إنما اطلب أن تكون داخل قلوبهم..

ولا تظن أن تواضعك للناس يقلّل من شأنك. بل على العكس يرفعك بالأكثر.

***

٤- إن أردت أن يُحبّك الناس. اخدمهم وساعدهم. وابذل نفسك عنهم.

اشعرهم بمحبتك بما تقدّمه لهم من معونة ومن عطاء وبذل. إن الذين يحبون ذواتهم. يريدون باستمرار أن يأخذوا وأن يكسبوا. أمّا أنت فلا تكن كذلك. بل درّب نفسك على البذل والإعطاء. ولتكن علاقتك بالناس تهدف إلى مصلحتهم هم. وليس إلى مصلحتك أنت. انظر كيف تريحهم وتجلب السرور إلى قلوبهم. وكيف تدخل الفرح إلى حياتهم. بهذا يحبونك.

إن أكثر إنسان مكروه هو الشخص الأناني. وأمّا أكثر إنسان محبوب فهو الإنسان الخدوم الباذل المُعطي..

***

ولا تظن أن الطفل هو وحده الذي تعطيه فيُحبّك. بل حتى الكبير أيضاً

اللّه نفسه. وعلاقته مع الناس علاقة عطاء باستمرار.. نحن أيضاً نعطيه من وقتنا ومن مالنا. ونقول له "من يدك أعطيناك"..

الأم محبوبة جداً. لأنها باستمرار تعطي وتبذل. ونحن أيضاً نعطي الأمهات كل احترام وحُب. ونقدّم لهن الهدايا والتقدير في عيد الأم. وفي مناسبات عديدة.

وفي العطاء: إن لم يكن لك شيء تعطيه للناس. اعطِهم ابتسامة لطيفة وكلمة طيبة. اعطِهم حُبّاً وحناناً. اعطِهم كلمة تشجيع أو كلمة دعاء. اعطِهم قلبك. اظهر لهم أنك تريد وأنك مُستعد لكل تضحية من أجلهم.

٥ - وإن أردت أن يُحبّك الناس. قابلهم ببشاشة ولُطف:

إن الشخص البشوش شخص محبوب. الناس أيضاً يحبون الإنسان المرح واللطيف. الإنسان الذي يُنسيهم آلامهم ومتاعبهم بكلامه العذب وشخصيّته المُريحة.. لذلك حاول باستمرار أن تكون بشوشاً.. حتى في عمق متاعبك وضيقاتك. إنس متاعبك لأجل الناس.

لا تكلّم أحداً وأنت مقطب الوجه صارم الملامح. إلاّ في الضرورة الحتمية لأجل الصالح. وفي غير ذلك كُن لطيفاً.

كلّم الناس بكل أدب ولياقة. لا تعبّس وجهك.

***

٦ - إن أردت أن تكسب محبّة الناس. لا تكن كثير الانتهار والتوبيخ:

إن الكلمة القاسية تكون موجعة تتعب الناس. والكلمة الجارحة قد تضيع المحبة وتبددها. فلا تكن كثير الانتهار..

وإن أردت أن توجه لوماً أو نصيحة. فليكن ذلك بهدوء ووداعة وفي غير غلظة. ولا تشعِر الناس بكثرة توبيخك أو بأنك تكرههم. وإن دعت الحاجة إلى التوبيخ. فليسبق ذلك عبارة تقدير أو عبارة مديح أو مُقدّمة لطيفة. تمهّد بها الجو لقبول التوبيخ. أو على الأقل تخيّر الألفاظ في توبيخك. فلا يكن كلامك جارحاً مهيناً. ولا يكن ذلك أمام الناس. حتى لا يشعر من توبخه بالذلّ والخزي..

كذلك لا توبّخ على كل صغيرة وكبيرة. إنما على الأمور الهامة فقط:

لأنه لا يوجد انسان يخلو من الذلل. ويمكنك أن توجّه الناس. دون أن تجرحهم. ولا توبخ كل أحد. لأن سليمان الحكيم يقول : "وبّخ حكيماً. يحبك. وبّخ مستهزئاً يبغضك".

وإذا انتقدت. فلا تكُن قاسياً في نقدك. إنما تكلّم عن النقاط الحسنة. قبل أن تذكر السيئة. وإذا انتقدت أحداً. فلا تحطّمه بل كُن رفيقاً به. وليكن هدف النقد هو البناء وليس الهدم.

***

٧- وإن أردت أن يُحبّك الناس. دافع عنهم وامدحهم.

حساس جداً هو القلب المسكين الذي يجد الكل ضدّه. ووسط هؤلاء إن عثر على إنسان يدافع عنه. فإنه يهبه كل قلبه. لذلك دافع عن الناس وبخاصة من تجده في مأزق. أو من تجد الضغط شديداً عليه. أو من تراه مظلوماً أو في حاجة إلى من يدافع عنه..

وفي تعاملك مع الناس. تذكر حسناتهم وأنس سيئاتهم.

وتأكّد أن كل إنسان - مهما كانت حياته مُظلمة - لا بد ستجد فيه بعض نقاط مُضيئة بيضاء تستحق المديح.. ابحث عن هذه النقاط وامتدحها وابرزها. واظهر أنك تعرفها وتقدّرها. عندئذ سيحبك ذلك الشخص. ويجد فيك مُنقذاً وظهيراً. ويكون مُستعداً لقبول توجيهك أو توبيخك. بعد أن أظهرت له حُبك.

لتكن ألفاظك بيضاء. حلوة في آذان سامعيها:

حاول أن تكثر من الفاظ المديح لمن يستحقها..

لا تكن شتاماً. ولا هداماً. ولا مستهزئاً. ومتهكماً على الآخرين..

اضحك مع الناس. ولكن لا تضحك على الناس..

اشعر كل أحد بتقديرك له. واعلن هذا التقدير امام الكل

استفد من الخير الذي في الناس. قبل أن تنقد الشر الذي فيهم.

اعتبر أن الشر الذي في الناس دخيل عليهم. وأن واجبك هو أن تنقذهم منه. لا أن تحطمهم بسببه.

***

٨ - وإن أردت أن يُحبّك الناس. كن انسانا فاضلاً فيه الصفات المحببة إلى الناس.

لا تظن أن الناس يحبون عبثاً أو بلا مقابل. بل يحبون الشخص الذي تتركّز فيه الصفات الممدوحة التي يحبونها.. يحبون الإنسان البار المُتميز بفضائل مُعيّنة. والإنسان الشجاع الذي تبهرهم قوته. كذلك الإنسان الناجح والإنسان الذكي الذي تعجبهم عقليته..

فلتكن فيك إذن صفات جميلة. وعندئذ سيحبك الناس بسببها. لذلك إن أردت أن يحبك الناس. قوّم نفسك أولاً. أصلح العيوب التي يكرهها الناس فيك. حينئذ يحبونك.

***

٩- وإن أردت أن يُحبّك الناس. احتمل الناس:

لا تنتقم لنفسك. ولا تقابل السيئة بمثلها. ولا تغضب على كل من يسئ إليك.. فكل إنسان له ضعفاته. احتمل إذن ضعفات غيرك ولا تتضايق بسرعة. ولا تخسر الناس بسبب أخطائهم. وكن واسع الصدر.

اغفر لِمَنْ يخطئ إليك واحتمله. وثق أنه عندما يرجع إلى نفسه. ويذكر احتمالك له. ستزداد محبته لك. وحتى الذين لا يرجعون. لا تخسرهم كذلك. بل اذكر قول القديس يوحنا الذهبي الفم:

"من لا توافقك صداقته. لا تتخذه لك عدواً".

***

١٠- وإن أردت أن يُحبك الناس. كن مُخلِصاً لهم. وحكيماً في اخلاصك:

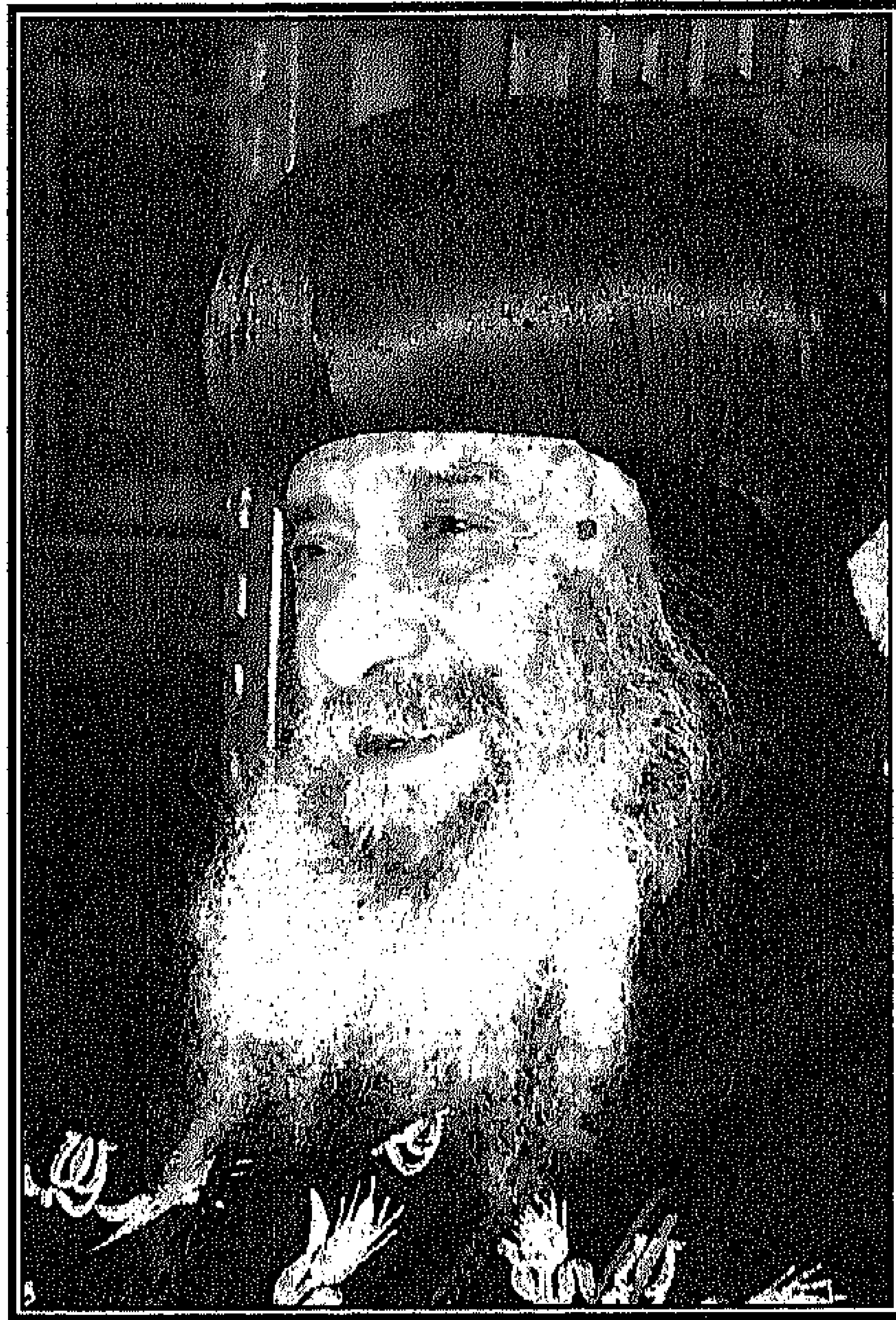
عامل الناس بكل إخلاص. فتكسب بذلك ثقتهم ثم محبتهم.

واحذر من المحبة الضارة. بل اظهر لهم محبّتك في صدق وحكمة. بعيداً عن استخدام عبارات الملق والرياء.

استخدم الحنوّ. ولكن ابعد عن التدليل الضار.

كن مُخلِصاً في محبّتك. هدفك صالح الغير. وليس مجرد أن يحبوك.

واللّه المحب. قادر أن يسكب المحبة في قلوبنا جميعاً. لكي نحب بعضنا بعضاً في نقاوة وطهر وضمير صالح أمام اللّه.



٢٠٠٣/١٢/٣٠

التداريب الروحية

ما أكثر المعلومات التي تصل إلينا عن الفضيلة والتدين..

البعض نسمعه من الوعاظ والمرشدين ورجال الدين. والبعض الآخر يصلنا عن طريق الكتب والقراءة.. والبعض عن طريق الضمير والقدوة. ولكن على الرغم من كل ما قرأناه وسمعناه. قد تبقى حياتنا كما هى! بدون تغيير في شيء.. نفس الطباع. نفس الأسلوب. وربما نفس الأخطاء! لماذا؟ لسبب واحد. وهو إننا لم ندرب أنفسنا على ما عرفناه.

إن الفضيلة ليست مجرد معلومات.

ولا مجرّد امتلاء من المعرفة الدينية. فالمعرفة وحدها لا تكفي. ماذا يستفيد الإنسان إن كان يعرف كل المعلومات عن الخير. دون أن يُمارسه ويسلك فيه؟! ومن هنا كانت **أهمية التداريب الروحية.**

بالتداريب الروحية نعمل على تحويل المعرفة إلى حياة.. فندرب أنفسنا على عمل ما قد عرفناه وتعلمناه. فنتطور من المعرفة إلى الاقتناع. ثم إلى الرغبة والحماس. ثم إلى التنفيذ. إنها لمأساة حقاً أن يقرأ إنسان عن الفضيلة. ويعجب جداً بما وصلت إليه من معرفة. وقد يتحدّث عنها. وقد يعظ بها.. ولكنه يقف عند هذا الحد. ويبقى الحديث عن الفضيلة مجرد أفكار تعيش خارج حياته!! دون أن يحوّل المعلومات إلى مُمارسة عملية. فبواسطة التداريب يتحوّل الاقتناع النظري إلى سلوك عملي.

يسبق التدريب الروحي فحص الذات.

لمعرفة ما يجب أن نتدرّب عليه؟ ربما يلزمنا التدرب على ترك خطيئة معينة يتكرر منا السقوط فيها.. أو التدرب على التخلص من عادة مسيطرة نود أن نتحرر منها.. أو التدرب على فضيلة من الفضائل نود اكتسابها. ورغبتنا وحدها في عمل الخير لا تكفي. إنما ينبغي أن تشترك الإرادة مع الرغبة. ويشترك التصميم مع الإرادة. وتشترك مراقبة النفس مع كل ذلك وملاحظتها في التنفيذ. ويأتي هذا كله بالتداريب. فلا تبقى علاقتنا بالفضائل مجرد اشتياقات

روحية لا نحياها!! هنا يواجه الإنسان ذاته. ويواجه الواقع. ويدخل في جهاد روحي مع نفسه. ويحاول أن يخضعها للحق والبر. ويعرف العوائق التي تمنعه ولا ينتظر في كل مرة يدرِّب فيها نفسه على أمر ما من أمور الخير أن ينجح مباشرة في ذلك. إنما قد يفشل في تدريبه. ولكنه على الأقل يعرف ما السبب في الفشل؟ هل هو طبعه الغالب عليه؟ أم هى أسباب وضغوط خارجية؟ أم أنه قد نسيَ التدريب في خضم مشاغله.

وهنا عليه أن يلتفت إلى أسباب الفشل أياً كانت. ويحاول بكل عزم وقوة أن ينتصر عليها.. ويكون بذلك قد تعرَّف على المعركة التي ينبغي عليه أن يجوزها. لكي يصل إلى الخير الذي يريده. ولكي يقوّي إرادته عليه أن يتذكر وصايا إلهية مُعيّنة تؤيد التدريب الذي يعزم عليه. أو أقوالاً مأثورة في ذلك الشأن... ويكون قد جهّز هذا كله. وثبّته في ذاكرته. قبل أن يبدأ في التدريب. بحيث يكون قد اقتنع به تماماً. وبحيث إن صادفه ما قد يكسر التدريب. يتذكر الوصايا والأقوال التي أعدّها لتقويته. فإن فشل. وحاربه الشيطان بأن هناك استثناءات للتدريب عليه أن يعمل لها حساباً فلا ينفذ تنفيذاً كاملاً.. حينئذ يناقش داخل نفسه هذه الاستثناءات المزعومة. وهل هى حقيقية وموجبة. أم هى خداع لكسر ما نوى أن يدرِّب نفسه عليه؟..

وممّا يساعد على نجاح التداريب أنها لا تكون كثيرة في كل مرة.

بل يكفي التدرّب على أمر واحد ينجح الإنسان فيه.. فكثرة التداريب في اليوم الواحد. عرضة لأن ينساها المُتدرّب. أو يرتبك فيها. أو يشعر بصعوبتها وييأس منها.. بينما التدريب على أمر واحد. سهل في التنفيذ. وسهل في التذكر. ضع أمامك أذن تدريباً واحداً. وركِّز عليه كل اهتمامك. وصمِّم على النجاح فيه مهما صادفتك من عوائق. وإن نجحت فيه. اشكر اللّه على معونته لك. واستمر في هذا التدريب مدة أطول. لكي يثبت عندك ولا تدركه نكسة. وعندئذ انتقل إلى غيره.

وسنحاول أن نضرب لك مثلاً لذلك أو عدّة أمثلة: لنفرض أن لك أخطاء في الكلام. فماذا تفعل؟ لا تقل: سأدرِّب نفسي أنني لا أخطئ في كلامي مرة أخرى.. هذا أمر صعب سوف لا تقدر عليه. لأنه قد يشمل عناصر عديدة لا تستوعبها ذاكرتك.. إنما استعرض أمامك: ما هى الأخطاء التي تقع فيها حينما تتكلم. وتناولها بالتدريب واحدة فواحدة.

ربما من أخطائك عنصر المبالغة في الكلام. وهذه المبالغة قد لا تخلو من أخطاء. درِّب نفسك إذن على هذا الأمر وحده. أعني ترك المبالغة بكل تفاصيلها وصورها.

ربما أيضاً من أخطائك في الكلام: بعض ألفاظ قاسية تعودت على استخدامها. وقد تجرح شعور غيرك. أو تدخله في خصومة معك.. استعرض أمامك كل ألفاظك القاسية. وتدرب على تركها.

ربما من أخطائك في الكلام. أنك تتعرض لسيرة الناس بالنقد:

حاول أن تتخلّص من هذه الخطية الواحدة بالتدريب على تركها. وفي الواقع قد لا تجدها خطيئة واحدة. وإنما تشمل في داخلها عدداً من الخطايا. ربما ما ذكرته في سيرة إنسان يكون نقلاً مباشراً عمّا سمعته من شخص آخر. ويكون في ذلك شيء من الظلم. بينما من تتحدّث في سيرته يكون بريئاً من ذلك. وأنت قد شوّهت سمعته ظلماً. تدرّب إذن على أنك لا تنقل خبراً دون فحص وتدقيق. وعلى عدم ظلم أحد بما ترويه عنه. وربما يكون ما ذكرته في سيرة إنسان هو دخول في خصوصياته. ممّا لا يليق بك أن تتحدث عنه. وهو أمر لا يعنيك ولا يعني غيرك. وليس من حقّك أن تتعرّض لأسرار الناس وخصوصيات حياتهم. ربما يكون فيما تقوله عن سيرة إنسان. ما يسبّب عداوة بينه وبين غيره. وتكون أنت بذلك زارع خصومات.

فتدرَّب على ترك ذلك.

كل ما نقوله هنا عن بند واحد من أخطاء اللسان. يحمل معه تفاصيل أخرى خاطئة. فكم بالأكثر لو كان التدريب عن ترك كل أخطاء الكلام؟! لا شك أنه سيكون تدريباً غير ممكن التنفيذ. بالمثل أيضاً لو كان التدريب عن ترك الغضب والنرفزة. وهو عديد التفاصيل. أو لو كان التدريب عن حسن التعامل مع الناس أمثال هذه التداريب لا تصلح أن تؤخذ جملة. وإنما نتناول منها أحد تفاصيلها. ونتدرّب على الحصول على الفائدة المرجوة منه. وشيئاً فشيئاً. سوف نصل إلى الكل. بإتقان التداريب. فمثلا في تدريب ترك الغضب والنرفزة. يعرف الشخص مع من قد ثار وغضب؟ ولأي سبب؟ وما هي الأخطاء التي وقع فيها أثناء

نرفزته؟.. ويحاول أن يعرف هل هذا الغضب كان أمراً عارضاً؟ أم أن له عنصر الثبات وأنه يُعالج غالبية مشاكله بالغضب؟ وهل بينه وبين هذا الشخص الذي كان موضع غضبه. هل بينهما علاقات سابقة تسبب الغضب لأي سبب ؟ ثم يسأل نفسه: هل كان الغضب هو العلاج الوحيد لذلك الموقف؟ أم كان مُمكناً أن يُعالجه بطريقة أسلم؟ وهل هو قد تسرّع في تصرُّفه؟ وهل كان بشيء من التفكير. أو بشيء من طول الأناة. أن يسلك بطريقة أكثر هدوءاً وبنتيجة أفضل؟!

وهكذا بالتدريب يدخل في فحص النفس وفي محاسبتها

ويدخل أيضاً في التعرُّف على أخطاء النفس ومعالجتها، فإن وجد الإنسان أنه مع شخص مُعيّن لا يضبط نفسه من الخطأ. يحاول أن يتحاشى هذا الإنسان ويتفادى الحديث معه أو الخلطة به. أو يحاول أن يحدد لنفسه سياسة حياله في المرات المقبلة. حتى لا يفاجأ بنفس التصرُّف منه فيغضب. أو يحاول أن يصلح شعوره من جهته بحيث لا يكون قلبه مُستعدّاً لسرعة الغضب منه. كذلك عليه أن يعرف الأخطاء التي يقع فيها أثناء غضبه. ويدرِّب نفسه على تركها فإن كان في غضبه يرتفع صوته ويحتد. يُدرِّب نفسه على عدم علو الصوت وعدم الحدّة. وإن كان في غضبه تكفهر ملامحه ونظراته. حينئذ يُدرِّب نفسه على هدوء الملامح والنظرات. وإن كان في غضبه يستخدم الألفاظ الجارحة. يُدرِّب نفسه على هدوء الألفاظ.

المهم أن الإنسان - في تداريبه - يضع نفسه تحت مراقبة وملاحظة. وتحت توجيه خاص

ولا يترك نفسه على حريتها تتصرّف كما تشاء. دون ضابط ودون حساب. ودون تعديل للمسار الخاطئ. إن الإنسان الذي يستخدم التدريبات الروحية. هو إنسان ساهر على خلاص نفسه. مهتم بنقاوة قلبه وفكره وإرادته. وهو لا يُجامل ذاته. ولا يُبرِّر تصرُّفاتها. ولا يدّعي أنه بلا خطية ! كلنا نخطئ. وعلينا أن نلتفت إلى أخطائنا. ونتدرّب على تركها. والذي يُدرِّب نفسه باستمرار سيأتي عليه وقت يصبح فيه خبيراً بالحياة الروحية وبالمحاربات الروحية. بل يصبح أيضاً خبيراً بالنفس البشرية. وبما يتفاعل فيها من مشاعر وأحاسيس ورغبات وأفكار.. ويمكنه بطول الخبرة أن يصلح لإرشاد غيره.

وليعلم كل إنسان أنه لو درّب نفسه كل أسبوع. أو حتى كل شهر. على مقاومة نقطة ضعف واحدة. لأمكنه في عام واحد أن يتخلّص من ١٢ نقطة ضعف في حياته.

والمعروف أن الخطايا يرتبط بعضها بالبعض الآخر. بحيث أن التخلُّص من خطية مُعيّنة يؤدّي إلى التخلُّص من خطايا أخرى عديدة. كما أن التدرّب على فضيلة مُعيّنة - وبخاصة لو كانت من الفضائل الأمهات - ستقود إلى فضائل أخرى لم تُوضع في مجال التدريب. وذلك لارتباط الفضائل أيضاً ببعضها البعض كحلقات في سلسلة واحدة.

وليعلم أيضاً أنه إن بدأ تدريب نفسه على مقاومة الخطايا وعلى اكتساب الفضائل، فإن نعمة اللّه سوف تعينه إن اللّه لا يترك الإنسان يجاهد وحده في طريق الوصول إليه. بل لا بد ستعمل النعمة معه. ما دام بالتدريب قد أظهر أنه جاد وملتزم بالسلوك الطيب في الحياة مع اللّه. لذلك ستتجاوب معه المعونة الإلهية. وتسنده لكي ينجح في عمله الصالح. كما تقف إلى جواره في محاربات عدو الخير. المهم أنه - في تدريبه - لا يرجع ولا يتراخى ولا يتكاسل بل يكون حازماً مع نفسه.

وأيضاً إن درّب نفسه على فضيلة ما. فليعلم أن الثبات في الفضيلة هو السند الأساسي لاقتنائها.

من السهل على إنسان أن يسير في فضيلة ما يوماً أو يومين أو حتى أسبوعاً. ولكن المهم أن يستمر حتى تصبح الفضيلة عادة فيه أو طبعاً من طباعه. وهكذا تحتاج التداريب إلى مدى زمن. لكي ترسخ في أعماق النفس. لأن كل تدبير لا يثبت فيه زمناً يكون بلا ثمر.

ذلك لأن الزمن والاستمرارية هما المحك العملي لمعرفة تأصل الفضيلة وعمقها في قلب الإنسان وسلوكه. والوقت أيضاً يعطي فرصة لاختبار نوع المعوقات التي تقف ضد التدرب. وطريقة الانتصار عليها. كذلك فليكن التدريب في حدود الامكانيات بحيث يمكن تنفيذه عملياً. فلا يضع إنسان تدريباً لنفسه يكون فوق مستوى إرادته. أو لا تساعده الظروف عليه.

٢٠٠٤/١/٦

تأمُّلات في قصة الميلاد

أولاً. أهنئكم يا إخوتي جميعاً ببدء عام جديد. جعله اللَّه عاماً مُباركاً مُقدَّساً.

تحيون فيه حياة مقبولة من اللَّه. كما أهنئكم بعيد ميلاد السيد المسيح له المجد. وما يحمله ميلاده من إيحاءت ومن معاني ودروس روحية..

ونرجو لبلادنا - في هذه المناسبة - كل خير. مُصلِّين إلى اللَّه أن يحل مشاكلها الاقتصادية ويمنحها الرخاء. ويسبغ عليها من جوده وكرمه سلاماً وطمأنينة. ويُعزِّي أسرات ضحايا الزلزال في إيران. وضحايا الطائرة في لبنان وفي شرم الشيخ. وينعم بالسلام بدلاً من الجو المضطرب في العراق وفي فلسطين وفي بعض بلاد أفريقيا. ولتكن بركة الرب على كل موضع في أنحاء العالم.

***

وكما وُلِدَ السيد المسيح في عالم مُظلم. وأشرق عليه بنوره..

هكذا فليمنح اللَّه الاستنارة للعالم الآن. ويرشده إلى سواء السبيل.. وُلِدَ المسيح في ليلة باردة جداً من ليالي الشتاء. ووسط مجتمع شملته البرودة الروحية فترة طويلة من الزمن. بلا صلة بينه وبين اللَّه. وبلا أنبياء. وبلا افتقاد إلهي. وبلا معونة من الروح. قال عنه المسيح فيما بعد:

"جيل فاسق وشرير يطلب آية ولا تُعطى له". جيل حارب المسيح وحارب معجزاته ووصاياه. لذلك قيل عنه إن "النور أضاء في الظلمة. والظلمة لم تدركه. إلى خاصته جاء. وخاصته لم تقبله".

***

وعلى الرغم من ظلمة العصر. أُحيط الميلاد المجيد بمجموعة من القديسين.

نذكر من بين هؤلاء القديسين زكريا الكاهن وزوجته أليصابات. وكيف بشّرهما الملاك بميلاد ابنهما يوحنا المعمدان "وكان كلاهما بارّيْن أمام اللَّه.. سالكين في جميع وصايا اللَّه بلا لوم". وإلى جوارهما وجد يوسف النجار وسمعان الشيخ. وحنة ابنة فنوئيل العابدة في الهيكل بأصوام وصلوات ليلاً ونهاراً.

ومع هؤلاء. عاشت القديسة العذراء أطهر امرأة في الوجود. التي استحقّت أن روح اللّه يحل عليها. وقوة العلي تظلّلها. والتي بشّرها بميلاد ابنها: الملاك جبرائيل. وكانت الوحيدة في العالم التي ولدت ميلاداً بتولياً. بمعجزة لم تحدث من قبل. ولم تتكرّر فيما بعد..

كل أولئك كانوا موجودين في عصر واحد. هو وقت ميلاد المسيح.

***

وجود أولئك القديسين في ذلك العصر المُظلم يُعطي رجاء بأن روح اللّه يعمل حتى في العصر الخاطئ المُبتعد عنه.

إن الفساد السائد في ذلك الزمن. لم يكن عقبة تمنع وجود أولئك الأبرار فيه. كما أن فساد سادوم من قبل. لم يمنع وجود رَجُل بار هو لوط. وفي كل جيل فاسد يستحق طوفاناً ليغرقه. لا بد من وجود إنسان بار مثل نوح ليشهد للرب فيه. فاللّه لا يترك نفسه بلا شاهد..

وهكذا كان العصر الذي ولد فيه المسيح.

كان روح اللّه يعمل - وبخاصة وسط مختاريه - لكي يمنحهم حياة النُّصرة على ذلك الجو. ولكي يقيمهم شهوداً له. فاستحقوا أن يروا ملائكة . وأن يتسلّموا رسالات إلهية.

يضاف إليهم الرُّعاة والمجوس الذين عاصروا الميلاد.

***

وكان كل أولئك القديسين من نوعيات مُتعدِّدة

* كانوا من نوعيات تختلف في السن. فمنهم سمعان الشيخ. وكان طاعناً جداً في السن. وزكريا وأليصابات "وكان كلاهما مُتقدِّمين في أيامهما". وحنة ابنة فنوئيل. وكانت أرملة من نحو أربع وثمانين سنة. إلى جوار القديسة العذراء وهى شابة صغيرة. ويوحنا بن زكريا وهو طفل رضيع..

* وكانت هذه المجموعة من الأبرار. مُتنوِّعة من جهة العمل.

كان منهم الكاهن مثل زكريا. والنجار مثل يوسف. وسمعان الشيخ كان من علماء الكتاب أو علماء اللاهوت. وكان المجوس من علماء الفلك. وإلى جوارهم مجموعة من الرعاة. وكانت أليصابات "ست بيت".

وحياة البر شملت الكل. بغض النظر عن السن أو نوع العمل.

ممّا يدل على أن اللّه للجميع. يدعو الكل إلى برّه. وإلى ملكوته.

وكان أولئك الأبرار متنوّعين من جهة الحياة الزوجية:

كان زكريا وأليصابات زوجين. وكان يوسف ومريم مخطوبين.

وكانت حنة ابنة فنوئيل أرملة. ولا شك أن سمعان الشيخ كان أرملاً.

والعذراء كانت بتولاً. ويوحنا بن زكريا صار بتولاً أيضاً.

وفي صورة واحدة. اجتمع المتزوجون والمترمّلون والمخطوبون والبتوليون. كلهم لهم نصيب في الرب. وكلهم لهم نصيب في حياة البر.

كذلك كان من بينهم الرجل والمرأة والطفل والكل فرحوا بميلاد المسيح. كما فرح الرعاة بذلك. وكما فرح المجوس.

***

وكان ميلاد السيد المسيح مناسبة فرح:

فرح الملائكة بميلاده. وأنشدوا نشيدهم الخالد "المجد للّه في الأعالي. وعلى الأرض السلام. وفي الناس المسرة".

ودَعوا الرعاة أيضاً للاشتراك معهم في الفرح. لأنه فرح لجميع الشعب. والعذراء فرحت. وعائلة زكريا الكاهن فرحت. وما زال العالم يفرح إنه فرح ببدء عهد جديد. تظهر فيه مبادئ جديدة وقيم سامية عالية يُقدّمها السيد المسيح للعالم.. وظهرت في عظته الشهيرة على الجبل. وفي سائر عظاته وتعاليمه. وفي ما أودعه في قلوب تلاميذه من تعليم.

على أن هناك دروساً عميقة نتعلمها من قصة الميلاد. وما أحاطت بها من أحداث. وما نتعلّمه أيضاً من حياة السيد المسيح على الأرض..

***

من الدروس الهامة التي نتعلمها من قصة الميلاد:

عدم الاهتمام بالمظاهر:

يظهر هذا جلياً من ميلاد السيد المسيح في بلدة صغيرة تدعى بيت لحم. وفي مكان حقير هو مذود بقر. وفي يوم لم يعلن للناس ما زالوا يختلفون في موعده.. كما يولد بدون احتفالات أرضية. كما يحدث لسائر الناس. استعاضت عنها السماء بحفل من الملائكة والجند السمائيين.

كما وُلِدَ من أسرة فقيرة. وفي رعاية رجل نجار. وقيل عن يوم ميلاده "لم يكن له موضع في البيت". وحتى الآن لا تزال صور الميلاد تبيّن المذود وما يحيط بالفراش القش من حيوانات.

ووُلِدَ في يوم شديد البرد. لم يجد فيه أقمطة كافية ولا دفئاً..

***

كل ذلك نأخذ منه درساً روحياً. وهو أننا بالبعد عن المظاهر الخارجية ندخل في مشاعر الميلاد. بعيداً عن العظمة والترف.

فالعظمة الحقيقية ليست في المظاهر الخارجية من غنى وملابس وزينة.. وباقي أمثال هذه الأمور التي فيها إعلان عن الذات.. إنما العظمة الحقيقية هى في القلب المنتصر المملوء من الفضائل.

فليبحث إذن كل شخص عن مظاهر العظمة الخارجية التي يقع في شهوتها ويسعى إليها. لكي يتجنّبها.. إن أراد أن تكون للميلاد فاعلية في حياته..

***

من دروس الميلاد أيضاً:

الاتضاع

إن ميلاد السيد المسيح هو أكبر درس في الاتضاع. وقصة الميلاد بدون اتضاع. تفقد جوهرها.. سواء في ظروف الميلاد التي أخلى فيها ذاته من كل مجد عالمي. أو حياته حوالي ثلاثين عاماً وهى تكاد تكون مجهولة لكثيرين. على الرغم ممّا حدث فيها من معجزات في فترة مجيئه لمصر.. واتضاع السيد المسيح. كان معه اتضاع أمه العذراء أيضاً.

فإن أردنا الاحتفال بالميلاد. فلنحتفل بالاتضاع فيه وفينا.

ولنبحث ما هى أعماق الاتضاع. وكيف تكون وكيف نحياها؟ وما هى الأمور التي تضاد الاتضاع في حياتنا لكي نتجنبها؟ لأنه ما الفائدة في أن ننظر إلى اتضاع السيد المسيح دون أن نتشبه باتضاعه على قدر طاقتنا؟!

أليس أنه ترك لنا مثالاً. حتى كما سلك هو. نسلك نحن أيضاً..!

***

من دروس الميلاد أيضاً:

البساطة

نلاحظ في قصة الميلاد أن السيد المسيح له المجد - لمّا بدأ رسالته - اختار له تلاميذ بسطاء. غالبيتهم من الصيادين. ولكنهم كانوا أبراراً ولهم قلوب مُستعدة لحمل الرسالة.

كما أن بشارة الميلاد أُعلنت لجماعة من الرُّعاة البسطاء. ولكن كانت لهم بساطة الإيمان وعمقه. ولم تعلن هذه البشارة لكثيرين من القادة كالكتبة والفريسيين وكهنة اليهود وشيوخ الشعب.. فلماذا؟

ذلك لأن أسرار الرب. إنما تُعلن لقلوب بسيطة تفرح بها.

إن المجوس والرعاة كانوا بُسطاء القلب. لمّا سمعوا ببشارة الميلاد. صدّقوا وآمنوا وفرحوا. وذهب المجوس إلى المذود وقدموا هداياهم..

أمّا الكبار فلم تكن قلوبهم مُستعدة ولا بسيطة. مثال ذلك هيرودس الملك. الذي لمّا سمع الخبر "اضطرب وكل أورشليم معه". واستخدم الفحص والاستقصاء. وأيضاً الحيلة والدهاء في كيف يقتل المولود!!

***

فهل أنت أيها القارئ العزيز لك بساطة الإيمان. التي تستطيع بها أن تقبل أسرار الرب ومعجزاته؟

إن القديسة العذراء كانت لها بساطة القلب. فآمنت بما قيل لها من قِبل الرب عن طريق ملاكه. وصدّقت أنها ستلد وهى عذراء. فكانت لها هذه البركة.. وكذلك يوسف النجار أيضاً آمن بأنها حُبلى من الروح القدس..

والمجوس على الرغم من أنهم كانوا حكماء وعلماء. إلاّ أنهم كانوا أيضاً بُسطاء في قلوبهم. ولم يكن لهم مكر هيرودس الملك وخبثه. لذلك استحقوا هم أيضاً أن يروا المسيح وينالوا بركته. وعلى الرغم من أنهم رأوه في مذود. إلاّ أنهم آمنوا وقدّموا هداياهم.

وهنا نسأل : هل نحن نسلك ببساطة الإيمان. أم بتعقيد وشك؟

إن العالم المعاصر - للأسف الشديد - فيه الكثير من التعقيد بإسم العلم! فكثيرون ينكرون المعجزات. وينكرون صحة الرؤى المُقدّسة. لذلك إذا ما حدثت أمامهم لا يصدّقونها! بل بعضهم ينكر القيامة أيضاً. وهكذا وجدت فجوة بين الدين. وبعض الفلاسفة والعلماء.

إننا نؤمن بالعلم. ولكننا لا نحب في الأمور الخاصة باللّه ومعجزاته. أن نفقد بساطة القلب. فالبساطة كنز عظيم. من الخسارة أن نضيّعه.

والبساطة هى غير السذاجة. فمن الممكن أن تكون بسيطاً وحكيماً.

البساطة هى عدم التعقيد. وليست عدم التعقّل. وهى تتمشّى مع حياة الإيمان. وبها نقبل ما يقوله اللّه. دون أن نكون رقباء على عجائبه.

***

وفي احتفالنا بالميلاد. نذكر المبادئ السامية التي نادى بها المسيح:

ولعلّ في مقدمة ذلك: المحبة والسلام. جاء المسيح ينشر الحب بين الناس. وبين الناس واللّه. ويقدم اللّه للناس أباً مُحبّاً. يعاملهم لا كعبيد. بل كأبناء. ويصلون إليه قائلين "أبانا الذي في السماوات". وهم في الحرص على محبته. يعملون بوصاياه. لا خوفاً من عقوبة. بل حُبّاً للخير.

وهكذا قال السيد المسيح إن جميع الوصايا تتركز في وصية واحدة وهى المحبة "تحب الرب إلهك من كل قلبك. ومن كل فكرك. ومن كل قدرتك. وتحب قريبك كنفسك" بهذا تتعلّق جميع الوصايا.

***

وإلى جوار المحبة. جاء المسيح أيضاً ببشارة السلام:

سلام بين الناس. وسلام بين الإنسان واللّه. وسلام في أعماق النفس من الداخل. سلام من اللّه يفوق كل عقل.

وعلّم بأن الصلح أفضل من تقديم القرابين. فقال: "إن قدّمت قربانك على المذبح. وهناك تذكّرت أن لأخيك شيئاً عليك. فاترك قربانك قدّام المذبح. واذهب أولاً اصطلح مع أخيك".

وفي سبيل السلام بين الناس. دعتهم تعاليم المسيح أن يكونوا مُقدِّمين بعضهم بعضاً في الكرامة.

إن العالم بميلاد المسيح قد بدأ عصراً جديداً. يتميّز عن كل ما سبقه من عصور. وأصبح الميلاد المجيد فاصلاً بين زمنين مُتمايزين: ما قبل الميلاد. وما بعد الميلاد.

٢٠٠٤/١/١٣

الرغبات والخوف

الإنسان المُتديّن تكون رغبته الأولى والعظمى هى اللّه. وباقي رغباته داخلها. كما تكون رغباته سبباً في سعادته وسعادة غيره كما أنه يحذّر من أن يعيش في جحيم الرغبات. أعني الرغبات المادية وسائر الرغبات الخاطئة التي تستعبد من يخضع لها.

بحث أحد الحكماء في أسباب السعادة والشقاء. فوصل إلى حقيقة عميقة في فهمها وهى:

إن سبب الشقاء هى وجود رغبة لم تتحقّق..

***

فقد يعيش الإنسان فقيراً. ويكون سعيداً في نفس الوقت. ولكن إن دخلت في قلبه رغبة في الغنى ولم تتحقّق. حينئذ يتعب ويشقى.. وهكذا قد يكون الإنسان مريضاً. وأيضاً راضياً وشاكراً. يزوره الناس فيقابلهم في بشاشة وابتهاج. لا يشقيه المرض. لكنه يبدأ في التعب إن دخلت في قلبه رغبة في الشفاء. أو في الشفاء السريع. ولم تتحقّق. أو عرف من طبيعة المرض إنها لن تتحقق.

إن رحلة الرغبات داخل القلب تتعبه وتضنيه. وترهقه وتشقيه.

فهو يشتاق. ويشقى في اشتياقه. يريد ويجاهد في تعب لكي يصل. يعدّ العدة. ويلتمس الوسائل. يفكّر ويقابل ويكتب ويشكو. ويروح ويجيء. ويَسعى ويَتعب في سعيه. ويَشقى في سعيه وتعبه.

***

وقد ينتظر طويلاً.. متى تتحقّق الرغبة. ويشقى في انتظاره. يصبر. وربما يضيق صبره. فيملّ ويضجر. ويدركه القلق حيناً. واليأس حيناً آخر.. أو قد يتعبه الخوف. الخوف من اليأس.. وقد يتعب من طياشة الفكر. ومن أحلام اليقظة. ومن أن رغباته هى مجرد آمال. مجرد قصور في الهواء. لا يراها إلاّ إذا أغمض عينيه!! وقد ينتهي سعيه وتعبه إلى "لا شيء". ويحرم من رغبته التي يود تحقيقها. ويشقى بالحرمان.

وأخطر من هذا كله. إن آماله وأغراضه قد تجنح به عن طريق الصواب.

فيتعلم بسببها الخداع. أو اللف والدوران. أو التزلف والتملق. أو الكذب أو الرياء. أو ما هو أبشع من هذا.. وصدق أحد الحكماء حينما قال: "لابد أن ينحدر المرء إلى النفاق. إذا كان في قلبه شيء يريد أن يخفيه"!

***

العجيب في هذه الرغبات المادية أو الشهوانية. أنها تشقي صاحبها حتى إن تحققت! ذلك لأنها لا تقف عند حد..

قد يعيش المرء في جحيم الرغبات زمناً. حتى إذا ما تحقّقت له رغبة. وفرح بها وقتاً ما. ما تلبث أن تقوده إلى رغبة أخرى. أو إلى خطية ما في طريق الرغبات الذي لا ينتهي.

فالرغبة عندما تتحقّق. يلتذ بها. وتقوده اللذة إلى طلب المزيد. والوصول إلى هذا المزيد. قد يقوده إلى تعب جديد. ويكون كمَنْ يشرب من ماء مالح. ومن يشرب من ذلك الماء. يعطش.. وفي عطشه يسعى مرة أخرى إلى الماء ليشرب. وكلّما شرب يزداد عطشاً وهذا دواليك: في حلقة مُفرغة. لا يستريح فيها ولا يهدأ.

***

صاحب الرغبة يعيش في رعب: إمّا خوفاً من عدم تحقّق رغبته. أو خوفاً من ضياعها. إن كانت قد تحققت!!

ومن القصص اللطيفة في هذا المجال. أن رَجُلاً فقيراً لا يملك شيئاً على الإطلاق. كان يعيش في منتهى السعادة: يضحك ملء فمه. ويغنّي من عمق قلبه. فالتقى به أحد الأمراء. واعجب به وحنّ عليه. فمنحه كيساً من الذهب. فأخذه ذلك الفقير إلى بيته. وبدأت الآمال والرغبات تدخل إلى قلبه. أية سعادة سيبنيها بهذا المال!

ثم لم يلبث الخوف أن ملك عليه. لئلاّ يَسرق أحد الناس منه هذا الذهب. قبل أن يبني سعادته به! فقام وخبّأ الكيس وجلس مُفكّراً. ثم قام وغيّر المكان الذي أخفاه فيه. ثم حاول أن ينام ولم يستطِع. وقام ليطمئن على الذهب.. وفي تلك الليلة فقد سلامه. وأشقته الآمال والرغبات.. حتى قال لنفسه: أقوم وأعيد هذا الذهب إلى الأمير وأنام سعيداً كما كنت.

***

والإنسان قد يُقاد من رغباته.. رغباته تمثّل نقطة ضعف فيه. يقوده الناس بها..!

ما أشقى الإنسان الذي تكون رغباته في أيدي الناس: في حوزتهم. أو في سُلطانهم. أو في إرادتهم!! بإمكانهم أن يحققوها له. وبإمكانهم أن يحرموه منها. لذلك يعيش للناس. تتوقف سعادته على رضاهم..!

وشهوات الإنسان على أنواع: هناك إنسان تقوده شهوة المال. وآخر تقوده شهوة الشهرة. وثالث تقوده شهوة الجسد. ورابع تقوده شهوة العظمة أو التسلُّط. وخامس تقوده شهوة الانتقام. وغير ذلك.. وكلها نقاط ضعف يمكن أن يقاد بها. أو يسقط فيها.

***

لذلك حسناً قال القديس أوغسطينوس:

"جلست على قمة العالم. حينما أحسست في نفسي أني لا أشتهي شيئاً. ولا أخاف شيئاً".

حقاً إن الإنسان الذي لا يشتهي شيئاً. لا يمكن أن يخاف. إذ لا يوجد شيء يحرص عليه. أو يخشى عليه من الضياع. وما أجمل ما قاله أحد القديسين في ذلك "خير الناس من لا يبالي بالدنيا في يد من كانت".

ومن هنا كان الزهد أحد العوامل الأساسية في القضاء على الخوف. فالإنسان الزاهد لا يخاف موتاً ولا سجناً ولا إيذاء. ولا حرماناً من أي شيء من مشتهيات العالم. ولا أي تهديد من أي نوع. لأنه قد زهد في كل شيء. ولم يعُد يحرص على شيء يخشى أن يضيع منه.

****

لهذا كان النُسّاك يعيشون في سعادتهم. زاهدين لا تتعبهم الرغبات:

هؤلاء قد انتصروا على الرغبات. وارتفعوا فوق مستواها. ولم تعد لهم سوى رغبة واحدة مُقدَّسة. هى الحياة مع اللَّه والتمتع به. وهذه لا يستطيع أحد من الناس أن يحرمهم منها.

إن سعادة الناسك تنبع من داخله. من قلبه. من إحساسه بوجود اللَّه معه. أمّا الناس فإنهم ليسوا المصدر الذي يمنحه السعادة. وبالتالي فليست لهم قدرة على أن يحرموه منها.

إنه قد يسعد بهم. من أجل محبته لهم. من أجل الحب الكامن في قلبه من جهتهم. وليس من أجل خير يعطونه إياه.

هذا الإنسان الذي تنبع سعادته من داخله. لا تصير سعادته رهناً للظروف الخارجية. ولا يتحكّم فيها الناس.

هناك أمثلة جميلة لأولئك الذين لم تكن لهم رغبات يحققها لهم الناس:

لعلّ في مُقدّمتهم مثال **ديوجين الفيلسوف**. ذلك الحكيم الذي كان يُحبّه الإسكندر الأكبر. وقد بلغ من فرط إعجابه به أنه قال:

"لو لم أكن الإسكندر. لتمنّيت أن أكون ديوجين"

في إحدى المرات كان هذا الفيلسوف في صومعته. وجاء الإمبراطور الإسكندر. وأطل عليه من صومعته وقال له "أي شيء تريد يا ديوجين فأُعطيك إياه؟ ولو كان نصف مملكتي!"

فأجابه ديوجين قائلاً في عمق: "أريد ألاّ تمنع عني الشمس"!

وانصرف الإسكندر. وقد استصغر ذاته.. لم تكن كل مملكته تساوي شيئاً في قلب ديوجين..!

***

حقاً. أي شيء في العالم يمكن أن تتعلّق به رغبات الروحيين؟!

لا شيء. فالعالم ليس فيه سوى المادة والماديات. ومشتهيات الجسد والنفس. أمّا هم فرغباتهم مركّزة في اللّه وسمائه وفي عالم الروح. وليس في العالم شيء يشتهونه.

لو كان الذي يشتهونه في هذه الأرض. لتحوّلت الأرض إلى سماء!

الروحيون أعلى من رغبات هذا العالم وأسمى. والعالم لا يعطيهم. بل بالحري يأخذ منهم. على الأقل يأخذ بركتهم. ومن أجل بركتهم يرضى اللّه على الأرض.

أمّا هُم فليست سعادتهم في أن يتمتّعوا بما في العالم من رغبات إنما سعادتهم في أن يملأوا العالم خيراً على قدر طاقتهم.. إنهم نور للعالم يُبدِّد ظلماته.

****

وقد تأمّلت في أحد هؤلاء الزاهدين المُرتفعين عن مستوى الرغبات الأرضية. فناجيته ببعض أبيات منها:

كل ما حولك صمت وسكون	وهدوء يكشف السرّ المصون
هل ترى العالم إلاّ تافهاً	يشتهي المتعة فيه التافهون
كل ما فيه خيال ينمحي	كل ما فيه سيفنى بعد حين
هل ترى الآمال إلاّ مجمراً	يتلظى بلظاه الآملون
لست منهم هم جسوم بينما	أنت روح فرّ من تلك السجون

ما أجمل أن يعيش الإنسان سعيداً باللّه. يمكن أن تكون له رغبات. ولكن لا تستعبده الرغبات!

تكون الرغبات مفتاحاً في يده. ولا تكون أغلالاً في يديه

إن الإنسان الجاهل. أو الإنسان الخاطئ. أو الإنسان الضعيف:

تتحكم فيه شهواته. أمّا البار فيسيطر على جميع رغباته. ولا يستلم إطلاقاً لأية شهوة خاطئة. ولا يجعل إرادته تخضع لأية رغبة ضد مشيئة اللّه.

فمثلاً قد يملك المال. ولكن لا يسمح لمحبة المال أن تملك عليه.

وهو لا ينتظر حتى تضغط عليه الشهوة الخاطئة. ثم بعد ذلك يقاومها. بل هو يتجنب هذه الشهوات وهى قادمة من بعيد.

إنه يسد أمام نفسه الطرق التي تصل منها هذه الشهوات. فيبعد عن جميع المثيرات والمعثرات. ويتجنب العوامل الخارجية التي تغرس الشهوات في النفس أيّاً كان نوعها.

***

ولأن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون رغبات على الاطلاق. لذلك على الإنسان البار. أن يغذي روحه بالرغبات الفاضلة..

يقوّي قلبه بمحبة اللّه. ومحبة الفضيلة. وبمحبة الخير للناس. حتى تكون له حصانة داخلية. تصد عنه كل الحروب الخارجية وكل نوازع الشر سوى من الشيطان أو من الأشرار.

إن شهوة الخير أقوى من شهوة الشر. والرجل البار يصد شهوة بشهوة. يصد شهوة الشر بشهوة الروح التي هى شهوة الخير. وشهوة الروح أقوي إن كانت صادقة وعميقة وحقيقية. كما أن شهوة الروح تسندها المعونة الإلهية.

ذلك أن الإنسان البار في شهواته المُقدّسة القلبية. وفي محاربته للخطيئة. لا يقف وحده. بل يسنده اللّه بنعمته وبملائكته.

***

والرغبات الروحية لا تعرف خوفاً. والإنسان الروحي لا يخاف

إنه في محبّته للّه. وفي محبّته للفضيلة. لا يخاف من كل قوى الشر المُضادة. لأنه يشعر بقوة اللّه معه وبقوة تشفُّعات الملائكة فيه.

ويشعر باطمئنان داخلي سببه راحة الضمير وثقة القلب.

إنما الذي يخاف هو الذي يحاول أن يسلك في الفضيلة دون أن يحبها!

الذي قد يتبع الفضيلة لمجرد الخوف: الخوف من العقوبة. أو من نتائج الخطيئة. وقلبه من الداخل ليس أميناً من جهة اللّه. هذا. إذا ما زال عنه عامل الخوف قد يسقط.. أو قد تنتشله نعمة اللّه. فتنقله من مرحلة الخوف إلى محبة الخير.

إننا نريد الشخص الذي إذا رفض الخطيئة. لا يندم على رفضه إياها. ولا يشعر أنه قد خسر شيئاً يُحبه. أو ضحى بشيء يشتهيه. من أجل اللّه.

بل نريد الإنسان الأمين في روحياته. الذي يشتهي الخير. وبسبب هذه الشهوة المُقدّسة يترك الشر ويكون سعيداً بتركه.



٢٠٠٤/١/٢٠

الـروح

كما خلق اللّه المادة. خلق أيضاً الروح وعالم الأرواح..

الملائكة أرواح لهم طبيعة خاصة لا علاقة لها بالمادة. ولها قدرات هائلة وعجيبة. تنتقل بين السماء والأرض تنفذ مشيئة اللّه حيثما يرسلها.

وهى أرواح طاهرة بارة. تسبح اللّه وتمجده. وتمثّل القوات السمائية.. والشياطين أيضاً أرواح غير أنها أرواح نجسة شريرة.

وقد كان الشياطين ملائكة وسقطوا. فقدوا قداستهم. ولكنهم لم يفقدوا طبيعتهم. فما زالت لهم قوة.. لقد عصوا اللّه.. ولم يكتفوا بهذا بل يحاولون إغراء البشر على عصيان اللّه أيضاً.

أمّا البشر فهم طبيعة فيها الروح وفيها الجسد المادي أيضاً.

***

والإنسان العادي يعيش في صراع بين الجسد والروح. يقاوم أحدهما الآخر.

أحياناً يسلك حسب الروح فيحيا في البر.. وأحياناً يسلك حسب الجسد. فيسقط في الخطيئة ويتحوّل إلى إنسان مادي. وأحياناً يتأرجح بين الحالين. فيسقط ويقوم وقد عبّر إيليا أبو ماضي عن هذه الحالة في قصيدته الطلاسم. فقال:

إنني ألمح في نفسي صراعاً وعراكاً ... وأرى نفسي شيطاناً وأحياناً ملاكاً

هل أنا اثنان يأبى هذا مع ذاك اشتراكاً ... أم تراني واهماً فيما أراه؟ لست أدري

نعم. هو هنا واهم فيما يراه.. فالإنسان كيان واحد مع تنوّع تكوين عنصريه: الروح والجسد. ويمكن أن يعيش الاثنان في وحدة وتعاون أو في تكامل. في حياة روحية بارة.

***

في الحياة الروحية يخضع الجسد لمشيئة الروح. ويخضع الاثنان معاً لمشيئة اللّه

يخضع الجسد للروح. لأن الروح من طبيعة أسمى. وأيضاً أبقى وأقوى.. فهى تبقى بعد أن يتحوّل الجسد إلى تراب.. وتظلّ باقية حتى تعود إلى الجسد في القيامة العامة والذي يسلك حسب الروح في حياة طاهرة. يستطيع بهذا أن يقوّي روحه حتى تنتصر على الجسد إذا انحرف.. وفي نفس الوقت تنتصر على المادة والخطيئة والشيطان..

والسلوك الروحي له جانبان سلبي وإيجابي. فمن الناحية السلبية يقاوم انحرافات الجسد بحياة التوبة. أمّا الجانب الايجابي فهو السير في حياة الفضيلة والبر. والنمو في هذا الطريق الروحي. مع استمرار النمو حتى يصل الإنسان إلى حياة الكمال النسبي. حسبما تستطيع القدرة البشرية. وحسبما يمنحها اللّه من نعمة.

قوة الروح

للروح قوة عظيمة بحكم طبيعتها. وبخاصة إن كانت روحاً طاهرة

وتوجد عند الهندوس تداريب كثيرة لتقوية الروح. كنا نراها قديماً عند المهاتما غاندي الزعيم الروحي عند الهنود. وكان ناسكاً شديد النُّسك. ويحلّ غالبية مشاكله بالصوم. كما نراها أيضاً عند جماعات اليوجا في نُسكهم وصوم وتخلّصهم من رباطات الجسد. حتى تنطلق أرواحهم حرة. ولهم في ذلك قصص تشبه الأعاجيب.

كما نلاحظ في الأمراض. أنه إن كانت الروح قوية "الروح المعنوية" فإن المريض يصمد أمام المرض. فإذا ضعفت روحه. انهارت صحته.

وحتى في الصوم: إن كانت الروح قوية. فإنها تحمل الجسد وتحتمل الجوع. وتصبر. أمّا الروح الضعيفة. فإنها ترى الصوم ثقلاً. وتحاول أن تتهرب منه. وتشتهي أن ينتهي.

***

الروح القوية تظهر قوّتها في نواحٍ مُتعدِّدة. منها حرارة الروح

فالإنسان البار يكون حاراً في الروح. صلواته حارة جداً مُلتهبة بالحُب الإلهي وتظهر حرارة الصلاة في قوة إيمانها. وفي انسحاقها. وفي حرارة الطلب ولجاجته.

وربما تكون حرارتها في ألفاظها وتعبيراتها.

والإنسان الروحي تظهر حرارته في غيرته المُقدَّسة في خدمة اللّه والناس. في حماسه. وفي سرعة نجدته للآخرين. وفي سعيه لرد الضال. كما يظهر ذلك أيضاً في قوة الكلمة وتأثيرها.. هذا كله بعكس الخدمة الخاملة الذابلة الخالية بين الروح. التي هى مجرد روتين وبلا تأثير.

كما تظهر حرارة الروح في المحبة. من جهة اللّه والناس. وكما قال سليمان الحكيم "مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة. والسيول لا تغمرها".

الروح القوية لها أيضاً سُلطان..

فالإنسان الروحي له سُلطان على جسده: يخضعه ويؤدِّبه. ويضع له حدوداً لا يتعداها.. وله أيضاً سُلطان على الشياطين. لا يقدرون عليه. بل إن روحياته لها هيبة تخيفهم. فلا يقدرون أن يقتربوا إليه إنه مدينة محصنة.. أن الشيطان من عادته أن يجس نبض الإنسان. ليعرف حقيقة معدنه.. فهو يجربه أولاً بشهوات الحواس. ليستطيع أن يجد مدخلاً إليه.. ثم يجربه بالفكر. ليرى هل من النوع الذي ينقاد وراء الفكر الشرير. ويستسلم له أم يقاومه؟! كما يحاربه بالرغبات وبأنواع مشاعر أخرى. فإن لم يجد استجابة في كل ذلك. حينئذ تصبح لهذا الإنسان هيبة يعمل لها الشيطان حساباً. ويخاف أن يقترب إليه.

ولكن الروح تفقد هيبتها. إن خضعت للشيطان. وفتحت له أحد أبواب الفكر أو القلب! وأعطته مجالاً أن يعمل فيها ويوجهها!!

لذلك أيها القارئ العزيز. احتفظ بهيبة روحك أمام الشياطين. وأمام جنودهم من الناس الأشرار.. لا تعطهم سمعاً لإغراءاتهم. ولا لأقوالهم الملقة. وإلاّ انطبق عليك قول الشاعر:

قد صادفوا أذناً صفواء لينةً فأسمعوها الذي لم يسمعوا أحداً

***

إن الأرواح التي تهابها الشياطين. هى الأرواح التي جاهدت لأجل البر. وانتصرت في جهادها. هى الأرواح التي لا تستطيع الشياطين أن تغريها أو تغويها. ولا حتى بصعوبة. مهما حاولت إلقاء الشباك حولها زمناً.. إنها أرواح لا تستسلم لعدو الخير. ولا في الهفوات التي تبدو بسيطة..!

هي أرواح مُخلصة لخالقها. لا تخونه في شيء. بل تسلك بتدقيق..

وهى أرواح قوية.. يمنحها اللّه نعمة لا تخاف من الحروب الخارجية. بل تصمد لها وتقاوم. مُعتمدة على معونة اللّه. الذي يرى إخلاصها فيقوّيها ويشجّعها.. إنها أرواح عفيفة.. لم يحدث أنها طلبت من الشيطان شيئاً. وليست لها شهوة على الإطلاق يتطوّع الشيطان أن يُحقّقها لها.. إنها أرواح كبيرة.

***

الأرواح الكبيرة

أرواح كبيرة في محبّتها للخير. وكبيرة في عفّتها. وفي قوّتها واستطاعتها.. كبيرة في مستواها الروحي. لم تقف عند حدود الجهاد والتوبة.. وإنما ظلّت تنمو في حياة البرّ. ساعية بكل طاقتها أن تصل إلى الكمال النسبي المحكم.. أرواح لا تسعى فقط إلى خلاص ذاتها. بل أيضاً خلاص الذين تقابلهم في طريق الحياة والذين يسمعونها.. أرواح يحسّ الناس أن كلماتها تقتدر كثيراً في فعلها. ولها قوة. وقدرة في التأثير على الناس. ولها سُلطان أن تدخل إلى الفكر والقلب. وتستقر هناك وتعمل عملاً.

أرواح كبيرة أيضاً في معرفتها. وهبها اللّه الحكمة والافراز. ولها الفَهْم والإدراك. والقدرة على قيادة الآخرين وإرشادهم.

***

هناك أرواح كبيرة. لم يقتصر عملها على خدمة اللّه والناس هنا على الأرض بل حتى حينما تترك الجسد وتصعد إلى السماء. يكون لها عمل أيضاً. إمّا أن تشفع في الناس. أو أن ينتدبها اللّه لبعض خدمات على الأرض.

ينتدبها لانقاد البعض ضيقة. أو لشفاء مريض بمعجزة. أو لأداء رسالة مُعيّنة. كما يحدث من بعض أرواح القديسين. الذين انتقلوا من عالمنا. ولم تنته حياتهم بالموت. بل ما زال لها امتداد في العمل لأجل الآخرين.

وهناك أرواح كبيرة فيما يعلنه لها اللّه من رؤى واستعلانات

هذا نوع من الكشف الإلهي Revelation. هى حالة إنسان "مفتوح العينين" يرى ما لا يراه غيره.. وتكون هذه الرؤى في وضع أسمى من حواس الجسد العادية. وأعلى من مستواها في الإدراك. إنها هبة من اللّه.. أو هى "بصيرة روحية" يكشف فيها اللّه للروح ما يريد أن يكشف من أسراره. فترى بينما المحيطون بها "لهم عيون ولكنها لا تبصر".

***

ما دام الأمر هكذا. وما دامت الروح لها طاقات غير طاقات الجسد. ولها في رؤاها حواس تبصر ما لا يبصره الجسد. ولها مواهب يمنحها اللّه إياها فوق مستوى الجسد وطاقاته.. ولها أيضاً بقاء بعد موت الجسد وانفصالها عنه. لذلك يجب أن نبذل كل الجهد للاهتمام بالروح.

الاهتمام بالروح

واضح جداً أننا نبذل جهداً كبيراً في الاهتمام بالجسد من كل ناحية فهل على قدر النسبة والنوع نهتم بالروح؟! فلنبحث ذلك معاً:

*** النقطة الأولى: غذاء الروح**

أنت تعطي جسدك غذاءه كل يوم. وغالباً ثلاث مرات في اليوم. وتعطيه الغذاء بكميات كافية حسبما يلزمه. فهل تعطي الروح غذاءها كل يوم؟

وأنت تعطي الجسد غذاء من كل العناصر والاصناف اللازمة: فمثلاً تعطيه الكالسيوم لبناء العظام. والحديد لبناء الدم. والبروتين لبناء الأنسجة. كما تعطيه السكر والكربوهيدرات لمنحه الطاقة التي يحتاجها. وتعطيه أيضاً ألواناً مُتعدِّدة من الفيتامينات والمعادن minerals. فهل تعطي الروح ما يلزمها من الغذاء؟ الروح تحتاج في غذائها إلى القراءات الروحية: من كتاب اللّه والكتب النافعة. وتحتاج إلى التأمُّل الروحي. وإلى التراتيل والترانيم. وإلى الوعظ والفكر الروحي. والمعاشرات الروحية والقدوة الصالحة التي تتغذى بها.. والصلاة.. فهل أنت تعطيها كل هذا. وكل يوم وبكميات مناسبة؟!

***

*** النقطة الثانية الطب والعلاج**

الجسد إذا مرض تعرضه على أطباء. وحسبما أمروا تنفذ. وتأخذ الدواء اللازم والعلاج.. والروح أيضاً في مرضها تحتاج إلى أطباء روحيين. من المرشدين الذي يلزمك أن تأخذ ما يصفونه من علاج.. وأنت تعطي الجسد راحته.. كذلك الروح تحتاج إلى الهدوء. والخلوة الروحية.. فهل تقدِّم لها ذلك.. وهل تريحها أيضاً بالإيمان والسلام القلبي؟

وإن كان في الطب الجسدي. الوقاية خير من العلاج.. ففي الطب الروحي أيضاً. تبعد عن كل ما يضعف روحك من أسباب الخطية.. كأن تبعد عن "المعاشرات الرديئة التي تفسد الأخلاق الجيدة".. لأنه كما يقول المزمور "طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لا يقف. وفي مجلس المستهزئين لا يجلس".

وهكذا تقوى الروح. بالبعد عن الأجواء التي تضعفها أو تحطِّمها.. كل ما سبق هو تقويات عادية. فكم بالأكثر يكون حال الروح. إذا ما كان اللّه نفسه يعينها بنعمته..؟!

***

زينة الروح

عجيب أن الإنسان.. قبل أن يخرج من بيته.. يقف أمام المرأة يتأمّل نفسه. ليطمئن على أناقته وزينته وحسن منظره.. بينما لا تهمه روحه ومنظرها وحسن زينتها..!!

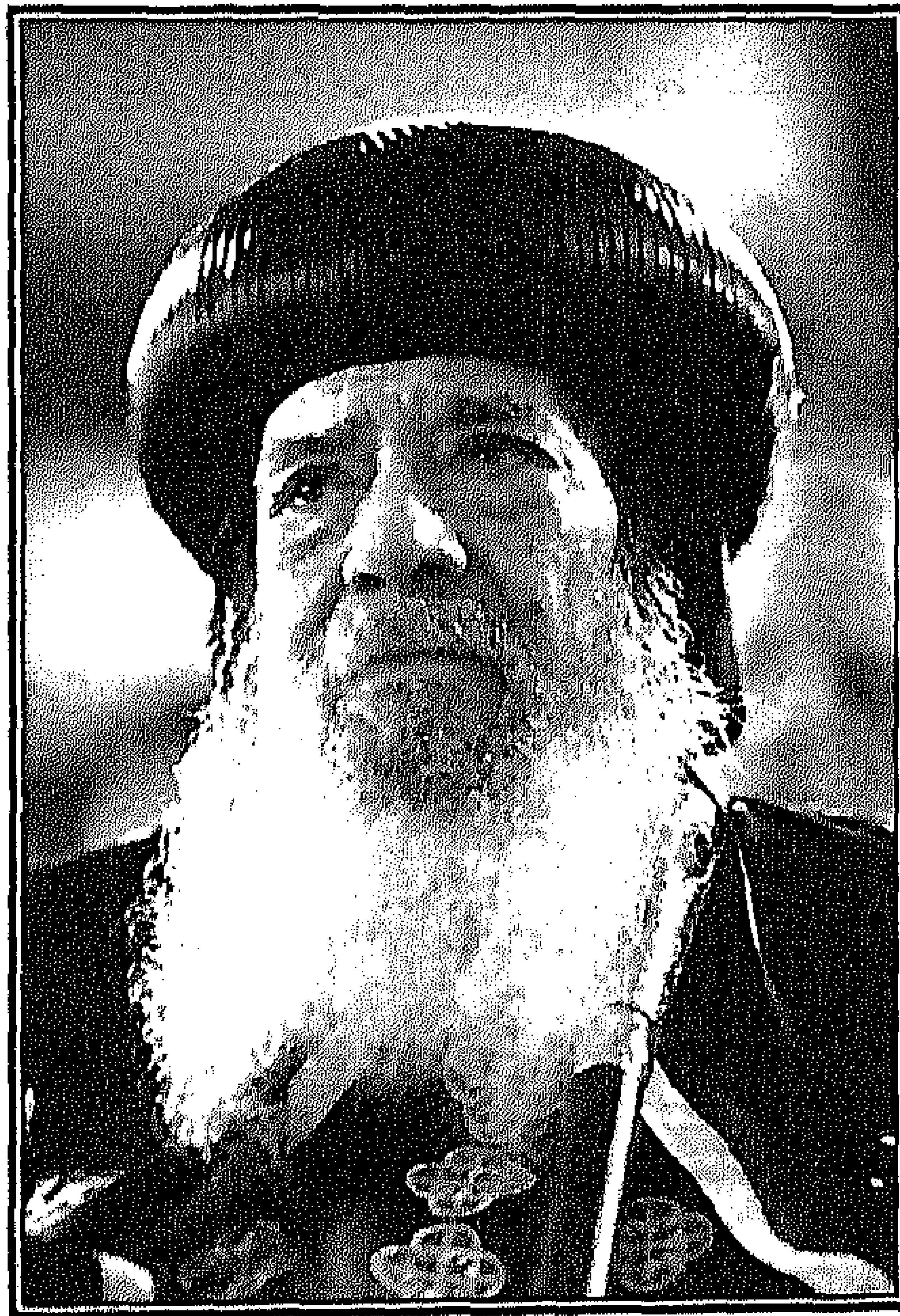
فما هي زينة الروح إذن التي تتجمّل بها؟

إن الروح تتزين بالفضائل التي تجعلها جميلة في أعين اللّه والناس..

فهناك من يتزيّن بالحكمة. ومن يتميّز بالروح الوديع الهادئ. أو بالكلمة الطيبة وحسن التعامل مع الناس.. أو من يتميّز بالرقة واللطف.. فهل أنت تتزين هكذا بأنواع من الفضيلة والبر. أمام اللّه والناس؟! هل روحك هكذا جميلة؟ كل من يراها يمجد اللّه بسببك على ما وهبك إياه من فضل. ومن قدوة حسنة. تشبع قلب من يتصل بك..!

بل بهذه الزينة أيضاً تتجمّل الروح. حينما تفارق الجسد. وتتقابل مع اللّه في السماء.. فتفرح الملائكة باستقبالها. وقد فاحت منها رائحة زكية. فتدخل الروح إلى السماء "كعروس مُزيّنة لعريسها".

لقد خلقنا اللّه من قبل. بهذه الروح المُزيّنة. بالبساطة والنقاوة قبل أن يخطئ الإنسان ويسقط.. ويريدنا أن نعود إليه هكذا أنقياء بالتوبة أنقياء بزينة الروح.. ليتنا نكون هكذا.



٢٠٠٤/١/٢٧

إكرام الوالدين ومن يُماثلهما

إنها وصية إلهية أن يكرم الإنسان والديه اللذيْن أنجباه بالجسد. وأن يحترمهما ويطيعهما ويحسن إليهما .

ثم اتسع مفهوم الوصية حتى شمل الأقارب بالجسد الذين هم في منزلة الأب والأم. كالعم والعمة والخال والخالة. ثم اتسعت الوصية أيضاً حتى شملت كبار السن. الذين هم من جهة عمرهم في منزلة الأب والأم.

وازدادت الوصية في اتساعها حتى شملت الأبوّة الروحية كالمرشدين والمُعلمين. كما شملت أبوة المركز. ومن عليهم واجب الرعاية.

بل يزداد المفهوم حتى يصل إلى احترام النظام العام والقانون والدولة.

***

ونود أن نبدأ الحديث بالأبوة الطبيعية. ونتدرّج منها إلى الباقي..

إن الأب هو رئيس الأسرة كلها. ليس للأولاد فقط. إنما لأُمهم أيضاً. لأن الرَّجُل رأس المرأة.

وفي النظام القِبَلي قديماً. كان الأب هو حاكم الأسرة. وكان الأب الكبير أي الجد هو حاكم العشيرة وهو قاضيها أيضاً.

فكان يجمع بين الرئاسة الجسدية الطبيعية. والرئاسة المدنية في نفس الوقت.

وكانت بركة الوالدين ولا تزال شيئاً عظيماً يسعى إليه الابن لكي يناله بكافة الطرق. ومن يباركه والداه. يباركه اللّه .. أو على الأقل يسعى كل شخص إلى اكتساب رضاء والديه عليه. وقد يرى أن عدم حصوله على هذا الرضاء يكون سبباً لفشله في الحياة.

***

ومن مظاهر إكرام الوالدين أمور عديدة. نذكر منها:

العرفان بالجميل

لا بد لكل ابن أن يعترف بجميل أبويه عليه. ولا سيما أمه

في فترة طفولته بل قبل أن يُولد. ويكفي أن يقرأ أي كتاب طبي أو نفسي عن حالة الأم وقت الحمل وما تحتمله من.

تعب ثم الاهتمام بالطفل أثناء فترة الرضاعة، وعنايتها به من جهة طعامه، وبكائه، ونظافته، وحمله على حجرها، وعلى صدرها، وعلى كتفها. ولا شك أن الطفل الرضيع يمكن أن يتسبّب أحياناً في حرمان أمه من أن تذوق طعم النوم.

كما أن الأم لو قصّرت في العناية بابنها في مواعيد التطعيم مثلاً لأصابته أضرار وأخطار تبقى معه طوال عمره.

إن جميل الأم لا يمكن أن ينساه إنسان ولكن قد يقول أحدهم "إن أمي تعبت في تربيتي وأنا صغير ولكني أقاسي من بعض تصرفاتها الآن .." حتى لو صحّ هذا فرضاً وقد لا يكون هذا صحيحاً فإنه لا يجعلك تنسى جميلها عليك ... هى احتملتك وأنت صغير وأنت تحتملها حين تكبر وقد يكون سبب عدم تحمُّلك هو تمرُّدك على تربيتها لك في كبرك !

***

ويجب ألاّ ينسى الإنسان أيضاً جميل أبيه عليه ..

هذا الذي تعب وكافح من أجل تربيته. وقام بجميع مصروفاته. وأنفق عليه من عرقه ومن دمه. وكان السبب في تعليمه وتنشئته.

ولا يكون العرفان بالجميل قاصراً على تعب الوالد مادياً لأجل ابنه. وإنما العرفان بالجميل يشمل أيضاً ما أغدقه الأب من حُب وحنان وعاطفة مع نصائحه وسعيه في أن يبعده عن كافة سُبل الضلال.

ولكي ندرك أهمية هذه العواطف. يكفي أن نتأمّل كيف أن كثيراً من الذين حُرموا من حنان الأبوة وحنان الأمومة. قد وقعوا في أزمات نفسية خطيرة ومشاكل صعبة. ما أقسى على النفس أن يتعب الأب والأم من أجل ابنهما دهراً. حتى إذا شبّ وكبر. ينسى لهما كل تعبهما السابق.

شيء آخر يمكن به إكرام الوالدين. هو النجاح.

النجاح

إن النجاح في الحياة هو عنصر هام في إكرام الوالدين. لأنه بلا شك يشرفهما. ويكون موضع فخرهما. ويسعد قلبيهما. ويشعرهما بأن تعبهما قد أتي بنتيجة تريح ضمير كل منهما.. فإذا ذاكرت يا ابني دروسك جيداً. ونجحت وتفوقت .. وإذا كنت أميناً في عملك. ونلت ثقة ومحبة رؤسائك .. إذا كنت ناجحاً في الحياة العملية. وسمعتك طيبة. واسمك حلواً في أفواه الناس .. فإنك بهذا كله تكرم أباك وأمك. لأنهما يبتهجان ويفتخران بنجاحك.

أمّا إن كنت فاشلاً في حياتك. فإن أباك لا يعرف أن يخفي وجهه. وكذلك أمك تخجل بسبب فشلك. وإن أتت سيرتك في حضورهما أمام الناس. ينكس كل منهما وجهه حزناً وعاراً. صدق سليمان الحكيم حينما قال: "الابن الجاهل غمّ لأبيه. ومرارة للتي ولدته".

ما أكثر قصص التاريخ والواقع. عن فرح الآباء والأمهات بنجاح أبنائهم. وعلى عكس ذلك كانت مشاعر الوالدين تجاه الأبناء الفاشلين.

***

نقطة هامة أخرى في إكرام الوالدين. وهى المحبة والاحترام.

المحبة والاحترام

أول محبة يُمارسها الإنسان هى محبّته لأمّه. ثم محبّته لأبيه. وهى محبّة طبيعية لا يبذل مجهوداً في اقتنائها. ولا يحتاج إلى مجهود في المحافظة عليها. وهى أيضاً محبة متبادلة. وأي انحراف عنها. هو شذوذ غير طبيعي!

هذه المحبة لها عنصران: أحدهما إيجابي والآخر سلبي.

أمّا العنصر الإيجابي: فهو عاطفة الحُب التي يظهرها الابن نحو أبيه وأمه. وبذل كل ما يستطيع من جهد في إراحتهما وإرضائهما وكسب بركتهما ورضاهما. ويستمر هذا الحب وهذا الإرضاء طوال الحياة. وحتى بعد انتقالهما إلى العالم الآخر. يُقيم الصلوات والذكرى لأجلهما. وينفّذ وصيتهما على قدر طاقته.

وأمّا العنصر السلبي: فهو أن الابن لا يصح أن يغضب أحداً من والديه أو يثيره. أو يعامله ببغضة أو بقسوة. أو يتجاهل رأيه. ولا يصح للابن أن يرهق والديه بكثرة الطلبات. وبخاصة ما هو فوق قدرتهما. كما لا يصح أن يُبدِّد ما لهما بعيش مُسرف. ولا أن يضيع سمعة الأسرة بسلوكه في الفساد. وأكثر عقوق يصل إليه الابن. هو أن يتمنى الشر أو الموت لأحد والديه!

***

من أكثر الأمور شراً . أن يستخف الابن بأبيه أو أُمّه.

أو أن يعاملهما على نفس المستوى. كأنه وهما في درجة واحدة!!

أي أن الكلمة تُرد بكلمة. والمناقشة تقابلها مناقشة. أو ما يُسمّى بالعامية "مقاوحة" والغضب يقابل بغضب. والصوت العالي يُردّ عليه بصوتٍ عالٍ. كأن لا فارق! .. هذا الأمر يحدث بين اثنين متساويين. وعلى مستوى غير روحي .. وقطعاً هذا لا يليق.

فينبغي على الابن أن يدرك أنه دائماً في الدرجة الأقل.

لأن من حق أبيه أن ينتهره. ومن واجب الابن أنه لا يرد على هذا الانتهار. بل يسمع ويسكت أو يعتذر ويتأسف. وإن رفع أبوه صوته. أو رفعت الأم صوتها. فليس من الأدب أن يرفع الابن صوته في مستوى صوت أبيه وأمه. فليس هذا هو أدب الحديث مع الأب أو الأم. وليس من الاحترام أن يُعامل أحد منهما بنفس المعاملة.

***

ومن علامات احترام الوالدين. خدمتهما في كل ما يحتاجان إليه:

ولست أقصد بالخدمة مجرد أن يطيع الابن ما يطلبه منه والداه في أي أمر. طبعاً هذا واجب. ولكنني أقصد أكثر من هذا .. أن الابن الحكيم ينظر من تلقاء نفسه ما هو احتياج أبيه. وما هو احتياج أُمّه. ويخدمهما دون أن يطلبا ذلك منه.

مثال ذلك: وجدت والدك واقفاً ومُتعباً. لا تنتظر أن يطلب منك احضار كرسي ليجلس. بل اذهب من تلقاء نفسك واحضره له. وقل له: تفضّل يا أبي واجلس.

كنت جالساً مثلاً إلى المائدة. ووجدت صنفاً ينقص أباك. احضره له وضعه أمامه. وجدت كوب الماء الذي أمامه فارغاً. املأه له.

وجدت أُمّك مثلاً مُتعبة في العمل. تقدّم وساعدها دون أن تطلب منك. لا تجلس إلى المائدة. مُنتظراً حتى تضع والدتك الطعام أمامك.

وإنما اذهب واحضره معها. وفي نهاية الأكل. ارفع معها بقايا الطعام وساعدها. اخدم أباك وأُمّك واحترمهما. وثِق أنك بذلك ترتفع درجة في نظرهما. وفي نظر الكل. وأمام اللّه نفسه.

وما أكثر الأمثلة التي يُقدِّمها لنا التاريخ في ذلك:

إن يوسف الصديق. وهو نائب فرعون في حكم مصر كلها. وخاتم فرعون في يده. وكل السُّلطة أيضاً في يده .. مع كل هذه العظمة التي أحاطت به. لم يستنكف من أبيه راعي الغنم .. بل شدّ يوسف مركبته وصعد لاستقبال أبيه. وقدّمه لفرعون كراعي غنم .. إنه درس يُقدِّمه يوسف الصديق لكل ابن يرتفع مركزه. فيستحي من بساطة أبيه.

يجب على الابن أن يحترم أباه. ويوقِّره. ولا يستخفّ به. ولا يستهين برأيه. ولا يظن أنه "دقّة قديمة". وأنه من جيل مضت أيامه ليفسح الطريق للجيل الجديد الصاعد. الجيل الذي يتقن الكمبيوتر الذي لا يعرفه أبوه!

***

أيضاً من عناصر إكرام الوالدين: الطاعة والخضوع

الطاعة والخضوع

إن الطاعة عنصر جوهري في إكرام الوالدين. ومن المفروض أن يطيعهما طاعة قلبية عن حُب ورغبة في إرضائهما. وطاعة حقيقية ليست ظاهرية. وطاعة عن رضى بغير تذمُّر. وطاعة سريعة بغير تلكؤ. طاعة في غيبتهما وفي حضورهما. وأيضاً طاعة داخل وصية اللّه.

ولا تكون طاعة شكلية. فإن رفضا له طلباً. يظل يضغط ويلح. ويستمر في الضغط والإلحاح. وقد يتضايق ويحزن. حتى يسمع أخيراً كلمة الموافقة. فليلتقطها بسرعة قبل أن يسحباها. ويسمح لنفسه أن يقول: "أنا طوال عمري لم أخالف والديّ. لم أفعل شيئاً بدون موافقتهما!" وهو يعلم أن الموافقة لم تكن من قلبيهما بل نتيجة ضغطه!

يحكي عن أحد الشبان أن أتى إليه أصحابه يدعونه للذهاب معهم إلى مكان ما. فاعتذر قائلاً: "لا أستطيع لأن والدي أمرني بعدم الذهاب إلى هناك". فقالوا له: "لا تخف.

تعال معنا. وأبوك سوف لا يعلم". فأجابهم: "نعم. يمكن أن أذهب دون أن يعلم أبي. ولكنني إن فعلت هذا. فإنني عندما أرجع لا أستطيع أن أرفع عينيّ في وجه أبي. بل سيملكني شعور بالخجل منه. لأني خالفت كلامه".

***

نقطة أخرى في إكرام الوالدين. وهى الإعالة:

الإعالة

يجب أن يهتم الإنسان بوالديه. فيعولهما ويهتم بهما. ولا سيما في فترة الشيخوخة أو الضعف أو المرض أو العجز.

فكما اهتم بك والداك في صغرك. يجب أن تهتم بهما حينما يكبران ويصبحان ولا قوة لهما ولا قدرة !

أقول هذا بمناسبة إنشاء كثير من بيوت المسنين للآباء والأمهات

حيث كبر الأولاد. فمنهم من أكمل تعليمه. وحصل على وظيفة في بلد بعيد. ومنهم من تزوّج. وأصبحت حياة أحد والديه معه في بيت الزوجية تشكّل ثِقلاً على زوجته لا تقبله. ومنهم من هاجر إلى الخارج.

وبقيَ الوالدان وحدهما. ثم توفّي أحدهما. وأصبح الآخر بلا عائل .. وشكراً لبيوت المُسنين التي ضمّت أمثال هؤلاء. حيث لم يقدِر على ضمهم والعناية بهم أحد من الأهل أو الأبناء.

قصة

قرأت قصة قديمة. وهى أنه في إحدى المرات غزا جيش الأعداء بلداً من البلاد. وقتل الجنود كل من فيها. وكان في هذا البلد شابان على معرفة بقائد الجيش الذي غزا المدينة. وكانا قد فعلا معه جميلاً من قبل. وأراد أن يرده لهما فقال لهما: "احملا أثمن ما عندكما. واهربا من البلد بسرعة. وأنا أضمن سلامتكما".

فدخل الشابان إلى بيتهما ليحملا أثمن ما عندهما. فحمل أحدهما أمّه. وحمل الثاني أباه. وتركا المدينة. كان أبواهما هما أثمن ما عندهما في الدنيا كلها.

٢٠٠٤/٢/٣

الآباء والأبناء

واجب الوالدين:

تحدّثنا في العدد الماضي عن إكرام الأبناء للوالدين.. واليوم نتحدّث عن واجب الوالدين. لأن كل حق يُقابله واجب.

فلا يصحّ أن الوالدين يطالبان على الدوام بحقوق. دون أن يؤدّوا ما عليهم من واجبات. فمن واجب الآباء والأمهات تربية الأبناء في خوف اللّه. وحسن مُعاملتهم. والإنفاق عليهم. ورعايتهم وتعليمهم. وتقديم حياتهم قدوة صالحة لهم وأمثولة طيبة. وتأديبهم كما يليق: في حزم ممزوج بمحبّة وعطف.

***

غير أن كثيرين من الآباء والأمهات يقصّرون اهتمامهم بأولادهم على الأمور الجسدية والمادية فقط. دون الاهتمام بروحياتهم.

كل اهتمامهم بأولادهم منصب على نواحي المأكل والمَلْبَس. والصحة الجسدية. وتهيئة الابن لكي يجد وظيفة ومركزاً. وتهيئة البنت لكي تتزوّج وتستقر في بيت. أمّا حياة أولادهم الروحية. وضمان مستقبلهم الأبدي. فهي أمور ليست موضعاً للتفكير. أو لا تلقى الاهتمام الكافي. كأن لا أولوية لها في نظر الآباء والأمهات!!

فإن شبّ أحد من أولادكم فاسداً أو سيئ الخلق. أو كان سبباً في تعبكم. فلا شك أنكم تحصدون ثمرة إهمالكم له..

وعلى رأي المثل: أدّبوا الأحداث. قبل أن يؤدّبوكم!

لقد كان الابن في يوم من الأيام عجينة ليّنة طيّعة في أيديكم تشكلونها كما تشاءون. فلماذا لم تهتموا به لكي يكون ابناً صالحاً يفرح قلوبكم ويفرح قلب اللّه؟

***

إننا لا ننكر أحياناً أنه يوجد أبناء معاندون:

أبناء لا يقبلون التربية. أو يتأثرون بالصحبة الرديئة خارج البيت أكثر ممّا يتأثرون بجو الأسرة المُهذّب. أو أنهم انقادوا لعوامل نفسية مُعيّنة جعلتهم ينحرفون..

فأبونا آدم. كان من نسله ابن قتل أخاه. وأبونا يعقوب أنجب يوسف الصديق. وإخوة يوسف الذين باعوه كعبد..

ولكن ليس معنى هذا أن نعذر كل أب في فساد بعض أبنائه.. أمّا إن كان الأب قد بذل كل جهده في سبيل تنشئة ابنه في حياة روحية. ولكن الابن على الرغم من كل هذا انحدر إلى الفساد. لظروف خرجت عن إرادة أبيه. حينئذ يكون للأب عذره..

***

الزواج مسؤولية

ما دام الوالدان مسؤولين أمام اللّه عن تربية أبنائهما وتقديم حياتهما قدوة عملية صالحة أمامهم. إذن فالزواج هو مسؤولية بلا شك..

إن الزواج ليس مجرد علاقة بين رجل وامرأة. وإنما هو مسؤولية تحتاج إلى كفاءة وإلى مؤهلات أبوة وأمومة..

هل يصلح هذا الرَّجُل المُتقدِّم للزواج لأن يكون أباً. يربي أولاده حسناً. ويكون قدوة صالحة لهم؟ وهل تصلح هذه الفتاة لأن تكون أُمّاً تربي أولادها تربية طيبة. وتكون قدوة ومثالاً لهم؟ وهل يصلح الاثنان لأن يكونا زوجين مثاليين. يؤسِّسان بيتاً صالحاً. لا خلاف فيه ولا شجار. ولا أخطاء تسبِّب عثرة للأولاد؟

إن الأمومة والأبوة يحتاجان هما أيضاً إلى مؤهلات: من حيث النضوج الروحي والذهني. والفَهْم السليم لواجبات الأمومة والأبوة. وفَهْم نفسية الأطفال والقدرة على تربيتهم.

***

العجيب أن كل شاب يتقدّم إلى خطبة فتاة. يحصر تفكيره في نقطة واحدة وهي. هل تصلح هذه الفتاة لأن تكون رفيقة تسعد حياته. دون أن يفكِّر فيها أيضاً: هل تصلح أمّاً لأبنائه أم لا؟.. ونفس التفكير يكون عند الفتاة نحو خطيبها..

وتكون النتيجة أن ينجب الزوجان بنين. وهما لا يعرفان طريقة التربية!

فإن أخطأ الابن. يقابلانه بالضرب والنرفزة والشتيمة. ويتهمانه بالتمرد والفساد! ولكن ماذا كان واجبهما في تربيته؟ لا شيء. سوى التمسُّك بوصية اللّه في إكرام الوالدين. كأنها مصدر للسُّلطة. دون القيام بواجبات الأبوّة وواجبات الأمومة..!

إن الأبوة هى واجب ومسؤولية. وليست مجرد سُلطة. الأبوّة هى رعاية. هى عناية. هى اهتمام. هى حُب وعطف وحنان. هى جهد باذل في سبيل الأبناء حتى ينشأوا كاملين وصالحين. وهكذا أيضاً واجب الأمومة.

***

أمثلة

من الأمثلة الرائعة أم موسى النبي:

هذه التي ربّته فترة قصيرة في طفولته. ثم عاش في قصر فرعون حيث العديد من الآلهة والعبادات المصرية القديمة.. ولكن هذه الأم العجيبة المُتدينة. استطاعت في تلك السنوات القليلة التي ربّت فيها ابنها. أن تغرس فيه كل قواعد الإيمان بالإله الواحد وكل مبادئ الدين حتى أن كل السنوات التي قضاها في قصر فرعون بين رع وآمون. وإيزيس وأوزوريس وغير أولئك لم تنزع منه إيمانه. بل صار بطلاً للإيمان السليم.. ما أعمق الفترة التي قضاها مع أُمّه في تأثيرها عليه إيمانياً.

***

وأنتِ أيتها الأم التي تعيش في أيامنا. كم سنة قضاها ابنك في رعايتك؟ أليست طول فترة طفولته وصباه وشبابه؟ لماذا أراك بعد كل هذه السنوات. تبكين من سوء خلقه ومن شراسة طبعه؟!

طوال السنوات التي قضاها معك. ماذا كان التأثير الروحي الذي أخذه منكِ. وبخاصة عندما كان عجينة لينة في يديك؟ ليتك تأخذين قدوة صالحة من أم موسى النبي وأمثالها من النساء اللواتي أشاد بهن التاريخ.

وقبل أن تسألي عن مدى طاعة ابنك لوصية إكرام الوالدين. نسألكِ عن الإعداد الروحي الذي أعددتِ به ابنك لتنفيذ هذه الوصية؟

وما أقوله للأم أقوله للأب أيضاً.. الأب الذي قد ينشغل كثيراً بعمله ورزقه وأنشطته. ولا يتبقى له وقت لتربية أولاده..!!

العبادة المنزلية

أنا أعلم أنكم تعبدون اللّه في بيوت اللّه. ولكن ماذا عن بيوتكم؟

ماذا عن صلواتكم مع أولادكم. وقراءتكم معهم في كتاب اللّه وفي الكتب الروحية؟ وماذا عن تعليمكم لهم المبادئ والقيم والروحيات؟

إن روسيا خلال السبعين سنة من الحكم الشيوعي. في تلك الفترة من الإلحاد. حيث لم يكن هناك تعليم ديني. بل كان النُّطق بِاسم اللّه من المُحرّمات. كان كثير من الأطفال يتلقون مبادئ الإيمان باللّه من الأمهات والجدات في فترة طفولتهم. حتى حينما انقشعت فترة الإلحاد. انكشف الإيمان الذي كان مخفياً في قلوب أولئك الأبناء تحجبه قسوة الدولة..

ونفس الوضع كان في رومانيا أيام شاوشسكو وزوجته.

كم كان أعمق تأثير الأمهات والجدات المؤمنات على أبنائهن. في تلك الفترات العصيبة. وذلك عن طريق العبادة المنزلية.

***

من ضمن أخطاء الوالدين: الحنان الجسدي أو المادي. غير الروحي!

وكمثال لذلك الإشفاق على الأبناء من جهة الصوم. خوفاً على صحتهم! وقد يمتد هذا "الحرص" سنوات طويلة في عمرهم.

من أجمل وأوقع التداريب الروحية التي يمنحها الوالدان للأبناء في أثناء الصوم. وفي مناسبات كثيرة أيضاً.

كذلك نصائح الوالدين لأبنائهما من جهة العفّة والحشمة وحُسن التعامل مع الناس. والسلوك الروحي السليم.. كل ذلك يجعل الأبناء يقدرون الآباء والأمهات. في احترام شديد لهم ليس فقط من جهة الأبوّة والأمومة. إنما أيضاً من جهة نظرتهم إليهم كمرشدين روحيين.. ومن الناحية الأخرى ما أبشعها عثرة. أن يأخذ الابن فكرة سيئة عن والديه. ويقل تقديره الداخلي لهما!! وسبب ذلك ما يراه في حياتهما من أخطاء. أو من شجار وخصومات. أو من ألفاظ لا تليق!!

***

العجيب أن كثيراً من الشبان المُتديّنين والشابات المُتدينات. يجدون أن الأب والأم هما اللذان يعرقلان نموّهم الروحي!!

ويقفان عقبة في طريق تديّنهم. خوفاً عليهم من التزمت أو من التطرُّف. ويكثران التوبيخ إذا امتنع أولادهم عن بعض المتع التي لا تريح ضمائرهم.. ويظن هؤلاء الآباء أن تلك المتع ما دامت لا تضرهم هم ولا تعثرهم. فبالضرورة هى أيضاً لا تؤثّر سلباً على أبنائهم! ناسين الفارق في السن ونوع الحياة!

إن كانوا يخشون على أولادهم من التطرُّف. فليعلموهم إذن طريق الاعتدال. دون أن يمنعوهم عن التدين جملة.. وإلاّ فإن الأبناء سيترسب في يقينهم أن آباءهم غير مُتدينين. فيضطرون إلى عصيانهم. وبلون من العناد. وبذلك يقعون في التطرُّف..

***

المحبة وحُسن المعاملة

أيها الآباء والأمهات. كونوا أشخاصاً روحيين. وصادقوا أولادكم ولا تعاندوهم. وقودوهم برفق وهدوء. وبأسلوب الإقناع وليس عن طريق السُلطة والإرغام

حينئذ تكسبون مودّتهم وتقديرهم لا تظنوا أن الأبوّة أو الأمومة هى مجرد سُلطة! كلاّ. إنها حُب وحنان وعطف. إنها البال الطويل والقلب الواسع. الذي يمرح فيه الابن ويستريح. إنها البذل والتضحية.

فإن خَلت الأبوة من حنانها. تصبح لقباً ميتاً لا حياة فيه. وإذا اهتم الأب بمجرد السيطرة. وأشبع في نفسه شهوة الأمر والنهي ظاناً أنها الوسيلة المجدية للتربية. وأيضاً اعتزازاً بمركزه في الأسرة..!

فسوف يتحوّل بذلك إلى حاكم وليس أباً..!

***

ومن علامات محبّتكم لأولادكم ألاّ تضغطوا على نفسياتهم. وأن تأمروهم بما هو في حدود طاقاتهم.

وحسن أن تأخذ توجيهاتكم صورة النصيحة وليس الأمر. وأن تقنعوهم بفائدة هذه التوجيهات إن بدت غريبة عليهم. ولا تظنوا أن في ذلك إقلالاً من مركزكم. وليكن مصدر طاعتهم لكم نابعاً من داخلهم. من اقتناعهم. وليس بإرغام من الخارج.

ولتكن طاعتهم لكم نابعة أيضاً من ثقتهم بروحانية حياتكم وتعليمكم. وأن كلامكم يحوي في داخله صوت الحق والضمير. وأنه دليل الحُب. ولفائدتهم. وأشعروهم باحترامكم لشخصياتهم وعقلياتهم. وكما يقول المثل "إن كبر ابنك خاويه" أي عامله كأخ..

***

ومن علامات محبّتكم لأولادكم أن تمنحوهم حرية تحت رقابتكم

إن اللّه نفسه يمنحنا الحرية. ولا يجعلنا مرغمين فيما نفعل.. ولذلك لا ترغموا أولادكم فيما يتعلّق بزواجهم. انصحوهم ولكن لا ترغموهم. لا بد من موافقة كل منهم على من سيقضي حياته معه.. وأيضاً لا ترغموهم فيما يختص بمستقبلهم. فكل إنسان له اتجاهه الخاص في الحياة. بما يتفق ونوع نفسيّته وعقليته ومواهبه.

أعطوهم أيضاً حرية في تدينهم. وانصحوهم إذا مالوا إلى التطرُّف. وثقوا أن تدينهم ما دام بطريقة سليمة هو مُفيد لهم ولكم على الأرض وفي السماء. ولا تقفوا عقبة في طريق روحياتهم. لئلاّ تفقدوهم.

***

أنواع أخرى من الأبوّة:

بالإضافة إلى الأبوة الجسدية. هناك الأبوة الروحية. وهذه قد تكون أعمق تأثيراً. وتشمل المرشدين والمُعلمين والرعاية. وفيها يفتح الأبناء قلوبهم. ويتقبّلون ما يقدّم لهم من إرشادات ونصائح ومن حلول لمشاكلهم التي يعرضونها في صراحة. بل يقبلون أيضاً التوبيخ على أي مسلك يشرح لهم أنه سلوك خاطئ.

هناك أيضاً أبوّة السن. واحترام الشيخوخة. وتوقير أمثال هؤلاء بسبب سنّهم. فلا يتقدّمهم الشاب في الرأي أو في السير. ولا يجلس بينما يكون شيخ في سن أبيه واقفاً. ولا يرفع صوته في وجه من هو أكبر منه. بل يكلمه باحترام.

هناك كذلك أبوّة المركز. واحترام المُعلّمين والرؤساء. وكل من هُم في وضع الرعاية والإشراف.

١٠/٢/٢٠٠٤

نتائج الجهل وعدم الفَهْم

للخطأ أو للخطيئة. وللشر أو الانحراف. أسباب عديدة نذكر من بينها الجهل. أو عدم الفهم. أو سوء الفهم. وما أسهل على الإنسان أن يُخطئ أو يبدأ في الخطأ بسبب الجهل. ولسنا نقصد الجهل بمعناه المُطلَق. إنما أحياناً بمعناه الجزئي. أو بإساءة الفَهْم.

ومن هنا كانت أهمية التوعية والتعليم لتحويل الناس من الظلمة إلى النور. وكشف الأمور لهم على حقيقتها حتى لا يضلّهم أحد.

ولذلك كثيراً ما كان البعض يخطئون. ويسيرون في تيار مُظلم. ثم يرجعون عن ذلك بشيء من الإرشاد والشرح والتفهيم. ونذكر في هذا المجال بعض الأخطاء الاجتماعية. وبعض التقاليد الموروثة.. ونورد في هذا المجال أمثلة لمثل تلك الأخطاء.

***

الحريّة

ما أكثر الذين يقعون في خطايا عديدة بسبب جهلهم لمعنى الحريّة. فهُم يظنون أن الحرية هى أن يفعل الإنسان ما يشاء. دون أي قيد!

وبهذا المفهوم الخاطئ للحرية ينحرفون في أخطاء عديدة. مثلما انحرف الهيبز والبيتلز في أمريكا. ومثلما انحرف الشواذ جنسياً في إنجلترا وغيرها..

إننا نحب الحريّة ونطلبها للناس. ولكن نقصد الحرية المنضبطة:

الحريّة التي يضبطها القانون. والنظام العام. ووصايا اللّه.. فأنت لا تستطيع أن تقود سيارتك مخالفاً لقواعد المرور. وتقول: أنا حُر أسير كيفما أشاء وحيثما أشاء!! كلاّ. فهناك قواعد تضبط حريّتك. وعليك أن تطيعها.. كما أنه لا يجوز لإنسان أن يتصرّف بأسلوب يخدش الحياء العام. ويقول أنا حُر أتصرف كما أشاء!! كلاّ. فهناك آداب عامة يجب أن يراعيها. وإلاّ فمن حق بوليس الآداب أن يقبض عليه. وأن يلقنه درساً فيما ينبغي أن يتبعه في الطريق العام..

***

الحريّة هى أن تفعل ما تشاء. بحيث لا تعتدي على حريات الآخرين ولا على حقوقهم. وبحيث لا تعتدي على أحد أنظمة الدولة أو قوانينها.

فهناك شركات طيران تمنع التدخين فيها أثناء رحلة الطيران. فليس من الحرية في شيء أن يكسر أحد الركاب هذا النظام ويشعل سيجارته. ويقول: أنا حُر لا أحد يمنعني من حرية التدخين! كلاّ. فإنهم سيمنعونه.. ذلك لأنه تجاوز حقوقه. أو تجاوز حدود حريته. فللحرية حدود..

ولا يجوز لإنسان أن يُقيم على سطح منزله حفلاً صاخباً. بميكروفونات تنقل الأصوات العالية والضجيج إلى مسافات بعيدة. لا يستطيع معها أي مريض أن ينال راحته. ولا أي طالب أن يستذكر دروسه. كما لا يستطيع من يريد أن ينام أن يأخذ حريته في النوم. ولا يستطيع من يريد أن يقرأ أو يفكر أن ينال الحرية في القراءة أو التفكير.

ليست هذه هى الحرية. وممارسة الحرية في جهل وعدم فَهْم. أمر غير مقبول.

***

الحرية الحقيقية هى أن يتحرّر الإنسان من الداخل: يتحرّر من الطباع الرديئة. ومن العادات الخاطئة. وحينئذ يستطيع أن يُمارس حريّته حسناً..

ليس من الجائز أن يقول شخص: أنا حُر في طباعي.. إن كانت طباعه يمكن أن تؤذي غيره. بلسان قاس أو ألفاظ غير لائقة. أو بعلو صوت لا يحترم فيه غيره.. فلا يقل أحد: أنا حُر. أتعامل مع الناس كما أشاء! كلاّ. إن كان تعامله بغير ما يشاءون. أو فوق ما يحتملون منه.

بل إن الإنسان ليس حُراً في تصرُّفه مع نفسه...

فهو ليس حُراً أن يقتل نفسه بالانتحار. فنفسه ليست ملكه وحده. وقتلها جريمة. كذلك ليس حُراً أن يدمن المُخدِّرات. فهذا الإدمان يضره صحياً ومالياً ونفسياً. كما يُسيء إلى أسرته وإلى سمعتها..

إذن كثيرون يخطئون بجهلهم لمفهوم الحرية الحقيقي.

***

السعادة

كثيرون لا يفهمون معنى السعادة. لذلك يخطئون في التمتع بها..

البعض يخلط خلطاً شائعاً بين السعادة واللّذة!!

فيرى السعادة في المأكل والمشرب. أو في الغنى والمقتنيات. أو في الملابس الفاخرة. أو في القصور والجواري. أو في مُتعة الجنس والأغاني والرقص... وكلّها تدخل في عنصر اللّذة وليس السعادة.

السعادة الحقيقية تشتمل على فرح له عُمقه. فقد يسعد القلب بعمل الخير. ويسعد بإسعاد غيره من الناس. ويسعد بأداء الواجب كما ينبغي. والحصول على رضى الآخرين وتقديرهم. ويسعد بسعادة أبنائه وأحبائه. كما يسعد بتوبة المُخطئين. ونهضة المجتمع الذي يعيش فيه.

***

وهناك نوع آخر من السعادة أكثر عُمقاً. وهو سعادة القلب المؤمن بإعداد نفسه للنعيم الأبدي في الحياة الأخرى.

وهو مفهوم حقيقي للسعادة الدائمة. على اعتبار أن كل سعادة على الأرض لها زمن مؤقت تنتهي فيه. بل قد تكون إلى شهور وأيام فقط. ثم تزول. أمّا السعادة في العالم الآخر فهى لا تنتهي أبداً. وهى التي ينبغي أن يوجّه إليها الإنسان كل رغباته وكل طموحه.

لذلك هناك سعادة الغالبين الذين انتصروا. ليس على غيرهم إنما على أنفسهم. وانتصروا على الإغراءات والشهوات والضعفات. سعادة فيها الفرح الروحي بمعرفة اللّه ومذاقة الحياة معه. أي مذاقة مؤقتة لملكوته. وإن كانت على الأرض إلاّ أنها لها عُمقها وأصالتها ودوامها. إنها من نوع السعادة التي إن حصلتم عليها. فلن تنزع منكم.. أمّا الذين يفهمون السعادة بطريقة خاطئة. ويجهلون مفهومها الحقيقي. إنما يتعلقون بشيء زائف مؤقت وزائل.

***

العظمة

ما أجهل الذين يتعلّقون بمظهر خارجي يظنون أنه العظمة!

أو الذين يخلطون بين العظمة والكبرياء والخيلاء!

مثل الذين يرون العظمة في منصب مُعين يتقلّدونه. فإن تركوا ذلك المنصب. أو بالحري إن فقدوه. أصبحوا لا شيء. وفقدوا ما كان لهم في المجتمع من كرامة واحترام وسُلطة!!

ذلك لأن العظمة كانت مُجرّد رداء لبسوه. ولم تكن نابعة من شخصيتهم في الداخل. فلمّا خلع عنهم ذلك الرداء. انكشف ما تحته من فراغ.

مثال آخر هو الذين يكتسبون العظمة من غناهم. فإن فارقوا الغنى أو فارقهم. لم تعد لهم مكانة تذكر أو أية صفة من العظمة. ذلك لأن العظمة كانت صفة للغنى وليس لهم.. كانت عظمة المال. وليست عظمة الرجال!!

***

العظمة الحقيقية هى عظمة في الشخصية. وليس فيما يحيطها

وكثيرون كانوا عظماء بدون أي منصب أو غنى.. مثل ديوجين الفيلسوف أيام الإسكندر الأكبر. ومثل ميشيل أنجلو أيام أحد البابوات الذي لا أذكر اسمه. ومثل كثير من العلماء والفلاسفة والأدباء والمُفكِّرين الذين خلّد التاريخ أسماءهم. ومثل كثير من النُّساك الذين عاشوا بلا لقب ولا وظيفة. أو كانوا أعظم من الألقاب والوظائف.

هناك عظماء استمدوا عظمتهم من عقلياتهم العبقرية. أو من قلوبهم العامرة بالإيمان. أو استمدوا عظمتهم من نبوغهم ومن مواهبهم.

وبعضهم نالوا العظمة من مواقف خالدة قد وقفوها. سجلها التاريخ لهم. وكانت سبب مجدهم وتوقير العالم لهم. نذكر من بين هؤلاء. مجموعة من الشهداء ومن الأبطال الذين بذلوا حياتهم من أجل مبدأ سام، لذلك استمرّت حياتهم بعد موتهم. في ذاكرة الناس.

ليت الناس يفهمون المعنى الحقيقي للعظمة ويتبعونه. ويتخلّصون من الجهل الذي يجعلهم يتعلّقون بمظاهر زائفة ليست من العظمة في شيء.

***

أنتقل إلى نقطة أخرى. قاد إليها الجهل أيضاً. وهى الإلحاد:

الإلحاد:

بلا شك أن الوثنية في كل تاريخها كانت جهلا باللّه..

فاللّـه أزلـي. أي لا بداية لـه. والذين يؤلّهون الأصنام كانوا يجهلون أزلية اللّـه. لأن الأصنام كانت لها بداية.. واللّه موجود في كل مكان. والذين عبدوا الشمس والقمر والكواكب والنهر. كانوا يجهلون هذه الحقيقة لأن الشمس والكواكب ليست موجودة في كل مكان. كذلك

كانوا يجهلون أن من صفات اللّه يعرف الخفيات وما في القلب والفكر النيّة. الأمر الذي لا تتصف به الطبيعة التي يعبدونها ولا الأصنام.

ونفس الوضع نقوله عن كل تلك العبادات القديمة في العصر الوثني التي ما كانت تتصف بالصفات الإلهية التي جهلها عابدوها. مثل قدرة اللّه على كل شيء. وكون اللّه غير محدود... الخ

وهذا الجهل ينطبق أيضاً على الذين كانوا يعبدون النار. والأرواح. والملوك!

***

أيضاً الذين ينكرون وجود اللّه من غير عابدي الأصنام كالشيوعيين مثلاً. والفلاسفة المُلحدين. فعلوا ذلك أيضاً عن جهل وعدم فَهْم.

فكل من يتأمّل قوانين الطبيعة العجيبة. كقوانين الفلك مثلاً. والعلاقة بين الشموس والأقمار. والنجوم والكواكب والشهب والمجرّات. وما يربطها جميعها من نظام دقيق. لا بد أن يبهر ويعترف بوجود اللّه. لا بد أن هناك من أوجدها. ومن نظمها ووضع لها قوانين ثابتة منذ آلاف السنين..!

نفس الوضع بالنسبة إلى جسم الإنسان وتركيبه ووظائف الأعضاء وعمل كل عضو في دقة عجيبة جداً. كعمل المخ والقلب وجهاز الأعصاب والجهاز الهضمي. وغير ذلك. لا بد أنه يرى عجباً يثبت وجود اللّه.

لأجل هذا كانوا يدرسون الفلك والطب في كليات اللاهوت.. ففيهما يدرك الدارس قدرة الإله الخالق العظيم الذي صنع كل ذلك. ولهذا فالمُلحد جاهل مهما ادّعى العلم أو الفلسفة. فكل علمه جهالة بالنسبة إلى معرفة اللّه.

***

معرفة النفس

من ضمن مظاهر جهل الإنسان وعدم فَهمه. أنه يجهل حقيقة نفسه ويظن أنه مجرد جسد يهتم بمتطلباته. وينسى أن له روحاً لها مُتطلباتها أيضاً!!

فعدم اهتمامه بروحه يدل بلا شك على جهل له نتائجه السيئة في حياته.. ويندر أن يتأمّل الإنسان في هذه الروح وفي احتياجاتها. بل أنه قد يهملها ولا يفكِّر في مصيرها الأبدي وفي مستقرّها بعد الموت.

وفي جهل الإنسان بذاته يسيء إلى نفسه وإلى أبديتها. وإلى نموّها في حياة البر وفي السعي نحو الكمال النسبي. الممكن.

وقد يتجاهل الإنسان أن في تكوينه عنصراً آخر هو الضمير. وهذا أيضاً يحتاج إلى تدريبه بالتوعية والمعرفة. حتى يكون ضميراً صالحاً أمام اللّه. ويكون مُستنيراً يُميّز تمييزاً سليماً بين الخير والشر. وبين الواجب والجائز والمحرم..

***

الحياة الاجتماعية

الحياة داخل الأسرة قد تقع في اضطرابات عديدة نتيجة للجهل

فقد يتزوّج شابان. وهما لا يعلمان إطلاقاً ما هى الحياة الزوجية. ولا ما هى العلاقات الأُسرية. ولا كيف يحلّان مشاكلها. قد يجهل الرجل نفسية المرأة. وتجهل المرأة نفسية الرجل. ويجهلان معاً نفسية الطفل ونفسية المراهق. وكيفية التعامل مع كل مرحلة من مراحل السن. وتكون نتيجة كل هذا الجهل مشاكل وربما انقسامات قد تؤدّي إلى فشل الحياة الزوجية.. لذلك يحتاج الأمر إلى توعية لإزالة هذا الجهل. حتى يعيش الزوجان سعيدين. وكذلك يعيش نسلهما سعيداً.

إنهما يحتاجان إلى توعية بفترة الخطوبة وخصائصها والتعامل فيها. وإلى توعية بطريقة التعامل في الحياة الزوجية. وتوعية بطريقة تربية الأبناء.

***

معرفة اللّه

كثير من خطايانا سببها عدم معرفتنا باللّه معرفة عملية..

فلو عرف كل إنسان أن اللّه موجود في كل مكان. وأنه يرى كل شيء. ويسمع كل شيء. لكان يحترس أن يخطئ أمامه. واللّه يراه.. ولكن يبدو أننا حينما نخطئ. لا تكون هذه الحقيقة في فكرنا.. لا نجهلها. بل ننساها.

بل لو عرفنا أن اللّه يقرأ أفكارنا ويعرف ما في قلوبنا. لكنا نستحي منه كلّما نفكّر فكراً رديئاً أو يتعلّق قلبنا بشهوة خاطئة.. ولكننا نخطئ: أمّا بسحابة من الجهل تغطي على الفكر أو القلب. أو قل سحابة من النسيان أو من التجاهل. رحمنا اللّه كعظيم رحمته.

٢٠٠٤/٢/١٧

الفضيلة
تعريفها ، ومصادرها

تعريفها:

الفضيلة قد تعني نقاوة القلب والسّير في طريق اللّه أو هى قوة في النفس. تمكّنها من الانتصار على كل نوازع الشر وإغراءاته. مع ممارسة الحياة البارة.

وربما تعني الفضيلة الارتفاع في مستوى الذات:

بحيث يخرج الإنسان عن دائرة ذاته. لكي يعيش لغيره.. يخرج من الاهتمام بنفسه. أو التركيز على نفسه. إلى الاهتمام بغيره. وينتقل من محبّته لنفسه إلى محبة اللّه والناس.

نقول هذا لأن الخطيئة كثيراً ما تكون انحصاراً حول الذات. فهى حالة إنسان يريد أن يرفع ذاته. ويمتع ذاته. ويشبع رغبات ذاته.

***

الفضيلة هى أيضاً ارتفاع فوق مستوى اللذة:

لأن غالبية الخطايا قد تكون مصحوبة بلذة حسية. أو لذة نفسية. فتدور حول ملاذ الجسد أو الفكر أو النفس. وتصبح لوناً من إشباع الذات. وبطريقة خاطئة.

فالذي يحب المال أو المقتنيات. إنما يجد لذّة في المال وفي المقتنيات. وكذلك من يحب الزينة. ومن يحب الطعام. ومن يحب المناصب أو الشهرة. إنما يجد لذّة في كل هذا..

ومن يُحب الجسد. يجد لذّته في الجسد. ومن يحب الانتقام لنفسه. يجد لذّة في الانتقام.

الخطيئة إذن هى سعي وراء اللّذة. والفضيلة هى ارتفاع فوق مستوى اللّذة. إلى أن تجد اشباعاً لها في السعادة الروحية.

والسعادة غير اللّذة. والفرح غير اللّذة.

اللّذة غالباً ما تكون مُرتبطة بالحس. بالجسد والمادة. أمّا السعادة والفرح فيرتبطان بالروح. ولذلك فالفضيلة هى ارتفاع فوق مستوى التأثُّر بالمادة.

***

الفضيلة ليست هى مجرد فعل الخير. بل هى بالأكثر محبة الخير.

لأن بعض الناس قد يعملون الخير خوفاً من العقوبة. أو من أجل السمعة وتجنُّباً لكلام الناس. أو يعملون الخير حُبّاً في المديح. أو رغبة في الحصول على مكافأة. أو مجاراة لجو مُعيّن. ولكن ليس في كل ذلك حُب للفضيلة!

أمّا الفضيلة فهى حُب الخير.. حتى إن لم تفعل ذلك عملياً بسبب خارج عن إرادتك. يكفي أنك تحب الخير. وإن وجدت الإمكانية فإنك تعمله.. وهكذا تجتمع نيّة القلب وقتذاك مع الإرادة والعمل. لأن الإرادة وحدها لا تفيد الآخرين. أمّا العمل فهو التعبير عمّا في القلب من مشاعر طيبة.

***

والفضيلة لا تقف عند حد. إنما هى سعي نحو الكمال.

فالذي يسير في طريق الفضيلة. يود أن ينمو فيها. ويستمر في النمو حتى يصل إلى الكمال الممكن له كإنسان. أعني الكمال النسبي.

والسعي إلى الكمال قد يناسبه التدرُّج. لأن الطفرات السريعة كثيراً ما تؤدي إلى الخيلاء والافتخار. وأحياناً تكون لها نتائج عكسية.

أمّا الذي ينمو في الفضيلة بحكمة. فإنه يثبت نفسه في كل خطوة يخطوها. حتى إذا ما صارت طبيعية عنده. ينتقل إلى غيرها. وهكذا لا يُصاب بنكسة.

غير أنه إذا أرادت نعمة الله أن ترفع الإنسان مرة واحدة إلى فوق. فهذه هبة إلهية غير عادية.

وتأتي الفضيلة بالسلوك العملي في حياة الروح.

***

مصادر الفضيلة:

١- أول مصدر لها هو الحكمة والإفراز والمعرفة:

لأن أناساً قد يضلون الطريق إلى نوعية العمل الفاضل. عن جهل..

والعلماء والفلاسفة يركزون على كلمة "المعرفة". والمقصود بها المعرفة الحقيقية التي تميّز بين الخير والشر. ويسمّيها البعض Gnosticisms "الغنوسية".

والإنسان الفاضل هو إنسان حكيم في تصرُّفاته. أمّا الخاطئ فيوصف بأنه جاهل. مهما كان من العلماء!! إنه جاهل بطبيعة الأشياء. جاهل بطبيعة الخير والشر. جاهل بمصيره الأبدي. وبما تجلبه الخطيئة من نتائج.

***

الخاطئ إنسان جاهل: لا يعرف خيره من شرّه. ولا نفعه من ضرّه

ولا نقصد المعنى السطحي لكلمة "جاهل". التي تعني أنه لم يتعلّم في مدارس. أو على أيدي أساتذة. إنما هو جاهل من جهة المعرفة الحقيقية. ومن جهة بعده عن الحكمة الإلهية.

ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى توعية وإلى إرشاد..

المُلحد أيضاً يمكن أن يوصف بالجهل. حتى لو كان من فلاسفة عصره!!

ذلك لأنه يجهل اللّه. والقيامة. والحياة الأخرى. والأبدية..

أمّا الحكمة فإنها تدعو الإنسان إلى السير في الطريق السوي.. وكلّما يتعمّق الإنسان في الحكمة. فعلى هذا القدر يتعمّق في فَهْم الأمور. ويعرف ما ينبغي أن يكون. وكيف يسلك..

***

غير أن مصادر الفضيلة. ليست هى مجرد الحكمة والمعرفة. فقد يعرف الإنسان الخير ولا يسلك فيه! هنا نتعرّض للمصدر الثاني للفضيلة وهو:

٢ ـ قوة الإرادة والعزيمة:

قد لا يستطيع إنسان أن يسلك في حياة الفضيلة. لأنه مغلوب من نفسه. لأنه ضعيف الإرادة. فهو لا يفعل الصالح الواضح أمامه. بل ما يعرف أنه سيئ وضار. إياه يفعل!! كمَنْ يستمر في التدخين. وهو يعرف أنه ضار بصحته وصحة الذين حوله. ذلك لأنه ضعيف مغلوب من هذه العادة.

إذن ضعف الإرادة. يُسبّب الوقوع في الخطية..

كما أن الوقوع في الخطية. يُسبّب مزيداً من ضعف الإرادة..

وكل منهما يكون بالنسبة إلى الآخر سبباً ونتيجة..

ولهذا فإن الذي يريد أن يسلك في حياة الفضيلة يحتاج إلى تدريب نفسه تداريب روحية كثيرة يقوّي بها إرادته.

لكل هذا نقول عن الإنسان الفاضل إنه إنسان قوي.

هو قوي في الروح. وفي العزيمة. وفي الفكر. وفي التدريب وفي التنفيذ. وهو قوي في الانتصار على الإغراءات والحروب الخارجية. كما أنه قوي في الانتصار على النزعات الداخلية التي في نفسه وشهواته.

لا شكّ إذن أن الذي تستعبده عادة رديئة هو إنسان ضعيف.

وأيضاً الذي لا يستطيع التحكُّم في لسانه. ولا التحكُّم في أعصابه. ولا التحكُّم في فكره وفي أهوائه. هو إنسان ضعيف. وبسبب هذا الضعف يبعد عن الفضيلة. وحتى إن تاب عن الخطية فترة. يعود إليها مرة أخرى.

***

٣ ـ من مصادر الفضيلة أيضاً: المبادئ والقيم:

الإنسان الروحي المتمسّك بالمبادئ والقيم. يحيا حياة الفضيلة. لأن القيم التي يؤمن بها تحصّنه. فلا يستطيع أن يُخطئ مهما حورب بالخطية. بل يقول: لا أستطيع أن أفعل هذا الشيء. ولو كان السيف على رقبتي! لا أستطيع أن أكسر مبادئي مهما كانت الضغوط الخارجية.

أمّا الإنسان الخاطئ. فلا قِيم عنده يحرص عليها!!

أي أن الفضائل لا قيمة حقيقية لها في نظره حتى يحافظ عليها! إنه يكذب لأن الصدق لا قيمة له في نظره. ويزني لأن العفّة لا قيمة لها في نظره! ويخون لأن الأمانة لا قيمة لها في نظره.. وهكذا مع باقي الفضائل.

وبسبب ضياع القِيم عنده. يقع في الاستهتار واللامبالاة.

لا الوقت له قيمة. ولا المواعيد لها قيمة. ولا العهود ولا النذور لها قيمة. ولا الواجبات لها قيمة. ولا النظام العام ولا القانون ولا التقاليد.. ولا شيء على الاطلاق له قيمة أو هيبة في فكره ولا في قلبه!!

***

٤ ـ من مصادر الفضيلة أيضاً. مخافة اللّه:

الإنسان الذي توجد مخافة اللّه في قلبه. لا يخطئ. إذ يخاف أن يكسر وصايا اللّه. ويخاف اليوم الذي يقف فيه أمام اللّه الديان العادل. ويخاف العقوبة. بل يخاف أيضاً أن

يفقد طهره ونقاوته. كما أنه يحرص على سمعته. ويخاف أن يكون سبب عثرة لغيره من الناس.

وبالمخافة يسلك في طريق الفضيلة. وبممارسة الفضيلة يحبها. وهكذا يسلك فيها حينئذ عن حُب لا عن خوف.

إن مخافة اللّه بالوقت توصلنا إلى محبّته المُمتزجة بمهابته ومخافة العقوبة توصلنا إلى الحرص. بل إلى حياة التدقيق أيضاً.

***

٥ ـ مصدر آخر للفضيلة هو الموهبة الإلهية:

فالفضيلة على نوعين: نوع يولد الإنسان به. بطبع هادئ طيّب ميّال إلى الخير. ونوع آخر يجاهد فيه الإنسان لكي يصل إلى محبة الخير.

والنوع الذي يولد الإنسان به. ينطبق عليه المثل العامي "مالك متربي؟ قال: من عند ربي". ومن هذا النوع أيضاً من يرث عن والديه أو أحدهما طباعاً فاضلة لم يبذل جهداً لاقتنائها.

وهذان النوعان من الفضيلة نجدهما في الشعوب والأمم. فشعب له طباع هادئة. وشعب في طباعه عنف وقسوة. ويجاهد بعض أفراده لاقتناء الوداعة والهدوء.

***

٦ ـ الجهاد:

وحتى الذي يولد بالفضيلة يحتاج إلى جهد لمقاومة الحروب الخارجية:

ذلك لأن الشيطان عدو الخير. لا يشاء أن يترك مثل هذا الإنسان في راحة. بل يحاربه محاولاً أن يفقده الفضيلة التي في طبعه..!

فالذي وُلِدَ بالفضيلة. يلزمه أن يثبت فيها. ويصمد أمام كل المقاومات والمضادات وكل ما يحاربه بالسقوط أو يغريه بالخطأ.

من هنا كان الجهاد أحد مصادر الفضيلة:

إنه جهاد له جانب سلبي. وجانب إيجابي. أمّا الجانب السلبي فهو مقاومة كل إغراءات الشيطان وأعوانه الأشرار. ذلك لأنه كما أن النعمة تعمل على رفع الإنسان إلى فوق. كذلك قوى الشر تحاول جاهدة أن تجذبه إلى أسفل. ومن هنا كانت الفضيلة من الناحية السلبية هي صراع ضد الخطية، أمّا الجانب الايجابي للفضيلة. فهو الجهاد لأجل النمو في عمل الخير.

٧ ـ من مصادر الفضيلة أيضاً. النعمة:

إنها نعمة اللّه التي تساعد الإنسان وتقوّيه لكي يحيا في الفضيلة..

نعمة تدفعه إلى عمل الخير. ونعمة تقوّيه على عمل الخير. ونعمة تثبّته في الخير. فلا يسقط ولا ينتكس. ونعمة تنجيه من قوى الشر حتى لا تنتصر عليه. ونعمة تحفظه من الكبرياء إذا نجح في طريق البر. فلا ينتفخ بذلك ولا يتفاخر.. وعموماً بدون نعمة اللّه لا يستطيع أن يسلك شخص على الدوام في حياة الفضيلة ويستمر فيها.

لذلك علينا أن نشكر اللّه على معونته لنا. وحفظه لنا بنعمته في حياة الفضيلة. وعلينا أن نشترك مع نعمته في العمل. ونسلّمها إرادتنا.

فلا تكون نعمة اللّه دافعة لنا في طريق الخير. بينما إرادتنا لا تستجيب!!

***

إن الفضيلة بطبيعتها مغروسة في النفس. وبالذات في الضمير الإنساني

وهكذا تكون الخطيئة هى مجرد مقاومة لهذا الغرس الإلهي..

ولهذا نجد ضمير أي إنسان أيّاً كان. من أي دين من الأديان يؤمن باللّه.. هذا الضمير نجد الفضيلة مغروسة فيه. إنها الشريعة الطبيعية غير المكتوبة التي وضعها اللّه فينا. تجعلنا نميّز بين الخير والشر. وتدفعنا إلى الخير. وتبكّتنا إن لم نسلك في طريق الفضيلة.

لذلك نجد أن الذي يُخطئ قد يشعر بالخجل أو الخوف أو الارتباك

هذا هو الذي يحدث للطفل. حينما يخطف شيئاً ليس له. أو حينما يرتكب خطأ في الخفاء لا توافق عليه القِيم المغروسة فيه بالفطرة.

وهذا يحدث للكبار أيضاً.. لهذا يحبون أن يرتكبوا أخطاءهم في الخفاء. في الظلمة حيث لا يلاحظهم أحد. وقد قيل عن أمثال هؤلاء إنهم "أحبّوا الظلمة أكثر من النور. لأن أعمالهم كانت شريرة!".

ليتنا نسلك جميعنا في حياة الفضيلة. وتكون كل أعمالنا في النور. لا نستحي أن يراها أحد. ولا نخاف أن تكون مُعلنة للكل.

٢٠٠٤/٢/٢٤

الاثنينية

عندما خلق اللّه الإنسان. خلقه بارّاً طاهراً بسيطاً. لا يعرف إلاّ الخير فقط. ولمّا سقط الإنسان في الخطية. فقد بساطته. وبدأ يعرف الشر إلى جوار الخير. وعرف أنه عريان واستحى من عُريه.

ومن ذلك الحين. وقع الإنسان بين شقي الرحى:

أعني بين الخير والشر. ودخل في الصراع الداخلي. بين هذا الخير والشر. أو بين الحلال والحرام. وما يليق وما لا يليق.

***

الصراع

عاش الإنسان في صراع الاثنينية: أمامه الاثنان. أيهما يختار؟!

أمامه طريق الحياة وطريق الموت. طريق البر وطريق الرذيلة. أمامه البركة وكذلك اللعنة. طاعة اللّه أو عصيانه. أمامه إمّا ضبط النفس. أو الانسياق وراء شهوات النفس. ونهاية كل من الطريقين واضحة.. والإرادة البشرية حائرة بين الأمرين: أحياناً تخطئ. وأحياناً أخرى تندم على الخطأ.. أحياناً تتوب. وأحيانا ترجع إلى الخطيئة.

إنها الاثنينية التي تتأرجح فيها حياة الإنسان. بين علو وهبوط. أو بين مدّ وجزر. في حالة نفس لم تستقر بعد على وضع ثابت. تتخلّص به من هذا الصراع الداخلي.

***

كثيراً ما يكون الصراع بين روح الإنسان وجسده:

الجسد يشتهي ضد الروح. والروح تشتهي ضد الجسد. وهذان يقاوم أحدهما الآخر. ويظل الإنسان مُضطرباً في حياته. ومتقلّباً كثيراً في تصرفاته. إلى أن يخضع الجسد للروح. ويسير الاثنان في طريق واحد. هو مشيئة اللّه. وحينئذ يتخلّص الاثنان من الاثنينية التي تقلقه.

قد يكون الصراع بين الجسد والروح. في بدء حياة الإنسان. أعني في بدء جهاده من أجل حياة التوبة. فإن وصل إلى التوبة. ينتهي صراعه. أو يدخل في صراع آخر من أجل الثبات في التوبة. وعدم الوقوع في نكسة ترجعه إلى الصراع السابق بين الجسد والروح.

وقد يكون صراع الاثنينية: في الفكر والتصرُّف: في أي اتجاه يسير. والطرق أمامه مُتشعبة.

والفكر مُتحير: أي قرار يتخذ؟.. كقول أحد الأدباء في موقف مُشابه: "كنت خلال ذلك أصارع نفسي وأجاهد. حتى كأنني اثنان في واحد: هذا يدفعني وذاك يمنعني..".

إنه صراع داخلي. ويحدث غالباً في مرحلة مصيرية من مراحل الحياة. أو في تقرير خطوة حاسمة يتوقف عليها أمر هام وخطير.

مرحلة الاثنينية في الفكر هذه. يدخل فيها مثلاً من يفكِّر جديّاً في الهجرة: هل ذلك في منفعته؟ أم هل سيندم على هذه الخطوة..؟

وقد يدخل في هذه المرحلة من انتهى من دراسته الثانوية. ويفكِّر في أية كلية جامعية سيلتحق. وتأثير ذلك على مستقبل حياته..؟

ويدخل في الاثنينية أيضاً: من يُفكِّر في زواج أو في طلاق..!

***

وقد يكون الصراع بين الضمير. والشهوة!

أو بين الرغبة والوسيلة إن كانت خاطئة!

صراع سببه تعلّق القلب بشهوة. وتحقيقها يستلزم وسيلة لا يرضى عليها الضمير. ويدخل صاحبها في اثنينية: أيهما يطيع: الضمير أمْ الشهوة؟!

وهو صراع في هذا العالم فقط. الذي نوجد فيه بالجسد. ونختلط بالمادة. ونعرف الخطيئة ووسائلها. أمّا في العالم الآخر. في الأبدية حيث لا توجد الفرص ولا الوسائل. فسوف نعود إلى بساطتنا الأولى. ولا نعرف سوى الخير فقط. ولا توجد محاربة روحية تنتج عنها الاثنينية ولكن على هذه الأرض. لا يزال الصراع قائماً.

***

إنه صراع الإنسان مع نفسه. حتى يصل إلى ضبط النفس..

صراع له مع رغباته وأفكاره. ومع حواسه وأحاسيسه.. وينتهي الصراع حينما يصير الإنسان واحداً. وليس جبهات داخلية تقاوم إحداها الأخرى.. وكما قال أحد الآباء "أيها الإنسان: إذا اصطلح فيك العقل والجسد والروح. حينئذ تصطلح معك السماء والأرض".

على أن هذا الصراع الداخلي. هو مرحلة للمبتدئين..

أو أنه مرحلة للذين لم يتحرّروا بعد من الداخل.. فإن تحرّروا. يكون منهجهم هو النمو في حياة البرّ. وليس الصراع بين الخير والشر.

وبالإضافة إلى الصراع في حالة الاثنينية. يوجد أيضاً عنصر الخوف.

***

الخوف

ما دام الإنسان لم يتحرّر من شهوات المادة والجسد. فلا بد أن يقع في الخوف:

إنه يشتهي. ويخاف أن شهوته لا تتحقّق. فإن تحققت. يخاف أنها لا تستمر. فإن استمرّت. يخاف من نتائجها. وإن كانت خطيئة. فإنه يخاف أن تنكشف. ويخاف من العقوبة ومن الفضيحة. وإن استيقظ ضميره. يخاف من غضب اللّه. ويخاف من عدم قدرته على التوبة. وإن تاب وترك الخطية. قد يخاف من إمكانية عودته إليها.

إن حالة الاثنينية ترتبط دائماً بالخوف. كما ترتبط بالشهوة.

ولذلك حينما تخلص منها القديس أوغسطينوس. قال عبارته المشهورة: "**جلست على قمة العالم. حينما أحسست في نفسي: إنني لا أشتهي شيئاً. ولا أخاف شيئاً..**".

***

الخوف مُرتبط دائماً بالشهوة وبالخطية. ونقصد الخوف بمعناه العميق. وليس الخوف الصبياني من الظلام والأرواح.

فالإنسان الروحي لا يخاف أبداً. إنه يشعر بوجود اللّه معه يخلّصه ويحميه. ويرعاه ويقويه. هو أيضاً لا يخاف الموت. لأنه يوقن أن الموت سوف يوصله إلى حياة أفضل. أمّا الخاطئ فيخاف. لأنه لا يضمن مصيره بعد الموت.

إن صار الإنسان واحداً. يتحد هذا الواحد بالعشرة روحياً مع اللّه وملائكته. أمّا إن كان بعيداً عن هذه العشرة. فإنه يخاف.

ما دام هناك خوف. إذن لا بد من وجود خطأ في الداخل

أو لا بد من وجود ضعف مُعين. أو لون من الاثنينية:

الشهداء مثلاً لم يخافوا من الموت ولا من التهديد. لم يكن في قلب أحد منهم شيء من الاثنينية: كخوف الموت. مع الرغبة في الموت من أجل الدين أو الحق أو الوطن.. لا صراع. بل قلب واحد.

كان كل منهم بقلب واحد. وفكر واحد. يشتاق إلى الخروج من العالم والوصول إلى اللَّه.

إن الاثنينية تقود إلى الصراع وإلى الخوف. وإلى أخطاء كثيرة..

***

أخطاء كثيرة:

الاثنينية تقود إلى الرياء:

فالإنسان المرائي عبارة عن اثنين: أمام نفسه صورة حقيقية. وأمام الناس صورة مُزيفة. أمام الناس يلبس ملابس الأبرار والأطهار. وأمام نفسه عكس ذلك تماماً.. حينما يكون وحده يسلك بأعمال أو بأخطاء. أو بما لا يليق. وأمام الناس يحرص أن يكون مُحترساً ومُدقِّقاً في تصرفاته.

وبالاثنينية يكون إنسانه الداخلي غير إنسانه الخارجي:

ربما تكون كل أفكاره ومشاعره ونيّاته. غير ما يظهر للناس. أو أن الناس بسلوكه المرائي أمامهم من المحال أن يظنوا أن لها أفكاراً يبطنها غير ما يرونه فيه.. حقاً لو كشف اللَّه كل أفكار الناس ومشاعرهم. كم تكون دهشة الكثيرين ممّا ينكشف لهم. وكم تكون خجلة الكثيرين ممّا ينكشف منهم!!

***

بالاثنينية قد يكون قلب الإنسان غير لسانه:

فهو يقول ما يظن أنه يعجب سامعه أو يرضيه. بينما يكون قلبه غير ذلك تماماً.. حتى في صلاته قد يقول في صلواته كلمات لا يعنيها! فهو يصلِّي بشفتيه. أمّا قلبه فبعيد عن اللَّه.. وكأنه اثنان: بشفتيه يمجّد اللَّه ويسبِّحه ويطلب منه المغفرة. أمّا في حياته العملية. فإنه يرتكب الكثير من الخطايا التي يعصى فيها اللَّه.

وبالتالي يكون في بيت اللَّه بصورة. وخارج بيت اللَّه بصورة أخرى: هنا الاثنينية: في بيت اللَّه. له صورة العابد. الراكع الساجد. المُبتهل. وفي خارج بيت اللَّه. ربما تكون له صورة مُضادة لعبادته!

***

إنسان آخر تتدرّج به الاثنينية إلى التملّق. وإلى النفاق:

وبخاصة في مُعاملة الرؤساء والكبار وذوي الشأن. ومن له عندهم حاجة أو طلب.. وعلى سبيل المثل قد يكون قلبه كارهاً لرئيسه في العمل. وحاقداً عليه. ومع ذلك يكلّمه بكلام المديح والملق. وقد يبالغ في ذلك!

أليس هذا لوناً من النفاق. صار فيه هذا الشخص اثنين: الإنسان الداخلي فيه يختلف عن الخارجي. بل يتناقض معه إلى أقصى حد؟!

متى يصير الإنسان واحداً. قلبه كلسانه؟!

لست أقصد أن يكون لسانه رديئاً كقلبه الرديء ويتساوى الاثنان في الخطأ!! كلاّ. بل يكون الاثنان واحداً في البراءة والنقاوة والطُّهر.

***

أقول هذا. لأن البعض باسم الصراحة يقعون في أخطاء عديدة

يقول الواحد منهم: أنا الذي في قلبي. على لساني.. أقول للأعور إنه أعور في عينه!! ولا أبالي ولا أكذب.. ولماذا تجرح يا أخي شعور هذا الإنسان الأعور بكلماتك القاسية؟! وهل من اللائق أن تسيء إلى غيرك. لكي يكون قلبك واحداً مع لسانك؟!

أليس من الأفضل أن تصلح ما في قلبك. وتنقيه من العيب في سمعة الناس. ومن الحقد أو الكراهية التي تجعلك ترى غيرك أعور..! وبتنقية داخلك. يصير لسانك واحداً مع قلبك.. أو على الأقل تصمت. فلا تتكلم بلسانك ما لا تعتقده في قلبك.. وعموماً في كل علاقتك إن لم تستطِع أن تصلح خطيئة غيرك أو تلومه عليها. فعلى الأقل لا تتملّقه أو تمدحه. وهكذا لا تكون اثنين: قلبك في جهة. ولسانك في جهة أخرى.

***

وقد تظهر الاثنينية في معاملات الإنسان للآخرين:

فربما يكون في تعامله مع الغرباء في المجتمع. في منتهى الرقة واللطف والأدب. ويكون في بيته وسط أسرته في منتهى الشدة والعنف والقسوة! فهو اثنان مختلفان! في مكان ما في منتهى الجدية. وفي مكان آخر في منتهى الهزل والسخرية. دون أي وضع وسط!

وفي المعاملات لا يجوز لإنسان أن يكون ذا وجهيْن. أو يلعب على حَبليْن!

فهو يعامل شخصاً برقّة واحترام وبصورة إخلاص. ومن خلفه يُدبِّر مكيدة له. أو يتكلّم عليه بالسوء!.. أو يبدو أنه معه بكل القلب. فإذا انقلب الجو. انقلب هو أيضاً. وعلى رأي المثل: "معاهم معاهم. عليهم عليهم"!

***

وقد يتعامل مع الناس بأسلوبين. ويزن بميزانَيْن

صديق له يتصرّف تصرُّفاً. فيحكم عليه بميزان. ونفس التصرّف يصدر من شخص آخر. فيحكم عليه بميزان آخر. وإذا بالاثنينية تخرجه من نطاق الحق والعدل! وتخرجه عن مبدأ المساواة في التعامل. ويشك الناس في مصداقيته.

وقد يغضب من كلمة تقال له. ويُبرِّر ذلك بأنه حساس لكرامته. بينما يقول هو نفس الكلمة لغيره. بغير حساسية نحو كرامة ذلك الغير..!

وقد نجد مثل هذا التناقض في تصرُّفات امرأة أب: تعامل أبناءها بكل عطف وحنو. بينما بمنتهى القسوة والظلم تعامل أبناء زوجها من زوجته الأولى.. ونتعجّب كيف يجتمع الحنوّ والقسوة في قلب واحد.. إنها الاثنينية.

الاثنينية قد تقود أيضاً إلى التحايل:

فربما شخص يكون له غرض سليم. ويلجأ في سبيل تحقيقه إلى وسيلة خاطئة. وهكذا يجتمع فيه الخير والشر معاً في عمل واحد. والوسيلة الخاطئة تشوّه صورة الخير الذي يريده.

عموماً الذي يعيش في الاثنينية لا يكون له ثبات:

فهو كثير التغيير. وقد يكون أيضاً كثير التردُّد. ويتحوّل من حال إلى حال بغير ثبات. وقد يفكِّر في أمر. ويجد في داخله فكراً ضده. وتتصارع أفكاره. وقد يتصارع ما تسمعه آذنه مع ما يفكِّر فيه عقله. ولا يعرف أيهما يُصدِّق وأيهما يتبع؟ أم يصدِّق بدلاً منها ما يقول قلبه ومشاعره!!

٢٠٠٤/٣/٢

الذكاء عناصره ومعطلاته

عناصر الذكاء

نقابل في حياتنا كثيراً من الأذكياء في شتى فروع المجتمع وأنشطته: يتميّز أحدهم بصفة مُعينة تدلّ على ذكائه. ويتميّز غيره بصفة أخرى. وقد تجتمع كل صفات الذكاء في إنسان واحد. ينطبق عليه قول الشاعر:

وليس على اللّه بمستصعب   أن يجمع العالمَ في واحدِ

فما هى صفات الإنسان الذكي؟ أو ما هى العناصر التي تتكوّن منها صفة الذكاء؟ وما نوعية عقلية أولئك الأذكياء؟

***

*** أول صفة للإنسان الذكي هى الفَهْم:**

وتشمل هذه الصفة: سرعة الفَهْم. وسلامة الفَهْم. وعمق الفَهْم.. فالإنسان الذكي يفهَم بسرعة. لا يحتاج إلى شرح كثير لكي يفهم. ولا إلى وقت طويل لكي يدرك المقصود. يقال عنه بالعامية "يفهمها وهى طايره". ويبالغ البعض فيقول "ويفهمها قبل ما تطير".

كما أنه يَفهم بطريقة سليمة. لا خطأ فيها ولا لَبس. ويفهم الأمور بدقّة وبعمق. يشمل كل التفاصيل. وكل النتائج.

*** وهو في ذكائه وفَهْمه. إنسان لمّاح.**

يلمح الفكر المقصود. ولو من بعيد.. يستطيع أن يدرك ما يريده غيره. حتى دون أن يتكلم هذا الغير. فإنه يفهم ما يريده مُحدِّثه: من ملامح وجهه. من نظرات عينيه. ومن لهجة صوته. ومن حركاته. ومن نوعية كلماته. وإن قرأ. يستطيع أن يلمح ما وراء السطور. وما يوحي به أسلوب الكتابة.. بل يدرك أيضاً نفسية الكاتب وأهدافه.

***

*** والإنسان الذكي يتميّز أيضاً بأنه قوي الاستنتاج**

يستطيع أن يستنتج. وبعمق. فيخرج بنتائج ممّا أمامه. وتكون نتائج سليمة. ويحوّل الجزئيات إلى كليات. ويستخرج من التفاصيل بعض القواعد. ويتوقع ما يمكن أن يحدث قبل أن يكون.

وفي ذلك يتميز بالفراسة. وينصح بناء على ما يتنبأ به...

وهو في ذكائه وفراسته وفَهْمه. يمكن أن يدرك حقيقة شخصيات من يلتقي بهم. ومفاتيح شخصياتهم. والأسلوب الذي يتفاهم به معهم. بما يستعمله من تلك المفاتيح.

*** والإنسان الذكي يتّصف أيضاً بسرعة البديهة**

فهو يجيب بسرعة على أي سؤال يوجّه إليه. أو يعلّق تعليقاً سريعاً ولكن عميقاً فيما يعرض عليه من أمور...

***

*** ومن عناصر الذكاء أيضاً قوة الذاكرة:**

توجد ذاكرة تحتفظ بقدر كبير من المعلومات. وتستطيع وقت اللزوم أن تستخرج هذه المعلومات كاملة ومُرتبة وسريعة. وتستخدمها الاستخدام المناسب. لتصل بها إلى النتيجة التي يريدها صاحبها بأسلوب مُقنع.

إذن هناك ذاكرة جامعة. وذاكرة مرتبة. كما أن هناك ذاكرة فوتوغرافية تتذكر مثلاً معلومة موجودة في كتاب. في موضعها في صفحاته: فوق أو تحت.. على اليمين أو الشمال. أو تتذكر الأحداث بصورة مطبوعة. كأنها أمامها.

وقد تحدث أحد الشعراء عن أهمية الذاكرة في حفظ ما في الكتب. وليس في جمع الكتب واقتنائها. فقال:

عليك بالحفظ دون الجمع في الكتب ... فإن للكتب آفات تخرّقها

النار تحرقها. والماء يغرقها ... والفأر يخرقها. واللّص يسرقها

ولا شكّ أن الشخص القوي الذاكرة. تساعده ذاكرته على الذكاء. إذ لا يفوته شيء من تفاصيل الأمور التي يبحثها. بل تكون كلّها واضحة أمامه بكل تفاصيلها. فيحكم حُكماً سليماً دون أن ينسى شيئاً ممّا يؤثر على حكمه.

*** والإنسان الذكي يتميّز أيضاً بدقّة الملاحظة:**

فهو لا يفوته شيء. بل يلاحظ كل شيء. ويتصرّف بناءً على ما يلاحظه. والمهم أن تكون الملاحظة سليمة.

فالخطيب أو الواعظ مثلاً. عليه أن يلاحظ: هل السامعون متجاوبون معه أم لا؟ أواضح عليهم أنهم منصتون في شغف. أم بدأ بعض منهم يملون. وينظرون إلى ساعاتهم؟!

والزوجة في البيت عليها أيضاً أن تلاحظ ما هى الأصناف التي لا يُحبها زوجها في طعامه؟ وما هى الأوقات التي تناسبه في الحديث عن مشكلة ما أو طلب مُعيّن.

إن الذكاء يقتضي مثل هذه الملاحظات. كما أن الإنسان الذكي عليه أن يلاحظ نفسه من جهة معاملاته: هل أصبح مثلاً حاد الطبع لا يحتمل نقاشاً. أو دخله روح كبرياء. فأصبح لا يحتمل مُعارضة.. وبناء على هذه الملاحظة يعالج نفسه ممّا طرأ عليه. وبالتالي عليه أن يلاحظ ما هو الجديد الذي طرأ على نفسيته أو على صحته.

***

*** من صفات الإنسان الذكي أيضاً: قوة الإقناع:**

فهو يستطيع أن يورد الحجج والبراهين التي تثبت وجهة نظره. في سلاسة وسهولة تقنع من يناقشه. وترد على وجهة النظر المضادة. بهدوء دون أن يعلو صوته. ودون أن يخدش شعور من يناقشه.

ومن الناحية الايجابية. إذا تكلم في موضوع ما. تبدو أفكاره في تتابع وتسلسل عجيب. تبهر من يسمعه وتقنعه.

***

*** والإنسان ينظر إلى كل الأمور من زوايا مُتعدّدة:**

فلا يحصر ذهنه في زاوية واحدة. بل تكون له النظرة الشاملة التي تتسع لكل الاتجاهات. وتحتضن كل وجهات النظر. وهذا النوع من الناس. يصفونه بأنه Brood Minded أي مُتسع الذهن.

إنه ذكي في حساباته. يعمل حساباً لكل صغيرة وكبيرة. وحساباً لفارق العقليات. وطريقة فَهْم الغير لِمَا يقوله سواء كان فهماً صحيحاً أو خاطئاً. أي يضع في ذهنه كل التوقعات. وردود الفعل. والمفاجآت. التي تكون نتيجة لأقواله أو لتصرفاته.

إنه يذكرني بلاعب الشطرنج الذي في كل حركة يحركها. يعمل حساباً لتحرُّكات الطرف الآخر الذي يلاعبه. وكيف يمكنه مُقابلة ذلك. وهكذا يبدو كل منهما صامتاً. لأنه منشغل بما سوف يفعله. وبردود الفعل.

***

درجات وأنواع

الأذكيـاء ليسـوا كلهـم درجـة واحـدة. فمـنهم الـذكي والنـابغ والعبقـري. مـنهم شـخص intelligent. وآخر Brilliant. وثالث Lyeniers. ومنهم اللبيب. والحكيم. حسب قول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مُرسلاً ... فأرسل حكيماً ولا توصهِ

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصهِ

وكل إنسان يستطيع أن ينمّي مستوى عقليته بتداريب للذكاء:

أي تداريب لاستخدام العقل وتنشيطه وتنمية قدراته. مثل تمارين في الحساب والجبر والهندسة. وتمارين على حل المشكلات والألغاز والموضوعات التي تبدو مُعقدة.

***

وممّا ينشط العقل أيضاً معاشرة الأذكياء والقراءة عنهم

كالقراءة في قصص شارلوك هولمز. وقصص أرسين لوبين وغيرهم. ممكن كانت تصادفهم تعقيدات وأمور غامضة ويصلون إلى حلها. كذلك معاشرة من أهم أكبر في السن والخبرة. وأكبر في العقلية. والاقتباس منهم. ويقول الشاعر:

ومن وعي التاريخ في صدره .... أضاف أعماراً إلى عمره

فيمكن بذلك أن يستفيد من قصص التاريخ ومن أحداثه في تنشيط فكره بمعرفة ما كان يحدث لغيره. وكيف كان يتصرّف.

وهكذا تكون المعرفة وسيلة أخرى لتنمية القدرات الفكرية. إن أحسن الإنسان استخدامها. باختيار المعرفة النافعة له. والمناسبة له.

على أن بعض الأذكياء يكونون كذلك بالفطرة أو بالوراثة

أي أنهم قد وُلدوا هكذا أذكياء. دون أن يبذلوا في ذلك جهداً. وأمثال هؤلاء. غالباً ما يكون جميع أفراد أسرتهم أذكياء.

وقد يكون الذكاء إذن موهبة من الله. منحها لبعض من عبيده.

هناك فرق بين الذكاء. والمعرفة. والحكمة:

المعرفة تساعد على الذكاء. ولكنها ليست شرطاً. لأنه يوجد أذكياء بين غير المُتعلِّمين. كما أن الذكي غير المُتعلِّم. له قدرة على تلقي العلم. وإن لم يتعلّم في المدارس. أو على الأساتذة. أو من الكتب. يمكنه أن يتعلّم من الطبيعة ومن الأحداث. وإن لم تكن له المعرفة. فله حُب المعرفة.

والمهم هو أن يستخدم الإنسان الذكاء والمعرفة في الوصول عملياً إلى حسن التصرُّف. وهذا ما نسميه الحكمة.

فالذكاء خاص بالعقل. والحكمة خاصة بالتصرُّف، ولهذا فكل حكيم ذكي. ولكن ليس كل ذكي حكيماً!!

ذلك لأنه قد توجد موانع أو معطلات تمنع أو تعطل استخدام ذكائه!

فما هى إذن معطلات الذكاء التي تقف عائقاً دون استخدامه؟

***

مُعطلات الذكاء

هناك أمور عديدة تمنع الذكي من أن يكون حكيماً: أمور خاصة بنفسيته. أو طباعه. أو شهواته. أو ظروفه:

* فالإنسان الغضوب أو العصبي أو المُندفع. لا يستطيع أن يكون حكيماً.

إن أعصابه توقف عقله عن التصرُّف مهما كان ذكياً لكي تتصرّف هى!!

وهكذا يكون تصرُّفه تصرُّفاً عصبياً مُندفعاً. بعيداً عن الحكمة والذكاء.

وقد يندم عليه. حينما تهدأ أعصابه. ويرجع إلى عقله.. ويبدأ الذكاء في التفكير بعيداً عن سيطرة الأعصاب. وهنا ننصح الإنسان الذكي. أن يستخدم ذكاءه في معالجة أعصابه. أو أن يتوقف عن التصرُّف إن وجد نفسه في حالة عصبية. وإن كان الاندفاع طبعاً فيه. عليه أن يُعالج اندفاعه.

*** كذلك الإنسان الحقود أو الحسود. أو الذي تملكه الغيرة:**

فإنه يفقد الحكمة نتيجة لطغيان مشاعره عليه. مهما كان ذكياً!!

* **وبالمثل الإنسان الشهواني. لا يسلك بحكمة مهما كان ذكياً!**

١ الشهوة هى التي تقوده. وليس العقل. وكثيراً ما يرتكب أخطاء. لا يوافق عقله عليها.. وبالمثل من يقع تحت سيطرة عادة ضارة.

فالذي تسيطر عليه مثلاً عادة التدخين: يعرف بعقله أن التدخين يفقده صحته وماله. ويفقده حرية إرادته. كما أنه يضر الذين حوله.. ومع ذلك. فإنه يدخِّن. لأن العادة هى التي أوقفت الذكاء عنده. لكي تتولى هى قيادته.. وبالأكثر من يقعون في الإدمان الذي يُدمِّر عقولهم.

***

* **ممّا يعطل الذكاء أيضاً أن يكون الشخص سماعاً "بالعامية: وِدَني"**

هذا الذي يقبل ما يصل إلى أُذنيه بدون فحص. يقع في أخطاء لا تتفق مع الحكمة مهما كان ذكياً في أمور علمية أو عقلية. وينطبق عليه قول الشاعر:

أثّر البهتان فيهِ ... وانطوى الزور عليهِ

يا له من ببغاء ... عقله في أذنيهِ

* كذلك قد لا يتصرّف الذكي بحكمة بسبب قلة الوقت أو عدم تمكّنه من الدراسة الكافية. أو ثقته بمعلومات تصل إليه من غيره ولا تكون صحيحة!! أو قد يكون الإنسان ذكياً. ولكنه قليل الخبرة. فيفقد الحكمة في التصرُّف.

إذن لكي تتكامل أمامنا الصورة المثالية من جهة العقل والحكمة:

علينا أن نضيف إلى الذكاء: الخبرة. والمعرفة. والطباع السليمة غير المُنحرفة.. وذلك لكي يصير الإنسان حكيماً.

***

ولا ننسى محبة الخير. لأن الذكي قد يستخدم ذكاءه في الشرّ. فيتصرّف بطريقة ملتوية. ويسمّيها البعض حكمة في الشر. **ولا يسمّيها البعض ذكاء. بل دهاء وخبثاً.**

لا شك أن الشيطان ذكي. ولكنه ذكاء يُستخدَم في الشر. وكذلك أعوانه أذكياء. فكبار المجرمين والأشرار على درجة عالية من الذكاء. ولكنه ذكاء مُنحرف. يُدبِّرون مكائدهم بعمق في العقل والمكر. ويغطون عليها أيضاً بدهاء شديد. حتى لا ينكشف ما يفعلون.

لذلك فالذكاء وحده لا يكفي الإنسان. لكي يكون شخصاً محترماً في المجتمع. إنما يجب أن يرتبط الذكاء أيضاً بالبر.

٢٠٠٤/٣/٩

توتّر الأعصاب

لماذا ومتى تتوتر أعصاب الإنسان. ويصبح غير محتمل لأي شيء؟ هناك أسباب عديدة لذلك. نذكر من بينها:

١ ـ من ضمن الأسباب الجسدية لتوتر الأعصاب: التعب والإرهاق

عندما يتعب جسد إنسان. تتعب أعصابه ضمناً. ويكون في حالة لا يحتمل فيها أي ضغط عليه أو أية إثارة. ويسبّب التعب توتراً لأعصابه. يظهر في تصرُّفاته وانفعالاته.

فالأعصاب تتعب من الارهاق وقلّة الراحة. مثلها في ذلك مثل أي عضو آخر في الجسد يتعب من الارهاق. لذلك يحتاج الإنسان إلى الراحة والاسترخاء. حتى لو كانت تلك الراحة لمجرد دقائق بسيطة تتخلل فترات العمل. كما يحدث ذلك مع تلاميذ المدارس بين حصة وأخرى. ويسمونها بالإنجليزية Break. لأنها تكسر حدة العمل المتواصل. وتريح الذهن كما تريح الجسد. وبالتالي تريح الأعصاب.

***

إن اللّه قد منحنا يوم راحة في الأسبوع. لأن طبيعتنا تحتاج إلى ذلك

إنه - تبارك اسمه - هو الذي خلق طبيعتنا. ويعرف أن العمل المتواصل يتعبها. لذلك منحها ذلك اليوم راحة أسبوعية لا تعمل أثناءها عملاً. وبهذه المناسبة أتذكر نصيحة قالها لي أحد كبار الأطباء في أوروبا وهى:

إني لا أمنعك من الـ hard work فطبيعة عملك قد تستلزم ذلك. ولكني أمنعك من الـ over work. ويقصد به العمل بعد الارهاق.. لأن القلب لا يتعبه العمل الكثير. بل يتعبه العمل بعد الارهاق. وكذلك الأعصاب.

فلا تهمل فترات الراحة من الاسترخاء. ولا تظنها نوعاً من الترف.. بل أنت تستطيع بها أن تتصرف بأسلوب روحي بعيداً عن النرفزة.

***

كذلك احترس من أن تدخل في حوار ساخن. وأنت مُرهق جسدياً

فأعصابك - كجزء من جسدك - تكون أيضاً مُرهقة. ولا تكون محتملة لشيء من الجدل أو اللقاء المُتعب.. بينما نفس اللقاء أو الحوار. إذا تم وانت مستريح جسدياً وعصبياً. فانه يمر بطريقة أسهل.

كذلك - من الناحية الأخرى - لا تدخل في نقاش أو جدل مع شخص مُرهق جسدياً. ولا تطلب طلبا هاما يحتاج إلى تفكير من شخص في حالة تعب جسدي. لان حالته الصحية أو العصبية ربما لا تساعده على التفكير العميق أو البتّ في أمر حيوي. وهو في حالة تعب. ويكون إصرارك على الطلب أو المناقشة وهو في هذه الحالة. عبارة عن ضغط على أعصابه. ربما لا يحتمله.

***

٢ ـ وقد يكون السبب في توتر الأعصاب. هو مرض في الأعصاب:

ونقصد هنا المرض الذي له أسباب عضوية بحتة. لا علاقه لها بنفسية الشخص ولا بعقله.. فأي عصب في الإنسان أصابه ضرر ما. ربما بسبب ضغط عليه أو كسر. أو حادث. فهو يحتاج إلى علاج.

إنسان - على سبيل المثال - يشكو مرضاً في العمود الفقري. فيه بعض العظام تضغط على الأعصاب. فتتعبها وتلهبها. وهكذا يشكو هذا الإنسان من أعصابه - بألم من غير نرفزة - ولكنه قد يكون أيضاً في هذه الحالة غير محتمل لأي سبب يضايقه من الخارج.. وبالمثل من يكون هناك عصب مكشوف تحت ضرس من أسنانه. ويتعب من الألم ولا يحتمل.

والأمر في كل حالة. يحتاج إلى طبيب مُتخصّص لمعالجة العصب.

***

٣ ـ على أن سبب توتر الأعصاب. قد يرجع إلى عامل نفسي كسرعة الغضب مثلاً..

فقد يوجد إنسان غضوب بطبعه: يحتد بسرعة. ويرتفع صوته. وتتغيّر لهجته. وتتجهم ملامحه.. وهذا الأمر يحتاج إلى إرشاد روحي. لكي يتدرّب هذا الشخص على الهدوء وحسن التعامل مع الآخرين. كما يلزمه أيضاً أن يعرف أسباب غضبه حتى يتفاداها. وحتى لا يتطور الغضب الداخلي إلى النرفزة.. وكلمة نرفزة مُشتقة من كلمة Nerves ومعناها

"أعصاب".. لذلك ابعد بقدر الإمكان عن كل ما يتعبك ويثيرك. حتى تكون في جو من الراحة يساعدك على عدم الاستثارة بسرعة. وإن بدأت أعصابك تتوتر. لا تشغلها بالفكر أو التصرُّف. بل حاول أن تهدئ ذاتك نفسياً. فتهدأ عصبياً.

***

٤ ـ وقد يكون سبب توتر الأعصاب: طبع العنف والتزمت

فالإنسان الذي يتخذ العنف منهجاً ثابتاً في حياته. تكون تصرُّفاته مصحوبة بالتوتر. ولا يقبل نقاشاً ولا تفاهماً ويحاول أن يصل إلى نتيجة بسرعة ومن أقصر الطرق. وبشدة. ولو قوبل عنفه بعنف. يزداد الأمر توتراً من الجانبين.. كذلك الإنسان المُتزمت. لا يكون واسع الصدر. ولا واسعاً في تفكيره كما يجعله تزمته يضيق على نفسه وعلى غيره. ويكون التعامل معه مشحوناً بالتوتر.. ودائماً نجد الأشخاص المتزمتين. ملامحهم عابسة. بجدية مُتحفزة. وعيون ملتهبة. وأعصاب مستعدة للهجوم. مع تعليقات متشددة قاسية. وعبارات هذا خطأ. وهذا حرام. وهذا لا يليق..

***

٥ ـ وهكذا تتوتر الأعصاب. بالتدخُّل في شئون الغير. بحجة الحق والاصلاح!

إذ يقيم الشخص نفسه رقيباً على غيره. وربما على جميع الناس والبعض يحاول أن يصلح المجتمع كله: يصلح الكبار والصغار. المسؤولين وعامة الناس. والذين يعرفهم والذين لا يعرفهم. كل ذلك بروح ساخطة على كل شيء في كل مكان. وفي كل مناسبة. وبغير مناسبة!! بأعصاب متوترة.

نصيحتي لك لكي تهدأ أعصابك. لا تقم نفسك رقيباً على غيرك ولا تتدخل في ما لا يعنيك.. ولا تحاسب أحداً إلاّ على ما هو في حدود مسؤوليتك الخاصة. أمّا ما هو خارج مسؤوليتك. فلا تحشر نفسك فيه وقل "من أقامني قاضياً على تصرّفات الناس؟!".. ذلك لأنك لو حاولت أن تتبع الأخطاء من كل إنسان وفي كل موضع. سوف تتعب أعصابك.. وسوف تكره الناس ويكرهونك. وربما بلا نتيجة تصل إليها.

***

٦ ـ وقد تتعب الأعصاب من أمراض نفسية كالقلق والاضطراب والخوف..

حيث يتوهم الشخص بتعبه النفسي أخطاراً ومشاكل قد تحدث. وربما لا يكون لها وجود في الواقع. وعلى الرغم من ذلك. فإنها تُسبِّب توتراً في أعصابه. وانزعاجاً في نفسه. وبخاصة إن لم يجد لها حلاً. لأنها مجرد تصورات وهمية. وللأسف قد يعالجها بالمسكنات والمهدئات!!

وقد يدفعه إلى توتر الأعصاب. حالة من الخجل أو من التردد. تضغط عليه في حالات معينة. أو تكون في طبعه بصفة عامة.

ويحتاج مثل هذا الشخص أن يهدئ نفسه من الداخل. فيقنع نفسه بأن خوفه مجرد وهم. أو أن يتكل على اللّه في مشاكله. مع معالجة التردد والخجل الذي لا سبب واضح له. ولا يعتمد دائماً على الأدوية المهدئة. لأن لها ردود فعل. كما قد تصبح عادة تلازمه.

والمهدئات هى لمعالجة مظاهر التعب. دون أن تعالج أسبابه. وهى تجعل الأعصاب في حالة إرخاء ثم شد ثم إرخاء. وقد تتلف بذلك. مثل شريط من الاستك تشده وترخيه. ثم تشده وترخيه. حتى يفقد مرونته!

***

٧ ـ كذلك قد تتعب الأعصاب بطريقة التفكير الخاطئ

فهناك أشخاص عقلهم ضدهم. دائماً يفكرون بطريقة تتعبهم وتهيجهم وتشد أعصابهم كالشخص السوداوي في أفكاره. الذي لا يتخيل إلاّ شرّاً. ولا يتوقع إلاّ ضرراً. ولا ينتظر إلاّ أسوأ الظروف والنتائج..! لذلك فإن أفكاره لا بد أن تتعب أعصابه.

ومثله الإنسان المُعقّد في تفكيره وأيضاً الإنسان المُندفع المُلتهب. الذي يفكِّر بسرعة شديدة بدون تروّ أو هدوء. فيلهب أعصابه معه وتتمدد أعصابه بالحرارة التي في داخل نفسيته.. وبالمثل الإنسان الشكّاك الذي بسبب شكوكه. تتعب أفكاره. وتتعب معها أعصابه..

أمثال هؤلاء الأشخاص. يريح أعصابهم أن يتعوّدوا البشاشة.

وأن يدخل في حياتهم روح المرح. ففي حالة المرح والفرح تنبسط الأعصاب بعد توترها وتهدأ. لذلك يقال في العامية: فلان انبسط أو مبسوط" والمشكلة ان البعض في تزمتهم أو نُسكياتهم يقول إن الضحك حرام!! وهذا خطأ لا يوافق عليه الدين. فسليمان الحكيم يقول:

"للبكاء وقت. وللضحك وقت" (جا ٣:٤)، فعلى الأقل إن لم يكن لك روح المرح. فليكن لك روح الفرح.. والله قد دعانا إلى الفرح منذ خلقنا في جنة. كما وعدنا بالنعيم الأبدي.

***

٨ ـ وقد يكون من أسباب التوتر: الانشغال وعدم التفرغ:

فالانشغال قد لا يُعطي مجالاً للتفاهم وبخاصة لو كان الشخص المُنشغل يريد أن ينتهي من عمله بسرعة. أو أن فكره يُركّز في موضوع مُعيّن لا يستطيع تركه للتفكير في ما يعرضه عليه غيره. أو كان وقته ضيقاً ويحتاج إلى كل دقيقة. فتجده متوتراً إن حدّثه البعض وهو مشغول!

ونصيحتي أن تكلّم غيرك حين يكون مُتفرّغاً للحديث معك.. ولا تضغط على من يكون مُنشغلاً.. ونفس الكلام في المكالمات التليفونية.. إذن هناك أسباب للتوتر من خارج الإنسان. وليس من داخله.

***

٩ ـ من أسباب توتر الأعصاب أيضاً: الضغوط الخارجية. مع خطأ التعامل معها أي الـ response:

تتوتر الأعصاب من المشاكل والضيقات المُتتابعة. أو التي تكون صعبة الحل. وقد يكون السبب هو أخطاء الآخرين ونتائجها. أو سوء معاملتهم وإهاناتهم وألفاظهم القاسية.

على أن كل إنسان مُعرّض لضغوط خارجية ومتاعب تحلّ عليه من غيره فهل كل الناس يثارون بسبب الضغوط؟ أم الأمر يتوقّف على كيفية التعامل معها؟

فقد يلاقي البعض تلك الضغوط باحتمال وصبر. أو يُقابلها بتفكير وحكمة ويصرفها. والبعض يُقابلها بلا مُبالاة أو بروح المرح. والبعض يتركها خارج نفسه ولا يتأثّر بها إطلاقاً. والبعض يقابلها بانفعال وغضب. والبعض يُقابلها بحزن أو بيأس. وهذان الأخيران يتعبان أعصابهما.

***

١٠ ـ وقد يتسبّب التوتر من سماع الأحاديث المتعبة:

فإمّا أن تكون مُتعبة في نوعيتها. أو في طولها. أو في تكرارها بحيث أنها تستغرق وقتاً أكثر ممّا تستحق. أو تكون تافهة ومُستمرة. أو أن السامع لا يستريح لهذا النوع من الحديث. ومع ذلك فالمتكلّم لا يشاء أن يصمت! أو إنسان مشدود الأعصاب. قد يشد أعصاب غيره بحديثه. وكثيرون قد يثيرون غيرهم بطريقة كلامهم. نصيحتي أن تتجنّب هذا النوع..

***

١١ ـ ممّا يتعب الأعصاب أيضاً: الإلحاح المُستمر. وكذلك الإطالة والتكرار:

فإنسان قد يطلب منك طلباً. فتعده بذلك. وربما يحتاج تنفيذ طلبه إلى وقت. ولكنه خلال ذلك يلح ويلح بطريقة تتعبك. ويكرّر الكلام طويلاً ويكون كل ذلك ضغطاً على أعصابك. وكما يقول المثل "صاحب الحاجة أهوج".. فهو بدلاً من أن ينال حاجته. يثير بإلحاحه من يطلب منه.

وبالمثل إنسان يشرح لك شيئاً. فتقول له "قد فهمت" ولكنه يظل يشرح ويشرح. ويطيل الكلام ويكرره. حتى تملّ وتسأم. وتتعب أعصابك!

***

١٢ ـ وقد تتوتر الأعصاب بسبب أنواع من الأخبار:

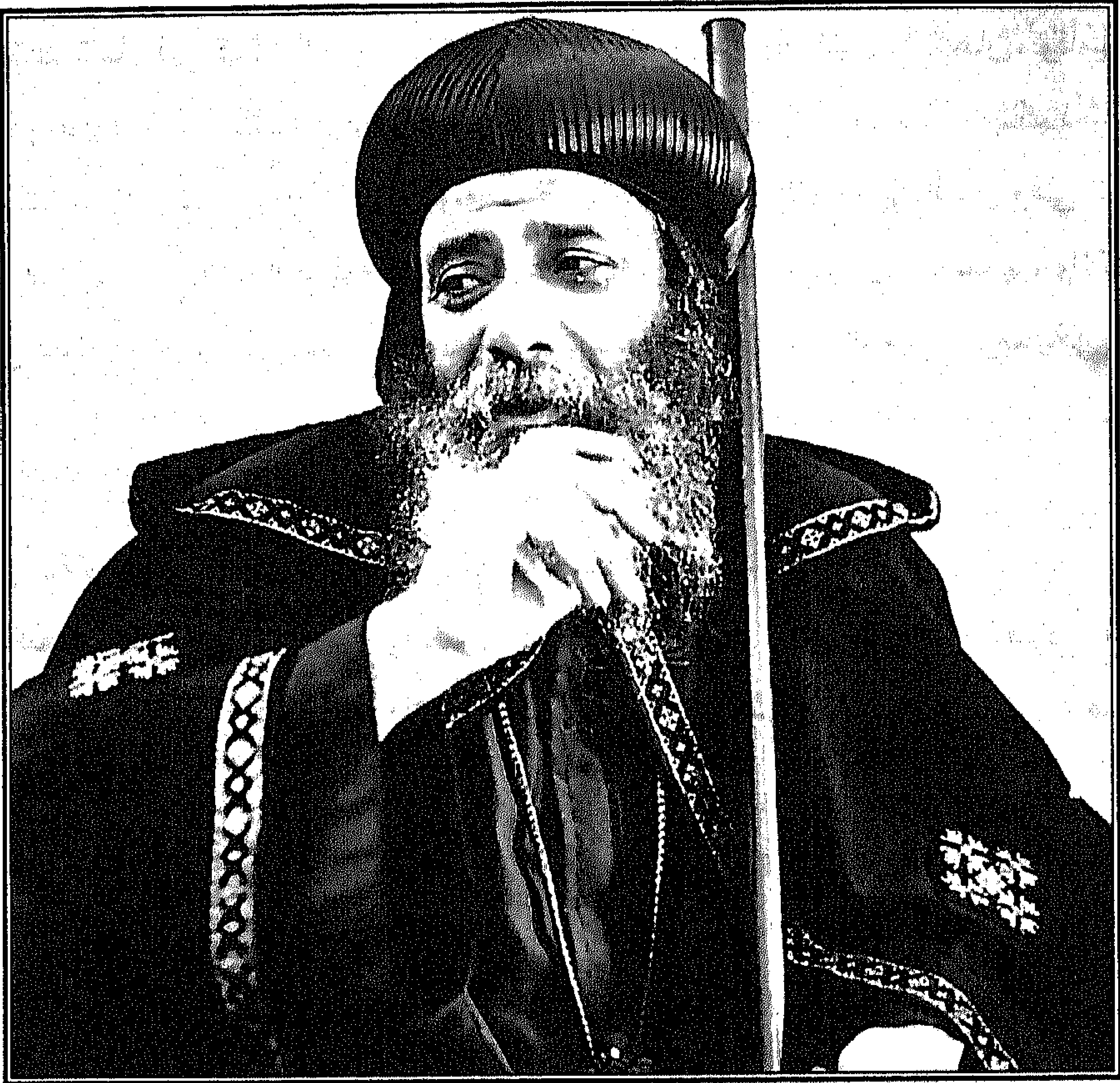
كالأخبار المُزعجة والمُقلقة. والمُثيرة. وكذلك الأخبار التي يشعر سامعها أنها تحوي مُغالطة. أو تحوي ظلماً. أو تسبِّب شرّاً. والأخبار التي فيها شدّ وجذب.. وتناقض. والأخبار المُتكرِّرة. والأخبار المُغرضة. والأخبار التي يصعب تصديقها ويصرّ ناقلها على محاولة اقناعك بها بأية وسيلة. وأيضاً الأخبار المختلفة "المفبركة" التي لا أساس لها من الصحة..

ولذلك فالبعد عن مثل تلك الأخبار يسبِّب راحة للنفس وللأعصاب نصيحتي لك أن كل ما تسمعه أو تقرأه من أخبار. يمكن أن يضاف إلى معلوماتك. وليس إلى أعصابك. كما يمكنك أن تقوم بتحليل المعلومات وقبول ما يصلح منها. وبعض الأخبار يحسن البعد عنها. بواقع من الخبرة.

***

وعموماً فإن مُعالجة توتر الأعصاب. تأتي بتلافي أسباب التوتر:

كما بالتدرب على الهدوء. والسلام الداخلي. والإيمان برعاية اللّه وعنايته. بعيداً عن القلق والاضطراب والخوف. وهناك أنواع من الموسيقى تريح الأعصاب ويمكن لإراحة الأعصاب المتوترة: القراءة التي تحوّل الفكر من منطقة التوتر إلى مجال آخر. ومعاشرة أناس هادئين يمتص منهم التوتر هدوءاً. ولا ننسى تأثير الطبيعة الجميلة الهادئة التي تغذي الأعصاب بجمالها وحياة الإنسان الروحية. تبعد عنه بلا شك كل توتر للأعصاب.



٢٠٠٤/٣/١٦

التأمُّل

التأمُّل هو نظرة عميقة للأمور. لا يعمل فيها الفكر وحده. بل الروح أيضاً. وأحياناً يكون التأمُّل موهبة روحية يستقبل بها الإنسان معرفة فوق المعرفة العادية.

وحينما يتأمّل الإنسان شيئاً. يمعن النظر فيه. ويدقّق ويفحص. ويحلّل ذلك الشيء ليرى ما أعماقه.

وللتأمُّل مجالات عديدة. لِمَنْ يريد أن يستشف ما توحي به.

هناك تأمُّل في كلام اللّه ووصاياه. وتأمُّل في الصلاة والتراتيل والألحان. وتأمُّل في الخليقة والطبيعة. وفي السماء والملائكة. وفي الموت والدينونة وما بعدها.. وهناك تأمُّل في الأحداث. وتأمُّل في الفضيلة عموماً وتفصيلاً. وتأمُّل في المُطلَق. في الحق وفي الخير. وتأمُّل في صفات اللّه الجميلة.. وموضوعات التأمُّل أكثر من أن نحصيها. والإنسان الروحي يستطيع أن يتأمّل حتى في الماديات. ويستخرج منها بعض المعاني الروحية.

***

نتناول أولاً التأمُّل في كلام اللّه ووصاياه

إن كلام الوحي الإلهي عبارة عن روح مُتجسّدة في ألفاظ.

الكلمات هى مجرّد غلاف. يُغلّف المعاني في داخله كالصدفة التي تحوي داخلها اللولؤ. واللؤلؤ هو روح الكلمات. فلا تكتفي بالصدف. بل اكشفه بالتأمُّل واستخرج ما فيه من اللآلئ.

كما صلّى داود النبي وقال: "اكشف يارب عن عينيّ. لأرى عجائب من شريعتك".

وبهذا يكون التأمُّل في كلام اللّه. هو محاولة لاكتشاف الأسرار الإلهية الموجودة في الوحي الإلهي. وليس مجرّد الألفاظ. فكلام اللّه هو روح وحياة ويكتشفه الروحيون. ويحولونه إلى حياة يعيشونها..

وبالصلاة يُنير اللّه تأمُّلاتنا في وصاياه. فنقول له "بنورك يارب نُعاين النور". وهكذا بهذه الاستنارة الروحية نهتف مع داود النبي قائلين "لكل كمال رأيت منتهى. أمّا وصاياك فواسعة جداً".

أمّا المجهود الذي تقوم به عقولنا وقلوبنا في التأمُّل. فإننا نحسبه كمجرد طلب نرجو به أن تفتح النعمة عقولنا. لتستقبل ما تسكبه الروح فيها.

فعملنا هو أن نقدّم عقولنا للّه لكي يملأها بالفَهْم الذي من عنده. وما أعمقه! إذن الخطوة الأولى التي يقوم بها الذهن في التأمُّل في كلام اللّه. هى مجرد فتح الباب لعمل نعمة اللّه في أذهاننا. وليس الأمر مجرد كدّ الذهن ليفهم.

ذلك لأن التفكير العقلي المَحض. الخالي من عمل الروح. لا ينتج تأمّلاً.. بل قد ينتج علماً أو فلسفة. وهنا نفرّق بين العالم والعابد. وبين الدارس والمتأمّل. بين الباحث في الكتب. والذي يستقبل من الروح.

إذن التأمُّل في كلام اللّه. ليس هو مجرد عمل عقلي. إنما ترك العقل ليكون أداة في يد الروح. ثم تبتهل الروح بالصلاة لتأخذ من اللّه. والذي تأخذه. تعطيه للعقل.

***

ننتقل إلى التأمُّل في القراءة النافعة التي تقود إلى المعرفة.

القارئ السطحي قد يقرأ كثيراً ولا يتأمّل. أمّا القارئ الروحي. فإن القليل من قراءته يكون له نبع تأمُّلات لا ينضب.

إنه لا يركِّز على كثرة القراءة. إنما على ما فيها من تأمُّلات.. وقد تستوقفه كلمة أو عبارة. فيغوص في أعماقها. وقد يفتح اللّه قلبه. فيرى في تلك العبارة الواحدة كنزاً عظيماً. مهما اغترف منه فلا ينتهي.

وهناك أشخاص من عُمق تأمّلهم في عبارة واحدة. يتخذونها مبدأً في حياتهم. وحكمة يسيرون عليها. مثل المتأمّل في عبارة "بدلاً من أن تلعنوا الظلام. أضيئوا شمعة". أو مثل عبارة: "الذي لا تستطيع اتخاذه صديقاً. لا تجعله لك عدوّاً". أو كعبارة: "رابح النفوس حكيم".

***

وإن لم تكن لك موهبة التأمُّل. اقرأ تأمُّلات الأبرار.

فسوف تجد عُمقاً كبيراً في تأمّلاتهم. وتتعلّم منها كيف كانوا يتأمّلون. وكيف أنهم لم يقفوا مُطلَقاً عند المعنى السطحي للكلمات.. وبقراءتك لأمثال هؤلاء. تجد أن اللّه قد فتح لك طاقات من نور تشرق على ذهنك. وكما قال الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه .. واطلبوا الحكمة عند الحكماء

وبقراءة كتب الذين لهم عُمق في التأمُّل. تكتسب أنت أيضاً عُمقاً.. وهنا تدرك فائدة التلمذة في التأمُّل. وبكثرة القراءة لهم. تنمو.

والتأمُّل الروحي ينقي ذهنك. فلا يسرح عقلك في أمور باطلة..

بل هذا العمق في التأمُّل. يعوّدك العمق في أمور كثيرة. ويُبعدك عن السطحية.

ويقدِّم لك غذاء روحياً نافعاً لبنيانك الداخلي. ويمنحك حكمة. ويغيّر أسلوبك في التفكير. بصفة عامة.

***

التأمُّل في الطبيعة

ولسنا نقصد مجرّد التأمُّل في الطبيعة. بل بالأكثر ما تقدِّمه من روحيات.

فالتأمُّل في الفلك وعالم النجوم والكواكب والمجرّات. وما يربطها من نظم عجيبة وثابتة يُعطيك فكرة عن قدرة الخالق لأن "السماوات تحدِّث بمجد اللّه. والفلك يخبر بعمل يديه". وكما قال الشاعر:

هذى الطبيعة قف بنا يا ساري .. حتى أريك بديع صنع الباري..

إن التأمُّل في السماء والسماويات. لا شك يرفع عقل الإنسان وقلبه. ويسمو به كثيراً عن الأرض والأرضيات. وعن المادة والماديات.

ومن عُمق النظام الموجود في السماء. الذي يربط بين الأجرام السماوية بعضها البعض. فإن أحد الفلاسفة القدامى لقّب الخالق بالمهندس الأعظم.

وإن كان التأمُّل في طبقات السماوات يُعطي عُمقاً في التفكير. فكم يكون التأمُّل في "سماء السماوات" حيث عرش اللّه.

***

على أن التأمُّل في السماء. لا بد أن يصل بنا إلى التأمُّل في الملائكة:

هؤلاء الذين يسموّنهم بالقوات السمائية. والذين موطنهم الأصلي في السماء. ولكن اللّه يُرسلهم أحياناً برسالات يؤدّونها على الأرض. مثل ملائكة البشارة. وملائكة الرحمة.

والتأمُّل في الملائكة وعملهم. يسبَح بفكرنا في جمال الملائكة. وقداسة الملائكة. وطاعة الملائكة للّه. وقوة الملائكة. وما يحيط بكل ذلك من قصص ومن أخبار.. وكذلك التأمُّل في علاقة الملائكة بالبشر. وماذا ستكون علاقتنا بهم في العالم الآخر.

ويجرنا هذا الأمر إلى التأمُّل في أرواح الأبرار الذين تركوا عالمنا الآخر. وصعدوا إلى السماء. وما وضعهم هناك؟ وما علاقاتهم المتنوّعة.

وربما يجعلنا هذا أن نتأمّل أيضاً في القيامة العامة. وما بعدها. وكذلك التأمُّل في النعيم الأبدي وكيف يكون؟!

فإن لم نقوَ على التأمُّل في كل ما يخُص السماء والسماويات. فلنهبط إلى هذه الأرض للتأمُّل في الخليقة الأرضية أيضاً.

***

التأمُّل في الخليقة

نتأمّل أولا في الجمال العجيب الذي أوجده اللّه على الأرض.

ولم يقصد اللّه مجرد التأمُّل الحسي في زهور وسنابل الحقول. من حيث جمالها. وتعدُّد أنواعها. وألوانها. وعطرها. وتناسقها. بحيث ولا سليمان في كل مجده كان يلبسها كواحدة منها.. ولكن الارتفاع فوق الحسّ إلى اللّه الذي خلقها هكذا. وإلى عناية اللّه واهتمامه بمخلوقاته.

وكما نتأمّل في الزهور المُتعدِّدة الألوان والأشكال. نتأمّل أيضاً في الأنواع العجيبة من الفراشات المُتعدِّدة الألوان والأشكال. وبنفس التأمُّل في الأسماك الملوّنة. وفي أنواع الطيور وتعدُّد نغمات أصواتها وأشكالها وأجناسها. ونقف أمام كل هذا ونقول "ما أعظم قدرة اللّه..!!" وبنفس التأمُّل ننظر إلى عالم الحيوان في طباعه وأجناسه.

***

بل قدرة اللّه نراها أيضاً في كائنات صغيرة كالنحل والنمل.

إن النظام المُذهل الذي تعيشه مملكة النحل. هو مجال لتأمُّل عميق.. كيف خلقها اللّه بهذه الإمكانيات والقدرات.. وكيف تستطيع أن تجمع الرحيق وتصنعه شهداً. وكيف تصنع غذاء الملكات!! وكيف تبني خلاياها بهندسة مُتقنة عجيبة! وكيف تطير في رحلات بعيدة بحثاً عن الزهور والرحيق! حقا ما أعجبها وما أعظم خالقها! قال فيها أحمد شوقي أمير الشعراء:

مملكة مُدبّرة .. بامرأة مؤمرة

تحمل في العمال والصناع عبء السيطرة

أعجب لعمال يولّون عليهم قيصرة!

إن كان أمر النحلة هكذا. فماذا نقول عن التأمُّل في النمل.

إنها درس في النشاط العجيب. توبّخ كل كسلان على كسله..!

حقاً. إنني لم أرَ في حياتي كلّها نملة واحدة واقفة بلا عمل..! بل كلها دائمة الحركة. دائمة العمل. لا تهدأ. كما أن جماعات النمل درس عجيب في التعاون. لمَنْ يتأمّل عملها الجماعي: في حمل أشياء توازي عشرات حجمها. وهى أيضاً درس في النظام. إذ تسير في طابور طويل مُتجهة نحو هدف ثابت. وباتصالات عجيبة بين بعضها البعض. كذلك هى درس في التدبير. إذ تجمع غذاءها من مصادر مُتعدِّدة. حيث تخزنه في كهوف تحفرها لذلك إلى حين الحاجة إلى هذا الخزين.

***

إن الإنسان الروحي يستطيع أن يتّخذ كل شيء مجالاً للتأمُّل.

أتذكّر إنني في إحدى المرات كان لي تأمُّل في نهر النيل. من منبعه في جبال الحبشة. إلى أن يسير في مجرى طويل ويروي البقاع والضياع.

كيف نقطة الماء الهينة اللينة إن سقطت بمداومة على صخر. تحفر فيه طريقاً. وهذا درس منها لنا. وكيف أن شاطئي النهر لا يحدّان من حريته. إنما يحفظانه من الانسكاب والتحول إلى مستنقعات. وهذا درس لنا: فإن وصايا اللّه. وقوانين البلاد مع النظام العام. لا تحدّ من حريتنا. بل هى لفائدتنا حتى ننجو من التسيُّب.. كذلك فإن مياه النهر المُحملة بالطمي قد تبدو سوداء في شكلها. ولكنها مُفيدة للخصب.. وهكذا التجارب التي يسمح بها اللّه. ولها فوائد كثيرة.

التأمُّل في جسم الإنسان

يكفي أن نتأمّل قدرات كل عضو فيه. وعلم وظائف الأعضاء:

المخ مثلاً. وما فيه من مراكز عجيبة. للنظر والسمع والحركة والكلام والفهْم والذاكرة.. بحيث إذا لم يصل الدم إلى أي مركز من هذه المراكز. يبطل عمله ويصير صاحبه معوّقاً. كذلك إذا تلف أو عجز أي مركز.

وأيضاً القلب: وهو كقبضة اليد. ولكنه جهاز دقيق جداً. تتوقّف عليه حياة الإنسان. كما على المخ أيضاً.. كيف يعمل القلب. وكيف يضخ الدم إلى أجزاء الجسد الأخرى؟ وما أهمية شرايينه وعملها.

ويعوزنا الوقت إن تحدّثنا عن كل **أجهزة الجسم** البشري. وكيف تعمل مُتناسقة في اتزان عجيب. وبعض هذه الأجهزة إذا تلف لا يقدر كل التقدُّم العلمي على إرجاعه إلى وضعه الطبيعي.

وهكذا في كليات اللاهوت قديماً. كما كانوا يدرِّسون علم الفلك. كانوا يدرِسون علم الطب أيضاً. لأنه يعمِّق الإيمان بقدرة اللَّه الخالق.

إن كانت قدرات الجسد هكذا. حسبما خلقها اللَّه الكلي القدرة. فماذا تكون تأمُّلات في قدرات الروح؟!

***

التأمُّل في الأحداث

أعني ما مرّت علينا من أحداث التاريخ. وما تمرّ علينا من أحداث يومية. وكلها تدل على حكمة اللَّه وحسن تدبيره. وتدخله في الأحداث. وبتأمّل ذلك ندرك مدى عناية اللَّه بخليقته.

ولعلّ من الأحداث الكبيرة التي مرّت على العالم انتهاء الوثنية وعبادة الأصنام. وعبادة الطبيعة. وعبادة الحكام والأجداد..

وفي التاريخ الحديث كيف تم انتهاء الشيوعية في روسيا. وما كانت تحمل من إلحاد. وعودة الإيمان إليها. بكل سهولة وبدون إراقة دماء.

إن فصل التاريخ عن اللَّه هو عمل غير روحي أمّا الروحيون. فيتأمّلون يد اللَّه في التاريخ.

وقد قال الشاعر:

ومن وعى التاريخ في صدره .. أضاف أعماراً إلى عمره.

على أن الأحداث الجارية حالياً. لا بد تحوي دروساً في داخلها. لِمَنْ يتأمّلها بعُمق.. فما هي هذه الدروس؟

إن موضوع التأمُّل له فروع أخرى. لست أرى هذه الصفحة تتسع لها.

٢٠٠٤/٣/٢٣

العطاء: أنواعه ، ودرجاته

يبدأ تاريخ العطاء بالله تبارك اسمه. هو المُعطي وأول من أعطى:

أعطانا نعمة الوجود. ونعمة الحياة. ونعمة العقل والنُّطق والضمير. وأعطانا الطبيعة بكل ما فيها من خيرات مُتعدِّدة ومتنوِّعة: منها

النور والحرارة. والهواء. والماء. والنبات... وكل ما نحتاج اليه.. وهو يُعطي دون أن نطلب. ويُعطي فوق ما نطلب.. وهو يُعطي الكل: شمسه تشرق على الصالحين والطالحين. وسماؤه تمطر على الأبرار والأشرار. والله كما يُعطي الإنسان يُعطي الحيوان أيضاً.

ويُعطي حتى الحشرات. وحتى الدودة التي تدب تحت حجر أو تراب..!

وهو في كل ذلك يُعطينا أيضاً درساً في العطاء..

***

فالله كما يُعطي يُريدنا نحن أيضاً أن نُعطي:

إنه يستطيع أن يوفي بذاته كل احتياجات البشر. وكل احتياجات الخليقة. أو يفعل ذلك بواسطة ملائكته: يرسلهم للإعانة والإغاثة والعطاء.. ومع ذلك فهو يريدنا نحن أن نقوم بهذا العمل من الخير: لكي نتدرّب على العطاء. ولكي لا نقع في محبة المال وفي شهوة الجمع والتكويم.

وأيضاً لكي بالعطاء نحصل على العديد من الفضائل: منها الشفقة على المحتاجين والعطف عليهم. ومن الزهد ولو جزئياً في المال والمقتنيات. ومنها الشعور بواجبنا الاجتماعي نحو المشاركين لنا في سُكنى هذا الكون..

وفيما نُعطي. نتذكّر أن الله هو الذي أعطانا ما نُعطيه..
وهو الذي أعطانا أيضاً نعمة الإعطاء. وفضيلة محبة الغير وإعانته..

***

إن العطاء هو لون من البذل. والتخلُّص من حُبّ الذات. ومن حُبّ المادة والمقتنيات. كذلك هو تدرّب على حُب الآخرين. والاشتراك في احتياجاتهم.

العطاء إذن هو خروج من الذات للشركة مع الآخرين:

الإنسان المنطوي على ذاته. يبعد عن الغير. لا يأخذ ولا يُعطي..!

والإنسان الأناني. الجشع. يحب دائماً أن يأخذ دون أن يُعطي.

والإنسان الاجتماعي يأخذ من الناس ويُعطي.. أمّا الإنسان المُحبّ الباذل. فهو الذي دائماً يُعطي. ويفضّل غيره على نفسه..

لهذا فإنك في العطاء تشرك الغير في الذي لك.

بل تشرك اللّه في أموالك. أو في الأموال التي أعطاك إياها لتصير أموالك.

وما تعطيه للمحتاجين. كأنما تعطيه للرب نفسه. أليس الشحاذ أو المتسول حينما يطلب عطاء يقول للّه..؟! لأن الذي تعطيه إياه.

إنما ينضم إلى حسابك عند اللّه. هو كنز مخزون لك في السماء.

***

ما أجمل قول داود النبي. حينما تبرّع هو وشعبه. حينئذ قال:

"يارب منك الكل. ومن يدك أعطيناك"..

يذكّرني هذا بالأب الذي يقبل هدية من ابنه. يُعبّر بها الابن عن محبّته لأبيه. بينما ثمن الهدية هو من مال أبيه! وكأنه يقول لأبيه فيما يُقدّم له هديته "منك الكل. ومن يدك أعطيناك" كما قال داود من قبل للّه...

إن اللّه الغني. مصدر كل غنى. الذي له الأرض وكل ما فيها من خيرات. اللّه الذي يشبع كل حيّ من رضاه.. هو من تواضعه.

ومن فرط محبّته للبشر. يريد أن يعطينا فرصة نشترك بها في العناية ببيوت عبادته. وفي العناية بالفقراء الذين هم عيال اللّه. أي الذين يعولهم اللّه.

***

عجيب أن اللّه هو الذي يُعطينا ما نُعطيه. ثم يسمح أن ينسب العطاء إلينا "لأنه خرج من أيدينا". ثم يكافئنا اللّه على هذا العطاء.

بينما هذا المال الذي في أيدينا. ليس هو منا. بل منه هو... والمفروض أننا حينما نقدّمه للمحتاج. نقول له إن اللّه هو الذي أرسل له هذا المال. ولا ندّعي أنه منا نحن..!

إن اللّه قد ائتمننا على هذا المال الذي منحنا إياه. وصرنا مجرّد وكلاء إليه. نتصرّف فيه بحكمة. ونُعطي منه للمعوز والمحتاج..

وبمقدار ما نعطي. يعطينا اللّه أيضاً كوكلاء أُمناء وحكماء على مال اللّه.. ولذلك فحينما نُعطي. إنما نقول للرب بثقة وفي صدق:

أنت ياربب هو المُعطي لنا ولمن نعطيهم. وأنت الذي تعطينا محبة العطاء.

***

لذلك يا أخي. درّب نفسك على فضيلة العطاء. حتى تصبح عادة لك.

وكل يوم يمرّ عليك. دون أن تعطي فيه شيئاً. لا تحسب هذا اليوم من حياتك. واليوم الذي يكون كله أخذاً بدون عطاء. لا تحسبه مكسباً!!

كل شيء يصل إليك. درّب نفسك أن تعطي منه شيئاً. واحذر من أن تنفرد بكل مواردك لنفسك. دون أن تشرك غيرك بشيء منها. بقدر إمكانك.

ودرّب طفلك أن يعطي. ولا يكون أنانياً فيما يصل إلى يده.

فالطفل يظن أن كل شيء ملكه. ويريد أن يأخذ باستمرار. أمّا التربية السليمة. فهى أن تدرّبه من صغره على العطاء. في أي شيء. لأي أحد..

مثال ذلك أعطِه لنفسه. ثم أعطِه لكي يُعطي لأخيه أو أخته. وأعطِه أن يوزّع على الحاضرين أو الضيوف.. وثِق أنه سوف يشعر بذلك. بأن يكون الشخصية المُعطاءة التي توزع على الغير.

***

وتدريب آخر لك: أن تُعطي من الأشياء النافعة الثمينة:

فلا تبحث عن الأشياء المرفوضة منك. أو العديمة القيمة. لكي تعطيها للرب في شخصية الفقراء .. بحيث تعتبرها خسارة أن تعطيهم شيئاً ثميناً!!

إن في هذا احتقاراً للمعوزين. ولوناً من الشح والبخل. ومحبّة للمقتنيات فلا تقتصر إذن في عطائك على تقديم فضلاتك ومرفوضاتك..! وعلى إعطاء الملابس الممزّقة والقديمة. والأشياء التالفة عندك!

اسأل نفسك: هل هذا ما يليق أن تقدّمه للّه. في أشخاص عياله؟!

واعرف أن العطاء الحقيقي. هو أن يأخذ الإنسان من نفسه لكي يعطي لغيره. ومن هنا كانت فضيلة العطاء تمتزج كثيراً بإنكار الذات. فيها تكون الذات في المكانة الأخيرة. بينما الأولوية للغير.. فلا يُفكِّر المُعطي في احتياجاته الخاصة ولوازمه. إنما يفضّل غيره على نفسه.

***

أنواع من العطاء

لعلّ أول ما يخطر على البال هو إعطاء الفقراء والمعوزين:

وأُطلق عليهم في الكتاب أيضاً اسم "المساكين" وقيل في أمثال سليمان الحكيم: "من يسد أُذنيه عن صراخ المسكين. فهو يصرخ أيضاً ولا يُستجاب".

*والفقراء على أنواع: منهم الأيتام والأرامل. سواء مَنْ في بيوتهم أو في بيوت الإيواء كالملاجئ مثلاً. ومنهم الموظفون الذين لا تكفيهم مرتباتهم. وبخاصة في هذه الأيام التي ساد فيها الغلاء وارتفعت الأسعار.

* ومنهم من نسمِّيهم "**الأسرات المستورة**". وهي التي لا تبدو أمام الناس فقيرة ومحتاجة. ولكنها كذلك في الحقيقة. مساعدتها تكون في الخفاء.

* ومن المعوزين أيضاً. الذين تورطوا في ديون. ويهدِّدهم الدائنون.

* ومنهم الذين لا يجدون سكناً. وما أغلى المساكن في هذه الأيام!

***

وتضم إلى فضيلة العطاء. فضيلة إضافة الغرباء:

وقد أوصى اللّه بهؤلاء الغرباء. الذين يفدون إلى مدينة لا يعرفون فيها أحداً. أو الذين يهاجرون حديثاً. ويسمّونهم "القادمون الجُدد" New Comers ويحتاجون إلى من يبحث لهم عن سكن وعن عمل. ومن يُقدِّم لهم معونات مالية إلى أن يستقروا. وقد يكونون من أسرات محترمة. ولكنهم محتاجون.. ومن الذين اشتهروا في العصر الجاهلي بالكرم وإضافة الغرباء. الشاعر حاتم الطائي.

الذي كان يأمر غلامه بإيقاد النار في الليل. حتى يراها أي تائه في البيداء. فيأتي لاستضافته.. وفي هذا يقول حاتم الطائي:

أوقد يا غلام فإن الليل ليل قرّ .. والريح يا غلام ريح صرّ
علّ يرى نارك من يمر .. إذا جلبت ضيفاً فأنت حرّ

وفي الحقيقة يا إخوتي. حينما نهتم بإضافة الغرباء. علينا أن نتذكّر إننا جميعاً غرباء وضيوف عند اللّه. وقد أضافنا اللّه في بيته وفي أرضه. ونرجو أن يضيفنا أيضاً في ملكوته الأبدي في الدهر الآتي.

***

على أن "إضافة الغرباء" قد تشمل عدداً كبيراً من بيوت الإيواء:

* منها بيوت الطلبة الغرباء. الذين يأتون من بلادهم البعيدة لكي يدرسوا في إحدى الجامعات أو المعاهد العليا. وهم يحتاجون إلى مسكن مُريح. وعناية بهم في غربتهم حتى لا يضلوا. كما يلزم أيضاً أن يكون أجر إقامتهم معقولاً لا يرهق آباءهم. وهذا لون من العطاء المخفي.

* ونفس الكلام أيضاً عن بيوت الطالبات الجامعيات المغتربات.

* كذلك أيضاً بيوت المُسنين والمُسنات. الذين كبر أولادهم وتزوّجوا. أو اشتغلوا في بلاد بعيدة. أو هاجروا خارج القطر. وتوفي أحد الوالدين. وبقيَ الآخر يحتاج من يعوله ويهتم به. فنشأت بيوت المُسنين والمُسنات.

والمفروض أيضاً أن يكون أجر إقامتهم مناسباً. وفي ذلك لون من العطاء.

* تضم إلى هذه المجموعات مجموعة أخرى من المهجرين. الذي ألجأتهم الحالة السياسية في بلادهم أن يهاجروا. وأصبحوا غرباء في بلاد أخرى. يلتمسون كرم الضيافة في مأواهم الجديد. والعناية بهم من كل ناحية.

***

ومن ضمن إضافة الغرباء أيضاً: إضافة الموتى الغرباء:

أولئك الذين يموتون في بلاد هُم غُرباء فيها. وليست لهم مقابر خاصة يدفنون فيها.. هؤلاء يحسن أن تكون في المقابر العامة للهيئات. أماكن تخصّص كمقابر للغرباء يدفنون فيها. مع عمل ما يلزم لهم.

*على أن هناك ملاحظة هامة في ظروف الإرهاب. وفي وجود شخص غريب. ربما يكون موضع شُبهة. ولا تعرف له هوية ولا شخصية مضمونة. وتخشى إضافته في أحد البيوت خوفاً من أن يكون سبباً في تخريبه.. مثل هذا. من جهة تنفيذ وصية إضافة الغرباء. يمكن منحه شيئاً من المال. وهو يبحث لنفسه عن مكان إقامة.

توجد طائفة أخرى من المحتاجين إلى العطاء. ونقصد المعوقين:

والمعوقون على أنواع: منهم المعوقون عضوياً في عضو من أعضاء الجسد. ومنهم المكفوفون بصرياً "العميان". ومنهم الصُّم والبُكم. وهناك أيضاً المعوقون عقلياً. وهم على درجات في إعاقتهم... وكل طائفة من هؤلاء جميعاً تحتاج إلى لون خاص من العطاء يناسب حالتها. وهناك مُتخصِّصون يقومون بتقديم العطاء المادي والمعنوي لكل من هؤلاء حتى يمكنهم أن يكمّلوا مسيرة الحياة في وضع أفضل. أو في أفضل وضع يصلون إليه. على قدر الامكان.

والمجال لا يتّسع الآن للحديث عن العطاء اللازم لكل نوع من أنواع المعوّقين. يكفي أن نقول الآن إنه عمل إنساني له عُمقه..

***

طائفة أخرى تشملها فضيلة العطاء هى جماعة المسجونين:

هؤلاء قد أخذوا عقوبتهم من المجتمع. ولكن تبقى رعاية المجتمع لهم. حتى إذا أكملوا فترة عقوبتهم وخرجوا من السجن. لا يخرجون منه بنفوس ساخطة زادها الحبس تعقيداً. وأصبحوا مرفوضين في كل مكان...

أليس مكتوباً "السجن تهذيب وتأديب وإصلاح"؟ فما هو نوع الإصلاح الذي يقدّم لهؤلاء المسجونين؟ لست أتكلم عن العمل الذي تقوم به الإدارة العامة للسجون. إنما عمّا تقوم به الهيئات اجتماعياً ودينياً. سواء من جهة الزيارات. ورفع الروح المعنوية مع العناية الروحية والقيادة إلى التوبة. وكذلك تقديم الاحتياجات المادية التي تنقص السجين.. وبالإضافة إلى هذا. العناية بأسرات المسجونين. وبخاصة الأسرة التي كان هذا السجين هو العائل الوحيد لها. فتحتاج إلى انقاذها من الضياع أو من التشرّد. وكذلك من رفض المجتمع لها...!

***

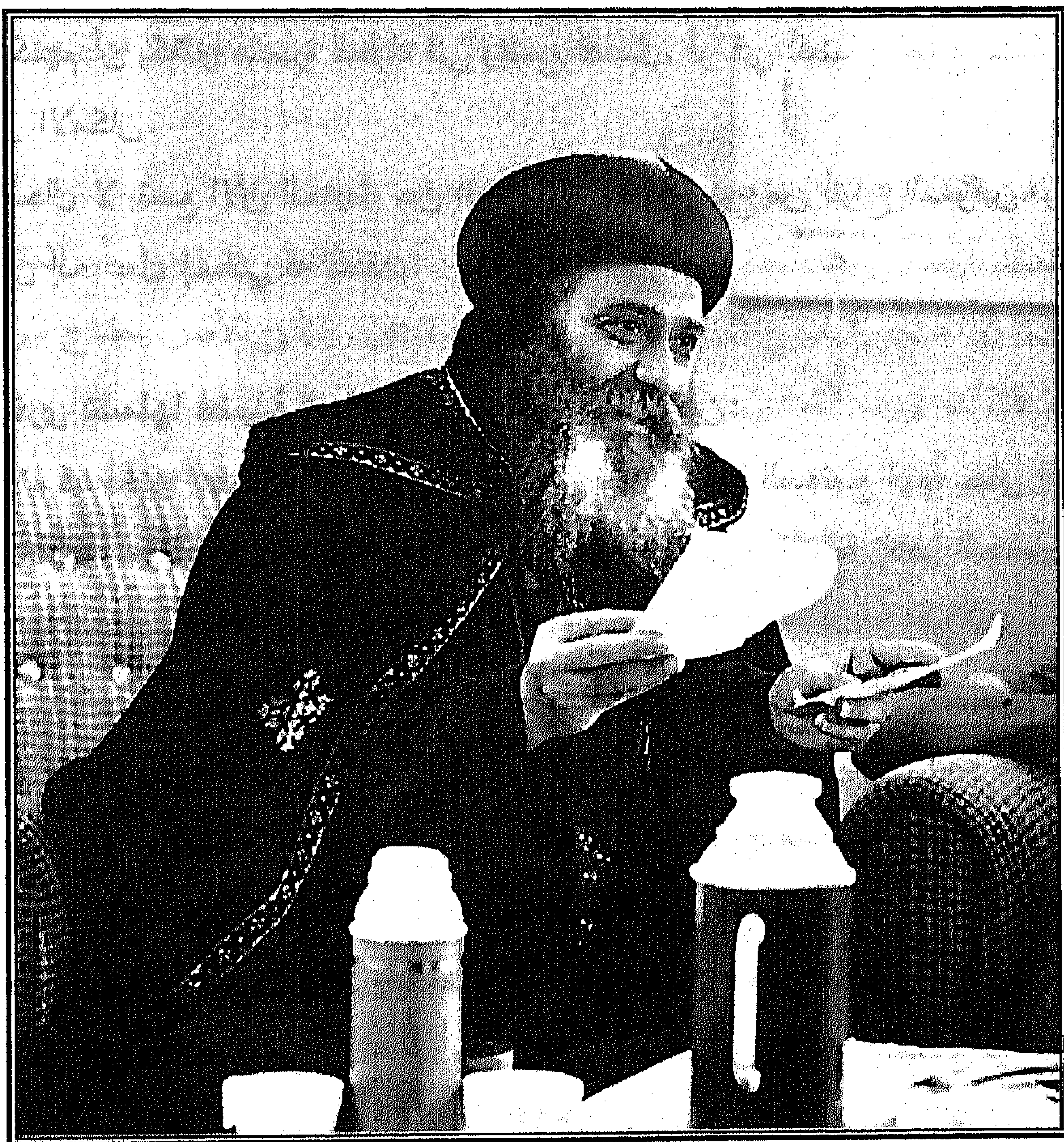
جماعة أخرى تحتاج إلى ألوان من العطاء. ونعني بها ضحايا البطالة:

أولئك الذين لم يدبّر لهم المجتمع وسيلة للعيش وعملاً يقتاتون به وينشغلون به. ويحميهم من الانحراف. لا شكّ أن الدولة عليها واجب أساسي في هذا المجال. وأيضاً الهيئات والأفراد عليهم مساهمة في علاج هذه المشكلة. منها تدبير التدريب المهني. وفسح المجال الواسع أمام الصناعات الصغيرة. والاستفادة من خبرة الصين التي هي أشد أمكنة العالم في الازدحام السكاني...

***

أخيراً ألست ترى معي أن موضوع العطاء يحتاج إلى تكملة..؟

إلى اللقاء إذن في العدد المقبل. إن أحبّت نعمة الرب وعشنا.



٢٠٠٤/٣/٣٠

كيف يكون العطاء

الأمر الأول هو أن تعطي دون أن يُطلَب ذلك منك

فلا تنتظر حتى يسعى الناس إليك. عارضين احتياجهم ومُقدِّمين طلباتهم. إنما ينبغي أن تكون لك الحساسية والشفافية. التي تدرك بها احتياجات الناس. فتقدّمهم لهم من ذاتك. دون أن يطلبوا.

فهكذا يفعل الأب في الأسرة من جهة أولاده: يدرك من تلقاء نفسه ما يحتاجون إليه من ملابس ومن طعام ومن مصروفات. فيقدّمها لهم من غير أن يطلبوا. وهكذا يفعل معنا اللّه - تبارك اسمه - في إعطائنا احتياجاتنا. وبنفس الوضع يمنح الناس المواهب المُتعدِّدة دون أن يطلبوها.

إن كان الأمر هكذا. فكم يكون الحال إن كان المحتاج يستغيث ويطلب؟! يقول سليمان الحكيم: لا تمنع الخير عن أهله. حين يكون في طاقة يدك أن تفعله.

***

والإنسان الروحي يُعطي وهو مسرور. لأن "المُعطي السرور يُحبّه الرب"

ويُعطي في حُب: بمحبة للعطاء. ومحبة لِمَنْ يُعطيه. ولأنه هو نفسه يشعر بسعادة حينما يُعطي. كالأم التي تعطي ابنها حناناً وهى ترضعه. وتشعر هى بفرح وهى تحتضنه وترضعه. أكثر ممّا يشعر هو بذلك.

قال أحد الأدباء الروحيين: "سقيت شجيرة كوب ماء. فلم تقدّم لي عبارة شكر واحدة. ولكنها انتعشتْ. فانتعشتُ".

إن الذي يحب الناس يشعر بسعادة حينما يسعدهم. وحينما يفرحون بعطائه. يكون هو في حالة من الفرح أكبر منهم. مثال ذلك الأب الذي يُعطي من وقته ومن ماله ومن جهده في تربية أولاده وتنشئتهم. فإن نجحوا في الحياة. يفرح بنجاحهم أكثر من فرحهم هم. ويفرح بثمرة عطائه.

***

كذلك أنت. افرح حينما تعطي. ولا تتذمر إذا كثر من يطالبونك بإعطائهم

أو إذا شخص واحد كثرت طلباته مرات عديدة.. فلا يليق مُطلَقاً بمَنْ يُعطي. أن يضجر ويتضايق كمن هو مرغم على الإعطاء. مثال الذي يُعطي لبعض الهيئات التي تلح وتضغط في جمع تبرُّعات! فيشعر من يعطيهم أنهم يرهقونه بطلب التبرُّع. فيعطيهم وهو ساخط. ولا يحسب له اللّه أجراً على العطاء بالسخط!

مثل هذا الشخص يعطي من جيبه. وليس من قلبه!

أمّا الإنسان الروحي: فإن أعطى إنساناً. يشعر بالفرح. إذ قد أُتيحت له فرصة أن يفك ضيقة أحد الأشخاص. ويفرح قلبه. ويكسب دعاءه.. وفرح المُعطي يدل على أنه قد دفع لغيره براحة ضمير ويرضا قلب.

ومن دلائل الفرح والرضى بالعطاء. أن الإنسان لا يتردّد فيه ولا يؤجّله. قال سليمان الحكيم في ذلك: "لا تقل لصاحبك اذهب وتعال غداً فأعطيك. وموجود عندك...".

***

ومن الصفات الجميلة في العطاء: الكرم والسخاء:

لا تعطِ وأنت تحاسب اللّه والناس على ما تعطيه!! إن اللّه يعطينا مثالاً طيباً في عطائه. فهو يفتح لنا كوى السماء ويغدق علينا. حتى نقول: كفانا كفانا.. يُنزل لنا المطر من فوق. ويمنحنا البترول والغاز من باطن الأرض. كما يخزن لنا في الجبال أحجاراً كريمة ننقب عليها ونأخذها.

فإن طلب منك أحد شيئاً. لا تدقّق كثيراً في مقدار ما تعطيه. بل يكون من الأفضل ومن الأعمق تأثيراً. أن تعطيه أكثر ممّا يطلب.

وكما يُعطي الإنسان بسخاء في الماديات. يُعطي أيضاً بسخاء في المعنويات. وفي المشاعر والعواطف والأمور الروحية.

كإنسان يُعطي حُبّاً للآخرين أو عطفاً عليهم. تراه يُعطي حُبّاً بلا حدود.

وعطفاً بلا قيود. ويقدّم مشاعره في سخاء بقلب كبير مفتوح للكل.. وإن كان في عطائه خدوماً للناس. إنما يخدمهم بكل قوة وتفان. بروح الخدمة المملوءة حُباً وعطاءً وسخاءً..

***

ومن سموّ العطاء أيضاً: العطاء في الخفاء

ذلك لأن العطاء العلني. قد ينال عنه الإنسان مديحاً من الناس. ويكون بذلك قد أخذ أجره على الأرض.. أمّا الذي يُعطي في الخفاء. فإنه ينال أجره في السماء. من عند اللّه الذي يرى الخفيات..

ويخشى أن يكون عطاؤك أمام الناس هدفه الفخر. وليس محبّتك لِمَنْ تعطيهم. وهنا محبّة الذات تشوّه جمال العطاء. ومعروف أن العطاء يفقد قيمته إذا خلا من محبة اللّه ومحبّة المحتاجين.

المفروض أن العطاء يكون نابعاً من القلب. من محبة من تعطيهم. ثم تتحوّل هذه المحبّة إلى عطاء. سواء رآه الناس إن لم يَروا. أمّا العطاء الخالي من الحُب. فهو غير مقبول من اللّه. وهو أيضاً غير مقبول قلبياً من الناس.. لذلك فالعطاء في الخفاء. يدل على محبّة العطاء ومحبة الناس.

***

والعطاء في الخفاء. لا يقصد به فقط الخفاء على الناس. إنما بقدر الإمكان يكون في خفاء عن نفسك أيضاً. إن استطعت..

فلا تعطِ. وتظل تحصي كم أعطيت .. ولا تجلس إلى نفسك وتتذكّر كم أعطيت. ولا تذكر ذلك في حديثك مع الناس ولا مع الذين أعطيتهم. والنبل الحقيقي هو أن تنسى ما قد أعطيته، حتى لا يحاربك به الشيطان الخيلاء والفخر، وحتى لا تستوفي بذلك خيراتك على الأرض، وذلك عن طريق تمجيد ذاتك لك.

يُحكى أن امرأه غنيّة جداً "في القرن الرابع" كانت تحب الإحسان إلى المحتاجين.. أنها في إحدى المرّات وضعت في كيس خمسمائة قطعة من الذهب. وسلّمَته إلى أحد الآباء القديسين ليوزّعها على الفقراء. فما كان من ذلك الأب. إلاّ أنه سلّم الكيس لتلميذه كما هو وأمره أن يوزّعه على المحتاجين..

وهنا قالت له تلك المُحسنة الغنية "ولكنك لم تفتحه يا أبي لكي تعرف كم فيه!".. فردّ عليها ذلك القديس قائلاً: "إن كنتِ يا ابنتي قد قدّمت هذا المال للّه. فاللّه يعرف مقداره كم هو". وكان ذلك درساً لها.

***

ومن العطاء الروحي المقبول أن تعطي القلب للّه

وذلك عملاً بالوصية التي تقول: "يا ابني أعطني قلبك" والوصية التي تقول: "تحب الرب إلهك من كل قلبك"...

وإن أعطى الإنسان قلبه للّه. يكون قد أعطى كل شيء..

وعندما تعطي اللّه قلبك. إنما تعطيه كل حُبّك. وكل اشتياقاتك. وكل مشاعرك. فتحنّ إليه وإلى الوجود معه. وبهذا العطاء تعرف معنى الصلاة ومذاقها واختبارها. وإن أعطيت اللّه قلبك. ستنفّذ وصاياه. لا عن اضطرار. إنما عن حُب. لأن من يُحب اللّه. يحفظ وصاياه.

كذلك إن أعطيت قلبك وحُبّك للناس. ستعمل كل ما تستطيع من أجلهم. وتكون مُستعداً أن تعطيهم كل شيء...

***

ومن سموّ العطاء. أن تعطي من أفضل ما عندك.

وقد تزداد محبّة العطاء عندك. فتعطي من أعوازك.

في إعطائك أفضل ما عندك احترام لمن تعطيه. ومحبة له. لأنه لا يليق أبداً احتقار المحتاجين. فهو بشر مثلنا غير أن الظروف التي مرّت بهم أحوجتهم. كما أن إعطاءهم أفضل ما عندنا دليل أيضاً على زهدنا فيه.

كذلك هو لون من النبل أن تعطي من أعوازك. أي أن تُعطي شيئاً وأنت في مسيس الحاجة إليه. هنا تظهر أنك في محبتك لغيرك. تفضّله على نفسك. وثِق في كل ذلك أن ما تُعطيه للغير هو مخزون لك في السماء. أنت لم تفقده. لكنه مكنوز لك...

***

عندما درّب اللّه الناس على العطاء في العهد القديم. أعطاهم وصيته العشور ووصيته البكور..

فكان كل شخص يقدّم عشر كل ما يصل إليه من إيراد. فلا يأخذ الكل لنفسه.. وليس المقصود بالعشور أن تكون كل ما يعطيه. إنما تكون هى الحد الأدبي للعطاء. فلا يقل عطاؤه عن العشور. إنما قد يزيد..

والمفروض أن تكون العشور من كل الإيراد. وليس ممّا تبقي منه بعد خصم مصروفات أساسية. فربما لا يتبقى شيء أو قد يتبقى الضئيل. فإن دفع عشوره. يكون قد دفع القشور وليس العشور!!

والذي يدفع العشور. لا يجوز أن يستريح ضميره من هذا الحد. ويظن أن واجبه في العطاء قد استوفى حقه! ثم يغلق قلبه أمام طلبات المحتاجين.

كلاّ. فلا يصح التعامل في العطاء بعلم الحساب. بل بمشاعر القلب. وكلّما تعرض أمامنا بمناسبة لعمل الرحمة. علينا أن نعطي مهما كنا قد أعطينا قبلاً.. إن إعطاءنا للمحتاجين. ليس هو مجرد إحسان. إنما هو حق لهم علينا.

***

أمّا وصية البكور. فهي تختلف في القديم عن ظروفنا الحاضرة

في أيام موسى النبي. كان الناس يقدّمون أبكار غنمهم وبهائمهم. أي أول ما تلده أغنامهم. وكذلك بكور ثمار الحقل أي أول ما تطرحه الشجرة أمّا الآن فلا يعيش كل الناس في مجتمع زراعي. فماذا تكون البكور إذن؟

يمكن أن يقدّم الموظف للّه أول مرتب يتقاضاه. وأول علاوة.. ويمكن أن يقدِّم الطبيب ما يصل إليه من أول كشف أو أول عملية جراحية.. وهكذا المحامي يقدِّم أول ما يكسبه من مرافعته في قضية. وبالمثل مع باقي أصحاب الحرف.

يضاف إلى العشور والبكور: النذور.

***

على أن السيد المسيح فتح باب العطاء على مصراعيه وقال:

"مَنْ سألك فأعطِه. ومن طلب منك فلا ترده".

وقال لشاب غني "كان مُحبّاً للمال": "إن أردت أن تكون كاملاً. اذهب وبع كل مالك. واعطه للفقراء. وتعال اتبعني".

وخلاصة الوصية. أنك لا تحب مالك أكثر ممّا تحب الفقراء.

وطبعاً أن يُعطي الإنسان أفضل ما عنده. أو يُعطي من أعوازه. كل ذلك أقل من أن يعطي كل ما يملك.. على الأقل يكون الإنسان في قلبه مُستعداً أن يُعطي كل ما يملك من

أجل غيره أو من أجل الصالح العام. هنا التضحية في عُمقها. والعطاء في قممه أو في كماله.. إن كل ما يملكه الإنسان لا بد سيتركه على الرغم منه ساعة موته. أمّا ما يتركه للغير في حياته. وبكامل إرادته. هذا سينال أجره في الأرض وفي السماء ولنثق أنه بحسب كرمنا. سوف يُعاملنا اللّه. فكما نعطي. وكما نكون مُستعدين أن نُعطي. سوف يعطينا اللّه أضعافاً. بكرمه الإلهي.

***

ومن سمات العطاء: إن يكون باتضاع. بغير افتخار..

إن الإنسان المتضع مهما أعطى يعتبر أن ما أعطاه هو لا شيء إذا ما قيس بالدرجات العليا في العطاء. ويعرف تماماً أنه لم يعط من عنده شيئاً. فهو قد أخذ من اللّه ما يُعطيه لخليقة اللّه. فاللّه هو الوحيد المُعطي. وما الإنسان في عطائه إلاّ مجرد موصّل لأموال اللّه التي ائتمنه عليها.

كذلك فالإنسان المتضع في كل ما يعطيه يشعر أنه لا يُعطي بل أنه يأخذ بركة من اللّه. ودعاء من الناس.. ويشكر اللّه الذي أعطاه ما يعطيه..

حقاً. إن البركة التي تأتي من العطاء. هى أكثر ممّا نعطيه.

***

شيء هام يحارب العطاء. وهو موضوع: المُستحق وغير المُستحق

كثيرون يحقّقون بدقّة شديدة مع من يطلب منهم عطاءً لكي يتأكّدوا من أنه مُستحق. وهكذا يكون الواحد منهم في موقف القاضي وليس العابد.

والواقع أنه في الظروف الاقتصادية الصعبة. يكون كل الناس محتاجين. فالذي تشك في احتياجه. اعطِه ولو شيئاً قليلاً. ولا ترجعه فارغاً. ولا تذلّه بتحقيقاتك وتريق ماء وجهه. ولا تجرح مشاعره بطرده أو برفضه.

على أن الإنسان المُتضع. يقول في نفسه: أنا أيضاً أمام اللّه غير مُستحق. ومع ذلك فإن اللّه يُعطيني.. إن اللّه ما زال يُعطي هذا العالم الذي انحلت فيه الأخلاق. وكثر فيه الإلحاد والتجديف واللامبالاة!! وكلّهم غير مُستحقين.

***

أخيراً نقول إن أعلى درجة في العطاء. أن يُعطي الإنسان ذاته..

لأنه ليس حُب أعظم من هذا: أن يُعطي أحد نفسه عن أحبائه. هنا تكون التضحية بالذات. وفداء الإنسان لغيره كالجندي الذي يفدي وطنه بحياته.

ومثال ذلك أيضاً الشمعة التي تذوب. لكي تقدِّم نوراً لغيرها. وكذلك حبّة البخور التي تحترق وتقدِّم ذاتها حتى تتحوّل إلى رماد لكي تعطي رائحة زكية للآخرين. والوردة التي تعطي من عطرها لِمَنْ يقطفها، وحتى لِمَنْ يفركها بين يديه، فإن كنت أن تقدِّم روحك لأجل غيرك. فعلى الأقل قدّم قلبك ومشاعرك.



٦/٤/٢٠٠٤

القلق: أسبابه، وعلاجه

أسبابه

للقلق أسباب كثيرة تختلف من شخص إلى آخر، حسب نوع نفسيته، ونوع الظروف التي يمرّ بها.. ومنها:

١. **القلق بسبب مشكلة لم يظهر لها حل:**

وهنا يكون السبب في القلق هو وجود المشكلة ذاتها، أو بسبب استمرارها وتطورها، وما يمكن أن يحدث من ردود فعلها. وكذلك القلق من جهة وسائل حلّها، ومدى نجاح تلك الوسائل أو احتمال فشلها وهل سوف تستمر تلك المشكلة أم تنتهي؟ ومتى يكون ذلك؟ وكيف؟ .. ويستمر القلق!

***

٢. **وقد يكون سبب القلق هو مُعاشرة القلقين..**

فالقلق يسري من شخص إلى آخر، تماماً مثلما يسري الخوف أيضاً من شخص إلى آخر فالأسباب التي تقلق شخصاً.. ما أسهل أن تقلق غيره. ومشاعر الإنسان الذي يعتريه القلق، هى نفسها قد تنتقل إلى إنسان آخر، أو إلى مجموعة أخرى.

ويعكس ذلك السلام القلبي الذي يعمّر قلب إنسان، ويظهر في تصرُّفاته أو كلماته، يمكن أن ينتقل إلى قلوب الآخرين ويهدئها.

لذلك من الصالح للإنسان المُحارَب بالقلق أن يتخيّر نوعية من يُعاشرهم، فيبعد عن الخائفين الذين يسودهم القلق وينقلونهم إليه. ويختلط بالقلوب الكبيرة المُطمئنة التي تزيل منه كل قلق.

***

٣. **والقلق قد يأتي من طول المدة، وعدم جدوى الانتظار:**

مثل فتاة طالت عليها مدة الانتظار، ولم يأتي أحد ليخطبها بعد. وقد تظن أنها سوف لا تُخطب أبداً!! وقد تدخل إليها أفكار بأنها قد تعرّضت إلى لون من (العمل) أو السحر. وربما تلجأ إلى طرق غريبة للنجاة ممّا هى فيه من ضجر وضيق.

حقاً، إن طول المدة بدون حلّ، قد يتسبّب في القلق عند كثيرين وطول المدة قد يؤدِّي إلى توقع الفشل. وتوقع الفشل يؤدِّي إلى مزيد من التوتر. وكل ذلك يقود إلى القلق.

توقع الفشل يؤدِّي إلى الاضطراب، فيقلق الإنسان، ويؤثِّر على أعصابه، فيثور أو يتذمّر. أو قد يصل إلى انهيار عصبي، وفي كل ذلك لا يحكمه العقل، بل الانفعال والقلق.

لذلك هناك مشاكل تحتاج إلى حل سريع، فيهدأ الإنسان قبل أن يقوده القلق - إذا استمر - إلى مزيد من التوتر والتعب.

***

٤. **وقد يكون القلق بسبب التشاؤم:**

كإنسان مثلاً يتشاءم من الرقم ١٣ ومضاعفاته. فاليوم الذي يحمل هذا الرقم يجلب له قلقاً: ترى أي شر سوف يحدث فيه؟! ويظل يقلق.. كما أن التشاؤم بصفة عامة يجعل الإنسان يفكِّر فيما هو أسوأ والتفكير في تطوّر الأمور إلى أسوأ يجلب إلى النفس القلق.. وربما يظن المتشائم أنه لا حلّ، ولو استمرّت الأمور هكذا، فلا بد أنه سينهار. وقد يتخيّل أن اللّه قد تخلى عنه، وأنه سوف لا تأتيه معونة من السماء ولا من الناس، فيقلق.

***

٥. **وقد يأتي القلق بسبب الخوف:**

الخوف يسبب القلق. والقلق يسبب الخوف. وهكذا فإنهما يتبادلان المواقع سبباً ونتيجة. الخائف دائماً يقلق، وأفكاره تتعبه: يا ترى ماذا سيحدث؟ وماذا ستكون النتيجة؟ حتى إن كان داخلاً إلى مقابلة هامة: يظل بالخوف يفكِّر في قلق: ماذا سيقول؟ وماذا سيقال له؟ وهل سوف يُقابل بروح طيبة وبشخص مُتفاهم؟ أم بشخص مُعقّد ومُتعب؟ وهل سيخرج من المُقابلة فرحاً أم حزيناً. ويستمرّ معه القلق إلى نهاية المقابلة.

ومن هذا النوع فتاة أتاها من يخطبها:

هل ستعجبه وتتم الخطبة، أم يخرج ولا يعود؟ وماذا سيكون موقف والديها: هل يقبلانه أم لا يقبلان؟ وماذا عن ظروفه المالية والعائلية، وموقف أسرته منه؟.. وتظل الأفكار تتعبها وتقلقها. وتتحير بأية صورة ستقابله؟ وبأي نوع من الزينة ومن الملابس؟ وبأي أسلوب ستتكلم؟ هل تكون مَرحة أمْ تجلس صامتة؟ وأي الأمريْن يرضيه؟..

إنه قلق يتعب الفكر ويتعب النفس. وهل إذا رفضته ستندم على رفضه؟ وهل إذا قبلته سوف تستريح معه طول الحياة؟

***

٦. **قلق آخر يأتي إلى المتزوجين بسبب الإنجاب:**

وبخاصة إذا مضت مدة - يظنانها طويلة - ولم ينجب الزوجان.. ويزداد القلق كلّما طالت المدة.

وحينئذ يتبعهما القلق: هل هو لون من العقم عندهما أو عند أحدهما؟ أم سوف ينجبان ولو بعد حين؟ ومتى؟ وتكثر صلواتهما وطلبهما لصلوات الآخرين.

فإذا استمرّ عدم الإنجاب يزداد القلق جداً. ويبدأ التفكير في وسائل بشرية، ومنها التفكير في (طفل الأنابيب) ويدخلهم قلق آخر: هل هذا الأمر يرضي اللّه أم لا؟ وهل إذا اختبرا فكرة طفل الأنابيب ستنجح معهما وتأتي بنتيجة أم لا؟ وهل سيكون ابناً طبيعياً ومُباركاً من اللّه أمْ لا؟

***

٧. **ومن أسباب القلق أيضاً ما يُعانيه الطلبة في فترة الامتحانات:**

هل المدة الباقية على بدء الامتحان كافية للمذاكرة والمراجعة أمْ لا؟ وهل يركّزون فقط على الموضوعات الهامة على الكل؟ وهل ستكون الأسئلة سهلة أمْ صعبة؟ وهل سوف تسعفهم الذاكرة أم سينسون ما ذاكروه؟ وهل سينجحون في الامتحان أمْ يرسبون؟ وإن كانوا في الثانوية العامة هل سيحصلون على مجموع يؤهّلهم إلى الالتحاق بالكلية التي يريدونها؟.. وربما كل هذه الأفكار من القلق تعطلهم عن الاستمرار في المذكرة.

إنها أسئلة كثيرة مصحوبة أحياناً بالخوف والاضطراب وتوتر الأعصاب. وأحياناً تكون مصحوبة بأحلام اليقظة..!

لذلك يحتاج التلميذ في هذه الفترة إلى جو هادئ، كما يحتاج إلى صدر حنون يهدئ أعصابه ويبعث فيه الاطمئنان.

***

٨. **وقد يأتي القلق بسبب التفكير في المستقبل:**

ماذا سيكون المستقبل: أيكون سعيداً أمْ مُتعباً؟ ويا ترى ماذا سيأتي به الغد؟ وماذا سينتظرنا من أحداث ومن متاعب؟ وهل ستمر الأيام هادئة أمْ مُقلقة؟ وماذا عن مصروفات البيت وتربية الأولاد؟ وماذا عن موجة الغلاء، وعن البطالة المنتشرة؟

سعيد هو الإنسان الذي يقلق من جهة الغد، وإنما يُلقي همومه على اللّه، ويؤمن أن مستقبله في يد اللّه الذي يريد له الخير، وهو الذي سيدبِّر كل أموره حسب مشيئته الصالحة. وبهذا يطمئن ولا يقلق. عليه هو أن يؤدِّي واجبه كما ينبغي ويكون حكيماً. ويترك الباقي للمعتني بالكل.

***

٩. **وقد يكون القلق بسبب المرض:**

الخوف من المرض قبل أن يأتي، والخوف أكثر من ذلك إن أتى. ويبدو القلق من جهته: هل هو مرض عادي بسيط أمْ هو مرض خطير؟ وهل الطمأنة التي تأتي من الأطباء أو من الأقارب والأصدقاء هى طمأنة صادقة أمْ مجرّد تهدئة للنفس تشبه الحبوب المُسكنة؟! وهل إذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية هل ستنجح أمْ لا تنجح؟

ويزداد القلق بسبب المرض أحياناً، إذا كان المريض طبيباً، ويعرف نوعية المرض ومدى تطوّره إن أصبح الأمر خطيراً. وكلّما يلمح عوارض مُعيّنة، يزداد قلقه مُتخيلاً أسوأ النتائج التي درسها.

***

١٠. **ويأتي القلق أيضاً بسبب توقّع الموت:**

الذي يتوقّع، يخاف ويقلق - إن لم يكن مؤمناً ومُستعدّاً - وبخاصة لو بدأ الموت قريباً، وقد يحدث ذلك بالنسبة إلى مريض بمرض غير قابل للشفاء، وإنما المسألة هى مجرد وقت قد يقصر أو يطول. فيقلق مثل هذا المريض متى سيدركه الموت؟ وكيف سيكون؟

أو إنسان ارتكب جريمة يحكم القانون عليه بالإعدام: هل سيتم الحكم عليه أم سينجو منه. ويتعبه القلق متوقعاً الموت. وإن صدر الحكم عليه فعلاً بالإعدام: يظل قلقاً في رُعب. متى سيأخذونه ليُعدم؟ وكيف يكون الموت؟ وماذا سيكون بعد الموت؟ إنه قلق مُستمر، كل

دقيقة فيه كدهر! وربما يكون القلق في توقع الموت أو في انتظار الموت، هو أصعب من الموت نفسه.

***

١١. وقد يضطرب الإنسان ويقلق، بسبب أخطار وهمية أو حقيقية:

يفكّر فيها الشخص أو يتخيّلها، فيقلق بسببها ويضطرب.

مثال ذلك إنسان لم يتعوّد السفر بالطائرة. فإن سافر بها، تراه يقلق متوقّعاً أن يحدث حادث للطائرة. ويتذكّر كل ما قد سبق نشره في الجرائد عن حوادث الطائرات. وإن ركب الطائرة، وحدث ولو مطب خفيف في الهواء، يظن أن النهاية قد قربت! ويظل طول فترة السفر قلقاً! ويحسب كم بقى من الوقت لتهبط الطائرة ونفس القلق أيضاً قد يتملّك من يسافر في البحر، حينما تزداد الأمواج وتشتد الرياح، وتضطرب السفينة، فيضطرب الركاب معها، وبخاصة من لا يتقن السباحة.. إنها أخطار تسبّب القلق.

***

١٢. وقد يكون القلق بسبب ما يحدث للأقارب والأصدقاء:

مثل قلق الأم على ابنها إن تأخّر عن موعده في الوصول إلى البيت.. أو قلق الأب على ابنته، لئلاّ يخطفها بعض الأشرار، أو يُصيبها ضرر منهم. أو القلق على بعض الأحباء في سفرهم أو في غربتهم. أو القلق على صديق في حالة مرض.. كل ذلك ليس قلقاً على النفس، بل على الغير.

***

١٣. وقد يكون سبب القلق هو الشكّ:

مثل شكّ الزوج في مدى أمانة زوجته له، واحتمال علاقتها بآخر فيتعبه القلق من جهة هذه العلاقة، وقد تكون بريئة، ولكنه الشكّ القاتل، الذي يشكّ في كل ابتسامة، وكل كلمة، وكل عبارة إعجاب. أو قد يشكّ الشخص في إخلاص صديق له، أو إخلاص خادم له. ويظن أن أسراره الخاصة تخرج إلى الخارج، وأن هناك خيانة.. أو قد يشكّ في شريكه في العمل، وأنه يعمل لحسابه الخاص ممّا يؤدّي بشركته إلى الإفلاس أو تدهور وضعها المالي.

١٤. وقد يأتي القلق بسبب ما تنشره الجرائد من أخبار:

وبخاصة في أيام الحرب والقلاقل أو الاضطرابات الداخلية أو ما تنشره وسائل الإعلام من أخبار الزلازل والفيضانات، والحرائق، ومن أخبار السطو على البنوك، وما تفعله المافيات وعصابات المجرمين.. وقد يجلب القلق أيضاً ما ينشر عن البطالة وسوء الحالة الاقتصادية واضطراب البورصة وأسعار العملة.. وما يجرّه كل ذلك من مشاكل عائلية، أو تأخّر سن الزواج، أو اللجوء إلى الإدمان، وما يسمّى بالزواج العُرفي وتعرّض الشباب إلى الفساد. فيقلق الآباء على أبنائهم.

***

١٥. وقد يأتي القلق من أسباب أخرى كثيرة:

- مثل قلق إنسان أرتكب جرماً ويخشى من اكتشاف هذا الجرم، وما يتبع ذلك من فضيحة أو عقوبة. ويظل قلقاً هل سيُكتشف؟
- أو قلق من شخص بسبب أعداء ربما يتسبّبون له في ضرر.
- أو قلق من يشعر أنه يعيش في بيئة تدعو إلى الخوف، سواء من جيران، أن زملاء في العمل، أو رئاسة قاسية، أو بيئة مُخدِّرات، أو منطقة يقطنها لصوص، أو شباب منحرف.

***

١٦. وقد يأتي القلق من طبيعة النفس ذاتها، وبدون سبب خارجي:

كالنفس التي تتصوّر خطراً حيث لا يوجد خطر، أو تتخوّف من ضرر حيث لا يوجد ضرر. أفكارها هى التي تتعبها حتى إن أحبّت أحداً، تظل تقلق عليه، خوفاً من أن يصيبه شرّ ما، من حيث لا تدري.

٢٠٠٤/٤/١١

مـاذا لـو لـم تكـن قيامـة ؟!

أهنئكم يا إخوتي وأحبائي بعيد القيامة المجيد، راجياً لكم فيه كل خير. ومُصلّياً من أجل بلادنا العزيزة. ومن أجل الرئيس المحبوب محمد حسني مبارك، أن يجعل اللّه رحلته إلى أمريكا موفّقة وناجحة، من أجل قضية السلام التي يتبنّاها ويدافع عنها بكل أمانة وصدق وبكل حكمة وشجاعة. وليعد إلينا سعيداً بكل ما يتمكّن من إنجازه.. وأرجو لكم جميعاً بركة في مناسبة عيد القيامة التي ستكون اليوم موضع تأمُّلاتنا بما توحيه من أفكار.

***

لكي ندرك أهمية القيامة ولزومها. علينا أن نتخيّل هذا السؤال ماذا كان سيحدث لو لم تكن هناك قيامة؟ ونرى نتائجه الخطيرة...!

١- لو لم تكن قيامة. لكان مصير الإنسان إلى الفناء

ولأصبح الإنسان كالحيوان الذي يموت وينتهي تماماً ولا يعود إلى الوجود. وحينئذ نسأل: ما هى إذن الميزة التي يتميّز بها هذا الكائن البشري العاقل الناطق. الذي وهبه اللّه العلم وموهبة التفكير والاختراع. والقدرة على صنع مركبات الفضاء التي توصله إلى القمر وإلى المريخ. وتدور به حول الأرض. وترجعه إليها سالماً. وحاصلاً على صور ومعلومات.. هذا الإنسان الذي قام بمخترعات أخرى مُذهلة كالكمبيوتر والفاكس والـ Mobile Phone وغيرها.

هل يعقل أن هذا الإنسان العجيب الذي سلّطه اللّه على نواحي عديدة من الطبيعة. يؤول جسده إلى مصير كمصير بهيمة أو حشرة أو بعض الهوام؟! إن العقل لا يُصدّق هذا..!

وإلاّ لماذا خلقه اللّه بهذا الوعي. ومنحه كل هذه المواهب؟! وهو الوحيد الذي ائتمنه اللّه على الوحي. وأرسل له الأنبياء. وصنع معه المعجزات.. إن كان مصيره ينتهي إلى الفناء. وحفنة من تراب!! وهذا لا يتفق أيضاً مع وعود اللّه له بالحياة الأبدية. وبالسماء..!

***

ولو لم تكن قيامة. لكان جسد الإنسان لا يتميّز عن جميع المخلوقات الأخرى ذوات الأجساد، بينما هو يستطيع بما وهبه اللّه أن يسيطر عليها جميعاً. وأن يقوم لبعضها بواجب الرعاية والاهتمام إن أراد. وأن يقوم على البعض الآخر بحق السيطرةِ والاستخدام.

فإن لم تكن هناك قيامة. وأصبح مصير جسده كمصير باقي تلك الكائنات غير العاقلة. إذن لزالت كرامة هذا البشري السيد الذي سلّطه اللّه على غيره من الكائنات الجسدية..!

***

لو لم تكن قيامة. لضاعت المسؤولية الضميرية وخشية الحساب الأخير.

فمن المعروف أن الإنسان حينما يقوم من الموت. يقف أمام منبر اللّه العادل ليُعطي حساباً عن كل ما فعله بالجسد خيراً كان أمْ شرّاً. يُعطي حساباً ليس فقط عن أعماله. إنما أيضاً عن نيّاته وأفكاره ومشاعره الداخلية.

وما دام سيقوم. فإنه لذلك يحيا حياة التدقيق والحرص. حياة البر والفضيلة التي يقف بها أمام اللّه في يوم الدين بلا خوف. وأمام الناس بلا خجل. فإن لم تكن قيامة. ولم يكن حساب. ولا خوف ولا خجل.. إذن على رأي المثل: "مَنْ لا يستحي. فليفعل ما يشاء"!!

إذن لو لم تكن قيامة. لانتشر الفساد. وانتشرت الأبيقورية التي تقول "لنأكل ونشرب. فإننا غداً نموت"! إذن لتهالك الناس على ملاذ الناس وعلى شهواتها. مع السعي إلى المادة بكل قوة ولهفة..!

ولو لم تكن قيامة. لسادت في العالم شريعة الغاب. وأكل الناس بعضهم بعضاً. واستبد القوي بالضعيف. وساد الظلم والقسوة..! بل لانعدمت المبادئ والقِيَم أو قلّ شأنها وتأثيرها إلى حد بعيد..!

***

لو لم تكن قيامة. لأصبح الموت رُعباً. وزالت الشجاعة والتضحية!!

حالياً. لا يخاف الشجعان الموت على رجاء القيامة. ويتقدّم الشهداء إلى الموت غير هيّابين. لأنهم يعرفون ان الموت ليس هو نهاية حياتهم. بل يرونه باباً مفتوحاً لحياة في الأبدية لا تنتهي.

كذلك أي إنسان يموت يكون له عزاء في الحياة الأخرى. وبهذا يمكن أن يتقبّل الموت بغير جزع. أمّا إن لم تكن هناك قيامة وحياة بعد الموت. فإن الموت يكون مُخيفاً إذ يُمثّل نهاية ومأساة. وهذا ما كان يحدث للمُلحدين. وللطوائف التي تُنكِر القيامة والروح كالصدوقيين مثلاً.

***

إن لم تكن هناك قيامة. فإن موت أحبائنا وأصدقائنا وأقاربنا يكون سبب حُزن شديد جداً لنا لا عزاء فيه.

إن عزاءنا في موت أحبائنا هو أننا سنراهم في العالم الآخر. ونقول للرب في صلواتنا "إنه ليس موتاً لعبيدك. بل هو انتقال". لذلك نقيم لهؤلاء الراحلين عنا تذكارات في مناسبات عديدة. ونثق أنهم سيقومون في اليوم الأخير وسنراهم وتستمر علاقتنا بهم.

نفس الكلام نقوله عمّن نعجب بهم من أصحاب المواهب ومن مشاهير الناس الذين عاشرناهم. ولهم في قلوبنا صلة تقدير.. فإن لم تكن قيامة. سنحزن جداً إذ تنقطع صلتنا بكل التاريخ الذي عاصرناه والذي سمعنا عنه. وأيضاً تنقطع صلة هذا التاريخ بنا..!

أمّا الايمان بالقيامة فقدّم للبشرية رجاء أوسع من هذا: ليس فقط في تلاقي الأحباء والأصدقاء. وإنما أيضاً في تلاقي الأجيال كلها.

حيث يلتقي الناس هناك في السماء مع أبينا آدم وأبينا نوح وأبينا إبراهيم وسائر الأنبياء. ومع جميع الأبرار في جميع العصور.. ستلتقي الأجيال كلّها هناك في القيامة. وإن لم تكن قيامة. لا يكون مثل هذا اللقاء المُفرح للنفوس. ولا عاش الناس في جيل محدود. وفي زمن محدود لا يتعدونه.. ولا انقطعت صلتنا جميعاً بالأبرار وشفاعتهم.

***

وإن لم تكن قيامة. إذن سوف لا تكون لنا صلة بالسماء وسُكانها..

ولا أقصد بالسماء. هذه التي نراها بأعيننا. إنما أقصد السماء التي يسكنها الملائكة والتي هى عرش اللّه.. هذه التي لنا أمل فيها بالقيامة والحياة الأخرى. حيث نعيش في السماء بعد القيامة.

فإن لم تكن قيامة. سنُحرم من السماء ومن الملائكة وكل الطغمات السمائية. ويكون حديثنا الآن عن كل هؤلاء حديثاً نظرياً. وكذلك يكون حديثنا عن النعيم الأبدي. وعمّا لم تره

عين ولم تسمع به أذن، وما لم يخطر على قلب بشر.. أيكون هذا أيضاً كأنه أحلام أو أوهام؟!

وإن لم تكن هناك قيامة ولا سماء. فما معنى أن الأبرار بعمل الخير يكنزون لهم كنوزاً في السماء. تُحفظ لهم حين يصلون إليها؟!

***

وإن لم تكن قيامة. فسنُحرم من الحياة المثالية التي في الأبدية

نُحرم من ذلك الجو الروحي الذي هناك: حيث لا خطيئة ولا فساد ولا مؤامرات ولا انقسامات ولا شيء من الأخطاء التي في عالمنا.. وأيضاً حيث لا تعب ولا ضيق ولا مرض ولا حزن ولا بكاء.. بل الجو الذي يسوده السلام والألفة والحُب. هذا الأمر الذي نشتهيه ونترجّاه. ونحلم أن نراه في العالم الآخر.. هل سنُحرم من هذا كله؟!

وهل سنُحرم من الحياة المُتجانسة في العالم الآخر. التي فيها البشرية كلها معاً بكل أجناسها. بلغة واحدة. يتفاهمون تلقائياً بغير حاجة إلى مُترجم.. وكلّهم بفهم واحد. ومفاهيم واحدة.. حيث تبطل الألسنة واللغات التي تميّز مجموعة عن أخرى..! هل سنُحرم من هذا الجو. إن لم تكن قيامة؟!

***

لو لم تكن قيامة. لما كان هناك تعويض للذين عاشوا حياة مؤلمة أو حياة بائسة على الأرض!

نذكر من بين هؤلاء المُعوقين جسدياً. كالعُرج والكسح. والصم البكم. وأصحاب الأمراض المُستعصية التي كلها ألم. أولئك الذين كانوا يأملون في حياة بعد الموت. ينقذهم الرب فيها من عاهاتهم ومن آلامهم الجسدية والنفسية. أيفقد هؤلاء الأمل إن لم تكن هناك قيامة..!

وكذلك هل يعيش المكفوفون في عمى على الأرض. دون أي أمل في أن يرد اللّه لهم البصيرة في حياة أخرى. إن لم تكن هناك قيامة!

وأيضاً الذين عاشوا في فقر وعوز. أو في وظائف مُحتقرة. أو كانوا خداماً أو عبيداً لغيرهم. أو تحت مُعاملة قاسية ممّن لهم عليهم رئاسة أو سيادة.. الذين قاسوا في حياتهم

الظلم والاهانة أو التشريد والسبي وأمثال هؤلاء.. هل لا يأملون إطلاقاً أن يرد اللّه اعتبارهم في العالم الآخر. إن لم تكن هناك قيامة وعالم آخر!

إن عدم وجود قيامة يوجد احباطاً ويأساً عند كل تلك الأمثلة من الناس. وأنه إن لم يكن هناك عدل ومساواة في هذه الحياة الأرضية. فكيف لا يوجد بعد الموت لون من التعويض؟!

وإن لم تكن هناك قيامة. إذن لا تكون هناك مكافأة للأبرار الذين جاهدوا من أجل حياة الفضيلة على الأرض.

أولئك الذين عملوا الخير في الخفاء. وحرموا أنفسهم بسبب تفانيهم في فضيلة العطاء. وجاهدوا من أجل البعد عن كل إغراء.. وواظبوا بكل حرص على الصلاة والصوم. وبعضهم عاش في نُسك وزهدوا. رافضين مُتع الجسد من أجل المُتع التي يتمتّعون بها بالروح في السماء.. وعاشوا في حياة الاحتمال والصبر. وضبط النفس. ومكافحة الشهوات.

هل كل هؤلاء لا تكون لهم مكافأة في حياة أخرى. ثواباً من اللّه عن كل تعبهم وجهادهم الروحي على الأرض؟! بل يتساوون مع الأشرار الذين نهبوا الأرض نهباً. وتهالكوا على الشهوات، وعاشوا بكل فساد في حياتهم الأرضية، دون أية عقوبة. ما دام الموت قد ساوى بين الكل. ولا قيامة!! أي عدل يكون هذا؟! وهل يقول الأبرار إذن في أنفسهم: قد خدعنا الأنبياء بحديثهم عن الجنة والنار. وعن الثواب والعقاب!! حاشا للّه أن يكون هذا. ويتساوى البار والأثيم. ويضيع أجر من أحسن عملاً..!

***

وإن لم تكن قيامة. ألاَ يكون هذا ضد الإيمان!!

وأيضاً ضد وعود اللّه! وضد الوحي الإلهي! وضد الدعوة إلى التضحية وبذل الذات! وضد كل ما تعلّمناه عن السماء والحياة الأبدية! وعن النعيم والجحيم! وضدّ الصلة بين سكان السماء وسكان الأرض! إذن لا بد أن تكون قيامة. ولا بد أن يكون حساباً. وأن يكون هناك ثواب وعقاب.. فالدين يقتضي هذا. وأيضاً العقل والمنطق يلزمنا أن نؤمن بهذا..

***

وما دامت القيامة عقيدة وضرورة. فينبغي أن نستعد لها..

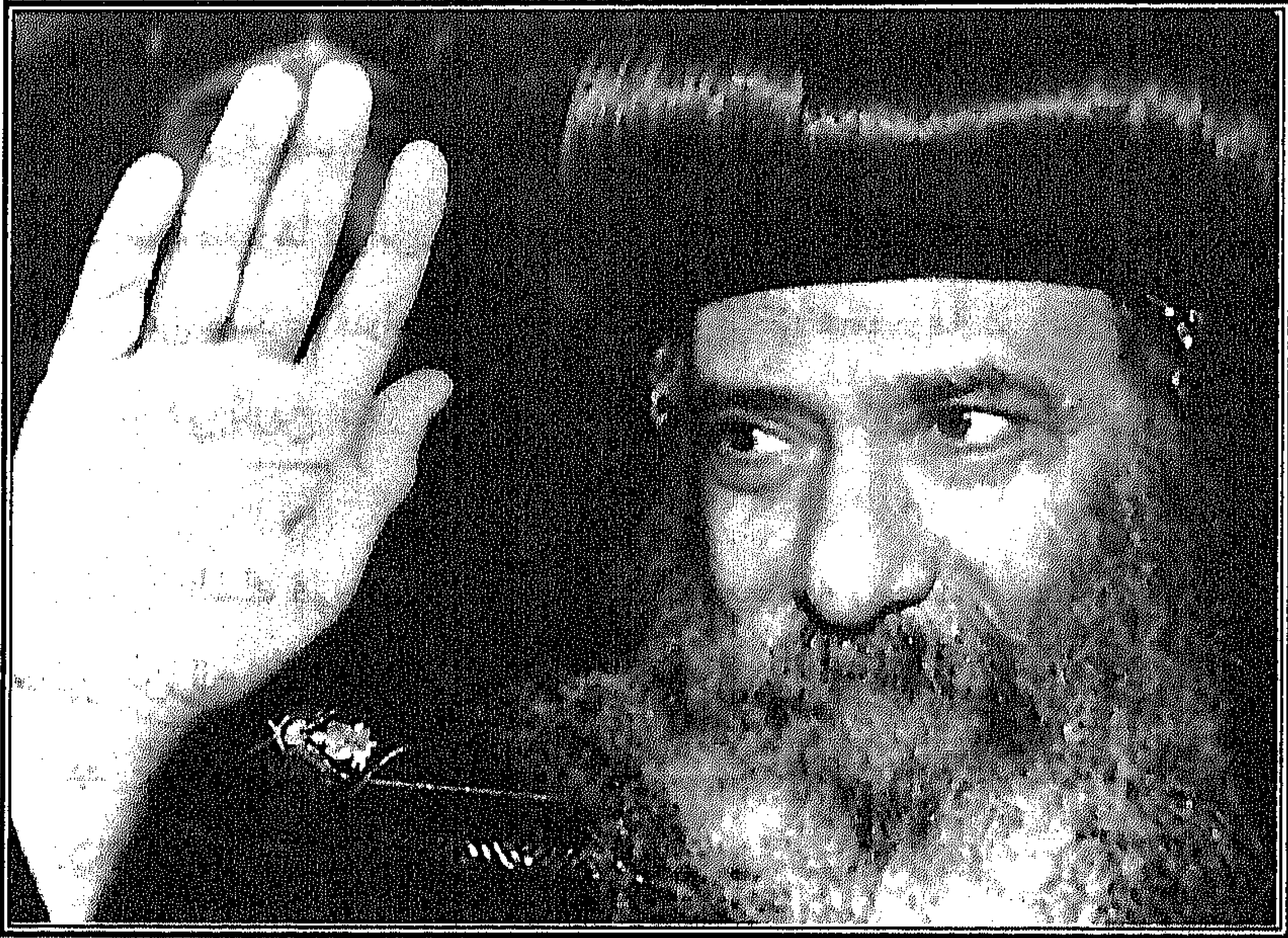
عارفين أن حياتنا الأرضية - مهما طالت - لا تقاس شيئاً إلى جوار الحياة الأبدية التي لا نهاية لها والتي هى المصير الحقيقي لجميعنا.. فلنستعد للأبدية بعمل الخير في كل مكان. ومع كل أحد لأن كل خير نعمله هنا. سنلقى جزاءه هناك في السماء أضعافاً مضاعفة.. ولنبعد عن كل شرّ وشبه شرّ؛ لأن الخطيئة تبعدنا عن اللّه وعن ملائكته وعن السماء وكل سكانها من أرواح الأبرار..

ولنفرح بأن اللّه قد أعدّ لنا حياة بعد الموت يستمرّ فيها وجودنا فلا يقتصر على هذه الحياة الأرضية المحدودة التي تشوبها آلام وضيقات ولنشكر اللّه الذي أعدّ لنا نعيماً أبدياً. أسمى من كل ما رأيناه في أفراح الأرض الزائلة ومُتعها التافهة.

***

وبهذه المناسبة أرجو لكم جميعاً كل سعادة وبركة ولنصلّ من أجل مصر ورخائها. ومن أجل الشرق الأوسط والسلام في كل ربوع أراضيه وبخاصة في فلسطين والعراق. وليضع اللّه حداً لتلك الحروب والشقاقات. ويعود الهدوء إلى المنطقة..

وكل عام وأنتم جميعاً بخير ،،،



٢٠٠٤/٤/٢٠

الشك

الشك جحيم للفكر والقلب معاً
قد يكون دخوله إلى الذهن سهلاً. ولكن من الصعب أن يخرج منه!

والشك يجعل الإنسان يفقد سلامه. ويفقد طمأنينته

وإذا استمر الشك. يتحوّل إلى مرض. وإلى عقد لها نتائجها.. وهذا الشك قد يتلف الأعصاب. ويدعو إلى الحيرة وكثرة التفكير. ويمنع النوم. ومن نتائجه أيضاً التردُّد والخجل. وعدم القدرة على البتّ في الأمور.. وهو حالة من عدم الثبات وعدم الرؤية..

والشك على أنواع كثيرة. منها الشك في الدين واللّه والعقيدة. والشك في الناس. وفي الأصدقاء بل الشك في النفس أيضاً. والشك في الفضائل. وفي إمكانية التوبة. والشك في طريق الحياة.

***

أنواع الشك

١. **منها الشك في وجود اللّه أو في بعض صفاته**

وهذه حرب فكرية مصدرها الشيطان. وهي دخيلة على الإنسان. وربما تأتي في سن مُعيّنة. وقد يكون مصدرها بعض كتب الفلسفة. أو أفكار المُلحدين ومعاشرتهم. أو المناقشة في أمور أعلى من مستوى قدرات الإنسان. أو من بحوث مُنحرفة في ما وراء الطبيعة: في بعض العلوم. أو في تاريخ الكون ونشأته. وقد يثيرها أشخاص بمبدأ "خالف تعرف"..!

وقد لا يكون الشك في وجود اللّه. وإنما في معونته ورحمته وحفظه. كإنسان يُصاب بمرض خطير من الصعب الشفاء منه. وله آلامه الشديدة. فيشكّ في رحمة اللّه! أو إنسان يقع في ضيقة مُعقّدة. ويُصلّي من أجل النجاة منها. ولا يجد استجابة لصلاته. فيشكّ في جدوى الصلاة!

***

٢. **الشك في العقيدة:**

قد يكون هذا نتيجة التعرُّض لمشكلة تفسيرية لا يعرف الشخص لها حلاً فيشك. أو الدخول في مناقشة غير مُتكافئة مع محاور من عقيدة مخالفة. فيكون الشك هو نتيجة تلك المناقشة. وبالمثل قراءة كتب أو نبذات لعقائد أخرى تثير الشك أيضاً..

ويحدث هذا كله مع أشخاص غير راسخين في عقيدتهم. أو غير دارسين لها. وعلاج هذا الأمر هو الرجوع لذوي المعرفة والخبرة.

ونلاحظ من جهة العقيدة موضوع المعجزات التي قد لا تحدث للبعض بسبب الشك. بينما تحدث للبسطاء الذين يصدقونها. وعموماً فإن المعجزات قد يشك فيها الذين يبحثونها من الناحية العلمية البحتة. وليس من جهة الإيمان الذي يقبلها..

ومثل المعجزات موضوع قيامة الأموات. وما يتعلّق بالخلق من العدم. وبالوحي. وما أشبه..

* * *

٣. **الشك في وفاء الأصدقاء وفي مدى أمانتهم:**

هذا النوع من الشك سببه قلّة الثقة أو قلّة المحبة. لأنه من الطبيعي إذا أحب شخص صديقاً له محبة حقيقية. فإنه يثق به ولا يشك فيه. على أن مثل هذا الشك ربما يأتي نتيجة وشايات الناس والعلاج هو المواجهة. بجو من الصراحة الممزوجة بالمحبة.

وكذلك عدم التأثر بالسماعات والوشايات. وعدم تصديق كل ما يقال.. لأنه كثيراً ما يكون الاتهام مبنياً على ظلم. مهما كانت تبدو الدلالات واضحة..! ولا يصح الحكم على صديق.. أو أي أحد.. حُكماً سريعاً. بدون الاستماع إليه وإعطائه فرصة لتوضيح موقفه..

وليس سهلاً إتهام صديق بالخيانة أو قلّة الأمانة.. وأصعب من هذا إتهام الزوجة أو الزوج بالخيانة أيضاً. أو الشك فيه..

* * *

٤. **الشك في الناس:**

ربما خطأ فردي يُطبّق على الكل!! خطأ فرد في جماعة. يُطبّق على كل الجماعة!! أو سقطة فرد في أسرة. تجلب الشك في كل أعضاء الأسرة. وربما يكون بعض أفرادها صالحين أو باقي أفرادها على عكس ذلك الذي سقط..

فقد يحدث أحياناً أن إنساناً لا يتزوّج من فتاة فاضلة في أسرة. بدافع الشك. لأن لها أختاً أو قريبة قد أخطأت..!

بل قد يتمادى الشك حتى يشمل شعباً بأكمله أو بلداً بأكمله! فيقول شخص لا أتعامل مع فرد من الشعب الفلاني لأنهم يتصفون بصفة مُعيّنة تجعلني أشك فيهم..!

***

٥. الشك في بعض الفضائل:

سواء في لزومها أو في امكانياتها. كأن يشك إنسان في فضيلة التضحية أو إنكار الذات. أو فضيلة التواضع..

أو يشك شخصاً في فضيلة الاحتمال. ويقول إنها تتنافى مع قوة الشخصية. أو في فضيلة التسامح ادعاء بأنها تشجّع على تكرار الخطأ. سواء من الشخص نفسه أو من غيره..!

أو كأن يتشكّك إنسان قائلاً: ما لزوم الصلاة؟ وهل الفضيلة الجسدية لها قيمة؟ وما معنى أن الحرمان فضيلة؟ وهل الدين هو سلسلة من أنواع الحرمان والضغوط؟ وما لزوم الصلاة ما دام اللّه يهتم بنا. حتى دون أن نصلّي وأن نطلب؟

***

وقد يأتي الشك من جهة المبادئ والقيم:

الشك في ما هو الحلال؟ وما هو الحرام؟ وما هو الجائز والممنوع؟

الشك في أشياء جديدة على المجتمع. مثل تنظيم النسل أو أطفال الأنابيب.. أو قتل الرحمة!! والشك في بعض المخترعات الإعلامية مثل التليفزيون والراديو والسينما.. وهل هي حرام أم حلال؟

والشك في أرباح البنوك. وفي مضاربات البورصة. وفي الأغاني والموسيقى وفي أنواع الحفلات والسهرات. وإلى أي مدى تجوز؟

والواقع أن كثيراً من هذه الموضوعات - حسب نوعية استخدامها - يُحكم عليها بالحلال أو بالحرام.. فالسينما حسب نوعية ما يعرض فيها من أفلام. يكون فيها الخير أو الشر. وكذلك التليفزيون.. وبنفس المقياس. نحكم على الموسيقى وعلى الأغاني وعلى كثير من الترفيهات. ومع ذلك فإن عقول بعض الناس قد تتشكّك. حسب نوعية تربيتهم..

٦. **الشك في ما هو النافع؟ وما هو الضار؟**

إنسان قد يكون في مُفترق الطرق. ولا يعرف ما هو النافع له: هل يلتحق بهذه الكلية أمْ تلك؟ وبعد التخرُّج هل يناسبه العمل الوظيفي أمْ العمل الحُر؟ وهل يتزوّج هذه الفتاة أمْ تلك؟ أمْ يؤجّل سن الزواج حتى يكوّن مستقبله. ويستقر اقتصادياً..

وتظل الأفكار والشكوك تلعب بذهنه وتسبِّب له الحيرة.. وبنفس الوضع في تعامله مع بعض الناس: هل يصلح أسلوب الحزم أمْ أسلوب الرقّة واللُّطف؟ ومتى يتكلّم ومتى يصمت؟ وإن تكلّم فبأي أسلوب؟ وإن صمت. فهل يكون صمته حكمة أمْ ضعفاً؟.. ما الذي ينفعه في كل ذلك أو ما يضره؟! هنا الشك والحيرة..

٧. **الشك في النفس:**

أحياناً يشك الإنسان في نفسه. فلا تكون له الثقة في نفسه. ولا في قدراته وإمكانياته..! كالطالب الذي يشك في قدرته على النجاح أو قدرته على التفوّق! أو يشك في كفاية الوقت الباقي له على الامتحان! أو شخص يشكّ في تصرُّفاته هل هى سليمة أم خاطئة؟ أو فتاة تشك في هل هى محبوبة من الناس أو غير محبوبة؟.. أو عضو في مجتمع يشك هل هو موضع الرضا؟.. أو مرشح في انتخاب مُعيّن: يشك هل سينجح أم سيفشل؟

إن الطفل قد يشك في ما يفعله: هل هو مقبول أو غير مقبول؟ ولهذا فإننا نُعطيه الثقة في نفسه بالمديح والتشجيع. ذلك لأن التربية القاسية وكثرة التوبيخ على الأخطاء. قد تولّد عقدة الشك في نفسه..

حتى الكبار يحتاجون أيضاً إلى التشجيع وإلى كلمة تقدير. وإلى رفع روحهم المعنوية. وبخاصة إن كانوا في حالة مرض أو ضيق. أو في مشكلة أو أزمة.. حتى لا يدركهم اليأس. وحتى لا يقول الواحد منهم: لا فائدة. قد ضللت..! وهكذا يشك في مصيره..

***

٨. **الشك أثناء المراحل المصيرية:**

بعض الناس: تكون المراحل المصيرية أمامهم مُحاطة بالشكوك. وطريقهم غير واضح لهم. يقفون أمامه في حيرة وتساؤل. عاجزين عن البت واتخاذ أي قرار.. وقد يلجأ بعضهم إلى الاستشارة. ويستمر معه الشك. أو يلجأ إلى القرعة. ويستمر أيضاً في الشك..

الأمر يحتاج إلى الثبات في الهدف وفي الوسيلة. وفي المبادئ والقيم. ويحتاج أيضاً إلى معرفة بالنفس. وإلى صراحة في مواجهتها. وتحديد اتجاهاتها وامكانياتها.

أمّا الشك في القدرة. فيحتاج إلى العزيمة والتشجيع. وإلى الصلاة حتى يمنح الرب قوة. ويحتاج أحياناً إلى روح المخاطرة..

***

أسباب الشك:

قد تكون الأسباب داخلية نابعة من طبيعة الإنسان نفسه. وقد تكون للشك أسباب خارجية سببها البيئة. وحروب الشياطين. وأنواع من الضيقات..

* قد يكون الإنسان بطبيعته شكّاكاً أو موسوساً. وطريقته في التفكير تجلب له الشك. أو قد يكون ضيق التفكير ليس أمامه سوى الشكَ.

* وقد يكون إنسانا بسيطاً يقبل كل ما يقال له فيقع في الشكوك.

* كذلك الخوف والشك يتلازمان في كثير من الأحوال. فيكون أحدهما سبباً والثاني نتيجة. فالخوف يجلب الشك. والشك يكون من نتائجه الخوف.

* وقد يأتي الشك بسبب الوهم. كإنسان يتوهّم أن رقم ١٣ وراءه شرّ: فيدخله الشك في كل يوم يكون تاريخه رقم ١٣ أو مضاعفاته. ويشك أن كان رقم ١٣ متداخلاً في رقم بيته أو تليفونه أو الطلب الذي يُقدّمه لوظيفة!

***

* **وقد تأتي الشكوك أيضاً بمعاشرة الشكاكين. فتنتقل العدوى منهم.**

* **كما يأتي الشك أيضاً من حروب الشياطين. أو من الناس المُتعبين.**

فالشيطان يعرف جميع الشكوك التي مرّت على العالم من آلاف السنين. ويمكنه أن يحارب الإنسان بها في كل شيء: من جهة الإيمان أو العلاقة بالآخرين. لكي يُبلبل فكره ويزعجه ويلقيه في حيرة..

* ومن المصادر التي تجلب الشك أنواع من القراءة. لأن هناك كتّاباً هوايتهم أن يشكّكوا القارئ أن المُسلمات الثابتة. إظهار لأنهم يعرفون أكثر.

* كذلك الشائعات قد تجلب شكوكاً. وربما تكون في غالبيتها غير صحيحة.

***

* وقد يأتي الشكّ بسبب الضيقات وطول مدتها:

إن الضيقات تحتاج إلى قلب قوي لا تلعب به الشكوك..

لأنه إن طالت المدة في الضيقة. ووصل صاحبها إلى اليأس. فقد يشك في رحمة اللَّه. أو يشك أن هناك "عملاً" قد عُمل له. ويبدأ في زيارة المشعوذين ليفكوا له هذا العمل المزعوم!!

* أو قد يأتي الشك بسبب تعميم الخطأ:

كفتاة تعيش في بيت مملوء بالنزاع والمشاجرة بين أبيها وأمها. فتخاف من الزواج. وتشك في أنها إذا تزوّجت ستقع في نفس المصير. وأن كل رَجُل ستتزوجه ستكون معاملته لها مثل معاملة أبيها وأمها. وبهذا تحيا حياة كلها شجار ونزاع وألم..!

أو كإنسان قال سرّاً لصديقه فأذاعه وسبّب له حرجاً. حينئذ يشك في جميع الأصدقاء وإخلاصهم. وربما تكون النتيجة أنه ينطوي على نفسه. ولا يقول كلمة سرّ لأحد من الناس. مهما كان قريباً إلى قلبه!!

* وقد يكون سبب الشك شدة الحساسية والانحصار في سبب واحد:

مثل أُمّ تتأخر ابنتها عن موعد عودتها إلى البيت. فتشُكّ أنه قد أصابها حادث. أو أن أحداً خطفها. أو حدث لها سوء من أي نوع. وتظلّ قلقة حتى تعود! وربما يكون قد دخلها الشك في أنها ستعود!!

والعجيب أن المُنحصرين في سبب واحد. غالباً ما يتخيّرون أسوأ الأسباب التي تتعبهم وتبلبل أفكارهم.



٢٠٠٤/٤/٢٧

الوداعة

الوداعة صفة نبيلة هادئة. والإنسان الوديع هو شخص محبوب من الكل. فما هي صفات الإنسان الوديع؟

"١" الإنسان الوديع طيّب وهادئ ومسالم:

إنه هادئ في صوته. لا يصيح ولا يُحدث شغباً. وهادئ أيضاً في معاملاته. لا يخاصم ولا يقطع صلته بإنسان. ولا يحتد على أحد.

لا يقطع رجاء إنسان: فلا يُطفئ فتيلة مُدخِّنة. ربما تمرّ عليها ريح بعد حين. فتشعلها. هكذا يتصرّف مع صغار النفوس.

والإنسان الوديع له صوت مُنخفض خفيف. فهو لا يرفع صوته أزيد ممّا يجب. ولا يعلو صوته أكثر ممّا تستلزم الحاجة في الكلام. صوته هادئ غير صاخب. بعكس العنفاء الذين في كلامهم صخب. يتكلّمون بصوت عالٍ وبحدّة وعنف. أحياناً صوتهم يُرعب!

***

"٢" والوديع كما أن صوته مُنخفض. كذلك نظراته مُنخفضة أيضاً

لا يحدّق في أحد. ولا يحملِق في أحد. تنطبق عليه عبارة: "لا يملأ عينيْه من وجه إنسان". لذلك فهو يحتفظ بعلاقات طيبة مع الكل. لأنه لا يفحص مشاعر الناس بنظراته. ولا يحاول أن يعرف بذلك ما بداخلهم. لأن معرفة الدواخل تعكّر المعاملات.

أمّا غير الوديع فإنه يكلّم غيره. وينظر إلى عينيْه أثناء كلامه. ليرى هل هو صادق أمْ لا؟ وهل نظراته عكس كلامه؟ وهل ملامحه عكس كلامه؟ وهل هو يبطن غير ما يظهر؟ وهل.. وهل؟ ممّا يوجب الشك فيه!!

***

أمّا الوديع فيعيش في سلام مع الناس. لأنه لا يفحص ملامحهم وتصرُّفاتهم

إن تعامل مع أحد. لا يتناول هذا الشخص وأعماله بالفحص والتدقيق ليصدر أحكاماً عليه. وإن جلس مع أناس يأكلون. لا ينظر إليهم ماذا يأكلون وكيف؟ وأي صنف يأكلونه؟

وما الذي يحبونه أكثر من غيره؟ وهل يأكلون بسرعة أو بشهوة أو بنهم. إنه لا يراقبهم أثناء أكلهم. كما لو كان يُحصي كم لقمة يأكلونها!!

***

إنه هادئ لا يفحص أعمال الناس. ولذلك فهو لا يقع في إدانة الآخرين ومسك سيرتهم. بل يقول في داخله ما شأني بهذا؟!

فإدانة الآخرين تأتي غالباً من فحص تصرُّفاتهم ومراقبتهم. أمّا الوديع فيقول في نفسه: "أنا مالي؟ خلِّيني في حالي". نعم ما شأني بكل هؤلاء؟ ومن أقامني قاضياً عليهم؟! لماذا أتدخّل في أمور لست أنا مسؤولاً عنها؟ ولماذا أُقحم نفسي فيما لا شأن لي به؟!

وهكذا يحتفظ بسلامه الداخلي وسلامه مع الناس.

***

والإنسان الوديع يكون دائماً بشوشاً. لا يعبس في وجه أحد

لا يقطب جبينه ولا نظراته. ولا يتجهّم. ولا يستقر عليه أبداً روح الغضب أو الضيق. له ابتسامة حلوة مُحبّبة إلى الناس. وملامح مُريحة لكل من يتأمّلها. ولا تسمح له طبيعته الهادئة أن يزجر وأن يوبّخ. وأن يشتد ويحتد. بل هو بطبيعته إنسان هادئ. وكلامه لطيف وليّن. وبخاصة إن كان من العاملين في الخدمة الاجتماعية.. له الوجه السمح والمحبوب الذي يفيض سلاماً على غيره.

***

وما دام الوديع يتمتع بسلام داخلي. فهو لا ينزعج ولا يضطرب. مهما كانت الأسباب الخارجية..

قد يكون البحر هائجاً والأمواج مُرتفعة. والسفينة تضطرب في البحر وتميل يميناً ويساراً. أمّا الصخرة الثابتة في البحر فإنها لا تضطرب. والجنادل التي في البحر لا تهتز. مهما كان عُنف الأمواج.

كذلك الوديع: هو كالصخرة أو الجندل. لا يتزعزع مهما كانت الظروف. بل في هدوء يسلّم الأمر للّه. ويقول مع المُرتل في المزمور: "إن يحاربني جيش فلن يخاف قلبي. وإن قام عليَّ قتال. ففي هذا أنا مُطمئن". قال أحد الآباء الروحيين: من السهل عليك أن تحرّك جبلاً من موضعه. وليس سهلاً أن تحرِّك الإنسان الوديع عن هدوئه.

ومهما عومل الوديع. فإنه لا يتذمّر ولا يتضجر. ولا يشكو..

بل غالباً ما يلتمس العذر لغيره. ويُبرِّر في ذهنه مسلكه. ولا يظن فيه سوءاً. وكأن شيئاً لم يحدث! ولا يتحدث عن إساءة الناس إليه. ولا يحزن بسبب ذلك في قلبه. فإن تأثّر بسبب ذلك أو غضب. سرعان ما يزول تأثره ويصفو. ولا يمكن أن يتحوّل حُزنه المؤقّت إلى حقد.

وقد يثور البعض عليه. ويوجه إليه اتهامات أو إهانات. فلا يحتد ولا ينتقم لنفسه. ولا يقاوم الشر.. بل قد يصمت في هدوء. ويبتسم في وجه من يثور عليه ابتسامة بريئة. وكأنه ليس المعنيّ بما يقال. وابتسامته تجعل الثائر عليه يخجل من إهانته له.

هذا الإنسان الوديع. له أحياناً طبع الطفل الهادئ المُبتسم.

***

الإنسان الوديع بعيد عن الغضب. حليم واسع الصدر

إنه لا يغضب بسرعة. ولا يبطء! ولا ينفعل الانفعالات الشديدة. ولا تراه أبداً ثائراً ولا عصبياً. بل ملامحه دائماً هادئة.. وكما أنه لا يغضب من أحد. فإنه أيضاً لا يتسبّب في غضب أحد. وإن غضب عليه أحد. فإن له "الجواب اللّين الذي يصرف الغضب".. لذلك فهو إنسان طويل البال. وكثير الاحتمال. يحتمل من يخطئون إليه. ويطيل أناته. ويعيش معهم في سلام.

ليس أي سبب يُثيره.. ولهذا إن غضب الوديع. فلا بد أن أمراً خطيراً قد دعاه إلى ذلك. وغالباً ما يكون غضبه بسبب الضمير والحق. وليس بسبب كرامته أو حقوقه كما يفعل غير الودعاء.

وإن غضب. فإنه لا يثور ويفقد أعصابه. وإنما يغضب في رصانة مُعبِّراً عن عدم موافقته وعدم رضاه. فالوديع أعصابه هادئة لا تنفعل بسرعة. وإذا انفعل لا يشتعل.

وإذا غضب لا يحقد. بل سرعان ما يصفو.

***

الإنسان الوديع مسالم وصفوح. ولا ينتقم لنفسه

لا يقاوم الشرّ. أي لا يقابله بمثله. ولا يدافع عن نفسه. بل غالباً ما يدافع الغير عنه. موبخين من يسيء إليه بقولهم "ألم تجد سوى هذا الإنسان الطيب لتعتدي عليه؟!".

الإنسان الوديع لا يؤذي أحداً. بل يحتمل الأذى من المخطئين. ومن الأمثلة الجميلة ما قيل عن سليمان الملك وسِعة صدره. إن اللّه منحه "حكمة وفَهْماً كثيراً جداً". ورحبة قلب كالرمل الذي على شاطئ البحر.

***

والإنسان الوديع طيّب. سهل التعامل مع الناس

إذا تناقش مع أحد. لا يجعل المناقشة تحتد وتتعقد. بل يُبدي رأيه ببساطة. ويدافع عنه بهدوء. ويدافع عنه في وداعة الحكمة. حتى إن كان يُنبِّه محاوره إلى خطأ. يفعل ذلك بنبل دون أن يجرحه.

إنه بسيط في التعامل. ليس عنده دهاء ولا مكر ولا خُبث. ولا يظهر غير ما يبطن. ولا نعني بكلمة "بسيط" أنه إنسان ساذج! كلاّ، بل قد يكون حكيماً في منتهى الحكمة. ولكنه في بساطته لا يعقّد الأمور. وهو لا يلفّ ولا يدور في حديثه. ولا يُدبِّر خططاً ضد أحد.

بل هو صريح ومُريح. يمكنك أن تثق به وتطمئن إليه، وهو رقيق في معاملته. لا يخدش شعور إنسان مهما أخطأ. بل هو حلو الطبع. دمث الخلق.. لذلك تجده محبوباً من الكل بسبب طيبته.

***

والإنسان الوديع مملوء من الحنان والعطف حتى على أشر الخطاة!

فإن رأيت إنساناً قاسياً في تعامله. اعلم أنه غير وديع.. فالوديع لا ينتهر خاطئاً. بل يقول في نفسه "وأنا أيضاً أخطئ" وهو يضع أمامه أربع درجات في التعامل مع من يخطئون إليه:

* منها احتمال المُخطئ إليه. فلا يغضب عليه ولا يثور ولا يحتد.

* ثم المغفرة للمُخطئ. فلا يمسك عليه خطيئته. ولا يحقد عليه.

* وأيضاً الصلح مع المُخطئ. ولتكن المبادرة منه هو.

* وأكثر من هذا كله. محبّة المُخطئ كأخ. والصلاة من أجله.

وهو لا يفعل كل هذا. إلاّ إذا كان قلبه واسعاً. وطبعه هادئاً.

وكان يتذكّر أن اللّه تبارك اسمه "لم يصنع معنا حسب خطايانا. ولم يُجازنا بحسب آثامنا".

***

الإنسان الوديع لا يتشبّث برأيه. ولا يكون عنيداً

إن دخل في مناقشة. يكون هدفه أن يكسب محاوره لا أن يغلبه.. فهو لا يظهر للمناقش أخطاءه. ولا يكشف له ضعف حجته. بل إنه في إيجابية وديعة يشرح وجهة نظره بأسلوب رقيق مُقنع. وهو يتقبّل الرأي الآخر. ويمتدح ما فيه من نقاط طيبة. ولا يعلو صوته في النقاش. ولا يعارض في عصبية. إنما في كسبه لِمَنْ يُناقشه بكل لياقة وأدب. يمكنه أن يكسب المناقشة ذاتها.

أمّا غير الوديع. فيتمسّك بأية نقطة مهما كانت صغيرة ويقيم عليها مشكلة ومناقشة. ويكبرّها ويضخمها. ويتباهى بما يكسبه من نقاط. حتى ليقول البعض لصاحب الرأي الآخر "هل وقعت في يد فلان؟! فلينقذك اللّه منه. لأنه يمكنه أن يستنتج لك أخطاء في كلامك. لم تفكّر فيها قط!!"

***

الإنسان الوديع هو شخص "مهاود". يميل إلى الطاعة

طبعاً يطيع فيما لا يخالف ضميره. وما لا يخالف وصية اللّه. أمّا في الأمور العادية. فلا يجعلها مجالاً للجدل والنقاش.

أمّا غير الوديع. فقد يكون صلباً وشديداً في كل ما يُطلب منه. ويظل يضع أسئلة وعراقيل: لماذا تريد؟ وكيف يمكن التنفيذ وهناك صعاب؟

ولماذا تطلب منّي أنا بالذات؟ وعلام الإسراع؟ ومن قال لك إن وقتي يسمح وأن ظروفي تسمح؟! ويستمر في المعارضة. وقد ينتهي إلى الرفض. أو يوافق أخيراً بشروط مُشدّدة. وبعد تعب في الأخذ والرد..!

***

أمّا الوديع فإنه يريد أن يريح غيره

والخير الذي يستطيع أن يعمله لأجل غيره. فإنه يعمله بكل محبّة وهدوء. وبدون جدل. ويكون مُستعدّاً لأداء أية خدمة. سواء كان ذلك في نطاق عمله الرسمي أو تطوّعاً منه.. بعكس بعض الموظفين الذين ليست لهم استجابة لطلبات الجماهير. وقد قلت مرة في ذلك:

الموظف المريح يجد حلاً لكل مشكلة. والموظف المُعقّد يجد مشكلة لكل حلّ!

لذلك إن نال الوديع مركزاً أو سُلطة. يستخدم ذلك لمنفعة الناس.. لا يرتفع قلبه بسبب المركز أو السُلطة. بل يظل خادماً للجميع. مُحققاً للناس ما يستطيع أن يُحققه لهم عن طريق سُلطته وإمكانياته.

من أجل هذا. يكون الوديع باستمرار شخصاً محبوباً

الناس يحبون فيه طيبة قلبه. وبشاشة ملامحه. وحُسن تعامله. وخدمته للكل. ورقة أسلوبه. وبسبب ذلك يدافعون عنه إن أصابته أذية. حتى إن كان هو لا يدافع عن نفسه. والشخص الذي يستغل طيبته ويظلمه. يتعبه ضميره ويخاف. لأنه أذى إنساناً طيباً لا يؤذي أحداً.

***

والإنسان الوديع له سلام في قلبه. لا يتعب من أحد

وإن ضغطت عليه الظروف وتعب. لا يظهر تعبه في الخارج بهيئة ضيق أو نرفزة أو برد الإهانة بمثلها. كلاّ. فكما أن له سلاماً داخل قلبه. له سلام كذلك مع الناس.

ومن صفات الوديع. البعد عن العنف

بل إن كلمة العنف هى عكس الوداعة تماماً. وحتى لو كان الوديع في موضع المسؤولية. ومن واجبه أن يوبّخ وينتهر. فإنه يفعل ذلك بهدوء بغير عنف. وإن اضطر أن يُجازي. فإنه يحكم بغير قسوة. ويكون رقيقاً في نصحه.

وأتذكّر إنني قلت في رثاء أستاذاً لنا كان وديعاً:

يا قوياً ليس في طبعه عنف	ووديعاً ليس في ذاته ضعفُ
يا حكيماً أدّب الناس وفي	صوته حبّى وفي زجره عطفُ
لم تنل بالذم إنساناً ولم تذكر	السوء إذا ما حلّ وصفى
لك أسلوب نزيه "طاهرٌ"	ولسان أبيض الألفاظ عفٌّ
إنما بالحب والاشفاق قد تصلح	الأعوجّ. والأكدرُ يصفو

٢٠٠٤/٥/٤

الوداعـة "٢"

هناك من وُلدوا من بطون أمهاتهم ودعاء. بطبع هادئ لم يتعبوا في اقتنائه. إنما نالوه عن طريق الوراثة. أو هبةً من اللّه وهبهم إياها. بعكس الذين يولدون بطبع ناري يميل إلى العصبية أو إلى العنف..

ولسنا عن الوداعة بالطبع أو الميلاد أو الهبة. نتكلم الآن. إنما نتحدّث عن الوداعة بصفة عامة. في اقتنائها أو فقدها.

***

اقتناء الوداعة

الإنسان الذي يصل إلى الوداعة بجهاد وضبط نفس ومحاولات للسيطرة على أعصابه وعلى إرادته. هذا يكون أجره عند اللّه أكبر.

إنه يجاهد - ربما بتداريب كثيرة - لكي يضبط ذاته. ويضبط أفكاره وألفاظه وحركاته. ويقتني كل أنواع الهدوء. ويتخلّص من الغضب والنرفزة بكل صورها وكل نتائجها.. إنها وداعة ليست طبيعية وإنما مكتسبة.

وما دام اللّه يطلب منا هذه الفضيلة. إذن لا بد أنه قد وضع في طبيعتنا إمكانية الوصول إليها.. فكيف ذلك؟

***

تدرّب يا أخي إذن على الهدوء. وابدأ مثلاً بهدوء الصوت:

في حديثك العادي. ابعد عن الصوت العالي. وحاول أن يكون صوتك خفيفاً هادئاً. ولا شك أن هذا أمر سهل. تدرّج منه إلى الصوت غير الحاد. فلا تتكلّم بعنف ولا بشدة. بل احتفظ بأعصابك هادئة حينما تتكلّم. مُتحكّماً في نبرات صوتك..

فإن تدرّبت على هدوء الصوت. تدرّب أيضاً على هدوء الملامح

لأن الشخص الغضوب. يظهر غضبه في ملامحه وفي نظرات عينيه. وفي تجهمه وفي تقضيب جبينه. فإن وجدت أنك قد وصلت إلى هذا كله أو إلى بعض منه. قل لنفسك

إن شكلي الآن قد أصبح لا يليق. وربما أصبح مُنفّراً.. وحينئذ حاول أن تهدّئ ملامحك وستجد أنك مُضطر في نفس الوقت أن تهدّئ انفعالاتك الداخلية..

***

نقطة ثالثة هى هدوء حركاتك:

الشخص الغضوب قد يظهر غضبه في عدم هدوء حركاته. وبخاصة حركات يديه. في العسكرية لا يستطيع جندي أن يحدث أحد رؤسائه وهو يحرّك إحدى يديه. بل يُقال له: "اثبت". كذلك أنت: حاول أن تضبط ليس فقط حركات يديك. بل كل حركاتك.. وكُن هادئاً في جلستك وفي مشيتك. ولا تتململ. ولا تبدو مُنفعلاً أو عصبياً..

وفي كل ذلك تدرّب على هدوء ألفاظك:

غير الودعاء تصدر عنهم ألفاظ قاسية عنيفة. أو ألفاظ متهكّمة تثير محدثيهم. أو ألفاظ تدخل في نطاق التجريح والإهانة. أو أنهم إذا تكلّموا. لا يراعون دقّة الألفاظ فتُمسَك عليهم أخطاء.. وقد يكونون في كلامهم غير مُهذبين يستخدمون ألفاظاً غير لائقة. تخرج عن حدود الحشمة والوقار.. وكل هذا ضد الوداعة..

أمّا الوديع. فإنه يضبط ألفاظه. وإن لم يستطِع ذلك في غضبه. فإنه يضبط غضبه. أو على الأقل فإنه يصمت. و"يضع حافظاً لفمه وباباً حصيناً لشفتيه" كما يقول المزمور.

***

على أن أهم من هذا كله. هدوء القلب ووداعته:

فالوداعة في أصلها هى وداعة القلب. والقلب الوديع يكون وديعاً في كل شيء: في صوته. في ملامحه. في ألفاظه. في أعصابه. في حركاته. لأن كل هذه مظاهر خارجية تعبّر عن حالة القلب من الداخل. ومع ذلك فالتدرّب عليها يوصل إلى وداعة القلب. أو ينبّه القلب إلى الالتزام بالوداعة..

على أن وداعة القلب تلتزم أو ترتبط بفضائل أخرى كثيرة:

يدخل في مُقدّمتها التواضع. فالإنسان المتواضع يتصرّف في وداعة. كذلك المحبّة: إن عاش الإنسان فيها. يحيا بالضرورة في حياة الوداعة. فالمحبة تتأنّي وتترفق. ولا تحتد. ولا تظن السوء. وتحتمل كل شيء.. وكل هذه من صفات وعناصر الوداعة أيضاً.

***

كذلك الوداعة ترتبط بفضائل أخرى:

مثل اللُّطف. والهدوء. وطول البال وسِعة الصدر. والتسامح. والحكمة. والعمل على ربح النفوس. فمَنْ يقتني هذه الفضائل وأمثالها. يقتني الوداعة أيضاً.

والوداعة تُقتنى بعمل النعمة في القلب.

ويحتاج الإنسان أن يطلب ذلك في صلاته. لكي يمنحه اللّه نعمةً يصير بها وديعاً. وإن منحه اللّه النعمة يتجاوب معها مُشتركاً بإرادته.. وإن اقتنى الوداعة. يحرص ألاّ يفقدها..

***

فقد الوداعة

هناك أسباب إذا سلك الإنسان فيها بأسلوب خاطئ. فإنها تفقده وداعته. أو لا تساعده على اقتنائها من بادئ الأمر. نذكر من بينها:

السُّلطة والمركز. والغنى. وسائر نواحي العظمة:

أحياناً يتولّى إنسان منصباً رفيعاً. فيظن أنه من مُستلزمات المنصب أن يأمر وينهي. ويزجر وينتهر. ويتعالى وينظر إلى الآخرين من فوق.

وهكذا يفقد وداعته وتواضعه أيضاً.. ويدخله روح التسلُّط!

ولكن ليست المناصب العليا أمراً مانعاً للوداعة فهناك عظماء ودعاء. جمعوا بين الرئاسة والوداعة مثل موسى النبي الذي قيل عنه "كان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض". ومثل داود النبي الذي قيل عنه "اذكر ياربٍ داود وكل دعته"..

لكن الذي يستغل المنصب والعظمة استغلالاً خاطئاً. فهذا هو الذي يفقد وداعته. وكذلك من يستغل الغنى والمال. ومع ذلك يوجد أغنياء كثيرون ودعاء ومتواضعون. يختلطون بالفقراء في محبة وبساطة ويحلّون لهم مشاكلهم..

***

وقد يفقد البعض وداعتهم. إذا ما دخلوا في مجال إصلاح الغير بطريقة خاطئة..

يظن هؤلاء أن وسيلة الإصلاح لا تأتي إلاّ بالعنف والشدة. أو أن الدفاع عن الحق لا يأتي إلاّ بالتشهير وإدانة المُخطئين أو من يظنونهم مُخطئين! وذلك بسبّهم علناً وتحريض الناس ضدهم..

مشكلة أولئك وأمثالهم أنهم يفقدون وداعتهم. ويرتكبون العديد من الخطايا. دون أن يدركوا ذلك. بل على العكس يفتخرون بما يفعلون! وأكثر من ذلك يحسبون أنفسهم أبطالاً ومُصلحين..!

***

يذكّرني هذا بأشخاص يُعهد إليهم بتنظيم أحد الاجتماعات:

وباسم العمل على حفظ النظام. ينتهرون ويصيحون. بل ويمنعون ويطردون. ويستخدمون كل القسوة في عملهم. وأحياناً لا نسمع أي ضوضاء في الاجتماع. إلاّ ما يصدر من أصوات المنظّمين!!

لماذا لا يعمل أولئك على حفظ النظام في هدوء وفي غير عنف؟!

لماذا لا يقلدون الراعي الذي يستخدم عصاه في تنظيم سَير الغنم. بمجرد الإشارة واللّمس والتوجيه. دون أن يضرب..

***

البعض يفقد وداعته باسم الصراحة وقول الحق!

وبحُجة الصراحة يجرح شعور الآخرين بطريقة مُنفّرة ومؤذية..!

والعجيب أنه يقول في افتخار: "أنا إنسان صريح. أقول للأعور: أنت أعور. في عينه!". ولماذا يا أخي تجرح هذا الشخص وتؤلمه. بصراحتك هذه الخالية من المحبة ومن اللياقة؟! أمَا كان مُمكناً أن تستخدم أسلوباً آخر. تراعي فيه إحساسه. ولا تفقد فيه الرّقة والوداعة؟!

إن السيّد المسيح كان رقيقاً في التعامل مع كثير من الخُطاة والخاطئات. وبلطفه اجتذب كل أولئك إلى التوبة. وإلى الإيمان.

يدخل في موضوع الصراحة أيضاً: لون من العتاب

فقد يوجد إنسان - بالعتاب - يربح أخاه بينما آخر يفقد الوداعة في عتابه. فيفقد صديقه أيضاً. وقد قال الشاعر في هذا:

ودَعْ العتابَ فربّ شرّ   كان أوله العتابا

***

إنسان آخر يفقد وداعته بسبب الحزم!

والحزم ليس معناه بالضرورة العنف. فما أسهل أن يكون الإنسان حازماً ووديعاً: يأخذ موقفاً حازماً. وفي نفس الوقت يشرح سبب هذا الحزم بطريقة مُقنعة لا تفقده محبّة من يستخدم الحزم معهم.

وهكذا يفعل الأب مع أبنائه. يتصرّف بحزم ممزوج بالمحبة والإقناع. ويمثل هذا الحزم أيضاً يتصرّف رئيس مع مرؤوسيه.. ولكن بحزم بعيد عن الغضب والنرفزة. بل بحكمة رصينة هادئة.

***

البعض يفقد وداعته بسبب الحرص على كرامته الشخصية

وهذا أمر ردئ. فالكرامة الحقيقية هى أن يحتفظ الإنسان بالصورة المثالية التي تجلب له احترام الكل. وليس بفقدان الوداعة والظهور بمظهر إنسان أثير ولم يستطِع ضبط نفسه!

***

من الشجاعة

الوداعة هى الطيبة واللطف والهدوء. ولكن لا يصح أن تُفهم فَهْماً خاطئاً. وكأن الوديع يبقى بلا شخصية ولا فاعلية لا يتدخّل في أي شيء! كلاّ. فهذا الوضع يفقد الوداعة صفتها كفضيلة..

حقاً إن الإنسان الوديع هو شخص طيّب وهادئ. ولكن هذه هى نصف الحقيقة. أمّا النصف الآخر فهو أن الوداعة ليست مُنفصلة أو مُتعارضة مع باقي الفضائل كالشهامة مثلاً أو الشجاعة.

وإنما كما يقول الحكيم "لكل شيء تحت السموات وقت"

وهكذا بالنسبة إلى الوديع: يعرف - في حكمة - متى يهدأ ومتى ينفعل؟ متى يصمت. ومتى يتدخل؟ وكيف يتصرّف في كل حالة من الحالات..

***

الطيبة هى الطبع السائد عن الوديع. ولكن عندما يدعوه الموقف إلى الشهامة أو الشجاعة أو الشهادة للحق. فلا يجوز له أن يمتنع عن شيء من ذلك بحجة التمسُّك بالوداعة..

لأنـه لـو فعـل ذلـك. وامتنـع عـن التحـرُّك نحـو الموقـف الشـجاع. لا تكـون وداعتـه حينئـذ حقيقية. إنما تصير رخاوة في الطبع. وعدم فَهْم لمعنى الوداعة. بل عدم فَهْم للروحانية بصفة عامة فالروحانية ليست تمسُّكاً بفضيلة واحدة تُلغى معها باقي الفضائل - إنما الروحانية هى اجتماع كل الفضائل معاً مُتجانسة ومتعاونة في جوّ من التكامل..

***

إن السيد المسيح كان وديعاً جداً. وفي نفس الوقت كان قوي الشخصية

في قوة قام بتطهير الهيكل من عبث اليهود. وطرد منه الصيارفة والباعة. وفي قوة وبّخ قادة اليهود قائلاً لهم "إنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس. فلا تدخلون أنتم. ولا تدعون الداخلين يدخلون"! فهل كان مُمكناً - بِاسم الوداعة - أن يتركهم يغلقون أبواب الملكوت؟! إن الوداعة فضيلة عظيمة. ولكنها لا تمنع الغيرة المُقدَّسة ولا الشهادة للحق..

موسى النبي كان حليماً جداً. ومع ذلك غضب غضبة مُقدَّسة. لمّا عبد اليهود عجلاً ذهبياً قد صنعوه فكسّره ووبّخهم..

فالوداعة لا تمنع أحياناً من تنبيه الخاطئ أو تحذيره أو حتى توبيخه.. فهل إذا رأيت صديقاً أو قريباً على وشك أن يتزوّج زواجاً غير شرعي. من قرابة ممنوعة. أو ما يسمّونه بالزواج العُرفي. أو ما شاكل ذلك.. هل تمتنع بِاسم الوداعة عن تنبيهه بأن ما ينوي عمله هو وضع خاطئ؟! كلاّ. بل من واجبك أن تنصحه. وليكن ذلك بأسلوب هادئ ومقنع.

هل إذا أُتيحت فرصة للوديع أن ينقذ أحداً. مُعتدى عليه مثلاً أو في خطورة.. أتراه يمتنع عن ذلك بِاسم الوداعة؟!

هل من المعقول أن يقول "وما شأني بذلك؟!".. أم في شهامة يتقدّم وينقذه.. هناك مواقف يجد فيها الوديع نفسه مُضطراً أن يتدخل..

٢٠٠٤/٥/١١

العثـرة أو الغـوايـة

ما أخطر أن يتسبّب إنسان في إسقاط غيره!

إن اللّه يطالبه بنفس من أسقطه..

وطريق هذه الخطيئة مُتشعّب جداً. فهو يشمل معرفة الخطية. أو تسهيل الخطية. أو مذاقة الخطية. ومن يقود إلى كل ذلك. وأيضاً تقديم الخطية بمفهوم مخادع. كأن تقدّم بِاسم فضيلة. أو يسهب في شرح "فوائدها" ومنافعها وفوائدها.. إنه نوع من الإغراء..

***

معرفة الخطية

أي أن يعرف الإنسان أموراً تضره روحياً. وما كان يعرفها من قبل.

وهكذا تدخل في ذهنه معارف تدنّس فكره..

أو تجلب له شهوات تسقطه في الخطية. وتفتح عينيه على أمور تُحدِث في قلبه أو عواطفه أثراً مُعثراً. كشاب بسيط يتفتح ذهنه على موضوعات جنسية ما كان يعرفها. أو كأن يقابله صديق فيصب في أذنيه معلومات تشوّه سُمعة شخص آخر. فيأخذ فكرة سيئة عنه تغيّر من مُعاملته له. أو تكون المعلومات المُقدّمة له ذات طابع ديني تجلب له شكوكاً عقائدية.

فيخرج هذا الإنسان من مُقابلة ذلك "الصديق". وهو يقول في قلبه: "ليتني ما قابلت فلاناً. وليتني ما سمعت ذلك الكلام..!".

***

ويدخل في هذا النطاق تأثير البيئة المُنحرفة. وما تقدّمه من أفكار..

وتنطبق عبارة: "المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة..".

وهكذا بالعثرة من جانب. وبالانقياد إلى العثرة من الجانب الآخر. يتعلّم الشخص أحياناً ألواناً من التحايل والمكر ما كانت تخطر له على بال. ويعرف التلميذ طُرق التزويغ من الدراسة. وكيفية الغشّ في الامتحان. والوسائل التي يضايق بها مُدرّساً حتى يخرجه عن صوابه..

وهناك أطفال تستخدمهم عصابات. فتعثرهم وتعلمهم الفشل. أو شباب يجتمعون معاً. والجديد منهم يعلمونه تعاطي المخدرات أو لعب القمار.. كلها عثرات. ولتفاديها قال المزمور "طوبي للإنسان الذي لم يسلك في مشورة الأشرار. وفي طريق الخطاة لم يقف. وفي مجلس المُستهزئين لم يجلس".

* * *

كذلك يعتبر عثرة. من يُقدّم لك الفكر الخاطئ دون أن يرد عليه!

يُقدّم كل أدلة الفكر الخاطئ وكل اثباتاته وبراهينه. ويقف عند هذا الحد. دون أن يذكر تعليقاته على ذلك. ودون أن يذكر الردود التي تحطّم ذلك الفكر الخاطئ.. وإذا هوجم على ما يورده من أفكار. يرد قائلاً: "أنا لم أقل إن هذا رأيي. إنما ذكرت كل ذلك من باب العلم!".

والخطير أيضاً أن يكون وراء هذا الشخص تابعوه وتلامذته ومريدوه. الذين يكرِّرون نفس الفكر الخاطئ ويعلّمون به. ويكونون هم أيضاً عثرة..

إن البعد عن هؤلاء طهارة وليس خصومة

إنه بعد عن أسباب العثرات. أو بعد عن المعرفة الخاطئة. فالذي يُسبِّب العثرة. يفقد غيره البساطة والبراءة التي كان يحياها.. النقطة التالية غير معرفة الخطية. هى تسهيل الخطية:

* * *

تسهيل الخطية

إنه نوع آخر من العثرة. لأنه يعرف إنسان خطية ما. ولكنه لا يمارسها لأن الباب مُغلق أمامه. لذلك يُعثره من يسهل الأمر عليه. فيدلّه على أماكن الخطيئة ووسائلها. ويقوده إليها. ويزيل الخوف من قبله. كما يزيل العوائق من أمامه..

وقد يقوم بهذا الدور من سار في طريق الخطيئة من قبل. وعرف دروبها ومسالكها. وطريق التهرُّب من مسؤوليتها.. فيقدِّم خبرته لغيره.

* * *

مذاقة الخطيئة

هى الخطوة العملية الأولى في ارتكاب الخطية

كالذي يُقدِّم لشخص سيجارة ليدخِّنها. أو وردة فيها مسحوق الهيروين ليشمّها. أو يجعله يذوق مكسباً في لعب القمار. أو يذوق كأساً من الخمر. أو يفتح له مجالاً عملياً لممارسة الخطايا الشبابية.

إن مذاقة الخطية خبرة تشجِّع على تكرارها. وبالتالي على الاندماج في الخطية. والإنسان الحكيم يحترس بكل الحرص من هذه الخطوة..

***

اسم آخر للخطية

من العثرة أيضاً تسمية الخطية بإسم فضيلة

أو بإسم آخر يسهل قبُوله.. كالذي يعلّم زميله لعب القمار. بأن يسميها تسلية. ويُبرِّر دفع المال في هذه التسلية بأنه تحلية للعب. والذي يدعو إلى الزنى بأنه مُعالجة للكبت وأضراره. والذي يساعد على التهرُّب من الضرائب. بقوله إن ذلك مجرّد تخلُّص من مغالاة وظلم اللّجان التي تقدِّر قيمة الضرائب.. أو من ينشر بدعة على اعتبار أنها المفهوم السليم. أو أنها تجديد في الفَهْم وبعد عن العتيق البائد.

إن الشيطان في تسمية العثرات. لا يُحارب بوجه مكشوف.

أنواع من العثرات

ليست كلّها في الأمور الشبابية أو الجسدية كما يظن البعض.. فهناك عثرات في الدين كما يفعل أصحاب البدع والهرطقات. وكمَنْ ينشدون شكوكاً في الدين. أو الذين ينشرون الإلحاد. والذين ينكرون المعجزات والقيامة. والذين ينادون بعودة التجسد Reincarnation .

وهناك عثرات في الفلسفة والفكر. وزعزعة الفكر من جهة كثير من القيم والمبادئ. كأصحاب البدع الذين يأتون بشيء جديد. لتحطيم ما قد تسلّمه الناس من قبل. ويقدّمون بإسم التجديد ومزيد من العلم.

لذلك من الخطر أن يعتبر كل إنسان نفسه مُعلّماً. ويُعطي ذاته الحق في أن يُقدِّم مفاهيم جديدة. وليس من الحكمة أن نقبل كل فكر جديد يُحطّم فينا تراثاً قديماً قد تسلمناه عبر الأجيال.

القدوة السيئة

هى أيضاً عثرة. إذ يقع البعض في أخطائهم بسبب تقليدهم لِمَنْ يضعونهم في مرتبة القدوة. من القادة أو الرؤساء أو الزملاء.

وهؤلاء المخطئون لم يقصدوا أن يجعلوا غيرهم يُخطئ. ولكنهم كانوا السبب في ذلك: إذ يعلمونهم الروتين. أو الحضور مُتأخّرين إلى مكان العمل. أو محاولة تبرير كل خطأ أو سوء مُعاملة الناس وتعطيل مصالحهم.. أو يعلّمون غيرهم قلّة الإنتاج. أو كتابة تقارير وهمية أو خاطئة.. الخ.

***

وللأسف. فالإنسان في المجتمع يمتص منه أشياء كثيرة. وعادات وعثرات:

ويدخل في هذا المجال أيضاً: الآباء والأمهات بالنسبة إلى أبنائهم. فالأبناء ينظرون إلى الآباء والأمهات كقدوة ويقلّدونهم.

ويدخل في مجال العثرة أيضاً ما يتعرّض له البسطاء الذين ليست لديهم القدرة على تحليل تصرفات من هم أكثر منهم خبرة وعلما ومركزاً. فيعثرون بهم - ليس من جهة انتقادهم - بل من جهة تقليدهم..

كذلك الموظف الأدنى مركزاً. إذا ترقّى إلى مركز أعلى. قد يسير على نفس منهج من قد سبقه. فيكون له عثرة إن اتبع أخطاءه.

***

الثقافة والإعلام

على الرغم ممّا تقدّمه هذه الأجهزة من برامج نافعة. فإن بعض البرامج قد تكون مُعثرة للسامعين أو المشاهدين. فلها تأثيرها على شخصياتهم. من حيث تفكيرهم وانطباعاتهم. وما تتركه في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس.. ولا ننسى أفلام العنف وما تتركه من تأثير في نفوس الشباب والمراهقين..

وبالمثل كل مصادر الفكر من كُتب ومجلات وجرائد ونبذات ومنشورات.. فبعض منها ليس فيه الحرص على سرد الحقائق. أو على مُراعاة الجانب الخلقي. فيصبح ما ينشره من كتابات أو صور سبب عثرة للبعض يؤثّر على مشاعرهم وتصرُّفاتهم تأثيراً خاطئاً.

قال أحد المُفكِّرين: قل لي ماذا تقرأ؟ أقول لك من أنت..

وأريد أن أضيف: ليس الأمر يقتصر فقط على ما تقرأ. وإنما أيضاً ماذا ترى وماذا تسمع؟ فالكاسيتات. وأجهزة التليفزيون والفيديو والانترنت. لها خطورتها في التأثير على الناس. وكذلك أفلام السينما والمسرح. وإن كان في هذه شيء ممّا يُعثر. تكون له نتائجه السيئة.. وعلينا أن نكون حريصين في كل ذلك. بالنسبة إلى أنفسنا وإلى أولادنا..

***

الكبير والصغير

على الكبير أن يكون حريصاً جداً في أقواله وتصرُّفاته. حتى لا يعثر الصغير أو الضعيف. فهؤلاء أمانة في أعناقنا.

إن أسباب العثرة قد يقاومها القوي. ولكن ما ذنب الضعيف؟

ونقصد بالقوي. القوي في روحياته. والقوي في إرادته. والناضج في تفكيره. هذا يمكنه أن يدرك الخطأ. ويقدر على مقاومته.. ولكن المشكلة في عثرة الضعيف أو الصغير أو البسيط..

والضعيف أيضاً قد يقول: إن كان الكبار هكذا يسقطون. فماذا أفعل أنا الضعيف؟! وقد يستسلم إلى الخطأ. أو يقع فيه يأساً أو انقياداً.!!

وربما سقطة الكبار أو المُثُل العليا. تكون عثرة قوية للضعفاء

فليحترس الكبار إذن في تصرُّفاتهم. ونقصد الأبويْن في محيط الأسرة. والمدرسين بالنسبة إلى التلاميذ. وقادة الدين بالنسبة إلى الشعب كله..

فليحترس كل هؤلاء ألاّ يكونوا سبب عثرة في كلامهم أو في تصرُّفاتهم. وحتى في حركاتهم وفي ملامحهم. وكذلك في حفظهم للنظام. وفي طاعتهم للقانون. وفي طاعتهم للوصية. لأن أي خطأ لهم - مهما يبدو طفيفاً - يكون سبب عثرة لغيرهم.

وعليهم أن يتلافوا الخطأ. حتى إن لم يُخطئ في ذاته. وإنما على الأقل يسبِّب شكاً للآخرين. لأن ما يُطلَب من الكبار هو مستوى أعلى بكثير ممّا يُطلَب من الأشخاص العاديين..

***

يوجد ضمير ضيق يتشكّك في كل شيء. ويظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ. وضمير واسع يُبرِّر تصرُّفات كثيرة! وموضوع الضمير يدخل في العثرة:

فهل الجمال إذن سبب عثرة. فتاة جميلة يراها بعض الرجال فيشتهونها.. هل هى إذن سبب عثرة لهؤلاء؟! وما ذنبها؟!

كلاّ. ليست العثرة في المرأة الجميلة. إنما في القلوب غير النقيّة التي تشتهيها. الخطأ فيهم وليس فيها. ولذلك فإن السيد المسيح لم يقُلْ: "إن أعثرتك امرأة". وإنما قال: "إن أعثرتك عينك". وعثرة العين سببها القلب غير النقي..

إن غير الطاهرين تكون كثير من الأمور عثرة لهم. بسبب انحراف فكرهم وانحراف مشاعرهم. حتى من غير أي منظر يرونه. هُم يُفكِّرون بطريقة دنِسة. حتى وهم في حجراتهم المُغلقة عليهم.. أمّا الطاهرون فإنهم يفكِّرون بنقاء وطُهر. لذلك لا يعثرهم ما يعثر غيرهم. المسألة إذن مسألة ضمير..

***

كثير من الأقوياء والممتازين. حسدهم غيرهم. فهل كانوا في قوتهم وامتيازهم سبب عثرة لغيرهم؟! أم العثرة في قلوب الحاسدين؟

وهل كان على هؤلاء الممتازين أن يفقدوا امتيازهم إرضاء للحاسدين؟!

وماذا نقول على الذين يحصلون على بطولات وأوسمة. والذين يحصلون على جائزة نوبل. وعلى أول الثانوية العامة في كل عام.. هل كل هؤلاء كانوا سبب عثرة لحاسديهم؟! كلا بلا شك. فالعثرة هى في الحاسدين..

وماذا نقول عن يوسف الصديق الذي اشتهته امرأة سيّده.. هل كان هو سبب عثرة لها؟! أمْ أن قلبها غير الطاهر هو الذي سبّب لها الشهوة..

***

الأمر يحتاج إلى دقّة شديدة في تمييز سبب العثرة

فليس هو الجمال. ولا القوة. ولا جاذبية الشخصية. ولا المواهب.. وإلاّ كان لازماً أن يخلو العالم من كل هذه الصفات السامية. حتى لا يعثر الواقعون في الحسد أو في الشهوة..

٢٠٠٤/٥/١٨

بعض حيل للشياطين

كنا قد تكلّمنا من قبل عن حيل يلجأ إليها الشيطان منها:

تقديم خطية في ثوب فضيلة. أو تحطيم فضيلة لاكتساب غيرها. أو تقديم مفهوم خاطئ للحرية.. أو القيام بحروب شيطانية أخرى مثل التشكيك. أو التخدير. أو حرب اليأس.

ونتابع اليوم حديثنا عن حيل أخرى للشياطين:

***

الخجل

الخجل فضيلة إن أحسن الإنسان استخدامها. ولكن الشيطان كثيراً ما يستخدم الخجل بطريقة تساعد على السقوط:

* مثال ذلك إنسان بار جلس وسط أناس. فإذا بهم يتكلّمون كلاماً رديئاً من الناحية الخلقية. أو يتحدّثون بالسوء في سِيرة شخص له مكانته. ويشهّرون به. أو يسردون قصصاً غير لائقة. وهذا الإنسان البار الجالس وسطهم الذي لم يكن يتوقّع كل هذا. أخذ يفكّر في أن يتركهم وينسحب.. ولكن يأتيه شيطان الخجل. ويرغمه على البقاء.. فيستمر جالساً. ويمتلئ عقله بأفكار ما كان يجب مُطلَقاً أن تجول بذهنه!

* **مثال آخر: عن طريق الخجل قد يوقع على تزكية لا يرضاها ضميره!**

أو يوقع على أي بيان أو قرار. هو في داخله غير راضٍ عنه. أو يشترك في مديح شخص لا يستحق ذلك.. وإن حاول أن يمتنع. يقف أمامه الخجل!

***

وقد يجعل الشيطان فتاة تخجل من ملابسها المحتشمة!

وذلك إن كان التيار العام على عكس ذلك.. أو يجعلها تخجل من تدينها بوجه عام: تخجل أن يعرف عنها أنها تؤدّي الصلوات في مواعيدها. أو تخجل من رفض دعوة إلى حفل مُعيّن لا تستريح له روحياتها. أو من رفض الاشتراك في أنواع الترفيه..

وبالمثل قد يخجل شاب مُتدين من رفض سيجارة تقدَّم له من زميل أو أستاذ له! وكم من خطايا يقع فيها البعض بسبب شيطان الخجل!

والمفروض أن يرفض المُتدين هذا الخجل. ويبعد عن مجالاته

أو يجد له سبباً يخرج به من الاحراج بلباقة. أو أن يكون قوي الشخصية يستطيع أن يدافع عن موقفه الروحي بإقناع الآخرين.. أو على الأقل يبعد عن الصحبة التي تحرجه وعن المناسبات التي يتعرّض فيها لحرب الخجل..

عجيب أن المُتدينين يخجلون من تديّنهم. بينما الخاطئون تكون لهم جرأة وجسارة في أخطائهم وفي انتقادهم للجو الروحي.

***

حرب أخرى من حروب الشياطين وهى:

العنف

إنها حرب يوجّهها الشيطان إلى الروحيين كما إلى الخُطاة:

يدرّب الإنسان على العُنف تجاه كل خطأ. وبالتالي يجعله عنيفاً في مقابلة كل من يخالفه في الرأي. وقد تختفي وراء هذا العنف كبرياء وقساوة قلب..

وربما كثير من الناس العاديين يتميّزون بالوداعة والهدوء. بينما نجد متديّنين يكونون عُنفاء جداً. بِاسم الدين!!! ساخطين على كل شيء. شاعرين أنهم هُم وحدهم الذين يعرفون اللّه ويسيرون في طرقه. وبهذا العُنف يسقطهم الشيطان في عديد من الأخطاء. وينسيهم فضائل الوداعة واللُّطف التي هى من سِمات المُتدينين.

***

حرب أخرى من حروب الشيطان هى:

الوقت الضائع

حياة الإنسان هى وقت. يحاول الشيطان أن يُضيعه:

والوقت الضائع هو الوقت الذي يمر بك بلا أدنى فائدة: لا فائدة روحية. ولا فائدة عقلية أو صحية. ولا فائدة للآخرين..

لا يهم الشيطان كثيراً أن يجعل صاحب الوقت يرتكب فيه خطيئة.. إنما يكفيه أن هذا الوقت يضيع كجزء من الحياة. بلا ثمر لأحد..

والأمثلة كثيرة لـهذا الضياع. وهى متنوّعة أيضاً

منهـا أحاديث قد تطـول بالسـاعات فـي موضـوعات لا فائـدة منهـا. وتكـون بـلا نتيجـة. ومجادلات ومناقشات لا جدوى منها سوى تعب الأعصاب وضياع الوقت. وزيارات وسهرات وترفيهات زائدة عن الحد. ومُسلّيات تأخذ كل الوقت. وتعطّل إيجابيات هامة في الحياة. ومثل جلوس البعض في المقاهي للّعب والكلام وقتل الوقت!

إن الذي يقبل ضياع وقته. تكون حياته رخيصة في عينيه!!

***

حيلة أخرى من حيل الشيطان هى:

الانقياد للتيار العام

قد يكون التيار العام خاطئاً. ويدعوك الشيطان أن تخضع لهذا التيار وتكون مثله! وقد يهمس في أذنيك قائلاً:

الكل هكذا.. لماذا تشذ أنت. ويكون لك أسلوب خاص؟!

والجواب هو أننا نتبع الحق أيّاً كان موقعه: في جانب الأغلبية أو في جانب الأقلية. فإن كانت أغلبية الناس في خطأ. فإننا لا نتبعها. وهكذا فعل أبونا نوح أبو الآباء. كل الناس في عهده كانوا أشراراً. وكان هو وحده البار مع أسرته.

إن رجل اللّه الثابت في وصاياه. هو الذي ينشد قائلاً:

سأطيع اللّه حتى .. لو أطعت اللّه وحدي

***

ولكن الشيطان يدفع دفعاً في التيار العام بطُرق شتى:

أحياناً يجعل الناس يجارون الخطأ من باب المُجاملة. أو من باب الخجل. أو من باب التقليد. أو خوفاً من تهكّم الآخرين ومن تعييرهم. أو نتيجة لضغط الظروف الخارجية وإلحاح الناس المُحيطين. أو أن يقول الشيطان "هذه المرة فقط. ولن تتكرّر"! ثم تتكرّر طبعاً... أو أن شخصاً يجاري التيار خضوعاً لسُلطة أقوى منه أو خضوعاً لرئاسة.. وقد يُجاري التيار جهلاً..

وقد يقول له الشيطان:

هل من المعقول أن يكون كل هؤلاء مُخطئين. وأنت وحدك المصيب؟!

هل يعقل أن كل هؤلاء لا يعرفون أين يوجد الخير والحق. وأنت الوحيد الذي تعرف؟! اتضع يا أخي.. "ويتّضع" الأخ! وينجرف في التيار.. وقد يسير في التيار نتيجة لصداقة أو صحبة خاطئة أثرت عليه..

***

وقد يخضع الإنسان للتيار نتيجة لضعف شخصيته

وهكذا لا يقدر على المقاومة. أو يقاوم قليلاً ولا يثبت. والعجيب أن المُنحرفين يكونون أقوياء جداً في الدفاع عن طريقهم الخاطئ. وفي سخريتهم من الأبرار الذين لا يجارونهم ولا يسيرون معهم. ويظلّون ينعتونهم بشتى النعوت. حتى يضعف هؤلاء ويخضعون!! يا للأسف..

يجب على أصحاب المبادئ أن يكونوا أقوياء في المحافظة على قيمهم. ثابتين راسخين. لا يتزعزعون أمام تهكمات الأشرار. "لا يشتركون في أعمال الظلمة غير المُثمرة. بل بالحري يوبخونها". وإن لم يستطيعوا توبيخ الخطأ. فعلى الأقل لا يشتركون فيه. وليكن لهم أسلوبهم المُميّز في الحياة..

***

لذلك كُن شجاعاً وصاحب مبادئ وقِيَم. وقاوم التيار المحيط بك إذا أخطأ. واعرف أن كل المُصلحين الذين سجّل التاريخ أسماءهم قد قاوموا تيارات سائدة في أيامهم. وإن حاربك الشيطان. لا تخضع لنصائحه ولا لمخاوفه.

وارفض الخطأ مهما رأيت كباراً يسيرون فيه. وإن وجدت الذين يسيرون في طريق الحق قليلين. فلا يضعف قلبك. فهذه هى القلّة المختارة..

إن الغالبية إذا وقعت في خطأ. فهذا لا يجعل الخطأ صواباً!

الخطأ هو الخطأ. ووقوع الغالبية فيه لا يُبرِّره. والمعروف أن الصواب طريقه صعب. وقد لا يستطيعه كل الناس. بل القلّة المُتميّزة بمبادئها.

وإن ضعفت أمام التيار. فاطلب من اللّه أن يُنجّيك..

والرب قادر أن يقوّيك. وأن يُنجّيك من التيار فلا يجرفك..

***

من حيل الشيطان أيضاً:

المشغولية

قد لا يحارب الشيطان العمل الروحي. ولكن لا يُعطيه وقتاً:

وهنا لا يمنعك من الصلاة. ولا من القراءة والتأمل. ولا من الترتيل والتسبيح. ولا من مُحاسبة النفس.. بل قد لا يمانع في أن تلقي دروساً ومحاضرات عن كل هذه الوسائط الروحية وفوائدها. ولكنه لا يترك لك وقتاً لممارستها!! وتصبح كما قال أحد الأدباء الروحيين: مثل الأجراس التي تدعو الناس إلى دخول الهياكل. دون أن تدخل هذه الأجراس إليها..!

***

إن اللّه يطلّ من سمائه على العالم. فيجده عالماً مشغولاً..

إنه عالم يجري بسرعة. لا يجد وقتاً يتوقف فيه ليفكّر إلى أين هو ذاهب..؟ وهو أيضاً عالم صاخب. كله أحاديث وضوضاء ومناقشات وانفعالات.. وأين الهدوء اللازم للعمل الروحي؟ غالباً ما تبحث عنه فلا تجده.. الكل مشغولون كباراً وصغاراً. قادة وشعباً.. هُم مشغولون عن أنفسهم. وعن روحياتهم. وعن أبديتهم. وعن علاقتهم باللّه.. كما لو كانت هذه الأمور كلها على هامش اهتماماتهم..! بينما "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!"

***

إن الشيطان يضخم دائماً في أهمية المشغوليات التي تعطلنا عن اللّه!

أو يضخم في إغرائنا بتلك المشغوليات. وكل ذلك باطل ووهم. فكل الذين ماتوا وتركوا هذا العالم. بماذا نفعتهم مشغولياتهم؟!

ولما تركوا تلك المشغوليات بموتهم. هل ارتبك العالم؟! كلاّ. طبعاً..

لهذا كُن حريصاً جداً. ووزّع وقتك في حكمة. ولا تسمح لأية مشغولية أن تبعدك عن الاهتمام بأبديتك.

***

إن لم يستطِع الشيطان أن يُبعدك عن العمل الروحي. فإنه يلجأ إلى حيلة أخرى ماكرة وهي:

التأجيل

إن وجدك مُصرّاً على عملك الروحي. فإنه يدعوك إلى التأجيل..

يقول لك لماذا الإسراع في عمل الخير؟ الأمر في يدك تستطيع أن تعمله في أي وقت. ربما التريث يعطي فرصة لفحص الأمر أكثر. أو لاختيار أسهل السبل الموصلة إليه. أو يعطينا مزيداً من الاقتناع.

وعلى أية الحالات توجد بعض أمور هامة في يديك. يلزمك أن تنتهي منها أولاً. ثم تتفرّغ لهذا الموضوع..

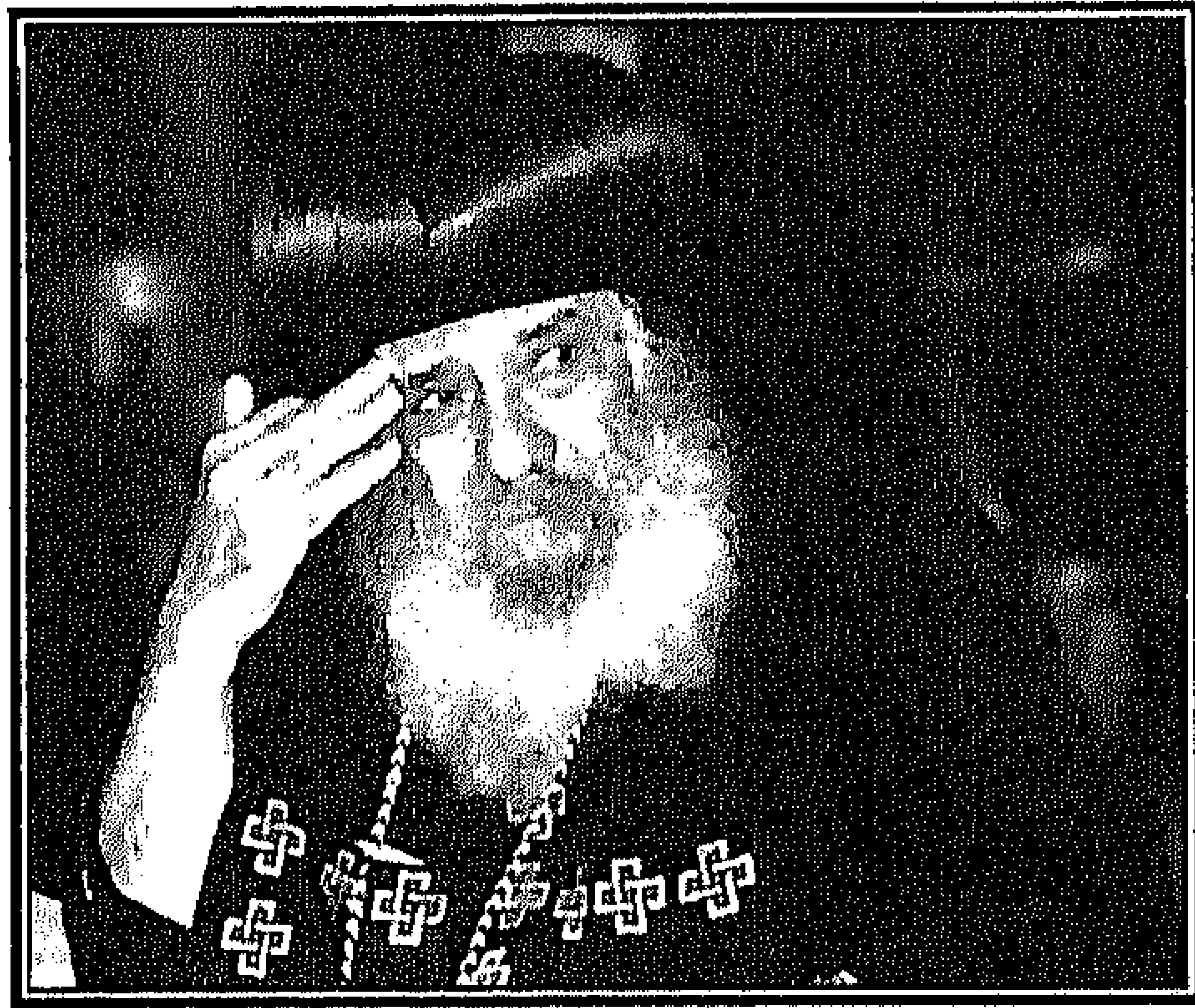
والمقصود بالتأجيل هو إضاعة الحماس لعمل الخير الذي تريده. أو إضاعة الفرصة. أو ترك الموضوع فترة لعلّك تنساه. أو يحدث ما يُغطّي عليه!

كأن تأتيك مشغولية كبيرة تأخذ كل اهتمامك ووقتك. أو يحدث حادث يُعطلك. أو تعترضك عوائق مُعيّنة تضع صعوبات أمامك في التنفيذ. أو يُلقي الشيطان في طريقك بخطية تفتر بها حرارتك الروحية. فلا تنفذ ما كنت قد نويت عليه وأجّلته..

***

إن الشيطان لا يمنعك عن الخير في صراحة.. إنما بلباقة يمنعك عن الخير بالتأجيل.

ما دامت الفرصة في يدك. والحماس في قلبك. فاحذر من تأجيل العمل الخيري. لأن التأجيل سيكون خطوة إلى الإلغاء.. لا تؤجّل التوبة.. ولا الصلاة. ولا العمل على إنقاذ الآخرين. ولا تؤجّل المعونة التي تقدّمها إلى محتاج.. ولا تؤجّل الوفاء بنذر قد نذرته. وعموماً لا تؤجّل عمل الخير. حين يكون في طاقتك أن تفعله.



٢٠٠٤/٥/٢٥

الهدف والوسيلة

قد يتّفق الناس في الأهداف والأغراض. ما دام الهدف سليماً وخيّراً. ولكنهم يختلفون في الوسائل الموصلة إلى الأهداف.

فما هى أسباب اختلاف الوسائل إذن؟

سببها اختلاف الفكر والعقل. فكل شخص له فكره الخاص وأسلوبه ونظرته الخاصة إلى الأمور. كذلك تختلف الأفكار من جهة درجة الذكاء. ومدى الحكم على الوسيلة بالنجاح أو الفشل. مع تقدير حساب ردود الفعل لكل وسيلة..

ويختلف الناس في الطباع ونوع النفسية. وكل منهم يُفكِّر في الوسيلة التي تتّفق وطبعه ونفسيته. والتي تتّفق أيضاً مع نوع البيئة التي يعيش فيها.

لذلك قد نجد أُناساً طيّبين ويريدون الخير. ومع ذلك فوسائلهم مختلفة.. كل واحد له طريقته وأسلوبه. وله منهجه الخاص في الوصول إلى الغرض.

***

ولهذا كثيراً ما يحدث خلاف في العمل الجماعي في أيّة هيئة من الهيئات. سواء اجتماعية أو دينية. أو حتى في الهيئات التشريعية كالبرلمانات..

أحياناً يوجد تنوّع. وأحياناً يوجد اختلاف أو خلاف.. الكل يريدون الخير. ولكن فَهْم كل منهم للخير. وأسلوب الوصول إليه. هو مركز الاختلاف. ولا أحد يُعارِض في تنوّع الآراء وتعدّدها. فهذا دليل على ثراء الفكر. وثراء الخبرة. أمّا الخلاف فكثيراً ما يُسبِّب انقسامات وصراعات وتحزُّبات. وربما يتحوّل من الموضوعية إلى خلاف شخصي. وربما إلى خصومة أو عداوة!!

***

ففي موضوع الإصلاح مثلاً:

الكل يحبّ أن تتصلح الأمور. الهدف إذن واحد. فمن من الناس يقف ضد الإصلاح. ولكن الوسائل تتعدّد وتختلف:

البعض يرى السرعة في الإصلاح. ويقول "خير البر عاجله". والبعض يرى التروّي والتدرّج. بوضع أساس سليم. والتنفيذ خطوة خطوة..

هناك من يُنادي بأن الاصلاح يأتي بثورة شاملة. ومن يرى أنه يأتي عن طريق الحكمة والتفكير والتفاهم. مع الصبر.. وعكس ذلك من يقول "كفانا صبراً. الصبر هو هدنة مع الجو الخاطئ".

البعض يرى أن الإصلاح لا يتم إلاّ بالعنف والتشدّد. وقد يسلك في ذلك بأسلوب التجريح والتشهير ويقول إن المُخطئين لا يصلح معهم سوى الشدة والبتر.

بينما يسلك غيرهم في الإصلاح بأسلوب هادئ دعامته الدراسة للحاضر والمستقبل..

***

لذلك إن اشتركت مع أحد في عمل. أو من أجل خير ما. لا يكفي أن يكون مشتركاً معك في الهدف. وإنما ينبغي أن يكون مشتركاً معك في الوسيلة أيضاً.

لئلاّ تكون طريقته في تنفيذ الغرض المشترك غير طريقتك. وأسلوبه في التعامل مع الأمور ومع الأشخاص غير أسلوبك. وهكذا تختلفان معاً. وربما يُسبِّب لك مشاكل باعتباركما شريكيْن في عمل واحد..

***

العجيب في مسألة الوسيلة هو المبدأ الميكافيلّي. الذي به:

يظن البعض أن الهدف الطيب يُبرِّر الوسيلة الخاطئة!!

وهذا ما كان ينادي به ميكافيلّي أن "الغاية تُبرِّر الواسطة"..

* فإنسان مثلاً بِاسم "الغيرة المُقدَّسة على الحق والواجب" يثور ويصيح. ويشتم ويوبخ. وربما يعتدي على غيره أو يرفع قضايا. وفي كل ذلك لا يوبّخه ضميره بل يُشجِّعه على مزيد من العنف. ولمثل هذا نقول:

إن الحماس المُقدَّس للحق. تناسبه أيضاً وسيلة مُقدَّسة..

* وبالمثل أب يقسو جداً على ابنه. حتى يعقّده نفسياً. ويحتج بغرض مُقدَّس هو تربية ابنه!! إن الغرض سليم "التربية" ولكن الوسيلة خاطئة.

* أو زوج يحبس زوجته في البيت. ويقيد كل تحركاتها وكل تعاملاتها. بحجة الحفاظ عليها! هذا أيضاً وسيلته خاطئة. فيها جهل وأنانية..

* أو أمّ - دون أن يطلب ابنها منها - تتدخّل في حياته الزوجية. بهدف توجيه النصح له. ولكن بوسيلة تؤدّي إلى ضعف شخصيته وتفكّك أسرته..!

***

وكثيراً ما ضيّع الناس أنفسهم وعلاقاتهم بالطريقة أو الوسيلة الخاطئة.

مثال ذلك شخص يسعى إلى مصالحة غيره. هدف سليم بلا شك. ويرى أن الوسيلة هى العتاب. ويخطأ وسيلته في العتاب يفقد صديقه تماماً!!

ففي العتاب يُعيد الأوجاع والجروح القديمة. ويضغط عليها بأسلوب يتعب الطرف الآخر. مظهراً له أخطاءه وسوء تصرُّفه. وهكذا يخرج من العتاب وقد ساءت العلاقة عن ذي قبل. لأن العتاب كان بوسيلة خاطئة..

بعكس إنسان آخر. يستطيع بالعتاب أن يكسب الموقف. بل يجعل الطرف الآخر يتفهّم الموضوع بأسلوب يزيل التوتر الذي حدث بينهما. ويخرج الطرفان صديقيْن كأن لم يحدث بينهما شيء.. إنها الوسيلة تنفع أو تضر..

العتاب هو العتاب. ولكن أسلوبه عند الواحد مقبول بوسيلة مجدية. وعند الآخر بوسيلة مُتعبة ومؤذية. وتأتي بعكس المطلوب..

إنسان يُعاتب بحُب وعشم. وآخر يُعاتب بسخط وهجوم. الأول يريد أن يصالح. والثاني يريد أن يثبت للطرف الآخر أنه كان مُخطئاً.

***

نفس الوضع بالنسبة إلى الخُطاة والمُخطئين

كلّنا نكره الخطأ. ونأخذ من أصحابه موقفاً مُعارضاً. هنا الغرض واحد. ولكن الوسائل تختلف من واحد إلى آخر..

فالبعض يُبعد عن المُخطئين. وينعزل عنهم ولا يختلط بهم.

والبعض يأخذ منهم موقف المقاومة. ويحاسبهم على كل خطأ يصدر منهم. ولا يترك الأخطاء تمر بسهولة أو بدون مؤاخذة...

والبعض الثالث يحاول أن يصلح أولئك ويقودهم إلى التوبة ويكسبهم ربما بالحب والصبر. أو بالمواجهة والاقناع. المهم أن يوصلهم إلى اللّه وإلى الطريق السليم. ويربح نفوسهم فلا تهلكها الضلالة..

نقطة أخرى وهى تربية الأبناء

كل الناس يريدون تربية أبنائهم تربية سليمة. إنه هدف يتفق فيه الجميع. ولكنهم يختلفون في أسلوب التربية. أي في الوسيلة

* فالبعض يمنحون أولادهم الحرية الكاملة. كما يحدث في كثير من بلاد الغرب. وحينما يكبر الأولاد لا يصبح لآبائهم وأمهاتهم أية سُلطة عليهم ويُبرِّرون أسلوبهم في التربية بأنهم يريدون أن تكون للابن شخصيته القوية المُستقلة التي لا تقع تحت ضغوط..

* هناك أسلوب آخر يلجأ إليه آباء في تربية أولادهم. وهو التشديد الكامل. فلا يخرج إلى حفلة مُعيّنة إلاّ بإذن. ولا يصاحب أحداً إلاّ تحت رقابة. ولا ينضم إلى أي نادٍ أو إلى أيّة أنشطة إلاّ بموافقة. وهذا التضييق يوجد عنده كبتاً تكون له ردود فعل سيئة في المستقبل.

* وهناك طريق في التربية وسط بين الأسلوبيْن السابقيْن. لا هو بالحرية التي فيها تسيُّب. ولا هو بالتشديد الذي فيه تقييد. إنه:

أسلوب أب يصادق ابنه. ويشرح ويعلم. ويقنع ويحاور

ولا شك أن الإقناع - ولو أنه يأخذ وقتاً وجهداً - إلاّ إنه يوجد حافزاً في الداخل. أفضل بكثير من الأوامر والنواهي. التي هى مجرّد ضغوط من الخارج نابعة من السُّلطة وليس من الصداقة..

***

نتناول موضوع الانضمام إلى مؤسّسات أو مجتمعات أو أية هيئات:

كثيرون ينضمون. أو يبذلون جهداً للانضمام. البعض يريد أن يصلح الهيئة بتولّي السُّلطة فيها. والبعض يقصد العمل الايجابي البنّاء. والبعض يريد الاصلاح الداخلي للهيئة بالقدوة الصالحة. بينما آخرون يهدفون إلى إصلاحها بأن يكونوا داخلها هيئة مناوئة..

وفي كل ذلك تختلف وجهة النظر بين الغرض والوسيلة: فعند البعض الغرض هو العضوية. بينما يرى البعض أن العضوية هى الوسيلة. أمّا الغرض فهو الصالح العام..

***

على أن هناك نقطة هامة في موضوعنا وهى:

كثيراً ما تتحوّل الوسيلة إلى هدف!!

* إنسان يقول: لو أعطاني اللّه مالاً. لكنت أعمل بهذا المال أعمال خير كثيرة "يذكرها بخياله الخصب". وهنا يكون عمل الخير هو الهدف. والمال هو الوسيلة. ولكن بمرور الوقت يتحوّل المال إلى هدف. والسعي وراء المال هو الوسيلة. وتتعدّد وسائل جمع المال وتشغل ذهنه.. وأين الهدف الأصلي "عمل الخير"؟ لقد اختفى تماماً!!

* وبالمثل إنسان يريد أن يحصل على منصب كبير ليخدم بلده.. فخدمة البلد هى الهدف الذي يُجاهر به في سعيه وراء المنصب. وما المنصب سوى الوسيلة. ولكن في هذا السعي يتحوّل المنصب إلى هدف.

وتتعدّد الوسائل الموصلة إليه. صالحة كانت أو طالحة. شرعية أو غير شرعية. أمّا الهدف الأصلي - خدمة البلد - فيكون قد اختفى..!!

حقاً.. ما أكثر ما تختفي الأهداف السامية. وتحلّ محلها الوسائل!

***

كثير من الشبان والشابات يقولون إن هدفهم هو السعادة ويرون أن الوسيلة هى الزواج والاستقرار في بيت. وكل هذا هو تفكير سليم. غير أن الزواج يتحوّل عندهم إلى هدف ووسيلته في فكرهم هى الحُب. وقد يفسّرون الحُب بتلك العاطفة المتأججة غير المُنضبطة.

ويسيرون في تلك العاطفة. فيتحوّل هدفهم إلى المتعة الجسدية. وفي المُتعة ينسون أنفسهم. وينسون أنها قد لا تؤدّي إلى الزواج. وإنما قد تؤدّي أحياناً إلى الضياع. وبمرور الوقت قد ينتهي التمسُّك بهذه المتعة عند أحد الطرفين.: إمّا عن طريق الملل أو بيقظة من العقل أو الضمير. أو بالاتجاه إلى ناحية أخرى.. وفي كل ذلك يكون قد فتر ثم اختفى الهدف الأول. ويقف الطرفان وقد فقدا الهدف والوسيلة!

***

في الحياة الروحية. الهدف الوحيد هو اللّه.. وما كل الفضائل سوى وسائل توصل إلى اللّه وإلى ملكوته الأبدي

نعم. ما الصلاة والصوم. والترتيل والتسبيح. والقراءة الروحية والتأمُّل.. سوى وسائل توصل إلى اللّه. وليست أهدافاً في ذاتها.. ويُخطئ من يحوّلها إلى أهداف مُستقلّة عن اللّه.

فمثلاً: إنسان يقرأ في كتاب اللّه وفي الكُتب الروحية. والمفروض أن هذه القراءة توصله إلى محبة اللّه وطاعته. ولكن ما أسهل أن تتحوّل القراءة عنده إلى هدف. فالمهم أن يقرأ - ولو بدون تأمل. وبدون تداريب روحية - وقد تتحوّل القراءة عنده إلى أهداف أخرى!!

قد يقرأ الكتب الدينية لكي يكون عالماً. أو لكي يكون مُعلّماً. ولكي يبدو كثير المعرفة واسع الاطلاع. يجيد الكلام في أي موضوع يتحدّث فيه أو يسألونه عنه. وهنا لا يكون اللّه هو هدفه..

ويتحوّل الهدف من اللّه، لتصبح ذاته هى الهدف!

***

لهذا ينبغي أن يراجع الإنسان هدفه، لئلاّ يضيع هدفه منه..

وينبغي أن يتحقّق من أن الوسيلة التي يتبعها تقوده إلى هدفه..

كذلك عليه أن يتأكّد أن هدفه سليم وروحي. وأنه لم ينحرف عنه إلى هدف آخر. وأنه يستخدم الوسائل العملية التي تحقّق له هدفه السليم. بحيث تبقى هذه الرسائل مجرّد وسائط. ولا تتحوّل بمرور الوقت إلى أهداف..!!

وليكن الإنسان صريحاً مع نفسه. وليسألها في جدية:

هل أمكن أن يوصلني صومي إلى ضبط النفس. وإلى رفع مستواي الروحي عن ذي قبل؟ وهل أسلك فيه بطريقة روحية تناسبه؟

هل قراءاتي الدينية تترك تأثيراً في سلوكي الشخصي. وتتحوّل من قراءة إلى حياة؟ أمْ هى لمجرّد المعرفة. وقد فقدت هدفها؟!

ويسأل أسئلة مُشابهة عن باقي الوسائط الروحية..

***

أخيراً أختم هذا المقال ببعض أسئلة لا بد منها:

ماذا نقول عن الذين يعيشون بدون هدف ثابت. تحققه وسائط عملية؟ وماذا عن الذين يفقدون هدفهم في الطريق؟

ماذا عن الذين يحيون حياة عشوائية. غير محدّدة المعالم؟ لا يهدفون منها إلى شيء. سوى أن يقودهم اليوم إلى الغد! ويقودهم الغد إلى حيث لا يعلمون!!

٢٠٠٤/٦/١

الخطايا الأمهات

الخطايا الأمهات هي خطايا كبيرة تلد العديد من الخطايا. بحيث لو انتصرنا على الخطية الأم. لأمكن أن ننتصر بالتالي على ما يجوز أن تلده من خطايا.

فما هي هذه الخطايا الأمهات؟ وما هي أولاد كل منها؟

الذات

الذات هي من أشهر الخطايا الأمهات. والإنسان المُتمركز حول ذاته. ما أسهل وقوعه في الكثير من الخطايا.. لذلك كان من أهم الفضائل التي تقي من ذلك:

فضيلة إنكار الذات.

الإنسان - بسبب الاهتمام بالذات - قد يقع في الإعجاب بالذات. وفي محبّة المديح. والرغبة في أولوية ذاته. وفي محاولة تغطية الذات زوراً في كل خطأ والدفاع عنها. بل يقع أيضاً في إشباع الذات. وسهل أن يصل إلى عبادة الذات!!

***

والذي يهتم بأولوية ذاته. وتفضيلها على الآخرين:

هذا يفقد الاتضاع. ويحب المتكآت الأولى في كافة الاجتماعات ولا يستطيع مُطلَقاً أن يكتسب الفضيلة التي تقول: "مُقدِّمين بعضكم بعضاً في الكرامة". بل هو يزاحم الناس ويُنافسهم في كل مكان. وحول كل مكانة. ويحاول أن ينزعهم من مراكزهم. لكي يحل هو فيها. كذلك قد يقاطع غيره في الكلام. ليتكلّم هو!

وقد يجرّه كل هذا إلى الإساءة إلى كل من يعترض طريقه. أو من يظن أنه منافس له. أو من يتحدّث الناس عنه بالخير أكثر منه. ويقع في إدانة هؤلاء والحط من قدرهم.

إن محبّته لأولوية ذاته. توقعه بلا شكّ في الغيرة والحسد. وفي كل نتائج هاتيْن الخطيتيْن..

***

ومحبته لذاته تجعله يُبرِّر ذاته في كل أخطائها. ولا يقبل نقداً يوجه إليه. وقد يثور ويغضب لمجرد ملاحظة قيلت عن تصرُّفاته. وربما في دفاعه عن نفسه. يلصق الخطأ بغيره ظُلماً وادعاء. وفي دفاعه عنِ نفسه. قد يجره ذلك إلى الكذب لكي يظهر بريئاً. وقد ينتحل أعذاراً هى جانبية جداً وليست السبب الحقيقي الذي يستند إليه في عذره. كما قد تكون مختلقة!

وهكذا فإنه في تبريره لذاته - الذي هو جزء من محبّة الذات - يقع في خطايا كثيرة..

وتصبح المناقشة مع مثل هذا الشخص مُتعبة للأعصاب. لأنه لا يهدف إلى إظهار الحق. إنما إلى إظهار برّه هو. والتغطية على نفسه.. وهكذا يلجأ إلى المُلاججة. أو بالتعبير العامي إلى "المقاوحة". أو إلصاق العيب بغيره. أو بالمجتمع كله. أو بالأنظمة الموضوعة..

***

وإن كان من مظاهر الاهتمام بالذات. الرغبة في إشباع الذات.. فما أسهل أن يشبعها بطرق خاطئة: مادية أو جسدية!

وهكذا يقع في محبّة العالم وشهواته. ويتشبّه بذلك الذي قال: "... ومهما اشتهته عيناي. لم أُمسكه عنهما!".

كذلك يقع في شهوة المال. وشهوة المقتنيات. وفي شهوة الجسد. وكل هذه الشهوات قد تجرّه إلى طرق خاطئة عديدة للحصول عليها. منها التحايل. ومنها الطمع. ومنها الخروج على القانون وعلى العُرف وكل مبادئ القِيَم والأخلاق..

وتكون طريقة إشباعه لذاته خطية. ووسائل الوصول إلى هذا الإشباع خطايا أخرى. وفي كل ذلك يفقد روحياته..

***

والذي يريد أن يشبع ذاته. عملياً سوف لا يشبع..!

وكما قال سليمان الحكيم: "العين لا تشبع من النظر. والأذن لا تمتلئ من السمع" كل الأنهار تجري إلى البحر. والبحر ليس بملآن". وبهذا يكون الشخص الذي يهدف إلى إشباع ذاته. إنما يقضي عمره في تعب باطل. لأنه لا يلجأ في محاولة إشباع الذات إلى طرق روحية سليمة.. فمَنْ يشرب من هذا الماء. يعطش أيضاً. وإذ يعطش. يشرب مرّة أخرى.. وهكذا إلى غير نهاية..!!

وإن أراد أن يُشبع نفسه بشيء عند غيره. يقع إمّا في الحسد. أو في الغيرة. أو في التحايل. أو في الفساد.

إن امرأة سيّدنا يوسف الصديق: أرادت أن تُشبع ذاتها بطريقة خاطئة لم يوافق عليها يوسف. فلجأت إلى الكذب والادعاء. وإلصاق تهمة ظالمة بذلك الرَّجُل البار، جرّت عليه مشاكل مُتعدِّدة.

والذي - في سبيل إشباع ذاته - يقع في الحسد. ما أسهل أن يجرّه الحسد إلى جرائم كثيرة في سبيل التخلّص من المحسود. أو من أجل الحصول على ما يحسده عليه.

***

والذي يحب ذاته. وإشباعها بطريقة خاطئة في تحقيق شهواتها..

هذا قد يصطدم باللّه نفسه. ما دام يرى أن وصايا اللّه تقف ضد شهواته هو!

وهكذا كان الفكر الوجودي المُلحد الذي يُنادي بأنه: "من الأفضل أن اللّه لا يوجد. لكي أوجد أنا!!".

بهذا الفكر رفض الوجوديون وجود اللّه. وأضلّوا كثيرين.. كذلك لا شك أن الذي يحب إشباع ذلك. يرفض مبدأ "ضبط النفس" الذي يدعو إليه الدين. وتدعو إليه مبادئ الأخلاق وعلم الاجتماع. ويفضل أن يعيش في حياة اللهو والمُتعة واللّذة. بكل ما تحمل من خطايا لا داعي لذكرها..

***

والذي يحب ذاته وشهواتها. من الصعب أن يصل إلى التوبة

فهو لا يدين نفسه ولا يلومها. ولا يعترف بأنه مُخطئ. وبأن حياته يجب أن تتغيّر. ليترك ما هو فيه من أخطاء.. إنه يُحب تلك الخطايا والأخطاء التي يجب أن يتركها بالتوبة.

إنه في محبته لذاته وشهواتها. يحيا حياة التسيُّب وعدم الانضباط. وحياة الفضيلة صعبة عليه. وكلمة التوبة لا توجد في قاموسه العملي! وبالتالي لا يؤمن بضبط الفكر. ولا بضبط اللّسان.

ولا بضبط عواطف القلب.. كل هذه الأمور ضد شهواته وضد حريّته..!

السبب في كل ذلك. أنه يحب ذاته محبّة خاطئة. ولا يُفكِّر في ذاته من جهة مصيره الأبدي ووقوفه أمام اللّه في يوم الدين!

والذي يُحب ذاته بهذه المحبة الخاطئة قد ينتقم ممّن أساء إليه.

أو ممّن يظن أنه قد أساء إليه.. ويرد الإساءة بمثلها أو أكثر. ويقع في الغضب والنرفزة. ويكسر كل الوصايا الخاصة بالوداعة والتسامح. وبالهدوء والاتضاع وطول البال.. وفي ذهنه أن كرامته قد جُرحت. فيجب أن يرد إليها اعتبارها مهما كانت الوسائل!!

***

أرأيتم أيها القراء الأعزاء. كم عدد الخطايا التي ذكرناها كمثال لِمَا أنجبته خطية واحدة من الخطايا الأمهات. هى محبّة الذات..

فعلى الواقعين في هذه الخطية أن يدركوا ما هى المحبة الحقيقية للذات. التي تهدف إلى تنقية الذات. وتحريرها من العيوب والأخطاء. ومن الضغنات والعادات الرديئة. لكي تعود هذه النفس إلى ما يجب أن تكون عليه من مثالية وإشراق. وتُعدّ ذاتها لأبديتها..

***

هناك خطية أخرى من الخطايا الأمهات وهى الكبرياء.

الكبرياء

وتشمل هذه الخطية: الكبرياء في الفكر. وفي القلب. ومظاهرها في الجسد.

في الفكر: بأن يكون الشخص حكيماً في عيني نفسه. وباراً في عيني نفسه!

وهذا لون من الغرور والخيلاء.. وأيضاً يُفكِّر باستمرار أنه أعلى وأفضل من غيره. أو يُفكِّر في الوصول إلى مستوى أعلى من الكل! بحيث لا يكون مثله أي أحد ممّن يحيطون به..

والذي يُكبّر فكره هكذا. قد يصل إلى صلابة الرأي:

فلا يستطيع أن يتنازل عن رأيه. مهما ثبت خطأ هذا الرأي!.. ويتعالى في فكره على غيره.

ويصبح من الصعب جداً أن يدخل أحد في حوار معه..

وقد يعجب بنفسه. كلّما يأتي بفكر جديد يُميّزه على غيره. حتى لو كان بدعة!! وكل الهراطقة والمبتدعين الذين عرفهم التاريخ كانوا مُصابين بالكبرياء التي بها لم يستطيعوا التنازل عن البدع فثبتوا فيها..

وصَدَق عليهم قول سليمان الحكيم: "قبل الكسر الكبرياء. وقبل السقوط تشامخ الروح".

أمّا سقوط القلب في الكبرياء. فهو أن يتحوّل فكر الكبرياء إلى شهوة أو رغبة في القلب تختلط بمشاعر الإنسان.

وقد تصبح سبباً لأفكار كبرياء جديدة. ومصدراً للسعي وراء تمجيد الناس.

وهناك كبرياء أخرى تظهر في الجسد. نتيجة لكبرياء القلب: تظهر في شكله وملامحه وحركاته. وفي طريقة مشيه وطريقة جلوسه. وأسلوب نُطقه وحديثه وإشاراته. كل ذلك في عظمة وشموخ أنف. وخيلاء وتباه وإعجاب بالذات.

وهذا ما يُسمّيه العامة "بالنفخة الكذابة". بحيث يُكلّم الناس من فوق. ويُعاملهم بلون من التعالي. وقد لا يرد على حديث البعض منهم. أو يرد بمجرّد إيماءة أو كلمة واحدة.

فيكون في كلامه كبرياء. وفي صمته كبرياء.

***

وقد تصل الكبرياء إلى احتقار الآخرين وإلى إساءة معاملتهم

كما تصل إلى التمايز العنصري. مثلما عومل السود من الأجناس البيضاء.. وقد يقول البعض لغيرِهِ في كبرياء "يلزمك أن تعرف من أنا؟ ومن أنت؟ ومع من تتكلّم؟" وما أعمق أن يكون الرد على مثل هذا الكلام "أنا وأنت من تراب. وإلى التراب نعود".

وتقود الكبرياء إلى عدم الاحتمال وإلى حساسية شديدة نحو الكرامة..

بحيث أن أقل كلمة يمكن أن تسيء إلى هذا المُتكبِّر. وأبسط تصرّف يؤدّي به إلى الثورة والهياج والانتقام. وتصبح أعصابه مُرهفة جداً ومترفّهة جداً.. ويمكن أن الحساسية الشديدة نحو الكرامة تقود إلى الكبرياء في محيط الأسرة. وإلى سهولة الانتهار والتوبيخ لأتفه الأسباب. وإلى طلب طاعة مُطلَقة بدون نقاش. مهما كانت الأوامر صعبة التنفيذ!

***

وكثيراً ما نسمع المُتكبِّر يقول: "أنا الكبير. أنا المسؤول. أنا صاحب الكلمة الأولى والأخيرة"!!

وبهذا كله. يصبح من الناحية الاجتماعية شخصاً غير مقبول. لأن عجرفته تنفّر الناس.

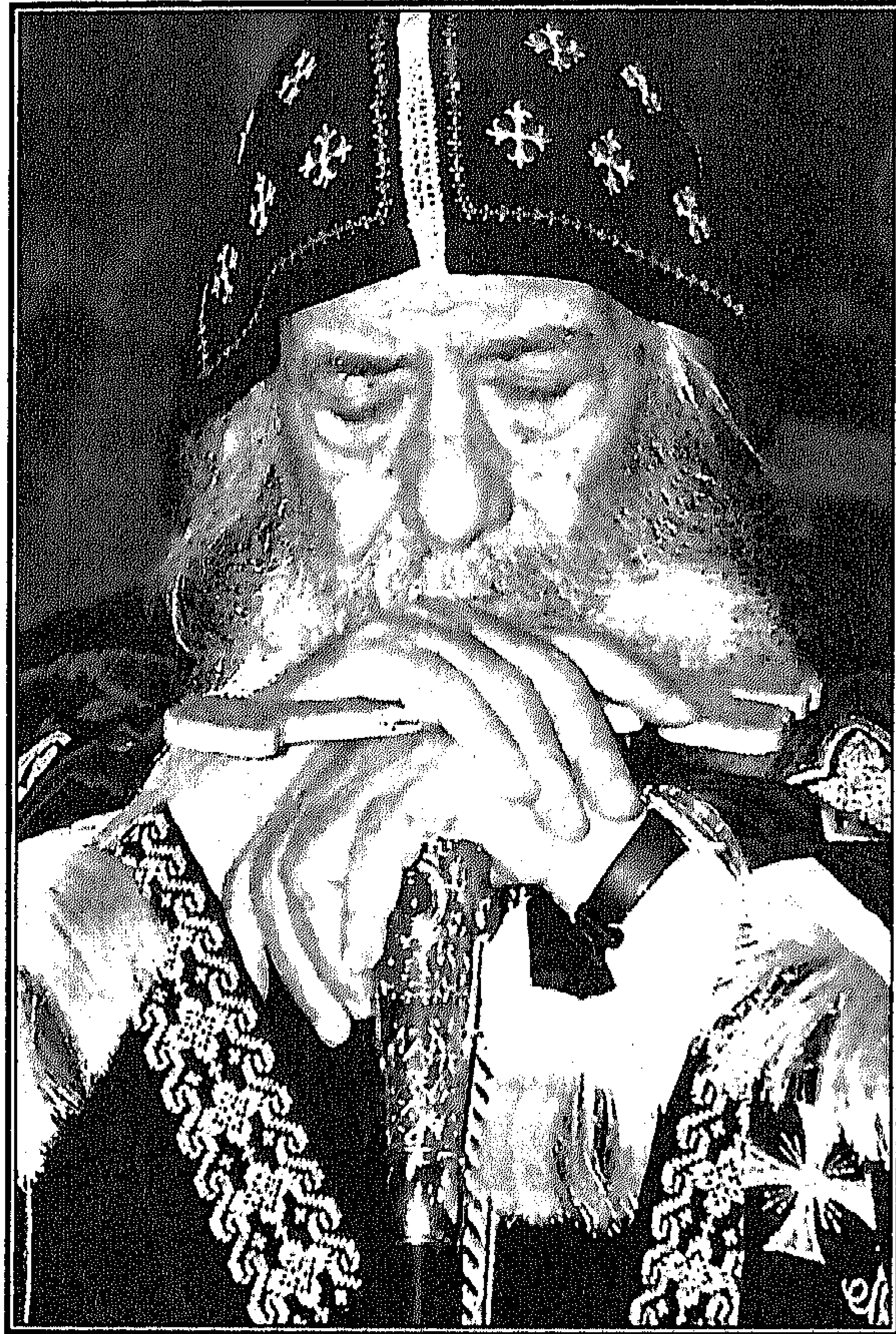
وتبعدهم عن التعامل معه..

وما أكثر الخطايا التي تلدها الكبرياء. بل ما أشد نتائجها: يكفي أنه بالكبرياء تبعد نعمة اللّه عن المُتكبّر. فيسقط لأنه لا توجد قوة تسنده من فوق. ولأن كل نجاح له يُنسبه إلى نفسه. لا إلى النعمة العاملة معه. فيزيده النجاح كبرياء فوق كبرياء..

***

خطايا أخرى:

هناك خطايا أُمهات أخرى. مثل الكراهية والكذب وغيرهما، ولكن المجال في هذا المقال لا يتسع لهما ولغيرهما الآن.



٢٠٠٤/٦/٨

الإلحاد والرد عليه

الإلحاد هو أولى الخطايا الأمهات. وأخطرها. وما أكثر الخطايا التي تتولّد عن الإلحاد! من الصعب أن تُحصى..

والإلحاد على نوعيْن: أحدهما ينكر وجود اللّه. والثاني هو الذي يرفض هذا الإله أو يتهكّم عليه وينتقده..

* والإلحاد الرافض للّه: إمّا أن يرفضه لسبب شهواني. أو لسبب اقتصادي. فالذين يرفضونه لسببه شهواني. يرون أن اللّه يقف ضد شهواتهم بوصاياه التي تمنعهم عن التمتُّع بخطايا مُعيّنة. وهؤلاء شعارهم يقول: "من الخير أن اللّه لا يوجد. لكي أوجد أنا!".

أي لكي أتمتع بالوجود الذي أريده. بعيداً عن وصايا اللّه التي تقيّدني!

هؤلاء يتهكّمون بقولهم: أتدّعون أن اللّه في السماء؟ ليكُن في السماء. ويترك لنا الأرض لا شأن لنا به. ولا شأن له بنا..!

***

أمّا الإلحاد الرافض لسبب اقتصادي: فهو يدّعي أن اللّه يسكن في برجٍ عاجي. ولا يهتم بشئون الأرض. ولا يقيم العدل والمساواة فيها!

ففي الأرض يوجد من يعيشون في فقر وعوز لا يجدون القوت الضروري. بينما يوجد أغنياء يحيون في رَغد من العيش. ويفيض عنهم ما يزيد على احتياجهم. ممّا يشتهي الفقراء الفتات الساقطة منهم. واللّه يرى ولا يعمل!!

وهؤلاء الملحدون هُم الذين أنشأوا الاشتراكية المُلحدة. زاعمين أن الكل حسب نظامهم يشتركون بمساواة في خيرات الأرض!! ومنعوا ملكية الأرض والعقارات. فالناس يسكنون العقارات ولا يملكونها. ويفلحون الأرض ويستفيدون من إنتاجها. دون أن يملكوها كذلك..

وكانوا في بعض أساليبهم الإلحادية. يقولون للفلاح: أتريد بقرة؟

أُطلب من اللّه فإن لم يُعطِك إياها. اطلبها من ستالين أو لينين.. وحينئذ ستأخذها! فما معنى الإيمان باللّه إذن؟ وما فائدته؟!

وعملياً لا يمكن أن يتساوى الناس في إيرادهم. لأنهم غير مُتساويين في العقلية ودرجة الذكاء. ولا في القدرة على الإنتاج...

فقد تبدأ مجموعة مُعيّنة بقدر واحد من المال لكل فرد منها. ولكن البعض قد يستثمر في ذكاء واجتهاد وأمانة في العمل. فيزداد المال الذي معه ويتضاعف. بينما البعض الآخر يخسر ما معه. أو ينفقه في الفساد. وينتهي الأمر بأن الذين بدأوا معاً بمساواة في المال. انتهوا على عكس ذلك تماماً.. ويكون ذلك عدلاً. لأن اللّه يُكافئ كل إنسان بحسب عمله.. إلاّ لو جعلنا الناس مجرّد آلات بلا فكر!!

وقد تتوزّع الأرض الزراعية بالتساوي على الناس. ويتّجه البعض منهم إلى الصناعة ويستثمر فيها ماله. فينبغ وتزيد ثروته على غيره.

وفي النهاية لا نجد هذه المساواة المنشودة...

إننا لا نستطيع أن نخنق أصحاب المواهب والكفاءات. لكي يتساووا مع الخاملين أو الأغنياء. بحُجة الوصول إلى المساواة. التي مهما بدأت لا يمكن أن تستمر...

***

وبنفس الوضع لا نقبل أولئك الإباحيين. الذين يرفضون اللّه لكي يأخذوا حريتهم في إباحتهم. فيفسدون بدون ضابط..

فاللّه يريد الخير للناس. وليس الخير في الفساد.. ويريد لهم الحرية. بشرط أن تكون حرية مُنضبطة. ولا تضرّهم ولا تضرّ غيرهم بسببهم. وقد رأينا أن أولئك الذين رفضوا اللّه ليتمتعوا بوجودهم. لم يتمتعوا بوجود حقيقي. إنما في ضياع. ووصلوا إلى الانحراف وإلى الشذوذ. وفقدوا الصورة المثالية للآدمية والإنسانية.

وحتى إن رفضوا اللّه بسبب وصاياه. فهل أيضاً يرفضون الدولة بسبب قوانينها. ويرفضون المجتمع بسبب أنظمته وقواعده. ويقولون إن كل ذلك يحرمهم من وجودهم!! أو يقولون: من الخير أنه لا توجد القوانين والأنظمة والأخلاقيات. لكن نوجد نحن!!

***

أمّا الذين أنكروا وجود اللّه. فقد جرّهم الإنكار إلى عديد من الخطايا. نذكر من بينها:

أنكروا أيضاً الحياة الأخرى. ولم يؤمنوا بالقيامة. لأنه من له القوة والقدرة على إقامة الموتى سوى اللّه؟ وهم لا يؤمنون باللّه..!

وبإنكار الحياة الأخرى. أنكروا الثواب والعقاب فيها. وأنكروا ما يُسمّى بالجنة والنار. وعاشوا بلا هدف. وبلا خوف من نتائج الخطيئة.

أنكروا عالم الأرواح جملة. فلا يؤمنون أيضاً بوجود الملائكة وكل طغماتهم. ولا يؤمنون بغير المرئيات والماديات. وبالتالي فهُم أيضاً لا يؤمنون بشفاعة الأبرار. ولا بصلوات القديسين...

هُم لا يؤمنون كذلك بالصلاة بصفة عامة. لأنه لِمَنْ يُصلّي أي شخص؟ أليست الصلاة موجّهة إلى اللّه؟ وهم لا يؤمنون بوجود اللّه. وهكذا فقدوا الصلاة والترتيل والتسبيح وكل الوسائط الروحية.

وفي عدم إيمانهم باللّه. أصبحوا لا يؤمنون بالوحي. ولا بالكتب المُقدّسة. وبالتالي لا يؤمنون بالوصايا الإلهية. ولا يلتزمون بشيء منها...

وعلينا أن نناقشهم في اعتقادهم أو في عدم اعتقادهم.

***

نقطة الحوار الأولى معهم هى سبب الوجود. أو مصدره أو علّته

هناك موجودات. هذا أمر لا جدال فيه. فمَنْ الذي أوجدها؟

توجد طبيعة جامدة كالجبال والهضاب والأنهار والبحيرات والأراضي كما توجد سماء وشمس وقمر وكواكب ونجوم ومجرّات وشهُب.. وتوجد كائنات حيّة كالبشر والحيوان والطيور والأسماك والحشرات. وأيضاً توجد أشجار ونباتات.. الخ. فمَنْ الذي أوجد كل تلك الكائنات؟

لابد من كائن كلّي القدرة أوجد كل هذا. فمن هو؟

بعض الملحدين يقولون: الطبيعة فما هى الطبيعة؟ وما قدرتها؟

هل الطبيعة هى الطبيعة الجامدة التي لا حياة فيها؟! وهل يمكن لغير الحي أن يوجد كائنات حيّة. وهذا غير معقول. لأن فاقد الشيء لا يُعطيه. فهل الكائنات الحية أوجدت باقي الطبيعة؟ وهذا أيضاً غير معقول. فمَنْ الذي أوجد الكون إذن؟ إجابتنا نحن المؤمنين إنه اللّه. فإن كان عند المُلحدين جواب آخر فليقولوه. ونناقشه معهم...

***

وإن كانت مشكلة الوجود لغزاً أمام الملحدين بلا حلّ.. فإن مشكلة الحياة ومصدرها. هى لغز أمامهم أكثر عُمقاً...

إن كل ما وصل إليه العالم من علم وذكاء واختراع. يقف جامداً أمام مصدر الحياة: كيف أتت؟ وإذا فُقِدت كيف تعود إن أمكن لها أن تعود؟ ولا أقصد الحياة في سموّ وجودها كما في الإنسان. بل حتى الحياة في أبسط وجود لها. كما في الخلية الحية الواحدة أو في البلازما...

إن مجرّد حياة نملة تسير على الأرض تشكّل لغزاً أمام المُلحد: من أين أتتها الحياة؟ ووجود نحلة تسعى وراء رزقها وتصنع شهداً من رحيق الأزهار. وتنظّم أمورها... هذه النحلة في حياتها وفي صناعتها وفي نظامها عبارة عن لغز أكثر تعقيداً أمام المُلحد: كيف أتتها الحياة؟!

وكيف أتاها هذا النشاط وهذه القدرة وهذا التدبير؟

إذا تميّزت الحياة بالعقل والفكر. يكون مصدرها أمام المُلحد أكثر تعقيداً

وبخاصة إن كان لهذه الحياة قدرة على الاختراع. كما في حياة الإنسان. ما مصدر كل هذا؟ ويبقى السؤال بلا جواب...

***

إن الحياة على الأرض كانت لها بداية. فكيف بدأت؟

من المعروف علمياً أن الأرض كانت في البدء جزءاً من السديم. وكانت في نار مُلتهبة. لا تسمح بوجود أي نوع من الحياة. لا للبشر ولا للحيوان ولا للنبات. ثم بردت القشرة الأرضية. ولا يزال باطن الأرض مُلتهباً تخرج منه البراكين والنافورات الساخنة...

فمن أين أتت الحياة على سطح الأرض. حيث لم تكن هناك حياة من قبل من أين نوع؟ ويبقى السؤال أمام المُلحد بلا جواب..

والبعض منهم ربما يُقدّم افتراضات أو تخمينات ليس لها أي أساس علمي. وتبقى الحياة حتى في أبسط صورها دليلاً على وجود اللّه. الذي كانت له القدرة على إيجاد الحياة...

***

بعض المُلحدين يتباهون بقدرات الإنسان على الاختراع. وقدراته محدودة...

لا شكّ أنه توجد حالياً اختراعات مُبهرة. تدل على سموّ العقل البشري.

والعقل البشري هو أيضاً هبة من اللّه. كما أن كل ما اخترعه البشر يعتمد على المادة. فهو يدخل في نطاق الصناعة وليس الخلق. لأن الخلق هو من قدرة اللّه وحده. والمادة من خلق اللّه. والمُلحدون لا يؤمنون بالخلق...

فهل المادة أزلية لا بداية لها. أمْ أن لها بداية. وحينئذ تكون مخلوقة. وتكون بدايتها لغزاً أمام المُلحدين. كيف وجدت؟ ومن أوجدها؟ ولا يمكن أن تكون أزلية. لأن المادة ضعيفة والإنسان يتصرّف فيها بأنواع وطُرق شتى. والضعف لا يتّفق مع الأزلية.

وإن كان عقل الإنسان أظهر براعة من جهة التصرُّف في المادة بالاختراع. فإن اللّه قد سمح أن توجد أمام العقل البشري مُعضلات لم يقدِر على حلّها. مثل بعض الأمراض المُستعصية التي يقف أمامها العقل البشري عاجزاً...

النقطة التالية في إثبات وجود اللّه. هى النظام العجيب الموجود في الكون. ممّا يُثبت أن هناك من نظّمه. ومن يكون إلاّ اللّه.

لهذا فإن أحد فلاسفة اليونان. كان يلقّب اللّه بالمهندس الأعظم...

إنك إن رأيت كومة من الحجارة مُلقاة في موضع. ربما تقول إن الصدفة أوجدتها هناك. أمّا إن ارتفع حجر إلى جوار حجر. وفوقهما حجر ثالث. وتكوّن مبنى من عدة طوابق. له أبواب ونوافذ وشرفات... فلا بد أن يكون هناك مهندس قد قام بهذا العمل... وهكذا الكون!

*** ألاَ ترى النظام العجيب الموجود بين أجرام السماء وعلاقتها بالأرض:**

فالأرض تدور على نفسها مرة كل يوم ينتج عنها الليل والنهار. وتدور حول الشمس دورة ينتج عنها تتابع الفصول الأربعة. ولها علاقة بالقمر كل شهر من نتائجها أوجه القمر المُتعدِّدة... كل ذلك بنظام دقيق لا يختل. ممّا جعل الكليات اللاهوتية في القديم تدرس علم الفلك لأنه يُثبت وجود اللّه...

***

انظر أيضاً إلى العلاقة العجيبة بين الرياح. والحرارة. وضغط الهواء:

وكيف يتحكّم كل هذا في اتجاه الرياح. وفي مواسم الأمطار والجفاف. مع علاقتها بالمرور على البحار والبحيرات. وعلاقة كل هذا بالزراعة ونمو النبات.

حتى يمكن أن تثبت مواعيد للأمطار وللزراعة. ولمواسم الحر والبرد...

ويُنظِّم الإنسان حياته تبعاً لذلك. وتتنوع في ذلك بلاد عن بلاد أخرى.

فهل كل هذا النظام جاء عبثاً بدون منظِّم؟! أم لا بد من قوة عُليا حكيمة قد وَضعت نظاماً لكل ما يسير في الكون.. وهذا ما نؤمن به.

***

أمّا عن النظام في جسم الإنسان. فهو عجب في عجب. حتى أن التأمّل في علم وظائف الأعضاء يثبت وجود اللّه. وكذلك تركيب كل عضو بشري...

انظر إلى المخ وتركيبه وعمله. وما فيه من مراكز للنظر والسمع والنطق والحركة. بالإضافة إلى عمله في الفَهْم والذاكرة والاستنتاج... العالم كله يقف مبهوراً غاية الانبهار أمام أي مركز واحد من مراكز المخ. وإن اختل لا يستطيع كل علماء الكون أن يعيدوه إلى وضعه الطبيعي...

ماذا نقوله أيضاً عن باقي أجهزة الجسم وعملها الدقيق: كالقلب مثلاً أو الكبد. أو الجهاز العصبي أو الدوري أو الهضمي. وعن تكوين الجنين في الجسد وغذائه ونموّه. حتى يكتمل ويخرج..

وما نقول ما يشبه عن جسم الإنسان وأعضائه. نقول ما يشبهه عن أجسام الحيوان والطيور.. بل نرى عجباً آخر في تركيب أجساد الحشرات.

أليس كل هذا دليلاً على وجود خالق كلي العلم والحكمة!!

***

نضيف إلى كل ما سبق الإجماع العام في الاعتقاد بوجود اللّه

حتى أن الطفل يولد وبالفطرة فيه هذا الإيمان...

وقد تختلف أسماء اللّه في شتى الديانات. لكن الإيمان باللّه أمر ثابت.

أمّا الإلحاد فله أسباب خاصة نعتبرها دخيلة على العقل البشري. ولبعضها ظروف اجتماعية أو نفسية. أو هى حروب من الشيطان.

٢٠٠٤/٦/١٥

ماذا يقود الإنسان؟

يختلف الناس في ماذا يقودهم أو من يقودهم. طبقاً لتنوّع شخصياتهم وظروفهم. وسنحاول هنا أن نستعرض شتى القيادات:

١ - هناك من يقوده فكره. في التمييز بين الخير والشر. أو بين النافع والضار. وبالتالي تقاد أعماله وتصرُّفاته.

هذا النوع من الناس يقوده فهمه الخاص. فما يراه حقّاً. هو الحق بالنسبة إليه. وما يراه باطلاً فهو الباطل. ونحن لا نضمن مدى كفاءة عقل هذا الإنسان. ومدى فَهْمه وخبرته. فقد توجد طُرق تبدو له مُستقيمة. بينما تكون عاقبتها ضياعه! وما أكثر الذين أضلّهم فهمهم الخاطئ. وبخاصة لو كانوا من المُبتدئين أو صغار السن!

وهناك أمور تحتاج إلى عمق في الفحص والتفكير. وليس كل الناس على درجة كبيرة من الذكاء. ولذلك يُنصحون بأنهم لا يعتمدون على فهمهم وحده. وإنما يحتاجون إلى نُصح وإرشاد.

***

٢ - النوع الثاني إذن هو الذي يقوده المرشد:

فهو يعتمد اعتماداً كاملاً على ما يقول له مُعلّمه أو مرشده. دون فحص! بل ربما يعتبر مناقشة ما يقوله المُرشد لوناً من الكبرياء وعدم احترام الكبار!

ولكن يلزم لمثل هذا الشخص. أن يكون مُرشده سليم الفكر والعقيدة. خبيراً. وغير مُتحيّز لاتجاه مُعيّن. وإلاّ انطبق عليه وعلى مرشده المثل القائل: "أعمى يقود أعمى. كلاهما يسقطان في حُفرة"..

وقد يحدث أن يكون أحد المرشدين مؤمناً بفكر مُعيّن. يرشد إليه الكل بغض النظر عن نوعيات نفسياتهم وظروفهم!! وربما يكون إرشاده غير مُناسب للبعض.. أو قد يضل المرشد. فيضل معه كل تابعيه. باسم الطاعة! وفي العهد القديم حذّر اللّه بني إسرائيل قائلاً: "مرشدوكم مضلّون". ونحن لا نؤمن بعصمة جميع المرشدين. ولا نؤلّههم.. ولا نسير في الطريق الروحي بعيون مُغمضة. أو بما يسمّونه الطاعة العمياء..!

فإن كان شيء من الإرشاد يصطدم بوصية إلهية أو بمبدأ روحي. حينئذ نضع أمامنا أنه: "ينبغي أن يُطاع اللّه أكثر من الناس". وحينئذ ينبغي أن يتوقّف المُسترشد ويناقش. حتى يستريح ضميره..

***

٣ - وهناك نوع من الناس تقوده صحبة أو صداقة أو جو الأسرة

وعلى رأي ذلك الأديب الذي قال: "قُل لي من هو صديقك. أقول لك من أنت".. أو على رأي المثل: "من عاشر قوماً أربعين يوماً. صار منهم". فالصحبة كثيراً ما تؤثّر على الفكر وعلى الطباع. ولهذا ينبغي أن ينتقي كل شخص نوعية أصدقائه بطريقة سليمة. فلا تؤثّر عليه سلبياً..

ومن الناحية الايجابية قد يقوده إلى الصلاح صديق طيّب الخُلق..

وفي نفس الوقت. نشدِّد على تأثير الأسرة وقيادتها. فهي النبع الأول الذي يتلقى منه الإنسان مبادئه وطباعه.. وكما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا .. على ما كان عوّده أبوهُ

ونفس الكلام أيضاً نقوله عن عمل المدرسة من جهة القيادة. وعن تأثير النادي. والوسط الذي يعيشه البعض في جمعيات مُعيّنة لها تأثيرها.

***

٤ - أشخاص آخرون يقودهم الرأي العام والمجتمع

ونخصّ بالذكر العامة وغير المُثقفين. وغير الناضجين في الفكر والسن والشخصية. فهؤلاء يجرفهم التيار في أي اتجاه يسير. فحسب الأمثلة التي أمامهم ينقادون. وحسب روح الجماعة يسيرون. بالتيار السائد. ويعتبرون أنه من الخطأ أن يشذوا عن الأسلوب العام. وعن المجتمع..

بعكس ذلك المصلحون الذين يغيّرون المجتمع إذا وجدوه في خطأ. ولا يغيّرهم المجتمع في أخطائه. ذلك لأنهم لا ينقادون وراء التيار العام.

أمّا المُنقادون فيأخذون مبادئهم وقِيَمهم من المجتمع الذي يعيشون فيه.. لهذا كثيراً ما نسمع أن الشعب الفلاني له طبع مُعيّن أو عادات مُعيّنة. ذلك لأن الكل ساروا في تيار واحد. يقودهم التقليد ونوعية القدوة.

٥ - **نوع آخر تقوده الكتب ووسائل الإعلام. والصحافة:**

فهو يُصدّق ما يقرأه. ويعتنقه ويعتقده. ويصبح صدى لكل صوت يسمعه من تلك الكتب. أو من الصحافة عموماً. أو من وسائل الإعلام. ويردّد ذلك كله بلا فحص ولا تفكير وينشره بين الآخرين..!

ومن جهة الكتب. ننصح القارئ أن يقرأ بعقل وتمييز. وأن يحترس بالذات من أمريْن: من الشيء الغريب الذي يطرق ذهنه لأول مرة. كما يحترس من الفكر الذي يحطِّم فيه ثوابت قديمة مُستقرّة. وهكذا يقرأ بفحص. ويسأل ويسترشد. ويرفض ما يجب عليه رفضه..

وفي هذا المجال أيضاً. لا بد أن نذكر الدور الكبير الذي يقوم به التليفزيون في التوجيه والقيادة. وترسيخ بعض أفكار تشكِّل عند مُدمن التليفزيون اتجاهات ومفاهيم خاصة.

***

٦ - **هناك أشخاص تقودهم الأحلام والرؤى:**

وليست كل الأحلام والرؤى من اللّه. لذلك ينبغي: على كل إنسان أن يكون لديه الإفراز الكافي. الذي يدرك به هل الأحلام التي رآها هى من اللّه. أمْ من الشيطان. أمْ من العقل الباطن. أمْ من أمور مُترسبة في نفسه نتيجة لقراءات أو سماعات أو مناظر. أو قصص. أو رغبات كامنة في نفسه تحوّلت إلى أحلام؟!

ويقال عمّن تقوده الأحلام. ينطبق أيضاً على الذين تقودهم ما يُسمّى بالحظ أو البخت أو ما تقوله النجوم! أو قارئو الكف أو الفنجان..!

***

٧ - **غالبية الناس "الصالحين" يقودهم الضمير:**

ونقصد بالضمير هنا الضمير الصالح. والضمير يقود دائماً إلى الحق والخير. فنقول عن هؤلاء أن الذين يقودهم هو الحق والخير.

غير أن الضمير إذا انحرف. يقود صاحبه إلى الانحراف. فالذي يأخذ بالثأر ويقتل. يدفعه ضميره إلى القتل. وإذا لم يقتل يوبّخه ضميره وكذلك من يظن أنه بالقتل يغسل شرف الأسرة.

كذلك الذين يشنون الحروب بكل ما فيها من ضحايا بشرية ومن تدمير وتخريب. إنما يفعلون ذلك بضمير مُستريح. وضميرهم يقودهم إلى الحرب. أيضاً المُتطرِّفون دينياً. ضميرهم يقودهم إلى التطرُّف.

لذلك قلنا في القيادة العامة للضمير. شرط أن يكون الضمير صالحاً.

***

٨ - هناك كثيرون جداً تقودهم المنفعة أو المصلحة:

ومع أن العديد من هؤلاء يخالفون ضمائرهم في الوصول إلى هذه المنفعة. إلاّ أن الواحد منهم قد يخدع نفسه ويقول: هذا من حقّي. ومن الحق أن آخذه.. أو يقول هذه المنفعة هي الخير بالنسبة لي. وعجيب أن كلمتي الحق والخير ترتبطان هنا بالمنفعة.

والمنفعة ليست فقط تقود أفراداً. بل أيضاً تقود دولاً وأُمماً وشعوباً. وقد تخالف هذه الدول ضمائرها للوصول إلى ما ترى فيه منفعتها. أو تجعل ضمائرها توافق على ذلك. وتعلن أن من مصلحة الدولة أن تسير في هذا الطريق. بغض النظر اعتباره في نظر الغير شرّاً..

***

٩ - بعض الأشخاص يدعون أنه يقودهم الروح!!

وربما يكون هذا لوناً من الهوس الديني. يظن فيه الشخص أنه مُقاد بروح اللّه. أو بروح قدسي من عند اللّه!! وهكذا تسمعه يُردِّد مثل هذه العبارات: الروح قال لي كذا. أو أمرني الروح أن أفعل كذا. أو أرشدني الروح أن أقول لكم الشيء الفلاني ومثل هذا الشخص لا ندري أي روح يقوده. إن كان هناك روح يقوده! أو ربما تكون هناك اقتناعات في داخله بأمور مُعيّنة. يظنها أنها صوت الروح في داخله! وقد يكون مُضلّلاً بروح ما..

على أنه بادعائه أن الروح يقوده. قد يجذب إليه أتباعه وينقادون بما يقول. على اعتبار أنه يأخذ من فوق ويعطيهم..!

***

١٠ - يوجد أنواع من الناس تقودهم الشهوة أو الغريزة:

الشهوة من أشهر الأمور التي تقود الإنسان. فتوقف عقله وضميره. وتسيطر عليه تماماً فلا يفكّر إلاّ فيها! سواء كانت شهوة المال أو شهوة العظمة. أو شهوة الامتلاك. أو شهوة الجسد. أو شهوة المناصب والألقاب. أو غير ذلك من الشهوات.

الشهوة تنبع من القلب. وتصعد إلى الفكر. وتمتلك الإرادة. وتسعى توّاً إلى التنفيذ. وتدوس على كل العوائق التي أمامها..

والشهوة يلزمها ضبط النفس. لو استطاع ضبط النفس أن يبعدها عن غيها. ولكن ذلك ليس سهلاً في غالبية الأحوال..

الإنسان أيضاً تقوده الغريزة. فالأم مثلاً تقودها غريزة الأمومة فهى تشتهي أولاً أن تصير أمّاً. ثم تسيطر الأمومة على عواطفها في كل تعاملاتها مع ابنها ومع المُتصلين به.

والبعض قد تقوده الغريزة في الغضب. وآخر قد تقوده غريزة الزنا أو تصبح فيه غريزة تتعبه في فترة الشباب أو المراهقة..

***

١١ - على أن الكثيرين قد يقودهم الدين. أو مشاعر التدين..

أو يقودهم قانون الدولة. أو قواعد النظام العام

فيرون أنفسهم خاضعين لِمَا يأمر به الدين. وما يسمعونه من أفواه الوعّاظ. وما يقرأونه في كتب التفسير. ويلتزمون بذلك التزاماً شديداً ودقيقاً..

على أن البعض من هؤلاء قد يُغالي في بعض أمور الدين. أو يتطرّف فيه. أو يفهمه فَهْما خاطئاً. أو يُقاد به في اتجاه خاص.. ويظن أنه على حق فيما يراه. ويتحمّس لذلك. وتكون قيادته خاطئة..

كذلك فإن القانون يقود الناس. كل الناس. ويصبح من الواجب عليهم جميعاً أن يلتزموا بمواد القانون. وإن لم يلتزموا يُلزمون بالقوة وبالعقوبة. والبلد الذي لا يقوده القانون. تسوده الفوضى..

والنظام العام مُلزم أيضاً للناس. حتى إن لم يوجد له نَصّ في كُتب القانون. لكنه من القواعد المرعية دائماً. وكمثال له قواعد المرور..

***

١٢ - هناك أشخاص - وبخاصة البسطاء منهم - تقودهم الأمثال الشعبية:

فقد يرفض شخص أن يتزوّج بفتاة جميلة. إن كانت أُمّها شديدة الطبع. وفي ذهنه المثل القائل: "اقلب القلّة على فُمّها. والبنت تطلع لأُمّها".

وقد يتحاشى شخص آخر أي لون من المُخاطرة. وهو يُردّد المثل القائل: "امشي سنة ولا تخطي قنه". أو إن كان يقود سيارة. يقوده مثل يقول: "امشي على مهلك. علشان توصل بسرعة"...

والأمثال كما تقود بعض الناس. كذلك تقودهم أبيات من الشعر..

وتصبح هذه الأبيات كأنها حُجج ثابتة أو قواعد مُتبعة. كمَنْ يتبع قول الشاعر:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها.. إن لم تجد ما تأكله

أو كان يحدث في زمن الرق. أن يتمثل البعض بقول الشاعر:

لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه.. إن العبيد لأنجاس مناكيدُ

***

١٣ - بعض الناس أيضاً تقودهم العاطفة. أو يقودهم الانفعال:

البعض تقودهم في حياتهم مشاعر الحُب أو الرغبة في السلام. بينما غيرهم تسيطر عليهم الكراهية والحقد. إن كان هناك حقد في قلوبهم..

آخرون يقودهم الخوف في كل تصرُّفاتهم. أو يقودهم القلق والاضطراب.

كل أولئك تقودهم العواطف والمشاعر. فالخائف يقوده الخوف حتى لو لم يوجد سبب للخوف. أو يقوده القلق حتى إن لم يوجد سبب للقلق..

بعكس هؤلاء أشخاص تقودهم مبادئ وقِيَم وشعارات يثبتون عليها

وتصبح هذه القِيَم أساساً تبنى عليه كل أعمالهم. ويتعبهم ضميرهم جداً إن حادوا عن شيء منها.

***

١٤ - غير ذلك نوعية من الناس تقودهم السياسة

سواء كانت سياسة البلد. أو سياسة حزب ما. يتبعون سياسة ويلتزمون بها. أو تقودهم السياسة بمعنى الدبلوماسية. والحكمة في التعامل وفي تصريف الأمور..

* أخيراً لا أريد أن أتحدّث عن الذين يقودهم الخيال. أو أحلام اليقظة. فهؤلاء في الغالب بغير قيادة.

٢٠٠٤/٦/٢٢

النظرة البيضاء والنظرة السوداء

الحياة هى نفس الحياة بالنسبة إلى الكل: بحلوها ومرّها..

وقد تتشابه الظروف الخارجية بالنسبة إلى كثيرين. ولكن انفعال البعض بها يختلف عن انفعال البعض الآخر. ونظرة كل من الفريقيْن تختلف عن الآخر. البعض له نظرة بيضاء. والبعض له نظرة سوداء.

وسنضرب أمثلة لذلك في أمور مُتعدِّدة:

النظرة إلى المشكلة:

لا يوجد أحد لا تصادفه مشاكل في حياته. كل إنسان له مشاكله.

ولكن البعض ينظر إلى المشكلة بنظرة سوداء مُعقدة كئيبة. كما لو كانت المشكلة بلا حلّ. ولا مخرج ولا مَنفذ..

كما لو كانت ألماً صرفاً وضياعاً.. وكأنها مأساة..

وهناك أُناس تسبّب لهم بعض المشاكل بأمراض صعبة: مثل ضغط الدم. أو مرض السكر. أو قد يُصاب البعض بانهيار نفسي. أو بتعب في أعصابه. أو بقرحة في المعدة. وإن كنت المشكلة خطيرة - أو هى هكذا في نظره - قد يقع على الأرض مشلولاً. أو يُصاب بذبحة أو بجلطة..

كل ذلك حسب درجة انفعاله بالمشكلة. وحسب مقدار ضغطها عليه.. وشعوره أنه قد انتهى. ولا خلاص.

***

أمّا صاحب النظرة البيضاء. فيرى أن كل مشكلة لها حل

ويرى أن الأمر ليس خطيراً ولا مستحيلاً.. وأن اللّـه لا بد أن يتدخّل في المشكلة ويحلّها.. واللّه عنده حلول كثيرة.

وهكذا تمتزج المشكلة عنده بالإيمان والرجاء.. فبالإيمان يثق تماماً بوجود اللّـه أثناء المشكلة. وبيد اللّـه العاملة سواء رآها أو لم يرها.. فلا يأبه بالمشكلة. ولا يدعها تعصره أو تحصره. ولا يسمح للمشكلة أن تضغط على أعصابه وعلى نفسيته..

بالنظرة البيضاء يُقابل المشكلة: ليس فقط بأعصاب هادئة. إنما بشعور أكثر عُمقاً. يرى فيه أن المشكلة سوف تعطيه خبرة بالحياة. وخبرة برعاية اللّه. وتدريباً على هدوء الأعصاب والفكر.

كما ستكون المشكلة فرصة له. يلمس فيها يد اللّه العاملة في حياته. وعناية اللّه به. وطريقة اللّه في حل المشاكل..

إن المشكلة واحدة. ولكن تختلف النظرة إليها والانفعال بها. ويختلف وقعها ومقابلتها. أعني يختلف الـ **Response**.

***

صاحب النظرة البيضاء. كان أكبر من المشكلة، أمّا صاحب النظرة السوداء. فكانت المشكلة أكبر منه

صاحب النظرة السوداء. لا يبصر إلاّ ما في المشكلة من ألم ومن ضيق وتعب. ولذا يُقابلها بخوف وانزعاج. وقد تضغط على تفكيره فيتوقّف. ويترك الأمر إلى أعصابه المنهارة. وقد يصل به الأمر إلى اليأس. وقد يصل به اليأس إلى الانتحار..

أمّا صاحب النظرة البيضاء. فيضع رعاية اللّه بينه وبين المشكلة. فتختفي المشكلة. وتبقى رعاية اللّه هى الظاهرة..

***

صاحب النظرة السوداء. يرى أن كل نهار يعقبه ليل مظلم، أمّا صاحب النظرة البيضاء. فيرى أن كل ليل مظلم يأتي بعده نهار مُضيء.

النظرة السوداء تتعب من كل خطأ موجود.

والنظرة البيضاء تقول إن كل خطأ يمكن تصحيحه.

***

النظرة إلى المادة

وهى تتناول نظرة الإنسان إلى المادة عموماً. وإلى المال. وإلى الجسد.

إنسان ينظر إلى المادة. كأداة يُخدم بها اللّه، وآخر ينظر إلى المادة. كوسيلة لإشباع الشهوات!

المادة هى نفس المادة. ولكن نوعية النظرة إليها. تحدد نوعية العلاقة بها والتصرف معها. هل المادة تملُكك. أم أنت تملكها؟!

والمال هو نفس المال. ولكنه في يد البعض يستخدمه للخير. وهو في يد الغير يهلكه! لأن نظرة الواحد إليه غير نظرة الآخر. نفس الوضع بالنسبة إلى الجسد. يستخدمه البعض في الركوع والسجود وخدمة اللّه. وخدمة المجتمع. بينما ينظر إليه البعض كأداة لإشباع شهواته. وكأنه شرّ في ذاته. وعنه تصدر خطايا عديدة.

***

كذلك تختلف النظرة إلى الشيء من حيث الاعتقاد فيه:

هل هو محلّل أمْ محرّم أمْ نجس..

* إن نظرة المُسلم إلى الخنزير. من حيث أنه نجس ولا يجوز أكله. غير نظرة إنسان آخر لا تحرم عقيدته أكل لحم الخنزير..

* نفس الوضع تقريباً بالنسبة إلى التدخين وشرب الخمر. إنسان يكره رائحة السيجارة ولا يطيقها. ويكاد يختنق من رائحتها ولو بعيداً. هذا غير شخص آخر مُدمِن للتدخين.

وما يُقال عن التدخين يُقال عن الخمر بشتى أنواعها..

* أيضاً نظرة الرَّجُل إلى النساء. سواء إلى المُحرّمات منهن. أو إلى المرأة العادية. نظرة رَجُل إلى امرأة إنها مُحرّمة عليه من جهة نوع القرابة أو النسب. غير نظرته إلى امرأة ليست من المُحرّمات.

إن يوسف الصديق لم يستطِع أن يقترب من امرأة سيّده - على الرغم من طلبها ذلك منه - ذلك لأن عقيدته لا تسمح له بالاقتراب من امرأة رَجُل آخر.

يمكن أن نطبّق مثل هذه النظرة على كل المُحرّمات من الخطايا.

***

بين الشكر والتذمُّر

إنسان ينظر إلى الذي معه. فيرضى ويشكر وآخر ينظر إلى الذي ينقصه. فيشكو ويتذمّر.

وقد يكون الاثنان في نفس الظروف ونفس الأوضاع.

فما هى نظرتك أنت؟ هل تنظر إلى الذي معك؟ أمْ إلى الذي ينقصك؟ والذي ينظر إلى ما ينقصه. لا يهدأ من الطلب. كذلك الذي ينظر إلى ما في أيدي غيره. ويُقارن..

كثير من الذين يتذمّرون ويتعبون: لو أنهم نظروا إلى الذي معهم. لوجدوا أنهم في خير. وقد أعطاهم الرب الكثير والكثير. ولكنهم لم ينظروا إلى ما عندهم..

***

نفس الوضع نقوله بالنسبة إلى المناصب والألقاب

قد يكون إنسان في وظيفة مرموقة يحسده عليها الكثيرون. وقد يكون معه من المال ما يجعله من كبار الأثرياء. ومع ذلك كله فإنه يشقى! لماذا؟ لأنه ينظر إلى عضوية مجلس تشريعي أو عضوية مجلس المدينة. أو عضوية هيئة كبيرة أو نادٍ مشهور..! أو أنه يشتهي وساماً أو لقباً.

أو ينظر إلى أصحاب الدرجات العلمية والشهادات الجامعية. ممّا ليس له. فيشكو حظه وتتعب نفسيته!

***

ما أكثر النِّعم والخيرات التي تحيط ببعض الناس. ولكنهم لا ينظرون إليها. بل ينظرون إلى شيء غيرها ينقصهم!

وإن حصلوا على ذلك الشيء. لا يكتفون. بل ينظرون إلى مستوى آخر أعلى وأبعد ينقصهم..! وقد يتذمّرون وهُم في وضع يشتهيه غيرهم ولا يجده! هنا الاختلاف بين نظرة القناعة البيضاء ونظرة الطمع السوداء.

إذن بنوع نظرة الإنسان يسعد نفسه. وبنوع نظرته يشقيها

وهكذا. فإنه ليست الظروف الخارجية هى التي تتعبه. وإنما يتعبه أسلوبه في التفكير. ونوع نظرته إلى الحياة.

***

النظرة إلى أعمال الآخرين:

إنسان ينظر إلى الخير الذي في الناس. فيمتدحهم. وإنسان آخر لا ينظر إلاّ إلى النقائص والعيوب. فيذم ويُعيّر.

هذا النوع الثاني له نظرة نقّادة. لا ترى إلاّ الشيء الأسود! وتتخصّص في رؤية العيوب. حتى بالنسبة إلى شخص يمدحه الكل وهو موضع رضى الكل. ومع ذلك ما أسهل أن يوجد فيه شيء يُنتقد.

هذا النوع يتعوّد أن ينتقد ويُعارض. ويتكلّم بالسوء على كل أحد. ولا يعجبه أي تصرُّف. على الأقل بالنسبة إلى شخص مُعيّن أو مجموعة مُعيّنة أمّا أصحاب النظرة البيضاء. فهُم عكس ذلك.

***

لو كانت لك النظرة البيضاء سترى في كثيرين شيئاً يُحبّ ويُمتدح

درّب نفسك على هذه النظرة: أن تنظر إلى محاسن الناس وليس إلى عيوبهم. هناك نظرة واقعية: أن ترى ما فيهم من محاسن ومن عيوب. ولكن أي النوعين له التأثير الأكبر عليك؟

الذي لا ينظر إلاّ إلى العيوب. قد تجده ساخطاً على الكل..

لا يعجبه شيء.. كل ما يراه هو موضع انتقاد.. وبعض الذين ينادون بالإصلاح. لا ينظرون إلاّ إلى السواد فقط.. ويحتار البعض معهم كيف يرضونهم! هم باستمرار عدوانيون Aggressive لا بد أن يجدوا شيئاً يهاجمونه. فإن لم يجدوا فيخترعونه..!

***

وبعض أصحاب النظرة السوداء: بدلاً من الهجوم. يتحوّلون إلى الانعزال!

بسبب نظرتهم السوداء. ينفرون من المجتمع. وينطوون على أنفسهم. إذ لا يجدون شيئاً يعجبهم أو يرضيهم.. بل هم ساخطون على كل شيء.

وأحياناً يُصاب هؤلاء بأمراض نفسية أهمها مرض الكآبة Depression فتجد الواحد منهم حزيناً كئيباً. ينتظر أن يرى الشر أمامه.. وأحياناً يخاف المجتمع. ويظن أن الغالبية تدبّر له ما يضايقه. وهكذا يقع في عقدة الاضطهاد Persecution Complex ويخيل إليه أن كثيرين يريدون الإضرار به!

أو قد يُصاب بالعصبية. فتجده دائماً "غضوباً" حاد الطبع عالي الصوت. يحتد وربما بلا سبب يدعو إلى ذلك. وفي غضبه يثور ويتكلّم بما لا يليق. إنه لا يرى سوى سواد يُثيره!

***

وربما يُحارَب بالشكوك في كل شيء:

في كل ما يحيط به. يفترض أسباباً سوداء تدعوه إلى الشك!

وإن بدأ الشك يُحاربه. يلتقطه الشيطان لكي يضيف إليه مخترعات وأسباباً تزيد من شكّه. حتى يصبح في جحيم من الشك. وكل هذا بسبب نظرته السوداء التي تفترض الشك. بعكس غيره من أصحاب النظرة البيضاء الذين يؤولون نفس الأمور تأويلاً طيباً لا يحزن النفس.

إن كثيراً من الشكوك ليس الدافع إليها أسباباً خارجية. بل هناك مصدر آخر وهو حالة القلب والفكر من الداخل.

***

قد تكون النظرة السوداء إذن مرضاً نفسياً نتجت عنه هذه النظرة وربما تؤدِّي هذه النظرة السوداء إلى مرض نفسي. فتكون سبباً أو نتيجة.

أي أنه إذا بدأ بالنظرة السوداء. قد يصل إلى المرض النفسي.

أو إذا بدأ بالمرض النفسي. تكون من نتائجه النظرة السوداء.

وبالنظرة السوداء يفقد الإنسان سلامة القلب. بعكس صاحب النظرة البيضاء الذي يحيا باستمرار في بشاشة وفرح. والعجيب أن النظرة السوداء قد تأتي في العلاقة مع اللَّه!

***

في العلاقة مع اللَّه:

الشيطان قد يُحارب صاحب النظرة السوداء حتى في علاقته مع اللَّه. فيصوّر له أن اللَّه لا يهتم به. وأن اللَّه قد أهمله. وأنه لا يستجيب صلواته. أو أنه يضطهده ويُعاقبه!

وهكذا بالنظرة السوداء يوصله إلى التجديف!

وبإيعاز من الشيطان. فإن صاحب النظرة السوداء لا يشعر فقط بأن الناس ضده. وإنما اللَّه أيضاً ضده. والسماء مُغلقة في وجهه! إذ يهمس الشيطان في أذنه - أثناء ضيقاته - "لماذا يُعاملك اللَّه هكذا؟! لماذا يتركك في تعبك. ولا يهتم بك!".

٢٠٠٤/٠٦/٢٩

ما هى الصلاة؟

جميع الناس يصلّون. ويرفعون أكفّ الضراعة إلى اللّه. ووسط صلوات الكثيرين. نريد أن نتحدث اليوم عن الصلاة: فما هى الصلاة؟ وكيف تكون؟ وهل كل "صلاة" هى في الحقيقة صلاة؟ وهل هناك صلوات مقبولة. وأخرى غير مقبولة؟ وما هى شروط الصلوات المقبولة؟

***

إن الصلاة جزء من طبيعة الإنسان. كأنها غريزة فيه

ومن هنا كان جميع الناس يصلّون. حتى أن الوثنيين أيضاً يعرفون الصلاة. وذلك لأن القلب بدون الصلة باللّه. يشعر بفراغ كبير. فاللّه له وجود في حياتنا. ولسنا نحن مُعتزلين عنه. إنه معنا. ونلاحظ أنه حتى الطفل يقبل فكرة اللّه وفكرة الصلاة. بدون شرح. إنها فيه بالفطرة.. وإن قلنا إن الإنسان اجتماعي بطبعه. فإننا نستطيع أن نطبق هذه القاعدة روحياً وجسدياً. فروح الإنسان تشتاق إلى اللّه. وتجد لذة في الالتقاء به والمكوث معه..

***

الصلاة هى إذن اشتياق إلى اللّه:

روح الإنسان تشتاق إلى عشرة أخرى غير عشرة المادة. وفي داخل كل منا اشتياق إلى غير المحدود. واشتياق آخر إلى مثالية عالية غير موجودة في هذا العالم... ومن هنا يلجأ الإنسان إلى اللّه. ليشبع شوقه الروحي.

الصلاة هى أعمق ما في الروحيات. هى تفرغ القلب للّه، هى عمل الملائكة. وعمل الإنسان حينما يتشبه بالملائكة

هى عمل النُسّاك والمتوحدين. الذين تركوا كل شيء من أجل محبتهم للّه. ووجدوا في هذه المحبة ما يكفيهم وما يغنيهم.

***

الصلاة هى راحة للنفس. هى الميناء الهادئ الذي ترسو عنده النفس بعيداً عن أمواج العالم المُتلاطمة.

الصلاة هى واحة خضراء في بريّة العالم القاحلة..

هى الوقت الذي تلتقي فيه النفس بمَنْ يُريحها. تجد القلب الكبير الذي تأتمنه على أسرارها. وتستطيع أن تحدِّثه بكل صراحة عن متاعبها وعن ضعفاتها وسقطاتها. وهى موقنة تماماً أنه لن يحتقر سقوطها بل يُقابلها بكل حنوّ. ويُعينها على القيام ويشجّعها...

***

الصلاة هى خلوة النفس مع اللّٰه. هى لقاء مع اللّٰه. لقاء حُب.

هى تلامس قلب الإنسان مع قلب اللّٰه.. وهى تمتّع النفس باللّٰه. وشعورها بالفرح والاطمئنان بالوجود في حضرة اللّٰه.

الصلاة هى صلة باللّٰه. وربما من هذا المعنى أُشتق اسمها

وهكذا يكون الإنسان في حالة صلاة. إن وُجِدَت هذه الصلة. وإن شعر بالوجود في حضرة اللّٰه. وإن أحسّ القلب أنه قائم فعلاً أمام اللّٰه يتحدّث إليه..

ليس المُهم هو طول الصلاة ونوع الكلام الذي يُقال فيها. بقدر ما تتركّز الأهمية بالشعور بأن هناك صلة مع اللّٰه.

إن لم توجد هذه الصلة. لا يُعتبر الإنسان مُصلّياً. مهما ركع ومهما سجد. ومهما ظن أنه كان يتحدّث مع اللّٰه!

إن اللّمبات الكهربائية - مهما كانت قويّة وجميلة - فإنها تكون عديمة الفائدة. إن كان لا يسري فيها التيار الكهربائي. هكذا الصلاة إن لم يكن يسري فيها الشعور بالوجود في حضرة اللّٰه.

***

الصلاة هى تقديس للنفس. برفع الفكر إلى اللّٰه. ورفع القلب إلى اللّٰه فيتطهّر الفكر بالصلاة. وكذلك القلب أيضاً.

ذلك أنه عندما يرتفع الفكر إلى اللّٰه. يبعد عن المادة وعن محبّتها والانشغال بها. ويكون في مستوى روحي أعلى من المادة.. وهكذا يدخل القلب والفكر في مستوى آخر. له سموّه وروحانيته. يدخلان في عشرة مع الملائكة وأرواح الأبرار. وفي مثل هذه الصلاة تبطل من العقل كل الأفكار الرديئة. كما تبطل طياشة الأفكار. ويجتمع العقل مع اللّٰه.

***

بالصلاة يصل الإنسان ما يسميه القديسون "استحياء الفكر".

فالفكر الذي تقدّس بالصلاة. يستحي من التفكير في أي شيء رديء. وهكذا يخجل الإنسان من أن يستضيف في ذهنه فكراً شريراً في الموضع الذي كان يوجد اللّه فيه. في العقل وقت الصلاة. وبهذا تساعد الصلاة على حياة التوبة ونقاوتها..

***

لكل هذا كانت الصلاة رُعباً للشياطين:

فالشياطين يخافون جداً من عمل الصلاة. ويرونه سعياً إلى إمدادات إلهية ومعونات سمائية تصل إلى النفس. فتحطِّم قوى الشياطين التي تحاربها. لذلك فإن الشياطين تحاول بكل جهدها أن تعطِّل الإنسان عن القيام بالصلاة. ونقصد الصلوات الروحية التي تخيفهم.. أمّا الصلاة الفاترة أو السطحية. فلا يهتم الشيطان بمقاومتها. إنها لا تؤذيه.

***

إن الصلاة الروحية تسبِّب حسد الشياطين. وتذكِّرهم بما فقدوه.

تشعرهم بالدالّة الموجودة بين الإنسان واللّه. فيتعبون ويحاولون أن يمنعوا الصلاة. فإن أصرّ الإنسان على الصلاة. حينئذ يحاول الشياطين أن يشتتوا فكره. بأن يقدِّموا له تذكارات ومشاغل وأفكاراً ليجذبوه إلى شيء آخر بعيداً عن اللّه.

***

الصلاة هى طعام الروح. هى غذاء الملائكة:

هى عاطفة مُقدّسة تغذّي القلب. بل في أثنائها قد ينسى الجسد أيضاً طعامه. ولا يشعر بجوع. ومن هنا كان ارتباط الصوم بالصلاة. فعندما تتغذّى الروح بالصلاة. يمكنها أن ترفع الجسد معها وتشغله عن التفكير في طعامه. وتعطيه طعاماً آخر. وبهذا تستطيع الروح - بالصلاة - أن تحمل الجسد.

***

الصلاة هى حركة القلب. حتى بدون كلام..

الصلاة ليست مجرّد حديث. فقد تكون خفقة القلب صلاة. وقد تكون دمعة العين صلاة. وقد يكون رفع البصر إلى فوق. أو رفع اليدين صلاة.

إن اللّه بمعرفته للقلوب - في مشاعرها وفي احتياجاتها - يعرف اللغة التي تخاطبه بها هذه القلوب. خارج نطاق الألفاظ.. كالأب الذي يدرك مشاعر ابنه وطلباته. دون أن ينطق بها هذا الابن.. وهكذا يقول داود النبي في مزاميره للّه: "انصت إلى دموعي" ذلك لأن دموعه كان لها صوت خفي يسمعه اللّه.

***

الصلاة هى تسليم حياتنا للّه. ليعمل هو فيها..

هى رفض من الإنسان أن يستقل بحياته مُنفصلاً عن اللّه فهو يريد من اللّه أن يعمل معه. ويعمل به. فلا يعمل هو وحده!

الصلاة هى إذن دعوة من الإنسان للّه أن يتدخّل في حياته. ويديرها بحكمته الإلهية حسب مشيئته الصالحة الطوباوية. كما لو أن هذا الإنسان يُعلّق في صلاته - بكل اتضاع وانسحاق قلب - أنه لا يستطيع أن يعتمد على ذهنه البشري وحده. وأنه بدون اللّه لا يستطيع أن يعمل شيئاً..

***

الصلاة هى شرف عظيم لنا: أن نتحدّث مع اللّه..

بل هى تواضع من اللّه: أن يستمع إلينا!

ربما نجد صعوبة في الوصول إلى أحد ملوك الأرض أو أحد رؤسائها أو أمرائها لنتحدّث إليه. أمّا التواضع العجيب فهو أن يسمح لنا ملك الملوك ورب الأرباب. أن نتحدّث إليه في أي وقت وأي مكان. بلا مانع ولا عائق..!

الصلاة هى السلّم العجيب الذي نصعد به إلى اللّه. أو هى الجسر الذهبي الذي يصل بين الأرض والسماء.. بل إنه بالصلاة تتحوّل النفس إلى سماء. وتتمتّع بالوجود في حضرة اللّه!

والعجيب أنه مع هذا الشرف العظيم. يمتنع البعض أحياناً عن الصلاة مُحتجاً بقلّة الوقت. أو قد لا تكون له رغبة!

يمتنع الإنسان - الذي هو تراب - عن التحدُّث مع خالق السماء والأرض. الذي تسبّحه وتسجد له طغمات الملائكة!!

***

ليست الصلاة تفضّلاً منا على اللّه!! كما لو كنا نعطي اللّه شيئاً من وقتنا أو من مشاعرنا!! وليست هى ضريبة يفرضها اللّه علينا! وليست هى عملاً نغصب عليه بأمر سماوي! كلاّ..

إنما الصلاة هى أخذ لإعطاء.. بها نأخذ من اللّه بركات ومواهب وعطايا دون أن نعطيه شيئاً. وإن كنا نقدّم للّه وقتاً أو قلباً. فإنما لكي يملأ هذا القلب من محبّته. ويقدّس هذا الوقت ببركته..

اعتقادنا الخاطئ في أن الصلاة إعطاء منا. هو الذي يجعلنا - في كبرياء وتمنُّع - نقصّر في أدائها. أقصد نقصّر في حقّ أنفسنا أولاً وقبل كل شيء. لأننا نحن المستفيدون من الصلاة وليس اللّه.. فلنحاول أن نصلّي. لكي نأخذ بركة ومعونة. ولكي نتمتّع بالحديث مع اللّه. ولكي تتقدَّس قلوبنا وأفكارنا وحياتنا كلها..

وإن صلّينا. ليتنا نعرف كيف نصلّي. وكيف نخاطب اللّه..

***

الصلاة هى فترة من الخشوع نقضيها أمام اللّه

خشوع للجسد وللروح أيضاً خشوع في السجود وفي الركوع.

إن داود النبي - في مزاميره - لا يقول عن سجوده: "لصقت بالتراب رأسي". إنما يقول: "لصقت بالتراب نفسي" هذا عن ملء الانسحاق.

وخشوع الجسد يشمل ضمناً خشوع الحواس. فلا تتشتت هنا وهناك أثناء الصلاة - كذلك يشمل جمع الفكر. فلا يسرح فيما يصلّي.

إن سرحان فكرك أثناء الصلاة في أمور مُتعدِّدة. إنما يدلّ على اهتمامك بهذه الأمور أكثر من اهتمامك بكلمات الصلاة. لذلك عليك أن تعدّ نفسك روحياً قبل أن تصلّي. وتُخلي فكرك ممّا يشغله. لكي ينشغل باللّه وحده. ويحسن أن يكون ذهنك مُنشغلاً بفكر روحي!!

***

ولتكن صلاتك بفَهْم وتركيز وعاطفة

فتعني وتقصد كل كلمة تقولها في الصلاة ولا يهمّك طول الصلاة وإنما عمقها. فإن حُوربت بأن تطيل الصلاة بدون عُمق. قُل لنفسك: أنا ما وقفت أمام اللّه لكي أعدّ ألفاظاً!

ولتخرج ألفاظ الصلاة من قلبك. وليس من مجرّد شفتيك. فإن اللّه قال عن اليهود في العهد القديم: "هذا الشعب يعبدني بشفتيه. أمّا قلبه فمُبتعد عنّي بعيداً".. إن الصلاة التي تقولها من قلبك. تتصف بالحرارة وأيضاً بالإيمان...

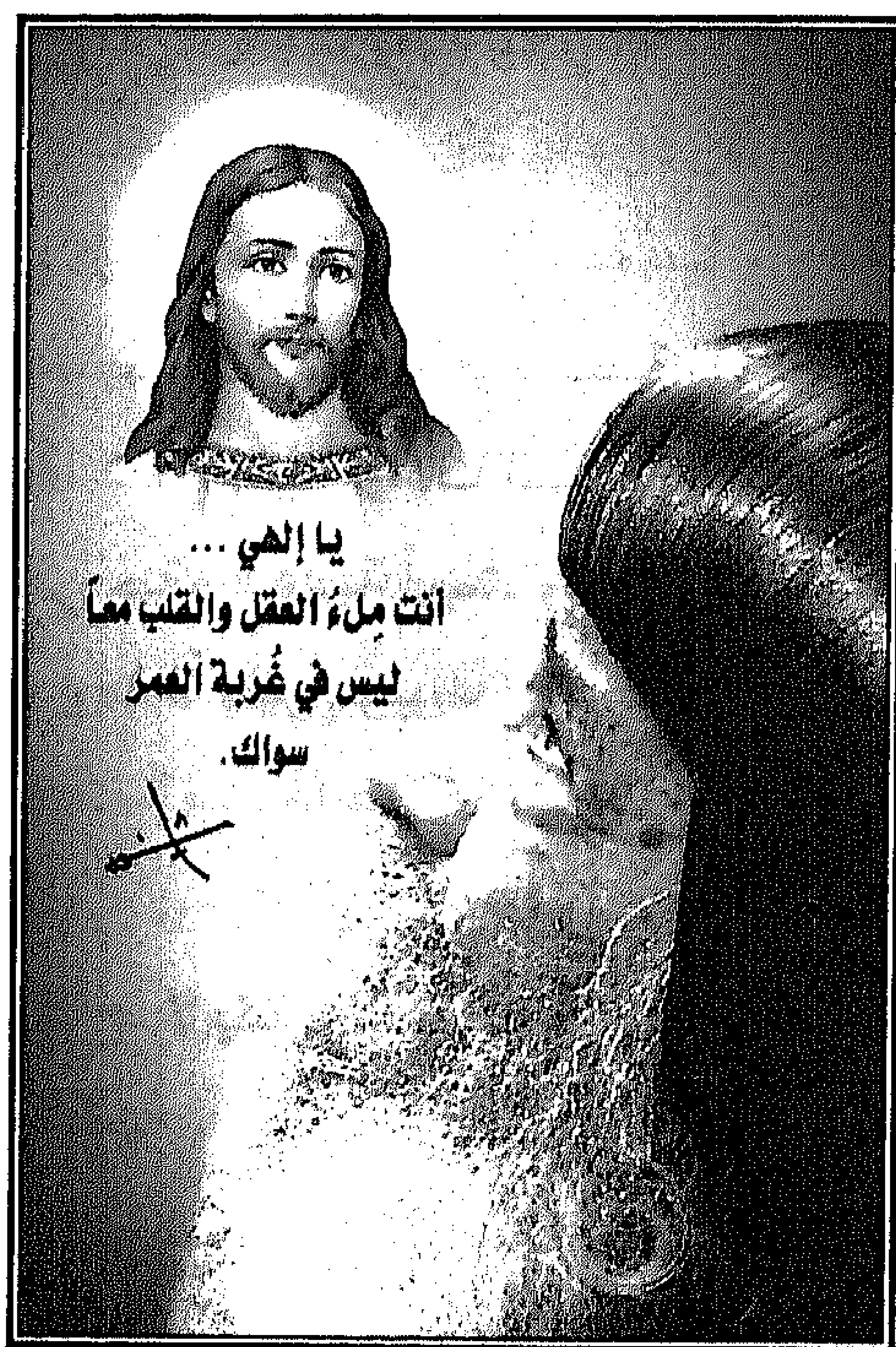
***

ولا تكن صلواتك مجرد طلبات تطلبها. لئلاّ يُظن أنك لولا الطلب ما كنت تصلّي!!

الصلاة تشمل أيضاً الشكر والحمد. وفيه تسبيح اللّه وتمجيده.. وفيها أيضاً الحُب والعاطفة. وما أجمل قول داود النبي في مزاميره: "طلبت وجهك. ولوجهك يارب ألتمس. لا تحجب وجهك عنّي"..

في الصلاة تفتح قلبك للّه بكل ما فيه. وتتحدّث عمّا في قلبك بصراحة. وتعرضه أمام اللّه. فيسكب اللّه فيه من الحُب والنقاوة. ما يجعله لائقاً بالتحدُّث عن اللّه.

والصلاة تكون مقبولة. إن صدرت من قلب تائب. وإن لم تكن كذلك. فقُل له: "توّبني يارب فأتوب".



٢٠٠٤/٧/٦

النجــاح

بمناسبة نتائج الامتحانات لبعض المراحل الدراسية. وانتظار نتائج امتحانات أخرى. نرى من المناسب أن نتحدّث عن النجاح:

النجاح هو سبب فرح لكثيرين

سبب فرح للناجح. ولأبويه وكل أفراد أسرته. وفرح لأحبائه وأصدقائه. وإن كان نجاحاً عاماً. يكون فرحاً للمجتمع كله.. بعكس الفشل. إذ يكون سبب غمّ وحزن.

***

والنجاح صفة من صفات الإنسان البار الصالح

هذا الذي يصفه المزمور الأول بأنه "يكون كشجرة مغروسة على مجاري المياه. تعطي ثمرها في حينه. وورقها لا ينذثر. وكل ما يفعله ينجح فيه".. يكون ناجحاً في كل ما يفعله.

ونلاحظ هنا أنه نجاح في كل شيء:

كل ما تمتد إليه يده. يصاحبه النجاح فيه. نعمة اللّه لا تتخلى عنه في أي عمل. فتكون كل أعماله ناجحة. كذلك فإن مقوّمات النجاح في شخصيّته لا تفارقه في كل ما يُمارسه من مسؤوليات. وفي حياته الروحية أيضاً. وفي حياته العملية..

وهو في نجاحه يكون مثالاً لغيره. وموضع إعجاب من الناس. كما تكون له سُمعة طيّبة في كل مكان يحلّ فيه.

***

والإنسان المُحب للنجاح. لا يكتفي فقط بنجاحه. بل يسعى دائماً إلى التفوّق. وإلى دوام الترقّي. وربما إلى الأولوية..

الناجح روحياً يصعد في سلّم الفضائل. هادفاً إلى الكمال النسبي الذي تقدر عليه طبيعته البشرية. والناجح في أمور العالم يصعد إلى سلّم الوظائف وسلّم الشهرة والترقية.

ويصبح النجاح كمنهج حياة. يقود من علوّ إلى علوّ وهذا ما نلاحظه في تاريخ عظماء

الرجال. الذين بدأوا بنجاح بسيط. تطوّر إلى نجاح في دائرة أوسع وأوسع. حتى وصلوا إلى سجل التاريخ لمَا لهم من مجد وشهرة..

والنجاح لا يقتصر على وظيفة مُعيّنة تدلّ عليه:

هو ليس قاصراً على مجال الرؤساء والعلماء. وإنما نطاقه واسع يشمل الكل: فهناك التلميذ الناجح. والأستاذ الناجح. كما أن هناك الصحفي الناجح. والسياسي الناجح. والأديب الناجح.

ولاعب الكرة الناجح. والفنان الناجح.. وكل منهم له مكانته في المجتمع. الصحفي الناجح هو الذي يتهافت الناس على قراءة ما يكتب: سواء كان ذلك مقالاً. أمْ خبراً. أمْ تحقيقاً صحفياً. أمْ فُكاهة. وهو الذي يثق القراء بصحة معلوماته. ودقّة أخباره. وتأثير كتاباته..

واللاعب الناجح هو الذي يقدّم في لعبه فناً وبراعة. ويمكنه أن يحرز هدفاً غير عادي. أو يصد هدفاً للفريق الآخر كان مُحققاً..!

والمُمثّل الناجح هو الذي يتقن دوره أيّاً كان هذا الدور.. فقد يكون بطل الفيلم يمثّل دور خادم وليس دور أحد العظماء.. لا تبحث إذن عن وظيفة كبيرة تظهر فيها نجاحاً.. إنما كُن ناجحاً في أية وظيفة تعهد إليك.

***

والنجاح يدخل في أمور الدين والدنيا على السواء:

فالإنسان الروحي الناجح. هو الذي ينتصر في كل الحروب الروحية. فلا تقوى عليه خطية أو إغراء. ولا أية حيلة من كافة حيل الشيطان.. وكمثال لهذا النجاح كان يوسف الصديق. إذ كان باراً ناجحاً لم تقوَ عليه إغراءات الخطية ولا إلحاحها وضغطها كذلك كان الشهداء الذين حافظوا على إيمانهم ضد الوثنية والإلحاد. ونجحوا في ثباتهم وصمودهم أمام كل التهديدات والمخاوف. وأيضاً أمام كل ألوان التعذيب.. فنالوا الأكاليل نتيجة لنجاحهم. كذلك الذين كانوا ناجحين في جهادهم الروحي. فعبروا فترة التوبة بنجاح كبير. وبدأوا يجاهدون في طريق النمو الروحي لكل نجاح.

***

هناك نجاح واضح في مجال العلم. ونقصد العلم الذي يستخدم لأجل البشرية. وليس المُستخدم في هلاكها!

كان النجاح في مجال الذرّة له دوي هائل في تاريخ العالم. ولكن استخدامها في الحروب وفي تخريب المدن ليس نجاحاً.

نجاح العلم في المجال الطبي هو شرف كبير للعلوم. ومنه إجراء العمليات الجراحية بالليزر. وإجراء عملية للجنين في بطن أمه.

كذلك كافة الاكتشافات في عالم الأدوية والصيدلة وقد كان نجاحاً قديماً في عهد الفراعنة ما وصلوا إليه في فن التحنيط.

يُضاف إلى هذا نجاح آخر للعلم حالياً في مجال الأجهزة الحديثة. مثل الفاكس. والموبيل فون. والكمبيوتر الذي يتقدّم يوماً بعد يوم. كذلك النجاح في الانترنت واستخدامه في جمع المعلومات في شتى الفنون والأخبار والبحوث العلمية..

ولكن ليس نجاحاً استخدام هذه الأجهزة بطريقة خاطئة!

***

في مجالات النجاح أيضاً: النجاح في الحروب:

مثال ذلك نجاح مصر في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م، حيث أمكننا عبور القناة بطريقة يدرّسونها في الكليات الحربية. وبهذا تمكّن جيشنا الباسل من استرداد أراضينا في شبه جزيرة سيناء. وسجّل هذا النجاح تاريخاً مُشرفاً لمصر وقوّاتها المسلحة. ومن القصص البارزة في تاريخ الحروب. ما قام به هتلر من انتصارات مُذهلة اكتسح بها بلاداً قوية. ولكن نجاح هذا القائد لم يستمر. بل انهزم في معركة العلمين. وضاعت هيبة نجاحه السابق. وأعتبر من مجرمي الحرب. واضطر إلى الانتحار. يذكّرنا هذا بنجاح نابليون بونابرت من قَبل. حتى أصبح هو أيضاً أسطورة. ولكن استدرج إلى الداخل بطريقة أوقعته في حصار اقتصادي. وانهزم وقبض عليه. ونُفيَ في إحدى الجزر. وكانت نهايته مأساة أضاعت كذلك هيبة تاريخه ونجاحه السابق. وبهذا خرجنا بنتيجة هامة وهى أن النجاح يحسب باستمراريته.

***

العنصر الأساسي في النجاح ليس هو نقطة البداية فيه. إنما المهم هو نهايته واستمراريته.

* مثال ذلك تلميذ بدأ حياته الدراسية ناجحاً ومتفوّقاً. ثم صادق مجموعة من الأصحاب أضاعت وقته. أو انشغل بحُب فتاة شغلت ذهنه. فما عاد يركّز ذهنه في دروسه. أو أنه وقع في عادة رديئة جعلته يهمل مذاكرته. أو أصابه الغرور بسبب تفوّقه. فاعتمد على عقله فقط دون إعطاء الوقت الكافي لاستذكار العلوم.. فلذلك كله فقد التفوّق. بل رَسَب أيضاً.

* مثال آخر: رَجُل أعمال أسّس شركة كانت ناجحة جداً. حتى تحوّلت إلى مؤسّسة كبيرة. ولاتساعها لم يكن له الوقت الكافي للإشراف عليها. فاستخدم مساعدين وشركاء لم يكونوا على درجة من الكفاءة والإخلاص. ممّا اضطر الشركة إلى الاستدانة. ثم انتهى به الأمر إلى الإفلاس! نهاية لا تتفق مع البداية الناجحة!

* مثال ثالث: زوجان بدأت حياتهما الزوجية ناجحة جداً في مشاعر من الحُب والألفة والاتفاق. ثم دخلت بينهما عوامل أخرى. وانفعالات. واصطدامات في تفاصيل مُعيّنة. أو تداخلات من أسرتيهما.. وانتهى الأمر بالخصام والانفصال. ثم بالطلاق! هل تظنون كل أسرة انتهت بالطلاق. قد بدأت الحياة الزوجية بالنفور والكراهية؟! كلاّ، بل غالباً ما تكون قد بدأت بالحُب في حياة عائلية ناجحة. ثم انتهت بعكس ما بدأت.

***

علينا إذن أن ندرس قصص الناجحين. ومقوّمات نجاحهم. ولعلّنا نجد في أسباب النجاح الجوهرية: العقلية وقوة الشخصية.

يلزم للنجاح العقلية التي تتّصف بالذكاء. والقدرة على الفَهْم والاستنتاج مع الذاكرة القوية. وبالإضافة إلى ذلك الحكمة فكثيرون يفشلون في حياتهم الروحية أو المادية أو العائلية أو في معاملاتهم. بسبب نقص في الحكمة وحُسن التصرُّف. أو بسبب عدم إفراز في السلوك الروحي. أمثال هؤلاء يحتاجون إلى إرشاد وخضوع لأبوة واعية حكيمة. ويحتاجون إلى صلاة لكي يرشدهم الرب في طُرقه. ويمنحهم حكمة من فوق من عنده. وبمناسبة أهمية الحكمة في النجاح.. نذكر قول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مُرسلاً .. فارسل حكيماً ولا توصهِ

وإن باب أمر عليك التوى .. فشاور لبيباً ولا تعصهِ

والنجاح يحتاج إلى قلب قوي. لا تهزمه المشاكل

فإن وقفت مشكلة في طريق نجاحه. لا يهتز ولا يتزعزع. ولا ينزعج بسببها. ولا يخاف ولا يتراجع. بل بعزيمة قويّة يصمد. ويفكّر في علاج وينتصر. تكون له الأعصاب الهادئة والفكر الهادئ والنفس الهادئة. وإن فشل مرة. سرعان ما يقوم ولا ييأس.. ولا مانع عنده من أن يبدأ من جديد.. وإن فاتته فرصة يلتمس غيرها. في رجاء وفي صمود.

***

وفي كل هذا يحتاج إلى الصبر والتأني:

ربما لا يدرك النجاح من أول خطوة ولا من أول محاولة. فلا يتضايق بل يصبر. فالنجاح يحتاج إلى مُثابرة وإلى مُداومة الجهد. والإنسان الذي يدركه المَلل والضجر والضيق ولا يستمر. هذا لا يستطيع أن ينجح.

انتظر معونة الرب فسوف تأتيك مهما تأخّرت في نظرك. وكل عمل تعمله. لا تقلق على نتيجته.. انتظر الثمرة حتى تنضج. حينئذ تجدها في يديك بغير صعوبة. ولا تسرع إلى قطفها قبل أوانها...

***

النجاح أيضاً تساعد عليه المواهب

والموهبة مِنحة من اللّه. يولد الإنسان بها قبل أن يدرسها. وربما دون أن يدرسها. وما الدراسة إلا لتنظيم الموهبة لإنشائها. فالشاعر مثلاً يوُلد شاعراً. دون أن يتعلّم الشعر كما كان الشعراء في الجاهلية.

أمّا تعلُّم أوزان الشعر وبحوره وتفاعيله. فذلك لمجرد ضبط الموهبة.. ونفس الكلام نقوله عن الموسيقى والفن والرسم.. غير أن الإنسان الناجح هو الذي يُنمّي مواهبه.. ولا يتركها لتذبل دون رعاية.

***

والنجاح كذلك. تساعد عليه البركة والمعونة

يحتاج الإنسان إلى بركة من اللّه لكي ينجح. وقد ينجح بسبب بركة الوالديْن ورضاهما عنه. وربما بسبب بركة أخرى تأتيه من دعاء أشخاص سبق أن ساعدهم فصاروا يدعون له بالخير.

على أن الجهد الكبير بدون بركة قد لا يوصل إلى نجاح لذلك على الإنسان أن يسعى إلى البركة في حياته. ويطلب المعونة الإلهية بالصلاة.

ويوجد أشخاص ينجحون بسبب معونات خارجية تصل إليهم. على أن هناك أشخاصاً عاشوا عصاميين بدون أية معونة ونجحوا بالكد والجهد والصبر.

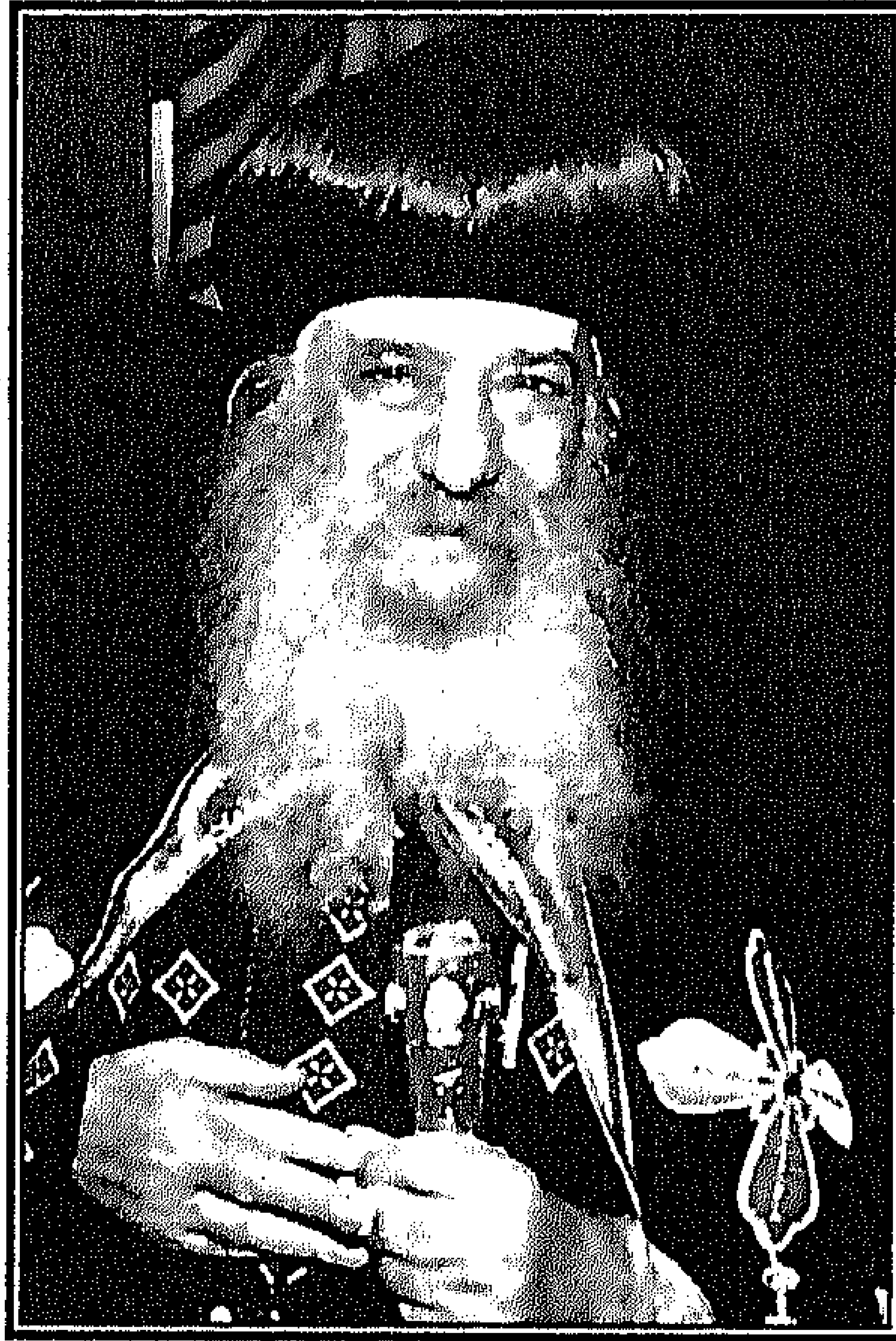
***

لا يفوتنا هذا الموضوع. دون أن نتحدّث عن نجاح الأشرار

للأسف يوجد أشرار كثيرون ناجحون في حياتهم! هؤلاء وصلوا إلى لون من النجاح المادي.

عن طريق المكر أو الخبث أو التحايل. أو عن طريق الرشوة أو الكذب أو الادعاء أو عن طريق الغش أو التزوير أو تملق الرؤساء.. أو بطرق غير شريفة... هؤلاء نجاحهم زائف ومؤقت. وقال القديس أوغسطينوس عن أمثال هؤلاء: إذا أشعلت ناراً. يرتفع الدخان إلى فوق وتتسع رقعته. وفي كل ذلك يتبدّد. أمّا النار فتبقى تحت. لا ترتفع مثل الدخان. ولكنها تبقى في قوتها وحرارتها وفاعليتها. ولا تتبدّد مثل الدخان في ارتفاعه.

لذلك لا تغر من الأشرار إذا نجحوا في هذه الحياة الدنيا وهؤلاء قد استوفوا خيراتهم على الأرض. ولا نصيب لهم في السماء.



٢٠٠٤/٧/٢٠

الحركـة

صدق المثل الشعبي العامي القائل: في الحركة بركة.
ونحن نرى أنه منذ بدء الخليقة. أوجد اللّه الحركة في الكون.

فالأرض تدور حول نفسها أمام الشمس دورة في كل يوم. ينتج عنها تتابع النهار والليل. وتدور دورة حول الشمس كل عام. يكون من نتائجها تتابع الفصول الأربعة...

ترى ماذا كان يحدث لو لم تكن الأرض تتحرّك؟!

هناك دورة أخرى كل شهر بين القمر والأرض. ينتج عنها أوجه القمر. وهناك حركات أخرى ودورات في عالم النجوم والكواكب الشُّهب والمجرات.. والعجيب في كل تلك الدورات أنها دائمة ومنتظمة.

***

الهواء أيضاً يسخن ويبرد. وينتج عن هذا اختلاف في الضغط.

ثم يتحرّك الهواء من منطقة الضغط الثقيل إلى منطقة الضغط الخفيف.. وتنتج عن ذلك الرياح.

ونفس العملية تحدث بين البحر والأرض. وينتج عنها نسيم البحر ونسيم البر. كل ذلك يحدث طبيعياً دون تدخُّل من يد البشر.

والهواء حولنا يتحرّك. والموج في البحر يتحرّك. والسحب في السماء تتحرّك. وهناك تحركات في باطن الأرض تنتج عنها الزلازل والبراكين والنافورات. وتحركات في الغيوم تنتج عنها الأمطار. وتحركات في جذور الأشجار تحت الأرض. وتحركات في فروعها وأوراقها من فوق. وتحرُّكات للطيور في الجو. وللسمك في البحر إنها الطبيعة دائمة الحركة. وحركتها دليل على وجودها.

***

الإنسان أيضاً يتحرّك. وحركته هي دليل على الحياة فيه، وإذا بطلت حركة جسده. يكون حينئذ قد مات..

فنعرف أن الإنسان قد مات. حينما تتوقف الحركة فيه: فالقلب لا يتحرك. لا خفق ولا نبض. والمخ لا يتحرّك. والنَّفَس لا يتحرك. لا شهيق ولا زفير. والدم لا يتحرك في الجسد. وأجهزة الجسم كلها لا تتحرّك.. وإذا بعدم الحركة تشكّل الموت. فيهمد كل شيء ولا يعمل أي عضو فيه عملاً. لأنه لا يتحرك... أمّا الحركة. ففيها حيوية. وفيها نشاط. وفيها حرارة...

***

عضو الجسد الذي يمرّ عليه وقت طويل بدون حركة. يُصاب بالخمول. وقد يمرض وقد يعجز لذلك كانت هناك فائدة كبيرة للتمارين الرياضية. تحرّك الأعضاء. فتنشطها وتقوّيها كذلك باقي أجهزة الجسد. إن كان بعضها لا يتحرّك.. فيحتاج إلى تنشيطه. كالموتور: حياته في حركته قديماً كانوا يسمّون السيارة أوتوموبيل.. وترجمة هذه الكلمة هي "المتحرك بذاته" لأنه هناك عربات أخرى تحرّكها قاطرة وتجرّها.

***

واللَّه يريدنا أن تدب الحياة فينا. فنتحرك. يتحرك فينا العقل فيفكّر. والقلب فيشعر. والإرادة فتنفّذ.

بل يتحرّك فيه الجسد أيضاً. فيتنشّط ويعمل..

مُدير العمل ليست وظيفته أن يجلس على كرسيه. فيصدر أوامر لينفِّذها غيره! إنما عليه أن يتحرك: يترك البيروقراطية.

ويتابع تنفيذ العمل كيف يتم: يتفقّد ويتابع. ويعرف أين توجد الأخطاء. ويصحّح وينصح...

وعضو البرلمان عليه أن يتحرّك داخل الدائرة التي انتخبته. ويتعرّف على مشاكلها واحتياجاتها. ويعمل من أجلها ما يستطيعه. كما يتحرّك أيضاً من جهة المعروضة على المجلس فيدرسها ويكون رأياً.. كذلك الخادم والمُصلح الاجتماعي. عليه أن يتحرّك وسط الناس. ويدرس نفسياتهم وأحوالهم. ويُقدِّم العطاء والحلول...

***

قيل عن السيد المسيح في خدمته للناس إنه كان يطوف المُدن كلها والقرى: يُعلِّم في مجامعها. ويكرز ببشارة الملكوت. ويشفي كل مرض وكل ضعف في "الشعب". وقيل عنه أيضاً أنه: "كان يجول يصنع خيراً. ويشفي جميع المُتسلِّط عليهم إبليس".

إنه ما كان يقبع في مكان واحد. إنما يتحرّك وسط الناس. سواء في البرية. أو على الجبل. أو في الحقول. أو في البيوت..

وهكذا كل من يكون في موضع المسؤولية. عليه أن يكون باستمرار دائم الحركة. دائم النشاط والعمل...

ليس في حدود الرسميات وحدها. بل يرتفع فوق مستوى الرسميات. ويعمل كل ما يستطيع. ويجاهد أن يصل إلى فوق ما يستطيعه الآن.

***

وفي الحياة الروحية. على كل شخص أن يتحرّك نحو اللَّه. ونحو الناس. وداخل نفسه..

يتحرّك نحو اللَّه. بالتوبة. وبأن يفعل كل حين ما يُرضيه.. يتحرّك نحو اللَّه. بالصلاة وبكل ألوان العبادة والتأمُّل...

ويتحرّك نحو الناس بالحُب والخدمة. وبالتعاون والمُعاملة الطيبة. وأن يجعل له في كل قلب مكاناً ومكانة...

يتحرّك نحو الناس. فلا يعتزلهم. ولا يكلّمهم من فوق. كما لو كان في مستوى أعلى. بل يختلط بالناس يحبّهم ويحبونه.

حقاً. إن الحياة الاجتماعية هى التحرّك نحو الغير.

الذي أحسن إليك. تتحرّك نحوه بالعرفان بالجميل وأداء واجب الشكر. والذي أساء إليك. تتحرّك نحوه بالعقاب والصفح. والذي عاداك. تتحرّك نحوه بالمُصالحة والسلام.

***

هناك أيضاً حركة للإنسان داخل نفسه:

الذي يعيش تائهاً عن نفسه. يضل الطريق.. وكذلك من يعيش مُبتعداً عن نفسه. لذلك فيجب أن يتحرّك الإنسان نحو نفسه:

يجلس إلى نفسه. ويفحصها ويُحاسبها. ويبكِّتها إن أخطأت. ويرسم لها الطريق والواجبات التي تقوم بها. إن كانت مُنشغلة عن ذاتها بأمور أخرى. ناسية ما يجب عليها أن تفعله..! وأيضاً يجب أن يحرّك نفسه للتقدّم باستمرار.

***

إن النمو هو حركة لازمة للفرد ولكل مجتمع أيضاً

فليس من الصالح في الحياة الروحية أو في إصلاح النفس. أن يتجمد الإنسان عند درجة مُعينة لا يتحرّك منها، بل باستمرار يمتد إلى قُدّام. يتحرّك بنشاط نحو الكمال النسبي. الكمال المُمكن بالنسبة إلى طاقاته وإلى مقدار النعمة الموهوبة له.

وهنا ما يسمّيه البعض بالطموح.. فالطموح هو حركة في الترقّي والسعي إلى دوام العلو.

والإنسان المهتم بالطموح يكون كمَنْ يُطارد الأفق. وكلّما يصل إلى نهاية. يمتد إلى نهاية أبعد.. ونموّه يكون في المعرفة وفي العمل. وفي نوعية علاقاته بالناس. ويكون أيضاً في نموّه الداخلي. في عناصر الفضيلة. حيث يتحرّك من سموّ روحي إلى سمو أعلى.

***

ومن جهة وجوب التحرُّك إلى الأفضل. تعجبني عبارة قال فيها أحد الأدباء الروحيين:

عليك أن تركض في طريق الفضيلة. فإن لم تستطِع أن تركض. امش. وإن لم تستطِع أن تمشي. ازحف. وإن لم تستطِع أن تزحف. قف ولا ترجع إلى الوراء.

إن الحياة الروحية هى حركة باستمرار تتقدّم نحو الخير. والخير لا يعرف له حدوداً. إذن فلا تفكِّر في ما قد فعلته من خير وتسعد بهذا. إنما فكّر في ما ينقصك أن تفعله من خير. لكي تضيفه إلى سجل أعمالك حتى لا ينقصك شيء...

***

واعلم أن التوقُّف في الحياة الروحية قد يؤدِّي إلى الفتور..

والفتور إذا استمر. ربما يوصّل إلى البرودة الروحية. والبرودة قد تؤدِّي إلى الضياع والهلاك.. لذلك فالعمل الروحي يلزمه حركة مزدوجة. في العلوّ وفي العمق. العلوّ في الدرجة. والعمق في النوعية. فالتفت إذن إلى روحياتك: هل هى جامدة. أمْ مُمتدة إلى قدام؟ واهتم بها كيف تتحرّك. ولا تقف عند حد مُعين.

يجب أن تتحرك. على أن تكون حركتك في اتجاه سليم...

وفي تحرُّكك الدائم نحو الخير. اعرف أن لك عدوّاً دائم الحركة نحو الشر. أعني الشيطان. يرصد حركاتك ليعطلها.

فما دام الشيطان نشيطاً ودائم الحركة. وحيله لا تنتهي. ونشاطه لا يتوقّف. وهو يتحرّك نحونا بكل السبل.. إذن علينا أن تكون لنا باستمرار حركة مُضادة نحوه. نصده بها... قبل أن يتحرّك نحوك بفكر خاطئ. اشغل ذهنك بأفكار روحية. حتى يجد أبواب ذهنك مُغلقة في وجهه.

وقبل أن يتحرّك نحوك بشهوة خاطئة. استعدّ له بأن يكون قلبك عامراً بالمشاعر المُقدَّسة التي لا تقبل الشهوات المعروضة من الشيطان بل ترفضها.

إن لم تكن مُستعداً بأفكار الوقاية من إغراءات الشيطان. فعلى الأقل كن مُستعداً بأفكار المقاومة. التي تتحرّك بها كخط دفاع.

***

وإن كنت عاجزاً عن الحركة. تجاه الهجمات الشريرة. فاطلب لك إذن معونة تحميك وتقوّيك

عليك إذن أن تتحرّك نحو النعمة. تطلب نعمة اللّه لكي تساعدك وتحميك وتقوّيك. أو قد تأتيك هذه النعمة عن طريق إرشاد روحي يُنير الطريق أمامك. ويُعلّمك كيف تسلك.

فالعربة التي لا تتحرّك من ذاتها. تحتاج إلى عربة أقوى تدفعها إلى قدام. وتظل تحرّكها حتى تسخن...

المهم إذا اتتك معونة من خارج أن تستجيب لها إذا لم تستجب أنت إلى حركة من ضميرك تدفعك. فلتكن لك استجابة للمُنافس التي تدفعك من الخارج وتحرِّكك...

***

إن الحياة الروحية كلها حركة. سواء في هذا العالم. أو في العالم الآخر بعد موتنا...

حتي الموت وإن كان هو توقفاً لحركة الجسد إلاّ أنه لا يمنع حركة الروح التي تتحرك نحو مستقرّها. حسبما كانت حالتها في الخير أو في الشر.

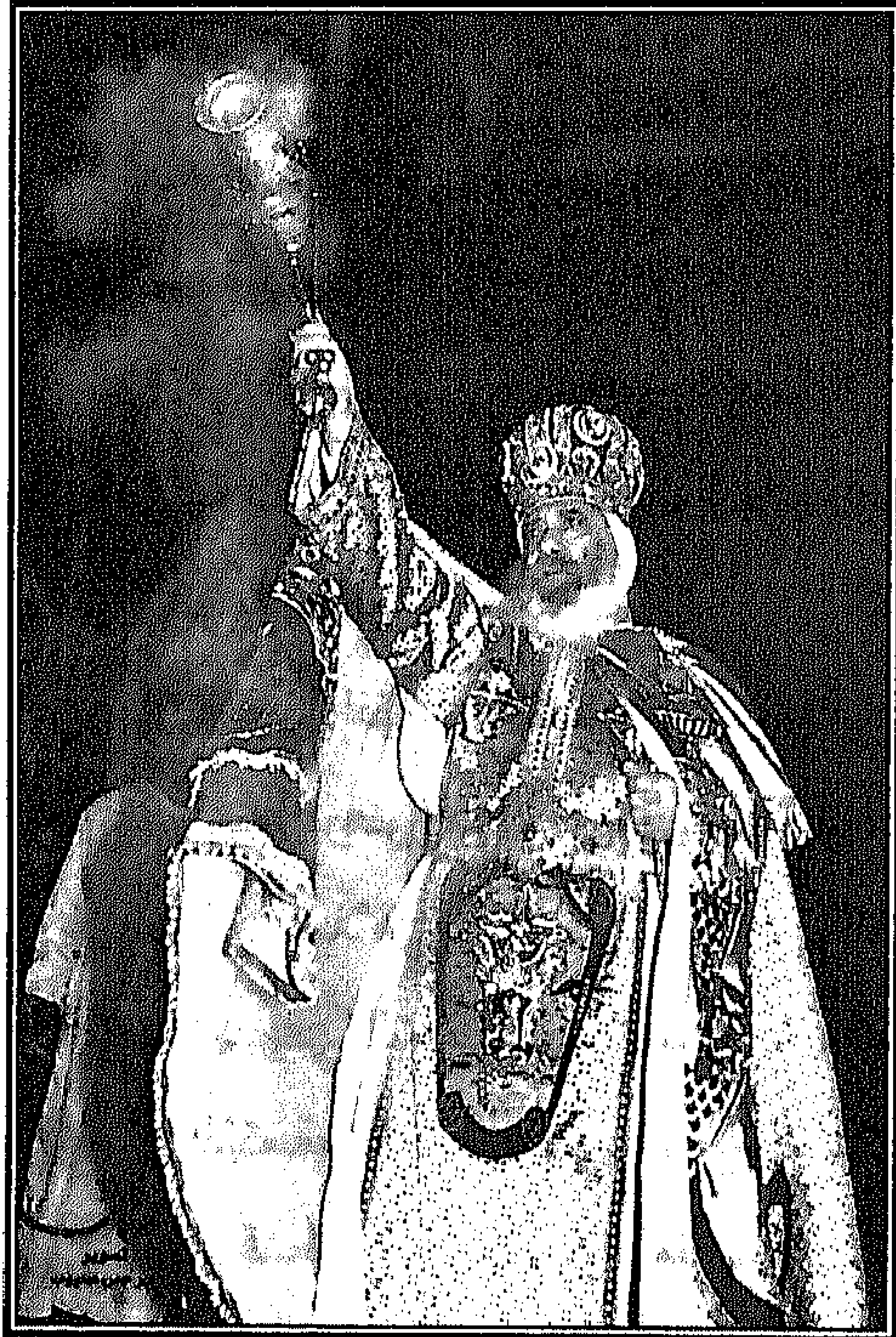
وقيامة الأموات هى أيضاً حركة. فيها تتحرك الأرواح نحو أجسادها لكي تتحد بها وتقوم.

وبعد القيامة حركة من القائمين ليقفوا في يوم الدينونة العظيم أمام اللّه. لكي يعطوا حساباً عمّا فعلوه في حياتهم الأرضية خيراً كان أمْ شراً وبعد القيامة والدينونة حركة أخرى نحو المصير الأبدي أمّا الآن. وأنتم في العالم أيها الإخوة...

تحرّكوا بأنفسكم نحو الخير. قبل أن تأتي الساعة التي تتحرّكون فيها على الرغم منكم نحو المصير المحتوم

ما زال الأمر في أيديكم. والحركة في إرادتكم. والطرق مفتوحة أمامكم. وأنتم أحرار في أيهما تسلكون...

وإن سمعتم عبارة "في الحركة بركة" فاعلموا أن البركة تكون لِمَنْ يتحرّك نحو الخير. فالحركة إذن هى مسؤولية تحكم عواقبها نوعية الاتجاه في هذه الحركة.. وطوبى لِمَنْ يختار الطريق السليم، فإن كان الطريق السليم تصادفه عقبات. إذن طوبى لِمَنْ ينتصر على هذه العقبات من أجل اللّه والوصول إليه.



٢٠٠٤/٧/٢٧

الفـراغ وأنواعـه

بمناسبة بدء العطلة الصيفية لأبنائنا الطلبة. ووقوفهم أمام مشكلة ربما تُسمّى مشكلة الفراغ. أودّ أن أُحدِّثكم اليوم عن الفراغ وبعض أنواعه:

الفراغ له أضرار كثيرة. لذلك عمل الرب على تلافيها من بدء الخليقة.

فأوجد لأبينا آدم عملاً يعمله في الجنة. على الرغم من أن الخير كان كثيراً فكان العمل إذن لملء الفراغ. كما أحاطه اللّه أيضاً بأصدقاء من الحيوانات. كان يدعوهم ويُسمّيهم بأسماء. ولكي لا يقع في فراغ عاطفي. صنع له اللّه من جنبه امرأة هى حواء.

ونحن حينما نتكلّم عن الفراغ. نذكر أنواعاً منه هى:

فراغ من جهة الوقت، فراغ من جهة العقل والفكر، فراغ عاطفي، فراغ في الشخصية.. ونودّ أن نفحصها جميعها..

***

فراغ الوقت:

كل الناس يبحثون عن وسيلة لقتل الفراغ. وبتعبير أصح لملء الفراغ - وفي هذا المجال توجد وسائل خاطئة ووسائل صالحة..

الفراغ من جهة الوقت. يجلب الملل والضيق. وأحياناً يجلب أيضاً الحُزن والكآبة. كما يحدث مع بعض الذين يُحالون إلى المعاش.

وهناك أشخاص يقولون "نريد وسيلة لقتل الوقت"! دون أن يدروا أن الوقت هو جزء من حياتهم.. ففي رغبتهم قتل الوقت. إنما يُبرهنون على أن حياتهم رخيصة في نظرهم!!

أمثال هؤلاء يضيّعون الوقت في الملاهي أو المقاهي. أو في الكلام والثرثرة. وفي مسك سيرة الناس. وفي تبادل الفكاهات. وفي التمشّي في الشوارع. أو في الجلوس طول وقتهم أمام التليفزيون أو في ألوان من المُتعة، والبعض - وبخاصة الشباب - قد يقضي وقته في أحلام اليقظة. فيجلس إلى نفسه. وقد سرح فكره بعيداً. متصوّراً أنه قد صار كذا وكذا من تخيُّلات العظمة أو المُتعة. وصار وصار.. ثم يصحو فيجد نفسه لا شيء!

وأحياناً يصب البعض فراغهم في آخرين:

أي يبحث الواحد منهم عن زميل أو صديق. ويظل يتكلّم معه مباشرة أو في التليفون. في كلام مُفيد أو غير مُفيد، وغالباً ما يكون كلامه فراغاً أيضاً مثله.. والمهم عنده أن يضيّع وقته ووقت زميله في شيء. أي شيء.

والبعض يشغلون وقتهم في الصداقات الضارّة. والبعض يشغل وقته في التدخين. كما لو كان بهذا يسلّي نفسه! والبعض يسد الفراغ بفراغ. أو بضياع!!

***

ونحن نعجب من هؤلاء الذين يستهينون بوقتهم هكذا!

بينما هناك أشخاص كبار يبحثون عن الوقت فلا يجدونه. من فرط كثرة مسؤولياتهم وكثرة إنتاجهم. حتى أنهم حينما يُفارقون العالم الحاضر. يتركون خلفهم فراغاً كبيراً لأن كل واحد منهم كان مجموعة من الشخصيات في ذاته..

***

الاستفادة من الوقت:

إمّا أن الشخص يستفيد من وقته بطريقته الخاصة. أو تكون هذه هى مسؤولية المجتمع المحيط به. أو هى مسؤولية الدولة: في ملء فراغ وقت الشباب.

فمن جهة الدولة: توجد مراكز الشباب. ومراكز للثقافة. للذين يلتحقون بهذه المراكز. كما توجد مراكز للقراءة كدور الكتب.

وقد رأيت في الإسكندرية. كيف يمنح الشباب فرصة للاشتراك في تنظيم المرور. والحفاظ على نظافة المدينة. وبهذا تنتفع الدولة بهم وبوقتهم وأيضاً ينالون بعض المكافآت. ويتدرّبون على خبرات وعلى محبّة بلدهم ولهم في عملهم هذا. زيّ خاص يُميّزهم..

***

- **وهناك وسيلة أخرى للاستفادة من الفراغ. وهى العمل والإنتاج:**

فهناك نشاط يُسمّى "الأُسرات المُنتجة". حيث توجد فرصة للفتيات والنساء عموماً. لعمل العديد من أنواع الأطعمة وتعبئتها. أو يشتغلن بالخياطة والنسيج والتريكو وما أشبه. ويُباع كل هذا في معرض.

• **وسيلة أخرى لملء الفراغ. وهى ما تسمّى بالمشروعات الصغيرة**

الدولة نفسها تساعد الشباب في هذا المجال. وتمنح الشباب قدراً من المال للقيام بمشروع صغير. مع تقديم قائمة بتلك المشروعات الصغيرة - وهى فكرة رائعة لِمَنْ يريد أن يعمل ويكتسب من عمله. دون أن يطلب معونة مع البقاء في دائرة الكسل. وفي مشكلة الفراغ.

***

وعندنا في أسقفية الخدمات في الكنيسة القبطية برنامج للعمل اسمه Vocational Training "أي التدريب المهني".

للتدريب على أنواع من المهن. حسب نوعية الشباب وهوايته.

* فالشاب المُثقّف يمكنه التدرّب على أعمال الكمبيوتر. والانترنت. والفاكس. والتمكُّن من دراسة لغات مُعيّنة تفتح له مجالاً للتوظّف - ليس فقط في الوظائف الحكومية وحدها - وإنما أيضاً في البنوك والشركات والفنادق والسياحة والطيران والهيئات الأجنبية.

• وبالنسبة إلى غير المُثقّفين أو أصحاب الحرف المهنية. يمكن أن يتدرّبوا على أنواع من العمل اليدوي في الآلات الكهربائية. وفي أعمال السباكة. والماكينات المتنوّعة. وحتى في البناء والزراعة.

فيا ليت شبابنا يستخدمون وقت فراغهم في اكتساب مهارات وقدرات جديدة. فإن التوظّف حالياً لا تكفيه مجرّد شهادات دراسية..

إنما حينما يتقدّم شخص لطلب وظيفة. لا بد أن تكون للمهارات الخاصة أفضلية وأولوية تضاف إلى شهادته الدراسية. فتُميِّز طلبه..

***

أيضاً هناك ما يُعرف بِاسم "النشاط الصيفي" في كثير من الهيئات والجمعيات. ومراكز الشباب..

في بدء قيام ثورة يوليو. في أواخر الخمسينيات. كانت هناك حركة واسعة في تشغيل الشباب في عملية تشجير لبعض المناطق الصحراوية.. وحالياً بعض الهيئات تجنّد الشباب لخدمة المناطق العشوائية. أو لخدمة المعوّقين على اختلاف نوعيّاتهم. من صُمّ وبكم. ومكفوفين. وأصحاب إعاقة عضوية. والاهتمام بهم من كل ناحية.. كذلك تدريب الشباب

على محو الأمية في بعض المناطق كالريف والأحياء الشعبية. والبعض يعمل في ميدان الافتقاد. والبحث عن الشباب الضائع. وفي خدمة الذين ليس لهم أحد يذكرهم.

***

كذلك - في ملء فراغ الوقت عند الشباب - هناك من يكتشف مواهبهم الفنية. ويشجّعها ويوظّفها.

فهناك شباب لهم مواهب فنية في كتابة القصة. وفي الموسيقى والشعر. وفي الرسم والنحت وكافة أنواع الفن. ولكنهم لا يجدون من يشعر بهم. ولا من يهتم بهم. وكان الأولى أن تكتشفهم مدارسهم التي تعلّموا فيها. أو مراكز الشباب. وأن تقام مسابقات يُساهم فيها هؤلاء الشباب. وتظهر فيها مواهبهم. وتجد من يرعاهم.

ولعلّ من المظاهر التي نبغ فيها البعض. نحت تماثيل صغيرة تشبه ما يتطلّع السائحون إلى اقتنائه من معالم التاريخ المصري القديم.. ونشر ذلك الفن في المناطق السياحية. وما يدره من دخل مالي ومن شهرة.. مع أمور أخرى يتخصّص فيها فنانون لخدمة السياحة.

***

ممّا يمكنه شغل وقت الفراغ أيضاً ما يُسمّى Advanced Courses "أي المناهج أو الكورسات المُتقدّمة".

وذلك في مجالات مُتعدِّدة ترفع مستواهم الثقافي كما ترفع مستواهم المهني وتزيدهم مهارة في التدريب. وفي نفس الوقت تملأ الفراغ بما يُفيدهم ويسمو بعلمهم.

* * *

الفراغ العاطفي

الفراغ العاطفي قد يوجد عند الصغار وعند الكبار.

الفراغ العاطفي عند الصغار:

هو عدم إشباع عواطفهم من نحو والديهم وإخوتهم وأقربائهم وأصحابهم. ومن مظاهر هذا الفراغ وجود ابن وحيد ليس له أخ يُسلّيه لذلك فأنا أُنبّه دائماً إلى خطورة الاكتفاء بولادة طفل واحد فيجب مُراعاة شعور الابن من حيث وجود أخ أو أخت له: يلعبان معاً ويتحدّثان معاً ويتسامران معاً ويتشاجران معاً ثم يصطلحان في نفس الوقت..

إن الأطفال إن لم تشبع عواطفهم داخل بيوتهم، يتعرّضون إلى خطورة إشباع العاطفة خارج البيت ممّا لا تضمن نتائجه..

وقد يحدث ذلك إمّا لعدم اهتمام الوالدين بهذا الجانب العاطفي في حياة أبنائهم أو ظنهم أن الطفل حينما يكبر بعض الشيء لا يحتاج إلى الإشباع العاطفي كما كان في طفولته الأولى، وهذا خطأ واضح فأبناؤكم يحتاجون إلى العاطفة مهما كبروا.. إنما تتنوّع هذه العاطفة في كيفيتها وفي درجتها حسب نوع السن ونوع النضوج العاطفي ونوع الاحتياج.

* * *

وقد لا يهتم الوالدان بإشباع عاطفة أبنائهم بسبب انشغالهم

الأب بسبب انشغاله طول اليوم في العمل لكسب المال أو الشهرة، حتى إذا رجع إلى البيت يكون منهكاً وغير مُتفرّغ لتدليل أولاده، أو يرجع لمجرد حفظ الضبط والربط في محيط البيت، فينتهر ويعاقب ويفقد مشاعره كأب ليحتفظ بمسؤوليته وهيبته كرب أسرة!

كذلك إذا كانت الأم من النساء العاملات وتنشغل عن أطفالها وتتركهم إلى عناية المربيات وقد حرموا من عواطف الأمومة.

* * *

وقد يفقد الأطفال عاطفة البيت بسبب التمييز Discrimination

كأن يهتمون بالولد أكثر من البنت وقد تكون الابنة جوعانة إلى هذه العاطفة ولا تجدها وقد يحدث التمييز بسبب تفضيل البكر على الصغير أو العكس أو تفضيل الابن المولود حديثاً عمّن سبقه. أو تفضيل ابن أكثر جمالاً أو "دردحة" على الأقل معه.

وكل ذلك يوجد غيرة عند الأطفال ويشعر بعضهم أنه مُضطهد أو مهمل أو لا يجد عناية مثل غيره وقد يلجأ إلى خال أو عم أو جد أو جدة لتعويضه عمّا فقده من حنوّ ولكن الخطورة أن يبحث عن ذلك خارج البيت.. وربما يكون سبب فقدانهم الحنو. هو ما يدعيه بعض الآباء من الحزم!

* * *

صدّقوني إن الإشباع العاطفي يحتاج إليه بعض الكبار أيضاً

من هذا النوع المسنون والمسنات ممّن تُنشئ لهم بيوتاً لرعايتهم بعد وفاة أحد الزوجين وتعيين الأولاد في وظائف في بلاد بعيدة أو تزوّجهم وتفضيلهم أن يحيوا وحدهم. أو بسبب

الهجرة وهكذا يبقى الكبار يُعانون الوحدة. وليسوا فقط يحتاجون إلى الرعاية. بل أيضاً إلى ملء الفراغ العاطفي.. نفس العاطفة تحتاجها الأرامل ممّن فقدوا شريك الحياة رجالاً أو نساءً. ويحتاج إليها الذين احيلوا إلى المعاش. وفقدوا ما كان يُقدّم لهم من كلمات طيبة أثناء عملهم. وكذلك من كانوا في مركز له سُلطة وخرجوا منه.

إشباع الروح والفكر

هناك من يشبعون أنفسهم عن طريق العقل والفكر. كبعض العلماء وأساتذة الجامعات الذين يتفرّغون للدراسة والبحث والإنتاج العلمي ويجدون في ذلك ما يشبع نفوسهم ويرضي مشاعرهم.

والبعض يشبع عاطفته بمحبة اللّه ومن هذا الاشباع قال القديس أوغسطينوس في صلاته إلى اللّه: "سيظل قلبي قلقاً إلى أن يجد راحته فيك" على أن البعض يشبعون عواطفهم بمحبة الذات والتمركز حولها ممّا يُسمّيه علماء النفس بالنرجسية. إذ يعبدون ذواتهم.

* * *

وهناك أشخاص عندهم فراغ في الفكر إذ ليست لهم قدرة على التفكير العميق.

وليس لهم سوى تفكير سطحي وأحياناً لا يفكّرون على الإطلاق تفكيراً يُشبعهم. وليست لهم قدرة على التأمُّل. وبالتالي ليست لهم أهداف كبيرة في حياتهم. فهُم يعيشون على هامش الحياة. وحياتهم عبارة عن فراغ.



٢٠٠٤/٨/٣

لا يغلبنّك الشر

حقاً. ما أجمل هذه العبارة: **لا يغلبنّك الشر. بل اغلب الشر بالخير**

فحياة الإنسان كثيراً ما تكون فيها مواقف اختيار أو اختبار: إلى أي الأمريْن ينحاز: إلى الخير أمْ إلى الشر؟!

وقد يظن المرء أن صالحه يكون في جانب مُعيّن. وربما يكون في هذا الجانب مغلوباً من الشر!

إنها مشكلة مبادئ. أو مشكلة مفاهيم. أو مقاييس..

متى يكون الإنسان غالباً بالحقيقة؟ ومتى يكون مغلوباً؟

إن هابيل البار قد قتله أخوه. فمَنْ منهما كان المغلوب؟

القاتل أم القتيل؟ بلا شكّ أن القاتل كان مغلوباً.. غلبه الشر...

وبنفس المنطق نسأل: مَنْ كان الغالب في عصور الاستشهاد؟ هل هُم أباطرة الرومان القساة الطغاة. الذين استطاعوا أن يعذبوا ويقتلوا من لم يعبُد آلهتهم ولم يَنْجر لأصنامهم؟ أمْ كان أولئك الأباطرة مثل نيرون وديقلديانوس مغلوبين حقاً من الشر والقسوة والوثنية!!

***

إن أول من غلبه الشرّ هو الشيطان...

غلبه الشر. فأسقطه من درجته الملائكية. فهبط من السماء إلى الأرض هو وكل أعوانه. وعلى الرغم من أنه يغلب الكثيرين من البشر. ويسقطهم معه. إلاّ أنه في كل ذلك يعتبر أنه ما زال مغلوباً من شرّه. يزيد إلى شرّه شرّاً. وإلى عقوبته عقوبة...

***

إن الغالب بالحقيقة. هو الذي يغلب نفسه. وليس من يغلب غيره.

هو الذي يضبط نفسه ويقمعها. وينتصر على نزواتها وشهواتها. ويخضعها لقِيَم وروحيات لا تتعداها. فتكون منه تحت حكم حازم حاسم... هذا هو الغالب حقّاً. حتى لو بذل في ذلك تضحية ما أو تضحيات...

هو الذي يكبح جماح نفسه وقت الغضب. فلا ينتصر عليه الانفعال. ولا يوقعه في أخطاء تُمسَك عليه. بل يكون كالجبل الصامد الراسخ. الذي مهما هبّت عليه عواصف لا تزلزله. والمعتدي عليه يرجع مغلوباً...

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ.

***

الغالب بالحقيقة هو الذي لا يرد الشرّ بالشرّ. ولا الإساءة بالإساءة..

لا تغلبه الإساءة فينزل إلى مستواها. ويرد بمثلها. فتكون قد أحدرته معها إلى أسفل. بل على العكس هو يرتفع عن تأثيرها. فلا تستطيع أن تثيره من الداخل ولا من الخارج. إن الإساءة لم تغلبه.. بل كان الخير الذي فيه. أقوى من الشر الذي فيها... وكانت قوة الاحتمال الذي عنده. أقوى من عنف العدوان الذي عند المُسيء...

هل تظن الشخص الإرهابي إنساناً يغلب غيره ببطشه واعتدائه؟

كلاّ. بل هو مغلوب من القسوة والشر. ومن الرغبة في تحطيم غيره أو قتله. وهو مغلوب من مبادئ تدفعه إلى كل ذلك. وقد يكون مغلوباً أيضاً من قيادات تدفعه إلى السير في طريق لا بد أن يسير فيه. سواء بإرادته واقتناعه. أو بمجرد دافع الطاعة!

***

بنفس المنطق نتكلم أيضاً عن الانتقام:

إنسان يُقتل أبوه أو أخوه. فيصرّ على الانتقام من القاتل أو من أحد أقربائه. فإن فعل ذلك. ونجح في الانتقام وفي سفك الدم. أيكون حينئذ غالباً أمْ مغلوباً؟ لا شك أن الشرّ يكون قد غلبه...

غلبته الرغبة الآثمة في سفك الدم. وغلبته تقاليد عائلية تنص على أن الدم لا بد أن يُقابل بالدم. وغلبه الشعور الخاطئ بالعار. إن لم يقتل قاتل أبيه أو أخيه. وعبثاً تحاول أن تغطي على ضميره النشوة المؤقتة التي تشعره بأنه من الغالبين بقتل القاتل وعدم تركه إلى قبضة القانون لكي يقتص منه...

***

الإنسان يكون مغلوباً أيضاً إذا غلبه الشرّ في عادة رديئة...

كعادة التدخين مثلاً. فقد يظن فتى أو شاب أنه قد صار رَجُلاً. حينما يضع كالرجال سيجارة في فمه. وينفّث دخانها في الهواء.. وحينما نرى فيما بعد أنه لم يعُد قادراً على إبطال هذه العادة. يتيقّن تماماً أنه قد صار مغلوباً منها. سواء كانت سيجارة أو سيجاراً. أو بيبة أو شيشة.

وما يُقال عن العبودية للتدخين. يُقال عن العبودية للخمر. أو لأي نوع من الإدمان. فالإدمان اعتراف من المُدمن أنه مغلوب ممّا قد أدمن عليه...

في كل هذا يكون المُدمن قد فقد إرادته. ولم تعُد له قوة الشخصية التي يبطل بها ما قد دخل في سيطرته من أنواع الإدمان وهنا تقف أمامه عبارة "لا يغلبنّك الشرّ".

إننا نذكر بحزن شديد ذلك الرياضي الموهوب الشهير. الذي أدمن بعض المُنشطات تساعده في لعب كرة القدم. فإذا به قد صار مغلوباً من هذا الإدمان. وفقد شهرته وسمعته ونجوميته. وضاع كغيره...!

***

إن الشرّ له حيله ووعوده وخداعه. فاحذر منه لئلاّ يغلبك.

قد يغلبك الشرّ من الخارج بأحلام ورؤى كاذبة. فتنقاد بها ظاناً أنها من اللّه. بينما لا تكون كذلك فتضلك. فاحذر منها. واحذر من الذين يدعون المعرفة بالمستقبل. عن طريق التنجيم. أو قراءة الكف. أو ضرب الرمل. أو قراءة الفنجان. وما أشبه من الطرق العديدة التي يقودونك بها. ويدفعونك إلى سلوك أسلوب مُعيّن. فإن أطعتهم يكون قد غلبك الشر. **وقد يُصوّر لك الشر أحياناً بأنه خير. فيخدعك وتتبعه!**

وحينئذ يكون قد غلبك الشر. وصدق الحكيم حينما قال:

"توجد طريق تبدو للإنسان مستقيمة. وعاقبتها طرق الموت".

***

وقد يأتيك الشر من صحبة ضالة مُضلّلة تلبث ثياب الأصدقاء!

إمّا بنصيحة خاطئة. أو بدعوة للاشتراك معهم في عمل خاطئ.

فعلى الشخص أن يكون قوي الشخصية. لا ينقاد إلى غيره. بل تكون له مبادئ وقِيَم لا يتزحزح عنها. مهما كانت إغراءات الأصدقاء.

والأفضل من كل هذا. أن يحرص كل إنسان على اختيار نوعية أصدقائه. بحيث أن يكونوا مُحبين للخير يرفعونه معهم إلى فوق.

والشر الذي يأتي من الخارج. قد يكون من البيئة أو من الكتب أو من الصحف. أو من سائر وسائل الإعلام. ومن جهة هذه ينبغي الحرص في انتقاء ما يفيد. والبُعد عن كل ما هو مُعثر..

وقد يأتي الشر من داخل الإنسان. من شهوات نفسه...

وما أكثر الشهوات التي تحارب الإرادة. وكلها من القلب. إن لم يكن القلب طاهراً ونقيّاً. فلا تجعل واحدة من هذه الشهوات تغلبك أو تقودك في تيارها...

اغرس محبّة اللّه ومحبّة الخير في قلبك. واعمل على إنمائها بتداريب روحية متنوّعة وكثيرة. واقرأ عن سِيَر الأبرار الذين حافظوا على نقاء سِيرتهم. وقاوموا الشر بكل ما يملكون من جهد.

قاوم شهوة الجسد. وشهوة حُب الظهور. وشهوة حُب المديح. وشهوة التعالي على الآخرين. وشهوة الانتقام. وباقي الشهوات التي تلطِّخ جمال نفسيتك. ولتكن لك إيجابيات ضدّها.

***

وباستمرار اهتم بنقاوة الفكر والقلب والحواس...

لا تسمح لأي فكر خاطئ أن يغلبك. وأن يدخل إلى ذهنك ويستمرّ فيه وقتاً. ولا تسمح لهذا الفكر أن ينمو. وأن يتحوّل في داخلك إلى حكايات وقصص تشبع بها نفسيتك... لا تجعل الفكر يتحوّل إلى رغبة تتحمّس لها. ولا تجعل أمثال هذه الرغبات الخاطئة أن تتحوّل إلى شهوة تضغط على إرادتك لكي تدفعها إلى التنفيذ. لا تغلبنك كل رغبات قلبك إن انحرفت. بل وبّخها. واطردها عنك. قبل أن تستقرّ فيك.

كذلك كُن حريصاً على حواسك وبخاصة النظر والسمع لأنها كلها أبواب للفكر. فما تنظره وما تسمعه. قد يكون مادة لفكرك.

إذن لا تسمح أن تغلبك الحواس. فتنقاد إليها وتضرّ نفسك. بل حاول باستمرار أن تضبط حواسك فيما تجمعه وما تصبه في الفكر.

***

أيضاً احرص على ألاّ يغلبك لسانك. بما يحمل من أخطاء الكلام.

واذكر قول داود النبي في المزمور: "ضع يارب حافظاً لفمي. باباً حصينا لشفتيّ". واعرف أن كل ما تلفظه بفمك. لا تستطيع أن تسترجعه مهما ندمت عليه. بل هو محسوب ضدك.

ما أكثر الذين يقعون في أضرار عديدة بسبب ألسنتهم!

فلا تجعل لسانك يغلبك. واذكر عبارة ذلك القديس الذي قال: "كثيراً ما تكلّمت فندمت. وأمّا عن سكوتي. فما ندمت قط"...

إذا كلّمك أحد. فاحترس ألاّ تقاطعه أثناء كلامه. أو أن يعلو صوتك عليه. ولا يتحوّل حواركما إلى شجار أو عراك. كما ينبغي أن تحرص في انتقاء الألفاظ التي تستخدمها. فلا تكون جافة ولا قاسية ولا نابية. وألاّ يكون لسانك قد غلبك...

***

أيضاً احرص كل الحرص ألاّ يغلبك طبعك. إن كانت فيه أخطاء..

مساكين أولئك الذين يغلبهم طبعهم. إن كان في طبعهم التحرّش بالآخرين. أو كان في طبعهم قسوة أو عُنف. أو حُب السيطرة على الآخرين. أو التدخُّل في خصوصياتهم بدون وجه حق. أو كان الطبع عدوانياً أو شتاماً أو مُتسلّطاً.. وفي تحليل أخطاء هذا النوع من الناس. نقول إنه مغلوب من طبعه!

راقب إذن طباعك. واعرف ما هو الخطأ الثابت فيها. وحاول أن تغيّر ما فيك من طباع خاطئة. وليس هذا أمراً عسيراً. فكثير من التائبين تحوّلوا إلى العكس. فاحكم يا أخي على نفسك قبل أن يحكموا عليك.

***

وسنحاول هنا أن نعرض بعض الطباع التي ينغلب بها كثيرون:

هناك من يغلبه الطمع. فيسود على طباعه. فهو يحب الكثرة بأنواع عديدة بغير ضابط. كالتاجر الذي يحتكر السوق لكي يتحكّم فيه. أو الذي يُبالغ في رفع الأسعار. غير مُبال باحتياجات المُشترين...

وهناك من يغلبه الغشّ. ويرى أنه أقصر طريق يوصله إلى ما يطلب. كالبائع الذي يغش في تجارته لكي يكسب. وكالتلميذ الذي يغشّ في امتحاناته لكي ينجح.

كل أولئك تصوّروا أنهم يصلون إلى "الخير" الذي يريدونه. بينما هم مغلوبون من الطمع أو من الغشّ.

والبعض قد يكون مغلوباً من الكذب. ظاناً أنه بهذا الأسلوب يغطّي على أخطائه. وينجو من المسؤولية! أو أنه بالكذب يمكنه أن يصل إلى الغرض الذي يريده..

والبعض قد يلجأ إلى العناد مثل فرعون حاسباً أنه باستمرار العناد سوف يثبت على وضعه. ويصل!!

***

وهناك طباع أخرى. أو وسائل خاطئة. يرى بها البعض أنها توصّله إلى هدفه. بينما لا توصله إلاّ إلى الضياع!

منها الحيلة والخداع. أو ما يمكن تسميته بالتحايل...

وقد يحاول البعض أن يعتبره لوناً من الذكاء. أو قل من الدهاء. يلجأ إليه المبدأ الميكافيلّي القائل بأن الغاية تبرِّر الوسطة!

على أن الأبرار يرون أنه لا بد من واسطة سليمة لتوصّل إلى غرض سليم...

***

البعض قد تغلبهم الرفعة والكبرياء يلجأون إليها بِاسم الكرامة.

وهؤلاء خطيئتهم الأولى هى [الذات]. فهُم مُتمركِزون حول ذاتهم. يعملون على علوّها وتمجيدها.. وتكون الكبرياء هى الوسيلة.

على أن هذا النوع من الناس غير محبوب. وغير متجاوب مع غيره. ويلزمه التواضع لكي يعالج به كبرياء الذات.



٢٠٠٤/٩/١٤

الـروح والحرفيـة

كثيراً مـا يقـع بعض النـاس في مشاكل. ويوقعون غيرهم في مشاكل. لأنـهم يهتمـون بالحرفية وليس بالروح!

مُنذ أكثر من خمسين عاماً. كان أحد رؤساء المصالح في خلاف شديد مع الموظفين. وكانوا يكرهونه جداً. فجاء يعرض مشكلته عليّ. وقال لـي: "لست أدري لماذا يكرهنـي هؤلاء. بينمـا لـم أتصـرّف معهـم أي تصـرُّف يكـون ضـد القـانون؟!" فقلـت لـه إن مشـكلتك أنـك لا تتصرّف معهم إلاّ بالقانون وليس بالحُب. كما أنك تعاملهم بحرفية القانون وليس بروحـه!!". وقلت له أيضاً إن القانون أعطاك سُلطة عليهم. واللّه تبارك اسمه أعطاك عقلاً به تُحسِن استخدام السُلطة في حكمة.

والسُلطة في روحها أُعطيت لتنظيم العمل. وليس للسيطرة.

مُدير آخر فـي سوء استخدام سُلطته. فقد هيبتـه علـى مرؤوسيه. وكـانوا لا يطيعونـه أحيانـاً..! فقال لأحدهم فـي انتهار "ألاَ تعلم أننـي رئيسك؟!" فأجابـه ذلك الموظـف فـي جرأة "أنت لست رئيسي. بل أنت رئيس فقط على هذه الأوراق التي على مكتبي.."

***

كلنا نخضع للقانون. ولكن القانون يُفهَم بروحه وليس بحرفية نصوصه.

لـذلك توجـد للقـانون مـذكرة تفسـيرية. توضّـح الهـدف منـه. وحـدود تنفيـذه. والحـالات الاستثنائية الخاصـة بـه. وذلك حتـى لا ينحـرف البعض فـي فهمـه. ويفسّره أو يطبقه بطريقة خاطئة..!

نعم. مـا أكثـر ضـحايا التطبيـق الخـاطئ للقـانون. الـذي يصـبح فيـه سيفاً علـى رقـاب البعض. وليس ميزاناً توزن به أعمالهم..!

وما أكثر الذين يبحثون عن بعض الضوابط في تنفيذ القانون ليجعلوها عقداً أو عراقيل! وما أكثر الذين يفتّشون عن ثغرات مُعيّنة في أي قانون. ليتّخذوها وسيلة للهروب من القانون

نفسه. وقد يحكم القضاء بأمر ما. ويقوم البعض بإشكالات تمنع التنفيذ. وللأسف بنصوص أخرى من بعض القوانين!

ولكل أولئك نقول: أين روح القانون؟ وأين هيبته؟

***

هناك حكم يقول "القاتل يُقتل". ولكن القضاء في عدالته لا يأخذ بحرفية هذا المبدأ. إنما يراعي روحه بكافة التفاصيل.

فيدرس القضية وظروفها. وهل حدث القتل عفواً أو عرضاً أو خطأً أو سهواً. أو عن طريق الإصرار والترصُّد وسبق الإعداد وإحكام الخطة؟ وهل القاتل كامل العقل أمْ مختل أمْ مجنون؟ وهل وقت ارتكاب الجريمة كان في كامل إرادته وحريته؟ أمْ كان مُرغماً أو مُضطراً أو مُستفزاً أو مُحرضاً من غيره؟ وهل ارتكب الجريمة دفاعاً عن النفس. أمْ دفاعاً عن الشرف. أمْ دفاعاً عن غيره؟ أمْ بقصد الحقد أو الانتقام أو السرقة أو بنيّة خبيثة؟.. وبعد فحص القضية من كافة نواحيها وحيثياتها. ودراسة حالة الجاني من حيث عقليته ونفسيته وإرادته ونيّته. وبعد سماع الشهود ومُرافعة النيابة والدفاع.. أخيراً يحكم القاضي بالإعدام أو بالسجن. أو بالبراءة أحياناً. أو بالإيداع في مستشفى الأمراض العقلية.

إن الأمر ليس مجرد حرفية القانون بقتل القاتل. إنما بروح القانون الذي يدرس ويحقِّق قبل أن يحكم.

***

إننا نؤمن بسيادة القانون. ونؤمن أيضاً بعدالة القانون ومدى مُطابقته لحقوق الإنسان. ومدى شرعيته.

ولهذا فقد يُحال الأمر أحياناً إلى المحكمة الدستورية العليا. لمدى معرفة دستورية القانون وهل يجوز تعديله..؟ ما أكثر ما تغيّر الدول أو تعدّل من قوانينها. نظراً لدراسات مُعيّنة. أو لتغيّر الظروف والملابسات. أو لوجهات نظر سياسية أو اجتماعية أو لأسباب أخرى.. كما حدث مع بعض قوانين التأميم أو المصادرة. وبعض قوانين الضرائب والجمارك والحقوق السياسية. وتنظيمات الأحزاب وإجراءات الانتخابات. إن تطوير القوانين يدل على وعي سياسي ولون من التطوّر. دون التجمُّد عند حالة من النصوص القديمة لا تتغيّر..!

***

المهم في تعديل القانون. هو روح القانون وهدفه.

وبناء على الهدف. يمكن صياغة النصوص لتحقّق الغرض المطلوب. وإلاّ فما هو هدف الدراسات القانونية؟ وما هي رسالة الهيئات المنوّطة بالتشريع؟ هل كل ذلك لمدح القديم والثبات عليه؟ أمْ أيضاً لدراسته ومعرفة نقاط النقص وما يجب استكماله؟ فمثلاً القانون الذي تقف عقبات عملية في طريق تنفيذه. يحتاج إلى دراسة هذه العقبات وطريقة التخلُّص منها. حتى لو أدّى الأمر إلى تعديل القانون أو إعادة صياغته. لكي يكون عملياً في تنفيذه.

***

ومن جهة روح القانون. نذكر أن بلاداً مُعيّنة تسير بالروح وليس بالنصوص. في تقاليد ثابتة لها سُلطة القانون عملياً.

كذلك هناك مجتمعات كثيرة تحكمها عادات. أو تقاليد أو قواعد مرعية تسمّى أحياناً Culture أو تسمّى Traditions ولا يهم أن تسندها قوانين مُعيّنة. إنما يكفي الاقتناع بها اجتماعياً.

ويحدث هذا أيضاً في بعض القبائل العريقة. وبين العائلات المُتمسّكة بالتقاليد وبالقيم. وهذه القيم أثبت من القوانين. لأن لها العمق. وليس مجرّد الشكليات والنصوص.

***

إن مبدأ الروح وليس الحرفية. يصلح أيضاً في التربية.

وذلك بتعليم النشء مبادئ يسير عليها. وليس إغراقه في عديد من الوصايا لا يدري عُمق روحها.. وكما قال الشاعر:

إذا كنتَ في حاجة مُرسلاً .. فارسل حكيماً ولا توصيه

وإن باب أمرٍ عليك التوى .. فشاور لبيباً ولا تعصيه نعم.

إنه في الحكمة. يمكن ممارسة روح القانون وروح الوصايا جميعها. وليتنا نربي أبناءنا على الحكمة في التصرُّف. ونترك لهم موازين التفاصيل لكي يُدبّروها بالحكمة دون الاعتماد على حرفية النصوص. فليست التربية هي مجموعات من الأوامر والنواهي. إنما تأتي بالروح التي توصل إلى الحياة الأفضل.

***

كذلك الأسرة وتماسكها. لا تسير بمجموعة نصوص من قانون الأحوال الشخصية. إنما بروح المحبة والتفاهم بين الزوجين.

فلا يتمسّك الزوج بعبارة "الرجل رأس المرأة" أو بعبارة "الرِّجال قوّامون على النساء". إنما يدخل إلى الحياة الزوجية بروح المودة والتآلف. التي تجعل المرأة تخضع لزوجها عن حُب وبذل. وليس خضوعاً لسيطرة مفروضة عليها من الرجل..!

ونحن نصل إلى تثبيت هذه المودة بالتفاهم وبالإقناع الذي هو أقوى من أي نصوص في القوانين. إنه الروح وليس الحرف.

***

إننا نأخذ درساً في الروح والحرفية. من قصة الكرمة. والفرق بين عنب التكعيبات والعنب الأرضي.

في التكعيبات تستند كرمة العنب على التكعيبة وتنتشر عليها. بحيث إذا لم توجد التكعيبة. تقع الكرمة وفروعها على الأرض وتفسد. أمّا العنب الأرضي فيربى بحيث يرتكز على ذاته. دون أية دعامة تسنده من تكعيبة. وهكذا لا يسقط على الأرض. إن التكعيبة تمثِّل في الحياة الحرفية للإنسان مجموعة الأوامر والنواهي التي إن لم يرتكز عليها يضل طريقه في الحياة. أمّا العنب الأرضي. فيمثِّل حياة الإنسان المُرتكز على ذاته. بقيم ومبادئ داخل نفسه. تثبت مسيرته في الخير. دون أن يسأل في كل طريق يسلك فيه ماذا أفعل لكي لا أخطئ؟

***

وكما تكلّمنا عن القوانين والوصايا. نتكلم أيضاً في محيط الحياة الدينية. وهل هي تعتمد على مجرد آيات ونصوص؟

كثيراً ما يُستخدم نص مُعيّن. أو إحدى الآيات. في توجيه حياة الإنسان في اتجاه ما. على غير ما يقصده الدين!! فالدين ليس مجرّد آية واحدة. ربما قيلت في مناسبة مُعيّنة. لغرض خاص. إنما الدين هو تعليم شامل مُتكامل يوجّه الحياة الإنسانية كلها نحو الخير والفضيلة والصالح العام. وحكيم هو الإنسان الذي يفهم الدين كله في روحه. دون أن يتعلّق بآية واحدة. عن غير فَهْم بالقصد منها..! وبنفس الوضع. سنتحدث عن الفضائل الدينية. في روحها وليس في مجرد الشكل والنص والحرف.

خذوا فضيلة الصوم مثلاً. بين الروح والحرفية.

الصوم قبل كل شيء هو وسيلة لضبط النفس: تبدأ من جهة الطعام أولاً. وبها يتدرّب الصائم على ضبط النفس من جهة كل شيء. فيحيا حياة فاضلة ترضي اللّه.

وليس الصوم في روحه هو مجرّد اخضاع للجسد فترة مُعيّنة. يفعل بعدها الإنسان ما يشاء! كأن تنتهي فترة انقطاعه عن الطعام. بخضوعه لشهوة التدخين أو الخمر. وكما قال الشاعر:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي .. مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فهذا الذي يشتاق إلى الخمر. ويفرح بانتهاء الصيام ليشبع شهوته في الخمر.. هل نال هذا الصائم ما يهدف إليه الصوم من ضبط للنفس؟! أمْ أخذ من الصوم حرفيته وليس روحه؟!

لذلك يصوم كثير من الناس. ولا يستفيدون من الصوم. لأنهم سلكوا في صومهم بطريقة حرفية. بعيدة عن روحانية الصوم وهدفه!

***

كذلك مفهوم الصلاة: حرفياً هى حديث إلى اللّه. أمّا روحياً فهى الصلة بين الإنسان واللّه.. ومن معنى الصلة أتت عبارة الصلاة. فماذا إذن عن الذي يُصلّي. ولا يشعر بأية صلة بينه وبين اللّه؟

ألا ينطبق عليه قول اللّه عن صلوات بعض اليهود "هذا الشعب يعبُدني بشفتيه. أمّا قلبه فمبتعد عنّي بعيداً". عن مثل هؤلاء. قال أحد الآباء "إن حوربت بهذه الحالة. فوبّخ نفسك قائلاً: أنا ما وقفت أمام اللّه لكي أعدّ ألفاظاً"! وقد يكون ذلك في الصلاة بغير فهْم ولا روح ولا مشاعر! وبدون خشوع أمام اللّه. وبدون حرارة ولا حُب!! وقد يصلّي مثل هذا الإنسان ويطيل الصلاة. دون أن تصعد صلاته إلى اللّه! إنه يصلّي أو يظن أنه يصلّي وصلاته ليست صلاة!

يظن أنه يُعطي اللّه وقتاً. أو يؤدّي للّه فرضاً!! دون أن يُعطي للّه قلباً! بينما يريد اللّه القلب قبل كل شيء. مثل هذا الشخص يسلك حسب الحرف وليس حسب الروح!

***

نتطرّق إلى العطاء. أو كما يُسمّى أحياناً بالصدقة.

العطاء في روحه هو المشاركة بالحُب والقلب مع المحتاجين غير أن البعض قد يُعطي من جيبه. وليس من قلبه!

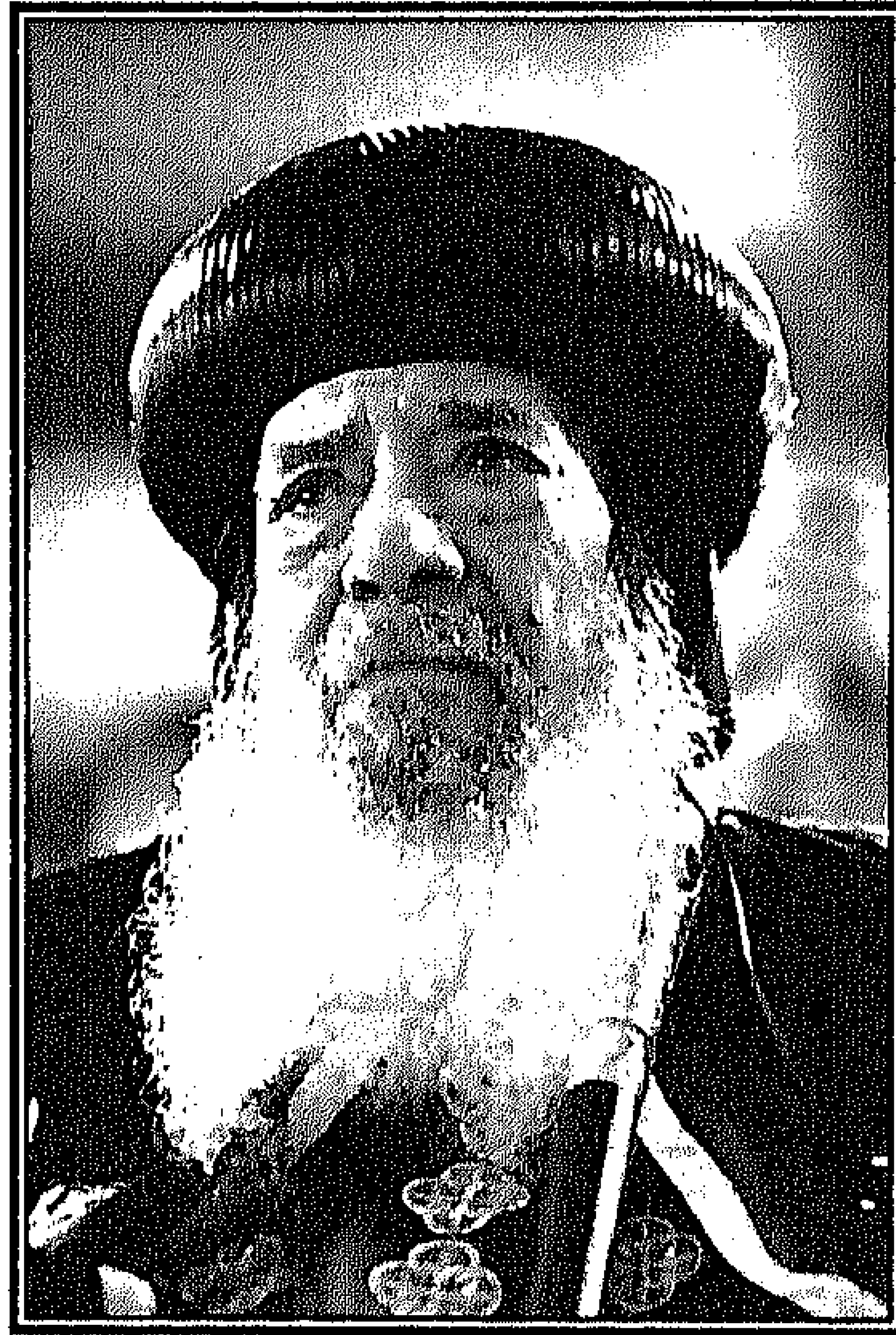
وقد يُعطي عن اضطرار. أو عن افتخار. أو لمجرّد أداء واجب. أو خجلاً ممّن يطلبون منه العطاء.. وفي كل ذلك لا تشترك عاطفته في العطاء. يكتفي بالحرفية دون الروح. لذلك فإن المُعطي بسرور يُحبّه الرب. ويحبه أيضاً الذين يتلقون منه العطاء. كذلك من روح العطاء أنك تدرك أن اللّه قد أعطاك ما تعطيه. وأعطاك الفرصة لكي تُعطي. فتشكره على ذلك.

***

عموماً نحن نريد أن ندخل في عمق الفضيلة. في روحياتها وليس في حرفيتها. والروحيات تبدأ من القلب.

العفّة مثلاً ليست هى الاحتراس الخارجي من الخطأ. إنما هى عفّة القلب في كل شيء. فقد يوجد من يحفظون العفّة بأجسادهم. أمّا أرواحهم من الداخل فخاطئة تشتهي الخطية. والاتضاع هو حالة الروح من الداخل. وليس الاتضاع مجرّد مظهر خارجي وألفاظ لا تعبر عن حقيقة قائلها.

وهكذا في سائر الفضائل: المطلوب هو الروح وليس الحرفية.



٢٠٠٤/٩/٢١

الأعذار والتبريرات

قد يُخطئ الإنسان.. ولكنه لا يشاء أن يعترف بأنه مُخطئ.. ولذلك يُغطي الخطأ بالأعذار والتبريرات.

أو يحاول أن يقلّل من شأن ذلك الخطأ. ويقف أمام الناس بريئاً وبلا عيب.. وما أسهل على الضمير الواسع أن يجد عُذراً لأية خطيئة يقع فيها..! وما أسهل عليه أن يُبرِّر أي موقف. بأي كلام..!

وباب التبريرات باب واسع.. إن فُتِح. اتسع لكل فعل..

وفي تبرير الخطأ. يمكن تسميته بِاسم آخر مقبول. أو بِاسم فضيلة!

فالقسوة الشديدة في التربية. يمكن تسميتها بالحزم والتأديب.. والفكاهات البذيئة يمكن أن تسمّى باللّطف وروح المرح.. وما أكثر الخطايا التي توضع تحت اسم الفن.. وكثير من الانحرافات في بلاد الغرب توضع تحت اسم الحرية وحقوق الإنسان!!

* * *

الدافع الأول إلى الأعذار هو تبرير الذات.. والسبب الحقيقي للأعذار الخاطئة هو كبرياء النفس التي ترفض أن تعترف بالخطأ..

والذات صنم يتعبّد له الإنسان ويريده أن يكون كاملاً وجميلاً في عينيْه وفي أعين الناس. لا تشويه شائبة. وإن وُجِدَت هذه الشائبة. يحاول أن يمحوها بالأعذار والتبريرات.. وتبريرات الأخطاء في حد ذاتها هى خطأ آخر قد يحطّ من قدر الإنسان أكثر من الخطأ الأصلي الذي يحاول أن يُبرِّره.. وربما ينطبق عليه المَثَل القائل: "عذر أقبح من ذنب"!

* * *

والأعذار قد تكون مكشوفة ومختلقة.. وتصبح غير مقبولة.

بل قد تكون مجالاً للسخرية. وسبباً للإثارة. لأنها تدل على استهانة بقيمة الخطأ. وتقليل من شأنه. وعدم الندم عليه ممّا يُسبِّب الاستمرار فيه. وهذا طبعاً شيء مُثير.

ومن هنا كانت التبريرات والأعذار ضد التوبة وإصلاح النفس ومُعالجة أخطائها.. فالإنسان يُعالج ما يراه خطأ. أمّا الذي يُبرِّره. فكيف يعالجه؟! لأنه "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب. بل المرضى" وهكذا تكون التبريرات والأعذار. هي ضد الاتضاع وضد التوبة.. فالاتضاع يعترف بالخطأ. ولا يُبرِّره..

* * *

على أن هناك نوعيْن من التبرير: أحدهما أمام الناس. والثاني أمام النفس

فقد يوجد شخص يُبرِّر خطأه فيما بينه وبين نفسه. وبالتالي أمام الناس.. وهذا نوع تختل في داخله القِيَم وموازين الأمور.. ونوع آخر يعترف في داخل نفسه أنه أخطأ.. ولكنه أمام الآخرين يحاول أن يُبرِّر نفسه. بدافع من الخجل. أو حفظاً لكرامته وسمعته أمامهم! وهذا النوع يمكن أن يصلح نفسه وعليه أن يعرف أن كرامته الحقيقية تكمُن في نقاوة حياته. وليس في مظهر يظهر به أمام الناس. وقد يأتي بنتيجة عكسية!

* * *

على أن الإنسان - مهما حاول أن يُبرِّر نفسه أمام الناس - أتراه يستطيع أن يُبرِّر أخطاءه أمام اللّه العارف بالقلوب والأفكار؟!

أمام اللّه الحقائق كلها واضحة. لا تغيّرها ادعاءات الناس وأحكامهم وتبريراتهم. ولا تؤثر عليها الأعذار.. وفي الأبدية سوف توزن أعمال الناس وأقوالهم بميزان كله دقّة وحق.. لذلك كلّما حوربت أيها الأخ بتبريرك لنفسك. قل بصراحة كاملة: "وماذا أفعل حينما أقف أمام اللّه الديّان العادل؟!". واحكم يا أخي على نفسك قبل أن يُحكم عليك..

وفي صلواتك اعترف بكل أخطائك. واطلب عنها المغفرة.

* * *

وتبرير النفس أمام الناس. قد يكون لوناً من الخداع ومن المكابرة.

وشرحاً لِمَا حدث من الأمر على غير حقيقته..

وعموماً. فتبرير النفس في أخطاء واضحة. هو لون من الرياء. يريد صاحبه أن يراه الناس بغير الواقع. وكما قال الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عمّا تحته .. فإذا التحفت به فإنك عارٍ

وهكذا يكون تبرير الذات في أخطائها هو ضدّ الحق والصدق.. وبخاصة إن كان يعرف من يُبرِّر ذاته أنه غير صادق فيما يقول.. وأيضاً إن كان يلجأ إلى الاحتماء وراء أسباب ثانوية بعيدة عن السبب الأساسي! وقد يقف الكذب مُعيناً لكل خاطئ. وبيده ورقة تين عريضة كي يستر بها عُريه. وذلك بأعذار وتبريرات تصرخ كلها قائلة: إنني مجرّد ستار لنفس أتعبتها الكرامة والكبرياء. أو أتعبها الخجل. فتريد أن تقف أمام الناس بريئة. بأية وسيلة أو أي سبب!

* * *

والذي يُبرِّر نفسه بعذر ما. قد ينكشف هذا العذر. فيغطيه بعذر آخر. ويدخل في سلسلة من الأعذار والتبريرات لا تنتهي..

وقد تكون مُسبّبة للإثارة. إن كانت أعذاراً واهية لا يقبلها العقل. وواضحة فيها الحيلة والرغبة في الهروب من المسؤولية وكان خيراً لمُقدِّم هذه التبريرات أن يصمت. إن لم يستطِع أن يعترف بالخطأ. فالصمت لا يثير كالأعذار التي تدل على استهانة بالخطأ. وعدم احترام لعقول الناس التي تكتشف زيف الأعذار.. يا ليت الإنسان يبعد عن الخطأ. الذي يحتاج إلى تغطيته بمثل هذه التبريرات..

* * *

هناك نوع آخر من التبرير. هو تبرير الأحباء والأصدقاء. والزملاء في هيئة واحدة اجتماعية أو سياسية أو ما شاكل ذلك..

من هذا النوع تبرير الأمّ لتصرُّفات ابنها. لتحميه من نقد الآخرين أو من عقاب أبيه. وكذلك تبرير شخص لأخطاء الفرقة الرياضية التي ينتمي إليها. دفاعاً عن سُمعتها. أو دفاع سياسي عن حزبه في كل تصرُّفاته بتبرير لكل ما يفعل وكل ما يقول. وبنفس الوضع تبرير دولة لدولة أخرى صديقة أو حليفة مهما كانت أخطاؤها!! نحن لا ننكر واجبات القرابة والانتماء والصداقة. ولكن الحق هو الحق ينبغي ألاّ يحيد عنه أحد مهما كانت الدوافع. والمحبة الحقيقية هي أن تنصح من تُحبّه ليسير في الطريق السليم ويُعالج أخطاءه. لا أن تشجّعه على البقاء فيما هو فيه تبرير أخطائه..

* * *

نـوع آخـر مـن التبريـر يقـع فيـه بعـض الـوكلاء أو المرؤوسـين أمـام رؤسـائهم. لتبرير أخطاء أو انحرافات في الإدارة..

وذلـك بأسـلوب "كـل شـيء تمـام يـا أفنـدم"! الـذي يلجـأ إليـه الـبعض. لإيهـام المـدير أو الرئيس بأنه لا يوجد خطأ يشوب إدارتهم. فإن سألهم عن الشكاوي التي ترد إليه. يُبرِّرون الأمـر بأنهـا كلهـا شـكاوي كيديـة تـمّ فحص أمثالها وثَبُتَ زيفها. وأحياناً يقولـون فـي تبريرهم لذلك: نحن نعرف مصدر كل ذلك. وهو شخص موتور. رفضنا أن نصرّح لـه بطلب منه غير جائز. فملأ الدنيا شكاوي بعضها بأسماء وهمية. ليرغمنا على الخضوع لطلبه!!

نصيحتي لهذا المدير أو الرئيس أن يُحقِّق بنفسه فيما يرد إليه من شكاوي. أو يعهد بها إلـى لجنـة محايـدة. ولا يتركهـا إلـى الحاشـية المحيطـة بـه لـئلاّ تضـلِّله بتبريـر كـل الأخطـاء والانحرافات.

* * *

نوع آخر من التبريـر يتعلّق بتقصير البعض فـي شئون العبـادة أو بواجباتـه الروحيـة بصفة عامة..

فقد يقصّر إنسان في صلواته. ويحاول أن يُبرِّر ذلك بعدم وجود وقت لديه لأدائها! بينما لديه الوقت الكافي لقراءة الجرائد والمجلات. ولسماع الإذاعة والتليفزيون. ولديه وقت للسمر مع أصدقائه. وتقف مشكلة الوقت في مجال الصلاة وحدها!! والحقيقة أنه ليست لديه الرغبة ولا الدافع الداخلي للصـلاة. فيلجأ إلـى تبرير زائـف هو عدم وجود وقت! بينمـا لـو شـاء أن يُرتِّـب وقتـه بـين سـائر مسـؤولياته. لوجـد الوقـت... إنـه إذن تبريـر زائـف. وبـنفس المنطـق والأسلوب من يُقصّر فـي الصـوم. ويُبرِّر ذلك بأن ظروفه الصحية لا تساعده! بل أكثـر من هذا. من يفلسف الموضوع ويقول إن اللّه هو إله قلوب. وليس الجوهر هو الصلاة والصوم!! وماذا يمنع أن يجتمع الأمران معاً: القلوب مع الصلاة والصوم؟!

* * *

علـى أن هنـاك تبريـراً آخـر يلجـأ الكثيـرون إليـه مـن جهـة أخطـائهم الاجتماعيـة. وهو قولهم "كل الناس هكذا... هل نشذّ نحن؟!"

والتعبير غير دقيق. لأنه من الناحية العملية ليس كل الناس على خطأ. وحتى لو وُجد تيـار عـام خـاطئ. لا يصـح أن يخضـع الكل لـه.. ومـن هنـا كـان الأبـرار الـذين لا يجرفهم

التيار. وشعار كل منهم هو قوله: سأطيع اللّه حتى .. لو أطعت اللّه وحدي. وأيضاً موقف القادة والمصلحين الذين وقفوا ضد التيارات العامة والتقاليد المُتبعة في أيامهم. حتى غيّروها.. نردّ بهذا على الذين يقولون مثلاً "الموضة هكذا" أو "هكذا العُرف والتقاليد التي يسير عليها كل الناس"!! لدينا أخطاء شائعة في حفلات الزواج. وفي زيارة قبور الموتى. وفي مناسبات عديدة. وتبرير وجودها كلها إنها متوارثة منذ زمن... وهى تحتاج بلا شك إلى تغيير. مع توعية لمَنْ يلتزمون بها..

* * *

إن لم تستطِع أن تؤثّر على المجتمع بروحياتك. فعلى الأقل لا تندمج فيه ولا تخضع له. ولا تجعل الأخطاء التي حولك تؤثّر عليك..

المفروض في الأبرار أنهم يطيعون ضمائرهم غير مُنجرفين مع التيار. مُعتذرين بأن الجو العام هو هكذا. فالقلب الضعيف هو فقط الذي يسقط.. إن نوحاً أبا الآباء عاش في جو بلغ من فساد أن اللّه أغرقه بالطوفان أمّا نوح فاحتفظ بمبادئه. وركب الفلك وحده مع عائلته.. لماذا إذن تأخذ موقفاً ضعيفاً أمام الذين يعيّرونك بتدينك؟! أولئك الذين يسخرون بالأسلوب الروحي. محاولين بسخريتهم أن يضعفوا معنوياتك. ويجذبوك إلى طرقهم.. فإما أن تكون قويّاً في اقناعك لهم. وتثبت في سموّ حياة الروح. أو تصمت وتظلّ راسخاً في طريقك..

* * *

هناك عُذر آخر يلجأ إليه العديد من المُخطئين. وهو أن وصايا اللّه بعضها صعب. والطبيعة البشرية أضعف من أن تنفذه!!

ونقول إنه لو كانت الوصايا صعبة. ما أمر اللّه بها. فكيف يأمر بما لا يمكن تنفيذه؟! وإلاّ ينطبق قول الشاعر: ألقاه في اليَمّ مكتوفاً وقال له .. إياك إياك أن تبتلّ بالماء اعرف إن اللّه عندما يُعطي البشر وصيته. إنما يُعطي معها القوة على تنفيذها. فهو يُعطي الوصية والنعمة معاً. غير أن البعض لا يستخدم نعمة اللّه المُعطاة له. ويعتذر بضعفه البشري!

في طريق البر. لا تخف من خطية. ولا من عادة أو طبع. ولا من شيطان.. ولا تجعل الخوف مُبرِّراً لك في ترك العمل الروحي.. طوبى لأولئك الذين كانوا مُنتصرين في قلوبهم

على الخطية. وكانت لهم الصلوات القوية التي تستنزل لهم معونة اللّه. ولذلك لم يعتذروا أبداً بصعوبة الوصية. ولم يتّخذوها وسيلة لتبرير أنفسهم في أخطائهم.

البعض - في فشلهم الروحي - يعتذرون بوجود عوائق في الطريق...

منطق الضعفاء هو الخوف من العوائق. ومنهج الأقوياء هو الانتصار عليها.. كلّما كانت أمامك عوائق في طريق البر. وانتصرت عليها. حينئذ يكون أجرك أعظم.. إنها فترة اختبار لنا على الأرض. اللّه - تبارك اسمه - يجعل أمامنا طريق البرّ واضحاً.. والشيطان يُلقي في هذا الطريق عوائق. وعلينا أن نُكافح ونجاهد لكيما يقودنا اللّه في موكب نُصرته.. إن الأبرار لم يعبأوا بالعوائق. ولم يعترفوا بها. كان الخير الذي فيهم أقوى من الشر الذي يُحاربهم. فانتصروا على كل العوائق التي تحاربهم. وساروا في الطريق والنعمة تسندهم. حتى وصلوا ونالوا أكاليل جهادهم. وفرحت السماء بهم. بقدر ما تكون دوافعك الداخلية قوة. بقدر ما تنهار العوائق أمامك.



٢٠٠٤/٩/٢٩

رحلة الخبر إلى أذنيك

ليس كل ما يصل إلى أُذنيك هو صدق خالص. فلا تتحمّس بسرعة ولا تنفعل بكل ما تسمع وكل ما تقرأ. ولا تتخذ إجراء سريعاً لمجرّد كلام سمعته من إنسان ما... بل تحقّق أولاً.. واعرف أن كثيراً من الكلام يقطع رحلة طويلة قبل أن يصل إلى أذنيك. ربما تصيبه أثناءها تطوّرات وتغيّرات..

وصدق الحكيم الذي قال: "لا تصدّق كل ما يُقال"...

***

اجعل عقلك رقيباً على أُذنيك وافحص كل ما تسمعه. ولا تصدّق كل خبر. لئلاّ تعطي مجالاً للوشاة وللكاذبين. ولِمَنْ يخترعون القصص. ولِمَنْ يصنعون الأخبار. ولِمَنْ يدسون ويشهدون شهادة زور.. كل أولئك يبحثون عن إنسان سهل يُصدّقهم. وكما قال عنهم وعن أمثالهم أمير الشعراء أحمد شوقي:

قد صادفوا أُذناً صفواء لينة.. فأسمعوها الذي لم يسمعوا أحداً

وما أجمل ما قاله أيضاً عن مثل هذا الذي يُصدِّق كل ما يسمعه بدون فحص. ويقبل الأكاذيب كأنها صدق:

أثر البُهتان فيه .. وانطوى الزور عليه

يا له من ببغاء.. عقله في أذنيه

***

نعم. لو كنا نعيش في عالم مثالي. أو في وسط الملائكة. لأمكنك حينئذ أن تصدِّق كل ما تسمعه. ولا تتعجب ذاتك في فحص الأحاديث.. ولكن ما دام الكذب موجوداً في العالم. وما دمنا نعيش في مجتمع يشتمل على أنواع من الناس يختلفون في مستويات أخلاقياتهم. وفي مدى تمسّكهم بالفضيلة. فإن الحكمة تقتضي إذن أن نُدقِّق ونحقِّق قبل أن نصدِّق.. ونفحص كل شيء. ولا نتمسّك إلاّ بما هو صدق وحق...

***

ولكن قد يقول شخص: إنني أصدِّق هذا الخبر على الرغم من غرابته. لأنني سمعته من إنسان صادق لا يمكن أن يكذب... **نعم. قد يكون هذا الإنسان صادقاً. ولكنه سمع الخبر من مصدر غير صادق. أو من مصدر غير دقيق!!** قد يكون الشخص الذي حدثك. أو الذي حدث من حدثك. جاهلاً بحقيقة الأمر. أو على غير معرفة وثيقة أكيدة بما يقول... أو قد يكون مُبالغاً. أو مازحاً أو مُداعباً. أو ربما يكون قد سمع خطأً. أو أن المصادر التي استقى منها معلوماته غير سليمة...

***

أو ربما يكون المصدر الأصلي الذي أخذ عنه هذا وذاك. غير خالص النيّة فيما يقول.. وله أسباب شخصية تدفعه إلى اختراع أكاذيب أو أخبار وهنا أتذكّر قول أحد الشعراء:

لي حيلة فيمن ينم .. وليس في الكذاب حيلة

من كان يخلق ما يقول .. فحيلتي فيه قليلة

* حقاً. ما أكثر مَنْ يطمس الحقائق. ومَنْ يعمل على الدسّ والإيقاع بين الناس بنفسية مُنحرفة. ويفرح بما يفعل. بل يفتخر بذلك ويقول: قد استطعت أن أُلقي بينهم "زمبة" ولسوف ترون نتائجها الخطيرة...

* وقد يكون صانع الخبر مُحبّاً للاستطلاع. يُلقي الخبر الذي يخترعه. لكي يعرف مدى تأثيره على الناس أو على بعض الناس..!

***

وقد يودّ شخص أن يكون الأول في نشر الخبر. ويفتخر بذلك. ولهذا السبب. فإنه لا ينتظر حتى يتحقّق من صدق الخبر. وينشره بما فيه من زيف..

وما أكثر ما يقع بعض الصحفيين في إغراء ما يسمّى بالسبق الصحفي! فما أن يتلقى الواحد منهم خبراً. حتى يُسرع بنشره. ويأخذه القراء كحقيقة بينما يكون كل الخبر أو بعضه بعيداً عن الواقع تماماً!! هذا بعكس آخرين لا يهتمون بالسبق الصحفي. وإنما بالتحقيق الصحفي الذي يتميّز بالدقّة والصدق..

* شخص آخر يسعى إلى إحداث ضجة بنشر أخباره. أو ما يسمّونها "فرقعة".

ومثل هذا يهمه الضجة ويتباهى بإحداثها. ولا يُبالي بصحة الخبر..!

* وشخص ثالث هدفه من نشر الخبر أن يكون له تأثير اقتصادي أو تأثير سياسي. وهو يعلم عن يقين أن الخبر غير سليم. إنما المهم عنده الهدف.. وأنت أيها القارئ العزيز تصلك هذه الأخبار وما يشبهها فتصدّقها عن حُسن نيّة. دون أن تعرف ما وراءها من أهداف أو أغراض..!

***

وربما يقول مصدّق الخبر: إنني لم أسمع هذا الخبر من مصدر واحد فقط! ويظن أن سماعه من كثيرين يجزم بصحته..!! وننصح بأنه لا يجوز أن تحكم عن طريق السماع بدون تحقيق. حتى لو سمعنا بالخبر من كثيرين...

فما أكثر ما يكون كلام الكثيرين على وفرة عددهم له مصدر واحد مُخطئ.. وما أسهل ما تتّفق جماعة من الناس على كذب مشترك.. مثلما فعل إخوة يوسف حينما بلّغوا آباءهم خبراً كاذباً عن ابنه أن وحشاً قد افترسه...

وقد تتآمر مجموعة من الناس وتتفق على نشر خبر يحقّق مؤامرتهم. ويؤكّده كل واحد من أفراد هذه المجموعة.. وما أكثر شهود الزور الذين قرأنا عنهم في أحداث مُعيّنة رواها التاريخ في قصصه.. لهذا ليس سماع الخبر من كثيرين دليلاً على صحته.. فربما يكون اتفاقاً بين هؤلاء على نشر خبر مُعيّن لغرض في نفوسهم.. ويكون الخبر غير صادق.

***

من هذا المنطلق. يمكن أن نتحدّث عن الشائعات التي تنتشر بين الناس. وكلها عبارة عن أخبار غير حقيقية...

وقد قيل "إن أردت أن تشعل في مجتمع حريقاً. أو تسبّب فيه ضجيجاً. اطلق إذن شائعة تؤثّر على الرأي العام فيه.." والذين ينشرون الشائعات. غالباً ما يكونون على دراية بنفسية الجماهير ومشاعرهم وما يمكن أن يؤثّر فيهم ويكون أقرب إلى تصديقهم. وربما تكون الشائعة هادفة إلى المساس بشخصية مُعيّنة. أو بهيئة ما. أو هدفها التأثير على مجرى الأمور السياسية أو الاجتماعية. وأحياناً تطلق شائعة خاصة بأحد الأمراض أو أحد الأدوية. أو لتخويف الناس من وضع مُعيّن. أو لتحميسهم لاتجاه خاص. أو دفعهم لكراهية سياسة ما...

وكثيراً ما أدّت بعض الشائعات إلى هياج شعبي ضدّ بعض الأوضاع...

وقد تكون الشائعة محبوكة حبكاً مُحكماً. وربما يتباطأ المسؤولون في تكذيبها. ولا يعلنون زيفها إلاّ بعد أن تكون قد انتشرت وتركت تأثيرها في النفوس...! وبخاصة في نفوس العوام والبسطاء.. والأمثلة عديدة في تاريخ الشائعات.

والخبر الكاذب قد يكون عن عمد. أو عن جهل. أو عن طبيعة كاذبة.. ووحيه "لا تكذب" ليست موجّهة فقط إلى المُتكلّم. بل إلى السامع أيضاً..

فالذي يسمع الكذب ويقبله. إنما يشجّع الكاذب على الاستمرار في كذبه. كما يضر نفسه إذ يحيط ذاته بأشخاص كاذبين غير مُخلصين.

كذلك فإن ناقل الكذب يعتبر كاذباً. وشريكاً في الكذب ونشره

ويدخل في هذا المجال أيضاً مروّجو الشائعات الكاذبة. وقد يقع في هذا الأمر أيضاً الأناس "البسطاء" الذين يصدّقون كل ما يسمعونه. ويتكلّمون عنه كأنه حقيقة بدون أي فحص أو تدقيق!! وفي الحقيقة لا نستطيع أن نسمّي هذه بساطة لأن البساطة في جوهرها هى عدم التعقيد. وقد يكون الإنسان بسيطاً وحكيماً في نفس الوقت. أمّا كون الإنسان يقبل كل ما يسمعه بدون تفكير. فهذا له اسم آخر غير البساطة!!

اثنان يشتركان في مسؤولية خطية الكذب: وهما قابل الكذب. وناقل الكذب.. وكلاهما يشتركان مع الكاذب الأصلي في نشر كذبه...

وإن كانت بعض المشاكل قد تتسبّب عن نقل الكلام. فإن أخف الناس ضرراً من ينقلون الكلام كما هو كما يفعل جهاز تسجيل الصوت الأمين المُخلص. الذي لا يزيد على ما قيل شيئاً. ولا ينقص. ويعطي صورة دقيقة عمّا قيل بدون تعليق...

***

إنما بعض الناس يسمعون الكلام. ويضيفون عليه رأيهم الخاص واستنتاجاتهم وأغراضهم. ويقدّمون كل ذلك لإنسان آخر. كأنه الكلام المُباشر الذي سمعوه ممّن نطق به..!!

انظروا ماء النيل وقت الفيضان. وهو بني اللّون من كثرة ما حمل من طمي.. هذا الماء كان في بدء رحلته ماءً صافياً رائقاً عندما نزل مطراً على جبال الحبشة. ولكنه طول رحلته في الطريق. ظل يفت الطمي من الصخور ويختلط بالطين. حتى وصل إلينا بهذه الصورة...

هكذا كثير من الأخبار التي تصل إليك مُشبّعة بالطين. ربما كانت رائقة صافية في أولها.. والفرق بينها وبين ماء الفيضان أن طينه مُفيد للأرض. أمّا الطين الذي خلطه الناس في نقلهم للأحاديث. فإنه ضار وخطر ومُفسِد للعلاقات بين الناس...

***

كثير من الأخبار عندما تصل إليك تكون أخباراً مُختلفة جداً عن الواقع. وسأضرب لذلك مثلاً...

يقول شخص لآخر "ألمْ تسمع؟ لقد حدث كذا مع فلان" فيُجيبه "لا شك أنه غضب لذلك جداً". فيقول له مُحدِّثه "طبعاً غضب بلا شك". ويصل الخبر إلى ثالث بأن "فلاناً غضب جداً بسبب ما حدث له" فيُجيبه: "من غير المعقول أن يكون قد غضب فقط. لا بد أنه سينتقم".

ويصل الخبر إلى رابع أنه سينتقم فيجيب "حسب معرفتي لطبعه. لا بد أنه سيُدبِّر دسيسة لِمَنْ أغضبه". ويصل الخبر إلى خامس فيقول: "ربما يُرسل خطاباً إلى مكان وظيفته. يتهمه باتهامات كيدية". فيُجيبه سادس "لا يبعد أن يقول عنه إنه ضد الدولة. ويشترك مع آخرين في تدبير مؤامرات خطيرة". ويصل الخبر إلى سابع. فيُسرع إلى الشخص المقصود. ويقول له: خُذ حذرك فلان أرسل خطاباً إلى مكان وظيفتك يتهمك فيه بأنك تشترك في تدابير خطيرة ضد الدولة!!".. يحدث كل هذا. وربما يكون الشخص الذي يتحدّثون عنه قد تضايق في وقتها. واستطاع أن يصرف غضبه ويسامح من أغضبه.. أو يكون قد أخذ الأمر ببساطة ولم يتأثر..! أو قد يحدث سوء تفاهم بسبب الخطاب المزعوم المُرسل إلى مكان وظيفته. الذي لا وجود له على الإطلاق..!

***

لذلك أكرِّر وأقول: "لا تصدّق كل ما يقال. ولا تكن سمّاعاً.. وأيضاً لا تصدّق كل ما يُكتب".

فهناك من يكتبون بقصد الإثارة. ومن يظنونها شجاعة وجرأة. أن يشوهوا سمعة بعض الكبار عن طريق كتاباتهم وبعض من هؤلاء. ترفع ضدهم قضايا سب علني وقذف.. ومنهم من يعتبرون تقديمهم إلى قضايا النشر لوناً من الشهرة.. وبعض الصحف تنشر مقالات تحت عنوان "آراء حرة" تقول في مقدّمتها إنها "تحت مسؤولية الكاتب"...

وبعض الكتاب ينشرون آراء خاصة بهم. لا ترقى إلى مستوى المعرفة التي يتفق عليها الجميع. والآراء الخاصة هى مجرد آراء. لا تستطيع أن تصدِّقها جميعاً...

ونلاحظ أن خبراً واحد قد تتناوله صحف المعارضة والصحف القومية. بتعليقات ربما يوجد فيها شيء من التناقض.. ويقف القارئ حائراً بين هذه وتلك. يتساءل: يا تُرى أين توجد الحقيقة؟! لهذا. لا تصدِّق كل ما يُكتب. إنما تناول كل الأخبار بالفحص والتدقيق.

***

إن عقليات الناس ومفاهيمهم ليست واحدة. وكذلك فإن تعليقاتهم على الخبر الواحد ليست واحدة...

ولقد خلق اللّه لك أُذنين: تسمع بهما الرأي. والرأي الآخر.

وجعل العقل بينهما تحكّم به على كل ما تسمع. ولا تقبل إلاّ ما يوافق عقلك وتفكيرك.. وبعض الأخبار تحتاج منك إلى مدى زمني. حتى يظهر ما فيها من حق أو من الزيف. فلا تسرع إذن في حُكمك.



٢٠٠٤/١٠/٥

المبالغات

يندر أن يوجد أحد لا يقع في موضوع المُبالغة هذه...

فالذي ليست المبالغة في طبعه بصفة عامة. نراه يُبالغ أحياناً في بعض الموضوعات.. وقد تكون المُبالغة في الكلام. وقد تكون في التصرُّف.. وعموماً فإن عبارة "كل" أو "جميع" إذا قيلت في غير العقائد غالباً ما تكون فيها مُبالغة. أو عدم دقة...

والناس يُبالغون في المديح وفي الذمّ. في المُعارضة وفي التأييد. وأشهر شيء توجد فيه المُبالغة هو الشعر. وقد تحوي مبالغاته شيئاً من الجمال الفنّي. حتى أنه قيل في مبالغات الشعر: إن أعذبه أكذبه...

***

ما أشهر وجود المبالغة في الوصف وبالذات في الشعر:

قال شاعر يذم آخر. في شخصه. وفي بغلته:

لك يا صديقي بغلة .. ليست تساوي خردلة
تمشي فتحسبها العيون .. على الطريق مشكلة
وتخال مُدبِرة إذا .. ما اقبلت مُستعجلة
مقدار خطوتها الطويلة .. حين تسرع أنملة
أشبهتها بل أشبهتك .. كأن بينكما صلة
تحكي صفاتك في .. الثقالة والمهانة والبله

وطبيعي أنه لا توجد بغلة في الدنيا بهذا الوصف! ولكنها المبالغة التي تضفي على الشعر لوناً فنياً يُطْرِب قارئه...

***

ومن المبالغة أيضاً في الوصف. ما قاله أحد الشعراء عمّن لقّبها بأنها "عجوز النحس" فقال فيها:

عجوز النحس إبليس يراها .. تعلّمه الخديعة من سكوت
تجد بمكرها سبعين بغلاً .. إذا شردوا بخيط العنكبوت

وواضح المبالغة في رقم سبعين. وعبارة إذا شردوا. وعبارة خيط العنكبوت! وأن هذه العجوز يمكنها أن تعلّم إبليس!

ويشبه هذا أيضاً ما وصف به شاعر حظه السيئ. فقال:

إن حظي كدقيق .. وسط شوك بعثروه

ثم قالوا لحفاة .. يوم ريح اجمعوه

صعب الأمر عليهم .. قال قوم اتركوه

إن من أشقاه ربي .. كيف أنتم تسعدوه؟!

حقاً ما أدق هذا الوصف وأروعه! دقيق تتطاير ذراته في يوم ريح عاصف. والذين كلّفوا بجمعه كانوا حُفاة وفي وسط شوك! وصف يُعطي صورة للاستحالة. ولكنها المبالغة...

***

إنها مبالغة لاتتهم بالكذب. إنما توصف بالجمال الفني. وتقدّم حبكة في الوصف. ودقّة وتصويراً...

هناك مُبالغة أخرى ترتبط بلون من الفكاهة. كما حدث لمّا رأى أحمد شوقي جسر البسفور والدردنيل في حالة سيئة تحتاج إلى إصلاح فأرسل إلى الخليفة العثماني يقول له:

أمير المؤمنين رأيت جسراً .. أمرّ على السراط ولا عليه

له خشب يجوع السوس فيه .. ويمضي الفأر لا يأوي إليه

ولا يتكلّف المنشار فيه .. سوى مرّ الفطيم بعارضيه

وطبيعي أن الجسر لم يكن على هذه الحالة المُتهالكة. وإلاّ كان قد إنهار منذ زمن. ولكنها المبالغة التي تصوّره في حالة تدفع القارئ "الخليفة" إلى الإسراع بإصلاحه..

***

على أن هناك مُبالغات من نوع آخر:

مثال ذلك نفاق حملة المحفّات أيام الفراعنة: حينما كانوا يحملون فرعوناً على محفّة. فينشدون له قائلين: إن وزن المحفّة وهو عليها أخفّ من وزنها لوحدها!!

* أو قول الشاعر في ذمّ العبيد:

لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه .. إن العبيد لأنجاس مناكيد

ولا شكّ أنه غير صادق في هذا الذمّ. لأن التاريخ قدّم لنا أمثلة من عبيد كانوا في منتهى الإخلاص. حتى أن سادتهم تركوا في أيديهم كل شيء. واثقين من أمانتهم.

هناك مبالغة أخرى. لا تخلو من الكذب:

منها المبالغات التي يلجأ إليها التجار في الدعاية إلى ما يريدون بيعه. فيصفونه ربما بما ليس فيه المزايا. بقصد تشويق الشاري لاقتنائه. وغالباً لا تخلو أوصافهم من المبالغة. ونفس الأمر ينطبق على الدعاية لأمور عديدة. ويختارون لذلك موظفين مشهورين بإسم Propagandists يعملون في البروباجندا ومنهم الكثيرون ممّن يقومون بالإعلانات. وربما يكون كلامهم صحيحاً. ولكنه يشتمل على شيء من المُبالغة.

وتشمل المبالغة أيضاً الدعاية في الانتخابات على أنواعها:

حيث يصوّرون المرشّح. أو يصوّر المرشّح نفسه. بأنه هدية اللّه لهذا الجيل! وأنه على يديه سيتم كل إصلاح يرجوه الناخبون! كل ذلك بمبالغة بعيدة كثيراً عن الواقع. وربما بعد أن يتم انتخابه. يظهر أن تلك الدعاية لم تكن تعبِّر عن الأمل المرجو.

***

تأتي أيضاً المُبالغات في نشر الأخبار:

سواء بطريقة ايجابية أو سلبية. أي نشر الخبر بمانشتات عريضة أو بخط أحمر. أو نشر الخبر بطريقة لا تظهره وفي الحالتيْن لون من المُبالغة من جهة إظهار أهمية الخبر أو عدم أهميته. حسب سياسة الجريدة أو المجلة التي تنشر. يُضاف إلى هذا الأمر: التعليق على الخبر. تأييداً له أو مُعارضة أو تجاهلاً..!

وقد تظهر المبالغة في نوع الإثارة التي تنشر بها الأخبار:

فقد توضع بعض الأخبار تحت عنوان "مذبحة مروّعة" أو "فضيحة كبرى" أو "تحقيقات خطيرة" أو "أسرار مُثيرة"... وما أكثر ما وصفت بعض الأحداث بأنها جرائم. ثم حكم عليها القضاء بالبراءة!! وربما ما يُنشر في جريدة مُعيّنة. يكون غير ما تنشره جريدة أخرى. سواء بالمبالغة في النشر. أو المبالغة في التقليل من قيمة الخبر. وعلى القارئ أن يكون حكيماً في الحكم على هذا أو ذاك.

نفس المبالغة قد تكون في التقارير أو الشائعات... ما بين سياسة التهويل. أو سياسة التهوين!!

مُبالغة في خطورة التقرير وخطورة الشائعة. أو مبالغة في الاستهانة بهذه أو تلك.. وربما التهويل في التقارير. تتبعها تحقيقات وإجراءات إدارية حازمة. وينتهي الأمر إلى لا شيء! ولكنها المُبالغة التي على رأي المثل "تجعل من الحبّة قُبّة".. أمّا المبالغة في التهوين من أمر مُعيّن. قد تنتج عنه فيما بعد نتائج خطيرة لم يعمل لها حساب. بينما الدقّة في التقارير. وفي نقل الأخبار ونشرها. تكون وسيلة لتقديم الحق خالصاً بعيداً عن كل لون من المُبالغة..

***

هناك أيضاً المُبالغة في الحياة الاجتماعية. وفي المناهج السياسية:
فمثلاً الحرية ما بين المُبالغة في التسيُّب. والمبالغة في القمع:

الطفل في أمريكا إذا بلغ السادسة عشرة من عمره يصبح لا سُلطان لوالديه عليه. وإذا أدّبه أبوه. ما أسهل أن يطلب البوليس ليحقِّق مع أبيه. يُضاف إلى ذلك لا تدريس للدين في المدارس الحكومية. لتكون الحرية للطالب في اختيار الدين الذي يريد أو اللادين! ونتيجة لهذه المُبالغة في الحرية. أن انتشرت الأفكار المُنحرفة خُلقياً ودينياً. وكما انتشر الشذوذ الجنسي بِاسم الحرية ! ووُجِدَت جماعات الهيبز والبيتلز. كذلك انتشرت الانحرافات الدينية والفكرية في عشرات المذاهب والنِّحَل. وأصبح المجتمع مرتعاً خصباً لجماعات شهود يهوه. والسبتيين الأدفنتست. والمورمون. والعلم المُعارض للدين. ومدارس النقد الكتابي وغيرها...!

***

ومن الناحية المُضادة. وجدنا المبالغة في القمع. في البلاد الشيوعية. من جهة الإلحاد. وانعدام الملكية في المنازل والأراضي..

كانت المبالغة في الرفاهية قد انتشرت قبل ذلك في عهد القيصرية في روسيا. حتى أصبحت سرج الخيول من الذهب. وبراويز الأيقونات وأغلفة الكتب المُقدَّسة من الذهب أيضاً. وما زالت بقايا هذا الثراء موجودة إلى الآن في مُتحف الكرملين. وقباب الكنائس من الذهب أيضاً. يُضاف إلى هذا استخدام الأحجار الكريمة بمبالغة.. فإذا بالشيوعية تعالج العكس بالعكس. تعالج المُبالغة في رفاهية رجال الدين والقصر. بالمبالغة في إلغاء الدين

والتملك. وأصبح الشخص لا يملك بيتاً بل يستعمله. وأصبح المُتقدِّم لشغل وظيفة يجتاز اختباراً شخصياً. يعترف فيه بعدم وجود اللّه. وبأن الدين هو أفيون الشعوب. وبأن رجال الدين كلّهم كذبة ومُضلِّلون!

مُبالغة في القمع. كانت رد فعل للمبالغة في حكم القيصرية من جهة الرفاهية والتملُّك والتدين!!

***

كذلك فإن المبالغة في النُّسك وقوانين التوبة في العصور الوسطي. كانت لها ردود فعل في مُبالغة عكسية:

قوانين التوبة المُتشدِّدة. كما شرحها يوحنا كليماكس في كتابه "الأرجي". مع العقوبات الكنسية من جانب الكنسية الكاثوليكية. أحدثت مُبالغة في رد فعل من جانب البروتستانتية في عدم الاعتراف بالرهبنة جملة. وبالقوانين الخاصة بالصوم والخاصة بالعقوبات الكنسية.. كذلك فإن الإباحية والمُبالغة في الغناء والجواري أوجدت من الناحية المُضادة تشدّداً في الدين أكثر من ذي قبل.

لذلك فإن البعض يعرف الفضيلة بأنها وضع متوسّط بين تطرفيْن:

بين تطرُّف في التشدُّد. وتطرُّف في التسيّب..

بين الضمير الواسع الذي يقبل ويُبرِّر أخطاء كثيرة. والضمير الضيق الموسوس الذي يظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ. أو يُبالغ في قدر الأخطاء ويوقع صاحبه في عقدة الذنب Sense of guilt.

***

المُبالغة قد توجد أيضاً في الحُزن وفي الفرح في التباهي والاتضاع.

هناك من يُبالغون في الحُزن ومظاهره. وأيضاً في زيارة المقابر. وفي فترات الحداد. وبخاصة ما تقوم به النساء من البُكاء واللّطم. والبعض يبالغون في حزنهم بطرق غير مقبولة اجتماعياً. ومن ناحية أخرى هناك من يُبالغون في أفراحهم. بحفلات تستمر الليالي بميكروفونات تذيع الأغاني. وقد تشتمل حفلاتهم على الرقص والضجيج. وينفقون عليها انفاقات باهظة. ويزعجون الحي كله..

والأمر يحتاج إلى حكمة واعتدال في التصرُّف.

أيضاً نفس المُبالغة في الفخر وفي الاتضاع:

فمن المبالغة في الافتخار. قول عنتر بن شداد:

ولو أرسلت رُمحي مع جبان .. لكان بهيبتي يُلقي السباعا

أمّا المبالغة في الاتضاع. فمثالها من يحقر نفسه. وينسب إلى ذاته أخطاء وضعفات ليست له..

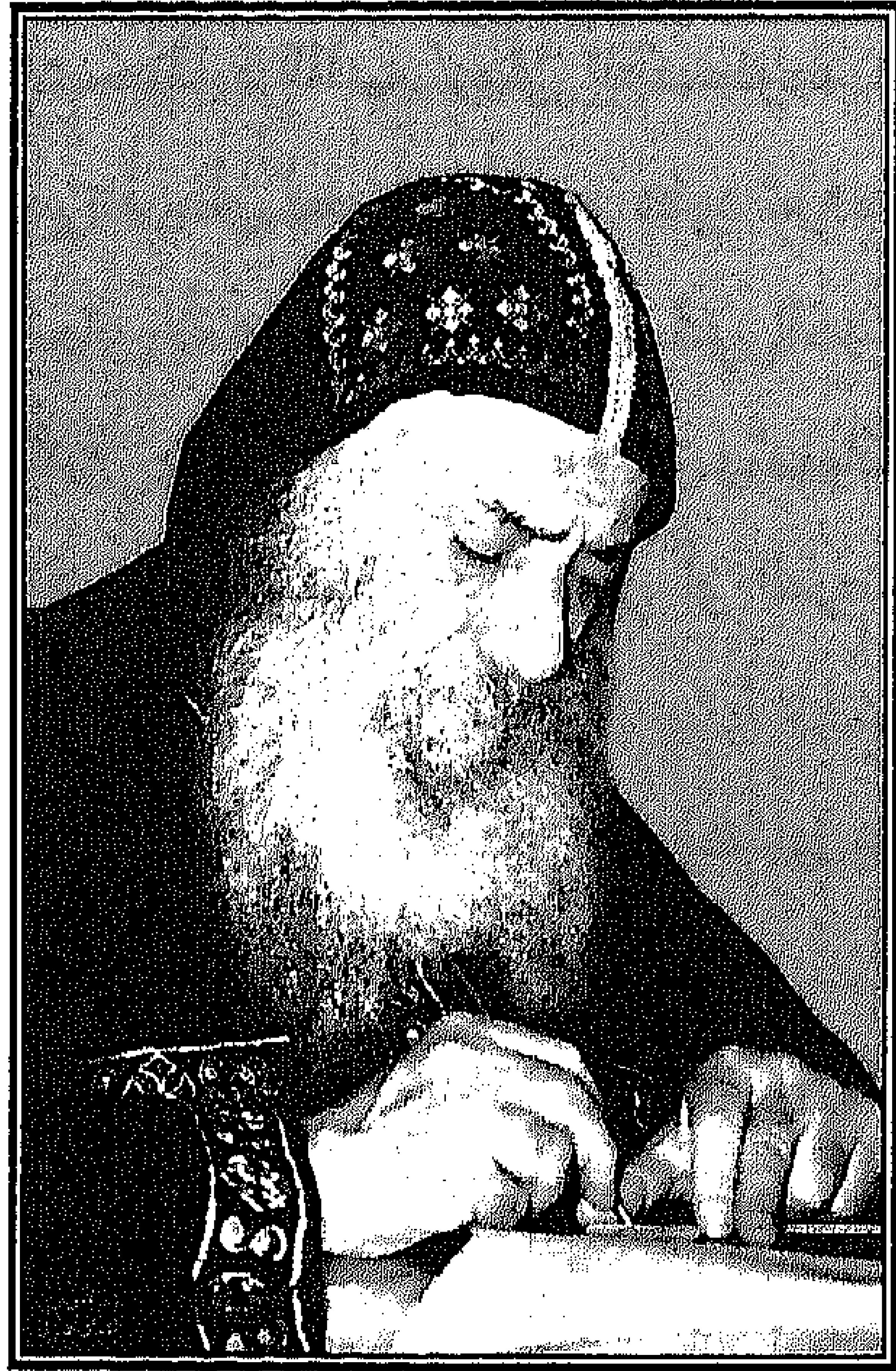
* * *

هناك مُبالغات أخرى في بعض أمور اجتماعية وتربوية:

مثال ذلك المبالغة في القسوة في تربية الأبناء. حتى إننا قرأنا في بعض الجرائد أن أباً في تأديبه لابنه على غلطة مُعيّنة. ظل يضربه حتى مات!! يُقابل ذلك المُبالغة في تدليل الأبناء. ممّا يفقدهم الأدب واحترام الكبار. ويوقعهم في أخطاء أخرى..

* ومن المُبالغات أيضاً مُبالغة بعض النساء في الزينة. حتى يصلن إلى التبرُّج. كذلك مُبالغة بعضهن في عدم الزينة. ممّا يجعلهن موضع انتقاد الأقارب والأصدقاء والغرباء.

* ومن المبالغات الاجتماعية المبالغة في تقييد حرية المرأة. حتى تصبح وكأنها سجينة في بيت. وإن خرجت منه. تخرج في قيود أخرى.



٢٠٠٤/١٠/١٢

الحسد

الحسد بمعناه اللغوي هو تمنّي زوال النعمة أو الخير من المحسود. وتحوّل هذه النعمة والخير إلى الحاسد.

وبهذا المعنى يكون الحسد خطية مزدوجة: فتمني زوال النعمة عن المحسود خطية. لأنه ضد المحبة. فالمحبة لا تفرح بالإثم. بل تفرح بالحق. والكتاب يقول: "لا تفرح بسقطة عدوّك. ولا يبتهج قلبك إذا عثر". فكم بالأكثر إن كان الشخص الذي تتمنّى زوال النعمة عنه ليس عدوّاً. ولم يفعل بك شرّاً! كذلك تمني تحول تلك النعمة بدلاً منه إلى الحاسد. يحمل خطية أخرى. فهو شهوة خاطئة. لأنها رغبة في الارتفاع على حطام الغير. لذلك فالحسد شرّ في كنهه وتفاصيله..

***

هناك نوع آخر من الحسد. وهو الذي قيل فيه:

"لا تحسد أهل الشر. ولا تشتهِ أن تكون معهم".

وهنا يرتبط الحاسد بشهوة الخطية. فيحسد الذين يرتكبونها. حين لا يكون بإمكانه أن يفعل مثلهم. وهذا يدل على عدم نقاوة القلب. وبأن القلب توجد فيه محبّة الخطية. ولا توجد فيه محبة اللّه التي تقي المؤمن من أن يحسد الأشرار على شرّهم.

وقد يحسد البعض الأشرار لأنه يجدهم مُتنعّمين في الحياة بلا مانع ولا عائق! وفي الواقع كثير من تمتعات الأشرار تكون إمّا بملاذ الجسد وشهواته. وهذه لا تدوم. ولها ردود فعل عكس ما يتمتّعون به. وقد تجلب معها أحياناً الفقر أو المرض أو سوء السمعة..

***

والبعض قد يحسد الأشرار لأنهم يستطيعون أن يصلوا بطُرقهم الخاطئة إلى ما لم يستطِع أن يصل هو إليه ببرّه!!

كمَنْ يستطيع إلى غرضه بالرشوة. أو بالكذب أو بالرياء والنفاق. أو بألوان من الحيلة والطُّرق الملتوية. ممّا لا يستطيع الأبرار المتمسّكون بالقِيَم والمبادئ السامية.. ولا شك أن ما يصل إليه كل هؤلاء هو أمر لا يُباركه اللّه. وهو أيضاً مُتع أرضية قد تفقدهم أبديتهم.. وفي

نفس الوقت ما أسرع زوالها.. إنهم مثل الدخان الذي يرتفع عالياً فوق الأرض. وتتسع رقعته. وفي ارتفاعه واتساعه يضمحل ويتبدّد.. هكذا ارتفاع الأشرار! وكم رأينا منهم أسماء لامعة ظهرت حيناً ثم انطفأت. وكما يقول الشاعر:

ما طار طيري وارتفع .. إلاّ كما طار وقع

***

لا تحسد هؤلاء. فلهم طريق غير طريقك. وسُمعة غير سُمعتك!

هل النار التي هى تحت. في الموقد. تحسد الدخان الذي ارتفع عالياً إلى فوق؟! وهل الأستاذ الجامعي المُتعمِّق في العلم. يحسد تلك الراقصة التي قد تحصل في يوم واحد على أكثر من مُرتب هذا الأستاذ في شهر؟! كلاّ. فالارتفاع أيضاً له موازينه وقيمه..

وهل الموسيقى الهادئة العميقة في لحنها. تحسد تلك الطبلة في صوتها العالي وما تحدثه من جلجلة وصخب؟! إن العُمق قد لا يلفت الأنظار مثل المظهر.. ومع ذلك له قيمته التي هى أقوى وأقيم من كل أصحاب المظاهر..

***

هناك نوع آخر من الحسد. هو حسد الشياطين

الشياطين يحسدون الأبرار على برّهم. بينما هؤلاء الشياطين قد فقدوا البرّ. وفسدت طبيعتهم. وبعد أن كانوا ملائكة صاروا شياطين.. وهم يحسدون البشر على رضى اللّه عليهم. بينما صاروا هم موضع غضب اللّه الذي طردهم من السماء. ولم يعد لهم مكان فيها.. ويحسدون البشر أيضاً على ما هم فيه من بركة ومن نعمة. بينما هُم في لعنة بسبب شرورهم وعنادهم. كذلك هم يحسدون البشر على المصير الذي سيتمتعون به في النعيم الأبدي. في السماء الملائكية..

لذلك كله. هو - في حسده للبشر - يعمل على إسقاطهم لكي يكون لهم نفس مصيره. ولا يتمتّعون بنعيم قد فقده هو. ولا ببركة هو فقدها.. ولهذا فكلّما سار الإنسان في طريق الفضيلة. يحاول الشيطان بحسده أن يُبعده عنها. وأن يُغريه بطريق مُضاد. ويصوّر له شرور الدنيا بأنها ملاذ ومُتعة. فإن سرت في طريق الخير. ووجدت عقبات وعوائق تعترضك. ربما تكون هذه من حسد الشياطين وأحقادهم على الأرض.

***

إن الحسد بعيد كل البُعد عن المحبة. والشيطان لا يُحبّ البشر. بل يعمل على إيذائهم. وحسده لهم ذو طابع مُعيّن. فهو يعمل على حرمانهم من نعمة اللّه التي معهم. ولكنه لا يهدف مُطلَقاً إلى تحويل هذه النعمة إليه لأنه يعرف تماماً أن هذا مُستحيل.

لذلك فحسد الشيطان هو حسد هدّام. وأيضاً هو حسد مُخادع.

فهو يحاول أن يقنع الإنسان بأنه يعمل لصالحه. وأنه دائماً يجلب له اللّذة والبهجة والمُتعة. وأنه يبذل كل حيله الشيطانية لكي يُحقّق له أغراضه. ممّا لا يُحقّقه له القانون ولا تكفله له التقاليد فإذا انخدع به الإنسان. وسلّمه قيادة أموره. حينئذ يسقطه. ويفرح بسقطته. ويجعله واحداً من أعوانه..

***

نقطة أخرى هي الفرق بين الغيرة والحسد:

ليس كل غيرة لوناً من الحسد. وليس كل غيرة ضد المحبّة فهناك "الغيرة في الحسنى" وهي إحدى الفضائل. إنها الغيرة التي تتحمّس لفعل الخير. وتحاول أن تقلّد. حينما تسمع عن فضائل الأبرار. سواء الذين انتقلوا من هذا العالم. أو الذين ما زالوا أحياء. فتُغار منهم غيرة حارة لكي تتمثّل بأعمالهم. لا أن تحسد الحسد الذي يتمنى زوال النعمة من الغير. بل هذه الغيرة المُقدَّسة تفرح بفضائل الآخرين. وتتّخذهم قدوة وأحياناً هذه الغيرة تملك على القلب. حينما تجد مجالاً ينبغي أن يُفعل فيه الخير. فتشعل القلب حماساً. وتدفع الإرادة لكي تعمل. ولولا هذه الغيرة ما قام المصلحون في شتى العصور. لتغيير أوضاع خاطئة. وإرساء أوضاع سليمة.. ونحن كثيراً ما ندعو أبناءنا أن يُغاروا من الناجحين والمتفوقين لكي يكونوا مثلهم..

***

إن الذي يحب الفضيلة. لا يحسد الفضلاء بل يُمجّدهم. والذي يُحب الفضلاء. لا يحسدهم بل يقلّدهم.

وعموماً فإن كل مَنْ يُحب إنساناً. يتمنّى أن تزيد نعمة اللّه عليه. لا أن تزول النعمة منه. ولهذا فإن المحبة لا تحسد.. إن أحببت إنساناً. فإنك تفضّله على نفسك. وهكذا لا يمكن أن تشتهي أن يتحوّل الخير منه إليك.. فالمحبة تبني ولا تهدم.. وهكذا فإن الأُمّ التي

تحب ابنتها. لا يمكن أن تحسدها على زواج موفّق. بل إنها تسعد بسعادتها. وتكون في خدمتها في يوم فرحها: تبذل جهدها أن تكون ابنتها في أجمل صورة وأجمل زينة.. كذلك الأب أيضاً يفرح بنجاح ابنه. ولا يمكن أن يحسده على نجاحه. بل يفخر بذلك. ويريده أن يزيد نجاحاً على نجاح.

إن حافظ ابراهيم لم يحسد أحمد شوقي لمّا أُختير أميراً للشعراء. بل في الحفل الذي أُقيم لذلك قال في فرح:

أميرَ القوافي قد أتيت مُبايعاً... وهذى وفود الشرق قد بايعت معي

قال حافظ إبراهيم هذا. بينما كان هو وأحمد شوقي يعملان معاً في ميدان واحد هو الشعر. وكانت بينهما مُطارحات شعرية كثيرة. ولكن لم تكُن بينهما المنافسة التي تجلب الحسد. بل كانا صديقيْن..

***

والنُّساك وآباء البرية ما كانوا يحسدون بعضهم بعضاً في حياة الروح. بل كان ارتفاع الواحد منهم روحياً يشجّع الآخرين ويقوّيهم.

وكانوا يمجِّدون اللّه كلّما برع أحدهم في حياة الفضيلة. ويشكرون اللّه بسببه. وتملكهم الغيرة المُقدَّسة. فيفعلون مثلما يفعل. ويطلبون صلواته عنهم وبركته لهم.

كذلك كان الأمر في عصور الاستشهاد. كانت هناك غيرة لنوال أكاليل الشهادة. ولم يكن هناك حسد. كانوا يفرحون كلّما استطاع أحدهم أن يكمل جهاده وينال الأمجاد. ويمجّدون شجاعة الشهداء في أعمال بطولتهم. ويطوّبونهم ويطلبون بركتهم..

***

نبحث بعد ذلك نقطة هامة وهى: هل الحسد يضرّ؟ وهل هناك ما يعرف بإسم "ضربة عين" تؤذي؟! أولاً: الحسد يضرّ الحاسد. وليس المحسود:

الحاسد تتعبه الغيرة المُرّة. ومشاعر الحقد الأسود. ويتعبه شعوره بالنقص كلّما قارن نفسه بالمحسود. ويقول الشاعر في ذلك:

أُصبر على كيد الحسود .. فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها .. إن لم تجد ما تأكله

وكذلك فإن الحاسد يتعبه فكره وسعيه في الاضرار بالمحسود. وقد لا يفلح في ذلك. ويزداد المحسود ارتفاعاً.. فيزداد هو غيظاً. وهذا طبيعي. لأن القلب الخالي من المحبّة لا بد أن يتعب.. وقد يسعى الحاسد إلى التحرُّش بالمحسود وإهانته. فيقابله المحسود برقة ولُطف. حسب سموّ طبعه. فيتعب الحاسد من هذه الرّقة ومن هذا اللُّطف. كما يتعبه فشله في إثارة المحسود. فتزداد فيه النار اشتعالاً!!

***

ثانياً: إن الحسد في حد ذاته لا يضرّ. ولكن المؤامرات التي يدبّرها الحاسدون هى التي تضرّ أحياناً..

إخوة يوسف الصديق حسدوه على محبّة أبيه له. وحسدوه على أحلامه. فلم يضره حسدهم بشيء. ثم جاء دور المؤامرات التي تضرّ. فاحتالوا لكي يميتوه. ثم باعوه كعبد. ولكن اللّه كان مع يوسف. فتحوّلت كل الأمور إلى خيره. وكما قال هو فيما بعد لإخوته: "أنتم أردتم بي شرّاً. ولكن اللّه أراد بي خيراً".. إذن ينبغي ألاّ نخاف من الحسد. ولا من المؤامرات التي يُدبِّرها الحاسدون. مؤمنين أن يد اللّه لا بد ستتدخّل. وتحوّل الشر إلى خير. ولا تُعطي مجالاً للحاسدين أن ينتصروا..

***

ثالثاً: توجد قصص خرافية تُخيف البعض من عين الحسود!!

وللأسف. فإن بعض الناس يتداولون رواية هذه القصص الخيالية فيما بينهم. وكأنها حقيقة! وتمثّل في داخلهم واقعاً وخوفاً..!

منها ما يُقال من أن شخصاً أراد أن يؤذي مُنافساً له.. فاستأجر حاسداً مشهوراً من الذي له عين "تفلق الحجر".. وأوصاه بأن يضرب هذا المنافس عيناً ترديه أرضاً. ولمّا كان الحاسد لا يعرف ذلك المنافس. قال له الرَّجُل الذي استأجره: "سأريك إياه وأشير لك عليه". ووقف الاثنان في آخر الطريق. فلمّا ظهر ذلك المُنافس في أول الطريق من بعيد. أشار إليه مُنافسه. وقال للحاسد: "انظر هوذا هذا الرَّجُل القادم من بعيد. يلبس حُلّة سمراء. ونظارة على عينيْه. وبيده حقيبة صغيرة. إنه هو".. وهنا قال له الحاسد: "هل نظرك قوي إلى هذه الدرجة التي رأيت فيها الرَّجُل من ذلك البُعد الكبير. بكل هذه التفاصيل؟!" ونظر إليه في

تعجُّب. وإذا سحابة مرّت على عينيْه فلم يعد يُبصر!! إنها قصة خيالية خرافية. يرويها البعض عن "قوة عين الحاسد!".

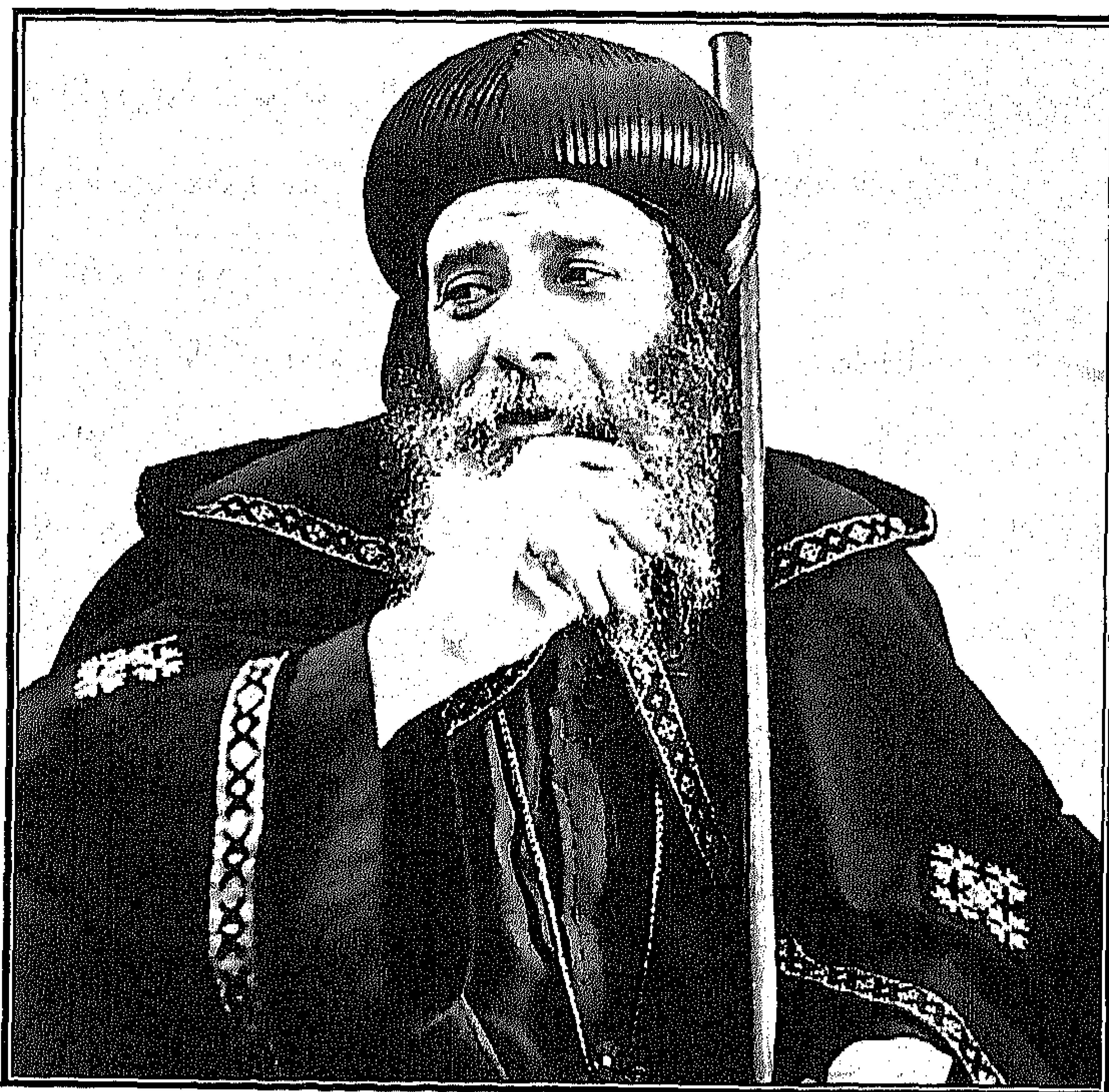
***

رابعاً: إن الحسد هو مشاعر خاطئة. وليس ضربة عين تضر..

ولو كان ضربة عين كما يتخيلون. لكان كل الناجحين والمتفوقين يخفون نجاحهم ونجاح أولادهم. لئلا تصيبهم أعين الحاسدين!! ثم ماذا عن النجاح الذي لا يمكن إخفاؤه. كأوائل الجامعات وأوائل الثانوية العامة. وأبطال الرياضة الذين ينالون الميداليات الذهبية. والعلماء الذين يحصلون على جائزة الدولة التقديرية. وماذا أيضاً عن ملكات الجمال كل عام. والحائزين على جائزة نوبل؟!

هل تصيب كل هؤلاء أعين الحسّاد. فتلقيهم أرضاً؟!

كلاّ يا إخوتي. فضربة العين الضارة هى مجرّد خرافة..



٢٠٠٤/١٠/١٩

بين السرعة والبطء

نحن في زمن يتميّز بالسرعة. كل ما فيه سريع: توجد سرعة في تلاحق الأحداث. وسرعة في تناقل الأخبار. وسرعة نتيجة للمُخترعات الحديثة مثل الانترنت. والفاكس والـ Mobile Phone. والكمبيوتر. وحتى في الطيران وُجِدَت السرعة التي توصل إلى القمر والمريخ. وسرعة طائرات الـ Concorde.

وفي الماكينات توجد سرعة: سرعة في الإنتاج. وسرعة في المطابع وفي استخدام الآلة الكاتبة. وكثيرون جرفهم تيار السرعة في كل مجالات حياتهم. ونتيجة لكل ذلك. يقف البعض أمام سؤال هام: هل من الصالح الإسراع أمْ البُطء. والبعض يقول هناك فرق بين السرعة والتسرُّع. وبين البطء والتباطؤ..!

والسؤال ما زال موضع حوار. ونود هنا أن نوضّحه...

***

نقرأ لأحد الشعراء يُشجِّع على التروّي والتأنّي فيقول:

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته .. وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

ولكن هذا الرأي لا يعجب شاعراً آخر. فيرد عليه قائلاً:

وكم أضرّ ببعض الناس بطؤهم .. وكان خيراً لهم لو أنهم عجلوا.

وهكذا بقيَ الأمر كما هو موضع حيرة: هل نبتّ في أمر بسرعة. أمْ من الأفضل التأنّي والتروّي؟ ... فما هو الحل؟ لا شك أن كثيراً من الأمور لا يمكن أن تقبل التباطؤ وقد يكون البطء فيها مجالاً للخطر والخطأ. ويُحسن فيها الحزم والبتّ السريع.. وسنضرب لذلك أمثلة:

***

فمثلاً لا يصح أن يتباطأ إنسان في التوبة:

لأن كل وقت يمرّ عليه في الخطيئة. إنما يزيد عبوديته لها. ويحوّل الخطأ إلى عادة. وقد يحوّل العادة إلى طبع. وربما يحاول الخاطئ فيما بعد. أن ينحلّ من رباطات شهواته فلا يستطيع. أو قد يستطيع أخيراً بمرارة وصعوبة وبعد جهاد مُميت. وكل ذلك لأنه أبطأ في التوبة وفي معالجة أخطائه..

فالذي يتباطأ في إقلاعه عن التدخين أو شُرب الخمر. قد يتحوّل كل منها إلى إدمان يُجاهد في علاجه إن جاهد ويصعب الأمر عليه...

***

وبالمثل التباطؤ في معالجة الأمراض الجسدية والروحية:

فالمرض إذا تباطأنا في علاجه. قد ينتقل إلى مراحل من الخطأ يصعُب فيها العلاج أو يستحيل. وبالمثل في وسائل التربية. حيث يؤدِّي التباطؤ في تقويم الطفل أو الشاب إلى إفساده. وصدق الشاعر الذي قال:

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت .. ولا يلين إذا قوّمته الخشبُ

سهل عليك أن تصلح تصرُّفاً سيئاً في طفل. فإذا شبّ على ذلك وكبر. يكون من الصعب مُعالجة ذلك فيه. وقد تحوّل إلى عادة أو طبع.

***

المسائل التي قد تتحوّل إلى خطر. تصلح لها السرعة بل تجب:

كإسعاف مريض. أو انقاذ غريق. أو إطفاء حريق...

لذلك فسيارات الإسعاف. وسيارات المطافئ. يُفسَح لها الطريق لتسير بسرعة. حتى لو أدّى الأمر إلى مخالفة إشارة المرور. لأن سرعتها لازمة لإنقاذ نفس إنسان أو عدة نفوس. وفي بعض بلاد الغرب يُوجد لها طريق جانبي يُسمّى Shoulder تجتازه بحرية. وكذلك بعض سيارات الشرطة.. أمّا باقي السيارات فالسرعة الزائدة فيها خطأ. وهو ضد قواعد المرور.

ولذلك فإن صاحب السيارة قد يقول للسائق ذلك المثل "امشِ على مهلك. لكي نصل بسرعة"! أي لكي نصل بدون حوادث تعطلنا...

***

أيضاً هناك مواقف تُمتدح فيها السرعة. وكأنها فضائل أو مزايا:

مثل السرعة في الفَهْم. وسرعة البديهة في الرد السليم. والسرعة في الطاعة. والسرعة في التشهيلات وتيسير الأمور. والسرعة في التصرُّف قبل فوات الفرصة. وكذلك السرعة في التصالح. والسرعة في تنفيذ الوعود. والسرعة في الوفاء بالنذر. وفي ردّ الديون. وما أشبه... كذلك السرعة التي فيها حزم وَبتّ سريع. قبل أن تتطوّر الأمور إلى أسوأ. وقبل أن يسبق

السيف العزل. ومثل هذا الحزم يحتاج إلى تصرُّف سريع قد يكون مؤلماً. ولكنه في نفس الوقت يكون لازماً وحاسماً. بقدر ما يكون سريعاً وحازماً...

وهناك علاقات ضارة. وصداقات مُعثرة. ينبغي أن تؤخذ من بادئ الأمر بحزم. كذلك قد توجد اتجاهات فكرية مُخربة. أو اتجاهات سلوكية مُنحرفة: إن لم يُسرع المجتمع في التخلُّص منها. فقد تقاسي من التباطؤ في علاجها أجيال وأجيال...

***

كذلك من الأمور التي تلزمها السرعة: الإغاثة

سواء إغاثة الفرد المحتاج. أو إغاثة المجتمع بالإصلاح المنشود.. ومنها السرعة في نظر الشكاوي. والسرعة في إنصاف المظلوم. والسرعة في إعطاء كل ذي حقٍّ حقّه. والبُعد في الإدارة عن أمور الروتين. وعدم ترك صاحب الطلب ينتظر طويلاً حتى يُنظر في أمره.. وقد كُتب في أمثال سليمان الحكيم: "لا تمنع الخير عن أهله. حين يكون في طاقة يدك أن تفعله. لا تقل لصاحبك اذهب وتعالَ غداً لأعطيك. وطلبه موجود عندك"... بل إن المُرتِّل يُصلِّي في المزمور ويقول: "اللَّهم التفت إلى معونتي. اسرع وأعنّي". ويطلب السرعة في الاستجابة.

***

تكلّمنا عن المجالات التي تلزم فيها السرعة. ونتحدّث الآن عن المجالات التي يُحسن فيها التأنّي والتروّي. فنقول.

ليست أفضل الحلول هى أكثرها سرعة. إنما أفضلها هى أكثرها اتقاناً..

فالسرعة ليست هى مقياس الأفضلية. إنما الأفضلية في الاتقان.. ولنأخذ مثالاً لذلك في الكلام والغضب. إذ يقول الكتاب المُقدَّس: "ليكن كل إنسان مُسرعاً إلى الاستماع. مُبطئاً في التكلُّم. مُبطئاً في الغضب. لأن غضب الإنسان لا يصنع برّ اللَّه". حقّاً. إن التباطؤ في الغضب هو فضيلة سامية. لأن الذي يُسرع إلى الغضب. قد يصل إلى الاندفاع. وفي اندفاعه قد يفقد سيطرته على أعصابه. بل قد يفقد السيطرة على سلامة تفكيره أيضاً. فيُخطئ...

***

لذلك احذر من أن تأخذ قراراً حاسماً في ساعة غضبك...

لئلاّ بذلك تضرّ نفسك. أو تضرّ غيرك... إنما حاول أن تهدئ نفسك أولاً. ثم بعد ذلك فكّر وأنت في حالة هدوء... أو تباطأ وأجّل الموضوع إلى أن تهدأ... فالقرارات السريعة التي تصدر في حالة غضب. تكون في غالبيتها عُرضة للخطأ.

أمّا التباطؤ فيُعطي فرصة للتفكير والدراسة والفحص...

قد يُطلّق إنسان امرأته. إن أسرع باتخاذ القرار في ساعة غضب!

وقد يفقد أعز أصدقائه. وقد يتخلّى عن عمله. وربما يُهاجر من وطنه.. كل ذلك لأنه أخذ قراراً سريعاً في ساعة انفعال. ولم يعطِ القرار ما يلزمه من الفحص والدراسة. ولم يتروَّ ولم يتباطأ. ولم يؤجِّل القرار إلى أن يهدأ...

***

بل قد ينتحر إنسان ويفقد حياته. لأنه أسرع باتخاذ قرار بذلك وهو في حالة يأس وكآبة. ولم يتباطأ ليدرس ويتفهّم الموقف!

أو قد يسرع إلى الانتقام من غيره. بقتله. بحجة الأخذ بالثأر أو الدفاع عن الكرامة. أو الدفاع عن الشرف... كل ذلك في ساعة انفعال. دون أن يتروّى ليحسب نتائج ما يفعله. لذلك من الخير أن يُبطئ الشخص في الغضب. وإن غضب لا يتّخذ قراراً بسرعة.

وإن قرّر شيئاً بسرعة. لا مانع أن يُعيد التفكير ويرجع في قراره... وقد يظن البعض أنه ليس من الرجولة أن يرجع الإنسان في كلمته. أو أن يلغي قراراً قد اتخذه. ولكن الحكمة تقضي بأن يُراجع الإنسان نفسه فيما اتخذه من قرارات سريعة خاطئة. فإلغاؤها أفضل من تنفيذها...

***

اترك القيادة لعقلك. وليس لأعصابك...

لأنك إن أسرعت إلى التصرُّف في حالة انفعال. تكون مُقاداً بأعصابك لا بعقلك. وفي هذا خطر عليك وعلى غيرك... وحاذر من أن تكتب رسالة إلى غيرك. بسرعة وأنت في حالة غضب. لأنك ستندم على ما كتبته. ويؤخذ وثيقة ضدك. وإن لم تستطِع أن تقاوم نفسك وكتبت مثل هذه الرسالة. فنصيحتي لك أن تتباطأ في إرسالها. اتركها على مكتبك يومين

أو ثلاثة. ثم عاود قراءتها مرة أخرى. فستجد أنها تحتاج إلى تعديل. أو تجد أنك استغنيت عنها ولم تعد تتحمّس إلى إرسالها. وقد تمزّقها.

إن التباطؤ في الغضب قد يصرفه...

فالغضب يحرّكه شيطان سريع الحركة. والتباطؤ يشلّ حركته. ويوقفه عن العمل. فإن دخلت في نقاش أدّى بك إلى الغضب. أجّله إلى وقت آخر حتى تهدأ.

كذلك عدم السرعة في الكلام نافع ومُفيد.. فاستمع كثيراً قبل أن تتكلّم. حاول أن تفهم غيرك في عمق. وأن تلمّ بالموضوع إلماماً كاملاً.. واعطِ نفسك بهذا الإبطاء فرصة للتفكير. وفرصة لمعرفة ما ينبغي لك أن تقوله. وبهذا يكون كلامك عن دراسة ورويّة وهدوء. فلا تخطئ.. وإن تكلّمت. فلتكن كلماتك هادئة وهادفة. ولا تسرع في حديثك بل تخيّر ألفاظك ولتكن مُنتقاة. زِنها جيداً بميزان دقيق. قبل أن تلفظها. وإن وجدت عبارة منها غير مناسبة. ابدلها بغيرها. وهذا لا يتأتى لك إلاّ إذا كنت مُبطئاً في التكلُّم غير مُندفع فيه...

***

إن الكلمة الخاطئة التي تقولها. لا تستطيع أن تسترجعها مرّة أخرى!!

لقد خرجت من فمك وانتهى الأمر. ووصلت إلى آذان سامعيك وتسجّلت. وحُسبت عليك.. ربما يمكنك أن تعتذر عنها. أو تندم عليها. ولكن لا يمكنك أن تسترجعها. لم تعد تحت سُلطانك. لقد حُسبت عليك. لذلك تباطأ في كلامك.

إن العربة المُندفعة بسرعة. لا تستطيع أن تقف فجأة. إن تغير اتجاهها وهى مُسرعة. كذلك المُسرع في كلامه: ربما لا يمكنه أن يغيّر أسلوبه فجأة إن أحسّ بخطئه. وقد لا يحسّ. أمّا الذي يُبطئ في كلامه ويتخيّر ألفاظه. فما أسهل عليه أن يعدّل أسلوبه إن شعر بخطأ.

الهادئ في كلامه. يُناقش الفكرة داخل عقله قبل أن ينطق بها. أمّا المُسرع في حديثه. فيقول الفكرة ثم يناقشها بعد ذلك. وقد تكون خاطئة! وقد يضطر أن يسحب فكرته. أو يتنازل عنها. أو يعترف بخطئها. وقد يصيبه حرج في كل ذلك بسبب إسراعه...

***

وكما ينفع البطء في التخلُّص من الغضب وأخطاء الكلام. كذلك ينفع في إصدار الأحكام. فلا تحكم بسرعة. ولا تصدّق كل ما يقال...

ولا تقبل وشاية ولا دسيسة ضد أحد. إنما حقّق بكل تدقيق. ولا تصدر حكمك إلاّ بعد مزيد من التروّي والفحص. فهناك أخبار ربما تصلك من أصدقائك أو من أبنائك. أو من مرؤوسيك أو من رؤسائك. أو من مصادر غير موثوق بها. لذلك تباطأ في حكمك على الأمور وعلى الأشخاص. واعرف أن التباطؤ في إصدار الأحكام والتروّي في ذلك. فيه عدل. واشفاق على الآخرين. وحُسن علاقات بالناس.

***

كذلك ينفع التروّي في تنفيذ الرغبات: فلا تُسرع في تنفيذ كل رغبة تخطر على قلبك أو ذهنك. لأنك لا تضمن سلامة كل رغباتك. حتى إن كانت الرغبة سليمة. فلا تلهبك إليها السرعة. لأن السرعة من نتائجها اللّهفة والقلق. والتعب في الانتظار.. في الشروع في الزواج مثلاً. ينفع التروّي والتأكُّد من توافق الطباع. لأن السرعة في عمل مصيري مثل هذا. قد يحجب عن الشخص عيوباً يلزمه أن يتفاداها. وكما قيل: "عين الرضا عن كل عيب كليلة.." كذلك إن كانت لك رغبة عند أحد. فلا تلحّ عليه إلحاحاً أن ينفّذها بسرعة. لئلاّ يتضايق منك. وربما تكون هناك عوائق أمامه قد تحتاج إلى وقت يساعد على التنفيذ. وأنت لا تدري..



٢٠٠٤/١٠/٢٦

مقياس الطول.. أمْ مقياس العمق؟

إننا نواجه في حياتنا هذيْن المقياسيْن في تصرُّفات الحياة.

والحكمة تستخدم مقياس العُمق أكثر من مقياس الطول

ولنأخذ الإنسان المُثقّف كمثال. من جهة معلوماته. فيقف أمامنا المَثَل الذي يقول النوعية وليس الكمية Quality not Quantity فليس المُثقّف هو الذي يقرأ كثيراً في شتى العلوم والمعارف. إنما المُثقّف هو الذي يقرأ فيفهم. ويناقش الفكر ويستوعبه. ثم يستبقي في ذاكرته الصالح من الأفكار. وهكذا تكون ثقافته: لا في كثرة معلوماته. إنما في جودة معلوماته...

***

إنك يا أخي.. يُوضع أمامك حوالي المائة صفحة في الجرائد اليومية

فهل تقرأ المائة صفحة. أمْ تقرأ الهام والمشوّق منها؟ ترى أمامك الكثير من الأخبار. ولكن ليست كلها بنفس الأهمية. ونفس الوضع بالنسبة إلى البحوث التي تُعرض في الجريدة. وليست كلها بنفس العمق. فتختار من كل هذه ما يعجبك. وتترك الباقي.. بعض المقالات طويلة. وبعضها مُختصرة وموجزة. ومركزة .. وهناك نوع من القراء - ليس بالقليل - يفضّل قراءة العمود القصير على المقالة المستفيضة: لتركيزه من جهة. ولأن قراءته لا تستغرق وقتاً طويلاً. ونحن في زمن يُحسب للوقت حساباً ثميناً..

***

والكتّاب على نوعين. لكل منهما قارئوه المفضّلون له:

نوع تتميّز كتابته بالمُقدِّمات المُمهّدة لموضوعه. وبالاسترسال في الشروحات والتفاصيل. ونوع آخر يدخل في الموضوع مباشرة. ويُعطي لكل نقطة منه ما يلزمها من توضيح أو تفسير.

وهناك نوع ثالث يجمع بين الأمر. فيشرح نقاط موضوعه. مع تلخيص كل فكرة في حوالي سطر أو أكثر تُكتب بخط أو لون مُميّز..

وعلى أية الحالات. فالمقال توزّع بأهميته بما فيه من نقاط هامة. ومن معايير واضحة. ومن أفكار لها وقعها في نفس القارئ..

ويوضع أمامك في الجرائد كل يوم الكثير من الفكاهات ومن صور الكاريكاتير. ولكن يبقى في ذاكرتك ما تتأثر به.

هنا المقياس ليس في الطول أو القصر. إنما في مقدار التأثير. وربما فكاهة منها تبقى في ذهنك زمناً طويلاً من فرط تأثرك بها..

***

ولعلّ حكايات كثيرة تكون قد سمعتها منذ طفولتك. ولكن تبقى منها في ذاكرتك قصة مُعيّنة أو أكثر. كانت ذات تأثير مُعيّن..

هنا أيضاً تبدو أهمية العُمق في مقدار التأثير. وتبدو أهمية التأثير في مقدار شموله لأكبر عدد من الناس على اختلاف نفسياتهم.. هناك أشخاص لهم حكمة خاصة في اختيار الكلام وفي توجيهه. يعرفون كيف يوجهّون الكلمة المناسبة. في الوقت المُناسب. للشخص المُناسب. فتحدث تأثيرها. ويبقى هذا التأثير وقتاً. له مداه.. ليس فقط في نوعية الكلمة التي تُقال. إنما أيضاً في نوع الأسلوب الذي تُقال به. وفي نوعية اللّهجة التي تُنطق بها. وهنا نرى العُمق في تأثير الكلمة. يذكّرني هذا بقول سليمان الحكيم: "تفاحة من ذهب. في مصوغ من فضة. كلمة مقولة في وقتها"...

***

إن عمق الكلمة يظهر في منفعتها. وفي مناسبتها. وفي تأثيرها..

وقديماً كانوا يسعون وراء الحكماء في مشارف الدنيا ومغاربها. يطلبون "كلمة منفعة". وربما كانت تلك الكلمة في عبارة قصيرة ولكن لها تأثيرها الذي عبر من جيل إلى جيل. ووصل إلى أيامنا...

نجد هذا في كلمات الحكمة - نثراً وشعراً - وفي الأمثال الشائعة...

وبعضها في أسلوب عامي. ومع ذلك له تأثيره. والبعض منها في أسلوب نصيحة لها عُمقها. وبعضها تسجيل لخبرة خاصة.. وكلّها كلمات مُنتقاة. ويسمّونها أحياناً كلمات ذهبية. وهى عبارات قصيرة ولكن عميقة.. لا تحتاج إلى شرح. بل بدون شرح تترك تأثيرها..

***

ربما شخص يتكلم كثيراً. ولا يقول شيئاً.. وشخص آخر يكون صامتاً. بينما ينطق صمته بدروس كثيرة..

وقد يقف واعظ. ويُلقي عظات طويلة. تكون بدون تأثير.. بينما إنسان آخر لا يعظ. وتكون حياته عظة صامتة لها تأثيرها..

ليست المسألة هنا وهناك في مقياس الطول. بل في العمق..

وقد يلتقي بك شخص لقاءات مُتعدِّدة. ويحدِّثك طويلاً. ولا تقتنع بشيء من حديثه. وإنسان آخر له عُمقه. يتقابل معك في لقاء واحد. يستطيع فيه أن يغيّر في نفسك أشياء وأشياء..

كل الأهمية تدور حول العُمق: عُمق اللقاءات وليس عددها.. عُمق الكلمات وحُسن اختيارها. عُمق التأثير في كل كلمة تُقال...

***

وضع شبيه نقوله عن الصداقات والعلاقات.. ليس المهم في طول العِشرة. إنما في عُمق المحبة...

ربما زوج يعيش مع زوجته عشرين عاماً. ثم تنتهي علاقتهما بالطلاق. وتكون مأساة. لأن سنواتهما الطويلة كانت عِشرة بدون عُمق وبدون حُب.. بينما هناك صداقات لها عُمقها.. وصدق من قال: "رُبّ أخ لك لم تلِده أمك"...

ونفس الوضع قد يحدث بين الدول وبين الشعوب. في علاقاتها. وفي معاهداتها. الثابتة منها والمنهارة.. حتى في الحروب: قد تستمر حرب لمدة طويلة بلا نتيجة. بينما معركة واحدة حاسمة تنهي كل شيء. المهم في الجدية والعُمق..

***

من جهة مقياس الطول. نتعرّض أيضاً لموضوع العمر..

هل عمر الإنسان يُقاس بعدد السنين التي يقضيها على الأرض؟ كلاّ. فليست سنة في عمر إنسان تساوي سنة. في عمر إنسان آخر. لأن سنة في عمر إنسان مُنتج ليست كسنة في عمر إنسان خامل! هناك مقاييس أُخرى للعمر: منها مقياس الإنتاج. ومقياس التغيير الذي يُحدثه الشخص في المجتمع الذي يحيط به.. إن الإنسان الذي يملأ الدنيا إنتاجاً. وينفّث من روحه حيوية في كل موضع. هذا لا يُقاس عمره بطول السنين التي يحياها على

الأرض. فإن سنة واحدة منها قد تساوي عمر إنسان بأكمله! مثل هذا الشخص المنتج الصالح. لا يُنسب إلى العصر الذي عاش فيه. إنما عصره هو الذي يُنسب إليه..! فيقول البعض : نحن قد عشنا في جيل فلان..

***

مقياس الطول أيضاً لا يقاس به فترة المرض

إنما يُقاس المرض بمقياس الألم. فساعة واحدة في شدة آلام السرطان. قد تكون في احتمالها أطول من يوم كامل بالنسبة إلى مرض آخر. ونفس الوضع بالنسبة إلى آلام أمراض أخرى. قد يضطرون إلى استخدام حقن المورفين لتسكين ما يحسّ به المريض..!

إن الآلام عموماً لا تقاس في طولها بمقياس الساعة..

ونفس الكلام ينسحب أيضاً على بعض ألوان من التعذيب. حيث تمرّ كل دقيقة منه. وكأنها دهر!!

***

إن مُقابلة ثقيلة. أو مكالمة غير مرغوب فيها. يشعر الإنسان بطولها. وكأن عقرب الثواني لا يتحرّك أثناءها...!

بينما ساعات من البهجة قد تمرّ. دون أن يشعر صاحبها بها. وكأنها لحظات!! أين مقياس الطول هنا؟ وكيف تقاس؟ هل الزمن إذن له مقاييس نسبية يتأثر فيها طوله وقصره. من جهة الألم أو المُتعة. والراحة أو التعب.. وكذلك البكاء وتأثيره يكون نسبياً أيضاً. فالشخص النادر البكاء: إذا بكى يكون تأثير بكائه أقوى.. مثال ذلك حينما يبكي الأب. وحينما يبكي الأستاذ!

كذلك الإنسان المشهور بالصمت: إذا تكلّم. يكون لكلامه تأثيره..

***

لا شك أن هناك أموراً في حياتك . لها عُمق أكثر من غيرها...

هناك برامج كثيرة تُعرَض في وسائل الإعلام. لكن لعلّ برنامجاً مُعيناً له عُمق أكثر في تأثيره بالنسبة إليك. فلماذا؟ وقد يتوسّط كثيرون لديك من أجل موضوع ما. فلا تترك وساطتهم كلها أثراً عندك. بينما كلمة واحدة من شخص بالذات. لا تملك معها إلاّ سرعة الاستجابة! فلماذا؟.. وقد يقدّم لك شخص اثنتي عشرة نقطة لإقناعك بأمر ما. ولكن نقطة

واحدة منك هى التي تقنعك دون غيرها! فلماذا أيضاً؟ لا شك أن أعماق كل إنسان تختلف في تأثرها عن أعماق غيره. لأسباب عديدة جداً..

فالنفسية أيضاً تدركها النسبية في تأثراتها.. أليس إذا وُجه هذا السؤال إلى عشرة أشخاص "ما أكثر المواقف حرجاً في حياتك؟" تكون إجابة كل منهم تختلف عن الآخر..

***

ونحن في فترة صوم. لعلّك سمعت فيها العديد من العظات:

هل أسأل: كم عظة تأثرت بها. وأحدثت تغييراً في حياتك؟

وربما غالبية العظات تدور في فلك ديني واحد. ولكن أعماق كل منها تختلف عن أعماق الأخرى. والتأثيرات متنوّعة ومختلفة.. وهنا يهمني أن أتعرّض لعلاقتك مع اللّه. وما هو مقياس الطول ومقياس العمق فيها:

***

كم تعطي اللّه من وقتك؟ وكم تعطي أمور العالم المادية من وقتك؟

وهل يوجد توازن بين العطاءيْن؟ أمْ أن الوقت الذي تعطيه لمشغوليات الحياة الدنيا هو المُسيطر بحيث لا يبقى لروحياتك شيء؟! وهل الوقت القليل الذي تخصّصه للعبادة كاف لغذائك الروحي؟ وقد يعتذر إنسان عن مُتابعة صلواته يومياً بضيق الوقت!! بينما السبب الحقيقي هو عدم وجود الرغبة. وليس عدم وجود الوقت! أو قد يكون السبب هو عدم الإحساس بالاحتياج إلى الصلاة!! مثال ذلك شاب أتى إليّ. وقال إن امتحاناته ستبدأ من يوم السبت إلى نهاية الأسبوع. ثم سألني أن أصلّي من أجله يوم الأربعاء بسبب أن امتحانات هذا اليوم صعبة. فقلت له: "وماذا عن امتحان يوم السبت؟" فأجاب: "إنها مادة سهلة لا تحتاج إلى صلاة". وذكرتني قصة هذا الشاب بأن أموراً كثيرة في حياتنا نرى أنها لا تحتاج إلى صلاة!!

***

طول المدة التي تقضيها كل يوم مع اللّه في الصلاة. هى إحدى الجوانب الروحية. أمّا الجانب الآخر فهو مقياس العُمق في صلاتك..

فهل أنت تصلّي بفهم. وتعني كل كلمة تقولها في صلاتك؟ وهل تصلّي بحرارة. وإيمان. وخشوع؟ وهل تشعر - وأنت تصلّي - بوجود صلة بينك وبين اللّه؟ لأنها من أهمية هذه

الصلة. أخذت الصلاة اسمها.. وهل تشعر أثناء الصلاة بوجودك في حضرة اللّه؟ وهل أنت تشتاق إلى الصلاة أكثر من اشتياقك لأية مُتعة أخرى؟ أمْ أنك أحياناً تشعر بالملل. وتود أن تنتهي الصلاة وتتفرّغ لباقي أمورك؟! وهل صلاتك الخاصة كلها طلبات. أمْ فيها عنصر الشكر. وعنصر التسبيح. وعنصر التوبة والانسحاق والاعتراف بالخطية؟

***

ماذا أيضاً عن باقي صلتك الروحية باللّه. طولاً وعمقاً؟

ماذا عن قراءاتك الروحية. وما فيها من تأمُّل وعُمق. ومقدار تأثرك الروحي بما تقرأ؟ وماذا عن تداريبك الروحية التي تدرِّب فيها نفسك على ترك ضعفات مُعيّنة. وعلى اكتساب فضائل تنقصك؟ وماذا عن عنصر ضبط النفس في حياتك. وبخاصة في فترة الصوم؟

وماذا عن اهتمامك بأبديتك. وحرصك وتدقيقك في كل تصرّفاتك. وفي كل كلمة تخرج من فمك. وكل علاقة لك مع غيرك. ليتك تأخذ كل هذه الأمور بعُمق واهتمام.. وليكن الرب معك.



٢٠٠٤/١١/٢

ثيـاب الحمـلان

قال السيد المسيح وهو يُحذِّر تلاميذه من اليهود في أيامه "يأتونكم بثياب الحملان. وهُم ذئاب خاطفة"!!

أي يأتونكم بمظهر الطيبة والوداعة والمُسالمة. وهم عناصر عنيفة فتاكة تشبه الذئاب التي تخطف. فما هى تأمُّلاتنا في ثياب الحملان هذه. وفي أية المجالات يمكن أن تنطبق؟؟ يمكن أن ينطبق هذا الوصف على العدو الذي يلبس ثياب الأصدقاء. أو على الخاطئ الذي يتظاهر بالبر. ويمكن أن ينطبق على المرائين الذين قال عنهم السيد المسيح إنهم يشبهون القبور المبيضّة من الخارج وفي داخلها عظام نتنة...

***

وثياب الحملان يمكن أن يلبسها الشيطان نفسه..!

فالشيطان يتّقن أساليب الخداع. ويستطيع أن يظهر إن أراد في هيئة ملاك من نور. أو في صورة أحد الأنبياء أو القديسين. أو في هيئة روح من أرواح الموتى. وقد يتخذ له أي اسم من الأسماء وأي شكل وأي صوت.. ويستطيع الشيطان أن يظهر في رؤى كاذبة. أو في أحلام كاذبة. ويوجه الإنسان بطريقة ما...

لذلك ينبغي على كل إنسان أن يكون حريصاً وحكيماً. وله موهبة التمييز.

والكتاب ينصحنا بأن نميّز الأرواح.. وإن لم يكن لأحد منا هذه الموهبة. حينئذ تنفعه المشورة الصالحة. حينما يذهب إلى أحد المُختبرين. ويستشيره في أمثال هذه الأمور ليكشفها له. لأن الشياطين استطاعت أن تضل كثيرين صدّقوا خداعها ولم يكتشفوها. لأنها كانت تلبس ثياب الحملان.

***

على أن تعبير "ثياب الحملان" يمكن أن ينطبق أيضاً على الرذائل التي تلبس ثياب الفضائل وعلى الأخطاء التي تتسمّى بغير أسمائها.

إن الخطيئة التي تغري الأشرار وهى مكشوفة وصريحة. لا تستطيع أن تحارب الأبرار والقديسين هكذا. لأنها لو ظهرت لهم بوجهها الصريح لرفضوها. لذلك فإن الشيطان حينما يحاربهم بخطية مُعيّنة. قد يُلبِسها ثوب الفضيلة. أو يُعطيها اسماً يريح الضمير! وهكذا يضل غير الحكماء وغير العارفين. ومثل هذا التضليل يمكن أن يكشفه المرشد الروحي إذا ما عُرض عليه...

***

وهذه الأسماء المُستعارة التي تلبسها الخطية. قد يستخدمها أشخاص يعرفون تماماً أنهم مُخطئون. ولكنهم يخفون أخطاءهم بثياب الحملان. حتى لا يخجلوا أمام الآخرين. وحتى لا ينكشفوا.

إن ثياب الحملان قد يقع فيها البعض عن طريق الجهل وعدم الخبرة. وقد يستخدمها البعض بأسلوب الخداع أو الرياء.

وأمثال هؤلاء المرائين: إن استطاعوا أن يخدعوا غيرهم. إلاّ أنهم مكشوفون أمام اللّه فاحص القلوب والأفكار والنيّات.

ومكشوفون أيضاً أمام ضمائرهم... وقد يكشفهم الناس كما يقول الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته .. فإذا التحفت به فإنك عارٍ

على أن هؤلاء المرائين. قد يسهل بهم الاستهتار أحياناً إلى أن يتهكموا على البسطاء. لكي ينطوي عليهم الخداع.

***

وثياب الحملان يستخدمها العقل أحياناً لتبرير سلوك النفس:

إن العقل لا يكون في كل وقت عقلاً صرفاً. أو مُفكّراً في الحق تفكيراً سليماً.. وإنما كثير ما يكون العقل خادماً مُطيعاً لرغبات النفس... يحاول أن يُبرّر شهوات هذه النفس. وأن يُبرّر سلوكها. حتى لا تبدو مُدانة أمام الضمير.. وهكذا يُعطي الخطايا والنقائص أسماء مقبولة غير أسمائها الحقيقية.

وسنحاول أن نضرب لذلك بعض الأمثلة:

فالاستهتار مثلاً يلبس ثياب الحملان. ويأخذ اسم الحرية!
وكلمة الحرية كلمة جميلة لا يجادل أحد في سموّ معناها.

وتحت اسم الحرية يفعل الشخص ما يشاء. مستخدماً هذا الاسم الجميل في فعل ما لا يليق. ناسياً أن الحرية في معناها الحقيقي. هى تحرُّر النفس من الأخطاء ومن الشهوات المعيبة..

فالشخص الحر هو الذي لا تستعبده عادة رديئة أو شهوة بطالة أو طبع فاسد. وليس معنى الحرية أن يكسر أحد وصايا اللّه ويقول أنا حُر أفعل ما أشاء!! فمثل هذا الشخص ليس هو حُراً. بل هو مُستعبد للشيطان وإغراءاته.. هو يحاول أن يُلبس الاستهتار ثياب الحملان. ويُعطيه اسم الحرية.!!

وليست الحرية أن تكسر قواعد المرور. وتقول أنا حُر أسير كيفما أشاء!! فهذه ليست حرية. إنما هى استهانة بالنظام العام...

وفي بعض بلاد الغرب لبِسَ الفساد. والشذوذ الجنسي. وإدمان المخدرات ثياب الحملان. وتسمّى بإسم الحرية الشخصية..

وفي بعض البلاد لبِسَ الإلحاد والانحراف الديني والمذهبي ثياب الحملان أيضاً. وتسمّى بإسم الحرية الدينية وحرية العقيدة!! حتى أن بعضهم اعتنق عبادة الشيطان. وبنى له بيوتاً للعبادة وممارسات.. وطالب الدولة بحمايتها. بإسم الحرية!!

***

كذلك قد تلبس الشهوة الجسدية ثياب الحملان. وتتسمّى بإسم الحُب!
والحُب كلمة جميلة في معناها السامي تنال توقير الجميع...

ولكن هل كل ما يسمّونه حُبّاً. هو حُبّ في حقيقته؟! ألا يجوز أن خطية ما تخشى أن تكشف عن حقيقتها الفاسدة. فتلبس ثياب الحملان وتتسمّى بهذا الاسم الجميل؟! ألا يحدث أحياناً أن شاباً يُصادق فتاة صداقة غير بريئة مملوءة بالأخطاء الواضحة الفاضحة. ويُسمّي هذه العلاقة خطأً بإسم الحُب. وهى بعيدة عنه كل البُعد!!

أتذكر أنني مرّة في حديث صحفي سُئلت عن الفرق بين الحُب والشهوة؟
فقلت إن الحُب يريد دائماً أن يُعطي. والشهوة تريد دائماً أن تأخذ..

إن الذي يُحبّ فتاة محبّة حقيقية. المفروض فيه أن يُحبّ لها الخير. فلا يُسئ إلى عفتها وطهارتها. ولا يُسئ كذلك إلى سمعتها...

فإن أتلف عفة هذه الفتاة. وأفقدها بساطتها. وأدخلها في خبرات خاطئة. وشغل عقلها. وضيّع وقتها أو مُستقبلها. وعلّمها الكذب على أهلها. وعوّدها العمل الخاطئ في الخفاء.. فلا يصح أن يقول على الرغم من كل ذلك إنه يحبها..!

فالذي يحب. ينبغي أن يكون طريقه سليماً وواضحاً. ويعمل في النور وليس في الظلام. ولا يصح أن يكون الحُبّ مجرّد ثياب حملان تخفي في داخلها ذئاباً خاطفة..

***

كذلك قد تلبس القسوة ثياب الحملان. وتتسمّى بالحزم..

فقد تعاتب أباً قاسياً يسوم أولاده ألوان العذاب. فيُبرّر موقفه بأنه ليس قاسياً. وإنما هو حازم! ويطلق على معاملته الفظة الخشنة لأبنائه اسم التأديب أو التربية! ويقول عن عنفه في تربية أبنائه إنها حفظ لهم حتى لا يخطئوا! بينما تكون قسوته بعيدة كل البعد عن أساليب التربية. وقد تأتي بعكس ما يريد. وتغرس في نفوس الأبناء الكبت والشعور بالظلم. والرغبة في الانطلاق من هذا البيت.. ولكنها ثياب الحملان التي يحاول بها الأب إخفاء وحشيته وقسوته!

***

وثياب الحملان قد تدخل أحياناً في بعض مجالات النصب على عقول بعض البسطاء أو غير المُتعلّمين. وبخاصة في الأرياف..

* وربما يدخل في هذا المجال المشتغلون بقراءة الكف "باعتباره علماً" أو بقراءة الفنجان. أو بضرب الرمل ووشوشة الودع. أو بمعرفة البخت عن طريق النجوم. أو طريق البندول. وغير ذلك من الغيبيات.. وتسمية كل ذلك بإسم الموهبة. أو الفراسة. أو النبوة وادعاء معرفة المستقبل. وكلّها ثياب حملان تخفي مجموعة من الادعاءات..
* ويدخل في مجال استغلال بساطة الناس: المشتغلون بالسحر و"العمل"! وإشعار بعض اليائسين والحائرين. بأنه قد عُمِل لهم عمل يحتاج إلى فكه. أو إلى حجاب يحجب الشر عنهم. أو إلى الاتصال بالأرواح أو بالجن للتفاهم في هذا الأمر. وكل اتصال له أجره!

***

قتل الأخت الخاطئة قد يلبس أيضاً ثياب الحملان. تحت عنوان غسل شرف العائلة. ومحو العار عنها..

وأيضاً الانتقام لقتل الأب أو الأخ بقتل قاتله. يلبس ثوباً آخر من ثياب الحملان. ويعتبر لوناً من القوة وكرامة الأسرة. وقديماً في أيام الجاهلية كانوا يجدون أحد ثياب الحملان يغطون به وأد البنات.. وجرائم كثيرة كانت تستتر وراء قوة الشخصية. وكان يُبرِّرها الذين مارسوا الحكم الاستبدادي والديكتاتوري أمثال هتلر في ألمانيا. وأيضاً روبسبير وشركائه بعد الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر.

وبعض جرائم القذف والسبّ العلني تحاول أن تأخذ اسم حريّة الصحافة. والاجتماعات الثورية قد تأخذ اسم الحرية السياسية وسبّ المُرشحين لبعضهم البعض في الانتخابات تلبس ثوب الديمقراطية!!

ومن ثياب الحملان المشهورة. ثوب آخر اسمه الفن:

وكلمة الفن محبوبة من الجميع. ومن فروعها الفنون الجميلة وكل ما تشتمل عليه. ولكن "فنوناً" أخرى ليست جميلة تنتحل هذا الاسم أيضاً!

فهناك نوع من الرقص الخليع يسمّونه أيضاً فناً. وكذلك بعض التماثيل والصور العارية التي تخدش الحياء تدخل في نطاق الفن. وعروض عديدة من الإباحية. ومن الأغاني العابثة. ومن الروايات المُثيرة. تسمّى أيضاً فناً. وكلها تنطوي داخل ثياب الحملان. وإن رأى أن ينتقدها. يتهمونه بأنه يُحارب الإبداع الفني!

***

وما أكثر الأسماء المُستعارة التي تلبسها أخطاء الناس:

ويعوزني الوقت في هذا المقال أن أتحدّث عنها بالتفاصيل:

فالدهاء أو المكر أو الخبث. قد يتسمّى بالذكاء أو بحُسن التصرُّف!

والإسراف قد يأخذ اسم الكرم. والتهكم أو المزاح الرديء. قد يتسمّى بإسم خفة الروح! والشتيمة والانتقاد المرّ والكلام الجارح ضد سياسات القادة. يسمّونها كلها بإسم الاصلاح.. والتعصّب الرديء قد يأخذ اسم الغيرة المُقدّسة والتمسُّك بالدين. وأحياناً يسمّى الكذب بالكذب الأبيض لإخفاء حقيقته. والملابس الخليعة قد تأخذ اسم الموضة. وقد تختفي الرشوة تحت

اسم الهدية. وتختفي السرقات تحت شكليات رسمية لا تُرضي الضمير.. إلى آخر هذه الأنواع.

***

وثياب الحملان قد يلبسها البعض في معاملاتهم للآخرين:

فقد يسلك إنسان بأسلوب من التملّق والنفاق. فإن عاتبته على ذلك. يقول لك إن هذا لون من السياسة. أو من الحكمة. أو كسب الأصدقاء! بينما يستطيع أن يصل إلى ذلك بغير تملّق.

وقد يدسّ شخص عند رئيسه في حق زملائه. ويسمّي الدس والوقيعة بأنه إخلاص منه لرئيسه وللصالح العام! وما هو إلاّ من ثياب الحملان.

***

ومن ناحية أخرى. قد يلبس ضعف الشخصية ثوب الطيبة والوداعة:

وتحت اسم الطيبة قد يتلف أب أولاده. وقد يتلف رئيس أو مُدير كل الهيئة التي تحت إدارته. لكونه يسلك بتساهل معيب يُسمّيه الوداعة! والمفروض أن يكون الإنسان لطيفاً في غير ضعف. وحازماً في غير عُنف. وقد يعاقب ويكون طيب القلب في مُعاقبته. كما قد يعفو ويكون حازماً خلال عفوه... وهكذا تكون الشخصية المُتكاملة..

***

ليتنا إذن نواجه الحقائق عارية وصريحة. ولا نسمّي الأمور بغير أسمائها.

لكي نستطيع أن نصحّح أنفسنا من الداخل. ويصلح المجتمع الذي نعيش فيه.. أمّا ثياب الحملان فإنها تحاول أن تخفي العيوب دون إصلاحها..!!



٢٠٠٤/١١/٩

الحروب الروحية

كل إنسان معرّض للحروب الروحية. سواء من الخارج أو من داخله تمرّ هذه الحروب عابرة. ويسهل الانتصار عليها. إن كان الشخص في حياة روحية قوية. ولكنها تكون عنيفة. إن كان في حالة فتور. أو في استرخاء روحي. أو في إهمال لعبادته ولوسائط النعمة.

الحروب الداخلية

سنركّز في كلامنا عنها. على الأفكار والشهوات..

فالأفكار تحارب العقل. والشهوات تحارب القلب والحواس..

والحروب الروحية الداخلية تكون أصعب من الحروب الروحية التي تهجم من الخارج. لأن الحروب الداخلية يكون فيها الإنسان عدوّ نفسه. وتكون صعبة لأنه يشتهيها ولا يريد مقاومتها. ولهذا كانت نقاوة القلب هى أهم شيء في حياة الإنسان. فالقلب النقي حصن لا يُنال.

***

والحروب الداخلية قد يكون سببها طبع اندمج في الخطيئة. وغالباً ما يكون قد ترسّب من الماضي في قلب الإنسان وفي فكره. بما يُحاربه.. وقد يتسبّب عن طبيعة ضعيفة تستسلم للخطأ. أو عن عدم اهتمام بالروحيات تكون نتيجته ضعف القلب من الداخل. فيترك الفكر يطيش حيثما شاء بلا ضابط.. فيبدأ التراخي في ضبط الحواس. والحواس هى أبواب للفكر.

والحروب الداخلية قد تبدأ خفيفة أو عنيفة. وحتى إن بدأت خفيفة. فإن تراخي الإنسان في مقاومتها. تسعى للسيطرة عليه..

أمّا الإنسان المُنتصر على الحرب الداخلية. أو الذي ليست له حروب روحية في داخله.. فهذا إن أتته حروب من الخارج. تكون خفيفة عليه. ويمكنه التغلُّب عليها. لأن القلب رافض لها. وإرادته لا تتجاوب معها..

قد تكون الأفكار في اليقظة. وقد تكون في المنام..

والأفكار أثناء النوم. ربما تكون مُترسِّبة من أفكار وأخبار أثناء النهار. أو قد ترسّبت في العقل الباطن من شهوات ومن أفكار. وممّا جلبته الأذن من أخبار وحكايات. وما قرأه الشخص من قراءات ظلت عالقة في ذهنه.. كل هذه تأتي في أحلام. أو في سرحان. أو ما يسمّونه بأحلام اليقظة. ويستمر فيها الإنسان طالما كان القلب قابلاً لها. فإن كان رافضاً لها تتوقف. ويصحو لنفسه.

وإرادة الإنسان ضابط هام للفكر. فهى التي تسمح بدخول الفكر..

وحتى إن دخل الفكر خلسة. فهى التي تسمح باستمراره أو بإيقافه. ومن هنا تأتي مسؤولية الإنسان عن أفكاره. أمام ضميره وأمام اللّه.

***

ومن هنا يرد السؤال التالي: هل هذه الأفكار إرادية. أم غير إرادية. أمْ شبه إرادية؟ أي من النوع الذي هو غير إرادي. ولكنه تابع من إرادة سابقة تسبّبت فيه!

فقد يغرس الشيطان فكراً في عقل إنسان. يدخل إليه بغير إرادته. ولكن حتى هذا الفكر الذي لا مسؤولية عليك في دخوله. توجد مسؤولية عليك في قبوله.. إن أردت يمكنك أن تطرد الفكر ولا تتعامل معه. ولا ترحب به.. لأنك إن قبلت الفكر الخاطئ. تكون خائناً لنعمة اللّه العاملة معك. وتكون مُقصّراً في حفظ وصايا اللّه وفي حفظ نقاوة قلبك.

***

وقد يأتيك الفكر الخاطئ في حلم.. فإن كنت نقيّاً تماماً. سوف لا تقبله في الحلم أيضاً. بل ترفضه. أو يتغيّر الحلم. أو تستيقظ..

وإذا كنت لم تصل إلى هذا المستوى. وقبلت الفكر الخاطئ في الحلم. فستحزن بسببه كثيراً حينما تستيقظ. ويترك هذا الحزن أثره العميق في عقلك الباطن. فترفض كل حلم مُماثل في المستقبل.. إن لم يكن مُباشرة. فبالتدريج. إلى أن تصل إلى نقاوة العقل الباطن. إذن قاوم أي فكر خاطئ يأتي إلى ذهنك في النهار. أثناء يقظتك. لكي تتعوّد المقاومة حتى بالليل. أثناء نومك. وتتغرس هذه المقاومة في أعماق شعورك. ويتعوّدها عقلك الباطن.

إن زمام أفكارك في يدك. سواء منها الأفكار التي تصنعها بنفسك. أو التي ترد إليك من الخارج. من الشيطان أو من الناس. وما أصدق قول المثل:

إن كنت لا تستطيع أن تمنع الطير من أن يحوم حول رأسك. فإنك تستطيع أن تمنعه من أن يعشش في شعرك.

بإرادتك. وباشتراكك مع عمل النعمة فيك. يمكنك السيطرة على الأفكار. فلا تتركها لتأخذ سُلطاناً عليك. ولا تستطيع تلك الأفكار الخاطئة أن تفقدك نقاوتك. وذلك ما دمت لا تتجاوب معها.

لذلك لا تستسلم لأي فكر خاطئ يرد إليك. وليكن كل إنسان حكيماً.. يعرف كيف يبدأ الفكر عنده. وكيف يتطوّر. وما هو خط مسيره داخل ذهنه؟ وما نوع الأفكار التي تبدأ بريئة هادئة. ثم تنتهي بنهاية خاطئة! وليحترس منها. ولا يُعطي مجالاً للفكر حتى يشتد.

وإن اشتدت عليك الأفكار بطريقة ضاغطة ومستمرّة. فلا تيأس ولا تظن أنه لا فائدة من مقاومة الفكر. وتستسلم له!!

إن اليأس يجعل الإنسان يتراخى مع الفكر. ويفتح له أبوابه الداخلية. ويضعف أمامه ويسقط. أمّا أنت فحارب الأفكار وانتصر. مُتمسّكاً بمعونة اللَّه لك. ولكن كيف تنتصر؟

***

كيف تنتصر على الفكر؟

١- أن لا تخف من مقاتلة الأفكار الخاطئة. ولا تفترض هزيمتك أمامها. بل اصمد. واعرف أن انتصارك على الفكر. سيُعطيك بهجة بانتصارك. كما يمنحك خبرة في الروحيات. ويكون لك أجرك على جهادك.

٢- اشغل فكرك بشيء روحي. أو بأي اهتمام عميق. حتى إذا ما أتاك الشيطان بفكر ردئ. لا يجد ذهنك مُتفرّغاً له.. وهذا إجراء وقائي..

درِّب نفسك على أن تتولّى قيادة أفكارك. ولا تجعل الأفكار تقودك. واحرص ولا تترك عقلك في فراغ. خوفاً من أن يحتله الشيطان ويلقي فيه ما يريد.

٣- لهذا فإن القراءة الروحية مفيدة جداً. ليس فقط في شغل الذهن ومنع الأفكار الرديئة عنه. وإنما أيضاً لها فائدة إيجابية. لأنها تعطي الفكر مادة روحية للتأمُل. وتملأ القلب بمشاعر نقيّة. في محبة اللّه والفضيلة. وتجعل القلب قوياً في طرد الأفكار المُضادة.

٤- كُن مُتيقظاً باستمرار. ساهراً على نقاوتك. فلا يسرقك الفكر الرديء دون أن تحسن. واطرد الفكر من بادئ الأمر. قبل أن يبغتك ويضعف مقاومتك.

واعلم أنك إن تركت الأفكار الخاطئة باقية فترة في ذهنك. لا تلبث هذه الأفكار أن تثبت أقدامها وتقوى عليك. وكلّما استمرت واستقرت في داخلك. تضعف أنت ولا تستطيع مقاومتها وتسقط. لذلك كُن مُتيقظاً وسريعاً في طرد الأفكار.

٥- اهتم باقتناء الفضيلة التي يسمّونها "استحياء الفكر"

أقصد بهذا إنه عندما يكون فكرك مُلتصقاً بذكر اللّه. بالصلاة والتأمُل وبعبارات الحُب الالهي. بالتسبيح والترتيل. حينئذ يستحي الفكر من أن يهبط من مستواه الروحي لتشغله أفكار الخطية! فيرفضها. وهذا علاج وقائي أيضاً.. إذ يستحي الفكر من تأمّلاته الروحية السابقة.

٦- ومن الناحية المُضادة ابتعد عن العثرات التي تجلب أفكاراً خاطئة..

ابتعد عن كل لقاء ضار. وعن كل صداقة أو مُعاشرة خاطئة.. ابتعد عن القراءات التي تجلب أفكاراً دنسة أو التي تتيهك عن الفكر الروحي. كما تبتعد أيضاً عن السماعات والمناظر والأحاديث وكل مُسبّبات الفكر البطال.

وما دامت الحواس هى أبواب الفكر. فاحرص أن تكون حواسك نقيّة..

إن تراخيت مع الحواس. تكون كمَنْ يُحارب نفسه بنفسه. فاحترس إذن. ولتكن حواسك معك لا ضدك.

٧- احترس من الأفكار الطائشة. التي قد لا تكون خيراً ولا شراً..

فربما تكون تمهيداً لأفكار خاطئة. لأن الذي لا يضبط فكره. بل يتركه شارداً هنا وهناك.. قد يرسو على موضوع خاطئ ويستقرّ فيه. فمن الناحية الايجابية. اربط فكرك بما

هو صالح ونافع سواء في عملك أو مسؤولياتك أو الصالح العام. لكي لا يسرح في أمور عديمة الفائدة.

٨- إذا أتعبك الفكر ولم تقوَ عليه. اهرب منه بالحديث مع الناس..

لأن عقلك سوف لا يستطيع حينئذ أن يجمع بين موضوعين في وقت واحد: الفكر والحديث مع الناس.. كما يمكنك أن تستعين على طرد الفكر بالصلاة. أي الحديث مع اللّه..

٩- وهناك قاعدة روحية أحب أن أقولها لك في محاربة الأفكار. وهي:

الهروب من الأفكار الخاطئة خيرٌ من محاربتها.

لأن الفكر الخاطئ الذي تنشغل بمحاربته: حتى إن انتصرت عليه. يكون قد لوّث عقلك ولو بعض الوقت!.. ولا تخدع نفسك قائلاً: سأراه كيف يسير الفكر وكيف ينتهي. ولو من باب الاستطلاع!! ذلك لأنك تعرف تماماً أن هذا الفكر سيضرك. فلماذا إذن استبقاؤه داخلك؟! ولا تتهاون أيضاً قائلاً: "أنا أستطيع أن أهزم الأفكار. ولكنّي أناقشها لأظهر ضعفها!". فربما تغلبك الأفكار. وهي التي تظهر ضعفك!

١٠- اعرف أيضاً أن الأفكار إذا استمرّت. فقد تقود إلى شهوات.

فتكون أخطر. بانتقالها من الذهن إلى القلب. ومن الفكر إلى العاطفة!!

***

حرب الشهوات:

الشهوات كثيرة: منها شهوة الجسد. وشهوة المعرفة الخاطئة. وشهوة الرئاسة والمناصب. وشهوة الانتقام. وشهوة المال. وشهوة الامتلاك. وشهوة العظمة والشهرة. وفي كل هذه تكون ملكية القلب قد انتقلت من اللّه إلى غيره.

١- فإن رحلت إلى الشهوة لا تكملها. بل حاول أن تتخلّص منها. واذكر تلك العبارة الجميلة:

افرحوا لا لشهوة نلتموها. بل لشهوة اذللتموها.

إن أكثر شيء يُفرّح الإنسان هو أن ينتصر على نفسه. حقاً إن لذة الانتصار على النفس هى أعمق من اللّذة بأية شهوة أخرى.

٢- وإن تعبت من ضغط الشهوات. لا تيأس وتظن أنه لا فائدة..

انظر إلى ما تستطيع نعمة اللّه أن تعمله من أجلك. وليس إلى ما تعجز أنت من عمله. ولا تظن في مقاتلة الشهوات أنك تحاربها وحدك. فهناك معونة سمائية تسندك فيما يستمر جهادك الروحي.

٣- تذكر انتصارات الذين تابوا. ولا تضع أمامك ضعفك وانهزاماتك السابقة.

إن اللّه الذي أعان مشاهير التائبين سيُعينك أيضاً. فجاهد كثيراً في صلواتك. ولا تخجل من الصلاة. حتى وأنت في عُمق الخطية! فإن اللّه سوف ينظر إلى رغبة قلبك. ويقويك. ويزيل منك ضعف إرادتك.

***

١. **اسلك في الوسائط الروحية. وفي كل ما يقوّي قلبك في محبة الفضيلة..**

٢. وثِق أنه سيأتي الوقت الذي تصبح فيه كفّة الخير هى الراجحة في حياتك. لأن حُب الفضيلة هو في طبيعة الإنسان. وكل شهوات الخطيئة هى دخيلة عليه.. إن العالم بعد أن خضع لعبادة الأصنام على مدى أجيال طويلة عاد مرّة أخرى إلى اللّه. وهكذا أيضاً لم يستمر الإلحاد في بلاد كثيرة. بل عاد إليها الإيمان وقضى على فلسفة الإلحاد.

٣. **ابعد عن كل مصادر الشهوة حتى لا تتعمّق في قلبك. وكن حازماً مع نفسك.** لا تطِعها في كل ما تطلبه. وإنما على قدر طاقتك قاوم تلك الرغبات. وأحط نفسك ببيئة صالحة تساعدك على ترك ما أنت فيه.

١٦/١١/٢٠٠٤

الحروب الروحية "ب"

تكلّمنا في المرة السابقة عن الحروب الروحية التي تأتي من داخل الإنسان. أعني من أفكاره وشهواته. واليوم نتحدّث عن الحروب الروحية التي من الخارج: من الشيطان. أو من الناس سواء كان أعداء أو أحباء. أو من البيئة. ومن المادة والعالم.

حروب من الشيطان

حروب الشيطان إمّا أن تكون بطيئة طويلة المدى. أو أن تكون فجائية وعنيفة. الحروب البطيئة قد لا يشعر الشخص بها. بل الشيطان يجذب بها ضحاياه بتدرج طويل. لا يكادون يشعرون فيه بما يحدث لهم!

يحذرهم قليلاً قليلاً. وينقص من حرارتهم الروحية شيئاً فشيئاً على مدى واسع. حتى تتغيّر حياتهم روحيّاً وهم لا يدركون ذلك إلاّ بعد فوات الفرصة. حين يضربهم بعد ذلك ضربته الشديدة وهم غير مُستعدين لها! كإنسان مثلاً يغرقه الشيطان مدة طويلة في حياة الترف أو في مُتعة الرئاسة والسُّلطة أو في الشهرة. فيتراخى في روحياته بتدريج لا يشعر به. حتى يصل إلى حالة من الفتور الروحي يستغلها الشيطان لإسقاطه.

***

أمّا الحروب العنيفة الفجائية. فقد تشبه الرؤى والأحلام الكاذبة. التي يضلله بها. أو غيرها من أنواع الضلالات الشيطانية. أو بعض أنواع المناظر المفزعة التي حارب بها بعض القديسين.

على أن اللّه لا يسمح للشيطان بأن يستخدم مثل هذه الحروب العنيفة مع كل أحد. إلاّ مع القادرين على احتمالها. ذلك لأن اللّه لا يسمح بأن يُجرّب البشر فوق ما يطيقون. كما أن الشيطان ليس مُطلَق الحرية في حروبه. على أن حروب الشيطان ليست كلها فزعاً ومناظر كما حدث للقديس الأنبا أنطونيوس. وليست كلها أمراضاً وخراباً كما حدث لأيوب الصديق.

فهنـاك حـروب أخرى من الشيطان بأفكـار يُلقيها فـي الذهن. أو شـهوات يُلقيها فـي القلب..

وهذه الحروب تكون ضعيفة في أولها. لأنها ليست نابعة من داخل الإنسان. بل هي غريبة عليه. وتظل هكذا ضعيفة. إلى أن يفتح لها هذا الإنسان باباً تدخل منه إلى قلبه ومشاعره. وهنا يكون قد أخطأ.. إنها خيانة روحية منك أن تفتح أبوابك الداخلية لعدو الخير الذي يريد أن يحطّم ملكوت اللّه داخلك. خيانة منك لمحبة اللّه أن تُدخِل في قلبك ما يشاء الشيطان به أن يُبعِدك عن الحياة مع اللّه ووصاياه.. وفي خيانتك. إذ ترفض عمل النعمة فيك. حينئذ يقوى عليك الشيطان.

***

لا تحتج بأن حروب الشيطان قوية. إنك تجعلها قوية حينما تستسلم لها.

أمّا إن قاومت الشيطان. فسوف يضعف أمامك. ويعمل لك حساباً في حروبه المقبلة. إن القلب القوي الثابت في طاعة وصايا اللّه. والأمين في محبّته. يستطيع أن يُطفئ جميع سهام الشيطان المُلتهبة.. عندما كان قلب موسى النبي قوياً. تضاءلت أمامه قوة فرعون وكل جيشه. ولم تخفه أمواج البحر.. وأنت كلّما كان قلبك من الداخل قويّاً. فسوف لا تضعف مُطلَقاً أمام حروب الشياطين. كل ما يعمله الشيطان أن يُقدِّم لك أفكاراً ومقترحات. دون أن يرغمك. ويترك الأمر لإرادتك تقبلها أو لا تقبلها. وهو يسعد بقبولك. إن قاومته ورفضته. يحترمك ويخافك. أمّا إن ضعفت أمام عروضه. فإنك تعطيه كرامة ليست له. وتمنحه الفرصة في أن يتجرأ عليك.. لذلك لا تخف من الشيطان لئلاً يقوى عليك. احترم نفسك في التعامل معه.

***

من أمثلة حروب الشيطان المعروفة: حروب الشك في اللّه:

الشك في وجود اللّه. أو في رعايته للبشر. ومن تلك الأفكار نتج الملحدون. الذين قال بعضهم إن اللّه يعيش في برج عالي في السماء. لا يهتم بشئون البشر. ويترك الفقير إلى جوار الغني. لذا أنشأوا الاشتراكية الملحدة. وكلها وأمثالها يغرسها الشيطان في الأذهان. ويسمّيها فلسفة!

ويعد أن يلقي الشيطان بفكر الإلحاد. يتبعه بفكر اليأس

فيقول لضحيّته "لا خلاص لك وقد أنكرت وجود اللّه"!! فإذا ما أوصله إلى هذا الحد. يقول له "ما دام لا نصيب لك في السماء. تمتع إذن بما تشاء على الأرض"!! وبهذا يقوده إلى حياة الاستهتار.. وفي كل ذلك يقول له "وما أدراك أن هناك سماء وحياة أخرى؟!".

***

ويحاول الإنسان أن يقاوم الفكر. ولكنه يلح عليه ويستمر ... ومقاومته للفكر تدل على أن الفكر مُحاربة من الشيطان. وليس سقوطاً...

نصيحتي لك: لا تيأس. ولا تظن أنك سقطت. واستمر في مقاومة الفكر. واستعن بالصلاة ليخلّصك اللّه. وحاول أن تغيرّ مجرى أفكارك إلى غيرها.

كذلك امتنع عن القراءات التي تجلب لك الشك وفي سائر المُسلّمات الثابتة في الضمير. وكذلك ابعد عن المُعاشرات الرديئة التي تسبّب لك مثل هذه الأفكار. وادرس عكسها من الناحية الايجابية.

***

ومن محاربات الشيطان أيضاً السحر والتنجيم وما يشابهه:

على أنه ليس كل ما يظنه الناس سحراً هو سحر بالحقيقة. فالسحر الحقيقي غالباً ما يكون مصحوباً بما يشبه الأعاجيب. التي هى مجرّد أمور Fantastic تخلب الذهن ولكنها من ضلالات الشياطين.. أمّا ما يُسمّيه الناس "العمل" ويخافونه. فلعلّه بعض الحيل البشرية لخداع البسطاء واستغلالهم.

كذلك من محاربات الشيطان التنجيم. وكل الطرق الأخرى في ادعاء معرفة المستقبل. لأنه لا يعرف المستقبل والخفيات إلاّ اللّه وحده.

***

من حروب الشيطان أيضاً عرضه المعونة في إيجاد حلول وتحقيق رغبات!!

فقد يعرض مساعدته - بطرقه الشيطانية - أن يوصّل الشخص إلى ما يبتغي. وبهذا يوقعه في وسائط خاطئة. ولكنها تحقّق غرضاً! فإن كانت لك رغبة ولم تجد حلاً. فلا تقبل تعاون الشيطان معك لتحقيقها. فالشيطان إذا أعانك على تحقيق رغباتك. سرعان ما يجعلك أنت من أعوانه.

نقطة أخرى من مصادر الحروب الخارجية هى:

الصداقات الضارة

أعني بها الصداقات التي تضرّك في روحياتك. أو في عقيدتك. أو في فكرك. والتي تتلف قلبك ومشاعرك. لذلك أنصحك باختيار أصدقائك الذين يؤثّرون عليك بأفكارهم. بحيث يكونون من النوع ذي التأثير الفاضل.. كما أنصح بحُسن اختيار شركائكم في الحياة الزوجية. لأن لهم بلا شك تأثيراً على حياتكم الروحية إن علوّاً أو هبوطاً.

فالأزواج في تأثيرهم أكثر عُمقاً من الأصدقاء أو المعارف أو الزملاء

الصديق قد يلتقي بك في أوقات مُحدّدة. أمّا الزوج فهو شريك الحياة باستمرار. فيجب أن يكون انتقاؤه صالحاً من كل جهة. ليس من الناحية الاجتماعية فحسب. بل أيضاً من النواحي الروحية والعقائدية. ويكون ذلك الانتقاء بعُمق. ولا يصح الاكتفاء فيه بالمظاهر والشكليات.

ولنضع أمامنا ذلك المبدأ: إن المعاشرات الرديئة تُفسِد الأخلاق الجيدة.

***

ما أكثر الآباء والأمهات الذين يُفسِدون تربية أبنائهم: إمّا بالقسوة. أو بالتدليل الزائد. أو بالقدوة السيئة التي يُقدّمونها لهم. أو بالتدخُّل المُسيطر في خصوصياتهم. ممّا يضعف شخصياتهم. ويفقدهم الخبرة وحُسن التصرُّف. كذلك الزوج غير المُتدين. الذي يجر زوجته إلى نفس الضياع الذي هو فيه. ويسخر من تدينها. ولا يعطيها فرصة لمُمارسة حياتها الروحية.. وكل هذه مُحاربات روحية تأتي من الخارج: أحياناً بأسلوب هادئ. وأحياناً بضغوط.

والإنسان ربما لا يستطيع أن ينفصل عن مثل هذا النوع من أقاربه وأهل بيته. ولكن ينبغي أن يحب اللّه أكثر منهم. ويطيع اللّه أكثر منهم.. ولا يضحّي بروحياته أو بماله من مبادئ وقيم. مجاملة لأقربائه..! لأنه هكذا يُعلّمنا الدين: "ينبغي أن يُطاع اللّه أكثر من الناس".

ومع ذلك فهناك نوع مُعيّن من الأقارب والأصدقاء ينبغي البُعد عنه. إن لم يكن ابتعاداً بالجسد. فعلى الأقل يكون بعدم الاشتراك معهم في أخطائهم. سواء في التصرُّف أو الحديث الخاطئ.

على أن البعض قد يمنعه الخجل من البُعد عن الخاطئين: أقارباً كانوا أو أصدقاء.. وبهذا يشتركون معهم في الخطأ بسبب الخجل..

وهنا ينبغي للإنسان الروحي أن يعرف أن هناك حدوداً للخجل. وأن هناك مواقف تحتاج إلى حزم وقوة شخصيته للبعد عن أسباب الخطية. لقد صدق المثل القائل "اسأل عن الرفيق قبل الطريق". فربما يؤثر عليك أحد أقربائك أو أصدقائك تأثيراً يتلف نفسك. أو يُدخِل إلى قلبك أو ذهنك أفكاراً أو مبادئ تقود حياتك في طريق خاطئ.

اعلم أن قريبك الحقيقي. هو الذي يُقرِّبك إلى اللّه وصديقك الحقيقي هو الذي يكون صدّيقاً. وصادقاً في إخلاصه لروحياتك ويكون صادقاً أيضاً في حفظه لسمعتك. وفي اهتمامه بخلاص نفسك..

***

ننتقل إلى نقطة أخرى من الحروب الروحية. وهى:

العثرات

العثرة هى ما يُسبِّب الخطية. وكل ما يُسبِّب السقوط للإنسان هى مُسبِّبات الخطية. سواء تجلب فكراً خاطئاً. أو شهوة خاطئة. وقد تأتي العثرات من السّمع أو النظر أو القراءة أو من باقي الحواس.. فعليك أن تبعد بقدر طاقتك عن كل مُسبِّبات الخطية. ولا تكون أنت عثرة لغيرك.

والعثرات ربما تفرض نفسها علينا. وربما نسعى نحن برغبتنا إليها.

فالتي تفرض نفسها تكون حرباً خارجية. والتي نسعى إليها تكون حرباً داخلية تطلب اشباعاً من الخارج. وفيها تجتمع الحربان الداخلية والخارجية. وهذه دينونتها أشد. والنجاة منها أصعب. وعلى الإنسان أن يقطع نفسه من الأحباء والأعزاء الذين تأتي بسببهم العثرات

لتفقده أبديته. وتجلب له حروباً خارجية لا يضمن هل سيصمد أمامها أم لا. المهم أن تبعد عن الحرب الخارجية ومُسبّباتها. ولا تقع فيها بإرادتك.

إن هناك عثرات تستهوي الإنسان. فيحوم حولها كما تحوم الفراشة حول النار.

تظل الفراشة تحوم حول النار حتى تحترق.. مع أنها ترى فراشات كثيرات قبلها حتى احترقت بالنار. إلا أنها لا تهدأ حتى تحترق مثلها.. هكذا الإنسان فيما يحوم حول العثرة إلى أن يضيع كما ضاع أمثال له من قبل... قد يوجد من يُعثرك ويسقطك. ثم يفلت هو وتضيع أنت. وقد يمكنه هو أن يتوب. وتجد أنت صعوبة في التوبة! لذلك احرص بكل قوّتك وبكل عمل النعمة فيك. أن تبعد عن الأمور المُتعثِّرة. وتهرب بذلك من كل حرب خارجية على قدر طاقتك.

***

ومن مصادر العثرات أنواع مُعيّنة من القراءات. والقراءات تؤثّر على أفكار الإنسان ومشاعره. وربما تشكّل مبادئه. وتقود مساره في الحياة.

هناك قراءات تجلب شكوكاً أو بلبلة وأخرى تثير مشاعر وشهوات. ولا يكفي الإنسان الروحي أن يبعد عن القراءات الضارة. إنما ينبغي إيجابيا أن يقرأ ما يُعمِّق في قلبه محبّة الفضيلة والخير. كما يكون هذا أيضاً إجراءً وقائياً له في الحروب الخارجية. وإن كان مُحبّاً للمعرفة. فليعلم تماماً أنه ليست كل معرفة نافعة. فقد توجد معارف تفقده بساطته. أو تفقده نقاوته. وتجعل نظرته إلى الأمور تتحوّل إلى أسوأ. فعليه أن يُدقِّق في القراءة اتقاءً لحروب خارجية. لأنه من مشاكل القراءة أيضاً أنها تلصق بالعقل أفكاراً ليس من السهل عليه أن يمحوها أو ينساها. وقد تحتاج إلى وقت طويل جداً حتى تفارق ذاكرته...

***

من مصادر الحروب الخارجية أيضاً: البيئة

إن كان بإمكانك أن تعيش في بيئة بارة فهذا هو الأفضل وإن لم تستطِع فلتصمد. ولا تجعل أخطاء البيئة تسيطر عليك وتصبح جزءاً من حياتك. بل جاهد. وثِق أن نعمة اللّه سوف تُعينك.

٢٠٠٤/١١/٢٣

الفضيلة من الداخل أم من الخارج

ما هو مقياس الفضيلة؟ هو مجرّد مظاهر خارجية. أمْ هو جوهر الإنسان من الداخل: في أوعية قلبه وفكره ونواياه؟

نقول هذا لأن الإنسان قد يكون في مظهره الخارجي شيئاً ما وفي حقيقته الداخلية شيئاً آخر!! قد يراه الناس في صورة مُعيّنة. ولكن اللَّه العارف بالقلوب يجده في صورة أخرى غير ما يراه الناس. والإنسان البار يهمه قبل كل شيء حُكم اللَّه عليه وحكم ضميره. وليس رأي الناس فيه. فالناس لا يعرفون دواخله. ويحكمون حسب الظاهر. نقول هذا لأن بعض الوعّاظ. والمُشرفين على التربية يركِّزون على المظهر الخارجي وحده. ولا يهتمون بنقاوة القلب من الداخل. ولا يعطونها ما تستحقه من الاهتمام الأول والرئيسي. وسنحاول أن نضرب لذلك بعض الأمثلة:

***

مثال واضح أمام الجميع. وهو العفة والحشمة:

أهم ما يشغل الناس في حشمة الفتاة مثلاً. هو الاهتمام بمظهرها. بملابسها وزينتها. وهل هى تتفق مع الحشمة أم لا. ولا شك أن مظهر الفتاة أمر هام. ولكن الأهم منه هو الباعث الداخلي الذي يكمن في القلب وراء عدم الحشمة. المفروض في رجال التربية أن يكون تركيزهم على الداخل. وهكذا إن كان القلب نقيّاً وتقيّاً. وقد تخلّص من المشاعر الخاطئة التي تدفع الفتاة إلى التبرُّج في زينتها. حينئذ هى نفسها من تلقاء ذاتها ستتخلى عن كل أخطاء الملابس والزينة. بدون أي ضغط عليها أو توبيخ أو عنف. بل بروح طيبة تلقائية ستسلك حسناً.

بل كما قال أحد الآباء أن الفتاة العفيفة تحتفظ بحشمتها حتى داخل غرفتها المُغلقة. حيث لا مراقبة ولا من ينتقدها..!

***

أمّا الإرغام على المسلك المُحتشم. فحتى إن كان يُصلح الشكل والمظهر. فإنه لا يُصلح القلب من الداخل. بل يبقى بنفس رغباته وشهواته. وربما يُضاف إليه بعض مشاعر من التذمُّر والكبت والضيق. مع انتظار أيّة فرصة للحرية والانطلاق. حيث لا رقيب. أمّا إذا تنقى القلب. فإنه حينئذ سينفّذ كل التوجيهات والنصائح برضى وقَبُول. أو قد لا يحتاج إلى نصائح. فمن ذاته يسلك حسناً.

وبالمثل نتحدّث عن الشاب الذي يطيل شعره. ويلبس ملابس غير لائقة. ويكون موضع انتقاد كشخص غير مُتديّن.

هذا الشاب يحتاج أن تتغيّر قيمه وموازينه من الداخل. فيعرف ما هى معاني الرجولة وقوة الشخصية؟ وأنه لا يستطيع أن يكتسب احترام الآخرين وتقديرهم بمنظره الزائف. فإن اقتنع بهذا من الداخل. فبلا شك سوف يغيّر مظهره. بدون توبيخ وبدون قهر أو زجر.

***

إن الإصلاح من الداخل هو أكثر ثباتاً ورسوخاً في النفس.

وبه ينصلح الإنسان بطريقة حقيقية بدافع من الاقتناع. ولا يقع في تناقض بين ما يريده هو. وما يريده له المرشدون. ولا يكون مُعرضاً لصراع بين داخله وخارجه. كما أنه لا يكون تحت ضغط بحيث يتلمّس ظروفاً للانفلات من هذا القهر الخارجي. فلنبحث إذن عن الأسباب الداخلية التي تدفع إلى الأخطاء الخارجية ونعالجها:

***

لنأخذ الكذب مثلاً كظاهرة. ونبحث أسبابها لنعالجها:

الشخص الذي يكذب: هل ستصلحه عظات عن مضار الكذب. أو توبيخ له على كذبه؟ أم أن الأعمق تأثيراً عليه وإصلاحاً له. أن ندخل إلى أعماقه. ونبحث ما هى الأسباب التي تجعله يكذب؟ هل السبب في الكذب هل تغطية خطأ مُعين يخشى من انكشافه؟ أم الرغبة في الحصول على منفعة ما؟ أو القصد من الكذب هو الافتخار والتباهي؟ أو التخلُّص من الإحراج؟ أو السبب هو الخجل؟ أمْ هى قد أصبحت عادة. بحيث يكذب حتى بلا سبب؟ أم هو يكذب بقصد الفكاهة. أو بقصد الإغاظة؟ أو التلذُّذ بالتهكم على الناس؟!

***

نبحث عن سبب الكذب ونُعالجه. ونقنع صاحبه بعدم جدواه. ونقدِّم له حلولاً عملية للتخلُّص من كذبه. أو بدائل لا خطأ فيها.

كالصمت مثلاً إذا أُحرج. أو الهرب من الإجابة بطريقة ما. أو الرد على السؤال بسؤال. أو الاعتذار عن الخطأ بدلاً من تغطيته بالكذب. وكذلك الاقتناع بخطأ التباهي. وخطأ التهكم على الناس. إن كان هذان من أسباب الكذب. مع الاقتناع أيضاً بفائدة كسب ثِقة الناس واحترامهم عن طريق الصدق. بدلاً من فقد ثِقتهم عن طريق الكذب. وهكذا نُعالج الداخل. فيزول الخطأ الخارجي تلقائياً.

***

وكما نهتم بالداخل. نهتم أيضاً بأعمالنا الخارجية. فالمفروض فينا أن نكون قدوة. كما أن أخطاءنا الخارجية تُسبِّب عثرة للآخرين.

والواجب أن يسلك الإنسان من الخارج مظهراً وفعلاً سلوكاً حسناً مع اعتبارين: أن يكون السلوك الطيب لإرضاء اللّه وليس فخراً. كما أن هذا السلوك الخارجي الطيب يكون طبيعياً نابعاً من نقاوة القلب. فإن كنت لم تصل إلى نقاوة القلب هذه. فاغصب نفسك على ذلك في سلوكك الخارجي. حتى لا تخطيء فتفقِد ثِقة الناس بك واحترامهم لك. ولا يُعتبر هذا لوناً من الرياء. إنما يكون في هذه الحالات لوناً من ضبط النفس. ولا شك أن ضبط النفس من الخارج لازم ومطلوب. ويدخل في نطاق التداريب الروحية التي يصل بها الإنسان إلى حياة النقاوة.

***

إذن نظّف داخلك ليتفق مع وضعك الخارجي السليم.. ولا تهبط بمستواك الخارجي. إن كان مستواك الداخلي غير سليم.

المفروض أن تكون نقيّاً من الداخل ومن الخارج. فحاول أن تصل إلى الأمريْن معاً. فإن بدأت بأحدهما. أكمل بالآخر أيضاً. احتراسك الخارجي ممدوح. ولكن لا تكن مُكتفياً به. بل أضف إليه النقاوة الداخلية. وليكن هذا هو تدريبك في كل الفضائل.

***خذ مثالاً هو الصوم: من جهة السلوك الخارجي والعمل الداخلي.**

ليس الصوم هو مجرّد فضيلة خارجية خاصة بالجسد وحده من جهة الامتناع عن الطعام وشهوات الأكل. إنما ينبغي أيضاً منع النفس عن الأخطاء. ويتمشّى المنع الداخلي

للنفس مع منع الجسد. فإن كان الإنسان لم يصل إلى هذا المستوى الروحي في داخله. فليس معنى هذا أن يكسر صومه ويفطر! وإلاّ يكون قد انحلّ جسداً وروحاً.. بل عليه أن يدرّب قلبه من الداخل. ليتمشى مع صوم الجسد من الخارج. ولو بالجهد والتدريب.

***

ويهذا يمكننا أن نضع قاعدة روحية للتوازن بين المستويين الداخلي والخارجي وهي:

إن كان أحد المستويين مُرتفعاً والآخر منخفضاً. ارفع المنخفض إلى مستوى المرتفع.

ولكن لا تكتف مُطلقاً بأن تسلك حسناً من الخارج. فاللّه ينظر أولاً إلى القلب. إنما جاهد باستمرار أن تنقّي قلبك. وأن يكون كل سلوكك الخارجي السليم هو مُجرّد تمهيد أو تدريب للعمل الجوّاني داخل النفس.

وكثيراً ما تكون التنقية الخارجية وسيلة للتنقية الداخلية:

مثال ذلك شاب تحاربه في داخله أفكار شهوانية جسدية لا تتفق مع حياة العفّة. وربما تسبّب له أحلاماً دنسة تتعبه.. أتراه يستطيع أن يسلك من الخارج هكذا. ليكون خارجه تماماً كداخله؟! كلاّ بلا شك. وإلاّ فإنه يضيّع نفسه. ويضيف إلى خطايا الفكر والقلب. خطايا العمل والحسّ والجسد. مثل هذا. عليه أن يحترس جداً من الخارج. وهذا الاحتراس الخارجي يساعده على النقاوة الداخلية. وبالتالي تخف عليه الحروب الداخلية.

***

لذلك. لا تيأس مُطلَقاً. ولا تقل ما فائدة النقاوة الخارجية. إذا كان الداخل دنساً؟! كلاّ. إن صمودك الخارجي يعني رفضك للخطيئة.

أضِف إليه صموداً آخر ضد الأفكار. وثِق أن اللّه سيُعينك عليها. ومن أجل أمانتك من الخارج. سيُرسل اللّه لك نعمة تنقذك من حرب الفكر في الداخل.. بل إن احتراسك من الخارج سيمنع عنك حروباً داخلية كثيرة. وعلى الأقل سوف لا تُحارب في ميدانين في وقت واحد. وحرصك من الخارج سيدخل عنصر الحرص في حياتك بصفة عامة. ولا يسمح للخطية أن يكون لها سُلطان عليك. حتى إن جاءتك الخطية في حلم. وأنت في غير وعيك. يكون عقلك الباطن متنبّهاً لها تماماً ورافضاً لها. وهكذا لا تخطئ في أحلامك أيضاً. هذا كله من الناحية السلبية. في رفض الخطأ. فماذا إذن من الناحية الإيجابية؟ نقول إنه إذا

تنقى القلب. تكون كل أعماله الفاضلة ذات دوافع روحية. ومن أجل اللّه وحده. وليس من أجل الذات.

* * *

فلا يفعل الإنسان الخير. من أجل أن تكبر ذاته في عينيه. ولا من أجل أن يكبر في أعين الناس.

وكلا الأمريْن يدخلان في نطاق خطيئة المجد الباطل. ويدفعان المرء إلى خطيئة الرياء. ويصبح هدفه من عمل الخير هو أن ينال مديحاً من الناس. وبهذا يهتم فقط بالمظهر الخارجي. حيث يراه الناس ويمجّدونه! وبالاهتمام بالمظاهر الخارجية. لا يصبح الخير الذي يفعله الإنسان خيراً حقيقياً مقصوداً لذاته. إذ قد امتزج بالخيلاء ومحبّة الذات ومحبّة المجد الباطل. ولا يكون هدفه نقيّاً.. إذ ليس هدفه حُبّ الخير. ولا طاعة اللّه. وليس هو صادراً عن نيّة طيبة ولا عن طبيعة نقيّة.

* * *

وهنا نسأل: هل معنى هذا أننا لا نفعل الخير مُطلَقاً أمام الناس. حتى لا نتعرّض إلى مديح منهم. وننال أجرنا على الأرض لا في السماء؟!

كلاّ. وإنما لا يكن هدفنا من الخير أن ننال مديحاً من الناس. بل نفعل الخير سواء رآنا الناس أمْ لم يرونا. مدحونا أمْ لم يمدحونا.. كذلك إن امتنعنا عن عمل الخير خوفاً من المديح. سنفقد رسالتنا كقدوة للناس. وقد نوقعهم في مذمّتنا. إذ لا يرون في حياتنا خيراً! ومن جهة المديح. كان الرُّسل والأبرار في كل جيل يقابلون بمديح من الناس وما زال المديح يلاحقهم حتى بعد موتهم ولم يكن في ذلك خطأ ولا خطيئة. ومن غير المعقول أن يتوقّف البار عن عمل الخير تماماً. لكي ينجو من مديح الناس!!

* * *

إذن كيف نوفق بين كل هذا. وبين فضيلة عمل الخير في الخفاء؟

إن هناك أعمالاً كثيرة لا بد أن تكون ظاهرة: مثل نجاحنا في أعمالنا. وتفوّقنا. وأمانتنا في كل مسؤولية تعهد إلينا. كذلك ذهابنا إلى أماكن العبادة. واشتراكنا في الصلوات العامة والأصوام العامة. ومساهمتنا في خدمة الآخرين وإعانتهم. والعضوية الفعّالة في كل أعمال البر. أترانا نترك كل هذا خوفاً من أن يظهر برّنا أمام الناس فيمدحوه؟! كلاّ، بلا شكّ.

فليست خطيئة أن يعرف الناس ما نفعله من الخير. إنما الخطيئة هى أن يكون الهدف من فعل الخير أن يراه الناس فيمدحوه.

فإن كنت تفعل الخير. وقلبك نقي من محبّة المظاهر. وليس هدفك أن يراك الناس.. إذن فلا تهتم مُطلقاً إن عرف الناس أنك فعلت ذلك.

***

في عمل الخير. كُن مُحباً للخير. ولا تكُن مُحباً للمديح.

وإن وصل المديح إلى أذنيك. لا تدعه يدخل إلى قلبك. بل أُذكر نعمة اللّه التي ساعدتك على عمل الخير. ولولاها ما كنت تستطيع أن تعمل شيئاً. وأهم من إخفائك فضائلك عن الناس. حاول أن تخفيها أيضاً عن نفسك. وذلك بأن تنسى الخير الذي عملته من فرط تفكيرك في خير أكبر تريد أن تفعله. مُصلّياً أن يمنحك الرب الفرصة لعمله. والقدرة على عمله. واشكر اللّه على معونته.



٢٠٠٤/١١/٣٠

الكآبة وأنواعها

ما هى الكآبة؟ وما مظاهرها. وما أسبابها؟ وما نتائجها. وما علاجها؟ هذا ما نود أن نتحدّث عنه في هذا المقال. مُفرّقين بين الكآبة السليمة. والكآبة السقيمة عرضاً كانت أو مرضاً...

ونذكر هنا أيضاً أنواعاً عديدة من الكآبة... منها الكآبة الروحية. والكآبة الطبيعية. والكآبة الخاطئة. والكآبة المرضية وعلاجها...

***

الكآبة الروحية

هى كآبة لأسباب روحية. وتكون مؤقتة. ومعها عزاء ورجاء وتنتهي غالباً بالفرح.

* مثال ذلك كآبة الإنسان بسبب أخطائه. أو وقوعه في خطيئة مُعيّنة. وهى كآبة يصحبها الندم. وتقود إلى التوبة. وإذا ما وصل صاحبها إلى التوبة. يتحوّل حزنه إلى فرح. وإلى عزاء داخلي في أعماق قلبه. إذ أنه قد بدأ في إصلاح سيرته...

* وقد يكون سبب الكآبة عاماً وليس خاصاً. حينما يحزن الأبرار بسبب الشر المُنتشر في العالم. وبسبب الإغراءات والانحرافات التي تسقط كثيرين. وتدفعهم كآبتهم إلى العمل على قيادة هؤلاء الخُطاة إلى طريق البر. وتسهيل عودتهم إلى اللّه. كل ذلك بمشاعر مُقدّسة وصلوات إلى اللّه. لكي تعمل نعمته ومعونته في إضاءة ضمائرهم.

***

الكآبة الطبيعية

من أمثلتها الحزن والبكاء على وفاة قريب أو صديق عزيز. أو الحزن على مرضه بأحد الأمراض المُستعصية أو الشديدة الألم. كذلك بسبب الكوارث والحوادث والخسائر.

وأيضاً الحزن بسبب الفشل في مشروع هام. أو الرسوب في أحد الامتحانات أو عدم التفوّق فيه. أو عدم الحصول على وظيفة.. كل هذا شيء طبيعي. لكنه لا يصح أن يستمر بدون رجاء..

الكآبة الخاطئة

وهى التي تحوي الخطيئة داخلها. ولها أمثلة عديدة..

١- منها كآبة شخص في قلبه شهوة خاطئة لم يستطِع تحقيقها..!

ذلك لأنه ليست كل الفُرص مُتاحة أمام الخاطئ لكي يكمّل شهواته. وربما تكون نعمة اللَّه هى التي سمحت بوجود صعوبات حتى لا يكمل بالعمل ما أراده بالقلب. من ذلك كآبة تلميذ فشل في الغش فلم ينجح.. وعلاج مثل هذه الكآبة هو علاج الدافع عليها. وذلك بتنقية القلب. حتى لا يشتهي ما هو خاطئ.

٢- هناك أيضاً كآبة سببها الغيرة والحسد وهنا خطيئة تقود إلى خطيئة أخرى. فعدم الفرح بنجاح الآخرين. تقود الغيرة منهم إلى حسدهم. ويقودهم كل ذلك إلى الكآبة.. والمفروض أن الغيرة تدفع الإنسان إلى الاجتهاد لكي يصل إلى ما وصل إليه غيره. وليس إلى الحسد والحزن.

٣- هناك كآبة أخرى سببها اليأس

اليأس أيضاً خطأ يقود إلى خطأ. وما يوصّل إلى اليأس هو خطأ آخر قاد إلى اليأس. والمثل يقول "إن فاتتك فرصة. فالتمس غيرها".. والإنسان المؤمن - إذ يتكل على اللَّه - يوقن أن اللَّه عنده حلول كثيرة. ويوقن أيضاً أن كل باب مُغلق. له مفتاح يفتحه. أو عدة مفاتيح. بينما اليأس يغلق الطريق أمامه. ويتركه حائراً وبلا حلّ...

٤- لذلك هناك كآبة إنسان ينحصر بالضيقات حزيناً بلا رجاء!

ونصيحتي لمثل هذا الإنسان: لا تجمع المشاكل معاً. وتكوّمها أمامك وتقف حزيناً. بلا حلّ. وبلا رجاء. وبلا تفكير في كيفية الخروج منها. وبلا اتكال على اللَّه. أو انتظاره لحلّها...

إن الكآبة التي بلا رجاء. هى كآبة خاطئة. حتى لو كانت بسبب طبيعي كالبكاء على ميت... لذلك إن أحاطت بك المشاكل. فرّقها. واجعل اللَّه بينك وبينها. فتختفي وتظهر معونة اللَّه.

٥- هناك نوع من الكآبة بسبب الحساسية الزائدة...

إذ قد يوجد شخص حسّاس جداً نحو كرامته. أو حساس جداً من جهة حقوقه. ومن جهة معاملات الناس له. فهو يتضايق جداً لأي سبب. أو لأتفه سبب. أو ربما بلا سبب!! ويريد مُعاملة خاصة. في منتهى الرّقة. وفي منتهى الدّقة. وفي منتهى الحرص. فإن لم يجدها - وطبعاً نادراً ما يجدها - حينئذ يكتئب... وربما يقوده هذا الاكتئاب إلى العزلة عن الناس. وإلى النفور من المجتمع. الذي - في نظره - لا يراعي شعوره!

٦- وهكذا يأتي الاكتئاب أيضاً للذين لا يعيشون في الواقع بل يرفضونه. ولا يضعون له سوى بديل خيالي لا يتحقّق...

فهُم ثائرون على وضعهم. ولكنهم لا يحاولون تغييره بطريقة عملية توصلهم إلى ما يريدون. إنما يكتفون بالثورة أو بالتذمُّر. ويبقون حيث هُم في كآبة وفي سخط على كل شيء...

وإن أتتهم سعادة مؤقتة. تتكوّن ببعض أحلام اليقظة. التي يعيشون فيها في خيال يتمنّونه. ثم يستيقظون من أحلامهم وخيالاتهم. ليجدوا الواقع كما هو. فيزدادوا سخطاً عليه. وتزداد كآبتهم تبعاً لذلك. نصيحتي إلى هؤلاء أن يكونوا واقعيين. فإمّا أن يعيشوا في قناعة تسعدهم. راضين بما عندهم وما هُم فيه. بل شاكرين أيضاً. وإمّا أن يعملوا على تغيير واقعهم عملياً. ولا يكتفون بالكآبة.

٧- وقد يتسبب الاكتئاب عن ضيق الصدر وعدم الاحتمال: فالإنسان الواسع الصدر والقلب. يستطيع أن يمرّر أشياء كثيرة تذوب في قلبه الواسع. ولا يضيق بها أو يكتئب بسببها. أمّا الذين لا يحتملون. فما أسهل وصولهم إلى الكآبة.. ولا شك أن سِعة الفكر تعالج الكآبة. فبدلاً من الاكتئاب بسبب المشكلات. يُفكِّر في حلّ لها. والإنسان الذكي إذا أحاطت به مشكلة أو ضيقة. بدلاً من إرهاق أعصابه ونفسيّته بالمشكلة ومتاعبها. يشغل ذهنه بإيجاد حلّ للخروج من المشكلة. فإن وجد الحل. يبتهج وتزول حدة المشكلة. وإن لم يجد. يصبر فربما بالوقت تنتهي المشكلة. أمّا الذي لا يستطيع أن يصبر. فلا شك أنه ضيق الصدر. وهذا تزداد كآبته. ويكون سببها قلّة الحيلة..

٨- وقد تحدث الكآبة بسبب حرب خارجية من عدو الخير. دون ما سبب ظاهر...

فالشيطان قد يغرس في النفس أسباباً للضيق. ولو يخترعها اختراعاً. أو يكبّر ويضخم في أسباب تافهة لا تدعو إلى الكآبة: أو يحاول أن يلهو بالإنسان. فكلّما يسعد بوضع. يغريه بأوضاع أخرى كأنها أفضل ممّا هو فيه! فإن وصل إليها. يُغريه بغيرها أو بوضعه الأول. وهكذا يوجده في جو من التردّد وعدم الثبات يكون سبباً في كآبته. مثال ذلك ما يحدث في فترة يكون فيها الحاصل على الثانوية العامة مُتحيراً في أيّة كلية يلتحق. أو المُقبل على الزواج. أية فتاة يختارها لتكون شريكة حياته؟ ويحتار وتوصّله الحيرة للكآبة! وهذا يقودنا إلى سبب آخر للكآبة هو الشك...

٩- الشك - إذا استمر - يحطّم النفس. ويجعلها في حالة كآبة وقلق:

سواء كان شكّاً في إخلاص صديق. أو في أمانة زوجة أو عفّتها. أو كان شكّاً في حفظ اللّه ومعونته. أو شكّاً في الإيمان.. أو قد يكون الشك في الطريق الذي يسلكه الإنسان. هل هو حسب مشيئة اللّه أم لا؟ أو قد يكون شكّاً في تدابير تدبّر ضده وهو لا يدري! أفكار الشك تخرج من العقل. لكي توجد عذاباً في النفس. وتقود - ليست فقط إلى الكآبة - بل أيضاً إلى تصرُّفات تتناسب في الخطأ مع نوع الشكوك وحدتها. مثل زوج يشك في عفّة زوجته. فيغلق عليها الأبواب والنوافذ. ويتجسّس عليها. ويسمح لنفسه أن يفتّش خطاباتها وأدراجها. ويحقّق معها في كل ما يشكّ فيه. ويجعل حياتها عذاباً. وقد تكون بريئة كل البراءة. ولكنه يُحاسبها على كل ابتسامة وكل كلمة. وعلى كل لقاء وكل حركة. حياته تصبح في جحيم. وحياتها تصبح في جحيم. وتكون للكآبة نتائج أخرى خطيرة. ننتقل إلى النوع الرابع من الكآبة. وهو الكآبة المرضية:

***

الكآبة المرضية

كما أن الشك المُسبِّب للكآبة. إذا تطوّر يتحوّل إلى مرض. كذلك الكآبة أحياناً تتطوّر وتتحوّل إلى مرض. فكيف؟

تضغط أفكارها على الإنسان حتى تحطّم كل معنوياته. وتزيل منه كل بشاشة. فكر الكآبة يلصق بالمريض ولا يُفارقه.. يكون معه في جلوسه وفي مشيه. في نومه وفي صحوه.

بأفكار سوداء كلّها حُزن وقلق وخوف.. وصور كئيبة أمامه بلا حل ولا رجاء. كآبة تضيع حياته وروحياته ونفسه وعقله. باقتناع داخلي أنه قد ضاع وانتهى...

كما يُخطئ ويقطع رجاءه في الخلاص وإمكانية التوبة. ويقطع رجاءه في مراحم اللّه. وهذه هي طريقة الشيطان التي يوقع بها الإنسان في اليأس والكآبة القاتلة.

***

وقد يكون من أسباب الكآبة المرضية: عُقدة الذنب...

* كأن يموت لشخص أب أو ابن. فيظن أنه السبب في موته. ويظل هذا الفكر يتعبه ويجلب له حُزناً لا ينقطع. ويظل يقول: ربما قصّرت في حقه. ولولا تقصيري ما مات! ويظل الشيطان يذكّره بمناسبات للتقصير.. ويقول في كآبته المرضية: ربما لو أحضرت له طبيباً أكثر شهرة. ما مات. ربما لو سافر إلى الخارج.. وهكذا تتبعه أفكار كثيرة.

* وربما سبب كآبته مرض له يظن أنه بلا شفاء! أو يتوقّع له نتائج خطيرة يصوّرها له الوهم والخوف.

***

والآن نذكر بعض أعراض هذه الكآبة وطُرق علاجها:

المريض بالكآبة قد يكون ساهماً باستمرار. كئيب الوجه والملامح. كثير الشكوى. تطحنه الأفكار السوداء بلا رجاء. وربما توصله إلى البكاء. يظن أنه ضاع وانتهى. أو ما ينتظره هو أسوأ ممّا هو عليه. وقد تحاول أن تصحّح له أفكاره. فلا يقبل. وقد ينظر إليك في يأس أو شكّ ويبكي. أو قد يقول لك سمعت مثل هذا كثيراً ولا فائدة! أو قد يرفض الحديث جملة بحجة عدم جدواه... ومشكلة هذا الشخص إمّا أنه لا يجد حلاً فتزداد كآبته. أو يجد الشخص الذي يستريح إليه. فيظل يتردّد عليه كثيراً. وفي كل مرة يقضي ساعات في الكلام والحوار. مُصرّاً على ما هو عليه. حتى يهرب منه الشخص المريح. فيتعبه هذا الهروب. ويرى أنه يفقد القلب الذي أراحه. وبهذا الفقد تزداد كآبته..

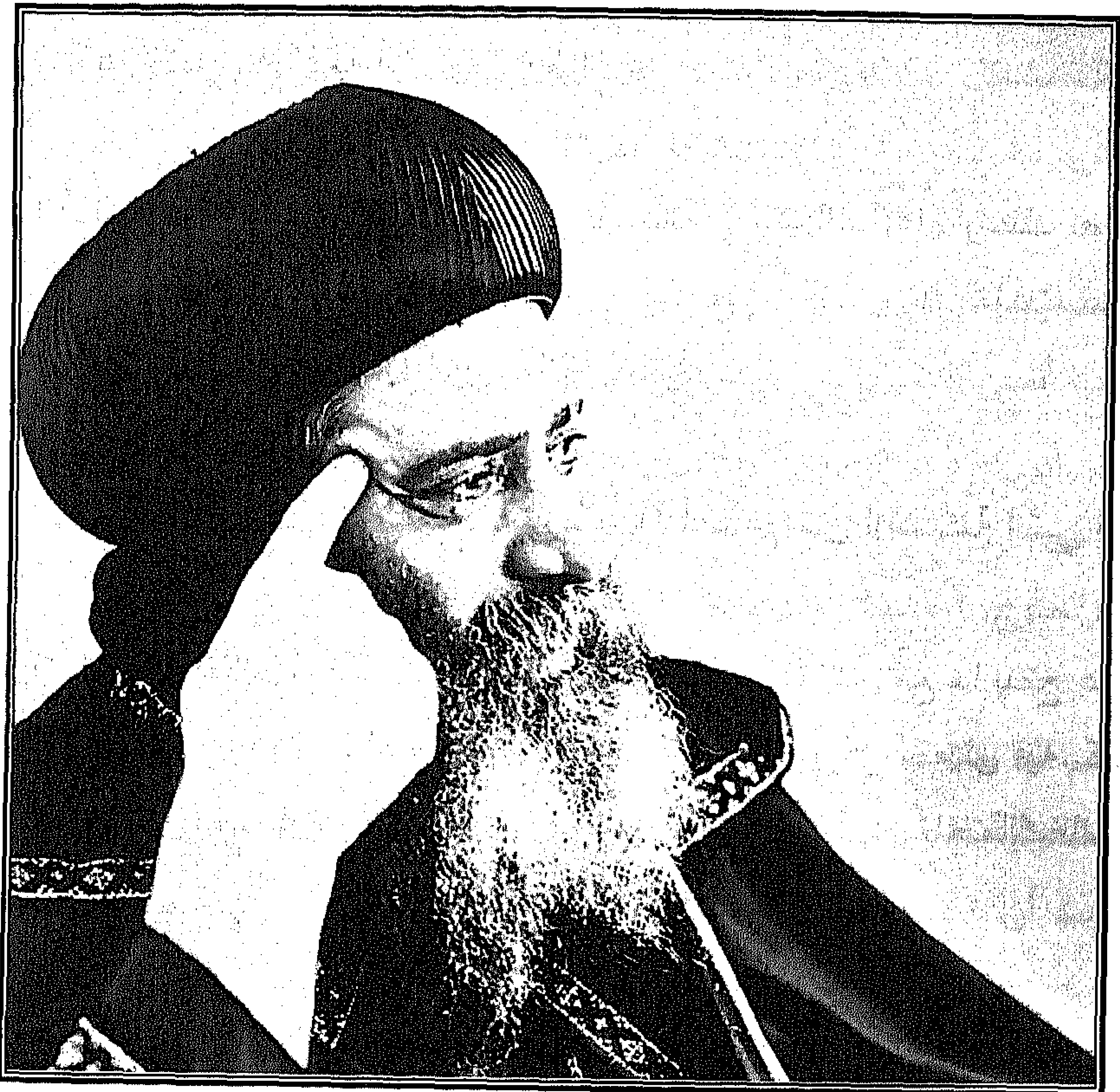
***

ومن جهة العلاج. هناك نوعان من المُصابين بالكآبة: نوع يرفض العزاء ويرفض التفاهم. ونوع يتشبّث بالفكر: كلّما يخرجونه منه. يعود إليه.

وكلّما يستريح من كآبته يعود إليها مرة أخرى. وربما تخطر عليه فكرة الانتحار. لكي يتخلّص من كآبته ومن يأسه!! وعموماً يكون للكآبة تأثيرها السيئ على صحته: من جهة إنهاك الأفكار له ولأعصابه. ومن جهة التعب النفسي وتأثيره على الجسد. وكذلك من جهة فكرة واحدة مسيطرة عليه لا يعرف كيف يخرج من حصارها له.

إنه مرض يتعبه. ويتعب كل الذين حوله. ويتعب طبيبه ومرشده.

فما هو العلاج إذن؟



٢٠٠٤/١٢/٧

٢- الكآبة وعلاجها Depression

أول علاج لك من كآبتك. هو أن توقن تماماً من أعماق قلبك وفكرك. أن الكآبة ليست علاجاً لمشاكلك.

تحدث لك مشكلة. كما أن جميع الناس تحدث لهم مشاكل. فتسبِّب لك هذه المشكلة حُزناً في قلبك أو ضيقاً. وهذا أيضاً يحدث لجميع الناس.. ولكنك أنت بالذات. تستمر معك الكآبة مدة أطول ممّا تستحق. حتى يلاحظ الناس أنها ليست كآبة طبيعية! ويحاولون أن يعزوك أو يخفِّفوا عنك. ولكنك بإصرار شديد ترفض أن تتعزى. فيسأم الناس من الحديث معك ويتركونك. فتجلس في كآبة أكثر وفي انطواء..

***

وهنا أسألك: هل استفدت شيئاً من كآبتك؟ هل عالجت مشكلتك وهل أراحتك نفسياً من الداخل. أم تعبت بالأكثر؟ وهل أراحتك من جهة علاقتك بالناس. أم تعقدت علاقاتك بالأكثر؟! لا شك أنك خسرت بالكآبة أكثر ممّا كنت تتوقع..

وأصبحت كآبتك بسبب المشكلة. هي مشكلة أضخم من المشكلة التي اكتأبت بسببها!!

وبقيت المشكلة الأولى لم تُحل.. مع إضافة مشكلة الكآبة إليها. ومع ما ينتج عن ذلك من انطواء. ومن سوء علاقة مع الناس. وخسارة الجو الهادئ الذي كنت تعيش فيه. كما أنك عرضت على الناس نقصاً فيك ما كانوا يعرفونه عنك.. وهو عجزك وعدم احتمالك للمشاكل. فلماذا كل هذا؟

***

كن واقعياً. وفكرّ في حلّ مشاكلك. ولا تركِّز على الاكتئاب. وإن لم تجد حلاً لمشكلتك. انتظر الرب.. أو احتمل وعِش في واقعك.

وإن اكتأبت بحكُم الطبيعة البشرية. لا تجعل هذه الكآبة تطول وتستمر. ولا تكشف نفسك هكذا أمام الناس. ولا تجعلهم ينظرون إليك في إشفاق. أو في يأس من تغيير حالتك.

حاول أن تكون أقوى من المشكلة. وإن لم تستطِع. حوّلها إلى اللّه الذي هو أقوى من الكل. والذي كل شيء مُستطاع عنده... وبعد ذلك انسها في يدي اللّه. ولا تعد تفكّر فيها.

هناك مشاكل كثيرة. يمكن أن تُحلّ بالإيمان والتسليم. وبالصلاة.

ولكن لا توجد مشكلة واحدة يمكن حلّها بالكآبة إذن عليك أن تؤمن بأن اللّه موجود. ولا بد أن يتدخّل. وأنه ضابط الكل. يرى كل شيء. ولا تفوته ملاحظة شيء. وهو يعرف متاعبك أكثر ممّا تعرفها أنت. ويُشفِق عليك أكثر ممّا تُشفِق على نفسك..

وما دام اللّه يهتم بك. فلا تحمل أنت هموماً على كتفيك. اتركها إلى اللّه.

هناك مشاكل يمكنك حلّها. وهناك مشاكل أخرى حلّها في تركها. أو حلّها في نسيانها. وربما تكون مشكلتك - التي تبدو لك بلا حلّ - هى من هذا النوع.

***

ولكن لعلّك تقول: كيف أنسى؟

كيف أنسى المشكلة. وهى لاصقة بذهني أكثر من التصاق جلدي بلحمي؟ أُفكّر فيها كل حين: في جلوسي وفي مشي. في وجودي وحدي. وفي وجودي مع الناس. لا أُفكّر إلاّ في مشكلتي. وإن قرأت. أسرح فيها. ولا أتحدّث في موضوع سواها. هى بالنسبة لي كالنَّفَس الداخل والخارج. أحسست أو لم أحسّ..!!

هنا. وأقدّم لك حلاًّ عملياً وهو:

المشغولية اشغل نفسك باستمرار. واهرب من هذا الفكر الكئيب.

لا بد أن تقتنع أن مداومة التفكير في المشكلة تضرّك من كل ناحية: تضرّك جسدياً وعصبياً ونفسياً. وترهقك. وتزيد المشكلة. وفي نفس الوقت لن تصل إلى حلّ. إذن اترك هذا التفكير المَرَضي. وفي صراحة قُلْ لنفسك: كفاني تعباً من هذا التفكير الذي لم يفدني شيئاً..

***

وإن لم تستطِع. اشغل نفسك بأي شيء يُبعد عنك الفكر المُرهق.

ومن هنا كان العمل المُستمر مُفيداً للذين يشكون من الكآبة. إلى أن يتعبوا من العمل. فيناموا في راحة. وتستريح أعصابهم من إرهاق الفكر لها.. كما أن العمل يُشعر الإنسان بأنه قادر على إنتاج شيء. أو قادر على تحمُّل مسؤولية. فيريحه هذا نفسياً. كما تُريحه ثمار عمله. وفي خلال ذلك يكون قد بَعُد عن الفكر..

غير أن البعض قد يرفضون العمل. أو يهربون منه. لكي يخلو عقلهم مع الفكر..!

الفكر المرضي أصبح - للأسف الشديد - يشكّل أهمية كبرى في نفوسهم لا يستغنون عنها. فهم يريدون أن يفكّروا في المشكلة. وأن يستمرّوا في هذه الدائرة المُفرغة التي لا تصل إلى حلّ.. فإن قبلوا العمل. تكون هذه علامة صحية. تدل على أنهم قبلوا الاستغناء عن الفكر - ولو قليلاً - في فترة العمل. وهذا حسنٌ جداً. مجرد قبولهم العمل. أمر مفيد. حتى لو كان ذلك تغصُّباً.. وتزداد حالتهم تحسُّناً. كلّما قبلوا العمل برضى. ووجدوا فيه مُتعة.

***

وأحياناً يكون رفضهم للعمل. بحُجة أن أعصابهم مُرهقة. وقدرتهم الجسدية لا تمكنهم من العمل..!

وهذه الحُجة قد تكون حقيقية عند البعض إلى حدّ ما.. وقد تكون وهمية عند البعض الآخر. أو يكون وراءها عامل نفسي.. مثل شخص كلّما يُعرض عليه العمل. يشعر بإعياء جسدي مُفاجئ. هو ردّ فعل لرغبته الداخلية في عدم العمل. على أية الحالات يكون العمل حسب الطاقة. وقد يكون أيضاً عن طريق التدرُّج. حسبما يقدر المُكتئب. وحسبما يستجيب للعمل. ويحسن عرض أعمال عليه. يختار منها ما يشاء أو ما يُناسبه.. فإن لم يقدر على العمل اليدوي. هناك أنواع أنشطة. وألوان من التسلية والترفيهات والقراءة قد تشغله. وهناك علاج آخر هو الموسيقى.

***

الموسيقى كعلاج

لا شكّ أن هناك أنواعاً من الموسيقى لها تأثير قوي على النفس. ويمكنها أن تريح وأن تهدّئ. وأن تُبعِد عن الإنسان جو الحزن والكآبة. وتنقله إلى أجواء أخرى.. ويمكن اختيار قطع الموسيقى المُفيدة التي لا تضر روحياً. وفي نفس الوقت يكون لها العُمق والتأثير. والقدرة على التفاعل مع المشاعر المتألّمة. وفتح أبواب من الرجاء أمامها.. ولا أظن أن الإنسان المُكتئب يرفض الموسيقى. كما أن الموسيقى ليس معناها الغناء. فهناك موسيقى عميقة لا يُصاحبها غناء.. والمفروض طبعاً البُعد عن الموسيقى الحزينة التي قد تُبقي المُكتئب في حُزنه وانطوائه.

***

إن الموسيقى هى علاج للنفس من الداخل. علاج للأحاسيس والمشاعر. وقد تكون أكثر تأثيراً من النصائح والعظات في كثير من الأحيان. وربما تشبهها في بعض الأوقات تراتيل وألحان مُعيّنة.

على أن البعض قد يلجأ إلى العلاج الكيميائي عن طريق العقاقير.

ولي ملاحظات على هذا العلاج . مع مقارنته بالعلاج النفسي. ثم أيضاً بالعلاج الروحي.

***

العلاج بالعقاقير

العلاج بالعقاقير قد يكون مقبولاً. حينما يكون المريض في حالة عصبية مُعيّنة. أو في حالة نفسية لا تقبل التفاهم ولا الحوار. أو في حالة تصميم شديد على ما هو فيه.. فيعطونه العقاقير للتهدئة لتهدئ أعصابه. ويصبح في حالة تسمح بالعلاج النفسي. كأن يكون هناك فكر يُرهق المريض جداً. ويضغط على أعصابه ونفسيته ضغطاً عنيفاً لا يحتمله. بل قد يطرد عنه النوم طرداً بسبب كثرة التفكير.

ولذلك فهو في حالة ماسة إلى فترة من الراحة. تهدأ فيها أعصابه. وبالتالي تهدأ نفسيته. وهنا يعطونه العقاقير كمُسكّنات أحياناً. أو لكي ينام ويستريح من الفكر... وهنا قد تبدو العقاقير ضرورة للمريض الهائج أو للمريض المُرهق. أو للذي يرفض الاعتراف بأنه

مريض.. نقول هذا مع اعترافنا بأضرار كثير من العقاقير وما تحدثه من أضرار جانبية Side effects . ولكن قد لا يجد الطبيب علاجاً غيرها في بعض الحالات الصعبة. ولكني أقول في صراحة:

***

لا يصح أن تكون العقاقير علاجاً دائماً. أو العلاج الوحيد. ولكن العلاج النفسي في موضوع الكآبة أفضل منها بكثير. حين يأتي موعده..

إن المريض قد يأخذ المُهدئات أو المسكنات أو المنوّمات. لكي يستريح من الفكر الذي يتعبه. وقد يهدأ أو ينام. ثم يصحو أو يَفيق. فيجد الفكر ما زال أمامه. فيأخذ قدراً آخر من العقاقير. وتتكرّر العملية.. وقد لا يأتي العقار بنتيجة. فتزداد الكمية المُعطاة له. أو يعطونه عقاراً آخر أو عقاراً أكثر تأثيراً. أو يُستبدل المُسكّن بمنوّم. ومن كثرة المنوّمات قد يترهّل جسمه. أو تضعف ذاكرته. أو يصبح في حالة "دروخة" مُستمرّة ويستمرّ الفكر المُتعِب معه. وهنا أُحبّ أن أقول حقيقة هامة وهى:

إن العقاقير ربما تكون لعلاج النتائج. وليس لعلاج الأسباب.

والأسباب هى الأفكار والمشاعر التي سبّبت الكآبة. وأيضاً أسباب هذه الأفكار والمشاعر. وأيضاً نوعية النفسية. ونوعية العقلية والتفكير. ما علاقة العقاقير بكل هذا؟ وإن عالجت سبباً. ربما تتلف إلى جواره شيئاً آخر. وإن جعلت المريض ينسى فكره المُرهق. ربما تؤثر على ذاكرته بوجه عام!

إن أسباب الكآبة قد يصلح لها العلاج النفساني بأسلوب أعمق. والمشكلة أن العلاج النفساني يحتاج إلى وقت وصبر.. ففي العلاج النفسي. يريد المريض أن يفرّغ كل ما في داخله. ويحكي ما يتعبه. وقد يستمرّ في ذلك بالساعات. والطبيب ليس لديه وقت. وبخاصة إذا تعوّد المريض الإطالة. بحكاية قصص لا تنتهي.. وهنا قد يسأم الطبيب. ولا يستمع للأكثر. فيتوقّف العلاج النفسي.

***

ونحن لا نلوم الطبيب. فقد يكون له عذره. وبخاصة إذا كان كلام المريض مُتكرِّراً. يعيد فيه ما تعب الطبيب في سماعه والتعليق عليه. وقد يحتج الطبيب بأن تدليل المريض لا يفيده بل قد يضرّه. ويشجّعه على إطالة الجلسة. أو يؤدِّي إلى وجود دالّة بينه وبين الطبيب. فيطلبه باستمرار. وفي أوقات عمله مع آخرين. وفي أوقات راحته.

لا شكّ أن العلاج النفساني ليس سهلاً. ويحتاج إلى صبر واحتمال. كما يحتاج أيضاً إلى حكمة. وإلى معرفة بالنفس البشرية..

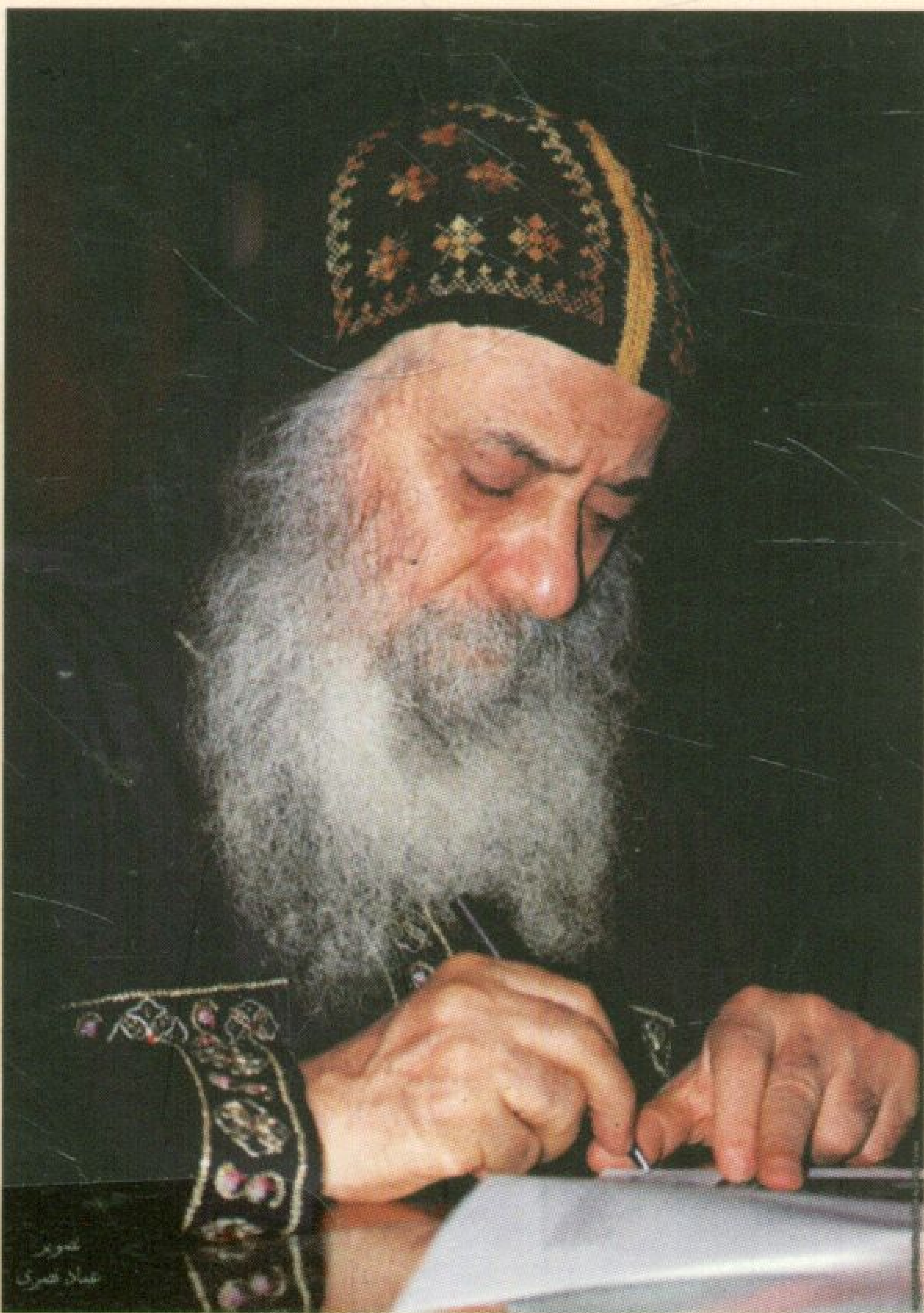
فقد يرى الطبيب أن شكوك المريض التي تتعبه ليست سليمة. وأن ما يُقدِّمه من أسباب لتعبه. هو كلام مبالغ فيه. ومجرد أوهام. بينما الحقيقة عكس ذلك تماماً. ويشرح كل ذلك للشخص المُكتئب. ومع ذلك يبقى مُصرّاً على فكره. بل ربما يشك أحياناً في الطبيب ذاته. وفي كفاءته أو إخلاصه!! إنه مرض.. لقد تحوّلت الكآبة من أفكار لها أسباب خارجية. إلى مرض.. وعلينا أن نبحث كل ذلك. لندخل في علاجه. بل لنقدِّم نوعاً آخر من العلاج هو العلاج الروحي.

وللبحث بقيّة...



بطريركية الأقباط الأرثوذكس
Coptic Orthodox Patriarchate

The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافى القبطى الأرثوذكسى



حياة الإنسان كثيراً ما تكون فيها
مواقف إختيار أو إختبار :
إلى أي الأمرين يتجه :
إلى الخير أم إلى الشر ؟!
وقد يظن المرء أن صالحه
يكون في جانب معين . وربما يكون
في هذا الجانب مغلوباً من الشر !
إنها مشكلة مبادئ ، أو مشكلة
مفاهيم ، أو مقاييس ..

شنوده

كانت جريدة الجمهورية أولى الصحف اليومية التي يكتب فيها قداسة البابا شنوده الث
أسبوعية، عقب جلوسه على الكرسي البابوي في ١٤ نوفمبر ١٩٧١م. وقد تمّ تجميعها ونشرها
عام ١٩٨٥م.

ونحن نُعيد نشر هذه المقالات التي كُتِبت في جريدة الجمهورية، ونرجو من الرب أن يستخ
كل مَنْ يقرأها من أبناء هذا الوطن، الذي يُحبّه قداسة البابا شنوده الثالث، ويُبادله المصريون

الأنبا
الأسقف العام

Coptic Orthodox Cultural Center
Coptic Orthodox Patriarchate-Anba Rueiss.
222 Ramsis St, Abbassiya, Cairo, Egypt.
Phone: + (202) 2488 2530 - 2482 6163
Fax : + (202) 2685 5541
E-mail: info@copticocc.org

www.copticocc.org

المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي
الكاتدرائية المرقسية بالأنبا رويس
٢٢٢ ش رمسيس بالعباسية - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٥٣٠ ٢٤٨٨ - ٦١٦٣ ٢٤٨٢ (٠٢)
فاكس: ٥٥٤١ ٢٦٨٥ (٠٢)
البريد الإلكتروني: info@copticocc.org